بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة يونس عليه السلام مكية)

الا فان كنت فى شك الآيتين أو الثلاث أو ومنهم من يؤمن به الآية مائة وتسع أو عشر آيات وعدد كلماتها ألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وحروفها سبعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفا وهى أوّل المئين ان جعلنا براءة مع الانفال من الطوال والافبراءة أولاهن (بسم الله) جامع العباد بعد تشريفهم بماله من العظمة والامتنان (الرحمن) الذى عمهم بالايجاد وخص منهم من شاء بالايمان (الرحيم) الذى خص أولياءه بالرضوان المبيح للجنان (الر) قال ابن عباس والضحاك الر أنا الله أرى و المر أنا الله أعلم وأرى وقيل أنا الرب لارب غيرى وقال سعيد بن جبير الر وحم ونون حروف اسم الرحمن وقد سبق الكلام على حروف الهجاء أوّل البقرة واتفقوا على أنّ الر وحده ليس آية واتفقوا على أنّ قوله طه وحده آية والفرق أنّ قوله تعالى الر لا يشاكل مقاطع الآى التى بعده بخلاف قوله تعالى طه فانه يشاكل مقاطع الآى التى بعده وقرأ قالون وابن كثير وحفص بفتح الراء والالف بعدها وورش بين اللفظين والباقون بالامالة المحضة (تلك) أى الآيات العظيمة جدا التى اشتملت عليها هذه السورة أو السورة التى تقدّمت هذه السورة أو هذه الحروف المقطعة المشيرة الى أنّ القرآن كلام الله تعالى قد أعجز القادرين على التلفظ بهذه الاحرف (آيات الكتاب) أى الذكر الجامع لكل خير وهو هذا القرآن الذى وافق كل ما فيه من القصص كل ما فى التوراة والانجيل من ذلك فدل ذلك على صدق الآتى به قطعا لانه لم يكن يعرف شيأ من الكتابين ولا جالس أحدا يعلمه (الحكيم)

أي المحكم وقوله تعالى (أكان للناس) أي أهل مكة استفهام انكار للتعجب وقوله تعالى (عجبا) خبر كان والعجب تغير النفس بما لا تعرف سببه مما خرج عن العادة ثم ذكر الحامل على العجب وهو اسم كان بقوله تعالى (أن أوحينا) أي ايحاؤنا (الى رجل منهم) أي من أهل مكة ومن قريش وهو محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون صدقه ونسبه وأمانته قيل كانوا يقولون العجب ان الله تعالى لم يجد رسولا يرسله الى الناس الا يتيم أبي طالب وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الامور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة وهو لم يكن صلى الله عليه وسلم يقصر عن عظمائهم فيما يعتبر فيه الا في المال وخفة المال أهون شئ في هذا الباب ولذلك كان أكثر الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك وقد قال تعالى وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى (أن أنذر الناس) عامة أي أعلمهم مع الخوف ما أمامهم من البعث وغيره وأن هي المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول (وبشر الذين آمنوا) اتماعهم في الانذار لانه قل أن يسلم أحد من كبيرة أو صغيرة أو هفوة جامله أو حقيرة على اختلاف الرتب وتباين المقامات وخصص البشارة اذ ليس للكافر ما يصح أن يبشر به (أن) أي بأن (لهم قدم) أي سلف (صدق عند ربهم) اختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة في معنى قدم صدق فقال ابن عباس أجرا حسنا مما قدموا من أعمالهم وقال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه وقال عطاء مقام صدق لا زوال له ولا بؤس فيه وقال زيد بن أسلم هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأضيف القدم الى الصدق وهو نعته كقولهم مسجد الجامع وصلاة الاولى وحب الحصيد وقال أبو عبيدة كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم قال الشاعر

صل لذي العرش واتخذ قدما * ينجيك يوم العثار والندم

وهو مؤنث فيقال قدم حسنة وقدم صالحة وقوله تعالى (قال الكافرون ان هذا لسحر مبين) قرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر بكسر السين وسكون الحاء على أن الاشارة للقرآن المشتمل على ذلك والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء على أن الاشارة للنبي صلى الله عليه وسلم (ان ربكم) الموجد لكم والمربي والمحسن هو (الله الذي خلق) أي قدر وأوجد (السموات والارض) على اتساعهما وكثرة ما فيهما من المنافع (في ستة أيام) من أيام الدنيا أي في قدرها لانه لم يكن ثم شمس ولو شاء لخلقهما في لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت (فان قيل) ان اليوم قد يراد به اليوم مع ليلته وقد يراد به النهار وحده فما المراد (أجيب) بأن الغالب في اللغة أنه مراد باليوم اليوم بليلته ولما أوجد سبحانه وتعالى هذا الخلق الكبير المتباعد الاقطار الواسع الانتشار المفتقر الى عظيم التدبير ولطيف التصريف والتقدير عبر سبحانه وتعالى عن عمله فيه عمل الملوك في ممالكهم بقوله مشيرا الى عظمته بأداة التراخي (ثم استوى) أي عمل في تدبيره واتقان ما فيه واحكامه عمل المعتني بذلك (على العرش) المتقدم وصفه في الاعراف بالعظمة وليست ثم للترتيب بل كناية عن علو الرتبة وبعد منازلها ثم بين ذلك الاستواء بقوله (يدبر

(الامر) كله فلا يخفى عليه عاقبة أمر من الامور لان التدبير اعدل أحوال الملك فالاستواء كناية عنه وقوله تعالى (ما من شفيع الا من بعد اذنه) تقرير لعظمته جل وعلا ورد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وفيه اثبات الشفاعة لمن أذن له (ذلكم الله) أى الموصوف بتلك الصفات المقتضية للالوهية والربوبية (ربكم) أى الذى يستحق العبادة منكم (فاعبدوه) أى وحدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو انسان فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع فان عبادتكم مع الشريك ليست عبادة ولولا فضله لم يكن لمن زل آدمى زلة طاعة وقوله تعالى (أفلا تذكرون) قرأه حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء فى الاصل فى الذال أى فلا تتفكرون أدنى تفكر فينبئكم عن أنه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه (اليه) تعالى (مرجعكم) أى رجوعكم بالموت والنشور حالة كونكم (جميعا) لا يتخلف منكم أحد فاستعدوا للقائه وقوله تعالى (وعد الله) مصدر منصوب بفعله المقدر مؤكد لنفسه لان قوله تعالى اليه مرجعكم وعد من الله وقوله تعالى (حقا) أى صدقا لا خلف فيه مصدر آخر منصوب بفعله المقدر مؤكد لغيره وهو ما دل عليه وعد الله (انه يبدأ الخلق) أى يحييهم ابتداء (ثم يعيده) أى ثم يميتهم ثم يحييهم وفى هذا دليل على الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكرى البعث ووقوعه لان القادر على خلق هذه الاجسام المؤلفة والاعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر على اعادتها بعد تفريقها بالموت والبلى فيركب تلك الاجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الانسان الاول مرة أخرى فاذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه ايصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصى وهو قوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أى بالعدل لا ينقص من أجورهم شيأ (والذين كفروا لهم شراب من حميم) وهو ماء حار قد انتهى حره (وعذاب أليم) أى بالغ فى الايلام (بما كانوا يكفرون) أى بسبب كفرهم (هو الذى جعل الشمس ضياء) أى ذات ضياء (والقمر نورا) أى ذا نور وخص الشمس بالضياء لانه أقوى وآكد من النور وخص القمر بالنور لانه أضعف من الضياء لان الشمس نيرة فى ذاتها والقمر نير بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها وقرأ قنبل بهمزة مفتوحة ممدودة بعد الضاد والباقون بياء مفتوحة والضمير فى قوله تعالى (وقدره منازل) يرجع الى الشمس والقمر أى قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل أو يرجع الى القمر فقط وتخصيصه بالذكر لسرعة مسيره ومعاينة منازله واناطة أحكام الشرع به ولذلك علله بقوله تعالى (لتعلموا عدد السنين والحساب) أى حساب الاوقات من الاشهر والايام فى معاملاتكم وتصرفاتكم لان الشهور المعتبرة فى الشريعة مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة فى الشريعة هى السنة القمرية كما قال تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهرا فى كتاب الله * (فائدة) * منازل القمر ثمانية وعشرون منزلا وأسماؤها الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعوا والسماك والغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة

وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت وهذه المنازل مقسومة على البروج وهي اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت فلكل برج منزلان وثلث فينزل القمر في كل ليلة منها منزلا فيستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان كان تسعا وعشرين فليلة واحدة فيكون انقضاء الشهر مع نزوله تلك المنازل ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يوما فيكون انقضاء السنة مع انقضائها وانتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وبحركة الشمس تنفصل السنة الى هذه الفصول الاربعة وبالفصول الاربعة تنتظم مصالح هذا العالم وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل والنهار يكون زمانا للتكسب وللطلب والليل يكون زمانا للراحة (ما خلق الله ذلك) المذكور (الا بالحق) أى لم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا تعالى الله عن ذلك اظهارا لقدرته ودلائل وحدانيته ونظيره قوله تعالى فى آل عمران ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا وقال تعالى فى سورة أخرى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا (يفصل) أى يبين (الآيات) أى الدلائل الباهرة واحدة فى اثر واحدة بيانا شافيا (لقوم يعلمون) فانهم المنتفعون بالتأمل فيها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بالياء والباقون بالنون * ولما استدل سبحانه وتعالى على اثبات الالهية والتوحيد بقوله تعالى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض وثانيا بأحوال الشمس والقمر استدل ثالثا بقوله تعالى (ان فى اختلاف الليل والنهار) أى بالمجىء والذهاب والزيادة والنقصان ورابعا بقوله تعالى (وما خلق الله فى السموات) من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك (و) ما خلق الله فى (الارض) من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك *(فائدة)* أقسام الحوادث فى هذا العالم محصورة فى أربعة أقسام أحدها الاحوال الحادثة فى العناصر الاربعة ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والامطار ويدخل فيها أيضا أحوال البحار والصواعق والزلازل والخسف وثانيها أحوال المعادن وهى عجيبة كثيرة وثالثها اختلاف أحوال النبات ورابعها اختلاف أحوال الحيوانات وجملة هذه الاقسام الاربعة داخلة فى قوله تعالى وما خلق الله فى السموات والاستقصاء فى شرح هذه الاحوال لا يدخل تحت الحصر بل كل ما ذكره العقلاء فى أحوال أقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب (لآيات) أى دلالات على قدرته تعالى (لقوم يتقون) الله فانه يحملهم على التفكر والتذكر وخصهم بالذكر لانهم المنتفعون بها قال القفال من تدبر فى هذه الاحوال علم أن الدنيا مخلوقة لشقاء الناس فيها وان خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل واذا كان كذلك فلابد من أمر ونهى ثم من ثواب وعقاب ليتميز المحسن عن المسىء فهذه الاحوال فى الحقيقة دالة على صحة القول باثبات المبدا واثبات المعاد * ولما أقام الله سبحانه وتعالى الدلائل القاهرة على صحة القول باثبات الاله الرحمن وعلى صحة القول باثبات الاله الرحيم الحكيم

وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر شرع فى شرح أحوال من يكفر بها وشرح أحوال من يؤمن بها وقد أشد أبأولها ووصفه بأربع صفات مبتدئا بأولها بقوله تعالى (ان الذين لا يرجون لقاءنا) أى لا يخافونه لانكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف وبمعنى الطمع فمن الاول قول العرب فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه قوله تعالى مالكم لا ترجون لله وقارا ومنه قول أبى ذؤيب الهذلى * اذا لسعته النحل لم يرج لسعها * أى لم يخفها ومن الثانى قولهم فلان يرجو فلانا أى يطمع فيه والمعنى لا يطمعون فى ثوابنا والصفة الثانية والثالثة قوله تعالى (ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) فيعملون لها عمل المقيم فيها مع ما يشاهدونه من سرعة زوالها منهمكين فى لذاتها وزخارفها وسكنوا فيها سكون من لا ينزع عنها والصفة الرابعة قوله تعالى (والذين هم عن آياتنا) أى دلائل وحدانيتنا (غافلون) تاركون النظر فيها بمنزلة الغافل عن الشئ الذى لا يخطر بباله طول عمره ذكر ذلك الشئ وبالجملة فهذه الصفات الاربعة دالة على شدة بعدهم عن طلب الاستعداد بالسعادات الاخروية ويحتمل أن الصفة الاخيرة لفريق آخر ويكون المراد بالاولين من أنكر البعث ولم يرد الا الحياة الدنيا وبالآخر من الهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل والاعداد له ولما وصفهم الله تعالى بتلك الصفات قال (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) من الشرك والمعاصى ولما شرح أحوال المنكرين الجاحدين ذكر تعالى شرح من يؤمن بها فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والاعمال الصالحة عبارة عن الاعمال التى تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة والاعمال المذمومة ما يكون بالضد من ذلك (يهديهم) أى يرشدهم (ربهم بايمانهم) أى بسبب ايمانهم الى سلوك سبيل يؤدى الى الجنة أو لما يريدونه فى الجنة أو لادراك الحقائق كما قال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم وقال مجاهد المؤمنون يكون لهم نور يمشى بهم الى الجنة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة والكافر اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة فيقول أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار ومفهوم ترتب الهداية على الايمان والعمل الصالح قد دل على أن سبب الهداية هو الايمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله جل وعلا بايمانهم على استقلال الايمان بالسببية وان العمل الصالح كالتتمة والرديف ثم انه تعالى لما وصفهم بالايمان والاعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم وهى أربعة الاولى قوله تعالى (تجرى من تحتهم الانهار فى جنات النعيم) أى يكونون جالسين على سرر مرفوعة فى البساتين والانهار تجرى من بين أيديهم ينظرون اليها من أعالى أسرتهم وقصورهم ونظيره قوله تعالى قد جعل ربك تحتك سريا فهى ما كانت قاعدة عليه ولكن المعنى بين يديك وكذا قوله وهذه الانهار تجرى من تحتى أى بين يدى فكذا هنا الثانية قوله تعالى (دعواهم فيها) قال بعض المفسرين أى طلبهم لما يشتهون فى الجنة أن يقولوا (سبحانك) أى ننزهك من كل سوء ونقيصة (اللهم) أى يا الله فاذا ما طلبوا

بين أيديهم على موائد كل مائدة ميل فى ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة فى كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله تعالى فذلك قوله تعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين أو أن المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله تعالى والثناء عليه بما هو أهله وفى هذا الذكر سرورهم وابتهاجهم وكمال لذاتهم وهذا أولى ويدل عليه ما روى عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس أى يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقا الثالثة قوله تعالى (وتحيتهم) فيما بينهم وتحية الملائكة لهم (فيها) أى الجنة (سلام) وتأتيهم الملائكة أيضا من عند ربهم بالسلام قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وقال تعالى سلام قولا من رب رحيم الرابعة قوله تعالى (وآخر دعواهم) أى وآخر دعائهم (أن الحمد لله رب العالمين) أى أن يقولوا ذلك وأن هى المخففة من الثقيلة وقد ذكرنا أن بعض المفسرين حمل التسبيح والتحميد على أحوال أهل الجنة بسبب المأكول والمشروب فانهم اذا اشتهوا شيأ قالوا سبحانك اللهم فيحصل ذلك الشئ فاذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فترتفع الموائد عند ذلك قال الرازى وهذا القائل مارق نظره فى دنياه وأخراه عن المأكول والمشروب وحقيق بمثل هذا الانسان أن يعد فى زمرة البهائم وأما المحققون فقد تركوا ذلك اهـ ولا تنبغى هذه المبالغة فقد قاله البغوى وتبعه جماعة من المفسرين وقال الزجاج أعلم الله ان أهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه قال البيضاوى المعنى انهم اذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الاكرام ولما وصف الله تعالى الكفار بأنهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وكانوا عن آيات الله غافلين بين ان من غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب جهلا منهم وسفها بقوله تعالى (ولو يعجل الله للناس الشر) أى ولو يعجل الله للناس اجابة دعائهم بالشر فيما لهم فيه مضرة ومكروه (استعجالهم بالخير) أى كما يحبون أن يعجل لهم اجابتهم بالخير (لقضى اليهم أجلهم) أى لاهلكهم ولكن يمهلهم نزلت فى النضر بن الحرث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ويدل عليه قوله تعالى (فنذر) أى فنترك (الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم) أى فى تمردهم وعتوهم (يعمهون) أى يترددون متحيرين وقال ابن عباس هذا فى قول الرجل عند الغضب لاهله وولده لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم انى أتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه انما أنا بشر فأى المؤمنين اذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها الى يوم

القيامة (فان قيل) قابل التعجيل فى الآية بالاستعجال وكان مقتضى النظم أن يقابل التعجيل بالتعجيل والاستعجال بالاستعجال أجيب بأن تقدير الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير فحذف منه ما حذف لدلالة الباقى عليه وقال فى الكشاف أصل هذا الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم بالخير الا أنه وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم بالخير اشعارا بسرعة اجابته لهم واسعافه بطلبتهم حتى كان استعجالهم بالخير تعجيل لهم * ولما حكى تعالى عنهم انهم يستعجلون فى نزول العذاب بين انهم كاذبون فى ذلك الطلب والاستعجال بقوله تعالى (واذا مس الانسان) أى الكافر (الضر) أى المرض والفقر (دعانا لجنبه) أى على جنبه مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الاحوال أو لاصناف المضار والمعنى أنه لو نزل بالانسان أدنى شئ يكرهه ويؤذيه فانه يتضرع الى الله تعالى فى ازالته عنه وفى دفعه عنه وذلك يدل على أنه ليس صادقا فى طلب الاستعجال (فلما كشفنا عنه ضره) أى أزلنا عنه ما نزل به (مر) أى مضى على ما كان عليه من الكفر (كان لم يدعنا) أى كانه فأسقط الضمير على سبيل التخفيف ونظيره قوله تعالى كان لم يلبثوا (الى ضر مسه) قال الحسن نسى ما كان دعا الله فيه وما صنع الله به فى ازالة ذلك البلاء عنه وانما حمل الانسان فى هذه الآية على الكافر لان العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة وقول بعضهم كل موضع فى القرآن ورد فيه ذكر الانسان فالمراد هو الكافر مردود فقد قال تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه وأما المؤمن اذا ابتلى ببلية ومحنة وجب عليه رعاية أمور أولها أن يكون راضيا بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه وانما وجب عليه ذلك لانه تعالى مالك على الاطلاق وملك بالاستحقاق فله أن يفعل فى ملكه ما شاء ولانه تعالى حكيم على الاطلاق وهو منزه عن فعل العبث فكل ما فعله فهو حكمة وصواب فيجب عليه الصبر وترك القلق فان أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل وان أزالها عنه فهو فضل وثانيها أنه فى ذلك الوقت ان اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلا عن الدعاء كان أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ولان الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ولاشك ان الاول أفضل وثالثها أنه تعالى اذا أزال عنه تلك البلية وجب عليه أن يبالغ فى الشكر وأن لا يخلو عن ذلك الشكر فى السراء والضراء وأحوال الشدة والرخاء فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء وحينئذ يكون المؤمن على الضد من الكافر لان الكافر منهمك فى الشهوات والاعراض عن العبادات كما قال تعالى (كذلك) أى مثل ما زين لهؤلاء الكافرين هذا العمل القبيح (زين للمسرفين) أى المشركين (ما كانوا يعملون) من القبائح لاعراضهم عن الذكر واتباعهم الشهوات وانما سمى الكافر مسرفا لانه أتلف نفسه بتضييعها فى عبادة الاوثان وأتلف ماله فى البحيرة والسائبة والوصيلة والمزين هو الله تعالى لانه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف

فيهم كيف شاء وقيل هو الشيطان وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك والاول أخس وأحقر (ولقد أهلكنا القرون) أى الامم الماضية (من قبلكم) يا أهل مكة (لما ظلموا) أى حين أشركوا وقوله تعالى (وجاءتهم رسلهم بالبينات) أى بالحجج الدالة على صدقهم حال من الواو باضمار قد أو عطف على ظلموا (وما) أى والحال أنهم ما (كانوا ليؤمنوا) أى وما استقام لهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية لعلمه تعالى بأنهم يموتون على كفرهم واللام لتأكيد النفى (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء العظيم وهو اهلاكهم لما كذبوا رسلهم (نجزى القوم المجرمين) أى نجزيكم يا أهل مكة بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم وانهم اعلام فيه (ثم جعلناكم) أى أيها المرسل اليهم أشرف رسلنا (خلائف) جمع خليفة (فى الارض من بعدهم) أى استخلفناكم فيها بعد القرون التى أهلكناها استخلاف من يختبر (لننظر) ونحن أعلم بكم من أنفسكم فى علم الشهادة لاقامة الحجة (كيف تعملون) من خير أو شر فنجازيكم به وقد مر نظائر هذا ومنه قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم ان الدنيا خضرة حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون وقال قتادة صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء الا لينظر الى أعمالنا فأروا الله من أعمالكم خيرا بالليل والنهار قال الزجاج وموضع كيف نصب بقوله تعملون أى لا معمول ننظر لانها حرف استفهام والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله لان له صدر الكلام فلا يتقدمه عامله وظاهر كلامه أن كيف مفعول لتعملون وجمهور النحاة على أنه حال من ضمير تعملون (واذا تتلى عليهم) أى واذا قرئ على هؤلاء المشركين (آياتنا) أى القرآن الذى أنزلناه اليك يا محمد حالة كون تلك الآيات (بينات) أى ظاهرات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك (قال الذين لا يرجون لقاءنا) أى لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لانهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكر البعث بعد الموت فانه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا (ائت) أى من عندك (بقرآن) أى كلام مجموع جامع لما نريد (غير هذا) فى نظمه ومعناه (أو بدله) بألفاظ أخرى والمعانى باقية وقد كانوا عالمين بأنه صلى الله عليه وسلم مثلهم فى العجز عن ذلك ولكنهم قصدوا أن يأخذ فى التغيير حرصا على اجابة مطلوبهم فيبطل مدعاه أو يهلك واختلف فى هذا القائل فقال قتادة هم مشركو أهل مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن أمية الجمحى والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو ابن عبد الله بن أبى قيس العامرى والعاصى بن عامر بن هشام قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن ليس فيه ترك لعبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وان لم ينزله الله فقل أنت من عند نفسك أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة أو مكان حرام حلالا أو مكان حلال حراما ولما كان كأنه قيل فماذا أقول لهم قال الله تعالى (قل) لهم (ما يكون) أى ما يصح (لى) ولا يتصور بوجه من الوجوه (أن أبدله من تلقاء) أى قبل (نفسى) وانما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الاتيان بقرآن آخر وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الباء والباقون بالسكون (ان) أى ما (أتبع الا ما يوحى الى) فيما

أمر كم به أو أنهاكم عنه أي لا آتي بشيء ولا أذر شيئا من نحو ذلك الاتبعا الوحي الله تعالى وأوامره وان نسخت آية تبعت النسخ وان بدلت آية مكان آية تبعت التبديل وليس الى تبديل ولا نسخ (اني أخاف ان عصيت ربي) أي بتبديله (عذاب يوم عظيم) فاني مؤمن به غير مكذب ولا شك كغيري ممن يتكلم الهذيان بما لا يخاف عاقبته في ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو لي واني بفتح الياء والباقون بالسكون (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله (لو شاء الله ما تلوته عليكم) أي لو شاء الله لم ينزل هذا القرآن ولم يأمرني بقراءته عليكم (ولا أدراكم به) أي ولا أعلمكم به على لساني وقرأ ابن كثير بخلاف عن البزي بقصر الهمزة بعد اللام جواب لو أي لأعلمكم به على لسان غيري والباقون بالمد المنفصل وقوله تعالى (فقد لبثت) أي سكنت قراءة نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء عند التاء والباقون بالادغام (فيكم عمرا) سنين أربعين (من قبله) أي قبل أن يوحى الى هذا القرآن لا أتلوه ولا أعلمه ففي ذلك اشارة الى أن هذا القرآن معجز خارق للعادة وتقريره ان أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول عمره الى ذلك الوقت وكانوا عالمين بأحواله وأنه ما طالع كتابا ولا تلمذ لاستاذ ولا تعلم من أحد ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الاصول ودقائق علم الاحكام ولطائف علم الاخلاق وأسرار قصص الاولين وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء وكل من له عقل سليم فانه يعرف أن مثل هذا لا يحصل الا بالوحي والالهام من الله تعالى (أفلا تعقلون) أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أن مثل هذا الكتاب العظيم على من لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتابا ولم يمارس مجادلة أنه لا يكون الا على سبيل الوحي من الله تعالى لا من مثلي وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من اضافة الافتراء اليه * (تنبيه) * أقام صلى الله عليه وسلم بعد أن أوحي اليه بمكة ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة قال النووي ورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها أنه توفي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهي أصحها وأشهرها وتأولوا رواية ستين بأن راويها اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس أيضا متأولة وحصل فيها اشتباه ولما أقيمت الدلائل على أن هذا القرآن من عند الله وجب أن يقال انه ليس في الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه من منكر ذلك كما قال تعالى (فمن) أي لا أحد (أظلم ممن افترى) أي تعمد (على الله كذبا) أي أي كذب كان من شريك أو ولد أو غير ذلك وكان الاصل مبنيا على تقدير أن يكون هذا القرآن من عند الله ولكنه وضع هذا الظاهر مكانه تعميما وتعليقا للحكم بالوصف (أو كذب بآياته) أي دلائل توحيده فكفر بها كما فعلتم أنتم وذلك من أعظم الكذب وقوله تعالى (انه) أي الشأن (لا يفلح) بوجه من الوجوه (المجرمون) أي المشركون تأكيد لما سبق من هذين الوصفين (ويعبدون) أي هؤلاء المشركون (من دون الله) أي غيره (ما لا يضرهم) أي

ان لم يعبدوه (ولا ينفعهم) أى ان عبدوه وهو الاصنام لانها حجارة وجماد لاتضر ولا تنفع والكافرون قادرون على التصرف فيها تارة بالاصلاح وتارة بالافساد واذا كان العابد أصلح حالا من المعبود كانت العبادة باطلة لان العبادة أعظم أنواع التعظيم فلا تليق الا بمن يضر وينفع بان يثيب على الطاعة ويعاقب على المعصية وكان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة يعبدون العزى ومناة وهبل واسافا ونائلة (ويقولون هؤلاء) أى الاصنام التى نعبدها (شفعاؤنا عند الله) ونظيره قوله تعالى اخبارا عنهم مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وقيل انهم وضعوا هذه الاصنام والاوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان أولئك الاكابر يكونون شفعاء لهم عند الله قال الرازى ونظيره فى هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الاكابر على اعتقاد أنهم اذا عظموا قبورهم فانهم يكونون شفعاء لهم عند الله اه ولكن تعظيمهم لهؤلاء ليس كتعظيم الكفار وفى هذه الشفاعة قولان أحدهما أنهم يزعمون أنها تشفع لهم فيما يهمهم من أمور الدنيا فى اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا لا يعتقدون بعث الموت والثانى أنهم يزعمون أنها تشفع لهم فى الآخرة ان يكن بعث قاله ابن جريج عن ابن عباس وكانهم كانوا شاكين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة موجدهم الضار النافع الى عبادة مايعلم قطعا أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما يشفع لهم قال النضر بن الحرث اذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى وقوله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين (أتنبئون) أى تخبرون (الله) وهو العالم بكل شئ المحيط بكل محيط (بما لا يعلم) أى لا يوجد له به علم فى وقت من الاوقات استفهام انكار تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الاصنام واعلام بأن الذى انبؤا به باطل غير منطو تحت الصحة فكأنهم يخبرونه بشئ لا يتعلق به علمه وقوله تعالى (فى السموات ولا فى الارض) تأكيد لنفيه لان مالم يوجد فيهما فهو منتف معدوم وهذا على طريق الالزام والمقصود نفى علم الله بذلك الشفيع وأنه لا وجود له البتة لانه لو كان موجودا لكان معلوما لله تعالى وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب أن لا يكون معلوما موجودا وهذا مثل مشهور فى العرب فان الانسان اذا أراد نفى شئ عن نفسه يقول ماعلم الله ذلك منى ومقصوده أنه ماحصل ذلك الشئ منه قط ولا وقع (سبحانه) أى تنزيها له عن كل شئ فيه شائبة نقص (وتعالى عما يشركون) ما مصدرية أو موصولة اى عن اشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب لقوله أتنبئون الله والباقون بالياء على الغيبة فكأنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم قل أنت سبحانه وتعالى عما يشركون ويجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى هو الذى نزه نفسه عما قالوه فقال سبحانه وتعالى عما يشركون * ولما أقام تعالى الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة الاصنام بين السبب فى كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد بقوله (وما كان الناس الا أمة واحدة) أى جميعا على الدين الحق وهو دين الاسلام وقيل على الضلال فى فترة الرسل واختلف القائلون بالاول أنهم متى كانوا كذلك فقال ابن عباس ومجاهد كانوا على دين الاسلام من لدن

آدم الى أن قتل قابيل هابيل وقال قوم الى زمن نوح وكانوا عشرة قرون ثم اختلفوا في عهد نوح فبعث الله تعالى اليهم نوحا وقال آخرون كانوا على دين الاسلام من زمن نوح بعد الغرق حيث لم يذر الله على الارض من الكافرين ديارا الى أن ظهر الكفر فيهم وقال آخرون من عهد ابراهيم عليه السلام الى زمن عمرو بن لحي وهذا القائل قال المراد من الناس في قوله تعالى وما كان الناس الا أمة واحدة العرب خاصة (فاختلفوا) بأن ثبت بعض وكفر بعض (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهو تأخير الحكم الى يوم القيامة وقيل تلك الكلمة هي قوله سبحانه سبقت رحمتي غضبي فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة اسبال الستر على الجاهل الضال وامهاله الى وقت الوجدان (لقضي بينهم) أي الناس بنزول العذاب في الدنيا دون يوم القيامة (فيما فيه يختلفون) من الدين باهلاك المبطل وابقاء المحق وكان ذلك فصلا بينهم (ويقولون) أي كفار مكة (لولا) أي هلا (أنزل عليه) أي محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) أي غير ما جاء به كما كان للانبياء من الناقة والعصا واليد (فقل) يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين (انما الغيب) أي ما غاب عن العباد أمره (لله) أي هو المختص بعلمه ومنه الآيات فلا يأتي بها الا هو وانما على التبليغ (فانتظروا) أي نزول ما اقترحتموه وقيل نزول العذاب ان لم يؤمنوا (اني معكم من المنتظرين) أي لما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحودكم الآيات وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة في الآيات رقيقة المسلك بين المعجزات مع عجزكم عن معارضته بتبديل أو غيره فأي عناد أعظم من هذا (واذا أذقنا الناس) أي كفار مكة (رحمة) أي صحة وسعة (من بعد ضراء) أي شدة وبلاء (مستهم) سلط الله تعالى القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم فأنزل عليهم المطر الكثير حتى اخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا الى العناد والكفر كما قال تعالى (اذا لهم مكر في آياتنا) بالاستهزاء والتكذيب وقيل لا يقولون هذا من رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فيصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا والنوء عند العرب هي منازل القمر اذا طلع نجم سقط نظيره (قل الله) أي قل لهم يا محمد الله (أسرع مكرا) منكم أي أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء ومعنى الوصف بالاسرعية أنه قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم والمكر اخفاء الكيد وهو من الله تعالى اما الاستدراج أو الجزاء على المكر فانهم لما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بأشد منه وهو امهالهم الى يوم القيامة (ان رسلنا) أي الحفظة الكرام الكاتبين (يكتبون ما تمكرون) لانهم وكلوا بكم قبل كونكم نطفا ولم يوكلوا بكم الا بعد علم موكلهم بكل ما تفعلونه ولا يكتبون مكركم الا بعد اطلاعهم عليه وما هو سبحانه وتعالى فانه اذا قضى قضاء لا يمكن أن يطلع عليه رسله الا باطلاعه فكيف بغيرهم واذا تبين أنه عالم بأمورهم وهم جاهلون بأموره علم أنه لا يدعهم يدبرون كيدا الا وقد سبب له ما يجعله في نحورهم وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بالرفع ثم أخذ سبحانه وتعالى يبين ما يتضح به أسرعية مكره في مثال دال على ما في

الآية

الآية قبلها الان المعنى الكلى لايصل الى أفهام السامعين الابذكر مثال جلي واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلى فقال (هو الذى يسيركم) أى يحملكم على السير فى كل وقت تسيرون فيه لاتقدرون على الانفكاك عنه ويمكنكم منه (فى البر والبحر) أى يسبب لكم أسبابا توجب سيركم فيهما وقرأ ابن عامر بعد الياء الاولى بنون ساكنة بعدها شين معجمة مضمومة والباقون بسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة مشددة ولما كان العطب بسير البحر أظهر مع أن السير فيه من أكبر الآيات وأوضح البينات بينه معرضا عن ذكر البر بقوله تعالى (حتى اذا كنتم) أى كونا لا براح لكم منه (فى الفلك) أى السفن (فان قيل) كيف جعل الكون فى الفلك غاية للتسيير فى البحر مع أن الكون فى الفلك متقدم لامحالة على التسيير فى البحر (أجيب) بأنه لم يجعل الكون فى الفلك غاية للتسيير بل تقدير الكلام كأنه قيل هو الذى يسيركم حتى اذا وقع فى جملة تلك التسييرات الحصول فى الفلك كان كذا وكذا ولفظ الفلك يطلق على الواحد وعلى الجمع فان أريد الواحد كان كبناء قفل أو الجمع كان كبناء حمر والمراد هنا الجمع لقوله تعالى (وجرين بهم) أى بمن فيها وعدل عن الخطاب الى الغيبة للمبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الانكار والتقبيح والالتفات فى الكلام عن الغيبة الى الحضور والعكس فى فصيح كلام العرب (بريح طيبة) أى لينة الهبوب (وفرحوا بها) أى بتلك الريح وبالفلك الجارية بها وقوله تعالى (جاءتها) جواب اذا والضمير للفلك أو للريح الطيبة بمعنى تلقتها (ريح عاصف) أى شديدة الهبوب فأزعجت سفينتهم وأساءتهم (وجاءهم الموج) أى وجاء ركاب السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من ضراب الماء فى البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه (من كل مكان) أى يعتاد مجئ الموج منه فأرجف قلوبهم (وظنوا أنهم أحيط بهم) أى فظنوا ان الهلاك قد أحاط بهم وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن أحاط بهم العدو (دعوا الله مخلصين) أى من غير اشتراك به (له الدين) أى الدعاء لانهم لايدعون حينئذ غيره لان الانسان فى هذه الحالة لايطمع الا فى فضل الله ورحمته ويصير منقطعا عن جميع الخلق ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعا الى الله تعالى وقوله تعالى (لئن أنجيتنا من هذه) الشدائد التى نحن فيها وهى الريح العاصفة والامواج الشديدة (لنكونن من الشاكرين) على ارادة القول أو مفعول دعوا لانه من جملة القول أى لنكونن من الشاكرين لك بالايمان والطاعة على انعامك علينا بانجائنا مما نحن فيه من هذه الشدة (فلما أنجاهم) أى هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التى كانوا فيها اجابة لدعائهم (اذا هم يبغون) أى فاجأوا الفساد وسارعوا الى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصى (فى الارض) أى جنسها (بغير الحق) * فان قيل البغى لايكون بحق فما معنى قوله بغير (أجيب) بأنه قد يكون بحق كاستيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة فان ذلك افساد بحق قال صاحب المفردات البغى على ضربين أحدهما غير محمود وهو مجاوزة الحق الى الباطل والى الشبهة والآخر كفعل المسلمين ما ذكر (يا أيها الناس انما بغيكم) أى ظلمكم (على أنفسكم)

امود وبالعلماء خاصة قال صلى الله عليه وسلم أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله تعالى فى الدنيا البغي وعقوق الوالدين وعن ابن عباس لو بغى جبل على جبل لدك الباغي وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين فى أخيه

يا صاحب البغي ان البغي مصرعة * فاربع فخير فعال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوما على جبل * لاندك منه أعاليه وأسفله

وعن محمد بن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغي والنكث والمكر وعلى تقدير الانتفاع بالبغي هو عرض زائل كما قال تعالى (متاع الحياة الدنيا) أى لا يتهيأ لكم بغي بعضكم على بعض الا أياما قليلة وهي مدة حياتكم مع قصرها وسرعة انقضائها (ثم الينا) بعد البعث (مرجعكم) فى القيامة (فننبئكم) أى فنخبركم (بما كنتم تعملون) فى الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها وقرأ حفص متاع بنصب العين على أنه مصدر مؤكد أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا والباقون بالرفع على أنه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته أو خبر مبتدا محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر بغيكم ولما قال تعالى يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا أتبعه بمثل عجيب ضربه لمن يبغي فى الارض ويغتر بالدنيا ويشتد تمسكه بها ويقوى اعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها بقوله تعالى (انما مثل الحياة الدنيا) أى حالها العجيبة فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد اقبالها واغترار الناس بها والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالاول (كماء أنزلناه) وحقق أمره وبينه بقوله تعالى (من السماء فاختلط به) أى بسببه (نبات الارض) أى اشتبك بعضه ببعض والاختلاط تداخل الاشياء بعضها فى بعض (مما يأكل الناس) من الحبوب والثمار ونحو ذلك (و) مما يأكل (الانعام) من الحشيش ونحوه (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) أى حسنها وبهجتها من النبات (وازينت) باظهار ألوان زهرها من أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الزهور كالعروس اذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين واصل ازينت تزينت أبدلت التاء زايا وأدغمت فى الزاى (وظن أهلها) أى أهل تلك الارض (انهم قادرون عليها) أى متمكنون من تحصيل جذاذها وحصادها (أتاها أمرنا) أى قضاؤنا من البرد والحر المفرط أو غيره (ليلا أو نهارا) أى فى الليل أو فى النهار (فجعلناها) أى زرعها (حصيدا) اى كالمحصود بالمناجل وقوله تعالى (كأن) مخففة أى كأنها (لم تغن) أى لم تكن (بالامس) تلك الزروع والاشجار قائمة على ظهر الارض وحذف المضاف من فجعلناها ومن كأن لم تغن للمبالغة * (تنبيه) * تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوها الاول ان عاقبة هذه الدنيا التي ينفقها المرء فى باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذى حين عظم الرجاء فى الانتفاع به وقع الياس منه لان الغالب أن المتمسك بالدنيا اذا وضع قلبه عليها وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت وهو معنى قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون أى خاسرون الدنيا وقد أنفقوا أعمارهم فيها وخاسرون من الآخرة مع أنهم توجهوا اليها الثاني أنه تعالى بين

أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة محمودة فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد مع أن المنافع التي تحصل فيها مخلوطة بالمضار والمتاعب فان سعادة الدنيا غير خالصة من الآفات بل هي ممزوجة بالبليات والاستقراء يدل عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من طلب مالم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق فقيل يارسول الله وماهو قال سرور يوم بتمامه الثالث أن مالك ذلك البستان لما عمره باتعاب النفس وكد الروح وعلق قلبه على الانتفاع به فاذا حصل ذلك السبب المهلك صار العناء الشديد الذي تحمله في الماضي سببا لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل وهو ما يحصل له في قلبه من الحسرات فكذا حال من وضع قلبه على الدنيا وأتعب نفسه في تحصيلها فاذا مات وفاته كل ما فات صار العناء الذي تحمله في تحصيل أسباب الدنيا سببا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة (كذلك) أي مثل هذا التفصيل الذي ذكرناه (نفصل الآيات) أي نبينها (لقوم يتفكرون) لانهم المنتفعون بها ولما نفر تعالى الغافلين عن الميل الى الدنيا بالمثل السابق رغبهم في الآخرة بقوله تعالى (والله يدعو) أي يعلق دعاءه على سبيل التجدد والاستمرار بالمدعوين (الى دار السلام) قال قتادة السلام هو الله وداره الجنة وسمى سبحانه وتعالى بالسلام لانه واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغير وسلم من احتياجه في ذاته وصفاته ومن الافتقار الى الغير وهذه الصفة ليست الا له سبحانه كما قال تعالى والله الغني وأنتم الفقراء وقال تعالى يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله وقيل السلام بمعنى السلامة وقيل المراد بالسلام الجنة سميت الجنة دار السلام لان أهلها يحيي بعضهم بعضا بالسلام والملائكة تسلم عليهم قال الله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ومن كمال رحمته وجوده وكرمه على عباده أن دعاهم الى الجنة التي هي دار السلام وفيه دليل على أن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لان العظيم لا يدعو الا الى عظيم ولا يصف الا عظيما وقد وصف الله تعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه وعن جابر قال جاءت ملائكة الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا ان صاحبكم هذا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مائدة وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة والدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم (و) الله (يهدي من يشاء) من عباده بما يخلق في قلبه من الهداية (الى صراط مستقيم) وهو دين الاسلام عم سبحانه وتعالى بالدعوة أولا اظهارا للحجة وخص بالهداية ثانيا اظهارا للقدرة لان الحكم له في خلقه وقال الجنيد الدعوة عامة والهداية خاصة بل الهداية عامة والصحبة خاصة بل الصحبة عامة والاتصال خاص وقيل يدعو بالآيات ويهدي للحقائق والمعارف وقيل الدعوة لله والهداية من الله وقال بعضهم لا تنفع الدعوة لمن لم يسبق له من الله الهداية (للذين أحسنوا) أي بالايمان (الحسنى) وهي الجنة (وزيادة) وهي النظر اليه تعالى في الآخرة كما في الحديث الصحيح اذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيأ هو أحب اليهم منه والزمخشري في كشافه قال في هذا وزعمت المشبهة والمجبرة لان المعتزلة ينكرون

الرؤية ويرد عليهم قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فأثبت الله لاهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهي حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة والثاني النظر الى الله تعالى وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الحسنى الحسنة والزيادة عشرة أمثالها وعن الحسن عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وعن مجاهد الزيادة مغفرة من الله ورضوان وعن يزيد بن شجرة الزيادة ان تمر السحابة بأهل الجنة فتقول ماتريدون ان أمطركم فلا يريدون شيأ الا أمطرتهم ولا مانع من أن تفسر الزيادة بذلك كله اذ لا تنافي فيها والفضل واسع (ولا يرهق) أي يغشى (وجوههم قتر) أي سواد (ولا ذلة) أي كآبة وكسوف يظهر منه الانكسار والهوان (أولئك) أي هؤلاء الذين وصفهم الله هم (أصحاب الجنة) وقوله تعالى (هم فيها خالدون) اشارة الى كونها دائمة آمنة من الانقطاع ولا زوال فيها ولا انقراض بخلاف الدنيا وزخارفها * ولما بين تعالى حال الفضل فيمن أحسن بين حال العدل فيمن أساء بقوله تعالى (والذين كسبوا السيئات) أي الشرك (جزاء سيئة) منهم (بمثلها) بعدل الله من غير زيادة وفي ذلك اشارة الى الفرق بين السيئات والحسنات لان الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة تفضلا منه تعالى وتكرما وأما السيئة فانه يجازي عليها بمثلها عدلا منه تعالى (وترهقهم) أي تغشاهم (ذلة) عكس أهل الجنة (مالهم من الله من عاصم) أي مانع يمنعهم من عذاب الله اذا نزل بهم (كأنما أغشيت) أي ألبست (وجوههم قطعا من الليل مظلما) لفرط سوادها وظلمتها وقرأ ابن كثير والكسائي بسكون الطاء أي جزأ والباقون بفتحها جمع قطعة أي أجزاء (أولئك) أي هؤلاء الاشقياء (أصحاب النار هم فيها خالدون) لا يتمكنون من مفارقتها (و) اذكر (يوم نحشرهم) أي الفريقين الناجين والهالكين العابدين منهم والمعبودين من كل جانب وناحية الى موقف الحساب حال كونهم (جميعا) لا يتخلف منهم أحد وهو يوم القيامة والحشر الجمع بكره الى موقف واحد (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) أي الزموا مكانكم لا تبرحوا منه حتى تنظروا ما يفعل بكم وقوله تعالى (أنتم) تأكيد للضمير المستتر في الفعل المقدر ليعطف عليه (وشركاؤكم) أي من كنتم تعبدونه من دون الله (فزيلنا) أي فرقنا (بينهم) أي بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا وذلك حين تبرأ كل معبود من دون الله من عبده وقيل فرقنا بينهم وبين المؤمنين كما في آية وامتازوا اليوم أيها المجرمون والاول أنسب بقوله تعالى (وقال شركاؤهم) لهؤلاء المشركين (ما كنتم ايانا تعبدون) أي انما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أندادا فأطعتموهم واختلفوا في المراد بهؤلاء الشركاء فقال بعضهم الملائكة واستشهدوا بقوله تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ومنهم من قال هي الاصنام والدليل عليه ان هذا الخطاب مشتمل على الوعيد والتهديد وذلك لا يليق بالملائكة المقربين وسموا شركاء لانهم جعلوا نصيبا من أموالهم لتلك الاصنام فصيروهم شركاء لانفسهم في تلك الاموال ثم اختلفوا في هذه الاصنام كيف ذكرت هذا الكلام فقال بعضهم ان الله تعالى يخلق الحياة والعقل

والنطق فيها فقدرت على ذكر هذا الكلام وقال آخرون ان الله تعالى خلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة حتى سمع منها ذلك الكلام والاول أظهر لان ظاهر قوله تعالى وقال شركاؤهم يقتضى أن يكون فاعل ذلك القول هو الشركاء (فان قيل) اذا أحياها الله تعالى هل يبقيها أو يفنيها (أجيب) بأن الكل محتمل فان الله تعالى يفعل فى خلقه مايشاء وأحوال القيامة غير معلومة الا القليل الذى أخبر الله تعالى عنه فى القرآن وعلى لسان أنبيائه وقال بعضهم المراد بهؤلاء الشركاء كل من عبد من دون الله من انس وملك وجن وشمس وقمر وصنم وهذا أظهر وعلى هذا والاول سموا شركاء لان الله تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله تعالى مكانكم صاروا شركاء فى هذا الخطاب * ولما قال لهم شركاؤهم ذلك قالوا بل كنتم تعبدون كم فقال شركاؤهم (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) فانه تعالى العالم بكنه الحال (ان كنا عن عبادتكم لغافلين) أى لم نأمركم بها ولم نعلم بها وعلى القول بأنها الاصنام فتقول ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل فانها جمادات لا حس لها بشئ ولا شعور البتة *(تنبيه)* ان هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بين المخففة والنافية (هنالك) أى فى ذلك الموقف من المكان العظيم الاهوال المتوالى الزلزال (تبلو) أى تختبر (كل نفس) طائعة وعاصية (ما أسلفت) أى ما قدمت من عمل فتعاين نفعه وضره يؤدى الى سعادة أو شقاوة وقرأ حمزة والكسائى بتاءين من التلاوة أى تقرأ ذكر ما قدمت أو من التلو فيتبع كل شخص عمله فيقوده الى الجنة أو الى النار والباقون بعد التاء باء موحدة من البلوى وهو الاختبار (وردوا الى الله) أى الى جزائه اياهم عما أسلفوا فلم يكن لهم قدرة على قصد غيره (مولاهم الحق) أى ربهم ومتولى أمرهم على الحقيقة ولا التفات الى سواه من تلك الاباطيل بل انقطع رجاؤهم من كل ما يدعونه فى الدنيا وهو المراد بقوله تعالى (وضل عنهم) أى ذهب وبطل وضاع (ما كانوا يفترون) أى يتعمدون كذبه من أن معبوداتهم شركاء وتيقنوا فى ذلك المقام أن توليهم لغير الله كان باطلا غير حق * ولما بين فضائح عبدة الاوثان اتبعها بذكر الدلائل على فساد هذا المذهب بحجج الحجة الاولى قوله تعالى (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين (من يرزقكم من السماء) بالمطر (والارض) بالنبات فانحصر الرزق فى ذلك أما من السماء فبتنزل الامطار وأما من الارض فلان الغذاء اما أن يكون نباتا أو حيوانا أما النبات فلا ينبت الا من الارض وأما الحيوان فهو يحتاج أيضا الى الغذاء ولا يمكن أن يكون غذاء كل حيوان حيوانا آخر والا لزم الذهاب الى ما لا نهاية له وذلك محال فثبت ان أغذية الحيوانات يجب انتهاؤها الى النبات وثبت أن تولد النبات من الارض فثبت القطع بأن الارزاق لا تحصل الا من السماء والارض (أمن يملك السمع) أى الاسماع (والابصار) أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة * عن على رضى الله تعالى عنه كان يقول سبحان من بصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم أو جعلهما وحفظهما من الآفات مع كثرتها فى المدد الطوال وهما الطيفان يؤذيهما أدنى شئ بكلائه وحفظه (ومن يخرج الحى من الميت) كأن يخرج الانسان من النطفة والطائر من البيضة (ويخرج الميت من

الحى) كان يخرج النطفة من الانسان والبيضة من الطائر وقيل المراد أن يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى ميت فى الموضعين بعد الميم بكسر الياء المشددة والباقون بعد الميم بسكون الياء (ومن يدبر الامر) أى ومن يلى تدبير أمر الخلائق وهو تعميم بعد تخصيص وذلك لان أقسام تدبير الله تعالى فى العالم السفلى وفى العالم العلوى وفى عالم الارواح والاجساد أمور لانهاية لها وذكرها كالمتعذر فلما ذكر بعض تلك الافاصيل عقبها بالكلام الكلى ليدل على الباقى ثم بين تعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم اذا سألهم عن مدبر هذه الاحوال (فسيقولون الله) اذلا يقدرون على المكابرة والعناد فى ذلك لفرط وضوحه واذا كانوا يقرون بذلك (فقل) لهم يامحمد (أفلا تتقون) الشرك مع اعترافكم بأن كل الخيرات فى الدنيا والآخرة انما تحصل بفضل الله تعالى واحسانه (فذلكم الله ربكم الحق) أى الثابت ربوبيته ثباتا لاريب فيه واذا ثبت أن هذا هو الحق وجب أن يكون ماسواه ضلالا لان النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين فاذا كان أحدهما حقا وجب أن يكون ماسواه باطلا كما قال تعالى (فماذا بعد الحق الا الضلال) اذ لا واسطة بينهما فهو استفهام تقرير أى ليس بعده غيره فمن اخطأ الحق وهو عبادة الله تعالى وقع فى الضلال ولذلك تسبب عنه قوله تعالى (فأنى) اى فكيف ومن أى جهة (تصرفون) أى تعدلون عن عبادته وأنتم تقرون بأن الله هو الحق (كذلك) أى كما حقت الربوبية لله تعالى أو ان الحق بعده الضلال أو انهم مصروفون عن الحق (حقت كلمة ربك) فى الازل (على الذين فسقوا) أى تمردوا فى كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح وقوله تعالى (أنهم لا يؤمنون) بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الايمان وعلم الله منهم ذلك والمراد بكلمة الله العدة بالعذاب وهو لأملأن جهنم الآية وأنهم لا يؤمنون تعليل بمعنى لانهم لا يؤمنون أو ذلك تفسير الكلمة التى حقت وقرأ نافع وابن عامر كلمة بالالف بعد الميم على الجمع والباقون بغير الالف بعد الميم على الافراد الحجة الثانية قوله تعالى (قل) أى قل يامحمد لهؤلاء (هل من شركائكم) الذين زعمتم وهم شركاء وأشركتموهم فى أموالكم من أنعامكم وزرعكم (من يبدأ الخلق) كما بدأه ليصح لكم ما ادعيتم من الشركة (ثم يعيده) كما كان (فان قيل) هم غير معترفين بالاعادة فكيف احتج عليهم تعالى بها كالابتداء فى الالزام بها (أجيب) بأنه لظهور برهانها وان لم يقروا بها وضعت موضع ما ان دفعه دافع كان مكابرا ادا للظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه دلالة على أنهم فى انكارهم لها منكرون أمرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينوب عنهم فى الجواب بقوله تعالى (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) لان لجاجهم لايدعهم أن يعترفوا بها (فأنى) أى فكيف (تؤفكون) عن عبادته مع قيام الدلائل (فان قيل) ما الفائدة فى ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام (أجيب) بان الكلام اذا كان ظاهرا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام كان ذلك أبلغ وأوقع فى القلب الحجة الثالثة قوله تعالى (قل) أى قل يامحمد لهم (هل من شركائكم من يهدى الى الحق) بنصب الحجج وخلق الاهتداء وارسال الرسل ولما كانوا

جاهلين بالجواب الحق فى ذلك أو معاندين أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب بقوله تعالى (قل الله) أى الذى له الإحاطة الكاملة (يهدى للحق) من يشاء لا أحد ممن زعمتموه شركاء فالاشتغال بشئ منها بعبادة أو غيرها جهل محض قال الزجاج يقال هديت الى الحق وهديت للحق بمعنى واحد فالله تعالى ذكرها تين اللغتين فى قوله تعالى من يهدى الى الحق وفى قوله تعالى قل الله يهدى للحق وقوله تعالى (أفمن يهدى الى الحق) أى وهو الله تعالى (أحق أن يتبع أمن لا يهدى) أى يهتدى (الا أن يهدى) أحق أن يتبع استفهام تقرير وتوبيخ أى الاول أحق (فمالكم كيف تحكمون) هذا الحكم الفاسد من اتباع من لا يستحق الاتباع وقوله تعالى (وما يتبع أكثرهم) فى تفسيره وجهان الاول وما يتبع أكثرهم فى اقرارهم بالله تعالى (الا ظنا) لانه قول غير مستند الى برهان عندهم بل سمعوه من أسلافهم الثانى وما يتبع أكثرهم الا ظنا فى قولهم للاصنام آلهة وانها شفعاء عند الله تعالى الا الظن حيث قلدوا فيه آباءهم قال الرازى والقول الاول أقوى لانا فى القول الثانى نحتاج الى تفسير الاكثر بالكل (ان الظن لا يغنى من الحق) فيما المطلوب فيه العلم (شيأ) من الاغناء فدلت هذه الآية على أن كل من كان ظانا فى مسائل الاصول وما كان قاطعا لا يكون مؤمنا (فان قيل) فقول أهل السنة أنا مؤمن ان شاء الله يمنع من القطع فوجب أن يلزمهم الكفر (أجاب) الرازى بأن هذا ضعيف من وجوه الاول أن مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه أن الايمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل فالشك حاصل فى أن هذه الاعمال هل هى موافقة لامر الله تعالى والشك فى أحد أجزاء الماهية لا يوجب الشك فى تمام الماهية الثانى أن الغرض من قوله ان شاء الله تعالى بقاء الايمان عند الخاتمة الثالث الغرض هضم النفس وكسرها (ان الله عليم) أى بالغ العلم (بما يفعلون) أى من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين فيجازيهم عليه وقوله تعالى (وما كان) عطف على قوله ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى الخ فهو حينئذ مقول القول أى قل لهم ذلك الكلام (هذا القرآن) أى الجامع لكل خير مع التأدية بأساليب الحكمة المعجزة لجميع الخلق (أن يفترى) أى افتراء (من دون الله) أى غيره لان المفترى هو الذى تأتى به البشر وكفار مكة زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم أتى بهذا من عند نفسه فأخبر الله تعالى أن هذا القرآن وحى أنزله عليه وأنه مبرأ عن الافتراء والكذب وأنه لا يقدر عليه أحد الا الله ثم ذكر ما يؤكد هذا بقوله تعالى (ولكن) أنزل (تصديق الذى بين يديه) أى قبله من الكتب الذى أنزلها على أنبيائه كالتوراة والانجيل فثبت بذلك أنه وحى من الله أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وأنه معجزة له فانه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يجتمع بأحد من العلماء ثم انه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن العظيم المعجز وفيه أخبار الاولين وقصص الماضين وقيل تصديق الذى القرآن بين يديه من القيامة والبعث (وتفصيل الكتاب) أى تبيين ما كتب الله من الاحكام وغيرها (لا ريب) أى لا شك (فيه) وقوله تعالى (من رب العالمين) متعلق بتصديق أو بأنزل المحذوف (أم) أى بل (يقولون افتراه) أى اختلقه محمد ومعنى الهمزة فيه للانكار

(قل) أى قل لهم يا محمد ان كان الامر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فأنتم عرب مثله فى البلاغة والفطنة (فان قيل) هل يتناول ذلك جميع السور الصغار والكبار أو يختص بالسور الكبار (أجيب) بأن هذه الآية فى سورة يونس وهى مكية فيكون المراد مثل هذه السورة لانها أقرب ما يمكن أن يشار اليه هكذا أجاب الرازى والاولى التناول لجميع السور فانهم لا يقدرون أن يأتوا بأقصر سورة (فان قيل) لم قال فى البقرة بسورة من مثله وهنا بسورة مثله (أجيب) بأنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلمذ لاحد فقيل فى سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله بناء على أن الضمير يرجع للنبى صلى الله عليه وسلم أى فليأت انسان يساوى محمدا صلى الله عليه وسلم فى عدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوى هذه السورة وحيث ظهر العجز ظهر المعجز فهذا لا يدل على أن السورة فى نفسها معجزة ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من انسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم فى عدم التعلم والتلمذ معجز ثم بين تعالى فى هذه السورة ان تلك السورة فى نفسها معجزة فان الخلق وان تلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا لا يمكنهم الاتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور وهو المراد من قوله تعالى (وادعوا من استطعتم) أى فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به (من دون الله) أى غيره فانه تعالى وحده قادر على ذلك (ان كنتم صادقين) أى فى أنى أتيت به من عندى لان العاقل لا يجزم بشئ الا اذا كان عنده منه مخرج وذلك لا يكون الا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر باهر * (تنبيه) * مراتب تحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن ستة أولها أنه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثانيها أنه تحداهم بعشر سور فقال تعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ثالثها أنه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى فأتوا بسورة من مثله رابعها أنه تحداهم بحديث مثله خامسها أن فى تلك المراتب الاربعة كان يطلب منهم أن يأتى بالمعارضة رجل يساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدم التلمذة والتعلم ثم فى هذه السورة طلب منهم معارضة سورة واحدة من أى انسان سواء تعلم العلوم أم لم يتعلمها سادسها أن فى المراتب المتقدمة تحدى واحدا من الخلق وفى هذه المرتبة تحدى جميعهم وجوز أن يستعين البعض بالبعض فى الاتيان بهذه المعارضة كما قال تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله وههنا آخر المراتب فهذا مجموع الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى اثبات ان القرآن معجز ثم ان الله تعالى ذكر السبب الذى لاجله كذبوا بالقرآن فقال تعالى (بل كذبوا) أى أوقعوا التكذيب الذى لا تكذيب أشنع منه مسرعين فى ذلك (بما لم يحيطوا بعلمه) أى القرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته من غير شبهة أصلا بل عنادا وطغيانا ونفورا مما يخالف دينهم فهو من باب من جهل شيأ عاداه والاحاطة ادارة ما هو كالحائط حول الشئ واحاطة العلم بالشئ العلم به من جميع وجوهه (ولما يأتهم) أى الى زمن تكذيبهم (تأويله) أى تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب وعاقبة ما فيه من الوعيد حتى تبين لهم

انه

أنه صدق أم كذب ومعنى التوقع فى المآل أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدى فجربوا عقولهم فى معارضته فصغرت وضعفت دونها ومع هذا لم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا (كذلك) أى مثل تكذيبهم هذا التكذيب العظيم فى الشناعة قبل تدبر المعجزة (كذب الذين من قبلهم) أى من كفار الامم الماضية فظلموا فأهلكناهم بظلمهم (فانظر) يا محمد (كيف كان عاقبة الظالمين) بتكذيب الرسل أى آخر أمرهم من الهلاك فكذلك نهلك من كذبك من قومك وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس والمعنى فانظر أيها الانسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله (ومنهم) أى من قومك يا محمد (من يؤمن به) أى القرآن أى يصدق به فى نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند بالتكذيب (ومنهم من لا يؤمن به) فى نفسه لغباوته وقلة تدبره أو ومنهم من يؤمن به فى المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويبدله بالايمان ومنهم من يصر ويستمر على الكفر وانما فسرت هذه الآية بهذين التأويلين لان كلمة يؤمن تصلح للحال والاستقبال (وربك أعلم بالمفسدين) أى المعاندين على التفسير الاول والمصرين على التفسير الثانى وفى ذلك تهديد لهم (وان كذبوك) أى وان يكذبوك يا محمد بعد الزام الحجة (فقل) لهم (لى عملى) من الطاعة وجزاء ثوابها (ولكم عملكم) من الشرك وجزاء عقابه أى فتبرأ منهم فقد أعذرت والمعنى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون) لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم واختلف فى معنى ذلك فقيل معنى الآية الزجر والردع وقيل بل معناه استمالة قلوبهم وقال مقاتل والكلبى هذه الآية منسوخة بآية السيف قال الرازى وهذا بعيد لان شرط الناسخ أن يكون رافعا لحكم المنسوخ ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وذلك لا يقتضى حرمة القتال وآية القتال ما رفعت شيأ من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلا انتهى ولا تنبغى هذه المبالغة مع مثل من ذكر وقد تبعهما جماعة من المفسرين ولما قسم تعالى الكفار قسمين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به قسم من لا يؤمن به قسمين منهم من يكون فى نهاية البغض له والعداوة له ونهاية النفرة عن قبول دينه ومنهم من لا يكون كذلك فوصف القسم الاول فى قوله تعالى (ومنهم) أى من هؤلاء المشركين (من يستمعون اليك) اذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع باسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم لشدة عداوتهم وبغضهم لك فان الانسان اذا قوى بغضه لآخر وعظمت نفرته منه صارت نفسه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه (أفأنت تسمع الصم) أى أتقدر على اسماعهم (ولو كانوا) مع الصمم (لا يعقلون) أى لان الاصم العاقل ربما تفرس واستدل اذا وقع فى صماخه دوى الصوت فاذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الامر فكما أنك لا تقدر على اسماع الاصم الذى لا يعقل لا تقدر على اسماع من أصم الله تعالى قلبه فان الله تعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يستمعون ولم يوفقهم لذلك فشبههم بالصم فى عدم الانتفاع بما يتلى عليهم ثم وصف القسم الثانى فى قوله تعالى (ومنهم من ينظرون

البك) أي يعاينون دلائل نبوتك ولا يصدقونك (أفأنت تهدى العمى) أي أتقدر على هدايتهم (ولو كانوا) مع العمى (لا يبصرون) أي لا بصيرة لهم لان الاعمى الذى فى قلبه بصيرة قد يحدس ويظن فأما العمى مع الحمق فجهد البلاء فلا تقدر على هداية من أعمى الله تعالى بصيرته فهؤلاء فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر فلا يقدر على اسماعهم وهدايتهم الا الله تعالى * (تنبيه) * اختلف فى أن السمع أفضل أو البصر فمنهم من قال السمع واحتج على ذلك بأمور منها ما تقدمه فى الآية ومنها أن القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب والقوة الباصرة لا تدرك المرئى الا من جهة واحدة وهى المقابل ومنها أن الانسان انما يستفيد العلم من التعلم من الاستاذ وذلك لا يكون الا بقوة السمع فاستكمال النفس بالكمالات العلمية لا يحصل الا بقوة السمع ومنها أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام يراهم الناس ويسمعون كلامهم فنبوتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية وانما حصلت بسبب ما معهم من الاحوال المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الاحكام ومنها أن المعنى الذى يمتاز به الانسان من سائر الحيوانات هو النطق بالكلام وانما ينتفع بذلك بالقوة السامعة فمتعلق السمع النطق الذى يحصل به شرف الانسان ومتعلق البصر ادراك الالوان والاشكال وذلك أمر مشترك فيه بين الناس وبين سائر الحيوانات ومنهم من قال البصر واحتج بأمور منها ان آلة القوة الباصرة هى النور وآلة القوة السامعة هى الهواء والنور أشرف من الهواء ومنها أن جمال الوجه يحصل بالبصر وبذهابه عيبه وذهاب السمع لا يورث الانسان عيبا فى جمال وجهه والعرب تسمى العينين الكريمتين ولا تصف السمع بمثل هذا وفى الحديث يقول الله تعالى من أذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة ومنها أنهم قالوا فى المثل المشهور ليس وراء العيان بيان وذلك يدل على أن أكمل وجوه الادراكات هو الابصار ومنها أن كثيرا من الانبياء سمع الله واختلفوا فى أنه هل رآه منهم أحد أم لا وأيضا فان موسى عليه السلام أسمعه الله تعالى كلامه من غير سبق سؤال والتماس فلما طلب الرؤية قال لن ترانى وذلك يدل على أن حال الرؤية أعلى من حال السماع وهذا هو الظاهر ولما حكم تعالى على أهل الشقاوة بالشقاوة بقضائه وقدره السابق فيهم أخبر تعالى أن تقدير الشقوة عليهم ما كان ظلما منه بقوله تعالى (ان الله لا يظلم الناس شيأ) أى لانه تعالى فى جميع أحواله متفضل وعادل فيتصرف فى ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف فى ملكه بالفضل والعدل لا يكون ظالما وانما قال تعالى (ولكن الناس أنفسهم يظلمون) لان فعلهم منسوب اليهم بسبب الكسب وان كان قد سبق قضاء الله تعالى وقدره فيهم ففى ذلك دليل على أن للعبد كسبا وأنه ليس مسلوب الاختيار كما زعمت المجبرة وقرأ حمزة والكسائى بكسر النون مخففة ورفع السين والباقون بنصب النون مشددة ونصب السين ولما وصف تعالى هؤلاء الكفار بقلة الاصغاء وترك التدبر أتبعه بالوعيد بقوله تعالى (ويوم نحشرهم) أى واذكر يا محمد يوم نحشر هؤلاء المشركين لموقف الحساب وأصل الحشر اخراج الجماعة

وازعاجهم

وازعاجهم عن مكانهم (كأن) أي كأنهم (لم يلبثوا) في دنياهم والجملة في موضع الحال من ضمير نحشرهم البارز أي مشبهين بمن لم يلبثوا (الا ساعة) حقيرة (من النهار) أي يستقصرون مدة مكثهم في الدنيا وفي القبور لهول ما يرون (يتعارفون بينهم) أي يعرف بعضهم بعضا اذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الاهوال والجملة حال مقدرة متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم نحشرهم وقوله تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) أي بالبعث يحتمل وجهين الاول أن يكون على ارادة القول أي يتعارفون بينهم قائلين ذلك الثاني أن يكون كلام الله تعالى فيكون شهادة من الله تعالى عليهم بالخسران والمعنى أن من باع آخرته بالدنيا فقد خسر لانه أعطى الكثير الشريف الباقي وأخذ القليل الخسيس الفاني (وما كانوا مهتدين) أي الى رعاية مصالح التجارة وذلك لانهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة فصاروا كمن رأى زجاجة خسيسة فظنها جوهرة شريفة فاشتراها بكل ما ملكه فاذا عرضها على الناقدين خاب سعيه وفات أمله ووقع في حرقة الروع وعذاب القلب وقوله تعالى (واما) فيه ادغام ان الشرطية في ما الزائدة (نرينك) يا محمد (بعض الذي نعدهم) به من العذاب في حياتك وجواب الشرط محذوف أي فذاك (أو نتوفينك) قبل أن نريك ذلك الوعد في الدنيا فانك ستراه في الآخرة وهو قوله تعالى (فالينا) بعد البعث (مرجعهم) فنريك هناك ما هو أقر لعينك وأسر لقلبك وقوله تعالى (ثم الله شهيد على ما يفعلون) فيه وعيد وتهديد لهم أي أنه تعالى شهيد على أفعالهم التي فعلوها في الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة ولما بين تعالى حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين أن حال كل الانبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم كذلك بقوله تعالى (ولكل أمة) أي من الامم التي خلت من قبلك (رسول) يدعوهم الى الله تعالى وقوله تعالى (فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط) فيه اضمار تقديره فاذا جاء رسولهم وبلغهم ما أرسل به اليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون قضي أي حكم وفصل بينهم بالقسط أي بالعدل وفي وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان أحدهما أنه في الدنيا بأن يهلك الكافرين وينجي رسوله والمؤمنين لقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا والثاني في الآخرة وذلك أن الله تعالى اذا جمع الامم يوم القيامة للحساب والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصي جيء بالرسل لتشهد عليهم لقوله تعالى وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم والمراد منه المبالغة في اظهار العدل وهو قوله تعالى (وهم لا يظلمون) في جزاء أعمالهم شيأ بل يجازي كل واحد على قدر عمله فكذلك يفعل بهؤلاء (ويقولون متى هذا الوعد) الذي تعدنا به يا محمد من نزول العذاب ومن قيام الساعة وانما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد (ان كنتم صادقين) أي فيما تعدونا به وانما قالوا بلفظ الجمع على سبيل التعظيم أو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وان كان كل أمة قالوا لرسولها مثل ذلك وهو الموافق لقوله تعالى ولكل أمة رسول قال الله تعالى (قل) أي قل لهم يا محمد (لا أملك لنفسي ضرا) من مرض أو فقر أدفعه (ولا نفعا) من صحة أو غنى أجلبه (الا ما شاء الله) أن يقدرني عليه فكيف أملك لكم حلول العذاب أو قيام

الساعة ولا يقدر على ذلك أحد الا الله تعالى (لكل أمة أجل) اى مدة مضروبة (اذا جاء أجلهم) أى انقضت مدة أعمارهم (فلا يستأخرون) أى لا يتأخرون (عنه ساعة) ثم عطف على الجملة الشرطية بكمالها (ولا يستقدمون) أى ولا يتقدمون أى ولا يستعجلون فان الوفاء بالوعد لابد منه والسين فيهما بمعنى الوجدان أى لا يوجد لهم المعنى الذى منع منه الفعل ويجوز أن يكون المعنى لا يجدون التأخر ولا التقدم وان اجتهدوا فى الطلب فيكون فى السين معنى الطلب وتدل الآية على أن أحدا لا يموت الا بانقضاء أجله وكذا المقتول لا يقتل الا على هذا الوجه وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى وسهل ورش وقنبل الثانية وابدلها أيضا حرف مد والباقون بالتحقيق قال الله تعالى (قل) أى قل لهم يا محمد أيضا (أرأيتم ان أتاكم عذابه) الذى تستعجلون به (بياتا) أى فى الليل بغتة كما يفعل العدو (أو نهارا) أى وقت أنتم فيه تشتغلون بطلب المعاش والكسب (ماذا) أى أى شئ (يستعجل منه) أى من عذابه وعذاب كل مكروه لا يحتمل شئ منه (المجرمون) أى المشركون وضع المجرمون موضع المضمر للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغى أن يفزعوا من مجىء الوعيد لا أن يستعجلوا وجملة الاستفهام متعلقة بأرأيتم وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه (أثم اذا ما وقع) أى حل بكم (آمنتم) أى آمنتم بالله أو العذاب وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس والهمزة لانكار التأخير فلا يقبل منكم وقوله تعالى (الآن) على ارادة القول أى قيل لهم اذا آمنوا وقت نزول العذاب الآن (وقد كنتم به تستعجلون) تكذيبا واستهزاء *(تنبيه)* اتفق قالون مع ورش على النقل هنا واتفق القراء كلهم على همزة الوصل التى بعد همزة الاستفهام ان فيها وجهين وهما البدل والتسهيل وقوله تعالى (ثم قيل للذين ظلموا) عطف على قيل المقدر أى من أى قائل كان استهانة بهم وقرأ هشام والكسائى باشمام القاف وهو أن تضم القاف قبل الياء والباقون بالكسر (ذوقوا عذاب الخلد) أى الذى تخلدون فيه والاتيان بثم اشارة الى تراخى ذلك عن الاهلاك فى الدنيا بالمكث فى البرزخ أو الى ان عذابه أدنى من عذاب يوم الدين (هل) أى ما (تجزون الا بما كنتم تكسبون) فى الدنيا من الكفر والمعاصى (ويستنبؤنك) أى يستخبرونك يا محمد (أحق هو) أى ما وعدتنا به من نزول العذاب وقيام الساعة وهو استفهام على جهة الانكار والاستهزاء قاله حيى بن أخطب لما قدم مكة (قل) لهم فى جوابهم (اى وربى انه لحق) أى كائن ثابت لابد من نزوله بكم *(تنبيه)* اى بمعنى نعم وهو من لوازم القسم ولذلك توصل بواوه فى التصديق فيقال اى والله ولا ينطقون به وحده (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين العذاب لان من عجز عن شئ فقد فاته (ولو أن لكل نفس ظلمت) أى أشركت (ما فى الارض) من الاموال (لافتدت به) من عذاب يوم القيامة ولم ينفعها الفداء لقوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أى حين عاينوه وأبصروه صاروا مبهوتين متحيرين فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا سوى اسرار الندم كالحال فيمن ذهب به ليصلب فانه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة وقيل انهم أخلصوا لله فى تلك الندامة

ومن أخلص فى الدعاء أسره وفيه تهكم بهم وباخلاصهم لانهم انما أتوا بهذا الاخلاص فى غير وقته بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به فى دار الدنيا وقت التكليف وقيل المراد بالاسرار الاظهار وهو من الاضداد لانهم انما أخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لاجل حفظ الرياسة وفى القيامة بطل هذا فوجب الاظهار وليس هنا التجلد (فان قيل) أسروا جاء على لفظ الماضى والقيامة من الامور المستقبلة (أجيب) بأنها لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى (وقضى بينهم) أى بين الخلائق (بالقسط) اى بالعدل (وهم لا يظلمون) (فان قيل) هذه الآية مكررة (أجيب) بأن الاولى فى القضاء بين الانبياء وتكذيبهم وهذه عامة وقيل بين المؤمنين والكفار وقيل بين الرؤساء والاتباع فان الكفار وان اشتركوا فى العذاب فلا بد أن يقضى الله تعالى بينهم لانه لا يمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضا فى الدنيا وخانه فيكون فى ذلك القضاء تخفيف عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين لان العدل يقتضى أن ينصف المظلومين من الظالمين ولا سبيل اليه الا أن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل فى عذاب الظالمين وقوله تعالى (ألا ان لله ما فى السموات والارض) تقرير لقدرته تعالى على الاثابة والعقاب (ألا ان وعد الله) أى ما وعد به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من البعث للجزاء ومن ثواب الطائع وعقاب العاصى (حق) لاشك فيه (ولكن أكثرهم) أى الناس (لا يعلمون) أى جاهلون عن حقيقة ذلك فهم باقون على الجهل معدودون مع البهائم لقصور عقلهم الا ظاهرا من الحياة الدنيا (هو) أى الذى يملك ما فى السموات والارض (يحيى ويميت) أى قادر على الاحياء والاماتة لا يتعذر عليه شئ مما أراد (واليه ترجعون) بعد الموت للجزاء وقوله تعالى (يا أيها الناس) خطاب عام وقيل لاهل مكة (قد جاءتكم موعظة من ربكم) أى كتاب فيه ما لكم وعليكم وهو القرآن (وشفاء) أى دواء (لما فى الصدور) أى القلوب من داء الجهل لان داء الجهل أضر للقلب من المرض للبدن وأمراض القلب هى الاخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة والقرآن مزيل لهذه الامراض كلها لان فيه المواعظ والزواجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الشفاء لهذه الامراض القلبية وانما خص تعالى الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغيره وهو أعز موضع فى الانسان لمكان القلب فيه (وهدى) من الضلالة (ورحمة) أى اكرام عظيم (للمؤمنين) لانهم هم الذين انتفعوا به دون غيرهم واختلف فى تفسير قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته) فقال مجاهد وقتادة فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله وقال ابن عباس والحسن فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وعن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والاسلام وقال ابن عمر فضل الله الاسلام ورحمته تزيينه فى قلوبنا وقيل فضل الله الاسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن ولا مانع من أن تفسر الآية بجميع ذلك اذ لا تنافى بين هذه الاقوال والباء فى بفضل الله وبرحمته متعلقة بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته (فبذلك فليفرحوا) والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب

اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ماعداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد المفعولين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل ان فرحوا بشئ فليفرحوا بهما فانه لا مفروح به أحق منهما (هو) أى المحدث عنه من الفضل والرحمة (خير مما يجمعون) أى من حطام الدنيا ولذاتها الفانية وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (قل) يا محمد لكفار مكة (أرأيتم) أى أخبرونى (ما أنزل) أى خلق (الله لكم من رزق) وانه تعالى جعل الرزق منزلا لانه مقدر فى السماء يحصل بأسباب منها (فجعلتم منه) أى من ذلك الرزق (حراما وحلالا) وهو مثل ماذكروه من تحريم السائبة والوصيلة والحام ومثل قولهم هذه أنعام وحرث حجر ومثل قولهم هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ومثل قولهم ثمانية أزواج من الضأن اثنين (قل) لهم يا محمد (آلله أذن لكم) فى هذا التحريم والتحليل (أم) أى بل (على الله تفترون) أى تكذبون على الله بنسبة ذلك اليه (وما ظن الذين يفترون) أى يتعمدون (على الله الكذب) أى أى شئ ظنهم به (يوم القيامة) أيحسبون أن لا يؤاخذهم ولا يجازيهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد العظيم لمن يفترى على الله الكذب (ان الله لذو فضل على الناس) بنعم كثيرة لا تحصى منها انزال الكتب مفصلا فيها ما يرضيه وما يسخطه ومنها ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيانها عما يحتمله عقول الخلق منها ومنها طول امهالهم على سوء أفعالهم ومنها انعامه عليهم بالعقل فكان شكره واجبا عليهم (ولكن أكثرهم) أى الناس (لا يشكرون) هذه النعم ولا يستعملون العقل فى دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبيائه ولا ينتفعون باستماع كتب الله وقوله تعالى (وما تكون) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم (فى شأن) أى عمل من الاعمال وجمعه شؤن والضمير فى قوله تعالى (وما تتلو منه) اما للشأن لان تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شأنه واما للتنزيل كأنه قيل وما تتلو من التنزيل (من قرآن) لان كل جزء منه قرآن والاضمار قبل الذكر تفخيم له واما لله تعالى والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك وقوله تعالى (ولا تعملون من عمل) أى أى عمل كان تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رئيسهم وهو النبى صلى الله عليه وسلم ولذلك ذكر حيث خص بما فيه فخامة وهو الشأن وذكر حيث عم بقوله تعالى من عمل بما يتناول الجليل والحقير وقيل ان الكل داخلون فى الخطابين الاولين أيضا لانه من المعلوم انه اذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب كما فى قوله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء (الا كنا عليكم شهودا) أى رقباء نحصى عليكم أعمالكم لان الله تعالى رقيب على كل شئ وعالم بكل شئ اذ لا محدث ولا خالق ولا موجد الا الله تعالى فكل ما يدخل فى الوجود هنا من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل فى علمه وشاهد عليه (اذ تفيضون) أى الله شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون (فيه) أى ذلك العمل وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج اذ تنتشرون فيه يقال أفاض القوم فى الحديث اذا انتشروا فيه (وما يعزب) أى يغيب (عن ربك) يا محمد

(من

(من مثقال) أي وزن (ذرة) وهي النملة الحمراء الصغيرة خفيفة الوزن جدا وقيل المراد بها الهباء وهو الشيء المنبث الذي تراه في البيت في ضوء الشمس وقرأ الكسائي بكسر الزاي والباقون بالضم ومن صلة على القراءتين وانما قيد بقوله تعالى (في الارض ولا في السماء) تقريبا للعقول العامة (فان قيل) لم قدم ذكر الارض على السماء وقدم ذكر السماء على الارض في سورة سبأ حيث قال تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض فما فائدة ذلك (أجيب) بأن الكلام هنا في حال أهلها والمقصود منه هو البرهان على احاطة علمه على ان العطف بالواو حكمه حكم التثنية (ولا أصغر من ذلك) أي الذرة (ولا أكبر) أي منها (الا في كتاب مبين) أي بين وهو اللوح المحفوظ وقرأ حمزة برفع الراء من أصغر وأكبر على الابتداء والخبر والباقون بالنصب على ان ذلك اسم لا وفي كتاب خبرها (ألا ان أولياء الله) أي الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة (لا خوف عليهم) من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) بفوات مأمول وفسرهم بقوله تعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون) الله بامتثال أمره ونهيه وهذا الذي فسر الله تعالى به الاولياء لا مزيد عليه وعن علي رضي الله عنه هم قوم صفر الوجوه من السهر عمش العيون من العبر خمص البطون من الخوا وعن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله تعالى فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم يعني السمت والهيئة وعن ابن عباس الاخبات والسكينة وعن عمر رضي الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يا رسول الله أخبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله بغير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ الآية ونقل النووي في مقدمة شرح المهذب عن الامامين الشافعي وأبي حنيفة رضي الله تعالى عنهما ان كلا منهما قال اذا لم تكن العلماء أولياء لله فليس لله ولي وذلك في العالم العامل بعلمه وقال القشيري من شرط الولي أن يكون محفوظا كما أن من شرط النبي أن يكون معصوما فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع فالولي هو الذي توالت أفعاله على الموافقة ولما نفى الله عنهم الخوف والحزن زادهم فقال تعالى مبينا لتوليته اياهم بعد أن شرع بتوليتهم له (لهم البشرى) أي الكاملة (في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أما البشرى في الدنيا فسرت بأشياء منها الرؤيا الصالحة فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال البشرى هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له وقال صلى الله عليه وسلم ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وقال الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم أحدكم حلما يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لا يضره وقال الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة ومنها محبة الناس له وذكرهم اياه في الثناء الحسن وعن أبي ذر قال قلت يا رسول الله ان الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال تلك عاجل بشرى المؤمن ومنها البشرى لهم عند الموت قال تعالى تتنزل عليهم الملائكة

أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين
مبشرين بالفوز والكرامة وما يرونه من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بأيمانهم وما
يقرؤن منها وسلام الله تعالى عليهم كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم وغير ذلك من المبشرات
بما بشر الله تعالى به عباده المتقين فى كتابه وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه فان لفظ
البشارة مشتق من خبر سار يظهر أثره فى بشرة الوجه فكل ما كان كذلك دخل فى هذه الآية
ثم انه تعالى لما ذكر صفة أوليائه وشرح أحوالهم قال تعالى (لا تبديل) أى بوجه من الوجوه
(لكلمات الله) أى لا تغيير لاقواله ولا اخلاف لمواعيده والكلمة والقول سواء ونظيره قوله
تعالى ما يبدل القول لدى وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى كونهم مبشرين فى الدارين (هو
الفوز العظيم) هذه الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه
أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله (ولا يحزنك) يا محمد (قولهم) أى هؤلاء المشركين أى لا يغملك
تكذيبهم وتهديدهم وتشورهم فى تدبير هلاكك وابطال امرك وسائر ما يتكلمون به فى شأنك
وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى من أحزنه والباقون بفتح الياء وضم الزاى وكلاهما بمعنى وقوله
تعالى (ان العزة) أى القوة (لله جميعا) استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل مالى لا أحزن فقيل
ان العزة لله جميعا أى ان الغلبة والقهر فى مملكة الله لله جميعا لا يملك أحد شيأ منها لا هم ولا
غيرهم فهو يغلبهم وينصرك عليهم قال تعالى كتب الله لاغلبن أنا ورسلى وقال تعالى انا لننصر
رسلنا وقيل ان المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فأخبر الله
تعالى ان جميع ذلك فى ملكه فهو قادر على أن يسلب جميع ذلك ويذلهم بعد العز (هو السميع)
أى البليغ السمع لاقوالهم (العليم) أى المحيط العلم بضمائرهم وجميع أحوالهم فهو البالغ
القدرة على كل شئ فيجازيهم وهو تعليل لتفرده بالعزة لانه تفرد بهذين الوصفين فانتفيا
عن غيره ومن انتفيا عنه كان دون الحيوانات العجم فأنى يكون له عزة (فان قيل) قوله تعالى
ان العزة لله جميعا يضاد قوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (أجيب) بالمنع لان عزة
الرسول والمؤمنين كلها بالله فهى لله (ألا ان لله من فى السموات ومن فى الارض) ملكا وخلقا
(فان قيل) اقد ذكر الله تعالى فى الآية المتقدمة ألا ان لله ما فى السموات والارض بلفظ ما وقال
هنا بلفظ من فما فائدة ذلك (أجيب) بأنه تعالى غلب فى الآية الاولى ما لا يعقل على من يعقل
لكثرته وفى هذه غلب العاقل على غيره لشرفه وقيل مجموع الآيتين دال على ان الكل خلقه
وملكه وقيل ان المراد بمن فى السموات الملائكة وبمن فى الارض الثقلان وانما خصهم بالذكر
لشرفهم واذا كان هؤلاء فى ملكه وتحت قهره فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له ندا وشريكا
فهو كالدليل على قوله تعالى (وما يتبع الذين يدعون) أى يعبدون (من دون الله) أى غيره
أصناما (شركاء) على الحقيقة وان كانوا يسمونها شركاء تعالى الله عن ذلك (ان) أى ما (يتبعون)
فى ذلك (الا الظن) أى ظنهم انها آلهة تشفع لهم وانها تقربهم الى الله تعالى ثم بين تعالى ان هذا
الظن لا حكم له بقوله تعالى (وان) أى ما (هم الا يخرصون) أى يكذبون فى ذلك ويجوز

أن يكون وما يتبع فى معنى الاستفهام أى وأى شئ يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الاول بيتبع وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة وقوله تعالى (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أى ليزول عنكم التعب والكلال فيه بما تقاسون فى نهاركم من تعب التردد فى المعاش (والنهار مبصرا) أى مضيئا تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة واضافة الابصار الى النهار مع أنه يبصر فيه على طريق نقل الاسم من المسبب الى السبب كقولهم ليل نائم لان الليل سبب للسكون قال قطرب تقول العرب أظلم الليل أى صار ذا ظلمة وأضاء النهار أى صار ذا ضياء (ان فى ذلك) المذكور (لآيات) أى دلالات على وحدانيته تعالى (لقوم يسمعون) سماع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك ان الذى خلق الاشياء كلها هو الاله المعبود المتفرد بالوحدانية فى الوجود ثم ذكر الله تعالى نوعا من أباطيل الكفار بقوله تعالى (قالوا) أى اليهود والنصارى ومن زعم ان الملائكة بنات الله (اتخذ الله ولدا) قال الله تعالى (سبحانه) أى تنزيها له عن الولد (هو الغنى) عن كل أحد وانما يطلب الولد من يحتاج اليه ثم بين تعالى غناه بقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الارض) من ناطق وصامت ملكا وخلقا * ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا اليه عطف بالانكار والتوبيخ فقال (ان) أى ما (عندكم من سلطان) أى حجة (بهذا) أى الذى تقولونه ثم بالغ تعالى فى ذلك الانكار عليهم بقوله تعالى (أتقولون على الله ما لا تعلمون) حقيقته وصحته وتضيفون اليه ما لا يجوز اضافته اليه تعالى جهلا منكم والاستفهام للتوبيخ (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون عليه الباطل ويزعمون ان له ولدا (ان الذين يفترون) أى يتعمدون (على الله الكذب لا يفلحون) أى لا ينجحون فى سعيهم ولا يفوزون بمطلوبهم بل خابوا وخسروا وانهم لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة ومن الناس من اذا فاز بشئ من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة ظن انه قد فاز بالمقصود والله سبحانه وتعالى أزال هذا الخيال بأن قال (متاع فى الدنيا) وفيه اضمار تقديره لهم متاع فى الدنيا على انه مبتدأ خبره محذوف ويصح أن يكون خبرا لمبتدا محذوف تقديره افتراؤهم متاع فى الدنيا يقيمون به رياستهم فى الكفر أو حياتهم أو تقلبهم متاع فى الدنيا وهو أيام يسيرة بالنسبة الى طول بقائهم فى العذاب (ثم الينا مرجعهم) بالموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد) بعد الموت (بما) أى بسبب ما (كانوا يكفرون) ولما ذكر سبحانه وتعالى فى هذه السورة من أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك فى قصص الانبياء وما جرى لهم مع أممهم وذكر الله تعالى منهم فى هذه السورة ثلاث قصص القصة الاولى قصة نوح عليه السلام المذكورة بقوله تعالى (واتل) يا محمد (عليهم) أى كفار قريش (نبأ) أى خبر (نوح) وذلك ليكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابه أسوة بمن سلف من الانبياء فانه كان صلى الله عليه وسلم اذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كان الا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة

إذاعمت خفت ولان الكفار اذا سمعوا هذه القصص وعلموا أن الجهال وان بالغوا في ايذاء الانبياء المتقدمين الا ان الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار لامثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم ووقوع الخوف والوجل في صدورهم ولان الكلام اذا طال تقريرا في نوع من أنواع العلوم فربما حصل نوع من أنواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن من العلم الى فن آخر شرح صدره وطاب قلبه ووجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلا قويا ولانه صلى الله عليه وسلم لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن غير نقصان دل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم انما عرفها بالوحى والتنزيل ويبدل من نبأ نوح (اذ قال لقومه) وهم بنو قابيل (ياقوم ان كان كبر) أى شق وعظم (عليكم مقامى) أى لبثى فيكم ألف سنة الا خمسين عاما (وتذكيرى) أى وعظى اياكم (بآيات الله) أى بحججه وبيناته فعزمتم على قتلي وطردى (فعلى الله توكلت) أى فهو حسبى وثقتى أو قيامى على الدعوة لانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم مسموعا كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود (فأجمعوا أمركم) أى فاعزموا على أمر تفعلونه في أذاى بالاهلاك أو غيره (وشركاءكم) أى وادعوا شركاءكم أو الواو بمعنى مع أى مع شركائكم وهى الاصنام وانما حثهم على الاستعانة بها بناء على مذهبهم الفاسد واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع تبكيتا وتوبيخا لهم (ثم لا يكن أمركم) أى الذى تقصدوننى به (عليكم غمة) أى مستورا من غمه اذا ستره بل اظهروه وجاهرونى مجاهرة فانه لا معارضة لى بغير الله الذى يستوى عنده السر والجهر (ثم اقضوا الى) أى أمضوا ما فى أنفسكم وافرغوا منه يقال قضى فلان اذا مات ومضى وقضى دينه اذا فرغ منه وقيل معناه توجهوا الى بالقتل والمكروه وقيل فاقضوا ما أنتم قاضون وهذا مثل قول السحرة لفرعون فاقض ما أنت قاض أى اعمل ما أنت عامل (ولا تنظرون) أى ولا تؤخرون بعد اعلامكم اياى ما أنتم عليه وانما قال ذلك اظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته وانهم لن يجدوا اليه سبيلا (فان توليتم) أى أعرضتم عن تذكيرى (فما سألتكم من أجر) أى من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فينفركم عنى وتتهموننى لاجله من طمع فى أموالكم وطلب أجر على عظتكم ومتى كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله أقوى تأثيرا فى القلب (ان أجرى الا على الله) وهو الثواب الذى يثيبنى به فى الآخرة أى ما أنصحكم الا لوجه الله تعالى لا لغرض من أغراض الدنيا وهكذا ينبغى لكل من ينفع الناس بعلم أو ارشاد الى طريق الله تعالى (وأمرت أن أكون من المسلمين) أى انى مأمور بالاستسلام لكل مكروه يصل الى منكم لاجل هذه الدعوة وقيل بدين الاسلام وانا ماض فيه غير تارك له قبلتموه أو لم تقبلوه (فكذبوه) أى أصروا على تكذيبه بعدما ألزمهم الحجة وبين أن توليتهم ليست الا لعنادهم وتمردهم لا جرم حقت عليهم كلمة العذاب (فنجيناه) من الغرق (ومن معه فى الفلك) أى السفينة وكانوا ثمانين

(وجعلناهم)

(وجعلناهم) أى الذين أنجيناهم معه فى الفلك (خلائف) فى الارض يخلفون الهالكين بالغرق (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان وقوله تعالى (فانظر) أى أيها الانسان أو يا محمد (كيف كان عاقبة المنذرين) تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له وهذه القصة اذا سمعها من صدّق النبىّ صلى الله عليه وسلم ومن كذب به كان زجرا للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه قوم نوح وهذه الطريقة فى الترغيب والتحذير اذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدّم كانت أبلغ من الوعيد المبتدا ولهذا الوجه أكثر تعالى ذكر أقاصيص الانبياء عليهم السلام (ثم بعثنا من بعده) أى نوح (رسلا الى قومهم) لم يسم هنا تعالى من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم (فجاؤهم بالبينات) أى بالمعجزات الواضحات التى تدل على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا) أى فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدّة عنادهم وخذلان الله تعالى اياهم (بما) أى بسبب ما (كذبوا به من قبل) أى أنهم كانوا قبل بعثة الرسل اليهم أهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كأن لم يبعث اليهم أحد (كذلك) أى مثل ما طبعنا على هؤلاء بسبب تكذيبهم الرسل (نطبع) أى نختم (على قلوب المعتدين) فى كل زمن لكل من تعمد العدول فيما لا يحل له فلا يقبل الايمان لانهماكهم فى الضلال واتباعهم المألوف وفى أمثال ذلك دليل على أن الافعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد * القصة الثانية قصة موسى عليه السلام المذكورة بقوله تعالى (ثم بعثنا من بعدهم) أى هؤلاء الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه) أى أشراف قومه وغيرهم تبع لهم فهو مرسل الى الجميع (بآياتنا) التسع (فاستكبروا) عن اتباعها والايمان بها وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن قبولها (وكانوا قوما مجرمين) أى كفارا ذوى آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤا عن ردّها (فلما جاءهم الحق) أى جاء فرعون وقومه (من عندنا) أى الذى جاء به موسى من عند ربه وعرفوا أنه ليس من عند موسى وهرون لتظاهر المعجزات الظاهرات المزيحة للشك (قالوا) أى غير متأملين له ولا ناظرين فى أمره لفرط تمرّدهم (ان هذا لسحر مبين) أى بين ظاهر يعرفه كل أحد وهم يعلمون أن الحق أبعد شئ من السحر الذى لا يظهر الا على كافر أو فاسق وقوله تعالى (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الاول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الانكار بمعنى انه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله تعالى فقال (ولا يفلح الساحرون) فانه لو كان سحرا لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة فقلب العصا حية وفلق البحر معلوم بالضرورة انه ليس من باب التمويه والتخييل فثبت انه ليس بسحر (قالوا) أى قوم فرعون لموسى (أجئتنا لتلفتنا) أى لتردّنا وتصرفنا واللفت والفتل أخوان (عما وجدنا عليه آباءنا) أى من الدين وعبادة الاصنام

ثم قالوا لموسى وهرون (وتكون لكما الكبرياء) أى الملك والعز (فى الارض) أى أرض مصر قال الزجاج سمى الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا وأيضا الملوك موصوفون بالكبر ولهذا وصف ابن الرقيات مصعبا فى قوله

ملكه ملك رأفة ليس فيه * جبروت منه ولا كبرياء

ينفى ما عليه الملوك من ذلك ويجوز أن يقصد وا بذلك ذمهما وأنهما ان ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا كما قال القبطى لموسى عليه السلام ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض (وما نحن لكما بمؤمنين) أى بمصدقين فيما جئتما به (وقال فرعون) لقومه ارادة للمناظرة لما أتى به موسى عليه السلام (ائتونى بكل ساحر عليم) أى بالغ فى علم السحر لئلا يفوت شئ من السحر بتأخر البعض وقرأ حمزة والكسائى بغير ألف بين السين والحاء وتشديد الحاء مفتوحة وألف بعدها بصيغة فعال دال على زيادة قلق فرعون والباقون بألف بعد السين وتخفيف الحاء مكسورة ولا ألف بعدها (فلما جاء السحرة) أى كل من فى أرض مصر منهم قالوا لموسى اما أن تلقى واما ان نكون نحن الملقين (قال لهم موسى ألقوا) جميع (ما أنتم ملقون) (فان قيل) كيف أمرهم بالكفر والسحر والامر بالكفر كفر (أجيب) بأنه انما أمرهم بالقاء ما معهم من الحبال والعصى التى معهم ليظهر للخلق انما أتوا به عمل فاسد وسعى باطل لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر (فلما ألقوا) ما معهم من الحبال والعصى وخيلوا لسحرهم أعين الناس أنها تسعى (قال موسى) منكرا عليهم (ما جئتم به السحر) قرأه أبو عمرو بهمزتين الاولى همزة الاستفهام فهى مفتوحة والثانية همزة وصل وله فيها وجهان التسهيل والبدل فما استفهامية مبتدأ وجئتم به خبرها والسحر بدل منه وقرأ الباقون بهمزة وصل فتسقط فى الوصل أى الذى جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحرا ثم أخبر موسى عليه السلام بقوله (ان الله سيبطله) أى يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) أى لا يثبته ولا يقويه وقول البيضاوى وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لا حقيقة له محمول على ما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والادوية والا فله حقيقة فهو حق عند أهل السنة وهو علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على ظهور التأثير فى عالم العناصر (ويحق) أى يثبت ويظهر (الله الحق بكلماته) أى بقضائه ووعده الصادق لموسى عليه السلام وقد أخبر الله تعالى فى غير هذه السورة انه كيف أبطل ذلك السحر وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف تلك الحبال والعصى (ولو كره المجرمون) ذلك * ولما بين تعالى أن قوم موسى شاهدوا هذه المعجزات ومع ذلك لم يؤمن منهم الا القليل كما قال تعالى (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) وانما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر بين تعالى أن له فى هذا الباب بسائر الانبياء اسوة لان الذى ظهر من موسى عليه السلام من المعجزات كان أمرا عظيما ومع ذلك فما آمن له الا ذرية من قومه والذرية اسم يقع على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل والهاء التى فى قومه

راجعة الى موسى أى فما آمن من قومه الا طائفة من ذرارى بنى اسرائيل كأنه قيل الأولاد من أولاد قومه وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون واجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف وقيل راجعة الى فرعون والذرية امرأته آسية ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وماشطته (على خوف من فرعون وملائهم) أى خوف منه لانه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى واذا علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ فى ايذائهم فلهذا السبب كانوا خائفين منه ومن أشراف قومه والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد فى ضمير العظمة لانه ذو أصحاب يأتمرون به وقيل المراد بفرعون آله كما يقال ربيعة ومضر (أن يفتنهم) أى يصرفهم ويصدهم عن الايمان (وان فرعون لعال) أى متكبر قاهر (فى الارض) أى أرض مصر (وانه لمن المسرفين) أى المجاوزين الحد فانه كان من أخس العبيد وادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبنى اسرائيل (وقال موسى) لقومه (ياقوم ان كنتم آمنتم بالله) أى صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) أى ثقوا به واعتمدوا عليه فانه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه (ان كنتم مسلمين) أى مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وقيل ان كنتم آمنتم بالقلب وأسلمتم بالظاهر (فقالوا) مجيبين له (على الله توكلنا) أى عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أى لا تسلطهم علينا فيفتنونا (ونجنا) أى خلصنا (برحمتك من القوم الكافرين) أى من أيدى قوم فرعون لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى الاعمال الشاقة وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مخلصين لا جرم ان الله تعالى قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء فى الارض وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعى ينبغى أن يتوكل أولا ليجاب دعوته * ولما شرح الله تعالى خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر فيهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أمر موسى وهرون عليهما السلام باتخاذ البيوت بقوله تعالى (وأوحينا الى موسى وأخيه) أى الذى طلب موازرته ومعاضدته (أن تبوآ) أى اتخذا (لقومكما بمصر بيوتا) تسكنون فيها أو ترجعون اليها للعبادة (واجعلوا) أنتما وقومكما (بيوتكم) أى تلك البيوت (قبلة) مصلى أو مساجد كما فى قوله تعالى فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه موجهة نحو القبلة أى الكعبة وكان موسى عليه السلام يصلى اليها وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بيوتا وبيوتكم برفع الباء والباقون بالخفض (وأقيموا الصلاة) فيها ذكر المفسرون فى كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة الاول أن موسى عليه السلام ومن معه كانوا فى أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا فى بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم ويؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على هذه الحالة فى أول الاسلام بمكة الثانى أنه قيل انه تعالى لما أرسل موسى اليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بنى اسرائيل ومنعهم من الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون الثالث أنه تعالى لما أرسل موسى اليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى

وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل الله تعالى بأن يصونهم من شر
الاعداء وقد خص الله تعالى موسى وهرون فى أول هذه الآية بالخطاب بقوله تعالى أن تبوآ
لقومكما لان التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤس القوم للتشاور ثم عمم هذا الخطاب
فقال واجعلوا بيوتكم قبلة لان جعل البيوت مساجد واقامة الصلاة مما ينبغى أن يفعله كل
أحد ثم خص موسى عليه السلام فى آخر الكلام بالخطاب فقال تعالى (وبشر المؤمنين) أى
بالنصر فى الدنيا والجنة فى العقبى لان الغرض الاصلى من جميع العبادات حصول هذه البشارة
فخص الله تعالى موسى بهـا يدل بذلك على أن الاصل فى الرسالة هو موسى عليه السلام وان
هرون عليه السلام تبع له ثم ان موسى عليه السلام لما بالغ فى اظهار المعجزات القاهرة الظاهرة
ورأى القوم مصرين على الجحد والعناد والانكار أخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير
أن يذكر أولا سبب اقدامه على الجرائم وكان جرمهم هو لاجل حبهم الدنيا ذكر (و) لهذا السبب
(قال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه) أى أشراف قومه على ماهم عليه من الكفر والكبر
(زينة) أى عظيمة يتزينون بها من الحلية واللباس وغيرهما من الدواب والغلمان وأثاث البيت
الفاخر ونحو ذلك (وأموالا) أى كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما (فى الحياة الدنيا) روى عن
ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كان لهم من فسطاط مصر الى أرض الحبشة جبال فيها معادن
من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت ثم بين غايتها لهم فقال مفتتحا بالنداء باسم الرب ليعبده واتباعه
من مثل حالهم (ربنا) أى يا ربنا آتيتهم ذلك (ليضلوا) أى فى خاصة أنفسهم ويضلوا غيرهم
(عن سبيلك) أى دينك واللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون
ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل لام كى أى آتيتهم كى تفتنهم وقيل هو دعاء عليهم بما علم من ممارسة
أحوالهم أنه لا يكون غير ذلك وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بضم الياء والباقون بالفتح (ربنا
اطمس على أموالهم) أى امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة صارت أموالهم وحروثهم
وزروعهم وجواهرهم حجارة وقال محمد بن كعب جعل سكرهم حجارة وقال ابن عباس بلغنا
ان الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وانصافا وأثلاثا وارباعا ودعا عمر بن
عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فاخرج منها البيضة مشقوقة والجوزة
مشقوقة وانها كالحجر قال السدى مسخ الله تعالى أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق
والاطعمة فكانت احدى الآيات التسع (واشدد على قلوبهم) أى اطبع عليها واستوثق
حتى لا تنشرح للايمان وقوله (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم) جواب للدعاء أو دعاء بلفظ
النهى أو عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض وقوله تعالى (قال قد أجيبت دعوتكما) فيه
وجهان الاول قال ابن عباس ان موسى كان يدعو وهرون كان يؤمن فلذلك قال دعوتكما
وذلك أن من يقول عند دعاء الداعى آمين فهو أيضا داع لان قوله آمين تأويله استجب فهو سائل
كما ان الداعى سائل أيضا الثانى أن يكون كل منهما ذكر هذا غاية ما فى الباب أن يقال انه تعالى
حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله تعالى وقال موسى ربنا وهذا لا ينافى أن يكون هرون قد ذكر

الدعاء أيضا وأما قوله تعالى (فاستقيما) فمعناه اثبتا على الدعوة والرسالة والزيادة فى الزام الحجة فقد لبث نوح فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما فلا تستعجلا قال ابن جريج ان فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) أى الجاهلين الذين يظنون انه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا فى الحال فربما أجاب الله تعالى دعاء الانسان فى مطلوبه الا انه انما يوصله اليه فى وقته المقدور والاستعجال لا يصدر الامن الجهال وهذا كما قال تعالى لنوح عليه الصلاة والسلام انى أعظك أن تكون من الجاهلين وهذا النهى لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون والباقون بتشديدها لان نون التوكيد تثقل وتخفف ولما أجاب الله تعالى دعاءهما أمر بنى اسرائيل وكانوا ستمائة ألف بالخروج من مصر فى الوقت المعلوم ويسر لهم أسبابه وفرعون كان غافلا عن ذلك فلما سمع انهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج فى عقبهم كما قال تعالى (وجاوزنا) أى قطعنا (ببنى اسرائيل) أى عبدنا المخلص لنا (البحر) حتى بلغوا الشط حافظين لهم (فأتبعهم فرعون وجنوده) أى لحقهم وأدركهم يقال تبعه وأتبعه اذا أدركه ولحقه (بغيا وعدوا) أى ظلما وعدوانا وقيل بغيا فى القول وعدوا فى الفعل فلما أدركهم فرعون قالوا لموسى أين المخلص والمخرج البحر أمامنا وفرعون وراءنا قد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فأوحى الله تعالى الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق لموسى وقومه فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف عنه وجه الارض وانتشر لهم البحر فلما وصل فرعون الى البحر هابوا دخوله وكان فرعون على حصان أدهم وكان معه فى عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه وميكائيل يسوقهم حتى لم يشذ منهم احد فلما خرج آخر بنى اسرائيل من البحر تقدمهم جبريل على فرس وخاض البحر فلما وجد الحصان ريح الانثى لم يملك فرعون من أمره شيأ فنزل البحر واتبعه جنوده حتى اذا كملوا جميعا فى البحر وهم أولهم بالخروج انطم البحر عليهم فلما أتاه الغرق أتى بكلمة الاخلاص كما قال تعالى (حتى اذا أدركه الغرق) أى لحقه (قال آمنت أنه) أى بأنه (لا اله الا الذى امنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) (فان قيل) انه آمن ثلاث مرات أولها قوله آمنت وثانيها قوله لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وثالثها قوله وأنا من المسلمين فما السبب فى عدم القبول (اجاب) العلماء عن ذلك بأجوبة منها انه انما آمن عند نزول العذاب والايمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبول ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ودس جبريل فى فيه من حما البحر مخافة أن تناله الرحمة وقال له (آلآن) تؤمن (وقد عصيت قبل) وضيعت التوبة فى وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية (وكنت من المفسدين) بضلالك واضلالك عن الايمان والتوبة حتى أغلق بابها بحضور الموت ومعاينة الملائكة وانما قال له وكنت من المفسدين فى مقابلة قوله وأنا من المسلمين ومنها ان فرعون انما قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ولم يكن قصده الاقرار بوحدانية

الله تعالى والاعتراف له بالربوبية فلم ينفعه ما قال فى ذلك الوقت ومنها ان فرعون كان من الدهرية
المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى ولذلك قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به
بنو اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك فى ايمانه ومثل هذا الاعتقاد الفاسد لا تزول ظلمته
الا بنور الحجة القطعية والدلائل اليقينية ومنها ماروى فى بعض الكتب أن بعض أقوام بنى
اسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به
بنو اسرائيل انصرف ذلك الى العجل الذى آمنوا بعبادته فى ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة
فى حقه سببا لزيادة الكفر ومنها ان الايمان انما كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى وبالاقرار
بنبوة موسى عليه السلام وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح ايمانه ونظيره ان الواحد من الكفار
لو قال ألف مرة أشهد أن لا اله الا الله فانه لا يصح ايمانه الا اذا قال معه وأشهد أن محمدا رسول
الله فكذا هنا ومنها أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتوى ما قول الامير فى عبد نشأ
فى مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فرعون فيه يقول أبو
العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج عن سيده الكافر بنعمته أن يغرق فى البحر ثم ان
فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام اليه خطه (فان قيل) فما فائدة دس جبريل فى فم فرعون
ذلك لانه فى تلك الحالة اما أن يكون التكليف ثابتا أم لا فان كان فكيف يمنعه من التوبة وان
كان غير مكلف فلا فائدة فى ذلك (أجيب) بأن التكليف كان ثابتا وجبريل عليه السلام لم يفعل
ذلك من قبل نفسه فانه عبد مأمور والله تعالى يفعل ما يشاء كما قال تعالى فان الله يضل من يشاء
ويهدى من يشاء وقال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة وهكذا فعل
بفرعون منعه من الايمان عند الموت جزاء على تركه الايمان أولا فدس الحمأ فى فم فرعون من
جنس الختم والطبع على القلب ومن الناس من قال قائل هذا القول هو الله تعالى لانه ذكر بعده
(فاليوم ننجيك) أى نخرجك من البحر (ببدنك) أى جسمك الذى لا روح فيه كاملا سويا
لم يتغير أو نخرجك من البحر عريانا من غير لباس أو ان المراد بالبدن الدرع قال الليث البدن
هو الدرع الذى يكون قصير الكمين وهذا منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من ذهب
يعرف به فأخرجه الله تعالى من الماء مع ذلك الدرع ليعرف (لتكون لمن خلفك) أى بعدك
(آية) أى عبرة فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك وعن ابن عباس أن بعض بنى
اسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه ويشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا
منه قوله أنا ربكم الاعلى ليعلموا ان دعواه كانت باطلة وان ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء
الملك آل أمره الى ما يرون لعصيانه ربه (وان كثيرا من الناس عن آياتنا الغافلون) أى لا يعتبرون
بها وهذا الكلام ليس الا كلام الله تعالى ولكن القول الاول أشهر (ولقد بوأنا) أى أنزلنا
(بنى اسرائيل مبوأ صدق) أى منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام وانما وصف المكان
بالصدق لان عادة العرب اذا مدحت شيأ أضافته الى الصدق تقول العرب هذا رجل صدق
وقدم صدق والسبب فيه أن الشئ اذا كان كاملا صالحا لا بد أن يصدق الظن فيه وقيل أرض

الشام

الشأم والفرس والاردن لانها بلاد الخصب والخير والبركة (ورزقناهم من الطيبات) أى الحلالات المستلذات من الفواكه والحبوب والالبان والاعسال وغيرها فأورث تعالى بنى اسرائيل جميع ما كان تحت أيدى فرعون وقومه من الناطق والصامت والحرث والنسل كما قال تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها (فما اختلفوا) أى هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بنى اسرائيل فى أمر دينهم (حتى جاءهم العلم) أى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم وكانوا يخبرون ببعثه وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين فلما بعث صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا وايثار البقاء الرياسة وانهم ما اختلفوا فى دينهم الا من بعد ما قرؤا التوراة وعلموا أحكامها (ان ربك) يا محمد (يقضى بينهم يوم القيامة) أى الذى هو أعظم الايام (فيما كانوا) أى بأفعالهم الجبلية (فيه يختلفون) أى فيتميز الحق من الباطل والصديق من الزنديق ويسكن كلا داره واختلف المفسرون فيمن المخاطب بقوله تعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب) أى التوراة (من قبلك) أى فانه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه فقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر والمراد أمته كقوله تعالى يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وقوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ومن الامثلة المشهورة اياك أعنى واسمعى ياجارة والذى يدل على صحة ذلك وجوه الاول قوله تعالى فى آخر السورة يا أيها الناس فبين أن ذلك المذكور فى أول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون فى هذه الآية على سبيل التصريح الثانى أنه صلى الله عليه وسلم لو كان شاكا فى نبوة نفسه لكان شك غيره فى نبوته أولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية الثالث اذا قدر أن يكون شاكا فى نبوة نفسه فكيف يزول ذلك الشك باخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم فى الاكثر كفار فثبت أن الخطاب وان كان فى الظاهر معه صلى الله عليه وسلم الا أن المراد هو الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان اذا كان له أمير وتحت راية ذلك الامير جمع فاذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فانه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الامير الذى جعله أميرا عليهم ليكون ذلك أشد تأثيرا فى قلوبهم وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم على حقيقته ولكن الله تعالى علم أنه صلى الله عليه وسلم لا يشك فى ذلك الا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام فانه يصرح ويقول يارب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل أكتفى بما أنزلته على من الدلائل الظاهرة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لا أشك ولا أسأل أحدا منهم ونظيره هذا قوله للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن وكما قال تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين

والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة من ذلك فكذلك هنا وقرأ ابن كثير
والكسائي بنقل حركة الهمزة الى السين والباقون بالهمزة وسكون السين وقيل الخطاب
لكل من يسمع أى ان كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا على لسان نبينا اليك وفيه تنبيه على أن
من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع الى حلها بالرجوع الى أهل العلم وأظهر هذه الاقوال
أولها وهذه الاقوال تجرى فى قوله تعالى (لقد جاءك الحق من ربك) أى الآيات القاطعة
لا مدخل للمرية فيه (فلا تكونن من الممترين) أى الشاكين فيه وفى قوله تعالى (ولا تكونن
من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) أى الذين خسروا أنفسهم (ان الذين
حقت عليهم كلمة ربك) أى ثبت عليهم قوله تعالى الذى كتبه فى اللوح المحفوظ وأخبر به
الملائكة أنهم (لا يؤمنون) أى يموتون كفارا فلا يكون غيره اذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض
قضاؤه (ولو جاءتهم كل آية) فان السبب الاصلى لايمانهم وهو تعلق ارادة الله تعالى به مفقود
فان الدليل لا يهدى الا باعانة الله تعالى واذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الدلائل (حتى
يروا العذاب الاليم) فحينئذ لا ينفعهم الايمان كما لم ينفع فرعون وقرأ نافع وابن عامر كلمات
بألف بعد الميم على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد * القصة الثالثة قصة يونس عليه السلام
المذكورة بقوله تعالى (فلولا) أى فهلا (كانت قرية) واحدة من قرى الامم الماضية التى
أهلكناها (آمنت) أى آمن أهلها عند اتيان الآيات أو عند رؤية أسباب العذاب (فنفعها)
أى فتسبب عن ايمانها ذلك أنه نفعها (ايمانها) بأن تقبله الله تعالى منها وكشف العذاب عنها
وقوله تعالى (الا قوم يونس) استثناء منقطع بمعنى لكن قوم يونس (لما آمنوا) أى لما أخلصوا
الايمان أول ما رأوا آية العذاب ولم يؤخروه الى حلوله (كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة
الدنيا) ويجوز أن يكون متصلا والجملة فى معنى النفى لتضمن حرف التحضيض معناه كأنه قيل
ما آمن أهل قرية من القرى الهالكة فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس (ومتعناهم الى حين) أى
الى انقضاء آجالهم روى عن ابن مسعود وغيره ان قوم يونس كانوا بأرض نينوى من أرض
الموصل فأرسل الله تعالى اليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الايمان فدعاهم فأبوا فقيل له
ان العذاب مصبحهم الى ثلاثة أيام فاخبرهم بذلك فقالوا انا لم نجرب عليك كذبا فانظروا فان
بات فيكم تلك الليلة فليس بشئ وان لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان فى جوف تلك
الليلة خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤسهم
قدر ميل وقال وهب غامت السماء غيما عظيما أسود هائلا يدخن دخانا عظيما فهبط حتى غشى
مدينتهم واسودت سطوحهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه
وقذف الله تعالى فى قلوبهم التوبة فخرجوا الى الصعيد بانفسهم ونسائهم واولادهم ودوابهم
ولبسوا المسوح وأظهروا الايمان والتوبة وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من
النساء والدواب فحن بعضها الى بعض وعلت أصواتها واختلطت بأصواتهم وعجوا وتضرعوا
الى الله تعالى وقالوا آمنا بما جاء به يونس عليه السلام فرحمهم الله تعالى واستجاب دعاءهم

وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم وكل ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بلغ من توبتهم ان ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقلع الحجر وكان قد وضع عليه أساس بنيانه فيرده وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا اله الا أنت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل بن عياض اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله وستأتي بقية القصة ان شاء الله تعالى في سورة والصافات (فان قيل) قد حكى الله تعالى عن فرعون انه تاب في آخر الامر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس أنهم آمنوا وقبل توبتهم فما الفرق بين الحالين (أجيب) بأن فرعون انما تاب بعد أن شاهد العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وأما قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك فانهم لما ظهرت أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية وان الله تعالى قد علم صدق نياتهم في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه لم يصدق في ايمانه ولا أخلص فلم يقبل منه قال الله تعالى (ولو شاء ربك) يا محمد (لآمن) بك وصدقك (من في الارض كلهم) بحيث لم يشذ منهم أحد (جميعا) أي مجتمعين على ذلك في آن واحد لا يختلفون في شيء منه ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك الا من سبقت له السعادة في الازل وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فانه كان حريصا على ايمانهم كلهم فأخبر الله تعالى أنه لا يؤمن به الا من سبقت له السعادة الازلية فلا تتعب نفسك على ايمانهم وهو قوله تعالى (أفأنت تكره الناس) أي الذين لم يرد الله ايمانهم (حتى يكونوا مؤمنين) أي ليس ايمانهم اليك حتى تكرههم عليه وتحرص عليه انما ايمان المؤمن واضلال الكافر بمشيئة الله تعالى وقضائه وليس لاحد ذلك سواه كما قال تعالى (وما كان) أي وما ينبغي وما يتأتى (لنفس) أي واحدة فما فوقها (أن تؤمن) أي يقع منها ايمان في وقت ما (الا باذن الله) أي بارادته لها بالايمان فان هدايتها الى الله فهو المهدي والمضل وقال ابن عباس بأمر الله وقال عطاء بمشيئة الله (ويجعل) الله (الرجس) أي العذاب والخذلان فانه سببه وقرأ شعبة وحده بالنون (على الذين لا يعقلون) أي لا يتدبرون في آيات الله تعالى فينتفعوا بها وهم يدعون انهم أعقل الناس ويتساقطون في مساوي الاخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها فلا تذهب نفسك عليهم حسرات * ولما بين الله تعالى في الآيات السابقة أن الايمان لا يحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال في الدلائل بقوله تعالى (قل انظروا) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات (ماذا) أي الذي (في السموات والارض) من الآيات وواضح الدلالات من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته ففي العالم العلوي الشمس والقمر وهما دليلان على الليل والنهار والنجوم وحركات الافلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب وما يختص بذلك من المنافع وفي العالم السفلي الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان وأخصها حال الانسان كل ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وأنه خالقها كما قال

القائل وفي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

وقرأ عاصم وحمزة في الوصل بكسر اللام والباقون بضمها وأمّا الهمزة من انظروا فكل القراء يبتدؤن بالضم (وماتغني الآيات) أي وان كانت في غاية الوضوح (والنذر) جمع نذير أي الرسل (عن قوم لا يؤمنون) في علم الله تعالى وحكمه *(تنبيه)* قال النحويون ماهنا تحتمل وجهين الاوّل أن تكون نفيا بمعنى انّ هذه الآيات والنذر لا تفيد الفائدة في حق من حكم الله تعالى عليه بأنه لا يؤمن كقولك لا يغني عنك المال اذا لم تنفق والثاني أن تكون استفهاما كقولك أي شيء يغني عنهم وهو استفهام بمعنى الانكار (فهل) أي ما (ينتظرون) أي أهل مكة بتكذيبك (الا) أياما أي وقائع (مثل أيام) أي وقائع (الذين خلوا من قبلهم) أي من مكذبي الامم كالقبط وقوم نوح وما انطوى بينهما من الامم أي مثل وقائعهم من العذاب (قل) أي قل لهم يا محمد (فانتظروا) أي العذاب (اني معكم من المنتظرين) أي لنزول العذاب بكم وقوله تعالى (ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا) عطف على محذوف دل عليه قوله تعالى الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم كأنه قيل نهلك الامم ثم ننجي رسلنا ومن آمن بهم على حكاية الاحوال الماضية وقرأ أبو عمرو وحده بسكون السين (كذلك) أي كما نجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك (حقا علينا ننج المؤمنين) أي ننجيك يا محمد ومن آمن معك وصدّقك من الهلاك والعذاب (فان قيل) قوله تعالى حقا يقتضي الوجوب والله تعالى لا يجب عليه شيء (أجيب) بأنّ ذلك حق بحسب الوعد والحكم لأنه حق بحسب الاستحقاق لما ثبت أنّ العبد لا يستحق على خالقه شيأ وهو اعتراض بين المشبه والمشبه به ونصب بفعله المقدر وقيل بدل من ذلك وقرأ حفص والكسائي بسكون النون الثانية والباقون بفتحها وأمّا الوقف عليها فجميع القراء يقفون على الجيم لانها مرسومة في المصحف بالجيم بلا ياء فهي في القرآن وقفا ووصلا بلا ياء لجميع القراء ولما ذكر تعالى الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باظهار دينه فقال (قل) يا محمد (يا أيها الناس) أي الذين أرسلت اليهم فشكوا في أمرك ولم يؤمنوا بك (ان كنتم في شك من ديني) أي الذي أدعوكم اليه انه حق وأصررتم على ذلك وعبدتم الاصنام التي لا تضر ولا تنفع (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) أي غيره وهو الاصنام التي لا قدرة لها على شيء (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) بقبض أرواحكم التي لا شيء عندكم بعدلها فانه الذي يستحق العبادة وانما خص الله تعالى هذه الصفة للتهديد وقيل انهم لما استعجلوا بطلب العذاب اجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذي هو قادر على اهلاككم ونصري عليكم (وأمرت أن) أي بأن (أكون من المؤمنين) أي المصدقين بما جاء من عند الله وقيل انه لما ذكر العبادة وهي من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الايمان لانه من أعمال القلوب (فان قيل) كيف قال في شك وهم كفار يعتقدون بطلان ما جاء به (أجيب) بأنه كان فيهم شاكون أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا في أمره صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وأن أقم وجهك للدين) عطف على أن أكون غير أنّ صلة

ان

أن محكية بصيغة الامر ولا فرق بينهما فى الغرض لان المقصود وصلها بما تضمن معنى المصدر ليدل معه عليه وصيغ الافعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب والمعنى وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستعداد فيه بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح أو فى الصلاة باستقبال القبلة وقوله (حنيفا) حال من فاعل أقم أو من الدين أو من الوجه ومعناه مائلا مع الدين غير معوج عنه الى دين آخر وقوله تعالى (ولا تكونن من المشركين) أى ممن يشرك بالله فى عبادته غيره فتهلك خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته أى ولا تكونن أيها الانسان وكذا قوله تعالى (ولا تدع) أى تعبد (من دون الله) أى غيره (ما لا ينفعك) أى ان عبدته (ولا يضرك) ان لم تعبده (فان فعلت) ذلك (فانك اذا من الظالمين) لنفسك لانك وضعت العبادة فى غير موضعها والظلم وضع الشئ فى غير محله فاذا كان ماسوى الحق معزولا عن التصرف كان اضافة التصرف الى ماسوى الحق وضعا للشئ فى غير موضعه فيكون ظلما * ولما ذكر تعالى الاوثان وبين أنها لا تقدر على ضر ولا نفع بين تعالى أنه هو القادر على كل شئ وأنه ذو الجود والكرم والرحمة بقوله تعالى (وان يمسسك) أى يصبك (الله بضر) كفقر ومرض (فلا كاشف) أى لا دافع (له الا هو) لانه الذى أنزله بك (وان يردك بخير) كرخاء وصحة (فلا راد) أى دافع (لفضله) أى الذى أرادك به (يصيب به) أى بالخير (من يشاء من عباده وهو الغفور) أى البليغ الستر للذنوب (الرحيم) أى البالغ فى الاكرام وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائى بسكون الهاء والباقون بالضم فرجح سبحانه وتعالى جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه الاول أنه تعالى لما ذكر امساس الضر بين أنه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار لان الاستثناء من النفى اثبات ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال انه لا راد لفضله وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات وأن الشر مطلوب بالعرض كما قال صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى انه قال سبقت رحمتى غضبى الثانى أنه سبحانه وتعالى قال فى صفة الخير يصيب به من يشاء من عباده وذلك يدل على أن جانب الخير أقوى وأغلب الثالث أنه تعالى قال وهو الغفور الرحيم وهذا أيضا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام فى هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع وأنه لا موجد سواه ولا معبود الا اياه وأن جميع الممكنات مستندة اليه وجميع الكائنات محتاجة فالايدى مرفوعة اليه والحاجات منتهية اليه والعقول والهة فيه والرحمة والجود فائض منه * ولما قرر تعالى الدلائل المذكورة فى التوحيد والنبوة والمعاد وزين أمر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مبتدئا بالخلق والابداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية لئلا يبقى لاحد عذر بقوله تعالى (قل) يا محمد (يا أيها الناس) أى الذين أرسلت اليهم (قد جاءكم الحق من ربكم) هو رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله تعالى والقرآن فلم يبق لكم عذر (فمن اهتدى) أى آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم وعمل بما فى الكتاب (فانما يهتدى لنفسه) لانه اتبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل فأنقذ نفسه من النار وأوجب لها

الجنة فثواب اهتدائه له (ومن ضل) أى كفر بها أو بشئ منها (فانما يضل عليها) أي على نفسه لان وبال ضلاله عليها الان من ترك الباقى وتمسك بما ليس فى يده منه شئ فقد غر نفسه ثم قال صلى الله عليه وسلم (وما أنا عليكم بوكيل) أى حفيظ أى موكول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير قال ابن عباس وهذه الآية منسوخة بآية السيف قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (واتبع) يا محمد (ما يوحى اليك) بالامتثال والتبليغ (واصبر) أى على دعوتهم وتحمل أذيتهم (حتى يحكم الله) أى بنصرك عليهم واظهار دينك أو بالامر بالقتال (وهو خير الحاكمين) اذ لا يمكن الخطأ فى حكمه تعالى لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر فحكم بقتل المشركين والجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يدوهم صاغرون وأنشد بعضهم فى الصبر

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى * وأصبر حتى يحكم الله فى أمرى
سأصبر حتى يعلم الصبر أننى * صبرت على شئ أمر من الصبر

وروى أن أبا قتادة تخلف عن تلقى معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الانصار ثم دخل المدينة فقال له مالك لم تتلقنا قال لم يكن عندنا دواب قال فأين النواضح قال قطعناها فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر وقد قال صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار انكم ستلقون بعدى أثرة قال معاوية فماذا قال قال فاصبروا حتى تلقونى قال فاصبر قال اذا نصبر فقال عبد الرحمن بن حسان

ألا أبلغ معاوية بن حرب * أمير الظالمين نثا كلامى
بأنا صابرون فنظروكم * الى يوم التغابن والخصام

وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق يونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون حديث موضوع

(سورة هود عليه السلام مكية)

الا وأقم الصلاة الآية والا فلعلك تارك الآية وأولئك يؤمنون به الآية مائة وثلاث أو ثلاث وعشرون آية وكلماتها ألف وسبعمائة وخمس عشرة وحروفها سبعة آلاف وستمائة وخمسة أحرف وعن أبى بكر رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتنى هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية

(بسم الله) أى الذى له تمام العلم وكمال الحكمة وجميع القدرة (الرحمن) لجميع خلقه بعموم البشارة والنذارة (الرحيم) لاهل ولايته بالحفظ فى سلوك سبيله وقوله تعالى (الر كتاب) مبتدأ وخبر أو كتاب خبر مبتدأ محذوف وتقدم الكلام على أوائل السور أول سورة البقرة وقرأ أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائى بالامالة والباقون بالفتح وقوله تعالى (أحكمت آياته) صفة للكتاب وفسر الاحكام بوجوه الاول أحكمت آياته أى نظمت نظما محكما لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم المرصف ولا يعتريه اخلال من جهة اللفظ والمعنى ولا يستطيع أحد

نقض شئ منه ولا الطعن فى شئ من بلاغته أو فصاحته الثانى ان الاحكام عبارة عن منع الفساد من الشئ فقوله أحكمت اياته أى لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به كما قال ابن عباس الثالث أنها أحكمت بالحجج والدلائل أو جعلت حكيمة منقول من حكم بالضم اذا صار حكيما لانها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية وقوله تعالى (ثم فصلت) صفة أخرى للكتاب أى بينت بالاحكام والقصص والمواعظ والاخبار وبالانزال نجما نجما أو فصل فيها ولخص ما يحتاج اليه أو جعلها سورا وقال الحسن أحكمت بالامر والنهى ثم فصلت بالوعد والوعيد *(تنبيه)* معنى ثم فى قوله ثم فصلت ليس للتراخى فى الوقت لكن فى الحال كما تقول هى محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل وفلان كريم الاصل ثم كريم الفعل وقوله تعالى (من لدن حكيم خبير) أى الله تعالى صفة أخرى للكتاب والتقدير الركتاب من حكيم خبير أو خبر بعد خبر والتقدير الرمن لدن حكيم خبيرا أو صلة لاحكمت وفصلت أى أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير وعلى هذا التقدير قد حصل بين أوائل هذه السورة وبين آخرها مناسبة لطيفة كأنه يقول تعالى أحكمت آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الامور وقوله تعالى (أن لا تعبدوا الا الله) يحتمل وجوها الاول أن تكون مفعولا له والتقدير كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لاجل أن لا تعبدوا الا الله الثانى أن تكون مفسرة لان فى تفصيل الآيات معنى القول قال الرازى والحمل على هذا أولى لان قوله تعالى وأن استغفروا معطوف على قوله تعالى أن لا تعبدوا فيجب أن يكون معناه أى لا تعبدوا ليكون الامر معطوفا على النهى فان كونه بمعنى لان لا تعبدوا يمنع عطف الامر عليه الثالث أن يكون كلاما مبتدأ منقطعا عما قبله على لسان النبى صلى الله عليه وسلم اغراء منه على اختصاص الله تعالى بالعبادة ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم (اننى لكم منه) أى الله (نذير) بالعقاب على الشرك (وبشير) بالثواب على التوحيد كأنه قيل ترك عبادة غير الله تعالى بمعنى اتركوها اننى لكم منه نذير وبشير كقوله تعالى فضرب الرقاب *(تنبيه)* هذه الآية الكريمة مشتملة على أشياء مترتبة الاول أنه تعالى أمر أن لا تعبدوا الا الله لان ماسواه محدث مخلوق مربوب وانما حصل بتكوين الله وايجاده والعبادة عبارة عن اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وذلك لا يليق الا بالخالق المدبر الرحيم المحسن فثبت ان عبادة غير الله تعالى منكرة المرتبة الثانية قوله تعالى (وان استغفروا ربكم) المرتبة الثالثة قوله (ثم توبوا اليه) واختلفوا فى بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه الاول أن معنى قوله وأن استغفروا أى اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم بين الشئ الذى يطلب به ذلك وهو التوبة فقال ثم توبوا اليه لان الداعى الى التوبة والمحرك عليها هو الاستغفار الذى هو عبارة عن طلب المغفرة فالاستغفار مطلوب بالذات والتوبة مطلوبة لكونها من مهمات الاستغفار وما كان آخرا فى الحصول كان أولا فى الطلب فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة الثانى وأن استغفروا من الشرك والمعاصى ثم توبوا أى ارجعوا

اليه بالطاعة الثالث الاستغفار طلب من الله تعالى لازالة مالا ينبغي والتوبة سعي من الانسان
فى ازالة مالا ينبغي فقدم الاستغفار ليدل على ان المؤمن يجب عليه أن لا يطلب الشئ الا من
مولاه فانه هو الذى يقدر على تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل يأتى به الانسان
ويتوسل به الى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى تقدم على الاستعانة بسعي النفس
ثم انه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار المطلوبة ومن
المعلوم ان المطالب محصورة فى نوعين لانه انما يكون حصولها فى الدنيا أو فى الآخرة اما المنافع
الدنيوية فهى المرادة من قوله تعالى (يمتعكم متاعا حسنا) أى بطيب عيش وسعة رزق (الى أجل
مسمى) وهو الموت (فان قيل) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر
وقال أيضا خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وقال تعالى ولولا أن يكون
الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة فهذه النصوص دالة على أن
نصيب المشتغل بالطاعات فى الدنيا هو الشدة والبلية ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل
بالطاعات الراحة فى الدنيا فكيف الجمع بينهما (أجيب) بأن المشتغل بعبادة الله ومحبته مشتغل
بحب شئ يمتنع تغيره وزواله وفناؤه فكلما كان امعانه فى ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان
انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل وكلما كان الكمال فى هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور
أكمل لانه أمن من تغير مطلوبه وأمن من زوال محبوبه وأما من كان مشتغلا بحب غير الله كان
أبدا فى ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله وكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ولذلك قال تعالى
فى صفة المشتغلين بخدمته فلنحيينه حياة طيبة وقيل المراد بالمتاع الحسن عدم العذاب
بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا وسمى سبحانه وتعالى منافع الدنيا
بالمتاع لاجل التنبيه على حقارتها وقلتها ونبه تعالى على كونها منقضية بقوله تعالى الى أجل
مسمى فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية وأما المنافع الاخروية فقد
ذكرها تعالى بقوله تعالى (ويؤت) أى فى الآخرة (كل ذى فضل) أى فى العمل (فضله)
أى جزاءه لان مراتب السعادة فى الآخرة مختلفة لانها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة
فى الدنيا فلما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية
فكذلك مراتب السعادات الاخروية غير متناهية فلهذا السبب قال تعالى ويؤت كل ذى
فضل فضله وقال أبو العالية من كثرت طاعاته فى الدنيا زادت درجاته فى الآخرة وقال ابن عباس
من زادت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن زادت سيآته على حسناته دخل النار ومن
استوت سيآته وحسناته كان من أهل الاعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل
سيئة كتبت له سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التى عملها
فى الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقى له
تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلب آحاده أعشاره وقوله تعالى (وان تولوا) فيه
حذف احدى التاءين أى وان تعرضوا عما جئتكم به من الهدى (فانى) أى فقل لهم انى (أخاف

عليكم عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجيف (الى الله مرجعكم) أى رجوعكم فى ذلك اليوم فيثيب المحسن على احسانه ويعاقب المسىء على اساءته (وهو على كل شئ قدير) أى قادر على جميع المقدورات لا دافع لقضائه ولا مانع لمشيئته ومنه الثواب والعقاب وفى ذلك دلالة على قدرة عالية وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف لهذا العبد والملك القاهر العالى اذا رأى عاجزا مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك ومنه المثل المشهور ملكت فأسجح أى فاعف يقول مصنف هذا الكتاب قد أفنيت عمرى فى خدمة العلم ومطالعة الكتب ولا رجاء لى فى شئ الا أنى فى غاية الذلة والقصور والكريم اذا قدر عفا فأسألك يا أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين أن تفيض سجال رحمتك على وعلى والدى وأولادى وإخوانى وأحبابى وأن تخصنى واياهم بالفضل والتجاوز والجود والكرم واختلفوا فى سبب نزول قوله تعالى (الا انهم يثنون صدورهم) فقال ابن عباس نزلت فى الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوى بقلبه على ما يكره فمعنى قوله تعالى يثنون صدورهم يخفون ما فى صدورهم من الشحناء والعداوة وقال عبد الله بن شداد نزلت فى بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لا يراه النبى صلى الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون ظهورهم كى لا يسمعوا كلام الله تعالى ولا ذكره وروى البخارى عن ابن عباس أنها نزلت فيمن كان يستحى أن يتخلى أو يجامع فيفضى الى السماء وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما فى قلبى وقال السدى يثنون صدورهم أى يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عنانى (ليستخفوا منه) أى من الله تعالى بسرهم فلا يطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عليه وقيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قيل انها نزلت فى طائفة من المشركين قالوا ان أرخينا علينا ستورا واستغشينا ثيابا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم (ألا حين يستغشون ثيابهم) أى يأوون الى فراشهم ويتغطون بثيابهم (يعلم) تعالى (ما يسرون) فى قلوبهم (وما يعلنون) بأفواههم أى أنه لا تفاوت فى علمه تعالى بين اسرارهم واعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يريدون من الاخفاء (انه) تعالى (عليم بذات الصدور) أى بالقلوب وأحوالها ولما علم تعالى أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون أردفه بما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات بقوله تعالى (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) فذكر تعالى ان رزق كل حيوان انما يصل اليه من الله تعالى فلو لم يكن عالما بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات والدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الارض ولا شك ان أقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة وهى الاجناس التى تكون فى البر والبحر والجبال والله تعالى عالم بكيفية طباعها واعضائها واحوالها وأغذيتها ومساكنها وما يوافقها ويخالفها فالاله المدبر لاطباق السموات والارض ولطبائع الحيوانات والنبات كيف لا يكون عالما بأحوالها

روى أنّ موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرج منها صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرج منها صخرة ثالثة ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفي فيها شيء يجري مجرى الغذاء لها ورفع الله تعالى الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع ان الدودة كانت تقول سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعرف مكاني ويذكرني ولا ينساني (فان قيل) انّ كلمة على للوجوب فيدل على ان ايصال الرزق الى الدابة واجب على الله تعالى (أجيب) بأنه تعالى انما أتى بذلك تحقيقا لوصوله بحسب الوعد والفضل والاحسان وحملا على التوكل فيه وفي هذه الآية دليل على ان الرزق قد يكون حراما لانه ثبت ان ايصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد والله تعالى لا يخل به ثم قد نرى ان انسانا لا يأكل من الحلال طول عمره فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما أوصل رزقه اليه فيكون الله تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال فعلمنا ان الحرام قد يكون رزقا (ويعلم) تعالى (مستقرها) قال ابن عباس هو المكان الذى تأوى اليه وتستقر فيه ليلا ونهارا (ومستودعها) هو الذى تدفن فيه اذا ماتت وقال عبد الله ابن مسعود المستقر أرحام الامهات والمستودع المكان الذى تموت فيه وقال عطاء المستقر أرحام الامهات والمستودع أصلاب الآباء وقيل الجنة أو النار والمستودع القبر لقوله تعالى فى صفة الجنة والنار حسنت مستقرا وساءت مستقرا ومقاما ولا مانع أن يفسر ذلك بهذا كله (كل) أى كل واحدة من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها (فى كتاب) أى ذكرها مثبت فى اللوح المحفوظ (مبين) أى بين كما قال تعالى ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين ولما أثبت تعالى بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات أثبت كونه تعالى قادرا على كل المقدورات بقوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) أى من أيام الدنيا أولها الاحد وآخرها الجمعة وتقدم الكلام على تفسير ذلك فى سورة الاعراف (وكان عرشه على الماء) قال كعب خلق ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء وقال أبو بكر الاصم ومعنى قوله تعالى وكان عرشه على الماء كقولهم السماء على الارض وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقا بالآخر وقال حمزة ان الله عز وجل كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وخلق القلم فكتب به ما هو خالقه وما هو كائن من خلقه ثم ان ذلك الكتاب سبح الله تعالى ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيأ من خلقه ففى هذا دلالة على كمال قدرته تعالى لان العرش مع كونه أعظم من السموات والارض كان على الماء وقد أمسكه الله تعالى من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وقوله تعالى (ليبلوكم) متعلق بخلق أى خلقها وما فيها منافع لكم ومصالح ليختبركم وهو أعلم بكم منكم (أيكم أحسن عملا) أى أطوع لله وأورع عن محارم الله وهذا القيام الحجة عليهم وقد مرّ أمثال ذلك ولما بين تعالى أنه انما خلق هذا العالم لاجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم وهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر لان الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة

والثواب وتخصيص المسىء بالعقاب وذلك لايتم الامع الاعتراف بالمعاد والقيامة خاطب تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فقال جلا وعلا (ولئن قلت) يامحمد لهؤلاء الكفار من قومك (انكم مبعوثون من بعد الموت) أى للحساب والجزاء (ليقولن الذين كفروا ان) أى ما (هذا) أى القرآن بالبعث أو الذى تقوله (الا سحر مبين) أى بين وقرأ حمزة والكسائى بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء فيكون ذلك راجعا للنبى صلى الله عليه وسلم والباقون بكسر السين وسكون الحاء ولما حكى تعالى عن الكفار أنهم يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم حكى عنهم نوعا آخر بقوله تعالى (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى) مجىء (أمة) أى جماعة من الاوقات (معدودة) أى قليلة (ليقولن) أى استهزاء (ما يحبسه) أى ما يمنعه من الوقوع قال الله تعالى (ألا يوم يأتيهم) كيوم بدر (ليس مصروفا) أى مدفوعا العذاب (عنهم وحاق) أى نزل (بهم) من العذاب (ما كانوا به يستهزؤن) أى الذى كانوا يستعجلون فوضع يستهزؤن موضع يستعجلون لان استعجالهم كان استهزاء (فان قيل) لم قال تعالى وحاق على لفظ الماضى مع أن ذلك لم يقع (أجيب) بأنه وضع الماضى موضع المستقبل تحقيقا ومبالغة فى التأكيد والتقرير والتهديد ولما ذكر تعالى أن عذاب الكفار وان تأخر الا أنه لا بد وأن يحيق بهم ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب بقوله تعالى (ولئن أذقنا) أى أعطينا (الانسان) أى الكافر (منا رحمة) أى نعمة كغنى وصحة بحيث يجد لذتها (ثم نزعناها) أى سلبنا تلك النعمة (منه انه ليؤس) أى قنوط من رحمة الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به (كفور) أى جحود لنعمتنا عليه وأما المسلم الذى يعتقد أن تلك النعمة من جود الله تعالى وفضله واحسانه فانه لا يحصل له اليأس بل يقول لعله تعالى يردها على بعد ذلك أحسن وأكمل وأفضل مما كانت (ولئن أذقناه) أى الكافر (نعماء بعد ضراء مسته) كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم وفى اختلاف الفعلين وهما أذقناه ومسته من حيث الاسناد اليه تعالى فى الاول والى الضراء فى الثانى نكتة عظيمة وهى أن النعمة صادرة من الله تعالى تفضلا منه لخبر ما أحد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى قيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا والضر صادر من العبد كسبا لانه السبب فيه باجتلابه اياه بالمعاصى غالبا لقوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولا ينافى ذلك قوله تعالى قل كل من عند الله فان الكل منه ايجادا غير أن الحسنة احسان وامتحان والسيئة مجازاة وانتقام لخبر ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله الا بذنب وما يعفو الله أكثر (ليقولن) أى الذى أصابه الصحة والغنى (ذهب السيئات) أى المصائب التى أصابتنى (عنى) ولم يتوقع زوالها ولا يشكر عليها (انه لفرح) أى فرح بطر (فخور) على الناس بما أذاقه الله تعالى من نعمائه وقد شغله الفرح والفخر عن الشكر فبين سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن أحوال الدنيا غير باقية بل هى أبدا فى التغير والزوال والتحول والانتقال فان الانسان اما أن يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الآفات كالقسم الاول واما أن يكون بالعكس من ذلك وهو أن ينتقل من المكروه الى المحبوب كالقسم

الثانى ولما بين تعالى أن الكافر عند الابتلاء لا يكون من الصابرين وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين بين حال المتقين بقوله تعالى (الا) أى لكن (الذين صبروا) على الضراء (وعملوا الصالحات) أى فى النعماء أى فانهم ان أصابتهم شدة صبروا وان نالتهم نعمة شكروا (أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) فجمع لهم تعالى بين هذين المطلوبين أحدهما زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله تعالى لهم مغفرة والثانى الفوز بالثواب ودخول الجنة وهو المراد من قوله تعالى وأجر كبير (فلعلك) يا محمد (تارك بعض ما يوحى اليك) فلا تبلغهم اياه لتهاونهم به فانهم كانوا يستهزؤن بالقرآن ويضحكون منه وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح (وضائق به صدرك) أى بتلاوته عليهم لاجل (أن يقولوا لولا) أى هلا (أنزل عليه كنز) ينفقه فى الاستتباع كالملوك (أو جاء معه ملك) يصدقه كما اقترحنا وروى عن ابن عباس أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزل (انما أنت نذير) فلا عليك الا البلاغ لا الاتيان بما اقترحوه (والله على كل شئ وكيل) فتوكل عليه انه عالم بحالهم وفاعل بهم بجزاء أقوالهم وأفعالهم (أم) أى بل (يقولون) كفار مكة (افتراه) أى اختلقه من تلقاء نفسه وليس هو من عند الله قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد (فأتوا بعشر سور مثله) فى البيان وحسن النظم (مفتريات) فانكم عربيون مثلى قال ابن عباس هذه السور التى وقع بها هذا التحدى معينة وهى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة ويونس وهود وقيل التحدى وقع بمطلق السور وهو متقدم على التحدى بسورة واحدة والتحدى بسورة واحدة وقع فى سورة البقرة وفى سورة يونس اما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر لان هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية وأما فى سورة يونس فلان كل واحدة من هاتين السورتين مكية فتكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس كما قاله الرازى وأنكر المبرد هذا وقال بل سورة يونس أولا وقال معنى قوله فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله أى مثله فى الخبر عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد فعجزوا فقال لهم فى سورة هود ان عجزتم عن الاتيان بسورة مثله فى الاخبار والاحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور من غير وعد ولا وعيد وانما هى مجرد البلاغة (وادعوا) أى وقل لهم يا محمد ادعوا للمعاونة على ذلك (من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) فى أنه مفترى والضمير فى قوله تعالى (فان لم يستجيبوا لكم) أى باتيان ما دعوتموهم اليه للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لانه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم وقال تعالى فى موضع آخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم والتعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم (فاعلموا انما أنزل) ملتبسا (بعلم الله) أى بما لا يعلمه الا الله تعالى من نظم يعجز الخلق واخبار بغيوب لا سبيل لهم اليه ولا يقدر عليه سواه وقوله تعالى (وان) مخففة من الثقيلة أى وانه (لا اله الا هو) وحده وان توحيده واجب والاشراك به ظلم عظيم (فهل أنتم مسلمون) أى ثابتون على الاسلام راسخون مخلصون فيه اذ

تحقق عندكم اعجازه مطلقا وقيل الخطاب للمشركين والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم أي فان لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه فاعلموا أنه منزل من عند الله وأن ما دعاكم اليه من التوحيد حق فهل أنتم بعد هذه الحجة القاطعة مسلمون أي أسلموا وفي مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واختلف في سبب نزول قوله تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) أي بعمله الذي يعمل من أعمال البر (نوف اليهم أعمالهم) أي التي عملوها من خير كصدقة وصلة رحم (فيها) أي في الدنيا (وهم فيها لا يبخسون) أي نوصل اليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الاولاد ونحو ذلك (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط) أي بطل (ما صنعوا) أي عملوا (فيها) أي الآخرة فلا ثواب لهم (وباطل ما كانوا يعملون) لانه لغير الله تعالى فقال مجاهد نزلت في أهل الرياء قال صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء والرياء هو أن يظهر الانسان الاعمال الصالحة ليحمده الناس ويعتقدوا فيه الصلاح فهذا هو العمل الذي لغير الله تعالى نعوذ بالله من الخذلان وقال أكثر المفسرين انها نزلت في الكافر وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وارادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا وقيل نزلت في المنافقين الذين يطلبون بغزوهم مع النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم من غير أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها وقيل في اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس ولما ذكر تعالى الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة بقوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) قيل هو النبي صلى الله عليه وسلم والبينة هي القرآن (ويتلوه) أي يتبعه (شاهد) يصدقه (منه) أي من الله تعالى وهو جبريل عليه السلام (ومن قبله) أي القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة شاهد له أيضا وقوله تعالى (اماما) أي كتابا مؤتما به في الدين (ورحمة) أي على المنزل عليهم لانه الوصلة الى الفوز بسعادة الدارين حال من كتاب موسى والجواب محذوف لظهوره والتقدير أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الآخرة الا النار ليس مثله بل بينهم تفاوت بعيد وتباين بين وقيل هو من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره والمراد بالبينة هو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ومنه أي من الله ومن قبله كتاب موسى أي ويتلو ذلك البرهان من قبل مجيء القرآن كتاب موسى أي في دلالته على هذا المطلوب لا في الوجود قال الرازي وهذا القول هو الاظهر لقوله تعالى (أولئك يؤمنون به) وهذه صفة جمع ولا يجوز رجوعه الى محمد صلى الله عليه وسلم انتهى ويجوز أن تكون للتعظيم اوله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه وربما يكون هذا أولى كما

جرى عليه بعض المفسرين والاشارة الى من كان على بينة والضمير فى به للقرآن واذا كان هذا
الفريق ليس له فى الآخرة الا النار فهذا الفريق ليس له فى الآخرة الا الجنة (ومن يكفر به) أى
بالنبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن (من الاحزاب) أى أصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود
والنصارى والمجوس (فالنار موعده) يعنى فى الآخرة روى سعيد بن جبير عن أبى موسى ان
النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يسمع بى يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى الا كان من أهل النار
قال أبو موسى فقلت فى نفسى ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الا عن القرآن
فوجدت الله تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال بعض العلماء ولما دلت
الآية على أن من يكفر به كانت النار موعده دل على أن من لا يكفر به كانت الجنة موعده
وقوله تعالى (فلا تك فى مرية) أى فى شك (منه) أى القرآن أو الموعد (انه الحق من ربك)
الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويؤيد ذلك
قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى لا يصدقون بما أوحينا اليك أو بأن
موعد الكفار النار ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة فى معرض
الذم الصفة الاولى كونهم مفترين على الله كما قال تعالى (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى
على الله كذبا) بنسبة الشريك والولد اليه أو أسند اليه مالم ينزله أو نفى عنه ما أنزله الصفة
الثانية أنهم يعرضون على الله تعالى فى موقف الذل والهوان كما قال تعالى (أولئك يعرضون
على ربهم) أى يوم القيامة (فان قيل) هم لا يختصون بهذا العرض لان العرض عام فى كل
العباد كما قال تعالى وعرضوا على ربك صفا (أجيب) بأنهم يعرضون فيفتضحون بشهادة
الاشهاد عليهم كما قال تعالى (ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) فيحصل لهم من
الخزى والنكال ما لا مزيد عليه وهذه هى الصفة الثالثة واختلف فى هؤلاء الاشهاد فقال مجاهد
هم الملائكة الذين يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا وقال مقاتل هم الناس كما يقال على رؤس
الاشهاد أى على رؤس الناس وقال قوم هم الانبياء كما قال تعالى فلنسألن الذين أرسل اليهم
ولنسألن المرسلين والفائدة فى اعتبار قول الاشهاد المبالغة فى اظهار الفضيحة (فان قيل)
العرض على الله يقتضى أن يكون الله تعالى فى حيز وهو تعالى منزه عن ذلك (أجيب) بأنهم
يعرضون على الاماكن المعدة للحساب والسؤال أو يكون ذلك عرضا على من يوبخ بأمر الله
تعالى من الانبياء والمؤمنين والاشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب أو جمع شهيد
كشريف وأشراف قال أبو على الفارسى وكان هذا أرجح لان ما جاء من ذلك فى التنزيل جاء
على فعيل كقوله تعالى وجئنا بك شهيدا على هؤلاء وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال ان الله تعالى يدنى المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس فيقول أى عبدى تعرف
ذنب كذا وكذا فيقول نعم حتى اذا قرره بذنوبه قال تعالى سترتها عليك فى الدنيا وقد سترتها لك
اليوم ثم يعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق فتقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم
ولما أخبر الله تعالى عن حالهم فى عقاب القيامة أخبر عن حالهم فى الحال بقوله تعالى (ألا لعنة

الله على الظالمين) فبين تعالى انهم في الحال ملعونون من عند الله وهذه هي الصفة الرابعة
ثم وصفهم بالصفة الخامسة بقوله تعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) أي دينه ثم وصفهم
بالصفة السادسة بقوله تعالى (ويبغونها) أي يطلبون السبيل (عوجا) أي معوجة أي كأنهم
ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال فقد أضافوا اليه المنع من الدين الحق والقاء الشبهات
وتعويج الدلائل المستقيمة لانه لا يقال في العاصي انه يبغي عوجا وانما يقال ذلك فيمن يعرف
كيف الاستقامة وكيفية العوج بسبب القاء الشبهات وتقرير الضلالات ثم وصفهم بالصفة
السابعة بقوله تعالى (وهم) أي والحال انهم (بالآخرة هم كافرون) وتكرير لفظ هم لتأكيد
كفرهم وتوغلهم فيه الصفة الثامنة كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله كما قال تعالى
(أولئك لم يكونوا معجزين في الارض) أي ما كانوا معجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم اذ لا يمكنهم
أن يهربوا من عذابه فان هرب العبد من عذاب الله تعالى محال لانه تعالى قادر على جميع
الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالقرب والبعد والقوة والضعف الصفة التاسعة انهم ليس لهم
أولياء يدفعون عقاب الله تعالى عنهم كما قال تعالى (وما كان لهم من دون الله) أي غيره (من
أولياء) أي أنصار يمنعونهم من عذابه الصفة العاشرة مضاعفة العذاب كما قال تعالى
(يضاعف لهم العذاب) أي بسبب اضلالهم غيرهم وقيل لانهم كفروا بالله وكفروا بالبعث
والنشور الصفة الحادية عشرة قوله تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع) قال قتادة صم عن سماع
الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به (وما كانوا يبصرون) خيرا فيأخذوا به قال ابن عباس أخبر
الله تعالى انه أحال بين أهل الشرك وبين طاعة الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة أما في الدنيا فانه قال
ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وأما في الآخرة فانه قال فلا يستطيعون خاشعة
أبصارهم الصفة الثانية عشرة قوله تعالى (أولئك الذين خسروا أنفسهم) فانهم اشتروا عبادة
الآلهة بعبادة الله تعالى فكان مصيرهم الى النار المؤبدة عليهم وذلك أعظم وجوه الخسرانات
الصفة الثالثة عشرة قوله تعالى (وضل) أي غاب (عنهم ما كانوا يفترون) على الله تعالى من
دعوى الشريك وان الآلهة تشفع لهم الصفة الرابعة عشرة قوله تعالى (لا جرم أنهم في الآخرة
هم الاخسرون) أي لا أحد أبين وأكثر خسرانا منهم *(تنبيه)* قال الفراء ان لا جرم بمنزلة
قولنا لا بد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا تقول العرب لا جرم انك محسن
على معنى حقا انك محسن وقال الزجاج ان كلمة لا نفي لما ظنوا أنه ينفعهم وجرم معناه كسب
ذلك الفعل والمعنى لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران في الدنيا والآخرة قال
الازهري وهذا من أحسن ما قيل في هذا الباب وقال سيبويه لا رد على أهل الكفر كما مر وجرم
معناه أحق والمعنى أنه أحق كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أراد أحقت الطعنة فزارة أن يغضبوا * ولما ذكر تعالى عقوبة الكفار وخسرانهم اتبعه
بذكر أحوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الآخرة بقوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وأخبتوا الى ربهم) أى اطمأنوا اليه وخشعوا اليه اذ الاخبات فى اللغة هو
الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ويتعدى بالى وباللام فاذا قلت أخبت فلان الى كذا
فمعناه اطمأن اليه واذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله تعالى ان الذين آمنوا وعملوا
الصالحات اشارة الى جميع عمل الجوارح وقوله تعالى وأخبتوا اشارة الى أعمال القلوب وهى
الخشوع والخضوع لله تعالى وان هذه الاعمال الصالحة لاتنفع فى الآخرة الا بحصول أعمال
القلب وهى الخشوع والخضوع (أولئك) أى الذين هذه صفتهم (أصحاب الجنة هم فيها خالدون)
فأخبر تعالى عن حالهم فى الآخرة بأنهم من أهل الجنة التى لا انقطاع لنعيمها ولا زوال * ولما ذكر
سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الحق ومن الصمم عن
سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ذكر
فيهما مثالا مطابقا بقوله تعالى (مثل) أى صفة (الفريقين) أى الكفار والمؤمنين (كالاعمى
والاصم) هذا مثل الكافر شبه بالاعمى لتعاميه عن آيات الله وبالاصم لتصامه عن استماع
كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه (والبصير والسميع) هذا مثل المؤمن شبه بالبصير
والسميع لان أمره بالضد من الكافر فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين أو يشبه
الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما على أن تكون الواو فى الاصم
وفى السميع لعطف الصفة على الصفة بخلافه على التشبيه الاول فانه لعطف الموصوف على
الموصوف ويعبر عنه بعطف الذات على الذات (هل يستويان) أى هل يستوى الفريقان
(مثلا) أى تشبيها لا يستويان ويصح أن يكون مثلا صفة لمصدر محذوف أى استواء مثلا وأن
يكون حالا من فاعل يستويان وقوله تعالى (أفلا تذكرون) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الذال أى
تتعظون بضرب الامثال والتأمل فيها وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون
بالتشديد وقد جرت عادة الله تعالى بأنه اذا أورد على الكفار أنواع الدلائل اتبعها بالقصص
ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل وفى هذه السورة ذكر أنواعا من القصص القصة الاولى قصة
نوح عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) وقوله (انى لكم) قرأه
ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بفتح الهمزة أى بأنى والباقون بكسرها على ارادة القول
(نذير مبين) أى بين النذارة أخوف من العقاب لمن خالف امر الله تعالى وقوله (أن لا تعبدوا الا
الله) بدل من انى لكم أو مفعول مبين (انى أخاف عليكم) أى ان عبدتم غيره (عذاب يوم
أليم) أى مؤلم موجع فى الدنيا أو الآخرة قال ابن عباس بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو
قومه تسعمائة وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة
وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد
الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألف سنة وأربعمائة وخمسين ولما حكى تعالى
عن نوح عليه السلام أنه دعا قومه الى عبادة الله تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا فى نبوته بثلاثة
أنواع من الشبهات بقوله تعالى (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) وهم الاشراف (ما نراك

(الابشرا مثلنا) هذه الشبهة الاولى أى انك بشر مثلنا الامزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة وانما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم لان الله تعالى اذا اصطفى عبدا من عباده وأكرمه بنبوته ورسالته وجب على من أرسله اليهم اتباعه الشبهة الثانية ماذكره الله تعالى عنهم بقوله تعالى (ومانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) أى أسافلنا كالحاكة وأهل الصنائع الخسيسة وهو جمع أرذل بفتح الهمزة كقوله تعالى أكابر مجرميها وقوله صلى الله عليه وسلم أحاسنكم أخلاقا أوجمع أرذل بضم الذال جمع رذل بسكونها فهو على الاول جمع مفرد وعلى الثانى جمع جمع ثم قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الاكابر من الناس والاشراف منهم وانما قالوا ذلك جهلا منهم أيضا لان الرفعة بالدين واتباع الرسول لا بالمناصب العالية والمال (بادى الرأى) أى اتبعوك فى أول الرأى من غير تثبت وتفكر فى أمرك ولو تفكروا ما اتبعوك ونصبه على الظرف أى وقت حدوث أول رأيهم وقرأ أبو عمرو وبادئ بهمزة مفتوحة بعد الدال والباقون بياء مفتوحة وأبدل السوسى همزة الرأى ألفا وقفا ووصلا وأما حمزة فأبدلها وقفا لا وصلا الشبهة الثالثة ماذكره الله تعالى عنهم فى قوله تعالى (ومانرى لكم) أى لك ولمن اتبعك (علينا من فضل) أى بالمال والشرف والجاه تستحقون به الاتباع منا وهذا أيضا جهل منهم لان الفضيلة المعتبرة عند الله تعالى بالايمان والطاعة لا بالشرف والرياسة وقولهم (بل نظنكم كاذبين) خطاب لنوح عليه السلام فى دعوى الرسالة وأدرجوا قومه معه فى الخطاب وقيل خاطبوه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وقيل كذبوه فى دعوى النبوة وكذبوا قومه فى دعوى العلم بصدقه فغلب المخاطب على الغائبين * ولما ذكروا هذه الشبهة لنوح عليه السلام (قال) لهم (ياقوم أرأيتم) أى أخبرونى (ان كنت على بينة) أى نبوة ورسالة (من ربى وآتانى رحمة) أى نبوة ورسالة (من عنده) من فضله واحسانه (فعميت) أى خفيت والتبست (عليكم) ووحد الضمير اما لان البينة فى نفسها هى الرحمة واما لانه لكل واحدة منهما وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم العين وتشديد الميم والباقون بفتح العين وتخفيف الميم (أنلزمكموها) أى أنكرهكم على قبولها (وأنتم لها كارهون) أى لا تختارونها ولا تتأملون فيها لانقدر على ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبى الله لالزمها قومه ولكنه لا يملك ذلك واتفق القراء على ضم النون من أنلزمكموها لاتصالها باللام رسما وحيث اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعا وقدم الاعرف منهما جاز فى الثانى الوصل كما فى الآية والفصل كأن يقال أنلزمكم اياها (وياقوم لا أسألكم عليه) أى على تبليغ الرسالة وهو وان لم يذكر معلوم مما ذكر (مالا) أى جعلا تعطونيه (ان) أى ما (أجرى الا على الله) أى ما ثواب تبليغى الا عليه فانه المأمول منه تعالى وقرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائى بسكون الياء والباقون بالفتح وقول نوح عليه السلام (وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب لهم حين طلبوا طردهم فانهم طلبوا من نوح عليه السلام قبل أن يطرد الذين آمنوا وهم الارذلون فى زعمهم فقال ما يجوز لى ذلك (انهم ملاقوا ربهم) أى بالبعث فيخاصمون طاردهم عنده ويأخذ لهم ممن

ظلمهم وطردهم أو أنهم يلاقونه ويفوزون بقربه فكيف أطردهم (ولكني أراكم قوما تجهلون) أي ان هؤلاء المؤمنين خير منكم أو عاقبة أمركم أو تسفهون عليهم بأن تدعوهم أراذل (وياقوم من ينصرني) أي يمنعني (من الله) أي من عقابه (ان طردتهم) عني وهم مؤمنون مخلصون (أفلا) أي فهلا (تذكرون) أي تتعظون وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء في الاصل في الذال (ولا أقول لكم عندي خزائن الله) أي خزائن رزقه فكما أني لا أسألكم مالا فكذلك لا أدعي اني أملك مالا ولا غرض لي في المال لا أخذا ولا دفعا وقوله (ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك) فأتعاظم به عليكم حتى تقولوا ما أنت الا بشر مثلنا بل طريقي التواضع والخضوع ومن كان هذا شأنه وطريقته كذلك فانه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ولا يطلب مجالسة الامراء والسلاطين ثم أكد ذلك بقوله (ولا أقول للذين تزدري) أي تحتقر (أعينكم) أي لا أقول في حقهم (لن يؤتيهم الله خيرا) فان ما أعد الله تعالى لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا (الله أعلم بما في أنفسهم) وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون اتباعه مع الفقر والذلة الى النفاق (اني اذا) أي ان فعلت ذلك (لمن الظالمين) لنفسي ومن الظالمين لهم (فان قيل) هذه الآية تدل على تفضيل الملائكة على الانبياء عليهم الصلاة والسلام فان الانسان اذا قال لا أدعي كذا وكذا انما يحسن اذا كان ذلك الشيء أشرف من أحوال ذلك القائل (أجيب) بأن نوحا عليه السلام انما ذكر ذلك جوابا عما ذكروه من الشبه فانهم طعنوا في اتباعه بالفقر فقال ولا أقول لكم عندي خزائن الله حتى أجعلهم أغنياء وطعنوا فيهم أيضا بأنهم منافقون فقال ولا أعلم الغيب حتى أعرف كيفية باطنهم وانما تكليفي بناء الاحوال على الظاهر وطعنوا فيه انه من البشر فقال ولا أقول اني ملك حتى تنفوا عني ذلك وحينئذ فالآية ليس فيها ذلك (فان قيل) في هذه الآية دلالة على أن طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصي فكيف طرد محمد صلى الله عليه وسلم بعض فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الله حتى عاتبه الله تعالى في قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي (أجيب) بأن الطرد المذكور في هذه الآية محمول على الطرد المطلق على سبيل التأبيد والطرد المذكور في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم محمول على التبعيد في أوقات معينة رعاية للمصلحة * ولما أن الكفار أوردوا تلك الشبهة وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أوردوا عليه كلامين الاول ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (قالوا يانوح قد جادلتنا) أي خاصمتنا (فأكثرت جدالنا) أي فأطنبت فيه وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر في الجدال معهم وذلك الجدال ما كان الا في اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وهذا يدل على أن الجدال في تقرير الدلائل وازالة الشبهات حرفة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى أن التقليد والجهل حرفة الكفار والثاني ماذكره الله تعالى عنهم بقوله (فأتنا بما تعدنا) أي من العذاب (ان كنت من الصادقين) في الدعوى والوعيد فان مناظرتك لا تؤثر فينا (قال) لهم نوح عليه السلام في جواب ذلك (انما يأتيكم به الله

ان

ان شاء) تعجيله لكم فان أمره اليه ان شاء عجله وان شاء أخره لا الى (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين الله تعالى ولما أجاب نوح عليه السلام عن شانهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة فقال (ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) أى يضلكم وجواب الشرط محذوف دل عليه ولا ينفعكم نصحى وتقدير الكلام ان كان الله يريد أن يغويكم فان أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحى فهو من باب اعتراض الشرط على الشرط ونظير ذلك مالو قال رجل لزوجته أنت طالق ان دخلت الدار ان كلمت زيدا فدخلت ثم كلمت لم تطلق فيشترط فى وجوب الحكم وقوع الشرط الثانى قبل وقوع الاول وفى الآية دليل على ان الله تعالى قد يريد الكفر من العبد فانه اذا أراد منه ذلك فانه يمتنع صدور الايمان منه (هو ربكم) أى خالقكم والمتصرف فيكم وفق ارادته (واليه ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم قال تعالى (أم) أى بل (يقولون افتراه) أى اختلقه وجاء به من عند نفسه والهاء ترجع الى الوحى الذى بلغه اليهم (قل) لهم (ان افتريته فعلى اجرامى) وهذا من باب حذف المضاف لان المعنى فعلى اثم اجرامى والاجرام اقتراف المحظور وفى الآية محذوف آخر وهو أن المعنى ان كنت افتريته فعلى عقاب جرمى وان كنت صادقا وكذبتمونى فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا انه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليها (وأنا برىء مما تجرمون) أى من عقاب جرمكم فى اسناد الافتراء الى * (تنبيه) * أكثر المفسرين على أن هذا من بقية كلام نوح عليه السلام مع قومه وقال مقاتل أم يقولون أى المشركون من كفار مكة افتراه أى محمد صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند نفسه وهذه الآية وقعت فى قصة محمد صلى الله عليه وسلم فى اثناء قصة نوح عليه السلام قال الرازى وقوله بعيد جدا (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك) أى لن يستمر على الايمان لقوله تعالى (الا من قد آمن) قال ابن عباس ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه فى لبد ويلقونه فى بيت يظنون أنه قد مات فيخرج فى اليوم الثانى ويدعوهم الى الله تعالى وروى أن شيخا منهم جاء متوكئا على عصاه ومعه ابنه فقال لابنه لا يغوينك هذا الشيخ المجنون فقال يا أبتاه مكنى من العصا فأخذها من أبيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فأوحى الله تعالى اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن (فلا تبتئس) أى لا تحزن عليهم فانى مهلكهم (بما) أى بسبب ما (كانوا يفعلون) من الشرك وتنقذك منهم فحينئذ دعا عليهم نوح عليه السلام فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحق عن عبيد بن عمير الليثى انه بلغه انهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه فاذا أفاق قال رب اغفر لقومى فانهم لا يعلمون حتى تمادوا فى المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينظر من الجيل الى الجيل فلا يأتى قرن الا كان أخبث من الذين قبلهم ولقد كان يأتى القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونا فلا يقبلون منه شيأ فشكى الى الله تعالى فقال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا حتى قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فأوحى الله تعالى اليه (واصنع الفلك) أى السفينة (بأعيننا) قال ابن

عباس برأى مناوقال مقاتل بعلمنا وقيل بحفظنا (ووحينا) أى بامرنا لك كيف تصنعها (ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا) أى ولاتراجعنى فى الكفار ولاتدعنى فى استدفاع العذاب عنهم (انهم مغرقون) أى محكوم عليهم بالاغراق فلاسبيل الى كفه وقيل لاتخاطبنى فى ابنك كنعان وامرأتك راعلة فانهما هالكان مع القوم ويروى ان جبريل عليه السلام أتى نوحا فقال ان ربك يأمرك أن تصنع الفلك قال كيف أصنع ولست بنجار قال ان ربك يقول اصنع فانك بأعيننا فأخذ القدوم فجعل ينجر ولايخطئ وصنعها فعملها مثل جؤجؤ الطير وفى قوله تعالى (ويصنع الفلك) قولان أحدهما انه حكاية حال ماضية أى فى ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك الثانى التقدير فأقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع الفلك ثم ان نوحا عليه السلام أقبل على عملها ولها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره وجعل قومه يمرون عليه ويسخرون منه كما قال تعالى (وكلما مر عليه ملأ) أى جماعة (من قومه سخروا منه) أى استهزؤا به ويقولون يانوح قد صرت نجارا بعدما كنت نبيا فأعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم قال ابن عباس رضى الله عنهما اتخذ نوح عليه السلام السفينة فى سنتين وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل فى البطن الاول الوحوش والهوام وفى البطن الاوسط الدواب وركب هو ومن معه البطن الاعلى مع مايحتاج اليه من الزاد وقال قتادة كان بابها فى عرضها وروى عن أنس كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى بهم الى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال كعب بن حام قال فضرب الكثيب بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض عن رأسه التراب وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت قال لا ولكن مت وأنا شاب ولكننى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت قال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحوش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال له عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا قال البغوى والمعروف ان طولها ثلثمائة ذراع وعن زيد بن أسلم قال مكث نوح مائة سنة يغرس الاشجار ومائة سنة يعمل الفلك وعن كعب الاحبار ان نوحا عمل السفينة فى ثلاثين سنة وروى أنها كانت ثلاث طبقات الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى فيها الانس والطبقة العليا فيها الطير فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله تعالى الى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ولما أفسد الفأر فى السفينة فجعل يقرض حبالها أوحى الله تعالى اليه أن اضرب بين عينى الاسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهو القط فأقبلا على الفأر فأكلاه قال الرازى واعلم أن أمثال هذه المباحث لاتعجبنى لانها أمور لاحاجة الى معرفتها البتة ولايتعلق بمعرفتها فائدة ألبتة فكان الخوض فيها من باب الفضول لاسيما مع القطع بأنه ليس ههنا مايدل على

الجانب الصحيح والذى نعلمه انها كانت فى السعة بحيث تسع المؤمنين من قومه وما يحتاجون اليه ولحصول زوجين من كل حيوان لان هذا القدر مذكور فى القرآن وما آمن معه الا قليل فأما تعيين ذلك القدر فغير معلوم (قال) لهم لما سخروا منه (ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) اذا نجونا وغرقتم (فان قيل) السخرية لا تليق بمنصب النبوة (أجيب) بأن ذلك ذكر على سبيل الازدواج فى مشاكلة الكلام كما فى قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها والمعنى ان تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم وهو قوله تعالى (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) أى يهينه فى الدنيا وهو الغرق (ويحل عليه) فى الآخرة (عذاب مقيم) وهو النار التى لا انقطاع لها وقوله تعالى (حتى اذا جاء أمرنا) أى باهلاكهم غاية لقوله ويصنع الفلك وما بينهما حال من الضمير فيه أو حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام واختلف فى التنور فى قوله تعالى (وفار التنور) فقال عكرمة والزهرى هو وجه الارض وذلك انه قيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء فار على وجه الارض فاركب السفينة وروى عن على رضى الله عنه أنه قال فار التنور وقت طلوع الفجر ونور الصبح وقال الحسن ومجاهد والشعبى انه التنور الذى يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين ورواية عطية وابن عباس لانه حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقته هو الموضع الذى يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين فوجب حمل اللفظ عليه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال انه تنور لنوح ومنهم من قال انه كان لآدم عليه السلام قال الحسن كان تنورا من حجارة كانت حواء تخبز فيه فصار الى نوح فقيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب السفينة أنت وأصحابك واختلفوا أيضا فى موضعه فقال مجاهد والشعبى كان فى ناحية الكوفة وكان الشعبى يحلف بالله ما فار التنور الا من ناحية الكوفة وقال اتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان فوران الماء منه علما لنوح وقال مقاتل كان ذلك تنور آدم عليه السلام وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة وروى عن ابن عباس أنه كان بالهند ومعنى فار نبع على قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة ان التنور لا يفور والمراد فار الماء من التنور فلما فار أمر الله تعالى نوحا عليه السلام أن يحمل فى السفينة ثلاثة أنواع من الاشياء الاول قوله تعالى (قلنا احمل فيها) أى السفينة (من كل زوجين اثنين) والزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكرا والآخر أنثى والتقدير من كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما فى السفينة اثنين واحد ذكر وواحد أنثى وفى القصة ان نوحا عليه السلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير فجعل يضرب بيديه فى كل جنس فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى يده اليسرى فيحملهما فى السفينة وقرأ حفص بتنوين لام كل أى واحمل من كل شئ زوجين اثنين الذكر زوج والانثى زوج (فان قيل) ما الفائدة فى قوله زوجين اثنين والزوجان لا يكونان الا اثنين (أجيب) بأن هذا على مثال قوله تعالى لا تتخذوا الهين اثنين وقوله تعالى نفخة واحدة والباقون بغير تنوين فهذا السؤال غير وارد النوع

الثانى من الاشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام أن يحملها فى السفينة قوله تعالى (وأهلك) وهم أبناؤه وزوجته وقوله تعالى (الا من سبق عليه القول) بأنه من المغرقين وهو ابنه كنعان وأمه راعلة وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك بخلاف سام وحام ويافث وزوجاتهم ثلاثة وزوجته المسلمة (فان قيل) الانسان أشرف من سائر الحيوانات فلم بدأ بالحيوان (أجيب) بأن الانسان عاقل فهو لعقله مضطر الى دفع أسباب الهلاك عن نفسه فلا حاجة فيه الى المبالغة فى الترغيب بخلاف السعى فى تخليص سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به النوع الثالث من الاشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام بحملها فى السفينة قوله تعالى (ومن آمن) أى واحمل معك من آمن معك من قومك واختلف فى العدد الذى ذكره الله تعالى فى قوله تعالى (وما آمن معه الا قليل) فقال قتادة وابن جريج لم يكن معه فى السفينة الا ثمانية نفر نوح وامرأته المسلمة وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم وقال ابن اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم نوح وبنوه الثلاثة وستة اناس ممن كان آمن به وأزواجهم جميعا وقال مجاهد كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة وعن ابن عباس قال كان فى سفينة نوح ثمانون نصفهم رجال ونصفهم نساء وقال الطبرى والصواب من القول فى ذلك أن يقال كما قال الله تعالى وما آمن معه الا قليل فوصفهم بالقلة فلم يحد عددا بمقدار فلا ينبغى أن يجاوز فى ذلك حد الله تعالى اذ لم يرد عدد فى كتاب الله تعالى ولا فى خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم نحو ذلك عن الرازى وقال مقاتل حمل نوح معه فى السفينة جسد آدم عليه السلام فجعله معترضا بين الرجال والنساء وقصد نوح عليه السلام جميع الدواب والطير ليحملها قال ابن عباس أول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار أدخل صدره وتعلق ابليس بذنبه فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال ويحك ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زلت على لسانه فلما قالها خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال نوح ما أدخلك على يا عدو الله قال مالك بد أن تحملنى معك فكان معه على ظهر السفينة هكذا نقله البغوى قال الرازى وأما الذى يروى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم نارى أو هوائى فكيف يؤثر الغرق فيه وأيضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه ولم يرد فى ذلك خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فى ذلك قال البغوى وروى أن بعضهم قال ان الحية والعقرب أتيا نوحا عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال انكما سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا احملنا فانا نضمن لك أن لا نضر أحدا ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح فى العالمين لم يضراه وقال الحسن لم يحمل نوح فى السفينة الا ما يلد ويبيض فأما ما يتولد من الطين من حشرات الارض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيأ (وقال) نوح لمن معه (اركبوا) أى صيروا (فيها) أى السفينة وجعل ذلك ركوبا لانها فى الماء كمركوب فى الارض وقوله تعالى (بسم الله مجراها ومرساها) متصل باركبوا حال من الواو فى اركبوا أى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت اجرائها وارسائها قال الضحاك كان نوح اذا أراد أن تجرى السفينة قال بسم الله فجرت

وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله رست وقرأ حفص وحمزة والكسائي بنصب الميم من جرت ورست أي جريها أو رسوها وهما مصدران والباقون بضم الميم من أجريت وأرسيت أي بسم الله اجراؤها وارساؤها وأمال الالف بعد الراء أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وذكروا في عامل الاعراب في بسم الله وجوها الاول اركبوا بسم الله الثاني ابدؤا بسم الله الثالث بسم الله اجراؤها (ان ربي لغفور رحيم) أي لولا مغفرته لفرطاتكم ورحمته اياكم لما نجاكم وقوله تعالى (وهي تجري بهم) متعلق بمحذوف دل عليه اركبوا أي فركبوا مسمين الله تعالى وهي تجري وهم فيها (في موج) وهو ما ارتفع من الماء اذا اشتدت عليه الريح (كالجبال) في عظمه وارتفاعه على الماء قال العلماء بالسير أرسل الله تعالى المطر أربعين يوما وليلة وخرج الماء من الارض فذلك قوله تعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر فصار الماء نصفين نصف من السماء ونصف من الارض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى أغرق كل شئ وروى أنه لما كثر الماء في السكك خافت امرأة على ولدها من الغرق وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بهما الماء فلو رحم الله تعالى منهم أحدا لرحم هذه المرأة وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والارض وكانت السفينة تجري في جوفه كما تسبح السمكة فليس بثابت قال البيضاوي والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا فان صح أي انه طبق ما بين السماء والارض فلعل ذلك أي ما ذكر من علو الموج قبل التطبيق (ونادى نوح ابنه) كنعان وكان كافرا كما مر وقيل كان اسمه يام (وكان في معزل) عزل فيه نفسه اما عن أبيه أو دينه ولم يركب معه واما عن السفينة واما عن الكفار كأنه انفرد عنهم وظن نوح عليه السلام أن ذلك انما كان لانه أحب مفارقتهم ولذلك ناداه بقوله (يا بني اركب معنا) في السفينة وقرأ عاصم بفتح الياء اقتصارا على الفتح من الالف المبدلة من ياء الاضافة في قولك يا بنيا والباقون بالكسر في الوصل ليدل على ياء الاضافة المحذوفة كما قال الشاعر

* يا ابنة عم لا تلومي واهجعي * ثم حذف الالف للتخفيف (ولا تكن مع الكافرين) أي في دين ولا مكان فتهلك ولما قال له ذلك (قال سآوي) أي التجئ وأصير (الى جبل يعصمني) أي يمنعني (من الماء قال) له نوح عليه السلام (لا عاصم) أي لا مانع (اليوم من أمر الله) أي من عذابه وقوله (الا من رحم) استثناء منقطع كأنه قيل ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله تعالى ما لهم به من علم الا اتباع الظن وقيل الا من رحم أي الا الراحم وهو الله تعالى وقيل الا مكان من رحمه الله تعالى فانه مانع من ذلك وهو السفينة (وحال بينهما) أي بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل (الموج) المذكور في قوله موج كالجبال (فكان) ابنه (من المغرقين) أي فصار من المهلكين بالماء (و) لما تناهى الطوفان وأغرق قوم نوح (قيل) أي قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى

يا أرض ابلعي ماءك) أي اشربيه (ويا سماء أقلعي) أي أمسكي ماءك ناداهما بما ينادى به الحيوان
المميز على لفظ التخصيص والاقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات ثم أمرهما بما يؤمر به
أهل التمييز والعقل تمثيلا لكمال انقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما وههنا همزتان مختلفتان من
كلمتين الاولى مضمومة والثانية مفتوحة قرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير بابدال الثانية واوا خالصة
والباقون بالتخفيف (وغيض الماء) أي نقص وذهب وقرأ هشام والكسائي باشمام الغين وهو
ضم الغين قبل الياء والباقون بالكسر وكذا وقيل (وقضي الامر) أي وأنجز ما وعد من اهلاك
الكافرين وانجاء المؤمنين (واستوت) أي استقرت السفينة (على الجودي) وهو جبل
بالجزيرة قريب من الموصل (وقيل) أي قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى (بعدا) أي هلاكا
(للقوم الظالمين) ومجيء اخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء وان تلك
الامور العظام لا تكون الا بفعل فاعل قادر وبكون مكون قاهر وان فاعلها واحد لا يشارك
في أفعاله فلا يذهب الوهم الى أن يقول غيره يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ولا أن يقضي
ذلك الامر الهائل غيره ولا أن تستوي على متن الجودي وتستقر عليه الا بتسويته واقراره
وروي ان السفينة لما استقرت بعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الارض فوقع على
جيفة فلم يرجع فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح
أن الماء قد نقص فقيل انه دعا على الغراب بالخوف فلذا لا يألف البيوت وطوق الحمامة الخضرة
التي في عنقها ودعا لها بالامان فمن ثم تألف البيوت وروي ان نوحا ركب السفينة لعشر مضت
من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت العتيق وقد رفعه الله تعالى من الغرق
وبقي موضعه فطافت به السفينة سبعا وأودع الحجر الاسود في جبل أبي قبيس وهبط نوح ومن
معه في السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح وأمر من معه بصيامه شكرا لله تعالى وبنوا قرية بقرب
الجبل وسميت سوق ثمانين فهي أول قرية عمرت على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انه
لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل الى حجزته وهذا لا يأتي على
القول باطباق الماء قال هذا القائل وسبب نجاته أن نوحا احتاج الى خشب ساج للسفينة
فلم يمكنه نقله فحمله عوج اليه من الشأم فنجاه الله تعالى من الغرق بذلك (فان قيل) كيف
أغرق الله تعالى من لم يبلغ الحلم من الاطفال (أجيب) بأنه تعالى يتصرف في خلقه لا يسئل
عما يفعل وقيل ان الله تعالى أعقم أرحام نسائهم أربعمائة سنة فلم يولد لهم تلك المدة (ونادى
نوح ربه) أي دعاه وسأله (فقال رب ان ابني من أهلي) وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي (وان وعدك
الحق) أي الصدق الذي لا خلف فيه (وأنت أحكم الحاكمين) لانك أعلمهم وأعدلهم (فان
قيل) اذا كان النداء هو قوله رب فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء (أجيب) بأن الفاء
تفصيل لمجمل نادى مثلها في توضأ فغسل وقيل نادى أي أراد نداءه فقال رب (قال) الله تعالى
(يا نوح انه) أي هذا الابن الذي سألت نجاته (ليس من أهلك) أي المحكوم بنجاتهم لايمانهم
وكفره ولهذا علل بقوله تعالى (انه عمل غير صالح) وقرأ الكسائي بكسر الميم ونصب اللام بغير

تنوين ونصب الراء أى عمل الكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح والباقون بفتح الميم ورفع اللام منونة ورفع الراء أى ذو عمل غير صالح أو صاحب عمل غير صالح لجعل ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة ترتع * فانما هى اقبال وادبار * واختلف علماء التفسير هل كان ذلك الولد ابن نوح أولا على أقوال الاول وهو قول ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والاكثرين أنه ابنه حقيقة ويدل عليه أنه تعالى نص عليه فقال ونادى نوح ابنه ونوح أيضا نص عليه فقال يا بنى وصرف هذا اللفظ الى أنه رباه وأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته الى مجازه من غير ضرورة القول الثانى أنه كان ابن امرأته وهو قول محمد ابن على الباقر وقول الحسن البصرى القول الثالث وهو قول مجاهد والحسن أنه ولد حنث ولد على فراشه ولم يعلم نوح بذلك واحتج هذا القائل بقوله تعالى فى امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما قال الرازى وهذا قول واه حيث يجب صون منصب الانبياء عن هذه الفضيحة لاسيما وهو خلاف نص القرآن وقد قيل لابن عباس ما كانت تلك الخيانة فقال كانت امرأة نوح تقول زوجى مجنون وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزل به (فلا تسألنى ماليس لك به علم) أى بما لاتعلم أصواب هو أم لا لان اللائق بأمثالك من أولى العزم بناء أمورهم على التحقيق وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون والباقون بسكون اللام وتخفيف النون وأثبت الياء بعد النون فى الوصل دون الوقف ورش وأبو عمرو وحذفها الباقون وقفا ووصلا (انى أعظك) أى بمواعظى كراهة (أن تكون من الجاهلين) فتسأل كما يسألون وانما سمى نداءه سؤالا لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله واستنجازه فى شأن ولده (قال) نوح (رب انى أعوذ بك أن) أى من أن (أسألك) فى شئ من الاشياء (ماليس لى به علم) تأدبا بأدبك واتعاظا بوعظك (والا تغفر لى) أى الا ن ما فرط منى وفى المستقبل ما يقع منى (وترحمنى) اى تسترزلاتى وتمحها وتكرمنى (أكن من الخاسرين) أى الغريقين فى الخسارة (فان قيل) هذا يدل على عصمة الانبياء لوقوع هذه الزلة من نوح عليه السلام (أجيب) بأن الزلة الصادرة من نوح انما هى كونه لم يستقص ما يدل على نفاق ابنه وكفره لان قومه كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يخفى ايمانه ومنافق لا يعلم حاله فى نفس الامر وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق وكان ذلك معلوما وأما أهل النفاق فبقى أمرهم مخفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنا وكانت الشفقة المفرطة التى تكون للاب فى حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرا بل على الوجوه الصحيحة فأخطأ فى ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم عليه السلام فى الاكل من الشجرة فلم يصدر عنه الا الخطأ فى الاجتهاد فلم تصدر منه معصية فلجأ الى ربه تعالى وخشع له ودعاه وسأله المغفرة والرحمة كما قال آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين لان حسنات الابرار سيآت المقربين (قيل) أى قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى (يانوح اهبط) أى انزل من السفينة أو من الجبل الى الارض المستوية (بسلام) أى بعظم وأمن وسلامة (منا) وذلك أن الغرق لما كان عاما فى جميع

الارض فعندما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم أنه ليس فى الارض شئ مما ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف فى أنه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لان ذلك يدل على حصول السلامة وأن لا يكون الامع الامن وسعة الرزق ثم انه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بأن وعده بالبركة بقوله تعالى (وبركات عليك) وهو عبارة عن الدوام والبقاء والثبات لان الله تعالى صير نوحا عليه السلام أبا البشر لان جميع من بقى كانوا من نسله لان نوحا لما خرج من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الامن ذريته فالخلق كلهم من نسله أو أنه لم يكن معه فى السفينة الامن كان من نسله وذريته وعلى التقديرين فالخلق كلهم من ذريته ويدل على ذلك قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت أن نوحا كان آدم الاصغر فكان أبا الانبياء والخلق بعد الطوفان كلهم منه ومن ذريته وكان بين نوح وآدم ثمانية أجداد وقوله تعالى (وعلى أمم ممن معك) يحتمل أن تكون من للبيان فيراد الامم الذين كانوا معه فى السفينة لانهم كانوا جماعات أوقيل لهم أمم لان الامم تتشعب منهم وأن تكون لابتداء الغاية أى على أمم ناشئة ممن معك وهى الامم الى آخر الدهر قال فى الكشاف وهو الوجه وقوله تعالى (وأمم) بالرفع على الابتداء وقوله تعالى (سنمتعهم) أى فى الدنيا صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم وانما حذف لان قوله ممن معك يدل عليه والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤن ممن معك وممن معك أمم ممتعون فى الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب أليم) فى الآخرة وهم الكفار وعن محمد بن كعب القرظى دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب ولما شرح تعالى قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال تعالى (تلك) أى قصة نوح التى شرحناها ومحل تلك رفع على الابتداء وخبرها (من أنباء الغيب) أى من الاخبار التى كانت غائبة عن الخلق وقوله تعالى (نوحيها اليك) خبر ثان والضمير لها أى موحاة اليك وقوله تعالى (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أى نزول القرآن خبر آخر والمعنى أن هذه القصة مجهولة عندك وعند قومك من قبل ايحائنا اليك ونظيرهذا ان يقول انسان لآخر لا تعرف هذه المسئلة لا أنت ولا أهل بلدك (فان قيل) قد كانت قصة طوفان نوح مشهورة عند أهل العلم (أجيب) بأن ذلك كان بحسب الاجمال وأما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة أو بأنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (فاصبر) أى أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار (ان العاقبة للمتقين) الشرك والمعاصى وفى هذا تنبيه على ان عاقبة الصبر لنبينا صلى الله عليه وسلم النصر والفرج أى السرور كما كان لنوح ولقومه (فان قيل) هذه القصة ذكرت فى يونس فما الحكمة والفائدة فى اعادتها (أجيب) بان القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه ففى السورة الاولى كان

الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح فى بيان ان قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم فى العاقبة ظهر فكذا فى واقعة محمد صلى الله عليه وسلم وفى هذه السورة ذكرت لاجل أن الكفار كانوا يبالغون فى الايحاش فذكرها الله تعالى لبيان أن اقدام الكفار على الايذاء والايحاش كان حاصلا فى زمان نوح عليه السلام فلما صبر فاز وظفر فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ولما كان وجه الانتفاع بهذا القصة فى كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الحكمة والفائدة * القصة الثانية من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة هود عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (والى عاد) أى وأرسلنا الى عاد (أخاهم) فهو معطوف على قوله تعالى نوحا وقوله تعالى (هودا) عطف بيان ومعلوم أن تلك الاخوة ما كانت فى الدين وانما كانت فى النسب لان هودا كان رجلا من قبيلة عاد قبيلة من العرب كانوا بناحية اليمن (فان قيل) انه تعالى قال فى ابن نوح انه ليس من أهلك فبين أن قرابة النسب لا تفيد اذا لم تحصل قرابة الدين وهنا أثبت هذه الاخوة مع الاختلاف فى الدين (أجيب) بأن قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يستبعدون أن يكون رسولا من عند الله تعالى مع أنه واحد من قبيلتهم فذكر الله تعالى أن هودا كان واحدا من عاد وان صالحا كان واحدا من ثمود لازالة هذا الاستبعاد ولما تقدم أمر نوح عليه السلام مع قومه استشرف السامع الى معرفة ما قال هود عليه السلام هل هو مثل قوله أولا فاستأنف الجواب بقوله (قال يا قوم اعبدوا الله) أى وحدوه ولا تشركوا معه شيأ فى العبادة (ما لكم من اله غيره) أى هو الهكم لان هذه الاصنام التى تعبدونها حجارة لا تضر ولا تنفع (فان قيل) كيف دعاهم الى عبادة الله تعالى قبل اقامة الدليل على ثبوت الاله (أجيب) بأن دلائل وجود الله تعالى ظاهرة وهى دلائل الآفاق والانفس وقلما يوجد فى الدنيا طائفة ينكرون وجود الاله ولذلك قال تعالى فى صفة الكفار ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقرأ الكسائى بكسر الراء والهاء صفة على اللفظ والباقون بالرفع صفة على محل الجار والمجرور ومن زائدة (ان أنتم الا مفترون) أى كاذبون فى عبادتكم غيره وكرر قوله (يا قوم) للاستعطاف وقوله (لا أسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى) أى خلقنى خاطب به كل رسول قومه ازالة للتهمة وتمحيضا للنصيحة فانها لا تنجع مادامت مشوبة بالمطامع (أفلا تعقلون) أى أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطا فتتعظون ثم قال (ويا قوم) أيضا لما ذكر (استغفروا ربكم) أى آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان (يرسل السماء) أى المطر (عليكم مدرارا) أى كثير الدر (ويزدكم قوة الى قوتكم) أى ويضاعف قوتكم وانما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لان القوم كانوا أصحاب زرع وبساتين وعمارات حراصا عليها أشد الحرص فكانوا أحوج شئ الى الماء وكانوا مدلين غيرهم بما أوتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة مهابين فى كل ناحية وقيل أراد القوة فى المال وقيل القوة على النكاح وقيل حبس عنهم المطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم وعن الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما أنه

وفد على معاوية فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال انى رجل ذو مال ولا يولد لى فعلنى شيأ لعل الله يرزقنى ولدا فقال عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر فى يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشر بنين فبلغ ذلك معاوية فقال هلا سألته مم قال ذلك فوفد مرة أخرى فسأله الرجل فقال ألم تسمع قول هود ويزدكم قوة الى قوتكم وقول نوح ويمددكم بأموال وبنين (ولا تتولوا) أى ولا تعرضوا عن قبول قولى ونصحى حالة كونكم (مجرمين) أى مشركين * ولما حكى الله تعالى عن هود ما ذكره لقومه حكى أيضا ما ذكره قومه له وهو أشياء أولها ذكره تعالى بقوله (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) أى بحجة تدل على صحة دعواك وسميت بينة لانها تبين الحق ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أظهر لهم المعجزات الا أن القوم لجهلهم أنكروها وزعموا أنه ما جاء بشئ من المعجزات وثانيها قولهم (وما نحن بتاركى آلهتنا) أى عبادتها وقولهم (عن قولك) أى صادرين عن قولك حال من الضمير فى تاركى وهذا أيضا من جهلهم فانهم كانوا يعرفون أن النافع والضار هو الله تعالى وأن الاصنام لا تضر ولا تنفع وذلك حكم فطرة العقل وبديهة النفس وثالثها قولهم (وما نحن لك بمؤمنين) أى مصدقين وفى ذلك اقناط له من الاجابة والتصديق ورابعها قولهم (ان) أى ما (نقول) فى شأنك (الا اعتراك) أى أصابك (بعض آلهتنا بسوء) لسبك اياها فجعلتك مجنونا وأفسدت عقلك ثم انه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك (قال) هود عليه السلام مجيبا لهم (انى أشهد الله) على (واشهدوا) أنتم أيضا على (أنى برئ مما تشركون من دونه) أى الله وهو الاصنام التى كانوا يعبدونها (فكيدونى) أى احتالوا فى هلاكى (جميعا) أنتم وأصنامكم التى تعتقدون أنها تضر وتنفع فانها لا تضر ولا تنفع * (فائدة) * اتفق القراء على اثبات الياء فى كيدونى هنا وقفا ووصلا لثباتها فى المصحف (ثم لا تنظرون) أى تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام لانه كان وحيدا فى قومه وقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت ثقة بالله تعالى كما قال تعالى (انى توكلت على الله ربى وربكم) أى فوضت أمرى اليه واعتمدت عليه (ما من دابة) تدب على الارض ويدخل فى هذا جميع بنى آدم والحيوان لانهم يدبون على الارض (الا هو آخذ بناصيتها) أى مالكها وقاهرها فلا يقع نفع ولا ضر الا باذنه والناصية كما قال الازهرى عند العرب منبت الشعر فى مقدم الرأس وسمى الشعر النابت هنا ناصية باسم منبته والعرب اذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع قالوا ما ناصية فلان الا بيد فلان وكانوا اذا أسروا الاسير وأرادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون من كلامهم (ان ربى على صراط مستقيم) أى طريق الحق والعدل فلا يظلمهم ولا يعمل الا بالاحسان والانصاف فيجازى المحسن باحسانه والمسئ بعصيانه وقوله تعالى (فان تولوا) فيه حذف احدى التاءين أى تعرضوا (فقد أبلغتكم) جميع (ما أرسلت به اليكم) فان قيل الابلاغ كان قبل التولى فكيف وقع جزاء للشرط (أجيب) بأن معناه فان تتولوا لم أعاتب على تقصير من جهتى وصرتم محجوجين لانكم أنتم

الذين أصررتم على التكذيب وقوله (ويستخلف ربي قوما غيركم) استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف قوما آخرين في ديارهم وأموالهم يوحدونه تعالى ويعبدونه (ولا تضرونه) أي الله بإشراككم (شيأ) من الضرر إنما تضرون أنفسكم وقيل لا تنقصونه شيأ اذا أهلككم لان وجودكم وعدمكم عنده سواء (ان ربي على كل شئ) صغيراً وكبير حقيراً وجليل (حفيظ) أي رقيب عالم بكل شئ وقادر على كل شئ فيحفظني أن تنالوني بسوء أو حفيظ لاعمال العباد حتى يجازيهم عليها أو حفيظ على كل شئ يحفظه من الهلاك اذا شاء ويهلكه اذا شاء (ولما) لم يرجعوا ولم يرعووا ببينة ولا رغبة ولا رهبة (جاء أمرنا) أي عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله تعالى بها سبع ليال وثمانية أيام حسوما تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وترفعهم وتضرب بهم على الارض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية وهنا همزتان مفتوحتان من كلمتين قرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط الاولى وقرأ ورش وقنبل بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما (نجينا هودا والذين آمنوا معه) أي من هذا العذاب وكانوا أربعة آلاف (برحمة منا) لان العذاب اذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله تعالى المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه (ونجيناهم من عذاب غليظ) هو عذاب الآخرة ووصفه بالغلظ لانه أغلظ من عذاب الدنيا أو نجينا هودا والذين آمنوا معه من أن يصل اليهم الكفار بسوء مع اجتهادهم في ذلك ونجيناهم من عذاب غليظ هو الريح المذكورة * ولما ذكر الله تعالى قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال (وتلك عاد) وهو اشارة الى قبورهم وآثارهم كأنه تعالى قال سيحوا في الارض فانظروا اليها واعتبروا ثم انه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة أما أوصافهم فثلاثة الصفة الاولى قوله تعالى (جحدوا بآيات ربهم) أي بالمعجزات التي أتى بها هود عليه السلام الصفة الثانية قوله تعالى (وعصوا رسله) أي هودا وحده وانما أتى به بلفظ الجمع اما للتعظيم أو لان من عصى رسولا فقد عصى جميع الرسل لقوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله الصفة الثالثة قوله تعالى (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أي ان السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم ما هذا الا بشر مثلكم فأطاعوا من دعاهم الى الكفر وما يرديهم وعصوا من دعاهم الى الايمان ولا يرديهم والجبار المرتفع المتمرد والعنيد والعنود والمعاند هو المنازع المعارض * ولما ذكر تعالى أوصافهم ذكر أحوالهم بقوله تعالى (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أي جعل اللعن رديفا لهم ومتابعا ومصاحبا في الدنيا والآخرة ومعنى اللعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير وقيل اللعنة في الدنيا من الناس وفي الآخرة لعنة على رؤس الاشهاد * ثم انه تعالى بين السبب الاصلي في نزول هذه الاحوال المكروهة بهم بقوله تعالى (ألا ان عادا كفروا ربهم) أي كفروا بربهم فحذف الباء أو أن المراد بالكفر الجحد أي جحدوا ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف أي كفروا نعمة ربهم *(تنبيه)* ألا أداة استفتاح لا تذكر الا بين يدي كلام يعظم موقعه ويجل خطبه ثم قال (ألا بعدا لعاد) دعاء عليهم بالهلاك والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل بهم بسبب ما حكى

عنهم وانما كرر ألا وأعاد ذكرهم تفظيعا لامرهم وحثا على الاعتبار بحالهم وقوله تعالى (قوم هود) عطف بيان لعاد وفائدته تمييزهم من عاد الثانية عاد ارم والايماء الى استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود القصة الثالثة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة صالح عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (والى ثمود) وهم سكان الحجر أى وأرسلنا الى ثمود (أخاهم) فهو معطوف على قوله تعالى نوحا كما عطف عليه والى عاد وقوله تعالى (صالحا) عطف بيان وتلك الاخوة كانت فى النسب لا فى الدين كما مر فى هود ثم أخرج قوله عليه السلام على تقدير سؤال بقوله (قال ياقوم) أى يامن يعز على أن يحصل لهم سوء (اعبدوا الله) أى وحدوه وخصوه بالعبادة (مالكم من اله غيره) هو الهكم المستحق للعبادة لا هذه الاصنام ثم ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته تعالى بقوله (هو أنشأكم) أى ابتدأ خلقكم (من الارض) وذلك أنهم من بنى آدم وآدم خلق من الارض أو ان الانسان مخلوق من المنى وهو متولد من الدم والدم متولد من الاغذية وهى اما حيوانية واما نباتية فأما الحيوانية فحالها كحال الانسان فوجب انتهاء الكل الى النبات والنبات متولد من الارض فثبت أنه تعالى أنشأ الانسان من الارض وقيل من بمعنى فى كما فى قوله تعالى اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة (واستعمركم فيها) أى جعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك أطال أعماركم فيها حتى ان الواحد منهم كان يعيش ثلثمائة سنة الى ألف سنة وكذا كان قوم عاد وروى ان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار وحصلت لهم الاعمار الطويلة فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه ما سبب تلك الاعمار فأوحى الله اليه انهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى وأخذ معاوية فى احياء الارض فى آخر عمره فقيل له فى ذلك فقال ما حملنى عليه الا قول القائل

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به * ولا يكون له فى الارض آثار

وقال مجاهد استعمركم من العمرى أى جعلها لكم ما عشتم فاذا متم انتقلت الى غيركم * ولما بين لهم عليه السلام عظمة الله تعالى بين لهم طريق الرجوع اليه بقوله (فاستغفروه) أى آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقد مر مثل ذلك (ان ربى قريب) من خلقه بعلمه لكل من أقبل عليه من غير حاجة الى حركة (مجيب) لكل من ناداه لا كمعبوداتكم فى الامرين * ولما قرر لهم عليه السلام هذه الدلائل (قالوا) له (ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أى القول الذى جئت به لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد فانك كنت تعطف على فقيرنا وتعين ضعيفنا وتعود مرضانا فقوى رجاؤنا فيك أن تنصر ديننا فكيف أظهرت العداوة * ثم انهم أضافوا الى هذا التعجب الشديد فقالوا (أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا) من الآلهة ومقصودهم بذلك التمسك بطرف التقليد ووجوب متابعة الآباء والاسلاف ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب ثم قالوا (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد وترك عبادة الاصنام (مريب) أى موقع فى الريبة وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين والرجاء تعلق

النفس

النفس تجيء الخبر على جهة الظن ونظيره الامل والطمع والنهي المنع من الفعل بصيغة لا تفعل وقولهم هذا مبالغة في تزييف كلامه (قال) صالح عليه السلام مجيبا لهم (يا قوم أرأيتم) أي أخبروني (ان كنت على بينة) أي بيان وبصيرة (من ربي) وأتى بحرف الشك على سبيل الجزم ليلائم الخطاب حال المخاطبين (وآتاني منه رحمة) أي نبوة ورسالة (فمن ينصرني) أي يمنعني (من الله) أي عذابه (ان عصيته) أي ان خالفت أمره في تبليغ رسالته والمنع عن الاشراك به (فما تزيدونني) أي بأمركم لي بذلك (غير تخسير) أي غير تضليل قال الحسن بن الفضل لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير وانما المعنى فما تزيدونني بما تقولون الا نسبتي اياكم الى الخسارة * ولما كانت العادة فيمن يدعي النبوة عند قوم يعبدون الاصنام أن يطلبوا المعجزة وأمر صالح عليه السلام هكذا كان يروى أن قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا اليها ناقة فدعا به فخرجت كما سألوا أشار اليها بقوله (ويا قوم هذه ناقة الله) واضافتها الى الله اضافة تشريف كبيت الله (لكم آية) أي معجزة من وجوه أحدها أنه خلقها الله تعالى من الصخرة ثانيها أنه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق الجبل عنها ثالثها أنه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر ثم ولدت فصيلا يشبهها رابعها أنه تعالى خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة خامسها ماروي أنه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر سادسها أنه كان يحصل منها لبن كثير فيكفي الخلق العظيم به فكل واحد من هذه الوجوه معجز قوي وليس في القرآن الا أن هذه الناقة كانت آية معجزة وأما بيان أنها كانت آية معجزة من أي الوجوه فليس فيه بيانه * (تنبيه) * آية نصب على الحال وعاملها معنى الاشارة ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها ولو تأخرت لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال ثم قال لهم (فذروها) أي اتركوها على أي حالة كان تركككم لها (تأكل) مما أرادت (في أرض الله) من العشب والنبات فليس عليكم مؤنتها صارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا ينتفعون بلبنها ثم انه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من اصرارهم على الكفر فان الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى في اخفائها وابطالها بأقصى الامكان فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على قتلها فلهذا احتاط وقال (ولا تمسوها بسوء) أي بعقر أو غيره ثم توعدهم بقوله (فيأخذكم) ان مسستموها بسوء (عذاب قريب) أي في الدنيا لا يتأخر عن مسكم لها الا يسيرا وذلك تحذير شديد لهم في الاقدام على قتلها فخالفوه (فعقروها) وذبحوها (فقال) لهم عند بلوغه الخبر (تمتعوا) أي عيشوا (في داركم) والتمتع التلذذ بالمنافع والملاذ التي تدرك بالحواس وذلك لا يحصل الا للحي وفي المراد من الدار وجهان أحدهما البلد وتسمى البلد الديار لانه يدار فيها أي يتصرف فيها يقال ديار بكر لبلادهم الثاني دار الدنيا أي تمتعوا في الدنيا (ثلاثة أيام) وذلك أنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه الصلاة والسلام بنزول العقاب بعد هذه المدة قال ابن عباس انه تعالى لما أمهلهم تلك الايام الثلاثة فقد رغبهم في الايمان ثم قالوا لصالح عليه السلام وما علامة ذلك قال تصير وجوهكم في اليوم الاول مصفرة وفي

الثاني محمرة وفي الثالث مسودة ثم يأتيكم العذاب في اليوم الرابع فلما رأوا وجوههم مسودة أيقنوا حينئذ بالعذاب فتحنطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع كما قال تعالى (ذلك) أي الوعد العالي الرتبة في الصدق (وعد غير مكذوب) أي فيه فاتسع في الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله * ويوم شهدناه (أي ورب يوم شهدنا فيه) سليما وعامرا * أو غير مكذوب على المجاز أو وعد غير كذب على أنه مصدر وقوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) في تفسيره وقراءة الهمزتين وعدد الذين آمنوا معه مثل ما تقدم في قصة عاد (و) نجيناهم (من خزي يومئذ) وهو هلاكهم بالصيحة أو ذلهم أو فضيحتهم يوم القيامة وقرأ نافع والكسائي بفتح الميم من يومئذ على البناء لاضافتها الى مبني وكسرها الباقون على الاعراب والاول أكثر (ان ربك هو القوي) فهو يغلب كل شئ (العزيز) أي القادر على منع غيره من غير أن يقدر أحد عليه ثم أخبر تعالى عن عذاب قوم صالح بقوله (وأخذ الذين ظلموا) أي أنفسهم بالكفر (الصيحة) أي صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا أو أتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعا كما قال تعالى (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) أي باركين على الركب ميتين * (تنبيه) * انما قال تعالى وأخذ ولم يقل وأخذت لان الصيحة محمولة على الصياح وأيضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث وقوله تعالى (كأن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنهم (لم يغنوا) أي يقيموا (فيها) أي ديارهم ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان اذا أقمت به وقوله تعالى (ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) تفسيره ما تقدم في قوله تعالى ألا ان عادا كفروا ربهم الآية وقرأ حفص وحمزة ألا ان ثمود بغير تنوين للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة والباقون بالتنوين للذهاب الى الحي أو الى الأب الاكبر ومن نون وقف على ألف بعد الدال ومن لم ينون وقف على الدال ساكنة وقرأ الكسائي بعد الثمود بتنوين ثمود مع الكسر لما مر والباقون بغير تنوين مع الفتح لما مر أيضا القصة الرابعة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) أي باسحق ومن وراء اسحق يعقوب والمراد بالرسل الملائكة ولفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة واختلف في الزائد على ذلك وأجمعوا على أن الاصل فيهم كان جبريل عليه السلام واقتصر ابن عباس وعطاء على أقل الجمع فقالا كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الذاريات بقوله تعالى هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين وفي الحجر ونبئهم عن ضيف ابراهيم وقال الضحاك كانوا تسعة وقال محمد بن كعب القرظي كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدي كان جبريل ومعه أحد عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن قال النحويون ودخلت كلمة قد ههنا لان السامع لقصص الانبياء يتوقع قصة بعد قصة وقد للتوقع ودخلت اللام في لقد لتأكيد الخبر (قالوا سلاما) أي سلمنا عليك سلاما ويجوز نصبه بقالوا

على معنى ذكروا سلاما أى سلموا (قال سلام) أى أمركم أو جوابى سلام أو وعليكم سلام *(تنبيه)* قوله سلام أكمل من قوله السلام لان التنكير يفيد الكمال والمبالغة والتمام ولهذا صح وقوعه مبتدأ لان النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ وأما لفظ السلام فانه لا يفيد الا الماهية (فان قيل) فلاى شئ ما كفى الاول فى التحلل من الصلاة عند النووى (أجيب) بأن ذلك سنة متبعة وقرأ حمزة والكسائى بكسر السين وسكون اللام ولا ألف بعدها والباقون بفتح السين واللام وبعدها ألف قال الفراء ولا فرق بين القراءتين كما يقال حل وحلال وحرم وحرام وقيل سلم هو بمعنى الصلح أى نحن سلم صلح غير حرب (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أى فما أبطأ بمجيئه به والحنيذ المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الارض وكان سمينا يقطر ودكه كما قال تعالى فى موضع آخر فجاء بعجل سمين قال قتادة كان عامة مال ابراهيم البقر روى أن ابراهيم عليه السلام مكث خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل الا معه فلما جاءته الملائكة رأى أضيافا لم ير مثلهم فعجل قراهم وجاء بعجل سمين مشوى (فلما رأى أيديهم) أى الاضياف (لا تصل اليه) أى لا يمدون أيديهم اليه (نكرهم) أى أنكرهم وأنكر حالهم لامتناعهم من الطعام (وأوجس) أى أضمر فى نفسه (منهم خيفة) أى خوفا قال قتادة وذلك انهم كانوا اذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وانما جاء بشر (قالوا لا تخف) يا ابراهيم (انا) ملائكة الله (أرسلنا الى قوم لوط) بالعذاب وانما لم نمد له أيدينا لانا لا نأكل (وامرأته) أى ابراهيم سارة وهى ابنة عم ابراهيم (قائمة) وراء الستر تسمع محاورتهم أو على رؤسهم للخدمة فسمعت البشارة بالولد التى دل عليها فيما مضى قوله بالبشرى (فضحكت) سرورا من تلك البشرى لزوجها مع كبره وربما ظنته من غيرها لانها كانت عجوزا عقيما فأزيل ذلك الظن عنها بقوله تعالى (فبشرناها) أى على لسان الملائكة تشريفا لها وتفخيما لشأنها (باسحق) تلده (ومن وراء اسحق يعقوب) أى يكون يعقوب عليه السلام ابنا لاسحق عليه السلام فتعيش حتى ترى ولد ولدها قال البقاعى والذى يدل على هذا التقدير من انهم بشروه بالولد قبل امرأته فسمعت فعجبت ما يأتى عن نص التوراة وساق عن التوراة عبارة مطولة وقيل سبب سرورها زوال الخيفة أو هلاك أهل الفساد. وقيل فضحكت فحاضت كما قال الشاعر

عهدى بسلمى ضاحكا فى لبانة * أى حائضا فى جماعة من النساء وهذا يرد على الفراء حيث قال ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال آخر * تضحك الضبع لقتلى هذيل * أراد انها تحيض فرحا *(تنبيه)* ههنا همزتان مكسورتان من كلمتين قرأ قالون والبزى بتسهيل الاولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها أيضا حرف مد وقرأ أبو عمرو باسقاط أحدهما مع المد والقصر والباقون بتحقيق الهمزتين ولا ألف بينهما (قالت يا ويلتا) هذه كلمة تقال عند أمر عظيم والالف مبدلة من ياء الاضافة (أألد وأنا عجوز) وكانت ابنة تسعين سنة فى قول ابن اسحق وقال مجاهد تسع وتسعين سنة (وهذا بعلى) أى زوجى سمى بذلك لانه

قيم أمرها وقولها (شيخا) نصب على الحال قال الواحدي وهذا من لطيف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة فكان قولها وهذا بعلي شيخا قائم مقام أن يقال أشير الى بعلى حال كونه شيخا والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة وكان ابن مائة وعشرين سنة فى قول ابن اسحق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين البشارة والولادة سنة (ان هذا الشئ عجيب) أى ان الولد من هرمين فهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك (قالوا) أى الملائكة لسارة (أتعجبين من أمر الله) منكرين عليها ذلك أى لا تعجبين من ذلك فان الله تعالى قادر على كل شئ واذا أراد شيأ كان سريعا فان خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس بمستغرب (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أى بيت ابراهيم وأهل منصوب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقولهم اغفر لنا أيتها العصابة وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على ان أزواج الرجل من أهل بيته (انه) تعالى (حميد) أى محمود على كل حال أو فاعل ما يستوجب به الحمد (مجيد) أى كثير الخير والاحسان * القصة الخامسة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة لوط عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) أى الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه واطمأن قلبه بعرفانهم (وجاءته البشرى) بدل الروع بالولد أخذ (يجادلنا) أى يجادل رسلنا (فى) شأن (قوم لوط) وجواب لما أخذ يجادلنا الا أنه حذف اللفظ لدلالة الكلام عليه وقيل تقديره لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا (فان قيل) كيف جادل ابراهيم الملائكة مع علمه بأنهم لا يمكنهم مخالفة امر الله وهذا منكر (أجيب) بأن المراد من هذه المجادلة تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصى لان الملائكة قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية أو ان مجادلته انما كانت فى قوم لوط بسبب مقام لوط فيهم ولهذا قال ابراهيم عليه السلام أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال أو أربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فعشرون قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا فى سورة العنكبوت فقال ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين قال ابن جريج وكان فى قرى لوط أربعة آلاف ألف ولو كانت هذه المجادلة مذمومة لما مدحه بقوله تعالى (ان ابراهيم لحليم) أى لا يتعجل مكافأة غيره بل يتأنى فيها فيؤخر او يعفو ومن هذا حاله يحب من غيره هذه الطريقة وهذا مدح عظيم من الله تعالى لابراهيم ثم ضم الى ذلك ما يتعلق بالحلم وهو قوله تعالى (أواه) أى كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس (منيب) أى رجاع فلما أطال مجادلتهم قالوا له (يا ابراهيم أعرض عن هذا) أى الجدال وان كانت الرحمة ديدنك فلا فائدة فيه (انه قد جاء أمر ربك) أى قضاؤه الازلى بعذابهم وهو أعلم بحالهم (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) أى لا سبيل

الى دفعه وردّه (ولما جاءت رسلنا لوطا) أى هؤلاء الملائكة الذين بشروا ابراهيم بالولد قال ابن عباس انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط وهو ابن أخى ابراهيم عليهما الصلاة والسلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بنى آدم وكانوا فى غاية الحسن ولم يعرف لوط انهم ملائكة الله تعالى (سىء بهم) أى حزن بسببهم (وضاق بهم ذرعا) أى صدرا يقال ضاق ذرع فلان بكذا اذا وقع فى مكروه لا يطيق الخروج منه وذلك ان لوطا نظر الى حسن وجوههم وطيب روائحهم فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم وقيل ساءه ذلك لانه عرف بالآخرة انهم ملائكة الله تعالى وانهم جاؤا لاهلاك قومه فرق قلبه على قومه (وقال هذا يوم عصيب) أى شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أى شد به مأخوذ من العصابة التى تشد بها الرأس قال قتادة خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فأتوا لوطا نصف النهار وهو فى أرض له يعمل فيها وروى أنه كان يحتطب وقد قال الله تعالى لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فاستضافوه وانطلق بهم فلما مضى ساعة قال لهم ما بلغكم من أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله انها لشر قرية فى الارض عملا يقول ذلك أربع مرات وروى أن الملائكة جاؤا الى بيت لوط فوجدوه فى داره ولم يعلم بذلك أحد الا أهل بيت لوط فخرجت امرأته فأخبرت قومها وقالت ان فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط (وجاءه قومه) لما علموا بهم (يهرعون) أى يسرعون (اليه) قاله ابن عباس وقال الحسن الاهراع المشى بين مشيين (ومن قبل) أى قبل مجيئهم الى لوط وقيل من قبل مجىء الرسل اليهم (كانوا يعملون السيئات) أى الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهى اتيان الرجال فى أدبارهم لوط (قال) لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا انهم غلمان من بنى آدم (يا قوم هؤلاء بناتى) قال مجاهد وسعيد بن جبير أراد ببناته نساء قومه وأضافهن الى نفسه لان كل نبى هو أبو أمته كالوالد لهم أى فتزوجوا منهن وقيل أراد بنات نفسه عرضهن عليهم بشرط الاسلام وقيل كان فى ذلك الوقت وفى تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر كما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن الربيع قبل الوحى وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه (هن أطهر لكم) أى أنظف فعلا (فان قيل) افعل التفضيل يقتضى كون العمل الذى يطلبونه طاهرا ومعلوم انه فاسد لانه لا طهارة فى اتيان الرجال (أجيب) بان هذا جار مجرى قوله تعالى أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ومعلوم أن شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا يوم أحد اعل هبل قال الله اعلى وأجل ولا مماثلة بين الله تعالى والصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة (فاتقوا الله) وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى (ولا تخزون) أى تفضحونى (فى ضيفى) أى أضيافى (أليس منكم رجل رشيد) يهتدى الى الحق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق) أى حاجة (وانك لتعلم ما نريد) أى من اتيان الذكور وما لنا فيه الشهوة فعند ذلك (قال) أى لوط عليه السلام (لو أن لى بكم

قوة) أى طاقة (أو آوى الى ركن شديد) أى عشيرة تنصرنى شبهت بركن الجبل فى شدته وعنه صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد والركن الشديد نصر الله ومعونته فكان النبى صلى الله عليه وسلم استغرب من لوط عليه السلام قوله أو آوى الى ركن شديد وعده نادرة اذ لا ركن أشد من الركن الذى كان يأوى اليه وجواب لو محذوف تقديره لبطشت بكم أو لدفعتكم روى أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب (قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) بسوء فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربه فى عقوبتهم وأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم كما قال تعالى فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان فى بيت لوط قوما سحرة *(تنبيه)* لن يصلوا اليك جملة موضحة للتى قبلها لانهم اذا كانوا رسل الله لن يصلوا اليه ولن يقدروا على ضرره ثم قالوا له (فاسر بأهلك بقطع) أى طائفة (من الليل) وقرأ نافع وابن كثير بعد الفاء بهمزة وصل من السرى والباقون بهمزة قطع من الاسراء (ولا يلتفت منكم أحد) أى لا ينظر الى ورائه لئلا يرى عظيم ما نزل بهم وقوله (الا امرأتك) قرأه ابن كثير وأبو عمرو برفع التاء على انه بدل من أحد والباقون بالنصب على انه استثناء من الاهل أى فلا تسر بها (انه مصيبها ما أصابهم) فلم يخرج بها وقيل خرجت والتفتت فقالت واقوماه فجاءها حجر فقتلها روى أنه قال لهم متى موعد هلاكهم فقالوا له (ان موعدهم الصبح) قال أريد أسرع من ذلك فقالوا (أليس الصبح بقريب) أى فأسرع الخروج بمن أمرت بهم (فلما جاء أمرنا) أى عذابنا بهلاكهم (جعلنا عاليها) أى قراهم (سافلها) روى ان جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات المذكورة فى سورة براءة وكانت خمس مدائن وفيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونهيق الحمير ونباح الكلاب لم يكفأ لهم اناء ولم ينتبه نائم ثم أسقطها مقلوبة الى الارض (وأمطرنا عليها) أى المدن بعد قلبها وقيل على شذاذها وهو بضم الشين المعجمة وبذالين معجمتين أولاهما مشددة وهم الذين ليسوا من أهلها يكونون فى القوم وليسوا منهم (حجارة من سجيل) أى من طين طبخ بالنار كما قال تعالى فى موضع آخر من طين وقيل مثل السجل وهو الدلو لعظمه (منضود) أى متتابع يتبع بعضها بعضا (مسومة) أى معلمة عليها اسم من يرمى بها وقال أبو صالح رأيت منها عند أم هانئ وهى حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن عليها أمثال الخواتيم وقال ابن جريج كان عليها سيما يعلم بها انها ليست من حجارة الارض وقوله تعالى (عند ربك) ظرف لها (وما هى) أى تلك الحجارة (من الظالمين) أى مشركى مكة (ببعيد) اى بشئ بعيد او بمكان بعيد لانها وان كانت فى السماء وهى مكان بعيد الا انها اذا وقعت منها فهى أسرع شئ لحوقا بالمرمى فكأنها بمكان قريب منه وفيه وعيد لهم

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل فقال يعنى ظالمى مكة مامن ظالم منهم الا وهو يعرض عليه حجر فيسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون عليها فى مسيرهم * القصة السادسة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة شعيب عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (والى مدين) أى وأرسلنا الى مدين وهم قبيلة أبوهم مدين بن ابراهيم عليه السلام وقيل هو اسم مدينة بناها مدين المذكور وعلى هذا فالتقدير وأرسلنا الى أهل مدين فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه (أخاهم) أى فى النسب لا فى الدين و(شعيبا) عطف بيان وكان قائلا قال فما قال لهم فقيل (قال) ما قال اخوته من الانبياء فى البداءة بأصل الدين (ياقوم) مستعطفا لهم مظهرا غاية الشفقة (اعبدوا الله) أى وحدوه ولا تشركوا به شيأ (مالكم من اله غيره) فلقد اتفقت كما ترى كلمتهم واتحدت الى الله تعالى دعوتهم وهذا وحده قطعى الدلالة على صدق كل منهم لما علم قطعا من تباعد اعصارهم وتنائى ديارهم وان بعضهم لم يلم بالعلوم ولا عرف أخبار الناس الا من الحى القيوم ولما دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين الله تعالى دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين عبيده فى أقبح ما كانوا اتخذوه بعد الشرك تدينا فقال (ولا تنقصوا) بوجه من الوجوه (المكيال والميزان) أى لا الكيل ولا آلته ولا الوزن ولا آلته والكيل تعديل الشئ بالآلة فى القلة والكثرة والوزن تعديله فى الخفة والثقل فالكيل العدل فى الكمية والوزن العدل فى الكيفية ثم علل ذلك بقوله (انى أراكم بخير) أى بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف قال ابن عباس كانوا موسرين فى نعمة وقال مجاهد كانوا فى خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة ان لم يؤمنوا ويتوبوا وهو قوله (وانى أخاف عليكم) ان لم تؤمنوا (عذاب يوم محيط) أى يحيط بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب الاستئصال فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة ومنه قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين والمحيط من صفة اليوم فى الظاهر وفى المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله هذا يوم عصيب (وياقوم أوفوا) أى أتموا اتماما حسنا (المكيال والميزان) أى الكيل والوزن وآلتهما (فان قيل) النهى عن النقصان أمر بالايفاء فما فائدة قوله تعالى أوفوا (أجيب) بأنهم نهوا أولا عن القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان لان فى التصريح بالقبيح نعيا عن المنهى وتعييرا له ثم ورد الامر بالايفاء الذى هو حسن فى العقول مصرحا بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجىء به مقيدا (بالقسط) أى ليكون الايفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان أمرا بما هو الواجب لان ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب اليه غير المأمور به وقد يكون محظورا كما فى الربا وقوله تعالى (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) تعميم بعد تخصيص فانه أعم من أن يكون فى المقدار أو فى غيره فانهم كانوا يأخذون من كل شئ يباع كما تفعل السماسرة وكانوا يمكسون الناس وكانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الاشياء فنهوا عن ذلك فظهر بهذا البيان ان هذه الاشياء غير مكررة بل فى كل واحد منها فائدة زائدة والحاصل انه تعالى نهى فى الآية الاولى عن النقصان فى المكيال والميزان وفى الثانية أمر

باعطاء قدر الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب الا عند أداء ذلك القدر من الزيادة ولهذا قال الفقهاء انه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لا يحصل الا عند غسل جزء من الرأس فكأنه تعالى نهى أولا عن سعى الانسان فى أن يجعل مال غيره ناقصا لتحصل له تلك الزيادة وفى الثانى أمر بأن يسعى فى تنقيص مال نفسه ليخرج بالتعيين عن العهدة كما قيده بقوله تعالى بالقسط وفى الآية الثالثة نهى عن النقص فى كل الاشياء وكذا قوله تعالى (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) فان العثو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد ومفسدين حال مؤكدة لمعنى عاملها وفائدتها اخراج ما يقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام (بقيت الله) قال ابن عباس يعنى ما أبقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن (خير لكم) مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد مما يحصل لكم فى الدنيا من المال الحرام (ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به *(فائدة)* بقيت رسمت هنا بالتاء المجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى والباقون وقفوا عليها بالهاء (وما أنا عليكم بحفيظ) أعلم جميع أعمالكم وأقدر على كفكم عما يكون منها افسادا ولما أمرهم شعيب عليه السلام بشيئين بالتوحيد وبترك البخس (قالوا) له (يا شعيب) سموه باسمه استخفافا وغلظة وأنكروا عليه مستهزئين به (أصلواتك تأمرك) أى تفعل معك فعل من يأمر دائما بتكليفنا (أن نترك ما يعبد) أى على سبيل المواظبة (آباؤنا) من الاصنام فحذف الذى هو التكليف لان الانسان لا يؤمر بفعل غيره قالوا ذلك فى جواب أمره لهم بالتوحيد (أو) نترك (أن نفعل) أى دائما (فى أموالنا ما نشاء) من قطع الدراهم والدنانير وافساد المعاملة والمقامرة ونحوها مما يكون افسادا للمال قالوا ذلك فى جواب النهى عن التطفيف والامر بالايفاء وانما أضافوا ذلك الى صلاته تهكما واستهزاء بها واشعارا بأن مثل هذا لا يدعو اليه داع عقلى وانما دعاك اليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه وكان شعيب عليه الصلاة والسلام كثير الصلاة فى الليل والنهار وكان قومه اذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا وقصدوا بقولهم أصلواتك تأمرك السخرية والهزء كما انك اذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم يذكر كلاما فاسدا فيقال له هذا فائدة مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزء فكذا هنا وقرأ حفص وحمزة والكسائى أصلاتك بالافراد والباقون بالجمع والتاء بالرفع فى القراءتين وغلظ ورش اللام فى أصلواتك وقولهم له (انك لانت الحليم الرشيد) تهكم به وقصدوا وصفه بضد ذلك كما يقال للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك وعللوا انكار ما سمعوه منه واستبعدوه بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعين من المبادرة الى مثل ذلك ثم أخرج قوله عليه الصلاة والسلام على تقدير سؤال بقوله (قال يا قوم) مستعطفا لهم لما بينهم من عواطف القرابة منبها لهم على أحسن النظر فيما ساقه على سبيل الفرض والتقدير ليكون أدعى الى سبيل الوفاق والانصاف (أرأيتم) أى أخبرونى (ان كنت على بينة) أى برهان (من ربى) وعطف على جملة الشرط المستفهم عنه قوله (ورزقنى) والضمير فى (منه) لله تعالى أى من عنده باعانته بلا كد منى فى تحصيله وعظم الرزق

بقوله (رزقا حسنا) جليلا وما الا حلالا لم أظلم فيه أحدا وجواب الشرط محذوف اى فهل يسوغ مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية ان أخون فى وحيه فأخالفه فى أمره ونهيه وهذا اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوف والنهى عن دين الآباء (وما أريد أن أخالفكم) أى واذهب (الى ما أنهاكم عنه) فارتكبه (ان) أى ما (أريد) أى فيما آمركم به وأنهاكم عنه (الا الاصلاح) أى ما أريد الا ان أصلحكم بوعظى ونصيحتى وأمرى بالمعروف ونهيى عن المنكر (ما استطعت) أى وهو الابلاغ والانذار فقط ولا استطيع اجباركم على الطاعة لان ذلك الى الله تعالى فانه يضل من يشاء ويهدى من يشاء (وما توفيقى) أى لاصابة الحق والصواب (الا بالله) أى الا بمعونته وتأييده (عليه) لا على غيره (توكلت) أى اعتمدت فى جميع أمورى فانه القادر على كل شئ وما عداه عاجز وهذه الصيغة تفيد الحصر فلا ينبغى للانسان أن يتوكل على أحد الا على الله تعالى وفيه اشارة الى محض التوحيد الذى هو أقصى مراتب المبدا وأما قوله (واليه أنيب) ففيه اشارة الى معرفة المعاد وهو أيضا يفيد الحصر لان قوله واليه أنيب يدل على انه لا مآب للخلق الا الى الله تعالى وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه كان اذا ذكر شعيبا قال ذاك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه (ويا قوم لا يجرمنكم) أى لا يكسبنكم (شقاقى) أى خلافى وهو فاعل يجرم والضمير مفعول أول والمفعول الثانى (أن يصيبكم) عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة قال فى الكشاف جرم مثل كسب فى تعديه الى مفعول واحد والى مفعولين تقول جرم ذنبا وكسبه وجرمته ذنبا وكسبته اياه ومنه قوله تعالى لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من الريح العقيم (أو قوم صالح) من الرجفة (وما قوم لوط منكم ببعيد) لا فى الزمان ولا فى المكان لانهم كانوا حديثى عهد بهلاكهم وكانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم فان القرب فى الزمان والمكان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الاحوال فكأنه يقول اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب (فان قيل) لم قال ببعيد ولم يقل ببعيدين (أجيب) بأن التقدير وما اهلاكهم بشئ بعيد وأيضا يجوز أن يسوى فى قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودهما على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما النهى (واستغفروا ربكم) أى آمنوا به (ثم توبوا اليه) عن عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقد مر مثل ذلك (ان ربى رحيم) أى عظيم الرحمة للتائبين (ودود) اى محب لهم * ولما بالغ عليه السلام فى التقرير والبيان أجابوه بأنواع فاسدة الاول (قالوا) له (يا شعيب ما نفقه) أى ما نفهم (كثيرا مما تقول) (فان قيل) انه كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا ما نفقه (أجيب) بأنهم كانوا لا يلقون اليه اذهانهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو قوله تعالى وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه أو انهم فهموه ولكنهم ما أقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعبأ بحديثه ما أدرى ما تقول النوع الثانى قولهم له (وانا لنراك فينا ضعيفا) أى لا قوة لك فتمتنع منا ان أردناك بسوء أو ذليلا

لاعزلك وقيل أعمى بلغة حمير قاله قتادة وفى هذا تجويز العمى على الانبياء الا ان هذا اللفظ
لايحسن الاستدلال به فى اثبات هذا المعنى لانه ترك الظاهر من غير دليل وقيل ضعيف البصر قاله
الحسن * النوع الثالث قولهم له (ولولا رهطك) أى عشيرتك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا
لا لخوف من شوكتهم (لرجمناك) بالحجارة حتى تموت والرهط من الثلاثة الى عشرة وقيل الى
السبعة والمقصود من هذا الكلام انهم بينوا له انه لاحرمة له عندهم ولا وقع له فى صدورهم
وانهم انما لم يقتلوه لاجل احترام رهطه * النوع الرابع قولهم له (وما أنت علينا بعزيز) أى
لاتعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم وانما يعز علينا رهطك لانهم من
أهل ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا ولما خوف الكفار شعيبا عليه السلام بالقتل
والايذاء حكى الله تعالى عنهم ماذكروه فى هذا المقام وهو نوعان * الاول (قال) لهم (ياقوم)
مستعطفا لهم مع غلظتهم عليه (أرهطى أعز عليكم من الله) المحيط بكل شئ قدرة وعلما حتى
نظرتم اليهم فى قرابتى منهم ولم تنظروا الى الله تعالى فى قربى منه لما ظهر على من كرامته تعالى
(واتخذتموه وراءكم ظهريا) أى جعلتموه كالمنسى المنبوذ وراء الظهر باشراككم به والاهانة
لرسوله قال فى الكشاف والظهرى منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب ونظيره
قولهم فى النسبة الى الامس امسى بكسر الهمزة وقوله (ان ربى بما تعملون محيط) أى انه عليم
بأحوالكم فلا يخفى عليه شئ منها * النوع الثانى قوله (وياقوم اعملوا على مكانتكم) والمكانة
الحالة التى يمكن صاحبها من عمله والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة
وكل ما فى وسعكم وطاقتكم من ايصال الشرور الى (انى) أيضا (عامل) بما آتانى الله من القدرة
والطاعة (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) فمن موصولة مفعول العلم
(فان قيل) لم لم يقل فسوف تعلمون (أجيب) بأن ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل
وأما حذف الفاء فيجعله جوابا عن سؤال مقدر وهو المسمى فى علم البيان بالاستئناف البيانى
تقديره انه لما قال وياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك فقال
سوف تعلمون فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل فى بيان الفصاحة والتهويل لانه استئناف
(وارتقبوا) أى انتظروا عاقبة أمركم (انى معكم رقيب) أى منتظر والرقيب بمعنى الراقب من
رقبه كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم أو بمعنى
المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع (ولما جاء أمرنا) بعذابهم واهلاكهم (نجينا
شعيبا والذين امنوا معه برحمة) أى بفضل (منا) بأن هديناهم للايمان ووفقناهم للطاعة (فان قيل
لم جاءت قصة عاد وقصة مدين بالواو وقصة صالح ولوط بالفاء (أجيب) بأن قصة عاد ومدين
لم يسبقهما ذكر وعد يجرى مجرى السبب له بخلاف قصتى صالح ولوط فانهما ذكرا بعد الوعد
وذلك قوله تعالى وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح فلذلك جاء بفاء السببية (وأخذت
الذين ظلموا) أى ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس (الصيحة) أى صيحة جبريل عليه السلام
صاح بهم صيحة خرجت أرواحهم وماتوا جميعا وقيل أتتهم صيحة من السماء (فأصبحوا

فى

فى ديارهم جاثمين) أى باركين على الركب ميتين (كأن لم يغنوا) أى كأنهم لم يقيموا (فيها) أى ديارهم مدة من الدهر مأخوذ من قولهم غنى بالمكان اذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره (ألا بعدا) أى هلاكا (لمدين كما بعدت ثمود) انما شبههم بهم لان عذابهم كان أيضا بالصيحة لكن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم قال ابن عباس لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب الا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم* القصة السابعة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى آخر قصصها قصة موسى عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) أى التوراة مع ما فيها من الشرائع والاحكام (وسلطان مبين) أى برهان بين ظاهر على صدق نبوته ورسالته وقيل المراد بالآيات المعجزات وبالسلطان المبين العصا لانها أظهر الآيات وذلك لان الله تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات وهى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والسنين ومنهم من أبدل نقص الثمرات والسنين باظلال الجبل وفلق البحر قال بعض المحققين سميت الحجة سلطانا لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة له كالسلطان يقهر غيره والعلماء سلاطين بسبب كمالهم فى القوة العلمية والملوك سلاطين بحسب ما معهم من القدرة والمكنة الا أن سلطنة العلماء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك لان سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولان سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء لان سلطنة العلماء من جنس سلطنة الانبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة (الى فرعون) طاغية القبط (وملئه) أى أشراف قومه الذين تتبعهم الاذناب لان القصد الاكبر رفع أيديهم عن بنى اسرائيل (فاتبعوا أمر فرعون) أى اتبعوا طريقة فرعون المنهمك فى الضلال والطغيان الداعى الى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل ولم يتبعوا موسى الهادى الى الحق المؤيد بالمعجزات الظاهرة الباهرة لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم (وما أمر فرعون برشيد) أى بسديد ولا محمود العاقبة ولا يدعو الى خير وقيل رشيد ذو رشد وانسلاخ فرعون من الرشد كان ظاهرا لانه كان دهريا نافيا للصانع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وكل الرشد فى عبادة الله تعالى ومعرفته فلما كان هو نافيا لهذين الامرين كان خاليا عن الرشد بالكلية (يقدم قومه يوم القيامة) الى النار كما كان يقدمهم فى الدنيا الى الضلال أو كما تقدم قومه فى الدنيا فأدخلهم البحر وأغرقهم فكذا يتقدمهم فى القيامة فيدخلهم النار كما قال تعالى (فأوردهم النار) (فان قيل) لم لم يقل يقدم قومه فيوردهم النار بل أتى بلفظ الماضى (أجيب) بأنه انما أتى بلفظ الماضى مبالغة فى تحققه ونزل النار له منزلة الماء فسمى اتيانها موردا ولهذا قال تعالى (وبئس الورد المورود) وردهم لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار ضده (فان قيل) لفظ النار مؤنث فكان مقتضى ذلك أن يقال وبئست الورد المورود (أجيب) بأن لفظ الورد مذكر فكان التذكير

والتأنيث جائزين كما تقول نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى
على تأنيث الدار (وأتبعوا في هذه) أي الدنيا (لعنة) أي طردا وبعدا عن الرحمة (ويوم القيامة)
أي وأتبعوا يوم القيامة لعنة أخرى فهم ملعونون في الدنيا والآخرة ونظيره قوله تعالى في سورة
القصص وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين (بئس الرفد) أي العون
(المرفود) رفدهم سأل رافع بن الازرق ابن عباس عن ذلك فقال هو اللعنة بعد اللعنة وقال قتادة
ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وكل شيء جعلته عونا للشيء فقد
رفدته به وسميت اللعنة عونا لانها اذا اتبعتهم في الدنيا أبعدتهم عن الرحمة وأعانتهم على ما هم فيه من
الضلال وسميت رفدا أي عونا لهذا المعنى على التهكم كقول القائل * تحية بينهم ضرب وجيع *
وسميت معانا لانها أردفت في الآخرة بلعنة أخرى ليكونا هاديتين الى طريق الجحيم ولما ذكر تعالى
قصص الاولين قال تعالى (ذلك) أي المذكور وهو مبتدأ خبره (من أنباء القرى) أي أخبار
أهل القرى وهم الامم السالفة في القرون الماضية وقوله تعالى (نقصه عليك) أي نخبرك به
يا محمد خبرا بعد خبر وفائدة ذكر هذه القصص على النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم السامع أن
المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة وأن الكافر
يخرج مع اللعنة في الدنيا والعقاب في الآخرة واذا تكررت هذه الاقاصيص على السمع فلا بد
وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر
والاستدلال وفي اخباره صلى الله عليه وسلم بهذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تعلم دلالة
على نبوته فان ذلك لا يكون الا بوحي من الله تعالى (منها) أي القرى (قائم) أي باق كالزرع القائم
هلك أهله دونه (و) منها (حصيد) أي عافي الاثر كالزرع المحصود هلك مع أهله (وما ظلمناهم) أي
باهلاكهم بغير ذنب (ولكن ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصي وقال ابن عباس يريد
وما نقصناهم في الدنيا من النعيم والرزق ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله
تعالى (فما أغنت) أي دفعت (عنهم آلهتهم) أي أصنامهم (التي يدعون) أي يعبدون (من دون
الله) أي غيره (من شيء) أي شيئا من مزيدة (لما جاء أمر ربك) أي عقابه (وما زادوهم) بعبادتهم
(غير تتبيب) أي غير تخسير وقيل تدمير ولما أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه
بما فعله بأمم من تقدم من الانبياء عليهم الصلاة والسلام لما خالفوا الرسل وما ورد عليهم من
عذاب الاستئصال وبين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا قال تعالى بعده (وكذلك)
أي ومثل ذلك الاخذ العظيم (أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي) أي القرى (ظالمة) والمراد
أهلها ونظيره قوله تعالى وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها وقوله تعالى وكم قصمنا من قرية
كانت ظالمة فبين تعالى أن عذابه ليس مقصورا على من تقدم بل الحال في أخذ كل الظالمين
يكون كذلك * ولما بين تعالى كيفية أخذ الامم المتقدمة ثم بين تعالى أنه انما يأخذ جميع الظالمين
على ذلك الوجه اتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية بقوله تعالى (ان أخذه أليم) أي مؤلم (شديد)
أي صعب مفتت القوى وعن أبي موسى الاشعري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله

عليه

عليه وسلم قال ان الله تعالى ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد وفي هذه الآية الكريمة والحديث الشريف دلالة على أن من أقدم على ظلم فانه يتداركه بالتوبة والانابة ورد الحقوق الى أهلها ان كان الظلم للغير لئلا يقع في هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن ان هذه الآية مختصة بظالمي الامم الماضية بل هي عامة في كل ظالم ويعضده الحديث (ان في ذلك) أي ماذكر من عذاب الامم الماضية واهلاكهم (لآية) أي لعبرة وموعظة (لمن خاف عذاب) يوم الحياة (الآخرة) لانه ينظر ما أحل الله تعالى بالمجرمين في الدنيا وماهو الأنموذج لما أعد لهم في الآخرة فاذا رأى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفا في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى وقوله (ذلك) اشارة الى يوم القيامة لان عذاب الآخرة دل عليه (يوم مجموع له) أي فيه (الناس) أي ان خلق الاولين والآخرين كلهم يحشرون في ذلك اليوم ويجمعون ثم وصفه تعالى بوصف آخر بقوله تعالى (وذلك يوم مشهود) أي يشهده أهل السموات وأهل الارض (وما نؤخره) أي ذلك اليوم وهو يوم القيامة (الالاجل) أي وقت (معدود) أي معلوم محدود وذلك الوقت لايعلمه الا الله تعالى (يوم يأتي) ذلك اليوم (لاتكلم) فيه حذف احدى التاءين أي لاتتكلم (نفس الاباذنه) تعالى وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائي باثبات الياء بعد التاء من يأتي وصلا ووقفا وحذفها الباقون وأما التاء من تكلم فشددها البزي في الوصل وخففها الباقون (فان قيل) كيف يوفق بين قوله تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وقوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون (أجيب) بأن ذلك اليوم يوم طويل له مواقف ومواطن ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم وفي بعضها يكفون عن الكلام ولا يؤذن لهم وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم (فمنهم) أي الناس (شقي و) منهم (سعيد) أي فمنهم من سبقت له الشقاوة فوجبت له النار بمقتضى الوعيد ومنهم من سبقت له السعادة فوجبت له الجنة بموجب الوعد وعن علي رضي الله تعالى عنه قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة ثم نكت بها الارض ساعة ثم قال مامن نفس منفوسة الا قد كتب مكانها من الجنة أو النار فقالوا يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الآية وبقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة الشريفة ومدفنهم فيه والمخصرة كالسوط والعصا مما يمسكه الانسان بيده والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشئ بتلك المخصرة أو باليد أو نحو ذلك حتى يؤثر فيه (فأما الذين شقوا) في علمه تعالى (ففي النار لهم فيها زفير) وهو صوت شديد (وشهيق) وهو صوت ضعيف وقيل الزفير اخراج النفس والشهيق رده وقيل الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير بالنهيق والشهيق بمنزلة آخر صوت الحمار اذا ردده في صدره وقيل الزفير

في الحلق والشهيق في الصدر والمراد منهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم (خالدين فيها) وقوله تعالى (مادامت السموات والارض) فيه وجهان أحدهما سموات الآخرة وأرضها وهي مخلوقة دائمة للابد والدليل على أن لها سموات وأرضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء لانه لابد لاهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم اما سماء يخلقها الله تعالى أو يظلهم العرش وكل ما أظلك فهو سماء وكل ما استقر قدمك عليه فهو أرض والوجه الثاني أن المراد مدة دوامهما في الدنيا (الا) أي غير (ماشاء ربك) من الزيادة على مدتهما مما لا منتهى له وذلك هو الخلود فيها أبدا (ان ربك فعال لما يريد) من غير اعتراض (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الاماشاء ربك) كما تقدم ودل عليه قوله تعالى (عطاء غير مجذوذ) أي مقطوع وقيل الاستثناء في أهل الشقاوة يرجع الى قوم من الموحدين يدخلهم الله تعالى النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء وذلك كاف في صحة الاستثناء لان زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض من غير الجنس لان الذين أخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الاشقياء لما روي عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بالشفاعة وفي رواية ان الله تعالى يخرج ماشاء من النار فيدخلهم الجنة وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال ليصيبن قوما سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة ثم يدخلهم الله بفضله ورحمته الجنة وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة فيسمون الجهنميين وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد أي من اهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن تخلى طبقتهم التي كانوا فيها وان نازع في ذلك الزمخشري على مذهبه الفاسد من ان أهل الكبائر يخلدون في النار وأما الاستثناء في أهل السعادة فيرجع الى مدة لبثهم في النار قبل دخولهم الجنة أو ان الاستثناء راجع الى الفريقين فانهم مفارقوا الجنة أيام عذابهم وان التأبيد من مبدا معين ينتقص باعتبار الابتداء كما ينتقص باعتبار الانتهاء وهؤلاء وان شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله تعالى فمنهم شقي وسعيد تقسيما صحيحا لان شرطه أن تكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه لان ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي أو مانع من الجمع من الجنة والنار مدة تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ وهو ما بين الموت الى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيكون المعنى خالدين في الجنة والنار الا هذا المقدار وقيل معناه لو شاء ربك لاخرجهم منها ولكنه لا يشاء لانه تعالى حكم لهم بالخلود وقال الفراء هذا الاستثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله كقولك والله لاضربنك الا ان أرى غير ذلك وعزيمتك ان تضربه وقال أهل المعاني هذه عبارة عن التأبيد على عادة العرب يقولون لا آتيك مادامت السموات والارض ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار يعنون أبدا وقيل ان أهل النار ينقلون منها الى الزمهرير وغيره من العذاب أحيانا

وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة وهو الفوز برضوان الله تعالى ولقائه كما قال تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر وقرأ حفص وحمزة والكسائي سعدوا بضم السين على البناء للمفعول من سعده الله بمعنى أسعده والباقون بفتحها وعطاء نصب على المصدر المؤكد أي أعطوا عطاء أو الحال من الجنة ولما شرح الله تعالى أقاصيص عبدة الاوثان ثم اتبعه بأحوال الاشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول صلى الله عليه وسلم أحوال الكفار من قومه فقال (فلا تك) يا محمد (في مرية) أي شك (مما يعبد هؤلاء) المشركون من الاصنام أنا نعذبهم كما عذبنا من قبلهم وهذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم) أي كعبادتهم (من قبل) وقد عذبناهم (وانا لموفوهم) مثلهم (نصيبهم) أي حظهم من العذاب (غير منقوص) أي كاملا غير ناقص ولما ذكر تعالى في هذه الآية اعراضهم عن الاتباع مع ما أتى به من المعجزات وأنزل عليه من الكتاب سلاه بأخيه موسى عليه السلام بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة الجامعة للخير (فاختلف فيه) أي الكتاب فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن (ولولا كلمة سبقت من ربك) بتأخير الحساب والجزاء للخلائق الى يوم القيامة (لقضي) أي لوقع القضاء (بينهم) أي بين من اختلف في كتاب موسى في الدنيا فيما اختلفوا فيه بانزال ما يستحقه المبطل ليتميز به المحق ولكن سبقت الكلمة ان القضاء الكامل انما يكون يوم القيامة كما قال تعالى في سورة يونس عليه السلام فما اختلفوا حتى جاءهم العلم الآية ولما كان الاختلاف قد يكون بغير الكفر بين تعالى أنه به لان كل طائفة من اليهود تنكر شكها فيه وفعلها فعل الشاك فقال تعالى مؤكدا (وانهم لفي شك) أي عظيم محيط بهم (منه) أي من الكتاب والقضاء (مريب) أي موقع في الريب والتهمة والاضطراب مع ما رأوا من الآيات التي منها سماع كلام الله تعالى ورؤية ما كان يتجلى في جبل الطور من خوارق الاحوال وقيل الضمير في وانهم راجع لكفار مكة وفي منه للقرآن (وان كلا) أي كل الخلائق وقوله تعالى (لما) ما زائدة واللام موطئة لقسم مقدر تقديره والله (ليوفينهم ربك أعمالهم) فيجازي المصدق على تصديقه الجنة ويجازي المكذب على تكذيبه النار وقرأ نافع وابن كثير وشعبة بتخفيف وان والباقون بالتشديد وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد ميم لما والباقون بالتخفيف *(فائدة)* قال بعض الفضلاء انه تعالى لما أخبر عن توفية الاجزية على المستحقين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيدات أولها كلمة ان وهي للتأكيد وثانيها لفظة كل وهي أم الباب في التأكيد وثالثها اللام الداخلة على خبر ان تفيد التأكيد أيضا ورابعها حرف ما اذا جعلناه على قول الفراء موصولا وخامسها المضمر وسادسها اللام الثانية الداخلة على جواب القسم وسابعها النون المذكورة في قوله تعالى ليوفينهم فجميع هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدل على ان أمر الربوبية والعبودية لا يتم الا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله

تعالى (انه بما يعملون خبير) وهو من أعظم المؤكدات فانه تعالى لا يخفى عليه شئ من أعمال عباده ففيه وعد للمحسنين ووعيد للمكذبين الكافرين ولما بين تعالى أمر الوعد والوعيد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاستقم) أى على دين ربك والعمل والدعاء اليه (كما أمرت) والامر فى ذلك للتأكيد فانه صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها فهو كقولك للقائم قم حتى آتيك اى دم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك وتوطئة لقوله تعالى (ومن تاب معك) أى وليستقم أيضا على دين الله والعمل بطاعته من آمن معك قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الاستقامة أن تستقيم على الامر والنهى ولا تروغ عنه روغان الثعلب وأشار صلى الله عليه وسلم الى شدة الاستقامة بقوله شيبتنى هود وأخواتها وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم آية أشد ولا أشق من هذه الآية وعن بعضهم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت له يروى عنك انك قلت شيبتنى هود فقال نعم فقلت بأى آية قال قوله تعالى فاستقم كما أمرت وعن سفيان ابن عبد الله الثقفى قال قلت يارسول الله قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال قل آمنت بالله ورسوله ثم استقم قال الامام الرازى ان هذه الآية أصل عظيم فى الشريعة وذلك لان القرآن لما ورد بالامر بأعمال الوضوء مرتبة فى اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله تعالى فاستقم كما أمرت ولما ورد الامر فى الزكاة بأداء الابل من الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول فى كل ما ورد أمر الله تعالى به انتهى ولما كانت الاستقامة هى التوسط بين طرفى الافراط والتفريط نهى عن الافراط بقوله تعالى (ولا تطغوا) أى لا تتجاوزوا الحد فيما أمرتم به أو نهيتم عنه بالزيادة افراطا فان الله تعالى انما أمركم ونهاكم لتهذيب أنفسكم لا لحاجته الى ذلك ولن تطيقوا ان تقدروا الله حق قدره والدين متين لم يشاده أحد الا غلبه كما ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة فقوله صلى الله عليه وسلم ان الدين يسر ضد العسر اراد به التسهيل فى الدين وترك التشديد فان هذا الدين مع يسره وسهولته قوى فلن يغالب ولن يقاوى وقوله وسددوا أى اقصدوا السداد فى الامور وهو الصواب وقاربوا أى اطلبوا المقاربة وهى القصد الذى لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشاء والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضا وقوله واستعينوا بشئ من الدلجة اشارة الى تقليله ولما نهى تعالى عن الافراط وهو الزيادة تصريحا أفهم النهى عن التفريط وهو النقص عن المأمور تلويحا من باب أولى ثم علل ذلك مؤكدا تنزيلا لمن يفرط أو يفرط منزلة المنكر فقال (انه بما تعملون بصير) أى عالم بأعمالكم كلها لا يخفى عليه شئ منها فيجازيكم عليها (ولا تركنوا) أى تميلوا (الى الذين ظلموا) أدنى ميل (فتمسكم النار) أى تصيبكم بحرها والنهى متناول للانحطاط فى هواهم والانقطاع اليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيى بزيهم ومد العين الى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم وتأمل قوله تعالى ولا تركنوا فان الركون هو الميل

اليسير وحكى أن الموفق صلى خلف الامام فقرأ بهذه الآية فغشى عليه فلما أفاق قيل له فى ذلك فقال هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم ولما خالط الزهرى السلاطين كتب اليه أخ له فى الدين عافانا الله واياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك اصبحت شيخا كبيرا وقد أثقلتك نعم الله تعالى بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله سبحانه وتعالى ليبيننه للناس ولا يكتمونه واعلم ان أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت انك آنست وحشة الظالم وسهلت سبيل الغى بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين ادناك اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم وجسرا يعبرون عليك الى بلاذهم وسلما يصعدون فيك الى ضلالهم يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهلاء فما أيسر ما عمروا لك فى جنب ما خربوا عليك وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا فانك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل فداو دينك فقد دخله سقم وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء والسلام وقال سفيان فى جهنم واد لا يسكنه الا القراء الزائرون للملوك وعن الاوزاعى ما من شئ أبغض الى الله تعالى من عالم يزور عاملا أى من الظلمة وعن محمد بن سلمة الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء وقال صلى الله عليه وسلم من دعا للظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك فى برية هل يسقى شربة ماء فقال لا فقيل له يموت فقال دعه يموت وقوله تعالى (وما لكم من دون الله من أولياء) أى أعوانا وأنصارا يمنعوكم من عذابه حال من قوله فتمسكم النار أى فتمسكم النار وأنتم على هذه الحالة (ثم لا تنصرون) اى لا تجدون من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله فى القيامة ففى هذه الآية وعيد لمن ركن الى الظلمة بأن تمسه النار فكيف يكون حال الظالم فى نفسه ولما أمر تعالى بالاستقامة أردفه بالامر بالصلاة بقوله تعالى (وأقم الصلاة) وذلك يدل على أن أعظم العبادات بعد الايمان بالله تعالى هو الصلاة وقوله تعالى (طرفى النهار) الغداة والعشى أى الصبح والظهر والعصر وقوله تعالى (وزلفا) جمع زلفة أى طائفة (من الليل) أى المغرب والعشاء (ان الحسنات) كالصلوات الخمس (يذهبن) أى يكفرن (السيئات) أى الذنوب الصغائر لما رواه مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وزاد فى رواية أخرى ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر وعن أبى هريرة رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ما تقولون هل يبقى من درنه شئ قالوا لا يا رسول الله لا يبقى من درنه شئ فقال ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات وعن الحسن ان الحسنات قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر

وسبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذى عن أبى اليسر بن عمرو قال أتتنى امرأة وزوجها بعثه النبى صلى الله عليه وسلم فى بعث فقالت بعنى بدرهم تمرا قال فأعجبتنى فقلت ان فى البيت تمرا هو أطيب من هذا فالحقينى فدخلت معى البيت فأهويت اليها فقبلتها فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فأتيت عمر فذكرت له ذلك فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال أخنت رجلا غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم الا تلك الساعة حتى ظن انه من أهل النار وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى أوحى اليه وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل الى قوله تعالى (ذلك ذكرى للذاكرين) أى عظة للمتقين قال أبو اليسر فأتيته فقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهذا خاصة أم للناس عامة قال بل للناس عامة قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وعن عبد الله بن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت فقال رجل يا رسول الله ألهذا خاصة فقال بل للناس كافة وعن معاذ بن جبل قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله أرأيت رجلا لقى امرأة ليس بينهما معرفة وليس يأتى الرجل الى امرأة شيأ الا قد أتى هو اليها الا أنه لم يجامعها قال فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ ويصلى فقال معاذ بن جبل فقلت يا رسول الله أهى له خاصة أم للمؤمنين عامة قال بل للمؤمنين عامة. قال العلماء الصغائر من الذنوب تكفرها الاعمال الصالحة مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها الا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط الاول الاقلاع عن الذنب بالكلية الثانى الندم على فعله الثالث العزم التام على أن لا يعود اليه فى المستقبل فاذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة ان شاء الله تعالى والاشارة فى قوله تعالى ذلك ذكرى الى ما تقدم ذكره من قوله تعالى فاستقم كما أمرت الى ههنا وقيل هو اشارة الى القرآن وقوله تعالى (واصبر) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى واصبر يا محمد على أذى قومك أو على الصلاة وهو قوله تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أى أجر أعمالهم وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلا على ان الصلاة والصبر احسان وايماء بأنه لا يعتد بهما دون الاخلاص ولما بين تعالى أن الامم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين ان السبب فيه أمران السبب الاول انه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد فى الارض فقال تعالى (فلولا) أى فهلا (كان من القرون) أى من الامم الماضية (من قبلكم أولو بقية) أى أصحاب رأى وخير وفضل (ينهون عن الفساد فى الارض) وسمى الفضل والجود بقية لان الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وافضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم وبه فسر بيت الحماسة * ان تذنبوا ثم يأتينى بقيتكم * ومنه قولهم فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى أى فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم

وصيانة

وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه *(فائدة)* حكى عن الخليل أنه قال كل ما فى القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا الا التى فى الصافات قال صاحب الكشاف وما صحت هذه الحكاية ففى غير الصافات لولا أن تداركه نعمة من ربه ولولا رجال مؤمنون ولولا أن ثبتناك انتهى وقوله تعالى (الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع معناه ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهى السبب الثانى لنزول عذاب الاستئصال قوله تعالى (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) أى ما نعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك (وكانوا مجرمين) أى كافرين *(تنبيه)* قوله تعالى واتبع الذين ظلموا ان كان معناه واتبعوا الشهوات كان معطوفا على مضمر لان المعنى الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا وان كان معناه واتبعوا جزاء الاتراف فالواو للحال فكأنه قيل أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم وقوله تعالى وكانوا مجرمين عطف على أترفوا أى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالآثام أو على اتبعوا أى اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك ثم بين تعالى انه ما أهلك أهل القرى بظلم بقوله تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) أى بشرك (وأهلها مصلحون) فيما بينهم والمعنى انه لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين فى المعاملات فيما بينهم والحال أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين الشرك بل انما ينزل ذلك العذاب اذا أساؤا فى المعاملات وسعوا فى الايذاء والظلم ولهذا قيل ان حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ويقال فى الاثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وانما نزل على قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من ايذاء الناس وظلم الخلق (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أى أهل ملة واحدة وهى الاسلام كقوله تعالى ان هذه أمتكم أمة واحدة وفى هذه الآية دليل على ان الامر غير الارادة وأنه تعالى لم يرد الايمان من كل أحد وأن ما أراده يجب وقوعه والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الالجاء والاجبار ولهذا قال الزمخشرى يعنى لاضطرهم الى أن يكونوا أهل ملة واحدة (ولا يزالون مختلفين) أى على أديان شتى ما بين يهودى ونصرانى ومجوسى ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الاديان اختلفوا فى دينهم أيضا اختلافا كثيرا لا ينضبط عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة وفى رواية ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة فثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة والمراد بهذه الفرق أهل البدع والاهواء كالقدرية والمعتزلة والرافضة والمراد بالواحدة هى ملة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله (فان قيل) ما الدليل على أن الاختلاف فى الاديان فلم لا يجوز أن يحمل على الاختلاف فى الالوان والالسنة والارزاق والاعمال (أجيب) بأن الدليل عليه ما قبل هذه

الآية وهو قوله تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة فيجب حمل الاختلاف على ما يخرجهم من أن يكونوا أمة واحدة وما بعد هذه الآية وهو قوله تعالى (الا من رحم ربك) أى أراد لهم الخير فلا يختلفون فيه فيجب حمل الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه ذلك وفى هذه الآية دلالة على أن الهداية والايمان لا تحصل الا بتخليق الله تعالى لان تلك الرحمة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل وارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة العذر فان كل ذلك حاصل فى حق الكفار فلم يبق الا أن يقال تلك الرحمة هو أنه سبحانه وتعالى خلق فيهم تلك الهداية والمعرفة (ولذلك خلقهم) أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف وخلق أهل الرحمة للرحمة روى عن ابن عباس أنه قال خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا والحاصل أن الله تعالى خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف وهم أهل الباطل ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالاتفاق وهم أهل الحق ومصيرهم الى الجنة ويدل لذلك قوله تعالى (وتمت كلمة ربك) وهى (لاملأن جهنم من الجنة) أى الجن (والناس أجمعين) وهذا صريح بأن الله تعالى خلق أقواما للجنة والرحمة فهداهم ووفقهم لاعمال اهل الجنة وخلق أقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية ولما ذكر تعالى القصص الكثيرة فى هذه السورة ذكر نوعين من الفائدة أولهما تثبيت الفؤاد بقوله تعالى (وكلا) أى وكل نبأ (نقص عليك) وقوله تعالى (من أنباء الرسل) أى نخبر لك به بيان لكل وقوله تعالى (ما نثبت به فؤادك) بدل من كلا ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الاذى وذلك لان الانسان اذا ابتلى بمحنة وبلية فاذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت واذا سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القصص وعلم أن حال جميع الانبياء مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وأمكنه الصبر عليه * الفائدة الثانية قوله تعالى (وجاءك فى هذه الحق) أى فى السورة وعليه الاكثر أو فى هذه الانباء المقتصة فيها وقال الحسن فى هذه الدنيا قال الرازى وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع لانه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير لها (فان قيل) قد جاءه الحق فى غير هذه السورة بل القرآن كله حق وصدق (أجيب) بأنه انما خصها بالذكر تشريفا لها (وموعظة وذكرى للمؤمنين) وخصهم بالذكر لانتفاعهم بذلك بخلاف الكفار وذكر تعالى أمورا ثلاثة الحق والموعظة والذكرى أما الحق فهو اشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وأما الموعظة فهى اشارة الى السفر عن الدنيا وتقبيح أحوالها وأما الذكرى فهى اشارة الى الارشاد الى الاعمال النافذة الصالحة فى الدار الآخرة ولما بلغ تعالى الغاية فى الانذار والاعذار والترغيب والترهيب اتبع ذلك بأن قال لرسوله صلى الله عليه وسلم (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم) اى حالكم وفيه وعيد وتهديد وان كانت صيغته صيغة الامر فهو كقوله تعالى لابليس واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك

وربحالك وقرأ شعبة بعد النون بالف على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد (انا عاملون) أي على حالتنا التي أمرنا بها ربنا (وانتظروا) أي ما يعدكم الشيطان به من الخذلان (انا منتظرون) أي ما يحل بكم من نقم الله تعالى وعذابه نحو ما نزل على أمثالكم وقيل انا منتظرون ما وعدنا الرحمن من أنواع الغفران والاحسان ثم انه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال (ولله غيب السموات والارض) أي علم ما غاب فيهما فعلمه سبحانه وتعالى نافذ في جميع مخلوقاته خفيها وجليها (واليه) أي لا الى غيره (يرجع الامر كله) أي اليه يرجع أمر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة وقرأ نافع وحفص بضم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول والباقون بفتح الياء وكسر الجيم ولما كان أول درجات السير الى الله تعالى عبوديته وآخرها التوكل عليه قال تعالى (فاعبده) ولا تشتغل بعبادة غيره (وتوكل عليه) أي ثق به في جميع أمورك فانه كافيك (وما ربك بغافل عما تعملون) فيحفظ على العباد أعمالهم لا يخفى عليه شيء منها فيجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة * (فائدة) * قال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هود أعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وابراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء حديث موضوع

(سورة يوسف عليه السلام مكية كلها)

مائة واحدى عشرة آية وعدد كلماتها ألف وتسعمائة وست وتسعون كلمة وعدد حروفها سبعة آلاف ومائة وستة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذي وسع كل شيء قدرة وعلما (الرحمن) لجميع خلقه المبين لهم طريق الهدى (الرحيم) الذي خص حزبه بالابعاد عن مواطن الردى وقوله تعالى (الر) تقدم الكلام على أوائل السور أول سورة البقرة وقرأ ورش بالامالة بين بين وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي بالامالة محضة والباقون بالفتح واختلف في سبب نزول هذه السورة فعن سعيد بن جبير أنه قال لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يتلوه على قومه فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فنزل الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني فقالوا لو ذكرتنا فنزل ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وعن ابن عباس انه قال سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فنزلت هذه السورة وقوله تعالى (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت اليك في هذه السورة المسماة بالر هي (آيات الكتاب) أي القرآن (المبين) أي المبين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام المظهر للحق من الباطل الذي ثبت فيه قصص الاولين والآخرين وشرحت فيه أحوال المتقدمين (انا أنزلناه) أي الكتاب (قرآنا عربيا) أي بلغة العرب لكي يعلموا معانيه ويفهموا ما فيه روي ان علماء اليهود قالوا

الكبراء المشركين اسألوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشأم الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فأنزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها أنه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها والتقدير انا أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض القرآن قرآنا لان القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض (لعلكم) يا أهل مكة (تعقلون) أى ارادة ان تفهموا وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته واختلف العلماء هل فى القرآن شئ بغير العربية فقال أبو عبيدة من زعم أن فى القرآن لسانا غير العربية فقد أعظم على الله القول واحتج بهذه الآية انا أنزلناه قرآنا عربيا وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العرب من سجيل ومشكاة واليم واستبرق وجمع بعض المفسرين بين القولين بأن هذه الالفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وان كانت غير عربية فى الاصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت اليهم وصارت لهم لغة وهو جمع حسن (نحن نقص عليك أحسن القصص) أى أحسن الاقتصاص لانه اقتص على أبدع الاساليب والقصص اتباع الخبر بعضه بعضا وأصله فى اللغة من قص الاثر اذا اتبعه وانما سميت الحكاية قصة لان الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيأ فشيأ والمعنى انا نبين لك يا محمد أخبار الامم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان أو قصة يوسف عليه السلام خاصة وسماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التى تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والغلمان ومكر النساء والصبر على ايذاء الاعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك قال خالد بن معدان فى سورة يوسف ومريم يتفكه فيهما أهل الجنة فى الجنة وقال ابن عطاء لايسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها (بما) أى بسبب ما (أوحينا) أى بايحائنا (اليك) يا محمد (هذا القرآن) الذى قالوا فيه انه مفترى فنحن نتابع القصص القصة بعد القصة حتى لا يشك شاك ولا يمترى ممتر أنه من عند الله (وان كنت من قبله) أى ايحائنا اليك أو هذا القرآن (لمن الغافلين) أى عن قصة يوسف واخوته لانه صلى الله عليه وسلم انما علم ذلك بالوحى وقيل لمن الغافلين عن الدين والشريعة وان هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بينها وبين النافية وقوله تعالى (اذ قال يوسف لابيه) بدل من أحسن القصص أو منصوب باضمار اذكر ويوسف اسم عبرى وقيل عربى ورد بأنه لو كان عربيا لصرف وسئل أبو الحسن الاقطع عن يوسف فقال الاسف فى اللغة الحزن والاسيف العبد واجتمعا فى يوسف فسمى به وعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم وقوله (يا أبت) أصله يا أبى فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة ولذلك قلبها ابن كثير وابن عامر هاء فى الوقف ووقف الباقون بالتاء كالرسم وفى الوصل بالتاء للجميع وفتح التاء فى الوصل ابن عامر وكسرها الباقون (انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) قال أهل التفسير رأى يوسف عليه الصلاة والسلام فى منامه وكان ابن اثنتى عشرة سنة وقيل سبع عشرة وقيل سبع سنين

ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر كأن أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجد وا له وفسروا الكواكب باخوته وكانوا أحد عشر يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس والقمر بأبيه وأمه بجعل الشمس للام لانها مؤنثة والقمر للاب لانه مذكر والذى رواه البيضاوى تبعا للكشاف عن جابر من أن يهوديا قال للنبي صلى الله عليه وسلم أخبرنى عن النجوم التى رآهن يوسف فأخبره بأسمائها فقال اليهودى اى والله انها الاسماؤها قال ابن الجوزى انه موضوع وقوله (رأيتهم لى ساجدين) استئناف لبيان حالهم التى رآهم عليها فلا تكرار لان الرؤية الاولى تدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر والثانية تدل على انه شاهد كونها ساجدة له وقال بعضهم انه لما قال انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر قيل له كيف رأيت قال رأيتهم لى ساجدين وقال آخرون يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا وهذا القائل لم يبين أن أيهما يحمل على الرؤية وأيهما يحمل على الرؤيا قال الرازى فذكر قولا مجملا غير مبين (فان قيل) قوله رأيتهم وقوله ساجدين لا يليق الا بالعقلاء والكواكب جمادات فكيف جاءت اللفظة المخصوصة بالعقلاء فى حق الجمادات (أجيب) بأنها لما وصفت بالسجود صارت كأنها تعقل وأخبر عنها كما أخبر عمن يعقل كما قال تعالى فى صفة الاصنام وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون وكما فى قوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم (فان قيل) لم أفرد الشمس والقمر بالذكر مع أنهما من جملة الكواكب (أجيب) بأنه أفردهما لفضلهما وشرفهما على سائر الكواكب كقوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال وهل المراد بالسجود نفس السجود حقيقة أو التواضع كلاهما محتمل والاصل فى الكلام حمله على الحقيقة قال أهل التفسير ان يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف عليه السلام فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها أن أبويه واخوته يخضعون له وخاف عليه حسدهم وبغيهم (قال) له أبوه (يا بنى) بصيغة التصغير للشفقة أو لصغر سنه على ما تقدم وقرأ حفص فى الوصل بفتح الياء والباقون بالكسر والتشديد للجميع (لا تقصص رؤياك على اخوتك) أى لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها (فيكيدوا لك كيدا) أى فيحتالوا فى هلاكك (فان قيل) لم لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدونى (أجيب) بأن هذه اللام تأكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون وكقوله نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك وقيل صلة كقوله لربهم يرهبون (ان الشيطان للانسان عدو مبين) أى ظاهر العداوة كما فعل بآدم وحواء فلا يألو جهدا فى تسويلهم واثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد وعن أبى قتادة قال كنت أرى الرؤيا تمرضنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا رأى أحدكم ما يحبه فلا يحدث به الا من يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فانها لا تضره وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من

الله فليحمد الله عليها وليحدث بها وإذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هي من الشيطان فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره وعن أبي رزين العقيلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزأ من النبوة وهي على رجل طائر ما لم يحدث بها فاذا حدث بها سقطت قال وأحسبه قال ولا يحدث بها الا لبيبا أو حبيبا وانما أضيفت الرؤيا المحبوبة الى الله اضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وان كانتا جميعا من خلق الله تعالى وتدبيره وارادته ولا فعل للشيطان فيهما ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب اذا رأى الشخص في منامه ما يحب أن يحدث به من يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرها وليتفل ثلاثا وليتحول عن جنبه الآخر فانها لا تضره فان الله تعالى جعل هذه الاسباب سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سببا لوقاية المال قال الحكماء ان الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب والرؤيا الجيدة انما يظهر تعبيرها بعد حين قالوا والسبب فيه ان رحمة الله تعالى تقتضي أن لا يحصل الاعلام بوصول الشر الا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل وأما الاعلام بالخير فانه يحصل متقدما على ظهوره بزمن طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حضور ذلك الخير أكثر وأتم ولهذا لم تظهر رؤيا يوسف عليه السلام الا بعد أربعين سنة وهو قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصري كان بينهما ثمانون سنة حتى اجتمع على ابويه واخوته وخروا له ساجدين (وكذلك) أي وكما اجتباك ربك لاطلاع على هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكمال نفس (يجتبيك) أي يختارك ويصطفيك (ربك) بالدرجات العالية واجتباء الله تخصيصه بفيض الهي يحصل منه أنواع الكرامات بلا سعي من العبد وذلك مخصوص بالانبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين وقوله (ويعلمك) كلام مستأنف خارج عن التشبيه والتقدير وهو يعلمك (من) أي بعض (تأويل الاحاديث) من تأويل الرؤيا وغيرها من كتب الله تعالى والاخبار المروية عن الانبياء المتقدمين وكان يوسف عليه السلام في تعبير الرؤيا وغيرها غاية والتأويل ما تؤول اليه عاقبة الامر (ويتم نعمته عليك) بالنبوة قال ابن عباس لان منصب النبوة أي ومع الرسالة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبياء فهذا من تمام النعمة عليهم لان جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة والنبوة فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر ليس الا النبوة والرسالة وقيل يجتبيك بالنبوة ويتم نعمته عليك بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة أما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم والاتباع والتوسع في المال والجاه والاجلال في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد وأما سعادات الآخرة فالعلوم الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى (وعلى آل يعقوب) أي أولاده وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب وتمام النعمة هو النبوة والرسالة كما مر فلزم حصولها لآل يعقوب وأيضا ان يوسف عليه السلام قال اني رأيت أحد عشر كوكبا وكان تأويله أحد عشر نفسا لهم فضل وكمال ويستضيء بعلمهم ودينهم أهل الارض لانه لا شيء أضوأ

من الكواكب وبها يهتدى وذلك يقتضى أن تكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلا (فان قيل) كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه فى حق يوسف عليه السلام (أجيب) بأن ذلك وقع منهم قبل النبوة والعصمة من المعاصى انما تعتبر بعد النبوة لا قبلها على خلاف فيه (كما أتمها على أبويك) بالنبوة والرسالة وقيل اتمام النعمة على ابراهيم عليه السلام خلاصه من النار واتخاذه خليلا وعلى اسحق خلاصه من الذبح وفداؤه بذبح عظيم على قول ان اسحق هو الذبيح (من قبل) أى من قبل هذا الزمان وقوله (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك ثم ان يعقوب عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله (ان ربك عليم) أى بليغ العلم (حكيم) أى بليغ الحكمة وهى وضع الاشياء فى أتقن مواضعها (لقد كان فى) خبر (يوسف واخوته) وهم أحد عشر يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وزبلون قال البقاعى بزاى وباء موحدة ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهى ابنة خال يعقوب وولد له من سريتين احداهما زلفى والاخرى بلهم كذا قاله البغوى وقال الرازى والاخرى بلهمة أربعة اولاد وأسماؤهم دان ونفتالى قال البقاعى بنون مفتوحة وفاء ساكنة ومثناة فوقية ولام بعدها ياء وجاد وأشر ثم توفيت ليا فتزوج باختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرما حينئذ (آيات) أى علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته فى كل شئ (للسائلين) عن قصصهم قال الرازى ولمن لم يسأل عنها وهو كقوله تعالى فى أربعة أيام سواء للسائلين وقيل آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أن اليهود سألوه عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان الى أرض مصر فذكر لهم قصة يوسف فوجدوها موافقة لما فى التوراة فعجبوا منه فكان دلالة على نبوته صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء وأصحاب الاخبار ولم يأخذ عنهم شيأ فدل ذلك على أن ما يأتى به وحى سماوى أوحاه الله تعالى اليه وعرفه به وهذه السورة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف عليه السلام وما حقق الله تعالى فيها من حسد اخوته وما آل اليه أمره من الملك ومنها ما اشتمل على حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل اليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التى اذا فكر فيها الانسان اعتبر وقرأ ابن كثير آية على التوحيد والباقون على الجمع (اذ) أى واذكر اذ (قالوا) أى بعض اخوة يوسف لبعض بعد أن بلغتهم الرؤيا وقالوا ما يرضى أن تسجد له اخوته حتى يسجد له أبواه (ليوسف واخوه) أى بنيامين (أحب الى أبينا منا) اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا ان زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وخبر المبتدا أحب ووحد لان أفعل يستوى فيه الواحد وما فوقه مذكرا كان أو مؤنثا اذا لم يعرف أو لم يضف وقيل اللام لام قسم تقديره والله ليوسف وانما قالوا وأخوه وهم جميعا اخوته لان أمهما كانت واحدة والواو فى قولهم (ونحن عصبة) واو الحال أى يفضلهما فى المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ونحن جماعة أقوياء نقوم بمرافقه فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة

والمنفعة عليهما والعصبة والعصابة العشرة فما فوقها وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم جماعة تعصب بهم الامور ويستكفى بهم النوائب (ان أبانا لفى ضلال) أى خطأ (مبين) أى بين فى ايثاره حب يوسف وأخيه علينا والقرب المقتضى للحب فى كلنا واحد لانا فى البنوة سواء ولنا مزية تقتضى تفضيلنا وهى انا عصبة لنا من النفع له والذب عنه والكفاية ماليس لهما * (تنبيه) * ههنا سؤالات * الاول ان من المعلوم أن تفضيل بعض الاولاد على بعض يورث الحقد والحسد فلم أقدم يعقوب عليه السلام على ذلك (أجيب) بأنه انما فضلهما فى المحبة والمحبة ليست فى وسع البشر فكان معذورا فيها ولا يلحقه فى ذلك لوم * الثانى كيف اعترضوا على أبيهم وهم يعلمون انه نبى وهم مؤمنون به وأجيب بأنهم وان كانوا مؤمنين بنبوته لكن جوزوا أن يكون فعله باجتهاد ثم ان اجتهادهم أدى الى تخطئة أبيهم فى ذلك الاجتهاد لكونهم أكبر سنا وأكثر نفعا وغاب عنهم ان تخصيصهما بالبر كان لوجوه أحدها أن أمهما ماتت ثانيها أنه كان فى يوسف من آثار الرشد والنجابة مالم يجده فى سائر أولاده ثالثها أنه وان كان صغيرا الا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدمة أعلى وأشرف مما كان يصدر عن سائر أولاده والحاصل أن هذه المسئلة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين فى دين الآخر الثالث أنهم نسبوا أباهم الى الضلال عن رعاية مصالح الدنيا والبعد عن طريق الرشد لا الضلال فى الدين * الرابع أن قولهم ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا محض حسد والحسد من أمهات الكبائر لا سيما وقد أقدموا بسبب ذلك الحسد على أمور مذمومة منها قولهم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) أى بحيث يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه ومنها القاؤه فى ذل العبودية ومنها أنهم أبقوا أباهم فى الحزن الدائم والاسف العظيم ومنها اقدامهم على الكذب وكل ذلك يقدح فى العصمة والنبوة (أجيب) بما تقدم أن ذلك كان قبل النبوة وقرأ نافع وابن كثير وهشام والكسائى بضم التنوين من مبين فى الوصل والباقون بالكسر فان وقف القارئ على مبين وامتحن فى الابتداء يبتدئ بالضم للجميع وقولهم (يخل لكم وجه أبيكم) جواب الامر أى يصف لكم وجه أبيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا ينازعكم فى محبته أحد وقولهم (وتكونوا) مجزوم بالعطف على يخل لكم أو منصوب باضمار ان (من بعده) أى قتل يوسف أو طرحه (قوما صالحين) بأن تتوبوا الى الله تعالى بعد فعلكم فانه يعفو عنكم وقال مقاتل يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم رأيا فيه وهو الذى قال فلن أبرح الارض وقيل روبيل وكان أكبرهم سنا (لا تقتلوا يوسف وألقوه) أى اطرحوه (فى غيابت الجب) أى فى أسفله وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيأ وغيبه عن النظر قال القائل

فان أنا يوما غيبتنى غيابتى * فسيروا بسيرى فى العشيرة والاهل

اراد غيابة حفرته التى يدفن فيها والجب البئر الكبيرة التى ليست مطوية سميت جبا لانها قطعت قطعا ولم يحصل فيها شئ غير القطع من طى أو ما أشبهه واتما ذكر الغيابة مع الجب دلالة على

أن المشير أشار بطرحه فى موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين قال بعض أهل العلم انهم عزموا على قتله وعصمه الله تعالى رحمة بهم ولو فعلوا لهلكوا أجمعين واختلف فى موضع ذلك الجب فقال قتادة هو بيت المقدس. وقال وهب هو بأرض الاردن وقال مقاتل هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وقرأ نافع بألف بين الباء والتاء على الجمع والباقون بغير ألف على التوحيد (يلتقطه) أى يأخذه (بعض السيارة) جمع سيار أى المبالغ فى السير وذلك الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين فاذا أخذوه ذهبوا به الى ناحية أخرى فتستريحوا منه (ان كنتم فاعلين) أى ما أردتم من التفريق فاكتفوا بذلك ولما أجمعوا على التفريق بين يوسف وأبيه بضرب من الحيل (قالوا) اعمالا للحيلة فى الوصول اليه مستفهمين على وجه التعجب لانه كان أحس منهم السوء فكان يحذرهم عليه (يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف و) الحال (انا له لناصحون) أى قائمون بمصلحته وحفظه *(تنبيه)* اتفق القراء على اخفاء النون الساكنة عند النون المتحركة واتفقوا أيضا على ادغامها مع الاشمام (أرسله معنا غدا) أى الى الصحراء (نرتع) أى نتسع فى أكل الفواكه ونحوها وأصل الرتع أكل البهائم فى الخصب فى زمن الربيع ويستعار للانسان اذا أريد به الاكل الكثير (ونلعب) روى أنه قيل لابى عمرو كيف يقولون نلعب وهم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء وأيضا جاز أن يكون المراد باللعب الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وأيضا كان لعبهم الاستباق والانتضال والغرض منه المحاربة والمقاتلة مع الكفار والدليل عليه قولهم انا ذهبنا نستبق وانما سموه لعبا لانه فى صورته وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما والباقون بالياء وسكن العين أبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى وكسرها الباقون فى الوصل ولقنبل وجه آخر وهو أنه يثبت الياء فى نرتع بعد العين وقفا ووصلا (وانا له لحافظون) أى بليغون فى الحفظ له حتى نرده اليك سالما قال أبو حيان وانتصب غدا على الظرف وهو ظرف مستقبل يطلق على اليوم الذى يلى يومك وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد وأصل غدا غدو فحذفت الواو انتهى ثم ان يعقوب عليه السلام اعتذر لهم بعذرين الاول ما حكاه الله تعالى عنه بقوله (قال انى ليحزننى أن تذهبوا به) أى ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب لانه كان لا يقدر أن يصبر عنه ساعة وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى والباقون بفتح الياء وضم الزاى والثانى قوله (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم به وكان يعقوب عليه السلام رأى فى النوم أن الذئب شد على يوسف فكان يحذره فمن أجل هذا ذكر ذلك وكأنه لقنهم العلة وفى أمثال العرب البلاء موكل بالمنطق والمراد به الجنس وكانت أرضهم كثيرة الذئاب (قالوا) مجيبين عن الثانى بما يلين الاب لارساله مؤكدين لتطييب خاطره دالين على القسم بلامه (لئن أكله الذئب ونحن) أى والحال أنا (عصبة) أى جماعة عشرة رجال بمثلهم تعصب الامور وتكفى الخطوب وأجابوا عن القسم بما أغنى عن جواب الشرط

بقولهم (انا اذا) أى اذا كان هذا (لخاسرون) أي كاملون فى الخسارة لانا اذا ضيعنا أخانا فنحن لما سواه من أموالنا أشد تضييعا وأعرضوا عن جواب الاول لان حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الاول وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذلك المعنى تغافلوا عنه وأقله أن يقولوا ماوجه الشح بفراقه يوما والسماح بفراقنا كل يوم وقرأ الذيب ورش والسوسى والكسائى بابدال الهمزة ياء وقفا ووصلا وحمزة وقفا لاوصلا والباقون بالهمزة وقفا ووصلا. وقوله تعالى (فلما ذهبوا به) فيه اضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به (وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب) أى وعزموا على القائه فيها ولا بد من تقدير جواب وهو جعلوه فيها وحذف الجواب فى القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلا عليه وهنا كذلك قال وهب وغيره من أهل السير والاخبار ان اخوة يوسف قالوا له ماتشتاق أن تخرج معنا الى مواشينا فتصيد وتستبق قال بلى قالوا افاسأل أباك أن يرسلك معنا قال يوسف أفعل فدخلوا جميعا على أبيهم وقالوا يا أبانا ان يوسف قد أحب أن يخرج معنا الى مواشينا فقال يعقوب ماتقول يابنى قال نعم ياأبت انى أرى من اخوتى اللين واللطف فأحب أن تأذن لى وكان يعقوب عليه الصلاة والسلام يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له فأرسله معهم فلما خرجوا به من عند أبيهم جعلوا يحملونه على رقابهم وأبوهم ينظر اليهم فلما بعدوا عنه وصاروا الى الصحراء ألقوه على الارض وأظهروا له مافى أنفسهم من العداوة وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعلوا كلما جاء الى واحد منهم واستغاث به يضربه فلم ير منهم رحيما فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح ياأبتاه ويايعقوب لورأيت يوسف ومانزل به من اخوته لأحزنك ذلك وأبكاك ياأبتاه ماأسرع مانسوا عهدك وجعل يبكى بكاء شديدا فأخذه روبيل فجلد به الارض ثم جلس على صدره وأراد قتله فقال له مهلا ياأخى لاتقتلنى فقال له يا ابن راحيل أنت صاحب الاحلام الكاذبة قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله فى وحل بينى وبين من يريد قتلى فأدركته رحمة ورقة فقال يهوذا يا اخوتاه ماعلى هذا عاهدتمونى فانطلقوا به الى الجب ليطرحوه فيه فجاؤابه على بئر على غير الطريق واسع الاسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه فى البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يااخوتاه ردوا على قميصى أستتر به فى الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال انى لم أر شيأ فألقوه فيها وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة كانت فى البئر فقام عليها فنادوه فظن أنها رحمة أدركته فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وكان يهوذا يأتيه بالطعام وبقى فيها ثلاث ليال (وأوحينا اليه) فى الجب فى صغره وهو ابن سبع عشرة سنة أو دونها كما أوحى الى يحيى وعيسى عليهما السلام فى صغرهما وفى القصص ان ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه ودفعه ابراهيم عليه السلام الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة علقها بيوسف فأخرجها جبريل وألبسه اياها (لتنبئنهم) أى لتخبرنهم بعد هذا اليوم

(بأمرهم)

(بأمرهم) أى بصنعهم (هذا وهم لا يشعرون) أى انك يوسف لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم وطول العهد المغير للهيآت كما قال تعالى فعرفهم وهم له منكرون والمقصود من ذلك تقوية قلبه وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت أمره ونهيه وقهره روى أنهم لما دخلوا عليه لطلب الحنطة عرفهم وهم له منكرون ودعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام انه كان لكم أخ من ابيكم يقال له يوسف فطرحتموه وقلتم لابيكم أكله الذئب وقيل لا يشعرون بايحائنا اليك وأنت فى البئر بأنك ستخبرهم بصنيعهم هذا والفائدة فى اخفاء ذلك الوحى عنهم انهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم وكانوا يقصدون قتله وقيل ان المراد من هذا الوحى الالهام كما فى قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وقوله تعالى وأوحى ربك الى النحل (و) لما كان من المعلوم أنه ليس بعد هذا الفعل الذى فعلوه الا الاعتذار (جاؤا أباهم) دون يوسف (عشاء) فى ظلمة الليل لئلا يتفرس أبوهم فى وجوههم اذا رآها فى ضياء النهار ضد ما جاؤا به من الاعتذار وقد قيل لا تطلب الحاجة فى الليل فان الحياء فى العينين ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج فى الاعتذار (يبكون) والبكاء جريان الدمع من العين والآية تدل على أنه لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع روى ان امرأة حاكمت الى شريح فبكت فقال الشعبى يا أبا أمية أما تراها تبكى فقال قد جاء اخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغى للانسان أن يقضى الا بالحق فعند ذلك فزع يعقوب عليه السلام فقال هل أصابكم فى غنمكم شئ قالوا لا قال فما فعل يوسف (قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق) قال الزجاج يسابق بعضنا بعضا فى الرمى ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا سبق الا فى خف أو نصل أو حافر يعنى بالنصل الرمى وقيل العدو لنتبين أينا أسرع عدوا (وتركنا يوسف) أخانا (عند متاعنا) أى ما كان معنا مما نحتاج اليه فى ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحو ذلك (فأكله) أى فتسبب عن انفراده أن أكله (الذئب وما) أى والحال انك ما (أنت بمؤمن) أى بمصدق لما علموا أنه لا يصدقهم بغير أمارة (لنا ولو كنا صادقين) فى هذه القصة لمحبة يوسف عندك فكيف وأنت تسىء الظن بنا وقيل لا تصدقنا لانه لا دليل لنا على صدقنا وان كنا صادقين عند الله تعالى (و) لما علموا أنه لا يصدقهم بغير أمارة (جاؤا على قميصه) أى يوسف عليه السلام (بدم كذب) قال الفراء أى مكذوب فيه الا أنه وصفه بالمصدر على تقدير ذى كذب أو مكذوب أطلق على المصدر مبالغة لانه غير مطابق للواقع لانهم ادعوا أنه دم يوسف عليه السلام والواقع أنه دم سخلة ذبحوها ولطخوا القميص بذلك الدم قال القاضى ولعل غرضهم فى نزع قميصه عند القائه فى غيابة الجب أن يفعلوا هذا لتوكيد الصدقهم اذ يبعد أن يفعلوا ذلك طمعا فى نفس القميص ولا بد فى المعصية من أن يقترن بها الخذلان فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الاتهام أقوى فلما شاهد يعقوب عليه السلام القميص صحيحا علم كذبهم روى أن يعقوب عليه السلام أخذ القميص منهم وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق قميصه * (تنبيه) *

على قميصه محله النصب على الظرفية كأنه قيل وجاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله باجماله ولا يصح أن يكون حالا متقدمة لان حال المجرور لا يتقدم عليه قال الشعبي قصة يوسف كلها في قميصه وذلك أنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه ولما شهد الشاهد قال ان كان قميصه قدّ من قبل ولما أتى بقميصه الى يعقوب وألقى على وجهه ارتد بصيرا ثم ذكر تعالى ان اخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم (قال) يعقوب عليه السلام (بل سوّلت) أي زينت (لكم أنفسكم أمرا) ففعلتموه به واختلف في السبب الذي عرف به كونهم كاذبين على وجوه الاول أنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم الثاني كان عالما بأنه حي لانه عليه السلام قال ليوسف وكذلك يجتبيك ربك وذلك دليل على كذبهم في ذلك القول الثالث أنه لما رأى قميصه صحيحا قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق ثوبه وقيل انه لما قال ذلك قال بعضهم بل قتله اللصوص فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم الى قميصه أحوج منهم الى قتله فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم وقوله (فصبر جميل) مرفوع بالابتداء لكونه موصوفا وخبره محذوف والتقدير فصبر جميل أولى من الجزع ومنهم من أضمر المبتدا قال الخليل الذي أفعله صبر جميل وقال قطرب معناه فصبري صبر جميل وقال الفراء فهو صبر جميل وعن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال صبر لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر كما قال يعقوب انما أشكو بثي وحزني الى الله وقال مجاهد فصبر جميل من غير جزع وقال الثوري ان من الصبر أن لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكي نفسك وروى ان يعقوب عليه السلام كان قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله تعالى اليه يا يعقوب أتشكوني فقال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها في قصة الافك أنها قالت والله لئن حلفت لا تصدقوني ولئن اعتذرت لا تعذروني فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده والله المستعان على ما تصفون فأنزل الله تعالى في عذرها ما أنزل وقوله فصبر جميل يدل على أن الصبر على قسمين قد يكون جميلا وقد يكون غير جميل فالصبر الجميل أن ينكشف له ان هذا البلاء من الحق فاستغراقه في شهود نور المبلي يمنعه من الاشتغال بالشكاية من البلاء ولذلك قيل المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء لانها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون محبوبا بالذات بل بالعرض فهذا هو الصبر الجميل وأما الصبر لا للرضا بقضاء الله تعالى بل كان لسائر الاغراض فذلك الصبر لا يكون جميلا (فان قيل) الصبر على قضاء الله تعالى واجب وأما الصبر على ظلم الظالمين فغير واجب بل الواجب ازالته لا سيما في الضرر العائد الى الغير فلم صبر يعقوب على ذلك ولم يبالغ في البحث مع شدة رغبته في حضور يوسف ونهاية حبه له وكان من بيت عظيم شريف وكان الناس يعرفونه ويعتقدون فيه (أجيب) بأنه يحتمل أن يكون منع من الطلب بوحي تشديدا للمحنة عليه زيادة في أجره أو انه لو بالغ في البحث لربما أقدموا على ايذائه ولم يمكنوه من الطلب والفحص

فرأى

فرأى أن الاصوب الصبر والسكوت وتفويض الامر بالكلية الى الله تعالى وقال (والله المستعان) أى المطلوب منه العون (على ما تصفون) أى تذكرون من أمر يوسف والمعنى ان اقدامه على الصبر لا يكون الا بمعونة الله تعالى لان الدواعى النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع وهى قوية والدواعى الروحانية تدعوه الى الصبر فكان المحاربة وقعت بين الصنفين فما لم تحصل اعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله فصبر جميل يجرى مجرى قوله اياك نعبد وقوله والله المستعان على ما تصفون يجرى مجرى قوله واياك نستعين * ولما أراد الله تعالى خلاص يوسف من الجب بين سببه بقوله تعالى (وجاءت سيارة) وهم القوم المسافرون سموا بذلك لانهم يسيرون فى الارض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطؤا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على أرض فيها جب يوسف وكان الجب فى قفرة بعيدة عن العمران أى لم يكن الا للرعاة روى أن ماءه كان ملحا فعذب حين ألقى يوسف فيه فلما نزلوا أرسلوا رجلا يقال له مالك بن ذعر لطلب الماء فذلك قوله تعالى (فأرسلوا واردهم) أى الذى يريد الماء ليستقى منه والوارد هو الذى يتقدم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء (فأدلى) أى أرسل (دلوه) فى البئر يقال أدليت الدلو اذا أرسلتها فى البئر ودلوتها اذا أخرجتها والدلو معروف والجمع الدلاء فلما أرسلها تعلق بالحبل يوسف عليه السلام فلما خرج فاذا هو بغلام أحسن ما يكون قال صلى الله عليه وسلم أعطى يوسف شطر الحسن ويقال انه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت جدته قد أعطيت سدس الحسن قال ابن اسحق ذهب يوسف وأمه بثلثى الحسن وحكى الثعلبى عن كعب الاحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا تبسم رأيت النور من ضواحكه واذا تكلم رأيت شعاع النور من ثناياه لا يستطيع أحد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله وصوره قبل أن يصيب الخطيئة فلما رآه مالك بن ذعر (قال يا بشرى هذا غلام) نادى البشرى بشارة لنفسه كأنه قال تعالى فهذا أوانك وعن الاعمش أنه قال دعا امرأة اسمها بشرى فقال يا بشرى وعن السدى أن المدلى نادى صاحبه وكان اسمه بشرى فقال يا بشرى كما قرأه حمزة وعاصم والكسائى فانهم قرؤا بحذف الياء بعد الالف والباقون باثبات الياء وقيل ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك وروى أن جدران البئر كانت تبكى على يوسف حين أخرج منها واختلف فى ضمير (وأسروه بضاعة) الى من يعود وفيه قولان الاول أنه عائد الى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه بالجب وذلك أنهم قالوا ان قلنا للسيارة التقطناه شاركونا وان قلنا اشتريناه سألونا الشركة فالاصوب أن نقول ان أهلا لنا جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر والثانى ونقل عن ابن عباس أنه قال وأسروه يعنى اخوة يوسف أسروا شأنه وذلك أن يهوذا كان يأتيه بالطعام كل يوم فلم يجده فى البئر فأخبر اخوته فطلبوه فاذا هم بمالك بن ذعر وأصحابه نزول فأتوهم فاذا هم بيوسف فقالوا هذا عبد لنا أبق منا وتابعهم يوسف على ذلك

لانهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية قال الرازي والاول أولى لان قوله وأسروه بضاعة يدل على أن المراد أنهم أسروه حال ماحكموا بأنه بضاعة وذلك انما يليق بالوارد لا باخوة يوسف *(تنبيه)* البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشئ اذا قطعته قال الزجاج وبضاعة منصوب على الحال كأنه قال وأسروه حال ماجعلوه بضاعة ولما جعل تعالى هذا البلاء سببا لوصوله الى مصر ثم صارت وقائعه الى أن صار ملكا بمصر وحصل ذلك الذي رآه فى النوم فكان العمل الذي عمله الاعداء فى دفعه عن ذلك المطلوب صيره الله تعالى سببا لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال تعالى (والله عليم) أي بالغ العلم (بما يعملون) أي لم يخف عليه مافعلوه بيوسف وأبيهم (وشروه) أي باعوه اذ قد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشئ بمعنى بعته وانما حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير فى شروه وفى كانوا فيه من الزاهدين يرجع الى شئ واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل ان الضمير يعود الى مالك بن ذعر وأصحابه وعلى هذا يكون لفظ الشراء على بابه وقال محمد بن اسحق ربك أعلم أ اخوته باعوه أم السيارة واختلفوا فى معنى قوله تعالى (بثمن بخس) فقال الضحاك أي حرام لان ثمن الحر حرام وسمى الحرام بخسا لانه مبخوس البركة وقال ابن مسعود أي زيوف وقال عكرمة أي بثمن قليل ويدل لهذا قوله تعالى (دراهم معدودة) لانهم كانوا فى ذلك الزمان لا يزنون ما كان أقل من أربعين درهما انما كانوا يأخذون مادونها عدا فاذا بلغتها وهي أوقية وزنوها واختلفوا فى عدد تلك الدراهم فقال ابن عباس كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين وعلى هذا لم يأخذ أخوه بنيامين شقيقه منها شيأ وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما وقال عكرمة أربعين درهما (وكانوا) أي اخوته (فيه) أي يوسف (من الزاهدين) لانهم لم يعلموا منزلته عند الله تعالى ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان فى كذا اذا لم يرغب فيه وأصله القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل الطمع وقيل كانوا فى الثمن من الزاهدين لانهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن وانما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه وقيل الضمير فى كانوا للسيارة لانهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل فى بيعه لا جرم باعوه بأوكس الاثمان روى فى الاخبار أن مالك بن ذعر انطلق هو وأصحابه بيوسف وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لانه آبق فذهبوا به حتى أتوا مصر وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير أو اطفير وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العمالقة وقد آمن بيوسف ومات فى حياة يوسف فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى الاسلام فأبى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله تعالى العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل كان الملك فى أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا وزوجي نعل وثوبين أبيضين

وقال

وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه أربعمائة رطل وكان عمره حينئذ تسبع عشرة سنة وقيل ثلاث عشرة سنة فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن فذلك قوله تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته) واسمها زليخا وقيل راعيل (أكرمى مثواه) قال الرازى اعلم ان شيأ من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت أيضا فى خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شئ من هذه الروايات فاللائق بالعاقل أن يحترز من ذكرها انتهى ولكن البغوى ذكرها وتبعه على ذلك جماعة من المفسرين واللام فى امرأته متعلقة بقال لا باشتراه والمثوى موضع الاقامة أى اجعلى منزله ومقامه عندنا كريما أى حسنا مرضيا بدليل قول يوسف انه ربى أحسن مثواى والمراد تفقديه بالاحسان وتعهديه بحسن الملكية حتى تكون نفسه طيبة فى صحبتنا ساكنة فى كنفنا قال المحققون أمر العزيز امرأته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل على أنه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال سلام الله على المجلس العالى * ولما أمر باكرام مثواه علل ذلك بأن قال (عسى أن ينفعنا) أى يقوم باصلاح مهما تنا أو نبيعه بالربح ان أردنا بيعه (أو نتخذه ولدا) أى نتبناه وكان حصورا ليس له ولد قال ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة العزيز فى يوسف حيث قال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا وابنة شعيب حين قالت لابيها فى موسى استأجره وأبو بكر فى عمر حيث استخلفه (وكذلك) أى وكما نجيناه من القتل والجب وعطفنا عليه قلب العزيز (مكنا ليوسف فى الارض) أى أرض مصر قال البقاعى التى هى كالارض كلها لكثرة منافعها بالملك فيها التمكنه من الحكم بالعدل والنبوة وقوله تعالى (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) أى تعبير الرؤيا عطف على مقدر متعلق بمكنا أى لنمكنه أو الواو زائدة (والله غالب على أمره) أى الامر الذى يريده لانه تعالى فعال لما يريد ولا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه فى أرضه وسمائه أو على أمر يوسف أراد اخوته قتله فغلب أمره عليهم وأرادوا أن يلتقطه بعض السيارة ليندرس اسمه فغلب أمره وظهر اسمه واشتهر ثم باعوه ليكون مملوكا فغلب الله أمره حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه ثم أرادوا أن يضروا أباهم ويطيبوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه فغلب أمره تعالى فأظهره على مكرهم واحتالت عليه امرأة العزيز لتخدعه عن نفسه فغلب أمره تعالى فعصمه حتى لم يهم بسوء بل هرب منه غاية الهرب ثم بذلت جهدها فى اذلاله والقاء التهمة عليه فأبى الله تعالى الا اعزازه وبراءته ثم أراد يوسف عليه السلام ذكر الساقى له فغلب أمره تعالى فأنساه ذكره حتى مضى الاجل الذى ضرب الله تعالى له وكم من أمر كان فى هذه القصة وفى غيرها يرشد الى أنه لا أمر لغيره (ولكن أكثر الناس) وهم الكفار (لا يعلمون) أن الامر كله بيد الله تعالى أو أن أكثر الناس لا يعلمون ما هو صانع بيوسف وما يريد منه فمن تأمل فى الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن ان الامر كله لله وان قضاء الله تعالى غالب * ولما بين تعالى أن اخوته أساؤا اليه وصبر على تلك الشدائد والمحن ومكنه

في الارض اتبعه الامر بتمام النعمة عليه بقوله تعالى (ولما بلغ أشده) أى منتهى شبابه وقوته وشدته تقول العرب بلغ فلان أشده اذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته وهذا اللفظ مستعمل فى الواحد والجمع يقال بلغ فلان أشده وبلغوا أشدهم وهو ثلاث وثلاثون سنة وقال السدى بلغ ثلاثين سنة وقال الضحاك عشرين سنة وقال الكلبى الاشد ما بين ثمانية عشر الى ثلاثين وقيل اقصاه اثنان وستون سنة قال الاطباء ان الانسان يحدث فى أول الامر ويتزايد كل يوم شيأ فشيأ الى أن ينتهى الى غاية الكمال ثم يأخذ فى التراجع الى أن ينتهى الى العدم والمحاق كالقمر (آتيناه حكما) أى حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس (وعلما) أى علم تأويل الاحاديث وقيل المراد بالحكم النبوة والرسالة وتقدم ان قوله تعالى وأوحينا أنه وحى حقيقة قال الرازى فلا يبعد أن يقال ان ذلك الوحى اليه فى ذلك الوقت لا لاجل بعثته الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن صدره ولاجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام (وكذلك) أى ومثل ذلك الجزاء الذى جزيناه به (نجزى المحسنين) قال ابن عباس يعنى المؤمنين وعنه أيضا يعنى المهتدين وقال الضحاك يعنى الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام وعن الحسن من أحسن عبادة ربه فى شبيبته آتاه الله الحكمة فى اكتهاله * ولما أخبر تعالى أن سبب النعمة عليه احسانه اتبعه دليله فقال تعالى (وراودته التى هو فى بيتها) أى امرأة العزيز راودت يوسف (عن نفسه) لانها لما رأته فى غاية الحسن والجمال طمعت فيه ويقال ان زوجها كان عاجزا والمراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب كان المعنى خادعته عن نفسه أى فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشئ الذى لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه وهو عبارة عن التمحل لمواقعته اياها (وغلقت الابواب) أى أطبقتها وكانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة فى الايثاق لان مثل هذا الفعل لا يكون الا فى ستر وخفية لاسيما اذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد (وقالت) له (هيت) أى تهيأت وتصنعت (لك) خاصة فاقبل الى وامتثل أمرى قال الواحدى هيت لك اسم للفعل نحو رويد وصه ومه ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة وقرأ نافع وابن عامر بكسر الهاء والباقون بالفتح وقرأ هشام بعد الهاء بهمزة ساكنة والباقون بياء ساكنة وقرأ ابن كثير بضم التاء وفتحها والباقون بالفتح (قال) لها يوسف عليه السلام (معاذ الله) أى أعوذ بالله واعتصم به وألجأ اليه مما تدعينى اليه (انه) أى الذى اشترانى (ربى) أى سيدى (أحسن مثواى) أى أكرم منزلى فلا أخونه فى أهله وقيل انه أى الله ربى أحسن مثواى أى آوانى ومن بلاء الجب أنجانى (انه لا يفلح الظالمون) أى ان فعلت هذا الفعل فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون (ولقد همت به وهم بها) أى قصدت مخالطته وقصد مخالطتها والهم بالشئ قصده والعزم عليه ومنه الهمام وهو الذى اذا هم بشئ امضاه والمراد بهمته ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختيارى وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والاجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم ولهذا قال بعض أهل الحقائق الهم قسمان هم ثابت وهو اذا كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز

فالعبد مأخوذ به وهمّ عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل همّ
يوسف عليه السلام والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل كما روى عن أبي هريرة رضي الله
تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل اذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا
أكتبها حسنة مالم يعملها فاذا عملها فأنا أكتبها له بعشرة أمثالها واذا تحدث بأن يعمل سيئة
فأنا أغفرها له مالم يعملها فاذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها قال في الكشاف ويجوز أن يريد بقوله
وهمّ بها شارف أن يهمّ بها كما يقول الرجل قتلته لولم أخف الله يريد مشارفة القتل ومشافهته
كأنه شرع فيه (لولا أن رأى) أي بعين قلبه (برهان ربه) أي الذى آتاه اياه من الحكم والعلم
أى لهمّ بها لكنه كان البرهان حاضرا لديه حضور من يراه بالعين فلم يهمّ أصلا مع كونه في غاية
الاستعداد لذلك لما آتاه الله تعالى من القوة مع كونه في سن الشباب فلولا المراقبة لهمّ بها لتوفر
الداعى غير أن نور الشهود محاها أصلا وهذا التقدير هو اللائق بمثل مقامه عليه السلام مع أنه
الذى تدل عليه أساليب هذه الآيات من جعله من المخلصين والمحسنين المصروف عنهم السوء
وأن السجن أحب اليه من ذلك مع قيام القاطع على كذب ما تضمنه قولها ما جزاء من أراد
بأهلك سوأ الآية من مطلق الارادة ومع ما يعهد من تقدير ما ذكر بعد لولا في خصوص هذا
التركيب من أساليب كلام العرب فانه يجب أن يكون المقدر بعد كل شرط من معنى ما دل عليه
ما قبله وهذا مثل قوله تعالى ان كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها أى لابدت به وأما ما ورد
عن السلف مما يعارض ذلك من تفسيرهم بها بأن حل الهميان وجلس بها مجلس المجامع وبأنه
حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الاربع وهى مستلقية على قفاها ومن تفسير البرهان بأنه سمع
صوتا اياك واياها فلم يكترث له فسمعه ثانيا فلم يعمل به فسمعه ثالثا أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى
مثل له يعقوب عاضا على أنملته وقيل ضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل كل
ولد ليعقوب ولد له اثنا عشر ولدا الا يوسف فانه ولد له أحد عشر ولدا من أجل ما نقص من شهوته
حين همّ وقيل صيح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنا قعد لا ريش له وقيل بدت
كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين
فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا
يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فيه فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدى قبل أن
يدرك الخطيئة فانحط جبريل وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان
الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل قامت المرأة الى صنم كان هنالك فسترته وقالت أستحى أن
يرانا فقال يوسف استحييت مما لا يسمع ولا يبصر ولا أستحى من السميع العليم بذات الصدور فلم
يصح منه شئ عن أحد منهم مع أن هذه الاقوال التى وردت عنهم اذا جمعت تناقضت وتكاذبت
قال الزمخشرى وهذا ونحوه مما يورده أهل الجبر والحشو الذين دينهم بهت الله وأنبيائه
فأخزى الله أولئك فى ايرادهم ما يؤدى الى أن يكون انزال الله السورة التى هى أحسن القصص
فى القرآن العربى المبين ليقتدى بنبى من أنبياء الله تعالى فيما ذكروه وأهل العدل والتوحيد

ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل وأطال فى رد ذلك وكذا فعل الرازى وقيل وهم بها أى بزجرها ووعظها وقيل هم بها أى غمه امتناعه منها وقيل هم بها أى نظر اليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله قبل نبوته وقد ذكر بعضهم مازال النساء يملن الى يوسف عليه السلام ميل شهوة حتى نبأه الله تعالى فألقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه (كذلك) أى مثل ذلك التثبيت نثبته فى كل أمر (لنصرف عنه السوء) أى الهم بالزنا وغيره (والفحشاء) أى الزنا وغيره وقيل السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة والفحشاء هى الزنا فكأنه قيل لم فعل به هذا فقيل انه (من عبادنا) أى الذين عظمناهم (المخلصين) أى فى عبادتنا الذين هم خير صرف لا يخالطهم غش وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام بعد الخاء والباقون بالفتح قال الرازى فوروده باسم الفاعل دل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه واصطفاه لحضرته وعلى كلا اللفظين فانه من أدل الالفاظ على كونه منزها عما أضافوه اليه وهذا مع قول ابليس لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين شهادة من ابليس أن يوسف عليه السلام برىء من الهم فمن نسبه الى الهم ان كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وان كانوا من أتباع ابليس وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على طهارته قال ولعلهم يقولون كنا فى أول الامر تلامذة ابليس الا أنا زدنا وفجرنا عليه فى السفاهة كما قال الخزورى

وكنت فتى من جند ابليس فارتقى * بى الامر حتى صار ابليس من جندى

فلو مات قبلى كنت أحسن بعده * طرائق فسق ليس يحسنها بعدى

ثم ذكر سبحانه وتعالى مبالغة فى الامتناع بالجد فى الهرب دليلا على اخلاصه وأنه لم يهم أصلا فقال (واستبقا الباب) أى أوجدا المسابقة بغاية الرغبة من كل منهما هذا للهرب منها وهذه لمنعه فكل منهما بذل أقصى جهده فى السبق فلحقته عند الباب الاقصى مع أنه قد كان سبقها بقوة الرجولية وقوة الداعية الى الفرار الى الله تعالى ولكن عاقه اتقانها المكر بكون الابواب كانت مغلقة فكان يشتغل بفتحها فتعلقت بأدنى ما وصلت اليه من قميصه وهو ما كان من ورائه خوف فواته فاشتد تعلقها به مع اعراضه هو عنها وهربه منها فقصه فأراد الخروج فمنعته (و) لم تزل تنازعه حتى (قدت) أى شقت (قميصه) وكان القد (من دبر) أى الناحية من الخلف منه وانقطعت منه قطعة فبقيت فى يدها (وألفيا) أى وجدا (سيدها) أى زوجها قطفير وهو العزيز تقول المرأة لبعلها سيدى ولم يقل سيدهما الان ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيدا له على الحقيقة (لدى) أى عند (الباب) جالسا مع ابن عم المرأة (فان قيل) كيف وحد الباب وقد جمعه فى قوله وغلقت الابواب (أجيب) بانه أراد الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار والمخلص من العار فقد روى كعب الاحبار ان يوسف لما هرب جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب فلما رأت المرأة ابن عمها دهشته وخافت التهمة فسابقت يوسف بالقول و (قالت) لزوجها (ما جزاء من أراد باهلك سوأ) أى فاحشة زنا أو غيره ثم خافت عليه أن يقتل وذلك لشدة

جهاله فقالت (الا أن يسجن) أى يحبس فى السجن ويمنع التصرف (أو عذاب أليم) أى مؤلم بأن يضرب بالسياط ونحوها وانما بدأت بالسجن قبل العذاب لان المحب لا يشتهى ايلام المحبوب وانما أرادت أن يسجن عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال فى حق موسى عليه السلام فى قوله لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين فلما سمع يوسف عليه السلام مقالتها (قال) مبرئا نفسه (هى) بضمير الغيبة لاستحيائه بمواجهتها باشارة أو ضمير خطاب (راودتنى عن نفسى) أى طلبت منى الفاحشة فأبيت وفررت منها وذلك أن يوسف عليه السلام ما كان يريد أن يذكر ذلك القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هى ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه وصدقه لعمرى فيما قال لا يحتاج الى بيان أكثر من الحال الذى كان فيه وهو أنهما عند الباب ولو كان الطلب منه لما كان الا فى محلها الذى تجلس فيه وهو صدر البيت وأشرف موضع فيه وأيضا هو عبد لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه الى هذا الحال وأيضا ان المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه وأما يوسف فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان الحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى ثم انه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلا آخر يقوى تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه برىء من الريب وان المرأة هى المذنبة وهو قوله تعالى (وشهد شاهد من أهلها) أى وحكم حاكم من أهل المرأة واختلفوا فى هذا الشاهد فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا فى المهد أنطقه الله تعالى كرامة ليوسف عليه السلام وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال تكلم فى المهد أربعة وهم صغار شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى بن مريم وصاحب جريج الراهب رواه الامام أحمد وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وصبى كان يرضع أمه فمر راكب حسن الهيئة فقالت أمه اللهم اجعل ابنى مثل هذا فقال الصبى اللهم لا تجعلنى مثله وبهذا الاعتبار صار واخمسة وزاد الثعلبى سادسا وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام وزاد غيره على ذلك ولعل الحصر فيما ذكر فى الحديث كان قبل العلم بالزيادة فلا تناقض وأوصلهم السيوطى الى أحد عشر ونظمهم فقال

تكلم فى المهد النبى محمد * ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبرى جريج ثم شاهد يوسف * وطفل لدى الاخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مر بالامة التى * يقال لها تزنى ولا تتكلم
وماشطة فى عهد فرعون طفلها * وفى زمن الهادى المبارك يختم

وقالت طائفة عظيمة من المفسرين انها كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما واتفق فى ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص الا أنا لا ندرى أيكما قدام صاحبه ولكن (ان كان قميصه قد من قبل) أى من قدام (فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر) أى من خلف (فكذبت وهو من الصادقين) لانه لولا ادباره

منها واقبالها عليه لما وقع ذلك فعرف سيدها صحة ذلك بلا شبهة كما قال تعالى (فلما رأى) أى سيدها (قميصه) أى يوسف عليه السلام (قد من دبر قال) لها زوجها قطفير وقد قطع بصدقه وكذبها مؤكدا لاجل انكارها (انه) أى هذا القذف له (من كيدكن) معشر النساء والكيد طلب الانسان بما يكره (ان كيدكن عظيم) والعظيم ما ينقص مقدار غيره عنه حسا أو معنى (فان قيل) كيف وصف كيد النساء بالعظم مع قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وهلا كان مكر الرجال أقوى من مكر النساء (أجيب) بأن الانسان ضعيف بالنسبة لخلق ماهو أعظم منه كخلق السموات والارض وبأن كيدهن أدق من كيد الرجال وألطف وأخفى لان الشيطان عليهن لنقصهن أقدر ومكرهن فى هذا الباب أعظم من كيد جميع البشر لان لهن من المكر والحيل والكيد فى اتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال فى هذا الباب ولان كيدهن فى هذا الباب يورث العار ما لا يورثه كيد الرجال ولما ظهر للقوم براءة يوسف من ذلك الفعل المنكر حكى تعالى أنه قال (يوسف) أى يا يوسف (أعرض) أى انصرف بكليتك متجاوزا (عن هذا) الحديث فلا تذكره لاحد حتى لا يشيع وينتشر بين الناس ثم التفت الى المرأة وقال لها (واستغفرى لذنبك) أى توبى الى الله تعالى مما رميتى يوسف به من الخطيئة وهو برىء منها (انك كنت من الخاطئين) أى الآثمين قال أبو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار وقيل ان القائل المذكور هو الشاهد (فان قيل) كيف قال من الخاطئين بلفظ التذكير (أجيب) بأنه قال ذلك تغليبا للذكور على الاناث أو أن المراد انك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل سرى ذلك العرق الخبيث فيك ثم شاع الخبر واشتهر (وقال نسوة) أى وقال جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث وقوله (فى المدينة) أى مدينة مصر ظرف أى أشعن الحكاية فى مصر أو صفة نسوة وقيل مدينة عين شمس (امرأت العزيز) وانما أضفنها الى زوجها ارادة لاشاعة الخبر لان النفس الى سماع أخبار أولى الاخطار أميل ويردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب ورسم امرأة بالتاء المجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وأما الوصل فهو بالتاء للجميع (تراود فتاها) أى عبدها الكنعانى يقال فتاى وفتاتى أى عبدى وجاريتى (عن نفسه) أى تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها (قد شغفها حبا) أى شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل الى فؤادها وحبا نصب على التمييز وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب قال النابغة

وقد حال هم دون ذلك والج ✱ مكان الشغاف تبتغيه الاصابع

وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الشين والباقون بالادغام (انا لنراها) أى نعلم أمرها علما هو كالرؤية (فى ضلال) أى خطأ (مبين) أى بين ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر بسبب حبها اياه (فلما سمعت) زليخا (بمكرهن) أى قولهن

وانما سمى ذلك مكرا لوجوه الاول ان النسوة انما ذكرن ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه لانهن عرفن أنهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن الثانى ان زليخا أسرت اليهن حبها ليوسف عليه السلام وطلبت منهن كتمان هذا السر فلما أظهرن السر كان ذلك مكرا الثالث انهن وقعن فى غيبتها والغيبة انما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر (أرسلت اليهن) تدعوهن لتقيم عذرها عندهن قال وهب اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن الخمس (واعتدت) أى أعدت (لهن متكأ) أى طعاما يقطع بالسكين وهو الاترج وانما سمى الطعام متكأ لانه يتكأ عنده قال جميل

فظللنا بنعمة واتكأنا * وشربنا الحلال من قلله

والمتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث لانهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك جاء النهى عنه فى الحديث أن يأكل الرجل متكئا وقال صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا وقيل انه ازينت البيت بألوان الفواكه والاطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتى عيرنها بحب يوسف عليه السلام (وآتت) أى أعطت (كل واحدة منهن سكينا) أى لتأكل بها وكانت عادتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين (وقالت) زليخا ليوسف عليه السلام (اخرج عليهن) أى النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واختبأته فى مكان وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائى بكسر التاء فى الوصل والباقون بالضم وأما الابتداء فجميع القراء يبتدؤن الهمزة بالضم (فلما رأينه) أى النسوة (أكبرنه) أى أعظمنه ودهشن عند رؤيته اتفق الاكثرون على انهن انما أكبرنه بجبهتهن الجمال الفائق والحسن الكامل وكان يوسف قد أعطى شطر الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال رأيت يوسف ليلة أسرى بى الى السماء كالقمر ليلة البدر ذكره البغوى بغير سند وقال ابن اسحق كان يوسف اذا سار فى أزقة مصر يتلألأ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء عليها ويقال انه ورث حسن آدم عليه السلام يوم خلقه الله تعالى قبل أن يخرج من الجنة وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل أكبرنه يعنى حضن والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت فى الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وكان أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع * فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

وقيل أمنين قال الكميت

ولما رأته الخيل من رأس شاهق * صهلن وأمنين المنى المدفقا

وقال الرازى انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاخبات وشاهدن فيه شهادة الهيبة وهيبة ملكية وهى عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة فوقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن

(وقطعن أيديهن) أى جرحنها بالسكاكين التى معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الاترج ولم يجدن الالم من فرط الدهشة بيوسف وقال وهب مات جماعة منهن (وقلن حاش لله) أى تنزيها لله الرسم بغير ألف بعد الشين وقرأ أبو عمرو فى الوصل دون الوقف بألف بعد الشين والباقون بغير الف وقفا ووصلا (ما هذا) أى يوسف عليه السلام (بشرا) واعمال ما عمل ليس هى اللغة القدمى الحجازية ويدل عليها هذه الآية وقوله تعالى ماهن أمهاتهم (ان) أى ما (هذا الا ملك كريم) أى على الله لما حواه من الحسن الذى لا يكون عادة فى النسمة البشرية فان الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة (قالت) أى زليخا للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته (فذلكن) أى فهذا هو (الذى لمتننى فيه) أى فى محبته قبل أن تتصورنه حق تصوره ولو تصورتنه بما عاينتن لعذرتنى ثم انها صرحت بما فعلت فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى فامتنع من ذلك الفعل الذى طلبت وانما صرحت بذلك لانها علمت انها لا ملامة عليها منهن وانهن قد أصابهن ما اصابها عند رؤيته ثم قالت (وائن لم يفعل ما آمره) أى وان لم يطاوعنى فيما دعوته اليه (ليسجنن) أى ليعاقبن بالحبس (وليكونا من الصاغرين) أى الذليلين المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف عليه السلام السجن على ما دعت اليه فلذلك (قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) وان كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه نظرا الى العاقبة فان الاول فيه الذم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة والثانى فيه المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة (فان قيل) ان الدعاء كان منها فلم أضافه اليهن جميعا (أجيب) بأنهن خوفنه من مخالفتها وزين له مطاوعتها وقيل انهن دعونه الى أنفسهن قال بعض العلماء لو لم يقل السجن أحب الى لم يبتل بالسجن والاولى بالعبد أن يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الله الصبر بقوله له سألت الله البلاء فاسأله العافية رواه الترمذى (والا) أى وان لم (تصرف عنى كيدهن) أى فيما أردننى بالتثبيت على العصمة (أصب) أى أمل (اليهن) يقال صبا فلان الى كذا اذا مال اليه واشتاقه (وأكن) أى أصر (من الجاهلين) أى من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى اليه فان الحكيم لا يفعل القبيح وفى ذلك دليل على أن من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة والقصد بذلك الدعاء ولذلك قال تعالى (فاستجاب له ربه) أى فأجاب الله تعالى دعاءه الذى تضمنه هذا الثناء لان الكريم يغنيه التلويح عن التصريح كما قيل

اذا أثنى عليك المرء يوما * كفاه من تعرضه الثناء

(فصرف عنه كيدهن) أى فثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان (انه هو السميع) أى لدعاء الملتجئين اليه (العليم) أى للضمائر والنيات فيجيب ما صح فيه القصد وطاب منه العزم (ثم بدا) أى ظهر (لهم) أى العزيز وأصحابه (من بعد ما رأوا الآيات) أى الدالة على براءة يوسف عليه السلام كشهادة الصبى وقد القميص وقطع النساء أيديهن واستعصامه عنهن (ليسجننه حتى) أى الى (حين) ينقطع فيه كلام الناس وذلك ان

المرأة

المرأة قالت لزوجها ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يقول لهم انى راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على اظهار عذرى فاما أن تاذن لى فأخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستنى فعند ذلك وقع فى قلب العزيز ان الاصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة فسجنه *(تنبيه)* فى فاعل بدا أربعة أوجه أحسنها انه ضمير يعود على السجن بفتح السين أى ظهر لهم حبسه والثانى ان الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل وهو بدا أى بدا لهم بداء والثالث انه مضمر يدل عليه السياق أى بدا لهم رأى والرابع أنه محذوف وليسجننه قائم مقامه أى بدا لهم السجن فحذف وأقيمت الجملة مقامه وليست الجملة فاعلا لان الجمل لا تكون كذلك وقيل الحبس هنا خمس سنين وقيل سبع سنين وقال مقاتل بن سليمان حبس يوسف اثنتى عشرة سنة وقال الرازى والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما القدر المعلوم انه بقى مسجونا مدة طويلة لقوله تعالى وادكر بعد أمة وعن عكرمة قال قال رجل ذو رأى للعزيز متى تركت هذا العبد يعتذر الى الناس ويقص عليهم أمره فاتركه فى بيتها لا يخرج الى الناس فان خرج للناس عذروه وفضحوا أهلك فأمر به فسجن (ودخل معه السجن فتيان) وهما غلامان كانا للوليد بن نزوان العمليق ملك مصر الاكبر أحدهما خبازه صاحب طعامه والآخر ساقيه صاحب شرابه غضب الملك عليهما فحبسهما وكان السبب فيه ان جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا الهذين الغلامين مالا على أن يسما الملك فى طعامه وشرابه فأجابا الى ذلك ثم ان الساقى ندم ورجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الطعام مسموم فقال الخباز ولا تشرب فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فأبى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر بحبسهما وكان يوسف عليه السلام حين دخل السجن قال لاهله انى أعبر الاحلام فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم فلنجرب هذا العبد العبرانى فنتراءى له رؤيا قال ابن مسعود وما رأيا شيأ وانما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا رأيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا أنهما صاحبا الملك حبسهما وقد رأيا رؤيا غمتهما فقال يوسف قصا على ما رأيتما (قال أحدهما) وهو صاحب شراب الملك (انى أرانى أعصر خمرا) (فان قيل) كيف يعقل عصر الخمر (أجيب) عن ذلك بثلاثة أقوال أحدها أن يكون المعنى أعصر عنب خمر أى العنب الذى يكون عصيره خمرا فحذف المضاف الثانى ان العرب تسمى الشئ باسم ما يؤول اليه تقول فلان يطبخ دبسا وهو يطبخ عصيرا الثالث قال أبو صالح أزد وعمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة الى أهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك نزل القرآن بألسنة جميع العرب وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كأنى فى بستان واذا فيه شجرة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه (وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) وذلك انه قال رأيت فى المنام كان فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز وألوان

الطعام وسباع الطير تنهش منه (نبئنا) أى أخبرنا (بتأويله) أى بتفسيره (انا نراك من المحسنين) أى فى علم التفسير لانه متى عبر لم يخطئ كما قال وعلمتنى من تأويل الاحاديث وقيل فى أمر الدين لانه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فانه كان يصوم النهار ويقوم الليل كله ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا وفى سائر الامور وقيل فى حق الشركاء والاصحاب لانه كان يعود مرضاهم ويؤنس حزينهم واذا ضاق على أحدهم وسع عليه واذا احتاج أحدهم جمع له شيأ قيل انه لما دخل السجن وجد قوما اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسكنهم ويقول اصبروا وأبشروا واؤجروا فيقولون بارك الله فيك يافتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يافتى قال أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن والله يافتى لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك فكن فى أى بيوت السجن شئت وروى أن الفتيين لما رأيا يوسف قالا لقد أحببناك حين رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما الله أن لا تحبانى فوالله ما أحبنى أحد قط الادخل على من حبه بلاء لقد أحبتنى عمتى فدخل على بلاء ثم أحبنى أبى فألقيت فى الجب وأحبتنى امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبر لهما ماسألاه لما علم فى ذلك من المكروه على أحدهما (قال) معرضا عن سؤالهما آخذا فى غيره من اظهار المعجزة فى الدعاء الى التوحيد (لا يأتيكما طعام ترزقانه) أى فى منامكما (الا نبأتكما بتأويله) أى فى اليقظة (قبل أن يأتيكما) تأويله وقيل أراد به فى اليقظة يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه من منازلكما تطعمانه الا نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذى يصل اليكما قبل أن يصل وأى طعام أكلتم ومتى أكلتم وهذه كمعجزة عيسى عليه السلام حيث قال وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم فقالا هذا فعل العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم فقال ما أنا بكاهن (ذلكما) أى هذا التأويل والاخبار بالمغيبات (مما علمنى ربى) وفى ذلك حث على ايمانهم ثم قواه بقوله (انى تركت ملة) أى دين (قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) وكرر لفظة هم للتأكيد لشدة انكارهم للمعاد * ولما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر أنه من أهل بيت النبوة بقوله (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) ليسمعوا قوله ويطيعوا أمره فيما يدعوهم اليه من التوحيد فان الانسان متى ادعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه وأيضا فكمال درجة ابراهيم واسحق ويعقوب أمر مشهور فى الدنيا فاذا أظهر أنهم آباؤه عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال فكان انقيادهم له أتم وتأثيرقلوبهم بكلامه أكمل (فان قيل) انه كان نبيا فكيف قال اتبعت ملة آبائى والنبى لابد وأن يكون مختصا بشريعة نفسه (أجيب) بأن مراده التوحيد الذى لا يتغير ولعله كان رسولا من عند الله تعالى الا انه كان نبيا على شريعة ابراهيم عليه السلام وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بسكون ياء آبائى والباقون بالفتح (ما كان) أى ما صح (لنا) معشر الانبياء (أن نشرك بالله من شئ) لان الله تعالى طهره وطهر آباءه عن الكفر ونظيره قوله تعالى ما كان لله أن يتخذ من ولد وانما قال من شئ

لان

لان أصناف الشرك كثيرة فمنهم من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد النار ومنهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد الملائكة فقوله من شئ رد على هؤلاء الطوائف وارشاد الى الدين الحق وهو أنه لا موجد ولا خالق ولا رازق الا الله (ذلك) أى التوحيد (من فضل الله علينا) بالوحى (وعلى الناس) أى سائرهم ببعثنا الارشادهم وتنبيههم عليه (ولكن أكثر الناس) أى المبعوث اليهم (لا يشكرون) هذه النعمة التى أنعم الله تعالى بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهم الى الايمان فقال (يا صاحبى السجن) أى يا صاحبى فى السجن فأضافهما الى السجن كما تقول يا سارق الليلة فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب وانما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام أو يا ساكنى السجن كما قيل لسكان الجنة أصحاب الجنة ولسكان النار أصحاب النار (أأرباب) أى آلهة (متفرقون) أى متباينون من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وصغير وكبير ومتوسط وغير ذلك (خير) أى أعظم فى صفة المدح وأولى بالطاعة (أم الله الواحد القهار) أى المتوحد بالالوهية الذى لا يغالب ولا يشارك فى الربوبية غيره خير والاستفهام للتقرير وفى الهمزتين فى أأرباب من القراآت ما فى أأنذرتهم وقد مر (فان قيل) هل يجوز التفاضل بين الاصنام وبين الله تعالى حتى يقال انها خير أم الله (أجيب) بأن ذلك خرج على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير فهى خير أم الله الواحد القهار * ثم بين عجز الاصنام فقال (ما تعبدون) وانما خاطبهم بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية فى المخاطبة لانه أراد جميع من فى السجن من المشركين والعبادة خضوع القلب فى أعلى مراتب الخضوع وبين حقارة معبوداتهم وسفالتها بقوله (من دونه) أى الله الذى قام البرهان على الهيته وعلى اختصاصه بذلك (الا أسماء) وبين ما يريد وأوضحه بقوله (سميتموها) أى ذوات أوجدتم لها أسماء (أنتم) سميتموها آلهة وأربابا وهى حجارة جماد خالية عن المعنى لا حقيقة لها (وآباؤكم) من قبلكم سموها كذلك (ما أنزل الله بها) أى بعبادتها (من سلطان) أى حجة وبرهان (ان الحكم) أى ما الحكم (الا لله) أى المختص بصفات الكمال والحكم فصل الامر بما تدعو اليه الحكمة (أمر) وهو النافذ الامر المطاع الحكم (أن لا تعبدوا الا اياه) لانه المستحق للعبادة لا هذه الاسماء التى سميتموها آلهة * ولما أقام الدليل على هذا الوجه الذى كان جديرا بالاشارة الى فضله أشار اليه بأداة البعد تنبيها على علو مقامه وعظيم شانه فقال (ذلك) أى الشأن الاعظم وهو توحيده وافراده عن خلقه (الدين القيم) أى المستقيم الذى لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس) وهم الكفار (لا يعلمون) ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون * ولما قرر يوسف عليه السلام أمر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن السؤال الذى ذكراه فقال (يا صاحبى السجن) أى الذى يحصل فيه الانكسار للنفس والرقة فى القلب فتخلص فيه المودة ولما كان فى الجواب ما يسوء الخباز أبهم ليجوز كل منهما انه الفائز فان ألجآه الى التعيين كان ذلك عذرا له فى الخروج عن الاليق فقال (أما أحدكما) وهو صاحب شراب الملك (فيسقى ربه) أى سيده (خمرا) على

عادته والعناقيد الثلاثة هى ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يدعو به الملك فيرده الى رتبته التى كان
عليها هذا تأويل رؤياه (وأما الآخر) وهو صاحب طعام الملك (فيصلب) والسلال
الثلاثة ثلاثة أيام ويدعو به الملك فيصلبه (فتأكل الطير من رأسه) هذا تأويل رؤياه قال
ابن مسعود فلما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا ما رأينا شيئا انما كنا نلعب فقال لهما يوسف
عليه السلام (قضى) أى تم (الامر الذى فيه تستفتيان) أى تطلبان الافتاء فيه عملا بالفتوة
فسألتما عن تأويله وهو تعبير رؤيا كما كذبتما أو صدقتما لم أقله عن جهل ولا غلط (وقال) يوسف
عليه السلام (للذى ظن) أى علم وتحقق فالظن بمعنى العلم لانه قاله عن وحى لقوله قضى الامر
ويجوز أن يكون ضمير ظن للساقى فهو حينئذ على بابه (أنه ناج منهما) وهو الساقى (اذكرنى
عند ربك) أى سيدك ملك مصر بما رأيت منى من معالى الاخلاق وطهارة الشيم الدالة على
بعدى عما رميت به والمراد بالرب هنا غير المراد به فى قوله أأرباب متفرقون فنجا الساقى وصلب
صاحبه ووفق ما قاله لهما يوسف عليه السلام واختلف فى ضمير (فأنساه الشيطان ذكر ربه)
على قولين أحدهما أنه يعود الى الساقى وهو قول جماعة من المفسرين أى فأنسى الشيطان
الساقى أن يذكر يوسف عند الملك قالوا الان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل الساقى حتى
أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها الى يوسف والقول الثانى وعليه أكثر المفسرين أنه يرجع
الى يوسف عليه السلام وقال الرازى انه الحق أى ان الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه تعالى
حتى استعان بمخلوق مثله وتلك غفلة عرضت له عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق فى رفع الظلم
جائزة فى الشريعة الا ان حسنات الابرار سيآت المقربين فهذا وان كان جائزا لعامة الخلق
الا ان الاولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الاسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا الا بمسبب
الاسباب فلهذا صار يوسف عليه السلام مؤاخذا بهذا القول ولم يؤاخذه تعالى فى تلك القصة
البتة بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء فعلم بذلك أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال
والحشوية اليه (فان قيل) كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه (أجيب)
بأن ذلك انما كان شغل خاطر وأما النسيان الذى هو عبارة عن ترك الذكر وازالته عن القلب
بالكلية فلا يقدر عليه واختلف فى قدر البضع فى قوله تعالى (فلبث فى السجن بضع سنين) فقال
مجاهد ما بين الثلاث الى التسع وقال ابن عباس ما دون العشرة قال البغوى وأكثر المفسرين
ان البضع فى هذه الآية سبع سنين وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة وقال
وهب أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار
لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لاطيلن حبسك
فبكى يوسف وقال يارب أنسى قلبى كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبى صلى الله عليه
وسلم رحم الله يوسف لولا كلمته التى قالها ما لبث فى السجن ما لبث ثم بكى الحسن وقال نحن
اذا نزل بنا بلاء فزعنا الى الناس ذكره الثعلبى مرسلا وبغير سند وقال الحسن أيضا دخل جبريل
على يوسف عليهما السلام فى السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يا أخا المنذرين مالى أراك بين

الخاطئين فقال له جبريل يا طاهر يا ابن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك أما استحييت منى واستشفعت للآدميين فوعزتى لالبثنك فى السجن بضع سنين قال يوسف وهو فى ذلك عنى راض قال نعم قال اذا لا أبالى وقال كعب قال جبريل ليوسف ان الله تعالى يقول لك من خلقك قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن حببك الى أبيك قال الله قال فمن أنجاك من كرب البئر قال الله تعالى قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استشفعت بآدمى مثلك قال محمد بن عمر الرازى فى تفسيره والذى جربته من أول عمرى الى آخره ان الانسان كلما عول فى أمر من الامور على غير الله تعالى صار ذلك سببا للبلاء والمحنة والشدة والرزية واذا عول على الله تعالى ولم يرجع الى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لى من أول عمرى الى هذا الوقت الذى بلغت الى السابع والخمسين فعند ذلك استقر قلبى على أنه لا مصلحة للانسان فى التعويل على شئ سوى فضل الله تعالى واحسانه * ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر الاكبر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هائلة كما قال تعالى (وقال الملك انى أرى) أى رأيت عبر بالمضارع حكاية للحال لشدة ما هاله من ذلك (سبع بقرات سمان) أى خرجن من نهر يابس والسمن زيادة البدن من الشحم واللحم وسمان جمع سمينة ويجمع سمين أيضا عليه يقال رجال سمان ونساء سمان كما يقال رجال كرام ونساء كرام (يأكلهن) أى يبتلعهن (سبع) أى من البقر (عجاف) جمع عجفاء أى مهازيل خرجن من ذلك النهر * (تنبيه) * جمع عجفاء على عجاف والقياس عجف نحو حمراء وحمر حملا له على سمان لانه نقيضه ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض (و) انى أرى (سبع سنبلات خضر) أى قد انعقد حبها (و) انى أرى سبع سنبلات (أخر يابسات) أى قد أدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها وانما استغنى عن بيان حالها بما نص من حال البقرات والسنبلة نبات كالقصبة فيها جملة حبوب منتظمة فكأنه قيل فكان ماذا فقيل قال الملك بعد أن جمع السحرة والكهنة والمعبرين (يا أيها الملأ) أى الاشراف النبلاء الذين تملأ العيون مناظرهم والقلوب مآثرهم (أفتونى فى رؤياى) اى أخبرونى بتأويلها (ان كنتم للرؤيا تعبرون) أى ان كنتم عالمين بعبارة الرؤيا فاعبروها * (تنبيه) * اللام فى للرؤيا مزيدة فلا تعلق لها بشئ وزيدت لتقدم المعمول تقوية للعامل كما زيدت اذا كان العامل فرعا كقوله تعالى فعال لما يريد ولا تزاد فيما عدا ذينك الا ضرورة وقيل ضمن تعبرون معنى ما يتعدى باللام تقديره ان كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا وقيل متعلقة بمحذوف على أنها للبيان كقوله تعالى وكانوا فيه من الزاهدين تقديره أعنى فيه وكذلك هذا تقديره أعنى للرؤيا وعلى هذا يكون مفعول تعبرون محذوفا تقديره تعبرونها وفى الآية ما يوجبه حال العلماء من حاجة الملوك اليهم فكأنه قيل فما قالوا فقيل (قالوا) هذه الرؤيا (أضغاث) أى أخلاط (أحلام) مختلطة مختلفة مشتبهة جمع ضغث بكسر الضاد واسكان الغين المعجمة وهى قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس والاحلام جمع حلم بضم الحاء واسكان اللام وضمها وهو الرؤيا فقيد وجها بالاضغاث وهو ما يكون من الرؤيا باطلا

لكونه من حديث النفس ووسوسة الشيطان لكونها تشبه أخلاط النبات التى لاتناسب بينها لان الرؤيا تارة تكون من الملك وهى الصحيحة وتارة تكون من تحزين الشيطان وتخليطاته وتارة من حديث النفس ثم قالوا (وما نحن) أى بأجمعنا (بتأويل الاحلام) أى المنامات الباطلة (بعالمين) أى ليس لها تأويل عندنا وانما التأويل للمنامات الصادقة كأنه مقدمة ثانية للعذر ولما سأل الملك عن هذه الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب تذكر ذلك الشرابى واقعة يوسف عليه السلام لانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا فى هذا العلم كما قال تعالى (وقال الذى نجا) أى خلص (منهما) أى من صاحبى السجن وهو الشرابى ان فى الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق فى كل ماذكر وما أخطأ فى حرف فكانت هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه السلام ولم يتذكر الشرابى الابعد طول المدة كما قال تعالى (وادكر) بالدال المهملة أى طلب الذكر بالذال المعجمة وزنه افتعل (بعد أمة) أى وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أى مدة طويلة والجملة اعتراض ومقول القول (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) أى الى يوسف عليه السلام فانه أعلم الناس فأرسلوه اليه قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولم يكن السجن بالمدينة فأتاه فقال الساقى المرسل اليه مناديا بالنداء القرب تحببا اليه (يوسف) وزاد فى التحبب بقوله (أيها الصديق) أى البليغ فى الصدق والتصديق لانه جرب أحواله وعرف صدقه فى تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيأ فانه يجب عليه أن يعظمه وأن يخاطبه بالالفاظ المشعرة بالاجلال ثم انه أعاد السؤال يعنى اللفظ الذى ذكره الملك فقال (أفتنا) أى اذكر لنا الحكم (فى سبع بقرات سمان) أى رآهن الملك (يأكلهن سبع) من البقر (عجاف و) فى (سبع سنبلات) جمع سنبلة وهى مجمع الحب من الزرع (خضر و) فى سبع (أخر) من السنابل (يابسات) أى فى رؤيا ذلك ونعم مافعل من ذكر السؤال بعين اللفظ فان نفس الرؤيا قد تختلف بحسب اختلاف الالفاظ كما هو مذكور فى ذلك العلم ثم قال (لعلى أرجع الى الناس) أى الى الملك وجماعته بفتوى قبل مانع يمنعنى (لعلهم يعلمون) أى بتأويل هذه الرؤيا وقيل بمنزلتك فى العلم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بفتح الياء والباقون بالسكون (قال) يوسف عليه السلام معبرا لتلك الرؤيا اما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبات وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله (تزرعون سبع سنين) وهو خبر بمعنى الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن والوالدات يرضعن وانما خرج الامر فى صورة الخبر للمبالغة فى الايجاب فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه فى معنى الامر قوله فذروه فى سنبله وقوله (دأبا) نصب على الحال أى دائبين أى سبع سنين متتابعة على عادتكم فى الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد وهذا تأويل السبع السمان والسنبلات الخضر وقرأ حفص بفتح الهمزة وسكنها الباقون وأبدلها السوسى ألفا وقفا ووصلا وحمزة وقفا فقط (فما حصدتم فذروه) أى اتركوه (فى سنبله) لئلا يفسد ولا يقع فيه السوس وذلك أبقى له على

طول الزمان (الا قليلا مما تأكلون) أى ادرسوا قليلا من الحنطة للاكل بقدر الحاجة أمرهم بحفظ الاكثر لوقت الحاجة أيضا وهو وقت السنين المجدبة كما قال (ثم يأتى من بعد ذلك) أى السبع المخصبات (سبع شداد) أى مجدبات صعاب وهى تأويل السبع العجاف والسنبلات اليابسات (يأكلن ما قدمتم لهن) أى يأكل أهلهن ما ادخرتم لاجلهن فأسند اليهن على المجاز تطبيقا بين المعبر وهو يأكلهن سبع عجاف والمعبر به وهو يأكلن ما قدمتم لهن (الا قليلا مما تحصنون) أى تحرزون وتدخرون للبذر والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشئ فى الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع (ثم يأتى من بعد ذلك) أى السبع المجدبات (عام فيه يغاث الناس) أى يمطرون من الغيث وهو المطر وقيل ينقذون من قول العرب استغثت فأغاثنى (وفيه يعصرون) من العنب خمرا ومن الزيتون زيتا ومن السمسم دهنا وأراد بذلك كثرة النعم والخير وقال أبو عبيدة ينجون من الكرب والشدة والجدب وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب لان الكلام كله مع الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ردّا الى الناس * ولما رجع الشرابى الى الملك وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف عليه السلام استحسنه (وقال الملك) أى الذى العزيز فى خدمته (ائتونى به) لاسمع ذلك منه وأكرمه وهذا يدل على فضيلة العلم فانه سبحانه وتعالى جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الاخروية فأتاه الرسول ليأتى به الى الملك (فلما جاءه) أى يوسف عليه السلام عن قرب من الزمان (الرسول) بذلك وهو الساقى وقال له أجب الملك (قال) له يوسف عليه السلام (ارجع الى ربك) أى سيدك الملك ولم يخرج معه حتى يظهر برهانه للملك ولا يراه بعين النقص ولذلك قال (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) وانما قال يوسف عليه السلام فاسأله ما بال النسوة ولم يقل فاسأله أن يفتش عن حالهن لان قوله فاسأله يحتمل أن يكون بمعنى المسئلة أى اسأله عن شأنهن وان يكون بمعنى الطلب وهو ان يفتش عن شأنهن فحسن تقييده بلفظ ما التى يسأل بها عن حقيقة الشئ ليهيجه أن يتحرك للتفتيش عن حالهن لان الانسان حريص على تحقيق الشئ ويستنكف أن ينسب الى الجهل به بخلاف ما لو قال سله ان يفتش أى اطلب منه فانه لا يبالى بهذا الطلب ولا يلتفت اليه لاسيما الملوك وانما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعته به كرما ومراعاة للادب وقدم سؤال النسوة وفحص حالهن لتظهر براءة ساحته لانه لو خرج فى الحال لربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة أثر فلما التمس من الملك أن يفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وان يتوصل بها الى الطعن فيه وفى ذلك دليل على أنه ينبغى للشخص أن يجتهد فى نفى التهم ويتقى مواقعها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لقد عجبت من يوسف وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترطت أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبث لاسرعت الاجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر ان كان لحليما ذا اناة واصل الحديث فى الصحيحين مختصرا وانما قال صلى الله عليه وسلم ذلك على سبيل التواضع لانه

صلى الله عليه وسلم كان في الامر منه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف والتواضع لا يصغر كبيرا ولا يضع رفيعا ولا يبطل لذي حق حقه لكنه يوجب لصاحبه فضلا ويلبسه جلالة وقدرا وقوله والله يغفر له مثل هذه المقدمة مشعرة بتعظيم المخاطب من توقيره وتوقير حرمته كما تقول لمن تعظمه عفا الله عنك ما صنعت في أمري ورضي الله تعالى عنك ما جوابك عن كلامي وقوله ان كان لحليما ان هي المخففة من الثقيلة والاناة الوقار وقيل هو اسم من التأني في الامور وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها (ان ربي) أي الله (بكيدهن عليم) حين قلن أطع مولاتك وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله تعالى عليه وأنه بريء مما عيب به والوعيد لهن على كيدهن وقيل المراد بربي الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له وفيه اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن ولما قال يوسف عليه السلام ذلك وأبى أن يخرج من السجن قبل تبين الامر رجع الرسول الى الملك فأخبره بما قال عليه السلام فكأنه قيل فما فعل الملك فقيل (قال) للنسوة بعد ان جمعهن وامرأة العزيز معهن (ما خطبكن) أي ما شأنكن العظيم وقوله (اذ راودتن) أي خادعتن (يوسف عن نفسه) دليل على أن براءته كانت محققة عند كل من علم القصة وانما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل ان امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن فكأنه قيل فما قلن قيل (قلن حاش لله) أي عياذا بالملك الاعظم وتنزيها له من هذا الامر (ما علمنا عليه) أي يوسف عليه السلام وأغرقن في النفي فقلن (من سوء) أي من خيانة في شيء من الاشياء ولما أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة البتة وعرفت المرأة انه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها واخفاء للامر عنها ارادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء فلذلك (قالت امرأت العزيز) مصرحة بحقيقة الحال (الآن حصحص الحق) أي ظهر وتبين (أنا راودته) أي خادعته (عن نفسه) وأكدت ما أفصحت به مدحا ونفيا لكل سوء بقولها مؤكدا لاجل ما تقدم (وانه لمن الصادقين) أي الغريقين في هذا الوصف في نسبة المراودة الي وتبرئة نفسه فقد شهد النسوة كلهن ببراءته وانه لم يقع منه ما ينسب به الى شيء من السوء البتة فمن نسب بعد ذلك هما أو غيره فهو تابع لمجرد الهوى في نبي من المخلصين قال الرازي رأيت في بعض الكتب ان امرأة جاءت بزوجها الى القاضي وادعت عليه المهر فأمر القاضي بأن تكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من اقامة الشهادة فقال الزوج لا حاجة الى ذلك فاني مقر بصداقها في دعواها فقالت المرأة لما أكرمتني الى هذا الحد فاشهدوا اني أبرأت ذمتك من كل حق لي عليك * ولما رجع الرسول الى يوسف عليه السلام وأخبره بشهادتهن ببراءته قال (ذلك) أي الخلق العظيم في تبقي في السجن الى أن تبين الحق (ليعلم) العزيز باقرارها وهي في الامن وأنا في محل الضيق والخوف علما مؤكدا (اني لم أخنه) أي في أهله ولا في غيرها (بالغيب) أي

والحال أن كلا منا غائب عن صاحبه هذا قول الاكثرين انه قول يوسف عليه السلام قال
الفراء ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام آخر اذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى ان
الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة هذا كلام بلقيس ثم قال الله تعالى
وكذلك يفعلون وقوله تعالى ربنا انك جامع الناس ليوم لاريب فيه كلام الداعى ثم قال الله
تعالى ان الله لا يخلف الميعاد ثم ختم الكلام بقوله (وان الله لا يهدى) أى يسدد وينجح
بوجه من الوجوه (كيد الخائنين) أى ولو كنت خائنا لما خلصنى الله من هذه الورطة العظيمة
وحيث خلصنى منها ظهر انى برىء عما نسبونى اليه وقيل انه كلام امرأة العزيز والمعنى انى
وان كنت أحلت عليه الذنب فى حضوره لكنى ما أحلت الذنب عليه فى غيبته أى لم تقل فيه وهو
فى السجن خلاف الحق ثم انها بالغت فى تأكيد هذا القول وقالت وان الله لا يهدى كيد
الخائنين يعنى انى لما أقدمت على الكيد والمكر لا جرم افتضحت وانه لما كان بريأ من الذنب
لا جرم طهره الله تعالى منه * واعلم ان هذه الآية على القول الاول دالة على طهارة يوسف عليه
السلام من وجوه كثيرة الاول قولها أنا راودته عن نفسه والثانى قولها وانه لمن الصادقين
وهو اشارة الى أنه صادق فى قوله هى راودتنى عن نفسى والثالث قول يوسف عليه السلام
ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب والحشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام قال له جبريل
عليه السلام ولا حين هممت قال الرازى وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية
فى كتاب معتمد أى وانما أسندها بعضهم لابن عباس بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيا منهم فى
تحريف ظاهر القرآن ورابعها أن اقدامه على قوله ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب مع أنه خانه
بأعظم وجوه الخيانة اقدام على وقاحة عظيمة وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة
بوجه ما والاقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصلا لا يليق بأحد من العقلاء فكيف
يليق اسناده الى نبى مرسل من سلالة الانبياء الاصفياء فثبت أن هذه الآية تدل دلالة قاطعة
على براءته مما يقول الجهال والحشوية واختلفوا فى تفسير قوله (وما أبرئ نفسى) لان ذلك
يختلف باختلاف ما قبله لان قوله ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ان كان من كلام يوسف عليه
السلام وقد مر أنه قول الاكثرين فهو أيضا كلامه وان كان من كلام المرأة فهذا أيضا كلامها
فعلى الاول قد تمسك به الحشوية وقالوا انه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب
قال له جبريل ولا حين حللت تكة سراويلك فعند ذلك قال يوسف عليه السلام وما أبرئ نفسى
(ان النفس لامارة بالسوء) أى بالزنا (الا ما رحم) أى عصم منه (ربى ان ربى غفور) أى للهم الذى
هممته (رحيم) أى لو فعلته لتاب على وهذا ضعيف كما قاله الرازى لما تقدم أن الآية المتقدمة
برهان قاطع على براءته من الذنب وانما قال ذلك عليه السلام لانه لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه
بالغيب كان ذلك جاريا مجرى مدح النفس وتزكيتها وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم
فاستدرك ذلك على نفسه بقوله وما أبرئ نفسى والمعنى وما أزكى نفسى ان النفس لامارة
بالسوء ميالة الى القبائح راغبة فى المعصية وعلى الثانى أنها لما قالت ذلك ليعلم أنى لم أخنه

بالغيب قالت وما أبرئ نفسي من الخيانة مطلقا فاني قد خنته حين أحلت الذنب عليه وقلت
ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن وأودعته في الحبس كأنها أرادت الاعتذار مما
كان واختلف في قوله (وقال الملك) فمنهم من قال هو العزيز ومنهم من قال هو الريان الذي
هو الملك الاكبر قال الرازي وهذا هو الاظهر لوجهين الاول ان قول يوسف اجعلني على
خزائن الارض يدل عليه الثاني قوله استخلصه لنفسي يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصا
وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصا للعزيز فدل هذا على ان هذا الملك هو الملك الاكبر
انتهى وانما صرح به ولم يستغن بضميره كراهة الالتباس لما تخلل بينه وبين جواب امرأة
العزيز من كلام يوسف عليه السلام ولو كان الكل من كلامها لاستغنى بالضمير ولم يحتج الى
ابرازه (ائتوني به استخلصه لنفسي) أي اجعله خالصا لي دون شريك قال ابن عباس فأتاه
الرسول فقال له ألق عنه ثياب السجن وألبسه ثيابا جددا وقم الى الملك فدعا له أهل السجن وهو
يومئذ ابن ثلاثين سنة واغتسل وتنظف ولبس ثيابا جددا بعد ان دعا لاهل السجن فقال
اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عنهم الاخبار وكتب على باب السجن هذه
منازل البلوى وقبور الاحياء وبيوت الاحزان وتجربة الاصدقاء وشماتة الاعداء
ثم أتى الملك فلما رآه غلاما حدثا فقال أيعلم هذا رؤياي ولا يعلمها السحرة والكهنة ثم أقعده
قدامه وقال له لا تخف وألبسه طوقا من ذهب وثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة
كدابة الملك وروى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو في الحبس وقال قل اللهم
اجعل لي من عندك فرجا ومخرجا وارزقني من حيث لا أحتسب فقبل الله تعالى دعاءه وأظهر
هذا السبب في تخليصه من السجن وروى أن يوسف لما دخل عليه قال اللهم اني أسألك
بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه بالعربية فقال ما هذا اللسان
قال هذا لسان عمي اسمعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال هذا لسان آبائي قال
وهب كان الملك يتكلم بسبعين لغة ولم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجابه
يوسف عليه السلام وزاد بالعربية والعبرانية (فلما كلمه) أي كلم الملك يوسف عليه السلام
وشاهد منه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الوزارة وخلال السيادة ومخايل السعادة
أقبل عليه وقال اني أحب أن أسمع منك تأويل رؤياي شفاها فأجابه بذلك الجواب شفاها
وشهد قلبه بصحته فعند ذلك (قال) له (انك اليوم لدينا مكين أمين) أي ذو مكانة وأمانة
على أمرنا فما ترى أيها الصديق (قال) أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبني
الخزائن وتجمع فيها الطعام فاذا جاءت السنين المجدبة بعنا الغلال فيحصل بهذا الطريق
مال عظيم فقال الملك ومن لي بهذا الشغل فقال يوسف (اجعلني على خزائن الارض) جمع
خزانة وأراد خزائن الطعام والاموال والارض أرض مصر أي خزائن أرضك مصر وقال
الربيع بن أنس أي خرج مصر ودخله روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
في هذه الآية قال رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الارض لاستعمله من

ساعته

ساعته لكنه لما قال ذلك أخره الله تعالى سنة فأقام فى بيته سنة مع الملك قال الرازى وهذا من العجائب لانه لما تثاقل عند الخروج من السجن سهل الله تعالى عليه ذلك على أحسن الوجوه * ولما سارع فى ذكر هذا الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف أتم والتفويض بالكلية الى الله تعالى أولى ثم قال (انى حفيظ عليم) أى ذو حفظ وعلم بأمرها وقيل كاتب وحاسب (فان قيل) لم طلب يوسف عليه السلام الامارة والنبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة ولم طلب الامارة من سلطان كافر ولم لم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة فى طلبها فى الحال ولم طلب أمر الخزائن فى أول الامر مع ان هذا يورث نوع تهمة ولم مدح نفسه وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم ولم ترك الاستثناء فى هذا وقد قال تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فهذه سبعة أسئلة (أجيب) عنها بأن الاصل فى جواب هذه الاسئلة ان التصرف فى أمور الخلق كان واجبا عليه فجاز له أن يتوصل اليه بأى طريق كان وانما كان ذلك واجبا عليه لوجوه الاول أنه كان رسولا حقا من الله تعالى الى الخلق والرسول يجب عليه مراعاة الامة بقدر الامكان والثانى أنه علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد فلعله تعالى أمره أن يدبر فى ذلك ويأتى بطريق لاجله يقل ضرر ذلك القحط فى حق الخلق والثالث أن السعى أيضا فى ايصال النفع الى المستحقين ورفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول فكان مكلفا عليه السلام برعاية المصالح من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها الا بهذا الطريق ومالا يتم الواجب الا به فهو واجب وانما مدح نفسه لان الملك وان علم كماله فى علوم الدين لكن ما كان عالما بأنه يفى بهذا الامر وأيضا مدح النفس انما يكون مذموما اذا قصد به الشخص التطاول والتفاخر والتوصل الى غير ما يحل وأما هذا الوجه فليس بمذموم وقوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم المراد به تزكية حال من لا يعلم كونها مزكاة والدليل قوله تعالى بعد هذه الآية هو أعلم بمن اتقى أما اذا كان الانسان عالما بانه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه وانما ترك الاستثناء لانه لو ذكره لربما اعتقد الملك فيه انه انما ذكره لعلمه أنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى فلهذا المعنى ترك الاستثناء ولما سأل يوسف عليه السلام ما تقدم قال معلما بأنه قد أجيب بتنجيز الله تعالى له (وكذلك) أى كانعامنا عليه بالخلاص من السجن (مكنا ليوسف فى الارض) أى أرض مصر (يتبوأ) أى ينزل (منها حيث يشاء) بعد الضيق والحبس قال ابن عباس وغيره ولما انقضت السنة من يوم سأل الامارة دعاه الملك فتوجه وجعل خاتم الملك فى اصبعه وقلده سيفه وجعل له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع عليه ستون فراشا فقال يوسف عليه السلام أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى وأمره أن يخرج فخرج لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فى صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوض اليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قال ابن اسحق قال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن

كثيرة فسلم سلطانه كله اليه وجعل أمره وقضاءه نافذا فى مملكته ثم مات قطفير بعد ذلك فزوجه
الملك امرأته فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت أيها الصديق لا تلمنى
فانى كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك
الله فى حسنك وهيئتك فغلبتنى نفسى فوجدها يوسف عليه السلام عذراء فأصابها فولدت له
ذكرين افراثيم وميشا فأقام العدل بمصر وأحبه الرجال والنساء وأسلم على يديه الملك وكثير من
الناس وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدراهم والدنانير فى السنة الاولى ثم بالحلى
والجواهر فى السنة الثانية ثم بالدواب فى السنة الثالثة ثم بالعبيد والاماء فى السنة الرابعة ثم
بالضياع والعقار فى السنة الخامسة ثم بأولادهم فى السنة السادسة ثم برقابهم فى السنة
السابعة حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا صار عبدا له فقال الناس ما رأينا كاليوم ملكا أجل
ولا أعظم من هذا صار كل الخلق عبيدا له فلما سمع ذلك قال انى أشهد الله انى أعتقت أهل مصر
عن آخرهم ورددت عليهم املاكهم وكان لا يبيع أحدا ممن يطلب الطعام أكثر من حمل بعير
لئلا يضيق الطعام على الباقين هذا ملخص ما قاله البغوى والزمخشرى وغيرهما قال الرازى
والله أعلم بحقيقة الحال وروى ان يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام فى تلك
الايام فقيل له تجوع وبيدك خزائن الارض فقال ان شبعت نسيت الجائع وأمر يوسف طباخ
الملك أن يجعل غداءه نصف النهار أراد بذلك أن يذيق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين قال
البغوى فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار قال الله تعالى (نصيب) أى نخص (برحمتنا من
نشاء) فى الدنيا والآخرة (ولا نضيع أجر المحسنين) بل نوفيهم أجورهم عاجلا وآجلا لان اضاعة
الاجر اما أن تكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع فى حق الله تعالى فالاضاعة ممتنعة
(ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) الشرك والفواحش قال الرازى وهذا
تنصيص من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان فى الزمان السابق من المتقين وليس
ههنا زمان سابق يحتاج الى بيان أنه كان فيه من المتقين الا ذلك الوقت الذى قال الله تعالى
فيه ولقد همت به وهم بها فكان هذا من الله تعالى شهادة بأنه عليه السلام كان فى ذلك الوقت
من المتقين وايضا قوله ولا نضيع أجر المحسنين شهادة من الله تعالى على أنه كان من المخلصين
فثبت أن الله تعالى شهد بأن يوسف كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين والجاهل
الحشوى يقول انه كان من المذنبين ولا شك أن من لم يقبل قول الله تعالى مع هذه التأكيدات
كان من الاخسرين * ولما اشتد القحط وعظم البلاء عم ذلك جميع البلاد حتى وصل الى
بلاد الشام وأرض كنعان وقصد الناس مصر من كل مكان للميرة فجعل يوسف عليه السلام
لا يعطى أحدا أكثر من حمل بعير وان كان عظيما تقسيطا بين الناس وتزاحم الناس عليه ونزل
بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه الى مصر للميرة وأمسك بنيامين أخا يوسف
لامه وأبيه فذلك قوله تعالى (وجاء اخوة يوسف) وكانوا عشرة وكان منزلهم بالعربات من أرض
فلسطين ثغور الشأم وكانوا أهل ابل وشياه فدعاهم أبوهم يعقوب عليه السلام وقال بلغنى أن

بمصر

بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا اليه واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون من الطعام وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الثانية والباقون بالتحقيق * ولما أمرهم أبوهم بذلك خرجوا حتى قدموا مصر (فدخلوا عليه فعرفهم) قال ابن عباس بأول نظرة اليهم عرفهم وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه (وهم له منكرون) أى لم يعرفوه وذلك لوجوه الاول أنه عليه السلام أمر حجابه بأن يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم الا بواسطة الثانى أنهم حين ألقوه فى الجب كان صغيرا ثم انهم رأوه بعد وفور اللحية وكبر الجثة قال ابن عباس وكان بين ان قذفوه فى البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة فلذلك أنكروه وقال عطاء انما لم يعرفوه لانه كان على سرير الملك وكان بزى ملوك مصر عليه ثياب حرير وفى عنقه طوق من ذهب ثم ان يوسف عليه السلام أمر بانزالهم واكرامهم وكانت عادته أن لا يزيد أحدا على حمل بعير وكانوا عشرة فاعطاهم عشرة أحمال كما قال تعالى (ولما جهزهم بجهازهم) أى وفاهم كيلهم والجهاز ما يعد من الامتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة الى أخرى وما تزف به المرأة الى زوجها فقالوا ان لنا شيخا كبيرا وأخا آخر بقى معه وذكروا أن أباهم لاجل سنه وشدة حزنه لم يحضر وان أخاهم فى خدمة أبيه ولا بد لهما أيضا من حملين آخرين من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف عليه السلام فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم وهذا شئ عجيب لانكم أنتم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم اذا كانت محبة أبيكم لذلك الاخ أكثر من محبته لكم دل ذلك على أنه أعجوبة فى العقل والادب فجيؤنى به حتى أراه كما قال تعالى حكاية عنه (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) أى الذى خلفتموه عنده وقيل انه لما نظر اليهم وكلموه بالعبرانية قال لهم اخبرونى من أنتم وما أمركم فانى أنكرت شأنكم قالوا قوم من أرض الشأم أصابنا ما أصاب الناس فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم لتنظروا الى عورة بلادنا قالوا لا والله لسنا بجواسيس انما نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبى من أنبياء الله تعالى قال وكم كنتم قالوا كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا الى البرية فهلك فيها وكان أحبنا الى أبينا قال فكم أنتم ههنا قالوا عشرة قال وأين الابن الآخر قالوا عند أبينا لانه أخو الذى هلك وأبوه مبتلى به قال فمن يعلم ان الذى تقولون حق قالوا أيها الملك انا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فقال يوسف عليه السلام فائتونى باخيكم الذى من أبيكم ان كنتم صادقين فأنا أرضى بذلك فقالوا ان أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتونى بأخيكم فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف فخلفوه عنده ثم انه قال لهم (ألا ترون أنى أوفى الكيل) أى أتمه ولا أبخس منه شيأ وقرأ نافع بفتح الياء من أنى والباقون بالسكون وأما الياء من أوفى فجميع القراء يثبتونها فى الوقف لثباتها فى الرسم وحذفوها فى الوصل لالتقاء الساكنين (وأنا خير المنزلين) أى المضيفين فانه كان قد أحسن ضيافتهم مدة اقامتهم عنده قال الرازى وهذا يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى أنهم عيون وجواسيس ولو شافههم بهذا الكلام

فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين وأيضا يبعد من يوسف
عليه السلام مع كونه صديقا أن يقول لهم انتم عيون وجواسيس مع أنه يعرف براءتهم
عن هذه التهمة لان البهتان لا يليق بحال الصديق ثم قال عليه السلام (فان لم تأتونى به) أى
بأخيكم (فلا كيل) أى فلا ميرة (لكم عندى) ولم يمنعهم من غيره (ولا تقربون) نهى أو عطف
على محل فلا كيل لكم أى تحرموا ولا تقربوا منى ولا تدخلوا ديارى فجمع لهم عليه السلام
بين الترغيب والترهيب فالترغيب فى قوله الاول والترهيب فى قوله الثانى لانهم كانوا فى نهاية
الحاجة الى الطعام وما كان يمكنهم تحصيله الامن عنده ومع ذلك لم يخطر ببالهم أنه يوسف فكأنه
قيل فما قالوا فقيل (قالوا سنراود) أى نوعد لا خلف فيه حين نصل (عنه أباه) أى سنكلمه فيه
وننازعه الكلام ونحتال فيه ونتلطف فى ذلك ولا ندع جهدا (وانا لفاعلون) أى ما أمرتنا
به والتزمناه (و) لما أرغبهم وأرهبهم فى شأن أخيه (قال لفتيته) أى غلمانه الكيالين جمع
فتى وقرأ حفص وحمزة والكسائى بألف بعد الياء المثناة تحت وبعد الالف نون مكسورة
والباقون بالياء المثناة تحت ثم بتاء مثناة فوق مكسورة (اجعلوا بضاعتهم) أى التى أتوا بها
ثمن الميرة وكانت دراهم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنها كانت النعال والادم
(فى رحالهم) جمع رحل أوعيتهم التى يحملون فيها الطعام (لعلهم يعرفونها) أى بضاعتهم (اذا
انقلبوا) أى رجعوا (الى أهلهم) وفتحوا أوعيتهم (لعلهم يرجعون) الينا واختلف فى السبب
الذى من أجله رد يوسف عليه السلام بضاعتهم فى رحالهم على أوجه الاول أنه أراد أن يكون
ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق فوضع تلك
الدراهم فى رحالهم حتى تبقى مخفية الى أن يصلوا الى أبيهم الثانى أراد أن يعرف أباه أنه
أكرمهم وطلبهم لمزيد الاكرام فلا يثقل على أبيه ارسال أخيه الثالث مقصوده أن يعرفوا أنه
لا يطلب ذلك الاخ لاجل الايذاء والظلم ولا يطلب زيادة الثمن الرابع أراد أن يحسن اليهم على
وجه لا يلحقهم فيه عيب ولا منة الخامس قال الفراء انهم متى شاهدوا بضاعتهم فى رحالهم وقع
فى قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة فى رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد أنبياء
فيرجعون ليعرفوا السبب فيه ويردوا الملك الى مالكه السادس أراد به التوسعة على أبيه لان
الزمان كان زمان القحط السابع رأى ان أخذ ثمن الطعام من أبيه ومن اخوته على شدة حاجتهم
الى الطعام لؤم الثامن خاف أن لا يكون عند أبيه من المال ما يرجعون به مرة أخرى التاسع
أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا ان ذلك كرم من يوسف عليه السلام وسخاء
فيبعثهم ذلك الى العود اليه والحرص على معاملته عليه السلام (فلما رجعوا) أى اخوة يوسف
عليه السلام (الى أبيهم قالوا يا أبانا) انا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة لو كان
رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامه فقال يعقوب عليه السلام اذا رجعتم الى ملك مصر
فأقرؤه منى السلام وقولوا له ان أبانا يدعو لك بما أوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك
مصر وأخبروه بالقصة وقولهم (منع منا الكيل) فيه قولان أحدهما أنهم لما طلبوا الطعام

لاخيهم الغائب عند أبيهم منعوا منه والثاني أنهم منعوا الكيل في المستقبل وهو قول يوسف عليه السلام فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ويدل لهما قولهم (فأرسل معنا أخانا) بنيامين (نكتل) فان حمزة والكسائي قرآه بالياء أي يكتل لنفسه وهذا يدل للقول الاول والباقون بالنون أي نكتل نحن واياه وهذا يدل للقول الثاني (وانا له لحافظون) عن أن يناله مكروه حتى نرده اليك فلما قالوا ليعقوب عليه السلام هذه المقالة (قال) لهم (هل آمنكم) أي اقبل منكم الآن وفي مستقبل الزمان تأمينكم لي فيه بما يسوءني تأمينا مستقبلا (عليه) أي بنيامين (الا كما أمنتكم) أي في الماضي (على أخيه) يوسف عليه السلام (من قبل) فانكم أكدتم غاية التأكيد فلم تحفظوه لي ولم تردوه الي والامن اطمئنان القلب الى سلامة النفس فانا في هذا لا آمن عليه الا الله تعالى (فالله) المحيط علما وقدرة (خير حفظا) منكم ومن كل أحد ففيه التفويض الى الله تعالى والاعتماد عليه في جميع الامور وقرأ حفص وحمزة والكسائي بفتح الحاء وألف بعدها وكسر الفاء والباقون بكسر الحاء وسكون الفاء وهو منصوب على التمييز في القراءتين ويحتمل الاولى النصب على الحال اللازمة (وهو أرحم الراحمين) أي أرحم بي من أن يفجعني به بعد مصيبتي بأخيه فلا يجمع على مصيبتين (ولما) أرادوا تفريغ ما قدموا به من الميرة (فتحوا متاعهم) أي أوعيتهم التي حملوها من مصر (وجدوا بضاعتهم) أي ما كان معهم من كنعان لشراء القوت (ردت اليهم) والوجدان ظهور الشئ للنفس بحاسة أو ما يغني عنها فكأنه قيل ما قالوا فقيل (قالوا) أي لابيهم عليه السلام (يا أبانا ما) استفهامية أي أي شئ (نبغي) أي نريد جميع القراء أثبتوا الياء وقفا ووصلا لثباتها في الرسم فكأنه قال لهم ما الخبر فقالوا بيانا لذلك وتأكيدا للسؤال في استصحاب أخيهم (هذه بضاعتنا ردت الينا) هل من مزيد على ذلك أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا * ولما كان التقدير ونرجع بها اليه بأخينا فيظهر له نصحنا وصدقنا (ونمير أهلنا) أي نجلب اليهم الميرة برجوعنا اليه والميرة الاطعمة التي تحمل من بلد الى بلد (ونحفظ أخانا) فلا يصيبه شئ مما تخشى عليه تأكيدا للوعد بحفظه (ونزداد كيل بعير) لاخينا (ذلك كيل يسير) أي سهل على الملك لسخائه وحرصه على البذل وقيل قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير وقيل قليل فابعث أخانا معنا حتى نبدل تلك القلة بالكثرة فكأنه قيل ما قال لهم فقيل (قال) يعقوب عليه السلام (لن أرسله) أي بنيامين كائنا (معكم) أي في وقت من الاوقات (حتى تؤتون موثقا) أي عهدا مؤكدا (من الله) قرأ ابن كثير باثبات الياء بعد النون وقفا ووصلا وأبو عمرو باثبات الياء وقفا لا وصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا وقوله (لتأتنني) أي كلكم (به) أي تحلفوا بالله لتأتنني به من الاتيان وهو المجئ في كل حال جواب القسم أو المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به (الا) أي في حال (أن يحاط) أي تحصل الاحاطة بمصيبة من المصائب لا طاقة لكم بها (بكم) فتهلكوا من عند آخركم كل ذلك زيادة في التوثق بما حصل له من المصيبة بيوسف عليه السلام وان كان الاعتماد في حفظه انما هو على الله تعالى وهذا من باب

اعقلها وتوكل فأجابوه الى ذلك كما قال تعالى (فلما آتوه موثقهم) بذلك (قال الله على ما نقول) نحن وأنتم (وكيل) أى شهيد وأرسله معهم بعد ذلك (فان قيل) لم أرسله معهم وقد شاهد منهم ما شاهد فى يوسف عليه السلام (أجيب) بأن ذلك لوجوه أحدها أنهم كبروا ومالوا الى الخير والصلاح الثانى انه كان شاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام الثالث لعل الله أوحى اليه وضمن حفظه وايصاله اليه (و) لما عزموا على الخروج الى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد (قال) لهم (يا بنى لا تدخلوا) اذا قدمتم الى مصر (من باب واحد) من أبوابها (وادخلوا من أبواب) واحترز من أن تكون متلاصقة أو متقاربة جدا بقوله (متفرقة) أى تفرقا كثيرا وهذا حكم التكليف لئلا يصابوا بالعين وهى من قدر الله تعالى وقد ورد شرعنا بذلك ففى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال العين حق وفى رواية عن أحمد يحضرها الشيطان وحسد ابن آدم وفى رواية لمسلم العين حق ولو كان شئ سابق القدر لسبقته العين وفى رواية عن جابر ان العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ويقول هكذا كان يعوذ ابراهيم اسمعيل واسحق صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر النبيين وعن عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فوجدته شديد الوجع ثم عدت اليه فى آخر النهار فرأيته معافى فقال ان جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال بسم الله أرقيك من كل شئ يؤذيك من كل عين وحاسد الله يشفيك قال فأفقت وفى رواية ان بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت أسماء يا رسول الله ان العين اليهم سريعة فاسترق لهم من العين فقال لها نعم وفى رواية دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا يا رسول الله أصابته العين فقال أما تسترقون له من العين وعن عائشة رضى الله تعالى عنها كان يؤمر العائن أن يتوضأ ثم يغتسل منه المعين الذى أصيب بالعين * ولما خاف يعقوب عليه السلام أن يسبق من أمره هذا الى بعض الاوهام أن الحذر يغنى عن القدر نفى ذلك بقوله عليه السلام (وما أغنى) أى ادفع (عنكم) بقولى ذلك (من الله من شئ) قدره عليكم وانما ذلك شفقة ومن مزيدة للتأكيد واعلم أن الانسان مأمور بأن يراعى الاسباب المعتبرة فى هذا العالم بأن يجزم بأنه لا يحصل الا ما قدره الله تعالى وان الحذر لا يدفع القدر فالانسان مأمور بأن يحذر الاشياء المهلكة والاغذية الضارة ويسعى فى تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان ومع ذلك يكون جازما بأنه لا يصل اليه الا ما قدره الله تعالى ولا يحصل فى الوجود الا ما أراده الله تعالى فقوله عليه السلام لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة اشارة الى رعاية الاسباب المعتبرة فى هذا العالم وقوله وما أغنى عنكم من الله من شئ اشارة الى عدم الالتفات الى الاسباب بل الى التوحيد المحض والبراءة من كل شئ سوى الله تعالى * ولما قصر

الامر كله اليه تعالى وجب رد كل أمر اليه وقصر النظر عليه فقال منبها على ذلك (ان الحكم الالله) وحده الذى ليس الحكم الاله (عليه) أى على الله وحده (توكلت) أى جعلته وكيلى فرضيت بكل مايفعل (وعليه) وحده (فليتوكل المتوكلون) أى الثابتون فى باب التوكل فان ذلك من أعظم الواجبات من فعله فاز ومن أغفله خاب وقد ثبت بالبرهان ان لاحكم الالله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى وذلك يوجب أن لاتوكل الاعلى الله تعالى فهذا مقام شريف عال والشيخ أبو حامد الغزالى أكثر فى تقرير هذا المعنى فى كتاب التوكل من كتب احياء علوم الدين فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب * ولما قال يعقوب عليه السلام وما أغنى عنكم من الله من شئ صدقه الله تعالى فى ذلك فقال (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) أى متفرقين (ما كان) ذلك التفرق (يغنى عنهم من الله) أى من قضائه وأغرق فى النفى فقال (من شئ) أى مما قضاه عليهم كما تقدم من قول يعقوب عليه السلام فسرقوا وأخذ بنيامين بوجدان الصواع فى رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب عليه السلام وقوله تعالى (الاحاجة) استثناء منقطع أى لكن حاجة (فى نفس يعقوب) وهى الوصول الى ماأمر به شفقة عليهم (قضاها) يعقوب عليه السلام وابرزها من نفسه الى أولاده فعملوا فيها بمراده فاغنى عنهم الخلاص من عقوق أبيهم فقط (وانه) أى يعقوب عليه السلام مع أمره لبنيه بذلك (لذو علم) أى معرفة بالحكمين حكم التكليف وحكم التقدير واطلاع على الكونين عظيم (لما علمناه) بالوحى ونصب الحجج ولذلك قال وما أغنى عنكم من الله من شئ ولم يغتر بتدبيره * ولما كان قد يظن أن كل أحد يكون كذلك أى يعلم ماعلمه نفى ذلك سبحانه وتعالى بقوله جل شأنه (ولكن أكثر الناس) أى لاجل ماناالهم من الاضطراب (لايعلمون) أى ليسوا بذوى علم لما علمناهم لاعراضهم عنه واستفراغ قواهم فى الاهتمام بما وقع التكليف لهم به ومن أحوال الدنيا ومقابلة فطرهم القويمة السليمة بردها الى ماتدعوهم اليه الحظوظ والشهوات حتى لايكون طب لمخلوق * ولما أخبر تعالى عن دخولهم الى البلد أخبر عن دخولهم لحاجتهم الى يوسف عليه السلام فقال (ولما دخلوا) أى اخوة يوسف عليه السلام (على يوسف) فى المقدمة الثانية بأخيهم بنيامين قالوا هذا أخونا فقال أحسنتم واحتسبتم وستجدون خير ذلك عندى ثم أنزلهم وأكرم منزلهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا أجلسنى معه فقال يوسف لقد صار أخوكم هذا وحيدا فأجلسه معه على مائدته وصار يؤاكله فلما كان الليل أمر أن ينزل كل اثنين منهم بيتا فبقى بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام معى على فراشى كما قال تعالى (آوى) أى ضم (اليه أخاه) فبات معه وجعل يوسف يضمه اليه ويشمه ثم قال له ما اسمك فقال بنيامين قال وما بنيامين قال المثكل وذلك انه لما ولد هلكت أمه قال وما اسم أمك قال راحيل بنت لاوى قال فهل لك من ولد قال نعم عشرة بنين ولما رأى تأسفه لاخ له هلك قال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك فقال ومن يجد أخا مثلك ولكنك لم يلدك

يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه (وقال انى أنا أخوك فلا تبتئس) أى لا تحزن (بما كانوا يعملون) أى بشئ فعلوه بنا فيما مضى فان الله قد أحسن الينا فلا تلتفت الى أعمالهم المنكرة التى قد أقدموا عليها وقد جمعنا الله تعالى على خير ولا نعلمهم بشئ من ذلك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون ومد بعد النون من أنا قبل الهمزة المفتوحة نافع والباقون بالقصر ثم انه ملأ لهم أوعيتهم كما أرادوا وكان فى المرة الاولى أبطأ فى تجهيزهم فى طول المدة ليتعرف أخبارهم من حيث لا يشعرون ولذلك لم يعطف بالفاء وأسرع فى تجهيزهم فى هذه المرة قصدا الى انفراده بأخيه من غير رقيب بالحيلة التى دبرها فلذلك أتت الفاء فى قوله (فلما جهزهم) أى اعجل جهازهم وأحسنه (بجهازهم جعل) بنفسه أو بمأذونه (السقاية) أى المشربة التى كان يشرب بها (فى رحل أخيه) أى وعاء طعام أخيه بنيامين كما فعل ببضاعتهم فى المرة الاولى قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن اسحق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر وجعلها يوسف عليه السلام مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها قال الرازى هذا بعيد لان الاناء الذى يشرب فيه الملك لا يصلح أن يجعل صاعا وقيل كانت الدواب تسقى بها قال وهذا أيضا بعيد لان الآنية التى تسقى الدواب فيها لا تكون كذلك قال والاصوب أن يقال كان ذلك الاناء شيئا له قيمة اما الى هذا الحد الذى ذكروه فلا والسقاية والصواع واحد ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا وذهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم بعث خلفهم من استوقفهم وحبسهم (ثم أذن) أى أعلن فيهم بالنداء (مؤذن) قائلا برفع صوته وان كانوا فى غاية القرب منه بما دل عليه اسقاط الاداة (أيتها العير) أى القافلة قال أبو الهيثم كل ما سير عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير قال وقول من قال العير الابل خاصة باطل فقوله أيتها العير أى أصحاب العير كقوله يا خيل الله اركبى قال الفراء كانوا أصحاب ابل وقال مجاهد كانت العير حميرا وقرأ ورش بابدال همزة مؤذن واوا وقفا ووصلا وحمزة فى الوقف فقط والباقون بالقصر (انكم لسارقون) فقفوا حتى ننظر الذى فقدلنا والسرقة أخذ ما ليس له أخذه فى خفاء من حرز مثله (فان قيل) هل كان هذا النداء بأمر يوسف عليه السلام أو ما كان بأمره فان كان بأمره فكيف يليق بيوسف عليه السلام مع علو منصبه أن يبهت أقواما وينسبهم الى السرقة كذبا وبهتانا وان كان بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة (أجيب) بأجوبة الاول أنه عليه السلام لما أظهر لاخيه أنه يوسف قال لست أفارقك قال لا سبيل الى ذلك الا بتدبير حيلة أنسبك فيها الى ما لا يليق بك قال رضيت بذلك وعلى هذا لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام لانه قد رضى به فلا يكون ذلك ذنبا الثانى انكم لسارقون يوسف من أبيه الا أنهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفى المعاريض مندوحة من الكذب الثالث أن المنادى انما ذكر النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا يخرج أن يكون كذبا الرابع ليس فى القرآن ما يدل على أنهم قالوا هذا بأمر يوسف عليه السلام قال الرازى والاقرب الى ظاهر الحال أنهم

فعلوا ذلك من أنفسهم لانهم لما طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم غلب على ظنهم أنهم الذين أخذوها * ولما وصل اليهم الرسول قال لهم ألم نحسن ضيافتكم ونكرم مثواكم ونفيكم كيلكم وفعلنا بكم مالم نفعل بغيركم قالوا بلى وماذاك قالوا سقاية الملك فقدناها ولانتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى (قالوا و) الحال أنهم قد (أقبلوا عليهم) أى على جماعة الملك المنادى وغيره (ماذا) اى ما الذى (تفقدون) مما يمكننا أخذه والفقدان ضد الوجود (قالوا نفقد) وكان للسقاية اسمان فعبروا بقولهم (صواع الملك) والصواع هو المكيال وهو السقاية المتقدمة سموه تارة كذا وتارة كذا وانما اتخذوا هذا الاناء مكيالا لعزة ما يكال به فى ذلك الوقت (ولمن جاء به حمل بعير) أى من الطعام والبعير يطلق لغة على الذكر خاصة وأطلقه بعضهم على الناقة أيضا وجعله نظير انسان وهو ما جرى عليه الفقهاء فى باب الوصية والجمع فى القلة على أبعرة وفى الكثرة على بعران (وأنا به زعيم) قال مجاهد هذا الزعيم هو الذى أذن والزعيم الكفيل وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله الزعيم غارم واذا ورد فى شرعنا ما يقرر شرع غيرنا هل يكون شرعا لنا فى ذلك خلاف والراجح أنه ليس بشرع لنا (فان قيل) كيف تصح هذه الكفالة مع أن السارق لا يستحق شيأ (أجيب) بأنهم لم يكونوا سراقا فى الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون ذلك جعالة أوان مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم فى ذلك الزمان (قالوا) أى اخوة يوسف عليه السلام (تالله) التاء حرف قسم وهى عند الجمهور بدل من واو القسم والواو بدل من الباء فهى فرع الفرع فلذلك ضعفت عن التصريف فى الاسماء فلا تدخل الا على الجلالة الكريمة أو الرب مضافا للكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحمن لم يجز أى والله (لقد علمتم) أى بما جربتم من أمانتنا قبل هذا فى كون مجيئنا (ما جئنا) وأكدوا النفى باللام فقالوا (لنفسد) أى نوقع الفساد (فى الارض) أى أرض مصر (و) لقد علمتم (ما كنا) أى بوجه من الوجوه (سارقين) أى موصوفين بهذا الوصف قطعا (فان قيل) من أين علموا ذلك (أجيب) بأن ذلك يعلم مما رأوا من أحوالهم وقيل لانهم ردوا البضاعة التى جعلت فى رحالهم قالوا فلو كنا سارقين ما رددناها وقيل قالوا ذلك لانهم كانوا معروفين بأنهم لا يتناولون ما ليس لهم وكانوا اذا دخلوا مصر كموا أفواه دوابهم كى لا تتناول شيأ من حروث الناس (قالوا) أى أصحاب يوسف عليه السلام المنادى ومن معه (فما جزاؤه) أى السارق وقيل الصواع (ان كنتم كاذبين) فى قولكم ما كنا سارقين ووجد فيكم والجزاء مقابلة العمل بما يستحق من خير وشر (قالوا) وثوقا منهم بالبراءة واخبارا بالحكم عندهم (جزاؤه من وجد فى رحله) ولتحققهم البراءة علقوا الحكم على مجرد الوجدان لا السرقة ثم أكدوا ذلك بقولهم (فهو جزاؤه) قال ابن عباس كان ذلك الزمان كل سارق بسرقته فلذلك قالوا ذلك أى فالسارق جزاؤه أن يسلم بسرقته الى المسروق منه فيسترق سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب فى حكم السارق وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفى قيمة المسروق فأراد يوسف أن يحبس

أخاه عنده فرد الحكم اليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم (كذلك) أى الجزاء (نجزى الظالمين) بالسرقة قال أصحاب يوسف فلا بد من تفتيش رحالكم فردوهم الى يوسف عليه السلام فأمر بتفتيشها بين يديه (فبدأ بأوعيتهم) ففتشها (قبل وعاء أخيه) لئلا يتهمهم فلم يجد فيها شيأ (ثم) أى بعد تفتيش أوعيتهم والتأنى فى ذلك (استخرجها) أى السقاية أو الصاع لانه يذكر ويؤنث (من وعاء أخيه) فلما خرج الصاع من وعاء بنيامين نكس اخوته رؤسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ايش الذى صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل ما زال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصاع فقال بنيامين بل بنو راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخى فاهلكتموه فى البرية ان الذى وضع هذا الصاع فى رحلى هو الذى وضع البضاعة فى رحالكم فأخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادى وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصاع من رحله فأخذوه برقبته وردوه الى يوسف عليه السلام * (تنبيه) * ههنا همزتان مختلفتان من كلمتين قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الثانية ياء والباقون بالتحقيق (كذلك) أى مثل ذلك الكيد (كدنا ليوسف) خاصة بأن علمناه اياه جزاء لهم على كيدهم بيوسف عليه السلام فى الابتداء وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام فيكيدوا لك كيدا والكيد من الخلق الحيلة ومن الله تعالى التدبير بالحق فالمراد من هذا الكيد هو ان الله تعالى ألقى فى قلب اخوته بأن حكموا أن جزاء السارق هو أن يسترق لاجرم لما ظهر الصاع فى رحله حكموا عليه بالاسترقاق وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من امساك أخيه عند نفسه * ولما كان الكيد يشعر بالحيلة والخديعة وهو فى حق الله تعالى محال حمل على الغاية ونهايته هنا القاء الانسان من حيث لا يشعر فى أمر مكروه لا سبيل له الى دفعه فالكيد فى حق الله تعالى محال على هذا المعنى وقيل المراد بالكيد ههنا ان اخوة يوسف سعوا فى ابطال أمره والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره وقوله تعالى (ما كان) أى يوسف (ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى حكمه بيان للكيد لان جزاءه كان عنده الضرب وتغريم مثلى ما أخذ لا أنه يستعبد وقوله تعالى (الا أن يشاء الله) فيه وجهان أحدهما أنه استثناء منقطع تقديره ولكن بمشيئة الله أخذه فى دين غير دين الملك وهو دين آل يعقوب عليه السلام ان الاسترقاق جزاء السارق والثانى انه مفرغ من الاحوال العامة والتقدير ما كان ليأخذه فى كل حال الا فى حال التباسه بمشيئة الله أى اذنه فى ذلك * ولما كان يوسف عليه السلام انما تمكن من ذلك بعلو درجته وتمكنه ورفعته بعد ما كان فيه عندهم من الصغار كان ذلك محل عجب فقال تعالى التفاتا الى مقام التكلم (نرفع درجات من نشاء) أى بالعلم كما رفعنا درجته وكان الاصل درجاته ولكنه عمم لانه أدل على العظمة فكان أليق بمظهرها وفى هذه الآية دليل على ان العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لان الله تعالى لما هدى يوسف عليه السلام الى هذه الحيلة مدحه لاجل ذلك ورفع درجته على اخوته ووصف ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى نرفع درجات من نشاء عندما حكى عنه دلائل التوحيد والبراءة

عن

عن الهيئة الشمس والقمر والكواكب وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتنوين التاء والباقون بغير تنوين (وفوق كل ذي علم عليم) قال ابن عباس فوق كل عالم عالم الى أن ينتهي العلم الى الله تعالى فالله تعالى فوق كل عالم لانه هو الغني بعلمه عن التعلم وفي الآية دليل على ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم قال ابن الانباري يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لربه تعالى ولا يطمع نفسه في العلية في العلوم لانه لا يخلو عالم من عالم فوقه * ولما حصل لاخوة يوسف من اخراج الصواع من رحل بنيامين ما حصل فكأنه قيل فما كان فعلهم عند ذلك فقيل (قالوا) تسلية لانفسهم ودفعا للعار عن خاصتهم (ان يسرق) ولم يجزموا بسرقته لعلمهم بامانته وظنهم ان الصواع دس في رحله وهو لا يشعر كما دست بضاعتهم في رحالهم وكان قد قال لهم ذلك (فقد سرق أخ له من قبل) أي يوسف وكان غرضهم من ذلك انا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لانهما من أم أخرى واختلفوا في التي نسبوها الى يوسف عليه السلام على أقوال فقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فأعطاها سائلا وقال مجاهد جاء سائل فأخذ بيضة من البيت فناولها للسائل وقال وهب كان يخبأ الطعام من مائدة يعقوب للفقراء وقال سعيد بن جبير كان جده أبو أمه كافرا يعبد الوثن وأمرته أمه أن يسرق تلك الاوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الاوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة وقال محمد بن اسحق ان يوسف عليه السلام كان عند عمته ابنة اسحق وكانت تحبه حبا شديدا فأرادت أن تمسكه عند نفسها وكان قد بقي معها منطقة لابيها اسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف عليه السلام من تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت انه سرقها وكان علمهم أن من سرق يسترق فقال يعقوب عليه السلام ان كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت فتوصلت بهذه الحيلة الى امساكه عند نفسها قال ابن الانباري وليس في هذه الافعال كلها سرقة ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب وقيل انهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوأة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء المدة الطويلة قال الرازي وهذه الواقعة تدل على ان قلب الحاسد لا يطمئن من الغل البتة (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها) أي يظهرها (لهم) والضمير للكلمة التي هي قوله (قال) أي في نفسه (أنتم شر مكانا) أي من يوسف وأخيه أي لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له وقيل الضمير يرجع الى الكلمة التي قالوها في حقه وهي قولهم فقد سرق أخ له من قبل وعلى هذا يكون المعنى فأسر يوسف جواب الكلمة التي قالوها في حقه (والله أعلم) منكم (بما تصفون) أي تقولون وأنه ليس كما قلتم قال أصحاب الاخبار والسير ان يوسف عليه السلام لما استخرج الصاع من رحل بنيامين نقره وأدناه الى أذنه ثم قال ان صاعي هذا يخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلا لاب واحد وانكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه فقال بنيامين أيها الملك ان صاعك يخبرك من جعله في رحلي ثم نقره وأدناه من أذنه فقال ان صاعي غضبان وهو يقول كيف تسألوني عن صاحبي وقد رؤيت مع من كنت قالوا فغضب

روبيل لذلك وكانوا أولاد يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل اذا غضب لم يقم لغضبه شئ
وكان اذا صاح ألقت كل حامل حملها اذا سمعت صوته وكان مع هذا اذا مسه أحد من
ولد يعقوب عليه السلام يسكن غضبه وكان أقوى الاخوة وأشدهم وروى أنه قال لاخوته
كم عدد الاسواق بمصر قالوا عشرة فقال اكفونى أنتم الاسواق وأنا أكفيكم الملك
أو اكفونى أنتم الملك وأنا أكفيكم الاسواق ودخلوا على يوسف فقال روبيل لتردن علينا أخانا
أو لاصيحن صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل الا ألقت ولدها وقامت كل شعرة فى جسده حتى
خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم الى جنب روبيل فمسه ويروى خذ بيده فأتى به
فذهب الغلام فمسه فسكن غضبه فقال لاخوته من مسنى منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال
روبيل ان هنا بذرا من بذر يعقوب فقال يوسف من يعقوب وروى أنه غضب ثانيا فقام اليه
يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الارض وقال أنتم يا معشر العبرانيين تظنون
أن لا أحد أشد منكم فلما صار أمرهم الى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم الى تخليصه خضعوا وذلوا
و (قالوا يا أيها العزيز) خاطبوه بما يليق بالاكابر ليرق لهم (ان له) أى هذا الذى وجد الصواع
فى رحله (أبا شيخا كبيرا) أى فى سنه وقدره وهو مغرم به لا يقدر على فراقه ولا يصبر عنه
(فخذ أحدنا مكانه) وأحسن الى أبيه بارساله اليه (انا نراك) أى نعلمك علما هو كالرؤية أو بحسب
ما رأيناه (من المحسنين) أى العريقين فى صفة الاحسان فاجر فى أمرنا على عادة احسانك فكأنه
قيل فما أجابهم قيل (قال معاذ الله) هو نصب على المصدر وحذف فعله وأضيف الى المفعول أى
نعوذ بالذى لا مثل له معاذا عظيما من (أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) ولم يقل سرق متاعنا
لانه لم يفعل فى الصواع فعل السارق ولم يقع منه قبل ذلك ما يصح اطلاق الوصف عليه ثم علله
بقوله (انا اذا) أى اذا أخذنا أحدا مكانه (لظالمون) أى عريقون فى الظلم فى دينكم فلم تطلبون
ما هو ظلم عندكم ولما استيأسهم بما قال عن اطلاق بنيامين حكى الله تعالى ما تم لهم من
الرأى فقال (فلما) دالا بالفاء على قرب زمن تلك المراجعات (استيأسوا) أى يئسوا (منه) لما
رأوا من احسانه ولطفه ورحمته يأسا شديدا بما رأوا من ثباته على أخذه بعينه وعدم استبداله
(خلصوا) أى انفردوا عن غيرهم حال كونهم (نجيا) وهو مصدر يصلح للواحد وغيره أى ذوى
نجوى يناجى بعضهم بعضا فكأنه قيل فما قالوا فقيل (قال كبيرهم) فى السن وهو روبيل وقيل
فى الفضل والعلم وهو يهوذا وقيل شمعون وكان له الرياسة على اخوته (ألم تعلموا) مقررا لهم
بما يعرفونه مع قرب الزمان ليشتد توجههم فى بذل الجهد فى الخلاص من غضب أبيهم (ان
أباكم) أى الشيخ الكبير الذى فجعتموه فى أحب ولده اليه (قد أخذ عليكم) أى قبل أن
يعطيكم هذا الولد الآخر (موثقا) أى عهدا وثيقا (من الله) فى أخيكم وانما جعل حلفهم بالله
موثقا منه لانه باذن منه وتأكيد من جهته وقوله (ومن قبل ما فرطتم) فى هذه الآية وجوه
أظهرها أن ما مزيدة فيتعلق الظرف بالفعل بعدها والتقدير ومن قبل هذا فرطتم أى قصرتم فى
حق يوسف وشأنه وزيادة ما كثيرة وبه بدأ الزمخشرى وغيره وقيل انها مصدرية فى محل رفع

بالابتداء

بالابتداء والخبر هو قوله (فى يوسف) أى وتفريطكم كائن أو مستقر فى يوسف والى هذا ذهب الفارسىّ وقيل غير ذلك ولا نطيل بذكره اذ فى هذا القدر كفاية (فلن ابرح) أى أفارق (الارض) اى أرض مصر (حتى يأذن لى أبى) أى بالعود اليه (أو يحكم الله لى) بخلاص أخى (وهو خير الحاكمين) أى أعدلهم (فان قيل) هذه الواقعة من أولها الى آخرها تزوير وكذب فكيف يجوز ليوسف عليه السلام أن يعمل مثل هذه الاعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضا عنده مع علمه بشدة وجدان أبيه عليه وشدة غمه وفيه ما فيه من العقوق وايذاء الناس من غير ذنب لاسيما ويعلم انه اذا حبس أخاه عنده بهذه التهمة فانه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة فى التزوير الى هذا الحد (أجيب) بأجوبة كثيرة للعلماء وأحسنها انه انما فعل ذلك بأمر الله تعالى له لا عن أمره وانما أمره الله تعالى بذلك ليزيد بلاء يعقوب عليه السلام فيضاعف له الاجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من من خلقه وهو المتصرف فى خلقه بما يشاء فهو الذى أخفى خبر يوسف عن يعقوب فى هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد أن يدبره فيهم والله أعلم بأحوال عباده ثم قال كبيرهم (ارجعوا الى أبيكم) دونى (فقولوا) له أى متلطفين فى خطابكم (يا أبانا) وأكدوا مقالتكم فانه ينكرها وقولوا (ان ابنك سرق) (فان قيل) كيف يحكمون عليه بأنه سرق من غير بينة وهو قد أجابهم بالجواب الثانى فقال الذى جعل الصاع فى رحلى هو الذى جعل البضاعة فى رحالكم (أجيب) بأنهم لما شاهدوا الصاع وقد أخرج من متاعه غلب على ظنهم أنه سرق فلذلك نسبوه الى السرقة فى ظاهر الامر لا فى حقيقة الحال ويدل على أنهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم (وما شهدنا) عليه (الا بما علمنا) ظاهرا من رؤيتنا الصاع يخرج من وعائه وأما قوله وضع الصاع فى رحلى من وضع البضاعة فى رحالكم فالفرق ظاهر لان هناك لما رجعوا بالبضاعة اليهم اعترفوا بأنهم هم الذين وضعوها فى رحالهم وأما هذا الصاع فان أحدا لم يعترف بأنه هو الذى وضع الصاع فى رحله فلهذا السبب غلب على ظنهم أنه سرق فشهدوا بناء على الظن (وما كنا للغيب) أى ما غاب عنا حين أعطينا الموثق (حافظين) أى ما كنا نعلم ان ابنك يسرق ويصير أمرنا الى هذا ولو علمنا ذلك ماذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا الى حفظه سبيل وحقيقة الحال غير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله تعالى فلعل الصاع دس فى رحله ونحن لا نعلم ذلك فلعل حيلة دبرت فى ذلك غاب عنا علمها كما صنع فى رد بضاعتنا (واسأل القرية) أى أهلها على حذف المضاف وهو مجاز مشهور وقيل انه مجاز لكنه من باب اطلاق المحل وارادة الحال (التى كنا فيها) وهى مصر عما أخبرناك به يخبروك بصدقنا فان الامر قد اشتهر عندهم وقيل هى قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها الى مصر (و) اسأل (العير) أى القافلة وهم قوم من كنعان جيران يعقوب عليه السلام (التى أقبلنا فيها) والسؤال طلب الاخبار بأداته من الهمزة أو هل أو غيرهما والقرية الارض الجامعة لحدود فاصلة وأصلها من قريت الماء جمعته والعير قافلة الحمير من العير بالفتح وهو الحمار هذا هو الاصل ثم كثر حتى استعمل فى غير الحمير ولما كان ذلك

بالانكار لما يتحقق من كرم أخيهم أكدوه بقولهم (وانا) أى والله انا (لصادقون) فى أقوالنا ولما رجعوا الى أبيهم وقالوا له ما قال كبيرهم فكأنه قيل فما قال لهم فقيل (قال) لهم (بل سولت) أى زينت تزيينا فيه غى (لكم أنفسكم أمرا) أى حدثتكم بأمر ففعلتموه والا فما أدرى الملك أن السارق يؤخذ بسرقته (فصبر جميل) أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل صبرى أو أجمل وقدم مثل ذلك فى واقعة يوسف الا أنه قال فيها والله المستعان على ما تصفون وقال هنا (عسى الله أن يأتينى بهم) أى بيوسف وشقيقه بنيامين والاخ الثالث الذى أقام بمصر (جميعا) أى فلا يتخلف منهم أحد وانما قال يعقوب عليه السلام هذه المقالة لانه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم ان الله تعالى سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله تعالى وتفرس ان هذه الافعال نشأت عن يوسف عليه السلام وان الامر يرجع الى سلامة واجتماع ثم علل هذا بقوله (انه هو العليم) أى البليغ العلم بما خفى عنا من ذلك فيعلم أسبابه الموصلة الى المقاصد (الحكيم) أى البليغ فيما يدبره ويقضيه (و) لما ضاق قلب يعقوب عليه السلام بسبب الكلام الذى سمعه من أبنائه فى حق بنيامين (تولى عنهم) أى انصرف بوجهه عنهم لما توالى عنده من الحزن (وقال يا أسفا) أى يا أسفى (على يوسف) أى تعالى هذا أوانك والاسف أشد الحزن والحسرة والالف بدل من ياء المتكلم وانما أسف على يوسف دون أخويه والحادث انما هو مصيبتهما الان مصيبته كانت قاعدة المصائب والحزن القديم اذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الاول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبرا جديدا جدد حزنه على أخيه مالك

فقالوا أتبكى كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت نعم ان الاسى يبعث الاسى * فدعنى فهذا كله قبر مالك

ولانه كان واثقا بحياتهما دون حياته وفى حديث رواه الطبرانى لم تعط أمة من الامم انا لله وانا اليه راجعون عند المصيبة الا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا ترى الى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال يا أسفا (وابيضت عيناه) أى انمحق سوادهما وبدل بياضا (من الحزن) أى من كثرة البكاء عليه وقيل عند غلبة البكاء يكثر الماء فى العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء وقيل ضعف بصره حتى صار يدرك ادراكا لطيفا وقيل عمى وقال مقاتل لم يبصر بهما ست سنين حتى كشفه الله تعالى بقميص يوسف عليه السلام قيل ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف فى السجن فقال ان بصر أبيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال ليت أمى لم تلدنى ولم أك حزنا على أبى (فان قيل) هذا اظهار للجزع وجار مجرى الشكاية وهو لا يليق بمثل يعقوب عليه السلام (أجيب) بأنه لم يذكر الا هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه ثم أمسك لسانه عن النياحة وذكر ما لا ينبغى ولم يظهر الشكاية مع أحد من الخلق ويدل لذلك قوله (فهو كظيم) أى مغموم مكروب لا يظهر كربه وقوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله فكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته صبر وتجرع الغصة وما أظهر

الشكاية به فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء الجزيل روى ان يوسف عليه السلام قال
لجبريل عليه السلام هل لك علم بيعقوب قال نعم قال فكيف حزنه قال حزن سبعين ثكلى وهي
التي لها ولد واحد يموت قال فهل له أجر قال نعم أجر مائة شهيد ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت
التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد وأيضا البكاء مباح فقد بكى رسول الله صلى الله
عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا على
فراقك يا ابراهيم لمحزونون رواه الشيخان * (تنبيه) * شرف الانسان باللسان والعين والقلب
فبين تعالى أن هذه الثلاثة كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولا بقوله يا أسفا والعين
بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي سد فلا يمكن خروج الماء
منه وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم * ولما وقع من يعقوب عليه السلام ذلك كان قائلا يقول
فما قال له أولاده فقيل (قالوا) له حنقا من ذلك (تالله تفتؤ) أي لا تفتؤ أي لا تزال (تذكر
يوسف) تفجعا فتفتؤ جواب القسم وهو على حذف لا كقول الشاعر

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

ويدل على حذفها أنه لو كان مثبتا لاقترن بلام الابتداء ونون التوكيد معا عند البصريين
أو أحدهما عند الكوفيين فتفتؤ هنا ناقصة بمعنى لا تزال كما تقرر ورسمت تفتؤ بالواو (حتى) الى
ن (تكون حرضا) أي مشرفا على الهلاك لطول مرضك وهو مصدر يستوي فيه الواحد
وغيره (أو تكون من الهالكين) أي الموتى (فان قيل) لم حلفوا على ذلك مع أنهم لم يعلموا ذلك
قطعا (أجيب) بأنهم بنوا الامر على الظاهر قال اكثر المفسرين قائل هذا الكلام هم اخوة
يوسف وقال بعضهم ليس الاخوة بل الجماعة الذين كانوا في الدار من أولاده وخدمه * ولما قالوا
له ذلك فكان قائلا يقول فما قال لهم فقيل (قال) لهم (انما أشكو بثي) والبث أشد الحزن
سمي بذلك لانه من صعوبته لا يطاق حمله فيباح به وينشر (وحزني) مطلقا وان كان سببه خفيفا
يقدر الخلق على ازالته (الى الله) المحيط بكل شيء علما وقدرة لا الى غيره فهو الذي تنفع الشكوى
اليه (وأعلم من الله) أي الملك الاعلى من اللطف بنا أهل البيت (ما لا تعلمون) فيأتيني بالفرج
من حيث لا أحتسب وفي ذلك اشارة الى أنه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه اليه وذكروا
لسبب هذا التوقع أمورا أحدها أن ملك الموت أتاه فقال له يا ملك الموت هل قبضت روح ابني
يوسف قال لا يا نبي الله ثم أشار الى جانب مصر وقال اطلبه من ههنا ولذلك قال (يا بني اذهبوا
فتحسسوا) أي والتحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل التحسيس
بالحاء يكون في الخير وبالجيم يكون في الشر ومنه الجاسوس وهو الذي يطلب الكشف عن
عورة الناس والمعنى تحسسوا خبرا (من) أخبار (يوسف وأخيه) أي اطلبوا خبرهما
وثانيها أنه علم أن رؤيا يوسف عليه السلام صادقة لان أمارات الرشد والكمال ظاهرة في حق
يوسف عليه السلام ورؤيا مثله لا تخطئ وثالثها لعله تعالى أوحى اليه أنه سيوصله اليه ولكنه
تعالى ما عين الوقت فلهذا بقي في القلق ورابعها قال السدي لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال

حاله وأقواله وأفعاله طمع فى أن يكون هو يوسف وقال بعد أن يظهر فى الكفار مثله ثم
تلطف ببنيه وقال لهم (ولا تيأسوا) أى تقنطوا (من روح الله) قال ابن عباس من رحمة الله
وقال قتادة من فضل الله وقال ابن زيد من فرج الله (انه لا ييأس من روح الله الا القوم
الكافرون) أى الغريقون فى الكفر قال ابن عباس ان المؤمن من الله على خير يرجوه فى البلاء
ويحمده على الرخاء والكافر على الضد من ذلك فان اليأس من رحمة الله لا يحصل الا اذا اعتقد
الانسان أن اله العالم غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو
بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر واذا كان اليأس لا يحصل الا عند حصول أحد
هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل الا لمن كان كافرا وقرأ البزى بعد التاء
من تيأسوا وبعد الياء من لا ييأس بألف وبعدها ياء مفتوحة بخلاف عنه والباقون بهمزة
مفتوحة قبلها ياء ساكنة * ولما قال يعقوب عليه السلام لبنيه ذلك قبلوا منه هذه الوصية وعادوا
الى مصر (فلما دخلوا عليه) أى على يوسف عليه السلام (قالوا يا أيها العزيز) وكان العزيز
لقبا الملك مصر يومئذ (مسنا وأهلنا) أى من خلفناهم وراءنا (الضر) أى لابسنا ملابسة
نحسها (وجئنا ببضاعة) وقالوا (مزجاة) اما لنقصها أو لرداءتها أو لهما جميعا وقال الحسن
البضاعة المزجاة القليلة واختلفوا فى تلك الرداءة فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة
لا تقبل فى ثمن الطعام وقيل متاع الاعراب الصوف والسمن وقيل الاقط وقيل النعال والادم
وقيل ان دراهم مصر كان ينقش فيها صورة يوسف عليه السلام والدراهم التى جاؤا بها ما كان
فيها ذلك فما كانت مقبولة عند الناس ثم سببوا عن هذا الاعتذار لانه أقرب الى رحمة أهل
الكرم قولهم (فأوف لنا الكيل) أى شفقة علينا بسبب ضعفنا (وتصدق) أى تفضل (علينا)
زيادة على الوفاء كما عودتنا بفضل ترجو ثوابه ولما رأوا أفعاله تدل على تمسكه بدين الله تعالى عللوا
ذلك بقولهم (ان الله) أى الذى له الكمال كله (يجزى المتصدقين) أى وان كانت على غنى قوى
فكيف اذا كانت على أهل الحاجة والضعف * (فائدة) * سئل سفيان بن عيينة هل حرمت
الصدقة على نبى من الانبياء سوى نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام قال سفيان ألم تسمع قوله
وتصدق علينا الآية يريد أن الصدقة كانت حلالا لهم ولا بيهم وروى أن الحسن سمع رجلا
يقول اللهم تصدق على قال ان الله لا يتصدق وانما يتصدق من يبغى الثواب قل اللهم أعطنى
وتفضل على (فان قيل) اذا كان ابوهم أمرهم أن يتحسسوا من يوسف وأخيه فلم عادوا الى
الشكوى (أجيب) بأن المتحسس يتوصل الى مطلوبه بجميع الطرق والاعتراف بالعجز
وضيق ارقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة وذلك مما يرقق القلب فقالوا نجربه فى هذه الامور
فان رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود والا سكتنا فقدموا هذه المقدمة قال أبو اسحق ذكر لى
أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة على اخوته فارفض دمعه فباح بالذى كان يكتم فلهذا
(قال) لهم (هل علمتم) مقررا لهم بعد ان استأنسوا به قال البقاعى والظاهر ان هذا كان بغير
ترجمان (ما) أى قبح الذى (فعلتم بيوسف) أى أخيكم الذى حلتم بينه وبين أبيه (وأخيه) فى

جعلكم اباه فريدا منه ذليلا مثلكم ثم فى قولكم له لما وجد الصاع فى رحله لا يزال يأتينا البلاء من قبلكم يا بنى راحيل وانما قال لهم ذلك نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا وقيل أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام فى تخليص بنيامين وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك وقوله (اذ أنتم جاهلون) أى فاعلون فعلهم أولانهم كانوا حينئذ صبيانا طياشين تلويحا الى معرفته فقد روى أنه لما قال هذا تبسم وكان فى تبسمه أمر من الحسن لا يجهله منه من رآه ولو مرة واحدة فعرفوه بذلك فلذلك (قالوا أئنك لانت يوسف) استفهام تقرير ولذلك حقق بان واللام عليه وقيل عرفوه بنظره وخلقه حين كلمهم وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب واسحق مثلها وقرأ ابن كثير بهمزة مكسورة بعدها نون على الخبر وقرأ قالون وأبو عمرو بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة مسهلة بينهما ألف على الاستفهام وقرأ ورش بغير ألف بينهما والتسهيل فى الثانية على الاستفهام أيضا وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين مع القصر ولهشام وجه ثان وهو المد وقيل انهم لم يعرفوه حتى (قال) لهم (أنا يوسف) وزادهم بقوله (وهذا أخى) بنيامين شقيقى وانما ذكره لهم ليزيدهم ذلك معرفة له وتثبيتا فى أمره وليبنى عليه قوله (قد من الله علينا) قال ابن عباس بكل خير فى الدنيا والآخرة وقال آخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة (انه من يتق) أى المعاصى (ويصبر) أى على البليات وأذى الناس وقال ابن عباس يتق الزنا ويصبر على العزوبة وقال مجاهد يتق المعصية ويصبر على السجن (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) والمعنى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين وقرأ قنبل باثبات الياء بعد القاف وقفا ووصلا واختلف المعربون فى ذلك على وجهين أجودهما أن اثبات حرف العلة فى الجزم لغة لبعض العرب وأنشدوا عليه قول قيس بن زهير

ألم يأتيك والانباء تنمى * بما لاقت لبون بنى زياد

(وقول الآخر)

هجوت زبان ثم جئت معتذرا * من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

(وقول الآخر)

اذا العجوز غضبت فطلق * ولا ترضاها ولا تملق

والثانى أنه مرفوع غير مجزوم ومن موصولة والفعل صلتها فلذلك تم باثبات لامه وسكن يصبر لتوالى الحركات وان كانت فى كلمتين وقرأ الباقون بالحذف وقفا ووصلا ولما ذكر يوسف عليه السلام لاخوته ان الله تعالى من عليه وأنه من يتق ويصبر فان الله تعالى لا يضيعهم صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والمرتبة ولذلك (قالوا) مقسمين بقولهم (تالله) أى الملك الاعظم (لقد آثرك) أى اختارك (الله علينا) بالعلم والعقل والحلم والحسن والملك والتقوى وغير ذلك واحتج بعضهم بهذه الآية على ان اخوته ما كانوا أنبياء لان جميع المناصب التى تكون مغايرة لمنصب النبوة

كالعدم بالنسبة اليه فلو شاركوه فى منصب النبوة لما قالوا ذلك ثم قالوا (وان كنا لخاطئين) أى والحال ان شأننا انا كنا مذنبين بما فعلنا معك ولذلك أذلنا الله تعالى لك فكأنه قيل ما قال لهم على قدرته وتمكنه مع ماسلف من اهانتهم له فقيل (قال) لهم قول الكرام اقتداء باخوانه من الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام (لا تثريب) أى لا لوم ولا تعنيف ولا هلاك (عليكم اليوم) وانما خصه بالذكر لانه مظنة التثريب فاذا انتفى ذلك فيه فما ظنك بما بعده ولما أعفاهم من التثريب كانوا فى مظنة السؤال عن كمال العفو المزيل للعقاب من الله تعالى فاتبعه الجواب عن ذلك بالدعاء لهم بقوله (يغفر الله) أى الذى لا اله غيره (لكم) أى مافرط منكم وعبر فى هذا الدعاء بالمضارع ارشادا لهم الى اخلاص التوبة ورغبهم فى ذلك ورجاهم بالصفة التى هى سبب الغفران فقال (وهو) تعالى (أرحم الراحمين) لجميع العباد لاسيما التائب فهو جدير بادراك النعم روى أنهم أرسلوا اليه انك لتدعونا الى طعامك وكرامتك بكرة وعشيا ونحن نستحى مما فرط منا فقال ان أهل مصر ينظرونى وان ملكت فيهم بعين العبودية فيقولون سبحان من بلغ عبدا بعشرين درهما مابلغ ولقد شرفت الآن بكم وعظمت فى العيون حيث علم الناس أنكم اخوتى وانى من ذرية ابراهيم عليه السلام ولما اقرأعينهم بعد اجتماع شملهم بازالة مايخشونه دنيا وأخرى سأل عن أبيه فقال مافعل أبى بعدى قالوا ابيضت عيناه من الحزن فأعطاهم قميصه وقال (اذهبوا بقميصى هذا) وهو قميص ابراهيم عليه السلام الذى لبسه حين ألقى فى النار عريانا فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه وكان ذلك عند ابراهيم فلما مات ابراهيم ورثه اسحق فلما مات اسحق ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك فى قصبة من فضة وسد رأسها وعلقها فى عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه فلما ألقى فى البئر عريانا جاءه جبريل وعلى يوسف ذلك التعويذ فأخرج القميص وألبسه اياه ففى الوقت جاء جبريل عليه السلام وقال ارسل ذلك القميص فان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا على سقيم الا عوفى فدفع يوسف ذلك القميص الى اخوته وقال اذا وصلتم الى أبى (فألقوه على وجه أبى يأت) أى يصر (بصيرا) أى يرد اليه بصره كما كان أو يأت الى حال كونه بصيرا (وأتونى) أى أبى وأنتم (بأهلكم) أى مصاحبين لكم (أجمعين) لا يتخلف منكم أحد فرجعوا بالقميص لهذا القصد وروى أن يهوذا هو الذى حمل القميص لما لطخوه بالدم فقال لا يحمل هذا غيرى لافرحه كما أحزنته فحمله وهو حاف من مصر الى كنعان وبينهما ثمانون فرسخا (ولما فصلت العير) من عريش مصر وهو آخر بلاد مصر الى أول بلاد الشأم (قال أبوهم) لولد ولده ومن حوله من أهله مؤكدا لعلمه أنهم ينكرون قوله (انى لاجد ريح يوسف) أوصلته اليه ريح الصبا باذن الله تعالى من مسيرة ثلاثة أيام أو ثمانية أو أكثر قال مجاهد هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام أنه ليس فى الدنيا من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص قال أهل المعانى ان الله تعالى أوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجىء وقت الفرج من المكان

البعيد

البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى فى مدة ثمانين سنة وذلك يدل على أن كل سهل فهو فى زمان المحنة صعب وكل صعب فهو فى زمان الاقبال سهل ومعنى أجد ريح يوسف أشم وعبر بالوجود لانه وجدان له بحاسة الشم (لولا أن تفندون) أى تنسبونى الى الخرف قال أبو بكر الانبارى أفند الرجل اذا خرف وتغير عقله وعن الاصمعى اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو مفند قال فى الكشاف يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة لانها لم تكن فى شبيبتها ذات رأى حتى تفند فى كبرها وقيل التفنيد الافساد يقال فندت فلانا اذا أفسدت رأيه ورددته قال بعضهم

يا صاحبىّ دعا لومى وتفنيدى * فليس ما فات من أمر بمردود

ولما ذكر يعقوب عليه السلام ذلك (قالوا) أى الحاضرون عنده (تالله انك لفى ضلالك) أى حبك (القديم) ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه على بعد العهد وهو كقول اخوة يوسف ان أبانا لفى ضلال مبين وقال مقاتل معنى الضلال هنا الشقاء أى شقاء الدنيا والمعنى انك لفى شقائك القديم بما تكابده من الاحزان على يوسف وقال الحسن انما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قدمات فكان يعقوب فى ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب ثم انهم عجلوا له بشيرا فأسرع قبل وصولهم بالقميص (فلما) وزيدت (أن) لتأكيد مجيئه على تلك الحالة وزيادتها بعد لما قياس مطرد (جاء البشير) وهو يهوذا بذلك القميص (ألقاه) أى طرحه البشير (على وجهه) أى يعقوب وقيل ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد) أى رجع (بصيرا) أى صيره الله بصيرا كما كان كما يقال طالت النخلة والله تعالى هو الذى أطالها * ولما ألقى القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه فعند ذلك (قال) لبنيه (ألم أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون) من حياة يوسف وان الله تعالى يجمع بيننا قال السهيلى لما جاء البشير الى يعقوب عليه السلام أعطاه فى بشارته كلمات كان يرويها عن أبيه عن جده عليهم السلام وهى يا لطيفا فوق كل لطيف الطف بى فى أمورى كلها كما أحب ورضنى فى دنياى وآخرتى وروى أن يعقوب عليه السلام قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة فعند ذلك (قالوا يا أبانا) منادين بالاداة التى تدل على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له من عظيم الوقع (استغفر) أى اطلب من الله تعالى أن يغفر (لنا ذنوبنا) أى التى اقترفناها ثم قالوا مؤكدين تحقيقا للاخلاص فى التوبة (انا كنا خاطئين) أى متعمدين للاثم بما ارتكبنا فى أمر يوسف عليه السلام ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسئل له المغفرة قال صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فكأنه قيل فما قال لهم فقيل (قال) لهم (سوف أستغفر) أى أطلب أن يغفر (لكم ربى) الذى أحسن الىّ بأن يغفر لبنىّ حتى لا يفرق بينى وبينهم فى دار البقاء والربوبية ملك هو أتم الملك على الاطلاق وهو ملك الله تعالى وظاهر هذا الكلام أنه لم يستغفر لهم فى الحال بل وعدهم بان يستغفر لهم بعد ذلك

واختلفوا فى سبب هذا المعنى على وجوه فقال ابن عباس والاكثرون أراد أن يستغفر لهم فى وقت السحر لان هذا الوقت أوفق الاوقات لرجاء الاجابة وفى رواية أخرى له أنه أخر الاستغفار الى ليلة الجمعة لانها أوفق لاوقات الاجابة وقال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة وقال طاوس أخر الى السحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء وقيل استغفر لهم فى الحال وقوله سوف استغفر لكم معناه انى أداوم على هذا الاستغفار فى الزمان المستقبل وقيل قام الى الصلاة فى وقت السحر فلما فرغ رفع يديه وقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لاولادى مافعلوا فى حق يوسف فأوحى الله تعالى اليه انى قد غفرت لك ولهم أجمعين وعن الشعبى قال أسأل يوسف أن عفا عنكم أستغفر لكم ربى (انه هو الغفور الرحيم) كل ذلك تسكينا لقلوبهم وتصحيحا لرجائهم وروى أن يوسف عليه السلام كان بعث مع البشير الى يعقوب عليه السلام مائتى راحلة وجهازا كثيرا ليأتوا بيعقوب وأهله وولده فتهيأ يعقوب عليه السلام للخروج الى مصر فخرج بهم فلما دنا من مصر كلم يوسف الملك الذى فوقه فخرج يوسف عليه السلام والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وركب أهل مصر معهما بأجمعهم يتلقون يعقوب وكان يعقوب يمشى وهو يتوكأ على يهوذا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهوذا هذا فرعون مصر قال لا هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يامذهب الاحزان وقال الثورى لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكى فقال يوسف ياأبت بكيت على حتى ابيضت عيناك ألم تعلم ان القيامة تجمعنا قال بلى يابنى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بينى وبينك فذلك قوله تعالى (فلما دخلوا على يوسف آوى) أى ضم (اليه أبويه) قال الحسن أباه وأمه وكانت حية اكرامالهما بما يتميزان به وغلب الاب فى التثنية لذكورته وعن ابن عباس أنها خالته ليا وكانت أمه قد ماتت فى نفاس بنيامين قال البغوى وفى بعض التفاسير ان الله تعالى أحيا أمه حتى جاءت مع يعقوب الى مصر (فان قيل) مامعنى دخولهم عليه قبل مصر (أجيب) بأنه حين استقبلهم نزل بهم فى خيمة أو بيت هناك فدخلوا عليه وضم اليه أبويه (وقال) مكرما (ادخلوا مصر) أى البلد المعروف وأتى بالشرط للامن لا للدخول فقال (ان شاء الله آمنين) من جميع ما ينوب حتى مما فرطتم فى حقى وفى حق أخى روى أن يعقوب عليه السلام وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى عليه السلام والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ (و) لما استقرت بهم الدار بدخول مصر (رفع أبويه) أى أجلسهما معه (على العرش) أى السرير الرفيع والرفع هو النقل الى العلو (وخروا له) أى انحنوا له أبواه واخوته (سجدا) أى سجود انحناء والتواضع قد يسمى سجودا كقول الشاعر * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر * لا وضع جبهة وكان تحيتهم فى ذلك الزمان أو أنهم وضعوا الجباه وكان ذلك على طريقة التحية والتعظيم لا على طريقة

العبادة

العبادة وكان ذلك جائزا فى الامم السالفة فنسخت فى هذه الشريعة وروى عن ابن عباس أنه قال معناه خروا لله سجدا بين يدى يوسف عليه السلام فيكون سجود شكر لله لاجل وجدان يوسف ويدل عليه قوله تعالى ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وذلك يشعر بأنهم صعدوا على السرير ثم سجدوا لله تعالى ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لان ذلك أدخل فى التواضع (فان قيل) هذا التأويل لا يطابق قول يوسف عليه السلام (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) والمراد منه قوله انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين أى رأيتهم ساجدين لاجلى أى انهم سجدوا لله لطلب مصلحتى والسعى فى اعلاء منصبى واذا كان هذا محتملا سقط السؤال قال الرازى وعندى أن هذا التأويل متعين لانه يبعد من عقل يوسف ودينه أن يرضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة أو أنهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا شكرا النعمة وجدانه فانه يقال صليت للكعبة كما يقال صليت الى الكعبة قال حسان

ما كنت أعرف ان الامر منصرف * عن هاشم ثم منها عن أبى الحسن
أليس أول من صلى لقبلتكم * واعرف الناس بالآثار والسنن

ثم استأنف يوسف عليه السلام فقال (قد جعلها ربى) أى الذى ربانى بما أوصلنى اليها (حقا) أى مطابقة للواقع لتأويلها وتأويل ما أخبرتنى به أنت والتأويل تفسير ما يؤول اليه معنى الكلام وعن سلمان رضى الله تعالى عنه أن ما بين رؤياه وتأويلها أربعون سنة وعن الحسن أنه ألقى فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ثم وصل الى أبيه وأقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة (وقد أحسن) أى أوقع احسانه (بى) تصديقا لما بشرتنى به من اتمام النعمة وتعديه أحسن بالباء أدل على القرب من التعدية بالى وان كان أصل أحسن أن يتعدى بالى كما قال تعالى وأحسن كما أحسن الله اليك وقيل ضمن معنى لطف فتعدى بالباء كقوله تعالى وبالوالدين احسانا وقال (اذ أخرجنى من السجن) ولم يذكر اخراجه من الجب لوجوه أولها انه قال لاخوته لا تثريب عليكم اليوم ولو ذكر واقعة الجب لكان ذلك تثريبا لهم فكان اهماله جاريا مجرى الكرم ثانيها أنه لما خرج من الجب لم يصر ملكا بل صيروه عبدا وانما صار ملكا بعد اخراجه من السجن فكان هذا الاخراج أقرب من أن يكون انعاما كاملا ثالثها أنه لما خرج من الجب وقع فى المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة ولما خرج من السجن وصل الى أبيه واخوته فكان هذا أقرب الى المنفعة مع أن اللفظ يحتمل للجب أيضا لكنه احتمال خفى ولما كان يعقوب وولده بأرض كنعان وتحول الى بدو قال ابن عباس ومنه قدم على يوسف قال يوسف عليه السلام (وجاء بكم من البدو) أى من أطراف بادية فلسطين وذلك من أكبر النعم كما جاء فى الحديث من يرد الله به خيرا ينقله من البادية الى الحاضرة والبدو ضد الحاضرة وهو من الظهور يقال بدا يبدو اذا سكن فى البادية يروى عن عمر اذا بدونا جفونا أى تخلقنا بأخلاق البدويين قال الواحدى البدو بسط من الارض يظهر فيه

الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدو بدوا ثم سمى المكان باسم المصدر وفى الآية دلالة على أن فعل العبد خلق الله تعالى لانه أضاف اخراجه من السجن الى الله تعالى ومجيئهم من البدو اليه (من بعد أن نزغ) أى أفسد (الشيطان) بسبب الحسد (بينى وبين اخوتى) وأصل النزغ دخول فى أمر لافساده (فان قيل) اضافة يوسف عليه السلام الخير الى الله تعالى والشر الى الشيطان تقتضى ان فعل الشر ليس من الله تعالى كما قاله بعض المبتدعة ولو كان منه لاضافه اليه (أجيب) بأن اضافة هذا الفعل الى الشيطان مجاز لان الفاعل المطلق هو الله تعالى فى الحقيقة قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فثبت بذلك ان الكل من عند الله تعالى وبقضائه وقدره وليس للشيطان فيه مدخل الا بالقاء الوسوسة والتحريش لافساد ذات البين وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك كما حكى الله تعالى ذلك عنه بقوله تعالى وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى ولما كان حصول الاجتماع بينه وبين اخوته وأبويه مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال وكان فى غاية البعد عن العقول الا أنه تعالى لطيف قال يوسف عليه السلام (ان ربى لطيف لما يشاء) أى لطيف التدبير له اذ ما من صعب الا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها فاذا أراد حصول الشئ سهل أسبابه فحصل وان كان فى غاية البعد عن الحصول (انه هو العليم) بوجوه المصالح والتدابير (الحكيم) أى الذى يفعل كل شئ فى وقته وعلى وجه يقتضى الحكمة روى أن يوسف عليه السلام طاف بأبيه فى خزائنه فلما أدخله خزانة القرطاس قال يا بنى ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمان مراحل قال أمرنى جبريل بذلك قال أوما تسأله قال أنت أقرب منى اليه فسأله فقال جبريل الله أمرنى بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب قال فهلا خفتنى ولما حضر يعقوب عليه السلام الموت وصى يوسف عليه السلام أن يحمله ويدفنه عند أبيه فمضى بنفسه فدفنه ثمة ثم عاد الى مصر وأقام بعده ثلاثا وعشرين سنة * ولما تم أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه الى الملك الدائم فقال (رب قد آتيتنى) وافتتح بقد لان الحال حال توقع السامع لشرح حال الرؤيا (من الملك) أى بعضه بعد بعدى منه جدا وهو ملك مصر (وعلمتنى من) أى بعض (تأويل الاحاديث) طبق ما بشرنى به أبى وأخبرت به أنت من التمكين والتعليم قبل قولك والله غالب على أمره ثم ناداه بوصف جامع للعلم والحكمة فقال (فاطر) أى خالق (السموات والارض) ثم أعلمه بما هو أعلم به منه من أنه لا يعول على غيره فى شئ من الاشياء (أنت وليى) أى الاقرب الى باطنا وظاهرا (فى الدنيا والآخرة) أى لا ولى لى غيرك والولى يفعل لموليه الاصلح والاحسن فأحسن لى فى الآخرة أعظم مما أحسنت لى فى الدنيا روى أنه صلى الله عليه وسلم حكى عن جبريل عن رب العزة جل وعلا أنه قال من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين فلهذا المعنى من أراد الدعاء لا بد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله تعالى فهذا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض ثم ذكر عقبه الدعاء وهو قوله (توفنى) أى

اقبض روحى وافياً تاماً فى جميع أمرى حساً ومعنى حال كونى (مسلماً) ولما كان المسلم حقيقة من كان عريقاً فى الاخلاص عقبه بقوله (وألحقنى بالصالحين) ونظيره مافعله الخليل عليه السلام فى قوله الذى خلقنى فهو يهدين فمن ههنا الى قوله رب هب لى حكماً ثناء على الله تعالى ثم من قوله رب هب لى حكماً الى آخر الكلام دعاء فكذا هنا *(تنبيه)* اختلف فى قوله توفنى مسلماً هل هو طلب منه للوفاة أم لا فقال قتادة سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبى قط الموت قبله وكثير من المفسرين على هذا القول وقال ابن عباس فى رواية عطاء يريد اذا توفيتنى فتوفنى على الاسلام فهذا طلب لان يجعل الله تعالى وفاته على الاسلام وليس فيه مايدل على انه طلب الوفاة واللفظ صالح للامرين ولا يبعد فى الرجل العاقل اذا كمل عقله أن يتمنى الموت وتعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها ان الخطباء والبلغاء وان أطنبوا فى مذمة الدنيا الا أن حاصل كلامهم يرجع الى ثلاثة أمور أحدها ان هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والالم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها وثانيها انها غير حاصلة بل هى ممزوجة بالمنغصات والمكدرات وثالثها ان الاراذل من الخلق يشاركون الافاضل فيها بل ربما كان حصة الاراذل أعظم بكثير من حصة الافاضل فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات ولما عرف العاقل انه لا يحصل تحصيل هذه اللذات الا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لاجرم تمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات ومنها أن تداخل اللذات الدنيوية قليلة وهى ثلاثة أنواع لذة الاكل ولذة النكاح ولذة الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة أما لذة الاكل ففيها عيوب أحدها ان هذه اللذة ليست لذة قوية فانه لا يمكن ابقاؤها فان الانسان اذا أكل وشبع لم يبق فيه الالتذاذ بالاكل فهذه اللذة ضعيفة ومع ضعفها غير باقية وثانيها انها فى نفسها خسيسة وان الاكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع فى الفم ولا شك انه شئ منفر ولما يصل الى المعدة يظهر فيه الاستحالة الى الفساد والنتن والعفونة وذلك أيضاً منفر وثالثها ان جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة له فيها ورابعها ان الاكل انما يطيب عند اشتداد الجوع والجوع نقص وآفة وخامسها ان الاكل مستحقر عند العقلاء حتى قيل من كانت همته مايدخل فى بطنه فقيمته مايخرج من بطنه فهذه اشارات مختصرة الى معايب الاكل وأما لذة النكاح فما ذكر فى الاكل حاصل هنا مع أشياء أخر وهى ان النكاح سبب لحصول الولد وحينئذ تكثر الاشخاص فتكثر الحاجات الى المال فيحتاج الانسان بسببها الى الاحتيال فى المال بطرق لانهاية لها وربما صار هالكاً بسبب طلب المال وأما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة منها أن يكون على شرف الزوال فى كل حين وأوان ومنها انه عند حصولها فى الخوف الشديد من الزوال ومنها أنه يكون عند زوالها فى الاسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال فالعاقل اذا تأمل فى هذه المعانى علم قطعاً انه لا صلاح له فى طلب هذه اللذات فيكون لقاء الله عنده أرجح فيتمنى الموت وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه ان ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسئلة للموت فقال له صنع الله لك خيراً كثيراً أحييت سنناً وأمت بدعاً وفى حياتك خير وراحة للمسلمين فقال

أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقر الله عينه وجمع له أمره قال توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام يعلمون أنهم يموتون لا محالة على الاسلام فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وانه لا يجوز (أجيب) بأن حال كمال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاستسلام ويرضى بقضاء الله وتطمئن النفس وينشرح الصدر وينفسح القلب فى هذا الباب وهذه حالة زائدة على الاسلام الذى هو ضد الكفر والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى (فان قيل) ان يوسف عليه السلام كان من أكابر الانبياء والصلاح أول درجة المؤمنين فالواصل الى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية (أجيب) بأن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال يعنى بأن يلحقه بآبائه ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والمعنى ألحقنى بهم فى ثوابهم ودرجاتهم وولد ليوسف عليه السلام من امرأة العزيز ثلاثة افرائيم وميشا وهو جد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب عليهم السلام ولما تاقت نفسه الى الملك المخلد وتمنى الموت فلم يأت عليه أسبوع حتى توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا وتشاح الناس فى دفنه فطلب أهل كل محلة أن يدفن فى محلتهم رجاء بركته حتى هموا بالقتال فرأوا أن يجعلوه فى صندوق من مرمر ويدفنوه فى النيل حيث يتفرق الماء بمصر ليجرى عليه الماء وتصل بركته الى جميعهم قال عكرمة دفن فى الجانب الايمن من النيل فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر فنقل الى الجانب الايسر فأخصب ذلك الجانب وأجدب الآخر فدفنوه فى وسطه وقدروا ذلك بسلسلة فأخصب الجانبان الى أن أخرجه موسى عليه السلام ودفنه بقرب آبائه بالشأم وقد يسر الله تعالى زيارته وزيارة آبائه فى عام شرعت فى هذا التفسير سنة أربع وستين وتسعمائة جمعنى الله تعالى وآبائى وأهلى وأصحابى وأحبابى معهم فى دار كرامته * ولما تم الذى كان من أمر يوسف عليه السلام واخوته على الوجه الاحكم والصراط الاقوم من ابتدائه الى انتهائه قال تعالى مشيرا الى أنه دليل كاف فى تصحيح نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله (ذلك) أى الذى ذكرته لك يا محمد من قصة يوسف عليه السلام وما جرى له مع اخوته ثم صار الى الملك بعد الرق (من أنباء الغيب) أى أخبار ما غاب عنك (نوحيه اليك) أى الذى أخبرناك به من أخبار يوسف وحى أوحيناه اليك (و) الحال انك (ما كنت لديهم) أى عند اخوة يوسف عليه السلام (اذ) أى حين (أجمعوا أمرهم) أى عزموا على أمر واحد وهو القاء يوسف فى الجب (وهم يمكرون) أى يدبرون الاذى فى الخفية بيوسف والمعنى ان هذا النبأ غيب لانه صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولا تتلمذ لاحد ولا كانت البلدة بلدة العلماء واتيانه صلى الله عليه وسلم بهذه القصة الطويلة على وجه لا يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ومن غير أن يقال انه حاضر معهم لا بد وأن يكون معجزا وقوله تعالى وما كنت لديهم ذكر على سبيل التهكم بهم لان كل أحد يعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان معهم ولما سألت قريش واليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نقله أبو حيان عن ابن الانبارى عن قصة يوسف عليه السلام فنزلت مشروحة هذا الشرح الشافى مبينة هذا البيان الوافى فأمل صلى الله عليه وسلم أن يكون

ذلك

ذلك سبب اسلامهم فخالفوا تأميله عزاه الله تعالى بقوله (وما أكثر الناس) أى أهل مكة (ولو حرصت) على ايمانهم (بمؤمنين) لعنادهم وتصميمهم على الكفر وكان ذلك اشارة الى ماذكر الله تعالى فى قوله تعالى انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ثم نفى عنه التهمة بقوله تعالى (وما تسألهم عليه) أى على تبليغ هذا الكتاب الذى أوحيناه اليك وأغرق فى النفى فقال (من أجر) حتى يكون سؤالك سببا لان يتهموك أو يقولوا لولا أنزل عليه كنز ليستغنى به عن سؤالنا ثم نفى عن هذا الكتاب كل غرض دنيوى بقوله تعالى (ان هو الا ذكر) أى عظة من الله تعالى (للعالمين) عامة ثم ان الله تعالى أخبر عنهم انهم لما تأملوا الآيات الدالة على توحيده تعالى بقوله تعالى (وكأين) أى وكم (من آية) دالة على وحدانية الله تعالى (فى السموات) كالنيرين وسائر الكواكب والسحاب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى (والارض) من الجبال والشجر والدواب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى (يمرون عليها) أى يشاهدونها (وهم عنها معرضون) أى لا يتفكرون فيها فلا عجب اذا لم يتأملوا فى الدلائل على نبوتك فان العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم انهم يمرون عليها ولا يلتفتون اليها * ولما كان ربما قيل كيف يوصفون بالاعراض وهم يعتقدون ان الله تعالى فاعل تلك الآيات بين ان اشراكهم سقط لذلك بقوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله) حيث يقرون بأنه الخالق الرازق (الا وهم مشركون) بعبادتهم الاصنام قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله لكنهم كانوا يثبتون شريكا فى العبودية وعن ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى تلبية مشركى العرب كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك يعنون الاصنام وعنه أيضا أن أهل مكة قالوا الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا بل أشركوا وقال عبدة الاصنام ربنا الله وحده والاصنام شفعاؤنا عنده وقالت اليهود ربنا الله وحده وعزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال عبدة الشمس والقمر ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده لا شريك له ولما كان أكثر هؤلاء لا ينقادون الا بالعذاب قال تعالى (أفأمنوا) انكار فيه معنى التوبيخ والتهديد (أن تأتيهم) فى الدنيا (غاشية) أى نقمة تغشاهم وتشملهم (من عذاب الله) أى الذى له الامر كله كما أتى من ذكرنا قصصهم من الامم (أو تأتيهم الساعة بغتة) أى فجأة وهم عنها فى غاية الغفلة وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) أى بوقت اتيانها قبله كالتأكيد لقوله بغتة * ولما كان صلى الله عليه وسلم مبلغا عن الله تعالى أمره أن يأمرهم باتباعه بقوله تعالى (قل) يا أعلى الخلق وأصفاهم وأعظمهم نصحا واخلاصا (هذه) أى الدعوة الى الله تعالى التى أدعو اليها (سبيلى) أى طريقتى التى أدعو اليها الناس وهى توحيد الله تعالى ودين الاسلام وسمى الدين سبيلا لانه الطريق المؤدى الى ثواب الجنة (ادعو الى الله) أى الى توحيده والايمان به (على بصيرة) أى حجة واضحة وقوله (انا) تأكيد للمستتر فى أدعو وعلى بصيرة لانه حال منه أو مبتدأ خبره على بصيرة وقوله (ومن اتبعنى) أى ممن آمن بى وصدق بما جاءنى عطف عليه لان كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بقدر وسعه

الى الله وهذا دل على أن الدعاء الى الله انما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول ويقين فان لم يكن كذلك والا فهو محض الغرور وقال صلى الله عليه وسلم العلماء أمناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون ما يدعون اليه * (فائدة) * جميع القراء يثبتون الياء وقفا ووصلا لثباتها فى الرسم (وسبحان) أى وقل سبحان (الله) تنزيه الله تعالى عما يشركون به (وما أنا من المشركين) أى الذين اتخذوا مع الله ضدا وندا ولما قال أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم هلا بعث الله ملكا قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك) الى المكلفين (الا رجالا) أى مثل ما انك رجل لا ملائكة ولا اناثا كما قاله ابن عباس ولا من الجن كما قاله الحسن (يوحى اليهم) أى بواسطة الملائكة مثل ما يوحى اليك وقرأ حفص قبل الواو بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء وضم الهاء من اليهم حمزة على أصله وكسرها الباقون (من أهل القرى) أى من أهل الامصار والمدن المبنية بالمدر والحجر ونحوه لا من أهل البوادى لان أهل الامصار أفضل وأعلم وأكمل وأعقل من أهل البوادى ومكة أم القرى لانه اجتمع لجميع الخلائق لما أمروا به من حج البيت وكان العرب كلهم يأتونها فكيف تعجبوا فى حقك قال الحسن لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم ثم هددهم سبحانه وتعالى بقوله تعالى (أفلم يسيروا) أى هؤلاء المشركون المكذبون (فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من المكذبين للرسل والآيات فيحذروا تكذيبك ويعتبروا بهم وبما حل بهم من عذابنا * ولما ان الله تعالى نجى المؤمنين عند نزول العذاب بالامم الماضية المكذبة وما فى الآخرة خير لهم بين ذلك بقوله تعالى (ولدار الآخرة) أى ولدار الحال الآخرة أو الساعة الآخرة أو الحياة الآخرة (خير) وهى الجنة (للذين اتقوا) الله من حياة ما آخرها الموت وان فرحوا فيها بالمحال وان امتدت ألف عام وكان عيشها كله رغدا من غير آلام (أفلا يعقلون) فيستعملون عقولهم فيتبعون الداعى الى هذا السبيل الاقوم وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتاء على الخطاب لاهل مكة والباقون بالياء على الغيبة لهم وللمشركين المكذبين وقوله تعالى (حتى اذا استيأس الرسل) غاية لمحذوف دل عليه الكلام أى لا يغررهم تمادى أيامهم فان من قبلهم أمهلوا حتى أيس الرسل من النصر عليهم فى الدنيا ومن ايمانهم لانهماكهم فى الكفر مترفين متمادين فيه من غير وازع (وظنوا) أى أيقن الرسل (أنهم قد كذبوا) بالتشديد كما قرأه غير حمزة وعاصم والكسائى تكذيبا لا ايمان بعده وأما بالتخفيف كما قرأه هؤلاء فالمعنى ان الامم ظنوا أن الرسل قد أخلفوا ما وعدوا به من النصر عليهم (جاءهم نصرنا) لهم بخذلان أعدائهم (فنجى من نشاء) أى النبى والمؤمنون وقرأ ابن عامر وعاصم بنون مضمومة بعدها جيم مشددة وياء بعد الجيم مفتوحة والباقون بنونين الاولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الجيم وسكون الياء (ولا يرد بأسنا) أى عذابنا (عن القوم المجرمين) أى المشركين ما نزل بهم * ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه القصص وحث على الاعتبار بها بقوله أفلم يسيروا أتبعه بأن فى أحاديثهم أعظم عبرة فقال حثا على تأملها والاستبصار بها (لقد كان فى قصصهم) أى يوسف واخوته أو فى قصص الرسل (عبرة) أى عظة

عظيمة (لأولى الالباب) أى لذوى العقول المبرأة من شوائب الكدر يعتبرون بها الى مايسعدهم لان من قدر على ماقص من أمر يوسف عليه السلام لقادر على أن يعز محمدا صلى الله عليه وسلم ويعلى كلمته وينصره على من عاداه كائنا من كان كما فعل بيوسف وغيره * ولما كان من أجل العبرة فى ذلك القطع بحقية القرآن نبه تعالى على ذلك بتقدير سؤال فقال تعالى (ما كان حديثا يفترى) أى يختلق لان الذى جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لايصح منه أن يفتريه لانه لم يقرا الكتب ولم يتلمذ لاحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما رأوه فى التوراة من غير تفاوت كما يعلم من قوله تعالى (ولكن تصديق الذى بين يديه) أى من الكتب الالهية المنزلة من السماء كالتوراة والانجيل ففى ذلك اشارة الى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة من ذكر قصة يوسف عليه السلام (و) زاد على ذلك بقوله (تفصيل) أى تبيين (كل شئ) أى يحتاج اليه من الدين اذ مامن أمر دينى الا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط وقيل المراد تفصيل كل شئ من واقعة يوسف مع أبيه واخوته قال الواحدى وعلى التفسيرين جميعا فهو من العام الذى أريد به الخاص كقوله تعالى ورحمتى وسعت كل شئ أى يجوز أن يدخل فيها وقوله تعالى وأوتيت من كل شئ (وهدى) من الضلال (ورحمة) ينال بها خير الدارين (لقوم يؤمنون) أى يصدقون خصهم بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا به كقوله تعالى هدى للمتقين فسبحان من أنزله معجزا باهرا وقاضيا بالحق لايزال ظاهرا وما رواه البيضاوى تبعا للكشاف من أنه صلى الله عليه وسلم قال علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وماملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد أحدا حديث موضوع والله أعلم

(سورة الرعد مكية)

الا ولايزال الذين كفروا الآية ويقول الذين كفروا لست مرسلا الآية أو مدنية الا ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وهى ثلاث أو أربع أو خمس أو ست وأربعون آية وعدد كلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وسبعة أحرف

(بسم الله) الحق الذى كل ماعداه باطل (الرحمن) الذى عم الرغبة والرهبة بعموم الرحمة (الرحيم) الذى خص من شاء بما يرضاه عظيم الرهبة (المر) قال ابن عباس معناه أنا الله أعلم وأرى وقال فى رواية عطاء أنا الله الملك الرحمن وقد تقدم الكلام على شئ من أوائل السور فى أول سورة البقرة وقرأ قالون وابن كثير وحفص بالفتح وقرأ ورش بين بين والباقون بالامالة (تلك) أى هذه الآيات (آيات الكتاب) أى القرآن والاضافة بمعنى من وقيل المراد بالكتاب السورة الكاملة ووصفت بالكمال من تعريف الكتاب بأل لان خبر المبتدا اذا عرف بلام الجنس أفاد المبالغة وقوله تعالى (والذى أنزل اليك من ربك) أى القرآن مبتدأ وخبره (الحق) أى الموضوع كل شئ منه فى موضعه على ماتدعو اليه الحكمة الواضح الذى لايتخلف شئ منه

عن مطابقة الواقع من بعث ولاغيره (ولكن أكثر الناس) أى مشركى مكة (لايؤمنون) لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه قال مقاتل نزلت فى مشركى مكة حين قالوا ان محمدا يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بذلك * ولما ذكر تعالى أن أكثر الناس لايؤمنون ذكر عقبه مايدل على صحة التوحيد والمعاد بأمور أحدها قوله تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد) أى سوارى جمع عمود كأدم وأديم أو عماد كاهب واهاب والعمود جسم مستطيل يمنع المرتفع أن يميل (ترونها) أى وأنتم ترون السماء مرفوعة بغير عمد من تحتها تسندها ولامن فوقها علاقة تمسكها فالعمد منفية بالكلية قال اياس بن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة ففى ذلك دلالة عظيمة على وحدانية الله تعالى لان هذه الاجسام العظيمة بقيت واقفة فى الجو العالى ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لاعيانها ولذاتها فهذا برهان باهر على وجود الاله القادر القاهر وقيل الضمير راجع الى العمد أى ان لها عمدا ولكن لاترونها أنتم ومن قال بهذا القول يقول ان عمدها على جبل قاف وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة قال الرازى وهذا التأويل فى غاية السقوط لان السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأى دلالة تبقى فيها على وجود الاله * (تنبيه) * الله مبتدأ والذى رفع السموات خبره ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبر يدبر الامر ثانيها قوله تعالى (ثم استوى على العرش) بالحفظ والتدبير والقهر والقدرة أى ان من فوق العرش الى ماتحت الثرى فى حفظه وتدبيره وفى الاحتياج اليه وتقدم الكلام على ذلك فى سورة الاعراف بمافيه كفاية وثالثها قوله تعالى (وسخر) أى ذلل (الشمس والقمر) لمنافع خلقه مقهوران يجريان على مايريد (كل) منهما (يجرى) فى فلكه (لاجل مسمى) أى الى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها وعند مجىء ذلك الوقت تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك التسييرات كما وصف الله تعالى ذلك فى قوله اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا السماء انشقت واذا السماء انفطرت وعن ابن عباس للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم فى ستة أشهر ثم انها تعود مرة أخرى الى واحد واحد منها فى ستة أشهر مرة أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا فالمراد بقوله تعالى كل يجرى لاجل مسمى هذا وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من تلك الكواكب سيرا الى جهة خاصة بقدر خاص من السرعة والبطء وحينئذ يلزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك * ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال (يدبر الامر) أى يقضى أمر ملكه من الايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والاغناء والافقار ويدخل فيه انزال الوحى وبعثة الرسل وتكليف العباد وفى ذلك دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من أعلاء العرش الى ماتحت الثرى أنواع وأجناس لايحيط بها الا الله عزوجل والدليل المذكور دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس الا من الله تعالى ومن المعلوم أن من اشتغل بتدبير شىء آخر فانه يشغله شأن عن شأن فالعاقل اذا تأمل فى هذه الآية علم أنه تعالى يدبر عالم

الاجساد

الاجساد وعالم الارواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على أنه تعالى متعال فى ذاته وصفاته وعلمه وقدرته عن مشابهة المحدثات والممكنات * ولما كان هذا بيانا شافيا لا لبس فيه قال تعالى (يفصل) أى يبين (الآيات) التى برزت الى الوجود وتدبيرها الدالة على وحدانيته وكمال حكمته المشتملة عليها مبتدعاته فيفرقها ويباين بينها مباينة لا لبس فيها تقريبا لعقولكم وتدريبا لفهومكم لتعلموا أنها فعل الواحد المختار * ولما كان هذا التدبير وهذا التفصيل دالا على تمام القدرة وغاية الحكمة وكان البعث لفصل القضاء والحكم بالعدل واظهار العظمة هو محط الحكمة علل ذلك بقوله (لعلكم) يا أهل مكة (بلقاء ربكم) بالبعث (توقنون) فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الاشياء وتدبيرها على عظمتها وكثرتها قادر على ايجاد الانسان واحيائه بعد موته يروى أن واحدا قال لعلى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه انه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية فى الجو العالى لا يبعد أن يرد الارواح الى الاجساد وان كان الخلق عاجزين عنه وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش الى ما تحت الثرى لا يشغله شأن عن شأن فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن *(تنبيه)* اليقين صفة من صفات العلم وهى فوق المعرفة والدراية وهى سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك * ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته من رفع السماء بغير عمد وأحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الارضية بقوله تعالى (وهو الذى مد الارض) أى بسطها طولا وعرضا لتثبت عليها الاقدام ويتقلب عليها الحيوان ولو شاء لجعلها كالجدار والازج لا يستطاع القرار عليها هذا اذا قلنا ان الارض مسطحة لا كرة وعند أصحاب الهيئة أنها كرة فكيف يقولون بذلك ومد الارض ينافى كونها كرة كما ثبت بالدليل (أجيب) بأن الارض جسم عظيم والكرة اذا كانت فى غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح كما أن الله تعالى جعل الجبال أوتادا مع أن العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا ومع هذا فالله تعالى قد أخبر أنه مد الارض ودحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلا وأبين دليلا من أصحاب الهيئة هذا هو الدليل الاول من الدلائل الارضية الثانى منها قوله (وجعل) أى وخلق (فيها) أى الارض (رواسى) أى جبالا ثوابت واحدها راسية أى ثابتة باقية فى حيزها غير منتقلة عن مكانها لا تتحرك ولا يتحرك ما هى راسية فيه وهذا لا بد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم قال ابن عباس أول جبل وضع على وجه الارض جبل أبى قبيس ولما غلب على الجبال وصفها بالرواسى صارت الصفة تغنى عن الموصوف فجمعت جمع الاسم كحائط وكاهل قاله أبو حيان الثالث منها قوله تعالى (وأنهارا) أى وجعل فى الارض أنهارا جارية لمنافع الخلق والنهر المجرى الواسع من مجارى الماء وأصله الاتساع ومنه النهار لاتساع ضيائه الرابع منها قوله تعالى (ومن كل الثمرات) وهو متعلق

بقوله تعالى (جعل فيها) أى الارض (زوجين اثنين) أى وجعل فيها من جميع أنواع الثمار صنفين اثنين والاختلاف اما من حيث الطعم كالحلو والحامض أو اللون كالاسود والابيض أو الحجم كالصغير والكبير أو الطبيعة كالحار والبارد (فان قيل) الزوجان لا بدّ وأن يكونا اثنين فما الفائدة فى اثنين (أجيب) بأنه قيل انه تعالى أول ماخلق العالم وخلق فيه الاشجار خلق من كل نوع من الانواع اثنين فقط فلو قال خلق زوجين لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص فلما قال اثنين علم أنه تعالى أول ماخلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد فكما أن الناس وان كان فيهم الآن كثرة فابتداؤهم من زوجين اثنين بالشخص آدم وحوّاء فكذا القول فى جميع الاشجار والزروع الخامس منها قوله تعالى (يغشى) أى يغطى (الليل) بظلمته (النهار) أى والنهار الليل بضوئه فيعتدل فعلهما على ماقدّره الله تعالى لهما فى السير من الزيادة والنقصان وذلك من الحكم النافعة فى الدين والدنيا الظاهرة لكل ذى عقل انها تدبيره بفعله واختياره وقهره واقتداره وقرأ شعبة وحمزة والكسائى بفتح الغين وتشديد الشين والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين * ولما ذكر تعالى هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة جمعها وناطها بالفكر فقال تعالى (انّ فى ذلك) أى الذى وقع التحدّث عنه من الآيات (لآيات) أى دلالات (لقوم يتفكرون) أى يجتهدون فى الفكر فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والتفكر والتدبر تصرف القلب فى طلب معانى الاشياء ثم انه تعالى ذكر دليلا ظاهرا جدّا بقوله تعالى (وفى الارض) أى التى أنتم سكانها تشاهدون مافيها مشاهدة لاتقبل الشك (قطع) أى بقاع مختلفة (متجاورات) أى متقاربات يقرب بعضها من بعض واحدة طيبة والاخرى سبخة لاتنبت وأخرى صالحة للزرع لا للشجر وأخرى بالعكس وأخرى قليلة الريع وأخرى كثيرته مع انتظام الكل فى الارضية وهو من دلائل قدرته تعالى (وجنات) أى بساتين فيها أنواع الاشجار من نخيل وأعناب وغير ذلك كما قال تعالى (من أعناب وزرع ونخيل صنوان) جمع صنو وهى النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عمه العباس عم الرجل صنو أبيه يعنى أنهما من أصل واحد (وغير صنوان) أى متفرّقات مختلفة الاصول وسمى البستان جنة لانه يستتر بأشجاره الارض وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص برفع العين واللام والنون الثانية من صنوان والراء من غير مع التنوين فى العين واللام والنون وعدم التنوين فى الراء والباقون بالخفض فى الاربعة وعدم التنوين فى الراء * ولما كان الماء بمنزلة الاب والارض بمنزلة الام وكان الاختلاف مع اتحاد الاب والام أعجب وأدل على الاسناد الى الواحد المسبب لا الى شئ من الاسباب قال (تسقى) قراءة ابن عامر وعاصم بالياء على التذكير أى المذكور وقراءة الباقين بالتاء على التأنيث أى الجنات ومافيها (بماء واحد) فتخرج أغصانها وثمراتها فى وقت معلوم لاتتأخر عنه ولا تتقدم والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل فى حدّه جوهر سيال به قوام الارواح (ونفضل بعضها على بعض فى الاكل) أى فى الطعم مابين حلو وحامض وغير ذلك

وفى الشكل والرائحة والمنفعة وغير ذلك وذلك أيضا مما يدل على القادر الحكيم فان اختلافها مع اتحاد الاصول والاسباب لا يكون الا بتخصيص قادر مختار قال مجاهد وذلك كمثل بنى آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بنى آدم وكانت الارض طينة واحدة فى يد أى فى قدرة الرحمن فسطحها فصارت قطعا متجاورات فينزل عليها الماء من السماء فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد وكذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال الحسن والله ما جالس القرآن أحد الا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وقرأ حمزة والكسائى بالياء ليطابق قوله تعالى يدبر الامر والباقون بالنون وقرأ نافع وابن كثير بسكون الكاف والباقون بالرفع (ان فى ذلك) أى الامر العظيم الذى ذكرناه (لآيات) أى دلالات (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم بالتدبر والتفكر فى الآيات الدالة على وحدانيته تعالى * ولما ذكر تعالى الدلائل القاهرة الدالة على معرفة المبدا ذكر بعده ما يدل على المعاد بقوله تعالى (وان تعجب) أى يا أكرم الخلق من تكذيب الكفار لك بعد ان كنت تعرف عندهم بالصادق الامين (فعجب) أى فحقيق أن يتعجب منه (قولهم) أى منكرى البعث (أئذا كنا ترابا) أى بعد الموت (أئنا لفى خلق جديد) أى خلق بعد الموت كما كنا قبله ولم يعلموا أن القادر على انشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على اعادتهم (وقيل) وان تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع اقرارهم بأن الله تعالى خلق السموات والارض وهو يضر وينفع وقد رأوا قدرة الله تعالى وما ضرب لهم به الامثال فعجب قولهم ذلك والعجب تغير النفس برؤية المستبعد فى العادة وقال المتكلمون العجب هو الذى لا يعرف سببه وذلك فى حق الله تعالى محال لانه تعالى علام الغيوب لا تخفى عليه خافية وقرأ أبو عمرو وخلاد والكسائى بادغام الباء فى الفاء والباقون بالاظهار *(تنبيه)* هنا آيتان فى كل منهما همزتان فقرأ قالون بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية ويدخل بينهما ألفا على الاستفهام وفى الآية الثانية بهمزة مكسورة وبعدها نون مشددة على الخبر وورش كذلك الا أنه لا يدخل بين الهمزتين فى أئذا ألفا وينقل فى الثانى على أصله وابن كثير يقرأ بالاستفهام فيهما من غير ادخال ألف بين الهمزتين مع تحقيق الاولى وتسهيل الثانية فيهما وأبو عمرو كذلك مع ادخال ألف بينهما وابن عامر فى الاول بهمزة مكسورة بعدها ذال مفتوحة على الخبر وفى الثانى بهمزة مفتوحة محققة وهمزة مكسورة محققة على الاستفهام وأدخل هشام بينهما ألفا بخلاف عنه والباقون بهمزتين محققتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة ولا ألف بينهما فى الموضعين *(فائدة)* جميع ما فى القرآن من ذلك أحد عشر موضعا فى تسع سور والاحد عشر مكررة فتصير اثنين وعشرين فى هذه السورة موضع والثانى والثالث فى سورة الاسراء والرابع فى المؤمنون والخامس فى النمل والسادس فى العنكبوت والسابع فى السجدة

والثامن والتاسع فى الصافات والعاشر فى الواقعة والحادى عشر فى النازعات وأذكر ان شاء الله تعالى فى كل سورة من السور المذكورة مذهبهم فى محله (أولئك) أى الذين جمعوا أنواعا من البعد من كل خير (الذين كفروا بربهم) أى غطوا ما يجب اظهاره بسبب الاستهانة بالذى بدأ خلقهم ثم رباهم بأنواع اللطف فاذا أنكروا معادهم فقد أنكروا ابدأهم (وأولئك) البعداء البغضاء (الاغلال) يوم القيامة (فى أعناقهم) بسبب كفرهم والغل طوق من حديد تقيد به اليد فى العنق وقيل المراد بالاغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الاسير الذليل بالغل وقيل انهم مقيدون بالضلال لا يرجى فلاحهم (وأولئك) أى الذين لا خسارة أعظم من خسارتهم (أصحاب النار هم فيها خالدون) أى ثابت خلودهم دائما لا يخرجون منها ولا يموتون ولما كان صلى الله عليه وسلم يهددهم تارة بعذاب يوم القيامة وتارة بعذاب الدنيا والقوم كلما هددهم بعذاب يوم القيامة أنكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذى تقدم ذكره فى الآية الاولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا له فجئنا بهذا العذاب وطلبوا منه اظهاره وانزاله على سبيل الطعن واظهار ان الذى يقوله كلام لا أصل له نزل (ويستعجلونك) أى استهزاء وتكذيبا والاستعجال طلب التعجيل وهو تقديم الشئ قبل وقته الذى يقدر له (بالسيئة) أى العذاب (قبل الحسنة) أى الرحمة وذلك أن مشركى مكة كانوا يقولون اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم * (تنبيه) * قوله قبل الحسنة فيه وجهان أحدهما متعلق بالاستعجال ظرفا له والثانى أنه متعلق بمحذوف على أنه حال مقدرة من السيئة قاله أبو البقاء (وقد) أى والحال أنه قد (خلت من قبلهم المثلات) جمع مثلة بفتح الميم وضم المثلثة كصدقة وصدقات أى عقوبات أمثالهم من المكذبين أفلا يعتبرون بها (وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) والالم يترك على ظهرها دابة كما قال تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقال ابن عباس معناه لذو تجاوز عن المشركين اذا آمنوا (وان ربك لشديد العقاب) للمصرين على الشرك الذين ماتوا عليه وقال مقاتل انه لذو تجاوز عن شركهم فى تأخير العذاب عنهم وشديد العقاب اذا عاقب * ولما بين سبحانه وتعالى أن الكفار طعنوا فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بسبب طعنهم فى الحشر والنشر أولا ثم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ثم طعنوا فى نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا وهو المذكور فى قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لولا) أى هلا (أنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) أى مثل عصا موسى وناقة صالح وذلك لانهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا هذا كتاب مثل سائر الكتب واتيان الانسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزا مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام وكان نبينا صلى الله عليه وسلم راغبا فى اجابة مقترحاتهم لشدة التفاته الى ايمانهم قال الله تعالى له (انما أنت منذر) أى ليس عليك الا الانذار والتخويف وليس عليك اتيان الآيات (ولكل قوم هاد) أى نبى يدعوهم الى ربهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون

وقرأ ابن كثير في الوقف بياء بعد الدال وفي الوصل بغير ياء وتنوين الدال والباقون بغير ياء في
الوقف والوصل مع تنوين الدال ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات أخبرهم الله
تعالى عن عظيم قدرته وكمال علمه بقوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) من ذكر وغيره وواحد
ومتعدد وغير ذلك (وما تغيض) أي تنقص (الأرحام) من مدة الحمل (وما تزداد) أي من مدة الحمل
فقد تكون سبعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند الإمام أبي حنيفة وإلى أربع عند الإمام الشافعي
وإلى خمس عند الإمام مالك رضي الله تعالى عنهم وقيل إن الضحاك ولد لسنتين وهرم بن
حيان بقي في بطن أمه أربع سنين ولذلك سمي هرما وقيل ما تنقص الرحم من الأولاد وتزيد
منهم ويروى أن شريكا كان رابع أربعة في بطن أمه وقيل من نقصان الولد فيخرج
ناقصا والزيادة تمام خلقه وقيل ما تنقص بالسقط عن أن يتم وما تزداد بالتمام وقيل ما تنقص
بظهور دم الحيض وذلك أنه إذا سال الدم في وقت الحمل ضعف الولد ونقص بمقدار حصول
ذلك قال ابن عباس كلما سال الحيض في وقت الحمل يوما زاد في مدة الحمل يوما ليحصل الجبر
ويعتدل الأمر والآية تحتمل جميع ذلك إذ لا تنافي في هذه الأقوال ويدل لذلك قوله تعالى
(وكل شيء) من هذا وغيره من الآيات المقترحات وغيرها (عنده) أي في علمه وقدرته (بمقدار)
في كيفيته وكميته لا يجاوزه ولا يقصر عنه لأنه تعالى عالم بكمية كل شيء وكيفيته على الوجه
المفصل المبين * (تنبيه) * قوله تعالى عنده يجوز أن يكون مجرور المحل صفة لشيء أو مرفوعه
صفة لكل أو منصوبه ويجوز أن يكون ظرفا لقوله بمقدار أو ظرفا للاستقرار الذي تعلق به الجار لوقوعه خبرا
(عالم الغيب) وهو ما غاب عن كل مخلوق (والشهادة) وهو ما شاهدوه وقيل الغيب هو
المعدوم والشهادة هو الموجود وقيل الغيب ما غاب عن الحس والشهادة ما حضر في الحس
(الكبير) أي العظيم (المتعال) عن خلقه بالقهر المنزه عن صفات النقص فهو تعالى موصوف
بالعلم الكامل والقدرة التامة وقرأ ابن كثير في الوقف والوصل بياء بعد اللام والباقون بغير
ياء وقفا ووصلا ولما كان علمه تعالى شاملا لجميع الأشياء قال تعالى (سواء منكم) أي في علمه
تعالى (من أسر القول) أي أخفى معناه في نفسه (ومن جهر به) أي أظهره فقد استوى
في علمه تعالى المسر بالقول والجاهر به (ومن هو مستخف) أي مستتر (بالليل) أي بظلامه
(وسارب) أي ظاهر بذهابه في سربه (بالنهار) والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق
وقال ابن عباس سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الألسنة وقال مجاهد سواء من يقدم على
القبائح في ظلمات الليل ومن يأتي بها في النهار الظاهر على سبيل التوالي والضمير في (له) يعود
إلى من في قوله سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل أو للإنسان
(معقبات) أي ملائكة تعتقبه والذي عليه الجمهور أن المراد بالملائكة الحفظة وإنما صح
وصفهم بالمعقبات إما لأجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس وإما لأجل أنهم
يعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب وكل من عمل عملا ثم عاد إليه فقد عقب
فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل والنهار روي عن عثمان أنه قال يا رسول الله أخبرني

عن العبد كم معه من ملك فقال صلى الله عليه وسلم ملك عن يمينك للحسنات وهو أمير على الذى على الشمال فاذا عملت حسنة كتبت عشرا واذا عملت سيئة قال الذى على الشمال لصاحب اليمين اكتب قال لا لعله أن يتوب أو يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات فاذا قال ثلاثا قال اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله واستحياءه منا فيه وقوله تعالى له معقبات (من بين يديه) أى قدامه (ومن خلفه) أى وراءه وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لربك رفعك وان تجبرت قصمك وملكان على شفتيك يحفظان عليك الصلاة وملك على فيك لا يدع أن تدخل الحية فى فيك وملكان على عينيك فهذه عشرة أملاك على كل آدمى ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فهم عشرون ملكا على كل آدمى وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله تعالى وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى فيقولون تركناهم وهم يصلون وقال مجاهد ما من عبد الا وله ملك موكل يحفظه من الجن والانس والهوام فى نومه ويقظته (فان قيل) الملائكة ذكور فلم ذكروا فى جمع الاناث وهو المعقبات (أجيب) بجوابين الاول قال الفراء المعقبات ملائكة معقبة واحدها معقب ثم جمعت معقبة بمعقبات كما قيل أبناآت ورجالات جمع ابناء ورجال والذى على التذكير قوله تعالى (يحفظونه) والثانى وهو قول الاخفش انما أنث لكثرة ذلك منها نحو نسابة وعلامة وهو ذكر واختلف فى المراد من قوله تعالى (من أمر الله) على أقوال أحدها انه على التقديم والتأخير والتقدير له معقبات من أمر الله يحفظونه ثانيها ان فيه اضمارا أى ذلك الحفظ من أمر الله أى مما أمر الله تعالى به فحذف الاسم وأبقى خبره وثالثها ان كلمة من معناها الباء والتقدير يحفظونه بأمر الله وباعانته وقال كعب الاحبار لولا ان الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج معنى يحفظونه أى يحفظون عليه الحسنات والسيئات (فان قيل) ما الفائدة فى تخصيص هؤلاء الملائكة مع بنى آدم وتسليطهم عليهم (أجيب) بأن الانسان اذا علم أن الملائكة تحصى عليه أعماله كان الى الحذر من المعاصى أقرب لان من اعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فاذا حاول الاقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونه زجره الحياء منهم عن الاقدام اليها كما يزجره اذا حضر من يعظمه من البشر واذا علم أن الملائكة تحصى عليه تلك الاعمال كان ذلك أيضا رادعا له عنها واذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل * ولما دل ذلك على غاية القدرة والعظمة قال تعالى (ان الله) مع قدرته (لا يغير ما بقوم) أى لا يسلبهم نعمته (حتى يغيروا ما) أى الذى (بأنفسهم) من الاحوال الجميلة الى الاحوال القبيحة (واذا أراد الله بقوم سوأ) أى هلاكا وعذابا (فلا مرد له) أى لا يقدر أحد لا من المعقبات ولا من غيرها أن يرد ما نزل بهم من قضائه وقدره (وما لهم) أى ان أراد الله بهم سوأ (من دونه) أى غير الله (من وال) يلى أمرهم وينصرهم ويمنع العذاب عنهم وقرأ ابن كثير فى الوقف باثبات الياء بعد اللام دون

الوصل

الوصل والباقون بغير ياء بعد اللام وقفا ووصلا * ولما خوف الله تعالى بقوله واذا أراد الله بقوم سوأ اتبعه بذكر آيات تشبه النعم والاحسان من بعض الوجوه وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه بقوله تعالى (هو الذي يريكم البرق خوفا) أي للمسافرين من الصواعق (وطمعا) أي للمقيم في المطر وقيل ان كل شئ يحصل في الدنيا يحتمل الخير والشر فهو خير بالنسبة الى قوم وشر بالنسبة الى آخرين فكذلك المطر خير في حق من يحتاج اليه في أوانه وشر في حق من يضره ذلك اما بحسب المكان واما بحسب الزمان والبرق معروف وهو لمعان يظهر من بين السحاب (وينشئ) أي يخلق (السحاب الثقال) أي بالمطر *(تنبيه)* خوفا وطمعا مصدران ناصبهما محذوف أي تخافون خوفا وتطمعون طمعا ويجوز غير ذلك والسحاب قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه غربال الماء وهو غيم ينسحب في السماء وهو اسم جنس جمعي واحده سحابة وأكثر المفسرين على أن الرعد في قوله تعالى (ويسبح الرعد بحمده) على أنه اسم للملك الذي يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه ولا يرد ذلك عطف الملائكة عليه في قوله تعالى (والملائكة) أي تسبحه (من خيفته) أي الله لانه أفرد بالذكر تشريفا له كما في قوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال قال ابن عباس أقبلت يهود على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب قال ابن الاثير والمخاريق جمع مخراق وهو في الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وهي آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه وقد جاء تفسير المخراق في حديث آخر وهو سوط من نور تزجر به الملائكة السحاب وعن ابن عباس أنه قال من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شئ قدير فان أصابته صاعقة فعلي ديته وعن عبد الله بن الزبير أنه كان اذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وفي بعض الاخبار يقول الله تعالى لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت الشمس عليهم بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد وفي رواية عن ابن عباس الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث يؤمر وانه يحوز الماء في نقرة ابهامه وانه يسبح الله تعالى اذا سبح لا يبقى ملك في السماء الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وعن الحسن أن الرعد خلق من خلق الله ليس بملك وقد اختلفت الروايات في ذلك ففي بعضها أنه ملك موكل بالسحاب وفي بعضها انه ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه وفي بعضها انه ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادي الابل بحدائه وفي بعضها أنه ملك سمي به وهو الذي تسمعون صوته وقد مرت الاشارة الى ذلك في البقرة وقيل هؤلاء الملائكة أعوان الرعد جعل الله تعالى له أعوانا فهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة وهو الظاهر وقوله تعالى (ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهي العذاب المهلك تنزل من البرق فتحرق من تصيبه (فيصيب بها من يشاء) فيهلكه (وهم يجادلون في الله) حيث يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب التشديد في الخصومة روي أن عامر

ابن الطفيل واربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين لقتله فأخذه عامر بالمجادلة ودار اربد من خلفه ليضربه بالسيف فتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله تعالى على اربد صاعقة فقتلته ورمى عامر بغدة فمات في بيت سلولية فكان يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية فنزلت وعن الحسن أنه قال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه النبي صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه الى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال لهم اخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني اليه مم هو أمن ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا اليه فرجعوا اليه فجعل لا يزيدهم على مقالته الاولى وقال أجيب محمدا الى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا وقالوا يا رسول الله ما زادنا على مقالته الاولى وأخبث فقال ارجعوا اليه فرجعوا فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة اذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس فجاؤا يسعون ليخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا احترق صاحبكم فقالوا من أين علمتم فقالوا أوحى الله تعالى الى النبي صلى الله عليه وسلم ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله (وهو شديد المحال) واختلف المفسرون في قوله تعالى وهو شديد المحال فقال علي رضي الله عنه شديد الاخذ وقال ابن عباس شديد الحول وقال مجاهد شديد القوة وقال أبو عبيدة شديد القوة والمغالبة واختلف في قوله تعالى (له) اى الله (دعوة الحق) فقال علي دعوة الحق التوحيد وقال ابن عباس شهادة أن لا اله الا الله وقال الحسن الحق هو الله تعالى وكل دعاء اليه دعوة الحق (والذين يدعون) أي وهم الكفار (من دونه) أي غير الله وهي الاصنام (لا يستجيبون) أي الاصنام (لهم) أي الكفار (بشئ) مما يطلبونه من نفع أو دفع ضر (الا) أي الا استجابة (كباسط) أي كاستجابة باسط (كفيه الى الماء) أي على شفير البئر يدعوه (ليبلغ فاه) أي بارتفاعه من البئر اليه (وما هو) أي الماء (ببالغه) أي فاه أبدا لانه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على اجابته فكذلك ما هم بمستجيبين لهم أبدا لان أصنامهم كذلك وقيل شبهوا في قلة فائدة دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسط كفيه ناشرا أصابعهما ولم يصل كفاه الى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من مشربه ثم انه تعالى عمم في أنه لا يستجاب لهم بقوله تعالى (وما دعاء الكافرين الا في ضلال) أي ضياع لا منفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا آلهتهم لم تستطع اجابتهم وقيل المراد بالدعاء في الحالين العبادة وقوله تعالى (ولله يسجد من في السموات والارض) يحتمل أن يراد به السجود على حقيقته وهو وضع الجبهة وعلى هذا فيكون قوله تعالى (طوعا) للملائكة والمؤمنين من الثقلين حالتي الشدة والرخاء وقوله تعالى (وكرها) للكافرين والمنافقين الذين أكرهوا على السجود بالسيف وأن يراد به التعظيم والاعتراف بالعبودية فكل من في السموات والارض معترف بعبودية الله

تعالى

تعالى كما قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وأن يراد به الانقياد والخضوع وترك الامتناع وكل من فى السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى لان قدرته ومشيئته نافذة فى الكل *(تنبيه)* قوله تعالى طوعا وكرها اما مفعول من أجله واما حال أى طائعين وكارهين واختلف فى تفسير قوله تعالى (وظلالهم بالغدو) أى البكر (والآصال) أى العشايا أى تسجد فقال أكثر المفسرين كل شخص سواء كان مؤمنا أو كافرا فان ظله يسجد لله قال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله تعالى وهو طائع وظل الكافر يسجد لله تعالى وهو كاره وقال الزجاج جاء فى التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الانبارى ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال عقولا وأفهاما تسجد بها لله وتخشع وقيل المراد من سجود الظلال ميلها من جانب الى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس وهى منقادة مستسلمة فى طولها وقصرها وميلها من جانب الى جانب وانما خص الغدو والآصال بالذكر لان الظلال انما تعظم وتكثر فى هذين الوقتين *(تنبيه)* الغدو جمع غداة كقنى وقناة والآصال جمع الاصل والاصل جمع أصيل وهو ما بين العصر الى غروب الشمس * ولما بين تعالى ان كل من فى السموات والارض ساجد لله تعالى عدل الى الرد على عباد الاصنام بقوله تعالى (قل) يا أشرف الخلق على الله تعالى لقومك (من رب السموات والارض) أى من مالكهما وما فيهما ومدبرهما وخالقهما (قل الله) أى أجب عنهم بذلك ان لم يقولوه ولا جواب لهم غيره ولانه البين الذى لا يمكن المراء فيه ولقنهم الجواب به وروى أنه لما قال للمشركين ذلك عطفوا عليه وقالوا أجب أنت فأمره الله تعالى فأجاب بذلك ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الاصنام بقوله تعالى (قل) لهم (أفاتخذتم من دونه) أى غير الله (أولياء) أى أصناما تعبدونها (لا يملكون لانفسهم نفعا) يجلبونه (ولا ضرا) يدفعونه فكيف يملكون لكم ذلك وقرأ ابن كثير وحفص باظهار الذال فى اتخذتم عند التاء والباقون بالادغام ثم ضرب الله تعالى مثلا للمشركين الذين يعبدون الاصنام والمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى (قل هل يستوى الاعمى والبصير) قال ابن عباس يعنى المشرك والمؤمن وانما مثل الكافر بالاعمى لانه لا يهتدى سبيلا فكذلك الكافر لا يهتدى سبيلا * ثم ضرب الله مثلا للايمان والكفر بقوله تعالى (أم هل تستوى الظلمات) أى الكفر (والنور) أى الايمان الجواب لا وقرأ شعبة وحمزة والكسائى يستوى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وأما اللام من هل هنا فلا تدغم على القراءتين (أم جعلوا لله شركاء) والهمزة للانكار وقوله تعالى (خلقوا كخلقه) صفة شركاء أى خلقوا سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وانسا (فتشابه الخلق) أى خلق الشركاء بخلق الله (عليهم) من هذا الوجه فلا يدرون ما خلق الله ولا ما خلق آلهتهم فاعتقدوا استحقاق عبادتهم بخلقهم وهذا استفهام انكار أى ليس الامر كذلك ولا يستحق العبادة الا الخالق ولما كان من المعلوم قطعا أن جوابهم ان الخلق كله لله لزمتهم الحجة فقال تعالى (قل) لهؤلاء المشركين (الله خالق كل شئ) أى مما يصح أن يكون مخلوقا فهو من العموم الذى يراد به

الخصوص فلا يدخل في ذلك صفات الله تعالى واذا كان لاخالق غيره فلا يشاركه في العبادة أحد فوجب أن ينفرد بالالهية كما قال تعالى (وهو الواحد) أي الذي لا يجانسه شيء وكل ماسواه لا يخلو عن مماثل بماثله وأين رتبة من يماثل من رتبة من لامثل له (القهار) الذي كل شيء تحت قهره فيدخل تحت قضائه ومشيئته وارادته ثم ضرب تعالى مثلا للحق والباطل بقوله تعالى (أنزل من السماء) أي السحاب أو السماء نفسها (ماء) أي مطرا (فسالت أودية) أي أنهار جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجاري فيه وتنكيرها لان المطر يأتي على تناوب بين البقاع (بقدرها) أي بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار أو بمقداره في الصغر والكبر (فاحتمل السيل زبدا رابيا) أي عاليا عليه هو ماعلى وجهه من قذر ونحوه (ومما توقدون عليه في النار) أي من جواهر الارض الذهب والفضة والنحاس والحديد (ابتغاء) أي طلب (حلية) أي زينة (أو متاع) أي ينتفع به كالاواني اذا أذيبت وآلات الحرب والحرث والمقصود من هذا بيان منافعها (زبد مثله) أي مثل زبد السيل وهو خبثه الذي ينفيه الكير ومن للابتداء أو للتبعيض وقرأ حفص وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة على ان الضمير للناس واضماره للعلم به والباقون بالتاء على الخطاب (كذلك) أي مثل هذا الضرب العلي الرتب المتين السبب (يضرب الله) أي الذي له الامر كله (الحق والباطل) أي مثلهما فانه تعالى مثل الحق في افادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الاودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به أنواع المنافع ويمكث في الارض بأن يثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه في عروق الارض الى العيون والقني والآبار ومثل الباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما وهو قوله تعالى (فأما الزبد) أي من السيل وما أوقد عليه من الجواهر (فيذهب جفاء) قال أبو حيان مضمحلا أي متلاشيا لامنفعة فيه ولا بقاء له وقال ابن الانباري متفرقا وانتصابه على الحال (وأما ما ينفع الناس) من الماء ومن الجواهر الذي هو مثل الحق (فيمكث في الارض) أي يثبت ويبقى لينتفع به أهلها (كذلك) أي مثل ذلك الضرب (يضرب) أي يبين (الله) الذي له الاحاطة الكاملة علما وقدرة (الامثال) فيجعلها في غاية الوضوح وان كانت في غاية الغموض قال أهل المعاني هذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل فالباطل وان علا على الحق في بعض الاوقات والاحوال فان الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو على الماء فيذهب الزبد فيبقى الماء الصافي الذي ينفع وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذي هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما اذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء الصافي الذي ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كمثل الزبد الذي لا ينتفع به البتة * ثم انه تعالى لما ذكر الحق والباطل ذكر مالاهلهما من الثواب والعقاب فقال تعالى (للذين استجابوا لربهم) أي أجابوه الى مادعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الاموات والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم (الحسنى) قال ابن عباس وقال أهل المعاني الحسنى

هى المنفعة العظمى فى الحسن وهى المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة الخالصة عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والاجلال ولم يذكر تعالى الزيادة ههنا لانه تعالى ذكرها فى سورة أخرى وهى قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة هذا مالاهل الحق وأمّا ما لاهل الباطل فهو ماذكره بقوله جل من قائل (والذين لم يستجيبوا له) وهم الكفرة فلهم أنواع ثلاثة من العذاب والعقوبة فالنوع الاول قوله تعالى (لو أنّ لهم ما فى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) أى جعلوه فكاك أنفسهم بغاية جهدهم لانّ المحبوب بالذات لكل انسان هو ذاته وكل ما سواه فهو انما يحبه لكونه وسيلة الى مصالح ذاته فاذا كانت النفس فى الضرر والالم والتعب وكان مالكا لما يساوى عالم الاجناس والارواح فانه يرضى بأن يجعله فداء نفسه لانّ المحبوب بالعرض لابد وأن يكون فداء لما كان محبوبا بالذات والكناية فى به عائدة الى ما فى قوله ما فى الارض والنوع الثانى من أنواع العذاب الذى أعده الله تعالى لهم ما ذكره بقوله تعالى (أولئك لهم سوء الحساب) وهو المناقشة فيه وعن النخعى بأن يحاسب العبد بذنبه كله لا يغفر منه شئ وانما نوقشوا لانهم أحبوا الدنيا وأعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذى هو الدنيا وبقوا محرومين من الفوز بسعادة خدمة المولى والنوع الثالث من عقوباتهم ما ذكره بقوله تعالى (ومأواهم) أى مرجعهم (جهنم) وذلك لانهم كانوا غافلين عن الاشتغال بخدمة المولى عاشقين للذات الدنيا فاذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شئ آخر يجبر هذه المصيبة فلذلك كان مأواهم جهنم * ثم انه تعالى وصف هذا المأوى بقوله عز من قائل (وبئس المهاد) أى الفراش والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم * ونزل فى حمزة وأبى جهل وقيل فى عمار وأبى جهل (أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق) أى يؤمن به ويعمل بما فيه وهو حمزة أو عمار رضى الله تعالى عنهما (كمن هو أعمى) أى أعمى البصيرة ولا يؤمن به ولا يعمل بما فيه وهو أبو جهل قال ابن الخازن فى تفسيره وحمل الآية على العموم أولى وان كان السبب مخصوصا والمعنى لا يستوى من يبصر الحق ويتبعه ومن هو لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما شبه الكافر والجاهل بالأعمى لانّ الاعمى لا يهتدى لرشد (انما يتذكر) أى يتعظ (أولوا الالباب) أى أصحاب العقول الذين يطلبون من كل صورة معناها ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون من ظاهر كل حديث الى سره ولبابه (الذين يوفون بعهد الله) أى ما عاقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى أو ما عهد الله تعالى عليهم فى كتبه (ولا ينقضون الميثاق) أى ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبينهم وبين العباد فهو تعميم بعد تخصيص (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) أى من الايمان والرحم وغير ذلك والاكثرون على أنه أراد به صلة الرحم عن أبى موسى انّ عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يحكى عن ربه تعالى أنا الرحمن وهى الرحم شققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم متعلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله وعن

أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تأخير الاجل وفيه قولان أحدهما وهو المشهور أنه يزاد في عمره زيادة حقيقية والثاني يبارك له في عمره فكأنه قد زيد فيه وعن ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي اذا انقطعت رحمه وصلها وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال تأتي يوم القيامة لها ألسنة ذلقة الرحم فتقول أي رب قطعت والامانة تقول أي رب تركت والنعمة تقول أي رب كفرت وعن الفضيل بن عياض ان جماعة دخلوا عليه بمكة فقال من أين أنتم فقالوا من خراسان قال اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم واعلموا ان العبد لو أحسن كل الاحسان وكان له دجاجة فأساء اليها لم يكن من المحسنين (ويخشون ربهم) أي وعيده عموما والخشية خوف يشوبه تعظيم (ويخافون سوء الحساب) خصوصا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا (والذين صبروا) أي على طاعة الله تعالى وعن معاصيه وفي كل ما ينبغي الصبر فيه وقال ابن عباس صبروا على أمر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصي ومرجع الكل واحد فان الصبر الحبس وهو تجرع مرارة منع النفس عما تحب مما لا يجوز فعله (ابتغاء) أي طلب (وجه ربهم) أي رضاه لا طلب غيره من جور أو سمعة أو رياء أو لغرض من أغراض الدنيا أو نحو ذلك (وأقاموا الصلاة) أي المفروضة وقيل مطلق الصلاة فيدخل فيه الفرض والنفل (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) قال الحسن المراد به الزكاة فان لم يتهم بترك الزكاة فالاولى أن يؤديها سرا وان كان يتهم بترك أدائها فالاولى أن يؤديها علانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية الزكاة وقيل المراد بالسر ما يؤديه من الزكاة بنفسه وبالعلانية ما يدفعه الى الامام (ويدرؤن) أي يدفعون (بالحسنة السيئة) كالجهل بالحلم والاذى بالصبر روى عن ابن عباس قال يدفعون بالصالح من العمل السيء من العمل وهو معنى قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وقوله صلى الله عليه وسلم اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية وعن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيق قد خنقه ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج الى الارض وقال ابن عباس يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم وعن الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن عمر ليس الواصل من وصل ثم وصل تلك مجازاة لكن من قطع ثم وصل وعطف من لم يصله وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى اذا هيجه قوم اهتاج لكن الحليم من قدر ثم عفا وعن ابن كيسان اذا أذنبوا تابوا وقيل اذا رأوا منكرا أمروا بتغييره وروى أن شقيقا البلخي دخل على ابن المبارك متنكرا فقال له من أين أنت فقال من بلخ فقال وهل تعرف شقيقا قال نعم فقال وكيف طريقة أصحابه قال اذا منعوا صبروا واذا أعطوا شكروا فقال ابن المبارك طريقة كلابنا هكذا فقال شقيق فكيف ينبغي أن يكون الامر فقال الكاملون

هم الذين اذا منعوا شكروا واذا أعطوا آثروا (أولئك) أى العالو الرتبة (لهم عقبى الدار) وبينها تعالى بقوله (جنات عدن) أى اقامة لا انفكاك لها يقال عدن بالمكان اذا أقام به ثم استأنف بيان تمكنهم بها بقوله تعالى (يدخلونها) ولما كانت الدار لا تطيب بدون الاحبة قال تعالى عاطفا على الضمير المرفوع (ومن صلح من آبائهم) أى الذين كانوا سببا فى ايجادهم فيشمل ذلك الآباء والامهات وان علوا (وأزواجهم وذرياتهم) أى الذين تسببوا عنهم والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم وتعظيما لشأنهم ويقال ان من أعظم موجبات سرورهم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم فى الدنيا ثم يشكروا الله تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال الله تعالى فى صفة أهل الجنة انهم يقولون ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين وفى ذلك دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وان الموصوفين بتلك الصفات يقترن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة زيادة فى أنسهم والتقييد بالصلاح دلالة على أن مجرد الانساب لا تنفع وفسر ابن عباس الصلاح بالتصديق فقال يريد من صدق بما صدقوا وان لم يعمل مثل أعمالهم قال الرازى قوله وأزواجهم ليس فيه مايدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات عنها أو ماتت عنه وماروى عن سودة انها لما هم الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت دعنى يارسول الله أحشر فى جملة نسائك كالدليل على ماذكرنا اه وعلى هذا من تزوجت بغيره قيل انها تخير بينهما ثم زاد تعالى فى ترغيبهم بقوله تعالى (والملائكة يدخلون عليهم) لان الاكثار من تردد رسل الملك أعظم فى الفخر وأكثر فى السرور والعز * ولما كان اتيانهم من الاماكن المعتادة مع القدرة على غيرها أدل على الادب والكرم قال تعالى (من كل باب) قال ابن عباس لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم (سلام عليكم) أى فأضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه (بما صبرتم) على أمر الله والباء للسببية أى بسبب صبركم أو البدلية أى بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه (فان قيل) بم يتعلق قوله بما صبرتم قال الزمخشرى بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم وقال البيضاوى متعلق بعليكم أو بمحذوف لا بسلام فان الخبر فاصل مع أن الزمخشرى قال ويجوز أن يتعلق بسلام أى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم وهذا أظهر ورد الاول بأن الممنوع منه انما هو المصدر المؤول بحرف مصدرى وفعل والمصدر هنا ليس كذلك * ولما تم ذلك تسبب عنه قوله تعالى (فنعم عقبى الدار) وهى المسكن فى قرار المهيأ بالابنية التى يحتاج اليها والمرافق التى ينتفع بها والعقبى الانتهاء الذى يؤدى اليه الابتداء من خير أو شر والمخصوص بالمدح محذوف أى عقباكم * ولما ذكر تعالى صفات السعداء وما يترتب عليها من الاحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر أحوال الاشقياء وذكر ما يترتب عليها من الاحوال المخزية المكربة وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ليكون البيان كاملا فقال تعالى (والذين ينقضون عهد الله) أى فيعملون بخلاف موجبه والنقض التفريق الذى ينفى تأليف البناء (من بعد ميثاقه) أى الذى أوثقه عليهم من الاقرار والقبول

(ويقطعون ما) أى الذى (أمر الله به أن يوصل) وذلك فى مقابلة قوله من قبل والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل بجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل والمراد به قطع ما يوجب الله تعالى وصله أى لماله من المحاسن الجلية والخفية التى هى عين الصلاح ويدخل فى ذلك وصل الرسول صلى الله عليه وسلم بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين ووصل الارحام ووصل سائر من له حق (ويفسدون) أى يوقعون الفساد (فى الارض) أى فى أى جزء كان منها بالظلم وتهييج الفتن والدعاء الى غير دين الله تعالى (أولئك) أى البعداء البغضاء (لهم اللعنة) أى الطرد والبعد (ولهم سوء الدار) والدار لهم هى جهنم وليس لهم فيها الا ما يسوء الصائر اليها * ولما حكم تعالى على من نقض عهده فى قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة فكأنه قيل لو كانوا أعداء الله تعالى لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات فى الدنيا فأجاب الله تعالى بقوله تعالى (الله يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء ويقدر) أى يضيقه على من يشاء سواء فى ذلك الطائع والعاصى ولا تعلق لذلك بالكفر والايمان فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المؤمن ويوجد المؤمن موسعا عليه دون الكافر فالدنيا دار امتحان * ولما كانت السعة مظنة الفرح الا عند من وفقه الله تعالى قال الله تعالى (وفرحوا) أى كفار مكة فرح بطر (بالحيوة الدنيا) أى بما نالوه فيها الا فرح سرور بفضل الله والعافية عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة (وما الحيوة الدنيا) أى بكمالها (فى الآخرة) أى فى جنبها (الا متاع) أى حقير متلاش يتمتع به ويذهب كعجالة الراكب وهى ما يتعجله من تميرات أو شربة ماء سويق أو نحو ذلك (ويقول الذين كفروا) من أهل مكة (لولا) أى هلا (أنزل عليه) أى على هذا الرسول (آية) أى علامة بينة (من ربه) أى المحسن اليه كالعصا واليد لموسى والناقة لصالح لنهتدى بها فنؤمن به * وأمره الله تعالى أن يجيبهم بقوله (قل) أى لهؤلاء المعاندين (ان الله يضل من يشاء) اضلاله فلا تغنى عنه الآيات شيأ وان أنزلت كل آية (ويهدى) أى يرشد (اليه) أى الى دينه (من أناب) أى رجع اليه كأبى بكر الصديق وغيره ممن تبعه من العشرة المشهود لهم بالجنة وغيرهم ولو حصلت آية واحدة فلا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا الى الله تعالى فى طلب الهداية وقوله تعالى (الذين آمنوا) بدل من أناب أو خبر مبتدا محذوف (وتطمئن) أى تسكن (قلوبهم بذكر الله) أى أنسا به واعتمادا عليه ورجاء منه أو بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته أو بذكر دلائله الدالة على وجوده أو بالقرآن الذى هو أقوى المعجزات وقال ابن عباس يريد اذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت (فان قيل) قد قال الله تعالى فى سورة الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمئنان فكيف الجمع بين هاتين الآيتين (أجيب) بأنهم اذا ذكروا العقاب ولم يأمنوا أن يقدموا على المعاصى فهناك يحصل الوجل واذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم الى ذلك وحينئذ حصل الجمع بينهما (ألا بذكر الله) أى الذى له الجلال والاكرام لا بذكر غيره (تطمئن) أى تسكن (القلوب) ويثبت اليقين فيها وقوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا

الصالحات)

الصالحات) مبتدأ خبره (طوبى لهم) واختلف العلماء فى تفسير طوبى فقال ابن عباس فرح لهم وقرة عين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وقال النخعى خير لهم وكرامة وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية قال الرازى وهذا القول ضعيف لانه ليس فى القرآن الا العربى لاسيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر وعن أبى هريرة وأبى الدرداء ان طوبى شجرة فى الجنة تظل الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هى شجرة فى جنة عدن أصلها فى دار النبى صلى الله عليه وسلم وفى كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لونا ولا زهرة الا وفيها منه الا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة الا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل وكل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله تعالى بأنواع التسبيح وعن أبى سعيد الخدرى أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم ما طوبى قال شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه طوبى شجرة غرسها الله تعالى بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلى والحلل وان أغصانها الترى من وراء سور الجنة وفى رواية عن أبى هريرة انه قال ان فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله تعالى لها تفتقى لعبدى عما يشاء فتنفتق له عن فرس مسرجة بلجامها وهيئتها كما يشاء وتنفتق له عن راحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وقيل طوبى فعلى من الطيب قلبت ياؤه واوا لضم ماقبلها مصدر لطاب كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك أصبت خيرا وطيبا (وحسن مآب) أى حسن المنقلب (كذلك) أى مثل ارسال الرسل الذين قدمنا الاشارة اليهم فى آخر سورة يوسف وفى غيرها (أرسلناك فى أمة) أى جماعة كثيرة (قد خلت من قبلها) أى تقدمتها (أمم) طال اذاهم لانبيائهم ومن آمن بهم واستهزاؤهم بهم فى عدم الاجابة حتى كأنهم تواصوا بهذا القول فليس ببدع ارسالك اليهم (لتتلو) أى لتقرأ (عليهم) أى على أمتك (الذى أوحينا اليك) من القرآن وشرائع الدين (وهم) أى والحال أنهم (يكفرون بالرحمن) أى بالبليغ الرحمة الذى وسعت رحمته كل شئ وقال قتادة هذه الآية مدنية نزلت فى صلح الحديبية وذلك ان سهل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهل بن عمرو لانعرف الرحمن الا صاحب اليمامة يعنى مسيلمة الكذاب اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن أى انهم يكفرونه ويجحدونه قال البغوى والمعروف ان الآية مكية وسبب نزولها ان أبا جهل سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الحجر يدعو يا الله يارحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الله ويدعو الها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد ان الرحمن الذى أنكرتم معرفته (هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت) أى اعتمدت عليه فى أمورى كلها (واليه متاب)

أى مرجعى ومرجعكم روى ان أهل مكة قعدوا فى فناء الكعبة فأتاهم النبى صلى الله عليه وسلم وعرض الاسلام عليهم فقال له عبد الله بن أمية المخزومى سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا واجعل لنا فيها أنهارا نزرع فيها وأحى لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أم باطل فقد كان عيسى يحيى الموتى وسخر لنا الريح حتى نركبها الى البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان فنزل قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) أى نقلت عن أماكنها (أو قطعت) أى شققت (به الارض) من خشية الله تعالى عند قراءته فجعلت أنهارا وعيونا (أو كلم به الموتى) أى بأن يحيوا وجواب لو محذوف أى لكان هذا القرآن فى غاية ما يكون من الصحة واكتفى بمعرفة السامعين مراده وهذا معنى قول قتادة قال لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقيل تقديره لما آمنوا ونقل عن الفراء أن جواب لو هى الجملة من قوله وهم يكفرون ففى الكلام تقديم وتأخير وما بينهما اعتراض وتقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا لما سبق من علمنا فيهم (فان قيل) لم حذفت التاء فى قوله تعالى وكلم به الموتى وثبتت فى الفعلين قبله (أجيب) بأنه من باب التغليب لان الموتى يشمل المذكر والمؤنث (بل لله الامر) أى القدرة على كل شئ (جميعا) وهذا اضراب عما تضمنته لو من معنى النفى أى بل الله قادر على الاتيان بما اقترحوه من الآيات لكن الارادة لم تتعلق بذلك لعلمه تعالى بأنه لا يلين قلوبهم ويؤيد ذلك قوله تعالى (أفلم ييأس الذين آمنوا) عن ايمانهم مع ما رأوا من أحوالهم وذهب أكثرهم الى أن معناه أفلم يعلم الذين آمنوا (أن) أى بأنه (لو يشاء الله) أى الذى له صفات الكمال (لهدى الناس جميعا) أى الى الايمان من غير آية ولكنه تعالى لم يشأ هدايته جميع الخلائق (ولا يزال الذين كفروا) أى جميع الكفار (تصيبهم بما) أى بسبب ما (صنعوا قارعة) أى نازلة وداهية تقرعهم بأنواع البلايا تارة بالجدب وتارة بالسلب وتارة بالقتل وتارة بالاسر وغير ذلك واختلف فى الكفار على قولين قيل أراد بهم جميع الكفار لان الوقائع الشديدة التى وقعت لبعض الكفار من ذلك أوجبت حصول الغم فى قلب الكل وقيل المراد الكفار من أهل مكة والالف واللام للمعهود السابق ويدل لهذا قول ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم (أو تحل) أى تنزل نزولا ثابتا تلك القارعة (قريبا من دارهم) أى فتوهن أمرهم وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد بجيشك قريبا من دارهم مكة كما حل بالحديبية (حتى يأتى وعد الله) أى بالنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه بفتح مكة أو بالنصر على جميع الكفرة فى زمن عيسى عليه السلام فينقطع ذلك لانه لا يبقى على الارض كافر وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لان الله يجمعهم فيه فيجازيهم بأعمالهم (ان الله لا يخلف الميعاد) لامتناع الكذب فى كلامه تعالى * ولما كان الكفار يسألون هذه الآيات منه صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تعالى تسلية له وتصبيرا له

على

على سفاهة قومه (ولقد استهزئ برسل من قبلك) كما استهزئ بك (فأمليت للذين كفروا) أى أطلت المدة بتأخير العقوبة (ثم أخذتهم) بالعقوبة (فكيف كان عقاب) أى هو واقع موقعه فكذلك أفعل بمن استهزأ بك والاملاء الامهال بأن يترك مدة من الزمان فى راحة وأمن كالبهيمة على لهاقى المرعى وهذا استفهام معناه التعجب وفى ضمنه وعيد شديد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ثم انه تعالى أورد على المشركين ما يجرى مجرى الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال تعالى (أفمن هو قائم) أى رقيب (على كل نفس بما كسبت) أى عملت من خير وشر وهو الله تعالى القادر على كل الممكنات العالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات ولا بد لهذا الكلام من جواب فان من موصولة صلتها هو قائم والموصول مرفوع بالابتداء وخبره محذوف تقديره كمن ليس بهذه الصفة وهى الاصنام التى لا تنفع ولا تضر دل على هذا المحذوف قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء) ونظيره قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام الآية تقديره كمن قسا قلبه يدل عليه قوله فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله وانما حسن حذفه كون الخبر مقابلا للمبتدا وقد جاء مبينا كقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق وقوله تعالى (قل سموهم) فيه تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها والمعنى سموهم بأسمائهم الحقيقية فانهم اذا عرفت حقائقهم أنها حجارة أو غير ذلك مما هو مركز العجز ومحل الفقر عرف ما هم عليه من سخافة العقول وركاكة الآراء ثم قيل أرجعتم عن ذلك الى الاقرار بأنهم من جملة عبيده (أم تنبئونه) أى تخبرونه (بما لا يعلم) وعلمه محيط بكل شئ (فى الارض) من كونها آلهة ببرهان قاطع (أم) تسمونهم شركاء (بظاهر من القول) أى بحجة اقناعية تقال بالفم وكل ما لا يعلم فليس بشئ وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادى على نفسه بالاعجاز * ولما كان التقدير ليس لهم على شئ من هذا برهان قاطع ولا قول ظاهر بنى عليه قوله تعالى (بل زين) أى وقع التزيين بأمر من لا يرد أمره على يد من كان من شياطين الانس أو شياطين الجن (للذين كفروا مكرهم) أى أمرهم الذى أرادوا به ما يراد بالمكر من اظهار شئ وابطان غيره وذلك أنهم أظهروا أن شركاءهم آلهة حقا وهم يعلمون بطلان ذلك وليس بهم فى الباطن الا تقليد الآباء وأظهروا أنهم يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى ولتشفع لهم وهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا فصار كل ذلك من فعلهم فعل الماكر (وصدوا) غيرهم (عن السبيل) أى طريق الهدى الذى لا يقال لغيره سبيل فان غيره عدم بل العدم خير منه فهم لم يسلكوا السبيل ولا تركوا غيرهم يسلكه فضلوا وأضلوا وليس ذلك بعجيب فان الله أضلهم (ومن يضلل الله) أى الذى له الامر كله بارادة اضلاله (فما له من هاد) وقرأ ابن كثير باثبات الياء بعد الدال فى الوقف دون الوصل والباقون بغير ياء وقفا ووصلا وكذلك من واق وكذا ولا واق ولما أخبر الله تعالى بتلك الامور المذكورة بين أنه جمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بقوله تعالى (لهم عذاب فى الحيوة الدنيا) بالقتل والاسر والذم والاهانة واغتنام الاموال واللعن ونحو ذلك مما فيه غيظهم (ولعذاب الآخرة أشق) أى أشد فى المشقة بسبب القوة والشدة

وكثرة الانواع والدوام وعدم الانقطاع ثم بين تعالى ان أحدا لايقيهم من عذابه بقوله تعالى (ومالهم من الله من واق) أى مانع يمنعهم اذا أراد بهم سوألا فى الدنيا ولا فى الآخرة والواقى فاعل من الوقاية وهى الحجز عما يدفع الاذية * ولما ذكر تعالى عذاب الكفار فى الدنيا والآخرة أتبعه بذكر ثواب المتقين بقوله تعالى (مثل) أى صفة (الجنة) أى التى هى مقرهم (التى وعد المتقون) واختلف فى اعراب ذلك على أقوال الاول قال سيبويه مثل الجنة مبتدأ وخبره محذوف والتقدير فيما اقصصناه عليك مثل الجنة والثانى قال الزجاج مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا والثالث مثل الجنة مبتدأ وخبره (تجرى من تحتها الانهار) كما تقول صفة زيد أسمر والرابع الخبر (أكلها) أى ما كولها (دائم) لانه الخارج عن العادة فقد وصف الله تعالى الجنة بثلاثة أوصاف الاول تجرى من تحتها أى من تحت قصورها وأشجارها الانهار الثانى ان أكلها دائم لا ينقطع أبدا بخلاف جنة الدنيا والثالث قوله تعالى (وظلها) أى دائم ليس كظل الدنيا لا تنسخه الشمس ولا غيرها اذ ليس فيها شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول ثم انه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين تعالى أنها للمتقين بقوله تعالى (تلك) أى الجنة العالية الاوصاف (عقبى) أى آخر أمر (الذين اتقوا) أى الشرك ثم كرر الوعيد للكافرين بقوله تعالى (وعقبى) أى منتهى أمر (الكافرين النار) لاغير وفى ترتيب النظمين اطماع للمتقين واقناط للكافرين واختلف فى قوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب) على قولين الاول أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن (يفرحون بما أنزل اليك) من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والاحكام والقصص (ومن الاحزاب) أى الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار (من ينكر بعضه) وهذا قول الحسن وقتادة (فان قيل) الاحزاب منكرون كل القرآن (أجيب) بأنهم لا ينكرون كل ما فى القرآن لانه ورد فيه اثبات الله تعالى واثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الانبياء والاحزاب لا ينكرون كل هذه الاشياء والقول الثانى أن المراد بالكتاب التوراة وبأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام وأصحابه ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون من نجران وثمانية من اليمن واثنان وثلاثون من أرض الحبشة وفرحوا بالقرآن لانهم آمنوا به وصدقوه والاحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين وقيل كان ذكر الرحمن قليلا فى القرآن فى الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن تبعه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن مع كثرة ذكره فى التوراة فلما كرر الله تعالى ذكره فى القرآن فرحوا به فأنزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه يعنى مشركى مكة حين كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم قالوا ما نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة يعنى مسيلمة فأنزل الله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون * ثم انه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء اليه فى معرفة المبدا والمعاد وبينه بألفاظ قليلة فقال (قل) أى يا أكرم الخلق على الله تعالى (انما أمرت) أى وقع الى الامر الجازم الذى لاشك فيه ولا تغيير ممن له الامر كله (أن أعبد

الله) أى وحده ولذلك قال (ولا أشرك به) شيأ (اليه) وحده (أدعو واليه مآب) أى مرجعى للجزاء لا الى غيره (وكذلك) أى كما أنزلنا الكتب على الانبياء بلسانهم (أنزلناه) أى القرآن (حكما) والحكم فصل الامر على الحق (عربيا) بلسانك ولسان قومك وانما سمى القرآن حكما لان فيه جميع التكاليف والحلال والحرام والنقض والابرام فلما كان سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة وروى ان المشركين كانوا يدعون النبى صلى الله عليه وسلم الى ملة آبائه فوعده الله تعالى على متابعتهم فى تلك المذاهب بأن يصلى الى قبلتهم بعد ما حوله الله تعالى عنها بقوله تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم) أى الكفار فيما يدعونك اليه من ملتهم (بعدما جاءك من العلم) أى بأنك على الحق وأن قبلتك هى الكعبة (مالك من الله من ولى) أى ناصر (ولا واق) أى مانع من عذابه قال ابن عباس الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته* ونزل لما عير الكفار النبى صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا) أى نساء ينكحونهن فكان لسليمان ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية وكان لداود عليه السلام مائة امرأة (وذرية) أى أولادا فأنت مثلهم وكانوا يقولون أيضا لو كان رسولا من عند الله لكان أى شئ طلبناه منه من المعجزات أتى به فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله) أى بارادته لان المعجزة الواحدة كافية فى ازالة العذر والعلة وفى اظهار الحجة والبينة وأما الزائد عليها فهو مفوض الى مشيئة الله تعالى ان شاء أظهرها وان لم يشأ لم يظهرها لا اعتراض لاحد عليه فى ذلك* ولما توعدهم صلى الله عليه وسلم نزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه وتأخر ذلك عنهم قالوا لو كان نبيا صادقا لما ظهر كذبه فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (لكل أجل) أى مدة (كتاب) أى مكتوب قد أثبت فيه ان أمر كذا يكون فى وقت كذا من الثواب والعقاب والاحكام والاتيان بالآيات وغيرها اثباتا ونسخا على ما تقتضيه الحكمة* ولما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ان محمدا يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمر بخلافه غدا وما سبب ذلك الا أنه يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (يمحوا الله ما يشاء) أى محوه من الشرائع والاحكام وغيرها بالنسخ فيرفعه (ويثبت) ما يشاء اثباته من ذلك بأن يقره ويمضى حكمه كقوله تعالى ما ننسخ من آية الى قوله تعالى ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بسكون الثاء المثلثة وتخفيف الباء الموحدة والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء الموحدة *(تنبيه)* فى هذه الآية قولان أحدهما أنها عامة فى كل شئ كما يقتضيه ظاهر اللفظ وهذا مذهب عمر وابن مسعود وغيرهما قالوا ان الله يمحو من الرزق ويزيد فيه وكذا القول فى الاجل والسعادة والشقاوة والايمان والكفر وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول اللهم ان كنت كتبتنى فى أهل السعادة فأثبتنى فيها وان كنت كتبت على الشقاوة فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ومثله عن ابن مسعود وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى بعض

الآثار ان الرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فيرد الى ثلاثة أيام والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيرد الى ثلاثين سنة وروى ان الله تعالى ينزل أى أمره فى آخر ثلاث ساعات تبقى من الليل فينظر فى الساعة منهن فى أم الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو مايشاء ويثبت والقول الثانى ان هذه الآية خاصة فى بعض الاشياء دون بعض واختلفوا على هذا القول فقال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله مايشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت مايشاء منها فلا ينسخه وقال ابن عباس يمحو الله مايشاء ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة واستدل لهذا بما رواه حذيفة بن أسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال يارب أذكر أم أنثى فيقضى ربك مايشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك يارب رزقه فيقضى ربك مايشاء ويكتب الملك ثم يقول يارب أشقى أم سعيد فيكتبان فيكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد ولا ينقص وقال عطية عن ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة الله تعالى ثم يرجع لمعصية الله تعالى فيموت على ضلاله فهو الذى يمحو والذى يثبت يعمل الرجل بطاعة الله فيموت وهو فى طاعته فهو الذى يثبت وقال الحسن يمحو مايشاء أى من جاء أجله يذهب به ويثبت من لم يجئ أجله الى أجله وعن سعيد بن جبير قال يمحو مايشاء من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت مايشاء فلا يغفرها وقال عكرمة يمحو الله مايشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال تعالى فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وقال السدى يمحو الله مايشاء يعنى القمر ويثبت مايشاء يعنى الشمس بيانه قوله تعالى فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة وقال الربيع هذا فى الارواح يقبضها الله تعالى عند النوم فمن أراد موته أمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده الى صاحبه بيانه قوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها الآية وقيل ان الله تعالى يثبت فى أول كل سنة حكمها فاذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة وقيل ان الحفظة يكتبون جميع أعمال بنى آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ماليس فيه ثواب ولا عقاب وقيل هذا فى المحن والمصائب فهى مثبتة فى الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة (وعنده) تعالى (أم الكتاب) أصل الكتب والعرب تسمى كل مايجرى مجرى الاصل للشئ أما ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة وكل مدينة فهى أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلا لجميع الكتب وفيه قولان الاول أنه اللوح المحفوظ الذى لا يغير ولا يبدل وجميع حوادث العالم العلوى والسفلى يثبت فيه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كان الله ولا شئ ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق الى قيام الساعة والقول الثانى ان أم الكتاب أصله الذى لا يغير منه شئ وهو الذى كتب فى الازل وقال ابن عباس فى رواية عكرمة هما كتابان كتاب سوى أم الكتاب يمحو مايشاء منه ويثبت وعنده أم الكتاب لا يغير منه شئ وعلى هذا فالكتاب الذى يمحو منه ويثبت هو الكتاب الذى تكتبه الملائكة على الخلق وعن ابن

عباس

عباس قال ان الله لوحا محفوظا مسيرته خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة لله فيه في كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ما هو خالق وما خلقه * ولما كان من مقترحاتهم وطلباتهم استهزاء استعجال السيئة مما توعدوا به وكانت النفس ربما تمنت وقوع ذلك البعض واثباته ليؤمن به غيره تقريبا لفصل النزاع قال تعالى (وإما نرينك) يا محمد وأكده بما كيدا للاعلام بأنه لا حرج عليه في ضلال من ضل بعد ابلاغه (بعض الذي نعدهم) أي من العذاب وأنت حي مما تريد أو تريد أصحابك قبل وفاتك فذلك شافيك من أعدائك والوعد الخبر عن خير مضمون والوعيد الخبر عن شر مضمون والمعنى ههنا عليه وسماه وعدا التنزيلهم اياه في طلب نزوله منزلة الوعد (أو نتوفينك) أي قبل أن نريك ذلك فلا لوم عليك ولا عتب (فانما عليك البلاغ) أي ليس عليك الا تبليغ الرسالة اليهم وليس عليك أن تجازيهم ولا أن تأتيهم بالمقترحات والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ وإما فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة (وعلينا الحساب) أي علينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم فلا تحتفل باعراضهم ولا تستعجل بعذابهم *(تنبيه)* قال أبو حيان هنا شرطان لان المعطوف على الشرط شرط فيقدر لكل شرط ما يناسب أن يكون جزاء مرتبا عليه والتقدير وإما نرينك بعض الذي نعدهم فذلك شافيك من أعدائك وإما نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب وقد مرت الاشارة الى ذلك ولما وعد الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يريه بعض ما يعده أو يتوفاه قبل ذلك بين تعالى ان آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت بقوله تعالى (أولم يروا) أي كفار مكة (أنا نأتي الارض) أي نقصد أرض هؤلاء الكفرة (ننقصها من أطرافها) بما يفتح الله تعالى على المسلمين من ديار الشرك أرضا بعد أرض حوالي أرضهم هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة وقال مجاهد هو خراب الارض وقبض أهلها وعن عكرمة قال هو قبض الناس وعن الشعبي مثله وعطاء وجماعة نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء ويؤيد هذا ما رواه عمرو بن العاص أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا وقال الحسن قال عبد الله بن مسعود عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله وقال علي انما مثل الفقهاء كمثل الانف اذا قطعت لم تعد وقال سليمان لا يزال الناس بخير ما بقي الاول حتى يتعلم الآخر واذا هلك الاول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس وقيل لسعيد بن جبير ما علامة هلاك الناس قال هلاك علمائهم ثم أثبت تعالى لنفسه أمرا كليا فقال (والله) أي الملك الاعلى (يحكم) في خلقه بما يريد لانه (لا معقب) أي راد لان التعقيب رد الشئ بعد فصله (لحكمه) وقد حكم للاسلام بالاقبال وعلى الكفر بالادبار وذلك كائن لا يمكن تغييره *(تنبيه)* محل جملة لا معقب لحكمه النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة تريد حاسرا (وهو) عز

وجل مع تمام القدرة (سريع الحساب) فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والاجلاء فى الدنيا وقال ابن عباس يريد سريع الانتقام يعنى حسابه للمجازاة بالخير والشر فجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بايصال الثواب اليهم وقد تقدم الكلام فى معنى سريع الحساب قبل هذا وقوله تعالى (وقد مكر الذين من قبلهم) أى من كفار الامم الماضية قبل مكروا بأنبيائهم مثل نمروذ مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى فيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (فلله المكر جميعا) أى أن مكر جميع الماكرين حاصل بتخليقه وارادته لانه تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد فالمكر لايضر الا باذنه ولا يؤثر الا بتقديره فيه أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم فكأنه قيل اذا كان حدوث المكر من الله تعالى وتأثيره فى الممكور به من الله وجب أن لا يكون الخوف الا من الله تعالى لا من أحد من المخلوقين وذهب بعض المفسرين الى أن المعنى فلله جزاء المكر وذلك أنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم قال الواحدى والاول أظهر القولين بدليل قوله تعالى (يعلم ما تكسب كل نفس) أى ان اكساب العباد معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة لعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله فيجازيهم على أعمالهم وفى ذلك وعيد وتهديد للكفار الماكرين ثم انه تعالى أكد ذلك التهديد بقوله تعالى (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) أى العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة ألهم أم للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالالف بعد الكاف على الافراد والكاف مفتوحة والفاء مكسورة مخففة والباقون بالالف بعد الفاء على الجمع فالكاف مضمومة والفاء مفتوحة مشددة فمن قرأ بالافراد أراد الجنس كقوله تعالى ان الانسان لفى خسر ليوافق قراءة الجمع وقال عطاء المستهزؤن وهم خمسة والمقتسمون وهم ثمانية وعشرون وقال ابن عباس يريد أبا جهل قال الرازى والاول هو الصواب أى ليوافق قراءة الجمع كما مر * ولما تقدم قوله تعالى ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه عطف عليه بعد شرح ما استتبعه قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) أى لكونك لا تأتى بمقترحاتهم مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل يوما انه قادر عليها فكأنه قيل فما أقول لهم فقال تعالى (قل) لهم (كفى بالله) الذى له الاحاطة الكاملة (شهيدا) أى بليغ العلم فى شهادته بالاطلاع على ما ظهر وما بطن (بينى وبينكم) يشهد بتأييد رسالتى وتصحيح مقالتى بما أظهر لى من الآية وأوضح من الدلالة بهذا الكتاب ويشهد بتكذيبهم بادعائكم القدرة على المعارضة وترككم لها عجزا وهذا أعلى مراتب الشهادة لان الشهادة قول يفيد غلبة الظن بان الامر كما شهد به والمعجزة فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله واختلف فى قوله تعالى (ومن عنده علم الكتاب) فروى العوفى عن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى أى أن كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالانجيل علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من عند الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيهما شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم والثانى

انّ المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا وهم عبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري وقال الحسن ومجاهد والزجاج وسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى قال الحسن لا والله لا يعني الا الله والمعنى كفى بالله الذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح الا هو شهيدا بيني وبينكم وهذا أظهر كما استظهره البقاعي وان كان عطف الصفة على الموصوف خلاف الاصل اذ يقال شهد بهذا زيد الفقيه لا زيد والفقيه لانه جائز في الجملة وقيل معناه أن علم أنّ القرآن الذي جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب وعن الامم الماضية فمن علمه بهذه الصفة كان شهيدا بيني وبينكم والله أعلم بمراده وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الرعد أعطي من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله حديث موضوع

(سورة ابراهيم عليه السلام مكية)

الا قوله تعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله الآيتين وهي اثنتان وخمسون آية وعدد كلماتها ثمانمائة واحدى وثلاثون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم) قوله تعالى (الر) تقدم الكلام عليها أول يونس وهود وقوله تعالى (كتاب) خبر لمبتدا محذوف أي هذا القرآن كتاب أو الر ان قلنا انها مبتدا والجملة بعده صفة ويجوز أن يرتفع بالابتداء وخبره الجملة بعده وجاز الابتداء بالنكرة لانها موصوفة تقديرا تقديره كتاب أي كتاب يعني عظيما من بين الكتب السماوية (أنزلناه اليك) يا أشرف الخلق عند الله تعالى (لتخرج الناس) أي عامة قومك وغيرهم بدعائك اياهم (من الظلمات) أي الكفر وأنواع الضلالة (الى النور) أي الايمان والهدى قال الرازي والآية دالة على أن طرق الكفر والبدع كثيرة وأن طريق الحق ليس الا واحدا لانه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الايمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على أن طرق الجهل والكفر كثيرة وأن طريق العلم والايمان ليس الا واحدا *(تنبيه)* القائلون بأن معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها الا من تعليم الرسول احتجوا بهذه الآية وذلك يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل الا من طريق التعليم وأجيب بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كالمنبه وأما المعرفة فهي انما تحصل من الدليل وقوله تعالى (باذن ربهم) متعلق بالاخراج أي بتوفيقه وتسهيله ويبدل من الى النور (الى صراط) أي طريق (العزيز) أي الغالب (الحميد) أي المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد وفي قوله (الله) قراءتان فقرأ نافع وابن عامر برفع الهاء وصلا وابتداء على انه مبتدأ خبره (الذي له ما في السموات وما في الارض) أي ملكا وخلقا وقرأ الباقون بالجر على أنه بدل أو عطف بيان وما

بعده صفة *(تنبيه)* ذهب جماعة من المحققين الى أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم لذات الله سبحانه وتعالى وذهب قوم آخرون الى أنه لفظ مشتق قال الرازى والحق عندنا هو الاول لان الامة لما اجتمعت على أن قولنا لا اله الا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم وقد قال تعالى هل تعلم له سميا أى هل تعلم من اسمه الله غير الله وذلك يدل على قولنا الله اسم لذاته المخصوصة ولذا استشكل قراءة الجر اذ الترتيب الحسن أن يذكر الاسم ثم يذكر عقبه الصفات كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور وأما الخالق الله فلا يحسن وأجيب عن ذلك بأنه لا يبعد أن تذكر الصفة أولا ثم يذكر الاسم ثم تذكر الصفة مرة أخرى كما يقال مررت بالامام الاجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله تعالى صراط العزيز الحميد الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض والآية تفيد حصر ما فى السموات وما فى الارض له لا لغيره وذلك يدل على أنه لا مالك الا الله ولا حاكم الا الله وأنه تعالى خالق لاعمال العباد لانها حاصلة فى السموات والارض فوجب القول بان أفعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله واذا ثبت أنها مقدورة لله وجب وقوعها بقدرة الله والا لكان العبد قد منع الله تعالى من ايقاع مقدوره وذلك محال ثم انه تعالى لما ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال تعالى (وويل للكافرين) أى الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذى له ما فى السموات وما فى الارض وعبدوا من لا يملك شيأ البتة بل هو مملوك لله تعالى لانه من جملة ما فى السموات وما فى الارض وويل مبتدأ وجاز الابتداء به لانه دعاء كسلام عليكم وللكافرين خبره وقوله تعالى (من عذاب شديد) أى يعذبهم فى الآخرة متعلق بويل ولا يضر الفصل بالخبر ثم وصفهم بقوله تعالى (الذين يستحبون) أى يختارون (الحياة الدنيا على الآخرة) أى يؤثرونها عليها (ويصدون عن سبيل الله) أى يمنعون الناس عن قبول دين الله (ويبغونها) أى السبيل (عوجا) أى معوجة والاصل ويبغون لها زيغا وميلا فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير (أولئك) أى الموصوفون بهذه الصفات (فى ضلال بعيد) أى عن الحق واسناد البعد الى الضلال اسناد مجازى لان البعيد هم الضلال بميلهم عن الباقى الى الفانى * ثم ذكر ما يجرى مجرى تكميل النعمة والاحسان فى الوجهين بقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول) أى فى زمن من الازمان (الا بلسان) أى لغة (قومه) أما بالنسبة الى الرسول فلانه تعالى بين أن سائر الانبياء كانوا مبعوثين الى قومهم خاصة وأما أنت يا محمد فمبعوث الى عامة البشر وكان هذا الانعام فى حقك أكمل وأفضل وأما بالنسبة الى عامة الخلق فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولا الا بلسان أولئك القوم (ليبين لهم) ما أمروا به فيفهموه عنه بيسر وسرعة لان ذلك أسهل لفهم أسرار تلك الشريعة والوقوف على حقائقها وأبعد عن الغلط والخطا *(تنبيه)* تمسك طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية بهذه الآية على أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرسل لغير العرب من وجهين الاول ان القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة الا العرب وحينئذ لا يكون القرآن حجة الا عليهم الثانى ان قوله تعالى

وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه المراد بذلك اللسان لسان العرب وذلك يدل على أنه مبعوث الى العرب فقط ورد عليهم بأن المراد بالقوم أهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين لان التحدى كما وقع مع الانس وقع مع الجن بدليل قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا * ثم بين سبحانه وتعالى ان الاضلال والهداية بمشيئته بقوله تعالى (فيضل الله من يشاء) اضلاله (ويهدى من يشاء) هدايته فانه تعالى هو المضل الهادى وليس على الرسل الا التبليغ والبيان والله تعالى هو الهادى المضل يفعل ما يشاء (وهو العزيز) فى ملكه فلا راد له عن مشيئته (الحكيم) فى صنعه فلا يهدى ولا يضل الا لحكمة * ولما بين تعالى أنه انما أرسل محمدا عليه الصلاة والسلام الى الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور وذكر كمال انعامه عليه وعلى قومه فى ذلك الارسال وفى تلك البعثة أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الانبياء الى أقوامهم وكيفية معاملة أقوامهم لهم ليكون ذلك تصبيرا له صلى الله عليه وسلم على أذى قومه وارشادا له الى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام فقال (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) أى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر واظلال الجبل والمن والسلوى وسائر معجزاته (أن أخرج قومك) أى بنى اسرائيل (من الظلمات) أى الكفر والضلال (الى النور) أى الايمان والهدى * (تنبيه) * يجوز أن تكون أن مصدرية أى بأن أخرج والباء فى بآياتنا للحال وهذه للتعدية ويجوز أن تكون مفسرة للرسالة بمعنى أى ويكون المعنى أى أخرج قومك من الظلمات أى قلنا له أخرج قومك كقوله تعالى وانطلق الملأ منهم أن امشوا (وذكرهم بأيام الله) قال ابن عباس بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله فى الامم السالفة يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم وفى المثل من سره يوما ره قال الرازى معناه من رأى فى يوم سروره بمصرع غيره رآه غيره فى يوم آخر بمصرع نفسه وقال تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمنوا بالرسل فيما سلف من الايام والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأمر الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل فيما سلف من الايام مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب ليرغبوا فى الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب وقيل بأيام الله فى حق موسى أن يذكر قومه بأيام المحنة والبلاء حين كانوا تحت أيدى القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد أن كانوا مملوكين (ان فى ذلك) أى التذكير العظيم (لآيات) على وحدانية الله تعالى وعظمته (لكل صبار) أى كثير الصبر على الطاعة وعن المعصية (شكور) أى كثير الشكر للنعم وانما خص الصبور والشكور بالاعتبار بالآيات وان كان فيها عبرة للكل لانهم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات فكأنها ليست لغيرهم فهو كقوله تعالى هدى للمتقين فان

الانتفاع لا يمكن حصوله الا لمن يكون صابرا شاكرا أما من لا يكون كذلك فلا ينتفع بها البتة
* ولما أمر الله تعالى موسى أن يذكرهم بأيام الله حكى عنه أنه ذكرهم بها بقوله تعالى (واذ قال
موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) وقوله (اذ أنجاكم من آل فرعون) ظرف للنعمة بمعنى
الانعام أي اذكروا انعام الله عليكم في ذلك الوقت (يسومونكم سوء العذاب) بالاستعباد
(ويذبحون) أي تذبيحا كثيرا (أبناءكم) أي المولودين (ويستحيون) أي يستبقون (نساءكم)
أحياء وذلك كقول بعض الكهنة ان مولودا يولد في بني اسرائيل يكون سبب زوال ملك
فرعون (فان قيل) لم ذكر تعالى في سورة البقرة يذبحون بغير واو وذكره هنا مع الواو (أجيب)
بأنها انما حذفت في سورة البقرة لانها تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفي التفسير
لا يحسن ذكر الواو وهنا أدخل الواو فيه لانه نوع آخر لانهم كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب
غير التذبيح فليس تفسيرا للعذاب (وفي ذلكم بلاء) أي انعام وابتلاء (من ربكم عظيم) لان
الابتلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ومنه قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (فان
قيل) تذبيح الابناء فيه بلاء وأما استحياء النساء فكيف فيه ابتلاء (أجيب) بأنهم كانوا
يستعبدونهن ويتركونهن تحت أيديهم كالاماء فكان ذلك ابتلاء وقوله تعالى (واذ) أي
واذكروا اذ (تأذن ربكم) فهو أيضا من كلام موسى عليه السلام وتأذن بمعنى أذن كتوعد
وأوعد غير أنه أبلغ لما في التفعل من معنى التكلف والمبالغة (لئن شكرتم) يا بني اسرائيل نعمتي
بالتوحيد والطاعة (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة ولاضاعفن لكم ما آتيتكم فان الشكر قيد
الموجود وصيد المفقود والشكر عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس
على هذه الطريقة ثم قد يرتقي العبد عن تلك الحالة الى أن يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات
الى النعمة ولا شك ان منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته وأما الزيادة
في النعمة فهي على قسمين روحانية وجسمانية فالاولى هي أن الشاكر يكون أبدا في مطالعة
أقسام نعمة الله تعالى وأنواع فضله وكرمه وأما الثانية فلان الاستقراء دل على أن كل من كان
اشتغاله بشكر نعم الله أكثر كان وصول نعم الله اليه أكثر نسأل الله تعالى القيام بواجب شكر
النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه واحسانه ويفعل ذلك باهلينا وأحبابنا * ثم انه تعالى لما ذكر
ما يستحقه الشاكر ذكر ما يستحقه مقابله بقوله تعالى (ولئن كفرتم) أي جحدتم النعمة بالكفر
والمعصية لاعذبنكم دل عليه (ان عذابي لشديد) أي لمن كفر نعمتي ولا يشكرها ومن عادة
أكرم الاكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد * ولما بين موسى أن الاشتغال بالشكر
يوجب تزايد الخيرات في الدنيا والآخرة والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد
وحصول الآفات في الدنيا والآخرة بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود الا الى
صاحب الشكر وصاحب الكفران وأما المعبود والمشكور فانه متعال عن أن ينتفع بالشكر
أو يستضر بالكفران فلا جرم قال تعالى (وقال موسى ان تكفروا أنتم) يا بني اسرائيل (ومن
في الارض) وأكده بقوله تعالى (جميعا) أي من الثقلين فانما ضرر ذلك يعود على أنفسكم

وحرمتموها الخير كله (فان الله لغني) عن جميع خلقه فلا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينقص بكفر الكافرين (حميد) أي محمود في جميع أفعاله لانه فيها متفضل عادل وقوله تعالى (ألم يأتكم) يا بني اسرائيل (نبأ) أي خبر (الذين من قبلكم قوم نوح) وكانوا ملء الارض (و) نبأ (عاد) قوم هود وكانوا أشد الناس أبدانا (و) نبأ (ثمود) قوم صالح وكانوا أقوى الناس على نحت الصخور وبناء القصور يحتمل أن يكون من كلام موسى أو كلام مبتدأ من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم وهو استفهام تقرير وقوله تعالى (والذين من بعدهم) أي بعد هؤلاء الامم الثلاثة (لا يعلمهم الا الله) فيه قولان الاول أن يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم الا الله تعالى لان المذكور في القرآن جملة فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل والقول الثاني ان المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلا كذبوا رسلا لم نعرفهم أصلا ولا يعلمهم الا الله ولذلك كان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعني أنهم يدعون علم الانساب الى آدم عليه السلام وقد نفى الله علمها عن العباد وعن ابن عباس أنه قال بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون ونظير هذه الآية قوله تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا وقوله تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وعنه صلى الله عليه وسلم أنه كان في انتسابه لا يجاوز معد بن عدنان بن أدد وقال تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعلموا من النجوم ما تستدلون به على الطريق قال الرازي والقول الثاني أقرب ولما (جاءتهم) أي هؤلاء الاقوام الذين تقدم ذكرهم (رسلهم بالبينات) أي الدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات أتوا بأمور أولها ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (فردوا) أي الامم (أيديهم في أفواههم) وفي ذلك احتمالات الاول ان الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها غيظا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ والثاني أنهم لما سمعوا كلام الانبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فيضع يده على فيه والثالث أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك الى الانبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث والرابع أنهم أشاروا بأيديهم الى ألسنتهم والى ما تكلموا به من قولهم الكفر كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) أي على زعمكم أي ان هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره اقناطا لهم من التصديق هذا هو الامر الثاني الذي أتوا به وقيل الضمير في ردوا راجع للرسل عليهم السلام وفيه وجهان أحدهما أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوا ويقطعوا الكلام والثاني ان الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم فان من ذكر كلاما عند قوم وأنكروه وخافهم فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه وغرضه أن يعرفهم أنه لا يعود الى ذلك الكلام البتة والامر الثالث قولهم (وانا لفي شك مما) أي شيء (تدعوننا) أيها الرسل (اليه) أي من الدين (مريب) أي موجب الريبة أي موقع في الريبة والشبهة والريبة قلق النفس وان لا تطمئن الى الامر الذي

يشك فيه (فان قيل) انهم قالوا أولا انا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانيا وانا لفي شك والشك دون الكفر (أجيب) بأنهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل كانهم حصل لهم شبهة توجب الشك لهم فقالوا ان لم ندع الجزم واليقين في كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم وعلى التقديرين فلا سبيل الى الاعتراف بنبوتكم * ولما قال هؤلاء الكفار للرسل ذلك (قالت) لهم (رسلهم) مجيبين (أفي الله شك) أي هل تشكون في الله وهو استفهام انكار أي لاشك في توحيده للدلائل الظاهرة عليه منها قوله تعالى (فاطر) أي خالق (السموات والارض) أي وما فيهما من الانفس والارواح والارزاق وقرأ أبو عمرو رسلهم هنا وفيما مر في جاءتهم رسلهم باسكان السين والباقون بالرفع * ولما أقاموا الدليل على وجود الله تعالى وصفوه بكمال الرحمة بقولهم (يدعوكم) أي الى الايمان يبعثنا وقولهم (ليغفر لكم) اللام متعلقة بيدعو أي لاجل غفران ذنوبكم كقوله

دعوت لما نالني مسورا * فلبى فلبي يدى مسور

ويجوز أن تكون معدية كقوله دعوتك لزيد والتقدير يدعوكم الى غفران ذنوبكم وقوله (من ذنوبكم) قال السيوطي من زائدة فان الاسلام يغفر به ما قبله أو تبعيضية لاخراج حقوق العباد اه أي والمغفور لهم ما بينهم وبين الله تعالى قال الرازي والعاقل لا يجوز له المصير الى كلمة من كلام الله تعالى بأنها زائدة من غير ضرورة اه وقال في الكشاف ما علمته جاء هكذا الا في خطاب الكافرين كقوله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال في خطاب المؤمنين ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما يوقفك عليه الاستقراء وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين وأن لا يسوى بين الفريقين في المعاد اه قال الرازي وأما قول الكشاف فهو من باب الظلمات لان هذا التبعيض ان حصل فلا حاجة الى ذكر هذا الجواب وان لم يحصل كان هذا الكلام فاسدا (ويؤخركم) أي ولا يفعل بكم فعل من تعهدون من الملوك في المعاجلة في الاهلاك لمن خالفهم بل يؤخركم (الى أجل مسمى) أي الى وقت قد سماه وبين مقداره يبلغكموه ان أنتم آمنتم به والا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ان أنتم ما آمنتم (فان قيل) أليس قال تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فكيف قال هنا ويؤخركم الى أجل مسمى (أجيب) بأن الاجل على قسمين معلق ومبرم (قالوا) أي الامم مجيبين للرسل (ان) أي ما (أنتم) أيها الرسل (الا بشر مثلنا) أي لا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا ولو ارسل الله تعالى الى البشر رسلا لجعلهم من جنس أي من البشر في زعم القائلين أفضل وقول الكشاف وهم الملائكة جار على مذهبه (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) أي ما تريدون بقولكم هذا الا صدنا عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها (فأتونا بسلطان مبين) أي بحجة ظاهرة على صدقكم * ولما حكى الله تعالى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة حكى عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام جوابهم عنها بقوله تعالى (قالت لهم رسلهم) مجيبين لهم (ان) أي ما (نحن

الا بشر مثلكم) كما قلتم فسلموا أن الامر كذلك لكنهم بينوا أن التماثل فى البشرية لا يمنع من اختصاص بعض بمنصب النبوة بقولهم (ولكن الله يمن) أى يتفضل (على من يشاء من عباده) بالنبوة والرسالة فيصطفى من يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته (وما كان) أى ماصح واستقام (لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله) أى الا بأمره لانا عبيد مربوبون فليس الينا الاتيان بالآيات ولا تستبد به استطاعتنا حتى نأتيكم بما اقترحتموه وانما هو أمر متعلق بمشيئة الله تعالى فله أن يخص كل نبى بنوع من الآيات (وعلى الله فليتوكل) بأمر حتم (المؤمنون) أى يثقوا به فلا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت الى تهديدكم فان توكلنا على الله واعتمادنا على فضل الله فان الروح متى كانت مشرفة بالمعارف الالهية مشرقة بأضواء علم الغيب قلما تبالى بالاحوال الجسمانية وقلما تقيم لها وزنا فى حالتى السراء والضراء فلهذا توكلوا على الله وعولوا على فضله وقطعوا أطماعهم عمن سواه وعمموا الامر للاشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا ألا ترى الى قولهم (وما لنا أن لا نتوكل على الله) أى أى عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه (وقد هدانا سبلنا) أى وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد فان من فاز بشرف العبودية ووصل الى مقام الاخلاص والمكاشفة يقبح عليه أن يرجع فى أمر من الامور الى غير الحق وفى هذه الآية دلالة على أنه تعالى يعصم أولياءه والمخلصين فى عبوديته عن كيد أعدائهم ومكرهم وقرأ أبو عمرو بسكون الباء والباقون بالرفع وكذلك لرسلهم سكن أبو عمرو السين ورفعها الباقون ثم قالوا (ولنصبرن على ما آذيتمونا) فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات والحق لا بد وأن يصير غالبا قاهرا والباطل لا بد وأن يصير مغلوبا مقهورا ثم قالوا (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) فان قيل أى فرق بين التوكلين (أجيب) بأن الاول لاستحداث التوكل والثانى طلب دوامه أى فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن ايمانهم * ولما حكى الله تعالى عن الانبياء عليهم السلام انهم اكتفوا فى دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته حكى عن الكفار أنهم بالغوا فى السفاهة بقوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم) مستهينين لمن قصروا النجاة هم عليه (لنخرجنكم من أرضنا) أى التى لنا الآن الغلبة عليها (أو لتعودن فى ملتنا) أى حلفوا ليكونن أحد الامرين اما اخراجكم أيها الرسل واما عودكم الى ملتنا أى ديننا (فان قيل) قد يفهم هذا بظاهره أنهم كانوا على ملتهم قبل ذلك (أجيب) بأن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير فى كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد يقولون ما عدت أراه عاد لا يكلمنى ما عاد لفلان مال وقد أجمعت الامة على ان الرسل من أول الامر انما نشؤا على التوحيد لا يعرفون غيره ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن معه فغلبوا الجماعات على الواحد وقيل أو لتعودن فى ملتنا أى الى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عند ذكر معايبه وعدم التعرض له بالطعن والقدح * ولما ذكر الكفار هذا الكلام قال تعالى (فأوحى اليهم) أى الرسل (ربهم) وقوله تعالى (لنهلكن الظالمين) أى الكافرين حكاية تقتضى اضمار

القول أوأجرى الايحاء مجرى القول لانه ضرب منه (ولنسكننكم الارض) أى أرضهم (من بعدهم) أى بعد هلاكهم ونظيره قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها وقوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم قال الزمخشرى وعن النبى صلى الله عليه وسلم من آذى جاره ورثه الله داره قال ولقد عاينت هذا فى مدة قريبة كان لى خال يظلمه عظيم القرية التى أنا فيها ويؤذينى فيه فمات ذلك العظيم وملكنى الله ضيعته فنظرت يوما الى أبناء خالى يترددون منها ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثتهم به وسجدنا شكرا لله تعالى (ذلك) أى النصر وايراث الارض (لمن خاف مقامى) أى موقفى وهو موقف الحساب لان ذلك الموقف موقف الله الذى يوقف فيه عباده يوم القيامة ونظيره وأما من خاف مقام ربه وقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقيل ذلك لمن خاف مقامى أى خافنى فالمقام مقحم مثل ما يقال سلام على المجلس العالى والمراد السلام على فلان (وخاف وعيد) قال ابن عباس ما أوعدت من العذاب وهذا يدل على أن الخوف من الله غير الخوف من وعيده لان العطف يقتضى المغايرة وفى تفسير قوله تعالى (واستفتحوا) قولان أحدهما طلب الفتح أى واستنصروا الله تعالى على أعدائهم وهو كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح والثانى الفتح الحكم والقضاء أى واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم وهو مأخوذ من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فعلى القول الاول المستفتح هم الرسل لانهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من ايمانهم قال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقال موسى ربنا اطمس على أموالهم وقال لوط انصرنى على القوم المفسدين وعلى القول الثانى قال الرازى فالاولى أن يكون المستفتح هم الامم وذلك أنهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ومنه قول كفار قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وكقول آخرين ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين (وخاب) أى خسر وهلك (كل جبار) أى متكبر عن طاعة الله وقيل هو الذى لا يرى فوقه أحدا وقيل هو المتعظم فى نفسه المتكبر على اقرانه واختلفوا فى قوله تعالى (عنيد) فقال مجاهد معاند للحق ومجانبه وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذى يأبى أن يقول لا اله الا الله وقيل هو المعجب بما عنده * ولما حكم تعالى على الكافر بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا وصف كيفية عذابه بأمور الاول قوله تعالى (من ورائه) أى امامه (جهنم) أى هو صائر اليها قال أبو عبيدة هو من الاضداد وقال الشاعر

عسى الكرب الذى أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب

ويقال أيضا الموت وراء كل أحد وقال تعالى وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا أى امامهم وقال ثعلب هو اسم لما توارى عنك سواء كان خلفك أم قدامك فيصح اطلاق لفظ الوراء على خلف وقدام وقال ابن الانبارى وراء بمعنى بعد قال الشاعر * وليس وراء الله للخلق مهرب ومعنى الآية على هذا ان الكافر بعد الخيبة يدخل جهنم الامر الثانى ماذكره تعالى بقوله

(ويسقى) أى فى جهنم (من ماء صديد) وهو ما يسيل من جوف أهل النار مختلطا بالقيح والدم جعل ذلك شراب أهل النار وقال محمد بن كعب هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر (فان قيل) علام عطف ويسقى (أجيب) بأنه عطف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد (يتجرعه) أى يتكلف أن يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته وحرارته ونتنه (ولا يكاد يسيغه) أى ولا يقدر على ابتلاعه قال الزمخشرى دخل كاد للمبالغة يعنى ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الاساغة كقوله تعالى لم يكد يراها أى لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها (فان قيل) كيف الجمع على هذا الوجه بين يتجرعه ولا يكاد يسيغه (أجيب) بجوابين أحدهما أن المعنى ولا يسيغ جميعه كأنه يتجرع البعض وما أساغ الجميع والثانى ان الدليل الذى ذكرناه دل على وصول ذلك الشراب الى جوف ذلك الكافر لان ذلك ليس باساغة لان الاساغة فى اللغة اجراء الشراب فى الحلق واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه أى لا يستطيبه ولا يشربه شربا بمرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفى المقاربة الامر الثالث ما ذكره تعالى بقوله تعالى (ويأتيه الموت) أى أسبابه المقتضية له من أنواع العذاب (من كل مكان) أى من سائر الجهات وقيل من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وابهام رجله (وما هو بميت) فيستريح وقال ابن جريج تتعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى مكان من جوفه فتنفعه الحياة الامر الرابع ما ذكره تعالى بقوله تعالى (ومن ورائه) أى ومن بين يديه بعد ذلك العذاب (عذاب غليظ) أى شديد كل وقت يستقبله أشد مما قبله وقيل هو الخلود فى النار وقيل هو قطع الانفاس وحبسها فى الاجساد * ولما ذكر تعالى أنواع عذابهم بين بعده ان سائر أعمالهم تصير باطلة ضائعة وذلك هو الخسران الشديد بقوله تعالى (مثل) أى صفة (الذين كفروا بربهم أعمالهم) أى الصالحة كصدقة وصلة رحم وفك أسير واقراء ضيف وبر والد فى عدم الانتفاع بها (كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) اى شديد هبوب الريح فجعلته هباء منثورا لا يقدر عليه كما قال تعالى (لا يقدرون) أى الكفار يوم الجزاء (مما كسبوا) أى عملوا فى الدنيا (على شئ) أى لا يجدون لهم ثوابا لفقد شرطه وهو الايمان وقرأ نافع الرياح بالجمع والباقون بالافراد (ذلك) اشارة الى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون (هو الضلال البعيد) أى الخسران الكبير لان أعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها * (تنبيه) * فى ارتفاع قوله تعالى مثل أوجه أحدها وهو مذهب سيبويه أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا وتكون الجملة من قوله تعالى أعمالهم كرماد مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد والثانى وهو مذهب الفراء التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادا على ذكره بعد المضاف اليه وهو قوله تعالى أعمالهم ومثله قوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة الثالث أن يكون التقدير صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد كقوله صفة

زيد عرضه مصون وماله مبذول الرابع أن تكون أعمالهم بدلا من قوله مثل الذين كفروا والتقدير مثل أعمالهم وقوله تعالى كرماد هو الخبر وقيل غير ذلك وقوله تعالى (ألم تر) أى تنظر خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل واحد من الكفرة على الالتفات (أن الله خلق السموات) على عظمها وارتفاعها (والارض) على تباعد أقطارها واتساعها وقوله تعالى (بالحق) أى بالحكمة والوجه الذى يحق أن تخلق عليه متعلق بخلق وقرأ حمزة والكسائى بألف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وخفض الارض والباقون بغير ألف بعد الخاء وفتح اللام والقاف ونصب الارض (ان يشأ يذهبكم) أيها الناس (ويأت) بدلكم (بخلق جديد) أطوع منكم رتب ذلك على كونه خالق السموات والارض استدلالا به عليه فان من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم قدر أن يبدلهم بخلق آخر ولم يمتنع عليه كما قال تعالى (وما ذلك على الله بعزيز) أى بممتنع فانه تعالى قادر بذاته ولا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه كان حقيقا أن يؤمن به ويعبد رجاء ثوابه وخوفا من عقابه يوم الجزاء * ولما ذكر تعالى أصناف عذاب هؤلاء الكفار وذكر عقبه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر كيفية مجادلتهم عند تمسك أتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عندهم بقوله تعالى (وبرزوا) أى الخلائق من قبورهم (لله جميعا) والتعبير فيه وفيما يأتى بالماضى وان كان معناه الاستقبال لتحقق وقوعه لان كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة فصار كأنه قد حصل ودخل فى الوجود ونظيره ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار * (تنبيه) * البروز فى اللغة الظهور بعد الاستتار وهو فى حق الله تعالى محال فلا بد من تأويله وهو من وجهين الاول أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عن أنفسهم وعلموا أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية الثانى أنهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله تعالى وحكمه * ثم حكى الله تعالى عنهم أن الضعفاء يقولون للرؤساء هل تقدرون على دفع عذاب الله تعالى عنا بقوله تعالى (فقال الضعفاء) أى الاتباع جمع ضعيف يريد به ضعفاء الرأى (للذين استكبروا) أى المتبوعين الذين طلبوا الكبر وادعوه فاستغووهم به حتى تكبروا على الرسل وقوله تعالى (انا كنا لكم تبعا) يصح أن يكون مصدرا نعت به للمبالغة أو على اضمار مضاف وأن يكون جمع تابع أى تابعين لكم فى تكذيب الرسل فكنتم سبب ضلالنا وقد جرت عادة الاكابر بالدفع عن أتباعهم المساعدين لهم على أباطيلهم (فهل أنتم) أى فى هذا اليوم (مغنون) أى دافعون (عنا من عذاب الله) أى من انتقامه (من شئ) فان قيل فما الفرق بين من فى عذاب الله وبين من فى شئ (أجيب) بأن الاولى للتبيين والثانية للتبعيض كأنه قيل هل أنتم مغنون عنا بعض الشئ الذى هو من بعض عذاب الله ويجوز أن يكونا للتبعيض معا بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شئ هو بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا أنهم قالوا (لو هدانا الله) أى الذى له صفات الكمال (لهديناكم) أى لو أرشدنا الله تعالى لارشدناكم ودعوناكم الى الهدى ولكنه لم يهدنا فضللنا

وكنتم لنا تبعا فأضللناكم ولما كان الموجب لقولهم هذا الجزع قالوا (سواء علينا) أى نحن وأنتم (أجزعنا أم صبرنا) أى مستو علينا الجزع والصبر والجزع أبلغ من الحزن لانه يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه (مالنا من محيص) أى منجى ومهرب مما نحن فيه من العقاب * (تنبيه) * يحتمل أن يكون هذا من كلام المتبوعين وأن يكون كلام الفريقين ويؤيد الثانى ماروى أنهم يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون ذلك وقال محمد بن كعب القرظى بلغنى أن أهل النار استغاثوا بالخزنة كما قال الله تعالى وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردّت الخزنة عليهم أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردّت الخزنة عليهم ادعوا وما دعاء الكافرين الافى ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا يامالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما واليوم كألف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم ماكثون فلما أيسوا مما عنده قال بعضهم لبعض ذلك ولما ذكر تعالى المناظرة التى وقعت بين الرؤساء والاتباع من كفرة الانس أردفها بالمناظرة التى وقعت بين الشيطان وبين اتباعه بقوله تعالى (وقال الشيطان) الذى هو أول المتبوعين فى الضلال ورأس المضلين والمستكبرين (لما قضى الامر) أى أحكم وفرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أخذ أهل النار فى لوم ابليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيبا قال مقاتل يوضع له منبر من نار فيجتمع أهل النار اليه يلومونه فيقول لهم ما أخبر الله تعالى بقوله (ان الله وعدكم وعد الحق) أى بالبعث والجزاء على الاعمال فصدقكم (ووعدتكم) أن لاجنة ولانار ولاحشر ولاحساب (فأخلفتكم) أى الوعد فلم أقل شيأ الا كان زيفا فاتبعتمونى مع كونى عدوكم وتركتم ربكم وهو وليكم * (تنبيه) * فى الآية اضمار من وجهين الاول ان التقدير ان الله وعدكم وعد الحق فصدقكم كما تقدم تقريره ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد لانهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولانه ذكر فى وعد الشيطان الاخلاف فدل ذلك على الصدق فى وعد الله تعالى الثانى أن قوله ووعدتكم فأخلفتكم الوعد يقتضى مفعولا ثانيا وحذف هذا للعلم به والتقدير ووعدتكم أن لاجنة ولانار ولاحشر ولاحساب كما تقرر ولما بين غروره بين سهولة اغترارهم زيادة فى تنديمهم فقال (وما كان لى عليكم من سلطان) أى سلطان فى مزيدة أى قوة وقدرة أقهركم على الكفر والمعاصى وألجئكم على متابعتى وقوله (الا أن دعوتكم) استثناء منقطع قال النحويون لان الدعاء ليس من جنس السلطان فمعناه لكن دعوتكم (فاستجبتم لى) محكمين الشهوات لان النفس تدعو الى هذه الاحوال الدنيوية ولا يتصور كيفية السعادات الاخروية والكمالات النفسانية والله يدعو اليها ويرغب فيها كما قال والآخرة خير وأبقى قال الرازى وعندى انه يمكن أن يقال كلمة الا ههنا استثناء حقيقى لان قدرة الانسان على حمل الغير

على عمل من الاعمال تارة تكون بالقهر والقسر وتارة يكون بتقوية الداعية فى قلبه بالقاء الوساوس اليه فهذا نوع من أنواع التسليط اه ثم قال لهم (فلا تلوموني) أى لانه ما كان منى الا الدعاء والقاء الوسوسة (ولوموا أنفسكم) لانكم سمعتم دلائل الله تعالى وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا الى ولا تسمعوا قولى فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى باجابتى ومتابعتى من غير حجة ولا دليل (فان قيل) لم قال الشيطان فلا تلومونى وهو ملوم بسبب اقدامه على تلك الحالة والوسوسة الباطلة (أجيب) بأنه أراد لا تلومونى على فعلكم ولوموا أنفسكم عليه لانكم عدلتم عما توجه من هداية الله تعالى لكم * ثم قال تعالى حكاية عن الشيطان انه قال (ما أنا بمصرخكم) أى بمغيثكم فيما يحق بكم من العذاب فأزيل صراخكم منه (وما أنتم بمصرخى) أى بمغيثى فيما يخصنى منه وقرأ ماعدا حمزة بفتح الياء مع التشديد وقرأ حمزة بكسر الياء مع التشديد على الاصل فى التقاء الساكنين لان ياء الاعراب ساكنة وياء المتكلم أصلها السكون فلما التقيا كسرت لالتقاء الساكنين قال البيضاوى وهو أصل مرفوض فى مثله لما فيه من اجتماع ياءين وثلاث كسرات مع حركة ياء الاضافة اه فقوله أصل مرفوض أى متروك عند النحاة والا فهو قراءة متواترة عند القراء فيجب المصير اليها لانها وردت من رب العالمين على لسان سيد المرسلين وقول الفراء ولعلها من وهم القراء فانه قل من سلم منهم من الوهم ممنوع فقد قال أبو حيان هى قراءة متواترة نقلها السلف واقتفى آثارهم فيها الخلف فلا يجوز أن يقال فيها انها خطأ أو قبيحة أو رديئة وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة لكن قل استعمالها ونص قطرب على أنها لغة فى بنى يربوع ونص على أنها صواب أبو عمرو بن العلاء لما سئل عنها والقاسم بن معن من رؤساء الكوفيين قال الله تعالى حكاية عن الشيطان انه قال (انى كفرت بما أشركتمونى من قبل) أى كفرت اليوم باشراككم اياى من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم ومعنى كفره باشراكهم اياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله تعالى انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم روى البغوى بسنده عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة يقول عيسى ذلك النبى الامى فيأتونى فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى من أطيب ريح شمها أحد حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى الى ظفر قدمى ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير الشيطان هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فانك أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم يعظم لهبهم ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الآية قال فى الكشاف وقوله (ان الظالمين) أى الكافرين (لهم عذاب أليم) أى مؤلم من كلام الله تعالى ويحتمل أن يكون من جملة قول ابليس وانما حكى الله تعالى ما سيقوله فى ذلك الوقت ليكون لطفا للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لابد لهم من الوصول اليه وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول فيه الشيطان

ما يقول

مايقول فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم * ولما بالغ سبحانه وتعالى فى شرح حال الاشقياء من الوجوه الكثيرة شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم فالمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) وكونها دائمة أشير اليها بقوله تعالى (خالدين فيها) وهو حال مقدرة والتعظيم حصل لهم من وجهين أحدهما قوله تعالى (باذن ربهم) لان تلك المنافع انما كانت تفضلا من الله تعالى وانعاما والثانى قوله تعالى (تحيتهم فيها سلام) لان بعضهم يحيي بعضا بهذه الكلمة والملائكة يحيونهم بها كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم والرب يحييهم أيضا بهذه التحية كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم ويحتمل أن يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع آفات الدنيا وحسراتها وفنون آلامها واسقامها وأنواع همومها وغمومها الا ان السلام مشتق من السلامة * ولما شرح سبحانه وتعالى أحوال الاشقياء وأحوال السعداء ذكر مثلا يبين الحال فى حكم هذين القسمين بقوله تعالى (ألم تر) أى تنظر والخطاب يحتمل أن يكون للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره وأن يكون لكل فرد من الناس أى ألم تر أيها الانسان (كيف ضرب الله) أى المحيط بكل شئ علما وقدرة (مثلا) سيره بحيث يعم نفعه والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثانى بالاول ثم بينه بقوله تعالى (كلمة طيبة) قال ابن عباس وأكثر المفسرين هى لا اله الا الله (كشجرة طيبة) قال ابن مسعود وأنس هى النخلة وعن ابن عباس هى شجرة فى الجنة وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فاخبرونى ماهى قال عبد الله فوقع الناس فى شجر البوادى وكنت صبيا فوقع فى قلبى أنها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم وروى فمنعنى مكان عمر فاستحييت فقال له عمر يا بنى لو كنت قلتها لكانت أحب الى من حمر النعم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انها النخلة قيل الحكمة فى تشبيه الانسان بالنخلة من بين سائر الاشجار أن النخلة أشبه به من حيث انها اذا قطع رأسها يبست وسائر الاشجار يتشعب من جوانبها بعد قطع رأسها وأنها تشبه الانسان بحيث انها لا تحمل الا باللقاح لانها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكرموا عمتكم قيل ومن عمتنا قال النخلة (أصلها ثابت) أى فى الارض (وفرعها) أى غصنها (فى السماء) أى فى جهة العلو والصعود ولم يرد المظلة كقولك فى الجبل طويل فى السماء تريد ارتفاعه وشموخه (تؤتى) أى تعطى (أكلها) أى ثمرها (كل حين باذن ربها) أى بارادته والحين فى اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا فى مقداره هنا فقال مجاهد الحين هنا سنة كاملة لان النخلة تثمر فى كل سنة مرة وقال قتادة ستة أشهر يعنى من حين طلعها الى وقت صرامها وقال الربيع كل حين يعنى كل غدوة وعشية لان ثمر النخل يؤكل ليلا ونهارا وصيفا وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس الى

حين الطرى الرطب فأ كلها دائم فى كل وقت قال العلماء ووجه الحكمة فى تمثيل كلمة
الاخلاص بالشجرة لان الايمان ثابت فى قلب المؤمن كثبوت أصل هذه الشجرة فى الارض
وعمله يصعد الى السماء كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فكذلك
فرع هذه عال فى السماء وتنال بركته وثوابه كل وقت والمؤمن كلما قال لا اله الا الله صعدت الى
السماء وجاء بركتها وخيرها وثوابها ومنفعتها ولان الشجرة لا تكون شجرة الا بثلاثة أشياء
عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال كذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة أشياء تصديق القلب وقول
اللسان وعمل بالابدان ثم نبه تعالى على عظم هذا المثل ليقبل على تدبره ليعلم المراد منه فيلزم
فقال (ويضرب الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (الامثال للناس لعلهم يتذكرون) أى
يتعظون فان فى ضرب الامثال زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعانى العقلية فيحصل الفهم
التام والوصول الى المطلوب * ولما ذكر مثل حال السعداء اتبعه بمثل حال الاعداء فقال (ومثل
كلمة خبيثة) هى كلمة الكفر (كشجرة خبيثة) هى الحنظل وقيل الثوم وقيل الكشوث
بمثلثة فى آخره قال الجوهرى نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق فى الارض قال
الشاعر
هى الكشوث لا أصل ولا ورق * ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر
وقيل شجرة الشوك (اجتثت) أى استؤصلت (من فوق الارض) أى عروقها قريبة
منه (ما لها من قرار) أى أصل ولا عرق فكذلك الكفر بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات
ولا قوة وعن عبادة انه قيل لبعض العلماء ما تقول فى كلمة خبيثة فقال ما أعلم لها فى الارض
مستقرا ولا فى السماء مصعدا الا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها يوم القيامة * ولما وصف
الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة فى الآية المتقدمة أخبر بقوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا
بالقول الثابت) أنه تعالى يثبتهم بها (فى الحياة الدنيا) أى فى القبر وقيل قبل الموت
(وفى الآخرة) أى يوم القيامة عند البعث والحساب وقيل فى القبر على القول الثانى * ولما
وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة أخبر بقوله تعالى (ويضل الله الظالمين) أى الكفار
أنه تعالى لا يهديهم للجواب الصواب (ويفعل الله ما يشاء) أى ان شاء هدى وان شاء أضل
لا اعتراض عليه روى عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المسلم اذا سئل
فى القبر يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا
بالقول الثابت وروى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا وضع فى القبر
وتولى عنه أصحابه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا
الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر الى
مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبى صلى الله عليه وسلم فيراهما
جميعا قال قتادة ذكر لنا أنه يفسح له فى قبره ثم رجع الى حديث أنس قال وأما المنافق أو الكافر
فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس فيه فيقال
ما دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير

الثقلين وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال شهدنا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغنا من دفنها وانصرف الناس قال انه الآن يسمع خفق نعالكم أتاه منكر ونكير أعينهما مثل قدور النحاس وأنيابهما مثل صياصي البقر وأصواتهما مثل الرعد فيجلسانه فيسألانه ما كان يعبد ومن نبيه فان كان ممن يعبد الله تعالى قال كنت أعبد الله ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة فيقال له على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى الجنة ويوسع له في حفرته وان كان من أهل الشك قال لا ادري سمعت الناس يقولون شيأ فقلته فيقال له على الشك حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى النار ويسلط عليه عقارب وتنانين لو نفخ أحدهم في الدنيا ما أنبتت شيأ فتنهشه وتؤمر الارض فتنضم عليه حتى تختلف أضلاعه فنسأل الله الثبات لنا ولوالدينا ولاحبابنا في الدنيا والآخرة انه كريم جواد ثم انه تعالى عاد الى وصف الكافرين فقال (ألم تر) أي تنظر وفي المخاطب ما تقدم (الى الذين بدلوا) والتبديل جعل الشئ مكان غيره (نعمة الله) أي التي أسبغها عليهم من كلمة التوحيد ومن جميع النعم الدنيوية وتيسير الرزق وغير ذلك بأن جعلوا مكان شكرها (كفرا) وهم يدعون أنهم أشكر الناس للاحسان وأعلاهم همما في الوفاء وأبعدهم عن الجفاء (وأحلوا) أي أنزلوا (قومهم) أي الذين تابعوهم في الكفر باضلالهم اياهم (دار البوار) أي الهلاك مع ادعائهم انهم أذب الناس عن الجار فضلا عن الاهل روى البخاري في التفسير انهم كفار أهل مكة وقوله تعالى (جهنم) عطف بيان (يصلونها) أي يدخلونها (وبئس القرار) أي المقر هي (وجعلوا لله) أي الذين يعلمون انه لا شريك له في خلقهم ولا رزقهم لان له الكمال كله (أندادا) أي شركاء وقوله تعالى (ليضلوا عن سبيله) أي دين الاسلام فيه قراءتان قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من أضل يضل وليس الضلال ولا الاضلال غرضهم في اتخاذ الانداد لكن لما كان نتيجته جعل كالغرض * ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الانواع الثلاثة من الاعمال القبيحة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أي تهديدا لهم فانهم لا يشكون في قولك وان عاندوا (تمتعوا) بدنياكم قليلا (فان مصيركم) أي مرجعكم (الى النار) في الآخرة ولما أمر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر المؤمنين بترك التمتع بالدنيا والمبالغة في المجاهدة بالنفس والمال بقوله تعالى (قل لعبادي) فوصفهم بأشرف أوصافهم وأضافهم الى ضميره الشريف تحبيبا لهم فيه ثم اتبع هذا الوصف ما يناسبه من اذعانهم ليسددهم بقوله تعالى (الذين آمنوا) أي أوجدوا هذا الوصف (يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم) فيه وجهان أحدهما يصح أن يكون جوابا للامر محذوف تقديره قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا والثاني يصح أن يكون هو أمرا مقولا محذوفا منه اللام أي ليقيموا ليصح تعلق القول بهما وانما حسن ذلك ههنا ولم يحسن في قوله

محمد تفد نفسك كل نفس * اذا ما خفت من شئ تبالا

أى تبالى به أى تكترث به لدلالة قل عليه (سرا وعلانية) أى ينفقون أموالهم فى حال السر والعلانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية اخراج الزكاة الواجبة * (تنبيه) * فى انتصاب سرا وعلانية وجوه أحدها أن يكون على الحال أى ذوى سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين والثانى على الظرف أى وقت سر وعلانية وثالثها على المصدر أى انفاق سر وانفاق علانية * ولما أمرهم الله تعالى باقامة الصلاة والانفاق أشار الى عدم التهاون بذلك بقوله عز وجل (من قبل أن يأتى يوم) أى عظيم جدا ليس كشئ من الايام التى تعرفونها (لا بيع فيه) أى فيشترى المقصر ما يتدارك به تقصيره أو يفدى به نفسه (ولا خلال) أى مخالة أى صداقة تنفع فى ذلك اليوم قال مقاتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة فكأنه تعالى يقول أنفقوا أموالكم فى الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق فى مثل هذا اليوم الذى لا يحصل فيه مبايعة ولا مخالة ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة (فان قيل) كيف نفى الله تعالى المخالة فى هاتين الآيتين مع انه تعالى أثبتها فى قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين (أجيب) بان الآية الدالة على نفى المخالة محمولة على نفى المخالة بسبب ميل الطبع ورغبة النفس والآية الدالة على حصول المخالة محمولة على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى * ولما طال الكلام فى وصف أحوال السعداء وأحوال الاشقياء وكانت العمدة العظمى والمنزلة الكبرى فى حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وفى حصول الشقاوة فقدان ذلك ختم تعالى أحوال الفريقين بقوله تعالى (الله) أى الملك الاعلى المحيط بكل شئ ثم اتبعه بالدلائل الدالة على وجوده وكمال علمه وقدرته وذكر هنا عشرة أنواع من الدلائل أولها قوله تعالى (الذى خلق السموات) وثانيها قوله تعالى (والارض) وهما أكبر خلقا منكم وأعظم شأنا وثالثها قوله تعالى (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) تعيشون به وهو يشمل المطعوم والملبوس * (تنبيه) * الله مبتدأ وخبره الذى خلق ورزقا مفعول لاخرج ومن الثمرات بيان له حال منه ويصح أن يكون المراد بالسماء هنا السحاب اشتقاقا من السمو والارتفاع وأن يكون الجرم المعهود فينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض وقد ذكرت ذلك فى سورة البقرة وفى غيرها ورابعها قوله تعالى (وسخر لكم الفلك) أى السفن (لتجرى فى البحر) أى بالركوب والحمل (بأمره) أى بمشيئته وارادته وخامسها قوله تعالى (وسخر لكم الانهار) أى ذللها لكم تجرونها حيث شئتم لان ماء البحر لا ينتفع به فى سقى الزروع والثمرات ولا فى الشراب فكان ذلك نعمة من الله تعالى وسادسها وسابعها قوله تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر) حال كونهما (دائبين) أى جاريين فى فلكهما لا يفتران فى سيرهما وانارتهما وتأثيرهما فى انارة الظلمة واصلاح النبات والحيوان الى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها والشمس سلطانها النهار وبها تعرف فصول السنة وهى أفضل من القمر لكثرة نفعها والقمر سلطانه الليل وبه يعرف انقضاء

الشهور وكل ذلك بتسخير الله تعالى وانعامه وثامنها وتاسعها قوله تعالى (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان فيكم بالضياء والظلمة والزيادة والنقصان وذلك من نعم الله تعالى على عباده حيث جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار ليبتغوا فيه من فضله وعاشرها قوله تعالى (وآتاكم من كل ما سألتموه) أى مما أنتم محتاجون اليه على حسب مصالحكم فأنتم سألتموه بالقوة * ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض ما أنعم به على عباده بين أن العبد عاجز عن حصرها وعدها بقوله تعالى (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أى لا تحيطوا بها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا اذا أرادوا أن يعدوها على الاجمال وأما على التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه الا الله تعالى (ان الانسان) أى الكافر وقال ابن عباس يريد أبا جهل (لظلوم) أى كثير الظلم لنفسه (كفار) أى كفور لنعم ربه وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع (فان قيل) لم قال تعالى هنا ان الانسان لظلوم كفار وفى النحل ان الله لغفور رحيم (أجيب) بأنه تعالى يقول للعبد اذا حصلت لك النعم الكثيرة فأنت الذى أخذتها وأنا الذى أعطيتها فحصل لك عند أخذها وصفان وهما كونك ظلوما كفارا ولى وصفان عند اعطائها وهما كونى غفورا رحيما والمقصود كأنه يقول ان كنت ظلوما فأنا غفور وان كنت كفارا فأنا رحيم أعلم عجزك وتقصيرك فلا أقابل تقصيرك الا بالتوقير ولا أجازى جزاءك الا بالوفاء ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة * ولما بين الله تعالى بالدلائل المتقدمة أن لا معبود الا الله سبحانه وتعالى وانه لا تجوز عبادة غير الله البتة حكى عن ابراهيم عليه السلام مبالغة فى انكاره عبادة الاوثان بقوله تعالى (واذ) أى واذكر لهم مذكرا بأيام الله خبر ابراهيم اذ (قال ابراهيم رب) أى المحسن الى باجابة دعائى (اجعل هذا البلد) أى مكة (آمنا) أى ذا أمن وقد أجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه (فان قيل) أى فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا (أجيب) بأن المسؤل فى الاول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون وفى الثانى أن يزيل عنها الصفة التى كانت حاصلة لها وهى الخوف ويجعل لها تلك الصفة وهى الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (فان قيل) كيف أجاب الله تعالى دعاءه مع ان جماعة من الجبابرة قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها (أجيب) بجوابين أحدهما ان ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله تعالى فلم يقدر أحد على اخراب مكة (فان قيل) يرد على هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة (أجيب) بأن قوله تعالى اجعل هذا البلد يعنى الى قرب يوم القيامة وخراب الدنيا فهو عام مخصوص بقصة ذى السويقتين فلا تعارض بين النصين والجواب الثانى أن المراد جعل أهلها آمنين كقوله تعالى واسأل القرية أى أهلها وهذا الجواب عليه أكثر المفسرين وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الامن فى بلدهم كما أخبر الله تعالى بقوله ويتخطف الناس من حولهم وأهل مكة آمنون من ذلك حتى ان

من التجأ الى مكة أمن على نفسه وماله وحتى ان الوحوش اذا كانت خارجة الحرم استوحشت
واذا كانت داخلة الحرم استأنست لعلمها انه لا يهيجها أحد فى الحرم وهذا القدر من الامن
حاصل بحمد الله بمكة وحرمها (واجنبنى) أى بعدنى (وبنى أن) أى عن أن (نعبد الاصنام)
أى اجعلنا فى جانب غير جانب عبادتها (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون
فما الفائدة فى قوله اجنبنى عن عبادة الاصنام (أجيب) بأنه عليه الصلاة والسلام انما سأل
ذلك هضما لنفسه واظهارا للحاجة والفاقة الى فضل الله فى كل المطالب وفى ذلك دليل على أن
عصمة الانبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه اياهم (فان قيل) كان كفار قريش من أبنائه مع انهم
كانوا يعبدون الاصنام فكيف أجيب دعاؤه (أجيب) بأن المراد من كان موجودا حال الدعاء
ولا شبهة ان دعوته كانت مجابة فيهم أو ان هذا الدعاء مخصوص بالمؤمنين من أولاده والدليل
عليه أنه قال عليه السلام فى آخر الآية فمن تبعنى فانه منى وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه
فانه ليس منه ونظيره قوله تعالى انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح والصنم المنحوت على خلقة
البشر وما كان منحوتا على غير خلقة البشر فهو وثن قاله الطبرى ولذا لما سئل ابن عيينة كيف
عبدت العرب الاصنام فقال ما عبد أحد من بنى اسمعيل صنما واحتج بقوله تعالى واجنبنى وبنى
أن نعبد الاصنام انما كانت انصاب الحجارة لكل قوم قالوا البيت حجر فحيثما نصبنا حجرا فهو
بمنزلة البيت فكانوا يدورون بذلك الحجر أى يطوفون به أسابيع تشبيها بالكعبة ويسمونه الدوار
بضم الدال مشددة وقد تفتح قال الجوهرى دوار بالضم صنم وقد تفتح فاستحب أن يقال طاف
بالبيت ولا يقال دار بالبيت قال الرازى وهذا الجواب ليس بقوى لانه عليه السلام لا يجوز
أن يريد بهذا الدعاء الا عبادة غير الله والحجر كالصنم فى ذلك * ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم أنه قال
(رب انهن) أى الاصنام (أضللن كثيرا من الناس) بعبادتهم لها * (تنبيه) * اتفق كل الفرق
على أن قوله أضللن مجاز لانها جمادات والجماد لا يفعل شيأ البتة الا انه لما حصل عند عبادتها
أضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم أى افتتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال (فمن تبعنى)
أى على التوحيد (فانه منى) أى فانه جار مجرى بعضى لفرط اختصاصه بى وقربه منى (ومن
عصانى) أى فى غير الدين (فانك غفور رحيم) وهذا صريح فى طلب الرحمة والمغفرة لاولئك
العصاة واذا ثبت حصول هذه الشفاعة فى حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام ثبت حصولها فى
حق محمد صلى الله عليه وسلم لانه مأمور بالاقتداء به كما قال تعالى واتبع ملة ابراهيم وقيل ان هذا
الدعاء كان قبل أن يعلم ابراهيم ان الله لا يغفر الشرك وقيل انك قادر أن تغفر له وترحمه بأن تنقله
عن الكفر الى الاسلام وقيل المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب فلا يمهلهم حتى
يتوبوا قال الرازى واعلم أن هذه الاوجه ضعيفة وارتضى ما تقرر أولا * (تنبيه) * حكى الله
سبحانه وتعالى عن ابراهيم عليه السلام فى هذا الموضع انه طلب من الله تعالى سبعة أمور
الاول طلب من الله تعالى نعمة الامان وهو رب اجعل هذا البلد آمنا المطلوب الثانى أن يرزقه
الله تعالى التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام المطلوب

الثالث قوله (ربنا اني أسكنت من ذريتي) أي بعض ذريتي أو ذرية من ذريتي فحذف المفعول على هذا القول وهم اسمعيل ومن ولد منه فان اسكانه متضمن لاسكانهم (بواد) هو وادي مكة المشرفة لكونه في فضاء منخفض بين جبال تجري فيه السيول (غير ذي زرع) أي لا يكون فيه من الزرع قط فانه يجري لا ينبت قوله تعالى قرآنا عربيا غير ذي عوج يعني لا يوجد فيه اعوجاج (عند بيتك المحرم) أي الذي حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ما حوله حرما لمكانه أولانه لم يزل ممنعا عزيزا يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب أولانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه أولانه حرم على الطوفان أي منع منه كما سمي عتيقا لانه أعتق منه فلم يستول عليه أولانه أمر الصائرين اليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل أولانه حرم موضع البيت حين خلق السموات والارض وحفه بسبعة املاك وهو مثل البيت المعمور الذي بناه آدم فرفع الى السماء السادسة وروى ان هاجر كانت أمة لسارة فوهبتها لابراهيم عليه السلام فولدت منه اسمعيل فقالت سارة كنت أريد أن يهب الله لي ولدا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتي وغارت عليهما وقالت لابراهيم بعدهما مني وناشدته بالله أن يخرجهما من عندها فنقلهما الى مكة واسمعيل رضيع حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في اعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفل ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل وقالت يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت اليها فقالت له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه وقال ربنا اني أسكنت من ذريتي حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى من أحد فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال الملك لا تخافوا الضيعة فان ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الارض كالرابية يأتيه السيل فيأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كدا فنزلوا في أسفل مكة فنظروا طائرا فقالوا ان هذا الطائر ليدور على الماء

لعهدنا بهذا الوادى ومافيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا
وأم اسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك فقالت نعم ولكن لا حق لكم فى الماء
قالوا نعم قال ابن عباس قالت ذلك أم اسمعيل وهى تحب الانس فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم
فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم فشب الغلام وتعلم العربية منهم والفهم وأعجبهم
حتى شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم اسمعيل فجاء ابراهيم بعدما تزوج اسمعيل
وتقدم تمام هذه القصة فى سورة البقرة ثم قال (ربنا ليقيموا الصلاة) اللام لام كى متعلقة
بأسكنت أى ما أسكنتهم بهذا الوادى المقفر الذى لا شئ فيه الا لاقامة الصلاة عند بيتك المحرم
ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك متبركين بالبقعة التى شرفتها
على البقاع مستعدين بجوارك الكريم متقربين اليك بالعكوف عند بيتك والطواف به
والركوع والسجود حوله مستنزلين الرحمة التى آثرت بها سكان حرمك وتكرير النداء وتوسطه
للاشعار بأنهما المقصود بالذات من اسكانهم هنالك والمقصود من الدعاء توفيقهم لها (فاجعل
أفئدة) أى قلوبا محترقة بالاشواق (من الناس) ومن للتبعيض والمعنى واجعل أفئدة بعض
الناس (تهوى) أى تميل (اليهم) ويدل عليه ماروى عن مجاهد لو قال أفئدة الناس لزحمتكم
عليه فارس والروم والترك والهند وقال سعيد بن جبير لو قال أفئدة الناس لحجت اليهود
والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون وقال ابن عباس لو قال أفئدة
الناس لحنت اليه فارس والروم والناس كلهم * ولما دعا لهم بالدين دعا لهم بالرزق فقال
(وارزقهم من الثمرات) ولم يقل وارزقهم الثمرات وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء ايصال
بعض الثمرات اليهم ويحتمل أن يكون المراد بايصال بعض الثمرات اليهم ايصالها اليهم على سبيل
التجارات كما قال تعالى تجبى اليه ثمرات كل شئ حتى توجد فيه الفواكه الصيفية والربيعية
والخريفية فى يوم واحد وليس ذلك من آياته بعجب وأن يكون المراد عمارة القرى بالقرب منها
لتحصل تلك الثمار وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال كانت الطائف من أرض
فلسطين فلما قال ابراهيم ذلك رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم (لعلهم يشكرون)
يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لاداء العبادات واقامة الطاعات فان
ابراهيم عليه السلام بين أنه انما طلب تيسير المنافع على أولاده لاجل أن يتفرغوا لاقامة
الطاعات واداء الواجبات * ولما طلب عليه السلام من الله تعالى تيسير المنافع لاولاده
وتسهيلها عليهم ذكر انه لا يعلم عواقب الاحوال ونهاية الامور فى المستقبل فانه تعالى هو
العالم بها والمحيط بأسرارها فقال (ربنا انك تعلم ما نخفى) أى نسر (وما نعلن) وهذا هو المطلوب
الرابع والمعنى أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا قيل ما نخفى من الوجد بسبب
حصول الفرقة بينى وبين اسمعيل وما نعلن من البكاء وقيل ما نخفى من الحزن المتمكن فى القلب
وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع الى من تكلنا قال الى الله
أكلكم قالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا واختلف فى قوله تعالى (وما يخفى على

الله

الله من شئ فى الارض ولا فى السماء) وقيل من تمة قول ابراهيم عليه السلام يعنى ومايخفى على الله الذى هو عالم الغيب من شئ فى أى مكان والاكثرون على انه قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال كقوله تعالى وكذلك يفعلون ولفظة من تفيد الاستغراق كأنه قيل ومايخفى عليه شئ ما * ولما تم ابراهيم عليه السلام مادعا به أتبعه الحمد على مارزقه من النعم بقوله تعالى (الحمد لله) أى المستجمع لصفات الكمال (الذى وهب لى) أى أعطانى (على الكبر) أى وهب لى وأنا كبير آيس من الولد قيد الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة واظهار المافيه من المعجزة (اسمعيل واسحق) ومقدار ذلك السن غير معلوم من القرآن وانما يرجع فيه الى الروايات فقال ابن عباس ولد اسمعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة (فان قيل) ان ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء عندما اسكن اسمعيل وامه فى ذلك الوادى وفى ذلك الوقت ماولد اسحق فكيف يمكنه أن يقول ذلك (أجيب) بأن هذا يقتضى أن ابراهيم انما ذكر هذا الكلام فى زمن آخر لا عقب ماتقدم من الدعاء قال الرازى ويمكن أيضا أن يقال انه عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء بعد كبر اسمعيل وظهور اسحق وان كان ظاهر الروايات بخلافه انتهى *(تنبيه)* قوله على الكبر بمعنى مع كقوله

انى على ماترين من كبرى * أعلم من حيث يؤكل الكتف

وهو فى موضع الحال * ولما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الافصاح والتصريح قال (ان ربى) أى المحسن الى (لسميع الدعاء) أى لمجيبه (فان قيل) الله تعالى يسمع كل دعاء أجابه أولم يجبه (أجيب) بأن هذا من قولك سمع الملك كلامى اذا اعتدبه وقبله ومنه سمع الله لمن حمده المطلوب الخامس قوله (رب اجعلنى مقيم الصلاة) أى معدلا لها مواظبا عليها *(تنبيه)* فى الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام يدل على ان ترك المنهيات لايحصل الا من الله تعالى وقوله رب اجعلنى مقيم الصلاة يدل على ان فعل المأمورات لايحصل الا من الله تعالى وذلك تصريح بأن ابراهيم عليه السلام كان مصرا على أن الكل من الله تعالى وقوله تعالى (ومن ذريتى) عطف على المنصوب فى اجعلنى أى واجعل بعض ذريتى كذلك لان كلمة من فى قوله ومن ذريتى للتبعيض وأما ذكر هذا التبعيض فلأنه علم باعلام الله تعالى انه يكون فى ذريته جمع من الكفار وذلك قوله تعالى لاينال عهدى الظالمين المطلوب السادس أنه عليه السلام لما دعا الله تعالى فى المطالب المذكورة دعا الله تعالى فى أن يقبل دعاءه فقال (ربنا وتقبل دعاء) قال ابن عباس يريد عبادتى بدليل قوله تعالى وأعتزلكم وماتدعون من دون الله وقيل دعائى المذكور المطلوب السابع قوله (ربنا) أى أيها المالك لامورنا المدبر لنا (اغفر لى) * فان قيل ان طلب المغفرة انما يكون بعد سابقة ذنب (أجيب) بأن المقصود من ذلك الالتجاء الى الله تعالى وقطع الطمع الا من فضله وكرمه ورحمته ثم أشرك معه أقرب الناس اليه وأحقهم بشكره فقال (ولوالدى) * فان قيل كيف جاز أن يستغفر لوالديه وكانا

كافرين (أجيب) بوجوه الاول ان المنع منه لايعلم الا بتوقيف فلعله لم يجد منه منعا وظن كونه جائزا الثانى أراد بوالديه آدم وحواء الثالث كان ذلك بشرط الاسلام وقال بعضهم كانت أمه مؤمنة ولذلك خص أباه بالذكر فى قوله فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه * ثم دعا لمن تبعه فى الدين من ذريته وغيرهم بقوله (وللمؤمنين) أى الفريقين فى هذا الوصف (يوم يقوم) أى يبدو ويظهر (الحساب) وقيل أراد يوم يقوم الناس فيه للحساب فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله تعالى لا يرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام وفيه بشارة عظيمة للمؤمنين بالمغفرة فنسأل الله تعالى أن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولاحبابنا ولمن نظر فى هذا التفسير ودعا لمن كان سببا فيه بالمغفرة * ولما بين تعالى دلائل التوحيد ثم حكى عن ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله تعالى أن يصونه عن الشرك وطلب منه أن يوفقه للاعمال الصالحة وان يخصه بالرحمة والمغفرة فى يوم القيامة عقبه بقوله تعالى مخاطبة لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) لان الغفلة معنى يمنع الانسان عن الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعترى الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا فى حق الله تعالى محال والمقصود من ذلك التنبيه على انه ينتقم للمظلوم من الظالم ففيه وعيد وتهديد للظالم واعلام له بأنه لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلا عنه وعن سفيان بن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فقيل له من قال هذا فغضب وقال انما قاله من علمه (فان قيل) كيف يليق به صلى الله عليه وسلم أن يحسب الله موصوفا بالغفلة وهو أعلم الناس به (أجيب) بوجوه الاول أن المراد به التثبت على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله لا تدع مع الله الها آخر والثانى ان المقصود منه بيان انه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لاجل غفلته عن ذلك الظلم والثالث أن المراد ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير والرابع أن يكون هذا الكلام وان كان خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر الا أنه يكون فى الحقيقة خطابا مع الامة * ثم بين تعالى انه (انما يؤخرهم) أى عذابهم (ليوم) موصوف بخمس صفات الصفة الاولى قوله تعالى (تشخص فيه الابصار) أى أبصارهم لا تقر مكانها من هول ما ترى فى ذلك اليوم الصفة الثانية قوله تعالى (مهطعين) أى مسرعين الى الداعى أو مقبلين بأبصارهم لا يطرقون هيبة وخوفا وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكن الصفة الثالثة قوله تعالى (مقنعى رؤسهم) أى رافعيها اذ الاقناع رفع الرأس الى فوق فأهل الموقف من صفتهم أنهم رافعو رؤسهم الى السماء وهذا بخلاف المعتاد لان من يتوقع البلاء يطرق بصره الى الارض وقال الحسن وجوه الناس يوم القيامة الى السماء لا ينظر أحد الى أحد الصفة الرابعة قوله تعالى (لا يرتد اليهم طرفهم) أى بل تثبت عيونهم شاخصة لا يطرفون بعيونهم ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للاجفان قد شغلهم ما بين أيديهم الصفة الخامسة قوله تعالى (وأفئدتهم) أى قلوبهم (هواء) أى خالية من العقل لفرط الحيرة

والدهشة

والدهشة وقال قتادة خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت فى حناجرهم فلا تخرج من أفواههم ولا تعود الى أماكنها *(تنبيه)* اختلفوا فى وقت حصول هذه الصفات فقيل انها عند المحاسبة بدليل انه تعالى انما ذكر هذه الصفات عقب وصف ذلك بأنه يوم يقوم الحساب وقيل انها تحصل عندما يتميز فريق عن فريق فالسعداء يذهبون الى الجنة والاشقياء الى النار وقيل يحصل عند اجابة الداعى والقيام من القبور قال الرازى والاول أولى (وأنذر الناس) يا محمد أى خوفهم يوم القيامة وهو قوله تعالى (يوم يأتيهم العذاب) أى الذى تقدم ذكره وهو شخوص أبصارهم وكونهم مهطعين مقنعى رؤسهم (فيقول الذين ظلموا) أى كفروا (ربنا أخرنا) أى بأن تردنا الى الدنيا (الى أجل قريب) الى أمد واحد من الزمان قريب (نجب دعوتك) أى بالتوحيد ونتدارك ما فرطنا فيه (ونتبع الرسل) فيما يدعوننا اليه فيقال لهم توبيخا (أولم تكونوا أقسمتم) أى حلفتم (من قبل) فى الدنيا (مالكم) وأكد النفى بقوله (من زوال) أى مالكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور كما قال فى آية أخرى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت وكانوا يقولون لا زوال لنا من هذه الحياة الى حياة أخرى ومن هذه الدار الى دار المجازاة لأنهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة الى موت أو عن شباب الى هرم أو عن غنى الى فقر ثم انه تعالى زادهم توبيخا آخر بقوله تعالى (وسكنتم) فى الدنيا (فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر من الامم السابقة (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) أى وظهر لكم بما تشاهدون فى منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم (وضربنا) أى وبينا (لكم الامثال) فى القرآن أن عاقبتهم عادت الى الوبال والخزى والنكال مما يعلم به انه قادر على الاعادة كما قدر على الابتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل وذلك فى كتاب الله تعالى كثير * ولما ذكر تعالى صفة عقابهم أتبعه بذكر كيفية مكرهم بقوله تعالى (وقد مكروا مكرهم) أى الشديد العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم واختلف فى عود الضمير فى مكروا على وجوه الاول أن يعود الى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم لان الضمير يعود الى أقرب مذكور والثانى الى قوم محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى وأنذر أى يا محمد الناس وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذى ذكر الله تعالى فى قوله واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك (وعند الله مكرهم) أى ومكتوب عند الله فعلهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه وقيل ان مكرهم لا يزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى الآية قول آخر وهو أنها نزلت فى نمروذ الجبار الذى حاج ابراهيم فى ربه فقال نمروذ ان كان ما يقوله ابراهيم حقا فلا أنتهى حتى أصعد الى السماء فأعلم ما فيها ثم أمر نمروذ صاحبه فاتخذ لنفسه تابوتا وجعل له بابا من أعلاه وبابا من أسفله وربط قوائمه الاربع بأربعة نسور وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الاربع من التابوت عصيا أربعة وعلق على كل واحدة منها قطعة لحم ثم انه جلس مع صاحبه فى ذلك التابوت فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت فى جو

الهواء فطارت يوما حتى أبعدت فى الهوا فقال نمروذ لصاحبه افتح الباب الاسفل وانظر الى الارض كيف تراها ففعل فقال أرى الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور يوما آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمروذ لصاحبه افتح الباب الاعلى ففتح فاذا السماء كهيئتها وفتح الباب الاسفل فاذا الارض سوداء مظلمة ونودى ايها الطاغى أين تريد قال عكرمة كان معه فى التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب فرمى بسهم فعاد اليه السهم ملطخا بالدم بدم سمكة قذفت نفسها من بحر فى الهواء وقيل طائر أصابه السهم فقال كفيت اله السماء فنكس تلك العصى التى علق عليها اللحوم فتسفلت النسور وهبطت الى الارض فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور ففزعت وظنت ان قد حدث فى السماء حدث وأن القيامة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها فذلك قوله تعالى (وان كان مكرهم) أى من القوة والضخامة (لتزول منه الجبال) قال الرازى ولا حاجة فى تأويل الآية الى هذا فانه لم يجئ فيه خبر صحيح معتمد انتهى والمراد بالجبال هنا قيل حقيقتها وقيل شرائع الاسلام المشبهة بها فى القرار والثبات وقرأ الكسائى بفتح اللام الاولى ورفع الاخيرة والباقون بكسر الاولى وفتح الثانية والتقدير على القراءة الاولى وان كان بحيث انه تزول منه الجبال وقيل ان نافية واللام لتأكيد النفى (فلا تحسبن الله) الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد منه أمته (مخلف وعده رسله) من النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين كما قال تعالى انا لننصر رسلنا وقال تعالى كتب الله لاغلبن أنا ورسلى (فان قيل) هلا قال مخلف رسله وعده ولم قدم المفعول الثانى على الاول (أجيب) بأنه تعالى قدم ذلك ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا كقوله تعالى ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليدل به على انه تعالى لما لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه اخلاف المواعيد فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته (ان الله) أى ذو الجلال والاكرام (عزيز) أى غالب يقدر ولا يقدر عليه (ذو انتقام) أى ممن عصاه وقوله تعالى (يوم تبدل الارض غير الارض) بدل من يوم يأتيهم أو ظرف للانتقام والمعنى يوم تبدل هذه الارض التى تعرفونها أرضا أخرى غير هذه المعروفة وقوله تعالى (والسموات) عطف على الارض وتقديره والسموات غير السموات والتبديل التغيير وقد يكون فى الذوات كقولك بدلت الدراهم دنانير ومنه بدلناهم جلودا غيرها وبدلناهم بجنتيهم جنتين وفى الاوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا أذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل آخر ومنه قوله تعالى فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات والآية محتملة لكل واحد من هذين المفهومين فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى تلك الارض وانما تغير أوصافها وأنشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم * ولا الدار بالدار التى كنت تعلم

فتبدل أوصافها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء

كقرصة النقاء ليس فيها علم لاحد أخرجاه في الصحيحين العفراء بالعين المهملة وهي البيضاء الى حمرة وليس بذا شبهها بقرصة النقاء وهو الخبز الابيض الجيد الفائق المائل الى الحمرة كان النار ميلت بياض وجهه الى الحمرة وقوله ليس فيها علم لاحد يعني ليس فيها علامة لاحد لتبديل هيئتها وصفتها أو زوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها أثر يستدل به وعن ابن مسعود انه قال تبدل الارض بأرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل عليها خطيئة وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الارض من فضة والسماء من ذهب وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير تبدل الارض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه وعن الضحاك أيضا من فضة كالصحائف وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فأين يكون الناس يومئذ يارسول الله فقال على الصراط أخرجه مسلم وروى ثوبان أن حبرا من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين تكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض قال هم في الظلمة دون الجسر قال الرازي واعلم أنه لا يبعد أن يقال المراد من تبديل الارض والسموات هو انه تعالى يجعل الارض جهنم والسموات الجنة والدليل عليه قوله تعالى كلا ان كتاب الابرار لفي عليين وقوله تعالى كلا ان كتاب الفجار لفي سجين (وبرزوا) أي خرجوا من قبورهم (لله) أي لحكمه والوقوف بين يديه تعالى للحساب (الواحد) أي الذي لا شريك له (القهار) أي الذي لا يدافعه شيء عن مراده كما قال تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار * ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بكونه قهارا بين عجزهم وذلتهم بقوله تعالى (وترى) يا محمد أي تبصر (المجرمين) أي الكافرين (يومئذ) أي يوم القيامة ثم ذكر تعالى من صفات عجزهم وذلتهم أمورا الصفة الاولى قوله تعالى (مقرنين) أي مشدودين (في الاصفاد) جمع صفد وهو القيد قال الكلبي كل كافر مع شيطان في غل وقال عطاء هو معنى قوله تعالى واذا النفوس زوجت أي قرنت فتقرن نفوس المؤمنين بنفوس الحور العين ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين وقيل هو قرن بعض الكفار ببعض فتنضم تلك النفوس الشقية والارواح الكدرة الظلمانية بعضها الى بعض لكونها متشاكلة متجانسة وتتادى ظلمة كل واحدة منها الى الاخرى وقال ابن زيد قرنت أيديهم وأرجلهم الى رقابهم بالاغلال الصفة الثانية قوله تعالى (سرابيلهم) أي قمصهم جمع سربال وهو القميص (من قطران) وهو شيء يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ وتطلى به الابل الجربى فيحرق الجرب بحرارته وحدته وقد تصل حرارته الى داخل الجوف ومن شأنه أنه يتسارع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلاء كالسرابيل فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب لذع القطران وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح وأيضا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين الصفة الثالثة قوله تعالى (وتغشى) أي تعلو (وجوههم النار) ونظيره قوله تعالى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب وقوله تعالى يوم يسحبون في النار على وجوههم * ولما كان موضع العلم والجهل هو القلب وموضع الكفر والوهم هو

الرأس وأثر هذه الاحوال يظهر فى الوجه فلهذا خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال فى القلب نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة وقال فى الوجه وتغشى وجوههم النار وقوله تعالى (ليجزى الله) متعلق ببرزوا (كل نفس ما كسبت) أى من خير أو شر وهذا أولى من قول الواحدى المراد منه أنفس الكفار لان ما سبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لاهل الايمان * ولما كان حساب كل نفس جديرا بأن يستعظم قال (ان الله سريع الحساب) أى لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى ولا شأن عن شأن وقوله تعالى (هذا) اشارة الى القرآن الذى يخرج الناس من الظلمات الى النور نزل منزلة الحاضر وقيل الى السورة (بلاغ) أى كان غاية الكفاية فى الايصال (للناس) والموعظة لهم وقوله تعالى (ولينذروا) أى وليخوفوا (به) عطف على محذوف ذلك المحذوف متعلق ببلاغ تقديره أى ليفهموا ولينذروا وقيل الواو مزيدة ولينذروا متعلق ببلاغ (وليعلموا) أى بما فيه من الحجج على وحدانية الله تعالى (أنما هو) أى الله (اله واحد) فيستدلوا بذلك على أن الله واحد لا شريك له (وليذكر) بادغام التاء فى الاصل فى الذال أى يتعظ (أولو الالباب) أى أصحاب العقول الصافية من الاكدار والافهام الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ * (تنبيه) * ذكر سبحانه وتعالى لهذا البلاغ ثلاث فوائد مستفادة من قوله تعالى ولينذروا به وتاليه والحكمة فى انزال الكتب تكميل الرسل للناس واستكمالهم القوة النظرية التى منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية التى هى التدرع بلباس التقوى جعلنا الله تعالى من الفائزين بها بجمد وآله وفعل ذلك بوالدينا وأحبابنا وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة ابراهيم أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الاصنام وعدد من لم يعبد حديث موضوع قال العلامة ابن جماعة فى شرح منظومة ابن فرح التى أولها غرامى صحيح فرع من غرائب الجوينى يكفر واضع الحديث أى والمشهور عدم تكفيره

﴿سورة الحجر مكية﴾

وهى تسع وتسعون آية وستمائة وأربع وخمسون كلمة وعدد حروفها
ألفان وسبعمائة وستون حرفا

(بسم الله) الملك الواحد القهار (الرحمن) الذى أسبغ نعمه على سائر بريته فعجزت عن وصفه الافكار (الرحيم) الذى خص أهل ولايته بنجاتهم من النار وقوله تعالى (الر) ذكر فيه الفتح والامالة أول يونس وقيل معناه انا الله أرى وقدمنا الكلام على أوائل السور فى أول سورة البقرة وقوله تعالى (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة أى هذه الآيات (آيات الكتاب) أى القرآن والاضافة بمعنى من وقوله تعالى (وقرآن مبين) أى مظهر للحق من الباطل عطف بزيادة صفة وقيل المراد بالكتاب هو السورة وكذا القرآن وقيل المراد بالكتاب التوراة والانجيل وبالقرآن هذا الكتاب ثم بين سبحانه وتعالى حال الكفار يوم القيامة بقوله تعالى (ربما يود)

أى يتمنى (الذين كفروا) اذا عاينوا حالهم وحال المسلمين فى ذلك اليوم (لو كانوا مسلمين) وقيل حين يعاينوا حال المسلمين عند نزول النصر وحلول الموت ورب للتكثير فانه يكثر منهم تمنى ذلك وقيل للتقليل فان الاهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك الا فى أحيان قليلة فان قيل لم دخلت رب على المضارع وقد أبوا دخولها الا على الماضى (أجيب) بأن المترقب فى أخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحقيقه فكانه قيل ربما ود وقرأ عاصم ونافع بتخفيف باء ربما والباقون بالتشديد قال أبو حاتم أهل الحجاز يخففون ربما وقيس وبكر يثقلونها ولما تمادوا فى طغيانهم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (ذرهم) أى دعهم عن النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم وتنفيذ شهواتهم والتمتع التلذذ وهو طلب اللذة حالا بعد حال كالتقرب فى أنه طلب القرب حالا بعد حال (ويلههم الامل) أى ويشغلهم توقعهم لطول الاعمار واستقامة الاحوال عن أخذ حظهم من السعادة وعن الاستعداد للمعاد وقرأ أبو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى برفع الهاء والميم والباقون بكسر الهاء ورفع الميم وأما الوقف فالجميع بكسر الهاء والكلام على الهاء الثانية وأما الهاء الاولى فمكسورة للجميع وقفا ووصلا * ولما كان هذا أمر الايشتغل به الا أحمق تسبب عنه التهديد بقوله تعالى (فسوف يعلمون) أى مايحل بهم بعد ما فسحنا لهم فى زمن التمتع من سوء صنيعهم وهذا قبل الامر بالقتال *(تنبيه)* فى الآية دليل على أن ايثار التلذذ والتنعم فى الدنيا يؤدى الى طول الامل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين وعن بعضهم التمتع فى الدنيا من أخلاق الهالكين والاخبار فى ذم الامل كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وعن على رضى الله تعالى عنه انما أخشى عليكم اثنتين طول الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق * ولما هددهم تعالى بآية التمتع والهاء الامل أتبعه بما يؤكد الزجر بقوله تعالى (وما أهلكنا من قرية) أى من القرى والمراد أهلها ومن مزيدة (الا ولها كتاب معلوم) أى أجل مضروب محدود مكتوب فى اللوح المحفوظ لهلاكها *(تنبيه)* المستثنى جملة واقعة صفة لقرية والاصل أن لاتدخلها الواو كقوله تعالى الا لها منذرون وانما توسطت لتأكد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال فى الحال جاءنى زيد عليه ثوب وجاءنى وعليه ثوب *(فائدة)* رسم كتاب هنا باثبات الالف * ثم بين تعالى الآية السابقة بقوله تعالى (ما تسبق) وأكد الاستغراق بقوله تعالى (من أمة) وقيل من مزيدة كقولك ماجاءنى من أحد أى أحد وبين ان المراد بالكتاب الاجل بقوله تعالى (أجلها) أى الذى قدرناه لها (وما يستأخرون) أى عنه *(تنبيه)* انث الامة أولا ثم ذكرها آخرا حملا على اللفظ فى الاول وعلى المعنى فى الثانى قال البقاعى وانما ذكره لئلا يصرفوه الى خطابه صلى الله عليه وسلم تعنتا وفى الآية دليل على أن كل من مات أو قتل فانما مات بأجله وان من قال يجوز أن يموت قبل أجله مخطئ * ولما بالغ تعالى فى تهديد الكفار ذكر

شبههم فى انكار نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر) أى القرآن فى زعمه (انك لمجنون) انما نسبوه الى الجنون اما لانهم كانوا يستبعدون كونه رسولا حقا من عند الله لان الرجل اذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فربما قال به جنون واما لانه عليه الصلاة والسلام كان يظهر عليه عند نزول الوحى حالة شبيهة بالغشى فظنوا أنها جنون ويدل عليه قوله تعالى أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ثم أتبعوه ما زعموا وأنه دليل على قولهم فقالوا (لوما) أى هلا (تأتينا بالملائكة) أى يشهدون لك بأنك رسول من عند الله حقا (ان كنت من الصادقين) فى ادعائك للرسالة وان هذا القرآن من عند الله ولما كان فى قولهم أمران أجاب الله تعالى عن قولهم الثانى لانه أقرب بقوله تعالى (ما ننزل الملائكة الا بالحق) أى الا تنزلا ملتبسا بالحكمة والمصلحة ولا حكمة فى أن نأتيكم بهم عيانا تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبى صلى الله عليه وسلم لانكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وقيل الحق الوحى أو العذاب وقرأ شعبة بضم التاء مع فتح الزاى ورفع الملائكة وحفص وحمزة والكسائى بنونين الاولى مضمومة والثانية مفتوحة وكسر الزاى ونصب الملائكة والباقون بالتاء مفتوحة مع فتح الزاى ورفع الملائكة وشدد التاء البزى فى الوصل وأما الزاى فهى مشددة للجميع من يفتح ومن يكسر (وما كانوا) أى الكفار (اذا) أى اذ تأتيهم الملائكة (منظرين) أى لزوال الامهال عنهم فيعذبوا فى الحال ان لم يؤمنوا ويصدقوا وكان حينئذ يفوت ما قضينا به من تأخيرهم واخراج من أردنا ايمانه من اصلابهم ثم أجاب تعالى عن الاول بقوله تعالى مؤكدا لتكذيبهم (انا نحن) بما لنا من العظمة والقدرة (نزلنا) أى بالتدريج على لسان جبريل عليه السلام (الذكر) أى القرآن (وانا له لحافظون) أى من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان ونظيره قوله تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والانس أن يزيد فيه أو ينقص منه كلمة واحدة أو حرفا واحدا وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان (فان قيل) فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن فى المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه (أجيب) بأن جمعهم القرآن فى المصحف كان من أسباب حفظ الله تعالى اياه فانه تعالى لما أراد حفظه قيضهم لذلك قال أصحابنا وفى هذه الآية دلالة قوية على كون البسملة آية من أول كل سورة لان الله تعالى قد وعد حفظ القرآن والحفظ لا معنى له الا أن يبقى مصونا من الزيادة والنقصان فلو لم تكن البسملة آية من القرآن لما كان مصونا عن التغيير ولما كان محفوظا عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا جاز أيضا أن يظن بهم النقصان وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة وقيل الضمير فى له راجع الى النبى صلى الله عليه وسلم والمعنى وانا لمحمد لحافظون ممن أراد به سوأ فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس ولما أساء الكفار عليه صلى الله عليه وسلم فى الاول وخاطبوه

بالسفاهة

بالسفاهة وقالوا انك لمجنون وكان عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء قال سبحانه وتعالى
تسلية له على وجه راد عليهم (ولقد أرسلنا من قبلك) أى رسلا لحذف ذكر الرسل لدلالة الارسال
عليه وقوله تعالى (فى شيع) اى فرق (الاولين) من باب اضافة الصفة الى الموصوف كقوله تعالى
حق اليقين سموا شيعا لمتابعة بعضهم بعضا فى الاحوال التى يجتمعون عليها فى الزمن الواحد
والشيع جمع شيعة وهى الفرقة المجتمعة المتفقة كلمتهم على مذهب وطريقة وقال الفراء
الشيعة هم الاتباع وشيعة الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان (وما يأتيهم)
عبر بالمضارع على حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل على مضارع الا وهو فى معنى الحال
ولا على ماض الا وهو قريب من الحال والاصل وما كان يأتيهم (من رسول) أى على أى وجه
كان (الا كانوا به) جبلة وطبعا (يستهزؤن) كاستهزاء قومك بك فصبروا فاصبر كما صبروا (كذلك)
أى مثل ادخالنا التكذيب فى قلوب هؤلاء المستهزئين بالرسل (نسلكه) أى ندخله (فى قلوب
المجرمين) أى كفار مكة المستهزئين (لا يؤمنون به) أى بالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل
بالقرآن وفى الآية دليل على أن الله تعالى يخلق الباطل فى قلوب الكفار والسلك ادخال الشئ
فى الشئ كالخيط فى المخيط والرمح فى المطعون ومنه قوله تعالى ماسلككم فى سقر وقيل
الضمير فى نسلكه يعود للذكر كما ان الضمير فى به يعود اليه وجملة لا يؤمنون به حال من ذلك
الضمير والمعنى على هذا مثل ذلك السلك نسلك الذكر فى قلوب المجرمين مكذبا به غير مؤمن به قال
البيضاوى وهذا الاستدلال ضعيف اذ لا يلزم من تعاقب الضمائر توافقها فى المرجوع اليه
اه وما أعدت الضمير عليه فى ذلك هو ما قاله ابن الخازن وجرى عليه الجلال السيوطى وقوله
تعالى (وقد خلت سنة الاولين) أى سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم وعيد شديد
لكفار مكة بأنه ينزل بهم مثل ما نزل بالامم الماضية المكذبة وقال الزجاج قد مضت سنة الله
فى أن يسلك الكفر والضلال فى قلوبهم قال الرازى وهذا أليق بظاهر اللفظ وقرأ أبو عمرو وحمزة
والكسائى بادغام تاء التأنيث فى السين والباقون بالاظهار وقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من
السماء) الآية هو المراد فى سورة الانعام فى قوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس الآية
أى الذين يقولون لوما تأتينا بالملائكة فلو أنزلنا الملائكة (فظلوا فيه) أى فظلت الملائكة
(يعرجون) أى يصعدون فى الباب وهم يرونها عيانا (لقالوا) أى من عتوهم فى الكفر (انما
سكرت ابصارنا) اى سدت عن الابصار بالسحر من السكر ويدل عليه قراءة ابن كثير
بالتخفيف أو حيرت من السكر ويدل عليه قراءة الباقين بالتشديد (بل نحن قوم مسحورون)
أى قد سحرنا محمد بذلك أى كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات كانشقاق القمر وما جاء به
النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذى لا يستطيع الجن والانس أن يأتوا بمثله وقيل
الضمير فى يعرجون للمشركين أى فظل المشركون يصعدون فى ذلك الباب فينظرون فى
ملكوت السموات وما فيها من العجائب لما آمنوا لعنادهم وكفرهم وقالوا انما سحرنا وقرأ
الكسائى بادغام لام بل فى النون والباقون بالاظهار * ولما أجاب الله تعالى عن شبهة منكرى

النبوة والقول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد ودلائل التوحيد منها سماوية ومنها أرضية
بدأ منها بذكر الدلائل السماوية فقال مفتتحا بحرف التوقع (ولقد جعلنا) بما لنا من العظمة
والقدرة الباهرة (فى السماء بروجا) قال الليث البروج واحدها برج من بروج الفلك والبروج
هى النجوم الكبار مأخوذة من الظهور يقال تبرجت المرأة اذا ظهرت وأراد بها المنازل التى
تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة وهى اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزاء
والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو
والحوت وهى منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب والزهرة
ولها الثور والميزان وعطارد وله الجوزاء والسنبلة والقمر وله السرطان والشمس
ولها الاسد والمشترى وله القوس والحوت وزحل وله الجدى والدلو وهذه البروج
مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس فى كل سنة
مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر فى ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس فى هذه الآية
يريد بروج الشمس والقمر يعنى منازلهما وقال عطية هى قصور فى السماء عليها الحرس وقال
مجاهد هى النجوم العظام قال أبو اسحق يريد نجوم هذه البروج وقرأ نافع وابن كثير وابن
ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام (وزيناها) أى السماء بالشمس
والقمر والنجوم والاشكال والهيآت البهية (للناظرين) أى المعتبرين المستدلين بها على
توحيد خالقها ومبدعها وهو الله الذى أوجد كل شئ وخلقه وصوره (وحفظناها من كل
شيطان رجيم) أى مرجوم وقيل ملعون قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن
السموات وكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها على الكهنة فلما
ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من
السموات كلها فما منهم من أحد يريد استراق السمع الا رمى بشهاب فلما منعوا تلك المقاعد
ذكروا ذلك لابليس فقال لقد حدث فى الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى
الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا والله هذا حدث وقوله تعالى (الا من استرق السمع) بدل من
كل شيطان رجيم وقيل استثناء منقطع أى لكن من استرق السمع واستراق السمع اختلاسه
قال ابن عباس يريد الخطفة اليسيرة وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا
يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب كما قال تعالى (فأتبعه شهاب مبين) وهو شعلة
من نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب لما فيها من البريق يشبه شهاب النار فلا يخطئ أحدا
فنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه أو جنبه أو يده حيث يشاء الله ومنهم من يخبله فيصير
غولا فيضل الناس فى البوادى روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا
قضى الامر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان
فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترقو
السمع ومسترقوا السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه

فيسمع

فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها الى لسان الساحر أو الكاهن وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى سمعها من السماء (فان قيل) اذا جاز أن يسمع الشيطان أخبار الغيوب من الملائكة خرج الاخبار عن المغيبات عن كونه معجزا دليلا على الصدق لان كل غيب يخبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم قام فيه الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزا دليلا على الصدق (أجيب) بأنا أثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا بسائر المعجزات ثم بعد العلم بنبوته نقطع بأن الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيب معجزا ولما شرح الله تعالى الدلائل السماوية فى تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الارضية وهى أنواع النوع الاول قوله تعالى (والارض مددناها) قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء قال البغوى يقال انها مسيرة خمسمائة سنة فى مثلها دحيت من تحت الكعبة (فان قيل) فهل يدل ذلك على أنها بسيطة أو كرة عظيمة على ما يقوله أرباب الهيئة (أجيب) بان ليس فى الآية دلالة على شئ من ذلك لان الارض على تقدير كونها كرة فهى فى غاية العظمة والكرة العظيمة ترى كالسطح المستوى وتقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة وسيأتى زيادة على ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة والنازعات النوع الثانى قوله تعالى (وألقينا فيها رواسى) أى جبالا ثوابت واحدها راس والجمع راسية وجمع الجمع رواسى وهو كقوله تعالى وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم قال ابن عباس لما بسط الله تعالى الارض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكى لا تميد بأهلها وقيل ان الله تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الارض ونواحيها لانها كالاعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون فى الضلال النوع الثالث قوله تعالى (وأنبتنا فيها) واختلف فى عود ضمير فيها فقيل يعود الى الارض لان أنواع النبات المنتفع به يكون فى الارض وقيل الى الجبال لانها أقرب مذكور والى قوله تعالى (من كل شئ موزون) وانما يوزن ما يتولد من الجبال والاولى عوده لهما واختلفوا فى المراد بالموزون فقال ابن عباس أى معلوم وقال مجاهد أى مقدار معين تقتضيه حكمته وقال الحسن أعنى به الشئ الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن والاولى أنه جميع ما ينبت فى الارض والجبال لان ذلك نوعان أحدهما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون والثانى النبات فبعضه موزون وبعضه بالكيل وهو يرجع الى الوزن لان الصاع والمد مقدران بالوزن (وجعلنا لكم فيها) أى انعاما منا وتفضلا عليكم (معايش) وهى بياء صريحة من غير مد جمع معيشة وهو ما يعيش به الانسان مدة حياته فى الدنيا من المطاعم والملابس والمعادن وغيرها (و) جعلنا لكم (من لستم له برازقين) من العبيد والانعام والدواب والطير فانكم تنتفعون بها ولستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على الله تعالى وبعض الجهال يظنون فى أكثر الامر انهم هم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد

وذلك خطأ فان الله هو الرزاق يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك لانه تعالى خلق الاطعمة والاشربة وأعطى القوة الغاذية والهاضمة والالم يحصل لاحد رزق (فان قيل) صيغة من مختصة بمن يعقل (أجيب) بأنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقا على الله تعالى حيث قال وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها فغلب من يعقل على غيره حكى أن الماء قد قل فى بعض الاودية والجبال واشتد الحر قال بعضهم فرأيت بعض تلك الوحوش رفعت رؤسها الى السماء عند اشتداد عطشها قال فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت وامتلأت الاودية * (تنبيه) * قيل لا يجوز أن يكون ومن لستم له برازقين مجرورا عاطفا على الضمير المجرور ولا يقال أخذت منك وزيد الا باعادة الخافض كما فى قوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح والراجح الجواز كما قرئ قوله تعالى تساءلون به والارحام بالخفض فى القراآت السبع وهذا أعظم دليل * ولما بين سبحانه وتعالى أنه أنبت لهم كل شئ موزون وجعل لهم معايش أشعر بذكر ما هو السبب لذلك فقال تعالى (وان) أى وما (من شئ) أى مما ذكر وغيره من الاشياء الممكنة وهى لانهاية لها (الا عندنا خزائنه) أى قادرون على ايجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال فى العرش تمثال جميع ما خلق الله فى البحر والبر والخزائن جمع خزانة وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه للحفظ وقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل المطر لانه سبب الارزاق لبنى آدم والوحش والطير والدواب ومعنى عندنا أى فى حكمه تعالى وتصرفه وأمره وتدبيره (وما ننزله) من بقاع القدرة (الا بقدر معلوم) أى على حسب المصالح وقيل ان لكل أرض حدا ومقدارا من المطر يقال لا ينزل من السماء قطرة مطر الا ومعها ملك يسوقها الى حيث يشاء الله ولما أتم ما أراد من آيتى السماء والارض وختمه بشمول قدرته لكل شئ أتبعهما ينشأ عنهما مما هو بينهما مودعا فى خزائن قدرته بقوله تعالى (وأرسلنا الرياح) جمع ريح وهو جسم لطيف منبث فى الجو سريع الممر (لواقح) أى حوامل لانها تحمل الماء الى السحاب فهى لاقحة يقال ناقة لاقحة اذا حملت الولد وقال ابن مسعود يرسل الله تعالى الريح فتحمل الماء فتمجه فى السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر وقال عبيد بن عمير يبعث الله تعالى الريح المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه الى بعض فتجعله ركاما ثم يبعث الله اللواقح تلقح الشجر وعن ابن عباس قال ما هبت ريح قط الا جثا النبى صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها ريحا وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا عصفت الريح قال اللهم انى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وقرأ حمزة بالافراد والباقون بالجمع (فأنزلنا) أى بعظمتنا بسبب تلك السحاب التى حملتها الريح (من السماء) أى الحقيقية أو جهتها أو السحاب لان الاسباب المترتبة يسند الشئ تارة الى القريب منها وتارة الى البعيد (ماء) وهو جسم مائع سيال به حياة كل حيوان من شأنه الاغتذاء (فأسقيناكموه) أى جعلناه لكم سقيا يقال سقيته ما يشرب به وأسقيته أى

مكنته منه ليسقى به ماشيته ومن يريد ونفى سبحانه وتعالى عن غيره ما أثبته أولا لنفسه بقوله (وما أنتم له) أى لذلك الماء (بخازنين) أى ليست خزائنه بأيديكم والخزن وضع الشئ فى مكان مهيأ للحفظ فثبت أن القادر عليه واحد مختار ومن دلائل التوحيد الاحياء والاماتة كما قال تعالى (وانا لنحن نحيى) أى لنا هذه الصفة على وجه العظمة فنحيى بها من نشاء من الحيوان بروح البدن ومن الروح بالمعارف ومن النبات بالنمو وان كان أحدهما حقيقة والآخر مجازا لان الجمع جائز (ونميت) أى لنا هذه الصفة فنبرز بها من عظمتنا ما نشاء (ونحن الوارثون) أى الارث التام اذا مات الخلائق الباقون بعد كل شئ كما كنا ولا شئ فليس لاحد تصرف باماتة ولا احياء فثبت بذلك الوحدانية والفعل بالاختيار فلما ثبت بهذا كمال قدرته وكانت آثار القدرة لا تكون محكمة الا بالعلم قال تعالى (ولقد علمنا المستقدمين منكم) وهو من قضينا بموته أولا من لدن آدم فيكون فى موته كأنه يسارع الى التقدم اليه وان كان هو وكل من أهله مجتهدا بالعلاج فى تأخيره (ولقد علمنا المستأخرين) أى الذين نمد فى أعمارهم فنؤخر موتهم حتى يكونوا كأنهم يسابقون الى ذلك وان عالجوا الموت بشرب سم أونحوه أو عالجه لهم غيرهم بضربهم بسيف أوغيره فعرف من ذلك قطعا أن الفاعل واحد مختار وقال ابن عباس أراد بالمستقدمين الاموات وبالمستأخرين الاحياء وقال عكرمة المستقدمين من خلق الله تعالى والمستأخرين من لم يخلق وقال الحسن المستقدمين فى الطاعة والخير والمستأخرين المتبطؤن عنه وقيل المستقدمين من القرون الاولى والمستأخرين أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المستقدمين فى الصفوف والمستأخرين فيها وذلك ان النساء كن يخرجن الى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان فى الرجال من فى قلبه ريبة فيتأخر الى آخر صف الرجال ومن النساء من فى قلبها ريبة فتتقدم الى أول صف النساء لتقرب من الرجال فقال النبى صلى الله عليه وسلم خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها

* (تنبيه) * فى سبب نزول هذه الآية قولان أحدهما ان امرأة حسناء كانت تصلى خلف النبى صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يستقدم حتى يكون فى أول صف حتى لا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون آخر صف فاذا ركع نظر من تحت ابطه فنزلت والثانى أن النبى صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الاول فازدحموا عليه وقال قوم بيوتهم قاصية عن المسجد لنبيعن دورنا ولنشترين دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت (وان ربك هو يحشرهم) أى المستقدمين والمستأخرين للجزاء وتوسط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولى لحشرهم لا غيره وتصدير الجملة بان لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الاشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله تعالى (انه حكيم) أى باهر الحكمة متقن فى أفعاله (عليم) وسع علمه كل شئ ولما استدل سبحانه وتعالى بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد فى الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بتخليق الانسان على هذا المطلوب بقوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان) قال الرازى والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه آدم عليه السلام ونقل

فى كتب الشيعة عن محمد بن على الباقر أنه قال قد انقضى قبل آدم الذى هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر سمى انسانا لظهوره وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه عهد اليه فنسى (من صلصال) أى من الطين الشديد اليابس الذى لم تصبه نار اذا نقرته سمعت له صلصلة أى صوتا وقال ابن عباس هو الطين اذا نضب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن واختاره الكسائى وقال الفراء هو طين خلط برمل فصار له صوت عند نقره وقال الرازى قال المفسرون خلق الله تعالى آدم من طين فصوره وتركه فى الشمس أربعين سنة فصار صلصالا لايدرى أحد مايراد به ولم يروا شيأ من الصور يشبهه الى أن نفخ فيه الروح (من حما) أى طين أسود منتن (مسنون) أى مصور بصورة الآدمى وقال ابن عباس هو التراب المبتل المنتن وقال مجاهد هو المنتن المتغير قال البغوى وفى بعض الآثار ان الله تعالى خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغيرا أسود ثم خلق منه آدم عليه السلام قال ابن الخازن والجمع بين هذه الاقوال على ماذكره بعضهم ان الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الارض واليه الاشارة بقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم ان ذلك التراب بله بالماء وحمأ حتى اسود وأنتن ريحه وتغير واليه الاشارة بقوله تعالى من حما مسنون ثم ان ذلك الطين الاسود المتغير صوره الله صورة انسان أجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فيسمع له صلصلة واليه الاشارة بقوله تعالى من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس يفخر فى الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا * ولما ذكر سبحانه وتعالى خلق الانسان ذكر ما خلقه قبل من الجان فقال تعالى (والجان) قال ابن عباس هو أبو الجن كما ان آدم عليه السلام أبو البشر وابليس أبو الشياطين وفى الجن مسلمون وكافرون ويأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبنى آدم وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس وقال وهب ان من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح لايتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين قال ابن الخازن والاصح ان الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم فى الاستتار سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الاعين من قولهم جن الليل اذا ستر والشيطان هو العاتى المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر وانتصاب الجان بفعل يفسره (خلقناه من قبل) أى قبل خلق الانسان (من نار السموم) أى من ريح حارة تدخل مسام الانسان فتقتله من قوة حرارتها قال الرازى فالريح الحارة فيها نار ولها لفح كما ورد فى الخبر انها من فيح جهنم انتهى ويقال السموم بالنهار والحرور بالليل وقال الكلبى عن أبى صالح السموم نار لادخان لها والصواعق تكون منها وهى نار تكون بين السماء وبين الحجاب فاذا أحدث الله تعالى أمرا خرقت الحجاب فهوت الى ما أمرت به فالهدة التى تسمعون خرق ذلك الحجاب وعن ابن عباس هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التى خلق منها الجان وتلا هذه الآية وعن الضحاك عن ابن عباس كان ابليس من حى من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وأما الملائكة فخلقوا

من النور* ولما ذكر الله تعالى حدوث الانسان الاول واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده واقعته بقوله تعالى (واذ) أى واذكر يا أشرف الخلق قول ربك عز وجل اذ (قال ربك) أى المحسن اليك بتشريف أبيك آدم عليه السلام لتشريفك (للملائكة انى خالق بشرا) أى حيوانا كثيفا يباشر ويلاقى والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن ابشار البشر والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وقوله تعالى (من صلصال من حمأ مسنون) تقدم تفسيره (فاذا سويته) أى عدلته وأتممته وهيأته لنفخ الروح فيه بالفعل (ونفخت فيه من روحى) أى خلقت الحياة فيه وليس ثم نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل وأضاف الروح اليه تشريفا كما يقال بيت الله وهو مايصير به الروح عالما. وأشرف منه مايصير به العالم عاملا خاشعا وسيأتى الكلام على الروح ان شاء الله تعالى فى سورة سبحان عند قوله تعالى ويسألونك عن الروح (فقعوا) أى اسقطوا (له) تعظيما حال كونكم (ساجدين) وتقدم فى سورة البقرة الكلام على من المخاطب بالسجود وهل هو كل الملائكة أو ملائكة السموات أو ملائكة الارض وهل هو سجود انحناء أو غيره (فسجد الملائكة) وقوله تعالى (كلهم أجمعون) قال سيبويه تأكيد بعد تأكيد وسئل المبرد عن ذلك فقال لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال فظهر أنهم باسرهم سجدوا ثم عند هذا بقى احتمال وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد فى وقت آخر فلما قال أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة قال الزجاج وقول سيبويه أجود لان أجمعين معرفة فلا يكون حالا وقوله تعالى (الا ابليس) أجمعوا على أن ابليس كان مأمورا بالسجود لآدم واختلفوا فى انه هل كان من الملائكة أم لا وقد سبقت هذه المسئلة على الاستقصاء فى سورة البقرة وقوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) أى لآدم استئناف تقديره ان قائلا قال هل سجد فقيل أبى ذلك واستكبر عنه (قال) الله تعالى له (يا ابليس مالك ألا تكون) أى أن تكون ولا مزيدة أى مامنعك أن تكون (مع الساجدين) لآدم (قال لم أكن لاسجد لبشر) جسمانى كثيف واللام لتأكيد النفى أى لا يصح منى و ينافى حالى أن أسجد وانا ملك روحانى لبشر (خلقته من صلصال من حمأ مسنون) وهو أخس العناصر وخلقتنى من نار وهى أشرفها استنقص آدم باعتبار النوع والاصل وقد سبق الجواب عنه فى سورة الاعراف *(تنبيه)* قال بعض المتكلمين انه تعالى أوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله وضعف لان ابليس قال فى الجواب لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال فقوله خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة وظاهره يقتضى أن الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة وأن ابليس تكلم مع الله بغير واسطة فكيف يعقل هذا مع ان مكالمة الله تعالى من غير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم *(وأجيب)* بأن مكالمة الله تعالى انما تكون منصبا عاليا اذا كانت على سبيل الاكرام والاعظام فأما اذا كانت على سبيل الاهانة والاذلال فلا (قال) الله تعالى له (فاخرج منها) أى من الجنة وقيل من السموات وقيل من زمرة الملائكة وقد تقدم الكلام

على ذلك أيضا فى سورة الاعراف (فانك رجيم) أى مطرود من الخير والكرامة فان من يطرد يرجم بالحجر أو شيطان رجيم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته (وان عليك اللعنة) أى هذا الطرد والابعاد (الى يوم الدين) قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم مثل قوله تعالى مالك يوم الدين (فان قيل) كلمة الى تفيد حصرا نتهاء الغاية فهذا يفيد ان اللعنة لا تحصل الا الى يوم الدين وعند القيامة يزول اللعن (أجيب) بجوابين الاول أن المراد التأبيد وذكر القيامة أبعد غاية ذكرها الناس فى كلامهم كقوله تعالى مادامت السموات والارض فى التأبيد والثانى أنه مذموم مدعو عليه باللعن فى السموات والارض الى يوم القيامة من غير أن يعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا يقترن اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه ولما جعله الله تعالى رجيما ملعونا الى يوم القيامة فكان قائلا يقول فماذا قال فقيل (قال رب) فاعترف بالعبودية والاحسان اليه (فأنظرنى) أى أخرنى والانظار تأخير المحتاج للنظر فى أمره والفاء متعلقة بمحذوف دل عليه فاخرج منها فانك رجيم (الى يوم يبعثون) أى الناس أراد أن يجد فسحة فى الاغواء ونجاة من الموت اذ لا موت بعد وقت البعث (قال) الله تعالى مجيبا للاول دون الثانى بقوله تعالى (فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) وهو المسمى فيه أجلك عند الله وهو النفخة الاولى وما يتبعها من موت كل مخلوق لم يكن فى دار الخلد (فان قيل) كيف أجابه الله تعالى الى ذلك الامهال (أجيب) بأنه انما أجابه الى ذلك زيادة فى بلائه وشقائه وعذابه لا لاكرامه ورفع مرتبته *ولما أجيب لذلك كأنه قيل فماذا قال فقيل (قال رب) أى أيها الموجد والمدبر لى وقوله (بما أغويتنى) أى خيبتنى من رحمتك الباء فيه للقسم وما مصدرية وجواب القسم (لأزينن) أى أقسم باغوائك اياى لأزينن (لهم فى الارض) حب الدنيا ومعاصيك كقوله فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا أنه فى ذلك الموضع أقسم بعزة الله وهى من صفات الذات وهنا أقسم باغواء الله وهى من صفات الافعال والفقهاء قالوا القسم بصفات الذات صحيح واختلفوا فى القسم بصفات الافعال والراجح فيها الصحة (ولأغوينهم) أى بالاضلال عن الطريق الحميدة بالقاء الوسوسة فى قلوبهم ولاجعلنهم (أجمعين) على الغواية وقوله (الا عبادك منهم المخلصين) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينك عن الشوائب وقرأه الباقون بفتحها أى الذين أخلصهم الله تعالى بالهداية وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه قال الرازى والذى حمله على هذا الاستثناء أنه لا يصير كاذبا فى دعواه فلما احترز ابليس عن الكذب علمنا ان الكذب فى غاية الخساسة *(تنبيه)* قال رويم الاخلاص فى العمل هو أن لا يريد صاحبه عنه عوضا من الدارين ولا عوضا من الملكين وقال الجنيد الاخلاص سر بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله وذكر القشيرى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال سألت جبريل عليه السلام عن الاخلاص ماهو قال سألت رب العزة عن الاخلاص ماهو قال سر استودعته قلب

من

من أحب من عبادى * ولما ذكر ابليس أنه يغوى بنى آدم الامن عصمه الله بتوفيقه وتضمن هذا الكلام تفويض الامور الى الله تعالى والى ارادته (قال) تعالى (هذا) أى الذى ذكرته من حال المستثنى والمستثنى منه (صراط) أى طريق (على مستقيم) أى لا انحراف عنه لانى قضيت به وحكمت به عليك وعليهم ولو لم تقل أنت * ولما قال ابليس لأزينن لهم فى الارض ولاغوينهم أجمعين الاعبادك منهم المخلصين أوهم هذا أن له سلطانا على عباد الله غير المخلصين فبين تعالى كذبه أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء أكانوا مخلصين أولم يكونوا مخلصين بل ومن اتبع منهم ابليس باختياره صار تبعاله ولكن حصول تلك المتابعات أيضا ليس لاجل ابليس وأوهم ان له على بعض عباد الله سلطانا فبين تعالى كذبه وذكر تعالى انه ليس له على أحد منهم سلطان ولاقدرة أصلا بقوله تعالى (ان عبادى) أى المؤمنين كلهم (ليس لك) أى بوجه من الوجوه (عليهم سلطان) أى لتردهم كلهم عما يرضينى ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن ابليس وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى وقال تعالى فى آية أخرى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (الامن اتبعك) أى بتعمد منه ورغبة فى اتباعك (من الغاوين) أى ومات من غير توبة فانى جعلت لك عليهم سلطانا بالتزيين والاغواء وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى وقيل ان الاضافة للتشريف فلا تشمل الاالخلاص فحينئذ يكون الاستثناء منقطعا وفائدة سوقه بصورة الاستثناء على تقدير الانقطاع الترغيب فى رتبة التشريف بالاضافة اليه والرجوع عن اتباع العدو والى الاقبال عليه لان ذوى الانفس الابية والهمم العلية يتنافسون فى ذلك المقام ويرونه كما هو الحق أعلى مرام (وان جهنم لموعدهم) أى الغاوين وهم ابليس ومن تبعه (أجمعين) ثم بين تعالى أنهم متفاوتون فيها بقوله تعالى (لها) أى لجهنم (سبعة أبواب) أى سبع طبقات قال على رضى الله تعالى عنه أتدرون كيف أبواب النار هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى أى سبعة أبواب بعضها فوق بعض وان الله تعالى وضع الجنات على العرض ووضع النيران بعضها على بعض قال ابن جريج النار سبعة دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية * (تنبيه) * تخصيص العدد لان أهلها سبع فرق وقيل جعلت سبعة على وفق الاعضاء السبعة من العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لانها مصادر السيآت فكانت مواردها الابواب السبعة ولما كانت هى بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية من أعمال القلب زادت الاعضاء واحدا فجعلت أبواب الجنان ثمانية قال تعالى (لكل باب) أى منها (منهم) أى من الغاوين خاصة لايشاركهم فيها مخلص (جزء) أى نصيب وقرأ شعبة بضم الزاى والباقون بالسكون (مقسوم) أى معلوم فلكل دركة قوم يسكنونها قال الضحاك فى الدرجة الاولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون وفى الثانية النصارى وفى الثالثة اليهود وفى الرابعة الصابئون وفى

الخامسة المجوس وفى السادسة أهل الشرك وفى السابعة المنافقون فذلك قوله تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتى أوقال على أمة محمد ولما شرح تعالى أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب بقوله تعالى مؤكدا الانكار المكذبين بالبعث (ان المتقين) أى الذين اتقوا الشرك بالله تعالى كما قال جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح لان المتقى هو الآتى بالتقوى مرة واحدة كما أن الضارب هو الآتى بالضرب مرة واحدة والقاتل هو الآتى بالقتل مرة واحدة فكما أنه ليس من شرط صدق الوصف بكونه ضاربا أو قاتلا كونه آتيا بجميع أنواع الضرب والقتل ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع أنواع التقوى لان الآتى بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتيا بالتقوى لان كل فرد من افراد الماهية يجب كونه مشتملا على تلك الماهية (فى جنات) أى بساتين قال الرازى أما الجنات فأربعة لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم قال ومن دونهما جنتان فيكون المجموع أربعة وقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان يؤكد ماقلناه لان من آمن بالله لا ينفك قلبه من الخوف من الله تعالى وقوله تعالى ولمن خاف يكفى فى صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة وقوله تعالى (وعيون) قال الرازى يحتمل أن يكون المراد منها ماذكره الله تعالى فى قوله مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الانهار (فان قيل) هل كل واحد من المتقين مختص بعيون أو تجرى تلك العيون بعضها الى بعض (أجيب) بأن كل واحد من الوجهين محتمل فيجوز أن يختص كل واحد بعين ينتفع هو بها ومن يختص به من الحور والولدان ويكون ذلك على قدر حاجاتهم وعلى حسب شهواتهم ويحتمل أن يجرى من بعضهم الى بعض لانهم يطهرون عن الحقد والحسد وقرأ نافع وابو عمرو وهشام وحفص برفع العين والباقون بالكسر وقرأ بكسر التنوين فى الوصل أبو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة والباقون بالضم * ولما كان المنزل لا يحسن الا بالسلامة والانس قال تعالى (ادخلوها) أى يقال لهم ذلك (بسلام) أى سالمين من كل آفة مرحبا بكم (آمنين) من ذلك دائما ولما كان الانس لا يكمل الا بالجنس مع كمال المودة وصفاء القلوب عن الكدر قال تعالى (ونزعنا) أى بمالنا من العظمة والقدرة (مافى صدورهم من غل) أى حقد كامن فى القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والحسد والبغضاء فكل هذه الخصال المذمومة داخلة فى الغل لانها كامنة فى القلب يروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد حالة كونهم (اخوانا) أى متصافين حالة كونهم (على سرر) جمع سرير وهو مجلس رفيع موطأ للسرور وهو مأخوذ منه لانه مجلس سرور قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل مابين صنعاء الى الجابية (متقابلين) لا يرى بعضهم قفا بعض فان التقابل

التواجه وهو نقيض التدابر ولاشك أن المواجهة أشرف الاحوال وعن مجاهد رضى الله تعالى عنه تدور بهم الاسرة حيثما داروا فيكونون فى جميع أحوالهم متقابلين * (تنبيه) * ليس المراد الاخوة فى النسب بل المراد الاخوة فى المودة والمخالطة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وعن الجنيد أنه قال ما أحلى الاجتماع مع الاصحاب وما أمر الاجتماع مع الاضداد وقوله تعالى (لايمسهم فيها نصب) أى اعياء وتعب وجهد ومشقة استئناف أو حال بعد حال أو حال من الضمير فى متقابلين وقوله تعالى (وماهم منها بمخرجين) المراد به كونه خلودا بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمالا بلا نقصان وفوزا بلا حرمان * ولما ذكر تعالى أحوال المتقين وأحوال غيرهم أتبع ذلك بقوله تعالى (نبئ) أى خبر يا أفضل الخلق (عبادى) اخبارا جليلا (أنى أنا) أى وحدى (الغفور) أى للمؤمنين (الرحيم) بهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من عبادى وانى والباقون بالسكون وأما الهمزة فى نبئ فلم يبدلها الا حمزة فى الوقف فقط وكذا الهمزة من نبئهم ونقل عن حمزة كسر الهاء فى الوقف (وأن عذابى) أى وحدى للعصاة (هو العذاب الاليم) أى المؤلم * (تنبيه) * فى هذه الآية لطائف الاولى أنه سبحانه وتعالى أضاف العباد الى نفسه وهذا تشريف عظيم ألا ترى انه قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم سبحان الذى أسرى بعبده ليلا الثانية انه تعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيدات بالفاظ ثلاث أولها قوله تعالى أنى وثانيها قوله أنا وثالثها ادخال حرف الالف واللام على قوله تعالى الغفور الرحيم ولما ذكر العذاب لم يقل أنى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وأن عذابى هو العذاب الاليم الثالثة انه أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ اليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة والرابعة انه لما قال نبئ عبادى كان معناه نبئ كل من كان معترفا بعبوديتى وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصى وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك منها عنده تسعة وتسعين وأرسل فى خلقه رحمة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار وعن عبادة رضى الله تعالى عنه قال بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لو يعلم العبد قدر عفو الله ماتورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لجمع نفسه الى قتلها وعنه صلى الله عليه وسلم أنه مر بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون وقد ذكر الجنة والنار بين أيديكم فنزل نبئ عبادى انى أنا الغفور الرحيم * ولما بالغ تعالى فى تقرير النبوة ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد ثم ذكر تعالى عقبه أحوال القيامة ووصف الاشقياء والسعداء أتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام ليكون سماعها مرغبا فى العبادة الموجبة للفوز بدرجات الاولياء ومحذرا عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقياء وافتتح من ذلك بقصة ابراهيم عليه السلام فقال تعالى (ونبئهم) أى خبر ياسيد المرسلين عبادى

(عن ضيف ابراهيم) وهم ملائكة اثنا عشر أو عشرة أو ثلاثة منهم جبريل عليه السلام (فان قيل) الضيف هو المنضم الى غيره لطلب القرى (أجيب) بأن هؤلاء سموا بهذا الاسم لانهم على صورة الضيف فهو من دلالة التضمن وقيل أيضا ان من يدخل دار انسان ويلتجئ اليه يسمى ضيفا وان لم يأكل (اذ دخلوا عليه) أى ابراهيم وكان يكنى أبا الضيفان كان لقصره أربعة أبواب لكى لا يفوته أحد (فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاما أو سلمت سلاما (قال) ابراهيم عليه السلام بلسان الحال أو المقال (انا) أى أنا ومن عندى (منكم وجلون) أى خائفون وكان خوفهم لامتناعهم من الاكل أو لانهم دخلوا بغير اذن وبغير وقت والوجل اضطراب النفس لتوقع ما تكره (قالوا لا توجل) أى لا تخف (انا) رسل ربك (نبشرك بغلام) أى ولد ذكر فى غاية القوة ليس كأولاد الشيوخ ضعيفا وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشددة (عليم) أى ذى علم كثير هو اسحق عليه السلام كما ذكر فى هود وتقدم ذكر القصة هناك بأسرها (قال) ابراهيم عليه السلام (أبشرتمونى) أى بالولد وقوله (على أن مسنى الكبر) حال أى مع مسه اياى (فان قيل) كيف قال (فبم) أى فبأى شئ (تبشرون) أى بنوا الى ذلك بيانا شافيا مع أنهم قد بينوا ما بشروا به وما فائدة هذا الاستفهام (أجيب) بأنه أراد أن يعرف ان الله تعالى هل يعطيه الولد مع بقائه على صفة الشيخوخة أو يقلبه شابا ثم يعطيه الولد والسبب فى هذا الاستفهام ان العادة جارية بأنه لا يحصل فى حالة الشيخوخة التامة وانما يحصل فى حال الشباب أو انه استفهام تعجب ويدل لذلك قولهم (قالوا بشرناك بالحق) قال ابن عباس يريدون بما قضاه الله تعالى والمعنى ان الله تعالى قضى أن يخرج من صلب ابراهيم اسحق ويخرج من صلب اسحق ذرية مثل ما أخرج من صلب آدم وقولهم (فلا تكن) أى بسبب تبشيرنا (من القانطين) أى الآيسين نهى لابراهيم عليه السلام عن القنوط ونهى الانسان عن الشئ لا يدل على كونه فاعلا للمنهى عنه كما فى قوله تعالى ولا تطع الكافرين والمنافقين ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام أنه (قال ومن يقنط) أى ييأس من هذا اليأس (من رحمة ربه) أى الذى لم يزل احسانه عليه (الا الضالون) أى المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح فى ربهم من تمام القدرة وانه لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة وقرأ أبو عمرو والكسائى بكسر النون والباقون بفتحها ولما تحقق عليه السلام البشرى ورأى اتيانهم مختفين على غير الصفة التى يأتى عليها الملك للوحى وكان هو وغيره من العارفين بالله عالمين بأنه ما ينزل الملك الا بالحق كان ذلك سببا لان يسألهم عن أمرهم ليزول وجله كله ولذلك (قال) عليه السلام (فما) بفاء السبب (خطبكم) أى شأنكم قال أبو حيان والخطب لا يكاد يقال الا فى الامر الشديد اه وقال الرمانى انه الامر الجليل (أيها المرسلون) فانكم ما جئتم الا لامر عظيم يكون فصلا بين هالك وناج (قالوا انا أرسلنا) أى أرسلنا العزيز الحكيم الذى أنت أعرف الناس فى هذا الزمان به (الى) اهلاك (قوم) أى ذوى منعة (مجرمين) أى كافرين وهم قوم لوط وقوله تعالى (الا آل لوط)

فيه وجهان أحدهما انه استثناء متصل على أنه مستثنى من الضمير المستكن في مجرمين بمعنى أجرموا كلهم الا آل لوط فانهم لم يجرموا ويكون معنى قوله تعالى (انا لمنجوهم أجمعين) أى لا عيانهم استئناف اخبار بنجاتهم لكونهم لم يجرموا ويكون الارسال حينئذ شاملا للمجرمين ولآل لوط لاهلاك أولئك وانجاء هؤلاء والثاني انه استثناء منقطع لان آل لوط لم يندرجوا في المجرمين البتة فيكون قوله تعالى انا لمنجوهم أجمعين جرى مجرى خبر لكن في اتصاله بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجوهم وقرأ حمزة والكسائى بسكون النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم وقوله تعالى (الا امرأته) استثناء من آل لوط أو من ضميرهم على الاول وعلى الثاني لا يكون الا من ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم الا أن يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقوله تعالى (قدرنا) قرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد (انها لمن الغابرين) أى من الباقين فى العذاب لكفرها * (تنبيه) * معنى التقدير فى اللغة جعل الشئ على مقدار غيره يقال قدر هذا الشئ لهذا أى اجعله على مقداره وقدر الله تعالى الاقوات أى جعلها على مقدار الكفاية ويفسر التقدير بالقضاء فيقال قضى الله تعالى عليه وقدره عليه أى جعله على مقدار ما يكفى فى الخير والشر وقيل معنى قدرنا كتبنا وقال الزجاج دبرنا (فان قيل) لم أسند الملائكة فعل التقدير الى أنفسهم مع أنه لله عز وجل (أجيب) بأنهم انما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما تقول خاصة الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لاهم وانما يريدون بهذا الكلام اظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك فكذا هنا * ولما بشر الملائكة عليهم السلام ابراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ابراهيم عليه السلام الى لوط وآله وهذه هى القصة الثانية المذكورة فى هذه السورة قال تعالى (فلما جاء آل لوط المرسلون) ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط واحدة منهما مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين وكذا وجاء أهل المدينة (قال) لهم (انكم قوم منكرون) لانهم دخلوا عليه هجما فاستنكرهم وخاف من دخولهم لاجل شر يوصلونه اليه ولاجل انهم كانوا شبانا مردا حسان الوجوه فخاف أن يهجم قومه عليهم بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة وقيل ان النكرة ضد المعرفة فقوله عليه السلام انكم قوم منكرون أى لا أعرفكم ولا أعرف انكم من أى الاقوام أنتم ولاى غرض دخلتم على فعند ذلك (قالوا) أى الملائكة (بل جئناك بما) أى بالعذاب الذى (كانوا) أى قومك (فيه يمترون) أى يشكون فى نزوله بهم والجاهل يوصف بالشك وان كان مكذبا من جهة ما يعرض له منه من حيث أنه لا يرجع الى نفسه فيما هو عليه ثم أكدوا ما ذكروه بقولهم (وأتيناك بالحق) أى باليقين الذى لا يشك فيه ثم أكدوا هذا التأكيد بقولهم (وانا لصادقون) أى فيما أخبرناك به (فأسر بأهلك) أى فاذهب بهم فى الليل (بقطع من الليل) أى فى طائفة من الليل وقيل هى آخره قال الشاعر افتحى الباب وانظرى فى النجوم * كم علينا من قطع ليل بهيم

كأنه طال عليه الليل يخاطب ضجيعته بذلك أو كان يحب طول الليل للوصال وقرأ نافع وابن كثير بوصل همزة فاسر بعد الفاء من السرى والباقون بالقطع وهما بمعنى (واتبع أدبارهم) أي وكن على آثار أهلك وسر خلفهم وتطلع على أحوالهم (ولا يلتفت منكم أحد) أي لئلا يرى أليم ما نزل بهم من البلاء وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط (وامضوا حيث تؤمرون) أي الى المكان الذي أمركم الله بالمضي اليه قال ابن عباس هو الشأم وقال الفضيل حيث يقول لكم جبريل وذلك ان جبريل أمرهم أن يمضوا الى قرية معينة ما عمل أهلها عمل قوم لوط وقيل الى الاردن وقيل الى مصر *(تنبيه)* حيث ههنا على بابها من كونها ظرف مكان مبهم ولابهامها تعدى اليها الفعل من غير واسطة (وقضينا) أي وأوحينا (اليه) ولما ضمن قضينا معنى الايحاء تعدى بالى ومثله وقضينا الى بني اسرائيل وقوله تعالى (ذلك الأمر) مبهم تفسيره (ان دابر هؤلاء مقطوع) أي مستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد وقوله تعالى (مصبحين) حال من هؤلاء أو من الضمير في مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء في معنى مدبري هؤلاء أي يتم استئصالهم في الصباح (وجاء أهل المدينة) أي مدينة من مدائن قوم لوط وهي سذوم بسين مهملة وذال معجمة وأخطأ من قال بمهملة (يستبشرون) أي باضياف لوط طمعا فيهم وليس في الآية دليل على المكان الذي جاؤه الا أن القضية تدل على انهم جاؤا دار لوط وقيل ان الملائكة لما كانوا في غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل الى قوم لوط وقيل امرأة لوط أخبرتهم بذلك قال الرازي وبالجملة فالقوم قالوا نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجها ولا أحسن شكلا منهم فذهبوا الى دار لوط طلبا منهم لاولئك المرد والاستبشار اظهار السرور ولما وصلوا اليه (قال) لهم لوط (ان هؤلاء ضيفي) أي وحق على الرجل اكرام الضيف (فلا تفضحون) فيهم يقال فضحه يفضحه اذا أظهر من أمره ما يلزم به العار واذا قصد الضيف بسوء كان ذلك اهانة لصاحب المحل ثم أكد ذلك بقوله (واتقوا) أي خافوا (الله) في أمرهم (ولا تخزون) أي ولا تخجلوني فيهم بقصدكم اياهم بفعل الفاحشة من الخزاية وهي الحياء أو لا تذلوني بسببهم من الخزي وهو الهوان (قالوا) أي قومه في جواب قوله لهم (أولم ننهك عن العالمين) أي عن أن تضيف أحدا من العالمين وقيل أولم ننهك أن تدخل الغرباء المدينة فانا نطلب منهم الفاحشة وقيل أولم ننهك أن تمنع بيننا وبينهم فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان لوط عليه السلام يمنعهم عنهم بقدر وسعه ثم (قال) لهم (هؤلاء بناتي) أي نساء القوم لان كل أمة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته فكأنه قال لهم هؤلاء بناتي فانكحوهن وخلوا بني فلا تتعرضوا لهم (ان كنتم فاعلين) أي ما أقول لكم أو قضاء الشهوة والكلام في ذلك قد مر بالاستقصاء في سورة هود وقرأ نافع بفتح ياء بناتي والباقون بسكونها قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على لسان ملائكته (لعمرك) أي وحياتك وما أقسم بحياة أحد غيره وذلك يدل على أنه أكرم الخلق على الله تعالى (انهم لفي سكرتهم) أي شدة غفلتهم التي أزالت عقولهم (يعمهون) أي يتحيرون الخطاب للوط عليه السلام قالت له الملائكة ذلك أي

فكيف يعقلون قولك ويلتفتون الى نصيحتك *(تنبيه)* لعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوبا وانهم وما فى حيزه جواب القسم تقديره لعمرك قسمى أو يمينى انهم والعمر والعمر بالفتح والضم واحد وهو البقاء الا انهم خصوا القسم بالمفتوح لايثار الاخف فيه وذلك لان الحلف كثير الدور على ألسنتهم بلعمرى ولعمرك (فأخذتهم الصيحة) أى صيحة هائلة مهلكة وهل هى صيحة جبريل عليه السلام قال الرازى ليس فى الآية دليل على ذلك فان ثبت بدليل قوى قيل به والا فليس فى الآية دليل الا انهم جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله تعالى (مشرقين) أى داخلين فى وقت الشروق وهو بزوغ الشمس حال من مفعول أخذتهم ثم بين سبحانه وتعالى ما تسبب عن الصيحة معقبا لها بقوله تعالى (فجعلنا) أى بما لنا من العظمة والقدرة (عاليها) أى مدائنهم (سافلها) بأن رفعها جبريل عليه السلام الى السماء وأسقطها مقلوبة الى الارض (وأمطرنا عليهم) أى أهل المدائن التى قلبت المدائن لاجلهم (حجارة من سجيل) أى طين طبخ بالنار *(تنبيه)* دلت الآية الكريمة على أن الله تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب أحدها الصيحة الهائلة المنكرة وثانيها أنه جعل عاليها سافلها وثالثها انه أمطر عليهم حجارة من سجيل وتقدمت الاشارة الى ذلك فى سورة هود (ان فى ذلك) أى المذكور من هذه الانواع (لآيات) أى دلالات على وحدانية الله تعالى (للمتوسمين) أى للناظرين المعتبرين جمع متوسم وهو الناظر فى السمة حتى يعرف حقيقة الشئ وسمته (وانها) أى هذه المدائن (لبسبيل) أى طريق قريش الى الشأم (مقيم) أى لم يندرس بل يشاهدون ذلك ويرون أثره أفلا يعتبرون ثم قال سبحانه وتعالى مشيرا الى زيادة الحث على الاعتبار بالتأكيد (ان فى ذلك) أى هذا الامر العظيم (لآية) أى علامة عظيمة فى الدلالة على وحدانيته تعالى (للمؤمنين) أى كل من آمن بالله وصدق الانبياء والرسل عرف ان ذلك انما كان لاجل ان الله تعالى انتقم لانبيائه من أولئك الجهال أما الذين لا يؤمنون بالله فانهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه ثم ذكر تعالى القصة الثالثة وهى قصة شعيب عليه السلام بقوله تعالى (وان) مخففة من الثقيلة أى وانه (كان) أى جبلة وطبعا (أصحاب الايكة) وهم قوم شعيب عليه السلام وقد ذكر الله تعالى قصتهم فى سورة الشعراء والايكة الشجر المتكاثف وقيل الشجر الملتف وقال ابن عباس هى شجر المقل وقال الكلبى الايكة الغيضة أى غيضة شجر بقرب مدين (لظالمين) أى عريقين فى الظلم بتكذيبهم شعيبا عليه السلام (فانتقمنا منهم) أى بسبب ذلك قال المفسرون اشتد الحر فيهم أياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا عن آخرهم وقوله تعالى (وانهما) فيه قولان الاول ان المراد قرى قوم لوط والايكة والقول الثانى أن الضمير للايكة ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما فلما ذكر الايكة دل بذكرها على مدين فجاء ضميرهما (لبامام) أى طريق (مبين) أى واضح والامام اسم لما يؤتم به قال الفراء انما جعل الطريق اماما لانه يؤم ويتبع وقال ابن قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصل الى الموضع الذى يريده ثم ذكر تعالى القصة الرابعة وهى قصة صالح عليه السلام بقوله

تعالى (ولقد كذب أصحاب الحجر) وهم ثمود قوم صالح عليه السلام وديارهم بين المدينة الشريفة والشام (المرسلين) أى كلهم بتكذيب رسولهم كما كذب هؤلاء المرسلين بتكذيبك لان الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق فمن كذب واحدا منهم فقد كذب الجميع وهم فى اثبات الرسالة بالمعجزة على حد سواء ثم أتبع ذلك قوله تعالى (وآتيناهم) أى بما لنا من العظمة والقدرة على يد رسولهم صالح عليه السلام (آياتنا) أى آيات الكتاب المنزل على نبيهم أو معجزات كالناقة وكان فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظيم خلقها وقرب ولادتها وغزارة لبنها وانما أضاف الآيات اليهم وان كانت لنبيهم صالح عليه السلام لانه مرسل من ربهم اليهم بهذه الآيات (فكانوا عنها) أى الآيات (معرضين) أى تاركيها غير ملتفتين اليها لا يتفكرون فيها ثم أخبر تعالى عنهم أنهم كانوا امثل هؤلاء فى الأمن من العذاب والغفلة عما يراد بهم مع أنهم كانوا أشد منهم فقال تعالى (وكانوا ينحتون) والنحت قلع جزء بعد جزء من الجسم على سبيل المسح (من الجبال) أى التى تقدم انا جعلناها رواسى (بيوتا آمنين) عليها من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء لوثاقتها الا كبيوتكم التى لا بقاء لها على أدنى درجة وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص برفع الباء والباقون بكسرها (فأخذتهم الصيحة) أى صيحة العذاب (مصبحين) أى وقت الصبح (فما أغنى) أى ما دفع (عنهم) الضر والبلاء (ما كانوا يكسبون) أى يعملون من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الاموال والعدد وعن جابر رضى الله تعالى عنه مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها ولما ذكر تعالى هذه القصص تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم فانه اذا سمع ان الامم السالفة كانوا يعاملون أنبياء الله بمثل هذه المعاملات سهل تحمل تلك السفاهة قال تعالى (وما خلقنا السموات والارض) أى على ما لها من العلو والسعة والارض على ما لها من المنافع والغرائب (وما بينهما) من هؤلاء المشركين المكذبين وعذابهم ومن المياه والرياح والسحاب المسبب عنه النبات وغير ذلك (الا بالحق) أى الا خلقا ملتبسا بالحق فيتفكر فيه من وفقه الله تعالى ليعلم النشأة الآخرة بهذه النشأة الاولى (وان الساعة) أى القيامة (لآتية) لا محالة فيجازى الله تعالى كل أحد بعمله ثم انه تعالى لما صبره على أذى قومه رغبه بعد ذلك فى الصفح عن سيئاتهم بقوله تعالى (فاصفح الصفح الجميل) أى اعرض عنهم اعراضا لا جزع فيه ولا تعجل بالانتقام منهم وهذا منسوخ بآية السيف قال الرازى وهو بعيد لان المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح فكيف يصير منسوخا اهـ والاول جرى عليه البغوى وجماعة من المفسرين ثم علل تعالى هذا الامر بقوله (ان ربك) أى المحسن اليك الآمر لك بهذا (هو) أى وحده (الخلاق) أى المتكرر منه هذا الفعل (العليم) أى البالغ العلم بكل المعلومات فليست أقوالهم وأفعالهم الا منه سبحانه وتعالى لانه خالقها وقد علمت أنه لا يضيع مثقال ذرة فاعتمد عليه فى أخذ حقك فانه نعم المولى ونعم النصير ولما صبره الله تعالى على أذى قومه وأمره أن يصفح

الصفح

الصفح الجميل اتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خص الله تعالى أفضل خلقه بها بقوله تعالى (ولقد آتيناك) يا أفضل الخلق بما لنا من العظمة والقدرة كما آتيناصا لحا ما تقدم (سبعا) يكون كل سبع منها كفيلا باغلاق باب أبواب من النيران السبعة وهي أم القرآن الجامعة لجميع معاني القرآن التي أمرنا باعادتها في كل ركعة زيادة في حفظها وتبركا بلفظها وتذكر المعانيها وتخصيصا لها عن بقية الذكر الذي تكفلنا بحفظه والسبب في وقوع هذا الاسم على الفاتحة لانها سبع آيات وهذا ما عليه أكثر المفسرين روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هي السبع المثاني رواه أبو هريرة وقيل المراد سبع سور وهي الطوال واختلف في السابعة فقيل الانفال وبراءة لانهما في حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما بآية البسملة وقيل الحواميم السبع وقيل سبع صحائف وهي الاسباع وقوله تعالى (من المثاني) صفة للسبع وهو جمع واحده مثناة والمثناة كل شئ يثنى أي يجعل اثنين من قولك ثنيت الشئ ثنيا أي عطفته وضممت اليه آخر ومنه يقال لركبتي الدابة ومرفقيها مثاني لانها تثنى بالفخذ والعضد ومثاني الوادي معاطفه أما تسمية الفاتحة بالمثاني فلوجوه الاول أنها تثنى في كل صلاة بمعنى أنها تقرأ في كل ركعة الثاني أنها تثنى بما بعدها فيما يقرأ معها الثالث أنها قسمت قسمين اثنين لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين والحديث مشهور وقد ذكرته في وجه تسميتها صلاة عند ذكرها الرابع أنها قسمان ثناء ودعاء وأيضا النصف الاول منها حق الربوبية وهو الثناء والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء الخامس أن كلماتها مثناة مثل الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم وأما السور والاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء كأنها تثنى على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى *(تنبيه)* من في من المثاني اما للبيان أو للتبعيض اذا أردت بالسبع الفاتحة او الطوال وللبيان ان أردت الاسباع قال الزمخشري ويجوز أن تكون كتب الله كلها مثاني لانها تثنى عليه لما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها وقوله تعالى (والقرآن العظيم) أي الجامع لجميع معاني الكتب السماوية المتكفل بخيري الدارين مع زيادات لا تحصى فيه أوجه أحدها أنه من عطف بعض الصفات على بعض أي الجامع بين هذين النعتين الثاني أنه من عطف العام على الخاص اذ المراد بالسبع اما الفاتحة واما الطوال فكأنه ذكر مرتين بجهة الخصوص ثم باندراجه في العموم الثالث أن الواو مقحمة * ولما عرف سبحانه وتعالى رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو أنه آتاه سبعا من المثاني والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة في الدنيا بقوله تعالى (لا تمدن عينيك) أي لا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات (الى ما متعنا به أزواجا منهم) أي أصنافا من الكفار والزوج في اللغة الصنف وقد أوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شئ قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه من أوتي القرآن فرأى أن أحدا أوتي في الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وتأول سفيان بن عيينة هذه الآية بقول النبي صلى الله

عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن أى لم يستغن وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما
لا تمدن عينيك أى لا تتمن ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا وقيل أتت من بعض البلاد سبع
قوافل ليهود قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الامتعة فقال المسلمون
لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى طاعة الله تعالى فقال الله تعالى لقد أعطيتكم
سبع آيات هن خير من هذه القوافل السبع وقرر الواحدى هذا المعنى فقال انما يكون مادا
عينيه الى الشئ اذا أدام النظر نحوه وادامة النظر الى الشئ تدل على استحسانه وتمنيه وكان
النبى صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى ما يستحسن من متاع الدنيا روى أنه نظر الى نعم بنى المصطلق
وقد عوست فى أبوالها وأبعارها وهو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها اذا تركت من
العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهى أحسن ما تكون وعن أبى هريرة رضى الله
تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى
من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم وقوله تعالى (ولا تحزن عليهم) نهى له عن
الالتفات اليهم ان لم يؤمنوا فيخلصوا أنفسهم من النار* ولما نهاه سبحانه وتعالى عن الالتفات
الى أولئك الاغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين بقوله تعالى (واخفض جناحك)
أى ألن جانبك (للمؤمنين) أى العريقين فى هذا الوصف واصبر نفسك معهم وارفق بهم* ولما
أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد فى الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ
ما أرسل به اليهم بقوله تعالى (وقل انى أنا النذير) من عذاب الله أن ينزل عليكم ان لم تؤمنوا
وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (المبين) أى البين الانذار وقوله
تعالى (كما أنزلنا) أى العذاب (على المقتسمين) قال ابن عباس هم اليهود والنصارى سموا بذلك
لانهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به
وقال عكرمة انهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد هذه السورة لى وقال آخر هذه السورة لى
وانما فعلوا ذلك استهزاء به وقال مجاهد انهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفر بعضهم
ببعضها وقال قتادة أراد بالمقتسمين كفار قريش قال سموا بذلك لان أقوالهم تقسمت فى القرآن
فقال بعضهم انه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم أنه أساطير الاولين وقال ابن
السائب سموا بالمقتسمين لانهم اقتسموا طرق مكة وذلك أن الوليد بن المغيرة بعث رهطا من أهل
مكة قيل ستة عشر وقيل أربعين وقال انطلقوا فتفرقوا على طرق مكة حيث يمر بكم أهل
الموسم فاذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم انه مجنون وليقل بعضكم انه كاهن وليقل بعضكم
انه ساحر وليقل بعضكم انه شاعر فذهبوا وقعدوا على طرق مكة يقولون ذلك لمن يمر بهم من حجاج
العرب وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام نصبوه حكما فاذا جاؤا وسألوا عما قال أولئك
فيقول صدقوا فأهلكهم الله تعالى يوم بدر وقوله تعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) نعت
للمقتسمين وقال ابن عباس هم اليهود والنصارى جزؤا القرآن أجزاء فآمنوا بما وافق التوراة
والانجيل وكفروا بالباقى وقال مجاهد قسموا كتاب الله ففرقوه وبددوه وقيل كانوا يستهزؤن به

فيقول

فيقول بعضهم سورة البقرة لي ويقول بعضهم سورة آل عمران لي وقيل اقتسموا القرآن فقال
بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم أساطير الاولين وقيل هم أهل
الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على أن القرآن ما يقرؤنه من كتبهم فيكون ذلك
تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم سحر وشعر
وأساطير الاولين بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم * (تنبيه) * عضين جمع
عضة وهي الفرقة والعضين الفرق وتقدم معنى جعلهم القرآن كذلك وقيل العضة السحر بلغة
قريش يقولون هو عاضه وهي عاضهة وفي الحديث لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة
والمستعضهة أي الساحرة والمستسحرة وقيل هو من العضه وهو الكذب والبهتان يقال عضهه
عضها وعضيهة أي رماه بالبهتان وقيل جمع عضو مأخوذ من قولهم عضيت الشيء أعضيه اذا فرقته
وجعلته أجزاء وذلك أنهم جعلوا القرآن أعضاء مفرقة فقال بعضهم سحر وقال بعضهم أساطير
الاولين ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على أنه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن
عضين بقوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) فيكون الضمير عائدا على المقتسمين
لانه الاقرب ويحتمل أن يعود على جميع المكلفين لان ذكرهم تقدم في قوله تعالى وقل اني أنا
النذير المبين أي لجميع الخلق قال جماعة من المفسرين يسئلون عن لا اله الا الله وقال أبو
العالية يسئلون عما كانوا يعبدون وما أجابوا به المرسلين (فان قيل) كيف الجمع بين قوله تعالى
فوربك لنسألنهم أجمعين وبين قوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان (أجيب) بأن
النفي ينصرف الى بعض الاوقات والاثبات الى وقت آخر لان يوم القيامة يوم طويل وفيه
مواقف يسئلون في بعضها ولا يسئلون في بعض آخر ونظيره قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون وقال
في آية أخرى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم
(فاصدع) أي اجهر بعلو وشدة فارقا بين الحق والباطل وقرأ حمزة والكسائي باشمام الصاد
الساكنة قبل الدال والباقون بالصاد الخالصة (بما) أي بسبب ما (تؤمر) به أمر النبي صلى
الله عليه وسلم في هذه الآية باظهار الدعوة روى عن عبد الله بن عبيدة قال كان مستخفيا حتى
نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه (وأعرض) أي اعراض من لا يبالي (عن المشركين)
بالصفح الجميل عن الاذى والاجتهاد في الدعاء ولا تلتفت الى لومهم اياك على اظهار الدعوة قال
بعض المفسرين كالبغوي وهذا منسوخ بآية القتال قال الرازي وهو ضعيف لان معنى هذا
الاعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخا * ولما كان هذا الصدع في غاية الشدة عليه صلى
الله عليه وسلم لكثرة ما يلقى عليه من الاذى خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله معللا له (انا) أي
بما لنا من العظمة والقدرة (كفيناك المستهزئين) أي شر الذين هم عريقون في الاستهزاء وهم
خمسة نفر من رؤساء قريش الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل وعدي بن قيس والاسود
ابن عبد المطلب والاسود بن عبد يغوث ووصف سبحانه وتعالى هؤلاء بقوله تعالى (الذين
يجعلون مع الله الها آخر) وقيل ليس بصفة بل مبتدأ ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء في خبره

وهو (فسوف يعلمون) أى عاقبة أمرهم فى الدارين * ولما ذكر سبحانه وتعالى ان قومه يسفهون عليه ولاسيما أولئك المقتسمون قال له تعالى (ولقد نعلم) أى تحقق وقوع علمنا (انك) أى على مالك من الحلم وسعة البطان (يضيق صدرك) أى يوجد ضيقه و يتجدد (بما يقولون) أى من الاستهزاء والتكذيب بك و بالقرآن لان الجبلة البشرية والمزاج الانسانى يقتضى ذلك فعند هذا قال تعالى (فسبح) ملتبسا (بحمد ربك) أى نزهه عن صفات النقص وقال الضحاك قل سبحان الله و بحمده وقال ابن عباس فصل بأمر ربك (وكن من الساجدين) أى من المصلين روى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة وقدمت معناه فى سورة البقرة *(تنبيه)* اختلف الناس كيف صار الاقبال على الطاعات سببا لزوال ضيق القلب والحزن فقال العارفون المحققون اذا اشتغل الانسان بهذه الانواع من العبادات يتنور باطنه ويشرق عليه و ينفسح و ينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت اليها وقال بعض الحكماء اذا نزل بالانسان بعض المكاره ففزع الى الطاعات فكأنه يقول يارب يجب على عبادتك سواء أعطيتنى الخيرات أو ألقيتنى فى المكروهات فأنا عبدك بين يديك فافعل بى ماتشاء (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال ابن عباس يريد الموت وسمى الموت يقينا لانه أمر متيقن وهذا مثل قوله تعالى فى سورة مريم وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا وروى البغوى بسنده عن ابن جبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله الى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى الى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (فان قيل) أى فائدة لهذا التوقيت مع أن كل أحد يعلم أنه اذا مات سقطت عنه العبادات (أجيب) بأن المراد منه واعبد ربك فى جميع زمان حياتك فلا تخل لحظة من لحظات الدنيا بهذه العبادات وعن عمر رضى الله عنه قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو قال شريت له بمائتى درهم فدعاه حب الله وحب رسوله الى ماترون وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

(سورة النحل مكية)

الا قوله تعالى وان عاقبتم الى آخر السورة وحكى الاصم عن بعضهم أنها كلها مدنية وقال آخرون من أولها الى قوله كن فيكون مدنى وماسواه مكى وعن قتادة بالعكس وتسمى سورة النعم والمقصود من هذه السورة الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم فاعل بالاختيار منزه عن شوائب النقص وأدل مافيها على هذا المعنى أمر النحل لما ذكر من شأنها فى دقة الفهم فى ترتيب

بيوتها ورعيها وسائر أمرها من اختلاف ألوان ما يخرج منها من أعسالها وجعله شفاء مع أكلها من الثمار النافعة والضارة وغير ذلك من الامور ووسمها بالنعم واضح وهى مائة وثمانية وعشرون آية وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة وعدد حروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف (بسم الله) أى المحيط بدائرة الكمال فما شاء فعل (الرحمن) أى الذى عمت نعمته جليل خلقه وحقيره صغيره وكبيره (الرحيم) أى الذى خص من شاء بنعمته النجاة مما يسخطه بما يرضاه وقوله تعالى (أتى أمر الله) فيه وجهان أحدهما أنه ماض لفظا مستقبل معنى اذ المراد به يوم القيامة وانما ابرزه فى صورة ما وقع وانقضى تحقيقا له ولصدق المخبر به والثانى أنه على بابه والمراد مقدماته وأوائله وهو نصر رسوله صلى الله عليه وسلم أى جاء أمر الله ودنا وقرب فانه يقال فى الكلام المعتاد انه قد أتى ووقع اجراء لما يجب وقوعه مجرى الواقع يقال لمن طلب الاعانة وقرب حصولها جاءك الغوث أى أتى أمر الله وعدا (فلا تستعجلوه) وقوعا قبل مجيئه فانه واقع لا محالة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار باصبعيه السبابة والوسطى قال ابن عباس كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من اشراط الساعة * ولما مر جبريل بأهل السموات مبعوثا الى النبى صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر قامت الساعة وروى أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار بعضهم لبعض ان هذا أى محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم أن القيامة قد اقتربت فأمسكوا عن بعض ما تقولون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيأ فنزل اقترب للناس حسابهم فاشفقوا وانتظروا فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيأ مما تخوفنا به فنزل أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمأنوا فكان الكفار قالوا سلمنا لك يا محمد الا أنا نعبد هذه الاصنام لتشفع لنا عند الله تعالى فتخلصنا من هذا العذاب المحكوم به فأجابهم الله تعالى بقوله تعالى (سبحانه) أى تنزيها له (وتعالى عما يشركون) أى تبرأ سبحانه وتعالى بالاوصاف الحميدة عن أن يكون له شريك فى ملكه وقرأ حمزة والكسائى أتى بالامالة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ حمزة والكسائى عما تشركون فى الموضعين بالتاء على وفق قوله فلا تستعجلوه والباقون بالياء على الغيبة على تلوين الخطاب أو على أن الخطاب للمؤمنين أولهم ولغيرهم * ولما أجاب سبحانه وتعالى الكفار عن شبهتهم بقوله تنزيها لنفسه عما يشركون وكان الكفار قالوا هب ان الله تعالى قضى على بعض عبيده بالشر وعلى آخرين بالخير ولكن كيف يمكنك أن تعرف هذه الامور التى لا يعلمها الا الله تعالى وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله تعالى وأحكامه فى ملكه وملكوته فأجابهم الله تعالى بقوله (ينزل الملائكة) قال ابن عباس يريد بالملائكة جبريل وحده قال الواحدى يسمى الواحد بالجمع اذا كان ذلك الواحد رئيسا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الزاى والباقون بتشديدها والمراد (بالروح) الوحى أو القرآن فان القلوب تحيا به من موت الجهالات وقوله تعالى (من أمره) أى بارادته حال من الروح (على من يشاء من عباده) وهم الانبياء (أن أنذروا) أى خوفوا الكافرين بالعذاب وأعلموهم (أنه)

أى الشان (لا اله الا أنا) أى لا اله غيرى وقوله تعالى (فاتقون) أى خافونى رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود *(تنبيه)* فى قوله تعالى ان أنذروا ثلاثة أوجه أحدها أنها المفسرة لان الوحى فيه ضرب من القول والانزال بالروح عبارة عن الوحى قال تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا الثانى أنها المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف الثالث أنها المصدرية التى من شأنها نصب المضارع ووصلت بالامر كقولهم كتبت اليه بأن قم والآية تدل على أن نزول الوحى بواسطة الملائكة وان النبوة عطاءة * ولما وحد سبحانه وتعالى نفسه ذكر الآيات الدالة على وحدانيته من حيث انها تدل على أنه تعالى هو الموجد لاصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة بقوله تعالى (خلق السموات) أى التى هى السقف المظل (والارض) أى التى هى البساط المقل (بالحق) أى أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته (تعالى) أى تعاليا فات الوصف (عما يشركون) به من الاصنام * ولما كان خلق السموات والارض غيبا لتقدمه وكان خلق الانسان على هذه الصفة شهادة فتكون أقوى فى الدلالة على وحدانيته تعالى قال تعالى (خلق الانسان) أى هذا النوع (من نطفة) أى آدم عليه السلام من مطلق الماء ومن تفرع منه بعد زوجه حواء من ماء مقيد بالدفق الى أن صيره قويا شديدا (فاذا هو خصيم) أى شديد الخصومة (مبين) أى بينها روى أن أبى بن خلف الجمحى وكان ينكر البعث جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال تزعم يا محمد ان الله يحيى هذا العظم بعد ما قد رم فنزلت هذه الآية ونزل فيه أيضا قوله تعالى قال من يحيى العظام وهى رميم قال الخازن فى تفسيره والصحيح ان الآية عامة فى كل ما يقع فيه الخصومة فى الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم أولى ولما كان أشرف الاجسام الموجودة فى العالم السفلى بعد الانسان سائر الحيوانات وأشرفها الانعام ذكرها بقوله تعالى (والانعام) أى الازواج الثمانية الضأن والمعز والابل والبقر ونصبه بفعل يفسره (خلقها) قال الواحدى تم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدأ فقال (لكم فيها دفء) أى ما يدفأ به من اللباس والاكسية ونحوها المتخذة من الاصواف والاوبار والاشعار قال ويجوز أيضا أن يكون تمام الكلام عند قوله والانعام خلقها لكم ثم ابتدأ فقال تعالى فيها دفء قال الرازى قال صاحب النظم وأحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله تعالى خلقها والدليل عليه أنه عطف عليه ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال * ولما ذكر تعالى الانعام ذكر لها أنواعا من المنافع الاول قوله تعالى لكم فيها دفء النوع الثانى قوله تعالى (ومنافع) أى ولكم فيها منافع من نسلها ودرها وركوبها والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الانعام وانما عبر تعالى عن ذلك بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الاعم لان الدر والنسل قد ينتفع به فى الاكل وقد ينتفع به فى البيع بالنقود وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الاقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل النوع الثالث قوله تعالى (ومنها تأكلون) فان قيل تقديم الظرف يفيد الحصر لان تقديم

الظرف موذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها (أجيب) بأن الاكل من هذه الانعام هو الذي يعتمده الناس فى معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد البر والبحر فليس بمعتد به فى الاغلب وأكله يجرى مجرى التفكه به فخرج منها تأكلون مخرج الغالب فى الاكل من هذه الانعام (فان قيل) منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللباس فلم قدمت منفعة اللباس عليه (أجيب) بأن منفعة اللباس أكثر من منفعة الاكل فلهذا قدمت على منفعة الاكل (ولكم فيها جمال) أى زينة (حين تريحون) أى تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشى (وحين تسرحون) أى تخرجونها بالغداة الى المرعى فان الافنية تتزين بها فى الوقتين وتجل أهلها فى أعين الناظرين اليها (فان قيل) لم قدمت الاراحة على التسريح (أجيب) بأن الجمال فى الاراحة أظهر اذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم اوت الى الحظائر حاضرة لاهلها فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع ثم تأخذ فى التفرق والانتشار للمرعى فى البرية فليس فى التسريح تجمل كما فى الاراحة النوع الرابع قوله تعالى (وتحمل أثقالكم) جمع ثقل وهو متاع المسافر (الى بلد) أى غير بلدكم أردتم السفر اليه (لم تكونوا بالغيه) أى غير واصلين اليه على غير الابل (الابشق الانفس) أى الابكلفة ومشقة والشق بكسر الشين نصف الشئ أى لم تكونوا بالغيه الابنقصان قوة النفس وذهاب نصفها وقال ابن عباس يريد من مكة الى اليمن والى الشأم والى مصر قال الواحدى والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير ابل شق عليكم وخص ابن عباس هذه البلاد لان متاجر أهل مكة كانت الى هذه البلاد (فان قيل) المراد من قوله تعالى والانعام خلقها لكم الابل فقط بدليل أنه وصفها الى آخر الآية بقوله وتحمل أثقالكم الى بلد وهذا الوصف لايليق الا بالابل (أجيب) بأن المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الانعام فبعض تلك المنافع حاصل فى الكل وبعضها مختص بالبعض والدليل عليه أن قوله ولكم فيها جمال حاصل فى البقر والغنم مثل حصوله فى الابل * (تنبيه) * احتج منكرو كرامات الاولياء بهذه الآية فانها تدل على أن الانسان لايمكنه الانتقال من بلد الى بلد الابشق الانفس وحمل الاثقال على الابل ومثبتو الكرامات يقولون ان الاولياء قد ينتقلون من بلد الى بلد آخر بعيد فى ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة وكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلا واذا بطل القول بالكرامات فى هذه الصورة بطل القول بها فى سائر الصور اذلا قائل بالفرق وأجاب المثبتون بأنا نخصص عموم هذه الآية بالادلة الدالة على وقوع الكرامات (ان ربكم) أى الموجد لكم والمحسن اليكم (لرؤف) أى بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بما يرضيه وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بقصر الهمزة والباقون بالمد (رحيم) أى بليغ الرحمة بسبب وبغير سبب وقوله تعالى (والخيل) أى الصاهلة وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالابل والرهط (والبغال) أى المتولدة بينها وبين الحمير (والحمير) الناهقة عطف على الانعام أى وخلق هذه الحيوانات (لتركبوها) أى لاجل أن تركبوها وفى نصب قوله تعالى (وزينة) أوجه أحدها انه مفعول من أجله وانما وصل الفعل الى

الاول باللام فى قوله تعالى لتركبوها والى هذا بنفسه لاختلاف شرطه فى الاول وهو عدم اتحاد الفاعل فان الخالق هو الله تعالى والراكب المخاطبون بخلاف الثانى الثانى انها منصوبة على الحال وصاحب الحال اما مفعول خلقها واما مفعول لتركبوها فهو مصدر أقيم مقام الحال الثالث أن تنتصب بتقدير فعل قدره الزمخشرى بقوله وخلقها زينة وقدره ابن عطية وغيره بقولهم وجعلها زينة الرابع أنها مصدر الفعل محذوف أى وتتزينون بها زينة *(تنبيه)* احتج القائلون وهم ابن عباس والحاكم وأبو حنيفة ومالك بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية قالوا منفعة الاكل أعظم من منفعة الركوب فلو كان أكل لحم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر وحيث لم يذكره تعالى علمنا أنه يحرم أكله لان الله تعالى خص الانعام بالاكل حيث قال تعالى ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا أنها مخلوقة للركوب لا للاكل واحتج القائلون باباحة أكل اللحم من الخيل وهم سعيد بن جبير وعطاء وشريح والحسن والشافعى بما روى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة وبما روى عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية وأذن فى الخيل وفى رواية أكلنا فى زمن خيبر الخيل وحمر الوحش ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلى هذه رواية البخارى ومسلم وفى رواية أبى داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابنا مخمصة فنهانا النبى صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وأجابوا عن هذه الآية بأن ذكر الركوب والزينة لا يدل على أن منفعتها مختصة بذلك وانما خص هاتين المنفعتين بالذكر لانهما معظم المقصود ولهذا سكت عن حمل الاثقال على الخيل مع قوله تعالى فى الانعام وتحمل أثقالكم ولم يلزم من ذلك تحريم الاثقال على الخيل وقال الواحدى لو دلت هذه الآية على تحريم أكل هذا الحيوان لكان تحريم أكلها معلوما فى مكة لاجل أن هذه السورة مكية ولو كان الامر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين ان لحوم الحمر الاهلية حرمت عام خيبر أى وذلك فى المدينة باطلا لان التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم لم يكن لتخصيص هذا التحريم بهذه السنة فائدة قال الرازى وهذا جواب حسن متين وقال ابن الخازن والدليل الصحيح المعتمد عليه فى اباحة لحوم الخيل ان السنة مبينة للكتاب * ولما كان نص الآية يقتضى أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الاكل مسكوتا عنه ودار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير أخذنا به جمعا بين النصين * ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الانواع من الحيوان ذكر باقيها على سبيل الاجمال بقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) وذلك لان أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ولو خاض الانسان فى شرح عجائب أحوالها لكان المذكور بعد كتبه المجلدات الكثيرة كالقطرة فى البحر فكان أحسن الاحوال ذكرها على سبيل الاجمال كما ذكر الله تعالى فى هذه الآية وروى عطاء

ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل كل يوم ويغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل نفضة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل كل يوم منهم سبعون ألفا البيت المعمور وفى الكعبة أيضا سبعون ألفا لا يعودون اليه الى أن تقوم الساعة سبحان من له هذا الملك العظيم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وفسر قتادة الآية بالسوس فى النبات والدود فى الفواكه وفسرها بعضهم بما أعد الله تعالى لاهل الجنة فى الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر * ولما شرح الله تعالى دلائل التوحيد قال تعالى (وعلى الله) أى الذى له الاحاطة بكل شئ (قصد السبيل) أى بيان الطريق المستقيم انما ذكرت هذه الدلائل وشرحها ازاحة للعذر وازالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة والمراد بالسبيل الجنس ولذلك أضاف اليها القصد وقال (ومنها) أى السبيل (جائر) أى حائد عن الاستقامة (فان قيل) هذه الآية تدل على أن الله تعالى يجب عليه الارشاد والهداية الى الدين وازاحة العلل والاعذار كما قال به المعتزلة لانه تعالى قال وعلى الله قصد السبيل وكلمة على للوجوب قال تعالى ولله على الناس حج البيت (أجيب) بأن المراد على الله تعالى بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح (فان قيل) لم غير أسلوب الكلام حيث قال فى الاول وعلى الله قصد السبيل وفى الثانى ومنها جائر دون وعليه جائر (أجيب) بأن المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل الى القصد والجائر انما جاء بالعرض ثم قال تعالى (ولو شاء) هدايتكم (لهداكم) الى قصد السبيل (أجمعين) فتهتدون اليه باختيار منكم قال الرازى وهذا يدل على أن الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره * ولما ذكر تعالى نعمه على عباده بخلق الحيوانات لاجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر لان من أعظم النعم على عباده فقال (هو) أى لا غيره مما تدعى فيه الالهية (الذى أنزل) أى بقدرته الباهرة (من السماء) اما من نفسها أو من غيرها أو من جهتها أو من السحاب كما هو مشاهد (ماء) أى واحدا تحسونه بالذوق والبصر (لكم منه) أى من ذلك الماء (شراب) أى تشربونه وقد بين تعالى فى آية أخرى ان هذه النعمة جليلة فقال وجعلنا من الماء كل شئ حى (فان قيل) ظاهر هذا ان شرابنا ليس الا من المطر (أجيب) بأنه تعالى لم ينف أن يشرب من غيره وبتقدير الحصر لا يمتنع أن يكون الماء العذب تحت الارض من جملة ماء المطر سكن هناك بدليل قوله فى سورة المؤمنون وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الارض (ومنه) أى من الماء (شجر) أى ينبت بسببه والشجر هنا كل نبات من الارض حتى الكلأ وفى الحديث لا تأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلأ (فان قيل) قال المفسرون فى قوله تعالى والنجم والشجر يسجدان المراد من النجم ما ينجم من الارض مما ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق (أجيب) بأن عطف الجنس على النوع وبالضد مشهور وأيضا فلفظ الشجر يشعر بالاختلاط يقال تشاجر القوم اذا اختلط

أصوات بعضهم ببعض وتشاجرت الرياح اذا اختلطت وقال تعالى حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلا فوجب اطلاق لفظ الشجر عليه ويصح أن يكون المراد بالشجر هنا ماله ساق لان الابل تقدر على رعى ورق الاشجار الكبار وحينئذ فاطلاق الشجر على الكلا مجاز (فيه) أى الشجر (تسيمون) أى ترعون مواشيكم يقال أسمت الماشية اذا خليتها ترعى وسامت هى اذا رعت حيث شاءت قال الزجاج أخذ ذلك من السومة وهى العلامة لانها تؤثر فى الارض برعيها علامات وقال غيره لانها تعلم الارسال فى المرعى * ولما ذكر تعالى الحيوانات تفصيلا واجمالا ذكر الثمار تفصيلا واجمالا بقوله تعالى (ينبت) أى الله (لكم به) أى بذلك الماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذى يقتات به كالحنطة والشعير والارز لان به قوام البدن وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن وبارك فيه وثلث بذكر النخيل لان ثمرها غذاء وفاكهة وختم بذكر الاعناب لانه شبيه النخيل فى المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر تعالى سائر الثمار اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده لان الحبة الواحدة تقع فى الطين فاذا مضى عليها مقدار معين من الوقت نفذ فى داخل تلك الحبة أجزاء من رطوبة الارض ونداوتها فتنفتح الحبة فينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الارض الى الهواء ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة فى قعر الارض وهذه الغائصة هى المسماة بعروق الشجرة ثم ان تلك الشجرة لاتزال تزداد وتنمو وتقوى ثم تخرج منها الاوراق والازهار والاكمام والثمار ثم ان تلك الثمرة تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب فان قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان والى ذلك الاشارة بقوله تعالى (ان فى ذلك لآية) بينة على أن فاعل ذلك تام القدرة يقدر على الاعادة وانه مختار يفعل ذلك فى الوقت الذى يريده وانما تحصل معرفة ذلك (لقوم يتفكرون) فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته فيؤمنون * ثم ذكر سبحانه وتعالى أشياء تدل على أنه الفاعل المختار بقوله تعالى (وسخر لكم) أى أيها الناس لاصلاح أحوالكم (الليل) للسكنى (والنهار) للمعاش ثم ذكر آية النهار فقال (والشمس) أى لمنافع اختصاصها ثم آية الليل فقال (والقمر) لامور علقها به (والنجوم) أى الآيات نصبها لها * ثم نبه على تغيرها بقوله تعالى (مسخرات) أى بأنواع التغير لما خلقها له على أوضاع دبرها (بأمره) أى بارادته سببا لصلاحكم وصلاح ما به قوامكم دلالة على وحدانيته تعالى وفعله بالاختيار ولو شاء تعالى لاقام أسبابا غيرها وأغنى عن الاسباب وقرأ ابن عامر برفع الاربع وهى الشمس والقمر والنجوم ومسخرات على الابتداء والخبر ووافقه حفص فى الاثنين الاخيرين والنجوم مسخرات لاغير والباقون بالنصب عطفا على ماقبله فى الثلاثة الاول وفى الرابع وهو مسخرات على الحال * ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الاشياء وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم ذلك بقوله (ان فى ذلك) أى التسخير العظيم (لآيات) أى دلالات متعددة كثيرة عظيمة

(لقوم)

(لقوم يعقلون) أى يتدبرون فيعلمون أن جميع الخلق تحت قدره وقدرته وتسخيره لما أراده منهم وقوله تعالى (وماذرأ) أى خلق (لكم فى الارض) عطف على الليل أى وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات وقيل انه فى موضع نصب بفعل محذوف أى وخلق هكذا اقدره أبو البقاء وكانه استبعد تسلط سخر على ذلك فقدر فعلا لائقا وقوله تعالى (مختلفا) حال منه وقوله تعالى (ألوانه) أى فى الخلقة والهيئة والكيفية فاعل به (ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) أى يتعظون * (تنبيه) * ختم تعالى الآية الاولى بالتفكر لان ما فيها يحتاج الى تأمل ونظر وختم الثانية بالعقل لان مدار ما تقدم عليه وختم الثالثة بالتذكر لانه نتيجة ما تقدم وجمع الآيات فى الثانية دون الاولى والثالثة لان ما نيط بها أكثر ولذلك ذكر معها العقل * ولما استدل سبحانه وتعالى على اثبات الاله أولا باجرام السموات والارض وثانيا ببدن الانسان وثالثا بعجائب خلقة الحيوان ورابعا بعجائب النبات ذكر خامسا عجائب العناصر وبدأ بالاستدلال بعنصر الماء بقوله تعالى (وهو) أى لا غيره وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها (الذى سخر البحر) أى ذلله وهيأه لعيش ما فيه من الحيوان وتكون الجواهر وغير ذلك قال علماء الهيئة ثلاثة ارباع كرة الارض غائصة فى الماء فذاك هو البحر المحيط وجعل فى هذا الربع المسكون سبعة أبحر قال تعالى والبحر يمده من بعده سبعة أبحر والبحر الذى سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار فتسخيرها للخلق ما مر ومنه جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها بالركوب وبالغوص وبغير ذلك فمنافع البحار كثيرة وذكر سبحانه وتعالى منها هنا ثلاثة منافع الاولى قوله تعالى (لتأكلوا منه) أى بالاصطياد وغيره من لحوم الاسماك (لحما طريا) لا تجد أنعم منه ولا ألين وهو أرطب اللحوم فيسرع اليه الفساد فيبادر الى أكله عذبا فى ذلك دلالة على كمال قدرته تعالى وذلك أن السمك لو كان كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطرى لانه لما خرج من البحر الملح اللحم الطرى فى غاية العذوبة علم انه بخلق الله وقدرته لا بحسب الطبع وعلم بذلك ان الله تعالى قادر على اخراج الضد من الضد المنفعة الثانية قوله تعالى (وتستخرجوا منه) أى بجهدكم فى الغوص وما يتبعه (حلية) أى اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) أى نساؤكم وهن بعضكم فكان اللابس أنتم ولان زينة النساء بالحلى انما هو لاجل الرجال فكان ذلك زينة لهم المنفعة الثالثة قوله تعالى (وترى الفلك) أى السفن (مواخر) أى تمخر الماء أى تشقه بجريها (فيه) أى مقبلة ومدبرة وذلك انك ترى سفينتين احداهما تقبل والاخرى تدبر بريح واحدة وقال مجاهد تمخر الريح السفن يعنى أنها اذا جرت يسمع لها صوت وقال الحسن مواخر يعنى مملوأة متاعا وقوله تعالى (ولتبتغوا) أى لتطلبوا عطف على تأكلوا وما بينهما اعتراض وقيل عطف على محذوف تقديره لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا (من فضله) أى من سعة رزقه بركوبها للتجارة وللوصول الى البلدان الشاسعة (ولعلكم تشكرون) الله على هذه النعم التى أنتم عاجزون عنها لولا تسخيره ثم انه تعالى ذكر بعض النعم التى خلقها الله تعالى فى الارض بقوله تعالى (وألقى

فى الارض رواسى) أى جبالاً ثوابت (أن تميد) أى كراهة أن تميل وتضطرب (بكم) وقيل لئلا تميل بكم والاول قدره البصريون والثانى قدره الكوفيون وقد تقدم مثل ذلك فى قوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا روى أن الله تعالى خلق الارض فجعلت تمور فقالت الملائكة ماهى بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت وقوله تعالى (وأنهارا) عطف على رواسى لان الالقاء بمعنى الخلق والجعل ألا ترى أنه تعالى قال فى آية أخرى وجعل فيها رواسى من فوقها وقال تعالى وألقيت عليك محبة منى وذكر تعالى الانهار بعد الجبال لان معظم عيون الانهار وأصولها تكون من الجبال (و) جعل لكم فيها (سبلا) أى طرقا مختلفة تسلكون فيها فى أسفاركم والتردد فى حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان (لعلكم تهتدون) أى بتلك السبل الى مقاصدكم والى معرفة الله تعالى فلا تضلون (و) جعل لكم فيها (علامات) أى من الجبال وغيرها جمع علامة تهتدون بها فى أسفاركم * ولما كانت الدلالة بالنجم أنفع الدلالات وأوضحها برا وبحرا ليلا ونهارا نبه على عظمها بالالتفات الى مقام الغيبة لافهام العموم لئلا يظن أن المخاطب مخصوص والامر لا يتعداه فقال تعالى (وبالنجم) أى الجنس (هم) أى أهل الارض كلهم وأولى الناس بذلك المخاطبون وهم قريش ثم العرب كلها لفرط معرفتهم بالنجوم (يهتدون) وقدم الجار تنبيها على أن الدلالة بغيره بالنسبة اليه سافلة وقيل المراد بالنجم الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدى وقيل الضمير لقريش لانهم كانوا كثيرى الاسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء فى مسايرهم بالنجوم * ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجائب قدرته وبديع خلقه ماذكر على الترتيب الاحسن والنظم الاكمل وكانت هذه الاشياء المخلوقة المذكورة فى الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله ووحدانيته وأنه تعالى المنفرد بخلقها جميعها قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الاصنام العاجزة التى لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شئ (أفمن يخلق) أى هذه الاشياء الموجودة وغيرها (كمن لا يخلق) شيأ من ذلك بل على ايجاد شئ ما فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادة من لا يستحق العبادة وترك عبادة من يستحقها وهو الله تعالى (فان قيل) ذلك الزام للذين عبدوا الاوثان وسموها آلهة تشبيها بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق فكان حق الالزام أن يقال أفمن لا يخلق كمن يخلق (أجيب) بأنهم لما جعلوا غير الله مثل الله تعالى فى تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيها بها فأنكر عليهم ذلك بقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق (فان قيل) من لا يخلق ان أريد به جميع ما عبد من دون الله كان ورود من واضحا لان العاقل يغلب على غيره فيعبر عن الجميع بمن ولو جيء أيضا بما لجاز وان أريد به الاصنام فلم جيء بمن الذى هو لاولى العلم (أجيب) بأنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم ألا ترى الى قوله تعالى على اثره والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيأ وهم يخلقون والى قول الشاعر

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بى * فقلت ومثلى بالبكاء جدير

أسرب القطا هل من يعير جناحه * لعلى الى من قد هويت أطير
وكل قطاة لا تعير جناحها * تعيش بذل والجناح قصير

فأوقع من على سرب لما عامله معاملة العقلاء وقيل للمشاكلة بينه وبين من يخلق وقيل المعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم فكيف بما لا علم عنده كقوله تعالى ألهم أرجل يمشون بها يعنى أن الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب لان هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف تصح لهم العبادة الا انه لو صحت لهم هذه الاعضاء لصح أن يعبدوا * ولما كان هذا القدر ظاهرا غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه الى تدقيق الفكر والنظر بل بمجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل ختم تعالى ذلك بقوله تعالى (أفلا تذكرون) بما تشاهدونه من ذلك ولو من بعض الوجوه فتؤمنون * (تنبيه) * احتج أهل السنة بهذه الآية على أن العبد غير خالق لافعال نفسه لانه تعالى ميز نفسه عن الاشياء التى يعبدونها بصفة الخالقية لان الغرض من قوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق بيان تميزه عن هذه الاشياء بصفة الخالقية وانه انما استحق الالهية والعبودية لكونه تعالى خالقا وهذا يقتضى ان العبد لو كان خالقا لشئ لوجب كونه الها معبودا ولما كان ذلك باطلا علمنا ان العبد لا يقدر على الخلق والايجاد ولما كانت المقدورات لا تحصى وأكثرها نعم على العباد مذكرة لهم بخالقهم قال ممتنا عليهم باحسانه من غير سبب منهم (وان تعدوا) كلكم (نعمة الله) أى انعام الملك الاعظم الذى لا رب غيره عليكم من صحة البدن وعافية الجسم واعطاء النظر الصحيح والعقل السليم وبطش اليدين ومشى الرجلين الى غير ذلك مما أنعم به عليكم وما خلق لكم مما تحتاجون اليه من أمر الدنيا حتى لو رام أحدكم معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عنها وعن معرفتها أو حصرها فان تتبعها يفوت الحصر (لا تحصوها) أى لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم مع كثرتها او اعراضكم جملة عن شكرها والعبد وان أتعب نفسه فى القيام بالطاعات والعبادات وبالغ فى شكر نعم الله تعالى فانه يكون مقصرا لان نعم الله كثيرة وأقسامها عظيمة وعقل الخلق قاصر عن الاحاطة بمباديها فضلا عن غاياتها لكن الطريق الى ذلك أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها (ان الله لغفور) أى لتقصيركم فى القيام بشكرها يعنى النعمة كما يجب عليكم (رحيم) بكم فوسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصى وقوله تعالى (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) فيه وجهان الاول ان الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبى صلى الله عليه وسلم وما يعلنون أى وما يظهرون من أذاه صلى الله عليه وسلم فأخبر الله تعالى بأنه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لا يخفى عليه خافية وان دقت وخفيت والوجه الثانى أنه تعالى لما ذكر الاصنام وذكر عجزها فى الآية المتقدمة ذكر فى هذه الآية أن الاله الذى يستحق العبادة يجب أن يكون عالما بكل المعلومات سرها وجهرها وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة * ثم وصف تعالى هذه الاصنام بصفات الاولى مذكورة فى قوله تعالى (والذين تدعون) أى تعبدون (من دون الله) أى الاصنام وتعتقدون

انها آلهة وقرأ عاصم بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (لا يخلقون شيأ وهم يخلقون) أي يصورون من الحجارة وغيرها (فان قيل) قوله تعالى في الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لا يخلق يدل على أن هذه الاصنام لا تخلق شيأ وهم يخلقون وهذا هو المعنى المذكور في تلك الآية المذكورة فما فائدة هذا التكرار (أجيب) بأن فائدته أن المعنى المذكور في الآية المتقدمة أنهم لا يخلقون شيأ فقط والمذكور في هذه الآية أنهم لا يخلقون شيأ وهم يخلقون كغيرهم فكان هذا زيادة في المعنى وهو فائدة التكرار فكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم فبين أولا أنها لا تخلق شيأ ثم بين ثانيا أنها كما لا تخلق غيرها فهي مخلوقة كغيرها الصفة الثانية قوله تعالى (أموات) أي جمادات لا روح لها (غير أحياء) اذ الاله الذي يستحق أن يعبد هو الحي الذي لا يموت (فان قيل) علم من قوله أموات أنها غير أحياء فما الفائدة في ذكره (أجيب) بأن من الاموات ما يعقب موته حياة كالنطف التي ينشئها الله تعالى حيوانا وأجساد الحيوانات التي تبعث بعد موتها وأما الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة وذلك أعرق في موتها وقيل ذكر للتأكيد لان الكلام مع الكفار الذين يعبدون الاوثان وهم في نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل الغبي فقد يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة وغرضه الاعلام بكون المخاطب في غاية الغباوة في أنه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة الصفة الثالثة قوله تعالى (وما يشعرون) أي الاصنام (أيان) أي وقت (يبعثون) أي وما تعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الاحياء تهكما بحالها لان شعور الجماد محال فكيف بشعور ما لا يعلمه حي الا الحي القيوم سبحانه وتعالى وقيل الضمير راجع للاصنام قال ابن عباس ان الله تعالى يبعث الاصنام لها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بالكل الى النار وقيل المراد بقوله تعالى والذين تدعون من دون الله الملائكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله تعالى انهم أموات أي لا بد لهم من الموت غير أحياء أي باقية حياتهم وما يشعرون أي لا علم لهم بوقت بعثهم * ولما زيف سبحانه وتعالى طريقة عبدة الاصنام وبين فساد مذهبهم قال تعالى (الهكم) أي أيها الخلق جميعا المعبود بحق (اله) أي متصف بالالهية على الاطلاق بالنسبة الى كل أوان وكل زمان وكل مكان (واحد) لا يقبل التعدد الذي هو مثال النقص بوجه من الوجوه لان التعدد يستلزم امكان التمانع المستلزم للعجز المستلزم للبعد عن رتبة الالهية (فالذين) أي فتسبب عن هذا أن الذين (لا يؤمنون بالآخرة) أي دار الجزاء ومحل اظهار الحكم الذي هو ثمرة الملك والعدل الذي هو مدار العظمة (قلوبهم منكرة) أي جاحدة للوحدانية (وهم) أي والحال أنهم بسبب انكار ذلك (مستكبرون) أي متكبرون عن الايمان بها (لا جرم) أي حقا (ان الله يعلم) علما غيبيا وشاهديا (ما يسرون) أي ما يخفون مطلقا أو بالنسبة الى بعض الناس (وما يعلنون) أي يظهرون فيجازيهم بذلك * ولما كان في ذلك معنى التهديد علل ذلك بقوله تعالى (انه) أي العالم بالسر والعلن (لا يحب المستكبرين) أي على خلقه فما بالك بالمستكبرين على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى عدم محبتهم انه يعاقبهم

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل يا رسول الله ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا قال ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمص الناس ومعنى بطر الحق أنه يستكبر عند سماع الحق فلا يقبله ومعنى غمص الناس استنقاصهم وازدراؤهم * ولما بالغ سبحانه وتعالى في دلائل التوحيد وأورد الدلائل القاهرة في ابطال مذاهب عبدة الاصنام قال تعالى عاطفا على قلوبهم منكرة (واذا قيل لهم) أي لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وقوله تعالى (ما) استفهامية و(ذا) موصولة أي ما الذي (أنزل ربكم) على محمد صلى الله عليه وسلم واختلف في قائل هذا القول فقيل كلام بعضهم لبعض وقيل قول المسلمين لهم وقيل قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم (قالوا) مكابرين في انزال القرآن هو (أساطير) أي أكاذيب (الاولين) مع عجزهم بعد تحديهم عن معارضتهم أقصر سورة منه مع علمهم بأنهم أفصح الناس وأنه لا يكون من أحد من الناس متقدم أو متأخر قول الا قالوا أبلغ منه (فان قيل) هذا كلام متناقض لانه لا يكون منزلا من ربهم وأساطير (أجيب) بأنهم قالوه على سبيل السخرية كقوله ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون واللام في قوله تعالى (ليحملوا) لام العاقبة كما في قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وذلك لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الاولين كان عاقبتهم بذلك أن يحملوا (أوزارهم) أي ذنوب أنفسهم وانما قال تعالى (كاملة) لئلا يتوهم أنه يكفر عنهم شئ بسبب البلايا التي أصابتهم في الدنيا وأعمال البر التي عملوها في الدنيا بل يعاقبون بكل أوزارهم (يوم القيامة) الذي لا شك فيه ولا محيص عن اتيانه قال الرازي وهذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا في حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة (و) يحملوا أيضا (من) جنس (أوزار) الجهلة الضعفاء (الذين يضلونهم) وقوله تعالى (بغير علم) حال من مفعول يضلونهم أي يضلون من يعلم أنهم ضلال أو من الفاعل وانما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وان لم يعلم لانه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل وانما حصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الايمان مثل أوزار الاتباع لانهم دعوهم الى الضلال فاتبعوهم فاشتركوا في الاثم وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيأ ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ أخرجه مسلم ومعنى الآية والحديث أن الرئيس والكبير اذا سن سنة حسنة أو سيئة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فان الله تعالى يعطيهم ثوابه وعقابه حتى يكون ذلك الثواب والعقاب مساويا لكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع الذين عملوا بالسنة الحسنة أو القبيحة وليس المراد بأن الله يوصل جميع الثواب أو العقاب الذي يستحقه

الاتباع الى الرؤساء ويدل لذلك قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ماسعى *(تنبيه)* قال الواحدى لفظة من فى قوله تعالى ومن أوزار ليست للتبعيض لانها لو كانت كذلك لنقص عن الاتباع بعض الاوزار وقد قال صلى الله عليه وسلم لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ لكنها للجنس كما قدرت ذلك فى الآية الكريمة أى ليحملوا من جنس أوزار الاتباع وقيل انها للتبعيض وجرى عليه البيضاوى تبعا للزمخشرى (ألا ساء) أى بئس (ما يزرون) أى يحملون حملهم هذا وفى هذا وعيد وتهديد لهم (فان قيل) ان الله تعالى حكى هذه الشبهة عن القوم ولم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فما السبب فى ذلك (أجيب) بأن السبب فيه أنه تعالى بين كون القرآن معجزا بطريقين الاول أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم أولا بكل القرآن وثانيا بعشر سور وثالثا بسورة فعجزوا عن المعارضة وذلك يدل على كونه معجزا الثانى أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها فى آية أخرى وهى قوله تعالى اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وأبطلها بقوله تعالى قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض ومعناه أن القرآن يشتمل على الاخبار بالغيوب وذلك لا يأتى الا ممن يكون عالما بأسرار السموات والارض *ولما ثبت كون القرآن معجزا بهذين الطريقين وتكرر شرح هذين الطريقين مرارا كثيرة لاجرم اقتصر فى هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجرى مجرى الجواب عن هذه الشبهة ثم انه سبحانه وتعالى بالغ فى وصف وعيد هؤلاء الكفار بقوله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم) أى من رأوا آثارهم ودخلوا فى ديارهم (فأتى الله) أى أمره (بنيانهم من القواعد) أى من جهة العمد التى بنوا عليها مكرهم (فخر) أى سقط (عليهم السقف من فوقهم) وصار سبب هلاكهم وقرأ أبو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف فحمزة بضم الهاء على أصله والباقون بالكسر (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) أى من جهة لا تخطر ببالهم وهذا على سبيل التمثيل أى التشبيه والتخييل لافساد ما أبرموه من المكر بالرسل فجعل الله هلاكهم فيما أبرموه كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى البنيان من الاساطين بأن تضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا ونحوه من حفر لاخيه جبا وقع فيه منكبا وقيل هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل ليصعد الى السماء قال ابن عباس كان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب كان طوله فرسخين فأهب الله تعالى الريح فألقت رأسه فى البحر وخر عليهم الباقى وهم تحته قال البغوى ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس يومئذ من الفزع فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية فذلك قوله تعالى فأتى الله بنيانهم من القواعد أى أتى أمره فخرب بنيانهم من أصلها فخر عليه وعلى قومه السقف أى أعلى البيوت من فوقهم فهلكوا *(تنبيه)* قال ابن الخازن فى قول البغوى وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية نظر لان صالحا عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان أهل اليمن عربا منهم جرهم الذين نشأ اسمعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكان ببابل من العرب طائفة

قديمة قبل ابراهيم عليه السلام انتهى وقد يقال انه كان لسان أكثر الناس بالسريانية فلا ينافى ذلك (فان قيل) مافائدة قوله تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم والسقف من فوقهم (أجيب) بأنهم قد لا يكونون تحته فلما قال تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم دل على انهم كانوا تحته وحينئذ يفيد هذا الكلام بأن الابنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها * ولما ذكر الله تعالى حال أصحاب المكر فى الدنيا ذكر حالهم فى الآخرة بقوله عز وجل (ثم يوم القيامة يخزيهم) أى يذلهم ويهينهم بعذاب النار (ويقول) لهم الله تعالى على لسان الملائكة توبيخا (أين شركائى) أى فى زعمكم واعتقادكم (الذين كنتم تشاقون) أى تخالفون المؤمنين (فيهم) أى فى شأنهم وقرأ نافع بكسر النون والباقون بفتحها (قال) أى يقول (الذين أوتوا العلم) أى من الانبياء والمؤمنين وقال ابن عباس يريد الملائكة (ان الخزى) أى البلاء المذل (اليوم) أى يوم الفصل الذى يكون للناظر فيه العاقبة المأمونة (والسوء) أى كل مايسوء (على الكافرين) أى الغريقين فى الكفر الذين تكبروا فى غير موضع التكبر وفائدة قولهم اظهار الشماتة وزيادة الاهانة وحكايته لتكون لطفا لمن سمعه *(تنبيه)* فى الآية دلالة على ان ماهية الخزى وماهية السوء فى يوم القيامة مختصة بالكافرين وهذا ينفى حصول هذه الماهية فى حق غيرهم ويؤكد هذا قول موسى عليه السلام انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى ثم انه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكافرين من وجه آخر فقال سبحانه وتعالى (الذين تتوفاهم الملائكة) أى يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه عليهم السلام وقرأ حمزة فى هذه الآية وفى الآية الآتية بالياء فى الموضعين على التذكير لان الملائكة ذكور والباقون بالتاء على التأنيث لان لفظ الجمع مؤنث (ظالمى أنفسهم) أى بأن عرضوها للعذاب المخلد بكفرهم (فألقوا السلم) أى استسلموا وانقادوا حين عاينوا الموت قائلين (ما كنا نعمل من سوء) أى شرك وعدوان فتقول لهم الملائكة (بلى) أى بل كنتم تعملون أعظم السوء ثم علل تكذيبهم بقوله تعالى (ان الله عليم بما كنتم تعملون) أى فلا فائدة لكم فى انكاركم فيجازيكم به * ولما كان هذا الفعل مع العلم سببا لدخول جهنم قال تعالى (فادخلوا) أى أيها الكفرة (أبواب جهنم) أى أبواب طبقاتها ودركاتها (خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها) أى جهنم لا يخرجون منها وانما قال تعالى ذلك لهم ليكون أعظم فى الخزى والغم وفى ذلك دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض ثم قال تعالى (فلبئس مثوى) أى مأوى (المتكبرين) عن قبول التوحيد وسائر ما أتت به الرسل * ولما بين تعالى أحوال المكذبين ذكر أحوال الصديقين بقوله تعالى (وقيل للذين اتقوا) أى خافوا عقاب الله (ماذا) أى أى شئ (أنزل ربكم قالوا خيرا) أى أنزل خيرا وذلك ان احياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى صلى الله عليه وسلم فاذا جاء سأل الذين قعدوا على الطرق عنه فيقولون ساحر شاعر كاهن كذاب مجنون ولو لم تلقه خير لك فيقول السائل أنا شر وافد ان رجعت الى قومى دون أن أدخل مكة وألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه وانه نبى مبعوث

من الله تعالى فذلك قوله تعالى وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم الآية (فان قيل) لم رفع الاول وهو قولهم أساطير الاولين ونصب الثاني وهو قولهم خيرا (أجيب) بأنه ذكر ذلك للفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد وذلك أنهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا أساطير الاولين وليس هو من الانزال في شئ لانهم لم يعتقدوا كونه منزلا ولما سألوا المؤمنين عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا وطابقوا الجواب عن السؤال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا خيرا أي أنزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) أي حياة طيبة أوان للذين أتوا بالاعمال الصالحات الحسنة لهم ثوابها حسنة مضاعفة من الواحدة الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة أوانه تعالى بين أن اعترافهم بذلك الاحسان في هذه الدنيا حسنة أي جزاء لهم على احسانهم هل جزاء الاحسان الا الاحسان * ولما كانت هذه الدار سريعة الزوال أخبر عن حالهم في الآخرة فقال (ولدار الآخرة) أي الجنة (خير) أي ما أعد الله لهم في الجنة خير مما حصل لهم في الدنيا ثم مدحها ومدحهم بقوله تعالى (ولنعم دار المتقين) أي دار الآخرة فحذف لتقدم ذكرها وقال الحسن هي الدنيا لان أهل التقوى يتزودون فيها للآخرة وقوله تعالى (جنات) أي بساتين (عدن) أي اقامة خبر مبتدا محذوف ويصح أن يكون المخصوص بالمدح (يدخلونها) أي تلك الجنات حالة كونها (تجري من تحتها) أي من تحت غرفها (الانهار) ثم كان سائلا سأل عما فيها من الثمار وغيرها فأجيب بأن (لهم فيها ما يشاؤن) أي ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين مع زيادات غير ذلك فهذه الآية تدل على حصول كل الخيرات والسعادات فهي أبلغ من قوله تعالى وفيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين لان هذين القسمين داخلان في قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن مع أقسام أخرى وعلى أن الانسان لا يجد كل ما يريده في الدنيا لان قوله لهم فيها ما يشاؤن يفيد الحصر (كذلك) أي مثل هذا الجزاء العظيم (يجزي الله) أي الذي له الكمال كله (المتقين) أي الراسخين في صفة التقوى ثم حث تعالى على ملازمة التقوى بالتنبيه على أن العبرة بحال الموت فقال (الذين تتوفاهم الملائكة) أي تقبض أرواحهم وقوله تعالى (طيبين) كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة وذلك لانه يدخل فيه اتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق المذمومة ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين الى حضرة القدس ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الارواح وانها لم تقبض الامع البشارة بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتألم بالموت وأكثر المفسرين على أن هذا التوفي هو قبض الارواح كما مر وان كان الحسن يقول انه وفاة الحشر واستدل بقوله تعالى ادخلوا الجنة لانه لا يقال عند قبض الارواح في الدنيا ادخلوا الجنة وأجاب الاكثرون بما سيأتي وأدغم أبو عمرو التاء في الطاء بخلاف عنه ثم بين تعالى ان الملائكة (يقولون) لهم عند الموت (سلام عليكم) فتسلم عليهم أو تبلغهم السلام

من الله تعالى كما روى انّ العبد المؤمن اذا أشرف على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولىّ الله الله يقرأ عليك السلام ويبشرك بالجنة ويقال لهم فى الآخرة هذا جواب الاكثرين (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أو انهم لما بشروهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكأنهم فيها فيكون المراد بقولهم ادخلوا الجنة أى هى خاصة لكم كأنكم فيها * ولما طعن الكفار فى القرآن بقولهم أساطير الاولين وذكر أنواع التهديد والوعيد ثم أتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيرا عاد الى بيان انّ أولئك الكفار لا ينزجرون عن كفرهم وأقوالهم الباطلة الا اذا جاءتهم الملائكة او أتاهم أمر ربك فقال تعالى (هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة) لقبض ارواحهم وقرأ حمزة والكسائى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وتقدم توجيه ذلك (أو يأتى أمر ربك) اى يوم القيامة وقيل العذاب وقيل انهم طلبوا من النبىّ صلى الله عليه وسلم ان ينزل الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه فى ادّعاء النبوّة فقال تعالى هل ينظرون فى التصديق بنبوتك الا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك وعلى كلا التقديرين فقد قال تعالى (كذلك) أى مثل ما (فعل) هؤلاء هذا الفعل البعيد الشنيع فعل (الذين من قبلهم) من الامم السالفة كذبوا رسلهم فأهلكوا (وما ظلمهم الله) باهلاكهم بغير ذنب (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بكفرهم وتكذيبهم للرسل فاستوجبوا ما نزل بهم (فأصابهم) اى فتسبب عن ظلمهم لانفسهم ان أصابهم (سيآت) أى عقوبات او جزاء سيآت (ما عملوا وحاق) أى نزل (بهم ما كانوا به يستهزؤن) تكبرا عن قبول الحق فحاق بهم جزاؤه والحيق لا يستعمل الا فى الشر وقرأ حاق حمزة بالامالة والباقون بالفتح (وقال الذين أشركوا) للنبىّ صلى الله عليه وسلم استهزاء ومنعا للبعثة والتكليف (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا) لانهم اعتقدوا أن كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهو اعتقاد باطل فلذلك استحقوا عليه الذم والوعيد ثم قالوا لهم (ولا حرّمنا من دونه من شئ) أى من السوائب والبحائر والحوامى فهو راض به وبمشيئته وحينئذ فلا فائدة فى مجيئك وفى ارسالك وهذا عين ما حكاه الله تعالى عنهم فى سورة الانعام فى قوله تعالى سيقول الذين أشركوا لو شاء الله الآية قال الله تعالى (كذلك فعل الذين من قبلهم) أى من تقدم هؤلاء من الكفار من الامم الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما فى الامم الخالية ففى ذلك تسلية للنبىّ صلى الله عليه وسلم وكذا فى قوله تعالى (فهل على الرسل الا البلاغ) أى الابلاغ (المبين) أى البين فليس عليهم هداية أحد انما عليهم تبليغ ما أرسلوا به الى من أرسلوا اليه * ثم بين تعالى انّ البعثة أمر جرت به السنة الالهية فى الامم كلها سببا لهدى من أراد اهتداءه وزيادة لضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح فانه ينفع المزاج السوى ويقويه ويضرّ المزاج المنحرف ويفنيه بقوله تعالى (ولقد) أى والله لقد (بعثنا) أى بما لنا من العظمة التى من اعترض عليها قصم (فى كل أمّة) من الامم الذين من قبلكم (رسولا) أى كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا (أن اعبدوا الله) أى الملك

الاعلى وحده وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون فى الوصل والباقون بالضم (واجتنبوا الطاغوت) أى الاوثان ان تعبدوها (فمنهم من هدى الله) أى وفقهم للايمان بارشاده (ومنهم من حقت) أى وجبت (عليه الضلالة) أى فى علم الله تعالى فلم ينفعهم ولم يرد هداهم * (تنبيه) * فى هذه الآية أبين دليل على أن الهادى والمضل هو الله تعالى لانه المتصرف فى عباده يهدى من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض عليه فيما حكم به لسابق علمه ثم التفت سبحانه وتعالى الى مخاطبتهم اشارة الى أنه لم يبق بعد هذا الدليل القطعى فى نظر البصيرة الا الدليل المحسوس للبصر فقال تعالى (فسيروا) أى فان كنتم أيها المخاطبون فى شك من أخبار الرسل فسيروا (فى الارض) أى جنسها (فانظروا) أى اذا سرتم ومررتم بديار المكذبين وآثارهم ثم أشار تعالى بالاستفهام الى أن أحوالهم مما يجب ان يسئل عنه للاتعاظ به فقال (كيف كان عاقبة) أى آخر أمر (المكذبين) أى من عاد ومن بعدهم من الذين تلقيتم أخبارهم عمن قلدتموهم فى الكفر من أسلافكم لعلكم تعتبرون * ولما كان من المحقق انه ليس بعد الايصال فى الاستدلال الى الامر المحسوس الا العناد أعرض عنهم ملتفتا الى الرؤف بهم الشفيق عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فقال مسليا له (ان تحرص على هداهم) فتطلبه بغاية جدك واجتهادك وقد أضلهم الله تعالى لا تقدر على ذلك ثم قال تعالى (فان الله لا يهدى من يضل) أى من يرد ضلاله وهو معين لمن حقت عليه الضلالة وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بفتح الياء وكسر الدال والباقون بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول قال البيضاوى وهو أبلغ ثم قال تعالى (ومالهم) أى هؤلاء الذين أضلهم الله وجميع من يضله (من ناصرين) أى وليس لهم أحد ينصرهم فى الدنيا والآخرة عند مجازاتهم على الضلالة لينقذوهم مما يلحقهم عليه من الوبال كما فعل بالمكذبين من قبلهم ثم حكى الله عن هؤلاء القوم انهم ينكرون الحشر والنشر بقوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أى غاية اجتهادهم فيها (لا يبعث الله من يموت) وذلك أنهم قالوا ان الانسان ليس هو الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه لان الشئ اذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فكذبهم الله تعالى فى قولهم بقوله تعالى (بلى) أى يبعثهم بعد الموت فان لفظة بلى اثبات لما بعد النفى والجواب عن شبهتهم ان الله تعالى خلق الانسان وأوجده من العدم ولم يكن شيأ فالذى أوجده ولم يكن شيأ قادر على ايجاده بعد اعدامه لان النشأة الثانية أهون من الاولى وقوله تعالى (وعدا عليه حقا) مصدران مؤكدان منصوبان بفعلهما المقدر أى وعد ذلك وعدا وحقه حقا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك أى لا علم لهم يوصلهم لذلك لانه من عالم الغيب لا يمكن عقولهم الوصول اليه بغير ارشاد من الله تعالى ولا هم يقبلون أقوال الدعاة اليه الذين أيدهم الله بروح منه لتقيدهم بما يوصل الى عقولهم انها قاصرة على عالم الشهادة لا يمكنها الترقى منه الى عالم الغيب بغير واسطة منه سبحانه وتعالى فلذلك ترى الانسان منهم يأبى ذلك استبعادا وهو خصيم مبين وقوله تعالى (ليبين لهم الذى

يختلفون

يختلفون فيه) يتعلق بما دل عليه بلى اى يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو عام للمؤمنين والكافرين والذى اختلفوا فيه هو الحق (وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين) فى قولهم لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ وقولهم لا يبعث الله من يموت وقيل يجوز أن يتعلق بقوله ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أى بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه وانهم كانوا على الضلالة قبله مفترين على الله الكذب ثم بين سبحانه وتعالى تيسر الاعادة بقوله تعالى (انما قولنا) أى بما لنا من العظمة والقدرة (لشئ) ابداء واعادة (اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) أى يتسبب عن ذلك القول أنه يكون *(تنبيه)* قوله تعالى قولنا مبتدأ وأن نقول خبره فيكون وكن من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود أى اذا أردنا حدوث شئ فليس الا أن نقول له احدث فيحدث عقب ذلك من غير توقف (فان قيل) قوله تعالى كن ان كان خطابا مع المعدوم فهو محال وان كان خطابا مع الموجود فكان أمرا بتحصيل الحاصل وهو محال (أجيب) بأن هذا تمثيل لنفى الكلام والغايات وخطاب مع الخلق بما يعقلون ليس هو خطاب المعدوم لان ما أراده فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الاسراع ولو أراد تعالى خلق الدنيا والآخرة بما فيهما من السموات والارض فى قدر لمح البصر لقدر على ذلك ولكن خاطب تعالى العباد بما يعقلون وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى ويكذبنى وما ينبغى له اما شتمه اياى فيقول ان لى ولدا وأما تكذيبه فيقول ليس يعيدنى كما بدأنى وفى رواية كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى وليس أول الخلق بأهون على من اعادته واما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الله الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وقرأ ابن عامر والكسائى بفتح النون من يكون عطفا على يقول أوجوابا للامر والباقون بالرفع ولما حكى الله تعالى عن الكفار انهم أقسموا بالله جهد أيمانهم على انكار البعث والقيامة دل ذلك على انهم تمادوا فى الغى والجهالة والجهل والضلال وفى مثل هذه الحالة لا يبعد اقدامهم على ايذاء المسلمين وانزال العقوبة بهم وحينئذ يلزم على المؤمنين أن يهاجروا من تلك الديار والمساكن فبين تعالى حكم تلك الهجرة وما لهؤلاء المهاجرين من الحسنة فى الدنيا والآخرة بقوله تعالى (والذين هاجروا فى الله) أى فى حقه ولوجهه لاقامة دينه (من بعد ما ظلموا) وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم الى الله منهم من هاجر الى الحبشة ثم الى المدينة فجمع لله تعالى بين الهجرتين ومنهم من هاجر الى المدينة أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل أخذهم المشركون بمكة يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام الى الكفر فأما بلال فكان أصحابه يخرجونه الى بطحاء مكة فى شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد فاشتراه منهم أبو بكر رضى الله عنه وأعتقه واشترى معه ستة نفر أخر وأما صهيب فقال أنا رجل كبير ان كنت معكم لم أنفعكم

وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر قال له ربح البيع يا صهيب وقال عمر له نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله نار الاطاعه (لنبوّئنهم) أى لننزلنهم (فى الدنيا) دارا (حسنة) وهى المدينة وقيل لنحسنن اليهم فى الدنيا بأن نفتح لهم مكة ونمكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها وقيل أراد بالحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية الى الدين (ولأجر الآخرة) وهى الجنة والنظر الى وجهه الكريم (أكبر) أى أعظم (لو كانوا يعلمون) أى الكفار والمتخلفون عن الهجرة ماللمهاجرين من الكرامة لوافقوهم وقيل انه راجع الى المهاجرين أى لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا فى اجتهادهم وصبروا وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان اذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله به فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم يقرأ هذه الآية وقوله تعالى (الذين صبروا) أى على الشدائد وعلى مفارقة الوطن الذى هو حرم الله وعلى المجاهدة وبذل الاموال والانفس فى سبيل الله محله رفع على تقديرهم أو نصب على المدح ويجوز أن يكون تابعا للموصول قبله نعتا أو بدلا أو بيانا فمحله (وعلى ربهم يتوكلون) أى منقطعين اليه مفوضين الامر كله اليه *(تنبيه)* ذكر الله تعالى فى هذه الآية الصبر والتوكل وهما مبدأ السلوك الى الله تعالى ومنتهاه أما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على اعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الاذى من الخلق وأما التوكل فهو الانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه الى الحق كما مرت الاشارة اليه فالاول هو مبدأ السلوك والثانى هو آخر الطريق ومنتهاه * ونزل لما أنكر مشركو مكة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله أعظم وأجل ان يكون رسوله بشرا فهلا بعث ملكا الينا (وما أرسلنا من قبلك) يا محمد الى الامم من طوائف البشر (الا رجالا) لاملائكة بل آدميين هم فى غاية الاقتدار على الصبر والتوكل الذى هو محط الرحال (نوحى اليهم) بواسطة الملائكة فعادة الله جارية مستمرة من أول مبدأ الخلق الى الآن لم يبعث رسولا الا من البشر (فاسألوا أهل الذكر) أى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وانما أمرهم الله تعالى بسؤالهم لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان أهل الكتاب أهل علم وقد أرسل اليهم رسلا مثل موسى وعيسى عليهما السلام من البشر وكانوا بشرا امثالهم فاذا سألوهم فلابد أن يخبروهم أن الرسل الذين أرسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا أخبروهم بذلك فربما زالت هذه الشبهة وقال ابن عباس يريد أهل التوراة والدليل عليه قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر يعنى التوراة والذكر هو التوراة وقال الزجاج معناه اسألوا كل من يذكر بعلم وتحقيق *ولما كان عندهم أحسن من ذلك سماع أخبار الامم قبلهم أشار اليه بقوله تعالى (ان كنتم) أى جبلة وطبعا (لا تعلمون) ذلك فانهم يعلمونه وأنتم الى تصديقه أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (بالبينات) متعلق بمحذوف أى أرسلناهم بالحجج الواضحة وقيل التقدير ان كنتم لا تعلمون بالبينات (والزبر) أى الكتب فاسألوا أهل الذكر وقيل انه متعلق بمحذوف جواب لسؤال مقدر كأنه قيل بم أرسلوا فقيل أرسلوا بالبينات والزبر وقوله

تعالى (وأنزلنا اليك الذكر) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والذكر هو القرآن وانما سمى ذكرا لانه موعظة وتذكير (لتبين للناس) كافة أى أعطاك الله تعالى من الفهم الذى فقت فيه جميع الخلق واللسان الذى هو أعظم الالسنة وأفصحها وقد أوصلك الله تعالى فيه الى رتبة لم يصل اليها أحد (ما نزل) أى ما وقع تنزيله (اليهم) من هذا الشرع المؤدى الى سعادة الدارين بتبيين المجمل وشرح ما أشكل من علم أصول الدين الذى رأسه التوحيد ومن البعث وغيره فان القرآن فيه محكم وفيه متشابه فالمحكم يجب أن يكون مبينا والمتشابه هو المجمل فيطلب بيانه من السنة (ولعلهم يتفكرون) فيما أنزل اليهم اذا نظروا أساليبه الفائقة ومعانيه العالية الرائقة فيعتبرون (فان قيل) ان هذه الآية تدل على أن المبين لكل التكاليف والاحكام هو النبى صلى الله عليه وسلم فالقياس ليس بحجة (أجيب) بأنه صلى الله عليه وسلم لما بين أن القياس حجة فمن رجع فى تبيين الاحكام والتكاليف الى القياس كان ذلك فى الحقيقة رجوعا الى بيان النبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أفأمن الذين مكروا السيآت) فيه اضمار تقديره المكرات السيآت وهم كفار قريش مكروا بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وبالقرآن فى أذيتهم والمكر عبارة عن السعى بالفساد على سبيل الاخفاء ثم انه تعالى ذكر فى تهديدهم أربعة أمور الاول قوله تعالى (أن يخسف الله بهم الارض) كما خسف بقارون وأصحابه فاذا هم فى بطنها لا يقدرون على نوع تقلب بمتابعة ولا غيرها الثانى قوله تعالى (أو يأتيهم العذاب) على غير تلك الحال (من حيث لا يشعرون) به فيأتيهم بغتة فيهلكهم كما فعل بقوم لوط عليه السلام الثالث قوله تعالى (أو يأخذهم) أى الله بعذابه (فى) حالة (تقلبهم) ومشاعرهم حاضرة وقواهم مستجمعة وفى تفسير هذا التقلب وجوه أولها أنه تعالى يأخذهم بالعقوبة فى أسفارهم فانه تعالى قادر على اهلاكهم فى السفر كما أنه قادر على اهلاكهم فى الحضر (فما هم بمعجزين) أى بفائتين العذاب بسبب ضربهم فى البلاد البعيدة بل يدركهم الله تعالى حيث كانوا ثانيها أنه تعالى يأخذهم بالليل والنهار وفى حال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم وثالثها أن الله تعالى يأخذهم فى حال ما يتقلبون فى قضايا أفكارهم فيحول الله بينهم وبين اتمام تلك الحيل وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى وقلبوا لك الامور فانهم اذا قلبوها فقد تقلبوا فيها الامر الرابع قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف) وفى تفسير التخوف قولان الاول التخوف تفعل من الخوف يقال خفت الشئ وتخوفته والمعنى أنه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أولا بل يخيفهم أولا ثم يعذبهم بعده وتلك الاخافة هو أنه تعالى يهلك قرية فتخاف التى تليها فيأتيهم العذاب والثانى التخوف بمعنى التنقص أى أنه تعالى ينقص شيأ بعد شئ فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا من تخوفه اذا تنقصه روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال على المنبر ما تقولون فى هذه الآية فسكتوا فقال شيخ من هذيل هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها قال نعم قال شاعرنا أبو كبير

تخوف (أى تنقص) الرحل (أى رحل ناقته) منها تامكا (أى سناما) قردا

(أى مترا كما أو مرتفعا وهو بسكون الراء) كما تخوف عود النبعة السفن والنبعة بالضم واحدة النبع وهو شجر يتخذ منه السفن والسفن بفتح السين والفاء ماينحت به الشئ وهو فاعل تخوف ومفعوله عود فقال عمر عليكم بديوانكم قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم ومعنى البيت ان رحل ناقته ينقص سنامها المتراكم أو المرتفع كما ينقص السفن عود النبعة (فان ربكم) أى المحسن اليكم باهلاك من يريد وابقاء من يريد وقوله تعالى (لرؤف) قرأه أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بقصر الهمزة والباقون بالمد ومعناه بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بنوع وسيلة وكذا من قاطعه أتم مقاطعة واليه أشار بقوله تعالى (رحيم) أى حيث لم يعاجلهم بالعذاب * ولما خوف سبحانه وتعالى المشركين بالانواع الاربعة المذكورة من العذاب أردفه بذكر مايدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى وتدبير أحوال الارواح والاجسام ليظهر لهم أنه مع كمال هذه القدرة الباهرة والقوة الغير المتناهية لايعجز عن ايصال العذاب اليهم على أحد تلك الاجسام الاربعة بقوله تعالى (أولم يروا الى ماخلق الله من شئ) أى من الاجرام التى لها ظل كشجر وجبل (تتفيؤ) أى تميل (ظلاله عن اليمين والشمائل) جمع شمال أى عن جانبى كل واحد منهما وشقيه وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب على نسق ماقبله والباقون بالياء على الغيبة الى ماخلق استعارة من يمين الانسان وشماله لجانبى الشئ أى ترجع الظلال من جانب الى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقال قتادة والضحاك أما اليمين فأول النهار وأما الشمائل فآخره لان الشمس وقت طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك تقع الظلال الى الجانب الغربى فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك الى الجانب الغربى وقعت الظلال فى الجانب الشرقى والظلال فى أول النهار تبتدئ من يمين الفلك على الربع الغربى من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدئ من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقى من الارض (فان قيل) ما السبب فى ذكر اليمين بلفظ الواحد والشمائل بصيغة الجمع (أجيب) بأشياء الاول انه وحد اليمين والمراد الجمع ولكنه اقتصر فى اللفظ على الواحد كقوله تعالى ويولون الدبر الثانى قال الفراء كأنه اذا وحد ذهب الى واحد من ذوات الظلال واذا جمع ذهب الى كلها وذلك لان قوله الى ماخلق الله من شئ لفظه واحد ومعناه الجمع على مامر فيحتمل كلا الامرين الثالث أن العرب اذا ذكرت صيغتى جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله تعالى وجعل الظلمات والنور وقوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم * (تنبيه) * الهمزة للاستفهام وهو استفهام انكار أى قد رأوا أمثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيه ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه وما موصولة مبهمة بمعنى الذى ومن شئ بيان لها (فان قيل) كيف بين الموصول وهو مبهم بشئ وهو مبهم بل أبهم مما قبله (أجيب) بأن شيأ قد اتضح وظهر بوصفه بالجملة بعده وهو تتفيؤ ظلاله وقيل الجملة بيان لما وقوله تعالى (سجدا لله) حال من الظلال جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع واختلف فى المراد من السجود على قولين أحدهما أن المراد منه

الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال اسجد للقرد فى زمانه أى اخضع له وقال الشاعر * ترى الأكم فيها سجدا للحوافر أى متواضعة والثانى أن هذه الظلال واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله تعالى عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول أما ظلك فيسجد لربك وأما أنت فلا تسجد لربك بئسما صنعت وعن مجاهد ظل الكافر يصلى وهو لا يصلى وقيل ظل كل شئ يسجد لله سواء أكان ذلك الشئ ساجدا أم لا قال الرازى والاول أقرب الى الحقائق العقلية والثانى أقرب الى الشبهات الظاهرة وقوله تعالى (وهم داخرون) أى صاغرون حال أيضا من الظلال فينتصب عنه حالان وقيل حال من الضمير المستتر فى سجدا فهى حال متداخلة (فان قيل) الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون (أجيب) بأنه تعالى لما وصفها بالطاعة والدخور أشبهت العقلاء أو ان فى جملة ذلك من يعقل فغلب * ولما حكم على الظلال بما يعم أصحابها من جماد وحيوان وكان الحيوان أشرف من الجماد رقى الحكم اليه بخصوصه فقال (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض) وقوله تعالى (من دابة) يجوز أن يكون بيانا لما فى السموات وما فى الارض جميعا على أن فى السموات خلقا لله يدبون فيها كما تدب الاناسى فى الارض وأن يكون بيانا لما فى الارض وحده ويراد بما فى السموات الخلق الذى يقال له الروح وأن يكون بيانا لما فى الارض ويراد بما فى السموات الملائكة وكرر ذكرهم بقوله تعالى (والملائكة) خصوصا من بين الساجدين لانهم أطوع الخلق وأعبدهم ويجوز أن يراد بما فى السموات ملائكتهن وبقوله تعالى والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم (فان قيل) سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد (أجيب) بأن المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم انقياده لارادة الله تعالى وأنه غير ممتنع عليه وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد (فان قيل) هلا جئ بمن دون ما تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم (أجيب) بانه لو جئ بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولا للعقلاء خاصة فجئ بما هو صالح للعقلاء وغيرهم ارادة للعموم (وهم) أى الملائكة (لا يستكبرون) عن عبادته ثم علل تخصيصهم بقوله تعالى دلالة على أنهم كغيرهم فى الوقوف بين الخوف والرجاء (يخافون ربهم) أى الموجد لهم المدبر لامورهم المحسن اليهم خوفا مبتدأ (من فوقهم) اشارة الى علو الخوف عليهم وغلبته لهم أو ان يرسل عليهم عذابا من فوقهم أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده وقوله تعالى وانا فوقهم قاهرون والجملة حال من الضمير فى لا يستكبرون أو بيان له أو تقرير لان من خاف الله لا يستكبر عن عبادته (ويفعلون ما يؤمرون) أى من الطاعة والتدبير وفى ذلك دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون على الامر والنهى والوعد والوعيد كسائر المكلفين وأنهم بين الخوف والرجاء كما مرت الاشارة اليه وأنهم معصومون من الذنوب لان قوله تعالى وهم لا يستكبرون يدل

على أنهم منقادون لخالقهم وانهم ماخالفوا فى أمر من الامور كما قال تعالى لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * ولما بين تعالى أن كل ماسوى الله تعالى سواء أكان من عالم الارواح أم من عالم الاجساد فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه أتبعه بالنهى عن الشرك وبالامر بأن كل ماسواه فهو ملكه وانه غنى عن الكل بقوله تعالى (وقال الله) فعبر لاجل تعظيم المقام بالاسم الاعظم الخاص (لاتتخذوا) أى لاتكلفوا فطرتكم الاولى السليمة المجبولة على معرفة ان الاله واحد أن تأخذ فى اعتقادها (الهين اثنين) (فان قيل) انما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندى رجال ثلاثة وأفراس أربعة لان المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فأما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة الى أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان فما وجه قوله تعالى الهين اثنين (أجيب) باجوبة أولها قال الرازى وهو الاقرب عندى ان الشئ اذا كان مستنكرا مستقبحا فمن أراد المبالغة فى التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالى تلك العبارات سببا لوقوف العقل على مافيه من القبح والقول بوجود الهين مستقبح فى العقول فان أحدا من العقلاء لم يقل بوجود الهين متساويين فى الوجود والقدم وصفات الكمال فالمقصود من تكرار اثنين تأكيد التنفير عنه وتوقيف العقل على مافيه من القبح الثانى أن قوله تعالى الهين لفظ واحد يدل على أمرين ثبوت الاله وثبوت التعدد فاذا قيل لاتتخذوا الهين لم يعرف من هذا اللفظ ان النهى وقع عن اثبات الالهين أو عن اثبات التعدد أو عن مجموعهما فلما قال لاتتخذوا الهين اثنين ظهر أن قوله لاتتخذوا نهى عن اثبات التعدد فقط الثالث فى الآية تقديم وتأخير والتقدير لاتتخذوا اثنين الهين الرابع أن الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا أريدت الدلالة على ان المعنى به منهما والذى يساق اليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد اليه والعناية به ألا ترى أنك لو قلت انما هو اله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الالهية لا الوحدانية ثم علل تعالى ذلك النهى بما اقتضاه السياق من الوحدانية فقال جل ذكره (انما هو) أى الاله المفهوم من لفظ الهين الذى لايستحق غيره أن يطلق عليه هذا الضمير الا مجازا لانه لايطلق اطلاقا حقيقيا الا على من وجوده من ذاته (اله) أى مستحق هذا الوصف على الاطلاق (واحد) لايمكن أن يثنى بوجه ولا أن يجزأ بغاية وغير غاية لغناه المطلق عن كل شئ واحتياج كل شئ اليه * ولما دلت الدلائل على أنه لابد للعالم من اله وثبت أن القول بوجود الهين محال وثبت أنه لا اله الا الواحد الاحد الفرد الصمد قال تعالى بعده (فاياى فارهبون) أى خافون دون غيرى والرهبة مخافة مع حزن واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى خطاب الحضور وهو من طريقة الالتفات لانه أبلغ فى الترهيب من قوله فاياه فارهبوه ومن أن يجئ ماقبله على لفظ المتكلم * ولما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح أن اله العالم لاشريك له فى الالهية وجب أن يكون جميع المخلوقات عبيده وفى ملكه وتصرفه وتحت قهره وذلك قوله تعالى (وله) أى الله وأعاد الضمير فى قوله تعالى له

على

على الله الاسم الاعظم العلم الجامع لجميع الاسماء الحسنى (ما فى السموات والارض) أى ما تعبدونه وغيره فكيف يتصور أن يكون شئ من ذلك الها وهو ملكه مع كونه محتاجا الى الزمان والمكان وغيرهما (وله الدين) أى الطاعة وقوله تعالى (واصبا) أى دائما حال من الدين والعامل فيه ما فى الظرف من معنى الفعل قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك لسبب فى حال الحياة أو بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فا طاعته واجبة أبدا ولانه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائما أبدا وقوله تعالى (أفغير الله) أى الذى له العظمة كلها (تتقون) استفهام انكار والمعنى أنكم بعدما عرفتم ان الله العالم واحد وعرفتم أن كل ماسواه محتاج اليه فى وقت دوامه وبقائه فبعد العلم بذلك كيف يعقل أن يكون للانسان رغبة فى غير الله تعالى أو رهبة من غير الله تعالى * ولما بين تعالى أن الواجب على العاقل أن لا يتقى غير الله بين أنه يجب عليه أن لا يشكر أحدا الا الله تعالى بقوله تعالى (وما بكم من نعمة) أى من نعمة الاسلام وصحة الابدان وسعة فى الارزاق وكل ما أعطاكم من مال أو ولد أو جاه (فمن الله) هو المتفضل على عباده فيجب عليكم شكره على جميع انعامه لان الشكر انما يجب على النعمة فثبت بهذا أن العاقل يجب عليه أن لا يخاف وأن لا يشكر الا الله تعالى * (تنبيه) * احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الايمان حصل بخلق الله فقالوا الايمان نعمة وكل نعمة فمن الله ينتج أن الايمان من الله وأيضا النعمة عبارة عن كل ما يكون منتفعا به وأعظم الاشياء فى النفع هو الايمان فثبت أن الايمان نعمة والمسلمون مطبقون على قولهم الحمد لله على نعمة الايمان والنعم اما دينية واما دنيوية أما النعم الدينية فهى اما معرفة الحق لذاته واما معرفة الخير لاجل العمل به والنعم الدنيوية اما نفسانية واما بدنية واما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحته أنواع خارجة عن الحصر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وقد مرت الاشارة الى ذلك عند ذكر هذه الآية * ولما كان اخلاصهم لهم مع ادعائهم الوهية غيره أمرا مستبعدا عبر بأداة التراخى والبعد فى قوله تعالى (ثم اذا مسكم) أى أصابكم أدنى مس (الضر) بزوال نعمة مما أنعم به عليكم وقال ابن عباس يريد الاسقام والامراض والحاجة (فاليه) أى لا الى غيره (تجأرون) أى ترفعون أصواتكم بالاستغاثة لما ركز فى فطرتكم الاولية السليمة من أنه لا ملجأ ولا منجى منه الا اليه (ثم اذا كشف) سبحانه وتعالى (الضر) أى الذى مسكم (عنكم) ونبه على مسارعة الانسان فى الكفران فقال (اذا فريق) أى جماعة هم أهل فرقة وضلال (منكم) أى أيها العباد (بربهم) الذى تفرد بالانعام عليهم (يشركون) أى يوقعون الاشراك بعبادة غيره (ليكفروا بما آتيناهم) أى من النعم * (تنبيه) * فى هذه اللام وجهان الاول انها لام كى فيكون المعنى على هذا أنهم انما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم فى كشف الضر الثانى أنها لام العاقبة كما فى قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا والمعنى عاقبة أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء ثم انه تعالى توعدهم بعد ذلك بقوله تعالى (فتمتعوا) أى باجتماعكم على عبادة الاصنام وهذا اللفظ أمر والمراد منه التهديد كقوله تعالى

قل آمنوا به أولا تؤمنوا وقوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب * ولما بين تعالى بالدلائل القاهرة فساد قول أهل الشرك والتشبيه شرح تفاصيل أقوالهم وبين فسادها بأنواع الاول قوله تعالى (ويجعلون) أى المشركون (لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) من الحرث والانعام بقولهم هذا لله وهذا لشركائنا * (تنبيه) * الضمير فى قوله تعالى لما لا يعلمون عائد على الاصنام أى ان الاصنام لا تعلم شيأ البتة لانها جماد والجماد لا علم له وقيل عائد الى المشركين ومعنى لا يعلمونها أنهم يسمونها آلهة فيعتقدون فيها جهالات مثل أنها تنفعهم وتشفع لهم وليس الامر كذلك * ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة بقوله تعالى (تالله لتسئلن) سؤال توبيخ وفيه التفات من الغيبة الى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه (عما كنتم تفترون) على الله من أنه أمركم بذلك * (تنبيه) * فى وقت السؤال احتمالان الاول أنه يقع عند القرب من الموت الثانى انه يقع فى الآخرة قال الرازى وهذا أولى النوع الثانى قوله تعالى (ويجعلون لله البنات) ونظيره قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا كانت خزاعة وكنانة يقولون الملائكة بنات الله قال الرازى أظن أن العرب انما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون فأشبهوا النساء فى الاستتار فأطلقوا عليهم البنات قال ابن عادل وهذا الذى ظنه ليس بشئ فان الجن أيضا مستترون عن العيون ولم يطلقوا عليهم لفظ البنات * ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال تعالى (سبحانه) وفيه وجهان الاول أن يكون المراد تنزيه ذاته عن نسبة الولد اليه الثانى تعجيب الخلق من هذا الامر والجهل الصريح وهو وصف الملائكة بالانوثة ثم نسبتها بالولدية الى الله تعالى قيل فى التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الاول * ولما ذكر الله تعالى ما جعلوا له مع الغنى المطلق بين ما نسبوا لانفسهم مع لزوم الحاجة والضعف بقوله تعالى (ولهم ما يشتهون) من البنين وقد يكونون أعداء أعدائهم * ثم انه تعالى ذكر ان الواحد من هؤلاء المشركين لا يرضى بالولد البنت لنفسه فكيف يثبته لله تعالى فقال (واذا بشر أحدهم بالانثى) أى أخبر بولادتها (ظل وجهه) أى صار أو دام النهار كله (مسودا) من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتخجيل كما أن بياض الوجه واشراقه كناية عن الفرح والسرور (وهو كظيم) أى مملوء غيظا على المرأة ولا ذنب لها بوجه والبشارة فى أصل اللغة الخبر الذى يغير البشرة من حزن أو سرور ثم خص فى عرف اللغة بالسرور ولا يكون الا بالخبر الاول فالمراد بالبشارة هنا الاخبار كما مر وقول الرازى ان اطلاقه على الخبر والشر داخل فى التحقيق خلاف المشهور (يتوارى) أى يستخفى (من القوم) أى من الرجال الذين هو فيهم (من سوء ما بشر به) خوفا من التعيير وذلك أن العرب كانوا فى الجاهلية اذا قرب ولادة زوجة أحدهم توارى عن القوم الى أن يعلم ما ولد له فان ولد له ذكر ابتهج وسر بذلك وظهر وان كانت أنثى حزن ولم يظهر أياما مترددا ماذا يفعل بذلك الولد (أيمسكه) أى يتركه بغير قتل (على هون) هوان وذل (أم يدسه فى التراب) وذكر الضمير فى يمسكه ويدسه نظرا للفظ الولد أو

لكون الانثى ولدا كما علم مما مرّ قال ابن ميلق قال المفسرون كانت المرأة اذا أدركها المخاض احتفرت حفرة وجلست على شفيرها فان وضعت ذكرا أظهرته وظهر السرور على أهله وان وضعت انثى استأذنت مستولدها فان شاء أمسكها على هون وان شاء أمرها بالقائها فى الحفرة وردّت التراب عليها وهى حية لتموت انتهى وعن قيس بن عاصم أنه قال يارسول الله انى واريت ثمان بنات فى الجاهلية فقال له صلى الله عليه وسلم اعتق عن كل واحدة منهنّ رقبة فقال يانبىّ الله انى ذوابل قال اهد عن كل واحدة منهنّ هديا وروى أنّ رجلا قال يارسول الله والذى بعثك بالحق ما أجد حلاوة الاسلام مذ قد أسلمت فقد كانت لى فى الجاهلية ابنة فأمرت امرأتى أن تزينها فأخرجتها فلما انتهيت الى وادفيه بئر بعيدة القعر ألقيتها فيها فقالت ياأبت قتلتنى فكلما ذكرت قولها لم ينفعنى شئ فقال صلى الله عليه وسلم ما كان فى الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما فى الاسلام يهدمه الاستغفار وكانوا فى الجاهلية مختلفين فى قتل البنات فمنهم من يحفر الحفرة ويدفنها فيها الى أن تموت ومنهم من يرميها من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وكانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية خوفا من أن يطمع فيهنّ غير الاكفاء وتارة خوفا من الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة وكان الذى منهم يريد أن يحيى ابنته تركها حتى تكبر ثم يلبسها جبة من صوف أو شعر ويجعلها ترعى الابل والغنم فى البادية قال الله تعالى (ألا ساء) أى بئس (ما يحكمون) حكمهم هذا وذلك لانهم بلغوا فى الاستنكاف من البنت الى أعظم الغايات فاولها أنه يسود وجهه وثانيها أنه يختفى من القوم من شدّة نفرته عن البنت وثالثها انّ الولد محبوب بحسب الطبيعة ثم انه بسبب نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على أنّ النفرة عن البنت والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغا لا يزاد عليه فكيف يليق بالعاقل أن يثبت ذلك لاله عالم مقدس عال عن مشابهة جميع المخلوقات ونظير هذه الآية قوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى ثم قال تعالى (للذين لا يؤمنون بالآخرة) وهم الكفار (مثل السوء) أى الصفة السوء بمعنى القبيحة وهى قتلهم البنات مع احتياجهم اليهنّ للنكاح (ولله المثل الاعلى) أى الصفة العليا وهى انه لا اله الا هو وان له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدى وغير ذلك من الصفات التى وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الاعلى شهادة أن لا اله الا الله (فان قيل) كيف جاء لله المثل الاعلى مع قوله تعالى فلا تضربوا لله الامثال (أجيب) بأنّ المثل الذى يضربه الله تعالى حق وصدق والذى يذكره غيره باطل (وهو العزيز) الذى لا يمتنع عليه شئ فلا نظير له (الحكيم) الذى لا يوقع شيأ الا فى محله * ولما حكى الله تعالى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين أنه تعالى يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة اظهارا للفضل والرحمة والكرم بقوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) أى بسبب كفرهم ومعاصيهم (ما ترك عليها) أى على الارض وانما أضمر ذكرها من غير ذكر لدلالة الناس والدابة عليها (من دابة) أى انّ الله تعالى لو آخذ الناس بظلمهم لاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض (فان قيل) اسم الناس جنس يشمل الكل

فيدخل في ذلك الانبياء فيدل ذلك على عدم عصمتهم (أجيب) بأن ذلك عام مخصوص بقوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله فالمذكور في هذه الآية اما كل العصاة المستحقين العقاب أو الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات أو جميع الكفار بدليل قوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا وقال قتادة قد فعل الله تعالى ذلك في زمن نوح عليه السلام فأهلك جميع الدواب التي على وجه الارض الا من كان في السفينة مع نوح عليه السلام روى أن أبا هريرة رضي الله تعالى عنه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بئسما قلت ان الحبارى تموت هزالا من ظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الجعل تعذب في جحرها بذنب ابن آدم والجعل بضم الجيم وفتح العين دويبة قاله الجوهري وقيل في معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ولم توجد الابناء ولم يبق في الارض أحد (ولكن يؤخرهم) أي يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه (الى أجل مسمى) أي الى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة) عنه (ولا يستقدمون) أي لا يؤخرون ساعة من الاجل الذي جعله الله تعالى لهم ولا ينقصون منه *(تنبيه)* ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط احدى الهمزتين مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين النوع الثالث من الاقاويل الفاسدة التي كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم قوله (ويجعلون لله ما يكرهون) لانفسهم من البنات وأراذل الاموال والشركاء في الرياسة ثم وصف الله تعالى جراءتهم مع ذلك بقوله تعالى (وتصف) أي وتقول (ألسنتهم الكذب) أي مع ذلك مع أنه قول لا ينبغي أن يتخيله عاقل ثم بينه بقوله تعالى (أن لهم الحسنى) أي عنده أي الجنة كقوله تعالى ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى ولا جهل أعظم ولا أحكم سواء من أن تقطع بأن من تجعل له ما تكره أن يجعل لك ما تحب فكأنه قيل ما لهم عنده فقيل (لا جرم) أي لا ظن ولا تردد في (أن لهم النار) أي هي جزاء الظالمين وقيل لا جرم بمعنى حقا (وأنهم مفرطون) أي متركون فيها أو مقدمون اليها وقرأ نافع بكسر الراء أي متجاوزون الحد والباقون بالفتح (فان قيل) انهم لم يقروا بالبعث فكيف يقولون ان لنا الحسنى عند الله (أجيب) بأنهم قالوا ان كان محمد صادقا في البعث بعد الموت فان لنا الجنة وقيل انه كان في العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة وانهم كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت ويتركونه الى أن يموت ويقولون ان ذلك الميت اذا حشر فانه يحشر معه مركوبه ثم بين تعالى أن مثل هذا الصنيع الذي يصدر من مشركي قريش قد صدر من سائر الامم السابقين في حق الانبياء المتقدمين بقوله تعالى (تالله) أي الملك الاعلى (لقد أرسلنا) أي بما لنا من القدرة رسلا من الماضين (الى أمم من قبلك) كما أرسلناك الى هؤلاء (فزين لهم الشيطان) أي المحترق بالغضب المطرود باللعنة (أعمالهم) الخبيثة من الكفر والتكذيب كما زين لهؤلاء فضلوا كما ضلوا فأهلكناهم وهذا يجري مجرى التسلية

للنبي

للنبي صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم والمزين في الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وانما جعل الشيطان آلة بالالقاء للوسوسة في قلوبهم وليس له قدرة على أن يضل أحدا أو يهدي أحدا وانما له الوسوسة فقط فمن أراد الله تعالى شقاوته سلطه الله عليه حتى يقبل وسوسته (فهو وليهم اليوم) أي في الدنيا وانما عبر باليوم عن زمانها أي فهو وليهم حين كان يزين لهم أو يوم القيامة على أنه حكاية حال ماضية أو آتية أي لا ولي لهم غيره وهو عاجز عن نصر نفسه فكيف ينصرهم وقيل الضمير لقريش أي زين الشيطان للكفرة المتقدمين أعمالهم وهو ولي هؤلاء القوم يغرهم ويغريهم وقيل يجوز أن يقدر مضاف أي فهو ولي أمثالهم والولي القرين والناصر فيكون نعتا للناصر لهم على أبلغ الوجوه (ولهم عذاب أليم) أي مؤلم في الآخرة * ثم ذكر تعالى انه مع هذا الوعيد الشديد قد أقام الحجة وأزاح العلة بقوله تعالى (وما أنزلنا) أي بما لنا من العظمة من جهة العلو (عليك) يا أشرف المرسلين (الكتاب) أي القرآن (الا لتبين لهم) أي للناس (الذي اختلفوا فيه) من أمر الدين مثل التوحيد والشرك واثبات المعاد ونفيه فانه كان فيهم من ينكر البعث ومنهم من يؤمن به ومنهم عبد المطلب ومثل تحريم الحلال كالبحيرة والسائبة وتحليلهم أشياء محرمة كالميتة (فان قيل) اللام في لتبين لهم تدل على ان أفعال الله تعالى معللة بالاغراض كقوله تعالى كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس وقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (أجيب) بأنه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه الى التأويل وقوله تعالى (وهدى ورحمة) أي واكراما بجعبة معطوفان على محل لتبين الا انهما انتصبا على أنهما مفعول لهما الا انهما فعلا الذي أنزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين لانه فعل المخاطب لا فعل المنزل وانما ينتصب مفعولا له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل ولما كان ذلك ربما شملهم وهم على ضلالهم نفاه بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) ونظيره قوله تعالى في أول البقرة هدى للمتقين وانما خص المؤمنين بالذكر من حيث انهم قبلوه وانتفعوا به كما في قوله تعالى انما أنت منذر من يخشاها الا انه انما انتفع بانذاره هذا القوم فقط * ولما انقضى الدليل على أن قلوبهم منكرة استكبارا وما يتعلق به وختمه بما أحيا به القلوب في الايمان والعلم بعد موتها بالكفر والجهل وكان المقصود الاعظم من القرآن تقرير اصول أربعة الالهيات والنبوات والمعاد واثبات القضاء والقدر والفعل بالاختيار وكان أجل هذه المقاصد الالهيات شرع في ذكر الوحدانية والقدرة والفعل بالاختيار المستلزم للقدرة على البعث على وجه غير المتقدم ليعلم أن أدلة ذلك أكثر من أوراق الاشجار وأجلى من ضياء النهار فعطف على قوله والله يعلم ما تسرون وما تعلنون قوله جامعا في الدليل بين العالم العلوي والعالم السفلي (والله) أي الذي له الامر كله (أنزل من السماء) في الوقت الذي يريده (ماء) بالمطر والثلج والبرد (فأحيا به) أي بذلك الماء (الارض) بأنواع النبات (بعد موتها) أي يبسها (ان في ذلك) المذكور (لآية) أي دلالة واضحة على كمال قدرته تعالى (لقوم يسمعون) أي سماع تدبر وانصاف ونظر لان سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان فمن سمع آيات القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها

انتفع ومن لم يسمع بقلبه فكأنه أصم لم يسمع فلم ينتفع بالآيات ومن الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بعجائب أحوال الحيوانات وهو قوله (وإنّ لكم في الانعام لعبرة) أي اعتبارا اذا تفكرتم فيها وعرفتم كمال قدرتنا وقوله تعالى (نسقيكم مما في بطونه) استئناف بيان للعبرة وانما ذكر لفظ الضمير لانه لفظ الانعام مفرد وضع لافادة الجمع كالرهط والقوم ولامن اللبس والدلالة على قوة المعنى لكونها سورة النعم وأنثه في سورة المؤمنون للمعنى فان الانعام اسم جمع ولذلك عده سيبويه في باب ما لا ينصرف في الاسماء المفردة الواردة على أفعال كقولهم ثوب أكياش بياء تحتية وشين معجمة ضرب من الثياب يغزل مرتين ومن قال انه جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن لبعضها دون جميعها وقرأ نافع وابن عامر وشعبة بفتح النون تقول سقيته حتى روى قال تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا والباقون بضمها من قولك اسقاه اذا جعل له شرابا كقوله تعالى وأسقيناكم ماء فراتا ولما كان في موضع العبرة تخليص اللبن من غيره قدم قوله تعالى (من بين فرث) وهو الثفل الذي نزل الى الكرش فاذا اخرج منه لم يسم فرثا (ودم لبنا خالصا) أي صافيا خلقه الله وسطا بين الفرث والدم يكتنفانه و بينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي عليه أحدهما بلون أو رائحة أو طعم روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اذا أكلت البهيمة العلف واستقر في كرشها طبخته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما والكبد متسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقسمها فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ويبقى الفرث في الكرش فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل وسئل شقيق عن الاخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم (سائغا للشاربين) أي سهل المرور في الحلق وقيل لم يغص أحد باللبن قط * (تنبيه) * قال أهل التحقيق اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار فكذلك يدل على امكان الحشر والنشر وذلك لان هذا العشب الذي يأكله الحيوان انما تولد من الماء والارض فخالق العالم دبر تدبيرا آخر بقلب ذلك الدم لبنا ثم دبر تدبيرا آخر فأحدث من ذلك اللبن السمن والجبن فهذا الاستقراء يدل على انه تعالى قادر على أن يقلب هذه الاجسام من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة فاذا كان كذلك لم يمتنع أيضا أن يكون قادرا على أن يقلب أجزاء أبدان الاموات الى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع وفي حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقا لتغذية الطفل مشتملة على حكمة عجيبة يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم المدبر وبيانه من وجوه الاول انه تعالى خلق في أسفل المعدة منفذا يخرج منه ثفل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء أو شرابا انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شئ من ذلك المأكول والمشروب الى أن يكمل انهضامه في المعدة ويجذب ما صفى منه الى الكبد ويبقى الثفل هنالك فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثفل وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى كانت الحاجة الى خروج ذلك الجسم من المعدة انفتح فحصول

الانطباق تارة والانفتاح تارة أخرى بحسب الحاجة وبقدر المنفعة مما لا يتأتى الا بتقدير الفاعل الحكيم الثانى عند تولد اللبن فى الضرع يحدث الله تعالى فى حلمة الثدى ثقبا صغيرة ومسام ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص والحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا كان لا يخرج منها الا ما كان فى غاية الصفاء واللطافة وأما الاجزاء الكثيفة فانه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى فى الداخل فالحكمة فى احداث تلك الثقب الصغيرة والمنافذ الضيقة فى رأس حلمة الثدى انها تكون كالمصفاة فكل ما كان لطيفا خرج وكل ما كان كثيفا احتبس فى الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير اللبن خالصا موافقا لبدن الطفل سائغا للشاربين الثالث أنه تعالى ألهم ذلك الطفل الى المص فان الام كلما ألقت حلمة الثدى فى فم الطفل فذلك الطفل فى الحال يأخذ فى المص ولولا ان الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص والا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن فى الثدى وقوله تعالى (ومن ثمرات النخيل والاعناب) متعلق بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب أى من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم عليه وقوله تعالى (تتخذون منه سكرا) بيان وكشف عن كنه الاسقاء قال الواحدى الاعناب عطف على الثمرات لا على النخيل لانه يصير التقدير ومن ثمرات الاعناب والعنب نفسه ثمرة وليس له ثمرة أخرى (ورزقا حسنا) كالتمر والزبيب والدبس والخل * (تنبيه) * فى تفسير السكر وجوه الاول هو الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا فان قيل الخمر محرمة فكيف ذكرها الله تعالى فى معرض الانعام (أجيب) عن ذلك بوجهين أحدهما ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة فكان نزول هذه الآية كان فى الوقت الذى كانت الخمرة فيه غير محرمة وممن قال بنسخها النخعى والشعبى الثانى أن الآية جامعة بين العتاب والمنة فالعتاب بالنسبة الى السكر والمنة بالنسبة الى رزقا حسنا الوجه الثانى أن السكر هو النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر فاذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد فهو حلال عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى الى حد السكر ويحتج بهذه الآية وبقوله صلى الله عليه وسلم الخمر حرام لعينها وهذا يقتضى أن يكون السكر شيأ غير الخمر وكل من أثبت هذه المغايرة قال انه النبيذ المطبوخ الوجه الثالث أن السكر هو الطعام قاله أبو عبيدة واحتج عليه بقول الشاعر * جعلت اعراض الكرام سكرا * أى تنقلب باعراضهم بان جعلتها نقلا وتناولتها والنقل ما يتنقل به على الشراب قال البغوى وأولى الاقاويل ان قوله تعالى تتخذون منه سكرا منسوخ انتهى ويدل له قول الحسن ذكر الله نعمته عليهم فى الخمر قبل أن يحرمها عليهم وروى عن ابن عباس قال السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما أحل من ثمرها وروى عنه أيضا السكر الحرام منه والرزق زبيبه وعنبه ومنافعه * ثم قال تعالى (ان فى ذلك) المذكور (لآية) أى دلالة على قدرته تعالى (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل فى الآيات فيعلمون ان هذه الاحوال لا يقدر عليها الا الله تعالى فيحتج بحصولها على وجود الاله القادر

الحكيم * ولما بين تعالى أن اخراج الالبان واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب دليل قاطع وبرهان ساطع على ان لهذا العالم الها قادرا مختارا حكيما ذكر أن اخراج العسل الذى جعله الله تعالى شفاء للناس من دابة ضعيفة وهى النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على اثبات هذا المقصود بقوله تعالى (وأوحى ربك الى النحل) وحى الهام قال الضحاك الهمها ولم يرسل اليها رسولا والمراد من الالهام انه تعالى قدر فى أنفسها هذه الاعمال العجيبة التى يعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه الاول ماذكر الله بقوله تعالى (أن اتخذى) أى بأن اتخذى ويجوز أن تكون مفسرة لان فى الايحاء معنى القول (من الجبال بيوتا) تأوين اليها واغاسى ما تبنيه لتتعسل فيه بيتا تشبهها بيت الانسان فتبنى البيوت المسدسة من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طبعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم مثل تلك البيوت الا بآلات وانظار دقيقة الثانى انه ثبت فى الهندسة ان تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات كأن كانت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الاشكال فانه تبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة فاهتداء هذا الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب الثالث ان النحل يحصل بينها واحد كالرئيس للبقية وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقى ويكون نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه عند تعبه وذلك أيضا من الاعاجيب الرابع انها اذا انفردت عن وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع آخر فاذا أرادوا عودها الى وكرها ضربوا الطبول وآلات الموسيقى فبواسطة تلك الالحان يقدرون على ردها الى أوكارها وهذه أيضا حالة عجيبة فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة كان ليس الا على سبيل الالهام وهو حالة شبيهة بالوحى والوحى قد ورد فى حق الانبياء كقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب وفى حق الاولياء قال تعالى واذ أوحيت الى الحواريين وبمعنى الالهام فى حق البشر قال تعالى وأوحينا الى أم موسى وفى حق سائر الحيوانات خاص قال الزجاج يجوز أن يقال سمى هذا الحيوان نحلا لان الله تعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز ولذلك أنثها الله تعالى وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده الا الهاء (و) اتخذى (من الشجر) أى الصالحة بيوتا (و) اتخذى (مما يعرشون) أى الناس فيبنون تلك الاماكن وذلك أن النحل منه وحشى وهو الذى يسكن الجبال والشجر والكهوف ومنه أهلى وهو الذى يأوى الى البيوت وتربيه الناس عندهم وقد جرت العادة أن الناس يبنون للنحل الاماكن حتى يأوى اليها وذكر ذلك بحرف التبعيض لانها لا تبنى فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش من الكرم أو سقف ولا فى كل مكان منها وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون بكسرها *(تنبيه)* ظاهر قوله تعالى اتخذى أمر وقد اختلفوا فيه فمن الناس من يقول لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ولا يبعد أن يتوجه عليها من الله أمر ونهى وقال آخرون بل المراد منه أنه تعالى خلق فيها

غرائز وطبائع توجب هذه الاحوال وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله فى سورة النمل عند قوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم * ولما كان أهم شئ للحيوانات بعد الراحة من هم المقيل أكل شئ ثنى به فقال (ثم كلى من كل الثمرات) أى من كل ثمرة يشتهيها مرها وحلوها وذكر ذلك بحرف التراخى اشارة الى عجيب الصنع فى ذلك وتيسيره لها *(تنبيه)* لفظ من هذا للتبعيض أو لابتداء الغاية * ولما أذن لها فى ذلك كله وكان من المعلوم عادة أن تعاطيه لا يكون الا بمشقة عظيمة فى معاناة السير اليه نبه على خرقه العادة فى تيسيره لها بقوله تعالى (فاسلكى سبل ربك) أى الطرق التى ألهمك الله تعالى أن تسلكيها وتدخلى فيها الاجل طلب الثمار وقوله تعالى (ذللا) جمع ذلول حال من السبل أى مسخرة لك فلا تعسر عليك وان توعرت ولا تضلى عن العود فيها وان بعدت وقيل من الضمير فى اسلكى أى منقادة لاربابها حتى انهم ينقلونها من مكان الى مكان آخر حيث شاؤا وأرادوا لا تستعصى عليهم وقوله تعالى (يخرج من بطونها) فيه عدول عن خطاب النحل الى خطاب الناس لانه محل الانعام عليهم والمقصود من خلق النحل والهامه لاجلهم (شراب) أى عسل (مختلف ألوانه) ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والازهار ويستحيل فى بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب وقال الرازى انه رأى فى بعض كتب الطب ان العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الازهار وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه وتدخر بعضه فى بيوتها لانفسها لتتغذى به فاذا اجتمع فى بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب الى العقل لان طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وأيضا انا نشاهد ان النحل يتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى يخرج من بطونها شراب ان كل تجويف داخل البدن يسمى بطنا فقوله يخرج من بطونها أى من أفواهها انتهى والاول كما قال ابن الخازن وغيره أظهر لانا نشاهد ان العسل يوجد فيه طعم تلك الازهار التى يأكلها النحل وكذا توجد لذتها وريحها وطعمها فيه أيضا ويعضد هذا قول بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم له أكلت مغافير قال لا قالت ماهذه الريح التى أجد منك قال سقتنى حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط والعرفط شجر الطلع له صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة فعنى جرست نحله العرفط أكلت ورعت من العرفط الذى له الرائحة الكريهة فثبت بهذا أنه يوجد فى طعم العسل ولونه وريحه طعم ما يأكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الاطباء من انه طل لانه لو كان طلا لكان على لون واحد وقوله كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا خلاف الظاهر لان لفظ البطن اذا أطلق لم يرد به الا العضو المعروف بطن الانسان وغيره (فيه) أى الشراب الذى يخرج من بطون النحل (شفاء للناس) من الاوجاع كما قال ابن عباس وابن مسعود اما لبعضها كما دل عليه تنكير شفاء واما للكلها بضميمته الى غيره اذ قل معجون من المعاجين لم يذكر الاطباء فيه العسل أو بدونه بنيته وبهذا سقط ما قيل انه يضر بأصحاب الصفراء ويهيج الحرارة و يضر بالشباب

المحرور بن ويعطش قال ابن مسعود العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور وفي رواية عنه عليكم بالشفاءين القرآن والعسل وروى نافع أن ابن عمر ما كانت قرحة ولا شئ الا لطخ الموضع بالعسل ويقرأ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان أخي يشتكي بطنه فقال صلى الله عليه وسلم اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه العسل فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فشفاه الله فبرأ فكأنما أنشط من عقال فقوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم علم بنور الوحي الالهي أن العسل الذي أمره بشرب به سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه في الحال قال صدق الله يعني فيما وعده من أن فيه شفاء للناس وكذب بطن أخيك يعني باستعجال الكم للشفاء في أول مرة وقال مجاهد الضمير في فيه شفاء للناس راجع للقرآن لان فيه شفاء من أمراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس وعلى هذا تمت قصة تولد العسل من النحل عند قوله تعالى يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ثم ابتدأ وقال فيه شفاء للناس أي في هذا القرآن قال الرازي وهذا قول ضعيف ويدل عليه وجهان الاول أن الضمير في قوله تعالى فيه شفاء للناس يجب عوده الى أقرب المذكورات وما ذاك الا قوله تعالى شراب مختلف ألوانه وأما الحكم بعود هذا الضمير الى القرآن مع أنه غير مذكور فيما سبق فهو غير مناسب والثاني حديث أبي سعيد الخدري المتقدم * ثم انه تعالى ختم الآية بقوله تعالى (ان في ذلك) أي المذكور (لآية لقوم يتفكرون) أي في اختصاص النحل بتلك الطعوم الرقيقة واللطائف الخفية مثل بناء البيوت المسدسة وغير ذلك فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا وقد كثر في هذه السورة اضافة الآيات الى المخاطبين تارة بالافراد وتارة بالجمع ونوعها تارة بالعقل وتارة بالفكر وتارة بالذكر وتارة بغيرها * ثم انه تعالى لما أيقظهم من رقدتهم ونبههم على عظيم غفلتهم ثنى ببعض ما في أنفسهم من الادلة على ذلك فقال (والله) أي المحيط بكل شئ قدرة وعلما (خلقكم) أي أوجدكم من العدم وأخرجكم الى الوجود ولم تكونوا شيأ (ثم يتوفاكم) أي عند انقضاء آجالكم على اختلاف الانسان فلا يقدر الصغير أن يؤخر ولا الكبير على أن يتقدم فمنكم من يموت على حال قوته (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أي أخسه من الهرم والخرف قال بعض العلماء عمر الانسان له أربع مراتب سن الطفولية والنمو وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وبلوغ الاشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاثة وثلاثين سنة الى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل والمرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة يشرع فيها الانسان في النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر خمسة وستون سنة يتبين النقص ويكون الهرم والخرف قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أرذل العمر خمسة وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة وعن أنس رضي الله

تعالى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى أعوذبك من العجز والهرم والبخل وأعوذبك من عذاب القبر وفتنة المحيا والممات وفى رواية عنه كان يقول اللهم انى أعوذبك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) أى ليصير الى حالة شبيهة بحال الطفولية فى نقصان القوة والعقل وسوء الفهم * (تنبيه) * هل ذلك عام فى المسلم والكافر أو مختص بالكافر فيه قولان أحدهما انه عام والقول الثانى انه مختص اذ المسلم لا يزداد بطول العمر الا كرامة على الله تعالى ولا يقال فى حقه انه رد الى أرذل العمر قال الرازى والدليل عليه قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين امنوا وعملوا الصالحات فبين ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ماردوا الى أسفل السافلين وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر الى هذه الحالة وقال فى قوله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرؤا القرآن وقال ابن عباس قوله ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافرين ثم استثنى المؤمنين فقال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهذا يؤيد مامر (ان الله عليم) بمقادير أعمارهم (قدير) يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفانى وفى ذلك تنبيه على ان تفاوت آجال الناس ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان مقتضى الطباع كما يقول الطبائعيون لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ * ولما ذكر تعالى المفاوتة فى الاعمار المنادية بابطال الطبائع الموجبة للمسابقة الى الاعتبار لاولى الابصار للخوف كل لحظة من مصيبة الموت أتبعها بالمفاوتة فى الارزاق فقال (والله) أى الذى له الامر كله (فضل بعضكم) أيها الناس (على بعض فى الرزق) فمنكم غنى ومنكم فقير ومنكم مالك ومنكم مملوك كل ذلك بتقدير العزيز الحكيم فيجعل الضعيف العاجز الجاهل أغنى من القوى المحتال العالم فنرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاء يفنى عمره فى طلب القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك ونرى أجلف الخلق وأقلهم عقلا وفهما تفتح له أبواب الدنيا فكل شئ خطر بباله أو دار فى خياله فانه يحصل له بسهولة ولو كان السبب فى ذلك هو جهل الانسان وعقله لوجب أن يكون الاعقل أفضل فى هذه الاحوال فلما رأينا ان الاعقل أقل نصيبا وان الاجهل الاخس أوفر نصيبا علمنا ان ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا فاتقوا الله وأجملوا فى طلب الرزق وأقبلوا فى جمع قلوبكم على ما ينفعكم من الاستبصار وأنشد سفيان بن عيينة يقول

كم من قوى قوى فى تقلبه * مهذب الرأى عنه الرزق منحرف

ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط * كأنه من خليج البحر يغترف

(وحكى) أن سليمان المهلبى أرسل الى الخليل بن أحمد بمائة ألف درهم فردها الخليل وكتب اليه هذه الابيات

أبلغ سليمان انى عنه فى سعة * وفى غنى غير انى لست ذا مال

شحى بنفسى أنى لا أرى أحدا * يموت جوعا ولا يبقى على حال

فالعجز عن قدرها العجز ينقصه * ولا يزيد فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه * ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وقال الشافعي رحمه الله تعالى

ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

(تنبيه) هذا التفاوت ليس مختصا بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح وهذا بحر لا ساحل له قال الرازي وقد كنت مصاحبا لبعض الملوك في بعض الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه فكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها وربما أحضرت الاطعمة الشهية والفواكه الكثيرة العطرة عنده وما كان يمكنه أن يتناول شيأ منها وكان من الفقراء من هو صحيح المزاج وقوي البنية كامل القوة وما كان يجد مل ء بطنه طعاما فذلك الملك وان كان يفضل هذا الفقير في المال الا أن هذا الفقير كان يفضل ذلك الملك في الصحة والقوة وهذا باب واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه فيه فنسأل الله تعالى أن يغنينا من فضله وأن يرضينا بما قسم لنا انه كريم جواد* ثم ضرب الله تعالى مثلا للذين جعلوا لله شركاء بقوله تعالى (فما الذين فضلوا) أي في الرزق وهم الموالي (برادي رزقهم على ما ملكت ايمانهم) أي بجاعلي ما رزقناهم من الاموال وغيرها بينهم وبين مماليكهم (فهم) أي المماليك والموالي (فيه سواء) أي شركاء يقول الله تعالى هم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقناهم سواء فكيف يجعلون بعض عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني وقيل معنى الآية أن الموالي والمماليك الله رازقهم جميعا فهم في رزقه سواء فلا تحسبن الموالي يردون أرزاقهم على مماليكهم من عند أنفسهم بل ذلك رزق الله اجراه على أيدي الموالي للمماليك والمقصود منه بيان أن الرازق هو الله تعالى لجميع خلقه وأن الموالي والمماليك في ذلك الرزق سواء وأن المالك لا يرزق المملوك وانما ذلك رزق أجريته اليهم على أيديهم فالرازق للمالك والمملوك هو الله تعالى* ولما قرر سبحانه وتعالى هذه الدلائل وبينها وأظهرها بحيث يفهمها كل عاقل كان ذلك انعاما عظيما منه على الخلق فعند هذا قال (أفبنعمة الله) في تقرير هذه البيانات وايضاح هذه البينات (يجحدون) أي يكفرون وفي ذلك انكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره وجعلوا له شركاء يضيفون اليهم بعض ما أنعم به عليهم فيسوون بينهم وبينه في ذلك وقرأ شعبة بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم انه تعالى ذكر نوعا آخر من أحوال الناس ليستدل به على وجود الاله المختار الحكيم وتنبيها على انعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم بقوله تعالى (والله) أي الذي له تمام القدرة وكمال العلم (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أي من جنسكم لتستأنسوا بها ولتكون أولادكم منكم فخلق حواء من ضلع آدم وسائر الناس من نطف الرجال والنساء فهو خطاب عام فتخصيصه بآدم وحواء فقط خلاف الدليل والمعنى أنه تعالى خلق النساء لتتزوج بهن الذكور ومعنى من أنفسكم كقوله تعالى فاقتلوا أنفسكم فسلموا على

أنفسكم أى بعضكم بعضا ونظيره قوله تعالى ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) والحفدة جمع حافد وهو المسرع بالخدمة المسارع الى الطاعة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد أى نسرع الى طاعتك هذا أصله فى اللغة واختلف فيه أقوال المفسرين فقال ابن مسعود والنخعى الحفدة أختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود انهم أصهاره فهو بمعنى الاول وعلى هذا يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهن فيحصل لكم بسببهن الاختان والاصهار وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من أعانك فهو حفيدك وقال عطاء هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقال الكلبى ومقاتل البنون هم الصغار والحفدة كبار الاولاد الذين يعينون الرجل الذين ليسوا منه أى أولاد المرأة من الزوج الاول قال الرازى والاولى دخول الكل فيه لان اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك قال الزمخشرى ويجوز أن يراد بالحفدة البنون أنفسهم كانه قيل جعل لكم منهن أولادا هم بنون وهم حافدون أى جامعون بين الامرين انتهى ومع هذا فالمشهور ان الحافد ولد الولد من الذكور والاناث * (فائدة) * قال الاطباء وأهل الطبيعة المنى اذا انصب الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب منه الى الجانب الايمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما فى الذكورة واذا انصب من الخصية اليسرى ثم انصب الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد أنثى تاما فى الانوثة واذا انصب الى الخصية اليمنى وانصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان ذكرا فى طبيعة الاناث واذا انصب الى الخصية اليسرى ثم انصب منها الى الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد أنثى فى طبيعة الذكور وحاصل كلامهم ان الذكور الغالب عليهم الحرارة واليبوسة والغالب على الاناث البرودة والرطوبة وهذه العلة ضعيفة فان فى النساء من مزاجها فى غاية السخونة وفى الرجال من مزاجه فى غاية البرودة فخالق الذكر والانثى هو الاله القادر الحكيم * ولما ذكر تعالى انعامه على عبيده بالمنكوح وما فيه من المنافع والمصالح ذكر انعامه عليهم بالمطعومات الطيبة فقال (ورزقكم من الطيبات) سواء كانت من النبات وهى الثمار والحبوب والاشربة أو كانت من الحيوان والمراد بالطيب المستلذ أو الحلال ومن فى من الطيبات للتبعيض لان كل الطيبات فى الجنة وما طيبات الدنيا الا أنموذج منها واختلف فى تفسير قوله تعالى (أفبالباطل يؤمنون) فقال ابن عباس يعنى بالاصنام وقال مقاتل يعنى بالشيطان وقال عطاء يصدقون ان لى شريكا وصاحبة وولدا (وبنعمت الله هم يكفرون) أى بأن يضيفوها الى غير الله تعالى ويتركون اضافتها الى الله تعالى وقيل الباطل ما سوّل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم من هذه الطيبات وتحريم الخبائث * (فائدة) * رسمت نعمت هنا بالتاء ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء والكسائى يقرأ بالامالة * ولما شرح الله تعالى الدلائل على صحة التوحيد واتبعها بذكر أقسام النعم العظيمة اتبعها بالرد على عبدة الاصنام فقال (ويعبدون من دون الله) أى غيره (ما لا يملك لهم رزقا)

أى تاركين عبادة من بيده جميع الارزاق وهو ذو العلو المطلق الذى رزقهم من الطيبات ويعبدون غيره ثم بين تعالى جهة الرزق بقوله تعالى (من السموات والارض) اما الرزق الذى يأتى من جانب السماء فالمطر وأما الذى من جانب الارض فالنبات والثمار التى تخرج منها وقوله تعالى (شيأ) فيه ثلاثة أوجه أحدها أنه منصوب على المصدر أى لا يملك لهم ملكا أى شيأ من الملك والثانى أنه بدل من رزقا أى لا يملك لهم شيأ قال ابن عادل وهذا غير مفيد اذ من المعلوم أن الرزق شئ من الاشياء ويؤيد ذلك أن البدل لا يأتى الا لأحد معنيين البيان أو التأكيد وهذا ليس فيه بيان لانه أعم ولا تأكيد والثالث انه منصوب برزقا على انه اسم مصدر واسم المصدر يعمل عمل المصدر على خلاف فى ذلك * ولما كان من لا يملك شيأ قد يكون موصوفا باستطاعة أن يملك بطريق من الطرق نفى الله تعالى عنهم ذلك بقوله تعالى (ولا يستطيعون) أى وليس لهم نوع استطاعة أصلا (فان قيل) انه تعالى قال ويعبدون من دون الله ما لا يملك فعبر عن الاصنام بصيغة ما وهى لغير العاقل ثم جمع بالواو والنون فقال ولا يستطيعون وهو مختص بمن يعقل (أجيب) بأنه عبر عنها ثانيا اعتبارا باعتقادهم انها آلهة وفى تفسير قوله تعالى (فلا تضربوا لله الامثال) وجهان الاول قال أكثر المفسرين لا تشبهوا الله بخلقه فانه واحد لا مثل له ولا شبه ولا شريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفى ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق والرازق بالمرزوق والقادر بالعاجز الثانى ان عبدة الاوثان كانوا يقولون ان اله العالم أجل وأعظم من ان يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب أو نعبد هؤلاء الاصنام ثم ان الكواكب والاصنام عبيد الاله الاكبر الاعظم كان أصاغر الناس يخدمون أكابر حفدة الملك وأولئك الاكابر كانوا يخدمون الملك فكذا ههنا (ان الله) أى الذى له الامر كله ولا أمر لغيره (يعلم) أى خطأ ما أنتم عليه من ضرب الامثال له (وأنتم لا تعلمون) ذلك وقيل معناه وأنتم لا تعلمون ما عليكم من العقاب العظيم بسبب عبادة هذه الاصنام ولو علمتموه لتركتم عبادتها * ولما ختم تعالى ابطال مذهب عبدة الاصنام بسبب العلم الذى هو مناط السداد عنهم أكد ذلك بضرب مثل بقوله تعالى (ضرب الله) أى الذى له كمال العلم وتمام القدرة (مثلا) بالاحرار والعبيد ثم أبدل من مثلا (عبدا) وقيده بقوله تعالى (مملوكا) ليخرج الحر لان العبد يطلق على الحر بالنسبة الى الله تعالى وقيده بقوله تعالى (لا يقدر على شئ) ليخرج المكاتب ومن فيه شائبة حرية وهذا مثل شركائهم ثم عطف على عبدا قوله (ومن) أى وحرا فهى نكرة موصوفة ليطابق عبدا (رزقناه منا رزقا حسنا) أى واسعا طيبا (فهو ينفق منه) دائما وهو معنى قوله تعالى (سرا وجهرا) أى يتصرف فيه كيف يشاء وهذا مثل الاله وله المثل الاعلى ثم بكتهم انكارا عليهم بقوله تعالى (هل يستوون) أى هذان الفريقان الممثل بهما لان المراد الجنس فاذا كان لا يسوغ فى عقل أن يسوى بين مخلوقين أحدهما حر مقتدر والآخر مملوك عاجز فكيف يسوى بين حجر من صوان أو غيره وبين الله تعالى الذى له القدرة التامة على كل شئ وقيل ذلك تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق

* (تنبيه) *

(تنبيه) جواب هل يستوون هو لا يستوون وقوله تعالى (الحمد لله) قال ابن عباس الحمد لله على ما فعل بأوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد وقيل المعنى ان كل الحمد لله وليس شيء من الحمد للاصنام لانه لا نعمة لها على أحد لانها جماد عاجز أي انما الحمد لله لا لغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لانه تعالى أهل المحامد والثناء الحسن فكأنهم قالوا ونحن نعلم ذلك فقيل (بل أكثرهم) أي الكفار (لا يعلمون) لكونهم يسوونه غيره ومن نفى عنه أصل العلم الذي هو أعلى صفات الكمال كان في عداد الانعام فهم لذلك يشبهون به ما ذكر ويضربون له الامثال الباطلة ويضيفون نعمه الى غيره ثم انه تعالى ضرب لعبدة الاوثان مثلا آخر بقوله تعالى (وضرب الله مثلا) ثم أبدل منه (رجلين) ثم استأنف البيان لما أجمل فقال (أحدهما أبكم) وهو الذي ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم وروى ثعلب عن ابن الاعرابي الابكم الذي لا يسمع ولا يبصر وصف الله تعالى هذا الرجل بصفة ثانية بقوله تعالى (لا يقدر على شيء) لانه لا يفهم ولا يفهم وفي ذلك اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل ثم وصفه الله تعالى بصفة ثالثة بقوله تعالى (وهو) أي ذلك الابكم العاجز (كل على مولاه) أي ثقيل على من ولي أمره ويعوله قال أهل المعاني أصله من الغلظ الذي هو نقيض الحدة يقال كل السكين اذا غلظت شفرته فلم تقطع وكل اللسان اذا غلظ فلم يقدر على الكلام وكل فلان عن الامر اذا ثقل عليه فلم ينهض فيه ثم وصفه تعالى بصفة رابعة بقوله (أينما يوجهه) أي يرسله ويصرفه ذلك المولى (لا يأت بخير) لانه عاجز لا يحسن ولا يفهم قيل هذا مثل شركائهم الذين هم عيال ووبال على عبدتهم ويجهم الله تعالى بقوله (هل يستوي هو) أي هذا الموصوف بهذه الصفات الاربع (ومن) أي ورجل آخر على ضد صفته فهو ناطق قادر عالم فطن قوي خبير مبارك ميمون (يأمر) أي ورجل آخر يأمر عماله من العلم والقدرة (بالعدل) أي يبذل النصيحة لغيره (وهو) في نفسه ظاهرا وباطنا (على صراط) أي طريق واضح (مستقيم) أي عامل فيه بما يأمر به قيل هذا مثال المعبود بالحق الذي يكفي عابديه جميع المؤن وهو دال على كمال علمه وتمام قدرته وقيل المراد من هذا الابكم عبد لعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كان ذلك العبد يكره الاسلام وما كان فيه خير ومولاه وهو عثمان يأمر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم وقيل المراد كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل حر موصوف بتلك الصفات الحميدة وهذا القول كما قال الرازي أولى من الاول لان وصفه تعالى اياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى وأيضا المقصود تشبيه صورة بصورة في أمر من الامور وذلك التشبيه لا يتم الا عند كون احدى الصورتين مغايرة للاخرى وأما القول الثاني فضعيف أيضا لان المقصود ابانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة وذلك غير مختص بشخص معين بل اذا حصل التفاوت في الصفات المذكورة فانه يحصل المقصود ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بكمال العلم بقوله تعالى (ولله) أي لا لغيره (غيب السموات

(والارض) وهو ماغاب فيهما عن العباد بان لم يكن محسوسا ولم يدل عليه محسوس وقيل الغيب هنا هو قيام الساعة فان علمه غائب عن أهل السموات والارض ثم وصف سبحانه وتعالى كمال قدرته بقوله تعالى (وما أمر الساعة) وهو الوقت الذي يكون فيه البعث (الا كلمح البصر) أى الا كرجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها والمعنى وما أمر قيام الساعة فى السرعة والسهولة الا كطرف العين والمراد منه تقدير كمال القدرة ومعنى قوله تعالى (أو هو أقرب) ان لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها ولاشك أن الحدقة مؤلفة من أجزاء فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة تلك الاجزاء التى منها تألف الحدقة ولاشك أن تلك الاجزاء كثيرة والزمان الذي يحصل فيه لمح البصر مركب من آنات متعاقبة والله تعالى قادر على اقامة القيامة فى آن واحد من تلك الآنات فلذلك قال أو هو أقرب الا أنه لما كان أسرع الاحوال والحوادث فى عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر لاجرم ذكره ثم قال أو هو أقرب تنبيها على مامرّ ولاشبهة فى أنه ليس المراد طريقة الشك فالمراد اذا بل هو أقرب وقال الزجاج المراد به الابهام على المخاطبين لأنه تعالى يأتى بالساعة امّا بقدر لمح البصر أو بما هو أسرع وقيل معناه ان قيام الساعة وان تراخى فهو عند الله كالشئ الذى تقولون فيه هو كلمح البصر أو هو أقرب مبالغة كقوله تعالى وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (انّ الله) أى الملك الاعظم (على كل شئ قدير) فيقدر على أن يحيى الخلائق دفعة واحدة كما قدر على احيائهم فانه تعالى مهما أراده كان فى أسرع ما يكون ثم انه تعالى عاد الى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فعطف على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا قوله عز وجل (والله) أى الذى له العظمة كلها (أخرجكم) بقدرته وعلمه (من بطون أمّهاتكم) حال كونكم عند الاخراج (لاتعلمون شيأ) من الاشياء قلّ أو جلّ فالذى أخرجكم منها قادر على اخراجكم من بطون الارض بلا فرق بل بطريق الاولى وقرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة والباقون بضمها وقرأ حمزة بكسر الميم والباقون بفتحها ثم عطف على أخرجكم قوله تعالى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) آلات لازالة الجهل الذى وقعت الولادة عليه وفتق مواضعها وسوّاها وعدلها وأنتم فى البطون حيث لاتصل اليه يد ولا يتمكن من شق شئ منه بآلة فالذى قدر على ذلك فى البطن ابداعا قادر على اعادته فى بطن الارض بل بطريق الاولى قال البقاعى ولعله تعالى جمعهما أى الابصار والافئدة دون السمع لانّ التفاوت فيهما أكثر من التفاوت فيه بما لا يعلمه الا الله والافئدة هى القلوب التى هيأها الله تعالى للفهم واصلاح البدن بما أودعها من الحرارة اللطيفة للمعانى الدقيقة (لعلكم تشكرون) لتصيروا بمعارف القلوب التى وهبكموها اذا سمعتم المواعظ وأبصرتم الآيات فى حال يرجى فيها شكركم لما أفاض عليكم من لطائف صنعه بأن تعرفوا ماله من العلم والقدرة فانه انما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها فى شكر من أنعم بها عليكم (فان قيل) عطف وجعل لكم السمع على أخرجكم يقتضى أن يكون جعل السمع والبصر متأخرين عن الاخراج من البطون مع أنّ

الامر ليس كذلك (أجيب) بأن حرف الواو لا يوجب الترتيب وأيضا اذا حملنا السمع على الاسماع والابصار على الرؤية زال السؤال ثم انه تعالى ذكر دليلا آخر على كمال قدرته وحكمته بقوله تعالى (ألم يروا الى الطير مسخرات) أى مذللات للطيران (فى جو السماء) أى فى الهواء بين الخافقين مما لا يقدرون عليه بوجه من الوجوه مع مشاركتكم اياها فى السمع والبصر وزيادتكم عليها بالعقول فعلم قطعا أنه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران فيها والا لما أمكن ذلك لانه تعالى أعطى الطير جناحا يبسطه مرة ويكسره مرة أخرى مثل ما يعمل السابح فى الماء وخلق الجو خلقة لطيفة رقيقة يسهل خرقه والنفاذ فيه ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنا ومع ذلك (ما يمسكهن) فى الجو عن الوقوع (الا الله) أى الملك الاعظم فان جسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه فى الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه فوجب أن يكون الممسك له فى ذلك الجو هو الله تعالى وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء على أنه خطاب العامة والباقون بالياء على الغيبة (ان فى ذلك) المذكور (لآيات) أى دلالات (لقوم يؤمنون) وخصهم بذلك لانهم هم المنتفعون بها وان كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء ثم ذكر تعالى نوعا آخر من دلائل التوحيد بقوله تعالى (والله) أى الذى له الحكمة البالغة (جعل لكم من بيوتكم) وأصل البيت المأوى ليلا ثم اتسع فيه (سكنا) أى موضعا لتسكنوا فيه *(تنبيه)* البيوت التى يسكن الانسان فيها على قسمين أحدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التى بها يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله تعالى والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقلها بل الانسان ينتقل اليها والقسم الثانى القباب والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله تعالى (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) المتخذة من الادم ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر فانها من حيث انها نابتة على جلودها يصدق عليها انها من جلودها (تستخفونها) أى تتخذونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها (يوم ظعنكم) أى وقت ترحالكم وعبر باليوم لان الترحال فى النهار (ويوم اقامتكم) أى وقت الحضر أو وقت النزول وهذا القسم من البيوت يمكن نقلها وتحويلها من مكان الى مكان وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح العين والباقون بالسكون وأضاف قوله تعالى (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) الى ضمير الانعام لانها من جملتها قال المفسرون وأهل اللغة الاصواف للضأن والاوبار للابل والاشعار للمعز (أثاثا) أى ما يلبس ويفرش (ومتاعا) أى ما يتجر به وقيل الاثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله فى الغطاء والوطاء والمتاع ما يفرش فى المنازل ويتزين به واختلف فى معنى قوله تعالى (الى حين) فقيل الى حين تبلى وقيل الى حين الموت وقيل الى حين بعد حين وقيل الى يوم القيامة *(تنبيه)* فى نصب أثاثا وجهان أحدهما أنه منصوب عطفا على بيوتا أى وجعل لكم من أصوافها أثاثا والثانى أنه منصوب على الحال واعلم أن الانسان اما أن يكون مقيما أو مسافرا والمسافر اما أن يكون غنيا يستصحب معه الخيام أولا فالقسم الاول أشار اليه بقوله تعالى جعل لكم من بيوتكم سكنا

وأشار الى القسم الثانى بقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا وأشار الى القسم الثالث بقوله تعالى (والله) أى الذى له الجلال والاكرام (جعل لكم) أى من غير حاجة منه تعالى (مما خلق) من شجر وجبال وأبنية وغيرها وقوله تعالى (ظلالا) جمع ظل تتقون به شدة الحر وقوله تعالى (وجعل لكم) مع غناه المطلق (من الجبال أكنانا) جمع كن موضع تسكنون فيه من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها (وجعل لكم) أى امتنانا منه عليكم (سرابيل) جمع سربال قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال من قميص أو درع أو جوشن أو غيره أى وسواء كان من صوف أو كتان أو قطن أو غير ذلك (تقيكم الحر) ولم يقل تعالى والبرد لتقدمه فى قوله تعالى فيها دفء وقيل انه اكتفى بأحد المتقابلين وقيل كان المخاطبون بهذا الكلام العرب وبلادهم حارة فكان حاجتهم الى ما يدفع الحر فوق حاجتهم الى ما يدفع البرد كما قال تعالى ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائر أنواع الثياب أشرف الا أنه تعالى ذكر ذلك النوع لانه كان الفهم بها أشد واعتيادهم للبسها أكثر ولما كانت السرابيل نوعا واحدا لم يكرر لفظ جعل فقال (وسرابيل) أى دروعا من حديد وغيرها (تقيكم بأسكم) أى حربكم أى فى الطعن والضرب فيها * ولما عدد الله تعالى أنواع نعمه قال (كذلك) أى كاتمام هذه النعمة المتقدمة (يتم نعمته عليكم) فى الدنيا والدين بالبيان والهداية لطريق النجاة والمنافع والتنبيه على دقائق ذلك (لعلكم) يا أهل مكة (تسلمون) أى تخلصون لله الربوبية وتعلمون أنه لا يقدر على هذه الانعامات أحد سواه وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع (فان تولوا) فلم يقبلوا منك وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء والمعاداة فى الكفر (فانما عليك) يا أفضل الخلق (البلاغ المبين) هذا جواب الشرط وفى الحقيقة جواب الشرط محذوف أى فقد تمهد عذرك بعد ما أديت ما وجب عليك من التبليغ فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب وذلك لان تبليغه سبب فى عذره فأقيم السبب مقام المسبب وهذا قبل الامر بالقتال ثم انه تعالى ذمهم بأنهم (يعرفون نعمة الله) أى الملك الاعظم التى تقدم عد بعضها فى هذه السورة وغيرها (ثم ينكرونها) بعبادتهم غير المنعم بها وقال السدى نعمة الله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه وقيل نعمة الله هى الاسلام وهو من أعظم النعم التى أنعم الله تعالى بها على عباده ثم ان كفار مكة أنكروه وجحدوه واختلف فى معنى قوله تعالى (وأكثرهم الكافرون) مع أنهم كلهم كانوا كافرين على وجوه الاول انما قال تعالى وأكثرهم لانه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف أو كان ناقص العقل فأراد بالاكثر البالغين الاصحاء الثانى أن يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند وكان فيهم من لم يكن معاندا بل كان جاهلا بصدق الرسول وما ظهر له كونه نبيا حقا من عند الله الثالث انه ذكر الاكثر والمراد الجميع لان أكثر الشئ يقوم مقام الكل فذكر الاكثر كذكر الجميع وهذا كقوله تعالى الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * ولما بين تعالى من حال القوم انهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وذكر أيضا من حالهم أن أكثرهم كافرون اتبعه بالوعيد فذكر حال يوم القيامة بقوله تعالى (ويوم) أى وخوفهم

يوم أو واذكرلهم يوم (نبعث) بعد البعث (من كل أمة شهيدا) هو نبيها كما قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يشهد نبيهم لها وعليها يوم القيامة ليحكم تعالى بقوله اجراء للامر على ما يتعارفون وان كان تعالى غنيا عن شهيد وقوله تعالى (ثم لا يؤذن للذين كفروا) فيه وجوه أحدها لا يؤذن لهم فى الاعتذار كقوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون ثانيها لا يؤذن لهم فى كثرة الكلام ثالثها لا يؤذن لهم فى الرجوع الى دار الدنيا والى التكليف رابعها لا يؤذن لهم فى حال شهادة الشهود بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود (فان قيل) ما معنى ثم ههنا (أجيب) بأن معناها أنهم يمتحنون أى يبتلون بغير شهادة الانبياء عليهم السلام بما هو أطم منها وانهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم فى القاء معذرة ولا ادلاء بحجة (ولا هم يستعتبون) أى لا تزال عتباهم وهى ما يعتبون عليها ويلامون يقال استعتبت فلانا بمعنى اعتبته اى ازلت عتباه (واذا رأى الذين ظلموا) أى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى (العذاب) أى عذاب جهنم بعد الموقف وشهادة الشهداء (فلا يخفف عنهم) ذلك العذاب (ولا هم ينظرون) أى لا يمهلون * ولما بين تعالى حاصل أمرهم فى البعث وما بعده وكان من أهم المهم أمرهم فى الموقف مع شركائهم الذين كانوا يرجونهم عطف على ذلك بقوله تعالى (واذا رأى) أى بالعين يوم القيامة (الذين أشركوا شركاءهم) أى الآلهة التى كانوا يدعونها شركاء من الشياطين وغيرها (قالوا ربنا) أى يا من أحسن الينا وربانا (هؤلاء شركاؤنا) أضافوهم الى أنفسهم لانه لا حقيقة لشركتهم سوى تسميتهم لها الموجبة لضرهم ثم بينوا المراد بقولهم (الذين كنا ندعوا) أى نعبدهم (من دونك) ليقربونا اليك فأكرمنا لاجلهم جريا على مناهجهم فى الدنيا فى الجهل والغباوة فخاف شركاؤهم من عواقب هذا القول والاقرار عليه سطوات الغضب (فألقوا) أى الشركاء (اليهم) أى المشركين (القول) أى بادروا به حتى كان اسراعهم اليه اسراع شئ ثقيل يلقى من علو وأكدوا قولهم فقالوا (انكم لكاذبون) فى جعلنا شركاء أو انكم عبدتمونا حقيقة وانما عبدتم أهواءكم كقوله تعالى كلا سيكفرون بعبادتهم ولا يبعد أن تنطق الاصنام بذلك يومئذ فى انهم حملوهم على الكفر وألزموهم اياه كقوله وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى (وألقوا) أى الشركاء (الى الله) أى الملك الاعلى (يومئذ) أى يوم القيامة (السلم) أى الاستسلام بحكمه بعد الاستكبار فى الدنيا (وضل) أى غاب (عنهم) أى الكفار (ما كانوا يفترون) أى من أن آلهتهم تشفع لهم * ولما ذكر تعالى وعيد الذين كفروا أتبعه بوعيد من ضم الى كفره صد الغير عن سبيل الله بقوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) أى ضموا مع كفرهم انهم منعوا الناس عن الدخول فى الايمان بالله وبرسوله (زدناهم عذابا) لصدهم (فوق العذاب) المستحق بكفرهم (بما كانوا يفسدون) أى بكونهم مفسدين بصدهم وقيل زدناهم عذابا بحيات وعقارب كأمثال البخت يستغيثون بالهرب منها الى النار ومنهم من ذكر أن لكل عقرب ستمائة نقرة فى كل نقرة ثلثمائة قلة من سم وقيل عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ثم كرر سبحانه

وتعالى التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما أفهمته الآية السابقة وهو أن الشهادة تقع على الامم لا لهم وتكون بحضرتهم فقال (ويوم) أى وخوفهم أو واذكر لهم يوم (نبعث) أى بما لنا من القدرة (فى كل أمة) من الامم والامة عبارة عن القرن والجماعة (شهيدا عليهم) قال ابن عباس يريد الانبياء قال المفسرون كل نبى شاهد على أمته وهو أعدل شاهد عليها (من أنفسهم) أى منهم لان كل نبى انما بعث من قومه الذين بعث اليهم ليشهدوا عليهم بما فعلوا من كفر وايمان وطاعة وعصيان (وجئنا) بما لنا من العظمة (بك) يا خير المرسلين (شهيدا على هؤلاء) أى الذين بعثناك اليهم وهم أهل الارض وأكثرهم ليس من قومه صلى الله عليه وسلم ولذلك لم تقيد بعثته بشئ وقال ابو بكر الاصم المراد بذلك الشهيد هو أنه تعالى ينطق عشرة من أعضاء الانسان حتى انها تشهد عليه وهو الاذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان قال والدليل عليه ما قاله فى صفة الشهيد أنه من أنفسهم وهذه الاعضاء لا شك أنها من أنفسهم ورد بأنه تعالى قال شهيدا عليهم فيجب أن يكون غيرهم وأيضا قال من كل أمة فيجب أن يكون ذلك الشهيد من الامة وآحاد هذه الاعضاء لا يصح وصفها بأنها من الامة ثم بين تعالى أنه أزاح علتهم فيما كلفوا به فلا حجة لهم ولا معذرة بقوله تعالى (ونزلنا) أى بعظمتنا بحسب التدريج والتنجيم (عليك) يا خير خلق الله (الكتاب) أى القرآن الجامع للهدى (تبيانا) أى بيانا بليغا (لكل شئ) (فان قيل) كيف كان القرآن تبيانا لكل شئ (أجيب) بأن المعنى من كل شئ من أمور الدين حيث كان نصا على بعضها واحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع النبى صلى الله عليه وسلم وطاعته وقد قال تعالى وما ينطق عن الهوى وحثا على الاجماع فى قوله تعالى ويتبع غير سبيل المؤمنين وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته اتباع أصحابه والاقتداء بآثارهم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة الى تبيان الكتاب فمن ثم كان تبيانا لكل شئ (وهدى) أى من الضلالة (ورحمة) لمن آمن به وصدقه (وبشرى) بالجنة (للمسلمين) أى الموحدين خاصة* ولما استقصى سبحانه وتعالى فى شرح الوعد والوعيد والرغبة والترهيب أتبعه بقوله (ان الله) أى الملك المستجمع لصفات الكمال (يأمر بالعدل) قال ابن عباس فى بعض الروايات العدل شهادة أن لا اله الا الله (والاحسان) أداء الفرائض وقال فى رواية أخرى العدل خلع الانداد والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك فان كان مؤمنا أحببت له أن يزداد ايمانا وان كان كافرا أحببت له أن يكون أخاك فى الاسلام وقال فى رواية ثالثة العدل هو التوحيد والاحسان هو الاخلاص فيه وقال آخرون يعنى بالعدل فى الافعال والاحسان فى الاقوال فلا تفعل الا ما هو عدل ولا تقل الا ما هو احسان وأصل العدل المساواة فى كل شئ من غير زيادة ولا نقصان فالعدل هو المساواة فى المكافأة ان خيرا فخير وان شرا فشر والاحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بأن تعفو عنه وعن الشعبى قال عيسى بن مريم انما الاحسان أن تحسن

الى من أساء اليك ليس الاحسان أن تحسن الى من أحسن اليك وقيل العدل الانصاف والانصاف أعدل من الاعتراف للمنعم بانعامه والاحسان ان تحسن الى من أساء اليك وعن محمد بن كعب القرظى قال دعانى عمر بن عبد العزيز فقال صف لى العدل فقلت بخ سألت عن أمر جسيم كن لصغير الناس أبا ولكبيرهم ابنا وللمثل منهم أخا وللنساء كذلك (وايتاء) أى ومن الاحسان ايتاء (ذى القربى) أى القرابة القربى والبعدى فيندب أن تصلهم من فضل مارزقك الله فان لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد وروى أبو سلمة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ان أهل هذا البيت ليكونون تجارا فتنمى أموالهم ويكثر عددهم اذا وصلوا ارحامهم * ولما أمر تعالى بالمكارم نهى عن المساوى بقوله تعالى (وينهى عن الفحشاء) قال ابن عباس أى الزنا فانه اقبح احوال الانسان وأشنعها وقال غيره الفحشاء ماقبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة جميعها (والمنكر) قال ابن عباس يعنى الشرك والكفر وقال غيره المنكر مالا يعرف فى شريعة أو سنة (والبغى) هو الاستيلاء على الناس والتجبر عليهم قيل ان أعجل المعاصى عقابا البغى ولو أن جبلين بغى أحدهما على الآخر لدك الباغى ونص تعالى على البغى مع دخوله فى المنكر اهتماما به كما بدأ بالفحشاء لذلك وقال ابن قتيبة فى هذه الآية العدل استواء السر والعلانية والاحسان أن تكون سريرته خيرا من علانيته والفحشاء والمنكر والبغى أن تكون علانيته أحسن من سريرته وقال بعض العلماء ان الله تعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ومن المنهيات ثلاثة أشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة فى الاقوال والافعال وذكر فى مقابلته الفحشاء وهو ماقبح من الاقوال والافعال وذكر الاحسان وهو ان يعفو عمن ظلمه ويحسن الى من أساء اليه وذكر فى مقابلته المنكر وهو أن ينكر احسان من أحسن اليه وذكر ايتاء ذى القربى والمراد به صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة عليهم وذكر فى مقابلته البغى وهو أن يتكبر عليهم أو يظلمهم حقوقهم ولما كان هذا المذكور من أبلغ المواعظ نبه عليه بقوله تعالى (يعظكم) أى يأمركم بما يرقق قلوبكم من مصاحبة الثلاثة الاول وهى العدل والاحسان وايتاء ذى القربى ومجانبة الثلاثة الاخيرة وهى الفحشاء والمنكر والبغى (لعلكم تذكرون) أى لكى تتعظوا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وفيه ادغام التاء فى الاصل فى الذال وروى البيهقى فى شعب الايمان عن ابن مسعود انه قال أعظم آية فى كتاب الله تعالى الله لا اله الا هو الحى القيوم وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشر الآية التى فى النحل ان الله يأمر بالعدل والاحسان وأكثر آية فى كتاب الله تفويضا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وأشد آية فى كتاب الله تعالى رجاء قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الآية وقال أهل المعانى لما قال الله تعالى فى الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ بين فى هذه الآية المأمور به والمنهى عنه على سبيل الاجمال فما من شئ يحتاج

اليه الناس فى أمر دينهم مما يجب أن يؤتى به أو يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الآية وعن قتادة ليس من خلق حسن كان من أهل الجاهلية يعملون به ويعظمونه ويخشونه الا أمر الله تعالى به وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم الا نهى الله عنه وعن عكرمة ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ان الله يأمر بالعدل والاحسان الى آخر الآية فقال له يا ابن أخى أعد على فأعادها عليه فقال الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما هو بقول البشر ولما تقررت هذه الجمل التى جمعت بجمعها المأمورات والمنهيات ما تضيق عنه الدفاتر والصدور وشهد لها المعاندون من بلغاء العرب انها بلغت من البلاغة مبلغا يحصل به غاية السرور ذكر بعض تلك الاقسام وبدأ بما هو مع جمعه أهم وهو الوفاء بالعهد بقوله تعالى (وأوفوا) أى أوقعوا الوفاء الذى لا وفاء فى الحقيقة غيره (بعهد الله) أى الملك الاعلى الذى عاهدكم عليه بادلة العقل من التوحيد والبيع والايمان وغيرهما من أصول الدين وفروعه (اذا عاهدتم) بتقبلكم له باذعانكم لامتثاله (ولا تنقضوا الايمان) واحترز عن لغو اليمين بقوله تعالى (بعد توكيدها) أى تشديدها فتحنثوا فيها وفى ذلك دليل على أن المراد بالعهد غير اليمين لانه أعم منه وقرأ أبو عمرو بادغام الدال فى التاء بخلاف عنه (و) الحال انكم (قد جعلتم الله) أى الذى له العظمة كلها (عليكم كفيلا) أى شاهدا ورقيبا وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام وعن جابر رضى الله عنه قال نزلت هذه الآية فى بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كان من أسلم بايع على الاسلام فقال تعالى وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها الآية لا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الاسلام (ان الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (يعلم ما تفعلون) من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله تعالى لنقض العهد مثلا فقال (ولا تكونوا) أى فى نقض العهد (كالتى نقضت غزلها) أى ما غزلته فهو مصدر بمعنى المفعول (من بعد قوة) أى ابرام واحكام وقوله تعالى (أنكاثا) جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل والحبل قال مقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها رائطة وقيل ريطة وتلقب بجعراء وكانت خرقاء حمقاء لها وسوسة اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل اصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل من الصوف والشعر والوبر هى وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن وكان هذا دأبها وقال السدى كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة تغزل فاذا أبرمت غزلها نقضته وقال مجاهد نقضت حبلها بعد ابرامها اياه وقال قتادة لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد ابرامه لقلتم ما أحمق هذه وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده وقال فى قوله تعالى (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) خيانة وغدرا انتهى والدخل ما يدخل فى الشئ على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل أن يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه وانما كانوا يفعلون ذلك (أن) أى بسبب أن (تكون) أو مخافة أن تكون وتكون يجوز أن تكون تامة فتكون (أمة) أى جماعة فاعلها وأن تكون ناقصة فتكون أمة اسمها و(هى) مبتدأ و(أربى) أى أكثر (من أمة)

خبره والجملة فى محل نصب على الحال على الوجه الاول وفى موضع الخبر على الثانى وأربى مأخوذ من ربا الشئ يربو اذا زاد وهذه الزيادة قد تكون فى العدد وفى القوة وفى الشرف قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الاولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز فنهاهم الله تعالى عن ذلك (انما يبلوكم الله) الذى له الملك كله أى يختبركم (به) أى يعاملكم معاملة المختبر ليظهر للناس تمسككم بالوفاء وانخلاعكم عنه اعتمادا على كثرة أنصاركم وقلة أنصار من نقضتم عهده من المؤمنين أو غيرهم مع قدرته سبحانه وتعالى على ما يريد فيوشك أن يعاقب بالمخالفة فيضعف القوى ويقال الكثير ويكثر القليل (وليبينن لكم) أى اذا تجلى لفصل القضاء (يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) أى اذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب فاحذروا يوم العرض على مالك السموات والارض وأن من نوقش الحساب يهلك (ولو شاء الله) أى الملك الاعلى الذى لا أثر لاحد معه أن يجعلكم أمة واحدة لا خلاف بينكم فى أصول الدين ولا فروعه (لجعلكم أمة واحدة) أى متفقة على أمر واحد وهو دين الاسلام (ولكن) لم يشأ ذلك بل شاء اختلافكم فهو تعالى (يضل من يشاء) عدلا منه تعالى لانه تام الملك ولو كان الذى أضله على أحسن الحالات (ويهدى) بفضله (من يشاء) ولو كان على أخس الحالات والاحوال فبذلك تكونون مختلفين لا يسئل عما يفعل سبحانه وتعالى (ولتسئلن عما كنتم تعملون) فى الدنيا فيجازى المحسن باحسانه ويعاقب المسئ بعدله تعالى * ولما حذر سبحانه وتعالى عن نقض العهد والايمان مطلقا قال تعالى (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا) أى فسادا ومكرا وخديعة (بينكم) وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الايمان والالزم التكرار الخالى عن الفائدة فى موضع واحد بل المراد نهى أولئك الاقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن بعض أيمان مخصوصة أقدموا عليها فلهذا المعنى قال المفسرون المراد نهى الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد لان قوله تعالى (فتزل) أى فيكون ذلك سببا لان تزل (قدم) هى فى غاية العظمة (بعد ثبوتها) أى عن مركزها التى كانت به من دين أو دنيا فلا يصير لها قرار فتسقط عن مرتبتها الا يليق بنقض عهد قبله وانما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وبشرائعه * (تنبيه) * فتزل منصوب باضمار أن على جواب النهى وزلل القدم مثل يذكر لكل من وقع فى بلاء بعد عافية أو سقط فى ورطة بعد سلامة أو محنة بعد نعمة (وتذوقوا السوء) أى العذاب فى الدنيا (بما) أى بسبب ما (صددتم) أى أنفسكم ومنعتم غيركم بأيمانكم التى قد أردتم بها الافساد وخفاء الحق (عن سبيل الله) أى دينه وذلك أن من نقض العهد سهل على غيره طرق نقض العهد فيستن به (ولكم) مع ذلك (عذاب عظيم) أى ثابت غير منفك اذا متم على ذلك ثم أكد سبحانه وتعالى هذا التحذير بقوله تعالى (ولا تشتروا) أى ولا تتكلفوا أنفسكم لجاجة كالمنظر أن تأخذوا وتستبدلوا (بعهد الله) الذى له الكمال كله (ثمنا قليلا) أى من حطام الدنيا وان كنتم ترونه كثيرا ثم علل قلته بقوله تعالى (انما عند الله)

أى الذى له الجلال والاكرام من ثواب الدارين (هو خيرلكم) ولا يعدل عن الخير الى غيره الا لجوج ناقص العقل ثم شرط علم خيريته لكونهم من ذوى العلم بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) أى ان كنتم من أهل العلم والتمييز فتعلمون فضل ما بين العوضين ثم بين ذلك بقوله تعالى (ما عندكم) أى من متاع الدنيا ولذاتها (ينفد) أى يفنى فصاحبه منغص العيش أشد ما يكون به اغتباطا بانقطاعه (وما عند الله) أى الذى له الامر كله من ثواب الآخرة ونعيم الجنة (باق) أى دائم روى عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقرأ ابن كثير باقى فى الوقف بالياء والباقون بغير ياء وأما فى الوصل فالجميع بالتنوين (وليجزين الذين صبروا) على الوفاء بما يرضيه من الاوامر والنواهى فى السراء والضراء (أجرهم) أى ثواب صبرهم (بأحسن ما كانوا يعملون) أى بجزاء أحسن من أعمالهم أو يجزيهم على أحسن أعمالهم وذلك لان المؤمن قد يأتى بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولا شك أن الواجبات والمندوبات مما يثاب على فعلها الا على فعل المباحات وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون قبل الجيم أى ولنجزين نحن والباقون بالياء أى وليجزين الله ثم انه تعالى رغب المؤمنين فى الايمان بكل ما كان من شرائع الاسلام بقوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) اذ لا اعتداد بأعمال الكفار فى استحقاق الثواب وانما المتوقع عليها تخفيف العذاب (فان قيل) من عمل صالحا يفيد العموم فما فائدة من ذكر أو أنثى (أجيب) بأنه ذكر دفعا للتخصيص بأحد الفريقين واختلف فى قوله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) فقال سعيد بن جبير وعطاء هى الرزق الحلال وقال مقاتل هى العيش فى الطاعة وقال الحسن هى القناعة لان عيش المؤمن فى الدنيا وان كان فقيرا أطيب من عيش الكافر وان كان غنيا لان المؤمن لما علم أن رزقه من عند الله تعالى وذلك بتقديره وتدبيره تعالى وعرف أن الله تعالى محسن كريم حكيم يضع الاشياء فى محلها فكان المؤمن راضيا بقضاء الله وبما قدره له ورزقه اياه وعرف أن مصلحته فى ذلك القدر الذى رزقه فاستراحت نفسه من الكدر والحرص فطاب عيشه بذلك وأما الكافر والجاهل بهذه الاصول فدائم الحرص على طلب الرزق فيكون أبدا فى حزن وتعب وعناء وحرص فى الدنيا ولا ينال من الرزق الا ما قدر له فظهر بهذا أن عيش المؤمن القنوع أطيب من غيره وقال السدى الحياة الطيبة انما تحصل فى القبر لان المؤمن يستريح بالموت من كد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة هى الجنة لانها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاوة فأثبت بهذا أن الحياة الطيبة لا تكون الا فى الجنة ولا مانع من أن المؤمن الكامل يحصل جميع ذلك ثم ان الله تعالى ختم الآية بقوله تعالى (ولنجزينهم أجرهم) أى فى الدنيا والآخرة (بأحسن ما كانوا يعملون) أى من الطاعة وقد سبق تفسيره ولما قال تعالى ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون أرشد به الى العمل الذى به تخلص أعماله من الوسواس بقوله تعالى (فاذا قرأت القرآن) أى أردت قراءته (فاستعذ) أى ان شئت جهرا وان شئت سرا قال الشافعى رضى الله

تعالى عنه والاسرار أولى فى الصلاة وفى قول يجهر كما يفعل خارج الصلاة (بالله) أى سل الذى له الكمال كله أن يعيذك (من الشيطان) أى المحترق باللعنة (الرجيم) أى المطرود عن الرحمة من أن يصدك بوساوسه عن اتباعه ويدخل فى ذلك جميع المردة من الشياطين لان لهم قدرة على القاء الوسوسة فى قلوب بنى آدم باقدار الله تعالى على ذلك وقيل المراد ابليس خاصة والاستعاذة بالله تعالى هى الاعتصام به والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته وظاهر الآية وجوب الاستعاذة واليه ذهب عطاء سواء كانت القراءة فى الصلاة أم فى غيرها واتفق سائر الفقهاء على أنها سنة فى الصلاة وغيرها والصارف لهذا الامر عن الوجوب أحاديث كثيرة منها القراءة بدون ذكر تعوذ كحديث البخارى وغيره عن أبى سعيد بن العلاء رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما منعك أن تجيبنى قال كنت أصلى قال ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ثم قال لاعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن الحمد لله رب العالمين وفى رواية الموطا أنه صلى الله عليه وسلم نادى أبيا وأنه قال له كيف تقرأ اذا افتتحت الصلاة قال أبى فقرأت الحمد لله رب العالمين حتى أتيت الى آخرها وظاهر الآية يدل على أن الاستعاذة بعد القراءة واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول أبى هريرة واليه ذهب مالك وداود الظاهرى قالوا لان قارئ القرآن يستحق ثوابا عظيما وربما حصل الوسواس فى قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أولا فاذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقى الثواب مخلصا والذى ذهب اليه الاكثرون من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء الامصار أن الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الآية اذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله وتبعتهم على ذلك فلهذا قدرت ذلك فى الآية الكريمة ومثل ذلك قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ومثله من الكلام اذا أكلت فسم أى اذا أردت أن تأكل فقل بسم الله الرحمن الرحيم واذا سافرت فتأهب أى اذا أردت السفر فتأهب وأيضا الوسوسة انما تحصل فى أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة اليها * ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك يوهم أن للشيطان قدرة على التصرف فى ابدان الانسان أزال الله تعالى ذلك الوهم وبين أنه لا قدرة له ألبتة الا على الوسوسة بقوله تعالى (انه ليس له سلطان) أى بحيث لا يقدر المسلط عليه على الانفكاك عنه (على الذين آمنوا) أى بتوفيق ربهم لهم (وعلى ربهم) وحده (يتوكلون) أى على أوليائه المؤمنين به والمتوكلين عليه فانهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته وعن سفيان الثورى قال ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر لهم ثم وصل تعالى بذلك ما أفهمه من أن له سلطانا على غيرهم بقوله (انما سلطانه) أى الذى يتمكن به غاية التمكن بامكان الله تعالى له (على الذين يتولونه) أى يحبونه ويطيعونه (والذين هم به) أى بالله تعالى (مشركون) وقيل الضمير راجع الى الشيطان والمعنى هم بسببه مشركون بالله * ولما كان المشركون اذا

نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ناسخة لها يقولون ان محمدا يستهزئ بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ماهو الامفتر يتقوله من تلقاء نفسه نزل (واذا بدلنا) أى بقدرتنا بالنسخ (آية) سهلة كالعدة بأربعة شهور وعشر وقتال الواحد من المسلمين لاثنين من الكفار أو شاقة كتحريم الخمر وايجاب الصلوات الخمس فجعلناها (مكان آية) شاقة كالعدة بحول ومصابرة عشرة من الكفار أو سهلة كالآيات المتضمنة لاباحة الخمر والتبديل رفع الشئ ووضع غيره مكانه (والله) أى الذى له الاحاطة الشاملة (أعلم بما ينزل) من المصالح بحسب الاوقات والاحوال بنسخ أوغيره (قالوا) أى الكفار (انما أنت) يا محمد (مفتر) أى متقول على الله تعالى تأمر بشئ ثم يبدو لك فتنهى عنه وهو جواب اذا والله أعلم بما ينزل اعتراض والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف أى هو أعلم بجميع ذلك ومصالح العباد وهذا توبيخ للكفار على قولهم انما أنت مفتر أى اذا كان هو أعلم بما ينزل فما لهم ينسبون محمدا الى الافتراء لاجل التبديل والنسخ (بل أكثرهم) وهم الذين يستمرون على الكفر (لايعلمون) حكمة فائدة النسخ والتبديل ولا يميزون الخطأ من الصواب فان الله تعالى أعلم بمصالح العباد كما أن الطبيب يأمر المريض بشربة ثم بعد مدة ينهاه عنها ويأمره بغيرها بما يضاد تلك الشربة ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بقوله تعالى (قل) لمن واجهك بذلك منهم (نزله) أى القرآن بحسب التدريج لاجل اتباع المصالح باحاطة علم المتكلم به (روح القدس) أى جبريل عليه السلام واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وزيد الخير والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والمقدس المطهر من المآثم (من ربك بالحق) أى متلبسا بالحكمة (ليثبت الذين آمنوا) أى ليثبت بالقرآن قلوب الذين آمنوا فيزدادوا ايمانا ويقينا (وهدى) أى بيانا واضحا (وبشرى للمسلمين) أى المنقادين لحكمك (فان قيل) ظاهر الآية ان القرآن لاينسخ بالسنة لقوله تعالى واذا بدلنا آية مكان آية اذ مقتضاه أن الآية لاتنسخ الا بأخرى (أجيب) بأن هذه الآية دلت على أنه تعالى يبدل آية بآية ولادلالة فيها على أنه لا يبدل آية الا بآية وأيضا فجبريل عليه السلام ينزل بالسنة كما ينزل بالآية * ولما كان المشركون يقولون ان محمدا انما يتعلم هذه القصص وهذه الاخبار من انسان آخر وهو آدمى مثله وليس هو من عند الله كما يزعم نزل قوله تعالى (ولقد نعلم) أى علما مستمرا (أنهم يقولون انما يعلمه بشر) واختلف فى البشر الذى قال المشركون ان النبى صلى الله عليه وسلم يتعلم منه فقيل هو عبد لبنى عامر بن لؤى يقال له يعيش كان يقرأ الكتب وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة وقيل عبد لبنى الحضرمى صاحب كتب وكان اسمه جبرا فكانت قريش تقول عبد بنى الحضرمى يعلم خديجة وخديجة تعلم محمدا وقيل كان بمكة نصرانى أعجمى اللسان اسمه بلعام ويقال ابن ميسرة يتكلم بالرومية وقيل سلمان الفارسى وبالجملة فلا فائدة فى تعداد هذه الاسماء والحاصل أن القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم انه يظهرها من نفسه ويزعم أنه انما عرفها بالوحى وهو كاذب فيه فأجاب

الله تعالى عنه تكذيبا لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب بقوله تعالى
(لسان الذي يلحدون) أي يميلون اليه أو يشيرون (اليه) أي أنه يعلمه (أعجمي) أي لا يعرف لغة
العرب وهو مع ذلك الكن في التأدية غير مبين (وهذا) أي القرآن (لسان عربي مبين) أي ذو بيان
وفصاحة فكيف يعلمه أعجمي وروى أن الرجل الذي كانوا يشيرون اليه أسلم وحسن اسلامه
(ان الذين لا يؤمنون) أي لا يصدقون كل تصديق معترفين (بآيات الله) أي الذي له العظمة
كلها (لا يهديهم الله) أي لا يرشدهم ولا يوفقهم للايمان (ولهم عذاب أليم) أي مؤلم في الآخرة
ثم أخبر الله تعالى أن الكفار هم المفترون بقوله تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون
بآيات الله) أي القرآن بقولهم هذا من قول البشر (وأولئك) أي البعداء البغضاء (هم
الكاذبون) أي الكاملون في الكذب لان تكذيب آيات الله أعظم من الكذب أولئك
هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شئ لا يحجبهم عنه مروأة ولا دين * ولما ذكر تعالى
الذين لا يؤمنون مطلقا أتبعهم صنفا منهم هم أشد كفرا بقوله تعالى (من) أي أي مخلوق
وقع له أنه (كفر بالله) أي الذي له صفات الكمال بأن قال أو عمل ما يدل على الكفر (من بعد
ايمانه) بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم (الا من أكره) أي على التلفظ بالكفر فتلفظ به (وقلبه
مطمئن بالايمان) فلا شئ عليه لان محل الايمان هو القلب روى ان قريشا أكرهوا عمارا وأباه
ياسرا وأمه سمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين وقالوا انك أسلمت من أجل الرجال فقتلت
وقتل ياسر وهما أول قتيل في الاسلام وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرها وهو كاره بقلبه
فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كفر فقال صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا امتلأ ايمانا من
قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فجاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل
رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول مالك ان عادوا لك فقل لهم مثل ما قلت
(تنبيه) في الآية دليل على اباحة التلفظ بالكفر وان كان الافضل أن يتجنب عنه اعزازا
للدين كما فعله أبواه ولما روى ان مسيلمة أخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول في محمد فقال
رسول الله قال فما تقول في قال أنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول في محمد فقال رسول الله
قال فما تقول في قال أنا أصم فأعاد عليه ثلاثا فأعاد جوابه فقتله فبلغ رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال أما الاول فقد أخذ برخصة الله وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيأ له واختلاف الائمة
في وقوع الطلاق بالاكراه فقال الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى لا يقع طلاق المكره وقال
أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقع واستدل الشافعي بقوله تعالى لا اكراه في الدين ولا يمكن أن يكون
المراد نفي ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفي آثاره أي لا أثر له ولا عبرة به وقال عليه
الصلاة والسلام رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وقال أيضا لا طلاق في
اغلاق أي اكراه وتمسك أبو حنيفة بقوله تعالى فان طلقها فلا تحل له وهذا قد طلقها وأجيب
بأن الآية مخصوصة بغير ذلك جمعا بين الادلة (ولكن من شرح بالكفر صدرا) أي فتحه ووسعه
لقبول الكفر واختاره ورضي به (فعليهم غضب) أي غضب لم تبين جهة عظمه لكونه (من الله)

أى الملك الاعظم (ولهم) أى بظواهرهم وبواطنهم (عذاب عظيم) فى الآخرة لارتدادهم على أعقابهم (ذلك) أى الوعيد العظيم (بأنهم) أى بسبب أنهم (استحبوا) أى أحبوا حبا عظيما (الحياة الدنيا) الكائنة الحاضرة الفانية فآثروها (على الآخرة) الباقية الفاخرة لانهم رأوا مافيه المؤمنون من الضيق والكافرون من السعة (وأن الله) أى الذى له الغنى المطلق (لا يهدى القوم الكافرين) أى لا يرشدهم الى الايمان ولا يوفقهم للعمل (أولئك) أى البعداء البغضاء (الذين طبع الله) أى الملك الذى لا أمر لاحد معه (على قلوبهم) أى ختم عليها واستوثق * ولما كان التفاوت فى السمع نادرا وحده بقوله تعالى (وسمعهم) أو يعنى اسماعهم ليناسب قوله تعالى (وأبصارهم) فصاروا بعدم انتفاعهم بهذه المشاعر كأنهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون (وأولئك) أى الاباعد من كل خير (هم الغافلون) عما يرادبهم من العذاب فى الآخرة (لاجرم) أى لاشك (أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) أى أكمل الناس خسارة لان الله تعالى وصفهم بست صفات الاولى أنهم استوجبوا غضب الله تعالى الثانية أنهم استوجبوا العذاب الاليم الثالثة أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة الرابعة أن الله تعالى حرمهم من الهداية الخامسة أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم السادسة أنه جعلهم من الغافلين عن العذاب الشديد يوم القيامة اذ كل واحدة من هذه الصفات من أعظم الاحوال المانعة من الفوز بالخيرات والسعادات ومعلوم أنه تعالى انما أدخل الانسان فى الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشترى بطاعته سعادات الآخرة فاذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه فلهذا السبب حكم تعالى عليهم بالخسران * ولما ذكر تعالى حال من كفر بالله من بعد ايمانه وحال من أكره على الكفر ذكر بعده حال من هاجر من بعد ما فتن بقوله تعالى (ثم ان ربك) أى المحسن اليك (للذين هاجروا) الى المدينة الشريفة بالولاية والنصر وقوله تعالى (من بعد ما فتنوا) قرأ ابن عامر بفتح الفاء والتاء على استناد الفعل الى الفاعل والباقون بضم الفاء وكسر التاء على فعل مالم يسم فاعله ووجه القراءة الاولى انه عاد الضمير على المؤمنين فالمعنى فتنوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول ظاهرا وأنهم لما صبروا على عذاب المشركين فكأنهم فتنوا أنفسهم وان عاد على المشركين فهو ظاهر أى فتنوا المؤمنين لان أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أقوياء المشركين على الردة والرجوع عن الايمان فبين تعالى أنهم هاجروا (ثم جاهدوا وصبروا) على الطاعة (ان ربك من بعدها) أى الفتنة (لغفور) أى بليغ الاكرام (رحيم) فهو يغفر لهم ويرحمهم * (تنبيه) * حذف خبر ان الاولى لدلالة خبر الثانية عليه أو مقدر بما مر (يوم) أى اذكر يوم (تأتى كل نفس) أى وان عظم جرمها (تجادل) أى تحاج (عن نفسها) أى لا يهمها غيرها وهو يوم القيامة (فان قيل) ما معنى النفس المضافة الى النفس (أجيب) بأنه يقال لعين الشئ وذاته نفسه وفى نقيضه غيره والنفس الجملة كما هى فالنفس الاولى هى الجملة والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول نفسى نفسى ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها

كقولهم هؤلاء الذين أضلونا وما كنا مشركين (وتوفى كل نفس) صالحة أو غير صالحة (ما عملت) أى جزاءه من جنسه (وهم لا يظلمون) أى شيأ * ولما هدد تعالى الكفار بالوعيد الشديد فى الآخرة هددهم أيضا بآفات الدنيا وهى الوقوع فى الجوع والخوف بقوله تعالى (وضرب الله) أى المحيط بكل شئ (مثلا) ويبدل منه (قرية) هى مكة والمراد أهلها (كانت آمنة) أى ذات أمن ويأمن بها أهلها فى زمن الخوف قال تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم والامن فى مكة كان كذلك لان العرب كان يغير بعضهم على بعض دون اهل مكة فانهم كانوا أهل حرم الله والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم (مطمئنة) أى قارة بأهلها لا يحتاجون فيها الى نجعة وانتقال بسبب زيادة الامن بكثرة العدد وقوة المدد وكف الله تعالى الناس عنها ووجود ما يحتاج اليه أهلها (فان قيل) الاطمئنان هو الامن فيلزم التكرار (أجيب) بأن قوله تعالى آمنة اشارة الى الامن وقوله تعالى مطمئنة أى لا يحتاجون فيها الى نجعة كما مر وقيل أشار تعالى بذلك الى الصحة لان هواء ذلك البلد كان ملائما لامزجتهم فلذلك اطمأنوا اليه واستقروا قالت العقلاء ثلاثة ليس لها نهاية الامن والصحة والكفاية (يأتيها) أى على سبيل التجدد والاستمرار (رزقها رغدا) أى واسعا طيبا (من كل مكان) بر وبحر بتيسير الله تعالى * ولما كانت السعة تجر الى البطر غالبا نبه تعالى على ذلك بقوله تعالى (فكفرت بأنعم الله) أى الذى له الكمال كله وأنعم جمع نعمة قال الزمخشرى على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع وقال قطرب هى جمع نعم والنعم النعمة يقال هذه أيام نعم وطعم فلا تصوموا وقيل جمع نعماء مثل بأساء وأبؤس (فان قيل) الانعم جمع قلة فكان تلك القرية كفرت بأنواع قليلة من نعم الله فعذبها الله تعالى فلم يقل تعالى كفروا بنعم عظيمة فاستوجبوا العذاب (أجيب) بأن المقصود التنبيه بالادنى على الاعلى فان كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فبكفران النعم الكثيرة أولى وبأن الله تعالى أنعم عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وبالغوا فى ايذائه (فأذاقها الله) أى المحيط بكل شئ (لباس الجوع) بعد رغد العيش سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا وأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة وقيل ان القرية غير مكة لانها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة (والخوف) بسرايا النبى صلى الله عليه وسلم * (تنبيه) * استعير الذوق لادراك أثر الضرر واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف وأوقع الاذاقة عليه بالنظر الى المستعار له كقول كثير عزة

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا * غلقت لضحكته رقاب المال

فانه استعار الرداء للمعروف لانه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه وأضاف اليه الغمر الذى هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظرا الى المستعار له ولو نظر الى المستعار لقال ضافى الرداء أى سابغه ومعنى البيت اذا ضحك المسؤل ضحكة أيقن السائل بذلك التبسم استرقاق رقاب ماله وأنه يعطى بلا خلاف وقد ينظر الى المستعار له كقوله

ينازعنى ردائى عبد عمرو * رويدك يا أخا عمرو بن بكر
لى الشطر الذى ملكت يمينى * ودونك فاعتجر منه بشطر

استعار الرداء للسيف ثم قال فاعتجر نظرا الى المستعار ولو نظر الى المستعار منه لقال تعالى فى الآية وكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير ضافى الرداء اذا تبسم ضاحكا وهذا نهاية ما يقال فى الاستعارة وقال ابن عطية لما باشرهم ذلك صار كاللباس وهذا كقول الاعشى

اذا ما الضجيع ثنى جيدها * تثنت عليه فكانت لباسا

ومثله قوله تعالى هن لباس لكم وانتم لباس لهن ومثله قول الشاعر

وقد لبست بعد الزبير مجاشع * لباس التى حاضت ولم تغسل الدما

كان العار لما باشرهم ولصق بهم كأنهم نسوة وقوله تعالى فأذاقها نظير قوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم ونظير قول الشاعر دون ما جنيت فاحس وذق * وقوله تعالى (بما كانوا يصنعون) يجوز أن تكون ما مصدرية أى بسبب صنعهم أو بمعنى الذى والعائد محذوف أى بسبب الذى كانوا يصنعونه والواو فى يصنعون عائد على أهل البلد وقيل قرية نظير قوله تعالى أو هم قائلون بعد قوله تعالى وكم من قرية أهلكناها * ولما ذكر الله تعالى المثل ذكر الممثل له فقال تعالى (ولقد جاءهم) أى أهل هذه القرية (رسول منهم) من نسبهم يعرفونه بأصله ونسبه وهو محمد صلى الله عليه وسلم (فكذبوه فأخذهم العذاب) قال ابن عباس يعنى الجوع الذى كان بمكة وقيل القتل الذى كان يوم بدر (وهم ظالمون) أى فى حال تلبسهم بالظلم كقوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام ثم قال تعالى (فكلوا) أى أيها المؤمنون (مما رزقكم الله) قال ابن عباس يريد من الغنائم وقال الكلبى ان رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان وكانت الميرة قد قطعت عنهم فأذن فى الحمل اليهم فحمل الطعام اليهم فقال الله تعالى كلوا مما رزقكم الله قال الرازى والقول ما قال ابن عباس يدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية انما حرم عليكم الميتة يعنى انكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا مما رزقكم الله (حلالا طيبا) وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهى الميتة والدم * ولما أمرهم تعالى بأكل الحلال أمرهم بشكر النعمة بقوله تعالى (واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون) أى تطيعون * (تنبيه) * رسمت نعمت بالتاء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالهاء والباقون بالتاء والكسائى يقف بالامالة وتقدم تفسير قوله تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) فى سورة البقرة فلا افادة فى تفسير ذلك وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة فمن اضطر فى الوصل بكسر النون والباقون بالضم * (تنبيه) * حصر المحرمات فى هذه الاشياء الاربعة مذكور أيضا فى سورة الانعام عند قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الآية وفى سورة المائدة فى قوله تعالى أحلت

لكم بهيمة الانعام الاما يتلى عليكم واجمعوا على أن المراد بقوله تعالى الاما يتلى عليكم هو قوله تعالى فى سورة البقره حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وقوله تعالى فى المائدة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الاماذكيتم فهذه الاشياء داخلة فى الميتة ثم قال تعالى وماذبح على النصب وهو أحد الاشياء الداخلة تحت قوله تعالى وما أهل به لغير الله فثبت أن هذه السور الاربعة دالة على حصر المحرمات فى هذه الاربعة سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان فان سورة البقرة مدنية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله بالمدينة فمن أنكر حصر التحريم فى هذه الاربعة الاما خصه الاجماع والدلائل العقلية القاطعة كان فى محل أن يخشى عليه لان هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات فى هذه الاربعة كان مشروعا ثابتا فى أول زمان مكة وآخره وأول زمان المدينة وأنه تعالى أعاد هذا البيان فى هذه السور الاربعة قطعا للاعذار وازالة للشبهة * ولما حصر تعالى المحرمات فى هذه الاربع بالغ فى تأكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار فى الزيادة على هذه الاربعة تارة وفى النقصان عنها أخرى بقوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) لما لم يحله الله ولم يحرمه فانهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وكانوا يقولون ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا فقد زادوا فى المحرمات وزادوا أيضا فى المحللات لانهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فبين تعالى أن المحرمات هى هذه الاربعة وبين أن الاشياء التى يقولون هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله تعالى *(تنبيه)* فى انتصاب الكذب وجهان أحدهما ما قال الكسائى ما مصدرية والتقدير ولا تقولوا لاجل وصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره أن يقال لا تقولوا الكذا وكذا كذا وكذا (فان قيل) حمل الآية على هذا يؤدى الى التكرار لان قوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) عين ذلك (أجيب) بأن قوله تعالى لما تصف ألسنتكم الكذب ليس فيه بيان أنه كذب على الله فأعاده ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظيره فى القرآن كثير وهو أنه تعالى يذكر كلاما ويعيده بعينه مع فائدة زائدة الثانى أن تكون ما موصولة والتقدير ولا تقولوا الذى تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام وحذف لفظ فيه لكونه معلوما وقيل اللام فى لتفتروا لام العاقبة كما فى قوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا (فان قيل) ما معنى وصف ألسنتهم الكذب (أجيب) بأن ذلك من فصيح الكلام وبليغه جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه واذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولهم وجهها يصف الجمال أى هى جميلة وعينها تصف السحر أى هى ساحرة فلما أرادوا المبالغة فى وصف الوجه بالجمال ووصف العين بالسحر عبروا بذلك ثم انه تعالى أوعد المفترين بقوله تعالى (ان الذين يفترون على الله) أى الذى له الملك كله (الكذب) منكم ومن غيركم (لا يفلحون) أى لا يفوزون بخير لان المفترى يفترى لتحصيل مطلوب فنفى الله تعالى عنه الفلاح لانه الفوز بالخير والنجاح ثم بين

تعالى ان ماهم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب بقوله تعالى (متاع قليل) أى منفعة قليلة تنقطع عن قرب لفنائه وان امتد ألف عام (ولهم) بعده (عذاب أليم) أى مؤلم فى الآخرة * ولما بين تعالى مايحل ويحرم لأهل الاسلام اتبعه ببيان مايخص اليهود به من المحرمات بقوله تعالى (وعلى الذين هادوا) أى اليهود (حرمنا) عليهم عقوبة لهم بعدوانهم وكذبهم على ربهم (ماقصصنا عليك) يا أجل المرسلين (من قبل) أى فى سورة الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية (وماظلمناهم) أى بتحريم ذلك عليهم (ولكن كانوا) أى دائما طبعا لهم وخلقا مستمرا (أنفسهم) خاصة (يظلمون) بالبغى والكفر فضيقنا عليهم معاملة بالعدل وعاملناكم أنتم حيث ظلمتم بالفضل فاشكروا النعمة واحذروا غوائل النقمة * ولما بين تعالى هذه النعمة الدنيوية عطف عليها نعمة هى أكبر منها جدا استجلابا لكل ظالم. وبين عظمتها بحرف التراخى فقال تعالى (ثم ان ربك) أى المحسن اليك (للذين عملوا السوء) وهو يتناول كل مالا ينبغى فعله فيشمل الكفر وسائر المعاصى (بجهالة) أى بسببها أو ملتبسين بها اليم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر فى العواقب فكل من عمل سوأ انما يفعله بالجهالة أما الكفر فلان أحدا لا يرضى به مع العلم بكونه كفرا لانه لولم يعتقد كونه حقا فانه لا يختاره ولا يرتضيه وأما المعصية فلأن العالم لم تصدر منه المعصية مالم تصر الشهوة غالبة للعقل فثبت أن كل من عمل السوء فانما يقدم عليه بسبب الجهالة (ثم تابوا من بعد ذلك) أى الذنب ولو كان عظيما واقتصروا على ما أذن فيه خالقهم (وأصلحوا) بالاستمرار على ذلك (ان ربك) أى المحسن اليك بتسهيل دينك وتيسيره (من بعدها) أى التوبة (لغفور) أى بليغ الستر لما عملوا من السوء (رحيم) أى بليغ الرحمة محسن بالاكرام فضلا منه ونعمة * ولما دعاهم الله تعالى الى مكارم الاخلاق ونهاهم عن مساويها بقبوله لمن أقبل اليه وكان ابراهيم عليه الصلاة والسلام رئيس الموحدين لاجرم ذكره الله تعالى فى آخر هذه السورة ووصفه بتسع صفات الصفة الاولى قوله تعالى (ان ابراهيم كان أمة) أى لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد الا متفرقة فى أشخاص كثيرة كقول القائل

وليس لله (أى من الله) بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

أى أن يجمع صفاتهم فى شخص واحد وقال مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده أمة واحدة وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله أمة وحده وعن شهر بن حوشب لم تبق الارض الا وفيها أربعة عشر يدفع الله تعالى بهم عن أهل الارض الا زمن ابراهيم فانه كان وحده وقيل أمة فعلة بمعنى مفعول كالدخلة والنخبة من أمه اذا قصده واقتدى به فان الناس كانوا يؤمونه للاستفادة ويقتدون بسيره كقوله تعالى انى جاعلك للناس اماما وقرأ هشام ان ابراهام وملة ابراهام بالالف بعد الهاء فيهما وقرأ الباقون بالياء فيهما الصفة الثانية قوله تعالى (قانتا لله) أى مطيعا له قائما بأوامره الصفة الثالثة قوله تعالى (حنيفا) أى مائلا عن الباطل قال ابن عباس انه أول من اختتن وأقام

مناسك الحج وضحى وهذه السنة الحنيفية الصفة الرابعة قوله تعالى (ولم يك من المشركين) أى انه عليه الصلاة والسلام كان من الموحدين فى الصغر والكبر وقد أبطل عبادة الاصنام والكواكب بقوله لا أحب الآفلين ثم كسر تلك الاصنام حتى آل الامر الى أن القوم ألقوه فى النار وذلك دليل اثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله ربى الذى يحيى ويميت ثم طلب من الله تعالى أن يريه كيف يحيى الموتى ليحصل له زيادة الطمأنينة قال الرازى ومن وقف على علم القرآن علم أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان غريقا فى بحر علم التوحيد الصفة الخامسة قوله تعالى (شاكرا لانعمه) فان قيل لفظ الانعم جمع قلة ونعمة الله تعالى على ابراهيم عليه السلام كانت كثيرة فلم قال شاكرا لانعمه (أجيب) بأنه ذكر القلة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر القليلة فكيف بالكثيرة وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يتغدى الامع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فأخر غداءه فاذا هو بقوم من الملائكة فى صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخيلوا له أن بهم جذاما فقال لهم الآن وجبت مؤاكلتكم شكرا لله على انه عافانى وابتلاكم بهذا البلاء الصفة السادسة قوله تعالى (اجتباه) أى اصطفاه للنبوة واختاره لخلته الصفة السابعة قوله تعالى (وهداه الى صراط مستقيم) أى وهداه الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين القويم ونظيره قوله تعالى وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه الصفة الثامنة قوله تعالى (وآتيناه فى الدنيا حسنة) قال قتادة حببه للناس حتى ان أرباب الملل يتولونه ويثنون عليه أما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر وأما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم الا به وتحقيق القول ان الله تعالى أجاب دعاءه فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقال آخرون هو قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل أولادا ابرارا على الكبر الصفة التاسعة قوله تعالى (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) فى الجنة (فان قيل) لم لم يقل تعالى فى أعلى مقامات الصالحين (أجيب) بأنه تعالى حكى عنه أنه قال رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين فقال تعالى هنا وانه فى الآخرة لمن الصالحين تنبيها على أنه تعالى أجاب دعاءه ثم ان كونه من الصالحين لا ينفى أن يكون فى أعلى مقامات الصالحين فان الله تعالى بين ذلك فى آية أخرى وهى قوله تعالى وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء

* ولما وصف الله تعالى ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى اتباعه مشيرا الى علو مرتبته بحرف التراخى بقوله تعالى (ثم أوحينا اليك) يا أشرف الرسل وقيل أتى بثم للتراخى أى لتراخى أيامه عن أيام ابراهيم عليهما أفضل الصلاة والسلام (أن اتبع ملة ابراهيم) فى التوحيد والدعوة اليه بالرفق وايراد الدلائل مرة بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد على حسب فهمه ولا بعد فى أن يفهم ذلك الهجرة أيضا وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بشريعة ابراهيم عليهما الصلاة والسلام الا ما نسخ منها ومالم ينسخ صار شرعا له وقوله تعالى (حنيفا) حال من النبى صلى الله عليه وسلم ويصح أن يكون حالا من ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (وما كان من المشركين) كرره

ردا على من زعم من اليهود والنصارى أنهم على دينه وقوله سبحانه وتعالى (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) فيه قولان الاول روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال أمرهم موسى عليه السلام بالجمعة وقال تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوما واحدا وهو يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيأ من أعمالكم فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد الا اليوم الذي فرغ الله تعالى فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل عليهم السبت وشدد عليهم فيه ثم جاء عيسى عليه السلام أيضا بالجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم أي اليهود بعد عيدنا فاتخذوا الاحد وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى كتب يوم الجمعة على من كان قبلكم فاختلفوا فيه وهدانا الله له فهم لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد (فان قيل) هل في العقل وجه يدل على أن الجمعة أفضل من السبت والاحد فان أهل الملل اتفقوا على أنه تعالى خلق العالم في ستة أيام وبدأ تعالى بالخلق والتكوين في يوم الاحد وتم في يوم الجمعة فكان يوم السبت يوم الفراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك الاعمال فعينوا يوم السبت لهذا المعنى وقالت النصارى مبدأ الخلق والتكوين يوم الاحد فنجعل هذا اليوم عيدنا فهذان الوجهان معقولان لنا فما وجه جعل يوم الجمعة عيدا (أجيب) بأن يوم الجمعة هو يوم التمام والكمال وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور فجعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه القول الثاني اختلافهم في السبت هو أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة (وان ربك) أي المحسن اليك بطواعية أصحابك لك (ليحكم بينهم) أي هؤلاء المختلفين (يوم القيامة) وهو يوم اجتماع جميع الخلائق (فيما كانوا فيه يختلفون) فيحكم للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب * ولما أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بين الشيء الذي أمره بمتابعته فيه بقوله تعالى (ادع) أي كل من تمكن دعوته ممن بعثت اليه (الى سبيل ربك) أي المحسن اليك بتسهيل السبيل الذي تدعو اليه واتساعه وهو الاسلام الذي هو الملة الحنيفية (بالحكمة) أي المعاملة المحكمة وهو الدليل الواضح المزيل للشبهة (والموعظة الحسنة) أي بالدعاء الى الله تعالى بالترغيب والترهيب بالخطابات المتقنة والعبارات النافعة والاولى لدعوى خواص الامة الطالبين للحقائق والثانية لدعوى عوامهم (وجادلهم) أي وجادل معانديهم (بالتي) أي بالمجادلة التي (هي أحسن) كالدعاء الى الله تعالى بآياته والدعاء الى حججه بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير غلظ ولا تعسف فان ذلك أنفع في تسكين لهبهم وتبيين شبههم وقيل المراد بالحكمة القرآن أي ادعهم بالقرآن والموعظة الحسنة الرفق واللين في الدعوة وفي الامر بالمجادلة التي هي أحسن الاعراض عن أذاهم وعدم التقصير في تبليغ الرسالة والدعاء الى الحق وعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير هذا منسوخ بآية السيف وقيل ان الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة أقسام القسم الاول العلماء الكاملون وهم أصحاب العلوم الصحيحة والبصائر الشافية الذين يطلبون معرفة الاشياء على حقائقها فهؤلاء

هم المشار اليهم بقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة أى ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الاشياء بحقائقها وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم القسم الثانى أصحاب الفطرة السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان فهم أوسط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله تعالى والموعظة الحسنة أى ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة القسم الثالث أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار اليهم بقوله تعالى وجادلهم بالتى هى أحسن أى حتى ينقادوا الى الحق ويرجعوا اليه (ان ربك) المحسن اليك بالتخفيف عنك (هو أعلم) أى من كل من يتوهم فيه علم (بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى فهو سبحانه وتعالى أعلم بالفريقين فمن كان فيه خير كفاه الوعظ والنصيحة اليسيرة ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكأنك تضرب فى حديد بارد فما عليك الا البلاغ والدعوة وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس ذلك اليك وهذا قبل الامر بالقتال وذكر فى قوله تعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) أقوال أحدها وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء وأبى بن كعب والشعبى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وأذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تلبث فى بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال أما انها لو أكلته لم تدخل النار أبدا حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيأ من جسده النار فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه نظر الى شئ لم ينظر الى شئ قط أوجع لقلبه منه فقال النبى صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فانى ما علمتك الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرّنى أن أدعك حتى تحشر من أفواج شتى أما والله لئن ظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزلت فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أراد وكفر عن يمينه وقال المسلمون أيضا لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين الا مثل به الا حنظلة بن الراهب فان أباه أبا عامر الراهب كان مع أبى سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك لئن ظفرنا عليهم لنزيدن عليهم يعنى على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد القول الثانى أن هذا كان قبل الامر بالسيف والجهاد حتى كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبدؤا بالقتال وهو قوله تعالى وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا وفى هذه الآية أمر الله تعالى أن يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا القول الثالث أن المقصود من هذه الآية نهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم وهذا قول مجاهد والنخعى وابن سيرين قال الرازى وحمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب فى كلام الله وهو فى غاية البعد بل الاصوب عندى أن يقال انه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق الى الدين الحق باحدى الطرق الثلاثة وهى الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الاحسن ثم ان تلك

الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم والحكم عليهم بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش قلوبهم ويوحش صدورهم ويحمل أكثرهم على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة وبالضرب ثانيا وبالشتم ثالثا ثم ان ذلك الداعي المحق اذا سمع تلك السفاهات لابد وأن يحمله طبعه على تاديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب فعند هذا أمر المحقين في هذا المقام برعاية العدل والانصاف وترك الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه (فان قيل) فهل تقدحون فيما روى أنه عليه الصلاة والسلام ترك العزم على ترك المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية (أجيب) بانه لاحاجة الى القدح في تلك الرواية لان تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية وذلك لا يوجب سوء الترتيب في كلام الله تعالى *(تنبيه)* أمر الله تعالى برعاية العدل والانصاف في هذه الآية ورتب ذلك على أربع مراتب المرتبة الاولى قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به أي ان رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله تعالى ورحمته وفي قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به دليل على ان الاولى له أن لا يفعل كما أنك اذا قلت للمريض ان كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح كان معناه أن الاولى بك أن لاتأكله فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض أن الاولى تركه المرتبة الثانية الانتقال من التعريض الى التصريح وهو قوله تعالى (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وهذا تصريح بأن الاولى ترك ذلك الانتقام لان الرحمة أفضل من القسوة والانتفاع أفضل من الانتقام وقرأ أهو قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون برفعها المرتبة الثالثة هو الامر الجازم بالترك وهو قوله تعالى (واصبر) لانه في المرتبة الثانية ذكر أن الترك خير وأولى وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالامر بالصبر في هذا المقام* ولما كان الصبر في هذا المقام شديدا شاقا ذكر بعده ما يفيد سهولته بقوله تعالى (وما صبرك الا بالله) أي الملك الاعظم الذي شرع لك هذا الشرع الاقوم فذلك بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلي الاصلي ثم ذكر بعده ماهو السبب الجزئي القريب بقوله سبحانه وتعالى (ولا تحزن عليهم) أي في شدة كفرهم فتبالغ في الحرص الباخع للنفس (ولا تك في ضيق) ولو قل كما لوح اليه بتنوين التحقير (مما يمكرون) أي من استمرار مكرهم بك واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وكانك به وقد أتى فاصبر فان الله معزك ومظهر دينك وقرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون بنصبها *(تنبيه)* هذا من الكلام المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا في الصفة فكان المعنى ولا يكن الضيق فيك الا أن الفائدة في قوله تعالى ولا تك في ضيق هو أن الضيق اذا عظم وقوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ هذا المعنى المرتبة الرابعة قوله تعالى (ان الله) أي الجامع لصفات الكمال بلطفه وعونه (مع الذين اتقوا) أي وجد منهم الخوف من الله تعالى واجتنبوا المعاصي (والذين هم محسنون) في أعمالهم والشفقة على خلقه وهذا يجري مجرى

التهديد لان فى المرتبة الاولى رغبة فى ترك الانتقام على سبيل الرمز وفى الثانية عدل عن الرمز الى التصريح وهو قوله تعالى ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وفى المرتبة الثالثة أمر بالصبر على سبيل الجزم وفى هذه المرتبة الرابعة كانه ذكر الوعيد على فعل الانتقام فقال ان الله مع الذين اتقوا أى عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون أى فى ترك أصل الانتقام فكأنه تعالى قال ان أردت أن أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين وهذه المعية بالرحمة والفضل والتربية وفى قوله تعالى اتقوا اشارة الى التعظيم لامر الله وفى قوله والذين هم محسنون اشارة الى الشفقة على خلق الله تعالى قيل لهرم بن حبان عند قرب وفاته أوص فقال ان الوصية فى المال ولا مال لى ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل *(تنبيه)* قال بعضهم ان قوله تعالى وان عاقبتم الى لهو خير للصابرين منسوخ بآية السيف قال الرازى وهذا فى غاية البعد لان المقصود من هذه الآية تعليم حسن الادب فى كيفية الدعوى الى الله تعالى وترك التعدى وطلب الزيادة ولا تعلق لهذه الاشياء بآية السيف وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها أو ليلته كان له من الاجر كالذى مات وأحسن الوصية حديث موضوع قال الرازى فى آخر هذه السورة يقول مصنف الكتاب الحق عزيز والطريق بعيد والمركب ضعيف والقرب بعد والوصل هجر والحقائق مصونة والمعالى فى غيب الغيب مكنونة والاسرار فيما وراء أقفال العزة مخزونة وبيد الخلق القيل والقال والكمال ليس الا لله تعالى ذى الاكرام والجلال

﴿ سورة الاسراء وتسمى سبحان وبنى اسرائيل مكية ﴾

الا وان كادوا الآيات الثمان مائة وعشر آيات أو احدى عشرة وألف وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وعدد حروفها ستة آلاف واربعمائة وستون حرفا

(بسم الله) الملك المالك لجميع الامر (الرحمن) لكل ما أوجده بماربابه (الرحيم) لمن خصه بالتزام العمل بما يرضاه وقوله تعالى (سبحان) اسم بمعنى التسبيح الذى هو التنزيه وقد يستعمل علما له فيقطع عن الاضافة ويمنع من الصرف للعلمية وزيادة الالف والنون قال الاعشى فى مدحه عامر بن الطفيل

قد قلت لما جاءنى فخره * سبحان من علقمة الفاخر

أى العجب منه اذ يفخر والعرب تقول سبحان من كذا اذا تعجبوا منه الشاهد فى سبحان حيث جعله علما على التنزيه فمنعه الصرف وعلقمة المذكور صحابى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شيخ فأسلم وبايع واستعمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه على حوران فمات بها (الذى أسرى بعبده) هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو أشرف عباده على الاطلاق وأحقهم بالاضافة اليه وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى أسرى بالامالة محضة وورش بين بين

والباقون بالفتح وقوله تعالى (ليلا) نصب على الظرف والاسراء سير الليل وفائدة ذكره الاشارة بتنكيره الى تقليل مدته فكان هذا الامر الجليل في جزء يسير من الليل والى أنه عليه الصلاة والسلام لم يحتج في الاسراء والعروج الى سدرة المنتهى وسماع الكلام من العلي الاعلى الى رياضة بصيام ولا غيره بل كان مهيأ لذلك متأهلا له فأقامه تعالى من الفرش الى العرش (من المسجد الحرام) أي بعينه وهو الذي يدل عليه ظاهر لفظ القرآن وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتاني جبريل بالبراق وقيل كان نائما في الحطيم وقيل في بيت أم هانئ بنت أبي طالب قال البقاعي وهو قول الجمهور والمراد بالمسجد حينئذ الحرم لانه فناء المسجد (الى المسجد الاقصى) أي بيت المقدس الذي هو بعيد المسافة حينئذ وأبعد المسجدين الاعظمين مطلقا من مكة المشرفة بينهما أربعون ليلة فصلى بالانبياء كلهم ابراهيم وموسى ومن سواهما على جميعهم أفضل الصلاة والسلام ورأى من آياتنا الكبرى ما قدرناله كما سيأتي في حديث المعراج ورجع بين أظهركم الى المسجد الاقرب منكم في ذلك الجزء اليسير من الليل وأنتم تضربون أكباد الابل في هذه المسافة شهرا ذهابا وشهرا ايابا * ثم وصفه تعالى بما يقتضي تعظيمه وانه أهل للقصد بقوله تعالى (الذي باركنا حوله) أي بما لنا من العظمة بالمياه والاشجار وقال مجاهد سماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحي ومنه يحشر الناس يوم القيامة وموطن العبادات ومعدن الفواكه والارزاق والبركات وبارك تعالى حوله لاجله فما ظنك به نفسه فهو أبلغ من باركنا فيه ثم منه الى السموات العلا الى سدرة المنتهى الى مالم ينله بشر غيره صلى الله عليه وسلم قال البقاعي ولعل حذف ذكر المعراج من القرآن هنا لقصور أفهامهم عن ادراك أدلته لو أنكروه بخلاف الاسراء فانه أقام دليله عليهم بما شاهدوه من الامارات التي وصفها لهم وهم قاطعون بأنه صلى الله عليه وسلم لم يرها قبل ذلك فلما بان صدقه بما ذكر من الامارات أخبر بعد ذلك من أراد الله تعالى بالمعراج * ثم ذكر سبحانه وتعالى الغرض من الاسراء بقوله تعالى (لنريه) بعينه وقلبه (من آياتنا) أي عجائب قدرتنا السماوية والارضية كما أرينا أباه الخليل عليه السلام ملكوت السموات والارض (انه) أي الله (هو السميع) لجميع الاقوال (البصير) أي العالم بأحوال عباده فيكرم ويقرب من شاء منهم وقيل انه أي هذا العبد الذي اختصصناه بالاسراء هو أي خاصة السميع أي أذنا وقلبا بالاجابة لنا والاذعان لاوامرنا البصير بصرا وبصيرة بدليل ما أخبر به من الآيات وصدقه من الدلالات حتى نعت ما سألوه عنه من بيت المقدس ومن أمر عيرهم وغيرهما مما هو مشهور في قصة الاسراء واختلف هل أسرى بروحه أو بجسده صلى الله عليه وسلم فعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها كانت تقول ما فقدت جسد النبي صلى الله عليه وسلم ولكن أسرى بروحه والاكثرون على أنه أسرى بجسده في اليقظة وتواترت الاخبار الصحيحة على ذلك منها قوله صلى الله عليه وسلم أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس

فربطت

فربطت الدابة بالحلقة التي تربط فيها الانبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن قال جبريل عليه السلام أصبت الفطرة قال صلى الله عليه وسلم ثم عرج بي الى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل قد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابني الخالة يحيي وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بي الى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بيوسف واذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بادريس فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل قد أرسل اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهرون فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابراهيم فاذا هو مستند الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون اليه ثم ذهب بي الى السدرة المنتهى فاذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها قال صلى الله عليه وسلم فأوحى الى عبده ما أوحى وفرض علي في كل يوم وليلة خمسين صلاة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك لا تطيق ذلك واني قد بلوت بني اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى ربي فقلت له أي رب خفف عن أمتي فحط عني خمسا فرجعت الى موسى فقال ما فعلت فقلت قد حط عني خمسا قال ان أمتك لا تطيق ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لان أمتك لا تطيق ذلك قال فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى ويحط عني خمسا خمسا حتى قال يا محمد هي خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فان عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فأخبرته فقال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك فان أمتك لا تطيق فقلت قد رجعت الى ربي حتى استحييت رواه الشيخان وروى أنه قال بعد ذلك ولكن أرضى وأسلم فلما جاوزت نادى مناد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي ثم أدخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك وروى أنه لما

وصل الى سدرة المنتهى فاذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذان يا جبريل قال أما الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع الى البيت المعمور ثم أوتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل فاخترت اللبن فقال هى الفطرة التى انت عليها وأمتك قال ثم فرضت على الصلاة خمسين صلاة يوم فرضت فمررت على موسى وساق الحديث ومنها مارواه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ربى عز وجل قال هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به الى بيت المقدس قال والشجرة الملعونة فى القرآن هى شجرة الزقوم ومنها مارواه قتادة عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة الاسراء به قال بينا أنا فى الحطيم وربما قال فى الحجر مضطجع ومنهم من قال بين النائم واليقظان وذكر بين رجلين وأتيت بطشت من ذهب مملوأة حكمة وايمانا فشق من النحر الى مراق البطن واستخرج قلبى فغسل ثم حشى ثم أعيد وقال سعيد وهشام ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ ايمانا وحكمة ثم أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته وساق بقية الحديث ومنها ماروى أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما فى بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به ورجع من ليلته وقص القصة على أم هانئ وقال مثل لى النبيون فصليت بهم وقام ليخرج الى المسجد فتشبثت أم هانئ بثوبه فقال مالك قالت أخشى أن يكذبك الناس وقومك ان أخبرتهم قال وان كذبونى فخرج اليهم وروى أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به فكان بذى طوى قال يا جبريل ان قومى لا يصدقونى قال يصدقك أبو بكر وهو الصديق قال ابن عباس وعائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كانت ليلة أسرى بى فأصبحت بمكة قطعت بأمرى وعرفت أن الناس يكذبونى فروى أنه عليه الصلاة والسلام قعد معتزلا حزينا فمر به أبو جهل فجلس اليه فقال كالمستهزئ هل استفدت من شئ قال نعم أسرى بى الليلة قال الى أين قال الى بيت المقدس قال ثم أصبحت بين ظهرانينا قال نعم فقال أبو جهل يا معشر بنى كعب بن لؤى هلموا فانفضت اليه المجالس فجاؤا حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك بما حدثتنى قال نعم انى قد أسرى بى الليلة قالوا الى أين قال الى بيت المقدس قالوا ثم أصبحت بين أظهرنا قال نعم فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال الى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا له هل لك فى صاحبك يزعم أنه اسرى به الليلة الى بيت المقدس قال أوقد قال قالوا نعم قال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا اتصدقه على ذلك قال انى لاصدقه على أبعد من ذلك أصدقه على خبر السماء فى غدوة أو روحة فسمى الصديق قال وفى القوم من كان يأتى المسجد الاقصى فقالوا فهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد الاقصى قال نعم قال فذهبت أنعت وأنعت فمازلت أنعت حتى التبس على قال فجئ بالمسجد وأنا أنظر اليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وأنا أنظر اليه فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب ثم قالوا يا محمد

أخبرناعن عيرنافهي أهم الينا هل لقيت منها شيأ قال نعم مررت على عير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيرالهم وهم في طلبه وفي رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته وشربته ثم وضعته كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا اليه قالوا هذه آية قال ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان راكبان قعود الهما فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فاسألوهما عن ذلك قالوا وهذه آية قالوا فأخبرناعن عيرنامتى تجيء قال مررت بها بالتنعيم قالوا فماعدتها وما حملها وما أحمالها ومن فيها فقال هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه آية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيأ وبينه حتى أتوا كداء فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه اذ قال قائل منهم هذه الشمس والله قد أشرقت فقال آخر والله وهذه العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا الاسحر مبين والاورق من الابل الذي في لونه بياض الى سواد وهو أطيب الابل لحما قاله الجوهري ومنها ما روى عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم وجاء بطشت من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي وعرج بي الى السماء فلما جئنا الى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال ومن هذا قال جبريل قال هل معك أحد قال نعم معي محمد قال فأرسل اليه قال نعم ففتح قال فلما علونا السماء الدنيا فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم وهذه الاسودة التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة والاسودة التي عن شماله أهل النار واذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى ثم عرج بي جبريل حتى أتى الى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا فقال أنس بن مالك فذكر أنه وجد في السموات آدم وادريس وموسى وعيسى وابراهيم ولم يبين كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وابراهيم في السماء السادسة قال فلما مر جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم بادريس فقال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قال فقلت من هذا قال انه ادريس قال ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا قال هذا موسى فقال ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال فقلت من هذا قال عيسى ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال فقلت من هذا قال هذا ابراهيم قال ابن شهاب أخبرني ابن حزم ان ابن عباس كان يقول كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريرا الاقلام وروى معمر عن قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بالبراق ليلة أسري به مسرجا ملجما فاستصعب عليه فقال جبريل أبمحمد تفعل هذا فما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقا وقال ابن زيد

عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهيت الى بيت المقدس قال جبريل باصبعه
فخرق بها حجرا وشد به البراق وفى رواية أنه جاء جبريل بالبراق الى النبى صلى الله عليه وسلم
وقال له يا محمد اركب فركبه صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل وطار به البراق فى الهواء فاخترق
به الجو فعطش صلى الله عليه وسلم واحتاج الى الشراب فأتاه جبريل باناءين اناء من لبن واناء من
خمر وذلك قبل تحريم الخمر فعرضهما عليه فتناول اللبن فقال له جبريل عليه السلام أصبت
الفطرة أصاب الله تعالى بك أمتك ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يتأول اللبن بالعلم فلما وصل
الى السماء الدنيا استفتح الى أن قال ثم عرج بى الى سدرة المنتهى وأخبره جبريل أن أعمال
بنى آدم تنتهى الى تلك السدرة وانها مقر الارواح فهى نهاية لما ينزل مما فوقها ونهاية لما يعرج
اليها مما هو دونها وبها مقام جبريل عليه السلام فنزل صلى الله عليه وسلم عن البراق وجىء اليه
بالرفرف وهو نظير المحفة عندنا فقعد عليه وسلمه جبريل الى الملك النازل بالرفرف فسأله الصحبة
ليأنس به فقال له لا أقدر لو خطوت خطوة لاحترقت فما منا الا له مقام معلوم وما أسرى الله بك
يا محمد الا ليريك من آياته فلا تغفل فودعه وانصرف مع ذلك الملك والرفرف والملك يمشى به الى
أن ظهر لمستوى سمع فيه صريرالاقلام فى الالواح وهى تكتب ما يجريه الله تعالى فى خلقه
وما تنسخه الملائكة من أعمال عباده قال تعالى انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ثم زج بى فى النور
زجة فأفرده الملك الذى كان معه وتأخر عنه فلم يره معه فعلم أن الرفرف ماتدلى الا ليكون البراق
له مكان لا يتعداه كجبريل لما بلغ الى المكان الذى لا يتعداه وقف وكذلك الرفرف لما وصل الى
مقام لا يتعداه زج به فى النور فغمره النور من جميع نواحيه وأعطى علما آخر لم يكن يعلمه
قبل ذلك عن وحى من حيث لا يدرى وجهته وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم لقد رأيتنى وأنا فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس
لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط فرفعه الله الى لانظر اليه فما سألونى عن شئ الا أنبأتهم
به وقد رأيتنى فى جماعة من الانبياء فاذا موسى قائم يصلى فاذا رجل جعد كأنه من رجال شنوأة
واذا عيسى بن مريم قائم يصلى أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفى واذا ابراهيم قائم
يصلى أشبه الناس به صاحبكم يعنى به نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت
قال قائل يا محمد هذا مالك خازن النار فسلم عليه فالتفت اليه فبدأنى بالسلام وعن جابر أنه سمع
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبنى قريش قمت الى الحجر فجعل الله لى بيت المقدس
وذكر الحديث وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت موسى
ليلة أسرى بى عند الكثيب الاحمر وهو قائم يصلى فى قبره (فان قيل) رأى رسول الله صلى الله
عليه وسلم موسى يصلى فى قبره وكيف تصلى الانبياء بعد الموت وهم فى دار الآخرة (أجيب) بأن
صلاته صلى الله عليه وسلم بالانبياء عليهم السلام ببيت المقدس يحتمل أن الله تعالى جمعهم له
ليصلى بهم ويعرفوا فضله وتقدمه عليهم ثم ان الله تعالى أراه اياهم فى السموات على مراتبهم
ليعرف هو مراتبهم وفضلهم وأما مروره بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الاحمر

فيحتمل

فيحتمل انه كان بعد رجوعه من المعراج وأما حكم صلاة الانبياء وهم فى الدار الآخرة فهم فى حكم الشهداء بل هم أفضل منهم وقد قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء فالانبياء بعد الموت أولى وأما حكم صلاتهم فيحتمل أنها بالذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة قال تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وورد فى الحديث أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل أن الله تعالى خصهم بخصائص فى الآخرة كما خصهم فى الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم منها أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه رآهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله أعلم بحقائق الامور وروى عن شريك بن عبد الله قال سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة انه جاء ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه وهو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم وساق حديث المعراج بقصته قال فاذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان قال ما هذان يا جبريل قال هذان النيل والفرات عنصرهما ثم مضى به فى السماء فاذا هو بنهر آخر عليه نهر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فاذا هو مسك أذفر قال ما هذا يا جبريل قال هو الكوثر الذى خبأ لك ربك وذكر فى آخر حديثه أنه صلى الله عليه وسلم قال فى آخر الحديث ثم علا بى حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه كقاب قوسين أو أدنى فاوحى اليه وذكرت عائشة ان الذى دنا فتدلى جبريل عليه السلام وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة النجم (فان قيل) قوله تعالى لنريه من آياتنا يدل على انه تعالى ما أراه الا بعض الآيات لان كلمة من تفيد التبعيض وقال فى حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض أى ملكهما فيلزم أن يكون معراج ابراهيم أفضل من معراج محمد عليهما السلام (أجيب) بأنه لما أضيفت تلك الآيات الى الله تعالى دل على انها أفضل مما رآه ابراهيم *(تنبيه)* قال النووى فى شرح مسلم قد جاء فى رواية شريك فى حديثه أوهام أنكر عليه العلماء فيها منها قوله وذلك قبل أن يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه وان الاسراء أقل ما قيل فيه انه كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا وقال الطبرانى كان ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة وقال الزهرى كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين قال ابن اسحق أسرى به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام بمكة والقبائل وقيل كان الاسراء فى رجب ويقال فى رمضان قال النووى وأشبه الاقوال قول الزهرى وابن اسحق ومما يدل على أنه أسرى بجسده صلى الله عليه وسلم قوله تعالى أسرى بعبده ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقوله صلى الله عليه وسلم أتيت بالبراق وهو اسم للدابة وهى التى ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به واشتقاقه من البرق لسرعته أو لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألؤ نوره والحلقة باسكان اللام ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الاخذ بالاحتياط فى الامور وتعاطى الاسباب وان ذلك لا يقدح فى التوكل اذا كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار

قوله عليه نهر الخ هكذا فى النسخ ولعله محرف عن قوله عليه خيام من لؤلؤ وزبرجد اه

والتقدير قال لى اختر فاخترت اللبن وقول جبريل اخترت الفطرة يعنى فطرة الاسلام وجعل اللبن علامة الفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلا طيبا سائغا للشاربين وانه سليم العاقبة بخلاف الخمر فانها أم الخبائث وجالبة لانواع الشر وقوله ثم عرج بى حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فيه بيان الادب لمن استأذن أن يقول أنا فلان ولا يقول أنا فقط فانه مكروه وفيه أن للسماء أبوابا وبوابين عليها حرسا وقول بواب السماء وقد أرسل اليه وفى الرواية الاخرى وقد بعث اليه معناه للاسراء وصعود السماء وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة فان ذلك لا يخفى عليه الى هذه المدة وقوله فاذا أنا بآدم وذكر جماعة من الانبياء فيه استحباب لقاء أهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام الحسن وان كان الزائر أفضل من المزور وفيه جواز مدح الانسان فى وجهه اذا أمن عليه من الاعجاب وغيره من أسباب الفتنة وقوله فاذا أنا بابراهيم مسند ظهره الى البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد الى القبلة وتحويل ظهره اليها وقوله ذهب بى الى السدرة المنتهى هكذا وقع فى هذه الرواية بالالف واللام وفى باقى الروايات الى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من المفسرين سميت بذلك لان علم الملائكة ينتهى اليها ولم يجاوزها أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت بذلك لكونه ينتهى اليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله عز وجل وقوله واذا ثمرها مثل القلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها وهى الجرة الكبيرة التى تسع قربتين أو أكثر وقوله فرجعت الى ربى قال النووى معناه رجعت الى الموضع الذى ناجيته منه أولا فناجيته فيه ثانيا وقوله فلم أزل أرجع بين موسى و بين ربى معناه بين موضع مناجاة ربى وقوله ففرض على أمتى خمسين صلاة الى قوله فوضع عنى خمسا وفى رواية شطرها وفى رواية عشرا ليس بين هذه الروايات منافاة لان المراد بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه التنصيف وأما رواية العشر فهو رواية شريك ورواية الخمس رواية قتادة وهو أثبت من شريك والمراد حط عنى خمسا الى آخره ثم قال هى خمس وهن خمسون يعنى خمسين فى الاجر والثواب لان الحسنة بعشر أمثالها واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشئ قبل فعله وفى الحديث انه شق صدره ليلة المعراج وقد شق صدره أيضا فى صغره وهو عند حليمة التى كانت ترضعه فالمراد بالشق الثانى زيادة التطهير لما يراد به من الكرامة ليلة المعراج وقوله أتيت بطست من ذهب قد يتوهم انه يجوز استعمال الذهب لنا وليس الامر كذلك لان هذا الفعل من فعل الملائكة وهم مباح لهم استعمال الذهب أو لعل هذا كان قبل تحريمه وقوله ممتلئ حكمة وايمانا فافرغها فى صدرى قد يقال الحكمة والايمان من المعانى والافراغ صفة الاجسام فما معنى ذلك أجيب بأنه يحتمل انه جعل فى الطست شئ يحصل به كمال الايمان والحكمة وزيادتهما فسمى ايمانا وحكمة لكونه سببا لهما وهذا من أحسن المجاز وقوله فى صفة آدم فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة هو جمع سواد وقد فسره فى الحديث بأنه نسم بنيه يعنى أرواح بنيه (فان قيل) أرواح المؤمنين فى السماء وأما أرواح الكفار فتحت

الارض السفلى فكيف تكون فى السماء (أجيب) بأنه يحتمل ان أرواح الكفار تعرض على آدم عليه السلام وهو فى السماء فوافق وقت عرضها على ادم مرور النبى صلى الله عليه وسلم فأخبر بما رأى وقوله اذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر عن شماله بكى ففيه شفقة الوالد على أولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم وحزنه على حال الكافر منهم وقوله فى ادريس مرحبا بالاخ الصالح والنبى الصالح قد اتفق المؤرخون انه هو أخنوخ جد نوح فيكون جد النبى صلى الله عليه وسلم كما أن ابراهيم جده فكان ينبغى أن يقول بالنبى الصالح والابن الصالح كما قال آدم وابراهيم (وأجيب) بأنه قيل ان ادريس المذكور هنا هو الياس وهو من ذرية ابراهيم فليس هو بجد نوح قاله القاضى عياض وقال النووى ليس فى هذا الحديث ما يمنع كون ادريس أبا النبينا صلى الله عليه وسلم وان قوله الاخ الصالح يحتمل أن يكون قاله تلطفا وتأدبا وهو أخ وان كان ابنا لان الانبياء اخوة والمؤمنون اخوة انتهى وانما أطلت فى بيان ذلك لان الكلام مع الاحبة يحلو ولولا خوف الملل ما اقتصرت على ذلك فقد قال بعض المفسرين لا أعلم فى الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التى فضل بها كافة الانبياء ما تضمنته هذه السورة ولكن فى هذا القدر كفاية لاولى الالباب * ولما ثبت بهذه الخارقة ما أخبر به صلى الله عليه وسلم عن نفسه المقدسة من عظيم القدرة وما جاء صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات فى هذا الوقت اليسير أتبعه ما منح فى السير من مصر الى الارض المقدسة من الآيات فى مدد طوال موسى عليه الصلاة والسلام الذى كان أعظم الانبياء بركة على هذه الامة ليلة الاسراء لما أرشد النبى صلى الله عليه وسلم اليه من مراجعة الله تعالى فى تخفيف الصلاة حتى رجعت من خمسين الى خمس مع أجر خمسين فقال (وآتينا) أى بعظمتنا (موسى الكتاب) أى التوراة (وجعلناه) أى الكتاب بما لنا من العظمة (هدى لبنى اسرائيل) بالحمل على العدل فى التوحيد والاحكام وأسرينا بموسى عليه السلام وبقومه من مصر الى بلاد المسجد الاقصى فأقاموا سائرين اليها أربعين سنة ولم يصلوا ومات كل من خرج الا المتقين الموفين بالعهد فقد بان الفضل بين الاسراءين كما بان الفضل بين الكتابين فذكر الاسراء أولا دليل على حذف مثله أولا فالآية من الاحتباك ثم نبه على ان المراد من ذلك كلمة التوحيد اعتقادا وعبادة بقوله تعالى (أن لا) أى لئلا (يتخذوا) على قراءة أبى عمرو بالياء على الغيبة وقرأ غيره بالتاء على أن لا تتخذوا كقولك كتبت اليه أن افعل كذا (من دونى وكيلا) أى ربا تكلون اليه أموركم وذلك هو التوحيد فلا معراج أعلى ولا درجة أشرف ولا نعمة أعظم من أن يصير المرء غريقا فى بحر التوحيد وأن لا يعول فى أمر من الامور الا على الله تعالى فان نطق نطق بذكر الله وان تفكر تفكر فى دلائل تنزيه الله وان طلب طلب من الله فيكون كله لله وبالله والى الله وقوله تعالى (ذرية) نصب على الاختصاص فى قراءة أبى عمرو وعلى النداء عند الباقين أى يا ذرية (من حملنا) أى فى السفينة بعظمتنا على ظهر ذلك الماء الذى طبق ما تحت أديم السماء ونبه تعالى على شرفهم وتمام نعمتهم بقوله تعالى (مع نوح) ففى ذلك تذكير بانعام الله تعالى

عليهم وانجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح فى السفينة قال قتادة الناس كلهم من ذرية
نوح لانه كان معه فى السفينة ثلاث بنين سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك
قال البقاعى لان الصحيح أن من كان معه من غير ذريته ماتوا ولم يعقبوا ولم يقل ذرية نوح ليعلم
انهم عقب أولاده المؤمنين لتكون تلك منة أخرى * ثم انه تعالى أثنى على نوح حثا على الاقتداء به
فى التوحيد كما اقتدى به آباؤهم فى ذلك بقوله تعالى (انه كان عبدا شكورا) أى مبالغا
فى الشكر الذى هو صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه لما خلق له روى انه عليه الصلاة
والسلام كان اذا أكل قال الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء أجاعنى وفى رواية انه يسمى اذا أكل
ويحمد اذا فرغ واذا شرب قال الحمد لله الذى سقانى ولو شاء أظمانى واذا اكتسى قال الحمد لله
الذى كسانى ولو شاء أعرانى واذا احتذى قال الحمد لله الذى حذانى ولو شاء أحفانى واذا قضى
حاجته قال الحمد لله الذى أخرج عنى أذاه فى عافية ولو شاء حبسه وفى رواية انه كان يقول
الحمد لله الذى اذاقنى لذته وأبقى منفعته فى جسدى وأخرج عنى أذاه وفى رواية أنه كان اذا
أراد الافطار عرض طعامه على من مر به فان وجده محتاجا آثره به * ولما ذكر تعالى انعامه على
بنى اسرائيل بانزال التوراة عليهم وبأنه جعل التوراة هدى لهم بين انهم ما اهتدوا بهداها بل
وقعوا فى الفساد بقوله تعالى (وقضينا) أى أوحينا (الى بنى اسرائيل) أى الى بنى عبدنا يعقوب
عليه السلام الذى كان أطوع أهل زمانه وحيا مقطوعا مثبوتا (فى الكتاب) أى التوراة التى
قد أوصلناها اليهم على لسان موسى عليه السلام وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ وقوله
تعالى (لتفسدن) جواب قسم محذوف ويجوز أن يجرى القضاء المثبوت مجرى القسم
فيكون لتفسدن جوابا له كأنه قال وأقسمنا لتفسدن (فى الارض) أى أرض الشأم قاله
السيوطى وقال الرازى أرض مصر ويوافق الاول قول البقاعى أى المقدسة التى كأنها
لشرفها هى الارض (مرتين) أى افسادتين قال فى الكشاف أولاهما قتل زكريا عليه السلام
وحبس أرمياء حين أنذرهم بسخط الله تعالى والاخرى قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى بن
مريم وقال البيضاوى الاولى مخالفة أحكام التوراة وقتل شعيا أو قتل أرميا وثانيتهما قتل
زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم السلام (ولتعلن) أى بما صرتم اليه من البطر لنسيان
المنعم (علوا كبيرا) بالظلم والتمرد لانه يقال لكل متجبر قد علا وتعظم (فاذا جاء وعد أولاهما)
أى أولى مرتى الفساد وهو الوقت الذى حددناه لهم الانتقام فيه (بعثنا عليكم عبادا لنا) أى
لا يدان لكم بهم كما قال تعالى (أولى بأس شديد) أى أصحاب قوة فى الحرب واختلف فيهم
فقال فى الكشاف سنحاريب وجنوده وقيل بختنصر وقال ابن عباس جالوت قتلوا علماءهم
وأحرقوا التوراة وخربوا المساجد وسبوا منهم سبعين ألفا وقال البيضاوى عبادا لنا بختنصر
عامل لهراسف على بابل وجنوده وقيل جالوت الخزرى وهو بخاء فزاى مفتوحتين فراء نسبة
الى الخزر وهو ضيق العين وصغرها وهو الذى قتله داود وأوجمل من الناس وذكر الرازى فى ذلك
قولين الاول ان الله تعالى سلط عليهم بختنصر فقتل منهم أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب

بالبقية الى أرض نفسه فبقوا هنالك فى الذل الثانى أن الله تعالى ألقى الرعب من بنى اسرائيل فى قلوب المجوس فلما كثرت المعاصى فيهم أزال الله ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا فى قتلهم وافنائهم واهلاكهم وأخرج ابن أبى حاتم عن عطية قال أفسدوا المرة الاولى فأرسل الله عليهم جالوت فقتلهم وأفسدوا المرة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر وعن ابن مسعود قال كان أول الفساد من قتل زكريا فبعث الله عليهم ملك القبط وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال الاولى قتل زكريا والاخرى قتل يحيى قاله الرازى واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض فى معرفة أولئك الاقوام بأعيانهم بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصى سلط الله عليهم أقواما فقتلوهم وافنوهم ثم قال الله تعالى (فجاسوا) أى ترددوا الطلبكم (خلال الديار) أى وسطها للقتل والغارة قال البيضاوى فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرقوا التوراة وخربوا المسجد والمعتزلة لما منعوا تسليط الله الكافر على ذلك أولوا البعث بالتخلية انتهى وفى ذلك تعريض بالزمخشرى فانه قال فى كشافه (فان قلت) كيف جاز أن يبعث الله تعالى الكفرة على ذلك ويسلطهم عليه (قلت) معناه خلينا بينهم وبين مافعلوا ولم نمنعهم على ان الله عز وجل أسند بعث الكفرة عليهم الى نفسه فهو كقوله تعالى وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون (وكان) أى ذلك البعث ووعد العقاب به (وعدا مفعولا) أى قضاء كائنا لازما لاشك فى وقوعه ولابد أن يفعل (ثم رددنا لكم الكرة) أى الدولة والغلبة (عليهم) حتى تبتم عن ذنوبكم ورجعتم عن الفساد فى زمن داود بقتله جالوت وذلك بعد مائة سنة (وأمددناكم بأموال) تستعينون بها على قتال عدوكم (وبنين) تتقوون بهم (وجعلناكم أكثر) من عدوكم (نفيرا) أى عشيرة تنفر معكم عند ارادة القتال وغيره من المهمات والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو *ولما حكى الله تعالى عنهم أنهم لما عصوا سلط الله عليهم أقواما قصدوهم بالقتل والنهب والسبى ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة وأعاد عليهم الدولة فعند ذلك ظهر أنهم ان أطاعوا الله فقد أحسنوا الى أنفسهم وان أصروا على المعصية فقد أساؤا على أنفسهم وقد تقرر فى العقول أن الاحسان الى النفس حسن مطلوب وان الاساءة اليها قبيحة فلهذا المعنى قال تعالى (ان أحسنتم) أى بفعل الطاعة على حسب الامر فى الكتاب الداعى الى العدل والاحسان (أحسنتم لانفسكم) أى لان ثوابها لها (وان أسأتم) بارتكاب المحرمات والافساد (فلها) أى الاساءة لان وبالها عليها قال النحويون وانما قال وان أسأتم فلها للتقابل والمعنى فاليها أو فعليها كما مر مع أن حروف الاضافة يقوم بعضها مقام بعض كقوله تعالى يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها أى اليها *(تنبيه)* قال أهل الاشارات هذه الآية تدل على ان رحمة الله غالبة على غضبه بدليل أنه تعالى لما حكى عنهم الاحسان ذكره مرتين فقال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم ولما حكى عنهم الاساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال تعالى وان أسأتم فلها ولولا ان جانب الرحمة غالب والا لما كان كذلك ثم قال (فاذا جاء وعد الآخرة) أى ثانية فى

الافساد وهو الوقت الذى حددناه الانتقام فيه (ليسوؤا) أى بعثنا عليكم عبادا لنا ليسوؤا (وجوهكم) أى يجعل آثار الاساءة بائنة فيها وحذف متعلق اللام لدلالة الاول عليه وقرأ الكسائى بعد اللام بنون مفتوحة على التوحيد والضمير فيه لله والباقون بالياء مفتوحة وأما الهمزة التى بعد الواو والتى بعد السين فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بضم الهمزة ومدها والباقون بفتح الهمزة ولا مد وقوله تعالى (وليدخلوا المسجد) عطف على ليسوؤا والمراد بالمسجد الاقصى الذى سقناكم اليه من مصر فى تلك المدد الطوال وأعطيناكم بلاده بالتدريج وجعلناه محل عزكم وأمنكم ثم جعلناه محلا لاكرام أشرف خلقنا بالاسراء به اليه وجمع أرواح النبيين كلهم فيه وصلاته بهم وهذا تعريض بتهديد لقريش بأنهم ان لم يرجعوا ابدل الله أمنهم فى الحرم خوفا وعزهم ذلا وأدخل عليهم جنودا لاقبل لهم بها وقد فعل ذلك عام الفتح لكنه فعل اكرام لا اهانة ببركة هذا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم (كما دخلوه) أى الاعداء (أول مرة) بالسيف ويقهروا جميع جنودكم دفعة واحدة (وليتبروا) أى يهلكوا ويدمروا مع التقطيع والتفريق (ما علوا) أى عليه من ذلك وقيل ما مصدرية أى مدة علوهم (تتبيرا) أى اهلاكا قال الزجاج وكل شئ جعلته مكسرا مفتتا فقد تبرته ومنه قيل تبر الزجاج وتبر الذهب لمكسره ومنه قوله تعالى ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال الرازى وهذه المرة الاخيرة هى اقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما السلام قال البيضاوى وذلك بأن سلط عليهم الفرس مرة أخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه حردون وقيل جردوس قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم جمع قربان فوجد فيه دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال ما صدقتمونى فقتل عليه ألوفا منهم فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم ربكم منكم ثم قال يا يحيى أى خطا بالدمه قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ باذن الله قبل أن لا يبقى أحد منهم فهدأ أى سكن وقال الواحدى فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلى المجوسى أبغض خلقه اليه فسبى بنى اسرائيل وخرب بيت المقدس قال الرازى أقوال التواريخ تشهد أن بختنصر كان قبل وقت عيسى ويحيى وزكريا بسنين متطاولة ومعلوم ان الملك الذى انتقم من اليهود ملك الروم يقال له قسطنطين الملك والله أعلم بأحوالهم ولا يتعلق غرض من اغراض تفسير القرآن بمعرفة أعيان هؤلاء الاقوام انتهى ولما انقضى ذلك كان كأنه قيل هل بقى لهم نصرة على عدوهم فقال تعالى (عسى ربكم أن يرحمكم) يا بنى اسرائيل بعد انتقامه منكم فترد الدولة اليكم ثم بعد أن أطمعهم فزعهم بقوله تعالى (وان عدتم) أى الى المعصية (عدنا) اى الى صب البلاء عليكم فى الدنيا مرة أخرى قال القفال انما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى فى سورة الاعراف خبرا عن بنى اسرائيل واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ثم قال وانهم قد عادوا الى فعل ما لا ينبغى وهو التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد فى التوراة والانجيل فعاد الله تعالى عليهم بالتعذيب على أيدى

العرب تجرى على بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع ويهود خيبر ماجرى من القتل والجلاء ثم الباقى منهم مقهورون بالجزية لاملك لهم ولاسلطان ثم قال تعالى (وجعلنا) أى بعد ذلك بعظمتنا (جهنم) أى التى تلقى داخلها بالتجهم والكراهة (للكافرين) وذكر الوصف الظاهر موضع الضمير لبيان تعلق الحكم به على سبيل الرسوخ سواء فى ذلك هم وغيرهم وقوله تعالى (حصيرا) يحتمل أن يكون فعيلا بمعنى الفاعل أى جعلنا جهنم حاصرا لهم ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول أى جعلناها موضعا محصورا لهم والمعنى ان عذاب الدنيا وان كان شديدا قويا الا انه قد ينقلب بعض الناس عنه والذى يقع فى ذلك العذاب يتخلص منه امّا بالموت وامّا بطريق آخر وأمّا عذاب الآخرة فانه يكون حاصرا للانسان محيطا به لارجاء فى الخلاص عنه فهؤلاء الاقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبدا * ولما بين سبحانه وتعالى كتاب موسى عليه السلام الذى أنزل عليه فيما بين مصر وبيت المقدس فى تلك المدة المتطاولة وجعله هدى لبنى اسرائيل صادق الوعد والوعيد بين تعالى كتاب محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنزل عليه منه فى سبب مسيره اليه فى ذلك ووصفه بثلاثة أنواع من الصفات الاولى قوله تعالى (انّ هذا القرآن) أى الجامع لكل حق والفارق بين كل ملتبس (يهدى للتى) أى الى الطريق التى (هى أقوم) أى أصوب من كل طريق فقوله تعالى للتى هى أقوم نعت لموصوف محذوف كما تقرر ويصح أن يقدر الملة والشريعة أى يهدى الى الملة والشريعة التى هى أقوم الملل والشرائع ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال فى القرآن كقوله تعالى ادفع بالتى هى أحسن وقيل الى الكلمة التى هى أعدل وهى شهادة أن لا اله الا الله * (تنبيه) * لفظ افعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا الله أكبر أى الله الكبير وكقولنا الاشج والناقص أعدلا بنى مروان فأقوم يحتمل أن يكون كذلك وأن يبقى على ظاهره الصفة الثانية قوله تعالى (ويبشر المؤمنين) أى الراسخين فى هذا الوصف ولهذا قيدهم بيانا لهم بقوله (الذين) أى يصدقون ايمانهم بأنهم (يعملون) أى على سبيل التجديد والاستمرار والبناء على العلم (الصالحات) من التقوى والاحسان (أنّ لهم أجرا كبيرا) هو الجنة والنظر الى وجه الله تعالى وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة (فان قيل) قال هنا أجرا كبيرا وفى الكهف أجرا حسنا (أجيب) بوقوع ذلك لموافقة الفواصل قبل وبعد فى كل منهما الصفة الثالثة قوله تعالى (وانّ الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا) أى أحضرنا وهيأنا (لهم عذابا أليما) وهو النار فى الآخرة وهو عطف على أنّ لهم أجرا كبيرا والمعنى أنه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم نظيره قولك بشرت زيدا بأنه سيعطى وبأنّ عدوه سيمنع (فان قيل) كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب (أجيب) بأنّ هذا مذكور على سبيل التهكم أو انه من باب اطلاق أحد الضدين على الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها أو على يبشر باضمار يخبر (فان قيل) هذه الآية واردة فى شرح أحوال اليهود

وهم ما كانوا ينكرون الايمان بالآخرة (أجيب) بأن أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين وبأن بعضهم قال لن تمسنا النار الا أياما معدودات فهم بذلك صاروا كالمنكرين للآخرة * ولما بين سبحانه وتعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم والانسان قد يقدم على ما لا فائدة فيه بينه بقوله تعالى (ويدع الانسان بالشر) عند ضجره على نفسه وأهله وماله (دعاءه) أى مثل دعائه (بالخير) ولو استجيب له فى الشر كما يستجاب له فى الخير لهلك روى أنه صلى الله عليه وسلم دفع الى سودة بنت زمعة أسيرا فأقبل يئن فى الليل فقالت له مالك فبكى وشكا فرحمته فارخت كتافه فهرب فلما أصبح النبى صلى الله عليه وسلم دعا به فاعلم بشأنه فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اقطع يدها فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله تعالى يدها فندم النبى صلى الله عليه وسلم وقال اللهم انما أنا بشر اغضب كما يغضبون فمن دعوت عليه فاجعل دعائى رحمة له وقيل المراد النضر ابن الحرث حيث قال اللهم انصر خير الحزبين اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الى آخره فأجاب الله تعالى دعاءه وضربت رقبته يوم بدر صبرا وكان بعضهم يقول ائتنا بعذاب الله وآخرون يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وانما فعلوا ذلك للجهل ولاعتقاد أن محمدا كاذب فيما يقول وقيل المراد أن الانسان قد يبالغ فى الدعاء طالبا الشئ قد يعتقد أن خيره فيه مع ان ذلك الشئ منبع لشره وضرره وهو يبالغ فى طلبه لجهله بحال ذلك الشئ وانما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الامور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها كما قال تعالى (وكان الانسان) أى الجنس (عجولا) أى يسارع الى كل ما يخطر بباله ولا ينظر الى عاقبته وقيل المراد آدم عليه السلام لما انتهى الروح الى سرته ذهب لينهض فسقط * (تنبيه) * حذفت واو ويدع أى التى هى لام الفعل خطا فى جميع المصاحف ولا موجب لحذفها لفظا فى العربية لكنها لما كانت لا تظهر فى اللفظ حذفت فى الخط ونظيره قوله تعالى سندع الزبانية وسوف يؤت الله المؤمنين ويوم يناد المناد فما تغن النذر قال الفراء ولو كان ذلك بالواو والياء لكان صوابا وقال الرازى أقول هذا يدل على انه سبحانه وتعالى قد عظم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فان اثبات الواو والياء فى أكثر ألفاظ القرآن وعدم اثباتها فى هذه المواضع المعدودة يدل على ان هذا القرآن نقل كما سمع وان أحدا لم يتصرف فيه بقدار فهمه وقوة عقله * ولما بين تعالى ما أوصل من نعم الدين وهو القرآن اتبعه بما أوصل اليهم من نعم الدنيا فقال (وجعلنا الليل والنهار آيتين) دالتين على تمام العلم وشمول القدرة آية الليل كالآيات المتشابهة وآية النهار كالمحكمة فكما ان المقصود من التكليف لا يتم الا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الزمان لا يتيسر الانتفاع به الا بهاتين الآيتين (فمحونا) أى بعظمتنا الباهرة (آية الليل) أى طمسنا نورها بالظلام ليسكنوا فيه فجعلناها لا يبصر فيها المرئيات كما لا يبصر الكتاب اذا محى (وجعلنا) بمالنا من القدرة (آية النهار مبصرة) أى مبصرا فيها بالضوء فلا تزال هذه الدار الناقصة فى تنقل من نور الى ظلمة ومن الظلمة الى النور كما ان الانسان بجبلته التى يدعو اليها طبعه وتأنيه الداعى اليه عقله من انتقال من نقصان الى كمال ومن كمال الى

نقصان كما ان القمر الذى هو أنقص من الشمس كذلك قال ابن عباس جعل الله نور الشمس سبعين جزأ ونور القمر كذلك فحى من نور القمر تسعة وستين جزأ فجعلها مع نور الشمس وحكى ان الله تعالى أمر جبريل فأمر بجناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور وسأل ابن ذكوان عليا رضى الله عنه عن السواد الذى فى القمر قال هو أثر المحو *(تنبيه)* المراد من الآيتين بعض الليل والنهار فالاضافة للبيان أى انه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا اما الدين فلان كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له مع كونهما متعاقبين على الدوام وهو من أقوى الدلائل على انهما غير موجودين بذاتهما بل لابد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة واما فى الدنيا فلان مصالح الدنيا لاتتم الا بالليل والنهار فلولا الليل ماحصل السكون والراحة ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف وقيل الليل والنهار ظرفان والتقدير وجعلنا آيتين فى الليل والنهار والمراد بالآيتين على هذا اما الشمس والقمر واما تكوير هذا على هذا وهذا على هذا ثم ذكر تعالى بعض المنافع المرتب على ذلك بقوله تعالى (لتبتغوا) أى تطلبوا طلبا شديدا (فضلا من ربكم) أى المحسن اليكم فيهما بضياء هذا تارة ونور هذا أخرى (ولتعلموا) بفصل هذا عن هذا (عدد السنين والحساب) لان الحساب يبنى على أربع مراتب الساعات والايام والشهور والسنين والعدد للسنين والحساب لما دون السنين وهى الشهور والايام والساعات وبعد هذه المراتب الاربعة لايحصل الا التكرار كأنهم رتبوا العدد على أربع مراتب الآحاد والعشرات والمئات والالوف وليس بعدها الا التكرار * ولما ذكر تعالى أحوال آيتى الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على أهل الدنيا وقد ذكر تعالى فى آيات كثيرة منافعهما كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وكقوله تعالى جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله وشرح تعالى حالهما وفصل مافيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق كان ذلك تفصيلا نافعا وتبيانا كاملا فلاجرم قال تعالى (وكل شئ) أى لكم اليه حاجة فى مصالح دينكم ودنياكم (فصلناه تفصيلا) أى بيناه تبيينا وهو كقوله تعالى مافرطنا فى الكتاب من شئ وكقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وقوله تدمر كل شئ بأمر ربها وانما ذكر تعالى تفصيلا لاجل توكيد الكلام وتقريره فكأنه قال فصلناه حقا * ولما بين تعالى انه أوصل الى الخلق أصناف الاشياء النافعة لهم فى الدنيا والدين مثل آيتى الليل والنهار وغيرهما كان منعما عليهم بوجود النعم وذلك يقتضى وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلاجرم كل من ورد عرصة القيامة فانه يكون مسؤلا عن اعماله وأقواله كما قال تعالى (وكل انسان ألزمناه) أى بعظمتنا (طائره) أى عمله الذى قدرناه عليه من خير وشر لان العرب كانوا اذا أرادوا الاقدام على عمل من الاعمال وأرادوا أن يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير أو الى عمل شر اعتبروا أحوال الطير وهو انه يطير بنفسه أو يحتاج الى ازعاجه واذا طار فهو يطير متيامنا أو متياسرا

أو صاعدا الى الجو الى غير ذلك من الاحوال التى كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشئ باسم لازمه فقوله تعالى وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه أى وكل انسان ألزمناه عمله (فى عنقه) الذى هو محل التزين بالقلادة ونحوها ومحل الشين بالغل ونحوه فان كان عمله خيرا كان كالقلادة والحلى فى العنق وهذا مما يزينه وان كان عمله شرا كان كالغل فى عنقه وهو مما يشينه وقال مجاهد ما من مولود يولد الا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى أو سعيد قال الرازى والتحقيق فى هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والفهم والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة والانسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك المقدار وان كان ينحرف عنه بل لا بد وأن يصل اليه ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية فتلك الاشياء المقدرة كأنها تطير اليه وتصير اليه فلهذا المعنى لا يبعد أن يعبر عن تلك الاحوال المقدرة بلفظ الطائر فقوله تعالى ألزمناه طائره فى عنقه كناية عن كل ما قدره الله ومعنى فى عنقه حصوله له فهو لازم له واصل اليه غير منحرف عنه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة انتهى ملخصا ثم قال تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا) أى مكتوبا فيه عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن شمالك فيحفظ لك سيآتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة وقوله تعالى (يلقاه منشورا) صفتان لكتابا وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف على البناء للمفعول من لقيته كذا أى استقبلته به والباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف وامال الالف بعد القاف حمزة والكسائى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ثم انه اذا لقى كتابه يوم القيامة يوم العرض قيل له (اقرأ كتابك) أى بنفسك (كفى بنفسك اليوم) الذى تكشف فيه الستور وتظهر جميع الامور (عليك حسيبا) أى حاسبا بليغا فانك تعطى القدرة على قراءته أميا كنت أو قارئا ولا ترى فيه زيادة ولا نقصانا ولا تقدر أن تنكر منه حرفا وان أنكره لسانك شهدت عليك اركانك فيالها من قدرة باهرة وقوة قاهرة ونصفة ظاهرة قال الحسن عدل والله فى حقك من جعلك حسيب نفسك وقال السدى يقول الكافر يومئذ انك قضيت انك لست بظلام للعبيد فاجعلنى أحاسب نفسى فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (فان قيل) قد قال تعالى وكفى بنا حاسبين فكيف الجمع فى ذلك (أجيب) بأن المراد بالحسيب هنا الشهيد أى كفى بشخصك اليوم شاهدا عليك أو ان القيامة مواقف مختلفة ففى موقف يكل الله تعالى حسابهم الى أنفسهم وعلمه محيط بهم وفى آخر يحاسبهم هو وقوله تعالى (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه) لان ثواب اهتدائه له لا ينجى غيره (ومن ضل فانما يضل عليها) أى اثمه عليها فلا يضر فى ضلاله سواه كما قال الكلبى دلالة على ان العبد متمكن

من الخير والشر وانه غير مجبور على عمل بعينه أصلا لان قوله تعالى من اهتدى الى آخره انما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد أما المجبور على احد الطرفين الممنوع عن الطرف الثانى فهذا لا يليق به هذا مذهب أهل السنة والجماعة فاتبعه ترشد ثم انه تعالى أعاد تقرير ان كل أحد مختص بأثر عمل نفسه بقوله تعالى (ولا تزر) أى نفس (وازرة) أى آثمة أى لا تحمل (وزر) نفس (أخرى) بل انما تحمل وزرها فقط (فان قيل) ورد أن المظلوم يأخذ من حسنات الظالم فاذا لم يوف يؤخذ من سيآت المظلوم وتطرح على الظالم (أجيب) بأن ذلك بسببه فهو كفعله (فان قيل) قد ورد أن الميت يعذب ببكاء أهله (اجيب) بأن ذلك محمول على ما اذا أوصى بذلك وكان ذلك الفعل كقول طرفة بن العبد

اذا مت فانعينى بما أنا أهله * وشقى على الجيب يا ابنة معبد

وعليه حمل الجمهور الاخبار الواردة بتعذيب الميت على ذلك (فان قيل) ذنب الميت فيما اذا أوصى أو أمر بذلك فلا يختلف عذابه بامتثالهم وعدمه (أجيب) بأن الذنب على السبب يعظم بوجود المسبب وشاهده من سن سنة سيئة الخ وقال الشيخ أبو حامد ان ماذكر محمول على الكافر وغيره من أهل الذنوب ثم قال تعالى (وما كنا) أى على مالنا من القدرة (معذبين) أحدا (حتى نبعث رسولا) يبين له ما يجب عليه فمن بلغته دعوته فخالف أمره واستكبر عن اتباعه عذبناه بما يستحقه وهذا أمر قد تحقق بارسال آدم عليه السلام ومن بعده من الانبياء الكرام عليهم السلام فى جميع الامم قال تعالى ولقد أرسلنا فى كل أمة رسولا وقال تعالى وان من أمة الا خلا فيها نذير فان دعوتهم الى الله تعالى قد انتشرت وعمت الاقطار واشتهرت (فان قيل) الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسول لان معهم أدلة العقل التى بها يعرف الله تعالى وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه واستحقاقهم العذاب لاغفالهم النظر فيما معهم وكفرهم لذلك لا لاغفال الشرائع التى لا سبيل اليها الا بالتوقيف والعمل بها لا يصح الا بعد الايمان (أجيب) بأن بعثة الرسول من جملة التنبيه على النظر والايقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا انا كنا عن هذا غافلين فهلا بعثت الينا رسولا ينبهنا على النظر فى أدلة العقل وفى الآية دليل على أن لا وجوب قبل الشرع * (فائدة) فى حكم أهل الفترتين بين نوح وادريس وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة عشر قسما ستة سعداء وأربعة أشقياء وثلاثة تحت المشيئة فأما السعداء فقسم وحد الله تعالى بنور وجده فى قلبه كقس بن ساعدة فانه كان يقول اذا سئل هل لهذا العالم اله قال البعرة تدل على البعير وأثر الاقدام يدل على المسير وقسم وحد الله تعالى بما تجلى لقلبه من النور الذى لا يقدر على دفعه وقسم ألقى فى نفسه واطلع من كشفه على منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به فى عالم الغيب وقسم اتبع ملة حق ممن تقدمه وقسم طالع فى كتب الانبياء فعرف شرف محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به وقسم آمن بنبيه الذى أرسل اليه وأدرك رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به فله أجران وأما الاشقياء فقسم عطل لا عن نظر بل عن تقليد وقسم عطل بعد ما أثبت لا عن استقصاء بنظر وقسم أشرك عن

تقليد محض وقسم علم الحق وعانده وأما الذى تحت المشيئة فقسم عطل فلم يقر بوجوده عن نظر قاصر لضعف فى مزاجه وقسم أشرك عن نظر أخطأ فيه وقسم عطل بعد ما أثبت لا عن نظر بلغ فيه أقصى القوة هكذا قسم محيي الدين بن عربى فى الباب العاشر من الفتوحات المكية نقل ذلك عنه شيخ وقته الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ونقل عن السيوطى ان أبوى النبى صلى الله عليه وسلم لم تبلغهما الدعوة والله تعالى يقول وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وحكم من لم تبلغه الدعوة أنه يموت ناجيا ولا يعذب ويدخل الجنة قال وهذا مذهب لا خلاف فيه بين المحققين من أئمتنا الشافعية فى الفقه والاشاعرة فى الاصول ونص على ذلك الامام الشافعى رضى الله عنه وتبعه على ذلك الاصحاب قال السيوطى وقد ورد فى الحديث ان الله تعالى أحيا أبويه حتى آمنا به وعلى ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادى وأبو القاسم بن عساكر وأبو حفص بن شاهين والسهيلى والقرطبى والطبرى وابن المنير وابن سيد الناس وابن ناصر الدين الدمشقى والصفدى وغيرهم والاولى لنا الامساك عن ذلك فان الله تعالى لم يكلفنا بذلك ونكل الامر فى ذلك الى الله تعالى ونقول كما قال النووى لما سئل عن طائفة ابن عربى تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون * ولما أشار تعالى الى عذاب المخالفين قرر أسبابه وعرف أنها بقدره وان قدره لا يمنع حقوق العذاب بقوله تعالى (واذا أردنا) أن نحيي قرية الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة ألقينا فى قلوب أهلها امتثال أو أمرنا والتقيد باتباع رسلنا واذا أردنا (ان نهلك قرية) فى الزمن المستقبل (أمرنا) أى بما لنا من القدرة التامة الشاملة (مترفيها) أى منعميها الذين لهم الامر والنهى قال الاكثرون أمرهم الله تعالى بالطاعة والخير على لسان رسله (ففسقوا فيها) أى خرجوا عن طاعة الله ورسوله وقال صاحب الكشاف ظاهر اللفظ يدل على أنه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون الا أن هذا مجاز ومعناه أنه يفتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضى ماذكرناه ان المأمور به انما حذف لان قوله ففسقوا يدل عليه يقال أمرته فقام وأمرته فقرأ لا يفهم منه الا أن المأمور به قيام وقراءة فكذا هنا لما قال أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصانى وخالفنى فان هذا كلام لا يفهم منه أنى أمرته بالمعصية والمخالفة لانا نقول ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فيكون كونها مأمورا بها مخالفا لهذه الضرورة تركنا هذا الظاهر انتهى قال الرازى ولقائل أن يقول كما أن قوله أمرته فعصانى يدل على أن المأمور به شئ غير المعصية من حيث ان المعصية منافية للامر ومناقضة له وكذلك قوله أمرته ففسق يدل على ان المأمور به غير الفسق لان الفسق عبارة عن الاتيان بضده فكونه فسقا ينافى كونه مأمورا به كما أن كونه معصية ينافى كونها مأمورا بها فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق وهذا الكلام فى غاية الظهور ولم أدر لم أصر صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده فثبت أن الحق ماذكره الكل وهو أن المعنى

أمرناهم بالاعمال الصالحة وهى الايمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الامر عنادا وأقدموا على الفسق (فحق عليها القول) أى الذى توعدناهم به على لسان رسولنا (فدمرناها تدميرا) أى أهلكناها باهلاك أهلها وتخريب ديارهم وخص المترفين بالذكر لان غيرهم يتبعهم ولانهم أسرع الى الحماقة وأقدر على الفجور وقيل معناه كثرنا وروى الطبرانى وغيره حديثا خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النتاج والسكة بكسر السين وتشديد الكاف الطريقة المصطفة من النخل والمأبورة الملقحة قال ذلك الجوهرى وروى أن رجلا من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى أرى أمرك هذا حقيرا فقال صلى الله عليه وسلم انه سيأمر أى سيكثر وسيكبر وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بين اصبعيه الابهام والتى تليها قالت زينب قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث أى الشر وويل يقال لمن وقع فى مهلكة أو أشرف أن يقع فيها وقوله تعالى (وكم أهلكنا) أى بما لنا من العظمة وبين مدلول كم بقوله تعالى (من القرون) أى المكذبين (من بعد نوح) كعاد وثمود من الامم الماضية يخوف به الكفار أى كفار مكة قال عبد الله بن أبى أوفى القرن عشرون ومائة سنة وقيل مائة سنة روى عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازنى ان النبى صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا قال محمد بن القاسم مازلنا نعد له حتى تمت له مائة سنة ثم مات وقال الكلبى القرن ثمانون سنة وقيل أربعون ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وكفى بربك) أى المحسن اليك (بذنوب عباده خبيرا بصيرا) أى عالما ببواطنها وظواهرها فكم من انسان كنتم ترونه من أكابر الصالحين ثم استقرت عاقبته على خلاف ذلك وكم من شخص ترونه مجتهدا فى العبادة فاذا خلا بارز ربه بالعظائم وتقديم الخبر لتقديم متعلقه * ولما قرر أنه سبحانه وتعالى عالم ببواطن عباده وظواهرهم قسمهم الى قسمين الاول قوله تعالى (من كان يريد العاجلة) أى الدنيا مقصورا عليها همه (عجلنا له فيها) أى العاجلة بأن نفيض عليه من منافعها (ما نشاء) أى من البسط والتقتير (لمن نريد) أى ان نفعل به ذلك فقيد تعالى الامر بقيدين أحدهما تقييد المعجل بارادته ومشيئته والثانى تقييد المعجل له بارادته وهكذا الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون الا بعضا منه وكثير منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة * (تنبيه) * لمن نريد بدل بعض من كل من الضمير فى له باعادة العامل تقديره لمن نريد تعجيله له ويقال ان الآية فى المنافقين كانوا يراؤن المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم فى الغنائم ونحوها وهذا هو المناسب لقوله تعالى (ثم جعلنا له جهنم يصلاها) أى فى الآخرة (مذموما) أى مفعولا به الذم (مدحورا) أى مدفوعا مطرودا مبعدا وان ذكره البيضاوى بصيغة قيل * ثم ذكر تعالى القسم الثانى وشرط فيه ثلاثة شروط الاول قوله تعالى (ومن أراد الآخرة) أى أراد بعمله ثواب الآخرة فانه ان لم ينو

ذلك لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى وأن ليس للانسان الاماسعى وقوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات الثانى قوله تعالى (وسعى لها سعيها) وذلك يقتضى أن يكون ذلك العمل من باب القرب والطاعات وكثير من الضلال يتقربون بعبادة الاوثان ولهم فيها تأويلات أحدها انهم يقولون اله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على اظهار عبوديته وخدمته ولكن غاية قدرتنا أن نشتغل بعبادة بعض المقربين من عباد الله بأن نشتغل بعبادة كوكب أو ملك من الملائكة ثم ان الملك أو الكوكب يشتغل بعبادة الله تعالى فهؤلاء يتقربون الى الله تعالى بهذا الطريق وهذه طريقة فاسدة فلاجرم أنه لم ينتفع بها ثانيها انهم قالوا اتخذنا هذه التماثيل على صورة الانبياء والاولياء والمراد من عبادتها أن تصير تلك الانبياء والاولياء شفعاء لنا عند الله وهذا الطريق أيضا فاسد فلاجرم لم ينتفع بها ثالثها أنه نقل عن أهل الهند أنهم يتقربون الى الله بقتل أنفسهم تارة وباحراق أنفسهم أخرى وهذه الطريقة أيضا فاسدة فلا جرم لم ينتفع بها وكذا القول فى جميع الفرق المبطلين الذين يتقربون الى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة الثالث قوله تعالى (وهو مؤمن) لان الشرط فى كون أعمال البر مقتضية للثواب هو الايمان فان لم يوجد لم يحصل المشروط وعن بعض المتقدمين من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية ثم انه تعالى أخبر عند وجود هذه الشروط بقوله تعالى (فاولئك) أى العالو الرتبة لجمعهم الشرائط الثلاثة (كان سعيهم مشكورا) أى مقبولا مثابا عليه بالتضعيف وبعضهم يفتح له أبواب الدنيا مع ذلك كداود وسليمان عليهما السلام ويستعمله فيها بما فيه مرضاة الله تعالى وبعضهم يزويها عنه كرامة له لا هوانا به فربما كان الفقر خيرا له وأعون على مراده فالحاصل أنها ان وجدت عند الولى لم تشرفه وان عدمت عنه لم تحقره وانما التشريف وغيره عند الله تعالى بالاعمال *(تنبيه)* كل من أتى بفعل اما أن يقصد به تحصيل خيرات الدنيا واما أن يقصد به خيرات الآخرة واما أن يقصد به مجموعهما واما أن لا يقصد به واحدا منهما فان قصد به تحصيل الدنيا فقط أو تحصيل الآخرة فقط فالله ذكر حكم هذين القسمين فى هذه الآية وأما القسم الثالث فينقسم الى ثلاثة أقسام اما أن يكون طلب الآخرة راجحا أو مرجوحا أو يكون الطلبان متعادلين فان كان طلب الآخرة راجحا فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله تعالى فيه رأيان أحدهما أنه غير مقبول لقوله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله تعالى أنه قال أنا أغنى الاغنياء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه وأيضا طلب رضوان الله اما أن يكون سببا مستقلا لكونه باعثا لهم على ذلك الفعل وداعيا اليه واما أن لا يكون فان كان الاول امتنع أن يكون لغيره مدخل فى ذلك البعث والدعاء لان الحكم اذا أسند لسبب تام كامل امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه وان كان الثانى فيكون الداعى الى ذلك الفعل هو المجموع وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله لان المجموع الحاصل من الشئ ومن غيره يجب أن يكون مغايرا لطلب رضوان الله فوجب أن لا يكون مقبولا الرأى الثانى أنه مقبول لان طلب الآخرة لما كان راجحا على

طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فبقى القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه مقبولا وأما اذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين أو كان طلب الدنيا راجحا فقد اتفقوا على أنه غير مقبول الا أنه على كل حال خير مما اذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الآخرة وأما القسم الرابع وهو الاقدام على الفعل من غير داع فهذا مبنى على أن صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعى أم لا فالذين يقولون انه يتوقف على حصول الداعى قالوا هذا القسم ممتنع الحصول والذين قالوا لا يتوقف قالوا هذا الفعل لا أثر له فى الباطن وهو محرم فى الظاهر لانه عبث * ثم انه تعالى قال (كلا) أى من الفريقين مريد الدنيا ومريد الآخرة (نمد) أى بالعطاء ثم أبدل من كلا قوله تعالى (هؤلاء) أى الذين طلبوا الدنيا نمد (وهؤلاء) أى الذين طلبوا الآخرة نمد (من عطاء ربك) أى المحسن اليك ان ضيق على مؤمن فبالحماية من الدنيا الفانية التى انما هى لعب ولهو وان وسع فبالاستعمال فيها على حسب ما يرضيه (وما كان عطاء ربك) أى الموجد لك المدبر لامرك (محظورا) أى ممنوعا فى الدنيا عن مؤمن ولا كافر بل هو ملء السهل والجبل من الذهب والفضة والحديد والنحاس والجواهر والثمار وأقوات الناس والبهائم وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى حتى لو اجتمع كل الناس على جمعه ليلا ونهارا ولم يكن لهم شغل سوى ذلك لاعياهم ولم يقدروا عليه فسبحان الجواد المعطى المانع ثم انه تعالى أمر بالنظر فى عطائه هذا على وجه مرغب فى الآخرة مزهد فى الدنيا بقوله تعالى (انظر) أى أيها الانسان أو يا محمد (كيف فضلنا بعضهم على بعض) فأوسعنا على مؤمن وقترنا على مؤمن آخر وأوسعنا على كافر وقترنا على كافر آخر وبين سبحانه وتعالى وجه الحكمة فى التفاوت فى سورة الزخرف بقوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات الآية وقال تعالى فى آخر سورة الانعام ورفع بعضكم فوق بعض درجات * (تنبيه) * كيف نصب اما على التشبيه بالظرف واما على الحال وهى معلقة لانظر بمعنى فكر أو أبصر * ولما نبه تعالى على ان ما تراه من التفضيل انما هو بمحض قدرته أخبر أن ما بعد الموت كذلك بقوله تعالى (وللآخرة أكبر) أى أعظم (درجات وأكبر تفضيلا) من درجات الدنيا ومن تفضيلها فان نسبة التفاضل فى درجات الآخرة الى التفاضل فى درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا فان كان الانسان تشتد رغبته فى طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته فى طلب الآخرة أحرى لانها دار المقامة روى أن قوما من الاشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضى الله تعالى عنه فخرج الاذن لبلال وصهيب فشق على أبى سفيان فقال سهيل بن عمرو انما أوتينا من قبلنا انهم دعوا ودعينا يعنى الى الاسلام فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت فى الآخرة * ولما بين تعالى ان الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العذاب ومنهم من يريد طاعة الله وهم أهل الثواب ثم شرط فى ذلك ثلاثة شروط فصل تلك المجملات وبدأ أولا بشرح حقيقة الايمان وأشرف أجزاء الايمان هو التوحيد ونفى الشريك والاضداد بقوله تعالى (لا تجعل مع الله)

أى الذى له جميع صفات الكمال (الهاآخر) قيل الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره والاولى أنه للانسان فيكون خطابا عاما لكل من يصلح أن يخاطب به (فتقعد) أى فيتسبب عن ذلك أن تقعد أى تصير فى الدنيا قبل الآخرة (مذموما مخذولا) لان المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان ولانه قد ثبت بالدليل أنه لا اله ولا مدبر الا الله تعالى فحينئذ تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم الى غير الله فاستحق الذم والخذلان *(تنبيه)* قال الواحدى قوله تعالى فتقعد انتصب لانه وقع بعد الفاء جوابا للنهى وانتصابه باضمار ان كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك والتقدير لا يكن منك انقطاع فيحصل أن نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء وانما سماه النحويون جوابا لكونه مشابها للجزاء وأن الثانى مسبب عن الاول كما تقرر* ولما ذكر تعالى ما هو الركن الاعظم فى الايمان أتبعه بذكر ما هو من شعائر الايمان وشرائعه وذلك أنواع الاول أن يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى ويحترز عن عبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى (وقضى) أى أمر (ربك) أى المحسن اليك وقوله تعالى (أن لا تعبدوا) أى أنت وجميع أهل دعوتك وهم جميع الناس (الا اياه) فيه وجوب عبادة الله تعالى والمنع من عبادة غيره لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن له الانعام والافضال على عباده ولا منعم الا الله تعالى فكان هو المستحق للعبادة لا غيره *(تنبيه)* روى ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية كان الاصل ووصى ربك فالتصقت احدى الواوين بالصاد فقرئ وقضى ربك ثم قال ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط لان خلاف قضاء الله ممتنع وهذا القول كما قاله الرازى بعيد جدا اذ لو فتح هذا الباب لارتفع الامان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك أنه طعن عظيم فى الدين ويندفع ما قاله بما فسر قضى به *ولما أمر تعالى بعبادة نفسه اتبعه بالامر ببر الوالدين بقوله تعالى (وبالوالدين) أى وأحسنوا أى وأوقعوا الاحسان بهما (احسانا) أى بأن تبروهما ليكون الله معكم فانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون *(تنبيهان)* أحدهما المناسبة بين الامر بعبادة الله تعالى والامر ببر الوالدين من وجوه الاول أن السبب الحقيقى لوجود الانسان هو تخليق الله تعالى وايجاده والسبب الظاهر هو الابوان فأمر الله تعالى بتعظيم السبب الحقيقى ثم اتبعه بالامر بتعظيم السبب الظاهرى الثانى ان الموجود اما قديم واما محدث ويجب أن تكون معاملة الانسان مع الموجود القديم بالتعظيم والعبودية ومع المحدث باظهار الشفقة وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله وأحق الخلق بالشفقة الابوان لكثرة انعامهما على الانسان فقوله تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه اشارة الى التعظيم لامر الله تعالى وقوله تعالى وبالوالدين احسانا اشارة الى الشفقة على خلق الله الثالث ان الاشتغال بشكر المنعم واجب ثم المنعم الحقيقى هو الخالق سبحانه وتعالى وقد يكون بعض المخلوقين منعما عليك وشكره أيضا واجب لقوله صلى الله عليه وسلم من لم يشكر الناس لم يشكر الله وليس لاحد

من الخلائق نعمة على الانسان مثل الابوين لان الولد قطعة من الوالدين قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني وأيضا شفقة الوالدين على الولد عظيمة وايصال الخير الى الولد منهما أمر طبيعي واحترازهما عن ايصال الضرر اليه أمر طبيعي أيضا فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة بل هي أكبر من كل نعمة تصل من الانسان الى الانسان وأيضا حال ما يكون الانسان في غاية الضعف ونهاية العجز يكون انعام الابوين في ذلك الوقت واصلا الى الولد واذا وقع الانعام على هذا الوجه كان موقعه عظيما وأيضا فايصال الخير الى الغير قد يكون لداعية ايصال الخير اليه وايصال الخير الى الولد ليس لهذا الغرض فكان الانعام فيه أتم وأكمل فثبت بهذه الوجوه أنه ليس لاحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فلهذا بدأ الله بشكر نعمة الخالق وهو قوله تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله تعالى وبالوالدين احسانا (فان قيل) الوالدان انما طلبا تحصيل اللذة لانفسهما فلزم منه دخول الولد في الوجود ودخوله في عالم الآفات والمخالفات فأي انعام للابوين على الولد حتى ان بعض المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد وعرضني للموت والفقر والعمى والزمانة وقيل لابي العلاء المعري ماذا نكتب على قبرك فقال اكتبوا على قبري هذا جناية أبي علي وما جنيت على أحد وقال في ترك التزوج والولد

وتركت فيهم نعمة العدم التي * فيهم لقد سبقت نعيم العاجل
ولو أنهم ولدوا لعانوا شدة * ترمي بهم في موبقات الآجل

وقيل لاسكندر استاذك أعظم منة عليك أم والدك فقال أستاذي أعظم منة لانه تحمل أنواع الشدائد عند تعليمي فأوقعني في نور العلم وأما الوالد فانه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه فأخرجني الى آفات عالم الكون والفساد ومن الكلمات المأثورة المشهورة خير الآباء من علمك (أجيب) بأنه وان كان له في أول الامر طلب لذة الوقاع الا أن الاهتمام بايصال الخيرات اليه ودفع الآفات عنه من أول دخوله في الوجود الى وقت بلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع ما يصل اليه من جهات الخيرات والمبرات فسقطت تلك الشبهات (التنبيه الثاني) ان لفظ الآية يدل على معان كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة في الاحسان الى الوالدين منها أنه تعالى قال في الآية المتقدمة ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ثم أردفه بهذه الآية المشتملة على الاعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة وجعل من جملتها البر بالوالدين وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تفيد سعادة الآخرة ومنها أنه تعالى بدأ بذكر الامر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلث ببر الوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة ومنها أنه تعالى لم يقل واحسانا بالوالدين بل قال وبالوالدين احسانا فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام بهما ومنها أنه تعالى قال احسانا بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم أي احسانا عظيما كاملا لان احسانهما اليك

قد بلغ الغاية العظيمة فوجب أن يكون احسانك اليهما كذلك ثم على جميع التقديرات لا تحصل المكافأة لان انعامهما عليك على سبيل الابتداء وفى الامثال المشهورة ان البادئ بالبر لا يكافأ * ولما كان سبحانه وتعالى عليما بما فى الطباع من ملال الولد لهما عند أخذهما فى السن قال تعالى (اما) مؤكدا بادخال ما على ان الشرطية لزيادة التقرير للمعنى اهتماما بشأن الوالدين (يبلغن عندك الكبر) أى كان يضطرا اليك فى حالة الضعف والعجز فلا يكون لهما كافل غيرك فصيرا عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أوله (أحدهما أو كلاهما) وقرأ حمزة والكسائى بألف بعد الغين وكسر النون فالالف ضمير الوالدين لتقدم ذكرهما وأحدهما بدل منه أو كلاهما عطف عليه فاعلا أو بدلا (فان قيل) هلا كان كلاهما توكيدا لا بدلا أجيب بأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيد الاثنين فوجب أن يكون مثله (فان قيل) لم لا يجوز أن يكون أحدهما بدلا وكلاهما توكيدا ويكون ذلك عطفا للتوكيد على البدل (أجيب) بأن العطف يقتضى المشاركة فجعل أحدهما بدلا والآخر توكيدا خلاف الاصل وقرأ الباقون بغير ألف وفتح النون والاعراب على هذا ظاهر وجميع القراء يشددون النون ثم انه تعالى أمر الانسان فى حق والديه بخمسة أشياء الاول منها قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) أى لا تتضجر منهما قال الزجاج أف معناه النتن وهذا قول مجاهد لانه قال معنى قوله فلا تقل لهما أف أى لا تتقذرهما كما انهما كانا لا يتقذران منك حين كنت تخرأ وتبول وفى رواية أخرى عن مجاهد اذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أف فلقد بالغ سبحانه وتعالى بالوصية بهما حيث شفع الاحسان اليهما بتوحيده ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا ثم ضيق الامر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من التضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الانسان معها فى الاستطاعة وقد قال صلى الله عليه وسلم اياكم وعقوق الوالدين فان الجنة يوجد ريحها مع مسيرة ألف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار ازاره خيلاء ان الكبرياء لله رب العالمين وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال لا يقوم الى خدمتهما عن كسل وقرأ نافع وحفص بالتنوين فى الفاء مع الكسر وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين الثانى قوله تعالى (ولا تنهرهما) أى لا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره قال تعالى وأما السائل فلا تنهر (فان قيل) المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بالاولى فما فائدة ذكره (أجيب) بأن المراد بالمنع من التأفيف المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من منع الانتهار المنع من اظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما الثالث قوله تعالى (وقل لهما قولا كريما) أى حسنا جميلا طيبا لينا كما يقتضيه حسن الادب معهما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو أن يقول يا أبتاه يا أماه وسئل سعيد بن المسيب رضى الله عنه عن القول الكريم فقال هو قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ وعن عطاء أنه قال هو أن يتكلم معهما بشرط أن لا يرفع اليهما بصره

ولا يشتد اليهما نظره وذلك أن هذين الفعلين ينافيان القول الكريم (فان قيل) ابراهيم الخليل عليه السلام قال لابيه انى أراك وقومك فى ضلال مبين مع أنه عليه السلام من أعظم الناس أدبا وحلما وكرما (أجيب) بأن حق الله تعالى مقدم على حق الابوين فاقدام ابراهيم عليه السلام على ذلك الايذاء انما كان تقديما لحق الله تعالى والرابع قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) أى لا من أجل الامتثال للامر وخوف العار فقط بل من أجل الرحمة لهما بأن لا تزال تذكر نفسك بالاوامر والنواهى وبما تقدم لهما من الاحسان اليك والمقصود المبالغة فى التواضع وهذه استعارة بليغة قال القفال وفى تقريره وجهان الاول ان الطائر اذا أراد ضم فرخه اليه للتربية خفض له جناحه فلهذا صار خفض الجناح كناية عن جنس التربية فكأنه قال للولد اكفل والديك بأن تضمهما الى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك والثانى أن الطائر اذا أراد الطيران نشر جناحيه ورفعهما ليرتفع واذا أراد ترك الطيران خفض جناحيه ولم يرفع فجعل خفض الجناح كناية عن التواضع واللين (فان قيل) كيف أضاف الجناح الى الذل والذل لا جناح له (أجيب) بوجهين الاول أنه أضيف الجناح الى الذل كما يقال حاتم الجود فكما أن المراد هناك حاتم الجواد فكذا هنا المراد اخفض لهما جناحك الذليل الثانى أن مدار الاستعارة على الخيلات فهنا تخيل للذل جناحا خفيضا كما جعل لبيد للشمال يدا وللقرة زماما فى قوله

وغداة ريح قد كشفت وقرة * اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فأثبت للشمال يدا وللقرة زماما ووضع زمامها فى يد الشمال فكذا هنا ومن ظريف ما حكى أن أبا تمام لما نظم قوله

لا تسقنى ماء الملام فاننى * صب قد استعذبت ماء بكائى

جاءه رجل بقصعة وقال له اعطنى شيأ من ماء الملام فقال له حتى تأتينى بريشة من جناح الذل يريد أن هذا مجاز استعاره لذلك وقال بعضهم

راشوا جناحى ثم بلوه بالندى * فلم أستطع من حبهم أن أطيرا

الخامس قوله تعالى (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) أى لا تكتف برحمتك عليهما التى لا بقاء لها وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك فى صغرك وتربيتهما لك هذا اذا كانا مسلمين فان كانا كافرين فان الدعاء لهما بالرحمة منسوخ بقوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى بل يدعو الله تعالى لهما بالهداية والارشاد فاذا هداهما فقد رحمهما وسئل بعضهم عن بر الوالدين فقال لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزرا ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولا باطن وأن تترحم عليهما ما عاشا وتدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة أوداثهما من بعدهما لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه *(تنبيه)* قد ورد فى بر الوالدين أحاديث كثيرة منها ما روى عن أبى هريرة انه قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحسن الناس بصحبتى فقال أمك ثم أمك ثم أبوك ثم أبوك ثم أدناك فأدناك

ومنها عنه أيضا أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرغم الله أنفه أرغم الله أنفه أرغم الله أنفه قيل من يا رسول الله قال من أدرك والديه أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة ومنها ما روى عنه أيضا انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجزى ولد والده الا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه ومنها ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد فقال أحى والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد ومنها ما رواه الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم قال رضا الرب فى رضا الوالدين وسخط الرب فى سخط الوالدين ومنها ما روى عن أبى الدرداء أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الوالد أوسط أبواب الجنة فحافظ ان شئت أو ضيع ومنها ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه انه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل أحب الى الله تعالى قال الصلاة على وقتها قلت ثم أى قال بر الوالدين قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل الله وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال ذلك واصل اليه ولا شئ أنفع لهم من الاستغفار ولو كان شئ أفضل منه لأمركم به فى الوالدين ولقد كرر الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز الوصية بالوالدين ومنها ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما ومنها ما روى عن سعيد بن المسيب ان البار بوالديه لا يموت ميتة سوء ومنها ما روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى فى الصغر فهل قضيتهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما ومنها ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رغم انف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ورغم أنف رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ورغم أنف رجل أدرك أبويه الكبر فلم يدخلاه الجنة ومنها ما روى أن رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه وأنه يأخذ ماله فدعاه فاذا هو شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال انه كان ضعيفا وأنا قوى وفقيرا وأنا غنى فكنت لا أمنعه شيأ من مالى واليوم أنا ضعيف وهو قوى وأنا فقير وهو غنى ويبخل على بماله فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما من حجر ولا مدر يسمع بهذا الا بكى ثم قال للولد أنت ومالك لابيك وشكا اليه آخر سوء خلق أمه فقال لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها واظمأت لك نهارها قال لقد جازيتها قال ما فعلت قال حججت بها على عنقى قال ما جزيتها وعن ابن عمر أنه رأى رجلا فى الطواف يحمل أمه ويقول

أنا لها مطيــــة لا تذعر * اذا الركائب نفرت لا تنفر

ما حملت وأرضعتنى أكثر * الله ربى ذو الجلال الاكبر

تظننى جزيتها يا ابن عمر قال لا والله ولا زفرة واحدة * ولما كان ما ذكر فى حق الوالدين عسرا جدا يحذر من التهاون به أشار بقوله تعالى (ربكم) أى المحسن اليكم فى الحقيقة فانه هو الذى عطف عليكم من يربيكم وهو الذى أعانهم على ذلك (أعلم) أى من كل أحد (بما فى نفوسكم)

من

من قصد البر بهما وغيره فلا يظهر أحدكم غير ما يبطن فان ذلك لا ينفعه ولا ينجيه الا أن يحمل نفسه على ما يكون سببا لرحمتهما (ان تكونوا صالحين) أى متقين محسنين فى نفس الامر والصلاح استقامة الفعل على ما يدعو الدليل اليه * وأشار تعالى الى أنه لا يكون ذلك الا بمعالجة النفس وترجيعها كرة بعد كرة بقوله تعالى (فانه كان للاوابين) أى الرجاعين الى الخير مرة اثر مرة بعد جماح أنفسهم عنه (غفورا) أى بالغ الستر عن وقع منه تقصير فرجع عنه فانه مغفور له * ولما حث تعالى على الاحسان للوالدين بالخصوص عمّ بالامر بالاحسان لكل ذى قرابة ورحم وغيره بقوله تعالى (وآت ذا القربى) من جهة الاب والام وان بعد (حقه) والخطاب لكل أحد أن يؤتى أقاربه حقوقهم من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمعاضدة ونحو ذلك وقيل ان كانوا محتاجين ومحاويج وهو موسر لزمه الانفاق عليهم عند الامام أبى حنيفة وقال الشافعى لا يلزم الانفقة الولد على والده والوالد على والده فقط وقيل المراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم (و) آت (المسكين) حقه وان لم يكن قريبا (و) آت (ابن السبيل) وهو المسافر المنقطع عن ماله ليكون متقيا محسنا * ولما رغب تعالى فى البذل وكانت النفس قلما يكون فعلها قواما بين الافراط والتفريط اتبع ذلك بقوله تعالى (ولا تبذر) بتفريق المال سرفا وهو بذله فيما لا ينبغى وقد كانت الجاهلية تبذر أموالها فى الفخر والسمعة وتذكر ذلك فى أشعارها فأمر الله تعالى بالنفقة فى وجوهها مما يقرب منه ويزلف اليه وفى قوله تعالى (تبذيرا) تنبيه على أن الارتفاع نحو ساحة التبذير أولى من الهبوط الى مضيق الشح والتقتير والتبذير بسط اليد فى المال على حسب الهوى وقد سئل ابن مسعود عن التبذير فقال انفاق المال فى غير حقه وأما الجود فهو اتباع أمر الله تعالى فى حقوق المال وعن مجاهد لو أنفق الانسان ماله كله فى الحق ما كان تبذيرا ولو أنفق مدا فى باطل كان تبذيرا وقد أنفق بعضهم نفقة فى خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير وعن عبد الله بن عمر قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال ما هذا السرف يا سعد قال أوفى الوضوء سرف قال نعم وان كنت على نهر جار ثم نبه تعالى على قبح التبذير باضافته اياه الى أفعال الشياطين بقوله تعالى (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) أى على طريقتهم أو هم اخوانهم واصدقاؤهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف أو هم قرناؤهم وهم فى النار على سبيل التوعد ثم انه تعالى بين صفة الشيطان بقوله تعالى (وكان الشيطان) أى هذا الجنس البعيد من كل خير المحترق بكل شر (لربه) أى الذى أحسن اليه بالايجاد وتربيته (كفورا) أى ستورا لما يقدر على ستره من آياته الظاهرة ونعمته الباهرة مع الحجة فلا ينبغى أن يطاع لانه لا يدعو الا الى مثل فعله قال بعض العلماء خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب وذلك لانهم كانوا يجمعون الاموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها فى الخيلاء والتفاخر وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الاسلام وتوهين أهله واعانة أعدائه فنزلت هذه الآية تنبيها على قبح أفعالهم فى هذا الباب

وقوله تعالى (واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) نزل فى مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب وكانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم فى الاحايين ما يحتاجون اليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك لانتظار رزق من الله يرجوه أن يأتيه فيعطيه (فقل لهم) أى فى حالة الاعراض (قولا ميسورا) أى ذا يسر يشرح صدورهم ويبسط رجاءهم لان ذلك أقرب الى طريق المتقين المحسنين قال أبو حيان روى أنه عليه الصلاة والسلام كان بعد نزول هذه الآية اذا لم يكن عنده ما يعطى وسئل يقول يرزقنا الله تعالى واياكم من فضله انتهى وقد وقع هذا الابتغاء موضع الفقد لان فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سببا للابتغاء والابتغاء مسببا عنه فوضع المسبب موضع السبب ثم أمر تعالى نبيه بما وصف له عباده المؤمنين فى الانفاق فى سورة الفرقان بقوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فقال تعالى (ولا تجعل يدك) أى بالبخل (مغلولة) أى كأنها بالمنع مشدودة بالغل (الى عنقك) أى لا تستطيع مدها أى لا تمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك فى وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات والمعنى لا تجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط (ولا تبسطها) بالبذل (كل البسط) فتبذر بحيث لا يبقى فى يدك شئ ذكر الحكماء فى كتب الاخلاق أن لكل خلق طرفى افراط وتفريط وهما مذمومان والخلق الفاضل هو العدل والوسط فالبخل افراط فى الامساك والتبذير افراط فى الانفاق وهما مذمومان والمعتدل هو الوسط وعن جابر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبى فقال يا رسول الله ان أمى تستكسيك درعا أى قميصا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا قميصه فقال للصبى من ساعة الى ساعة هذا متعلق بمحذوف أى أخر سؤالك من ساعة ليس لنا فيها درع الى ساعة يظهر لنا فيها درع فعد الينا فذهب الى أمه فقالت له قل له ان أمى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزع قميصه فأعطاه وقعد عريانا أى فى ازار ونحوه فأذن بلال بالصلاة فانتظره فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فأنزل الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعطى جميع ما عندك *(تنبيه)* ما ذكرته عن جابر تبعا للكشاف والبيضاوى والرازى وغيرهم قال الولى العراقى لم أقف عليه وكذا قال الحافظ ابن حجر وقد يقال من حفظ حجة على من لم يحفظ (فتقعد) أى توجد كالمقعد (ملوما) أى بليغ الرسوخ فيما يلام بسببه عند الله لان ذلك مما نهى الله عنه عند نفسك وعند الناس لانه يلوم نفسه وأصحابه أيضا يلومونه على تضييع المال بالكلية (محسورا) أى منقطعا بك لذهاب ما تقوى به قال القفال شبه حال من أنفق كل ماله بمن انقطع فى سفره بسبب انقطاع مطيته لان ذلك المقدار من المال كأنه مطية تحمل الانسان الى آخر الشهر والسنة كما أن ذلك البعير يحمله ويبلغه الى آخر المنزل فاذا انقطع ذلك البعير بقى فى وسط الطريق عاجزا متحيرا فكذلك الانسان اذا أنفق مقدار ما يحتاج اليه فى مدة شهر فى أقل منه بقى فى وسط ذلك الشهر عاجزا متحيرا ومن فعل ذلك لحقه اللوم من أهله والمحتاجين الى انفاقه عليهم بسبب

سوء تدبيره وترك الحزم في مهمات معاشه ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (ان ربك) أي المحسن اليك (يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن يشاء) البسط دون غيره (ويقدر) أي يضيقه سواء قبض يده أم بسطها لان الرب هو الذي يربي المربوب ويقوم باصلاح مهماته ورفع درجاته على مقدار الصلاح في الصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض لان ذلك هو الصلاح قال تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء (انه كان بعباده خبيرا) أي بالغ الخبر (بصيرا) أي بالغ البصر بما يكون من كل من القبض والبسط لهم مصلحة ومفسدة فالتفاوت في انه ربي العباد ليس لاجل بخل بل لاجل رعاية مصلحة لا يعلمها العبد فسبحان المتصرف في عباده كيف يشاء* ولما أتم سبحانه وتعالى الوصية بالاصول وما يتبع ذلك أوصى بالفروع بقوله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم) فذكرهم بلفظ الولد الذي هو داعية الى الحنو والعطف (خشية املاق) أي فقر متوقع لم يقع بعد ثم وصل بذلك استئنافا بقوله تعالى (نحن نرزقهم واياكم) مقدما ضمير الاولاد لكون الاملاق مترقبا من الانفاق عليهم ثم علل تعالى ذلك بما هو أعم منه فقال تعالى (ان قتلهم) أي مطلقا لهذا أو لغيره (كان خطأ) أي اثما (كبيرا) أي عظيما وقرأ ابن كثير بفتح الطاء ومد بعدها مدا متصلا وقرأ ابن ذكوان بفتح الخاء والطاء ولا مد بعد الطاء والباقون بكسر الخاء وسكون الطاء قال الرماني الخطء بكسر ثم سكون لا يكون الا تعمدا الى خلاف الصواب والخطأ أي محركا قد يكون من غير تعمد وانما وجب بر الاولاد لامور أحدها أنهم في غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين وانما وجب بر الوالدين مكافأة لما صدر منهما من أنواع البر الى الولد الثاني أن امتناع الآباء من البر بالاولاد يقتضي خراب العالم الثالث أن قرابة الولادة قرابة الجزئية والبعضية وهي من أعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد في الروح وقسوة في القلب وذلك من أعظم الاخلاق الذميمة فرغب الله تعالى في الاحسان الى الاولاد ازالة لهذه الخصلة الذميمة وعبر تعالى بالاولاد ليشمل الاناث فان العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب وقدرة البنين عليه بسبب اقدامهم على النهب والغارة عليهم وأيضا كانوا يخافون أنهن بعد كبرهن تفقد أكفاؤهن فيحتاجون الى انكاحهن من غير أكفاء وفي ذلك عار شديد فنهاهم الله تعالى عن ذلك فان الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولدا وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور والاناث وأما ما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر وقد يخاف أيضا في العاجزين من البنين وكما أنه سبحانه وتعالى يفتح أبواب الرزق على الذكور فكذلك على الاناث* ولما كان في قتل الاولاد حظ من البخل وفي فعل الزنا داع من الاسراف أتبعه به فقال تعالى (ولا تقربوا الزنا) أدنى قرب ولو بفعل شيء من مقدماته وانما أتى تعالى بالقربان تعظيما له لما فيه من المفاسد الجارة الى الفتن بالقتل وتضييع النسب والتسبب في ايجاد نفس بالباطل وغير ذلك ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى مؤكدا ابلاغا في التنفير عنه لما للنفس من شدة الداعية اليه (انه كان فاحشة) أي فعلة ظاهرة القبح زائدته وقدمنا كم الله تعالى عن

الفحشاء فى قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء الآية (وساء) أى وبئس الزنا (سبيلا) أى طريقا طريقه ثم نهى سبحانه وتعالى عن القتل مطلقا عن التقييد بالاولاد بغير حق بقوله تعالى (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) أى بالاسلام والعهد (الا بالحق) وهو المبيح للقتل من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث رجل كفر بالله بعد ايمانه أو زنى بعد احصانه أو قتل نفسا بغير حق ومثل انتقال المسلم من دين الاسلام الى دين الكفر انتقال كافر من دين الى دين آخر سواء كان ذلك الدين يقر عليه أم لا ومن ذلك قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وقوله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا واختلف الفقهاء فى أشياء غير ذلك منها أن تارك الصلاة كسلا هل يقتل فعند الشافعى يقتل بشروط معلومة وعند أبى حنيفة لا يقتل التارك كالزانى ومنها أن عمل اللواط هل يوجب القتل فعند الشافعى يوجب قتل الفاعل كالزانى وعند أبى حنيفة لا يوجبه ومنها أن الساحر اذا قال قتلت فلانا بسحرى عمدا هل يوجب القتل فعند الشافعى يوجبه وعند أبى حنيفة لا يوجبه ومنها أن القتل بالمثقل هل يوجب القصاص فعند الشافعى يوجب وعند أبى حنيفة لا يوجب ومنها الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل اختلفوا فيه فى زمان أبى بكر رضى الله عنه ومنها أن اتيان البهيمة هل يوجب القتل فعند أكثر الفقهاء لا يوجب وعند قوم يوجبه ولكل ممن ذكر أدلة يستدل بها رضى الله تعالى عنهم أجمعين ثم قال تعالى (ومن قتل مظلوما) أى بأى ظلم كان من غير أن يرتكب ما يبيح قتله (فقد جعلنا لوليه) أى سواء كان قريبا أم بعيدا (سلطانا) أى أمرا متسلطا به وقوله تعالى (فلا يسرف فى القتل) قرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب أى أيها الولى والباقون بالياء على الغيبة أى الولى وفسر الاسراف بوجوه الاول أن يقتل القاتل وغير القاتل وذلك ان أولياء المقتول كانوا اذا قتل واحد من قبيلة شريفة قتلوا خلقا من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وحكم بقتل القاتل وحده الثانى ان الاسراف هو أن لا يرضى بقتل القاتل فان الجاهلية كانوا يقصدون أشرف القبائل ثم يقتلون منهم قوما معينين ويتركون القاتل الثالث أن الاسراف هو أن لا يكتفى بقتل القاتل بل يقتله ثم يمثل به ويقطع أعضاءه قال القفال ولا يبعد حمله على الكل لان جملة على هذه المعانى مشترك فى كونها اسرافا واختلف فى رجوع الهاء الى ماذا فى قوله تعالى (انه كان منصورا) فقال مجاهد راجعة الى المقتول فى قوله تعالى ومن قتل مظلوما أى ان المقتول منصور فى الدنيا بايجاب القود على قاتله وفى الآخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقال قتادة راجعة لولى المقتول أى انه منصور على القاتل باستيفاء القصاص أو الدية فليكتف بهذا القدر ولا يطمع فى الزيادة وقيل راجعة الى القاتل الظالم أى ان القاتل يكتفى منه باستيفاء القصاص ولا يطلب منه زيادة لانه منصور من عند الله تعالى فى تحريم طلب الزيادة منه أو انه اذا عوقب فى الدنيا بأزيد مما فعل نصر فى الآخرة وقيل راجعة الى الدم وقيل الى الحق * ولما ذكر تعالى النهى عن اتلاف النفوس أتبعه بالنهى

عن

عن اتلاف الاموال لان اعز الاشياء بعد النفوس الاموال وأحق الناس بالنهى عن اتلاف أموالهم هو اليتيم لانه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره باتلاف ماله فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهى عن اتلاف أموالهم بقوله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم) عبر بالقربان الذى هو قبل الاخذ تعظيما للمقام فهو أبلغ من قوله تعالى ولا تأكلوها اسرافا وبدارا وفى تفسير قوله تعالى (الا بالتى هى أحسن) وجهان الاول الا بالتصرف الذى ينميه ويكثره الثانى روى مجاهد عن ابن عباس انه قال اذا احتاج أكل بالمعروف واذا أيسر قضاه فان لم يوسر فلا شئ عليه والولى تبقى ولايته على اليتيم (حتى يبلغ أشده) وهو ايناس الرشد منه بعد بلوغه كما بين تعالى ذلك فى آية أخرى وهى قوله تعالى وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم * ولما نهى سبحانه وتعالى عن ثلاثة أشياء وهى الزنا والقتل وأكل مال اليتيم أتبعها بثلاثة أوامر الاول قوله تعالى (وأوفوا بالعهد) أى اذا عاهدتم الله تعالى على فعل المأمورات وترك المنهيات أو الناس على فعل أو قول جائز وفى تفسير قوله تعالى (ان العهد كان مسؤلا) وجوه الاول أن يراد ان صاحب العهد كان مسؤلا فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه كقوله تعالى واسأل القرية ثانيها ان العهد كان مسؤلا أى مطلوبا يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفى ثالثها أن يكون هذا تخييلا كأن يقال للعهد لم نكثت وهلا أوفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأى ذنب قتلت وكقوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين والمخاطبة لعيسى عليه السلام والانكار على غيره الامر الثانى قوله تعالى (وأوفوا الكيل اذا كلتم) أى لغيركم فان كلتم لانفسكم فلا جناح عليكم ان نقصتم عن حقكم ولم تفوا الكيل الامر الثالث قوله تعالى (وزنوا) أى وزنا متلبسا (بالقسطاس) أى ميزان العدل الذى هو أقوم الموازين وزاد فى تأكيد معناه فقال (المستقيم) دون شئ من الحيف * (تنبيه) * القسطاس رومى عرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لان الاعجمى اذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم فى الاعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربيا وقرأ حفص والكسائى وحمزة بكسر القاف والباقون بضمها (ذلك) أى الامر العالى الرتبة الذى أخبرنا كم به من الايفاء بالتمام والكمال (خير) لكم فى الدارين الدنيا والآخرة من التطفيف بالكيل أو الوزن من حيث ان الانسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح فى الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة وان تراءى لكم ان التطفيف خير (وأحسن تأويلا) أى عاقبة فى الدارين اما فى الدنيا فلانه اذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب اليه وحصل له الاستغناء فى الزمان القليل وكم رأينا من الفقراء من اشتهر واعند الناس بالامانة والاحتراز عن الخيانة انقلبت القلوب عليهم وحصلت الاموال الكثيرة لهم واما فى الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الاليم والتأويل وهو تفعيل من الاول وهو الرجوع وأفعل التفضيل هنا لاستعمال النصفة بارخاء العنان أى على تقدير أن يكون فى كل منهما خير فهذا المعنى الذى ذكرناه أزيد خيرا والعاقل لا يرضى لنفسه بالدون * ولما شرح

الله تعالى الاوامر الثلاثة عاد الى ذكر النواهي فنهى عن ثلاثة أشياء أولها قوله تعالى (ولا تقف) أي لا تتبع أيها الانسان (ما ليس لك به علم) من قول أو فعل وحاصله يرجع الى النهي عن الحكم بما لا يكون معلوما وهو قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة واختلف المفسرون فيها فقال ابن عباس لا تشهد الا بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك وقال قتادة لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم وقيل المراد النهي عن القذف وقيل المراد النهي عن الكذب وقيل المراد نهي المشركين عن اعتقاداتهم وتقليد أسلافهم لان الله تعالى نسبهم في تلك العقائد الى اتباع الهوى فقال تعالى ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس وقيل القفو هو البهت وأصله من القفا كأنه يقال خلفه وهو في معنى الغيبة قال صلى الله عليه وسلم من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى في ردغة الخبال رواه الطبراني وغيره وردغة بسكون الدال وفتحها عصارة أهل النار وقال الكميت

ولا أرمي البريء بغير ذنب * ولا أقفو الحواصن ان قفينا

ببناء قفينا للمفعول والحواصن النساء العفائف واللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقييد *(تنبيه)* يقال قفوت اثر فلان أقفو اذا اتبعت أثره وسميت قافية الشعر قافية لان البيت يقفو البيت وسميت القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار أقفاء الناس أو آثار أقدامهم ويستدلون بها على أحوال الناس وقال تعالى ثم قفينا على آثارهم برسلنا وسمي القفا قفا لانه مؤخر بدن الانسان فان مشى يتبعه ويقفوه (فان قيل) ان هذه الآية تدل على منع القياس فانه لا يفيد الا الظن والظن مغاير للعلم (أجيب) بأن ذلك عام دخله التخصيص فان الحكم في الدين بمجرد الظن جائز باجماع الامة وبأن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند سواء كان قطعيا أم ظنيا واستعماله بهذا المعنى شائع ذائع وقد استعمل في مسائل كثيرة منها ان العمل بالفتوى عمل بالظن ومنها ان العمل بالشهادة عمل بالظن ومنها الاجتهاد في طلب القبلة ولا يفيد الا الظن ومنها قيم المتلفات وارش الجنايات لا سبيل اليهما الا بالظن ومنها الفصد والحجامة وسائر المعالجات تبنى على الظن ومنها بعث الحكمين في الشقاق قال تعالى وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم ومنها الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنا مظنون وينبني على هذا الظن أحكام كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن في مقابر المسلمين ومنها الاعتماد على صدق الاصدقاء وعداوة الاعداء كلها مظنونة وبناء الامر على تلك الظنون وقال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وذلك تصريح بأن الظن معتبر فبطل قول من يقول انه لا يجوز بناء الامر على الظن ثم علل تعالى النهي مخوفا بقوله تعالى (ان السمع والبصر) وهما طريقا الادراك (والفؤاد) الذي هو آلة الادراك ثم عول تعالى الامر بقوله تعالى (كل أولئك) أي هذه الاشياء العظيمة الغالية المنافع البديعة التكوين *(تنبيه)* أولاء وجميع أسماء

الاشارة يشاربها للعاقل وغيره كقول الشاعر

ذم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الايام

يجوز فى ذم فتح الميم وكسرها وضمها وقوله بعد منزلة اللوى أى بعد مفارقتها والاضافة فى منزلة اللوى للبيان وهو ممدود ولكن قصره هنا للضرورة والعيش عطف على المنازل والايام صفة لاسم الاشارة أو عطف بيان له (كان عنه) أى بوعد لا خلف فيه (مسؤلا) بسؤال يخصه *(تنبيه)* ظاهر الآية يدل على ان الجوارح مسؤلة وفيه وجوه الاول ان معناه ان صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤل لان السؤال لا يصح الا ممن كان عاقلا وهذه الجوارح ليست كذلك بل العاقل الفاهم هو الانسان كقوله تعالى واسأل القرية أى أهلها والمعنى أنه يقال للانسان لم سمعت مالم يحل سماعه ولم نظرت مالم يحل نظره ولم عزمت على مالم يحل لك العزم عليه الثانى ان تقدير الآية ان أولئك الاقوام كلهم مسؤلون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع فيماذا أفى الطاعة أم فى المعصية وكذا القول فى بقية الاعضاء وذلك لان الحواس آلات النفس والنفس كالامير لها والمستعمل لها فى مصالحها فان استعملها فى الخيرات استوجب الثواب وان استعملها فى المعاصى استحق العقاب الثالث أن الله تعالى يخلق الحياة فى الاعضاء ثم انها تسأل لقوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فكذلك لا يبعد أن يخلق العقل والحياة والنطق فى هذه الاعضاء ثم انها تسأل روى عن شكل بن حميد قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يانبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به فأخذ بيدى ثم قال قل أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر لسانى وشر قلبى وشر منيى قال فحفظتها قال سعد المنى ماؤه النهى الثانى قوله تعالى (ولا تمش فى الارض) أى جنسها (مرحا) أى ذا مرح وهو شدة الفرح والمراد من الآية النهى عن أن يمشى الانسان مشيا يدل على الكبرياء والعظمة قال الزجاج ولا تمش فى الارض مختالا فخورا ونظيره قوله تعالى فى سورة الفرقان وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال تعالى فى سورة لقمان واقصد فى مشيك واغضض من صوتك وقال تعالى فيها ولا تمش فى الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ثم علل تعالى النهى عن ذلك بقوله تعالى (انك لن تخرق الارض) أى تثقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك (ولن تبلغ الجبال طولا) أى بتطاولك وهو تهكم بالمختال لان الاختيال حماقة مجردة لا تفيد شيأ ليس فى التذلل وفى ذلك اشارة الى أن العبد ضعيف لا يقدر على خرق أرض ولا وصول الى جبال فهو محاط به من فوقه ومن تحته بنوعين من الجمادات وهو أضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكأنه قيل له تواضع ولا تتكبر فانك خلق ضعيف من خلق الله محصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوى وقيل ذكر ذلك لان من مشى خيلاء يمشى مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه فقيل له انك لن تثقب الارض ان مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال طولا ان مشيت على صدور قدميك قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفأ تكفأ كأنما ينحط من صبب وروى

أبو هريرة رضى الله عنه قال ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت أحدا أسرع فى مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الارض تطوى له انا لنجهد أنفسنا وانه غير مكترث وقوله تعالى (كل ذلك) أشارة الى مانهى عنه مما تقدم فان الذى تقدم منهيات ومأمورات وجملة ذلك من قوله تعالى لا تجعل مع الله الها آخر الى هنا خمسة وعشرون وها أنا أسردها لك تسهيلا عليك فأولها لا تجعل مع الله الها آخر وثانيها وثالثها وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه لاشتماله على تكليفين الامر بعبادة الله تعالى والنهى عن عبادة غيره رابعها وبالوالدين احسانا خامسها فلا تقل لهما أف سادسها ولا تنهرهما سابعها وقل لهما قولا كريما ثامنها واخفض لهما جناح الذل من الرحمة تاسعها وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا عاشرها وآت ذا القربى حقه حادى عشرها والمسكين ثانى عشرها وابن السبيل ثالث عشرها ولا تبذر تبذيرا رابع عشرها فقل لهم قولا ميسورا خامس عشرها ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك سادس عشرها ولا تبسطها كل البسط سابع عشرها ولا تقتلوا أولادكم ثامن عشرها ولا تقتلوا النفس تاسع عشرها ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا عشروها فلا يسرف فى القتل حادى عشريها وأوفوا بالعهد ثانى عشريها وأوفوا الكيل ثالث عشريها وزنوا بالقسطاس المستقيم رابع عشريها ولا تقف ماليس لك به علم خامس عشريها ولا تمش فى الارض مرحا فكل هذه تكليفات بعضها أوامر وبعضها نواه فالمنهى عنه هو الذى قال تعالى فيه (كان سيئه عند ربك مكروها) أى يبغضه والعاقل لا يفعل مايكرهه المحسن اليه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة وبالتاء منونة منصوبة وقرأ الباقون بضم الهمزة والهاء مضمومة من غير تنوين والمعنى على هذا ظاهر أى ان سيئ تلك الاقسام يكون مكروها وأما على القراءة الاولى فسيئة خبر كان وأنث حملا على معنى كل ثم قال مكروها حملا على لفظها وقال الزمخشرى ان السيئة فى حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاسم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ولا فرق بين سيئة وسيأ الاترى انك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فلا فرق بين اسنادها الى مذكر ومؤنث وفى نصب مكروها أوجه أحدها أنه خبر ثان لكان الثانى أنه بدل من سيئة وضعف بأن البدل بالمشتق قليل الثالث أنه حال من الضمير المستتر فى عند ربك لوقوعه صفة لسيئة الرابع أنه نعت لسيئة وانما ذكر وصف سيئة لان تأنيثه بتأنيث موصوفه مجازى ورد بأن ذلك انما يجوز حيث أسند الى المؤنث المجازى اما اذا أسند الى ضميره فلا نحو الشمس طالعة فلا يجوز طالع وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى الاحكام المتقدمة فى الاوامر والنواهى (مما أوحى اليك) ياأشرف الخلق (ربك) أى المحسن اليك (من الحكمة) التى هى معرفة الحق لذاته والخير للعمل به وانما سميت هذه الامور حكمة لوجوه الاول ان حاصلها يرجع الى الامر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة فالآتى بمثل هذه الشريعة لا يكون داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الاصلية تشهد بأنه يكون داعيا الى دين الرحمن الثانى ان هذه الاحكام المذكورة فى هذه

الآيات شرائع واجبة الرعاية فى جميع الاديان والملل ولاتقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار الثالث ان الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به كما مرت الاشارة اليه فالامر بالتوحيد عبارة عن القسم الاول وسائر التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب عليها ولا ينحرف عنها فثبت ان الاشياء المذكورة من هذه الآيات عين الحكمة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان هذه الآيات كانت فى ألواح موسى عليه السلام وجعل سبحانه وتعالى فاتحتها قوله تعالى لاتجعل مع الله الها آخر وخاتمتها قوله تعالى (ولاتجعل مع الله الها آخر) تنبيها على ان التوحيد مبدأ الامور ومنتهاه وان من قصد بفعل أو ترك غيره ضاع سعيه وانه رأس الحكمة وملاكها ورتب عليه ماهو عائدة الشرك فى قوله تعالى أولا لاتجعل مع الله أى فى الدنيا وثانيا ماهو نتيجته فى العقبى فقال (فتلقى) أى فيفعل بك فى الآخرة فى الحشر (فى جهنم) من الاسراع فيه وعدم القدرة على التدارك فعل من ألقى من عال حال كونك (ملوما) أى تلوم نفسك (مدحورا) أى مبعدا من رحمة الله * (تنبيه) * ذكره سبحانه وتعالى فى الآية الاولى بقوله تعالى مذموما مخذولا وفى هذه الآية ملوما مدحورا والفرق بين الذم واللوم هو أن يذكر له ان الفعل الذى أقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما ثم يقال له فعلت هذا الفعل القبيح وما الذى حملك عليه فهذا هو اللوم فأول الامر يصير مذموما وآخره يصير ملوما والفرق بين المخذول والمدحور هو ان المخذول عبارة عن الضعيف يقال تخاذلت أعضاؤه أى ضعفت والمدحور هو المطرود والطرد عبارة عن الاستخفاف والاهانة فكونه مخذولا عبارة عن ترك اعانته وتفويضه الى نفسه وكونه مدحورا عبارة عن اهانته فيصير أول الامر مخذولا وآخره مدحورا وقوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين) خطاب للذين قالوا الملائكة بنات الله والهمزة للانكار أى أخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الاولاد وهم البنون ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه (واتخذ من الملائكة اناثا) أى بنات لنفسه وهذا خلاف ما عليه معقولكم وعادتكم فان العبد لايستأثرون بأجود الاشياء واصفاها من الشوائب ويكون أردؤها وأدونها للسادات (انكم لتقولون قولا عظيما) باضافة الاولاد اليه لان اثبات الولد يقتضى كونه تعالى مركبا من الابعاض والاجزاء وذلك يقدح فى كونه قديما واجب الوجود لذاته وأيضا فبتقدير ثبوت الولد فقد جعلوا أشرف القسمين لانفسهم وأخس القسمين لله تعالى وهذا جهل عظيم وأيضا جعلوا الملائكة الذين هم من أشرف خلق الله الذين منهم من يقدر على حمل الارض وقلب اسفلها على أعلاها اناثا فى غاية الرخاوة * ولما كان فى هذا من البيان مالايخفى على انسان ولم يرجعوا أشار الى أن ابهم مثل هذا الاعراض عن أمثال هذا البيان فقال تعالى (ولقد صرفنا) أى بينا بيانا عظيما بأنواع طرق البيان من العبر والحكم والامثال والاحكام والحجج والاعلام فى قوالب الوعد والوعيد والامر والنهى والمحكم والمتشابه الى غير ذلك (فى هذا القرآن) أى فى مواضع منه من الامثال كما قال تعالى ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل

مثل قيل لفظة في زائدة كما في قوله تعالى وأصلح لي في ذريتي ورد بأن في لا تزاد وما ذكرناه أول كما يأتي ان شاء الله تعالى في الاحقاف والتصريف لغة صرف الشيء من جهة الى أخرى ثم صار كناية عن التبيين قاله أبو حيان وقوله تعالى (ليذكروا) متعلق بصرفنا وقرأ حمزة والكسائي بسكون الذال ورفع الكاف من غير تشديد من الذكر الذي هو بمعنى التذكر والباقون بفتح الذال والكاف مع تشديدهما (وما يزيدهم) أي التصريف (الا نفورا) أي تباعدا عن الحق وقلة طمأنينة اليه وعن سفيان كان اذا قرأها قال زادني ذلك لك خضوعا ما زاد أعداءك نفورا *ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أي لهؤلاء المشركين ولا تيأس من رجوع بعضهم (لو كان معه آلهة كما تقولون) من هذه الاقوال التي لو قالها أعظمكم في حق أدناكم وهو يريد بها حقيقتها لصار ضحكة للعباد (اذا لابتغوا) أي طلبوا طلبا عظيما (الى ذي العرش) أي صاحب السرير الاعظم المحيط الذي من ناله كان منفردا بالتدبير (سبيلا) أي طريقا سالكا يتوصلون به اليه ليقهروه وينزلوا ملكه كما ترون فعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض أو ليتخذوا عنده يدا يقربهم اليه وقرأ ابن كثير وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وأدغم أبو عمرو الشين من العرش في السين بخلاف عنه ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه فقال عز من قائل (سبحانه) أي تنزه التنزه الاعظم عن كل شائبة نقص (وتعالى) أي علا أعلى العلو بصفات الكمال (عما يقولون) أي من هذه النقائص التي لا يرضاها لنفسه أحد من عقلاء خلقه (علوا) أي تعاليا (كبيرا) أي متباعدا غاية البعد عما يقولون فانه تعالى في أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجوب والبقاء لذاته *(تنبيه)* جعل العلو مصدر التعالي ومصدره تعاليا كما قدرته فهو المراد ونظيره قوله تعالى والله أنبتكم من الارض نباتا (فان قيل) ما الفائدة في وصف ذلك العلو بالكبير (أجيب) بأن المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والاضداد والانداد منافاة بلغت في القوة والكمال الى حيث لا تعقل الزيادة عليها لان المنافاة بين الواجب لذاته وبين الممكن لذاته وبين القديم والمحدث وبين الغني والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم استأنف تعالى بيان عظمة هذا التنزيه مقرونا بالوصف بالكمال فقال (تسبح) أي توقع التنزيه الاعظم (له) أي الاله الاعظم الذي تقدم وصفه بالجلال والاكرام خاصة (السموات السبع والارض) أي السبع (ومن فيهن) أي من ذوي العقول (وان) أي وما وأغرق في النفي فقال (من شيء) أي ذي عقل أو غيره (الا يسبح بحمده) أي يقول سبحان الله العظيم وبحمده أو يقول سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس وان من شيء حي الا يسبح بحمده وقال قتادة يعني الحيوانات والناميات وقال عكرمة الشجرة تسبح والاسطوانة تسبح وعن المقداد بن عدي التراب يسبح ما لم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح والورقة تسبح ما دامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح والماء يسبح ما دام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح والثوب يسبح ما دام جديدا فاذا وسخ ترك التسبيح وقال السيوطي

في جواب سؤال عن ذلك

قد خصصت آية الاسرى بمتصف * وصف الحياة كرطب الزرع والشجر
فيابس مات لا تسبيح منه كذا * ما زال عن موضع كالقطع للحجر

وقال ابراهيم النخعي وان من شئ جماد وحي الا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقال مجاهد كل الاشياء تسبح لله تعالى حيوانا كانت أو جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده يدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال صلى الله عليه وسلم اطلبوا فضلة من ماء فجاؤا باناء فيه ماء قليل فأدخل يده صلى الله عليه وسلم في الاناء ثم قال حي على الطهور المبارك والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وعن جابر بن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان بمكة حجرا كان يسلم علي ليالي بعثت اني لاعرفه الآن وعن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم كان يخطب الى جذع فلما اتخذ له المنبر تحول اليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه وفي رواية فنزل فاحتضنه وساره بشئ ففي هذه الاحاديث دليل على ان الجماد يتكلم وأنه يسبح وقال بعض أهل المعاني تسبيح السموات والارض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال حيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح قال البغوي والاول أصح وهو المنقول عن السلف وقال ابن الخازن القول الاول أصح لما دلت عليه الاحاديث وأنه منقول عن السلف قال البغوي واعلم ان لله تعالى علما في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي أن يوكل علمه اليه (ولكن لا تفقهون) أي لا تفهمون (تسبيحهم) أي لانه ليس بلغتكم (انه كان حليما غفورا) ولما ذكر سبحانه وتعالى اثبات الالهية اتبعه بذكر تقرير النبوة بقوله تعالى (واذا قرأت القرآن) أي الذي لا يدانيه واعظ ولا يساويه مفهم وهو تبيان لكل شئ (جعلنا) أي بما لنا من العظمة (بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أي يحجب قلوبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم والانتفاع به قال قتادة هو الاكنة فالمستور بمعنى الساتر كقوله تعالى كان وعده مأتيا مفعول بمعنى فاعل وقيل مستورا عن أعين الناس فلا يرونه وفسره بعضهم بالحجاب عن الاعين الظاهرة كما روي عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت تبت يدا أبي لهب جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر رضي الله عنه فلم تره فقالت لابي بكر أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني فقال والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لارضخ به رأسه فقال أبو بكر ما رأتك يا رسول الله قال لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترني (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة (على قلوبهم أكنة) أي أغطية كراهة (أن يفقهوه) أي يفهموه أي يفهموا القرآن حق فهمه (وفي آذانهم وقرا) أي شيأ ثقيلا يمنع سماعهم وعن أسماء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ومعه أبو بكر اذ أقبلت امرأة أبي لهب ومعها فهر تريد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي تقول مذمما أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا فقال أبو بكر يا رسول الله معها

فهو اخشاها عليك فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فجاءت ومارأت رسول صلى الله
عليه وسلم وقالت انى رأيت قريشا قد علمت أنى ابنة سيدها وان صاحبك هجانى فقال أبو بكر
لا ورب الكعبة ورب هذا البيت ما هجاك وروى ابن عباس ان أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا
جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبى صلى الله عليه وسلم ويسمعون حديثه فقال النضر يوما
ماأرى ما يقول محمد غير أنى أرى شفتيه يتحرك ان بشئ وقال أبو سفيان انى لا أرى بعض ما يقوله
الا حقا وقال أبو جهل هو مجنون وقال أبو لهب هو كاهن وقال حويطب بن عبد العزى
هو شاعر فنزلت هذه الآية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد تلاوة القرآن قرأ
قبلها ثلاث آيات وهى فى سورة الاسراء وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وفى
سورة النحل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وفى حم الجاثية أفرأيت من اتخذ الهه هواه الى
آخر الآية فكان الله تعالى يحجبه ببركة هذه الآيات عن عيون المشركين (واذا ذكرت ربك) أى
المحسن اليك واليهم (فى القرآن وحده) أى مع الاعراض عن آلهتهم كان قلت وأنت تتلو القرآن
لا اله الا الله * (تنبيه) * فى نصب وحده وجهان أحدهما أنه منصوب على الحال وان كان
معرفة لفظا لانه فى قوة النكرة اذ هو فى معنى منفردا والثانى أنه منصوب على الظرف (ولوا على
أدبارهم نفورا) أى هربا من استماع التوحيد * (تنبيه) * فى نفورا وجهان أحدهما مصدر من
غير اللفظ مؤكد لان التولى والنفور بمعنى والثانى أنه حال من فاعل ولوا وهو حينئذ جمع نافر
كقاعد وقعود وشاهد وشهود والضمير فى ولوا يعود الى الكفار وقيل يعود الى الشيطان وان لم
يجر لهم ذكر قال المفسرون ان القوم كانوا عند استماع القرآن على أقسام منهم من كان يلهو
عند استماعه روى أنه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه ويساره اخوان من
ولد قصى يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار ومنهم من كان اذا سمع من القرآن
مافيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين لا يفهمون منه شيأ ومنهم من اذا سمع آيات فيها ذكر الله
تعالى وذم المشركين ولوا نفورا وتركوا ذلك المجلس * ولما كانوا ربما ادعوا السمع والفهم
فشككوا بعض من لم يرسخ ايمانه أتبعه تعالى بقوله تعالى (نحن أعلم) أى من كل عالم (بما
يستمعون) أى يبالغون فى الاصغاء والميل لقصد السمع (به) من الآذان والقلوب أو بسببه
ولاجله من الهزء بك وبالقرآن (اذ يستمعون) أى يصغون بجهدهم (اليك) أى الى قراءتك (واذ)
أى حين (هم) ذو (نجوى) أى يتناجون بأن يرفع كل منهم بصره الى صاحبه بعد اعراضهم
عن الاستماع ثم ذكر تعالى ظرف النجوى بقوله تعالى (اذ) وهو بدل من اذ قبله (يقول الظالمون)
وقولهم (ان) أى ما (تتبعون الا رجلا مسحورا) أى مخدوعا مغلوبا على عقله روى أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا أن يتخذ طعاما ويدعو اليه أشراف قريش من المشركين ففعل
ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى التوحيد وقال
قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم فأبوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من
النبى صلى الله عليه وسلم القرآن والدعوى الى الله تعالى يقولون ان تتبعون الا رجلا مسحورا

(فان)

(فان قيل) انهم لم يتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يصح أن يقولوا ان تتبعون الا رجلا مسحورا (أجيب) بأن معناه ان اتبعتموه فقد اتبعتم رجلا مسحورا وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة بكسر التنوين فى الوصل والباقون بالضم ثم قال تعالى (انظر كيف ضربوا) أى هؤلاء الضلال (لك الامثال) التى هى أبعد شئ من صفتك من قولهم كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون (فضلوا) عن الحق فى جميع ذلك (فلا) أى فتسبب عن ذلك أنهم لا (يستطيعون سبيلا) أى وصولا الى طريق الحق * ولما جرت عادة القرآن باثبات التوحيد والنبوة والمعاد وقدم الدلالة على الاولين وختم باثبات جهلهم فى النبوة مع ظهورها أتبع ذلك أمرا جليا فى ضلالهم عن السبيل فى أمر المعاد وقرره غاية التقرير وحرره أتم تحرير قال تعالى معجبا منهم (وقالوا) أى المشركون المنكرون للتوحيد والنبوة والبعث مع اعترافهم بأنا ابتدأنا خلقهم ومشاهدتهم فى كل وقت انا نحيي الارض بعد موتها وقولهم (أئذا) استفهام انكارى كانهم على ثقة من عدم ما ينكرونه والعامل فى اذا فعل من لفظ مبعوثون لا هو فان ما بعد ان لا يعمل فيما قبلها فالمعنى أنبعث اذا (كنا) أى بجملة أجسامنا كونا لازما (عظاما ورفاتا) أى حطاما مكسرا مفتتا أو غبارا وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد ويؤيده أنه قد يكرر فى القرآن ترابا وعظاما ويقال للتبن الرفات لانه دقاق الزرع (أئنا لمبعوثون) حال كوننا مخلوقين (خلقا جديدا) * (تنبيه) * تقرير شبهة هؤلاء الضلال هى أن الانسان اذا جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت فى جوانب العالم واختلطت تلك الاجزاء بسائر أجزاء العالم فالاجزاء المائية مختلطة بمياه العالم والاجزاء الترابية مختلطة بالتراب والاجزاء الهوائية مختلطة بالهواء فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى وكيف يعقل عود الحياة اليها باعيانها مرة أخرى هذا تقرير شبهتهم (أجيب) عنها بأنها لا تتم الا بالقدح فى كمال علم الله تعالى وفى كمال قدرته فانه تعالى قادر على كل الممكنات فهو قادر على اعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل الى تلك الاجزاء بأعيانها فمن سلم كمال علم الله تعالى وكمال قدرته زالت عنه هذه الشبهة بالكلية * ولما كان كانه قيل فماذا يقال لهم فى الجواب فقال (قل) لهم يا أشرف الخلق لا تكونوا رفاتا بل (كونوا) أصلب من التراب (حجارة) أى هى فى غاية اليبس (أو حديدا) أى زائدا على يبس الحجارة لشدة اتصال الاجزاء * (تنبيه) * ليس المراد به أمر الزام بل المراد انكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الاعادة وذلك كقول القائل أتطمع فى وأنا فلان فيقول كن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقى (أو خلقا) غير ذلك (مما يكبر) أى يعظم عظمة كبيرة (فى صدوركم) أى مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعد شئ منها فان الله تعالى قادر على اعادة الحياة اليها وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأكثر المفسرين انه الموت فانه ليس فى نفس ابن آدم شئ أكبر من الموت أى لو كنتم الموت بعينه لاميتنكم ولابعثنكم وقيل السموات والارض والجبال لانها من أعظم المخلوقات (فسيقولون) تماديا فى الاستهزاء (من يعيدنا) اذا كنا كذلك (قل الذى فطركم) أى ابتدأ خلقكم (أول مرة) ولم تكونوا شيأ يعيدكم بالقدرة التى ابتدأكم بها فكما لم نعجز تلك

عن البداءة فهي لا تعجز عن الاعادة (فسينغضون) أي يحركون (اليك رؤسهم) تعجبا واستهزاء كانهم في شدة جهلهم على غاية البصيرة من العلم بما يقولون والنغض والانغاض تحريك بارتفاع وانخفاض (ويقولون) استهزاء (متى هو) أي البعث والقيامة قال الرازي واعلم ان هذا السؤال فاسد لانهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي تقدمت ثم ان الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنا في نفسه فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالبحث فانه لما ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بامكانه فأما أنه متى يوجد فذلك لا يمكن اثباته من طريق العقل بل انما يمكن اثباته بالدليل السمعي فان أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف والا فلا سبيل الى معرفته لانه تعالى بين في القرآن أنه لا يطلع أحدا من الخلق على وقته المعين فقال تعالى ان الله عنده علم الساعة وقال انما علمها عند ربي وقال تعالى ان الساعة آتية أكاد أخفيها فلا جرم قال تعالى (قل عسى أن يكون قريبا) قال المفسرون عسى من الله واجب ومعناه أنه قريب اذ كل آت قريب وأمال متى وعسى حمزة والكسائي امالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى (يوم يدعوكم) بدل من قريبا والمعنى عسى أن يكون البعث يوم يدعوكم أي بالنداء الذي يسمعكم وهو النفخة الاخيرة كما قال تعالى يوم ينادي المنادي من مكان قريب روي أن اسرافيل ينادي أيها الاجسام البالية والعظام النخرة والاجزاء المتفرقة عودي كما كنتي (فتستجيبون) أي تجيبون والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا اليه وهي الاجابة الا أن الاستجابة تقتضي طلب الموافقة فهي آكد من الاجابة واختلف في معنى قوله تعالى (بحمده) فقال ابن عباس بأمره وقال سعيد بن جبير يخرجون من قبورهم وينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك فيحمدونه حين لا ينفعهم الحمد وقال قتادة بمعرفته وطاعته وقال أهل المعاني تستجيبون بحمده أي تستجيبون حامدين كما تقول جاء بغضبه أي جاء غضبان وركب الامير بسيفه أي وسيفه معه وقال الزمخشري بحمده حال منهم أي حامدين وهي مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيأبى ويمتنع ستركبه وأنت حامد شاكر يعني أنك تحمل عليه وتقسر عليه قسرا حتى انك تلين لين المستميح الراغب فيه الحامد عليه (وتظنون ان) أي ما (لبثتم الا قليلا) أي مع استجابتكم وطول لبثكم وشدة ما ترون من الهول فعندها تستقصرون مدة لبثكم في الدنيا وتحسبونها يوما أو بعض يوم وعن قتادة تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة وقال الحسن معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل فهذا يرجع الى استقلال مدة اللبث في الدنيا وقيل المراد استقلال مدة لبثهم في برزخ القيامة لانه لما كان عاقبة أمرهم الدخول في النار استقصروا لبثهم في برزخ القيامة وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند التاء المثناة والباقون بالادغام * ولما ذكر تعالى الحجة اليقينية في صحة المعاد وهو قوله تعالى قل الذي فطركم أول مرة قال تعالى (وقل) يا محمد (لعبادي) أي المؤمنين لان لفظ العباد في أكثر

آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى فبشر عبادى الذين يستمعون القول وقال تعالى فادخلى فى عبادى وقال تعالى عينا يشرب بها عباد الله (يقولوا) للكفار الذين كانوا يؤذونهم الكلمة (التى هى أحسن) ولا يكافؤهم على سفههم بل يقولون يهديكم الله وكان هذا قبل الاذن بالقتال وقيل نزلت فى عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فأمره الله تعالى بالعفو وقيل أمر المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا الخلة التى هى أحسن وقيل الاحسن قول لا اله الا الله ثم علل بقوله تعالى (ان الشيطان) أى البعيد عن الرحمة المحترق باللعنة (ينزغ بينهم) أى يفسد ويغرى بعضهم على بعض ويوسوس لهم لتقع بينهم المشارة والمشاقة وأصل النزغ الطعن وهم غير معصومين فيوشك أن يأتوا بما لا يناسب الحال ثم علل تعالى هذه العلة بقوله تعالى (ان الشيطان كان) أى فى قديم الزمان وأصل الطبع كونا هو مجبول عليه (للانسان عدوا) أى بليغ العداوة (مبينا) أى بين العداوة ثم فسر تعالى التى هى أحسن مما علمهم وبهم من النصفة بقوله تعالى (ربكم أعلم بكم) فعلم أن قوله تعالى ان الشيطان الى آخره جملة اعتراضية بين المفسر والمفسر وسكن أبو عمرو الميم واخفاها عند الباء بخلاف عنه وكذا أعلم بمن ثم استأنف تعالى (ان يشأ) أى رحمتكم (يرحمكم) أى بهدايتكم (أو ان يشأ) تعذيبكم (يعذبكم) أى باضلالكم فلا تحتقروا أيها المؤمنون المشركين فتقطعوا بأنهم من أهل النار فتعيروهم بذلك فانه يجر الى غيظ القلوب فلا فائدة لان الخاتمة مجهولة ولا تتجاوزوا فيهم ما أمركم الله به من قول وفعل * ثم رقى الله الخطاب الى أعلى الخلق ورأس أهل الشرع ليكون من دونه أولى بالمعنى منه فقال تعالى (وما أرسلناك) أى مع مالنا من العظمة الغنية عن كل شئ (عليهم وكيلا) أى حفيظا وكفيلا تقسرهم على ما يرضى الله وانما أرسلناك على حسب ما نأمرك به بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بمداراتهم وقدمر أن هذا قبل الاذن بالقتال * ولما أمرهم بأن ينسبوا الاعلمية بهم اليه تعالى أخبر بما هو أعم من ذلك قاصرا الخطاب على أعلم خلقه بقوله تعالى (وربك) أى المحسن اليك بأن جعلك أكمل الخلق (أعلم بمن فى السموات والارض) فعلمه غير مقصور عليكم بل متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الارضين والسموات فيعلم تعالى حال كل أحد ويعلم ما يليق به من المفاسد والمصالح ويعلم اختلاف صورهم وأديانهم وأخلاقهم وأحوالهم وجميع ما هم عليه سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فيفضل بعض الناس على بعض على حسب احاطة علمه وشمول قدرته وبعض النبيين على بعض كما قال تعالى (ولقد فضلنا) بما لنا من العظمة (بعض النبيين) سواء كانوا رسلا أم لا (على بعض) بعد أن جعلنا الكل فضلا لتقوى كل منهم واحسانه فخصصنا كلا منهم بفضيلة كموسى بالكلام وابراهيم بالخلة ومحمد صلى الله عليه وسلم بالاسراء فلا ينكر أحد من العرب أو بنى اسرائيل أو غيرهم تفضيلنا لهذا النبى الكريم الذى صدرنا السورة بتفضيله على جميع الخلائق فاذا نفعل ما نشاء بما لنا من القدرة التامة والعلم الشامل وقرأ نافع بالهمزة والباقون بالياء وورش على أصله بمد على الهمزة ويوسط ويقصر (وآتينا) موسى التوراة

و (داود زبورا) وعيسى الانجيل فلم يبعد أيضا أن نؤتى محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن ولم يبعد أن نفضله على جميع الخلق (فان قيل) ما السبب فى تخصيص داود عليه السلام بالذكر هنا (أجيب) بأوجه الاول انه تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال وآتينا داود زبورا يعنى ان داود أوتى ملكا عظيما ثم انه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيها على أن الفضل الذى ذكره قبل ذلك المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال الثانى انه تعالى كتب فى الزبور أن محمدا خاتم الانبياء وأن أمة محمد خير الامم قال تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته (فان قيل) هلا عرفه كقوله ولقد كتبنا فى الزبور (أجيب) بأن التنكير هنا يدل على تعظيم حاله لان الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب وكان معنى التنكير أنه كامل فى كونه كتابا ويجوز أن يكون زبورا علما فاذا دخلت عليه أل كقوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور كانت للمح الاصل كعباس والعباس وفضل والفضل الثالث ان كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون الى اليهود فى استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون انه لا نبى بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله عليهم كلامهم بانزال الزبور على داود وروى البخارى فى التفسير عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه لتسرج فكان يقرأ قبل أن يفرغ أى القرآن قال البقاعى ومن أعظم المناسبات لتخصيص داود عليه السلام وزبوره بالذكر هنا ذكر البعث الذى هذا مقامه فيه صريحا وكذا ذكر النار مع خلو التوراة عن ذلك اما البعث فلا ذكر له فيها أصلا وأما النار فلم يذكر شئ مما يدل عليها الا الجحيم فى موضع واحد وأما الزبور فذكر فيه النار والهاوية والجحيم فى غير موضع انتهى وقرأ حمزة بضم الزاى والباقون بالفتح واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم) أنهم آلهة (من دونه) أى من سواه كالملائكة وعزير والمسيح وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى بضم اللام من قل وكسرها عاصم وحمزة كل هذا فى حال الوصل وأما الابتداء فالجميع ابتدؤا بهمزة مضمومة (فلا يملكون كشف الضر) أى البؤس الذى من شأنه أن يمرض الجسم كله (عنكم) حتى لا يدعوا شيأ منه (ولا تحويلا) له الى غيركم فقال ابن عباس انها نزلت فى الذين عبدوا المسيح وعزيرا والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقيل ان قوما عبدوا نفرا من الجن فأسلم النفر من الجن وبقى أولئك القوم متمسكين بعبادتهم فنزلت فيهم هذه الآية وقيل ان المشركين أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فنزل قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه وليس المراد الاصنام لانه تعالى قال فى وصفهم (أولئك الذين يدعون) أى يدعونهم الكفار ويتألهونهم (يبتغون) أى يطلبون طلبا عظيما (الى ربهم) أى المحسن اليهم (الوسيلة) أى المنزلة والدرجة والقربة لاعمالهم الصالحة وابتغاء الوسيلة الى الله تعالى لا يليق بالاصنام البتة وقرأ أبو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم

الهاء

الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم * (تنبيه) * أولئك مبتدأ وخبره يبتغون ويكون الموصول نعتا أو بيانا أو بدلا والمراد باسم الاشارة الانبياء أو الملائكة الذين عبدوا من دون الله والمراد بالواو العباد لهم ويكون العائد على الذين محذوفا أو المعنى أولئك الانبياء الذين يدعونهم المشركون لكشف ضرّهم يبتغون الى ربهم الوسيلة (أيهم أقرب) أى يتسابقون بالاعمال مسابقة من يطلب كل منهم أن يكون اليه أقرب ولديه أفضل (ويرجون رحمته) رغبة فيما عنده (ويخافون عذابه) فهم كغيرهم موصوفون بالعجز والحاجة فكيف يدعونهم آلهة وقيل معناه ان الكفار ينظرون أيهم أقرب الى الله تعالى فيتوسلون به ثم عال خوفهم بأمر عام بقوله تعالى (انّ عذاب ربك) أى المحسن اليك برفع انتقام الاستئصال منه عن أمتك (كان) أى كونا لازما (محذورا) جديرا بأن يحذر لكل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلا عن غيرهم لما شوهد من اهلاكه للقرون الماضية * ولما قال تعالى انّ عذاب ربك كان محذورا بين بقوله تعالى (وان) أى وما (من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا) أن كل قرية أى أهلها لابدّ وان يرجع حالهم الى أحد أمرين اما الاهلاك بالموت والاستئصال واما العذاب بالقتل وأنواع البلاء وقال مقاتل أما الصالحة فبالموت وأما الطالحة فبالعذاب وقال عبد الله بن مسعود اذا ظهر الزنا والربا فى قرية أذن الله تعالى فى هلاكها (كان ذلك) أى الامر العظيم (فى الكتاب) أى اللوح المحفوظ (مسطورا) أى مكتوبا قال عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول ما خلق الله القلم فقال اكتب فقال وما أكتب قال القدر ما كان وما هو كائن الى أبد الابد أخرجه الترمذى * ولما كان كفار قريش قد تكرر اقتراحهم للآيات وكان صلى الله عليه وسلم لشدّة حرصه على ايمان كل أحد يحب أن الله تعالى يجيبهم الى مقترحهم طمعا فى ايمانهم فأجاب الله تعالى بقوله (وما منعنا) أى على مالنا من العظمة التى لا يعجزها شئ ولا يمنعها مانع (أن نرسل بالآيات) أى التى اقترحوها كما حكى الله تعالى عنهم ذلك فى قولهم فأتنا بآية كما أرسل الاوّلون وقال آخرون لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الآيات وقال سعيد بن جبير انهم قالوا انك تزعم انه كان قبلك أنبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من أحيا الموتى فأتنا بشئ من هذه المعجزات فكان كأنه لا آيات عندهم سوى ذلك (الا) علمنا فى عالم الشهادة بما وقع من (أن كذب بها) أى المقترحات (الاوّلون) وعلمنا فى عالم الغيب انّ هؤلاء مثل الاوّلين ان الشقىّ منهم لا يؤمن بالمقترحات كما لم يؤمن بغيرها وانه يقول فيها ما قال فى غيرها من انها سحر ونحو ذلك والسعيد لا يحتاج فى ايمانه اليها فكم أجبنا أمة الى مقترحها فما زاد ذلك أهل الضلالة منهم الا كفرا فأخذناهم لانّ سنتنا جرت انا لا نمهل بعد الاجابة الى المقترحات من كذب بها قال ابن عباس سأل أهل مكة النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وان ينحى الجبال عنهم ليزرعوا تلك الاراضى فطلب صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى فأوحى الله تعالى اليه ان شئت فعلت ذلك لكن بشرط ان لم يؤمنوا أهلكتهم فقال صلى الله

عليه وسلم لا أريد ذلك فتفضل الله تعالى برحمته هذه الامة وتشريفها على الامم السالفة بعدم
استئصالها لما يخرج من أصلاب كفرتها من خلص عباده فلهذا السبب ما أجابهم الله تعالى
الى مطلوبهم فقال جل ذكره بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ثم ذكر تعالى من تلك
الآيات التي اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما ارسلت اليهم فأهلكوا ما ذكره تعالى بقوله تعالى
(وآتينا ثمود الناقة) حالة كونها (مبصرة) أي مضيئة بينة جديرة بأن يستبصر بها من كل
شاهدها فيستدل بها على صدق قول ذلك النبي (فظلموا بها) أي ظلموا أنفسهم بتكذيبها وقال
ابن قتيبة جحدوا بأنها من الله تعالى فأهلكناهم فكيف يتمناها هؤلاء على سبيل الاقتراح
والتحكم على الله تعالى وخص تعالى هذه الآية بالذكر لان آثار اهلاكهم في بلاد العرب قريبة
من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم ثم قال تعالى (وما نرسل بالآيات) أي المقترحات وغيرها
(الا تخويفا) للمرسل اليهم بها فان خافوا نجوا والا اهلكوا بعذاب الاستئصال من كذب
بالآيات المقترحات وبعذاب الآخرة من كذب بغيرها كالمعجزات وآيات القرآن فأمر من بعث
اليهم مؤخر الى يوم القيامة (فان قيل) المقصود الاعظم من اظهار الآيات أن يستدل بها
على صدق المدعى فكيف حصل المقصود من اظهارها في التخويف (أجيب) بأنه لما كان
هو الحامل والغالب على التصديق فكأنه هو المقصود ولما طلب القوم من النبي صلى الله عليه
وسلم تلك الآيات المقترحات وأجاب الله تعالى بأن اظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببا لجراءة
أولئك الكفار بالطعن فيه وأن يقولوا له لو كنت رسولا حقا من عند الله لاتيت بهذه المعجزات
التي اقترحناها كما أتى بها موسى وغيره من الانبياء فعند هذا قوى الله تعالى قلبه وبين له أنه ينصره
ويؤيده فقال تعالى (و) اذكر يا أشرف الخلق (اذ قلنا لك ان ربك) أي المتفضل بالاحسان اليك
بالرفق لامتك (أحاط بالناس) علما وقدرة فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من
مشيئته فلا يقدرون على أمر من الامور الا بقضائه وقدره وهو حافظك ومانعك منهم فلا تهتم
باقتراحهم وامض فيما أمرك به من تبليغ الرسالة فهو ينصرك ويقويك على ذلك كما وعدك بقوله
تعالى والله يعصمك من الناس وقيل ان المراد بالناس أهل مكة بمعنى أنه يغلبهم ويقهرهم روى
أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش مع أبي بكر رضي
الله عنه كان يدعو ويقول اللهم اني أسألك عهدك ووعدك ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس
ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر وكان صلى الله عليه وسلم يقول حين ورد بدرا والله كأني
أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض ويقول هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان
فتسامعت قريش بما أوحي الى النبي صلى الله عليه وسلم ثم عطف تعالى على وما نرسل بالآيات
قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك) أي التي شاهدتها ليلة الاسراء (الا فتنة) أي امتحانا
واختبارا (للناس) لانه صلى الله عليه وسلم لما ذكر لهم قصة الاسراء كذبوه وكفر به كثير ممن
كان قد آمن به وازداد المخلصون ايمانا فلهذا السبب كانت امتحانا وروى البخاري في التفسير
عن ابن عباس انه قال هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به وتقدم

انه

أنه قول الاكثرين منهم سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج
وما قاله بعضهم من ان الرؤيا تدل على أنها رؤيا منام ضعيف اذلا فرق بين الرؤية والرؤيا في اللغة
يقال رأيته بعيني رؤية ورؤيا * (فائدة) * قال بعض العلماء كانت اسرا آته صلى الله عليه وسلم
أربعا وثلاثين مرة واحدة بجسده والباقي بروحه رؤيا رآها قال ومما يدل على أن الاسراء ليلة
فرض الصلاة كانت بالجسم ما ورد في بعض طرق الحديث انه صلى الله عليه وسلم استوحش
لما زج به في النور ولم ير معه أحدا اذ الارواح لا توصف بالوحشة ولا بالاستيحاش قال ومما
يدلك على أن الاسراء كان بجسمه ما وقع له من العطش فان الارواح المجردة لا تعطش ولما كان
صلى الله عليه وسلم قد وصل الجحيم وأخبر صلى الله عليه وسلم ان شجرة الزقوم تنبت في أصل
الجحيم وكان ذلك في غاية الغرابة ضمها الى الاسراء في ذلك بقوله تعالى (والشجرة الملعونة في
القرآن) لان فيها امتحانا أيضا بل قال بعض المفسرين هي على التقديم والتأخير والتقدير وما
جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن الا فتنة للناس واختلف في هذه الشجرة
فالاكثرون قالوا انها شجرة الزقوم المذكورة في قوله تعالى ان شجرة الزقوم طعام الاثيم
فكانت الفتنة في ذكر هذه الشجرة من وجهين الاول أن أبا جهل قال زعم صاحبكم ان نار
جهنم تحرق الحجارة حيث قال وقودها الناس والحجارة ثم يقول في النار شجرة والنار تأكل
الشجر فكيف يولد فيها الشجر والثاني قال ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم الا التمر والزبد فتزقموا منه
فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر انا جعلناها فتنة للظالمين الآيات وما قدروا
الله حق قدره من قال ذلك فان الله تعالى قادر على أن يجعل الشجرة من جنس لا تأكله
النار فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك يتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت في النار
فيذهب الوسخ وبقيت سالمة لا تعمل فيها النار وترى النعامة تبلع الجمر وتبلع الحديد المحمر باحماء
النار فلا يضرها ثم أقرب من ذلك انه تعالى جعل في الشجر نارا فلا تحرقه قال تعالى الذي جعل لكم
من الشجر الاخضر نارا (فان قيل) ليس في القرآن لعن هذه الشجرة (أجيب) عن ذلك بوجوه
الاول المراد لعن الكفار الذين يأكلونها لان الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة وانما
وصفت بلعن أصحابها على المجاز الثاني ان العرب تقول لكل طعام ضار انه ملعون الثالث ان
اللعن في اللغة الابعاد ولما كانت هذه الشجرة مبعدة عن صفات الخير سميت ملعونة وقيل ان
الشجرة الملعونة في القرآن هي اليهود لقوله تعالى لعن الذين كفروا الآية وقيل هي الشيطان
وقيل أبو جهل وعن ابن عباس هي الكشوث التي تلتوي بالشجر تجعل في الشراب * ولما ذكر
سبحانه وتعالى أنه يرسل بالآيات تخويفا قال هنا أيضا (ونخوفهم فما يزيدهم) أي الكافرين
والتخويف بالقرآن (الا طغيانا كبيرا) أي تجاوزا للحد هو في غاية العظم فبتقدير أن يظهر الله
تعالى لهم المعجزات التي اقترحوها لم يزدادوا بها الا تماديا في الجهل والعناد فاقتضت الحكمة أن
لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات والمعجزات فانهم قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم
بدر وخوفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم فكيف يخاف قوم هذه حالهم بارسال

ما يقترحون من الآيات * ولما نازع القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لامرين الكبر والحسد أما الكبر فلان تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد وأما الحسد فلانهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة فبين تعالى ان هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا ابليس على الخروج عن الايمان والدخول في الكفر بقوله تعالى (واذ) أي واذكر اذ (قلنا) بما لنا من العظمة التي لا ينقض مرادها (للملائكة) حين خلقنا أباك آدم وفضلناه (اسجدوا لآدم) أي امتثالا لامري (فسجدوا الا ابليس) أي أبى أن يسجد لكونه ممن حقت عليه الكلمة ولم ينفعه ما يعلمه من قدرة الله وعظمته وذلك معنى قوله تعالى (قال) أي منكرا متكبرا (أأسجد) أي خضوعا (لمن خلقت) حال كون أصله (طينا) فكفر بنسبته لنا الى الجور متخيلا انه أفضل من آدم عليه السلام من حيث ان الفروع ترجع الى الاصول وان النار التي هي أصله أكرم من الطين الذي هو أصل آدم وذهب عنه ان الطين أنفع من النار وعلى تقدير التنزل فالجواهر كلها من جنس واحد والله تعالى هو الذي أوجدها من العدم يفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الاعراض وقد ذكر الله تعالى هذه القصة في سبع سور وهي البقرة والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص والكلام المستقصى فيها قد تقدم في البقرة ولعل هذه القصة انما كررت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فانه كان في محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه فكأنه تعالى يقول ألا ترى ان أول الانبياء هو آدم عليه السلام ثم انه كان في محنة شديدة من ابليس وان الكبر والحسد كل منهما بلية عظيمة ومحنة عظيمة للخلق وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفا ولم يدخل ورش وابن كثير بينهما ألفا ولورش أيضا ابدال الثانية ألفا واذا وقف حمزة سهل الثانية كقراءة ابن كثير وقرأ هشام بالتحقيق في الثانية والتسهيل وادخال ألف بينهما وقرأ الباقون بتحقيقهما بلا ادخال * ولما أخبر تعالى بتكبره كان كأنه قيل ان هذه الوقاحة عظيمة واجتراء على الجناب الاعلى فهل كان منه غير ذلك قيل (قال أرأيتك) أي أخبرني وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء ولورش وجه ثان وهو أن يبدلها ألفا وأسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق (هذا الذي كرمت علي) لم كرمته علي مع ضعفه وقوتي فكأنه قيل لقد أتى بالغاية في اساءة الادب فما كان بعد هذا فقيل قال مقسما لاجل استبعاد أن يجترئ أحد هذه الجراءة على الملك الاعلى (لئن أخرتن) أي أيها الملك الاعلى تأخيرا ممتدا (الى يوم القيامة) حيا متمكنا وجواب القسم الموطأ له باللام (لأحتنكن) أي بالاغواء (ذريته) أي لاستولين عليهم استيلاء من جعل في حنك الدابة الأسفل حبلا يقودها به فلا تأبى عليه وقرأ نافع وأبو عمرو بزيادة ياء بعد النون في أخرتني عند الوصل وحذفها في الوقف وأثبتها ابن كثير وصلا ووقفا وحذفها الباقون وقفا ووصلا اتباعا للرسم * ولما علم أنه لا يقدر على الجميع قال (الا قليلا) وهم أولياؤك الذين حفظتهم مني كما قال تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان (فان قيل) كيف ظن ابليس هذا الظن الصادق بذرية آدم (أجيب) بأوجه الاول انه سمع الملائكة يقولون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء

فعرف هذه الاحوال الثانى انه وسوس الى آدم ولم يجد له عزما فقال الظاهر ان أولاده يكونون مثله فى ضعف العزم الثالث انه عرف انه مركب من قوة بهيمية شهوية وقوة وهمية شيطانية وقوة عقلية ملكية وقوة سبعية غضبية وعرف ان بعض تلك القوى تكون هى المستولية فى بعض أول الخلقة ثم ان القوة العقلية انما تكمل فى آخر الامر ومن كان كذلك كان ماذكره ابليس لازما له ثم كأنه قيل لقد أطال عدو الله الاجتراء فما قال له ربه بعد ذلك فقيل (قال) ممدا له (اذهب) أى امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ماسولت له نفسه وتقدم فى الحجر أنه انما يؤخر الى يوم الوقت المعلوم وهو يوم ينفخ فى الصور لا أنه يؤخر الى يوم القيامة كما طلب وقرأ أبو عمرو وخلاد والكسائى بادغام الباء الموحدة فى الفاء وأظهرها الباقون * ولما حكم تعالى بشقاوته وشقاوة من أراد طاعته له تسبب عنه قوله تعالى (فمن تبعك منهم) أى أولاد آدم عليه السلام (فان جهنم) أى الطبقة النارية التى تجهم داخلها (جزاؤكم) أى جزاؤك وجزاء أتباعك تجزون ذلك (جزاء موفورا) أى مكملا وافيا بما تستحقون على أعمالكم الخبيثة * ولما طلب ابليس اللعين من الله تعالى الامهال الى يوم القيامة لاجل أن يحتنك ذرية آدم ذكر الله تعالى له أشياء الاول اذهب أى امض كأمر فانى أمهلتك هذه المدة وليس من الذهاب الذى هو ضد المجىء الثانى قوله تعالى (واستفزز) أى استخف (من استطعت منهم) أن تستفزه وهم الذين سلطناك عليهم (بصوتك) قال ابن عباس معناه بدعائك الى معصية الله وكل داع الى معصية الله تعالى فهو من جند ابليس وقيل أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب الثالث قوله تعالى (وأجلب) أى صح (عليهم) من الجلبة وهى الصياح (بخيلك ورجلك) واختلفوا فى الخيل والرجل على أقوال الاول روى أبو الضحى عن ابن عباس انه قال كل راكب أو راجل فى معصية الله تعالى وعلى هذا فخيله ورجله كل من شاركه فى الدعاء الى المعصية الثانى يحتمل أن يكون لابليس جيش من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل الثالث ان المراد منه ضرب المثل كما يقال للرجل المجد فى الامر جد بالخيل والرجل قال الرازى وهذا أقرب وقال الزمخشرى هو كلام ورد مورد التمثيل مثل فى تسلطه على من يغويه بمغوار وقع على قوم فصوت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ويقلقلهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم والخيل تقع على الفرسان قال صلى الله عليه وسلم ياخيل الله اركبى وقد تقع على الافراس خاصة وقرأ حفص عن عاصم بكسر الجيم وسكنها الباقون جمع راجل كصاحب وصحب وراكب وركب ورجل بالكسر والضم لغتان مثل حدث وحدث وهو مفرد أريد به الجمع الرابع قوله تعالى (وشاركهم فى الاموال والاولاد) أما المشاركة فى الاموال فقال مجاهد هو كل ما أصيب من حرام أو أنفق فى حرام وقال قتادة هو جعلهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وقال الضحاك هو مايذبحونه لآلهتهم وقال عكرمة هو تبتيكهم آذان الانعام وقيل هو جعلهم من أموالهم شيأ لغير الله كقولهم هذا لله وهذا لشركائنا ولا منافاة بين جميع هذه الاقوال وأما المشاركة فى الاولاد فقال عطاء عن ابن عباس هو تسمية الاولاد بعبد شمس وعبد العزى

وعبد الحرث وعبد الدار ونحوها وقال الحسن هو أنهم هوّدوا أولادهم ونصروهم ومجسوهم
وروى عن جعفر بن محمد أن الشيطان يقعد ذكره على ذكر الرجل فاذا لم يقل بسم الله أصاب معه
امرأته وأنزل فى فرجها كما ينزل الرجل ويقال فى جميع هذه الاقوال أيضا ما تقدم وروى
أن رجلا قال لابن عباس ان امرأتى استيقظت وفى فرجها شعلة نار قال ذلك من وطء الجن
وفى الآثار ان ابليس لما خرج الى الارض قال يارب أخرجتنى من الجنة لاجل آدم فسلطنى
عليه وعلى ذريته قال أنت مسلط قال لا أستطيعه الا بك فزدنى قال استفزز من استطعت منهم
بصوتك قال آدم يارب سلطت ابليس علىّ وعلى ذريتى وانى لا أستطيعه الا بك قال لا يولد لك
ولد الا وكلت به من يحفظونه قال زدنى قال الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها قال زدنى قال
التوبة مفروضة مادام الروح فى الجسد فقال زدنى فقال ياعبادى الذين أسرفوا الآية وفى
الخبران ابليس قال يارب بعثت أنبياء وأنزلت كتبا فما قرآنى قال الشعر قال فما كتابى قال الوشم
قال ومن رسولى قال الكهنة قال فما طعامى قال مالم يذكر عليه اسمى قال فما شرابى قال كل
مسكر قال وأين مسكنى قال الحمامات قال وأين مجلسى قال الاسواق قال وما حبائلى
قال النساء قال وما أذانى قال المزمار الخامس قوله تعالى (وعدهم) أى من المواعيد الباطلة
ما يستخفهم ويغرهم من ذلك وعدهم بأن لا جنة ولا نار ومن ذلك شفاعة الآلهة والكرامة على
الله تعالى بالانساب الشريفة وتسويف التوبة وايثار العاجل على الآجل ونحو ذلك وقوله
تعالى (وما يعدهم الشيطان) من باب الالتفات واقامة الظاهر مقام الضمير ولو جرى على سنن
الكلام الاول لقال وما تعدهم بالتاء من فوق وقوله تعالى (الا غرورا) فيه أوجه أحدها
أنه نعت مصدر محذوف وهو نفسه مصدر والاصل الا وعدا غرورا الثانى أنه مفعول من أجله
أى ما يعدهم من الامانى الكاذبة الا لاجل الغرور الثالث أنه مفعول به على الاتساع أى
ما يعدهم الا الغرور نفسه والغرور تزيين الباطل بما يظن أنه حق (فان قيل) كيف ذكر الله
تعالى هذه الاشياء لابليس وهو يقول ان الله لا يأمر بالفحشاء (أجيب) بان هذا على طريق
التهديد كقوله تعالى اعملوا ما شئتم وكقول القائل اعمل ما شئت فسوف ترى وكما يقال اجهد
جهدك فسوف ترى ما ينزل بك * ولما قال الله تعالى له افعل ما تقدر عليه قال تعالى (ان
عبادى) أى الذين أهلتهم للاضافة الىّ فقاموا بحق عبوديتى بالتقوى والاحسان (ليس لك عليهم
سلطان) أى فلا تقدر أن تغويهم وتحملهم على ذنب لا يغفر فانى وفقتهم للتوكل علىّ فكفيتهم
أمرك (وكفى بربك) أى الموجد لك (وكيلا) أى حافظا لهم منك * ولما ذكر تعالى انه الوكيل
الذى لا كافى غيره أتبعه بعض أفعاله الدالة على ذلك بقوله تعالى (ربكم) أى المتصرف فيكم هو
(الذى يزجى) أى يجرى (لكم الفلك) ومنها التى حملكم فيها مع أبيكم نوح عليه الصلاة والسلام
(فى البحر لتبتغوا) أى لتطلبوا (من فضله) الربح وأنواع الامتعة التى لا تكون عندكم ثم انه
تعالى علل ذلك بقوله عز وجل (انه) أى فعل سبحانه وتعالى ذلك لانه (كان) أى أزلا وأبدا (بكم
رحيما) حيث هيأ لكم ما تحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من أسبابه * (تنبيه) * الخطاب

فى قوله ربكم وفى قوله تعالى انه كان بكم عام فى حق الكل والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها وأما قوله تعالى (واذا مسكم الضر) أى الشدة (فى البحر) خطاب للكفار بدليل قوله تعالى (ضل) أى غاب عن ذكركم وخواطركم (من تدعون) أى تعبدون من الآلهة (الا اياه) وحده فأخلصتم له الدعاء علما منكم أنه لا ينجيكم سواه (فلما نجاكم) من الغرق وأوصلكم بالتدريج (الى البر أعرضتم) عن الاخلاص له ورجعتم الى الاشراك (وكان الانسان) أى هذا النوع (كفورا) أى جحودا للنعم بسبب أنه عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته وعند الرخاء والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره وقوله تعالى (أفأمنتم) الهمزة فيه للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم من البحر فأمنتم بعد خروجكم منه (أن نخسف بكم جانب البر) فنغيبكم فى أى جانب كان منه لان قدرتنا على التغييبين فى الماء والتراب على السواء فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله تعالى فى جميع الجوانب (أو) أمنتم ان (نرسل عليكم) من جهة الفوق شيأ من أمرنا (حاصبا) أى نمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطرناها على قوم لوط قال الله تعالى انا أرسلنا عليهم حاصبا وقيل الحاصب الريح (ثم لا تجدوا لكم) أيها الناس (وكيلا) ينجيكم من ذلك ولا من غيره كما لم تجدوا فى البحر وكيلا غيره (أم أمنتم) أى جاوزت بكم الغباوة حدها فلم تجوزوا ذلك (أن نعيدكم فيه) أى البحر الذى يضطركم الى ذلك فنقسركم عليه وان كرهتم (تارة أخرى) بأسباب تضطركم الى أن ترجعوا فتركبوه (فنرسل عليكم قاصفا من الريح) أى ريحا شديدة لا تمر بشئ الا قصفته فتكسر فلككم (فنغرقكم) فى البحر الذى أعدناكم فيه بقدرتنا (بما كفرتم) أى بسبب اشراككم وكفرانكم نعمة الانجاء (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أى مطالبا يطالبنا بما فعلنا بكم *(تنبيه)* تارة بمعنى مرة وكرة فهى مصدر وتجمع على تير وتارات قال الشاعر

وانسان عينى يحسر الماء تارة * فيبدو وتارات يجم فيغرق

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو أن نخسف أو نرسل أن نعيدكم فنرسل فنغرقكم جميع هذه الخمسة بنون العظمة والباقون بياء الغيبة والقراءة الاولى على سبيل الالتفات من الغائب فى قوله تعالى ربكم الى آخره والقراءة الثانية على سنن ما تقدم من الغيبة * ثم ان الله تعالى ذكر نعمة أخرى رفيعة جليلة على الانسان وذكر فيها أربعة أنواع النوع الاول قوله تعالى (ولقد كرمنا) أى بعظمتنا تكريما عظيما (بنى آدم) وحذف متعلق التكريم فلذا اختلف المفسرون فيه فقال ابن عباس كل شئ يأكل بفيه الا ابن آدم فانه يأكل بيده وعن الرشيد أنه أحضر طعاما عنده فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له جاء فى تفسير جدك ابن عباس ولقد كرمنا بنى آدم جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق فردها وأكل بأصابعه وروى عن ابن عباس أنه قال بالعقل وقال الضحاك بالنطق والتمييز وقيل على سائر الطين بالنمو وعلى النامى بالحياة وعلى سائر الحيوان بالنطق وقال عطاء بتعديل القامة وامتدادها والدواب منكسة على وجوهها قال بعضهم وينبغى أن يشترط مع هذا شرط وهو طول القامة مع استكمال القوة

العقلية والحسية والحركية والافالاشجار أطول قامة من الانسان وقيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقيل بأن سخرلهم سائر الاشياء وقيل بأن منهم خير أمة أخرجت للناس وقيل بحسن الصورة قال تعالى وصوركم فأحسن صوركم ولما ذكر الله تعالى خلقة الانسان وهى ولقد خلقنا الانسان الآية قال فتبارك الله أحسن الخالقين قال الرازى فان شئت فتأمل عضوا واحدا من أعضاء الانسان وهى العين فخلق الحدقة سوداء ثم أحاط بذلك السواد بياض العين ثم أحاط بذلك البياض سواد الاشفار ثم أحاط بذلك السواد بياض الاجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق ذلك البياض سواد الشعر ولكن هذا المثال الواحد أنموذجا لك فى هذا الباب انتهى واستدل أيضا لشرف الانسان بأن الموجود اما أن يكون أزليا وأبديا وهو الله تعالى واما أن لا يكون لا أزليا ولا أبديا وهو عالم الدنيا مع كل ما فيه من المعادن والنبات والحيوان وهذا أحسن الاقسام واما أن يكون أزليا ولا يكون أبديا وهذا ممتنع الوجود لان ما ثبت قدمه امتنع عدمه واما أن لا يكون أزليا ولكنه يكون أبديا وهو الانسان والملك ولاشك أن هذا القسم أشرف من الثانى والثالث وذلك يقتضى كون الانسان أشرف من أكثر المخلوقات * النوع الثانى قوله تعالى (وحملناهم فى البر) على الدواب وغيرها (و) فى (البحر) على السفن وغيرها من حملته حملا اذا جعلت له ما يركبه أو حملناهم فيهما حتى لم نخسف بهم الارض ولم نغرقهم فى الماء * النوع الثالث قوله تعالى (ورزقناهم من الطيبات) أى المستلذات من الثمرات والاقوات وذلك لان الاغذية اما حيوانية واما نباتية وكلا القسمين فان الانسان انما يتغذى بألطف أنواعها وأشرف أقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ وذلك مما لا يحصل الا للانسان * النوع الرابع قوله تعالى (وفضلناهم) فى أنفسهم باحسان الشكل وفى صفاتهم بالعلم المنتج لسعادة الدارين (على كثير ممن خلقنا) أى بعظمتنا التى خلقناهم بها * وأكد الفعل بالمصدر اشارة الى اعراقهم فى الفضيلة فقال تعالى (تفضيلا) * (تنبيه) * ظاهر الآية يدل على فضلهم على كثير من خلقه لا على الكل وقال قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملائكة وهو قول ابن عباس واختيار الزجاج على ما رواه الواحدى فى بسيطه وقال الكلبى فضلوا على جميع الخلائق كلهم الا على طائفة من الملائكة جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وأشباههم وقال قوم فضلوا على جميع الخلق وعلى جميع الملائكة كلهم وقد يوضع الاكثر موضع الكل كقوله تعالى هل أنبئكم على من تنزل الشياطين الى قوله تعالى وأكثرهم كاذبون أى كلهم وروى جابر يرفعه قال لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال تعالى لا أجعل من خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى كمن قلت له كن فكان والاولى كما قاله بعض المفسرين كالبغوى وابن عادل أن يقال عوام الملائكة أفضل من عوام المؤمنين وخواص المؤمنين أفضل من خواص الملائكة قال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية وروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى

عنه قال المؤمن أكرم على الله من الملائكة عنده رواه البغوي ورواه الواحدي في بسيطه (فإن قيل) قال تعالى في أول الآية ولقد كرمنا بني آدم وقال في آخرها وفضلناهم فلا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار (أجيب) بأنه تعالى فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية كالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم إنه سبحانه وتعالى عرضه بواسطة العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة * ولما ذكر تعالى أنواع كرامات الإنسان في الدنيا شرح أحوال درجاته في الآخرة بقوله تعالى (يوم) أي اذكر يوم (ندعو) أي بتلك العظمة (كل أناس) أي منكم (بإمامهم) الإمام في اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى أو ضلالة فالنبي إمام أمته والخليفة إمام رعيته والقرآن إمام المسلمين وإمام القوم هو الذي يقتدون به في الصلاة وذكروا في تفسير الإمام هنا أقوالا أحدها إمامهم نبيهم روى ذلك مرفوعا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فينادي يوم القيامة يا أمة إبراهيم يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ثم ينادي الأتباع يا أتباع نمرود يا أتباع فرعون يا أتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر الثاني أن إمامهم كتابهم الذي أنزل عليهم فينادي في القيامة يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل الثالث إمامهم كتاب أعمالهم قال تعالى وكل شيء أحصيناه في إمام مبين فسمى الله تعالى هذا الكتاب إماما قال الزمخشري ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم وأن الحكمة فيه رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين وأن لا تفتضح أولاد الزنا قال وليت شعري أيهما أبدع البدع أصحة لفظه أم بهاء حكمته قال ابن عادل وهو معذور لأن أما لا يجمع على إمام هذا قول من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب (فمن أوتي) أي من المدعوين (كتابه) أي كتاب عمله (بيمينه) وهم السعداء أولو البصائر في الدنيا (فأولئك يقرؤن كتابهم) ابتهاجا وتبجحا بما يرون فيه من الحسنات (ولا يظلمون) بنقص حسنة ما من ظالم ما (فتيلا) أي شيئا في غاية القلة والحقارة بل يزدادون بحسب إخلاص النيات وطهارة الأخلاق وزكاء الأعمال * (تنبيه) * الفتيل القشرة التي في شق النواة تسمى بذلك لأنه إذا رام الإنسان إخراجه انفتل وهذا مثل يضرب للشيء الحقير التافه ومثله القطمير وهو الغلالة التي في ظهر النواة والنقير وهي النقرة التي في ظهر النواة وروى مجاهد عن ابن عباس قال الفتيل هو الوسخ الذي يفتله الإنسان بين سبابته وإبهامه (فإن قيل) لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أهل الشمال يقرؤنه (أجيب) بأن أصحاب الشمال إذا اطلعوا كتابهم وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة فيستولي الخوف على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزون عن القراءة الكاملة وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم على أحسن الوجوه ثم لا يقتنعون بقراءتهم وحدهم بل يقول القارئ لأهل المحشر هاؤم اقرؤا كتابيه جعلنا الله تعالى وجميع أحبابنا منهم * ثم قال الله تعالى (ومن كان) منهم (في هذه)

أى الدار (أعمى) أى ضالا يعمل فى الافعال فعل الاعمى فى أخذ الاعيان لايهتدى الى أخذ ما ينفعه وترك ما يضره ولا يميز بين حسن وقبيح (فهو فى الآخرة أعمى) أى أشد عمى مما كان عليه فى هذه الدار لا ينجح له قصد ولا يهتدى لصواب ولم يقل تعالى أشد عمى كما يقال فى الخلق اللازمة لحالة واحدة مثل العور والحمرة والسواد ونحوها لان هذا مراد به عمى القلب الذى من شأنه التزايد والحدوث فى كل لحظة شيأ بعد شئ (وأضل سبيلا) لان هذه الدار دار الاكتساب والترقى فى الاسباب وأما تلك فليس فيها شئ من ذلك وقال عكرمة جاء نفر من أهل اليمن الى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال اقرؤا ما قبلها فقرؤا ربكم الذى يزجى لكم الفلك الى قوله تفضيلا فقال ابن عباس من كان أعمى فى هذه النعم التى قد رأى وعاين فهو فى الآخرة التى لم يعاين ولم ير أعمى وأضل سبيلا وعلى هذا فالاشارة فى قوله هذه الى النعم المذكورة فى الآيات المتقدمة وحمل بعضهم العمى الثانى على عمى العين والبصر كما قال تعالى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وهذا العمى زيادة فى عقوبتهم * ولما عدد تعالى فى الآيات المتقدمة أقسام نعمه على خلقه وأتبعها بذكر درجات الخلق فى الآخرة وشرح أحوال السعداء أردفه بما يجرى مجرى تحذير السعداء عن الاغترار بوسواس أرباب الضلال والانخداع بكلماتهم المشتملة على المكر والتلبيس فقال تعالى (وان كادوا) أى قاربوا فى هذه الحياة الدنيا العماهم فى أنفسهم عن عصمة الله تعالى لك ولما كانت ان هذه هى المخففة من الثقيلة أتى باللام الفارقة بينها وبين النافية بقوله تعالى (ليفتنونك) أى ليخالطونك مخالطة تميلك الى جهة قصدهم لكثرة خداعهم واختلف فى سبب نزول هذه الآية فروى عطاء عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال قال وماهن قالوا أن لانجبى فى الصلاة بفتح الجيم والباء الموحدة المشددة أى لانحنى فيها ولانكسر أصنامنا الا بأيدينا وأن لاتمنعنا من اللات والعزى سنة من غير أن نعبدها فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاخير فى دين لاركوع فيه ولاسجود وأما أن تكسروا أصنامكم بأيديكم فذلك لكم وأما الطاغية يعنى اللات والعزى فانى غير ممتعكم بها وفى رواية وحرم واديناكما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فقالوا يارسول الله انا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا مالم تعط غيرنا فان خشيت أن تقول العرب أعطيتهم مالم تعطنا فقل الله أمرنى بذلك فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فطمع القوم فى سكونه أن يعطيهم ذلك فصاح عليهم عمر وقال أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهة لما تذكرونه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال سعيد بن جبير كان النبى صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الاسود فمنعه قريش وقالوا لاندعك حتى تلم بآلهتنا وتمسها فحدث صلى الله عليه وسلم نفسه ما على أن أفعل ذلك والله يعلم انى لها لكاره بعد أن يدعونى

حتى استلم الحجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وروى ان قريشا قالوا له اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك فنزلت وان كادوا ليفتنونك (عن الذى أوحينا اليك) من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفترى) أى لتتقول (علينا غيره) أى مالم نقله (واذا) أى لوملت الى مادعوك اليه (لاتخذوك) أى بغاية الرغبة (خليلا) أى لوالوك وصافوك وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم وراض بشركهم ومن يكن خليل الكفار لم يكن خليل الله تعالى ولكنك أبصرت رشدك فلزمت أمر الله واستمروا على عماهم اتماما لتفضيلنا لك على كل مخلوق (ولولا أن ثبتناك) أى على الحق بعصمتنا اياك (لقد كدت) أى قاربت (تركن) أى تميل (اليهم) أى الى الاعداء (شيأ) أى ركونا (قليلا) لمحبتك فى هدايتهم وحرصك على منفعتهم ولكنا عصمناك فمنعناك أن تقرب من الركون فضلا من أن تركن اليهم لان كلمة لولا تفيد انتفاء الشئ لثبوت غيره تقول لولا زيد لهلك عمرو ومعناه ان وجود زيد منع من حصول الهلاك لعمرو فكذلك ههنا قوله تعالى ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم معناه لولا حصل تثبيت الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان تثبيت الله مانعا من حصول قرب الركون وهذا صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام ماهم باجابتهم مع قوة الداعى اليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه (اذا) أى لو قاربت الركون الموصوف اليهم (لأذقناك ضعف) عذاب (الحياة وضعف) عذاب (الممات) أى مثلى مايعذب غيرك فى الدنيا والآخرة وكان أصل الكلام عذابا ضعفا فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت كما يضاف موصوفها وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وضعف الممات عذاب القبر والسبب فى تضعيف هذا العذاب ان أقسام نعمة الله تعالى فى حق الانبياء عليهم الصلاة والسلام أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر ونظيره قوله تعالى يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وقيل الضعف من أسماء العذاب (ثم لاتجد لك) أى وان كنت أعظم الخلق وأعلاهم مرتبة وهمة (علينا نصيرا) أى مانعا يمنعك من عذابنا واختلفوا فى سبب نزول قوله تعالى (وان) أى وانهم (كادوا) أى الاعداء (ليستفزونك) أى ليزعجونك بمعاداتهم (من الارض ليخرجوك منها) فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا يا أبا القاسم ان الانبياء انما بعثوا بالشأم وهى بلاد مقدسة وكانت مسكن ابراهيم فلو خرجت الى الشأم آمنا بك واتبعناك وقد علمنا أنه لايمنعك من الخروج الا خوف الروم فان كنت رسول الله فالله يمنعك منهم فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة وقيل بذى الحليفة حتى يجتمع اليه أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج الى الشأم فيدخلون فى دين الله فنزلت هذه الآية فرجع وهذا قول الكلبى وعلى هذا فالآية مدنية والمراد بالارض أرض المدينة وقال قتادة ومجاهد الارض أرض مكة والآية مكية همّ المشركون أن يخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكفهم الله تعالى عنه حتى بأمره

بالهجرة فخرج بنفسه قال ابن عادل تبعا للرازي وهذا أليق بالآية لأن ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية وهذا اختيار الزجاج وكثير في التنزيل ذكر الارض والمراد منها مكان مخصوص كقوله تعالى أو ينفوا من الارض أي من مواضعهم وقوله تعالى حكاية عن أخي يوسف فلن أبرح الارض يعني الارض التي كان قصدها الطلب الميرة (فان قيل) قال تعالى وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك يعني أهل مكة فالمراد أهلها فذكر تعالى أنهم أخرجوه وقال تعالى وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها فكيف الجمع بينهما على القول الثاني (أجيب) بأنهم هموا باخراجه وهو صلى الله عليه وسلم ما خرج بسبب اخراجهم وانما خرج بأمر الله تعالى وحينئذ فلا تناقض (واذا) أي واذا أخرجوك (لا يلبثون خلافك) أي بعد اخراجك لو أخرجوك (الا) زمنا (قليلا) وقد كان كذلك على القول الثاني فانهم أهلكوا ببدر بعد هجرته وعلى القول الاول قتل منهم بني قريظة وأجلى بني النضير بقليل وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة بفتح الخاء وسكون اللام والباقون بكسر الخاء وفتح اللام وبعدها ألف قال الشاعر

عفت الديار (أي اندرست) خلافهم (أي خلفهم) فكأنما * بسط الشواطب بينهن حصيرا

الشواطب النساء اللاتي يشققن الجريد ليعملن منه الحصير والشطب والشواطب سعف النخل الاخضر يصف دروس ديار الاحبة بعدهم وانها غير مكنوسة كأنما بسط فيها سعف النخل ولما أخبره بذلك أعلمه أنه سنة في جميع الرسل بقوله تعالى (سنة) أي كسنة أو سننا بك سنة (من قد أرسلنا قبلك) أي في الازمان الماضية كلها (من رسلنا) أنا ننالك كل أمة أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم والسنة لله واضافتها الى الرسل لانها من أجلهم ويدل عليه قوله تعالى (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أي تغييرا * ولما قرر تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الالهيات والمعاد والنبوات أردفها بذكر الامر بالطاعة وأشرف الطاعة بعد الايمان الصلاة فلذلك قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (أقم الصلاة) بفعل جميع أركانها وشرائطها بحيث تصير كأنها قائمة بنفسها فانها باب العبادة لما فيها من المناجاة والاعراض عن كل غير وفناء عن كل سوى بما أشرق من أنوار الحضرة التي قد اضمحل اليها كل فان وفي ذلك اشارة عظيمة الى ان الصلاة أعظم ناصر على الاعداء الذين يريدون بمكرهم استفزاز الاولياء ولذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة ثم عين له الاوقات بقوله تعالى (لدلوك الشمس) في هذه اللام قولان أحدهما انها بمعنى بعد أي بعد دلوك الشمس ومثله قول متمم

فلما تفرقنا كأني ومالكا * لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

والثاني انها على بابها لانها انما تجب بزوال الشمس والدلوك مصدر دلكت الشمس وفيه أقوال أحدها انه الزوال وهو قول ابن عباس وابن عمر وجابر وأكثر التابعين ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر وقول أهل اللغة معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة والثاني انه

الغروب

الغروب وهو قول ابن مسعود ونقله الواحدى فى البسيط عن على رضى الله عنه وبه قال
ابراهيم النخعى والضحاك والسدى وهو اختيار الفراء وكما يقال للشمس اذا زالت
نصف النهار دالكة يقال لها أيضا اذا غربت دالكة لانها فى الحالين زائلة قال الازهرى
والثالث انه من الزوال الى الغروب وقال فى القاموس دلكت الشمس غربت أو اصفرت
أومالت أو زالت عن كبد السماء فحينئذ فى هذه اللفظة دلالة على الظهر والعصر والمغرب من
استعمال المشترك فى معانيه أما فى الظهر والمغرب فواضح لما مر وأما العصر فلان أول وقتها
أول أخذ الشمس فى الاصفرار وأدل دليل على ذلك أنه تعالى غيا الاقامة لوقت العشاء بقوله
تعالى (الى غسق الليل) أى ظلمته وهو وقت صلاة عشاء الآخرة والغاية أيضا هنا داخلة لما سيأتى
وقد أجمعوا على أن المراد من قوله تعالى (وقرآن الفجر) أى صلاة الصبح وهو منصوب قيل على
الاغراء أى وعليك بقرآن الفجر وزد بأن أسماء الافعال لا تعمل مضمرة وقال الفراء انه منصوب
بالعطف على الصلاة فى قوله تعالى أقم الصلاة والتقدير أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر وحينئذ
تدخل الصلوات الخمس فى هذه الآية قال ابن عادل كالرازى وحمل كلام الله تعالى على ما يكون
أكثر فائدة أولى انتهى وسميت صلاة الصبح قرآنا لاشتمالها عليه وان كانت بقية الصلوات
أيضا مشتملة عليه لانه يطول فيها فى القراءة ما لا يطول فى غيرها فالمقصود من قوله تعالى وقرآن
الفجر الحث على طول القراءة فيها أكثر من غيرها لان التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل
من غيره * ولما كان القيام عن المنام يشق علل مرغبا مظهرا غير مضمر لان المقام مقام تعظيم
فقال (ان قرآن الفجر كان مشهودا) أى تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار
ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار قال الرازى ثم ان
ملائكة الليل اذا صعدت قالت يارب انا تركنا عبادك يصلون لك وتقول ملائكة النهار ربنا
أتينا عبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى لملائكته اشهدوا بأنى قد غفرت لهم وقال
أبو هريرة رضى الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تفضل صلاة الجمع صلاة
أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر
ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهودا وهذا يدل على ان التغليس أولى
من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من أول الوقت ففى ذلك الوقت ظلمة باقية فتكون
ملائكة الليل حاضرة ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر
الضوء وحضرت ملائكة النهار وأما اذا ابتدأ بهذه الصلاة فى وقت التنوير فهناك لم يبق أحد
من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فقوله كان مشهودا يدل على ان التغليس أفضل
وأيضا الانسان اذا شرع فى صلاة الصبح من أول هذا الوقت فكانت الظلمة القوية فى العالم
فاذا امتدت القراءة ففى أثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة الى الضوء والظلمة مناسبة
للموت والعدم والضوء مناسب للحياة والوجود فالانسان لما قام من منامه فكأنه انتقل
من الموت الى الحياة ومن العدم الى الوجود ومن السكون الى الحركة وهذه الحالة العجيبة

تشهد العقول بأنه لا يقدر على هذا التقلب الا الخالق المدبر بالحكمة البالغة فحينئذ يستنير العقل بنور هذه المعرفة ويتخلص من مرض قلبه فان أكثر الخلق وقعوا فى امراض القلوب وهى حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى اذا كانت مملوأة من المرضى والانبياء كالاطباء الحاذقين والمريض ربما كان قد يقوى مرضه فلا يعود الى الصحة الا بمعالجات قوية وربما كان المريض جاهلا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه فى أكثر الامر لان الطبيب اذا كان مشفقا حاذقا فانه يسعى فى ازالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه وان لم يقدر على ازالته فانه يسعى فى تقليله وفى تخفيفه فلما كان مرض الدنيا مستوليا على الخلق ولا علاج له الا بالدعوى الى معرفة الله سبحانه وتعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس وقل من يقبله وينقاد له لا جرم أن الانبياء اجتهدوا فى تقليل هذا المرض فحملوا الخلق على الشروع فى الطاعة والعبودية من أول وقت القيام من النوم لانه مما ينفع فى ازالة هذا المرض * ثم حث سبحانه وتعالى على التهجد لافضليته وارشديته بقوله عز من قائل (ومن الليل) أى وعليك أو وقم بعض الليل (فتهجد به) أى واترك الهجود للصلاة يقال هجد وتهجد نام ليلا وهجد وتهجد سهر فهو من الاضداد ومنه قيل لصلاة الليل التهجد قاله فى الصحاح والضمير فى به لمطلق القرآن والمراد من الآية قيام الليل لصلاة النافلة فلا يحصل التهجد الا بصلاة تنفل بعد نوم وكانت فريضة على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى أمته فى الابتداء بقوله تعالى يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا ثم نسخ بما فى آخرها ثم نسخ بما فى الصلوات الخمس وبقى قيام الليل على الاستحباب بقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه وبقى الوجوب فى حقه صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى (نافلة لك) أى زيادة لك مختصة بك وروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن على فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل والصحيح أنه نسخ فى حقه أيضا ودليل النسخ رواه مسلم وقد وردت أحاديث كثيرة فى قيام الليل منها ما روى عن المغيرة بن شعبة أنه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ومنها ما روى عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال لارمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاثة عشر ركعة فلهذا قيل انه أكثر الوتر وهو أحد قولى الشافعى والمرجح عنده ان أكثره احدى عشرة ركعة لما رواه أبو سلمة أنه سأل عائشة رضى الله تعالى عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ما كان يزيد فى رمضان ولا فى غيره على احدى عشرة ركعة أى وترا يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى ثلاثا قالت عائشة رضى الله تعالى عنها فقلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال يا عائشة ان عينى تنام ولا ينام قلبى ومنها ما روى عن أنس ابن مالك قال ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الليل مصليا الا رأيناه وما نشاء

ان

أن نراه نائما الا رأيناه وفي رواية غيره قال وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيأ ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيأ ثم قال تعالى (عسى أن يبعثك ربك) أي المحسن اليك (مقاما محمودا) اتفق المفسرون على أن كلمة عسى من الله واجب قال أهل المعاني لان لفظة عسى تفيد الاطماع ومن أطمع انسانا في شيء ثم حرمه كان عارا والله أكرم من أن يطمع احدا في شيء ثم لا يعطيه ذلك وأما المقام المحمود فقال الواحدي أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة كما قال صلى الله عليه وسلم في هذه الآية هو المقام الذي أشفع فيه لامتي وقال حذيفة يجمع الناس في صعيد واحد فلا تتكلم نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فقال هذا هو المراد من قوله تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ويدل للاول أحاديث منها ما روى عن أبي هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل نبي دعوة مستجابة واني اختبأت دعوتي شفاعتي لامتي وهي نائلة منكم ان شاء الله تعالى من مات لا يشرك بالله شيأ ومنها ما روى عن جابر أنه قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة * ومنها ما روى عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب أكله من الشجرة وقد نهي عنها ولكن ائتوا نوحا أول نبي بعثه الله الى أهل الارض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي اصاب بسؤال ربه بغير علم ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول لست هناكم ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيا قال فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب قتله النفس ولكن ائتوا عيسى عبد الله وكلمته قال فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدا عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال فيأتوني فأستأذن على ربي فيؤذن لي فاذا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني فيقول ارفع رأسك يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه قال ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجدا فيدعني ما شاء الله ان يدعني ثم يقول ارفع يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه قال ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة قال فلا أدري في الثالثة أو الرابعة فأقول يا رب ما بقي الا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مقاما محمودا يحمدك فيه الاولون والآخرون وتشرف

فيه على جميع الخلائق سل فتعطى واشفع فتشفع ليس أحد الاتحت لوائك والاخبار فى الشفاعة كثيرة وفى هذا القدر كفاية لاولى البصائر جعلنا الله تعالى وجميع أحبابنا من أهلها الداخلين تحت شفاعة سيد الانبياء والمرسلين آمين واختلف أهل التفسير فى قوله تعالى (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) فقال ابن عباس والحسن أدخلنى مدخل صدق المدينة وأخرجنى مخرج صدق مكة نزل حين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقال الضحاك أخرجنى مخرج صدق من مكة آمنا من المشركين وأدخلنى مدخل صدق ظاهرا عليها بالفتح وقال مجاهد أدخلنى فى أمرك الذى أرسلتنى به من النبوة مدخل صدق وأخرجنى من الدنيا وقدقمت بما وجب على من حقها مخرج صدق وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل أدخلنى مدخل صدق الجنة وأخرجنى مخرج صدق من مكة وقيل ادخلنى فى القبر مدخل صدق ادخالا مرضيا وأخرجنى منه عند البعث مخرج صدق اخراجا ملقى بالكرامة والجامع لهذه الاقوال ماجرى عليه البقاعى فى تفسيره بقوله فى كل مقام تريد ادخالى فيه حسى ومعنوى دينا وأخرى مدخل صدق يستحق الداخل فيه أن يقال له أنت صادق فى قولك وفعلك فان ذا الوجهين لايكون عند الله وجيها وأخرجنى من كل ماتخرجنى منه مخرج صدق انتهى والمراد من المدخل والمخرج الادخال والاخراج ومعنى اضافة المدخل والمخرج الى الصدق مدحهما كأنه سأل الله تعالى ادخالا حسنا واخراجا حسنا لايرى فيهما مايكره * ثم سأل الله تعالى أن يرزقه التقوية بالحجة وبالقهر والقدرة فقال (واجعل لى من لدنك) أى عندك (سلطانا نصيرا) أى حجة ظاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى وقد أجاب الله تعالى دعاءه وأعلمه أنه يعصمه من الناس بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقال تعالى ألا ان حزب الله هم الغالبون وقال تعالى ليظهره على الدين كله وقال تعالى ليستخلفنهم فى الارض ووعده تعالى ليظهره على الدين ووعده تعالى لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له وعنه صلى الله عليه وسلم أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال انطلق فقد استعملتك على أهل الله فكان شديدا على المرائين المنافقين لينا على المؤمنين وقال والله لاأعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة الامنافقا فقال أهل مكة يارسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد اعرابيا جافيا فقال صلى الله عليه وسلم انى رأيت فيمايرى النائم كأن عتاب ابن أسيد أتى باب الجنة فاخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالا شديدا حتى فتح له فدخلها فأعز الله تعالى الاسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم فذلك السلطان النصير ثم أمره الله تعالى أن يخبر بالاجابة بقوله تعالى (وقل) أى لاوليائك وأعدائك (جاء الحق) وهو ما أمرنى به ربى وأنزله الى (وزهق) أى اضمحل وبطل وهلك (الباطل) وهو كل مايخالف الحق ثم علل زهوقه بقوله تعالى (ان الباطل) أى وان ارتفعت له دولة وصولة (كان) فى نفسه بجبلته وطبعه (زهوقا) أى لايبقى بل يزول على أسرع الوجوه وقت وأسرع رجوع قضاء قضاه الله تعالى من الازل روى البخارى فى التفسير عن ابن مسعود قال دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول

الكعبة ثلثمائة وستون صنما صنم كل قوم بحيالهم فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل فجعل الصنم ينكب لوجهه وعن ابن عباس كانت لقبائل العرب أصنام يحجون اليها ويحرون لها فشكى البيت الى الله تعالى فقال أى رب الى متى تعبد هذه الاصنام حولى دونك فأوحى الله تعالى الى البيت انى سأحدث لك نوبة جديدة فاملؤك خدودا سجدا يدفون اليك دفيف النسور ويحنون اليك حنين الطير الى بيضها لهم عجيج حولك بالتلبية * ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح جاء جبريل عليه السلام وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم خذ مخصرتك ثم ألقها فجعل يأتى صنما صنما وهو ينكت بالمخصرة فى عينه ويقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعا وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال يا على ارم به فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد ورمى به فكسره فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون ما رأينا رجلا أسحر من محمد قال الزمخشرى وشكاية البيت والوحى اليه تخييل وتمثيل * ولما بين سبحانه وتعالى الالهيات والنبوات والحشر والنشر والبعث واثبات القضاء والقدر ثم أتبعه بالامر بالصلاة ونبه على ما فيها من الاسرار وكان القرآن هو الجامع لجميع ذلك أتبعه بيان كونه شفاء ورحمة بقوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) أى ما هو شفاء فى تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمريض * (تنبيه) * فى من هذه ثلاثة أوجه أحدها انه لبيان الجنس قاله الزمخشرى والبيضاوى وابن عطية وأبو البقاء ورد عليهم أبو حيان بأن التى للبيان لابد أن يتقدمها ما تبينه لا أن تتقدم عليه وهنا قد وجد تقديمها عليه الثانى أنها للتبعيض وأنكره الحوفى لانه يلزم أن لا يكون بعضه شفاء وأجاب أبو البقاء بأن منه ما يشفى من المرض وهذا قد وجد بدليل رقية بعض الصحابة سيد الحى الذى لدغ بالفاتحة فشفى من المرض فيكون التبعيض بالنسبة للامراض الجسمانية والا فهو كله شفاء للابدان وللقلوب من الاعتقادات وغيرها الثالث أنها لابتداء الغاية وهو كما قال ابن عادل واضح (و) من العجيب ان هذا الشفاء (لا يزيد الظالمين) وهم الذين يضعون الشئ فى غير موضعه باعراضهم عما يجب قبوله (الا خسارا) أى نقصانا لانه اذا جاءهم وقامت به الحجة عليهم أعرضوا عنه فكان اعراضهم ذلك زيادة فى كفرهم كما ان قبول المؤمنين له واقبالهم على تدبره زيادة فى ايمانهم وفى الدارمى عن قتادة قال ما جالس أحد القرآن فقام عنه الا بزيادة أو نقصان ثم قرأ هذه الآية ثم انه تعالى ذكر السبب الاصلى فى وقوع هؤلاء الكافرين الجاهلين الضالين فى أودية الضلال ومقامات الخزى والنكال وهو حب الدنيا والرغبة فى المال والجاه واعتقادهم أن ذلك انما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال تعالى (واذا أنعمنا) أى بما لنا من العظمة (على الانسان) أى هذا النوع هؤلاء وغيرهم وقال ابن عباس ان الانسان ههنا هو الوليد بن المغيرة قال الرازى وهذا بعيد بل المراد أى نوع الانسان اذا أنعمنا عليه (أعرض) أى عن ذكرنا ودعائنا اذ شأن نوع الانسان أنه اذا فاز بمقصوده ووصل الى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن عبودية الله متمردا عن طاعة الله كما قال تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى (ونأى) عن ذكر الله

(بجانبه) أي لوى عطفه وبعد نفسه كأنه مستغني بأمره ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار لانه من عادة المستكبرين ومعنى النأى فى اللغة البعد والاعراض عن الشئ أن يوليه عرض وجهه وقرأ ابن ذكوان بألف ممدودة بعد النون وتأخير الهمزة مثل جاء وفى هذه القراءة تخريجان أحدهما من ناء ينوء أي نهض والثانى انه مقلوب من نأى فيكونان بمعنى قال ابن عادل ولكن متى أمكن عدم القلب فهو أولى وقرأ الباقون بالهمزة بعد النون وألف بعد همزة وأمال الالف بعد الهمزة السوسى وشعبة وخلاد محضة بخلاف عن السوسى وأمالها ورش بين بين وأمال الهمزة والنون محضة خلف والكسائى وفتح الباقون (واذا مسه الشر) أي هذا النوع وان قل (كان يؤسا) أى شديد اليأس مما يعهده من رحمة ربه والحاصل أنه ان فاز بالنعمة والدولة اغتربها ونسى ذكر الله وان بقى فى الحرمان عن الدنيا استولى عليه الاسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله فهذا المسكين محروم أبدا عن ذكر الله تعالى ونظيره قوله تعالى فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن وكذلك ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا من حفظه الله وشرفه بالاضافة اليه فليس للشيطان عليه سلطان ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل كل) من الشاكر والكافر (يعمل على شاكلته) أى طريقته التى تشاكل روحه وتشاكل ما طبعناه عليه من خير أو شر (فربكم) أى فتسبب عن ذلك ان الذى خلقكم وصوركم (أعلم) من كل أحد (بمن هو) منكم (أهدى سبيلا) أى أوضح طريقا واتباعا للحق فيشكر ويصبر احتسابا فيعطيه الثواب ومن هو منكم أضل سبيلا فيجعل له العقاب لانه يعلم ما طبعهم عليه فى أصل الخلقة وغيره تعالى انما يعلم أمور الناس فى طرائقهم بالتجربة وقد روى الامام أحمد لكن بسند منقطع عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا واذا سمعتم برجل تغير عن طبعه فلا تصدقوا فانه يصير الى ما جبل عليه واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ويسئلونك) أى تعنتا وامتحانا (عن الروح) فعن عبد الله بن مسعود قال بينما أنا أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض اسألوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه لا يجيء بشئ تكرهونه فقال بعضهم لنسألنه فقام رجل منهم فقال يا أبا القاسم ما الروح فسكت فقلت انه يوحى اليه فقمت فلما تجلى عنه قال ويسئلونك عن الروح (قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) قال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا فقالوا ان محمدا نشأ فينا بالصدق والامانة وما اتهمناه بكذب وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم أهل كتاب فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فان أجاب عن كلها أو لم يجب عن شئ منها فليس بنبى وان أجاب عن اثنين فهو نبى فسألوه عن فتية فقدوا فى الزمن الاول ما كان أمرهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مشرق الارض

ومغربها

ومغربها وعن الروح فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال أخبركم بما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحي قال مجاهد اثني عشر ليلة وقيل خمسة عشر يوما وقيل أربعين يوما وأهل مكة يقولون وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء حتى حزن صلى الله عليه وسلم من مكث الوحي وشق عليه ما يقوله أهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ونزل في الفتية أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب ويسئلونك عن ذي القرنين ونزل في الروح ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وقول الرازي ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه وذكر من جملة ذلك كيف يليق به أن يقول اني لا أعرف هذه المسئلة مع أنها من المسائل المشهورة المذكورة مع جمهور الخلق غير لائق لان ذلك علامة على نبوته قال الزمخشري فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم انتهى واختلفوا في الروح الذي وقع السؤال عنه فروى عن ابن عباس أنه جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة وروى عن علي أنه قال ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صورة بني آدم لهم أيد وأرجل ورؤس وليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله تعالى خلقا أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع السموات السبع والارضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الادميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو أقرب الخلق الى الله تعالى عند الحجب السبعين وأقرب الى الله تعالى وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق أهل السموات من نوره وقيل الروح هو القران وقيل المراد منه عيسى فانه روح الله تعالى وكلمته ومعناه أنه ليس كما تقوله اليهود ولا كما تقوله النصارى وقال بعضهم هو الروح المركب في الخلق الذي يحيا به الانسان قال البغوي وهو الاصح وتكلم فيه قوم فقال بعضهم هو الدم ألا ترى أن الحيوان اذا مات لا يفوت منه الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس وقال قوم عرض وقال قوم هو جسم لطيف وقال بعضهم الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ألا ترى أنه اذا كان موجودا يكون الانسان موصوفا بجميع هذه الصفات واذا خرج ذهب الكل قال البغوي وأولى الاقاويل أن يوكل علمه الى الله عز وجل وهو قول أهل السنة قال عبد الله بن بريدة ان الله تعالى لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل قوله تعالى قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا أي في جنب علم الله تعالى *(تنبيه)* اختلف في المخاطب بقوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا فقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم وقيل اليهود فانهم يقولون أوتينا التوراة وفيها العلم الكبير وقيل عام روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه فقال نحن وأنتم لم نؤت من العلم الا قليلا فقالوا ما أعجب شأنك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا

كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده الآية قال
الزمخشرى وليس ما قالوا بلازم لان القلة والكثرة يدوران مع الاضافة فيوصف الشئ بالقلة
مضافا الى ما فوقه وبالكثرة مضافا الى ما تحته فالحكمة التى أوتيها العبد خير كثير فى نفسها الا
أنها اذا أضيفت الى علم الله فهى قليلة وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم معنى الروح ولكن
لم يخبر به لان ترك أخباره كان علما للنبوة قال البغوى والاول أصح أن الله استأثر بعلمه انتهى
وعن أبى يزيد لقد مضى النبى صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقال الرازى قوله تعالى قل
الروح من أمر ربى من فعل ربى وهذا الجواب يدل على أنهم سألوه أن الروح قديمة أو حادثة
فقال بل هى حادثة وانما حصلت بفعل الله وتكوينه وايجاده ثم احتج على احداث الروح بقوله
وما أوتيتم من العلم الا قليلا بمعنى أن الروح فى مبدا الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف
ثم تحصل المعارف والعلوم فهى لا تزال تكون فى التغير من حال الى حال وفى التبديل من نقصان
الى كمال والتغير والتبدل من امارات الحدوث فقوله قل الروح من أمر ربى يدل على أنهم سألوه
أن الروح هل هى حادثة أو قديمة فأجاب بأنها حادثة واقعة بتخليق الله تعالى وتكوينه وهو المراد
من قوله تعالى قل الروح من أمر ربى ثم استدل على حدوث الارواح بتغيرها من حال الى حال
وهو المراد بقوله وما أوتيتم من العلم الا قليلا فهذا ما نقوله فى هذا الباب انتهى وهو نص لطيف
* ولما بين سبحانه وتعالى أنهم ما آتاهم من العلم الا قليلا بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل
أيضا القدر عليه بقوله تعالى (ولئن شئنا) أى ومشيئتنا لا يتعاظمها شئ واللام موطئة للقسم
وأجاب عن القسم بما أغنى عن جواب الشرط فقال (لنذهبن) أى بما لنا من العظمة ذهابا
محققا (بالذى أوحينا اليك) بأن نمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب وهذا وان كان
أمرا مخالفا للعادة الا أنه تعالى قادر عليه (ثم) أى بعد الذهاب به (لا تجد لك به علينا وكيلا)
أى لا تجد من تتوكل عليه فى رد شئ منه واعادته مسطورا محفوظا وقوله تعالى (الا رحمة من
ربك) استثناء متصل لانه مندرج فى قوله وكيلا والمعنى الا أن يرحمك ربك فيرده عليك
أو منقطع فتقدر لكن عند البصريين أو بل رحمة من ربك عند الكوفيين والمعنى ولكن رحمة
من ربك او بل رحمة من ربك بتركه غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن
قال الرازى وهذا تنبيه على أن الله تعالى على جميع العلماء نوعين من المنة أحدهما تسهيل
ذلك العلم عليهم والثانى ابقاء حفظه عليهم فعلى كل ذى علم أن لا يغفل عن هاتين النعمتين
وعن القيام بشكرهما وهما منة من الله تعالى عليه بحفظ العلم ورسوخه فى صدره ومنته عليه فى
بقاء المحفوظ (فان قيل) كيف يذهب القرآن وهو كلام الله تعالى (أجيب) بأن المراد محو ما
فى المصاحف واذهاب ما فى الصدور قال عبد الله بن مسعود اقرؤا القرآن قبل أن يرفع فانه
لا تقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع فكيف ما فى صدور الناس قال يسرى عليه
ليلا فيرفع ما فى صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيأ ولا يجدون فى المصاحف شيأ ثم يفيضون
فى الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل

له

له دوى تحت العرش كدوى النحل فيقول الرب مالك فيقول يارب أتلى ولا يعمل بى وفى رواية لابن مسعود أول ماتفقدون من دينكم الامانة وآخر ماتفقدون الصلاة وليصلين قوم ولا دين لهم وان هذا القرآن تصبحون يوما ومافيكم منه شئ فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا وتعلمه أبناؤنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع مافى القلوب وقوله تعالى (ان فضله كان) أى ولم يزل (عليك كبيرا) فيه قولان أحدهما المراد منه ان فضله كان عليك كبيرا بسبب ابقاء العلم والقرآن عليك ثانيهما أن المراد أن فضله كان عليك كبيرا بسبب أنه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود وقد أنعم عليك أيضا بابقاء العلم والقرآن عليك ونزل حين قال الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن (قل) أى لهؤلاء البعداء (لئن اجتمعت الانس) الذين تعرفونهم وتعرفون ما أوتوا من البلاغة والحكمة والذين لا تعرفونهم (والجن) الذين يأتون كهانهم ويعلمونهم ببعض المغيبات عنهم وغيرهم وترك الملائكة لانهم لا عهد لهم بشئ من التصدى ولانهم كانوا وسايط (على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) فى البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى (لا يأتون بمثله) أى لا يقدرون على ذلك فالقرآن معجز فى النظم والتأليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام فى أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله *(تنبيه)* فى قوله تعالى لا يأتون بمثله قولان أظهرهما أنه جواب للقسم الموطأ له باللام والثانى أنه جواب للشرط واعتذروا عن رفعه بأن الشرط ماض فهو كقوله

*وان أتاه خليل (أى فقير) يوم مسغبة * يقول لا غائب مالى ولا حرم

لان الشرط وقع ماضيا وناقشه أبو حيان بأن هذا ليس مذهب سيبويه ولا الكوفيين والمبرد لان مذهب سيبويه فى مثله ان النية به التقديم ومذهب الكوفيين والمبرد أنه على حذف الفاء وهذا مذهب ثالث قال به بعض الناس (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أى معينا بضم أقوى مافيه الى أقوى مافى صاحبه *(تنبيه)* قد تقدم فى سورة البقرة أن الله تعالى قال فأتوا بسورة من مثله وقدمنا الكلام على ذلك وفى وجه كون القرآن معجزا قولان أحدهما أنه معجز فى نفسه والثانى أنه ليس فى نفسه معجزا الا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الاتيان بمعارضته وكانت الدواعى متوفرة على الاتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضا للعادة فيكون معجزا والقول الاول أظهر (ولقد صرفنا) أى بينا بوجوه مختلفة زيادة فى التقرير والبيان (للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى من كل معنى هو كالمثل فى غرابته ووقوعه متوقعا فى الانفس وقيل معناه من كل وجه من العبر والاحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها وقيل صفة لمحذوف أى مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا (فأبى أكثر الناس) وهم من هم فى صورة الناس ككفار قريش وقد سلبوا معانيهم (الا كفورا) أى جحودا (فان قيل) كيف جاز فأبى أكثر الناس الا كفورا ولم يجز ضربت الا زيدا (أجيب) بأن أبى متأول بالنفى كأنه قيل فلم يرضوا الا كفورا * ولما تبين بالدليل اعجاز القرآن على وفق دعوى محمد

صلى الله عليه وسلم ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المحجوج
المتعثر في أذيال الحيرة وذكروا من ذلك ستة أنواع من المعجزات أولها (وقالوا) أي كفار قريش
ومن والاهم (لن نؤمن لك حتى تفجر) أي تفجيرا عظيما (لنا من الارض ينبوعا) أي عينا
غزيرة الماء من شأنها أن تنبع بالماء ولا ينضب ماؤها وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح التاء
وسكون الفاء وضم الجيم مخففة والباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم المشددة ثانيها قولهم
(أو تكون لك) أنت وحدك (جنة من نخيل وعنب) أي وأشجار عنب عبر عنه بالثمرة لأن
الانتفاع منه بغيرها قليل (فتفجر الانهار) الجارية (خلالها) أي وسطها (تفجيرا) أي
تشقيقا والفجر شق الظلام عن عمود الصبح والفجور شق جلباب الحياء بما يخرج الى الفساد
ثالثها قولهم (أو تسقط السماء) أي نفسها (كما زعمت) فيما توعدنا به (علينا كسفا) أي قطعا
جمع كسفة وهي القطعة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بنصب السين مثل قطعة وقطع وسدرة
وسدر والباقون بسكونها مثل دمنة ودمن وسدرة وسدر وهو نصب على الحال في القراءتين جميعا
كأنه قيل أو تسقط السماء علينا مقطعة رابعها قولهم (أو تأتي) معك (بالله) أي الملك الاعظم
(والملائكة قبيلا) أي عيانا ومقابلة ننظر اليه لا يخفى علينا شئ منه وقال الضحاك هو جمع
قبيلة أي أصناف الملائكة قبيلة قبيلة قال ابن جني كفيلا أي يكفلون بما تقول خامسها
قولهم (أو يكون لك) أي خاصا بك (بيت من زخرف) أي ذهب كامل الحسن والزينة سادسها
قولهم (أو ترقى) أي تصعد (في السماء) درجة درجة ونحن ننظر اليك صاعدا (ولن نؤمن)
أي نصدق مذعنين (لرقيك) أي أصلا (حتى تنزل) وحققوا معنى كونه من السماء بقولهم
(علينا كتابا) ومعنى كونه في رق أو نحوه بقولهم (نقرؤه) يأمرنا فيه باتباعك روى عكرمة عن
ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا البختري بن هشام وعبد الله بن أمية وأمية بن خلف
والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام والعاصي بن وائل ونبيها ومنبها ابني الحجاج اجتمعوا بعد
غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى
تعذروا فيه فبعثوا اليه ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك يكلمونك فجاءهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم سريعا وهو يظن أنهم بدا لهم في أمره بداء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم حتى جلس
اليهم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر فيك وانا والله لا نعلم أن رجلا من العرب أدخل على قومه
ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت الآلهة وفرقت
الجماعة فما بقي أمر قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت جئت بهذا الحديث تطلب به
مالا جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت تريد الشرف سودناك علينا وان
كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك لا تستطيع
رده بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن
الرئي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي مما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب
أموالكم ولا الشرف عليكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وأنزل علي كتابا

وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه الي أصبر لامر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم فقالوا يا محمد فان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلادا وأشد عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت ويبسط لنا بلادنا ويفجر فيها أنهارا كأنهار الشأم والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فان صدقوك صدقناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به وان تقبلوه فهو حظكم وان تردوه أصبر لامر الله قالوا فان لم تفعل فسل ربك أن يبعث ملكا يصدقك وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي فانك تقوم بالاسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقال صلى الله عليه وسلم ما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا قالوا فأسقط السماء كما زعمت ان ربك ان شاء فعل فقال ذلك الى الله ان شاء فعل ذلك بكم فقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن أمية وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب وقال له عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك أن تجعل ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ الى السماء سلما ترقى به وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله حزينا لما رأى من مباعدتهم فأنزل الله هذه الآية وفيها اشارة الى أنه ليس من شرط كونه نبيا صادقا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها اذ لو فتح هذا الباب لزم أن لا ينتهي الامر فيه الى مقطع وكلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمعجز اقترحوا عليه بمعجز آخر ولا ينتهي الامر فيه الى حد ينقطع عنه عناد المعاندين وتعنت الجاهلين مع أنه صلى الله عليه وسلم أعطى من الآيات والمعجزات ما أغنى عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الاصابع وما أشبه ذلك * ولما تم تعنتهم وكان لسان الحال طالبا من الله تعالى الجواب عنه أمر الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى (قل) أي لهؤلاء البعداء والاشقياء (سبحان ربي) أي تعجبا من اقتراحاتهم وتنزيها لله من أن يأتي أو يتحكم عليه أو يشاركه أحد في القدرة وقرأ ابن كثير وابن عامر بصيغة الماضي والباقون قل بصيغة الامر و (هل كنت الا بشرا) لا يقدر على غير ما يقدر عليه البشر (رسولا) كما كان من قبلي من الرسل وكانوا لا يؤتون قومهم الا بما يظهره الله تعالى على أيديهم بما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات اليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله حتى يتخيروها هذا هو الجواب المجمل وأما التفصيلي فقد ذكر في آيات أخر كقوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم ولو فتحنا عليهم بابا ونحو ذلك * ولما أمر بما تضمن أنه كاخوانه من الرسل في كونه بشرا أتبعه قوله عطفا على فأبى أو وقالوا (وما منع الناس) أي قريشا ومن قال بقولهم لما لهم من الاضطراب (أن يؤمنوا) أي لم يبق لهم مانع من الايمان والجملة مفعول

منع (اذ جاءهم الهدى) أى الدليل القاطع على الايمان وهو القرآن وغيره من الادلة وقرأ أبو عمرو وهشام بادغام ذال اذ عند الجيم والباقون بالاظهار وأمال الالف بعد الجيم حمزة وابن ذكوان محضة واذا وقف حمزة على جاءهم سهل الهمزة مع المد والقصر (الا أن قالوا) فاعل منع أن قالوا أى منكرين عليه غاية الانكار متعجبين متهكمين (أبعث الله بشرا رسولا) لان الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لانك بشر ولو بعث الله تعالى رسولا الى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فأجابهم الله تعالى بقوله (قل) أى لهؤلاء المطرودين عن الرحمة (لو كان فى الارض ملائكة يمشون) عليها كالآدميين (مطمئنين) أى مستوطنين فيها كالبشر (لنزلنا عليهم) مرة بعد مرة كما فعلنا فى تنزيل جبريل عليه السلام على الانبياء من البشر وحقق الامر بقوله تعالى (من السماء ملكا رسولا) يعلمهم الخير ويهديهم المراشد لتمكنهم من التلقى منه لمشاكلتهم له بخلاف البشر كما هو مقتضى الحكمة لان رسول كل جنس ينبغى أن يكون منهم اذ الشئ عن شكله أفهم وبه آنس واليه أحن وله آلف الا من فضله الله تعالى بتغلب روحه على نفسه وبتغلب عقله على شهوته فأقدره بذلك على التلقى من الملك كالمرسلين ثم أجابهم الله تعالى جوابا آخر بقوله عز وجل (قل كفى بالله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما وأمال الالف حمزة والكسائى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (شهيدا بينى وبينكم) على أنى رسوله اليكم باظهار المعجزات على وفق دعواهم وانى بلغت ما أرسلت به اليكم وانكم عاندتم ومن يشهد الله على صدقه فهو صادق فعند ذلك قول القائل بأن الرسول يجب أن يكون ملكا لا انسانا تحكم فاسد لا يلتفت اليه *(تنبيه)* شهيدا نصب على الحال أو التمييز ثم انه تعالى ذكر ما هو كالتهديد والوعيد بقوله تعالى (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم أنهم لا ينكرون هذا الا لمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق * ولما تقدم أنه تعالى أعلم بالمهتدى والضال عطف عليه قوله تعالى (ومن يهد الله) بأن يخلق الهداية فى قلبه (فهو المهتدى) لا يمكن أحد غيره أن يضله *(تنبيه)* أثبت نافع وأبو عمرو الياء بعد الدال مع الوصل دون الوقف وحذفها الباقون وقفا ووصلا (ومن يضلل فلن تجد لهم) أى الضالين (أولياء) يهدونهم (من دونه) ولا ينفعونهم بشئ أراد الله تعالى غيره * ولما كان يوم القيامة يظهر الله فيه لكل أحد ما كان يعمله نبه على ذلك بقوله تعالى (ونحشرهم) بنون العظمة أى نجمعهم بكره (يوم القيامة) الذى هو محط الحكمة (على وجوههم) مسحوبين عليها اهانة لهم فيها كما لم يذلوها بالسجود لنا قال تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم أى يمشون عليها روى أبو هريرة قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم قال حكماء الاسلام ان الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الانوار وحضرة الاله سبحانه وتعالى فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة الى الدنيا لاجرم كان حشرهم على وجوههم وأما قوله تعالى (عميا وبكما وصما) فقد استشكله شخص على ابن عباس

فقال أليس قد قال الله تعالى ورأى المجرمون النار وقال تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقال تعالى دعوا هنالك ثبورا وقال تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وقال تعالى حكاية عن الكفار والله ربنا ما كنا مشركين فثبت بهذه الآيات أنهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال تعالى هنا عميا وبكما وصما أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه الاول قال ابن عباس عميا لا يرون شيأ يسرهم صما لا يسمعون شيأ يسرهم بكما لا ينطقون بحجة الثاني قال في رواية عطاء عميا عن النظر أي عما جعله الله تعالى لاوليائه وبكما عن مخاطبة الله تعالى ومخاطبة الملائكة المقربين صما عن ثناء الله تعالى عليهم الثالث قال مقاتل انه حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون يصيرون عميا بكما صما أما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون الرابع أنهم يكونون رائين سامعين ناطقين في الموقف ولولا ذلك لما قدروا أن يطالعوا كتبهم ولا أن يسمعوا الالزام بحجة الله تعالى عليهم الا أنهم اذا أخذوا يذهبون من الموقف الى النار جعلهم الله تعالى عميا بكما صما قال الرازي والجواب الاول أولى لان الآيات السابقة تدل على أنهم في النار يبصرون ويسمعون ويصيحون ثم بين تعالى مكانهم بقوله عز وجل (مأواهم جهنم) تسعر عليهم (كلما خبت) أي أخذ لهبها في السكون عند أكلها لحومهم وجلودهم (زدناهم سعيرا) توقدا باعادة الجلود واللحوم ملتهبة مسعرة كأنهم لما كذبوا بالاعادة بعد الافناء جزاهم الله تعالى بأن لا يزالوا على الاعادة والافناء وقرأ نافع وابن كثير وعاصم وابن عامر باظهار تاء التأنيث عند الزاي وأدغمها الباقون ثم بين علة تعذيبهم ليرجع منهم من قضى بسعادته بقوله تعالى (ذلك) أي العذاب العظيم (جزاؤهم بأنهم) أي أهل الضلالة (كفروا بآياتنا) القرآنية وغيرها وكانوا كل يوم يزدادون كفرا وهم عازمون على الدوام على ذلك ما بقوا (وقالوا) انكارا القدرتنا (أئذا كنا عظاما ورفاتا) ممزقين في الارض ثم كرروا الانكار كأنهم على ثقة من أمرهم هذا الذي بطلانه أوضح من الشمس بقولهم (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) فنحن نريهم جزاء على هذا الانكار المكرر الخلق الجديد في جلودهم ولحومهم مكررا كل لحظة قال تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ثم أتبعه بقاطع في بيان جهلهم بقوله تعالى (أولم يروا) أي يعلموا بعيون بصائرهم على ما هو كالرؤية بعيون أبصارهم لما قام عليه من الدلائل بصحته من الشواهد الجلائل (أن الله الذي خلق السموات) جمعها لما دل على ذلك من الحسن ولما لم تكن الارض مثل ذلك أفردها مريدا الجنس الصالح للجميع بقوله تعالى (والارض) على كبر أجرامها وعظم احكامها وقوله تعالى (قادر على أن يخلق مثلهم) فيه قولان الاول المعنى قادر على أن يخلقهم ثانيا فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظة المثل كما يقوله المتكلمون ان الاعادة مثل الابتداء الثاني أن المراد قادر على أن يخلق عبيدا آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله تعالى ويأت بخلق جديد وقوله تعالى ويستبدل قوما غيركم قال الواحدي والقول هو الاول لانه أشبه بما قبله * ولما بين الله تعالى بالدليل المذكور أن البعث والقيام أمر ممكن

الوجود فى نفسه أردفه ببيان أن لوقوعه فى الوجود وقتا معلوما عند الله وهو قوله تعالى (وجعل لهم أجلا لاريب) أى لاشك (فيه) وهو الموت أو القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا) أى بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا الا الكفر والجحود * ولما قال الكفار لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا فطلبوا اجراء الانهار والعيون فى بلدتهم لتكثر أموالهم وتتسع عيشتهم بين تعالى أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء المتعنتين (لو أنتم) أى دون غيركم (تملكون خزائن) عبر بصيغة منتهى الجموع لان المقام جدير بالمبالغة (رحمة ربى) أى خزائن رزقه وسائر نعمه وذلك غير متناه (اذا لامسكتم) أى لوقع منكم الامساك عن الانفاق فى بعض الوجوه التى تحتاجونها (خشية) أى مخافة عاقبة (الانفاق) أى الموصل الى الفقر فكان المعنى انكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لانهاية لها لبقيتم على الشح والدناءة وهذا مبالغة عظيمة فى وصفهم بهذا الشح وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى أنتم مرفوع بفعل يفسره مابعده قال الزمخشرى تقديره لو تملكون جرى فيه على مذهب الكوفيين من أن لو يليها الفعل مضمرا كما يليها ظاهرا والبصريون يمنعون ايلاءها لها مضمرا الا فى شذوذ كقول حاتم لو ذات سوار لطمتنى وأصل هذا المثل ان امرأة عطلاء من الحلى والهيئة لطمت حاتما على نحر الناقة وقالت له بقسوة انما أردنا بفصدها والفصد عندهم أن يقطع عرقا من عروق ثم يجمع دمها فيشوى وقيل أصله ان المرأة المذكورة لطمت رجلا فقال لو ذات سوار لطمتنى لاحتملته فصار مثلا يضرب لكريم يلطمه الدنى ثم استدل على صحة هذا المفروض بالشاهد من مضمون قولهم (وكان) أى جبلة وطبعا (الانسان) أى الذى من شأنه الانس بنفسه فهو لذلك لا يعقل الامور حق عقلها (قتورا) أى بخيلا * (تنبيه) * فتح الباء فى ربى نافع وأبو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم فى المد (فان قيل) قد يوجد فى جنس الانسان من هو جواد كريم (أجيب) من وجوه الاول ان الاصل فى الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لابد وأن يحبس مابه يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه الا أنه قد يجود به لاسباب من خارج فثبت أن الاصل فى الانسان البخل الثانى أن الانسان انما يبذل لطلب الثناء والحمد وليخرج عن عهدة الواجب فهو فى الحقيقة ما أنفق الا ليأخذ العوض فهو فى الحقيقة بخيل الثالث أن المراد بهذا الانسان المعهود السابق وهم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا * ولما قدم سبحانه وتعالى أن أكثر الناس جحدوا الآيات لكونه تعالى حكم بضلالهم ومن حكم بضلاله لا يمكن هداه شرع يسلى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عما اتفق لمن قبله من الانبياء بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أى واضحات واختلف فى هذه الآيات فقال ابن عباس والضحاك هى العصا واليد البيضاء والعقدة التى كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقال مجاهد وعطاء هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات وقال البقاعى وهى كما فى التوراة العصا ثم الدم ثم الضفادع ثم القمل ثم موت البهائم ثم البرد الكبار التى انزلها

الله تعالى مع النار المضطرمة فكانت تهلك كل ما مرت عليه من نبات وحيوان ثم الجراد
ثم الظلمة ثم موت الابكار من الآدميين وجميع الحيوان ثم قال وقد نظمتها اليهود حفظها فقلت

عصا قمل موت البهائم ظلمة * جراد دم ثم الضفادع والبرد
وموت بكور الآدمي وغيره * من الحي آتاه الذي عز وانفرد

قال وكأنه عد اليد مع العصا آية ولم تفرد اليد لانه ليس فيها ضرر عليهم اه وقال البيضاوي هي
العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق
الطور على بني اسرائيل وذكر محمد بن كعب القرظي الطمس والبحر بدل السنين ونقص
من الثمرات وقال كان الرجل منهم مع أهله في فراشه وقد صارا حجرين والمرأة منهم قائمة تخبز
وقد صارت حجرا وقال بعضهم هي آيات الكتاب وهي أحكام يدل عليها ما روى عن صفوان
ان يهوديا قال لصاحبه تعالى نسأل هذا النبي فقال الآخر لا تقل نبي فانه لو سمع صارت له
أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال لا تشركوا
بالله شيأ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا
بالبريء الى سلطان ليقتله ولا تسرقوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة
اليهود أن لا تعدوا في السبت فقبلوا يده وقالوا نشهد انك نبي قال فما منعكم أن تتبعوني قالوا
ان داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي وانا نخاف ان اتبعناك أن تقتلنا اليهود وقال الرازي
علم أنه تعالى ذكر في القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه السلام أحدها أنه تعالى أزال
العقدة من لسانه قيل في التفسير ذهب أعجم وجاء فصيحا ثانيها انقلاب العصا حية ثالثها تلقف
الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها رابعها اليد البيضاء وخمسة أخرى وهي الطوفان والجراد
والقمل والضفادع والدم والعاشر شق البحر وهو قوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر والحادي
عشر الحجر وهو قوله تعالى أن اضرب بعصاك الحجر والثاني عشر اظلال الجبل وهو قوله
تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة والثالث عشر انزال المن والسلوى عليه وعلى قومه
والرابع عشر والخامس عشر قوله تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات
والسادس عشر الطمس على أموالهم حجارة من النخل والدقيق والاطعمة والدراهم والدنانير
روى أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله تعالى تسع آيات بينات فذكر محمد
ابن كعب في جملة التسع حل عقدة اللسان والطمس فقال عمر بن عبد العزيز هكذا يجب
أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فنفضه فاذا بيض مكسور نصفين
وجوز مكسور وفوم وعدس وحمص كلها حجارة وقوله تعالى (فاسأل) أي يا أعظم خلقنا
(بني اسرائيل) يجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقرأ ابن كثير
والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ويجوز
أن يكون الخطاب له خاصة وأمره بالسؤال لهم ليتبين له كذبهم مع قومهم أي فاسأل بني اسرائيل
عامة الذين نبهوا قريشا على السؤال عن الروح كما في بعض الروايات وعن أهل الكهف وذي

القرنين وعن حديث موسى عليه السلام والمؤمنين منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه (اذ) أى عن ذلك حين (جاءهم) أى جاء آباءهم فوقع له من التكذيب بعد اظهار المعجزات الباهرات ما وقع لك (فقال) أى فذهب الى فرعون فأمره بارسالهم معه فأبى فأظهر له الآيات واحدة بعد أخرى فتسبب عن ذلك صدق ما يقتضيه الحال وهو أن قال (له فرعون) عتوا واستكبارا (انى لاظنك ياموسى مسحورا) أى مخدوعا مغلوبا على عقلك فكل ما ينشأ عنك فهو من آثار السحر وهذا كما قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقال فى موضع آخر ساحر وانهم ربما أطلقوا اسم المفعول مريدين اسم الفاعل مبالغة لانه كالمخبر عن الفعل وفى الامر بسؤال اليهود تنبيه على ضلالهم ولما لم يؤمن فرعون على تواتر تلك الآيات وعظمها فكأنه قيل فما قال موسى عليه السلام فقيل (قال) لفرعون (لقد علمت) بفتح التاء قراءة غير الكسائى وقرأ الكسائى بضمها على اخباره عن نفسه (ما أنزل هؤلاء) أى الآيات (الارب السموات والارض) أى خالقهما ومدبرهما حال كون هذه الآيات (بصائر) أى بينات يبصر بها اصدق وأما السحر فانه لا يخفى انه خيال لا حقيقة له ولكنك تعاند *(تنبيه)* قوله تعالى هؤلاء الكلام عليه من جهة الهمزتين كالكلام على هؤلاء ان كنتم فى البقرة وقد تقدم الكلام على ذلك * ثم حكى الله تعالى ان موسى قال لفرعون (وانى) أى وان ظننتنى يا فرعون مسحورا (لاظنك يا فرعون مثبورا) أى ملعونا مطرودا ممنوعا من الخير فاسد العقل فعارضه موسى بذلك وشتان بين الظنين فان ظن فرعون كذب صرف لعناده لرب العالمين لوضوح مكابرته للبصائر التى كشف عنها ربها الغطاء فهى أوضح من الشمس وظن موسى عليه السلام قريب الى الصحة واليقين من نظائر أماراته لان هذه الآيات ظاهرة وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب العاقل أنها من عند الله وفى أنه تعالى أظهرها لاجل تصديقى وأنت منكرها فلا يحملك على هذا الانكار الا الحسد والعناد والبغى والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور (فأراد) أى فما تسبب عن هذا الذى هو موجب للايمان فى العادة الا أن فرعون أراد (أن يستفزهم) أى يستخف بموسى وبمن آمن معه ويخرجهم فيكونوا كالماء اذا سال من قولهم فز الجرح اذا سال (من الارض) بالنفى والقتل للتمكن منهم كما أراد هؤلاء أن يستفزوك لمنعها مما هم عليه من الكفر والعناد ثم أخذ تعالى يحذرهم سطواته بما فعل بمن كان قبلهم وأكثر منهم وأشد بقوله تعالى (فأغرقناه) أى فتسبب عن ذلك ان رددنا كيده فى نحره كما قال تعالى ولا يحيق المكر السىء الا بأهله أراد فرعون أن يخرج موسى من أرض مصر لتخلص له تلك البلاد والله تعالى أهلك فرعون وجعل تلك الارض خالصة لموسى ولقومه فأدخله البحر حين أدخل بنى اسرائيل فأنجاهم وأغرق آل فرعون (ومن معه جميعا) كما جرت به سنة الله تعالى فيمن عاند بعد أن رأى الخوارق وكفر النعمة وأفرط فى البغى بعد ظهور الحق فليحذر هؤلاء مثل ذلك ولاسيما اذا خرج رسولنا من بين أظهرهم ففى هذه الآية وأمثالها بشارة له صلى الله عليه وسلم فى ان الله تعالى يسلك به فى النصرة والتمكن سبيل اخوانه من الرسل عليهم الصلاة

والسلام

والسلام (وقلنا من بعده) أى الاغراق (لبنى اسرائيل) الذين كانوا تحت يده أذل من العبيد لتقواهم واحسانهم (اسكنوا الارض) أى التى أراد أن يستفزكم منها (فاذا جاء) أى مجيأ محققا (وعد الآخرة) أى القيامة بعد ان سكنتم الارض أحياء ودفنتم فيها أمواتا (جئنا) أى بما لنا من العظمة والقدرة (بكم) منها (لفيفا) أى بعثنا كم واياهم مختلطين لاحكم لاحد على آخر ولادفع لاحد عن آخر على غير الحالة التى كانت فى الدنيا ثم ميزنا بعضكم عن بعض ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى ولقد صرفنا قوله عز وجل (وبالحق) أى من المعانى الثابتة التى لامرية فيها لابغيره (أنزلناه) نحن أى القرآن فهو ثابت لايزول كما أن الباطل هو الذاهب الزائل وهذا القرآن الكريم مشتمل على أشياء لاتزول وذلك لانه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والاكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الانبياء واثبات الحشر والنشر والقيامة وكل ذلك مما لايقبل الزوال ويشتمل أيضا على شريعة باقية لايتطرق اليها النقص والتغيير والتحريف وأيضا هذا القرآن تكفل الله تعالى بحفظه من تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (وبالحق) لابغيره (نزل) هو ووصل اليهم على لسانك بعد انزاله عليك كما أنزلناه سواء غضا طريا محفوظا لم يطرأ عليه طارئ فليس فيه من تحريف ولاتبديل كما وقع فى كتاب اليهود الذين سألهم قومك ثم قال تعالى (وما أرسلناك) ياأفضل الخلق بما لنا من العظمة (الامبشرا) للمطيع (ونذيرا) للعاصى من العقاب فلاعليك الا التبشير والانذار لامايقترحونه عليك من المعجزات فان قبلوا الدين الحق انتفعوا به والافليس عليك من كفرهم شئ ثم ان الله تعالى أخبر أن الحكمة فى انزال القرآن مفرقا بقوله عز وجل (وقرآنا) أى وفصلنا أو وأنزلنا قرآنا (فرقناه) أى أنزلناه منجما فى أوقات متطاولة قال سعيد ابن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا الى السماء السفلى ثم فصل فى السنين التى نزل فيها قال قتادة كان بين أوله وآخره عشرون سنة وقيل ثلاث وعشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ينزل جملة (لتقرأه على الناس) أى عامة (على مكث) أى مهل وتؤدة ليفهموه (ونزلناه) من عندنا بما لنا من العظمة (تنزيلا) بعضه اثر بعض مفرقا بحسب الوقائع لانه أتقن فى فصلها وأعون على الفهم لطول التأمل لما نزل من نجومه فى مدة ما بين النجمين لغزارة ما فيه من المعانى ثم ان الله تعالى هددهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) لهؤلاء المضلين (آمنوا به) أى القرآن (أولا تؤمنوا) فالايمان به غير محتاج اليكم ولاموقوف عليكم لانكم ان آمنتم به كان الحظ لكم والالم تضروا الا أنفسكم فاختاروا ماتريدون فان ايمانكم بالقرآن لايزيده كمالا وامتناعكم منه لايورثه نقصانا وقوله تعالى (ان الذين أوتوا العلم من قبله) أى من قبل انزاله ممن آمن به من بنى اسرائيل تعليل له أى ان لم تؤمنوا به وانتم أهل جاهلية وشرك فان خيرا منكم وأفضل وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحى وما الشرائع قد آمنوا به وصدقوه وثبت عندهم أنه النبى العربى الموعود فى كتبهم (اذا يتلى عليهم) أى القرآن (يخرون للاذقان) منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام

قال الزجاج الذقن مجمع اللحيين وكما يبتدئ الانسان بالخرور الى السجود فأقرب الاشياء من وجهه الى الارض الذقن وقيل ان الاذقان كناية عن اللحى والانسان اذا بالغ عند السجود في الخشوع والخضوع ربما مسح لحيته على التراب فان اللحية يبالغ في تنظيفها فاذا عفرها الانسان بالتراب في عرض المبالغة فقد أتى بغاية التعظيم وقيل ان الانسان اذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الارض في معرض السجود كالمغشى عليه فيكون حينئذ خروره على الذقن فقوله يخرون للاذقان كناية عن غاية وله وخوفه وخشيته (فان قيل) لم قال يخرون للاذقان سجدا ولم يقل يسجدون (أجيب) بأن المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم الى ذلك حتى كأنهم يسقطون (فان قيل) لم قال يخرون للاذقان ولم يقل على الاذقان (أجيب) بأن العرب تقول اذا خر الرجل فوقع لوجهه خر للذقن ثم بين أن ذلك ليس سقوطا اضطراريا من كل جهة بقوله تعالى (سجدا) أى يفعلون ذلك لما يعاينون من خيفته عما أوتوا من العلم السالف ومافى قلوبهم من الاذعان والخشية للرحمن (ويقولون) أى على وجه التجديد المستمر (سبحان ربنا) تنزيه الله عن خلف الوعد (ان) أى انه (كان) أى كونا لا ينفك (وعد ربنا) أى المحسن الينا بالايمان وما تبعه من وجوه العرفان (لمفعولا) أى دون خلف ولا بد أن يأتى جميع ما وعد به فى الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال الفرقان عليه ومن الثواب والعقاب وهو تعريض بقريش حيث كانوا يستهزؤن بالوعيد فى قولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ونحوه مما فى معناه الطعن فى قدرة الله تعالى القادر على كل شئ وقوله تعالى (ويخرون للاذقان يبكون) كرره لاختلاف الحال والسبب فان الاول للشكر عند انجاز الوعد والثانى لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله (ويزيدهم) أى سماع القرآن (خشوعا) أى خضوعا وتواضعا ولين قلب ورطوبة عين * ولما طالت الكلمات فى المناظرة مع المشركين ومنكرى النبوات والجواب عن شبهاتهم أتبعها ببيان كيف يدعون الله ويطيعونه وكيف يذكرونه فى وقت الاشتغال بأداء العبودية فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) لهم (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات ليلة وهو ساجد يا الله يا رحمن فسمعها أبو جهل وهم لا يعرفون الرحمن فقال ان محمدا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الها آخر مع الله تعالى يقال له الرحمن فأنزل الله تعالى هذه الآية أى ان شئتم قولوا يا الله وان شئتم قولوا يا رحمن وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالدعاء يقول يا الله يا رحمن فسمعه أهل مكة فأقبلوا عليه فأنزل الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية وعن ابن عباس ان ذكر الرحمن كان فى القرآن قليلا فى أول ما أنزل وكان الذين قد أسلموا من اليهود يسوءهم قلة ذلك لكثرته فى التوراة كابن سلام وابن يامين وابن صوريا وغيرهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فنزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فقال قريش ما بال محمد كان يدعو الها واحدا وهو الآن يدعو الهين ما نعرف الرحمن

الاصحاب اليمامة فنزل وهم بذكر الرحمن هم كافرون ونزل أيضا قوله تعالى قالوا وما الرحمن وفرح مؤمنوا أهل الكتاب وهو قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب أى مشركى قريش من ينكر بعضه وعن ابن عباس سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الى آخر الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أمان من السرقة فان رجلا من المهاجرين تلاها حين أخذ مضجعه فدخل عليه سارق فجمع ما فى البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى الى الباب فوجد الباب مردودا فوضع الكارة ففعل ذلك ثلاث مرات فضحك صاحب الدار فقال انى أحصن بيتى (فان قيل) اذا قال الرجل ادع زيدا أو عمرا فهم منه كون زيد مغايرا لعمرو فيوهم كون الله تعالى غير الرحمن وحينئذ تقوى شبهة أبى جهل لعنه الله تعالى (أجيب) بأن الدعاء هنا بمعنى التسمية لا بمعنى النداء والتسمية تتعدى الى مفعولين يقال دعوته زيدا ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال دعوت زيدا والله والرحمن المراد بهما الاسم لا المسمى وأو للتخيير فمعنى الآية ادعوا باسم الله أو ادعوا باسم الرحمن أى اذكروه بهذا الاسم أو اذكروه بذلك الاسم فقوله ادعوا الله ينبه على ما لزم فى كرمه بحكم الوعد من افاضة الرحمة والكرم وأيضا تخصيص هذين الاسمين بالذكر يدل على أنهما أشرف من سائر الاسماء وتقديم اسم الله على اسم الرحمن يدل على أن قولنا الله أعظم الاسماء وتقدم الكلام على ذلك فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم والتنوين فى قوله تعالى (أياما تدعوا) عوض عن المضاف اليه وما صلة للابهام المؤكد والمعنى أيا تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله تعالى (فله الاسماء الحسنى) لانه اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لانهما منها ومعنى كونها أحسن الاسماء أنها مستقلة بمعانى التمجيد والتقديس والتعظيم وقد قدمنا ذكر الاسماء الحسنى فى الاعراف عند قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وبعض الاحاديث الواردة فى فضلها فليراجع ووقف حمزة والكسائى على الالف بعد الياء ووقف الباقون على الالف بعد الميم واختلف فى تفسير نزول قوله تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) فروى عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته بالقراءة فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى اليه ولا تجهر بصلاتك فيسمعه المشركون فيسبوا الله تعالى عدوا بغير علم ولا تخافت بها فلا تسمع أصحابك (وابتغ بين ذلك سبيلا) وروى أنه صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة فكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يخفى صوته بالقراءة فى صلاته وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر لم تخفى صوتك فقال أناجى ربى وقد علم حاجتى وقال لعمر لم ترفع صوتك فقال أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلا وعمر أن يخفض صوته قليلا وقيل معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار وقيل ان المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة رضى الله تعالى عنها وأبى هريرة ومجاهد قالت عائشة هى الدعاء وروى هذا مرفوعا أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال فى هذه الآية انما ذلك فى الدعاء والمسئلة قال عبد الله بن شداد كان اعراب من بنى تميم اذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا يجهرون فأنزل الله تعالى هذه والمخافتة خفض الصوت والسكون يقال صوت خفيت أى خفيض ويقال للرجل اذا مات قد خفت أى انقطع كلامه وخفت الزرع اذا ذبل والمستحب من ذلك التوسط وهو أن يسمع نفسه كما روى عن ابن مسعود أنه قال من لم يخافت لم يسمع أذنيه وقد مدح الله تعالى المؤمنين بقوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال عز من قائل ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وبعضهم قال الآية منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية قال الرازى وهو بعيد* ولما أمر الله تعالى أنه لا يذكر ولا ينادى الا بأسمائه الحسنى علم كيفية التحميد بقوله تعالى (وقل الحمد لله) أى الملك الاعظم ثم ذكر سبحانه وتعالى من صفات التنزيه والجلال وهى السلوب ثلاثة أنواع الاول قوله تعالى (الذى لم يتخذ) أى لكونه محيطا بالصفات الحسنى (ولدا) والسبب فيه وجوه الاول أن الولد هو الشئ المتولد من جزء من أجزاء ذلك الشئ فكل من له ولد فهو مركب من الاجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج والمحتاج لا يقدر على كمال الانعام فلا يستحق كمال الحمد الثانى أن كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم لولده فاذا لم يكن له ولد أفاض تلك النعم على عبيده الثالث أن الولد هو الذى يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضيا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الانعام فى كل الاوقات فوجب أن لا يستحق الحمد على الاطلاق النوع الثانى من الصفات السلبية قوله تعالى (ولم يكن له) بوجه من الوجوه (شريك فى الملك) والسبب فى اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك لم يعرف حينئذ أن هذه النعم والمنافع حصلت منه أو من شريكه فلا يعرف كونه مستحقا للحمد والشكر النوع الثالث قوله تعالى (ولم يكن له ولى من الذل) أى ولم يوال أحدا من أجل مذلة به يدفعها بموالاته والسبب فى اعتباره أنه لو جاز عليه ولى يلى أمره كان مستوجبا الاعظم أنواع الحمد ومستحقا لاقسام الشكر فنفى عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختيارا أو اضطرارا أو ما يعاونه ويقويه ورتب الحمد عليه للدلالة على أنه الذى يستحق جنس الحمد لانه كامل الذات المنفرد بالايجاد المنعم على الاطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وكبره تكبيرا) أى وعظمه تعظيما على نفى اتخاذ الولد والشريك والذل وكل ما لا يليق به وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على أنه المستحق لجميع المحامد لكمال ذاته وتفرده فى صفاته روى الامام أحمد فى مسنده عن معاذ الجهنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول آية العز الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك الى آخر السورة وعن ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدونه فى السراء والضراء وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم ان أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا اله الا الله وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الكلام الى الله تعالى أربع لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت أخرجه مسلم وروى أن قول العبد الله أكبر خير له من الدنيا ومافيها وعن عمرو بن شعيب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه وقل الحمد لله الآية يقال أفصح الصبي في منطقه فهم ما يقول وعن عبد الله بن كعب قال افتتحت التوراة بفاتحة سورة الانعام وختمت بخاتمة هذه السورة وأما ما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة بني اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية فحديث موضوع

(سورة الكهف مكية)

الا واصبر نفسك الآية وهي مائة وعشر آيات وألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وعدد حروفها ستة آلاف وثلثمائة وستون حرفا

(بسم الله) الذي لا كفء له ولا شريك (الرحمن) الذي أقام عباده على أوضح الطرق بانزال هذا الكتاب (الرحيم) بتفضيل من اختصه بالصواب وهو قوله تعالى (الحمد لله) تقدم الكلام عليه مستقصى في أول الفاتحة (الذي أنزل على عبده الكتاب) أي القرآن رتب تعالى استحقاق الحمد على انزاله تنبيها على أنه أعظم انعامه وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر لان انزال القرآن نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم أما كونه نعمة عليه فلان الله تعالى أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والاكرام وأسرار أحوال الملائكة والانبياء وأحوال القضاء والقدر وتعلق أحوال العالم السفلي بأحوال العالم العلوي وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات ولاشك أن ذلك من أعظم النعم وأما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلانه مشتمل على التكاليف والاحكام والوعد والوعيد والعقاب وبالجملة فهو كتاب كامل في أقصى الدرجات فكل أحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فوجب عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته أن يحمدوه على هذه النعم الجزيلة وقال تعالى على عبده لما في ذلك من الوصف بالعبودية والاضافة اليه سبحانه وتعالى من الاعلام بتشريفه واشارة الى أنه الذي أسرى به الى حضرات مجده ليريه من آياته ثم انه تعالى وصف الكتاب بوصفين الاول قوله تعالى (ولم يجعل له) أي فيه (عوجا) أي اختلافا وتناقضا كما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا والجملة حال من الكتاب الوصف الثاني قوله تعالى (قيما) قال ابن عباس يريد مستقيما أي معتدلا لا افراط فيه ولا تفريط قال الرازي وهذا عندي مشكل لانه لامعنى لنفي الاعوجاج الا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم

يوجب التكرار بل الحق أن المراد من كونه قيما كونه سببا لهداية الخلق وأنه يجري مجرى من يكون قيما للاطفال فالارواح البشرية كالاطفال والقرآن كالقيم المشفق القائم بمصالحهم وقال قبل ذلك ان الشئ يجب أن يكون كاملا في ذاته ثم يكون مكملا لغيره ويجب أن يكون تاما في ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عنه كمال الغير فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا اشارة الى كونه كاملا في ذاته وقوله قيما اشارة الى كونه مكملا لغيره ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة في صفة الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين فقوله لاريب فيه اشارة الى كونه في نفسه بالغا في الصحة وعدم الاخلال الى حيث يجب على العاقل أن لا يرتاب فيه وقوله هدى للمتقين اشارة الى كونه سببا لهداية الخلق ولكمال حالهم فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا قائم مقام قوله تعالى لاريب فيه وقوله تعالى قيما قائم مقام قوله تعالى هدى للمتقين واختلف النحويون في نصب قوله تعالى قيما على أوجه . الاول قال في الكشاف لا يجوز جعله حالا من الكتاب لان قوله تعالى ولم يجعل له عوجا معطوف على قوله تعالى أنزل فهو داخل في حيز الصلة وانه لا يجوز قال ولما بطل هذا وجب أن ينتصب بمضمر والتقدير ولم يجعل له عوجا جعله قيما لانه تعالى اذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة قال فان قلت فما فائدة الجمع بين نفي العوج واثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر قلت فائدته التأكيد ورب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح الوجه الثاني انه حال ثانية والجملة المنفية قبله حال أيضا كما مر وتعدد الحال لذي حال واحد جائز والتقدير أنزله غير جاعل له عوجا قيما الوجه الثالث أنه حال أيضا ولكنه بدل من الجملة قبله لانها حال وابدال المفرد من الجملة اذا كانت بتقدير مفرد جائز * ولما ذكر تعالى أنه أنزل على عبده هذا الكتاب الموصوف بما ذكر أردفه ببيان ما لاجله أنزله بقوله عز وجل (لينذر) أي يخوف الكتاب الكافرين (بأسا) أي عذابا (شديدا من لدنه) أي صادرا من عنده وقرأ شعبة باسكان الدال وكسر النون والهاء وصلة الهاء بياء والباقون بضم الدال وسكون النون وضم الهاء وابن كثير على أصله بضم الهاء في الوصل بواو (ويبشر المؤمنين) أي الراسخين في هذا الوصف وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء التحتية وسكون الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم التحتية وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة (الذين يعملون الصالحات) وهي ما أمر به خالصا له وذلك الشيآن مفتاح الايمان (أن لهم) أي بسبب أعمالهم (أجرا حسنا) هو الجنة حال كونهم (ماكثين فيه أبدا) بلا انقطاع أصلا فان الابد زمان لا آخر له وقوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) معطوف على قوله تعالى لينذر بأسا شديدا من لدنه والمعطوف يجب كونه مغايرا للمعطوف عليه فالاول عام في حق كل كافر والثاني خاص بمن أثبت لله ولدا وعادة القرآن جارية بانه اذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيها على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال فكذا ههنا هذا العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر اثبات الولد لله تعالى * (تنبيه) * الذين أثبتوا لله ولدا ثلاث طوائف الاولى

كفار

كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله الثانية النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله الثالثة
اليهود الذين قالوا عزير ابن الله * ثم انه تعالى أنكر على القائلين ذلك من وجهين الاول قوله
تعالى (مالهم به) أى القول (من علم) أى أصلا لانه مما لا يمكن أن يتعلق العلم به لانه لا وجود له
ولا يمكن وجوده ثم قرر تعالى هذا المعنى وأكده بقوله (ولا لآبائهم) الذين يغتبطون بتقليدهم
فى الدين حتى فى هذا الذى لا يتخيله عاقل ولو أخطؤا فى تصرف دنيوى لم يتبعوهم فيه (فان قيل)
اتخاذ الله ولدا محال فى نفسه فكيف قيل مالهم به من علم (أجيب) بأن انتفاء العلم بالشئ قد
يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد لا يكون لانه فى نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ونظيره
قوله تعالى ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به الوجه الثانى (كبرت) أى مقالتهم (كلمة)
أى ما أكبرها من كلمة وصور رفظاظة اجترائهم على النطق بها بقوله تعالى (تخرج من أفواههم)
أى لم يكفهم خطورها فى أنفسهم وترددها فى صدورهم حتى تلفظوا بها وكان صدورهم
بها على وجه التكرير كما يشير اليه التعبير بالمضارع *(تنبيه)* سميت هذه كلمة كما يسمون
القصيدة كلمة * ثم بين تعالى ما أفهمه الكلام من أنه كما أنهم لا علم لهم بذلك لا علم لاحد به أصلا
لانه لا وجود له فقال تعالى (ان) أى ما (يقولون الا كذبا) أى قولا لا حقيقة له بوجه من
الوجوه * ولما كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على ايمان قومه شفقة عليهم وغيرة
على المقام الالهى الذى ملأ قلبه تعظيما خفض عليه سبحانه وتعالى بقوله تعالى (فلعلك باخع)
أى قاتل (نفسك) من شدة الغم والوجد وأشار تعالى الى شدة نفرتهم وسرعة مفارقتهم وعظيم
مباعدتهم بقوله عز من قائل (على آثارهم) أى حين تولوا عن التوحيد وعن اجابتك (ان لم
يؤمنوا بهذا الحديث) أى القرآن المتجدد تنزيله على حسب التدريج (أسفا) منك على ذلك
والاسف شدة الحزن والغضب (فان قيل) ذلك يدل على حدوث القرآن (أجيب) بأنه محمول
على الالفاظ وهى حادثة * ثم بين سبحانه وتعالى علة ارشاده الى الاعراض عنهم بغير ما يقدر عليه
من التبليغ للبشارة والنذارة بأنهم لم يخرجوا عن مراده تعالى وأن الايمان لا يقدر على
ادخاله قلوبهم غيره بقوله عز وجل (انا) أى انا لا نفعل ذلك لانا (جعلنا ما على الارض) من
الحيوان والنبات والشجر والانهار والمعادن وغير ذلك وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة
الارض وبالجملة فليس فى الارض الا المواليد الثلاثة وهى المعادن والنبات الشامل للشجر
والحيوان وأشرف أنواع الحيوان الانسان (زينة لها) أى الارض قيل المراد أهلها
أى زينة لاهلها قال الرازى ولا يمتنع أن يكون ما تحسن به الارض زينة لها كما جعل الله السماء
مزينة بالكواكب * ولما أخبر تعالى بزينتها أخبر تعالى بعلته بقوله تعالى (لنبلوهم) أى
نعاملهم معاملة المختبر (أيهم أحسن عملا) باخلاص الخدمة لربه فيصير ما كنا نعلمه منهم
ظاهرا فان الله تعالى يعلم السر وأخفى لتقام به عليهم الحجة على ما يتعارفونه بينهم بأن من أظهر
موافقة الامر فيما نال من الزينة حاز المثوبة ومن اجترأ على مخالفة الامر بما آتاه منها استحق
العقوبة فكأنه تعالى يقول يا محمد انى خلقت الارض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع

والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم انهم يكفرون ويتمردون ومع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم فأنت أيضا يا محمد لا ينبغي أن تنتهي في الحزن بسبب كفرهم الى أن تترك الاشتغال بدعوتهم الى الدين الحق * ثم انه تعالى لما بين أنه انما زين الارض لاجل الامتحان والابتلاء لا لاجل أن يبقى الانسان فيها متنعما بها أبدا زهد فيها بقوله تعالى (وانا لجاعلون ما عليها) من جميع تلك الزينة لا يصعب علينا شيء منه (صعيدا) أي فتاتا (جرزا) أي يابسا لا ينبت ونظيره قوله تعالى كل من عليها فان وقوله تعالى فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وتخصيص الاهلاك بما على الارض يوهم بقاء الارض الا أن سائر الآيات على أن الارض أيضا لا تبقى كما قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض * ولما أن القوم تعجبوا في قصة أصحاب الكهف وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان قال تعالى (أم حسبت) أي ظننت على مالك من العقل الرزين والرأي الرصين (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) على ما زعم من تهويل السائلين من الكفرة من اليهود والعرب والواقع أنهم كانوا من العجائب ليسوا بعجب بالنسبة الى كثرة آياتنا فان من كان قادرا على تخليق السموات والارض كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلثمائة سنة وأكثر في النوم والكهف الغار الواسع في الجبل واختلف في الرقيم فقيل هو اسم كلبهم قال أمية بن أبي الصلت

* وليس بها الا الرقيم مجاورا *

وصيدهم (وهو بكسر الصاد مفعول مجاورا أي فناءهم) والقوم في الكهف هجد (أي نوم) وقيل هو لوح من رصاص رقمت فيه أسماؤهم وقصصهم جعل على باب الكهف قال البغوي وهذا أظهر الاقاويل وقيل ان الناس رقموا حديثهم نقرا في الجبل وقيل هو الوادي الذي فيه الكهف وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل أصحاب الرقيم قوم آخرون غير أصحاب الكهف كانوا ثلاثة يطلبون الكلأ أو نحوه لاهاليهم فأخذهم المطر فأووا الى الكهف فانحطت صخرة وسدت عليهم بابه فقال أحدهم اذكروا أيكم عمل حسنة لعل الله يرحمنا ببركته فقال واحد استعملت أجراء ذات يوم فجاء رجل منهم وسط النهار وعمل في بقيته مثل عملهم فأعطيته مثل أجرهم فغضب أحدهم وترك أجره فوضعته في جانب البيت فمر بي بقر فاشتريت فصيلة والفصيلة ولد الناقة اذا انفصل عن أمه فبلغت ما شاء الله فرجع الي بعد حين شيخا ضعيفا لا أعرفه وقال ان لي عندك حقا وذكره حتى عرفته فدفعتها اليه جميعا اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا فانصدع عنهم الجبل حتى رأوا الضوء والصدع الشق والصداع وجع الرأس وقال آخر كان في فضل وأصاب الناس شدة فجاءتني امرأة تطلب مني معروفا فقلت والله ما هو دون نفسك فأبت وعادت ثم رجعت ثلاثا ثم ذكرت ذلك لزوجها فقال أجيبي له وأعيني عيالك فأتت وسلمت الي نفسها فلما كشفتها وهممت بها ارتعدت فقلت لها ما لك فقالت أخاف الله تعالى فقلت لها خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء فتركتها وأعطيتها ملتمسها اللهم ان كنت فعلته لوجهك

فافرج عنا فانصدع حتى تعارفوا وقال الثالث كان لى أبوان هرمان وكان لى غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع الى غنمى فحبسنى ذات يوم غيم فلم أرجع حتى أمسيت فأتيت أهلى وأخذت محلبى فحلبت فيه ومضيت اليهما فوجدتهما نائمين فشق على أن أوقظهما فوقفت حابسا محلبى على يدى حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك الكريم فافرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا وقد رفع ذلك النعمان بن بشير وقد تقدم سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله تعالى ويسئلونك عن الروح وذكر محمد بن اسحق سبب نزول هذه القصة مشروحا فقال كان النضر بن الحرث من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس مجلسا ذكر فيه الله تعالى وحذر قومه ما أصاب من كان قبلهم من الامم وكان النضر يخلفه فى مجلسه اذا قام وقال أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم قال ان قريشا بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبى معيط الى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما سلاهم عن محمد وصفته فانهم أهل الكتاب الاول وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الانبياء فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال لهم اليهود سلوه عن ثلاثة عن فتية ذهبوا فى الدهر الاول فان حديثهم عجيب وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها وسلوه عن الروح وما هى فان أخبركم فهو نبى والا فهو متقول فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد وأخبراهم بما قالته اليهود فجاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبركم بما سألتم عنه غدا ولم يستثن فانصرفوا عنه فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لم ينزل عليه وحى وشق عليه ذلك ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله بسورة أهل الكهف وفيها معاتبة الله تعالى اياه على حزنه عليهم وفيها خبر أولئك الفتية وخبر الرجل الطواف ثم بدأ بالفتية فقال (اذ) أى واذكر اذ (أوى الفتية) وهم أصحاب الكهف المسؤل عنهم جمع فتى وهو الشاب الكامل والشباب أقبل الى الحق وأهدى للسبيل من الشيوخ (الى الكهف) خائفين على ايمانهم من قومهم الكفار واختلفوا فى سبب مصيرهم الى الكهف فقال محمد بن اسحق بن يسار مرج أهل الانجيل وكثرت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الاصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم فلا يترك فى قرية نزلها أحدا الا فتنه عن دينه حتى يعبد الاصنام أو يقتله ثم نزل مدينة أهل الكهف وهى افسوس فلما نزل بها كبر على أهل الايمان فاستخفوا منه وهربوا فى كل وجه واتخذ شرطا من الكفار وأمرهم أن يتبعوهم فى أماكنهم ويخرجوهم اليه فيخيروهم بين القتل وبين عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فمنهم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى أن

يعبد غير الله تعالى فيقتل فلما رأى ذلك أهل الشدة فى الايمان جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ثم جعل ماقطع من أجسامهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والدعاء والتسبيح وكانوا من أشراف المدينة ومن أشراف الروم وكانوا ثمانية نفر بكوا وتضرعوا الى الله تعالى وجعلوا يقولون ربنا اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلى لهم أدركهم الشرط فوجدوهم سجودا على وجوههم يبكون ويتضرعون الى الله تعالى فقالوا لهم ماخلفكم عن أمر الملك انطلقوا اليه ثم خرجوا فرفعوا أمرهم الى دقيانوس فقالوا تجمع الناس للذبح لآلهتك وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يستهزئون بك ويعصون أمرك فلما سمع ذلك بعث اليهم فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم فى التراب فقال لهم مامنعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التى تعبد فى الارض وتجعلوا أنفسكم باسوة سراة أهل مدينتكم اختاروا اما ان تذبحوا لآلهتنا واما أن أقتلكم فقال له كبيرهم واسمه مكسلمينا ان لنا الها ملء السموات والارض عظمته لن ندعو من دونه الها أبدا له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا خالصا أبدا اياه نعبد واياه نسأل النجاة والخير وأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا اصنع مابدا لك وقال أصحابه مثل ماقال فلما قالوا ذلك أمر الملك بنزع لباسهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وأنجز لكم ماوعدتكم من العقوبة ومايمنعنى أن أعجل لكم ذلك الا أنى أراكم شبابا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تذكرون فيه وترجعون الى عقولكم ثم أمر بهم فاخرجوا من عنده وانطلق الى مدينة أخرى قريبة منهم لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا قدومه وخافوا اذا قدم مدينتهم أن يذكرهم فائتمروا بينهم أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقى ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة فيمكثوا فيه ويعبدوا الله تعالى حتى اذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم مايشاء فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم الى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقى معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى اذا أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه وقال كعب الاحبار مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ماتريدون منى لاتخشوا جنابتى أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم وقال ابن عباس هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعه كلبه فخرجوا من البلد الى الكهف وهو قريب من البلد قال ابن اسحق فلبثوا فيه ليس لهم عمل غير الصلاة والصيام والتسبيح والتمجيد ابتغاء وجه الله تعالى وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرا وكان من أجملهم وأجلدهم وكان اذا دخل المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ثم يأخذ ورقه وينطلق الى المدينة فيشترى لهم طعاما وشرابا

ويتجسس لهم الخبر هل ذكروا أصحابه بشئ ثم يرجع الى أصحابه فلبثوا فى ذلك ماشاء الله أن يلبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الايمان وكان تمليخا يشترى لاصحابه طعامهم فرجع الى أصحابه وهو يبكى ومعه طعام قليل فأخبرهم ان الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا من عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون ويتضرعون ويتعوذون من الفتنة ثم ان تمليخا قال لهم يا اخوتاه ارفعوا رؤسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤسهم وأعينهم تفيض من الدمع فطعموا ذلك مع غروب الشمس ثم جعلوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا فبينما هم كذلك اذ ضرب الله على آذانهم فى الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابهم ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس فالتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظمائه وعظماء المدينة لقد ساءنى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا ظنوا ان بى غضبا عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمرى ما كنت لأجهل عليهم ان هم تابوا وعبدوا الهتى فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوما فجرة مردة عصاة فقد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاؤا لرجعوا فى ذلك الاجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل الى آبائهم فاتى بهم فسألهم عنهم وقال أخبرونى عن أبنائكم المردة الذين عصونى فقالوا له أما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا وأهلكوها فى أسواق المدينة ثم انطلقوا فارتقوا الى جبل يدعى بنجلوس فلما قالوا ذلك خلا سبيلهم وجعل ما يدرى ما يصنع بالفتية فألقى الله تعالى فى قلبه أن يسد باب الكهف عليهم وأراد الله تعالى أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لامة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم ان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد عليهم وقال دعوهم كما هم فى الكهف يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذى اختاروه قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم ان رجلين مؤمنين فى بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وخبرهم فى لوحين من رصاص ويجعلاهما فى تابوت من نحاس ويجعلا التابوت فى البنيان وقالا لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من يفتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقى دقيانوس ما بقى ثم مات وقومه وقرون بعده كثيرة * وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم لما أووا الى الكهف (فقالوا) أى عقب استقرارهم فيه (ربنا آتنا من لدنك) أى من عندك (رحمة) توجب لنا المغفرة والرزق والامن من عدوك (وهيئ لنا من أمرنا) أى من الامر الذى نحن عليه من مفارقة الكفار (رشدا) الرشد والرشد والرشاد نقيض الضلال وفى تفسير اللفظ وجهان الاول أن التقدير هيئ لنا أمرا ذا رشد أى حتى نصير بسببه راشدين مهتدين الثانى اجعل أمرنا رشدا كله كقولك رأيت منك رشدا * ولما أجابهم سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بقوله تعالى (فضربنا) أى عقب هذا القول

قوله
فى ا
فى
منجلا

وبسببه (على آذانهم) حجابا يمنع السماع أى أنمناهم نومة لاتنبههم الاصوات الموقظة فحذف المفعول الذى هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة ثم بين تعالى أنه انما ضرب على آذانهم (فى الكهف) أى المعهود وهو ظرف مكان وقوله تعالى (سنين) ظرف زمان وقوله تعالى (عددا) أى ذوات عدد يحتمل التكثير والتقليل فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده كقوله تعالى لم يلبثوا الا ساعة من نهار وقال الزجاج اذا قل الشئ فهم مقدار عدده فلم يحتج الى أن يعد واذا كثر احتاج الى أن يعد (ثم بعثناهم) أى أيقظناهم من ذلك النوم (لنعلم) أى علم مشاهدة وقد سبق نظير هذه الآية فى القرآن كثيرا منها ما سبق فى سورة البقرة الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وفى آل عمران ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقد نبهنا على ذلك فى محله (أى الحزبين) أى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم (أحصى لما لبثوا أمدا) واختلفوا فى الحزبين المختلفين فقال عطاء عن ابن عباس المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك وأصحاب الكهف وقال مجاهد الحزبان من الفتية أصحاب الكهف لما تيقظوا اختلفوا فى أنهم كم لبثوا ويدل له قوله تعالى قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فالحزبان هما هذان وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا ان لبثهم قد تطاول وقال الفراء ان طائفتين من المسلمين فى زمان أصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم *(تنبيه)* أحصى فعل ماض أى أيهم ضبط أمر أوقات لبثهم واما من جعله أفعل تفضيل فقال فى الكشاف ليس بالوجه السديد وذلك ان بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس ونحو أعدى من الجرب وأفلس من ابن المذلق شاذ والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممتنع فكيف به ثم قال الله تعالى (نحن) أى بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة (نقص عليك) يا أشرف الخلق (نبأهم) أى خبرهم العظيم قصا ملتبسا (بالحق) أى الصدق (انهم فتية) أى شبان (آمنوا بربهم) أى المحسن اليهم الذى تفرد بخلقهم ورزقهم ثم وصفهم الله تعالى بقوله (وزدناهم) بعد أن آمنوا (هدى) بما قذفناه فى قلوبهم من المعارف (وربطنا على قلوبهم) أى قويناها فصار ما فيها من القوى مجتمعا غير مبدد فكانت حالهم فى الجلوة حالهم فى الخلوة (اذ قاموا) أى وقت قيامهم بين يدى الجبار دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام (فقالوا ربنا رب السموات والارض) وذلك لانه كان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله تعالى هؤلاء الفتية حتى عصوا ذلك الجبار وأقروا بربوبية الله تعالى وصرحوا بالبراءة من الشرك والانداد بقولهم (لن ندعو من دونه الها) لان ما سواه عاجز والله (لقد قلنا اذا) أى اذا دعونا من دونه غيره (شططا) أى قولا ذا بعد عن الحق جدا وقال مجاهد كانوا أبناء عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم هو أكبر القوم انى لاجد فى نفسى شيأ ما أظن أن أحدا يجده قالوا ما تجد قال أجد فى نفسى أن ربى رب السموات والارض قالوا نحن كذلك فى أنفسنا فقاموا جميعا فقالوا ربنا رب السموات والارض وقال عطاء قالوا ذلك عند قيامهم من النوم قال الرازى وهو بعيد

لان الله تعالى استأنف قصتهم بقوله تعالى نحن نقص عليك وقال عبيد بن عمير كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوي ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا في عيد لهم عظيم في زي وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التي يعبدونها وقد قذف الله تعالى في قلوب الفتية الايمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل واحد ايمانه فقالوا في أنفسهم نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم حتى انتهى الى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك ثم خرج آخر فخرجوا كلهم جميعا فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد يكتم صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ثم يفشي كل واحد سره الى صاحبه ففعلوا فاذا هم جميعا على الايمان واذا بكهف في الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض (هؤلاء قومنا) وان كانوا أسن منا وأقوى وأجل في الدنيا (اتخذوا من دونه آلهة) أشركوهم معه تعالى اشبهة واهية (لولا) أي هلا (يأتون عليهم بسلطان) أي دليل (بين) أي ظاهر مثل ما نأتي نحن على تقرير معبودنا بالادلة الظاهرة فتسبب عن عجزهم عن دليل أنهم أظلم الظالمين فلذلك قالوا (فمن أظلم) أي لا أحد أظلم (ممن افترى) أي تعمد (على الله) أي الملك الاعظم (كذبا) بنسبة الشريك اليه تعالى ثم قال بعض الفتية لبعض (واذ) أي وحين (اعتزلتموهم) أي قومكم (وما يعبدون) أي واعتزلتم معبودهم وقولهم (الا الله) يجوز أن يكون استثناء منه متصلا على ما روي أنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما كان أهل مكة وأن يكون منقطعا وقيل هو كلام معترض اخبار من الله تعالى عن الفتية بأنهم لم يعبدوا غير الله تعالى (فأووا الى الكهف) أي الغار الذي في الجبل (ينشر) أي يبسط (لكم) ويوسع عليكم (ربكم) أي المحسن اليكم (من رحمته) ما يكفيكم به المهم من أمركم في الدارين (ويهيئ لكم من أمركم) أي الذي من شأنه أن يهمكم (مرفقا) أي ما ترتفقون به وتنتفعون وجزمهم بذلك لخلوص يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله وقرأ نافع وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء والباقون بكسر الميم وفتح الفاء قال الفراء وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق وكان الكسائي لا يذكر في مرفق الانسان الذي في اليد الا كسر الميم وفتح الفاء والفراء يجيزه في الامر وفي اليد وقيل هما لغتان الا أن الفتح أقيس والكسر أكثر والخطاب في قوله تعالى (وترى الشمس) للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد وليس المراد أن من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة في المخاطبة تكون على هذا النحو ومعناه انك لو رأيته على هذه الصورة (اذا طلعت تزاور) أي تميل (عن كهفهم ذات اليمين) أي ناحيته (واذا غربت تقرضهم) أي تعدل في سيرها عنهم (ذات الشمال) أي فلا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم لان الله تعالى زواها عنهم وقيل ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال فاذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف واذا غربت كانت على شماله وقرأ السوسي بامالة ألف ترى المنقلبة بعد الراء في الاصل بخلاف عنه والباقون بالفتح في الوصل وهم على أصولهم في الوقف وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون

بالفتح وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو تزاور بتشديد الزاى وتخفيف الراء مضمومة وابن عامر بسكون الزاى ولا ألف بعدها وتشديد الواو على وزن تحمرّ والباقون وهم عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف الزاى والواو ولا خلاف فى ضم الراء * ولما بين أنه تعالى حفظهم من حر الشمس بين أنه أنعشهم بروح الهواء وألطفهم بسعة الموضع فى فضاء الغار فقال تعالى (وهم فى فجوة منه) أى فى وسط الكهف ومتسعه ينالهم برد الريح ونسيمها ثم بين تعالى نتيجة هذا الامر الغريب فى النبا العجيب بقوله تعالى (ذلك) أى المذكور العظيم (من آيات الله) أى دلائل قدرته (من يهد الله) أى الذى له الملك كله بخلق هذه الهداية فى قلبه كأصحاب الكهف (فهو المهتد) فى أى زمان كان فلن تجد له مضلا مغويا فى ذلك اشارة الى أن أهل الكهف جاهدوا فى الله وأسلموا له وجوههم فلطف بهم وأعانهم وأرشدهم الى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة وأن كل من سلك طريق المهتدين الراشدين فهو الذى أصاب الفلاح واهتدى الى السعادة وقرأ نافع وأبو عمرو بزيادة ياء بعد الدال فى الوصل دون الوقف والباقون بحذفها وقفا ووصلا (ومن يضلل) أى يضله الله تعالى ولم يرشده كدقيانوس وأصحابه (فلن تجد له وليا) أى معينا (مرشدا) أى يرشده للحق ثم انه تعالى عطف على مامضى بقية أمرهم بقوله تعالى (وتحسبهم) أى لو رأيتهم أيها المخاطب (أيقاظا) أى منتبهين لأن أعينهم مفتحة للهواء لانه يكون أبقى لها جمع يقظ بكسر القاف (وهم رقود) أى نيام جمع راقد قال الزجاج لكثرة تقلبهم يظن أنهم ايقاظ والدليل عليه قوله تعالى (ونقلبهم) اى فى ذلك حال نومهم تقلبا كثيرا بحسب ما ينفعهم كما يكون النائم (ذات) اى فى الجهة التى هى صاحبة (اليمين) منهم (وذات الشمال) لينال روح النسيم جميع أبدانهم ولا يتأثر ما يلى الارض منها بطول المكث * (تنبيه) * اختلف فى مقدار مدة التقليب فعن أبى هريرة أن لهم فى كل عام تقليبتين وعن مجاهد يمكثون رقودا على أيمانهم تسع سنين ثم يتقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودا تسع سنين وقيل لهم تقليبة واحدة فى يوم عاشوراء قال الرازى وهذه التقديرات لا سبيل للعقل اليها ولفظ القرآن لا يدل عليها وما جاء فيه خبر صحيح فكيف يعرف انتهى ولهذا قلت بحسب ما ينفعهم وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فائدة تقلبهم لئلا تأكل الارض لحومهم ولا ثيابهم اه قال الرازى وهذا أعجب من ذلك لانه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم ثلثمائة سنة وأكثر أفلا يقدر على حفظ أجسادهم أيضا من غير تقليب اه وهذا ليس بعجيب لان القدرة صالحة لذلك وأكثر بحسب العادة وأما امساك أرواحهم فهو خرق للعادة فلا يقاس عليه (وكلبهم باسط ذراعيه) أى يديه أى ملقيهما على الارض مبسوطتين غير مقبوضتين ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب قال المفسرون كان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهما * (تنبيه) * باسط اسم فاعل ماض وانما عمل على حكاية الحال والكسائى يعمله ويستشهد بالآية الكريمة وأكثر المفسرين على أن الكلب من جنس الكلاب وروى عن ابن جريج أنه كان أسدا

ويسمى الاسد كلبا فان النبي صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبي لهب فقال اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فافترسه الاسد وقال ابن عباس كان كلبا أغر واسمه قطمير وعن علي اسمه ريان واختلف في قوله تعالى (بالوصيد) فقال ابن عباس هو باب الكهف وقيل العتبة قال السدي والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وانما أراد موضع الباب والعتبة وقال الزجاج الوصيد فناء البيت وفناء الدار قال الشاعر

بأرض فضاء لا يسد وصيدها * علي ومعروفي بها غير منكر

وقال مجاهد والضحاك الوصيد الكهف (لو اطلعت عليهم) بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين أي وهم على تلك الحالة (لوليت منهم) حال وقوع بصرك عليهم (فرارا) لما ألبسهم الله تعالى من الهيبة وجعل لهم من الجلالة تدبيرا منه لما أراد منهم حتى لا يصل اليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله (ولملئت منهم رعبا) أي فزعا واختلف في ذلك الرعب كان لماذا فقال الكلبي لان أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم وهم نيام وقيل من وحشة الكلام وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم وتقلبهم من غير حس كالمستيقظ وقيل ان الله تعالى منعهم بالرعب حتى لا يراهم أحد وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فبعث معاوية ناسا فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم وقرأ نافع وابن كثير بتشديد اللام بعد الميم والباقون بتخفيفها والسوسي بابدال الهمزة ياء على أصله وقفا ووصلا وحمزة في الوقف فقط وقرأ ابن عامر والكسائي رعبا بضم العين والباقون بسكونها (وكذلك) أي كما فعلنا بهم ما ذكرنا آية (بعثناهم) أي أيقظناهم آية (ليتساءلوا بينهم) أي ليسأل بعضهم بعضا عن أحوالهم في نومهم ويقظتهم فيتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم فيزدادوا يقينا على كمال قدرة الله تعالى وليستبصروا به أمر البعث ويشكروا ما أنعم الله به عليهم (قال قائل منهم) مستفهما من اخوانه (كم لبثتم) نائمين في ذا الكهف من ليلة أو يوم وهذا يدل على ان هذا القائل استشعر طول لبثهم مما رأى من هيئتهم أو بغير ذلك من الامارات (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) لانهم دخلوا الكهف طلوع الشمس وبعثوا آخر النهار فلما رأوا الشمس باقية قالوا أو بعض يوم فلما نظروا الى طول أظفارهم وشعورهم (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) فأحالوا العلم على الله تعالى قال ابن عباس القائل ذلك هو رئيسهم تمليخا رد علم ذلك الى الله تعالى وعلم أن مثل هذا التغيير لا يحصل الا في الايام الطويلة وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند المثناة والباقون بالادغام ثم لما علموا أن الامر ملتبس عليهم لا طريق لهم الى علمه أخذوا فيما يهمهم وقالوا (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه) أي بفضتكم وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة بسكون الراء والباقون بكسرها والورق اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا ويدل عليه ما روي أن عرفجة اتخذ

أنفا من ورق ويقال لها الرقة وفى الحديث فى الرقة ربع العشر (الى المدينة) أى التى خرجتم منها وهى مدينة طرسوس وهذه الآية تدل على أن السعى فى امساك الزاد أمر مهم مشروع وانه لا يبطل التوكل على الله تعالى اذ حقيقة التوكل على الله تعالى تهيئة الاسباب واعتقاد أن لا مسبب للاسباب الا الله تعالى فحمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأى المتوكلين على الله دون المتوكلين على الانفاقات على ما فى أوعية القوم من النفقات ومنه قول عائشة رضى الله تعالى عنها لمن سألها عن محرم يشد عليه هميانه أوثق عليك نفقتك وما حكى عن بعض صعاليك العلماء أنه كان شديد الحب الى أن يرزق حج بيت الله الحرام وعلم منه ذلك فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم قوم على حج أتوه أن يحجوا به وألحوا عليه فيعتذر اليهم ويحمد اليهم بذلهم فاذا انفضوا عنه قال لمن عنده ما لهذا السفر الا شيآن شد الهميان والتوكل على الرحمن (فلينظر أيها أزكى طعاما) قال ابن عباس يريد ما حل من الذبائح لان عامة أهل بلدهم كانوا مجوسا وفيهم قوم يخفون ايمانهم وقال مجاهد كان ملكهم ظالما فقولهم أيها أزكى طعاما أى أيها أبعد عن الغصب وكل سبب حرام وقيل أيها أطيب وألذ وقيل أيها أرخص قال الزجاج قولهم أيها رفع بالابتداء وأزكى خبره وطعاما تمييز ولا بد هنا من حذف أى أى أهلها أزكى أى أحل وقيل لا حذف والضمير عائد على الاطعمة المدلول عليها من السياق (فليأتكم) ذلك الاحد (برزق منه) لنأكل (وليتلطف) أى وليكن فى ستر وكتمان فى دخول المدينة وشراء الاطعمة حتى لا يعرف (ولا يشعرن) أى ولا يخبرن (بكم أحدا) من أهل المدينة (انهم) أى أهل المدينة (ان يظهروا) أى يطلعوا عالين (عليكم يرجموكم) أى يقتلوكم والرجم بمعنى القتل كثير فى القرآن كقوله ولولا رهطك لرجمناك وقوله لارجمنك وقوله أن ترجمون وقال الزجاج أى يقتلوكم بالرجم والرجم أخبث أنواع القتل (أو يعيدوكم فى ملتهم) ان لنتم لهم (ولن تفلحوا اذا) أى ان رجعتم الى ملتهم (أبدا) بل تكونوا خاسرين قال بعض العلماء ولا خوف على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين الامرين أحدهما ما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذى هو أخبث أنواع القتل والآخر هلاك الدين (فان قيل) أليس انهم لو أكرهوا على الكفر حتى أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ولن تفلحوا اذا أبدا (أجيب) بأنهم خافوا أنهم لو بقوا على الكفر مظهرين له فقد يميل بهم ذلك الى الكفر الحقيقى فكان خوفهم بسبب هذا الاحتمال (فان قيل) ما النكتة فى العدول عن واحدكم الى أحدكم وكل ذلك دال على الوحدة (أجيب) بأن النكتة فيه أن العرب اذا قالوا أحد القوم أرادوا به فردا منهم واذا قالوا واحد القوم أرادوا رئيسهم والمراد فى القصة أى واحد كان والقرآن الكريم أنزل بلغتهم فراعى ما راعوا (وكذلك) أى ومثل ما فعلنا بهم ذلك الامر العظيم من الربط على قلوبهم والستر والحماية من الطالبين لهم والحفظ لاجسادهم على ممر الزمان وتعاقب الحدثان وغير ذلك (أعثرنا) أى أطلعنا غيرهم (عليهم) يقال عثرت على كذا علمته وأصله أن من كان غافلا عن شىء فعثر به نظر اليه فعرفه فكان العثر سببا لحصول العلم فأطلق السبب على السبب بقوله تعالى (ليعلموا) متعلق بأعثرنا

والضمير قيل يعود على مفعول أعثرنا المحذوف تقديره أعثرنا الناس وقيل يعود الى أهل الكهف وهذا هو الظاهر (أن وعد الله) الذى له صفات الكمال بالبعث للروح والجثة معا (حق) لان قيامهم بعد نومهم يتقلبون نيفا وثلثمائة سنة مثل من مات ثم بعث قال بعض العارفين علامة اليقظة بعد النوم علامة البعث بعد الموت * ولما كان من الحق ما قد يداخله شك قال تعالى (وأن) أى وليعلموا أن (الساعة) أى آتية (لاريب) أى لاشك (فيها) * (تنبيه) * اختلف فى السبب الذى عرف الناس واقعة أصحاب الكهف فقال محمد بن اسحق ان ملك تلك البلاد رجل صالح يقال له تندوسيس فلما ملك بقى فى ملكه ثمانية وستين سنة فتحزب الناس فى مملكته فكانوا أحزابا منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع الى الله تعالى وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون لاحياة الا الدنيا وانما تبعث الارواح ولا تبعث الاجساد وجعل الملك يرسل الى من يظن فيهم خيرا وأنهم أئمة فى الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين فلما رأى ذلك الملك دخل بيته وأغلق بابه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه ودأب ليله ونهاره زمانا يتضرع الى الله تعالى ويبكى أى رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم ثم ان الله تعالى الذى يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها ويستجيب لعبده تندوسيس ويتم نعمته عليه وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين وألقى الله فى نفس رجل من تلك البلد الذى فيه الكهف أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف فيبنى به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان تلك الحظيرة حتى اذا نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب الكهف أذن الله تعالى ذو القدرة والسلطان محيى الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهرى الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون لها اذا أصبحوا من ليلتهم ثم قاموا الى الصلاة فصلوا كالذى كانوا يفعلون لايرى فى وجوههم ولا فى ألوانهم شئ يكرهونه كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن ملكهم دقيانوس فى طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم ائتنا بما قال الناس فى شأننا عشية أمس عند الجبار وهم يظنون أنهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد تخيل لهم أنهم قد ناموا أطول ما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياما قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك فى أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا التمستم بالمدينة وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحون للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا يا اخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد ايمانكم اذا دعاكم عدو الله ثم قالوا لتمليخا انطلق الى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذى يذكر عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتع لنا طعاما وائتنا به وزدنا على الطعام الذى جئتنا به فقد أصبحنا

قوله يقال له تندوسيس الذى فى حياة الحيوان أن يقال تاودوسيوس فليحرر اه

جميعا ففعل تمليخا كما كان يفعل و وضع ثيابه وأخذ الثياب التى كان يتنكر فيها وأخذ ورقا
من نفقتهم التى كانت معهم التى ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا
خارجا فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها
حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق متخوفا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر
أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى
فوق ظهر الباب علامة تكون لاهل الايمان اذا كان أمر الايمان ظاهرا فلما رأى عجب
وجعل ينظر اليها مستخفيا وينظر يمينا وشمالا ثم ترك الباب وتحول لباب آخر من أبوابها فرأى
مثل ذلك فجعل يخيل اليه أن المدينة ليست بالتى كان يعرفها ورأى ناسا كثيرا محدثين لم يكن
رآهم قبل ذلك فجعل يمشى ويتعجب ويخيل اليه أنه حيران ثم رجع الى الباب الذى أتى منه
فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول ياليت شعرى ما هذا اما عشية أمس فكان المسلمون
يخفون هذه العلامة ويستخفون بها وأما اليوم فانها ظاهرة لعلى حالم ثم يرى أنه ليس بنائم
فأخذ بكسائه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشى بين ظهرى سوقها فيسمع ناسا يحلفون
باسم عيسى بن مريم فزاده فرقا ورأى أنه حيران فقام مسندا ظهره الى جدار من جدران
المدينة ويقول فى نفسه والله ما أدرى ما هذا أما عشية أمس فليس على وجه الارض انسان
يذكر عيسى بن مريم الا قتل وأما اليوم فأسمع كل انسان يذكر عيسى ولا يخاف ثم قال فى نفسه
لعل هذه ليست المدينة التى أعرف والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقى فتى
فقال له ما اسم هذه المدينة يافتى فقال اسمها أفسوس فقال فى نفسه لعل بى مسا أو أمرا
أذهب عقلى والله يحق لى أن أسرع الخروج منها قبل أن أخزى فيها أو يصيبنى شر فأهلك ثم
انه أفاق فقال والله لو عجلت الخروج من هذه المدينة قبل أن يفطن بى لكان أكيس فدنا من
الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التى كانت معه فأعطاها رجلا منهم فقال بعنى بهذا
الورق طعاما فأخذها الرجل فنظر الى ضرب الورق ونقشها فعجب منها ثم طرحها الى رجل من
أصحابه فنظر اليها ثم الى آخر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل ويتعجبون منها ثم
جعلوا يتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض ان هذا أصاب كنزا مخبأ فى الارض منذ زمان
ودهر طويل فلما رآهم تمليخا يتشاورون من أجله فرق فرقا شديدا وجعل يرتعد ويظن أنهم
فطنوا به وعرفوه وانهم انما يريدون أن يذهبوا به الى ملكهم دقيانوس وجعل أناس آخرون
يأتونه فيتعرفونه فقال لهم وهو شديد الفرق أفضلوا على قد أخذتم ورقى فأمسكوها وأما
طعامكم فليس لى حاجة به فقالوا من أنت يافتى وما شأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز
الاولين وأنت تريد أن تخفيه انطلق معنا وأرنا وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت وانك ان لم
تفعل نأت بك السلطان فنسلمك اليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال ما وجدت شيأ وقال قد
وقعت فى كل شئ أحذر منه قالوا يافتى انك والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت فجعل تمليخا
لايدرى ما يقول لهم وخاف حتى انه لم يرد اليهم جوابا فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه وطرحوه

فى عنقه وجعلوا يقودونه فى سكك المدينة حتى سمع من فيها فقيل أخذ رجل عنده كنز واجتمع عليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم فجعلوا ينظرون اليه ويقولون والله ماهذا الفتى من أهل هذه المدينة ومارأيناه قط وما نعرفه فجعل تمليخا مايدرى ما يقول لهم فلما اجتمع عليه أهل المدينة وكان مستيقنا أن أباه واخوته فى المدينة وانه من عظماء أهلها وانهم سيأتونه اذا سمعوا به فبينما هو قائم كالحيران ينظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من بين أيديهم اذ اختطفوه وانطلقوا به الى رئيسى المدينة ومدبريها اللذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما اريوس واسم الآخر اسطيوس فلما انطلقوا به اليهما ظن تمليخا انه ينطلق به الى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون وجعل تمليخا يبكى ويرفع رأسه الى السماء وقال اللهم اله السماء واله الارض أفرغ اليوم على صبرا وأولج معى روحا منك تؤيدنى بها عند هذا الجبار وجعل يقول فى نفسه فرق ما بينى وبين اخوتى ياليتهم يعلمون مالقيت وياليتهم يأتونى فنقوم جميعا بين يدى هذا الجبار فانا كنا تواقفنا على الايمان بالله سبحانه وتعالى وأن لانشرك به شيأ ولانفترق فى حياة ولا موت فلما انتهى به الى الرجلين الصالحين ورأى انه لم يذهب به الى دقيانوس أفاق وسكن عنه البكاء فأخذ أريوس واسطيوس الورق فنظرا اليها وعجبا منها ثم قال أحدهما أين الكنز الذى وجدت يافتى فقال تمليخا ماوجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائى ونقش المدينة وضربها ولكن والله ما أدرى ماشأنى وما أقول لكم فقال أحدهما ممن أنت فقال تمليخا أما أنا فكنت أرى أنى من أهل هذه المدينة قالوا فمن أبوك ومن يعرفك بها فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحدا يعرفه ولا أباه فقال له أحدهما أنت رجل كذاب لاتأتينا بالحق فلم يدر تمليخا مايقول لهم غيرأنه نكس بصره الى الارض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا حتى ينفلت منكم فقال له أحدهما ونظر اليه نظرا شديدا أتظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذه الورق وضربها أكثر من ثلثمائة سنة وأنت غلام شاب وتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ وشمط كما ترى وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولادينار وانى لأظننى سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذى وجدته فلما قال ذلك قال لهم تمليخا أنبئونى عن شئ أسألكم عنه فان فعلتم صدقتكم عما عندى فقالوا سل لانكتمك شيأ قال مافعل الملك دقيانوس قالوا ليس نعرف اليوم على وجه الارض ملكا يسمى دقيانوس ولم يكن الا ملكا هالك منذ زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة فقال تمليخا انى اذا الحيران وماهو بمصدقى أحد من الناس بما أقول لقد كنا فتية وان الملك أكرهنا على عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فنمنا فلما انتبهنا خرجت لاشترى طعاما وأتجسس الاخبار فاذا أنا كما ترون فانطلقوا معى الى الكهف الذى فى جبل بنجلوس أريكم أصحابى فلما سمع اريوس مايقول تمليخا قال ياقوم لعل هذه آية من آيات الله تعالى جعلها الله تعالى لكم على يد هذا الغلام فانطلقوا بنا معه ليرينا أصحابه فانطلق معه اريوس واسطيوس

ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا اليهم فلما رأى
الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذى كان يأتى فيه
فظنوا أنه قد أخذ وذهب به الى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك و يتحققونه اذ سمعوا
الاصوات وجلبة الخيل مصعدة عندهم فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث اليهم ليأتوا بهم
فقاموا الى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا
فانه الآن بين يدى الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه
الحالة اذا هم باريوس وأصحابه وقوف على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكى فلما
رأوه يبكى بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله فعرفوا أنهم كانوا نياما بأمر الله
تعالى ذلك الزمن الطويل وانما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث ويعلم الناس أن
الساعة آتية لاريب فيها ثم دخل على اثر تمليخا اريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم من
فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالا من عظماء أهل المدينة ففتح التابوت عندهم فوجد فيه
لوحين من رصاص مكتوب فيهما مكسلمينا ومحسلمينا وتمليخا ومطرونس وكشطونس وبيرونس
وبيطونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا
هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وانا كتبنا أسماءهم
وخبرهم ليعلمه من بعدهم ان عثر عليهم فلما قرؤوه عجبوا وحمدوا الله تعالى الذى أراهم آية البعث
فيهم ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله تعالى وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا
مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر اريوس وأصحابه سجدا وحمدوا الله تعالى الذى أراهم
آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضا وأنبأهم الفتية عن الذى لقوه من ملكهم دقيانوس ثم ان اريوس
وأصحابه بعثوا بريدا الى ملكهم الصالح تندوسيس أن عجل لعلك تنظر الى آية من آيات الله
جعلها الله تعالى على ملكك وجعلها آية للعالمين ليكون لهم نورا وضياء وتصديقا للبعث فاعجل
الى فتية بعثهم الله تعالى وكان قد توفاهم منذ أكثر من ثلثمائة سنة فلما أتى الملك الخبر قام ورجع
اليه عقله وذهب همه فقال أحمد الله رب السموات والارض وأعبدك وأسبح لك تطولت
على ورحمتنى فلم تطفئ النور الذى جعلته لآبائى وللعبد الصالح قسطيطينوس الملك فلما نبئ به
أهل المدينة ركبوا اليه وساروا معه حتى أتوا مدينة افسوس فتلقاهم أهل المدينة وساروا معه
نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية تندوسيس فرحوا به وخروا سجدا على وجوههم وقام
تندوسيس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض يسبحون الله تعالى
ويحمدونه ثم قالوا له نستودعك الله السلام عليك ورحمة الله وبركاته وحفظك وحفظ ملكك
ونعيذك بالله من شر الانس والجن فبينما الملك قائم اذ رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله
أنفسهم وقام الملك تندوسيس اليهم فجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم فى تابوت من
ذهب فلما أمسى ونام أتوه فى المنام وقالوا له انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن خلقنا من تراب
والى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه فأمر الملك

حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله تعالى حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد على أن يدخل عليهم. وقيل ان تمليخا المـا حمل الى الملك الصالح قال له الملك من أنت قال أنا رجل من أهل هذه المدينة وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواما لم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع ان فتية فقدوا فى الزمان الاول وان أسماءهم مكتوبة على لوح فى خزانته فدعا باللوح فنظر فى أسمائهم فاذا اسمه مكتوب فى ذكر أسماء الآخرين فقال تمليخا هم أصحابى فلما سمع الملك ذلك ركب هو ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعونى حتى أدخل على أصحابى وأبشرهم فانهم ان رأوكم معى أرعبتموهم فدخل فبشرهم فقبضت روحه وأرواحهم وأعمى على الملك وأصحابه اثرهم فلم يهتدوا عليهم * ثم وقع التنازع فى أمرهم بين أهل المدينة كما قال تعالى (اذ يتنازعون) أى أهل المدينة (بينهم أمرهم) أى أمر الفتية فى البناء حولهم (فقالوا) أى الكفار (ابنوا عليهم) أى حولهم (بنيانا) يسترهم فانهم كانوا على ديننا وقوله تعالى (ربهم أعلم بهم) يجوز أن يكون من كلام الله تعالى وأن يكون من كلام المتنازعين فيهم (قال الذين غلبوا على أمرهم) أى أمر الفتية وهم المؤمنون (لنتخذن عليهم) أى حولهم (مسجدا) يصلى فيه وفعل ذلك على باب الكهف وقيل ان بعضهم قال الاولى أن نسد باب الكهف عليهم لئلا يدخل أحد عليهم ولا يقف على أحوالهم انسان وقال الآخرون بل الاولى أن نبنى على باب الكهف مسجدا وهذا القول يدل على أن أولئك الاقوام كانوا عارفين بالله ومعترفين بالعبادة والصلاة وقيل تنازعوا فى مقدار مكثهم. وقيل فى عددهم وأسمائهم * (تنبيه) * بنيانا يجوز أن يكون مفعولا به جمع بنيانة وأن يكون مصدرا * ولما ذكر أصحاب الكهف عند النبى صلى الله عليه وسلم وقع الاختلاف فى عددهم كما قال تعالى (سيقولون) أى الخائضون فى قصتهم من أهل الكتاب والمؤمنين فقال بعض أهل الكتاب (ثلاثة رابعهم كلبهم) أى هم ثلاثة رجال ورابعهم كلبهم بانضمامه اليهم (ويقولون) أى بعضهم (خمسة سادسهم كلبهم) فهذان القولان لنصارى نجران. وقيل الاول قول اليهود والثانى قول النصارى (فان قيل) لم جاءت سين الاستقبال فى الاول دون الاخيرين (أجيب) بأن فى ذلك وجهين أن تدخل الاخيرين فى حكم السين كما تقول قد أكرم وأنعم تريد معنى التوقع فى الفعلين جميعا وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذى هو صالح له * ولما كان قولهم ذلك بغير علم كان (رجما بالغيب) أى ظنا فى الغيبة عنهم فهو راجع الى القولين معا ونصب على المفعول له أى لظنهم ذلك (ويقولون) أى المؤمنون (سبعة وثامنهم كلبهم) قال أكثر المفسرين هذا الاخير هو الحق. ويدل عليه وجوه الاول انه تعالى لما حكى قوله ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قال بعده (قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) وأتبع القولين الاولين بقوله تعالى رجما بالغيب وتخصيص الشئ بالوصف يدل على أن الحال فى الباقى بخلافه فوجب أن يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الاولان وأن يكون القول الثالث مخالفا لهما فى كونه رجما بالغيب الوجه الثانى أن الواو فى قوله تعالى وثامنهم هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا من المعرفة فى نحو

قولك جاءنى رجل ومعه آخر توكيد للصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها
أمر ثابت مستقر فكانت هذه الواو دالة على ان الذين كانوا فى الكهف كانوا سبعة وثامنهم كلبهم
وقول محمد بن اسحق انهم كانوا ثمانية مردود فكأن الله تعالى حكى اختلافهم وتم الكلام عند
قوله ويقولون سبعة ثم حقق هذا القول بقوله تعالى وثامنهم كلبهم والثامن لا يكون الا بعد
السبع وهذه الواو يسمونها واو الثمانية لان العرب تعد فتقول واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة
ستة سبعة وثمانية لان العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة ونظير هذه الآية فى
ثلاث آيات وهو قوله تعالى والناهون عن المنكر وقوله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها
لان أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وقوله تعالى ثيبات وأبكارا قال القفال وقولهم
واو الثمانية ليس بشئ بدليل قوله تعالى هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن
المهيمن العزيز الجبار المتكبر ولم يذكر الواو فى النعت الثامن اه وقد يجاب بأن ذلك جرى على
الغالب الوجه الثالث أنه تعالى قال ما يعلمهم الا قليل وهذا يقتضى أنه حصل العلم بعدتهم لذلك
القليل وكان ابن عباس يقول أنا من أولئك العدد القليل وكان يقول انهم سبعة وثامنهم كلبهم
وكان على رضى الله تعالى عنه يقول كانوا سبعة قال الرازى وأسماؤهم تمليخا مكسلمينا مشلينا
وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك وعن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان الملك
يستشير هؤلاء الستة ليتصرفوا فى مهماته والسابع كشفططيوش وهو الراعى الذى وافقهم لما
هربوا من ملكهم وروى عن ابن عباس انه قال هم مكسلمينا وتمليخا ومرطونس ويدنونس
ودونواقس وكفشططونس وهو الراعى واسم كلبهم قطمير واسم مدينتهم أفسوس * (تنبيه) *
فى الآية حذف والتقدير سيقولون هم ثلاثة كما تقدم تقديره فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه
وقيل الاقوال الثلاثة لاهل الكتاب والقليل منهم أى ولا علم بذلك الا فى قليل منهم وأكثرهم على
الظن * ثم انه تعالى لما ذكر هذه القصة أتبعها بأن نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شيئين عن
المراء وعن الاستفتاء أما النهى عن المراء فبقوله تعالى (فلا تمار) أى تجادل (فيهم) أى فى شأن
الفتية (الا مراء) أى جدالا (ظاهرا) أى غير متعمق فيه وهو أن تقص عليهم ما فى القرآن
من غير أن تكذبهم فى تعيين ذلك العدد ونظيره قوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى
أحسن وأما النهى عن الاستفتاء فقوله تعالى (ولا تستفت فيهم) أى ولا تسأل (منهم) أى من
أهل الكتاب اليهود (أحدا) عن قصتهم سؤال مسترشد لانه لما ثبت أنه ليس عندهم علم فى هذا
الباب وجب المنع من استفتائهم وفيما أوحى اليك مندوحة عن غيره ولا سؤال متعنت تريد
تفضيح المسؤل عنه وتزييف ما عنده فانه يخل بمكارم الاخلاق * ولما سأل أهل مكة عن خبر أهل
الكهف فقال النبى صلى الله عليه وسلم أخبركم به غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحى عنه
خمسة عشر يوما وفى رواية أخرى أربعين يوما نزل (ولا تقولن لشئ) أى لاجل شئ تعزم عليه
(انى فاعل ذلك) الشئ (غدا) أى فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة (الا أن يشاء الله)
أى الا متلبسا بمشيئته بأن تقول ان شاء الله والسبب فى ذلك ان الانسان اذا قال سأفعل الفعل

الفلانى غدا لم يبعد ان يموت قبل مجىء الغد ولم يبعد أيضا ان بقى حيا أن يعيقه عن ذلك الفعل سائر العوائق فاذا لم يقل ان شاء الله صار كاذبا فى ذلك الوعد والكذب منفر لا يليق بالانبياء عليهم الصلاة والسلام فلهذا السبب وجب عليه أن يقول ان شاء الله حتى اذا تعذر عليه الوفاء بذلك الوعد لم يصر كاذبا ولم يحصل التنفير * (تنبيه) * قال كثير من الفقهاء اذا قال الرجل لامرأته أنت طالق ان شاء الله لم يقع عليه الطلاق لانه لما علق وقوع الطلاق على مشيئته تعالى لم يقع عليه الطلاق الا اذا علمنا حصول المشيئة ومشيئة الله تعالى غيب لا سبيل لنا الى العلم بحصولها الا اذا علمنا أن متعلق المشيئة وقع وهو الطلاق وعلى هذا لا يعرف حصول المشيئة الا اذا وقع الطلاق ولا يعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفت المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منهما على العلم بالآخر وهو دور فلهذا لا يقع الطلاق وقيل المراد الا أن يشاء الله أى الا أن يأذن لك الله تعالى فى ذلك القول والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك بأنك تفعل الفعل الفلانى الا أن يأذن لك الله تعالى فى ذلك الاخبار وقد احتج القائلون بأن المعدوم شئ بهذه الآية لان الشئ الذى سيفعله غدا معدوم فى الحال فوجب تسمية المعدوم بأنه شئ (وأجيب) بأن هذا الاستدلال لا يفيد الا ان المعدوم يسمى بكونه شيأ وعندنا ان السبب فيما سيصير شيأ يجوز تسميته بكونه شيأ فى الحال كما قال تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه والمراد سيأتى أمر الله واختلف فى معنى قوله تعالى (واذكر ربك اذا نسيت) فقال ابن عباس ومجاهد والحسن معناه اذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس لو لم يحصل التذكر الا بعد مدة طويلة ثم ذكر ان شاء الله كفى فى رفع الحنث وعن سعيد بن جبير بعد سنة أو شهرا وأسبوع أو يوم وعن طاوس لا يقدر على الاستثناء الا فى مجلسه وعن عطاء يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة وعند عامة الفقهاء انه لا أثر له فى الكلام ما لم يكن موصولا واحتج ابن عباس بأن قوله اذا نسيت غير مختص بوقت غير معين بل هو متناول لكل الاوقات وظاهره ان الاستثناء لا يجب أن يكون متصلا أما عامة الفقهاء فقالوا لو جوزنا ذلك للزم أن لا يستقر شئ من العقود والايمان يحكى ان المنصور بلغه ان أبا حنيفة خالف ابن عباس فى الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له الامام أبو حنيفة هذا يرجع عليك لانك تأخذ البيعة بالايمان أترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن المنصور كلامه ورضى عنه واستدل بأن الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد قال تعالى أوفوا بالعقود وقال تعالى وأوفوا بالعهد فاذا أتى بالعقد أو العهد وجب عليه الوفاء بمقتضاه لاجل هذه الآيات خالفنا الدليل فيما اذا كان الاستثناء متصلا لان الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل أن الاستثناء وحده لا يفيد شيأ فهو جار مجرى بعض الكلمة الواحدة فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة فاذا لم يكن متصلا أفاد الالتزام التام فوجب الوفاء بذلك الملتزم وقيل ان قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله قال عكرمة واذكر ربك اذا غضبت وقال وهب مكتوب فى الانجيل ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب وقال

الضحاك والسدى هذا فى الصلاة المنسية قال الرازى وتعلق هذا الكلام بما قبله يفيد اتمام الكلام فى هذه القصة وجعله مستأنفا يصير الكلام مبتدأ منقطعا وذلك لا يجوز وفى قوله تعالى (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) وجوه الاول أن يكون قوله تعالى الا ان يشاء الله ليس يحسن تركه وذكره أولى من تركه وهو قوله لأقرب من هذا رشدا والمراد منه ذكر هذه الجملة الثانى أنه لما وعدهم بشئ وقال معه ان شاء الله فيقول وعسى أن يهدين ربى لشئ أحسن وأكمل مما وعدتكم به الثالث أن قوله عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا اشارة الى قصة أصحاب الكهف أى لعل الله يوفقنى من البينات والدلائل على صحة نبوتى وصدقى فى ادعاء النبوة ماهو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من قصة أصحاب الكهف وقد فعل الله تعالى ذلك حين آتاه من قصص الانبياء والاخبار بالغيوب ماهو أعظم من ذلك * ثم شرع تعالى فى آية هى آخر الآيات المذكورة فى قصة أصحاب الكهف بقوله تعالى (ولبثوا فى كهفهم) أى نياما (ثلثمائة) أى مدة ثلثمائة (سنين) قال بعضهم وهذه السنون الثلثمائة عند أهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها تسع سنين. وقد ذكرت فى قوله (وازدادوا تسعا) أى تسع سنين لان التفاوت بين الشمسية والقمرية فى كل مائة سنة ثلاث سنين لان السنة الشمسية تزيد على السنة القمرية عشرة أيام واحدى وعشرين ساعة وخمس ساعة فالثلثمائة سنة الشمسية ثلثمائة وتسع قرية قال الرازى وهذا مشكل لانه لا يصح بالحساب هذا القول ويمكن أن يقال لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب أمرهم من الانتباه ثم اتفق ما أوجب بقاءهم فى النوم بعد ذلك تسع سنين وقرأ حمزة والكسائى بغير تنوين فى الوصل والباقون بالتنوين فسنين عطف بيان لثلثمائة لانه لما قال ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة لم يعرف انها أيام أوشهور أوسنون فلما قال سنين صار هذا بيانا لقوله ثلثمائة فكان ذلك عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتأخير أى لبثوا سنين ثلثمائة وأما وجه القراءة الاولى فهو أن الواجب فى الاضافة أن يقال ثلثمائة سنة الا أنه يجوز وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله تعالى بالاخسرين أعمالا وحذف مميز تسع لدلالة ما تقدم عليه اذ لا يقال عندى ثلثمائة درهم وتسعة الا وأنت تعنى تسعة دراهم ولو أردت ثيابا أونحوها لم يجز لانه الغاز ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم اذا نازعوه فى مدة لبثهم فى الكهف بقوله تعالى (قل الله أعلم بما لبثوا) أى فهو أعلم منكم وقد أخبر عدة لبثهم وقيل ان أهل الكتاب قالوا ان المدة من حين دخلوا الكهف الى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ثلثمائة سنين وازدادوا تسع سنين فرد الله تعالى عليهم ذلك وقال الله أعلم بما لبثوا يعنى بعد قبض أرواحهم الى يومنا هذا لا يعلمه الا الله (له غيب السموات والارض) أى ماغاب فيهما وخفى من أحوال أهلهما فالغيب ما يغيب عن ادراكك والله عز ذكره لا يغيب عن ادراكه شئ فيكون عالما بهذه الواقعة لا محالة وقوله تعالى (أبصر به وأسمع) كلمة تذكر فى التعجب أى ما أبصر الله تعالى بكل موجود. وما أسمعه بكل مسموع (مالهم) أى أهل السموات والارض (من دونه) أى الله (من ولى) أى ناصر (ولا يشرك فى حكمه) أى فى

قضائه

قضائه (أحدا) منهم ولا يجعل له فيه مدخلا لانه غني بذاته عن كل أحد وقيل الحكم هنا علم الغيب أي لا يشرك في علم غيبه أحدا وقرأ ابن عامر بالمثناة فوق قبل الشين وبسكون الكاف على نهي كل أحد عن الاشراك والباقون بالتحتية وضم الكاف *(تنبيه)* احتج أصحابنا رحمهم الله تعالى بهذه القصة على صحة القول بالكرامة للاولياء وقد قدمنا معرفة الولي في سورة يونس عند قوله تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فمما يدل على جواز كرامات الاولياء القرآن والاخبار والآثار والمعقول أما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات الحجة الاولى قصة مريم عليها السلام وقد شرحناها في سورة آل عمران فلا نعيدها الحجة الثانية قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم سالمين من الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين وأن الله تعالى كان يعصمهم من حر الشمس ومن الناس من تمسك أيضا في هذه المسئلة بقوله تعالى قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك على أنه غير السيد سليمان والسيد جبريل وأما الاخبار فكثيرة منها ما أخرج في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لم يتكلم في المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصبي في زمن جريج وصبي آخر أما عيسى فقد عرفتموه وأما جريج فكان رجلا عابدا في بني اسرائيل وكانت له أم فكان يوما يصلي اذ اشتاقت اليه أمه فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي الصلاة خير أم رؤيتها ثم يصلي فدعته ثانيا فقال مثل ذلك حتى تم ثلاث مرات وكان يصلي ويدعها فاشتد ذلك على أمه فقالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسات وكانت زانية في بني اسرائيل فقالت لهم أنا أفتن جريجا حتى يزني بي فأتته فلم تقدر على شئ وكان هناك راع يأوي بالليل الى صومعته فلما أعياها جريج راودت الراعي على نفسها فأتاها فولدت ثم قالت ولدي هذا من جريج فأتاه بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه ثم نخس الغلام قال أبو هريرة كأني أنظر الى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بيده يا غلام من أبوك فقال الراعي فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا اليه وقالوا نبني لك صومعتك من ذهب أو فضة فأبى عليهم وبناها كما كانت وأما الصبي الآخر فان امرأة كان معها صبي لها ترضعه اذ مر بها شاب جميل ذو شارة فقالت اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني مثله ثم مر بها امرأة ذكروا أنها سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فقال الصبي اللهم اجعلني مثلها فقالت له أمه في ذلك فقال ان الراكب جبار من الجبابرة فكرهت أن أكون مثله وان هذه قيل لها زنيت ولم تزن وقيل لها سرقت ولم تسرق وهي تقول حسبي الله فأحببت أن أكون مثلها ومنها خبر الغار وهو مشهور في الصحيح عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فأواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت عليهم صخرة من الجبل فسدت عليهم باب الغار وقد ذكرت ذلك عند قوله تعالى كانوا من آياتنا عجبا ومنها قوله صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لابره ولم يفرق من شئ وشئ فيما يقسم به على الله تعالى ومنها ما روى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل

يسوق بقرة قد حمل عليها التفتت البقرة وقالت انى لم أخلق لهذا وانما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنت بهذا وأبو بكر وعمر ومنها ماروى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل سمع رعدا أو صوتا في السحاب ان اسق حديقة فلان قال فغدوت الى تلك الحديقة فاذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك قال فلان ابن فلان قلت فما تصنع بحديقتك هذه اذا صرمتها قال ولم تسأل عن ذلك قلت لاني سمعت صوتا في السحاب أن اسق حديقة فلان قال اما اذ قلت فاني أجعلها أثلاثا فاجعل لنفسي ولاهلي ثلثا واجعل للمساكين وأبناء السبيل ثلثا وأنفق عليها ثلثا وأما الآثار فكثيرة أيضا ولنبدأ منها ببعض ما نقل انه ظهر على يد الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم ببعض ما ظهر على يد بعض الصحابة اما أبو بكر رضى الله تعالى عنه فمن كراماته أنه لما حملت جنازته الى باب قبر النبي صلى الله عليه وسلم ونودى السلام عليك يارسول الله هذا أبو بكر بالباب فاذا بالباب قد فتح واذا بهاتف يهتف من القبر أدخلوا الحبيب الى الحبيب وأما عمر رضى الله تعالى عنه فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته النوع الاول ماروى أنه لما بعث جيشا وأمر عليهم رجلا يدعى سارية بن الحصين فبينما عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح في خطبته وهو على المنبر ياسارية الجبل الجبل قال على بن أبي طالب رضى الله عنه كتبت تاريخ هذه الكلمة فلما قدم رسول ذلك الجيش فقال ياأمير المؤمنين غدونا يوم الجمعة في وقت الخطبة فهزمونا فاذا بانسان يصيح ياسارية الجبل فأسندنا ظهرنا الى الجبل فهزم الله تعالى الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت قال الرازى قلت سمعت بعض المذكرين قال كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه قال لابي بكر وعمر أنتما مني بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم لاجرم قدر على أن يرى من ذلك البعد العظيم النوع الثاني ماروى أن نيل مصر كان في الجاهلية يقف في كل سنة مرة واحدة فكان لايجرى حتى تلقى فيه جارية حسناء فلما جاء الاسلام كتب عمرو بن العاص الى عمر فكتب عمر على خرقة أيها النيل ان كنت تجرى بأمر الله فاجر وان كنت انما تجرى بأمرك لاحاجة بنا اليك فألقيت تلك الخرقة في النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك النوع الثالث لما وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر بالدرة على الارض وقال اسكني باذن الله فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك الوقت النوع الرابع وقعت النار في بعض دور المدينة فكتب عمر على خرقة يانار اسكني باذن الله فألقوها في النار فانطفأت في الحال النوع الخامس ماروى أن رسول ملك الروم جاء الى عمر وطلب داره فظن أن داره مثل قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك وانما هو في الصحراء يضرب اللبن فلما ذهب الى الصحراء رأى عمر وضع درته تحت رأسه ونام على التراب فتعجب الرسول من ذلك وقال أهل المشرق والمغرب يخافون هذا الانسان وهو على هذه الصفة ثم قال في نفسه ان وجدته خاليا فأقتله وأخلص الناس منه فلما رفع السيف أخرج الله تعالى من الارض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمر ولم ير شيأ فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم قال الرازى وأقول هذه

الواقعة رويت بالآحاد وههنا ما هو معلوم بالتواتر وهو أنه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات والتهويلات ساس الشرق والغرب وغلب الممالك والدول ولو نظرت فى كتب التواريخ علمت أنه لم يتفق لاحد من أول عهد عمر الى الآن ما تيسر له فانه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ولاشك أن هذا من أعظم الكرامات وأما عثمان رضى الله تعالى عنه فأشياء كثيرة منها ما روى عن أنس قال سرت فى الطريق فوقعت عيني على امرأة ثم دخلت على عثمان فقال مالى أراكم تدخلون على وآثار الزنا ظاهرة عليكم فقلت أجاء الوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا ولكن فراسة صادقة ومنها انه لما طعن بالسيف فأول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ومنها أن جهجاها الغفارى انتزع العصا من يد عثمان فكسرها على ركبته فوقعت الاكلة فى ركبته وأما على رضى الله تعالى عنه فأشياء كثيرة أيضا منها ما روى أن واحدا من محبيه سرق وكان عبدا أسود فأتى به الى على فقال أسرقت فقال بلى فقطع يده فانصرف من عنده فلقيه سلمان الفارسى وابن الكواء فقال ابن الكواء من قطع يدك فقال له أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول فقال له سلمان قطع يدك وتمدحه فقال ولم لا أمدحه وقد قطع يدى بحق وخلصنى من النار فسمع سلمان ذلك فأخبر به عليا فدعا الاسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتا من السماء ارفع الرداء عن اليد فرفعناه فاذا اليد قد برئت وأما ما روى عن بعض الصحابة فشئ كثير ونذكر منها شيأ قليلا منها ما روى محمد بن المنكدر عن سفينة قال ركبت البحر فانكسرت سفينتى التى كنت فيها وركبت لوحا من ألواحها فطرحنى اللوح فى خيسة فيها أسد فخرج الاسد الى يريدنى فقلت يا أبا الحرث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتقدم الاسد الى ودلنى على الطريق ثم همهم فظننت أنه يودعنى ورجع ومنها ما روى ثابت عن أنس أن أسيد بن حضير ورجلا آخر من الانصار تحدثا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة الظلمة وكان فى يد كل واحد منهما عصا فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا فى ضوئها فلما افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى حتى بلغ منزله ومنها ما روى أنه قيل لخالد بن الوليد ان فى عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقى رجلا على فرس ومعه خمر فقال ماهذا قال خل فقال خالد اللهم اجعله خلا فذهب الرجل الى أصحابه فقال أتيتكم بخمر ما شربت العرب مثله فلما فتحوا فاذا هو خل فقالوا والله ما جئتنا الا بخل فقال والله هذا دعاء خالد ومنها الواقعة المشهورة وهى ان خالد بن الوليد أكل كفا من السم على اسم الله وما ضره ومنها ما روى أن ابن عمر كان فى بعض أسفاره فلقى جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال انما يسلط على ابن آدم ما يخافه ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شئ ومنها ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث العلاء الحضرمى فى غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا

باسم الله الاعظم ومشوا على الماء وفى كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن أراد هاطالعها وأما الدلائل العقلية على جواز الكرامات فمن وجوه الاول أنه صلى الله عليه وسلم قال حاكيا عن رب العزة من آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة فجعل ايذاء الولى قائما مقام ايذائه وتأكد هذا بالخبر المشهور أنه تعالى يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى استسقيتك فما سقيتنى استطعمتك فما أطعمتنى فيقول يارب كيف أفعل هذا وأنت رب العالمين فيقول ان عبدى فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدت ذلك عندى وكذا فى السقى والاطعام فدلت هذه الاخبار على أن أولياء الله يبلغون هذه الدرجات العالية والمراتب الشريفة فاذا جاز اتصال العبد الى هذه الدرجات فأى بعد أن يعطيه الله تعالى كسرة خبز أو جرعة ماء أو يسخر له كلبا أو دودة الوجه الثانى أنه صلى الله عليه وسلم قال عن رب العزة ما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترض عليه ولا يزال يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا وقلبا ولسانا ويدا ورجلا فبى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يمشى وهذا الخبر يدل على أنه لم يبق فى سمعهم نصيب لغير الله تعالى لما قال أنا سمعه وأنا بصره وهذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع واعطاء عنقود من العنب أو شربة من الماء فلما أوصل برحمته عبده الى هذه الدرجات العالية فأى بعد فى أن يعطيه رغيفا واحدا أو شربة من الماء فى مفازة الوجه الثالث لو امتنع اظهار الكرامة لكان ذلك اما لاجل أن الله تعالى ليس أهلا لان يفعل مثل هذا الفعل أو لاجل أن المؤمن ليس أهلا لان يعطيه الله هذه العطية والاول قدح فى قدرة الله تعالى وهو كفر والثانى باطل فان معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته والمواظبة على ذكر تقديسه وتمجيده وتهليله أشرف من اعطاء رغيف واحد فى مفازة وتسخير حية أو أسد فان اعطاءه المحبة والذكر والشكر من غير سؤال أولى من أن يعطيه شربة ماء فى مفازة فأى بعد فيه واحتج المنكر للكرامات بوجوه الاول أن ظهور الفعل الخارق للعادة جعله الله تعالى دليلا على النبوة فلو حصل لغير النبى لبطلت هذه الدلالة الوجه الثانى أن الله تعالى قال وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس والقول بأن الولى ينتقل من بلد الى بلد بعيد لاعلى هذا الوجه طعن فى هذه الآية وأيضا ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة الا فى أيام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أن يقال ان الولى ينتقل من بلد نفسه الى الحج فى اليوم الواحد الوجه الثالث أن هذا الولى الذى يظهر عليه الكرامات اذا ادعى على انسان درهما واحدا فهل يطالب بالبينة أم لا فان طالبناه بها كان عبثا لان ظهور الكرامة عليه يدل على أنه لا يكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظنى وان لم يطالب بها فقد تركنا قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعى فهذا يدل على ان القول بالكرامة باطل وأجيب عن الاول بأن الناس اختلفوا هل يجوز للولى دعوى الولاية فقال قوم من المحققين انه لا يجوز فعلى هذا الفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة

بدعوى الولاية وعلى القول بالجواز الفرق بينهما أن النبي يدعى المعجزة ويقطع بها والولى اذا
ادعى الكرامة لا يقطع بها لان المعجز يجب ظهوره والكرامة لا يجب ظهورها وأجيب عن
الثانى بأن قوله تعالى ويحمل اثقالكم الى آخره محمول على المعهود المتعارف وكرامات الاولياء
أحوال نادرة فتصير كالمستثنيات من ذلك العموم المتعارف وأجيب عن الثالث بأن التمسك
بالامور النادرة لا يعول عليه فى الشرع فلا ينافى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم البينة على
المدعى ومع هذا فصاحب الكرامة يجب عليه أن يكون خائفا وجلا ولهذا قال المحققون أكثر
ما حصل الانقطاع عن حضرة الله انما وقع فى مقام الكرامات فلا جرم ترى المحققين يخافون
من الكرامات كما يخافون من أشد أنواع البلاء والذى يدل على أن الاستئناس بالكرامة
قاطع عن الطريق وجوه الاول أن الكرامات أشياء مغايرة للحق سبحانه وتعالى فالفرح
بالكرامة فرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح
والسرور الوجه الثانى أن من اعتقد فى نفسه أنه صار مستحقا للكرامة بسبب عمله حصل
لعمله وقع عظيم فى قلبه ومن كان لعمله وقع عظيم فى قلبه كان جاهلا اذ لو عرف ربه لعلم ان كل
طاعات الخلق فى جنب جلاله تقصير وكل شكر فى جنب آلائه ونعمائه قصور وكل معارفهم
وعلومهم فهى فى مقابلة عزته حيرة وجهل وجدت فى بعض الكتب أنه قرئ فى مجلس الاستاذ
أبى على الدقاق قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فقال علامة أن
الحق رفع عملك أن لا يبقى عندك منه شئ فى نظرك فان بقى عملك فى نظرك فهو غير مرفوع
وان لم يبق عملك فى نظرك فهو مرفوع مقبول الوجه الثالث أن صاحب الكرامة انما
وجد الكرامة لاظهار الذل والتضرع فى حضرة الله تعالى فاذا ترفع وتكبر وتجبر بسبب
الكرامات فقد بطل ما به وصل الى الكرامات فهذا طريق يؤدى ثبوته الى عدمه فكان
مردودا ولهذا المعنى لما ذكر صلى الله عليه وسلم مناقب نفسه وفضائلها كان يقول فى آخر كل
واحد منها ولا فخر أى لا أفخر بهذه الكرامات وانما أفخر بالمكرم والمعطى الوجه الرابع أنه
تعالى وصف عباده المخلصين بقوله تعالى ويدعوننا رغبا أى فى ثوابنا ورهبا أى من عذابنا وقيل
رغبا فى وصالنا ورهبا من عقابنا قال بعض المحققين والاحسن أن يقال رغبا فينا ورهبا عنا وفى
هذا القدر كفاية لأولى الالباب جعلنا الله تعالى وأحبابنا من أهل ولايته بمحمد صلى الله
عليه وسلم وآله وصحابته * ثم لما دل اشتمال القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيث انها من
المغيبات بالاضافة الى النبى صلى الله عليه وسلم على أنه وحى معجز أمره أن يداوم درسه ويلازم
أصحابه بقوله تعالى (واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك) أى القرآن واتبع ما فيه واعمل بما فيه
(لا مبدل لكلماته) أى لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره وقال بعضهم مقتضى هذا أن
لا يتطرق النسخ اليه وأجاب بأن النسخ فى الحقيقة ليس تبديلا لان المنسوخ ثابت فى وقته الى
وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلا وهذا لا يحتاج اليه مع التفسير
المذكور (ولن تجد من دونه) أى الله (ملتحدا) أى ملجأ فى البيان والارشاد وقيل ان لم تتبع

القرآن * ونزل فى عيينة بن حصن الفزارى لما أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء فيهم سلمان الفارسى وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوص يشقه ثم ينسجه فقال له أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر واشرافها فان أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك الا هؤلاء أى كما قال قوم نوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا واجعل لهم مجلسا (واصبر نفسك) أى احبسها وثبتها (مع الذين يدعون ربهم) ونظير هذه الآية قد سبق فى سورة الانعام وهو قوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ففى تلك الآية نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن طردهم وفى هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم وفى قوله تعالى (بالغدوة والعشى) وجوه الاول انهم مواظبون على هذا العمل فى كل الاوقات كقول القائل ليس لفلان عمل بالغداة والعشى الا شتم الناس الثانى المراد صلاة الفجر والعصر الثالث أن المراد الغداة وهو الوقت الذى ينتقل فيه الانسان من النوم الى اليقظة وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت الى الحياة والعشى هو الوقت الذى ينتقل الانسان فيه من الحياة الى الموت ومن اليقظة الى النوم والانسان العاقل يكون فى هذين الوقتين كثير الذكر لله تعالى عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه وقرأ ابن عامر بضم الغين المعجمة وسكون الدال وبعدها واو مفتوحة والباقون بفتح الغين والدال وألف بعدها والرسم فى المصحف بالواو هنا وفى سورة الانعام (يريدون) بعبادتهم (وجهه) تعالى أى رضاه وطاعته لاشيأ من اعراض الدنيا (ولا تعد) أى تنصرف (عيناك عنهم) الى غيرهم وعبر بالعينين عن صاحبهما فنهى صلى الله عليه وسلم أن يصرف بصره ونفسه عنهم لاجل رغبته فى مجالسة الاغنياء لعلهم يؤمنون وقوله تعالى (تريد زينة الحياة الدنيا) فى موضع الحال أى انك ان فعلت ذلك لم يكن اقدامك عليه الا لرغبتك فى زينة الحياة الدنيا ولما بالغ تعالى فى أمره فى مجالسة الفقراء من المسلمين بالغ فى النهى عن الالتفات الى أقوال الاغنياء والمتكبرين بقوله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) أى جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا أى عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف (واتبع هواه) أى فى طلب الشهوات (وكان أمره فرطا) أى اسرافا وباطلا وهذا يدل على أن أشر أحوال الانسان أن يكون قلبه خاليا عن ذكر الحق ويكون مملوأ من الهوى الداعى الى الاشتغال بالخلق لان ذكر الله تعالى نور وذكر غيره ظلمة لان الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو الله تعالى وماسواه فهو ممكن الوجود لذاته والامكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب اذا أشرق فيه ذكر الله تعالى فقد حصل فيه النور والضوء والاشراق واذا توجه القلب الى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا السبب اذا أعرض القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة والاعراض عن الحق هو المراد بقوله تعالى أغفلنا قلبه عن ذكرنا والاقبال على الخلق هو المراد بقوله تعالى واتبع هواه روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال كنت جالسا فى عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم

ليستتر ببعض من العرى وقارئ يقرأ من القرآن فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما الذى كنتم تصنعون قلنا يا رسول الله كان واحد يقرأ من القرآن ونحن نسمع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى جعل من أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم ثم جلس وسطنا وقال أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة فتدخلون الجنة قبل الاغنياء بمقدار خمسمائة سنة * ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يلتفت الى أولئك الاغنياء الذين قالوا ان طردت الفقراء آمنا بك قال تعالى بعده (وقل الحق) أى وقل لهؤلاء ولغيرهم هذا الذى جئتكم به فى أمر أهل الكهف وغيرهم من هذا الوجه العربى المعرى عن العوج الظاهر الاعجاز الباهر الحجج الحق كائنا (من ربكم) المحسن اليكم فى أمر أهل الكهف وغيرهم من صبر نفسى مع المؤمنين والاعراض عمن سواهم وغير ذلك لا ما قلتموه فى أمرهم ويجوز أن يكون الحق مبتدأ وخبره الجار بعده (فمن شاء) أى منكم ومن غيركم (فليؤمن) بهذا الذى قصصناه فيهم وفى غيرهم فهو مقبول مرغوب فيه وان كان فقيرا رث الهيئة ولم ينفع الانفسه (ومن شاء) منكم ومن غيركم (فليكفر) فهو أهل لان يعرض عنه ولا يلتفت اليه وان كان أغنى الناس وأحسنهم هيئة وان تعاظمت هيئته وهذا لا يقتضى استقلال العبد بفعله كما تقول المعتزلة فعن ابن عباس فى معنى الآية من شاء الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر ونقل عن على رضى الله عنه أنه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد أى فهى كقوله تعالى اعملوا ما شئتم فان الله تعالى لا ينتفع بايمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين بل نفع الايمان يعود على المؤمن وضرر الكفر يعود على الكافر كما قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها * ولما هدد السامعين بما حاصله ليختار كل امرئ لنفسه ما يجده غدا عند الله أتبعه بذلك الوعيد والافعال الباطلة وبذكر الوعد على الايمان والاعمال الصالحة أما الوعيد فقوله تعالى (انا أعتدنا) أى هيأنا بما لنا من العظمة والقدرة (للظالمين) أى لمن أنف عن قبول الحق لاجل ان الذين قبلوه فقراء ومساكين وكذا كل من لم يؤمن (نارا) وهى الجحيم ثم وصف الله تعالى تلك النار بصفتين الاولى قوله تعالى (أحاط بهم) كلهم (سرادقها) أى فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل هو الحجرة التى تكون حول الفسطاط وقيل حائط من نار والمراد أنه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر الى ما وراءها من غير النار بل هى محيطة من كل الجوانب وقيل هو دخان يغشاهم قبل دخولهم النار يحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط الصفة الثانية قوله تعالى (وان يستغيثوا) أى يطلبوا الغوث (يغاثوا بماء) ووصف هذا الماء بصفتين الاولى قوله تعالى (كالمهل) وهو كما فى حديث مرفوع دردى الزيت وعن ابن مسعود انه دخل بيت المال وأخرج نقاعة كانت فيه وأوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال هذا هو المهل وقال أبو عبيدة والاخفش كل شئ أذبته من نحاس أو ذهب أو فضة فهو المهل وقيل انه الصديد والقيح وقيل انه ضرب من القطران ثم يحتمل أن تكون هذه الاستغاثة لانهم طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ويحتمل أن يستغيثوا

من حر جهنم فيطلبوا مايصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء قال تعالى حكاية عنهم
أفيضوا علينا من الماء وقال تعالى في آية أخرى سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار
فإذا استغاثوا من حر جهنم صب عليهم القطران الذي يعم كل أبدانهم كالقميص والصفة
الثانية للماء قوله تعالى (يشوي الوجوه) أي اذا قرب الى الفم لشرب فكيف بالفم والجوف ثم
وصل تعالى بذلك ذمه فقال تعالى (بئس الشراب) أي ذلك الماء الذي هو كالمهل لأن المقصود
من شرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ في احراق الانسان مبلغا عظيما ثم عطف عليه ذم
النار المعدة لهم بقوله تعالى (وساءت) أي النار وقوله تعالى (مرتفقا) تمييز منقول من الفاعل
أي قبح مرتفقها وهو مقابل لقوله تعالى الآتي في الجنة وحسنت مرتفقا والا فأي ارتفاق
في النار * ولما ذكر تعالى وعيد المبطلين أردفه بوعد المحقين فقال تعالى (ان الذين آمنوا)
ولما كان الايمان هو الاذعان للاوامر عطف عليه مايحقق ذلك بقوله تعالى (وعملوا الصالحات)
ثم عظم جزاءهم بقوله تعالى (انا لانضيع) أي بوجه من الوجوه (أجر من أحسن عملا) وهذه
الجملة خبر ان الذين وفيها اقامة الظاهر مقام المضمر والمعنى أجرهم أي نثيبهم بما تضمنه (أولئك
لهم جنات عدن) أي اقامة فكأنه قيل فمالهم فيها فقيل (تجري من تحتهم) أي من تحت
منازلهم (الانهار) وذلك لأن أفضل المساكن ما كان تجري فيه الانهار أو الماء فكأنه قيل
ثم ماذا فقيل (يحلون فيها) وبني الفعل للمجهول لأن المقصود وجود التحلية وهي لعزتها
انما يؤتى بها من الغيب فضلا من الله تعالى * ولما كانت نعم الله لاتحصى نوع منها قال تعالى
مبعضا (من أساور) جمع اسورة كاحمرة جمع سوار كما يلبس ذلك ملوك الدنيا من جبابرة الكفرة
في بعض الاقاليم كأهل فارس وقيل من زائدة وقيل للابتداء ومن في قوله تعالى (من ذهب)
للبيان صفة لاساور وتنكيرها لتعظيم جنسها عن الاحاطة به وقيل للتبعيض * ولما كان
اللباس جزاء العمل فكان موجودا عندهم أسند الفعل اليهم فقال (ويلبسون ثيابا خضرا)
لأن الخضرة أحسن الالوان وأكثرها طراوة ثم وصفها بقوله تعالى (من سندس) وهو مارق
من الديباج (واستبرق) وهو ماغلظ منه جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ماتشتهي
الانفس وتلذ الاعين وفي آية أخرى بطائنها من استبرق فيكون الغليظ بطانة للرقيق ثم استأنف
الوصف عن حال جلوسهم فيها بأنه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فقال تعالى (متكئين فيها)
أي لأنهم في غاية الراحة (على الارائك) جمع أريكة وهي السرير في الحجلة وهي بيت يزين
بالثياب والستور للعروس ثم مدح هذا بقوله تعالى (نعم الثواب) أي الجزاء الجنة لو لم يكن لها
وصف غير ماسمعتم فكيف وأنها من الاوصاف مالا يعلمه حق علمه الا الله تعالى والى ذلك أشار
بقوله تعالى (وحسنت) أي الجنة كلها وبين ذلك بقوله تعالى (مرتفقا) أي مقرا ومرتفقا
ومجلسا ولما افتخر الكفار بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين بين الله تعالى أن ذلك مما
لايوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيا والغني فقيرا وأما الذي يجب الافتخار به
فطاعة الله تعالى وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور

بقوله تعالى (واضرب لهم) أي لهؤلاء الاغنياء المتجبرين الذين يستكبرون على المؤمنين ويطلبون طردهم لضعفهم وفقرهم (مثلا) لما آتاهم الله من زينة الحياة الدنيا واعتمدوا عليه وركنوا اليه ولم يشكروا من آتاهم اياه عليه بل أداهم الى الافتخار والتكبر على من زوى ذلك عنه اكراما له وصيانة عنه (رجلين) الى آخر الآية واختلف في سبب نزولها فقيل نزلت في رجلين من أهل مكة من بني مخزوم أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة وكان زوج أم سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر كافر وهو الاسود بن عبد ياليل وهما ابنا عبد الاسد بن عبد ياليل وقيل مثال لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وأصحابه شبههما برجلين من بني اسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس وقال مقاتل تمليخا والآخر كافر واسمه فطروس وقال وهب قطفر وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة والصافات وكانت قصتهما على ما حكى عبد الله بن المبارك عن معمر عن عطاء الخراساني قال كانا رجلين شريكين لهما ثمانية آلاف دينار وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار واني مشتر منك أرضا في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا بنى دارا بألف دينار واني اشتريت منك دارا في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال هذا اللهم اني أخطب اليك من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه اشترى خدما ومتاعا بألف دينار فقال هذا اللهم اني اشتري خدما ومتاعا من الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبي لعله ينالني منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به في حشمه فقام اليه فنظر اليه الآخر فعرفه فقال له فلان قال نعم قال ما شأنك قال أصابتني حاجة بعدك فأتيت لتعينني بخير قال فما فعل مالك وقد اقتسمنا مالا وأخذت شطره فقص عليه قصته فقال وانك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيأ فطرده وروي انه لما أتاه أخذ بيده فجعل يطوف به ويريه أموال نفسه فنزل فيهما واضرب لهم مثلا رجلين أي اذكر لهم خبر رجلين (جعلنا لاحدهما جنتين) أي بستانين يستر ما فيهما من الاشجار من يدخلهما (من أعناب) لانها من أشجار البلاد الباردة وتصبر على الحر وهي فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرها ثم انه تعالى وصف الجنتين بصفات الصفة الاولى قوله تعالى (وحففناهما) أي أطفناهما من جوانبهما (بنخل) لانها من أشجار البلاد الحارة وتصبر على الحرور بما منعت عن الاعناب بعض أسباب العاهات وغيرها فاكهة بالبسر والرطب وقوت بالتمر والخل فكان النخل كالاكليل من وراء العنب *(تنبيه)* الحفاف الجانب وجمعه أحفة يقال أحف به القوم أي أطافوا بجوانبه الصفة الثانية قوله تعالى (وجعلنا بينهما) أي أرضي الجنتين (زرعا) ليعد شمول الآفة للكل لان زمان الزرع ومكانه غير زمان ثمار الشجر ومكانه وذلك هو العمدة في القوت فكانت الجنتان أرضا جامعة لخير الفاكهة وأفضل الاقوات وعمارتهما متواصلة

متشابكة لم يتوسطها ما يقطعهما ويفصل بينهما مع سعة الاطراف وتباعد الاكناف وحسن الهيئات والاوصاف الصفة الثالثة قوله تعالى (كلتا) أى كل واحدة من (الجنتين) المذكورتين (آتت أكلها) أى ما يطلب منها ويؤكل من ثمر وحب كاملا غير منسوب شئ منهما الى نقص ولارداءة وهو بمعنى (ولم تظلم) أى ولم تنقص (منه شيأ) يعهد فى سائر البساتين فان الثمار تتم فى عام وتنقص فى عام غالبا والظلم النقصان تقول الرجل ظلمنى حقى أى نقصنى *(تنبيه)* كلا اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان وكلتا اسم مفرد ومعرفة يؤكد به مؤنثان معرفتان وانما اذا أضيفا الى المظهر كانا بالالف فى الاحوال الثلاثة كقولك جاءنى كلا أخويك ورأيت كلا أخويك ومررت بكلا أخويك وجاءنى كلتا أختيك ورأيت كلتا أختيك ومررت بكلتا أختيك واذا أضيفا الى المضمر كانا فى الرفع بالالف وفى الجر والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالالف فى الاحوال الثلاثة أيضا فقوله تعالى آتت أكلها حمل على اللفظ لان كلتا لفظ مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز الصفة الرابعة قوله تعالى (وفجرنا خلالهما نهرا) أى وسطهما وبينهما ومنه قوله تعالى ولاوضعوا خلالكم ومنه يقال خللت القوم أى دخلت القوم وذلك ليدوم شربهما ويستغنيا عن المطر عند القحط ويزيد بهاؤهما الصفة الخامسة قوله تعالى (وكان له) أى صاحب الجنتين (ثمر) أى أنواع من المال سوى الجنتين قال ابن عباس من ذهب وفضة وغير ذلك من أثمر ماله اذا كثر وعن مجاهد الذهب والفضة خاصة أى كان مع الجنتين أشياء من الاموال ليكون متمكنا من العمارة بالاعوان والآلات وجميع ما يريد وقرأ أبو عمرو وثمر هنا وثمره الآتى بسكون الميم فيهما بعد ضم الثاء المثلثة وقرأ عاصم بفتح المثلثة والميم فيهما والباقون بضم المثلثة والميم فيهما ذكر أهل اللغة ان الضم أنواع المال من الذهب والفضة وغيرهما وبالفتح حمل الشجر قال قطرب وكان أبو عمرو بن العلاء يقول الثمر المال والولد وأنشد للحرث بن حلزة

ولقد رأيت معاشرا * قد أثمروا مالا وولدا

وقال النابغة مهلا فداء لك الاقوام كلهم * وما أثمر من مال ومن ولد

(فقال) أى هذا الكافر (لصاحبه) أى المسلم المجعول مثلا للفقراء المؤمنين (وهو) أى صاحب الجنتين (يحاوره) أى يراجعه الكلام من حار يحور اذا رجع افتخارا عليه وتقبيحا لحاله بالنسبة اليه والمسلم يحاوره بالوعظ وتقبيح الركون الى الدنيا (أنا أكثر منك مالا) لما ترى من جناتى وغيارى وقرأ نافع بمد الالف بعد النون والباقون بالقصر هذا فى الوصل وأما فى الوقف فبالالف للجميع وسكن قالون وأبو عمرو والكسائى هاء وهو وضمها الباقون ورقق ورش راء يحاوره (وأعز نفرا) أى ناسا يقومون معى فى المهمات وينفعون عند الضرورات لان ذلك لازم لكثرة المال غالبا وترى أكثر الاغنياء من المسلمين وان لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم فان ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه (ودخل جنته) بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها وأفرد الجنة لارادة الجنس ودلالة ما أفاده الكلام من أنهما لاتصالهما كالجنة الواحدة واشارة

الى

الى أنه لاجنة له غيرها الا انه لاحظ له فى الآخرة (وهو) أى والحال أنه (ظالم لنفسه) لاعتماده على ماله والاعراض عن ربه ثم استأنف بيان ظلمه بقوله تعالى (قال ما أظن أن تبيد) أى تنعدم (هذه) أى الجنة (أبدا) لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بجهله ثم زاد فى الطغيان والبطر بقصر النظر على الحاضر فأنكر البعث بقوله (وما أظن الساعة قائمة) أى كائنة استلذاذا بما هو فيه واخلادا اليه واعتمادا عليه وقوله (ولئن رددت الى ربى) المحسن الىّ فى هذه الدار فى الساعة اقسام منه على أنه ان ردّ الى ربه على سبيل الفرض والتقدير وعلى مايزعم صاحبه أنّ الساعة قائمة (لاجدن خيرا منها) أى من هذه الجنة (منقلبا) أى مرجعا لانه لم يعطنى الجنة فى الدنيا الا ليعطينى فى الآخرة أفضل منها قال ذلك طمعا وتمنيا على الله وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده وانه ما أولاه الجنتين الا لاستحقاقه واستئهاله وأنّ معه هذا الاستحقاق أينما توجه كقوله ان لى عنده للحسنى لأوتين مالا وولدا (قال له صاحبه) أى المؤمن (وهو) أى والحال أنّ ذلك الصاحب (يحاوره) أى يراجعه منكرا عليه (أكفرت بالذى خلقك من تراب) أى خلق أصلك آدم من تراب لانّ خلق أصله سبب فى خلقه فكان خلقه خلقاله (ثم من نطفة) متولدة من أغذية أصلها تراب هى مادتك القريبة (ثم سوّاك) أى عدلك بعد أن أولدك وطورك فى أطوار النشأة (رجلا) أى كذلك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال جعل كفره بالبعث كفرا بالله تعالى لانّ منشأه الشك فى كمال قدرة الله تعالى ولذلك ترتب الانكار على خلقه اياه من التراب فانّ من قدر على بدء خلقه مرّة قدر على أن يعيده منه ولما أنكر على صاحبه أخبر عن اعتقاده بما يضاد اعتقاد صاحبه فقال مؤكدا لاجل انكار صاحبه مستدركا لاجل كفرانه (لكنّا) أصله لكن أنا نقلت حركة الهمزة الى النون وحذفت الهمزة ثم أدغمت النون فى مثلها كما قال القائل.

وترميننى بالطرف أى أنت مذنب * وتقليننى لكنّ اياك لاأقلى

أى لكن انا لا أقليك * ولما كان سبحانه وتعالى لاشئ أظهر منه ولاشئ أبطن منه أشار الى ذلك جميعا باضماره قبل الذكر فقال (هو) أى الظاهر أتم ظهور فلا يخفى أصلا ويجوز أن يكون الضمير للذى خلقك (الله) أى المحيط بصفات الكمال (ربى) وحده لم يحسن الىّ خلقا ورزقا أحد غيره وهذا اعتقادى فى الماضى والحال وقرأ ابن عامر باثبات الالف بعد النون وقفا ووصلا لاتباع المرسوم والباقون باثبات الالف بعد النون وقفا وحذفها وصلا (فان قيل) قوله لكنا استدراك لماذا (أجيب) بأنه لقوله أكفرت فكأنه قال لاخيه أكفرت بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر وذكر القفال فى قول المؤمن (ولا أشرك بربى) أى المحسن الىّ فى عبادتى (أحدا) وجوها أحدها انى لا أرى الفقر والغنى الا منه فأحمده اذا أعطى وأصبر اذا ابتلى ولا أكفر عند ما ينعم علىّ ولا أرى كثرة الاموال والاعوان من نفسى وذلك لانّ الكافر لما اغتر بكثرة المال والجاه فكأنه قد أثبت لله شريكا فى اعطاء العز والغنى وثانيها لعل ذلك الكافر مع كونه منكرا للبعث كان عابد صنم فبين هذا

المؤمن فساد قوله باثبات الشركاء وثالثها ان هذا الكافر لما عجز الله تعالى عن البعث والحشر فقد جعله مساويا للخلق فى هذا العجز واذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك ثم قال المؤمن للكافر (ولولا اذ) أى وهلا حين (دخلت جنتك قلت) عند اعجابك بها ما يدل على تفويضك الامر فيها وفى غيرها الى الله تعالى وهو (ماشاء الله) أى الامر ماشاء الله أو ماشاء الله كائن على ان ما موصولة أى وأى شئ شاء الله كان على أنها شرطية والجواب محذوف أى اقرارا بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها وقرأ ابن ذكوان وحمزة بالامالة والباقون بالفتح واذا وقف حمزة وهشام على شاء أبدل الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر وأظهر اذ عند الدال نافع وابن كثير وعاصم والباقون بالادغام وهلا قلت (لاقوة الابالله) اعترافا بالعجز على نفسك والقدرة لله وأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها فبمعونة الله تعالى واقداره أولا يقوى أحد فى بدنه ولا فى غير ذلك الابالله وفى الحديث من أعطى خيرا من أهل أو مال فيقول عند ذلك ماشاء الله لاقوة الابالله لم ير فيه مكروها ثم ان المؤمن لما أعلم الكافر بالايمان أجابه عن افتخاره بالمال والنفس فقال (ان ترنى أنا أقل منك مالا وولدا) أى من جهة المال والولد ويحتمل أن يكون أنا فصلا وأن يكون تأكيدا للمفعول الاول وقرأ قالون وأبو عمرو باثبات الياء وصلا وحذفها وقفا وابن كثير باثباتها وصلا ووقفا والباقون بالحذف وقفا ووصلا وقوله تعالى (فعسى ربى) أى المحسن الى (أن يؤتينى) من خزائن رزقه (خيرا من جنتك) اما فى الدنيا واما فى الآخرة لايمانى جواب الشرط (ويرسل عليها) أى جنتك (حسبانا) جمع حسبانة أى صواعق (من السماء فتصبح) بعد كونها قرة للعين بما تهتز به من الاشجار والزروع (صعيدا زلقا) أى أرضا ملساء باستئصال بنيانها وأشجارها فلا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم وقوله (أو يصبح ماؤها غورا) أى غائرا فى الارض لاتناله الايدى والدلاء مصدر وصف به كالزلق (فلن تستطيع) أنت (له) أى للماء الغائر (طلبا) يصير بحيث لاتقدر على رده الى موضعه ثم انه أخبر الله تعالى أنه حقق ماقدره هذا المؤمن فقال (وأحيط) أى وقعت الاحاطة بالهلاك وبنى للمفعول لان النكد حاصل باحاطة الهلاك من غير نظر الى فاعل مخصوص والدلالة على سهولته (بثمره) أى الرجل المشرك كله واستوصل هالكا ما فى السهل منه وما فى الجبل وما يصبر منه على البرد والحر وما لايصبر قال بعض المفسرين ان الله تعالى أرسل عليها نارا فاهلكتها وغار ماؤها (فأصبح يقلب كفيه) ندما ويضرب احداهما على الاخرى تحسرا فتقلب الكفين كناية عن الندم والتحسر لان النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن كما يكنى عن ذلك بعض الكف والسقوط فى اليد لانه فى معنى الندم فعدى تعديته كأنه قيل فأصبح يندم (على ما أنفق فيها) أى فى عمارتها ونمائها (وهى خاوية) أى ساقطة (على عروشها) أى دعائمها التى كانت تحتها فسقطت على الارض وسقطت هى فوقها وقوله تعالى (ويقول) عطف على يقلب أو حال من ضميره (يا) للتنبيه (ليتنى) تمنيا لرد ما فاته لحيرته وذهول عقله ودهشته وعدم اعتماده على الله تعالى من غير اشراك بالاعتماد على الفانى (لم أشرك بربى

احدا)

أحدا) كما قال له صاحبه فندم حيث لا ينفعه الندم على ما فرط في الماضي لأجل ما فاته على الدنيا لا حرصا على الايمان لحصول الفوز في العقبى لقصور عقله ووقوفه مع المحسوسات المشاهدة (فان قيل) ان هذا الكلام يوهم ان جنته انما هلكت بشؤم شركه وليس مرادا لان أنواع البلاء أكثرها انما يقع للمؤمنين قال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون وقال صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وأيضا لما قال يا ليتني لم أشرك بربي أحدا فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد فوجب أن يصير مؤمنا فلم قال تعالى بعده (ولم تكن له فئة) أي جماعة من نفره الذين اغتر بهم ولا من غيرهم (ينصرونه) مما وقع فيه (من دون الله) عند هلاكها (وما كان) هو (منتصرا) بنفسه بل ليس الامر في ذلك الا الله وحده (أجيب) عن الاول بأنه لما عظمت حسراته لاجل أنه أنفق عمره في تحصيل الدنيا وكان معرضا في عمره كله عن طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقي محروما من الدنيا والدين وعن الثاني بأنه انما ندم على الشرك لاعتقاده أنه لو كان موحدا غير مشرك لبقيت عليه جنته فهو انما رغب في ذلك لاجل طلب الدنيا فلذلك لم يقبل الله توحيده وقرأ حمزة والكسائي يكن بالتحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التأنيث * ولما أنتج هذا المثل قطعا أنه لا أمر لغير الله تعالى المرجو لنصر أوليائه بعد ذلهم ولاغنائهم بعد فقرهم ولاذلال أعدائهم بعد عزهم وكبرهم وافقارهم بعد اغنائهم وحده وان غيره انما هو كالخيال لا حقيقة له صرح بذلك في قوله تعالى (هنالك) اى في مثل هذه الشدائد العظيمة (الولاية لله) أي الذي له الكمال كله وقرأ حمزة والكسائي بكسر الواو أي الملك والباقون بفتحها أي النصرة وقوله تعالى (الحق) قرأه أبو عمرو والكسائي برفع القاف على الاستئناف والقطع تعليلا تنبيها على ان فزعهم في مثل هذه الازمان اليه تعالى دون غيره برهان قاطع على أنه الحق وما سواه باطل وان الفخر بالعرض الزائل من أجهل الجهل وان المؤمنين لا يضيمهم فقر ولا يسوغ طردهم لاجله وأنه يوشك أن يعود فقرهم غنى وضعفهم قوة وقرأه الباقون بخفضها على الوصف أي الثابت الذي لا يحول يوما ولا يزول ولا يغفل ساعة ولا ينام ولا ولاية لغيره بوجه (هو خير ثوابا) من ثواب غيره لو كان يثيب (وخير عقبا) أي عاقبة للمؤمنين وقرأ عاصم وحمزة بسكون القاف والباقون بضمها ونصب على التمييز * ولما تم المثل لدنياهم الخاصة بهم التي أنظرتهم فكانت سببا لشقاوتهم وهم يحسبون أنها عين اسعادهم ضرب لدار الدنيا العامة لجميع الناس في قلة ثوابها وسرعة فنائها وان من تكبر كان أخس منها فقال (واضرب) أي صير (لهم) اى لهؤلاء الكفار المغترين بالعرض الفاني المفتخرين بكثرة ذكر الاموال والاولاد وعزة النفر وقوله تعالى (مثل الحياة الدنيا) مفعول أول ثم ذكر المثل بقوله تعالى (كماء) وهو المفعول الثاني (أنزلناه) بعظمتنا وقدرتنا وقال تعالى (من السماء) تنبيها على بليغ القدرة في امساكه في العلو وانزاله في وقت الحاجة (فاختلط) أي فتعقب وتسبب عن انزاله أنه اختلط (به نبات الارض) أي التف بسببه حتى

خالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه كما قال تعالى فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وقيل اختلط ذلك الماء بالنبات حتى روى واهتز ونما وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الارض لكن لما كان كل من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه عكس للمبالغة فى كثرته ثم اذا انقطع ذلك بالمطر مدة جف ذلك النبات (فأصبح هشيما) أى يابسا متفرقة أجزاؤه (تذروه) أى تنثره وتفرقه (الرياح) فتذهب به والمعنى أنه تعالى شبه الدنيا بنبات حسن فيبس فتكسر ففرقته الرياح حتى يصير عما قليل كأنه بقدرة الله تعالى لم يكن وقرأ حمزة والكسائى بالتوحيد والباقون بالجمع (وكان الله) أى المختص بصفات الكمال (على كل شئ) من دون ذلك وغيره انشاء وافناء واعادة (مقتدرا) أزلا وأبدا بتكوينه أولا وتنميته وسطا وابطاله آخرا فأحوال الدنيا أيضا كذلك تظهر أولا فى غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ فى الانحطاط الى أن ينتهى الى الهلاك والفناء ومثل هذا الشئ ليس للعاقل أن يبتهج به *(تنبيه)* قوله تعالى فأصبح يجوز أن يكون على بابه فان أكثر ما يطرق من الآفات صباحا كقوله تعالى فأصبح يقلب كفيه ويجوز أن يكون بمعنى صار من غير تقييد بصباح كقول القائل

أصبحت لا أحمل السلاح ولا * أملك رأس البعير ان نفرا

*ولما بين سبحانه وتعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بين بقوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ادخال هذا الجزئى تحت هذا الكلى فينعقد به قياس بين الانتاج وهو أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا ولما كانت زينة الحياة الدنيا سريعة الانقضاء والانقراض أنتج انتاجا بديهيا ان المال والبنون سريع الانقضاء والانقراض وما كان كذلك فانه يقبح بالعقل أن لا يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له فى نظره وزنا وهذا برهان ظاهر باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الاموال * ثم ذكر تعالى ما يدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الاغنياء فقال (والباقيات الصالحات خير) أى من الزينة الفانية لان خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائمة باقية والدائم الباقى خير من المنقرض المنقضى وهذا معلوم بالضرورة لاسيما وقد ثبت أن خيرات الدنيا حقيرة خسيسة وأن خيرات الآخرة رفيعة شريفة والمفسرون ذكروا فى الباقيات الصالحات أقوالا أحدها أنها سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وزاد بعضهم ولا حول ولا قوة الا بالله وللغزالى فى تفسير غير الزيادة وجه لطيف فقال روى أن من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر حسنات فاذا قال الحمد لله صارت عشرين فاذا قال ولا اله الا الله صارت ثلاثين فاذا قال والله أكبر صارت أربعين وتحقيق القول فيه أن مراتب الثواب أعظمها هو الاستغراق فى معرفة الله تعالى وفى محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه تعالى منزها عن كل ما لا يليق به وكل ما لا ينبغى فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا قال مع ذلك الحمد لله فقد أقر بأن الحق سبحانه وتعالى مع كونه منزها عن كل ما لا ينبغى فهو المبتدئ لكل ما ينبغى ولافاضة كل خير وكمال

فقد

فقد تضاعفت درجات المعرفة فلاجرم قلنا بضاعفة الثواب فاذا قال مع ذلك لا اله الا الله فقد أقر بأن الذى تنزه عن كل مالا ينبغى وهو المبتدئ لكل ما ينبغى ليس فى الوجود موجود هكذا الا هو الواحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلاجرم صارت درجات الثواب ثلاثة فاذا قال العبد والله أكبر فمعنى انه أكبر أنه أعظم من ان يصل العقل الى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة فلاجرم صارت درجات الثواب أربعة وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أحب الىّ مما طلعت عليه الشمس وعن أبى سعيد الخدرى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وماهن يارسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله ثانيها أنها الصلاة الخمس ثالثها أنها الطيب من القول رابعها وهو أعمها وأولاها انها أعمال الخيرات التى تبقى ثمراتها أبد الآباد فيندرج فى ذلك الصلاة وأعمال الحج وصيام رمضان وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله والكلام الطيب وغير ذلك من كل عمل وقول دعا لمحبة الله تعالى ومعرفته وخدمته وأما مادعا الى شئ من قول أو عمل الى الاشتغال بأحوال الخلق فهو خارج عن ذلك لان كل ماسوى الحق فهو فان لذاته فكان الاشتغال به والانفاق عليه باطلا وسعيا ضائعا وأما الحق لذاته فهو الباقى الذى لا يقبل الزوال لاجرم كان الاشتغال بمحبته ومعرفته وطاعته وخدمته هو الذى يبقى بقاء لا يزول ولما كان أهم ما الى من حصل البقاء ليس لكفايته بل لمن يحفظها له لوقت حاجته قال تعالى (عند ربك) أى الجليل المواهب العالم بالعواقب وخير من المال والبنين فى العاجل والآجل (ثوابا وخير) من ذلك كله (أملا) أى من جملة مايرجوه فيها من الثواب ويرجوه فيها من الامل لان ثوابها الى بقاء آملها كل ساعة فى تحقق وعلو وارتقاء وآمل المال والبنين يخان أحوج مايكون اليهما وعن قتادة كل ما أريد به وجه الله تعالى خير ثوابا أى مايتعلق بها من الثواب ومايتعلق بها من الامل لان صاحبها يأمل فى الدنيا ثواب الله ونصيبه فى الآخرة * ولما بين سبحانه وتعالى خساسة الدنيا وشرف الآخرة أردفه بأحوال يوم القيامة وذكر منها أنواعا النوع الاول قوله تعالى (ويوم) أى واذكر لهم يوم (نسير) بايسر أمر (الجبال) عن وجه الارض بعواصف القدرة كما نسير نبات الارض بعد أن صار هشيما بالرياح كما قال تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب * (تنبيه) * ليس فى لفظ الآية مايدل الى أين تسير قال الرازى ويحتمل أن يقال ان الله يسيرها الى الموضع الذى يريده ولم يبين ذلك لخلقه والحق ان المراد ان الله تعالى يسيرها الى العدم لقوله تعالى ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ولقوله وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم التاء الفوقية وفتح الياء التحتية بعد السين على فعل مالم يسم فاعله ورفع الجبال باسناد تسير اليها كما فى قوله تعالى واذا الجبال سيرت والباقون بالنون المضمومة وكسر الياء التحتية بعد السين باسناد فعل التسيير اليه تعالى نفسه ونصب الجبال لكونه مفعول نسير والمعنى نحن نفعل بها ذلك

اعتبارا بقوله تعالى وحشرناهم والمعنى واحد لانها اذا سيرت فسيرها ليس الا الله تعالى * النوع الثانى قوله تعالى (وترى الارض) بكمالها (بارزة) لا غار فيها ولا صدع ولا جبل ولا نبت ولا شجر ولا ظل فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها وهو المراد من قوله تعالى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وقيل انها أبرزت ما فى بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها فاذا هى بارزة الجوف والبطن فحذف ذكر الجوف كما قال تعالى وألقت ما فيها وتخلت وقال تعالى وأخرجت الارض أثقالها النوع الثالث قوله تعالى (وحشرناهم) أى الخلائق قهرا الى الوقت الذى تنكشف فيه المخبآت وتظهر القبائح والمغيبات ويقع الحساب فيه على النقير والقطمير والناقد فيه بصير (فلم نغادر) أى نترك (منهم) اى الاولين والآخرين (أحدا) لانه لاذهول ولا عجز ونظيره قوله تعالى قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم (فان قيل) لم جيء بحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى (أجيب) بأن ذلك يقال للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الاهوال العظائم كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك * ولما ذكر تعالى حشرهم وكان من المعلوم أنه للعرض ذكر كيفية ذلك العرض فقال بانيا الفعل للمفعول على طريقة كلام القادرين ولان المخوف العرض لا لكونه من معين (وعرضوا على ربك) المحسن اليك برفع أوليائك وخفض أعدائك وقوله تعالى (صفا) حال أى مصطفين واختلف فى تفسيره على وجوه الاول أن تعرض الخلق كلهم صفا واحدا الاتساع الارض ظاهرين لا يحجب بعضهم بعضا ثانيها لا يبعد أن يكونوا صفا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التى تكون بعضها خلف بعض وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى صفا صفوفا كقوله تعالى يخرجكم طفلا أى أطفالا ثالثها المراد بالصف القيام كما فى قوله تعالى فاذكروا اسم الله عليها صواف أى قياما وقيل كل أمة صف ويقال لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أى فرادى حفاة عراة غرلا وليس المراد حصول المساواة من كل وجه لانهم خلقوا صغارا ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد ما مر ويقال لمنكرى البعث (بل زعمتم أن) أى انا (لن نجعل لكم موعدا) أى مكانا ووقتا نجمعكم فيه هذا الجمع فننجز لكم ما وعدناكم به على ألسنة رسلنا فكنتم مع التعزز على المؤمنين بالاموال والانصار منكرين البعث والقيامة فالآن قد تركتم الاموال والانصار فى الدنيا وشاهدتم ان القيامة والبعث حق وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ألا وان أول خلق يكسى يوم القيامة ابراهيم عليه السلام ألا وانه سيجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يارب أصحابى فيقول انك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم الى قوله العزيز الحكيم فقال فيقال لى انهم لم يزالوا مدبرين على أعقابهم منذ فارقتهم وفى رواية فأقول سحقا سحقا وقوله غرلا أى قلفا الغرلة القلفة التى تنقطع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله سحقا أى بعدا قال بعض العلماء المراد بهؤلاء الذين ارتدوا من العرب بعده وعن عائشة رضى الله تعالى

عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض فقال الامر أشد من ان يهمهم ذلك زاد النسائى فى رواية لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس على ثلاث طوائف راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسى معهم حيث أمسوا (ووضع) بعد العرض المستعقب للجمع بأدنى اشارة (الكتاب) المضبوط فيه دقائق الاعمال وجلائلها على وجه بين لا يخفى على قارئ ولا غيره شئ منه فيوضع كتاب كل انسان فى يده اما فى اليمين واما فى الشمال والمراد الجنس وهو صحف الاعمال (فترى المجرمين مشفقين) أى خائفين خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة من الخلق (مما فيه) من قبائح أعمالهم وسيء أفعالهم وأقوالهم (ويقولون) عند معاينتهم ما فيه من السيآت وقولهم (يا) للتنبيه (ويلتنا) أى هلكتنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه كناية عن انه لا نديم لهم اذ ذاك الا الهلاك (مال هذا الكتاب) أى أى شئ له حال كونه على غير حال الكتب فى الدنيا (لا يغادر) أى لا يترك (صغيرة ولا كبيرة) من ذنوبنا وقال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم والمسيس والقبلة والكبيرة الزنا (الا أحصاها) أى عدها وأثبتها فى هذا الكتاب ونظيره قوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون وقوله تعالى انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون *(تنبيه)* ادخال التاء فى الصغيرة والكبيرة على تقدير أن المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة قال بعض العلماء احتجبوا من الصغائر قبل الكبائر لان الصغائر هى التى جرتهم الى الكبائر واحترزوا من الصغائر حذرا من أن تقعوا فى الكبائر وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم ومحقرات الذنوب فانما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فطبخوا خبزهم وان محقرات الذنوب لموبقات (ووجدوا ما عملوا حاضرا) أى مثبتا فى كتابهم (ولا يظلم ربك) أى الذى رباك بخلق القرآن (أحدا) منهم ولا من غيرهم فى كتاب ولا عقاب ولا ثواب بل يجازى الاعداء بما يستحقونه تعذيبا لهم ويجازى أولياءه الذين عادوهم بما يستحقون تنعيما لهم روى الامام أحمد فى المسند عن جابر بن عبد الله أنه سافر الى عبد الله بن أنيس مسيرة شهر يستاذن فاستاذن عليه قال فخرج يطأ ثوبه فاعتنقنى واعتنقته قلت حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القصاص فخشيت أن تموت قبل أن أسمعه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله عز وجل الناس أو قال العباد حفاة عراة غرلا بهما قلت وما بهما قال ليس معهم شئ ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغى لاحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق ولا ينبغى لاحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولاحد من أهل النار عليه حق حتى أقصه منه حتى اللطمة قال فقلنا كيف وانا

نأتى حفاة عراة بهما قال بالحسنات والسيآت وروى الرازى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال يحاسب الله الناس فى القيامة على مله يوسف وأيوب وسليمان فيدعو المماولة فيقال
ماشغلك عنى فيقول جعلتنى عبد الآدمى فلم يفرغنى فيدعو يوسف فيقول كان هذا عبدا
مثلك فلم يمنعه ذلك أن عبدنى فيؤمر به الى النار ثم يدعو المبتلى فاذا قال شغلتنى بالبلاء دعا
أيوب فيقول قد ابتليت هذا بأشد من بلائك فلم يمنعه ذلك من عبادتى ثم يؤتى بالملك فى الدنيا
مع ما آتاه الله تعالى من الغنى والسعة فيقول ماعملت فيما آتيتك فيقول شغلنى الملك عن ذلك
فيدعى سليمان فيقول هذا عبدى آتيته أكثر مما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتى اذهب
فلا عذر لك ويؤمر به الى النار وعن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان يزول
قدم العبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن جسده فيم أبلاه وعن عمره فيم أفناه وعن ماله
من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه كيف عمل به * ولما كان المقصود من ذكر الآيات
المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية
المذكورة فى قوله تعالى (واذ) أى واذكر اذ (قلنا للملائكة) الذين هم أطوع شئ لأوامرنا
المقصود من ذكرها عين هذا المعنى وذلك لان ابليس انما تكبر على آدم لانه افتخر بأصله ونسبه
وقال خلقتنى من نار وخلقته من طين وأنا أشرف منه فى الاصل والنسب فكيف أسجد له
وكيف أتواضع له وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا كيف
نجالس هؤلاء الفقراء مع أنا ناس من أنساب شريفة وهم من أنساب باذلة ونحن أغنياء وهم
فقراء ذكر الله تعالى هذه القصة تنبيها على أن هذه الطريقة هى نفسها طريقة ابليس حين أمره
الله تعالى فى جملة الملائكة بقوله تعالى (اسجدوا لآدم) سجود انحناء بلى وضع جبهة تحية له
(فسجدوا الا ابليس كان من الجن) قيل هم نوع من الملائكة فالاستثناء متصل وقيل
هو منقطع وابليس أبو الجن فله ذرية ذكرت معه بعد والملائكة لاذرية لهم وكررت
هذه القصة لهذا المقصود المذكور قال البيضاوى وهكذا مذهب كل تكرير فى القرآن
أى انما يكرر لمناسبة ذلك المحل الذى يذكر فيه (ففسق) أى خرج بتركه السجود (عن أمر
ربه) أى سيده ومالكه المحسن اليه والفاء للسببية وفيه دليل على ان الملك لايعصى البتة وانما
عصى ابليس لانه كان خبيثا فى أصله والكلام المستقصى فيه تقدم فى سورة البقرة ثم انه تعالى
حذر عن اتباعه بقوله تعالى (أفتتخذونه) الخطاب لآدم وذريته والهاء هنا وفيما سيأتى
لابليس والهمزة للانكار والتعجب اى يفسق باستحقاركم فنطرده لاجلكم فيكون ذلك سببا لان
تتخذوه (وذريته) شركاء لى (أولياء) لكم (من دونى) تطيعونهم بدل طاعتى وقوله تعالى
(وهم لكم عدو) أى أعداء حال ولما كان هذا الفعل أجدر شئ بالذم وصل به قوله تعالى
(بئس للظالمين بدلا) من الله ابليس وذريته وكان الاصل لكم ولكنه أبرز الضمير ليعلق الفعل
بالوصف لافادة التعميم روى مجاهد عن الشعبى قال انى لقاعد يوما اذ أقبل جمال فقال
أخبرونى هل لابليس زوجة قلت ان ذلك لعرس ماشهدته ثم ذكرت قوله تعالى أفتتخذونه

وذريته أولياء من دوني فعلت أن لا تكون ذرية الا من زوجة فقلت نعم وقال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو ادم وقيل انه يدخل ذنبه في دبره فيبيض البيضة فتنفلق عن جماعة من الشياطين قال مجاهد من ذرية ابليس لاقيس وولهان وهما صاحبا الطهارة والصلاة والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور وهو صاحب الاسواق يزين اللغو والايمان الكاذبة ومدح السلع وثبر وهو صاحب المصائب يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والاعور وهو صاحب الزنا ينفخ في احليل الرجل وعجز المرأة ومطوس وهو صاحب الاخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس لا يجدون لها أصلا وداسم وهو الذي اذا دخل الرجل بيته ولم يسم الله ولم يذكر الله دخل معه واذا أكل ولم يسم الله أكل معه قال الاعمش ربما دخلت البيت ولم أذكر الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا وخاصمتهم ثم اذكر فأقول داسم داسم وعن عثمان بن أبي العاص قال قلت يا رسول الله ان الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسسته فتعوذ بالله واتفل عن يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني وعن أبي بن كعب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وساوس الماء وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابليس يضع فرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيأ قال ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت قال الاعمش أراه قال فيلتزمه واختلفوا في عود الضمير في قوله تعالى (ما أشهدتهم) على وجوه أحدها وهو الذي ذهب اليه الاكثرون ان المعنى ما أشهدت الذين اتخذوهم أولياء (خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى اقتلوا أنفسكم نفى احضار ابليس وذريته خلق السموات والارض واحضار بعضهم خلق بعض ليدل على نفي الاعتضاد بهم في ذلك كما صرح به بقوله تعالى (وما كنت متخذ المضلين) أي الذين يضلون الناس ووضع الظاهر موضع المضمر اظهارا لاضلالهم وذما لهم (عضدا) أي اعوانا وثانيها قال الرازي وهو الاقوى عندي ان الضمير عائد الى الكفار الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان لم تطرد عن مجلسك هؤلاء الفقراء من عندك فلا نؤمن بك فكأنه تعالى قال ان هؤلاء الذين اتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركائي في تدبير العالم بدليل اني ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة بل هم قوم كسائر الخلق فلم أقدموا على الاقتراح الفاسد قال والذي يؤكد هذا ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات فالاقرب في هذه الآية هو أولئك الكفار وهو قوله تعالى بئس للظالمين بدلا والمراد بالظالمين أولئك الكفار وثالثها أن يكون المراد من قوله ما أشهدتهم الى آخره دون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم في الازل من أحوال السعادة والشقاوة فكأنه قيل لهم السعيد من حكم الله بسعادته والشقي من حكم الله بشقاوته

فى الازل وأنتم غافلون عن أحوال الازل فانه تعالى قال ماأشهدتهم الى آخره واذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لانفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالذل والدناءة بل ربما صار الامر فى الدنيا والآخرة على العكس مما حكمتم به * ولما قرر تعالى ان القول الذى قالوه فى الافتخار على الفقراء اقتدوا فيه بابليس عاد بعده الى التهويل بأهوال القيامة فقال (ويوم) التقدير واذكر لهم يا محمد يوم عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة (يقول) أى الله يوم القيامة لهؤلاء الكفار تهكما بهم وقرأ حمزة بالنون والباقون بالياء (نادوا شركائى) أى ما عبد من دونى وقيل ابليس وذريته ثم بين تعالى ان الاضافة ليست على حقيقتها بل توبيخ لهم فقال تعالى (الذين زعمتم) انهم شركائى أو شفعاؤكم ليمنعوكم من عذابى (فدعوهم) تماديا فى الجهل والضلال (فلم يستجيبوا لهم) أى فلم يغيثوهم استهانة بهم واشتغالا بأنفسهم فضلا عن أن يعينوهم (وجعلنا بينهم) أى المشركين والشركاء (موبقا) أى واديا من أودية جهنم يهلكون فيه جميعا وهو من وبق بالفتح هلك نقل ابن كثير عن عبد الله بن عمر انه قال هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلال وقال الحسن البصرى عداوة أى يؤل بهم الى الهلاك والتلف كقول عمر رضى الله تعالى لا يكون حبك كلفا ولا بغضك تلفا أى لا يكن حبك يجر الى الكلف ولا بغضك يجر الى التلف وقيل الموبق البرزخ البعيد أى وجعلنا بين هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخا بعيدا يهلك فيه السارى لفرط بعده لانهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان * ولما قرر سبحانه وتعالى مالهم مع شركائهم ذكر حالهم فى استمرار جهلهم فقال تعالى (ورأى المجرمون) أى العريقون فى الاجرام (النار) من مكان بعيد (فظنوا) ظنا (انهم مواقعوها) أى مخالطوها فى تلك الساعة من غير تأخير ومهلة لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها كما قال تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا فان مخالطة الشئ لغيره اذا كانت قوية تامة يقال لها مواقعة (ولم) أى والحال انهم لم (يجدوا عنها مصرفا) أى مكانا ينصرفون اليه لان الملائكة تسوقهم اليها والموضع موضع التحقق ولكن ظنهم جريا على عادتهم فى الجهل كما قالوا اتخذ الله ولدا بغير علم وما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين مع قيام الادلة التى لاشك فيها وقيل الظن هنا بمعنى العلم واليقين * ولما افتخر هؤلاء الكفار على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم وبين الله تعالى بالوجوه الكثيرة ان قولهم فاسد وشبههم باطلة ذكر فيه المثلين المتقدمين ثم قال بعده (ولقد صرفنا) وأظهر نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم الدال وأدغمها الباقون (فى هذا القرآن) أى القيم الذى لاعوج فيه مع جمعه للمعانى (للناس) أى المزلزلين والثابتين وقوله (من كل مثل) صفة لمحذوف أى مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا أو انا حولنا الكلام وصرفناه فى كل وجه من وجوه المعانى وألبسناه من العبارات الرائقة والاساليب المتناسقة ما صار بها فى غرابته كالمثل يقبله كل من سمعه وتضرب به آباط الابل فى سائر البلاد بين العباد فتسر به قلوبهم وتلهج به ألسنتهم فلم يقبلوه ولم يتركوا المجادلة الباطلة كما قال تعالى (وكان الانسان أكثر شئ) يتأتى منه الجدال

ومعز

وميزالاكثرية بقوله تعالى (جدلا) أى خصومة قال بعض المحققين والآية دالة على أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام جادلوهم فى الدين لان المجادلة لا تحصل الامن الطرفين ولهذا قيل أراد بالانسان الكافر وقيل الآية على العموم قال ابن الخازن وهو الاصح وكذا قال البغوى فعن على رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله تعالى عنها ليلة فقال الا تصليان فقلت يارسول الله أنفسنا بيد الله فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع الى شيأ ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول وكان الانسان أكثر شئ جدلا وقال ابن عباس أراد النضر بن الحرث وجداله فى القرآن وقال الكلبى أراد به خلفا الجمحى * ولما بين سبحانه وتعالى اعراضهم بين موجبه عندهم فقال تعالى (ومامنع الناس) أى الذين جادلوا بالباطل الايمان هكذا كان الاصل ولكنه عبر عن هذا المفعول الثانى بقوله (أن يؤمنوا) ليفيد التجديد وذمهم على الترك (اذ) أى حين (جاءهم الهدى) أى القرآن على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وعطف على المفعول الثانى معبرا بمثل مامضى لما مضى قوله تعالى (ويستغفروا ربهم) أى لامانع لهم من الايمان ولامن الاستغفار والتوبة * ولما كان الاستثناء مفرغا أتى بالفاعل فقال (الاأن) أى طلب أن (تأتيهم سنة الاولين) أى سنتنا فيهم وهى الاهلاك المقدر عليهم (أو) طلب أن (يأتيهم العذاب قبلا) أى مقابلة وعيانا وهو القتل يوم بدر وقيل عذاب الآخرة وقرأ الكوفيون برفع القاف والباء الموحدة والباقون بكسر القاف وفتح الباء الموحدة * ولما كان ذلك ليس الى الرسول وانما هو الى الله تعالى نبه بقوله تعالى (ومانرسل المرسلين الامبشرين) بالثواب على أفعال الطاعة (ومنذرين) بالعقاب على أفعال المعصية فطلب منهم الظالمون من أممهم ماليس اليهم (ويجادل الذين كفروا) أى يجددون الجدال كلما أتاهم أمر من قبلنا (بالباطل) من قولهم ما أنتم الا بشر مثلنا ولو كنتم صادقين لأتيتم بما يطلب منكم مع ان ذلك ليس كذلك اذ ليس لاحد غير الله من الامر شئ (ليدحضوا به) أى ليبطلوا بجدالهم (الحق) أى القرآن والمعجزات المثبتة لصدقهم (واتخذوا آياتى) أى القرآن (وما أنذروا) أى وانذارهم أو والذى أنذروا به من العقاب (هزوا) أى استهزاء وقرأ حفص بالواو وقفا ووصلا وحمزة بالواو وقفا لا وصلا وسكن الزاى حمزة ورفعها الباقون ولحمزة فى الوقف أيضا النقل * ولما حكى الله تعالى عن الكفار أحوالهم الخبيثة وصفهم بما يوجب الخزى بقوله تعالى (ومن أظلم) أى لا احد أظلم وهو استفهام على سبيل التقرير (ممن ذكر بآيات ربه) أى المحسن اليه بها وهى القرآن (فأعرض عنها) تاركا لما يعرف من تلك العلامات العجيبة وما يوجب ذلك الاحسان من الشاكر (ونسى ماقدمت يداه) من الكفر والمعاصى فلم يتفكر فى عاقبتها ثم علل تعالى ذلك الاعراض بقوله تعالى (انا جعلنا على قلوبهم) فجمع رجوعا الى أسلوب واتخذوا آياتى لانه أنص على ذم كل واحد (أكنة) أى أغطية مستعلية عليها استعلاء يدل سياق العظمة على أنه لايدع شيأ من الخير يصل اليها فهى لاتعى شيأ من آياتنا ودل تذكير الضمير وافراده على أن المراد بالآيات

القرآن فقال (أن) أي كراهة أن (يفقهوه) أي يفهموه (وفي آذانهم وقرا) أي ثقلا فهم لايسمعون حق السمع ولا يعون حق الوعي (وان تدعهم) أي تكرر دعاءهم كل وقت (الى الهدى) لتجيبهم بما عندك من الحرص والجد على ذلك (فلن يهتدوا) أي بسبب دعائك (اذا) أي اذا دعوتهم (أبدا) لان الله تعالى حكم عليهم بالضلال فلا يقع منهم ايمان ثم قال تعالى (وربك) مشيرا بهذا الاسم الى ما اقتضاه حال الوصف من الاحسان (الغفور) أي البليغ المغفرة الذي يستر الذنوب اما بمحوها واما بالحلم عنها الى وقت آخر (ذو الرحمة) أي الموصوف بالرحمة الذي يعامل وهو قادر مع موجبات الغضب معاملة الراحم بالاكرام ثم استشهد تعالى على ذلك بقوله تعالى (لو يؤاخذهم) أي هؤلاء الذين عادوك وهو عالم أنهم لا يؤمنون أو يعاملهم معاملة المؤاخذة (بما كسبوا) من الذنوب (لعجل لهم العذاب) أي في الدنيا (بل لهم موعد) وهو اما يوم القيامة واما في الدنيا وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح (لن يجدوا من دونه) أي الموعد (موئلا) أي ملجأ ينجيهم منه فاذا جاء موعدهم أهلكناهم فيه بأول ظلمهم وآخره وقوله تعالى (وتلك) مبتدأ وقوله تعالى (القرى) أي الماضية من عاد وثمود ومدين وقوم لوط وأشكالهم صفته لان أسماء الاشارة توصف بأسماء الاجناس والخبر (أهلكناهم) والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم (لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) أي وقتا معلوما لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون وقرأ شعبة بفتح الميم واللام أي اهلاكهم وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام والباقون بضم الميم وفتح اللام أي لاهلاكهم ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى واذ قلنا للملائكة (واذ) أي واذكر لهم حين (قال موسى لفتاه) يوشع ابن نون بن افرائيم بن يوسف عليهم الصلاة والسلام وانما قال فتاه لانه كان يخدمه ويتبعه وقيل كان يأخذ منه العلم وقيل فتاه عبده وفي الحديث ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي *(تنبيه)* أكثر العلماء على أن موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن كعب الاحبار أنه موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وهو قد كان نبيا قبل موسى بن عمران قال البغوي والاول أصح واحتج له القفال بأن الله تعالى لم يذكر في كتابه موسى الا أراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ولو كان المراد شخصا آخر يسمى موسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وازالة الشبهة كما انه لما كان المشهور في العرف عن أبي حنيفة هذا الرجل المعين فلو ذكرنا هذا الاسم وأردنا به رجلا سواه لقيدناه مثل أن نقول قال أبو حنيفة الدينوري وعن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس ان نوفا البكالي يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني اسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله ونوف البكالي هو نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي ويقال انه دمشقي وكانت أمه زوجة كعب الاحبار نقله ابن كثير وحجة الذين قالوا موسى هذا غير صاحب التوراة أنه يقال بعد أن أنزل عليه التوراة وكلمه بلا واسطة وخصه بالمعجزات الباهرة العظيمة التي لم يتفق مثلها الاكبر أكابر الانبياء يبعد أن يبعثه بعد ذلك الى التعلم

والاستفادة (وأجيب) بأنه لا يبعد أن يكون العالم الكامل فى كثرة العلوم يجهل بعض العلوم فيحتاج فى تعلمها الى من هو دونه وهو أمر متعارف روى البخارى حديث ان موسى قام خطيبا فى بنى اسرائيل فسئل أى الناس أعلم قال انا فعتب الله تعالى عليه اذ لم يرد العلم اليه فأوحى الله تعالى اليه ان لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال يارب فكيف لى به قال تأخذ حوتا فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فاخذ حوتا فجعله فى مكتل ثم قال (لا أبرح) أى لا أزال أسير فى طلب العبد الذى أعلمنى ربى بفضله (حتى أبلغ مجمع البحرين) أى ملتقى بحر الروم وبحر فارس مما يلى الشرق قاله قتادة أى المكان الجامع لذلك فألقاه هنالك (أو أمضى حقبا) أى دهرا طويلا فى بلوغه ان لم أظفر به بمجمع البحرين الذى جعله ربى موعدا الى فى لقائه والحقب قال فى القاموس ثمانون سنة أو أكثر والدهر والسنة والسنون انتهى فسارا وتزودا حوتا مشويا فى مكتل كما أمر به فكانا يأكلان منه الى أن بلغا المجمع كما قال تعالى (فلما بلغا مجمع بينهما) أى بين البحرين قال لفتاه اذا فقدت الحوت فأخبرنى وناما واضطرب الحوت فى المكتل وخرج وسقط فى البحر فلما استيقظا (نسيا حوتهما) أى نسى يوشع حمله عند الرحيل ونسى موسى عليه السلام تذكيره وقيل الناسى يوشع فقط وهو على حذف مضاف أى نسى أحدهما كقوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (فاتخذ) الحوت (سبيله فى البحر) أى جعله بجعل الله (سربا) أى مثل السرب وهو الشق الطويل لانفاذ له وذلك ان الله تعالى أمسك عن الحوت جرى الماء فانجاب عنه فبقى كالكوة لم يلتئم وجمد ما تحته وقد ورد فى حديثه فى الصحيح ان الله تعالى أحياه وأمسك عن موضع جريه فى الماء فصار طاقا لا يلتئم وكان الجمع كان ممتدا فظن عليه السلام ان المطلوب امامه أو ظن ان المراد مجمع البحرين آخر فسارا (فلما جاوزا) ذلك المكان بالسير بقية يومهما وليلتهما واستمرا الى وقت الغداء من ثانى يوم (قال) موسى عليه السلام (لفتاه آتنا) أى أحضر لنا (غداءنا) وهو ما يؤكل أول النهار لنقوى به على ما حصل لنا من الاعياء ولذلك وصل به قوله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أى تعبا ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله تعالى به فقوله هذا اشارة الى السفر الذى وقع بعد مجاوزتهما الموعد او مجمع البحرين ونصبا مفعول بلقينا (قال) له فتاه (أرأيت) أى ما دهانى وقرأ نافع بتسهيل الهمزة التى هى عين الكلمة ولورش وجه آخر وهو ابدالها حرف مد وأسقطها الكسائى والباقون بالتحقيق (اذ أوينا الى الصخرة) التى بمجمع البحرين (فانى نسيت الحوت) أى نسيت أن أذكر لك أمره ثم علل عدم ذكره بقوله (وما أنسانيه الا الشيطان) بوسواسه وقرأ حفص بضم الهاء وأمال الالف الكسائى محضة وورش بين بين وبالفتح والباقون بالفتح وقوله (أن أذكره) لك فى محل نصب على البدل من هاء أنسانيه بدل اشتمال أى أنسانى ذكره (واتخذ سبيله) أى طريقه الذى ذهب فيه (فى البحر عجبا) وهو كونه كالسرب معجزة لموسى أو الخضر وذكره له الآن مانع من أن يكون للشيطان عليه سلطان على ان هذا النسيان ليس مفوتا الطاعة بل فيه ترقية لهما فى معراج المقامات العالية لوجدان التعب بعد

المكان الذى فيه البغية وحفظ الماء منجابا على طول الزمان وغير ذلك من الآيات الظاهرة
وقوله تعالى انما سلطانه على الذين يتولونه مبين ان السلطان الحمل على المعاصى وقوله وما
أنسانيه الا الشيطان أن أذكره اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وقد كان فى هذه القصة
خوارق منها احياء الحوت ومنها ايجاد ما كان أكل منه ومنها امساك الماء عن مدخله
وقد اتفق لنبينا صلى الله عليه وسلم نفسه وأتباعه ببركته مثل ذلك أما اعادة ما أكل من الحوت
المشوى وهو جنبه فقد روى البيهقى فى أواخر دلائل النبوة عن اسامة بن زيد رضى الله تعالى
عنه انه صلى الله عليه وسلم أتى بشاة مشوية فقال لبعض أصحابه ناولنى ذراعها وكان أحب
الشاة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها ثم قال ناولنى ذراعها فناوله ثم قال ناولنى ذراعها
فقال يارسول الله انما هما ذراعان وقد ناولتك فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لوسكت
مازلت تناولنى ذراعا ماقلت لك ناولنى ذراعا فقد أخبر صلى الله عليه وسلم انه لوسكت أوجد الله
تعالى ذراعا ثم ذراعا وهكذا وأما احياء الحوت المشوى ففى قصة الشاة المشوية المسمومة ان
ذراعها أخبر النبى صلى الله عليه وسلم انه مسموم فهذا أعظم من عود الحياة من غير نطق وكذا
حنين الجذع وتسليم الحجر وتسبيح الحصى ونحو ذلك أعظم من عود الحياة الى ما كان حيا وروى
البيهقى فى الدلائل عن عمرو بن سواد قال قال الشافعى ما أعطى الله تعالى نبيا ما أعطى محمدا
صلى الله عليه وسلم قلت أعطى عيسى عليه السلام احياء الموتى فقال أعطى محمدا صلى الله عليه
وسلم احياء الجذع الذى كان يخطب الى جنبه حين هيئ له المنبر وحن الجذع حتى سمع صوته فهذا
أكبر من ذلك انتهى وقد ورد أشياء كثيرة من احياء الموتى له صلى الله عليه وسلم ولبعض أمته
وروى عن أنس رضى الله تعالى عنه انه قال كنا فى الصفة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم
فأتته امرأة ومعها ابن لها فأضاف المرأة الى النساء وأضاف ابنها الينا فلم يلبث ان أصابه
وباء المدينة فمرض أياما ثم قبض فغمضه النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بجهازه فلما أردنا أن نغسله
قال ائت أمه فأعلمها فجاءت حتى جلست عند قدميه فأخذت بهما ثم قالت اللهم انى أسلمت لك
تطوعا وخلعت الاوثان زهدا وهاجرت اليك رغبة اللهم لا تشمت بى عبدة الاوثان ولا تحملنى
من هذه المصيبة مالا طاقة لى بحملها قال فوالله ما انقضى كلام المرأة حتى حرك قدميه وألقى
الثوب عن وجهه وعاش حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم وحتى هلكت أمه
وأما آية الماء فرجعها الى صلابته ولا فرق بين جموده بعدم الالتئام بعد الانخراق وبين جموده
وصلابته بالامتناع من الانخراق وقد جهز عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه جيشا واستعمل
عليه العلاء بن الحضرمى فحصل لهم حر شديد وجهدهم العطش قال بعض الجيش فلما مالت
الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين ثم مد يده وما نرى فى السماء شيأ فوالله ما حط يده حتى بعث الله
تعالى ريحا وأنشأ سحابا فأفرغت حتى ملأت الغدر والشعاب فشربنا وسقينا واستقينا
ثم أتينا عدونا وقد جاوزنا خليجا فى البحر الى جزيرة فوقف على الخليج وقال ياعلى ياعظيم ياحليم
ياكريم ثم قال أجيزوا بسم الله فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا فأصبنا العدو عليه فقتلنا وأسرنا

وسبينا

وسبينا ثم اتينا الخليج فقال مثل مقالته فاجزناو مابل الماء حوا فردوا بنا والاخبار فى ذلك كثيرة. ولما قال فتاه ذلك كأنه قيل فما قال موسى عليه السلام حينئذ (قال) له (ذلك) أى الامر العظيم من فقد الحوت (ما كنا نبغ) أى نريد من هذا الامر المغيب عنا فان الله تعالى جعله وعدا فى لقاء الخضر وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائى باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير يثبتها وصلا ووقفا والباقون بالحذف (فارتدا على آثارهما) أى فرجعا فى الطريق الذى جاآ فيه يقصانها (قصصا) أى يتبعان اثرهما اتباعا ومقتصين حتى يأتيا الصخرة قال البقاعى يدل على ان الارض كانت رملا لا علم فيها فالظاهر والله أعلم انه مجمع النيل والملح عند دمياط أو رشيد من بلاد مصر ويؤيده نقر العصفور فى البحر الذى ركب فى سفينته للتعدية كما فى الحديث فان الطير لا يشرب من الملح ومن المشهور فى بلاد رشيد ان الامر كان عندهم وان عندهم سمكا ذاهب الشق يقولون انه من نسل تلك السمكة والله أعلم انتهى وتقدم عن قتادة أنه ملتقى بحر فارس والروم وقال محمد بن كعب طنجة وقال أبى بن كعب افريقية وقيل البحران موسى والخضر لانهما كانا بحرى علم قال ابن عادل وليس فى اللفظ مايدل على تعيين هذين البحرين فان صح فى الخبر الصحيح شئ فذاك والا فالاولى السكوت عنه انتهى ثم استمرا يقصان حتى انتهيا الى موضع فقد الحوت (فوجدا عبدا من عبادنا) مضافا الى حضرة عظمتنا قيل كان ملكا من الملائكة والصحيح الذى جاء فى التواريخ وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه الخضر واسمه بليا بن ملكان وكنيته أبو العباس قيل كان من بنى اسرائيل وقيل من أبناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب سمى بذلك لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هى تهتز تحته خضراء والفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمى خضرا لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله روى ان موسى عليه السلام رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال الخضر وأنى بأرضك السلام قال انا موسى أتيتك تعلمنى مما علمت رشدا وفى رواية لقيه مسجى بثوب مستلقيا على قفاه بعض الثوب تحت رأسه وبعضه تحت رجليه وفى رواية لقيه وهو يصلى ويروى لقيه وهو على طنفسة خضراء على كبد البحر وروى أن موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك فقال وعليك السلام يانبى بنى اسرائيل فقال موسى ما عرفك هذا فقال الذى بعثك الى وكان الخضر فى أيام افريدون وكان على مقدمة ذى القرنين الاكبر وبقى الى أيام موسى وقيل ان موسى سأل ربه أى عبادك أحب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فأى عبادك أقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى فقال فأى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال ان كان فى عبادك أفضل منى فادللنى عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على ساحل عند الصخرة قال كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك (آتيناه) بعظمتنا (رحمة من عندنا) أى وحيا ونبوة وكونه نبيا هو قول الجمهور وقيل انه ليس بنبى قال البغوى عند أكثر أهل العلم أى فعندهم انه ولى (وعلمناه من لدنا) أى مما لم يجر على قوانين العادات على أنه ليس بمستغرب عند أهل

الاصطفاء (علما) قذفناه فى قلبه بغير واسطة وأهل التصوف سموا العلم بطريق المكاشفة العلم اللدنى فاذا سعى العبد فى الرياضات بتزين الظاهر بالعبادات وتخلى النفس عن العلائق وعن الاخلاق الرذيلة بتحليتها بالاخلاق الجميلة صارت القوى الحسية والخيالية ضعيفة فاذا ضعفت قويت القوى العقلية وأشرقت الانوار الالهية فى جوهرة العقل وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعى وطلب فى التفكر والتأمل وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية ثم اورد سبحانه وتعالى القصة على طريق الاستئناف على تقدير سؤال سائل عن كل كلام يرشد اليه ماقبله وذلك انه من المعلوم ان الطالب للشخص اذا لقيه كلمه لكن لا يعرف عين ذلك الكلام فقال لمن كانه سأل عن ذلك (قال له موسى) طالبا منه على سبيل التأدب والتلطف باظهار ذلك فى قالب الاستئذان (هل أتبعك) أى اتباعا بليغا حيث توجهت والاتباع الاتيان بمثل فعل الغير لمجرد كونه آتيا به وبين أنه لا يطلب منه غير العلم بقوله (على أن تعلمن) أثبت الياء نافع وأبو عمرو وصلا لا وقفا وابن كثير وصلا ووقفا والباقون بالحذف وزاد فى العطف بالاشارة الى أنه لا يطلب جميع ماعنده لطول عليه الزمان بل جوامع منه يسترشد بها الى باقيه فقال (مما علمت) وبناه للمفعول لعلم المخاطبين لكونهما من المخلصين بأن الفاعل هو الله تعالى وللاشارة الى سهولة كل أمر الى الله تعالى (رشدا) أى علما يرشدنى الى الصواب فيما أقصده وقرأ أبو عمرو بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين * ولما أتم موسى عليه السلام العبارة عن السؤال (قال) له الخضر عليه السلام (انك) ياموسى (لن تستطيع معى صبرا) نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها لا تصح ولا تستقيم وفتح الياء من معى صبرا فى المواضع الثلاثة هنا حفص وسكنها الباقون ثم علل عدم الصبر معه واعتذر عنه بقوله (وكيف تصبر) ياموسى (على مالم تحط به خبرا) أى وكيف تصبر على أمور وأنت نبى ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا يتمالك أن يصبر اذا رأى ذلك بل يبادر ويأخذ فى الانكار وخبرا مصدر لمعنى لم تحط به أى لم تخبر حقيقته (قال) له موسى عليه السلام آتيا بنهاية التواضع لمن هو أعلم منه ارشادا لما ينبغى فى طلب العلم رجاء تسهيل الله تعالى له النفع به (ستجدنى) فأكد الوعد بالسين ثم أخبر تعالى انه قوى تأكيده بالتبرك بذكر الله تعالى لعلمه بصعوبة الامر على الوجه الذى تقدم الحث عليه فى هذه السورة فى قوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ليعلم أنه منهاج الانبياء فقال (ان شاء الله) أى الذى له صفات الكمال (صابرا) على ما يجوز الصبر عليه ثم زاد التأكيد بقوله عطفا بالواو على صابرا لبيان التمكن فى كل من الموضعين (ولا أعصى) أى وغير عاص (لك أمرا) تأمرنى به غير مخالف لظاهر أمر الله تعالى * (تنبيه) * دلت هذه الآية الكريمة على ان موسى عليه السلام راعى أنواعا كثيرة من الادب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر منها انه جعل نفسه تبعا له بقوله هل أتبعك ومنها انه استأذن فى اثبات هذه التبعية كأنه قال هل تأذن لى أن أجعل نفسى تبعا لك وهذه مبالغة عظيمة فى التواضع ومنها قوله صلى الله عليه وسلم على أن تعلمن وهذا اقرار منه على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم ومنها قوله

مما علمت وصيغة من للتبعيض وطلب منه تعليم بعض ما علم وهذا أيضا اقرار بالتواضع كأنه يقول لا أطلب منك أن تجعلني مساويا لك في العلم بل أطلب منك أن تعطيني جزأ من أجزاء ما علمت ومنها ان قوله مما علمت اعتراف منه بان الله تعالى علمه ذلك العلم ومنها قوله رشدا طلب منه الارشاد والهداية ومنها قوله ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ومنها انه ثبت بالاخبار ان الخضر عرف أولا أن موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذي كلمه الله من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ثم انه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الانواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيا في طلب العلم بأعظم أبواب المبالغة في التواضع وذلك يدل على أن هذا هو اللائق به لان كل من كانت احاطته بالعلوم التي علم ما فيها من البهجة والسعادة أكثر كان طلبه لها أشد فكان تعظيمه لارباب العلم أكمل وأرشد وكل ذلك يدل على أن الواجب على المتعلم اظهار التواضع بكل الغايات وأما المعلم فان رأى ان في التغليظ على المتعلم ما يفيد نفعا وارشادا الى الخير فالواجب عليه ذكره فان السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور وذلك يمنعه من التعلم وروي أن موسى عليه السلام لما قال هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا قال له الخضر كفى بالتوراة علما وبني اسرائيل شغلا فقال له موسى الله أمرني بهذا (قال) له الخضر (فان اتبعتني) أي صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن جعل الاختيار اليه الا أنه شرط عليه شرطا فقال (فلا تسألني عن شئ) أقوله أو أفعله (حتى أحدث لك) خاصة (منه ذكرا) أي حتى أبدأك بوجه صوابه فاني لا أقدم على شئ الا وهو صواب جائز في نفس الامر وان كان ظاهره غير ذلك فقبل موسى شرطه رعاية لادب المتعلم من العالم ولما اشارطا وتراضيا على الشرط تسبب عن ذلك قوله تعالى (فانطلقا) أي موسى والخضر عليهما السلام على الساحل فانتهيا الى موضع احتاجا فيه الى ركوب السفينة فمازالا يطلبان سفينة يركبان فيها واستمرا (حتى اذا ركبا في السفينة) التي مرت بهما وأجاب الشرط بقوله (خرقها) أي أخذ الخضر فأسا فخرق السفينة بأن قلع لوحا أو لوحين من ألواحها من جهة البحر لما بلغت اللجة ولم يقترن خرق بالفاء لانه لم يكن مسببا عن الركوب ثم استأنف قوله (قال) أي موسى عليه السلام منكرا لذلك لما في ظاهره من الفساد باتلاف المال المفضي الى فساد أكبر منه باهلاك النفوس ناسيا لما عقد على نفسه على انه لولم ينس لم يترك الانكار كما فعل عند قتل الغلام لان مثل ذلك غير داخل في الوعد لان المستثنى شرعا كالمستثنى وضعا (أخرقتها) وبين عذره في الانكار لما في غاية الخرق من الفظاعة فقال (لتغرق أهلها) فان خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضي الى غرق أهلها وقرأ حمزة والكسائي بالياء التحتية مفتوحة وفتح الراء ورفع اللام من أهلها والباقون بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الراء ونصب لام أهلها ثم قال له موسى والله (لقد جئت شيأ امرا) أي عظيما منكرا (قال) الخضر (ألم أقل انك) ياموسى (لن تستطيع معي صبرا) فذكره بما قال له عند الشرط (قال) موسى (لا تؤاخذني) ياخضر (بما نسيت) أي غفلت عن التسليم لك وترك الانكار عليك قال ابن

عباس انه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام أى وهى التورية بالشئ عن الشئ وفى المثل ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب أى سعة فكانه نسى شيأ آخر وقيل معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كانت الاولى من موسى نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا (ولا ترهقنى من أمرى عسرا) أى لا تكلفنى مشقة يقال أرهقه عسرا وأرهقته عسرا أى كلفته ذلك يقول لا تضيق على أمرى ولا تعسر متابعتك على ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وعاملنى باليسر ولا تعاملنى بالعسر وعسرا مفعول ثان لترهقنى من أرهقه كذا اذا حمله اياه وغشاه به وما فى بما نسيت مصدرية أو بمعنى الذى والعائد محذوف وروى أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروى ان موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشا به الخرق وروى ان الخضر أخذ قدحا من زجاج ورقع به خرق السفينة (فان قيل) قول موسى عليه السلام أخرقتها لتغرق أهلها ان كان صادقا فى هذا دل ذلك على صدور ذنب عظيم من الخضر ان كان نبيا وان كان كاذبا دل ذلك على صدور الذنب من موسى وأيضا فقد التزم موسى أن لا يعترض عليه وجرت العهود المذكورة بذلك ثم انه خالف تلك العهود وذلك ذنب (أجيب) بأن كلا منهما صادق فيما قال موف بحسب ما عنده أما موسى عليه السلام فانه ما خطر له قط أن يعاهد على أن لا ينهى عما يعتقده منكرا وأما الخضر فانه عقد على ما فى نفس الامر أنه لا يقدم على منكر (فانطلقا) بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما من الغرق والعطب (حتى اذا لقيا غلاما) قال ابن عباس لم يبلغ الحنث (فقتله) حين لقيه كما دلت عليه الفاء العاطفة على الشرط قال البغوى فى القصة انهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون فأخذ غلاما ظريفا وضىء الوجه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين قال السدى كان أحسنهم وجها كان وجهه يتوقد حسنا قال البغوى وروينا أنه أخذ رأسه فاقتلعه بيده وروى عبد الرزاق هذا الخبر وأشار بيده بأصابعه الثلاثة الابهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه وروى أنه رضخ رأسه بالحجارة وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله وكونه لم يبلغ الحنث هو قول الاكثرين وقال الحسن كان رجلا قال شعيب الجبائى وكان اسمه جيسور وقال الكلبى كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلتجئ الى أبويه وقال الضحاك كان غلاما يعمل بالفساد ويتأذى منه أبواه وعن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لارهق أبويه طغيانا وكفرا قال الرازى وليس فى القرآن كيف لقياه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان أو كان منفردا وهل كان مسلما أو كافرا وهل كان بالغا أو صغيرا وكان اسم الغلام بالصغير أليق وان احتمل الكبير الا أن قوله بغير نفس أليق بالبالغ منه بالصبى لان الصبى لا يقتل وان قتل قال البقاعى الا أن يكون شرعهم لا يشترط البلوغ وقال ابن عباس ولم يكن نبى الله يقول أقتلت نفسا زاكية بغير نفس الا وهو صبى قال الرازى أيضا وكيفية قتله هل قتله بان حز رأسه أو بأن ضرب رأسه بالجدار أو بطريق آخر فليس فى القرآن ما يدل على شئ من هذه الاقسام انتهى ثم أجاب الشرط بقوله مشعرا بأن شروعه فى الانكار فى هذه أسرع

(قال) موسى (أقتلت) يا خضر (نفسا زاكية بغير نفس) قتلتها بالكون قتلها الها قودا وقرأ نافع
وابن كثير وأبو عمرو بألف بعد الزاي وتخفيف الياء التحتية والباقون بغير ألف بعد الزاي وتشديد
التحتية قال الكسائي الزاكية والزكية لغتان ومعنى هذه الطهارة وقال أبو عمرو الزاكية
التي لم تذنب والزكية التي اذنبت ثم تابت ثم استأنف قوله (لقد) أظهر الدال نافع وابن كثير
وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون (جئت) في قتلك اياها (شيأ) وصرح بالانكار في قوله
(نكرا) لان مباشرة الخرق سبب ولهذا قال بعضهم النكر أعظم من الامر في القبح لان قتل
الغلام أعظم من خرق السفينة لانه يمكن أن لا يحصل الغرق وأما هنا فقد حصل الاتلاف
قطعا والنكر ما أنكرته العقول ونفرت منه النفوس فهو أبلغ في القبح من الامر وقيل الامر
أعظم لان خرق السفينة يؤدي الى اتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس الا اتلاف شخص
واحد وقرأ نافع وابن ذكوان وشعبة برفع الكاف والباقون بسكونها * ولما كانت هذه ثانية
(قال) له الخضر (ألم أقل لك انك) يا موسى (لن تستطيع معي صبرا) وهذا عين ما ذكره في المسئلة
الاولى الا أنه هنا زاد لفظة لك (فان قيل) لم زادها هنا (أجيب) بأنه زادها مكافحة بالعقاب
على رفض الوصية ووسما بقلة الصبر والثبات لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو
بالتذكير أول مرة قال ابن الاثير المكافحة المدافعة والمضاربة والاشمئزاز من اشمأز الرجل
اى انقبض قلبه قال البغوي وفي القصة ان يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي
أنت عليه (قال) موسى حياء منه لما أفاق بتذكيره ما حصل من فرط الوجد لامر الله تعالى
فذكر أنه ما تبعه الا بأمر الله تعالى (ان سألتك عن شئ بعدها) أى بعد هذه المرة واعلم بشدة
ندمه على الانكار بقوله (فلا تصاحبني) أى لا تتركني أتبعك بل فارقني ثم علل ذلك بقوله (قد
بلغت) وأشار الى أن ما وقع منه من الاخلال بالشرط من أعظم الخوارق التي اضطر اليها فقال
(من لدني) أى من قبلي (عذرا) باعتراضي مرتين واحتمالك لي فيهما وقد أخبر الله بحسن حالك
في غزارة علمك فمدحه بهذه الطريقة من حيث انه احتمله مرتين أولا وثانيا مع قرب المدة روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك ولو لبث مع صاحبه
لابصر أعجب الاعاجيب وعن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله
علينا وعلى موسى وكان اذا ذكر أحدا من الانبياء بدأ بنفسه لولا أن عجل لرأى العجب ولكنه
أخذته من صاحبه ذمامة أى حياء واشفاق فقال ان سألتك الى آخره وقرأ نافع بضم الدال
وتخفيف النون وقرأ شعبة كذلك الا أنه يشم الدال فتصير ساكنة قريبة من الضم والباقون
بضم الدال وتشديد النون (فانطلقا) أى موسى والخضر يمشيان لينظر الخضر أمرا ينفذ فيه
ما عنده من علمه وورش يغلظ اللام في لفظ انطلقا على أصله بعد قتل الغلام (حتى اذا أتيا أهل
قرية) قال ابن عباس هي انطاكية وقال ابن سيرين هي الايلة وهي أبعد أرض الله من السماء
وعبر عنها بالقرية دون المدينة لانه أدل على الذم وقيل برقة وعن أبي هريرة بلدة بالاندلس
(استطعما أهلها) أى طلبا من أهل القرية أن يطعموهما وفي الحديث انهما كانا يمشيان على

مجالس أولئك القوم يستطعمانهم (فأبوا أن يضيفوهما) أى أن ينزلوهما ويطعموهما يقال ضافه اذا كان له ضيفا وحقيقته مال اليه من ضاف السهم عن الغرض وضيفه وأضافه أنزله وجعله ضيفا (فان قيل) الاستطعام ليس من عادة الكرام وكيف تدم عليه موسى والخضر وقد حكى الله تعالى عن موسى أنه قال عند وروده ماء مدين رب انى لما أنزلت الى من خير فقير (أجيب) بأن اقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح فى كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند الخوف من الضرر الشديد (فان قيل) لم قال حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ولم يقل استطعماهم (أجيب) بأن التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر

ليت الغراب غداة ينعب دائبا * كان الغراب مقطع الاوداج

وعن قتادة شر القرى التى لا تضيف الضيف (فائدة) قال الرازى وفى كتب الحكايات ان أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل من الذهب وقالوا يا رسول الله جئنا بهذا الذهب لتجعل الباء تاء حتى تصير القراءة هكذا فأتوا أن يضيفوهما أى أتيناهم لاجل الضيافة حتى يندفع عنا هذا اللوم فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب فى كلام الله تعالى وذلك يوجب القدح فى الالهية فعلمنا أن تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية * ولما أبوا أن يضيفوهما انصرفا (فوجدا فيها) أى القرية ولم يقل فيهم ايذانا بأن المراد وصف القرية بسوء الطبع (جدارا) أى حائطا مائلا مشرفا على السقوط ولذا قال مستعير المائل يعقل صفة من يعقل (يريد أن ينقض) أى يسقط وهذا من مجاز كلام العرب لان الجدار لا ارادة له وانما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول العرب دارى تنظر الى دار فلان اذا كانت تقابلها فاستعير الارادة للمشارفة كما استعير لها الهم والعزم فى قوله

يريد الرمح صدر أبى براء * ويعدل عن دماء بنى عقيل

وقول الآخر ان دهرا يلف صدرى بجمل * لزمان يهم بالاحسان

ففى البيت الاول دليل على استعارة الارادة للمشارفة وفى الثانى دليل على استعارة الهم لها وجمل اسم محبوبته يقول ان دهرا يجمع بينى وبينها زمان قصده الاحسان لا الاساءة ونظير ذلك من القرآن قوله تعالى ولما سكت عن موسى الغضب وقوله تعالى أن يقول له كن فيكون وقوله تعالى قالتا أتينا طائعين قال الزمخشرى ولقد بلغنى ان بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم كان يجعل الضمير للخضر وقيل ان الله تعالى خلق للجدار حياة وارادة كالحيوان (فأقامه) أى سواه وفى حديث أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده فأقامه وقال ابن عباس هدمه وقعد يبنيه وقال سعيد بن جبير مسح الجدار بيده فاستقام وذلك من معجزاته وقال السدى بل طينا وجعل يبنى الحائط فشق ذلك على موسى عليه السلام (فان قيل) الضيافة من المندوبات فتركها ترك مندوب وذلك غير منكر فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه أنه غضب عليهم الغضب الشديد الذى لاجله ترك العهد الذى التزمه فى

قوله ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني وأيضا مثل الغضب لاجل ترك الاكل في ليلة واحدة لا يليق بأدون الناس فضلا عن كليم الله تعالى (أجيب) بأن تلك الحالة كانت حالة افتقار واضطرار الى الطعام فلاجل تلك الضرورة نسي موسى عليه السلام ما قاله فلا جرم (قال) موسى (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) أي لطلبت على عملك أجرة تصرفها في تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف التاء بعد اللام وكسر الخاء وأظهر ابن كثير الذال عند التاء على أصلها وأدغمها أبو عمرو والباقون بتشديد التاء وفتح الخاء وأظهر حفص الذال على أصله وأدغمها الباقون * ولما كان كلام موسى هذا متضمنا للسؤال (قال) له الخضر (هذا) أي هذا الانكار على ترك الاجر (فراق بيني وبينك) وقيل ان موسى عليه السلام لما شرط أنه ان سأله بعد ذلك سؤالا آخر حصل به الفراق حيث قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني فلما ذكر هذا السؤال فارقه وهذا فراق بيني وبينك أي هذا الفراق المعهود الموعود (فان قيل) كيف ساغ اضافة بين الى غير متعدد (أجيب) بأن مسوغ ذلك تكريره بالعطف بالواو ألا ترى أنك لو اقتصرت على قولك المال بيني لم يكن كلاما حتى تقول بيننا أو بيني وبين فلان ثم قال له الخضر (سأنبئك) أي سأخبرك يا موسى قبل فراقي لك (بتأويل) أي بتفسير (ما لم تستطع عليه صبرا) لان هذه المسائل الثلاثة مشتركة في شيء واحد وهو أن أحكام الانبياء عليهم الصلاة والسلام مبنية على الظواهر كما قال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر والخضر ما كانت أموره وأحكامه مبنية على ظواهر الامور بل كانت مبنية على الاسباب الخفية الواقعة في نفس الامر وذلك لان الظاهر في أموال الناس وفي أرواحهم أنه يحرم التصرف فيها والخضر تصرف في أموال الناس وفي أرواحهم في المسئلة الاولى وفي الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لان الاقدام على خرق السفينة وقتل الانسان من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف محرم والاقدام على اقامة ذلك الجدار المائل في المسئلة الثالثة تحمل للتعب والمشقة من غير سبب ظاهر ثم أخذ الخضر في تأويل ذلك مبتدئا بالمسئلة الاولى بقوله (أما السفينة) أي التي أحسن الينا أهلها فخرقتها (فكانت لمساكين) عشرة اخوة خمسة زمنى وخمسة (يعملون في البحر) أي يؤاجرون ويكتسبون واحتج الشافعي رضي الله عنه بهذه الآية على أن حال الفقير أشد في الحاجة والضرر من حال المسكين لان الله تعالى سماهم مساكين مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة (فأردت أن أعيبها) أي ان أجعلها ذات عيب بأن تفوت منفعتها بذلك ساعة من نهار وتكلف أهلها الوحا أو لوحين يسدونها بذلك أخف عليهم من أن تفوتهم منفعتها بالكلية كما يعلم من قوله (وكان وراءهم) أي أمامهم كقوله تعالى ومن ورائهم برزخ وقيل خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه (ملك) كان كافرا واسمه الجلندي وقال محمد ابن اسحق اسمه سولة بن خليد (٣) الازدي وقيل اسمه هدد بن بدد (يأخذ كل سفينة) أي صالحة وحذف التقييد بذلك للعلم به (غصبا) من أصحابها ولم يكن عند أصحابها علم به فاذا مرت به تركها لعيبها فاذا جاوزته اصلحوها فانتفعوا بها قيل سدوها بقارورة وقيل بالقار (فان قيل) قوله

(٣) قوله هدد بن بدد الخ هكذا في النسخ والذي في البيضاوي منوار بن جلندي الأزدي فليحرر اه

فأردت أن أعيبها سبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب فلم قدم عليه (أجيب) بأن النية به التأخير وانما قدم للعناية ولان خوف الغصب ليس هو السبب وحده ولكن مع كونها للمساكين فلما كان كل من الغصب والمسكنة سبب الفعل قدمها على الغصب اشارة الى أن أقوى السببين الحاملين على فعله الرأفة بالمساكين * ثم شرع فى تأويل المسئلة الثانية بقوله (وأما الغلام) الذى قتلته (فكان أبواه مؤمنين) التثنية للتغليب يريد أباه وأمه فغلب المذكر وهو شائع ومثله العمران قيل ان ذلك الغلام كان بالغا وكان يقطع الطريق ويقدم على الافعال المنكرة وكان أبواه يحتاجان الى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشئ من المنكرات وكان يصير سببا لوقوعهما فى الفسق وربما قاد ذلك الفسق الى الكفر وقيل انه كان صبيا الا أنه علم منه أنه لو صار بالغا لحصلت فيه هذه المفاسد وفى الحديث انه طبع كافرا ولو عاش لارهقهما ذلك كما قال (فخشينا) اى خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم (أن يرهقهما) أى يغشيهما ويلحقهما (طغيانا وكفرا) أى لمحبتهما له يتبعانه فى ذلك (فان قيل) هل يجوز الاقدام على قتل الانسان بمثل ذلك (أجيب) بأنه اذا تأكد ذلك بوحى من الله تعالى جاز وعن ابن عباس أن نجدة الحرورى كتب اليه كيف قتله أى كيف قتل الخضر الغلام وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان فكتب اليه ان علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل رواه بمعناه مسلم * ولما ذكر ما يلزم على تقدير بقائه من الفساد تسبب عنه قوله (فأردنا) أى بقتله واراحتهما من شره (أن يبدلهما ربهما) أى المحسن اليهما باعطائه وأخذه قال مطرف فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقى كان فيه هلاكهما فليرض كل امرء بقضاء الله تعالى فان قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب ولهذا أبدلهما الله تعالى (خيرا منه زكاة) أى طهارة وبركة من الذنوب والاخلاق الرديئة وصلاحا وتقوى (وأقرب رحما) أى رحمة وعطفا عليهما وقيل هو من الرحم والقرابة قال قتادة أى أوصل للرحم وأبر للوالدين قال الكلبى أبدلهما الله تعالى جارية فتزوجها نبى من الانبياء فولدت له نبيا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الامم وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال أبدلهما الله تعالى جارية ولدت سبعين نبيا وقال ابن جريج أبدلهما بغلام مسلم وقرأ نافع وأبو عمرو أن يبدلهما بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال وقرأ ابن عامر رحما برفع الحاء والباقون بالسكون * ثم شرع فى تأويل المسئلة الثالثة بقوله (وأما الجدار) أى الذى أشرت بأخذ الاجر عليه (فكان لغلامين) ودل على كونهما دون البلوغ بقوله (يتيمين) وكان اسم أحدهما أصرم والآخر صريما * ولما كانت القرية لاتنافى التسمية بالمدينة وكان التعبير بالقرية أولا أليق عبر بها لانها مشتقة من معنى الجمع فكان أليق بالذم فى ترك الضيافة ولما كانت المدينة بمعنى محل الاقامة عبر بها فقال (فى المدينة) فكان التعبير بها أليق للاشارة به الى أن الناس يعملون فيها فينهدم الجدار وهم مقيمون فيأخذون الكنز كما قال (وكان تحته كنز لهما) فلذلك أقمته احتسابا واختلف فى ذلك الكنز فعن أبى الدرداء أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال كان ذهبا وفضة رواه البخاري في تاريخه والترمذي والحاكم وصححه والذم على كنزهما في قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يؤدي زكاتهما وما يتعلق بهما من الحقوق وعن سعيد بن جبير قال كان الكنز صحفا فيها علم رواه الحاكم وصححه وعن ابن عباس قال كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجبا لمن أيقن بالقدر كيف يغضب عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجبا لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل عجبا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر مكتوب أنا الله لا اله الا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه والويل كل الويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه قال البغوي وهذا قول أكثر أهل التفسير وروى أيضا ذلك مرفوعا قال الزجاج الكنز اذا أطلق ينصرف الى كنز المال ويجوز عند التقييد أن يقال عنه كنز علم وهذا اللوح كان جامعا لهما وقوله (وكان أبوهما صالحا) فيه تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصلاحه فيراعى وتراعى ذريته وكان سياحا واسمه كاشح قال ابن عباس حفظا لصلاح أبيهما وقيل كان بينهما وبين الاب الصالح سبعة آباء قال محمد بن المنكدر ان الله تعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم قال سعيد بن المسيب اني أصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي وعن الحسن أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما بم حفظ الله الغلامين قال بصلاح أبيهما قال فأبي وجدي خير منه قال قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون وذكروا أيضا أن ذلك الاب الصالح كان من الذين تضع الناس الودائع عنده فيردها اليهم (فأراد ربك أن يبلغا) أي الغلامان (أشدهما) أي الحلم وكمال الرأي (ويستخرجا كنزهما) لينتفعا به وينفعا الصالحين * (تنبيه) * أسند الارادة في قوله فأردت أن أعيبها الى نفسه لانه المباشر للتعييب وثانيا في قوله فأردنا الى الله والى نفسه لان التبديل باهلاك الغلام وايجاد الله تعالى بدله وثالثا في قوله فأراد ربك الى الله وحده لانه لا مدخل له في بلوغ الغلامين أو لان الاول في نفسه شر والثالث خير والثاني ممتزج أو لانه لما ذكر العيب أضافه الى ارادة نفسه ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل الا لحكمة عالية ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لاجل صلاح أبيهما أضافه الى الله تعالى لان التكفل بصلاح الابناء لرعاية حق الآباء ليس الا الله تعالى أو لاختلاف حال العارف في الالتفات الى الوسايط (فان قيل) اليتيمان هل أحد منهما عرف حصول ذلك الكنز تحت ذلك الجدار أم لا فان كان الاول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار وان كان الثاني فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز ومعرفته والانتفاع به (وأجيب) لعلهما كانا جاهلين به الا أن وصيهما كان عالما به ثم ان ذلك الوصي غاب وأشرف ذلك الجدار في غيبته على السقوط ولما قرر الخضر هذه الجوابات قال (رحمة من ربك) أي انما فعلت هذه الافعال لغرض أن تظهر رحمة الله لانها بأسرها ترجع الى حرف واحد وهو تحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الاعلى كما تقرر

(ومافعلته) أى شيأمن ذلك (عن أمرى) أى عن اجتهادى ورأيى بل بأمر من له الامر وهو الله تعالى * (تنبيه) * احتج من ادعى نبوة الخضر بأمور أحدها قوله تعالى آتيناه رحمة من عندنا والرحمة هى النبوة قال تعالى وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الارحمة من ربك والمراد من هذه الرحمة النبوة قال الرازى ولقائل أن يقول مسلم ان النبوة رحمة ولكن لا يلزم أن تكون كل رحمة نبوة الثانى قوله تعالى وعلمناه من لدنا علما وهذا يقتضى أن الله تعالى علمه بلا واسطة تعليم معلم ولا ارشاد مرشد وكل من علمه الله تعالى بلا واسطة البشر وجب أن يكون نبيا يعلم الامور بالوحى من الله تعالى قال الرازى وهذا الاستدلال ضعيف لان العلوم الضرورية تحصل ابتداء من الله وذلك لا يدل على النبوة الثالث أن موسى عليه السلام قال هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت والنبى لا يتبع غير نبى فى التعلم قال الرازى وهذا أيضا ضعيف لان النبى لا يتبع غير نبى فى العلوم التى باعتبارها صار نبيا أما غير تلك العلوم فلا الرابع أنه أظهر على موسى الترفع حيث قال وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا وأما موسى فانه أظهر له التواضع حيث قال ولا أعصى لك أمرا وهذا يدل على أنه كان فوق موسى ومن لا يكون نبيا لا يكون فوق نبى قال الرازى وهذا أيضا ضعيف لانه يجوز أن يكون غير النبى فوق النبى فى علوم لا تتوقف نبوته عليها الخامس قوله وما فعلته عن أمرى وفى المعنى أنى فعلته بوحى من الله وهذا يدل على النبوة قال الرازى وهذا أيضا ضعيف ظاهر الحجة السادس ماروى أن موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك قال وعليك السلام يانبى بنى اسرائيل فقال موسى من عرفك هذا قال الذى بعثك الى وهذا يدل على أنه انما عرف ذلك بالوحى والوحى لا يكون الا مع النبوة قال الرازى ولقائل أن يقول لم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والالهامات انتهى وبالجملة فالجمهور على أنه نبى كما مر واختلفوا هل هو حى أو ميت فقيل ان الخضر والياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم قال البغوى وكان سبب حياته فيما يحكى أنه شرب من عين الحياة وذلك أن ذا القرنين دخل الظلمة لطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فنزل فاغتسل وشرب وشكر الله تعالى وأخطأ ذو القرنين الطريق وذهب آخرون الى أنه ميت لقوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء ليلة أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض أحد ولو كان الخضر حيا لكان لا يعيش بعده * ولما بين لموسى سر تلك القضايا قال له (ذلك) أى هذا التأويل العظيم (تأويل مالم تسطع) ياموسى (عليه صبرا) وحذف تاء الاستطاعة هنا تخفيفا فان استطاع واسطاع بمعنى واحد * (تنبيه) * من فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعمله ولا يبادر الى انكار ما لا يستحسنه فلعل فيه سرا لا يعرفه وأن يداوم على التعلم ويتذلل للعلماء ويراعى الادب فى المقال وأن ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حتى يتحقق اصراره ثم يهاجره روى أن موسى لما أراد أن يفارق الخضر قال له أوصنى قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه للعمل به * ولما فرغ من هذه القصة التى حاصلها أنها طواف فى الارض لطلب العلم

عقبها بقصة من طاف الارض لطلب الجهاد وقدم الاول اشارة الى علو درجة العلم لانه أساس كل سعادة وقوام كل امرئ فقال عاطفا على ويجادل الذين كفروا بالباطل (ويسئلونك) أى اليهود وقيل مشركو مكة يا أشرف الخلق (عن ذى القرنين) وذكروا فى سبب تسميته بذلك وجوها الاول قال أبو الطفيل سئل على رضى الله عنه عن ذى القرنين أكان نبيا أم ملكا قال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا صالحا أمر قومه بتقوى الله تعالى فضربوه على قرنه الايمن فمات ثم بعثه الله تعالى فأمرهم بتقوى الله تعالى فضربوه على قرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى فسمى ذا القرنين فيكم مثله يعنى نفسه الثانى أنه انقرض فى وقته قرنان من الناس الثالث أنه كان صفحتا رأسه من نحاس الرابع كان على رأسه ما يشبه القرنين الخامس كان لتاجه قرنان السادس أنه طاف قرنى الدنيا شرقها وغربها السابع كان له قرنان أى ضفيرتان الثامن ان الله تعالى سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهدى النور من أمامه وتمتد الظلمة من ورائه التاسع أنه لقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا لانه ينطح أقرانه العاشر أنه رأى فى المنام كأنه صعد الفلك وتعلق بطرفى الشمس وقرنيها أى جانبيها فسمى بذلك لهذا السبب الحادى عشر أنه كان له قرنان تواريهما العمامة الثانى عشر أنه دخل النور والظلمة وذكروا فى اسمه أيضا وجوها الاول اسمه مرزبان اليونانى من ولد يونان بن يافث ابن نوح الثانى اسمه اسكندر بن فيلفوس الرومى اشتهر فى كتب التواريخ أنه بلغ ملكه أقصى المشرق والمغرب وأمعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسم نفسه الثالث شمر بن عمر بن افريقيس الحميرى وهو الذى بلغ ملكه مشارق الارض ومغاربها وافتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما * ملكا علا فى الارض غير مفند

بلغ المشارق والمغارب يبتغى * أسباب ملك من كريم سيد

واختلفوا فى نبوته مع الاتفاق على ايمانه فقال بعضهم كان نبيا واحتجوا على ذلك بوجوه الاول قوله تعالى انا مكنا له فى الارض وحمل على التمكين فى الدنيا والتمكين الكامل فى الدين هو النبوة الثانى قوله تعالى وآتيناه من كل شئ سببا وهذا يدل على أنه تعالى آتاه من النبوة سببا الثالث قوله تعالى ياذا القرنين اما أن تعذب الخ والذى يتكلم الله معه لابد أن يكون نبيا ومنهم من قال انه كان عبدا صالحا ملكه الله تعالى الارض وأعطاه الله سبحانه وتعالى الملك والحكمة وألبسه الهيبة وقد قالوا ملك الارض مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمروذ وبختنصر ومنهم من قال انه كان ملكا من الملائكة عن عمر رضى الله تعالى عنه انه سمع رجلا يقول ياذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن تتسموا بأسماء الانبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة والاكثر على القول الثانى ويدل له قول على رضى الله تعالى عنه المتقدم *(تنبيه)* قد قدمنا ان اليهود امروا المشركين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذى القرنين وعن الروح والمراد من قوله تعالى ويسألونك عن ذى القرنين

هو ذلك السؤال ثم قال الله تعالى (قل) أى لهؤلاء المتعنتين (سأتلو) أى أقص قصاصا متتابعا فى مستقبل الزمان أعلمنى الله تعالى به (عليكم) أى أيها البعداء والضمير فى قوله تعالى (منه) لذى القرنين وقيل لله تعالى (ذكرا) أى خبرا كافيا لكم فى تعرف أمره جامعا لمجامع ذكره (آنا مكناله فى الارض) أى مكنا له أمره من التصرف فيها امكنة يصل بها الى جميع مسالكها ويظهر بها على سائر ملوكها (وآتيناه) بعظمتنا (من كل شئ) يحتاج اليه فى ذلك (سببا) أى وصلة توصله اليه من العلم والقدرة والآلة (فأتبع سببا) أى سلك طريقا نحو المغرب قال البقاعى ولعله بدأ به لان باب التوبة فيه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو اتبع فى المواضع الثلاثة بتشديد التاء الفوقية ووصل الهمزة قبل الفوقية والباقون بقطع الهمزة وسكون التاء الفوقية واستمر متبعاله (حتى اذا بلغ) فى ذلك السير (مغرب الشمس) أى موضع غروبها (وجدها تغرب فى عين حمئة) أى ذات حمأة وهى الطين الاسود أى بلغ موضعا فى الغرب لم يبق بعده شئ من العمران وجد الشمس كأنها تغرب فى وهدة مظلمة وغروبها فى رأى العين كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغرب فى البحر اذا لم ير الشط وهى فى الحقيقة تغيب وراء البحر والا فهى أكبر من الارض مرات كثيرة فكيف يعقل دخولها فى عين من عيون الارض قال البيضاوى ولعله بلغ ساحل المحيط فرأى ذلك اذلم يكن فى مطمح بصره غير الماء ولذلك قال وجدها تغرب ولم يقل كانت تغرب وقرأ شعبة وحمزة والكسائى وابن عامر بألف بعد الحاء وياء مفتوحة بعد الميم عن أبى ذر قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال أتدرى يا أباذر أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تغرب فى عين حمئة وقرأ الباقون بغير ألف بعد الحاء وبعد الميم همزة مفتوحة واتفق ان ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار وسأله كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين كذلك نجده فى التوراة (ووجد عندها) أى عند تلك العين على الساحل المتصل بها (قوما) أى أمة قال ابن جريج مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا ضجيج أهلها لسمعت وجبة الشمس حين تجب أى تغرب قيل كان لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما يلفظه البحر كانوا كفارا فخيره الله تعالى بين أن يعذبهم أو يدعوهم الى الايمان كما حكى ذلك بقوله تعالى (قلنا ياذا القرنين) اما بواسطة الملك ان كان نبيا أو بواسطة نبى زمانه ان لم يكن أو باجتهاد فى شريعته (اما أن تعذب) بالقتل على كفرهم (واما أن تتخذ) أى بغاية جهدك (فيهم حسنا) بالارشاد وتعليم الشرائع وقيل خيره بين القتل والاسر وسماه حسنا فى مقابلة القتل ويؤيد الاول قوله (قال أما من ظلم) باستمراره على الكفر فانا نرفق به حتى ييأس منه ثم نقتله والى ذلك أشار بقوله (فسوف نعذبه) بوعد لاخلف فيه بعد طول الدعاء والترفق وقال قتادة كان يطبخ من كفر فى القدور وهو العذاب المنكر (ثم يرد الى ربه) فى الآخرة (فيعذبه عذابا نكرا) أى شديدا جدا فى النار وتقدم فى نكرا سكون الكاف وضمها (وأما من آمن وعمل صالحا) تصديقا لما أخبر به من تصديقه

(فله) فى الدارين (جزاء الحسنى) أى الجنة وقرأ حفص وحمزة والكسائى بفتح الهمزة بعد الزاى منونة وتكسر فى الوصل لالتقاء الساكنين قال الفراء نصبه على التفسير أى لجهة النسبة وقيل منصوب على الحال أى فله المثوبة الحسنى مجزيا بها والباقون بضم الهمزة من غير تنوين فالاضافة للبيان قال المفسرون والمعنى على قراءة النصب فله الحسنى جزاء كما تقول له هذا الثوب هبة وعلى قراءة الرفع وجهان الاول فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هى الايمان والعمل الصالح والثانى فله جزاء المثوبة الحسنى واضافة الموصوف الى الصفة مشهورة كقوله ولدار الآخرة وأمال ألف الحسنى حمزة والكسائى محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح والامالة بين بين (وسنقول) بوعد لا خلف فيه بعد اختباره بالأعمال الصالحة (له) أى لاجله (من أمرنا) اى مانأمره به (يسرا) أى قولا غير شاق من الصلاة والزكاة والخراج والجهاد وغيرها وهو مايطيقه ولايشق عليه مشقة كثيرة (ثم أتبع) لارادة طلوع مشرق الشمس (سببا) من جهة الجنوب يوصله الى المشرق واستمر فيه لايمل ولاتغلبه أمة مر عليها (حتى اذا بلغ) فى مسيره ذلك (مطلع الشمس) أى الموضع الذى تطلع عليه أولا من المعمور من الارض (وجدها تطلع على قوم) قال الجلال المحلى هم الزنج وقوله تعالى (لم نجعل لهم من دونها) أى الشمس (سترا) فيه قولان الاول انه لاشئ لهم من سقف ولاجبل يمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم لان أرضهم لاتحمل بناء قال الرازى ولهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس ويظهرون عند غروبها فيكونون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش وأحوالهم بالضد من أحوال سائر الخلق وقال قتادة يكونون فى أسراب لهم حتى اذا زالت الشمس عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم والثانى ان معناه لاثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبدا وفى كتب الهيئة ان أكثر حال الزنج كذلك وحال كل من سكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك قال الكلبى هم عراة يفرش أحدهم احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى وقال الزمخشرى وعن بعضهم قال خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم فقيل بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم واذا أحدهم يفرش احدى أذنيه ويلبس الاخرى فلما قرب طلوع الشمس سمعت صوتا كهيئة الصلصلة فغشى على ثم أفقت فلما طلعت الشمس فاذا هى فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونى سربا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم وعن مجاهد من لايلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض وقوله تعالى (كذلك) فيه وجوه الاول ان معناه كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها الثانى ان أمره كما وصفناه من رفعة المكان وبسطة الملك قال البغوى والصحيح ان معناه كما حكم فى القوم الذين هم عند غروب الشمس كذلك فى القوم الذين هم عند مطلعها (وقد أحطنا بما لديه) أى عند ذى القرنين من الآلات والجند وغيرهما (خبرا) أى علما تعلق بظواهره وخفاياه والمعنى ان كثرة ذلك بلغت مبلغا لايحيط به الا العلم اللطيف الخبير (ثم) ان ذا القرنين لما بلغ المغرب والمشرق

(أتبع سببا) آخر من جهة الشمال في ارادة ناحية السد مخرج يأجوج ومأجوج واستمر آخذا فيه (حتى اذا بلغ) في مسيره ذلك (بين السدين) أي بين الجبلين وهما جبلا أرمينية وأذربيجان وقيل جبلان في أواخر الشمال وقيل هذا المكان في منقطع بلاد الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج قال الرازي والاظهر أن موضع السد في ناحية الشمال سد الاسكندر ما بينهما كما سيأتي وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين والباقون بضمها وهما لغتان معناهما واحد وقال عكرمة ما كان من صنع بني آدم فهو السد بالفتح وما كان من صنع الله فهو بالضم وقاله أبو عمرو وقيل بالعكس (وجد من دونهما) أي بقربهما من الجانب الذي هو أدنى منهما الى الجهة التي أتى منها ذو القرنين (قوما) أي أمة من الناس لغتهم في غاية البعد من لغات بقية الناس لبعد بلادهم عن بقية البلاد فهم كذلك (لا يكادون) أي لا يقربون (يفقهون) أي يفهمون (قولا) ممن مع ذي القرنين فهما جيدا كما يفهم غيرهم لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء وكسر القاف والباقون بفتحهما وقال ابن عباس لا يفقهون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم واستشكل بقولهم (قالوا ياذا القرنين) وأجيب بأنه تكلم عنهم مترجم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم (ان يأجوج ومأجوج) وهما اسمان أعجميان لقبيلتين فلم ينصرفا وقرأ عاصم بهمزة ساكنة بعد الياء والميم والباقون بالالف فيهما وهما لغتان أصلهما من أجيج النار وهو ضوءها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم وهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام قال الضحاك هم جيل من الترك قال السدي الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة انهم اثنان وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد على احدى وعشرين قبيلة وبقيت قبيلة واحدة فهم الترك سموا الترك لانهم تركوا خارجين قال أهل التواريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج وقال ابن عباس في رواية عطاء هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء وروى عن حذيفة مرفوعا ان يأجوج أمة ومأجوج أمة وكل أمة أربعمائة ألف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر الى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم يسيرون في خراب الارض وقال هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الارز شجر بالشأم طوله عشرون ومائة ذراع في السماء وصنف منهم طوله وعرضه سواء عشرون ومائة وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد وصنف منهم يفرش احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير الا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشأم وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية ومنهم ان ثبت لهم مخالب في أظفارهم وأضراسهم كأضراس السباع وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط في الطول وقال كعب هم نادرة في ولد آدم وذلك أن آدم احتلم ذات

يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم يتصلون بنا من
جهة الاب دون الام وذكر وهب بن منبه أن ذا القرنين كان رجلا من الروم ابن عجوز فلما بلغ
كان عبدا صالحا قال الله تعالى انى باعثك الى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهما طول
الارض احداهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والاخرى عند مطلعها يقال لها منسك
وأمتان بينهما عرض الارض احداهما فى القطر الايمن يقال لها هاويل والاخرى فى قطر
الارض الايسر يقال لها ناويل وأمم فى وسط الارض منهم الجن والانس ويأجوج ومأجوج
فقال ذو القرنين بأى قوة أكاثرهم وبأى لسان أناطقهم قال الله تعالى انى سأطوقك وأبسط
لك لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شئ وألبسك الهيبة فلا يروعنك شئ وأسخر لك النور والظلمة
وأجعلهما من جنودك يهديك النور من أمامك وتحفظك الظلمة من ورائك فانطلق حتى أتى
مغرب الشمس فوجد جمعا وعددا لا يحصيه الا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم فى مكان
واحد فدعاهم الى الله تعالى والى عبادته فمنهم من آمن ومنهم من كفر ومنهم من صد عنه فعمد
الى الذين تولوا عنه وأدخل عليهم الظلمة فدخلت أجوافهم وبيوتهم فدخلوا فى دعوته فجند من
أهل المغرب جندا عظيما فانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى هاويل فعمل فيهم كعمله
فى ناسك ثم مضى حتى انتهى الى منسك عند مطلع الشمس فعمل فيها وجند منها جنودا كفعله
فى الامتين ثم أخذ ناحية الارض اليسرى فأتى ناويل فعمل فيها كعمله فيما قبلها ثم عمد الى
الامم التى وسط الارض فلما كان مما يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من
الانس ياذا القرنين ان بين هذين الجبلين خلقا أشباه البهائم أى وهم يأجوج ومأجوج
(مفسدون فى الارض) يفترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب
وكل ذى روح خلقه الله فى الارض وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا يشك أنهم سيملكون
الارض ويظهرون عليها ويفسدون فيها وقال الكلبى فسادهم انهم كانوا يخرجون أيام الربيع
الى أرضهم فلا يدعون فيها شيئا أخضر الا أكلوه ولا يابسا الا احتملوه وأدخلوه أرضهم وقد
بالغوا ولقوا منهم أذى شديدا وقتلا وقيل فسادهم انهم كانوا يأكلون الناس وقيل معناه انهم
سيفسدون فى الارض بعد خروجهم (فهل نجعل لك خرجا) أى جعلا من المال وقرأ حمزة
والكسائى بفتح الراء وألف بعدها والباقون بسكون الراء ولا ألف بعدها فقيل هما بمعنى وقيل
الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك (على أن تجعل) فى جميع ما (بيننا وبينهم) من الارض
التى يمكن توصلهم الينا منها بما آتاك الله من المكنة (سدا) أى حاجزا بين هذين الجبلين فلا
يصلون الينا وقرأ نافع وابن عامر وشعبة برفع السين والباقون بالنصب (قال) لهم ذو القرنين
(ما مكنى فيه ربى) أى المحسن الى مما ترونه من الاموال والرجال والتوصل الى جميع الممكن
لمخلوق (خير) من خراجكم الذى تريدون بذله كما قال سليمان عليه السلام فما آتانى الله خير
مما آتاكم وقرأ ابن كثير بنون مفتوحة بعد الكاف وبعدها نون مكسورة والباقون بنون
واحدة مكسورة مشددة (فأعينونى بقوة) أى انى لا أريد المال بل أعينونى بأيديكم وقوتكم

وبالآلات التي أتقوى بها في فعل ذلك فان ما معي انما هو للقتال وما يكون من أسبابه لا لمثل هذا (أجعل بينكم) أي بين ما تختصون به (وبينهم ردما) أي حاجزا حصينا موثقا بعضه فوق بعض من التلاصق والتلاحم وهو أعظم من السد من قولهم ثوب ردم اذا كان رقاعا فوق رقاع قالوا وما تلك القوة قال فعلة وصناع يحسنون البناء قالوا وما تلك الآلات قال (آتوني) أي اعطوني (زبر الحديد) أي قطعه وهو جمع زبرة كغرفة وغرف قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة فأتوه به وبالحطب حفر له الاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم (حتى اذا ساوى) أي بذلك البناء (بين الصدفين) أي بين جانبي الجبلين أي سوى بين طرفي الجبلين سميا بذلك لانهما يتصادفان أي يتقابلان من قولهم صادفت الرجل لاقيته وقابلته وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر برفع الصاد والدال وشعبة برفع الصاد وسكون الدال والباقون بنصب الصاد والدال ثم وضع المنافخ وأطلق النار في الحطب والفحم و (قال) أي للعملة (انفخوا) فنفخوا (حتى اذا جعله) أي الحديد (نارا) أي كالنار (قال آتوني) أي اعطوني (أفرغ عليه قطرا) أي أصب النحاس المذاب على الحديد المحمى فصبه عليه فدخل في خلال الحديد مكان الحطب لان النار أكلت الحطب حتى لزم الحديد النحاس فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا قال الزمخشري قيل ما بين السدين مائة فرسخ وروي ان عرضه كان خمسين ذراعا وارتفاعه مائتي ذراع وعن قتادة قال ذكر لنا أن رجلا وفي رواية عن رجل من أهل المدينة قال يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال انعته لي قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء وهذه معجزة عظيمة ان كان نبيا أو كرامة ان لم يكن لان هذه الزبرة الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر الحيوان ان يقرب منها والنفخ عليها لا يكون الا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها حتى تمكنوا من العمل فيها *(تنبيه)* قطرا هو المتنازع فيه وهذه الآية أشهر أمثلة النحاة في باب التنازع وبها تمسك البصريون على ان اعمال الثاني من العاملين المتوجهين نحو معمول واحد أولى اذ لو كان قطرا مفعول آتوني لاضمر مفعول أفرغ حذرا من الالتباس ثم قال تعالى (فما) أي فتسبب عن ذلك انه لما أكمل عمل الردم وأحكمه ما (اسطاعوا) أي يأجوج ومأجوج وغيرهم (أن يظهروه) أي يعلوا ظهره لعلوه وملاسته وقرأ حمزة بتشديد الطاء والباقون بالتخفيف (وما استطاعوا له نقبا) أي خرقا لصلابته وسمكه وزيادة التاء هنا تدل على أن العلو عليه أصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو الجبل فانهم ولو احتالوا ببناء درج من جانبهم أو وضع تراب حتى ظهروا عليه لم ينفعهم ذلك لانهم لا حيلة لهم على النزول من الجانب الآخر ويؤيده أنهم انما يخرجون في آخر الزمان بنقبه لا بظهورهم عليه ولا ينافي نفي الاستطاعة لنقبه ما رواه الامام أحمد والترمذي في التفسير وابن ماجه في الفتن عن أبي رافع عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان يأجوج

ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعودون اليه كأشد ما كان حتى اذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ان شاء الله تعالى فيستثنى فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس الحديث وفى حديث الصحيحين عن زينب بنت جحش عن النبى صلى الله عليه وسلم فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواه عن أبى هريرة وفيه مثل هذا وعقد تسعين لان هذا فى آخر الزمان ثم انه قيل فما قال حين فراغه فقيل (قال هذا) أى السد يعنى الاقدار عليه (رحمة) أى نعمة (من ربى) أى المحسن الى باقدارى عليه ومنع العادية (فاذا جاء وعد ربى) بقرب قيام الساعة أو بوقت خروجهم (جعله دكا) أى مدكوكا مبسوطا روى أنهم يخرجون على الناس فيتبعون المياه ويتحصن الناس فى حصونهم منهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من فى الارض وعلونا من فى السماء قسوة وعلوا فيبعث الله تعالى عليهم نغفا فى رقابهم وفى رواية فى آذانهم فيهلكون قال صلى الله عليه وسلم فوالذى نفسى بيده ان دواب الارض لتسمن وتشكر من لحومهم شكرا أخرجه الترمذى قوله قسوة وعلوا أى غلظة وفظاظة وتكبرا والنغف دود يخرج فى أنوف الابل والغنم وقوله وتشكر من لحومهم شكرا يقال شكرت الشاة شكرا حين امتلأ ضرعها لبنا والمعنى أنها تملئ أجسادها لحما وتسمن وعن النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه فى طائفة من النخل فلما رحنا اليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل فقال غير الدجال أخوفنى عليكم ان يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم وانه شاب قطط أى شديد الجعودة وقيل حسن الجعودة عينه طافية أى بارزة وقيل مخسوفة كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف انه خارج من خلة بين الشأم والعراق فعاث أى أفسد يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله وما مكثه فى الارض قال أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم قال لا اقدروا له قدره أى واليوم الثانى والثالث كذلك وسكت عن ذلك للعلم به من الاول قلنا يا رسول الله وما اسراعه فى الارض قال كالغيث استدبرته الريح فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والارض فتنبت وتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا واسعة ضروعها وأملأه خواصر ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شئ من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنزك فيتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل

ويتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء
فى دمشق بين مهرودتين أى حلتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين اذا طأطأ رأسه قطر واذا
رفعه تحدر منه مثل جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه الامات ونفسه ينتهى حيث
ينتهى طرفه حتى يدركه بباب لد قرية بالشأم قريبة من الرملة فيقتله ثم يأتى عيسى بن مريم قوم قد
عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويخبرهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك اذ أوحى الله
تعالى الى عيسى عليه السلام انى قد أخرجت عبادا لى لا يدان لاحد بقتالهم فحرز عبادى
الى الطور ويبعث يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة
طبرية فيشربون مافيها ويمر آخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبى الله وأصحابه حتى
يكون رأس الثور لاحدهم خيرا من مائة دينار لاحد كم اليوم فيرغب نبى الله عيسى
وأصحابه الى الله تعالى فيرسل الله تعالى عليهم النغف فى رقابهم وهو بالتحريك دود يكون فى
أنوف الابل والغنم كموت واحد تسانغفة فيصبحون فرسا أى قتلى الواحد فريس ثم يهبط
نبى الله عيسى وأصحابه الى الارض فلا يجدون فى الارض موضع شبر الا ملأه زهمهم ونتنهم
فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله تعالى عليهم طيرا كأعناق البخت فتحملهم
حيث شاء الله تعالى ثم يرسل الله تعالى مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الارض
حتى يتركها كالزلفة وهى بالتحريك جمعها زلف مصانع الماء ويجمع على المزالف أيضا أى فتصير
الارض كأنها مصنعة من مصانع الماء وقيل كالمرآة وقيل الزلفة الروضة وقيل بالقاف
أيضا ثم يقال للارض انبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون
بقحفها ويبارك فى الرسل وهو بتحريك الراء والسين من الابل والغنم من عشرة الى خمسة
وعشرين حتى ان اللقحة من الابل لتكفى الفئام من الناس وهو مهموز الجماعة الكثيرة
واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس
فبينما هم كذلك اذ بعث الله تعالى عليهم ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل
مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة (وكان
وعد ربى) الذى وعد به فى خروج يأجوج ومأجوج واحراقهم الارض وافسادهم لها قرب
قيام الساعة (حقا) كائنا لامحالة فلذلك أعان تعالى على هدمه هذا آخر حكاية ذى القرنين
وفى القصة ان ذا القرنين دخل الظلمة فلما رجع توفى بشهرزور وذكر بعضهم أن عمره كان نيفا
وثلاثين سنة سبحان من يدوم عزه وبقاؤه ثم انه تعالى قال عاطفا على ما تقديره فقد بان أمر ذى
القرنين أى بيان وصدق فى قوله فاذا جاء وعد ربى فانه اذا جاء وعدنا جعلناه بقدرتنا التى
نؤتيها ليأجوج ومأجوج دكا فأخرجناهم على الناس بعد خروج الدجال (وتركنا بعضهم) أى
يأجوج ومأجوج (يومئذ) أى حين يخرجون (يموج) أى يضطرب (فى بعض) كموج البحر
أو يموج بعض الخلق فى بعض فيضطربون ويختلطون انسهم وجنهم حيارى ويؤيده (ونفخ فى
الصور) أى القرن النفخة الثانية لقوله تعالى (فجمعناهم) أى الخلائق فى مكان واحد يوم

القيامة قال البقاعي ويجوز أن تكون هذه الفاء فاء الفصيحة فيكون المراد النفخة الاولى أي ونفخ فمات الخلائق كلهم فبليت أجسامهم وتفتت عظامهم كما كان من تقدمهم ثم نفخ الثانية فجمعناهم من التراب بعد تمزقهم فيه وتفرقهم في أقطار الارض بالسيول والرياح وغير ذلك (جمعا) فأمتناهم دفعة واحدة كلمح البصر وحشرناهم الى الموقف للحساب ثم الثواب والعقاب (وعرضنا) أي أظهرنا (جهنم يومئذ) أي اذ جمعناهم لذلك (للكافرين عرضا) ظاهرة لهم بكل ما فيها من الاهوال وهم لا يجدون لهم عنها مصرفا * ثم وصفهم بما أوجب لهم ذلك بقوله تعالى (الذين كانت) كونا كأنه جبلة لهم (أعينهم) وهو بدل من الكافرين (في غطاء عن ذكري) أي عن القرآن فهم لا يهتدون به وعما جعلنا على الارض من زينة دليلا على الساعة بافنائه ثم احيائه واعادته بعد ابدائه (وكانوا) بما جعلناهم عليه (لا يستطيعون سمعا) أي لا يقدرون أن يسمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم ما يتلو عليهم بغضاله فلا يؤمنون به * ولما بين تعالى أمر الكافرين أنهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم أتبعه بقوله تعالى (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي) من الاحياء كالملائكة وعزير والمسيح والاموات كالاصنام (من دوني) وقوله تعالى (أولياء) أي أربابا مفعول ثان ليتخذوا والمفعول الثاني لحسب محذوف والمعنى أظنوا أن الاتخاذ المذكور ينفعهم ولا يغضبني ولا أعاقبهم عليه كلا وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وهم على مراتبهم في المد * ولما كان معنى الاستفهام الانكاري ليس الامر كذلك حسن جدا قوله تعالى مؤكدا لاجل انكارهم (انا أعتدنا جهنم) التي تقدم أنا عرضناها لهم (للكافرين) أي هؤلاء وغيرهم (نزلا) أي هي معدة لهم كالمنزل المعد للضعيف وهذا على سبيل التهكم ونظيره قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم * ثم ذكر تعالى ما فيه تنبيه على جهل القوم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) لهم (هل ننبئكم) أي نخبركم وأدغم الكسائي لام هل في النون والباقون بالاظهار (بالاخسرين أعمالا) أي الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا واختلفوا فيهم فقال ابن عباس وسعد بن أبي وقاص هم اليهود والنصارى وهو قول مجاهد قال سعد بن أبي وقاص أما اليهود فكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأما النصارى فكفروا بالجنة فقالوا لا طعام فيها ولا شراب انتهى قال البقاعي وكذا قال اليهود لان الفريقين أنكروا الحشر الجسماني وخصوه بالروحاني وقيل هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع * (تنبيه) * أعمالا تمييز للاخسرين جمع عمل وان كان مصدرا لتنوع أعمالهم ثم وصفهم تعالى بضد ما يدعونه لانفسهم من نجاح السعي واحسان الصنع فقال تعالى (الذين ضل) أي ضاع وبطل (سعيهم في الحياة الدنيا) لكفرهم * (تنبيه) * محل الموصول الجر نعتا أو بدلا أو بيانا أو النصب على الذم أو الرفع على الخبر المحذوف فانه جواب السؤال ومعنى خسرانهم أنه مثلهم بمن يشتري سلعة يرجو فيها ربحا فخسر وخاب سعيه كذلك أعمال هؤلاء الذين أتعبوا أنفسهم مع ضلالهم فبطل جدهم

واجتهادهم في الحياة الدنيا (وهم يحسبون) أي يظنون وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بالكسر (أنهم يحسنون صنعا) أي عملا يجازون عليه لاعتقادهم انهم على الحق * ثم بين تعالى السبب في بطلان سعيهم بقوله تعالى (أولئك) أي البعداء البغضاء (الذين كفروا بآيات ربهم) أي بدلائل توحيده من القرآن وغيره (ولقائه) أي رؤيته لانه يقال لقيت فلانا أي رأيته (فان قيل) اللقاء عبارة عن الوصول قال تعالى فالتقى الماء على أمر قد قدر وذلك في حق الله تعالى محال فوجب حمله على لقاء ثواب الله تعالى كما قال بعض المفسرين (أجيب) بأن لفظ اللقاء وان كان عبارة عن الوصول الا أن استعماله في الرؤية مجاز ظاهر مشهور والذي يقول ان المراد لقاء ثواب الله قال لا يتم الا بالاضمار وحمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على ما يحتاج الى الاضمار ثم قال تعالى (فحبطت) أي فبسبب جحدهم الدلائل بطلت (أعمالهم) فصارت هباء منثورا فلا يثابون عليها وفي قوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) قولان أحدهما انا نزدري بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار تقول العرب ما لفلان عندي وزن أي قدر لخسته وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا الثاني لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما يوضع لاهل الحسنات والسيآت من الموحدين ليتميز مقدار الطاعات ومقدار السيآت وقال أبو سعيد الخدري تأتي ناس بأعمالهم يوم القيامة عندهم في التعظيم كجبال تهامة فاذا وزنوها لم تزن شيأ فذلك قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * ولما كان هذا السياق في الدلالة على ان لهم جهنم أوضح من الشمس قال تعالى (ذلك) أي الامر العظيم الذي بيناه من وعيدهم (جزاؤهم) ثم بين ذلك الجزاء بقوله تعالى (جهنم) وصرح بالسببية بقوله تعالى (بما كفروا) أي بما أوقعوا التغطية للدلائل (واتخذوا آياتي) الدالة على وحدانيتنا (ورسلي) المؤيدين بالمعجزات الظاهرات (هزوا) أي مهزوا بهما فلم يكتفوا بالكفر الذي هو طعن في الالهية حتى ضموا اليه الهزو الذي هو أعظم احتقارا * ولما بين سبحانه وتعالى مالاحد قسمي أهل الجمع تنفيرا عنهم بين ما للآخرين على تقدير الجواب لسؤال يقتضيه الحال ترغيبا في اتباعهم والاقتداء بهم بقوله (ان الذين آمنوا) أي باشروا الايمان (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الخصال (كانت لهم) أي في علم الله قبل أن يخلقوا البناء أعمالهم على الاساس (جنات) أي بساتين (الفردوس) أي أعلى الجنة وأوسطها والاضافة اليه للبيان روى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة وقال كعب ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها وقال كعب الفردوس هو بستان الجنة الذي فيه الاعناب وقال مجاهد هو البستان بالرومية وقال الزجاج هو بالرومية منقول الى لفظ العربية

وقال عكرمة هي الجنة بلسان الحبش وقال الضحاك هي الجنة الملتفة الاشجار (نزلا) أي منزلا كما كان السعير والاغلال لأولئك نزلا وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة (لا يبغون) أي لا يريدون أدنى ارادة (عنها حولا) أي تحويلا الى غيرها قال ابن عباس لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار اذا لم توافقه الى دار أخرى * ولما ذكر تعالى في هذه السورة أنواع الدلائل والبينات وشرح فيها أقاصيص الاولين والآخرين نبه على حال كمال القرآن بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) يا أشرف الخلق للخلق (لو كان البحر) أي ماؤه على عظمته عندكم (مدادا) وهو اسم لما تمد به الشيء كالحبر للدواة والسليط للسراج (لكلمات) أي لكتب كلمات (ربي) أي المحسن الي (لنفد) أي فني مع الضعف فناء لا تدارك له (البحر) لانه جسم متناه (قبل أن تنفد) أي تفنى وتفرغ (كلمات ربي) لان معلوماته تعالى غير متناهية والمتناهي لا يفي البتة بغير المتناهي وقرأ حمزة والكسائي بالياء التحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التأنيث * ولما لم يكن أحد غيره يقدر على امداد البحر قال تعالى (ولو جئنا بمثله) أي بمثل البحر الموجود (مددا) أي زيادة ومعونة ونظيره قوله تعالى ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال البغوي وابن عباس قالت اليهود تزعم يا محمد انا قد أوتينا الحكمة وفي كتابك ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ثم تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال البيضاوي وسبب نزولها أن اليهود قالوا في كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وتقرؤن وما أوتيتم من العلم الا قليلا انتهى وقال في الكشاف يعني ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله وقيل لما نزل وما أوتيتم من العلم الا قليلا قالت اليهود أوتينا التوراة وفيها علم كل شئ فأنزل الله تعالى هذه الآية * ولما كانوا ربما قالوا ما لك لا تحدث من هذه الكلمات بكل ما سألناك عنه قال الله تعالى (قل) يا خير الخلق لهم (انما أنا بشر) في استبداد القدرة على ايجاد المعدوم والاخبار بالغيب (مثلكم) أي لا أمر لي ولا قدرة الا ما يقدرني ربي عليه ولكن (يوحى الي) أي من الله تعالى الذي خصني بالرسالة كالوحي الى الرسل قبلي (أنما الهكم) الذي يجب أن يعبد (اله واحد) لا ينقسم بمجانسة ولا غيرها قادر على ما يريد لا منازع له لم يؤخر جواب ما سألتموني عنه من عجز ولا من جهل هذا الذي يعني كل أحد علمه وأما ما سألتم عنه في أمر الروح والقصتين تعنتا فأمر لو جهلتموه ما ضركم جهله (فمن) أي فتسبب عن وحدته المستلزمة لقدرته أنه من (كان يرجو لقاء ربه) أي يخاف المصير اليه وقيل يأمل رؤية ربه والرجاء يكون بمعنى الخوف والامل جميعا قال الشاعر

فلا كل ما ترجو من الخير كائن * ولا كل ما ترجو من الشر واقع

فجمع بين المعنيين (فليعمل عملا) ولو قليلا (صالحا) يرتضيه الله (ولا يشرك) أي ولكن ذلك العمل مبنيا على الاساس وهو أن لا يشرك ولو بالرياء (بعبادة ربه أحدا) فاذا عمل ذلك حاز خيار علوم الدنيا والآخرة . روي أن جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاعمل

العمل لله فاذا اطلع عليه سرني فقال ان الله لا يقبل ما شورك فيه فنزلت تصديقا وروى أنه قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك اذا قصد أن يقتدى به وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال اتقوا الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر قال الرياء وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء هو للذى عمله وعن سعيد بن فضالة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جمع الله تبارك وتعالى الناس ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان يشرك فى عمل عمله لله فليطلب ثوابه منه فان الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك والآية جامعة لخلاصة العلم والعمل وهما التوحيد والاخلاص فى الطاعة *(خاتمة)* روى فى فضائل سورة الكهف أحاديث كثيرة منها ما رواه الترمذى وغيره من قرأها عند مضجعه كان له نور يتلألأ فى مضجعه الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نور يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ وروى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وقال البيضاوى وعنه عليه السلام من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ولكن الذى رواه الامام أحمد من قرأ أول سورة الكهف كانت له نورا من فرقه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء وروى البغوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه الى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء فنسأل الله تعالى أن ينور قلوبنا وأبصارنا وان يغفر زلاتنا ولا يؤاخذنا بسوء أفعالنا وان يفعل ذلك بوالدينا وأولادنا وأقاربنا وأصحابنا ومشايخنا وجميع اخواننا المسلمين وأحبابنا آمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما الى يوم الدين

(سورة مريم عليها السلام مكية)

وهى ثمان وتسعون آية وسبعمائة واثنان وستون كلمة
وثلاثة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان

(بسم الله) المنزه عن كل شائبة نقص القادر على كل ما يريد (الرحمن) الذى عم نواله سائر مخلوقاته (الرحيم) بسائر خلقه واختلف فى تفسير قوله تعالى (كهيعص) قال ابن عباس هو اسم من أسماء الله تعالى وقال قتادة هو اسم من أسماء القرآن وقيل هو اسم الله الاعظم وقيل هو اسم السورة وقيل قسم أقسم الله به وعن الكلبى هو ثناء أثنى الله به على نفسه وعنه معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق فى وعده وعن ابن عباس قال الكاف من كريم وكبير والهاء من هاد والياء من رحيم والعين من عليم وعظيم والصاد من صادق وقيل انه من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه وقد تقدم الكلام على ذلك فى أول سورة البقرة

وقرأ نافع بامالة الهاء والياء بين بين وأمالهما محضة شعبة والكسائى وأمال الهاء محضة أبو عمرو وابن عامر وحمزة وللسوسى فى الياء خلاف فى الامالة محضة والفتح والباقون وهم ابن كثير وحفص بفتحهما بلا خلاف ولجميع القراء فى العين المد والتوسط وقوله تعالى (ذكر) مبتدأ محذوف الخبر تقديره مما يتلى عليكم أو خبر محذوف المبتدا تقديره المتلو ذكرا وهذا ذكر (رحمت ربك) وقوله تعالى (عبده) مفعول رحمة لانها مصدر بنى على التاء لانها دالة على الوحدة ورسمت بتاء مجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائى ووقف بالتاء على الرسم الباقون وقوله تعالى (زكريا) بيان له *(تنبيه)* اعلم أنه تعالى ذكر فى هذه السورة قصص جملة من الانبياء * الاولى هذه القصة وهى قصة زكريا فيحتمل أن المراد من قوله تعالى رحمة ربك أنه عنى عبده زكريا ثم فى كونه رحمة وجهان أحدهما أنه يكون رحمة على أمته لانه هداهم الى الايمان والطاعة والثانى أن يكون رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى لما شرع له صلى الله عليه وسلم طريقته فى الاخلاص والابتهال فى جميع الامور الى الله تعالى صار ذلك لطفا داعيا له ولامته الى تلك الطريقة فكان زكريا رحمة ويحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التى يرحم بها عبده زكريا (اذ نادى ربه نداء) مشتملا على دعاء (خفيا) أى سرا جوف الليل لانه أسرع الى الاجابة وان كان الجهر والاخفاء عند الله سيان وقيل أخفاه لئلا يلام على طلب الولد فى زمن الشيخوخة وقيل أسره من مواليه الذين خافهم وقيل خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء فى صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات (فان قيل) من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيا (أجيب) بوجهين الاول أنه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت الا أن صوته كان ضعيفا لنهاية ضعفه بسبب الكبر فكان نداء نظرا الى القصد خفيا نظرا الى الواقع الثانى أنه دعا فى الصلاة لان الله تعالى أجابه فى الصلاة لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك وكون الاجابة فى الصلاة يدل على كون الدعاء فيها فيكون النداء فيها خفيا *(تنبيه)* فى ناصب اذ ثلاثة أوجه أحدها أنه ذكر ولم يذكر الحوفى غيره والثانى رحمة ولم يذكر الجلال المحلى غيره وذكر الوجهين أبو البقاء والثالث أنه بدل من زكريا بدل اشتمال لان الوقت مشتمل عليه ثم كأنه قيل ما ذلك النداء فقيل (قال رب) بحذف الاداة للدلالة على غاية القرب (انى وهن) أى ضعف جدا (العظم منى) أى هذا الجنس الذى هو أقوى ما فى بدنى ولو جمع لاوهم أنه وهن مجموع عظامه لا جميعها وقوله (واشتعل الرأس) أى منى (شيبا) تمييز محول عن الفاعل أى انتشر الشيب فى شعره كما ينتشر شعاع النار فى الحطب وانى أريد أن أدعوك (ولم أكن بدعائك) أى بدعائى اياك (رب شقيا) أى خائبا فيما مضى فلا تخيبنى فيما يأتى وان كان ما أدعو به فى غاية البعد فى العادة لكنك فعلت مع أبى ابراهيم مثله فهو دعاء وشكر واستعطاف ثم عطف على قوله انى وهن قوله (وانى خفت الموالى) أى الذين يلوننى فى النسب كبنى العم أن يسيؤا الخلافة (من ورائى) أى فى بعض الزمان الذى بعدى (وكانت

امرأتي عاقرا) لاتلد أصلا بما دل عليه فعل الكون (فهب لي) أي فتسبب عن شيخوختي وضعفي وتعويدك لي بالاجابة وخوفي من سوء خلافة أقاربي ويأسي عن الولد عادة بعقم امرأتي وبلوغي من الكبر حدا الاحرالذي معه أني أقول لك يا قادر على كل شئ هب لي (من لدنك) أي من الامور المستبطنة المستغربة التي عندك لم تجرها على مناهج العادات والاسباب المطردات (وليا) أي ابنا من صلبي (يرثني) في جميع ما أنا فيه من العلم والنبوة والعمل (ويرث) زيادة على ذلك (من آل يعقوب) جزأ مما خصصتهم به من المنح وفضلتهم به من النعم ومحاسن الاخلاق ومعالي الشيم فان الانبياء لايورثون المال وقيل يرثني الحبورة أي العلم بتحبير الكلام وتحسينه فانه كان حبرا هو بالفتح والكسر وهو أفصح يقال للعالم بتحبير الكلام وتحسينه وهو يعقوب ابن اسحق عليهما السلام وقيل يرثني العلم ويرث من آل يعقوب النبوة ولفظ الارث يستعمل في المال وفي العلم والنبوة أما في المال فلقوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأما في النبوة فلقوله تعالى وأورثنا بني اسرائيل الكتاب الآية وقال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء ولان الانبياء لم يورثوا دينارا ولادرهما وانما يورثون العلم وخص اسم يعقوب اقتداء به نفسه اذ قال ليوسف عليه السلام ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ولان اسرائيل قد صار علما على الاسباط كلهم وكانت قد غلبت عليهم الاحداث وقرأ أبو عمرو والكسائي بجزم الثاء المثلثة فيهما على أنهما جواب الامر اذ تقديرهما ان تهب يرث والباقون بالضم فيهما على أنهما صفة (واعترض) بأن زكريا دعا الله تعالى أن يهبه ولدا يرثه مع أن يحيى قتل قبله فلم يجبه الى ارثه منه (وأجيب) بأن اجابة دعاء الانبياء غالبة لالازمة فقد يتخلف لقضاء الله تعالى بخلافه كما في دعاء ابراهيم عليه السلام في حق أبيه وكما في دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في قوله وسألته أن لايذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها ولما كان من قضاء الله تعالى وقدره أن يوجد يحيى نبيا صالحا ثم يقتل استجيب دعاء زكريا في ايجاده دون ارثه * ولما ختم دعاءه بقوله (واجعله رب) أي أيها المحسن الي (رضيا) أي مرضيا عندك أجابه الله تعالى بقوله تعالى (يا زكريا انا نبشرك بغلام) يرث كما سألت (اسمه يحيى) وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة وكذلك في آخر السورة *(تنبيه)* يحيى اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة وقيل منقول من الفعل المضارع كما سموا بيعمر وانما تولى تعالى تسميته تشريفا له قال تعالى (لم نجعل له من قبل سميا) أي مسمى بيحيى قال قتادة والكلبي لم يسم أحد قبله بيحيى *(تنبيه)* سميا مأخوذ من السمو وفيه دلالة لقول البصريين ان الاسم من السمو ولو كان من الوسم لقيل وسيما وقال سعيد ابن جبير وعطاء لم نجعل له شبها ومثلا كما قال تعالى هل تعلم له سميا أي مثلا والمعنى انه لم يكن له مثل لانه لم يعص ولم يهم بمعصية قط ورد هذا لان هذا يقتضي تفضيله على الانبياء قبله كابراهيم وموسى وليس كذلك وقيل لم يكن له ميل الى أمر النساء لانه كان سيدا وحصورا وعن ابن عباس لم تلد العواقر مثله ولدا ثم كأنه قيل فما قال في جواب هذه البشارة العظيمة فقيل (قال) عالما

بصدقهما طالبا لتأكيدها وللتلذذ بترديدها وهل ذلك من امرأته أو من غيرها وهل اذا كان منهما يكونان على حالتهما من الكبر أو غيرها غير طائش ولا عجل (رب) أيها المحسن الى باجابة الدعاء دائما (أنى) أى من أين وكيف وعلى أى حال (يكون لى غلام) يولد لى فى غاية القوة والنشاط والكمال فى الذكورة (وكانت) أى والحال أنه كانت (امرأتى) اذ كانت شابة (عاقرا) غير قابلة للولد وأنا وهى شابان فلم يأتنا ولد لاختلال أحد السببين فكيف بها وقد أيست قال الجلال المحلى بلغت ثمانيا وتسعين سنة (وقد بلغت) انا (من الكبر عتيا) من عتا يبس أى نهاية السن قال الجلال المحلى مائة وعشرين سنة وعظمى رق وبطء ما قيل لم تعجب زكريا عليه السلام بقوله أنى يكون لى غلام مع أنه هو الذى طلب الغلام وقرأ حفص وحمزة والكسائى عتيا وصليا وجثيا بكسر عين الاول وصاد الثانى وجيم الثالث وضم الباقون وأما بكيا فكسر الباء الموحدة حمزة والكسائى وضمها الباقون وأصل عتى عتوو كسرت التاء تخفيفا وقلبت الواو الاولى ياء لمناسبة الكسرة والثانية ياء لتدغم فيها وانما استعجب للولد من شيخ فان وعجوز عاقر اعترافا بأن المؤثر فيه كامل القدرة وأن الوسايط عند المحققين ملغاة ولذلك (قال) أى الله تعالى كما قال الاكثرون لان زكريا انما كان يخاطب الله ويسأله بقوله رب انى وهن العظم منى أو الملك المبلغ للبشارة تصديقا له لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى وأيضا فانه لما قال وقد بلغت من الكبر عتيا قال (كذلك) أى الامر كذلك فهو خبر مبتدا محذوف ثم علله بقوله (قال ربك) أى الذى عودك بالاحسان فدل ذلك على أنه كلام الملك قال ابن عادل ويمكن أن يجاب بأنه يحتمل أن يحصل النداآن نداء الله تعالى ونداء الملك ثم ذكر مقول القول فقال (هو) أى خلق يحيى منكما على هذه الحالة (على) أى خاصة (هين) أى بأن أرد عليك قوة الجماع وافتق رحم امرأتك للعلوق (وقد خلقتك) أى قدرتك وصورتك وأوجدتك (من قبل ولم) أى والحال أنك لم (تك شيأ) بل كنت معدوما صرفا وفيه دليل على أن المعدوم ليس بشئ ولاظهار الله تعالى هذه القدرة العظيمة ألهمه السؤال ليجاب بما يدل عليها وقرأ حمزة والكسائى بعد القاف بنون بعدها ألف والباقون بعد القاف بتاء مضمومة * ولما تاقت نفسه الى سرعة المبشر به (قال رب اجعل لى) على ذلك (آية) أى علامة تدلنى على وقوعه (قال آيتك) على وقوع ذلك (أن لا تكلم الناس) أى لا تقدر على كلامهم بخلاف ذكر الله تعالى (ثلاث ليال) أى بأيامها كما فى آل عمران ثلاثة أيام حال كونك (سويا) من غير خرس ولا مرض وجعلت الآية الدالة عليه سكوت ثلاثة أيام ولياليهن من غير ذكر الله دلالة على اخلاصه وانقطاعه بكليته الى الله تعالى دون غيره (فخرج) عقب اعلام الله تعالى له بهذا (على قومه من المحراب) أى من المسجد وهم ينتظرونه أن يفتح لهم الباب متغيرا لونه فأنكروه وهو منطلق اللسان بذكر الله تعالى منحبسه عن كلام الناس فقالوا ما لك يا نبى الله (فأوحى اليهم) أى أشار بشفتيه من غير نطق وقال مجاهد كتب لهم فى الارض (أن سبحوا) أى أوجدوا التنزيه والتقديس لله تعالى بالصلاة وغيرها (بكرة وعشيا) أى أوائل النهار وأواخره على العادة فعلم بمنعه من كلامهم حمل امرأته

يحيى قال الجلال المحلي وبعد ولادته بسنين قال الله تعالى له (يا يحيى خذ الكتاب) أى التوراة (بقوة) أى بجد ثم ان الله تعالى وصفه بصفات الاولى قوله تعالى (وآتيناه الحكم) قال ابن عباس النبوة (صبيا) قال الجلال المحلي تبعا للبغوى ابن ثلاث سنين أى أحكم الله عقله فى صباه واستنبأه وقيل المراد بالحكم الحكمة وفهم التوراة فقرأ التوراة وهو صغير قال البغوى وعن بعض السلف من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتى الحكم صبيا * الصفة الثانية قوله تعالى (وحنانا) أى وآتيناه رحمة وهيبة ووقارا ورقة قلب ورزقا وبركة (من لدنا) أى من عندنا بلا واسطة تعليم ولا تجربة * الصفة الثالثة قوله تعالى (وزكاة) أى وآتيناه طهارة فى دينه قال ابن عباس يعنى بالزكاة الطاعة والاخلاص وقال قتادة هى العمل الصالح وقال الكلبي يعنى صدقة تصدق الله بها على أبويه * الصفة الرابعة قوله تعالى (وكان) أى جبلة وطبعا (تقيا) أى مخلصا مطيعا روى أنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها * الصفة الخامسة قوله تعالى (وبرا بوالديه) أى بارا لطيفا بهما محسنا اليهما لانه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا * الصفة السادسة قوله تعالى (ولم يكن جبارا) أى متكبرا والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولان رأس العبادة معرفة الانسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به التجبر والترفع ولذلك لما تجبر ابليس وتمرد صار مبعدا عن رحمة الله تعالى وعن المؤمنين وقيل الجبار هو الذى لا يرى لاحد على نفسه حقا وهو من التعظيم والذهاب بنفسه من أنه لا يلزمه قضاء حق لاحد وقيل هو كل من عاقب على غضب نفسه * الصفة السابعة قوله تعالى (عصيا) أى عاقا أو عاصى ربه وهو أبلغ من العاصى كما أن العليم أبلغ من العالم * الصفة الثامنة قوله تعالى (وسلام عليه) منا (يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) * فان قيل لم خص هذه الاوقات الثلاثة (أجيب) بوجوه الاول قال محمد بن جرير الطبرى وسلام عليه يوم ولد أى أمان من الله تعالى عليه يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بنى آدم ويوم يموت أى أمان من الله من عذاب القبر ويوم يبعث أى ومن عذاب الله يوم القيامة الثانى قال ابن عيينة أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن يوم ولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوما ما شاهدهم قط ويوم يبعث فيرى فى محشر عظيم فاكرم الله تعالى يحيى عليه السلام فخصه بالسلام فى هذه المواطن الثالث قال عبد الله بن نفطويه وسلام عليه يوم ولد أى أول ما يرى فى الدنيا ويوم يموت أى أول يوم يرى فيه أمر الآخرة ويوم يبعث حيا أى أول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة وانما قال حيا تنبيها على كونه من الشهداء لانه قتل وقد قال تعالى أحياء عند ربهم يرزقون * (فروع) * الاول هذا السلام يمكن أن يكون من الله وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين ففيه دلالة على تشريفه لان الملائكة لا يسلمون الا عن أمر الله تعالى * الثانى ليحيى مزية فى هذا السلام على ما لسائر الانبياء

لقوله تعالى سلام على نوح سلام على ابراهيم لانه تعالى قال يوم ولد وليس كذلك سائر الانبياء الثالث روى ان عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام أنت أفضل مني لان الله تعالى قال سلام عليه وأنا سلمت على نفسي قال الرازي وهذا ليس بقوي لان سلام عيسى على نفسه يجري مجرى سلام الله تعالى على يحيى لان عيسى معصوم لا يفعل الا ما أمر الله تعالى انتهى ولكن بين السلامين مزية *(تنبيه)* هذه القصة قد ذكرت في آل عمران بقوله تعالى كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا الى أن قال هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم لان زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة في حق مريم طمع في حق نفسه فدعا وقد وقعت المخالفة في ذكرها هنا وهنالك في الالفاظ من وجوه الاول منها أن الله تعالى صرح في آل عمران بان المنادي هو الملائكة بقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب وفي هذه السورة الاكثر على ان المنادي بقوله يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى هو الله تعالى (وأجيب) بأن الله تعالى هو المبشر سواء كان بواسطة أم لا الثاني انه قال تعالى في آل عمران أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر فذكر أولا كبر سنه ثم عقر امرأته وفي هذه السورة قال أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا وأجيب بأن الواو لا تقتضي الترتيب الثالث قال في آل عمران وقد بلغني الكبر وقال هنا وقد بلغت من الكبر عتيا وأجيب بأن ما بلغك فقد بلغته الرابع قال في آل عمران آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا وقال هنا ثلاث ليال سويا وأجيب بأن الآيتين دلتا على ان المراد ثلاثة أيام بلياليهن كما مر *القصة الثانية قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام ولما كانت قصة عيسى عليه السلام أغرب من قصة يحيى لان خلق الولد من شخصين فانيين أقرب الى مناهج العادات من خلق الولد لا من أب البتة وأحسن طرق التعليم والفهم الاخذ من الاقرب فالاقرب مرتقيا الى الاصعب فالاصعب أشار الى ذلك بتغيير السياق فقال عاطفا على ما تقديره اذكر هذا لهم (واذكر) بلفظ الامر (في الكتاب) أي القرآن (مريم) أي قصتها وهي ابنة عمران خالة يحيى كما في الصحيح من حديث أنس بن مالك بن صعصعة الانصاري في حديث الاسراء فلما خلصت فاذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة ثم أبدل من مريم بدل اشتمال فقال (اذ) أي اذكر ما اتفق لها حين (انتبذت) أي كلفت نفسها أن اعتزلت وانفردت (من أهلها) حالة (مكانا شرقيا) أي شرقي بيت المقدس وقال الرازي شرقي دارها وعن ابن عباس اني لاعلم خلق الله تعالى لاي شئ اتخذت النصارى الشرق قبلة لقوله تعالى مكانا شرقيا فاتخذت ميلاد عيسى قبلة واقتصر الجلال المحلي على الشرق من الدار وتردد البيضاوي بينهما فقال شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها انتهى ويحتمل أن يكون شرقي بيت المقدس هو شرقي دارها فلا مخالفة (فاتخذت) أي اخذت بقصد وتكلف ودل على قرب المكان بالاتيان بالجار فقال (من دونهم) أي أدنى مكان من مكانهم (حجابا) أي أرسلت سترا تستتر به لغرض صحيح وليس بمذكور واختلف المفسرون فيه على وجوه أحدها

أنها طلبت الخلوة كيلا تشتغل عن العبادة ثانيها أنها عطشت فخرجت الى المفازة تستقي ثالثها أنها كانت في منزل زوج أختها زكريا وفيه محراب على حدة تسكنه وكان زكريا اذا خرج أغلق عليها الباب فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها وثوبها فانفجرت لها الشمس فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك كما قال تعالى (فأرسلنا) لامر يدل على عظمتنا (اليها روحنا) أي جبريل عليه السلام ليعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب لئلا يشتبه عليها الامر فتقتل نفسها غما (فتمثل لها) أي تشبح بشين معجمة ثم باء موحدة ثم حاء مهملة وهو روحاني بصورة الجسماني (بشرا سويا) في خلقه حسن الشكل رابعها أنها قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض متحجبة بشيء يسترها وكانت تحول من المسجد الى بيت خالتها اذا حاضت وتعود اليه اذا طهرت فبينما هي في مغتسلها أتاها جبريل بعد لبسها ثيابها متمثلا بصورة شاب أمرد سوي الخلق تستأنس بكلامه اذ لو أتاها في الصورة الملكية لنفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه قال البيضاوي ولعله لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها أي مع أمنها الفتنة لعفتها قال الرازي وكل هذه الوجوه محتملة وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها * ولما رأت مريم جبريل نحوها (قالت اني أعوذ) أي أعتصم (بالرحمن) ربي الذي رحمته عامة لجميع خلقه (منك) أي أن تقربني وفتح ياء اني نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المد ولما تفرست فيه بما أنار الله تعالى من بصيرتها وأصفى من سريرتها التقوى قالت (ان كنت تقيا) أي مؤمنا مطيعا وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فاني عائذة منك أو نحو ذلك دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها (فان قيل) انما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت ان كنت تقيا (أجيب) بأن هذا كقول القائل ان كنت مؤمنا فلا تظلمني أي ينبغي أن يكون ايمانك مانعا لك من الظلم كذلك هنا ينبغي أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور وهذا في نهاية الحسن لانها علمت أنها لا تؤثر الاستعاذة الا في التقي وهو كقوله تعالى وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين أي ان شرط الايمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال وقيل كان في ذلك الزمان انسان فاجر يتبع النساء اسمه تقي فظنت مريم ان ذلك الشخص المشاهد هو ذلك فاستعاذت منه قال الرازي والاول هو الوجه * ولما علم جبريل عليه السلام خوفها (قال) مجيبا لها بما معناه اني لست ممن تخشين أن يكون منه ما مؤكدا لاجل استعاذتها (انما أنا رسول ربك) أي الذي عذت به فأنا لست متهما بل متصف بما ذكرت وزيادة الرسالة وعبر باسم الرب المقتضي للاحسان لطفا بها ولان هذه السورة مصدرة بالرحمة ومن أعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباده وقوله (ليهب لك) قرأ ورش وأبو عمرو وقالون بخلاف عنه بالياء أي ليهب الله تعالى لك وقرأ الباقون بالهمز أي لاهب أنا لك وفي مجازه وجهان الاول أن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذي ينفخ في جيبها بأمر الله تعالى جعل نفسه كأنه هو الذي وهب لها واضافة الفعل الى من هو سبب مستعمل قال الله تعالى في الاصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس الثاني أن جبريل عليه السلام لما

بشرها بذلك كانت البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة * ثم بين الموهوب بقوله (غلاما) أى ولدا ذكرا فى غاية القوة والرجولية ثم وصفه بقوله (زكيا) أى نبيا طاهرا من كل مايدنس البشر ناميا على الخير والبركة (قالت) مريم (أنى) أى من أين وكيف (يكون لى غلام) ألده (ولم يمسسنى بشر) بنكاح (ولم أك بغيا) أى زانية فتعجبت مما بشرها به جبريل عليه السلام لانها قد عرفت بالعادة أن الولادة لاتكون الامن رجل والعادة عند أهل المعرفة معتبرة فى الامور وان جوزوا خلاف ذلك فى القدرة فليس فى قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد ولانها كانت منفردة للعبادة ومن يكون كذلك لابد أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك وبما تقرر سقط ماقيل قولها ولم يمسسنى بشر يدخل تحته قولها ولم أك بغيا ولهذا اقتصر عليه فى سورة آل عمران بقولها قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر فلم تذكر البغى ويجوز أن يقال انها أفردت ذكر البغى مع دخوله فى الكلام الاول لانه أعظم مافى بابه فهو نظير قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال (قال) لها جبريل عليه السلام الامر (كذلك) من خلق غلام منك بغير أب * ولما كان لسان الحال قائلا كيف يكون بغير سبب أجاب جبريل بقوله (قال ربك هو) أى المذكور وهو ايجاد الولد على هذه الهيئة (على) وحدى لايقدر عليه غيرى (هين) أى بأن ينفخ بأمرى جبريل فيك فتحملى به ولكون ماذكر فى معنى العلة عطف عليه (ولنجعله) بمالنا من العظمة (آية للناس) أى علامة على كمال قدرتنا على البعث أدل من الآية فى يحيى عليه السلام وبه تمام القسمة الرباعية فى خلق البشر فانه أوجده من أنثى بلا ذكر وحواء من ذكر بلا أنثى وآدم عليه السلام لامن ذكر ولا أنثى وبقية أولاده من ذكر وأنثى معا (ورحمة منا) على العباد يهتدون به (وكان) ذلك كله (أمرا مقضيا) به فى علمى وقوله تعالى (فحملته) فيه حذف تقديره فنفخنا فيها فحملته دل على ذلك قوله تعالى فى سورة التحريم ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا واختلف فى النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لهذه الآية ولانه تعالى قال ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ومقتضى التشبيه حصول المشابهة الا فيما أخرجه الدليل وفى حق آدم النافخ هو الله تعالى قال تعالى فنفخت فيه من روحى فكذا ههنا وقال بعضهم النافخ جبريل لان الظاهر من قول جبريل عليه السلام لاهب لك على أحد القراءتين أنه النافخ واختلف فى كيفية نفخه فقيل ان جبريل عليه السلام رفع درعها فنفخ فى جيبها فحملت حين لبسته وقيل مد الى جيب درعها أصابعه ونفخ فى الجيب وقيل نفخ فى كم قميصها وقيل فى فيها وقيل نفخ جبريل نفخا من بعيد فوصل النفخ اليها فحملت بعيسى فى الحال وقيل نفخ فى ذيلها فدخلت النفخة فى صدرها فحملت فجاءت أختها امرأة زكريا تزورها فلما التزمتها عرفت أنها حبلى وذكرت مريم حالها فقالت امرأة زكريا انى وجدت مافى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله وقيل حملت وهى بنت ثلاث عشرة سنة وقيل بنت عشرين وقد

كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل قال الرازي وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الاقوال المذكورة * ثم عقب بالحمل قوله (فانتبذت به) أي فاعتزلت به وهو في بطنها حالة (مكانا قصيا) أي بعيدا من أهلها أو من المكان الشرقي وأشار الى قرب الولادة من الحمل بفاء التعقيب في قوله (فأجاءها) أي فأتى بها وألجأها (المخاض) وهو تحرك الولد في بطنها للولادة (الى جذع النخلة) وهو ما برز منها من الارض ولم يبلغ الاغصان وكان تعريفها لانه لم يكن في تلك البلاد الباردة غيرها فكانت كالعلم لما فيها من العجب لان النخل من أقل الاشجار صبرا على البرد ولعلها ألجئت اليها دون غيرها من الاشجار على كثرتها المناسبة حال النخلة لها لانها لا تحمل الا باللقاح من ذكر النخل فحملها بمجرد هزها أنسب شيء باتيانها بولد من غير والد فكيف اذا كان ذلك في غير وقته وكانت يابسة مع ما لها فيها من المنافع بالاستناد اليها والاعتماد عليها وكون رطبها خرسة للنفساء وغاية في نفعها وغير ذلك والخرسة بخاء معجمة مضمومة طعام النفساء وهو مراد الجوهري بقوله طعام الولادة قال ابن عباس الحمل والولادة في ساعة واحدة وقيل ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها وقيل كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر النساء وقيل كانت مدة حملها ثمانية أشهر وذلك آية أخرى له لانه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدة وعاش وقيل ولد لستة أشهر * ولما كان ذلك أمرا صعبا عليها جدا كان كأنه قيل ياليت شعري ما كان حالها فقيل (قالت) لما حصل عندها من خوف العار (ياليتني مت) وأشارت الى استغراق الزمان بالموت بمعنى عدم الوجود فقالت من غير جار (قبل هذا) أي الامر العظيم وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي مت بكسر الميم والباقون بالضم (وكنت نسيا) أي شيئا من شأنه أن يطرح وينسى (منسيا) أي متروكا بالفعل لا يخطر على بال (فان قيل) لم قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ان الله تعالى بعث جبريل عليه السلام اليها ووعدها بأن يجعلها وولدها آية للعالمين (أجيب) عن ذلك بأجوبة الاول أنها تمنت ذلك استحياء من الناس فأنساها الاستحياء بشارة الملائكة بعيسى الثاني أن عادة الصالحين اذا وقعوا في بلاء أن يقولوا ذلك كما روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه نظر الى طائر على شجرة فقال طوبى لك ياطائر تقع على الشجر وتأكل من الثمر وددت أني ثمرة ينقرها الطائر وعن عمر رضي الله عنه أنه أخذ تبنة من الارض فقال ياليتني هذه التبنة ولم أكن شيئا وعن علي رضي الله عنه يوم الجمل ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة وعن بلال ليت بلالا لم تلده أمه فثبت ان هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الامر عليهم الثالث لعلها قالت ذلك لئلا يقع في المعصية من يتكلم فيها والا فهي راضية بما بشرت به وقرأ حفص وحمزة نسيا بفتح النون والباقون بالكسر وقوله تعالى (فناداها من تحتها) قرأه نافع وحفص وحمزة بكسر من وجر التاء من تحتها والباقون بفتح من ونصب تحتها وأمال ألف ناداها حمزة والكسائي امالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وفي المنادي أوجه أحدها أنه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير ثانيها أنه جبريل عليه

السلام

السلام وأنه كالقابلة للولد ثالثها ان المنادى على القراءة بالفتح هو عيسى وعلى القراءة بالكسر هو جبريل وهو مروى عن ابن عيينة وعاصم قال الرازى والاول أقرب وصدر به البيضاوى واقتصر الجلال المحلى على الثانى والمعنى على الاول أن الله تعالى أنطقه لها حين ولدته تطييبا لقلبها وازالة للوحشة عنها حتى تشاهد فى أول الامر مابشرها به جبريل من علو شأن ذلك الولد وعلى الثانى ان الله تعالى أرسله اليها ليناديها بهذه الكلمات كما أرسل اليها فى أول الامر تذكيرا للبشارات المتقدمة والضمير فى تحتها للسيدة مريم وعلى تقدير أن يكون المنادى هو عيسى فهو ظاهر وان كان جبريل فقيل انه كان تحتها يقبل الولد كالقابلة وقيل تحتها أسفل من مكانها وقيل الضمير فيه للنخلة أى ناداها من تحتها (أن لا تحزنى) يجوز فى أن أن تكون مفسرة لتقدمها ماهو بمعنى القول ولا على هذا ناهية وحذف النون للجزم وأن تكون الناصبة ولا حينئذ نافية وحذف النون للنصب ومحل أن اما نصب أو جر لانها على حذف حرف الجر أى فناداها بكذا (قد جعل ربك) أى المحسن اليك (تحتك) فى هذه الارض التى لا ماء جار فيها (سريا) أى جدولا من الماء تطيب به نفسك قال الرازى اتفق المفسرون الا الحسن وعبد الرحمن بن زيد أن السرى هو النهر والجدول سمى بذلك لان الماء يسرى فيه وأما الحسن وابن زيد فانهما جعلا السرى هو عيسى والسرى هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات قومه أى أشرافهم واحتج من قال هو النهر بأن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن السرى فقال هو الجدول وبقوله تعالى فكلى واشربى فدل على أنه النهر حتى يضاف الماء الى الرطب فتأكل وتشرب واحتج من قال انه عيسى بأن النهر لا يكون تحتها بل الى جنبها ولا يجوز أن يجاب عنه بأن المراد انه جعل النهر تحت أمرها يجرى بأمرها ويقف بأمرها كقول فرعون وهذه الانهار تجرى من تحتى لان هذا حمل للفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى لم يحتج الى هذا المجاز وأيضا فانه موافق لقوله وجعلنا ابن مريم وأمه آية (وأجيب) بأن المكان المستوى اذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان تحت *(تنبيه)* اذا قيل بأن السرى هو النهر ففيه وجهان الاول قال ابن عباس ان جبريل ضرب برجله الارض وقيل عيسى فظهر عين ماء عذب وجرى وقيل كان هناك ماء جار قال ابن عادل والاول أقرب لان قوله قد جعل ربك تحتك سريا يدل على الحدوث فى ذلك الوقت ولان الله تعالى ذكره تعظيما لشأنها وقيل كان هناك نهر يابس أجرى الله فيه الماء وحييت النخلة اليابسة وأورقت وأثمرت وأرطبت قال أبو عبيدة والفراء السرى هو النهر مطلقا وقال الاخفش هو النهر الصغير (وهزى اليك) أى أوقعى الهز وهو جذب بتحريك (بجذع النخلة) أى التى أنت تحتها مع يبسها وكون الوقت ليس وقت حملها (تساقط عليك) من أعلاها (رطبا جنيا) طريا آية أخرى عظيمة روى أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء فهزتها فجعل الله تعالى لها رأسا وخوصا ورطبا وقرأ حمزة بفتح التاء والسين مخففة وفتح القاف وحفص بضم التاء وفتح السين مخففة وكسر القاف والباقون بفتح التاء

وتشديد السين مفتوحة وفتح القاف * (تنبيه) * الباء في بجذع زائدة والمعنى هزى اليك جذع النخلة كما في قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم قال الفراء تقول العرب هزه وهزبه وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وبفلانة وقال الاخفش يجوز أن يكون على معنى هزى اليك رطبا بجذع النخلة أى على جذعها ورطبا تمييز وجنيا صفته والرطب اسم جنس لرطبة بخلاف تخم فانه جمع لتخمة والفرق أنهم التزموا تذكيره فقالوا هو الرطب وتأنيث ذلك فقالوا هى التخم فذكروا الرطب باعتبار الجنس وأنثوا التخم باعتبار الجمعية قال ابن عادل وهو فرق لطيف والرطب ما قطع قبل يبسه وجفافه وخص الرطب بالذكر قال الربيع بن خيثم ما للنفساء عندى خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل وهذه الافعال الخارقة للعادة كرامات لمريم او ارهاص لعيسى وفى ذلك تنبيه على أن من قدر أن يثمر النخلة اليابسة فى الشتاء قدر أن يحبلها من غير فحل وتطييب لنفسها فلذلك قال (فكلى) أى من الرطب (واشربى) من السرى أو كلى من الرطب واشربى من عصيره (وقرى عينا) أى وطيبى نفسك وارفضى عنها ما أحزنها وقدم الاكل على الشرب لان حاجة النفساء الى الرطب أشد من احتياجها الى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدم (فان قيل) ان مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش لان الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن روى أنه أجيعت شاة فقدم اليها علف وعندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها خوفا من الذئب ثم كسر رجلها وقدم اليها العلف فتناولت العلف مع ألم البدن فدل ذلك على أن ألم الخوف أشد من ألم البدن واذا كان كذلك فلم قدم ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف (أجيب) بأن هذا الخوف كان قليلا لان بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج الا الى التذكير مرة أخرى وقيل قرى عينا بولدك عيسى وقيل بالنوم فان المهموم لا ينام وقوله (فاما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة (ترين) حذفت منه لام الفعل وعينه وألقيت حركتها على الراء وكسرت ياء الضمير لالتقاء الساكنين (من البشر أحدا) ينكر عليك (فقولى) يا مريم لذلك المنكر جوابا له مع التأكيد تنبيها على البراءة لان البرىء يكون ساكنا لاطمئنانه والمرتاب يكثر كلامه وحلفه (انى نذرت للرحمن) أى الذى عمت رحمته (صوما) أى أى امساكا عن الكلام فى شأنه وغيره مع الاناسى بدليل (فلن أكلم اليوم انسيا) فان كلامى يقبل الرد والمجادلة ولكن يتكلم عنى المولود الذى كلامه لا يقبل الدفع وأما أنا فأنزه نفسى عن مجادلة السفهاء قالوا ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها فلا أكلم الا الملائكة أو الخالق بالتسبيح والتقديس وسائر أنواع الذكر وقيل صياما لانهم كانوا لا يتكلمون فى صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالا على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزا فى شرعهم وهل يجوز مثل هذا النذر فى شرعنا قال القفال لعله يجوز لان الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر بذكر الله تعالى قربة ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام فى الشمس وروى أنه دخل أبو بكر رضي الله عنه على امرأة قد نذرت أنها لا تتكلم فقال

أبو بكر ان الاسلام قد هدم هذا فتكلمي * (تنبيه) * اختلفوا في أنها هل قالت لهم اني نذرت للرحمن صوما فقال قوم انها ما تكلمت معهم بذلك لانها كانت مأمورة بأنها تأتي بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة ولكنها سكتت وأشارت برأسها وقال آخرون انها ما نذرت في الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم أنها نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا بعد هذا الكلام (فأتت) أي فلما سمعت هذا الكلام اشتد قلبها وزال حزنها فأتت (به) أي عيسى (قومها) وان كان فيهم قوة المحاولة لكل ما يريدون اتيانه البريء الموقن بأن الله معه حالة كونها (تحمله) غير مبالية بأحد ولا مستحيية واختلفوا في أنها كيف أتت به فقيل ولدته ثم حملته في الحال الى قومها وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها الى غار ومكثت فيه أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته الى قومها فكلمها في الطريق فقال يا أماه أبشري فاني عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين قال الرازي وليس في القرآن ما يدل على التعيين ثم كأنه قيل فلما أتت به قومها ماذا قالوا لها فقيل (قالوا يا مريم) ما هذا الولد لان حالها في اتيانها به أمر عجيب (لقد جئت شيأ فريا) أي عظيما منكرا فيكون ذلك منهم على وجه الذم فهو من أفرى الجلد يقال أفريت الاديم اذا قطعته على جهة الافساد لا من فريته يقال فريته قطعته على جهة الاصلاح ويدل على أن مرادهم الاول قولهم بعده (يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء) أي زانيا (وما كانت أمك بغيا) أي زانية فمن أين لك هذا الولد لان هذا القول ظاهره التوبيخ وفي هرون هذا أربعة أقوال أحدها أنه رجل صالح من بني اسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح والمراد أنك كنت في الزهد كهرون فكيف صرت هكذا وروى أن هرون هذا لما مات تبع جنازته أربعون ألفا كلهم يسمى هرون من بني اسرائيل تبركا باسمه سوى سائر الناس شبهوها به على معنى انا ظننا أنك مثله في الصلاح وليس المراد منه الاخوة في النسب كقوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وروى المغيرة بن شعبة قال لما قدمت نجران سألوني فقالوا انكم تقرؤن يا أخت هرون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال انهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم قال ابن كثير وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهرون نسبا فان بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على من عنده أدنى علم وكأنه غره في أول التوراة ان مريم أخت موسى وهرون ضربت بالدف يوم نجى الله تعالى موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه وجنوده فاعتقد أن هذه هي تلك وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح المتقدم الثاني أنه هرون أخو موسى لانها كانت من نسله كما يقال للتميمي يا أخا تميم وللهمداني يا أخا همدان أي يا واحدا منهم الثالث انه كان فاسقا في بني اسرائيل فنسبت اليه أي شبهوها به الرابع انه كان لها أخ من أبيها يسمى هرون من صلحاء بني اسرائيل فعيرت به قال الرازي وهذا هو الاقرب لوجهين الاول ان الاصل في الكلام الحقيقة فيحمل الكلام على أخيها المسمى بهرون الثاني انها

أضيفت اليه ووصف أبواها بالصلاح فحينئذ يصير التوبيخ أشد لان من كان حال أبويه وأخيه بهذا الحال يكون صدور الذنب منه أفحش (فأشارت اليه) أى لما بالغوا فى توبيخها سكتت وأشارت الى عيسى عليه السلام انه هو الذى يجيبكم قال ابن مسعود لما لم يكن لها حجة أشارت اليه ليكون كلامه حجة لها وعن السدى لما أشارت اليه غضبوا وقالوا سخريتها بنا أشد من زناها ثم (قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) لم يبلغ سن هذا الكلام الذى لا يقوله الا الاكابر العقلاء بل الانبياء والتعبير بكان يدل على أنه عند الاشارة اليه لم يوجههم الا أن يكلموه بل حين سمع المحاورة ورأى الاشارة بدا منه قول خارق لعادة الرضعاء بل الصبيان روى انه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته يمينه وقيل كلمهم ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان * (تنبيه) * فى كان هذه أقوال أحدها انها زائدة وهو قول أبى عبيد أى كيف نكلم من فى المهد وصبيا على هذا نصب على الحال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور الواقع صلة ثانيها أنها تامة بمعنى حدث ووجد والتقدير كيف نكلم من وجد صبيا وصبيا حال من الضمير فى كان قال الرازى وهذا هو الاقرب الثالث انها بمعنى صار أى كيف نكلم من صار فى المهد صبيا وصبيا على هذا خبرها (فان قيل) كيف عرفت مريم من حال عيسى انه يتكلم (أجيب) بأن جبريل أو عيسى عليه السلام لما ناداها من تحتها أن لا تحزنى وأمرها عند رؤية الناس بالسكوت صار ذلك كالتنبيه لها على أن المجيب هو عيسى عليه السلام أو لعلها عرفت ذلك بالوحى الى زكريا أو اليها على سبيل الكرامة واختلفوا فى المهد فقيل هو حجرها لما روى أنها أخذته عليه السلام فى خرقة فأتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ما قالوا فأشارت اليه وهو فى حجرها ولم يكن لها منزل بعد حتى يعد لها المهد وقيل هو المهد بعينه والمعنى كيف نكلم صبيا سبيله أن ينام فى المهد وقال وهب أتى زكريا مريم عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى انطق بحجتك ان كنت أمرت بها فوصف نفسه بثمان صفات * الصفة الاولى (قال انى عبد الله) أى الملك الاعظم الذى له صفات الكمال لا أتعبد لغيره وفى ذلك اشارة الى أن عبد الله لا يتخذ الها من دونه ولا يستعبده شيطان ولا هوى * الصفة الثانية قوله تعالى (آتانى الكتاب) واختلف فى ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لان الالف واللام فى الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة وقال أبو مسلم هو الانجيل لان الالف واللام ههنا للجنس وقال قوم التوراة والانجيل لان الالف واللام تفيد الاستغراق (٣) واقتصر البيضاوى على الاول والبقاعى على الثالث وزاد عليه والزبور وغيرها من الصحف الصفة الثالثة قوله (وجعلنى نبيا) واختلف فى معنى ذلك فقيل معناه سيؤتينى الكتاب ويجعلنى نبيا وأتى بلفظ الماضى بجعل المحقق وقوعه كالواقع كما فى قوله تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه وقيل هو اخبار عما كتب فى اللوح المحفوظ كما قيل للنبى صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا قال كنت وآدم بين الروح والجسد وقال الاكثرون أوتى الانجيل وهو صغير طفل وكان يعقل عقل الرجال وقال الحسن ألهم التوراة وهو فى بطن أمه * الصفة الرابعة قوله (وجعلنى مباركا) بأنواع البركات

(٣) قوله واقتصر البيضاوى على الاول الذى فى البيضاوى تفسير الكتاب بالانجيل وهو الثانى هنا فلعل مراده بالاول بجعل أل للجنس ا ه

(أينما)

(أينما) أي في أي مكان (كنت) وذكروا في تفسير المبارك وجوها أحدها ان البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير ومعناه وجعلني ثابتا على دين الله تعالى مستمرا عليه ثانيها انما كان مباركا لانه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم الى طريق الحق فان ضلوا فمن قبل أنفسهم لا من قبله روى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سلمت أم عيسى عيسى الى الكتاب فقالت للمعلم أدفعه اليك على أن لا تضربه فقال له المعلم اكتب فقال أي شئ أكتب فقال اكتب أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال هل تدري ما أبجد فعلاه بالدرة ليضربه فقال يا مؤدب لا تضربني ان كنت لا تدري فاسألني فاني أعلمك الالف من آلاء الله والباء من بهائه والجيم من جماله والدال من أداء الحق الى الله تعالى ثالثها البركة الزيادة والعلو فكأنه قال جعلني في جميع الاحوال منجحا مفلحا لاني مادمت أبقى في الدنيا أكون مستعليا على الغير بالحجة فاذا جاء الوقت المعلوم أكرمني الله تعالى بالرفع الى السماء رابعها مباركا على الناس من حيث يحصل بسبب دعائه احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وعن قتادة أن امرأة رأته وهو يحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص فقالت طوبى لبطن حملك وثدي أرضعت به فقال عيسى مجيبا لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جبارا شقيا * (تنبيه) * قوله أينما كنت يدل على ان حاله لم يتغير كما قيل انه عاد الى حال الصغر وزوال التكليف الصفة الخامسة قوله (وأوصاني بالصلاة) له طهرة للنفس (والزكاة) طهرة للمال فعلا في نفسي وأمر الغيري (مادمت حيا) ليكون ذلك حجة على من ادعى أنه اله لانه لا شبهة في أن من يصلي الى اله ليس باله (فان قيل) كيف يؤمر بالصلاة والزكاة مع أنه كان طفلا والقلم مرفوع عن الصغير لقوله صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث الحديث (أجيب) بوجهين الاول أن ذلك لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل بعد البلوغ فيكون المعنى أوصاني بأدائهما في وقت وجوبهما علي وهو وقت البلوغ الثاني أن عيسى لما انفصل صيره الله بالغا عاقلا تام الخلقة ويدل عليه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم فكما أنه تعالى خلق آدم تاما كاملا دفعة فكذا القول في عيسى عليه السلام قال الرازي وهذا أقرب الى ظاهر اللفظ لقوله مادمت حيا فهذا يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه في جميع زمان حياته (فان قيل) لو كان الامر كذلك لكان القوم حين رأوه رأوا شخصا كامل الاعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجبا فكان ينبغي أن لا يتعجبوا (أجيب) بأنه تعالى جعله مع صغر جثته قوي التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان في الارض وحين رفع الى السماء وحين ينزل * الصفة السادسة قوله (وبرا) أي وجعلني بارا * ولما كان السياق لبراءة والدته قال (بوالدتي) أي التي أكرمها الله تعالى باحصان الفرج والحمل بي من غير ذكر وفي ذلك اشارة الى تنزيه أمه عن الزنا اذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأمورا بتعظيمها الصفة السابعة قوله (ولم يجعلني جبارا) متعاظما (شقيا) أي عاصيا بأن أفعل فعل الجبارين بغير استحقاق انما أفعل ذلك بمن يستحق وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال قلبي لين واني ضعيف في نفسي وعن بعض العلماء

لا أجد العاق الا جبارا شقيا ولا اجد سيئ الملكة الا مختالا فخورا وتلا وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا الصفة الثامنة قوله (والسلام) من الله (على) فلا يقدر أحد على ضري (يوم ولدت) فلا يضرني شيطان (ويوم أموت) فلا يضرني أيضا ومن يولد ويموت فليس بإله (ويوم أبعث حيا) يوم القيامة كما تقدم في يحيى عليه السلام وفي ذلك اشارة الى أنه في البشرية مثله سواء لم يفارقه أصلا الا في كونه من غير ذكر واذا كان جنس السلام عليه كان اتباعه كذلك ولم يبق لاعدائه الا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام والسلام على من اتبع الهدى بمعنى ان العذاب على من كذب وتولى (ذلك) أي الذي تقدم نعته بقوله اني عبد الله الى آخره هو (عيسى بن مريم) لا ما يصفه النصارى بقولهم انه الله أو ابنه أو اله ثالث فهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الابلغ والطريق البرهاني حيث جعل الموصوف باضداد ما يصفونه وفي ذلك تنصيص على أنه ابن هذه المرأة وقوله تعالى (قول الحق) قرأ عاصم وابن عامر بنصب اللام على أنه مصدر مؤكد والباقون بالرفع على أنه خبر محذوف أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة ثم عجب تعالى من ضلالهم فيه بقوله تعالى (الذي فيه يمترون) أي يشكون شكا يتكلفونه ويجادلون فيه فتقول اليهود ساحر وتقول النصارى ابن الله مع ان أمه امرأة في غاية الوضوح ليس موضعا للشك أصلا ثم دل على كونه حقا في كونه ابنا لامه مريم لا غيرها بقوله ردا على من ضل (ما كان) أي ما صح ولا يتأتى ولا يتصور في العقول ولا يصح ولا يأتي لانه من المحال لكونه يلزم منه الحاجة (لله) الغني عن كل شيء (ان يتخذ من ولد) وأكده بمن لان المقام يقتضي النفي العام * ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار الى ذلك بالتنزيه العام بقوله تعالى (سبحانه) أي تنزه عن كل نقص أي من احتياج الى ولد أو غيره ثم علل ذلك بقوله عز وجل (اذا قضى أمرا) أي أي أمر كان اي أراد أن يحدثه (فانما يقول له كن) أي يريده ويعلق قدرته به وقوله تعالى (فيكون) قرأه ابن عامر بنصب النون بتقدير أن او على الجواب والباقون بالرفع بتقدير هو وقوله (وان الله ربي وربكم) اخبار عن عيسى عليه السلام انه قال ذلك وقرأ ابن عامر والكوفيون بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها بتقدير حذف حرف الجر متعلق بما بعده والتقدير ولان الله ربي وربكم (فاعبدوه) وحده لتفرده بالاحسان كما أعبده كقوله تعالى وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا والمعنى لوحدانيته أطيعوه وقيل انه عطف على الصلاة والتقدير وأوصاني بالصلاة وبأن الله واليه ذهب الفراء (هذا) أي الذي أمرتكم به (صراط) أي طريق (مستقيم) أي يقود الى الجنة وقرأ قنبل بالسين وخلف باشمام الصاد والباقون بالصاد الخالصة واختلف في قوله تعالى (فاختلف الاحزاب من بينهم) فقيل هم النصارى واختلافهم في عيسى أهو ابن الله أو اله معه أو ثالث ثلاثة وسموا أحزابا لانهم تحزبوا ثلاث فرق في أمر عيسى النسطورية والملكانية والمعقوبية وقيل هم اليهود والنصارى فجعله بعضهم ولدا وبعضهم كذابا وقيل هم الكفار الشامل لليهود والنصارى وغيرهم من الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قال

ابن

ابن عادل وهذا هو الظاهر لانه لا تخصيص فيه ويؤيده قوله تعالى (فويل للذين كفروا) أى شدة عذاب لهم (من مشهد يوم عظيم) أى حضور يوم القيامة وأهواله وقوله تعالى (أسمع بهم وأبصر) أى بهم صيغتا تعجب بمعنى ما أسمعهم وما أبصرهم (يوم يأتوننا) فى الآخرة لان حالهم فى شدة السمع والبصر جديرة بأن يتعجب منها فيندمون حيث لا ينفعهم الندم و يتمنون المحال من الرجوع الى الدنيا ليتداركوا فلا يجابون الى ذلك بل يسلك بهم فى كل ما يؤذيهم و يهلكهم و يرديهم وقوله تعالى (لكن الظالمون) من اقامة الظاهر مقام المضمر اشعارا بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر والاصل ولكنهم (اليوم) أى فى الدنيا (فى ضلال مبين) أى بين بذلك الضلال صموا عن سماع الحق وعموا عن ابصاره أى اعجب منهم يا مخاطب فى سمعهم وابصارهم فى الآخرة بعد ان كانوا فى الدنيا صما عميا وقيل معناه التهديد بما سيسمعونه وسيبصرون ما يسوءهم و يصدع قلوبهم ثم ان الله تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه بقوله (وأنذرهم) أى خوفهم (يوم الحسرة) هو يوم القيامة يتحسر فيه المسىء على ترك الاحسان والمحسن على عدم الازدياد من الاحسان لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أحد يموت الا ندم قالوا وما ندمه يا رسول الله قال ان كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد وان كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع وفى قوله تعالى (اذ قضى الامر) وجوه أحدها اذ قضى الامر ببيان الدلائل وشرح أمر الثواب والعقاب ثانيها اذ قضى الامر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف ثالثها قضى الامر فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذبح الموت كما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى اذ قضى الامر فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرح وأهل النار غما الى غم وقوله تعالى (وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون) جملتان حاليتان وفيهما قولان أحدهما انهما حالان من الضمير المستتر فى قوله فى ضلال مبين أى استقروا فى ضلال مبين على هاتين الحالتين السيئتين والثانى انهما حالان من مفعول أنذرهم أى أنذرهم على هذه الحالة وما بعدها وعلى الاول يكون قوله وأنذرهم اعتراضا والمعنى وهم فى غفلة عما يفعل بهم فى الآخرة وهم لا يصدقون بذلك اليوم * ولما كان الارث هو حوز الشىء بعد موت أهله وكان سبحانه وتعالى قد قضى بموت الخلائق أجمعين وانه تعالى يبقى وحده عبر عن ذلك بالارث مقررا به مضمون الكلام السابق فقال مؤكدا تكذيبا لقولهم ان الدهر لا يزال هكذا حياة لناس وموت لآخرين (انا نحن) بعظمتنا التى اقتضت ذلك (نرث الارض) فلا ندع بها شيأ من عاقل ولا غيره ولما كان العاقل أقوى من غيره صرح به بعد دخوله فقال (ومن عليها) أى من العقلاء بأن نسلبهم جميع ما فى أيديهم (والينا) لا الى غيرنا (يرجعون) فنجازيهم بأعمالهم * القصة الثالثة قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (واذكر فى الكتاب ابراهيم) أى خبره وقرأ هشام ابراهام بالف بعد الهاء والباقون بالياء وانما أمر الله تعالى نبيه بالذكر لذلك لانه صلى الله عليه وسلم ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلده مشتغلين بالتعليم ومطالعة الكتب فاذا أخبر

عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك اخبارا عن الغيب ومعجزا باهرا دالا على نبوته وانما ذكر الاعتبار بقصة ابراهيم عليه السلام لوجوه الاول ان منكرى التوحيد والذين أثبتوا توحيدا ومعبودا سوى الله تعالى فريقان منهم من أثبت معبودا غير الله تعالى حيا عاقلا وهم النصارى ومنهم من أثبت معبودا غير الله تعالى جمادا ليس بحى ولا عاقل وهم عبدة الاوثان والفريقان وان اشتركا فى الضلال الا أن ضلال عبدة الاوثان أعظم فلما بين الله تعالى ضلال الفريق الاول تكلم فى ضلال الفريق الثانى وهم عبدة الاوثان الثانى أن ابراهيم عليه السلام كان أبا العرب وكانوا مقرين بعلو شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى أبيكم ابراهيم وقال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الامن سفه نفسه فكأنه تعالى قال للعرب ان كنتم مقلدين لابيكم على قولكم انا وجدنا آباءنا على أمة فأشرف آبائكم وأعلاهم قدرا هو ابراهيم عليه السلام فقلدوه فى ترك عبادة الاصنام والاوثان وان كنتم مستدلين فانظروا فى هذه الدلائل التى ذكرها ابراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الاوثان وبالجملة فاتبعوا ابراهيم اما تقليدا واما استدلالا الثالث ان كثيرا من الكفار فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون نترك دين آبائنا وأجدادنا فذكر الله تعالى قصة ابراهيم عليه السلام وهو أنه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة أبيه ثم قال تعالى فى صفة ابراهيم (انه كان) جبلة وطبعا (صديقا) أى بليغ الصدق فى نفسه فى أقواله وأفعاله أى كان من أول وجوده الى انتهائه موصوفا بالصدق والصيانة وسيأتى الكلام على قوله بل فعله كبيرهم هذا وانى سقيم فى محله ولما كانت مرتبة النبوة أرفع من مرتبة الصديقية قال تعالى (نبيا) أى استنبأه الله تعالى اذ لا رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده وقوله تعالى (اذ قال) بدل من ابراهيم وما بينهما اعتراض أو متعلق بكان أو بصديقا نبيا أى كان جامعا لخصائص الصديقين والانبياء حين قال (لابيه) آزر هاديا له من تيه الضلال بعبادة الاصنام مستعطفا له فى كل جملة بقوله (يا أبت) والتاء عوض عن ياء الاضافة ولا يجمع بينهما وقرأ ابن عامر بفتح التاء فى الوصل والباقون بكسرها وأما الوقف فوقف ابن كثير وابن عامر بالهاء والباقون بالتاء ثم ان الله تعالى حكى عنه أيضا أنه تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام النوع الاول قوله (لم تعبد) مريدا بالاستفهام المجاملة واللطف والرفق واللين والادب الجميل فى نصحه له كاشفا الامر غاية الكشف بقوله (ما لا يسمع ولا يبصر) أى ليس عنده قابلية لشئ من هذين الوصفين ليرى ما أنت فيه من خدمته أو يجيبك اذا ناديته حالا أو مآلا (ولا يغنى عنك شيأ) فى جلب نفع ودفع ضر فوصف الاوثان بصفات ثلاث كل واحدة منها قادحة فى الالهية وبيان ذلك من وجوه أحدها أن العبادة غاية التعظيم فلا تستحق الالمن له غاية الانعام وهو الاله الذى منه أصول النعم وفروعها على ما تقرر فى تفسير قوله وان الله ربى وربكم وكما أنه لا يجوز الاشتغال بشكر ما لم تكن منعمة وجب أن لا يجوز الاشتغال بعبادتها وثانيها أنها اذا لم تسمع ولا تبصر ولا تميز من يطيعها عمن يعصيها فأى فائدة فى عبادتها وهذا تنبيه على أن الاله يجب أن يكون عالما بكل المعلومات

وثالثها أن الدعاء نخ العبادة فاذا لم يسمع الوثن دعاء الداعي فأي منفعة في عبادته واذا لم يبصر تقرب من يتقرب اليه فأي منفعة في ذلك التقرب ورابعها ان السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عاريا عن كل ذلك والانسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن فكيف يليق بالافضل عبودية الاخس , وخامسها ان كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى بها منفعة ولا يخاف من ضررها فأي فائدة في عبادتها وسادسها اذا كانت لا تحفظ نفسها عن الكسر والافساد حين جعلها ابراهيم عليه السلام جذاذا فأي رجاء فيها للغير فكانه عليه السلام قال ليست الالهية الا لرب يسمع ويبصر ويجيب دعوة الداعي اذا دعاه النوع الثاني قوله (يا أبت اني قد جاءني) من المعبود الحق (من العلم ما لم يأتك) منه (فاتبعني) اى فتسبب من ذلك اني أقول لك وجوبا على للنهي عن المنكر ونصيحة لما لك على من الحق اجتهد في تبعي (أهدك صراطا) أي طريقا (سويا) أي مستقيما كما اني لو كنت معك في طريق محسوس وأخبرتك ان أمامنا مهلكا لا ينجو منه أحد وأمرتك أن تسلك مكانا غير ذلك لاطعتني ولو عصيتني فيه عدك كل أحد غاويا النوع الثالث قوله (يا أبت لا تعبد الشيطان) فان الاصنام ليس لها دعوة أصلا والله تعالى قد حرم عبادة غيره مطلقا على لسان كل ولي فتعين أن يكون الآمر بذلك الشيطان فكانه هو المعبود بعبادتها في الحقيقة ثم علل هذا النهي بقوله (ان الشيطان) البعيد من كل خير المحترق باللعنة (كان للرحمن عصيا) بالقوة من حين خلق وبالفعل من حين أمره بالسجود لابيك آدم عليه السلام فأبى فهو عدو لله وله والمطيع للعاصي لشيء عاص لذلك الشيء لان صديق العدو عدو (فان قيل) هذا القول يتوقف على اثبات أمور أحدها اثبات الصانع وثانيها اثبات الشيطان وثالثها ان الشيطان عاص ورابعها أنه لما كان عاصيا لم تجز طاعته وخامسها أن الاعتقاد الذي كان عليه آزر مستفاد من طاعة الشيطان ومن شأن الدلالة التي تورد على الشخص أن تكون مركبة من مقدمات معلومة ليسلمها الخصم ولعل ابراهيم كان منازعا في هذه المقدمات وكيف والمحكي عنه انه ما كان يثبت الها سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الرحمن واذا لم يسلم وجوده فكيف يسلم أن الشيطان عاص للرحمن وبتقدير تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام ان مذهبه مقتبس من الشيطان بل لعله يقلب ذلك على خصمه (وأجيب) بأن الحجة المعول عليها في ابطال مذهب آزر هو قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ وهذا الكلام جرى مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر في تلك الدلالة فيسقط السؤال النوع الرابع قوله (يا أبت اني أخاف) لمحبتي لك وغيرتي عليك (أن يمسك عذاب) أي كائن (من الرحمن) الذي هو مولى كل من تولاه لعصيانك اياه (فتكون) أي فتسبب عن ذلك أن تكون (للشيطان وليا) أي ناصرا وقرينا في النار ولما دعا ابراهيم عليه السلام اباه الى التوحيد وذكر الدلائل على فساد عبادة الاوثان وأردف تلك الدلائل بالوعظ البليغ وأورد كل ذلك مقرونا بالرفق واللطف قابله أبوه بجواب يضاد ذلك فقابل حجته بالتقليد فانه لم يذكر في مقابلة حجته الا أن (قال أراغب أنت عن آلهتي) باضافتها الى نفسه

فقط اشارة الى مبالغته فى تعظيمها والرغبة عن الشئ تركه عمدا فأصر على ادعاء الهيتها جهلا وتقليدا وقابل قوله بالرفق يا أبت بالعنف حيث لم يقل يا بنى بل قال (يا ابراهيم) وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم بقوله مقسما (لئن لم تنته) عما أنت عليه (لارجمنك) أى لاقتلنك أو لارجمنك بالحجارة حتى تموت أو تبعد عنى أو بالكلام القبيح فاحذرنى (واهجرنى) أى ابعد عنى بالمفارقة من الدار والبلد وهى كهجرة النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أى تباعد عنى (مليا) أى دهرا طويلا لكى لا أراك وقيل اهجرنى بالقول ولا تخاطبنى دهرا طويلا لاجل ما صدر منك من هذا الكلام وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتأسية فيما كان يلقى من الاذى ويقاسى من قومه من العناد ومن عمه أبى لهب من الشدائد بأعظم آبائه وأقربهم به شبها فلما سمع ابراهيم عليه السلام كلام أبيه أجاب بأمرين أحدهما أن (قال) له مقابلا لما كان منه من طيش الجهل بما يحق لمثله من رزانة العقل والعلم (سلام عليك) توديع ومتاركة أى سلمت منى لا أصيبك بمكروه ما لم أومر فيك بشئ فانه لم يؤمر بقتاله على كفره كقوله لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وهذا يدل على جواز متاركة المنصوح اذا ظهر منه اللجاج وعلى انه يحسن مقابلة الاساءة بالاحسان ويجوز أن يكون دعاء له بالسلامة استمالة ألا ترى أنه وعده بالاستغفار فيكون سلام بر وتلطف وهو جواب الحليم للسفيه كقوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم استأنف قوله (سأستغفر لك ربى) أى المحسن الى بأن أطلب لك منه غفران ذنوبك بأن يوفقك للاسلام (انه كان بى حفيا) أى مبالغا فى اكرامى مرة بعد مرة وكرة فى اثر كرة وقد وفى بوعده بقوله المذكور فى الشعراء واغفر لابى وهذا قبل أن يتبين له أنه عدو لله كما ذكره فى براءة وثانيهما أنه قال له انقيادا لامر أبيه (وأعتزلكم) أى جميعا بترك بلادكم وأشار الى ان من شرط المعبود أن يكون أهلا للمناداة فى الشدائد بقوله (وما تدعون) أى تعبدون (من دون الله) الذى له الكمال كله فمن أقبل عليه وحده أصاب ومن أقبل على غيره ولو طرفة عين فقد خاب وخسر (وادعو) أى اعبد (ربى) وحده لاستحقاقه ذلك منى ولم يقيد الاعتزال بزمن بل أشار الى أنهم ما داموا على هذا الدين فهو معتزل لهم ثم دعا لنفسه بما نبههم به على خستهم معاهم فقال غير جازم باجابة دعوته وقبول عبادته اجلالا لربه وهضما لنفسه (عسى أن لا أكون بدعاء ربى) المنفرد بالاحسان الى (شقيا) أى كما شقيتم بعبادة الاصنام فانها لا تجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضركم ولما رأى من أبيه ومعاشرته ما رأى عزم على غربة مشقة النوى مختارا للغربة فى البلاد على غربة الاضداد فكان كما قال الامام أبو سليمان الخطابى

وما غربة الانسان فى شقة النوى * ولكنها والله فى عدم الشكل

وانى غريب بين بست وأهلها * وان كان فيها أسرتى وبها أهلى

وحقق ما عزم عليه فبين سبحانه وتعالى تحقيق رجائه واجابة دعائه فقال (فلما اعتزلهم) أى بالهجرة الى الارض المقدسة (وما يعبدون من دون الله) لم يضره ذلك دينا ولا دنيا بل نفعه

وعوّضه الله أولادا كما قال تعالى (وهبنا له) كما هو الشأن في كل من ترك شيأ لله (اسحق) ولدا
له لصلبه من زوجته العاقر العقيم بعد تجاوزها سن اليأس وأخذه هو في السن الى حد لا يولد
لمثله (ويعقوب) ولد الاسحق وخصهما بالذكر للزومهما محل اقامته وقيامهما بعد موته بخلافته
فيه وأما اسمعيل عليه السلام فكان الله سبحانه وتعالى هو المتولي لتربيته بعد نقله رضيعا
الى المسجد الحرام واحيائه تلك المشاعر العظام فأفرده بالذكر جاعلا له أصلا برأسه بقوله بعد
واذكر في الكتاب اسمعيل فترك ذكره مع اسحق الذي هو أخوه لذلك ثم صرح بما وهب لاولاده
جزاء على هجرته بقوله تعالى (وكلا) أي منهما (جعلنا نبيا) عالي المقدار يخبر بالاخبار العظيمة
كما جعلنا ابراهيم عليه السلام نبيا (ووهبنا لهم) كلهم (من رحمتنا) أي شيأ منها عظيما من النسل
الطاهر والذرية الطيبة واجابة الدعاء واللطف في القضاء والبركة في المال والاولاد وغير ذلك
من خيري الدنيا والآخرة (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) وهو الثناء الحسن وعبر باللسان
عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهو العطية واستجاب الله تعالى دعوته
في قوله تعالى واجعل لي لسان صدق في الآخرين فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الاديان
كلهم فقال تعالى ملة أبيكم ابراهيم وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في غيره أولها انه
اعتزل عن الخلق على ما قال وأعتزلكم وما تدعون من دون الله فلا جرم بارك الله له في أولاده
فقال ووهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ثانيها انه تبرأ من أبيه كما قال عز وجل فلما
تبين له انه عدو لله تبرأ منه لا جرم سماه الله أبا المسلمين فقال ملة أبيكم ابراهيم ثالثها تل ولده
للجبين ليذبحه في الله على ما قال تعالى وتله للجبين لا جرم فداه الله تعالى على ما قال وفديناه
بذبح عظيم رابعها أسلم نفسه فقال أسلمت لرب العالمين فجعل الله تعالى النار بردا وسلاما
عليه فقال يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم خامسها أشفق على هذه الامة فقال ربنا
وابعث فيهم رسولا منهم لا جرم أشركه الله تعالى في الصلوات في قوله تعالى كما صليت على
ابراهيم وعلى آل ابراهيم سادسها وفي حق سارة في قوله تعالى وابراهيم الذي وفى لا جرم جعل
موطئ قدميه مباركا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى سابعها عادى كل الخلق في الله فقال
فانهم عدو لي الا رب العالمين فاتخذه الله خليلا كما قال واتخذ الله ابراهيم خليلا ليعلم صحة قولنا
ما خير على الله أحدا * القصة الرابعة قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (واذكر
في الكتاب) أي الذي لا كتاب مثله في الكمال (موسى) أي الذي أنقذ الله به بني اسرائيل
من العبودية ثم ان الله تعالى وصفه بأمور أحدها قوله تعالى (انه كان مخلصا) قرأه عاصم
وحمزة والكسائي بفتح اللام أي مختارا اختاره الله تعالى واصطفاه وقيل أخلصه الله تعالى من
الدنس والباقون بالكسر أي أخلص التوحيد لله والعبادة ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل
منهما ثابت مقطوع به فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الامرين ثانيها قوله
تعالى (وكان رسولا) الى بني اسرائيل والقبط (نبيا) ينبئه الله بما يريد من وحيه لينبئ به المرسل
اليهم فيرتفع بذلك قدره فلذلك صرح بها بعد دخولها في الرسالة ضمنا اذ كل رسول نبي وليس

كل نبي رسولا خلافا للمعتزلة فانهم زعموا كونهما متلازمين فكل رسول نبي وكل نبي رسول وسيأتي الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى في سورة الحج عند قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ثالثها قوله تعالى (وناديناه) أي بما لنا من العظمة (من جانب الطور) هو اسم جبل (الايمن) أي الذي يلي يمين موسى حين أقبل من مدين فأتاه هنالك حين كان متوجها الى مصر بأنه رسولنا ثم واعدناه اليه بعد اغراق آل فرعون فكان لبني اسرائيل به من العجائب في رحمتهم بانزال الكتاب والالتذاذ بالخطاب من جوف السحاب وفي اماتتهم لما طلبوا الرؤية ثم احيائهم وغير ذلك مما يجل عن الوصف رابعها قوله تعالى (وقربناه) بما لنا من العظمة تقريب تشريف حالة كونه (نجيا) نخبره من أمرنا بلا واسطة من النجوى وهي السر والكلام بين اثنين كالسر وقيل قرب مكان أي مكانا عاليا عن أبي العالية أنه قرب حتى سمع صرير القلم حيث يكتب التوراة في الالواح وقيل أنجيناه من أعدائه خامسها قوله تعالى (ووهبناله) أي هبة تليق بعظمتنا (من رحمتنا) أي من أجل رحمتنا أو بعض رحمتنا (أخاه) أي معاضدة أخيه وموازرته لا شخصه واخوته وذلك اجابة لدعوته واجعل لي وزيرا من أهلي هرون فانه كان أسن من موسى * (نبيه) * أخاه مفعول أو بدل على تقدير أن تكون من للتبعيض وقوله (هرون) عطف بيان وقوله (نبيا) حال منه هي المقصودة بالهبة * القصة الخامسة قصة اسمعيل عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (واذكر في الكتاب اسمعيل) بن ابراهيم عليهما السلام الذين هم معترفون بنبوته ومفتخرون برسالته وأبوته فلزم من ذلك فساد تعليلهم انكار نبوتك بأنك من البشر ثم ان الله تعالى وصف اسمعيل بأمور أولها قوله تعالى (انه كان) أي جبلة وطبعا (صادق الوعد) في حق الله وفي حق غيره لمعونة الله له على ذلك بسبب أنه لا يعد وعدا الامقرونا بالاستثناء كما قال لابيه حين أخبره بأمر ذبحه ستجدني ان شاء الله من الصابرين وخصه بالمدح به وان كان الانبياء كلهم كذلك لقصة الذبح فلا يلزم منه تفضيله مطلقا. وروى عن ابن عباس أنه وعد صاحبا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة وروى أن عيسى عليه السلام قال له رجل انتظرني حتى آتيك فقال عليه السلام نعم وانطلق الرجل ونسي الميعاد فجاء الى حاجته الى ذلك المكان وعيسى عليه السلام هنالك للميعاد وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه واعد رجلا ونسي ذلك الرجل فانتظره من الضحى الى غروب الشمس وسئل الشعبي عن الرجل يعد ميعادا الى أي وقت ينتظره قال فان واعده نهارا فكل النهار وان واعده ليلا فكل الليل وسئل ابراهيم بن زيد عن ذلك فقال اذا واعدته في وقت الصلاة فانتظره الى وقت صلاة أخرى ثانيها قوله تعالى (وكان رسولا نبيا) قدمر تفسيره وثالثها قوله تعالى (وكان يأمر أهله بالصلاة) أي التي هي طهرة البدن وقرة العين وخير العون على جميع المآرب (والزكاة) أي التي هي طهرة المال كما أوحى الله تعالى بذلك جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام والمراد بالاهل قومه وقيل أهله جميع أمته كان رسولا الى جرهم قاله الاصفهاني والى أهل تلك البراري بدين أبيه ابراهيم والمراد بالصلاة قال ابن عباس يريد التي افترضها الله تعالى عليهم قال

البغوي

البغوى وهى الحنيفية التى افترضت علينا قيل كان يبدأ بأهله فى الامر بالعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم كما قال تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين وأمر أهلك بالصلاة قوا أنفسكم وأهليكم نارا وبالزكاة قال ابن عباس انها طاعة الله والاخلاص فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه تعالى والظاهر كما قال ابن عادل ان الزكاة اذا قرنت بالصلاة أن يراد بها الصدقات الواجبة رابعها قوله تعالى (وكان عند ربه) بعبادته على حسب ما أمره به (مرضيا) وهذا فى نهاية المدح لان المرضى عند الله هو الفائز فى كل طاعة بأعلى الدرجات فاقتد أنت به فانه من أجل آبائك لتجمع بين طهارة القول والبدن والمال فتنال رتبة الرضا * القصة السادسة قصة ادريس عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (واذكر فى الكتاب) أى الجامع لكل ما يحتاج اليه حتى ما يحتاج اليه من قصص المتقدمين والمتأخرين (ادريس) وهو جد أبى نوح عليه السلام قيل سمى ادريس لكثرة دراسته الكتب واسمه أخنوخ بمهملة ونون وآخره خاء معجمة وصفه الله تعالى بأمور أحدها وثانيها قوله تعالى (انه كان صديقا نبيا) أى صادقا فى أفعاله وأقواله ومصدقا بما آتاه الله من آياته وعلى ألسنة الملائكة ثالثها قوله تعالى (ورفعناه مكانا عليا) وفيه قولان أحدهما انه من رفع المنزلة كقوله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم ورفعنا لك ذكرك فان الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب وأول من خاط الثياب ولبسها وكانوا من قبله يلبسون الجلود وأول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار وثانيهما أنه من رفعة المكان ثم اختلفوا فقال بعضهم رفعه الله تعالى الى السماء الرابعة وهى التى رآه النبى صلى الله عليه وسلم بها ليلة الاسراء وقيل الى الجنة وهو حى لا يموت وقالوا أربعة من الانبياء احياء اثنان فى الارض الخضر والياس واثنان فى السماء عيسى وادريس وقال وهب كان يرفع لادريس كل يوم من العبادة ما يرفع لجميع أهل الارض فى زمانه فعجبت منه الملائكة واشتاق له ملك الموت فاستأذن ربه فى زيارته فأذن له فأتاه فى صورة بنى آدم وكان ادريس يصوم الدهر فلما كان وقت افطاره دعاه الى طعامه فأبى أن يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره ادريس وقال له الليلة الثالثة انى أريد أن أعلم من أنت قال أنا ملك الموت استأذنت ربى أن أصحبك فقال لى اليك حاجة قال ما هى قال تقبض روحى فأوحى الله تعالى اليه أن اقبض روحه فقبض روحه وردها اليه بعد ساعة فقال له ملك الموت ما الفائدة فى سؤالك قبض الروح قال لأذوق كرب الموت وغمته فأكون أشد استعدادا له ثم قال له ادريس ان لى اليك حاجة أخرى قال وما هى قال ترفعنى الى السماء لأنظر اليها والى الجنة والنار فأذن الله تعالى له فى ذلك فرفعه فلما قرب من النار قال لى اليك حاجة قال وما تريد قال تسأل مالكا أن يفتح أبوابها فأردها ففعل ثم قال كما أريتنى النار فأرنى الجنة فذهب به الى الجنة فاستفتح ففتح أبوابها فادخله الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود الى مكانك فتعلق بشجرة وقال ما أخرج منها فبعث الله تعالى ملكا حكما بينهما فقال له الملك مالك لا تخرج قال ان الله تعالى قال كل نفس ذائقة الموت وقد

ذقته وقال وان منكم الا واردها وقد وردتها وقال وما هم منها بمخرجين فلست أخرج فأوحى الله تعالى الى ملك الموت بإذني دخل الجنة وبإذني لا يخرج فهو حي هنالك وقال آخرون بل رفع الى السماء وقبض روحه وقال كعب الاحبار ان ادريس سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب اني مشيت يوما فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرفه فقال يارب خففت عني حر الشمس فما الذي قضيت فيه فقال تعالى ان عبدي ادريس سألني ان أخفف عنك حملها وحرها فأجبته قال يارب اجعل بيني وبينه خلة فأذن له حتى أتى ادريس فكان ادريس يسأله فكان مما سأله ان قال له اني أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لي ليؤخر أجلي فازداد شكرا وعبادة فقال الملك لا يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها وأنا مكلمه فرفعه الى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملك الموت فقال لي حاجة اليك لي صديق من بني آدم تشفع بي اليك لتؤخر أجله فقال ليس ذلك الي ولكن ان أحببت أعلمته أجله فيقدم لنفسه قال نعم فنظر في ديوانه فقال انك كلمتني في انسان ما أراه يموت أبدا قال وكيف ذلك قال لا أجده يموت الا عند مطلع الشمس قال اني أتيتك وتركته هنالك قال فانطلق فلا أراك تجده الا وقد مات فوالله ما بقي من أجل ادريس شيء فرجع الملك فوجده ميتا * ولما انقضى كشف هذه الاخبار العلية المقدار الجليلة الاسرار شرع سبحانه وتعالى ينسب أهلها بأشرف نسبهم ويذكر المنن بينهم فقال عز من قائل (أولئك) أي العالو الرتبة الشرفاء النسب المذكورون في هذه السورة من لدن زكريا الى ادريس وهو مبتدأ وقوله (الذين أنعم الله عليهم) بما خصهم به من مزيد القرب اليه وعظيم المنزلة لديه صفة له وقوله تعالى (من النبيين) أي المصطفين بالنبوة الذين أنبأهم الله تعالى بدقائق الحكم ورفع محالهم بين الامم بيان لهم وهو في معنى الصفة وما بعده الى جملة الشرط صفة للنبيين فقوله (من ذرية آدم) أي ادريس لقربه منه لانه جد أبي نوح (وممن حملنا مع نوح) في السفينة أي ابراهيم ابن ابنه سام (ومن ذرية ابراهيم) أي اسمعيل واسحق ويعقوب (و) من ذرية (اسرائيل) وهو يعقوب أي موسى وهرون وزكريا ويحيى وكذا عيسى لان مريم من ذريته (وممن هدينا) الى أقوم الطرق (واجتبينا) للنبوة والكرامة أي من جملتهم * وخبر أولئك (اذا تتلى عليهم) من أي تال كان (آيات الرحمن خروا سجدا) للمنعم عليهم تقربا اليه لما لهم من البصائر النيرة في ذكر نعمه عليهم واحسانه اليهم (وبكيا) خوفا منه وشوقا اليه فكونوا مثلهم * (تنبيه) * سجدا حال مقدرة قال الزجاج لانهم وقت الخرور ليسوا سجدا وهو جمع ساجد وبكيا جمع باك وليس بقياس بل قياس جمعه على فعلة كقاض وقضاة ولم يسمع فيه هذا الاصل وأصل بكيا بكويا قلبت الواو ياء والضمة كسرة واختلف في هذا السجود فقال بعضهم انه الصلاة وقال بعضهم سجود التلاوة على حسب ما تعبدوا به قال الرازي ثم يحتمل أن يكون المراد سجود القرآن ويحتمل أنهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بسجود فيفعلون ذلك لاجل ذكر السجود في الآية انتهى وروى ابن

ماجه وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المزني قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا صالح هذه القراءة فاين البكاء وعن ابن عباس اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما اغرغرت عين بماء الا حرم الله تعالى على النار جسدها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحازنوا وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يلج النار من بكى من خشية الله وقال العلماء يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها فان قرأ آية تنزيل السجدة قال اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المتكبرين عن أمرك واذا قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلني من الباكين اليك الا سفين لك وان قرأ هذه قال اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الباكين عند تلاوة آيات كتابك وقرأ حمزة والكسائي بكيا بكسر الباء والباقون بضمها * ولما وصف سبحانه وتعالى هؤلاء الانبياء بصفة المدح ترغيبا لنا في التأسي بهم ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال (فخلف من بعدهم) أي في بعض الزمان الذي بعد هؤلاء الاصفياء سريعا (خلف) في غاية الرداءة من أولادهم يقال خلفه اذا عقبه خلف سوء باسكان اللام والخلف بفتح اللام الصالح كما قالوا وعد في ضمان الخير ووعيد في ضمان الشر وفي الحديث في الله خلف من كل هالك وفي الشعر

ذهب الذين يعاش في أكنافهم * وبقيت في خلف كجلد الاجرب

وقال السدي أراد بهم اليهود ومن لحق بهم وقال قتادة في (أضاعوا الصلاة) تركوا الصلاة المفروضة وقال ابن مسعود وابراهيم أخروها عن وقتها وقال سعيد بن المسيب هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا يصلي العصر حتى تغرب الشمس (واتبعوا الشهوات) أي المعاصي قال ابن عباس هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمور واستحلوا نكاح الاخت من الاب وقال مجاهد هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في الاسواق والازقة (فسوف يلقون غيا) وهو كما قال وهب وابن عباس واد في جهنم بعيد قعره تستعيذ منه أوديتها كما رواه الحاكم وصححه وقيل هو الخسران وقيل هو الشر كقول القائل

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

على الغي متعلق بلائما وقيل يلقون جزاء الغي كقوله يلق أثاما أي مجازاة الآثام * (تنبيه) * قوله تعالى يلقون ليس معناه يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية * ولما أخبر تعالى عن هؤلاء بالخيبة فتح لهم باب التوبة وحداهم الى غسل هذا الحوبة بقوله (الا من تاب) أي مما هو عليه من الضلال وبادر بالاعمال وحافظ على الصلوات وكف نفسه عن الشهوات (وآمن) بما أخذ عليه به العهد (وعمل) بعد ايمانه تصديقا له (صالحا) من الصلوات والزكوات وغيرها (فأولئك) العالو الهمم الطاهرو الشيم (يدخلون الجنة) التي وعد المتقون (ولا يظلمون) من ظالم ما (شيأ) من أعمالهم (فان قيل) الاستثناء دل على أنه لا بد من التوبة والايمان والعمل

الصالح وليس الامر كذلك لان من تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة أو كانت المرأة حائضا فانه لا يجب عليهم الصلاة والزكاة أيضا غير واجبة وكذلك الصوم فهذا لو مات في ذلك الوقت كان من أهل النجاة مع أنه لم يصدر منه عمل فلم يجز توقف الاجر على العمل الصالح (أجيب) بأن هذه الصورة نادرة والاحكام انما تناط بالاعم الاغلب * (تنبيه) * في هذا الاستثناء وجهان قال ابن عادل أظهرهما انه متصل وقال الزجاج هو منقطع وهذا بناء منه على أن المضيع للصلاة من الكفار ووافق الزجاج الجلال المحلي * ولما ذكر تعالى في التائب انه يدخل الجنة وصفها بأمور أحدها قوله تعالى (جنات عدن) أي اقامة لا يظعن عنها بوجه من الوجوه وصفها بالدوام على خلاف وصف الجنان في الدنيا التي لا تدوم ثم بين تعالى انها (التي وعد الرحمن عباده) الذين هو أرحم بهم وقوله (بالغيب) فيه وجهان أحدهما ان الباء حالية وفي صاحب الحال احتمالان أحدهما ضمير الجنة وهو عائد الموصول أي وعدها وهي غائبة عنهم لا يشاهدونها والثاني عباده أي وهم غائبون عنها لا يرونها انما آمنوا بها بمجرد الاخبار منه والوجه الثاني أن الباء سببية أي بسبب تصديق الغيب وسبب الايمان به * ولما كان من شأن الوعود الغائبة على ما يتعارفه الناس بينهم احتمال عدم الوقوع بين ان وعده ليس كذلك بقوله تعالى (انه كان) أي كونا هو سنة ماضية (وعده مأتيا) أي مقصودا بالفعل فلا بد من وقوعه فهو كقوله ان كان وعد ربنا لمفعولا ثانيها قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا) وهو فضول الكلام وما لا طائل تحته وفيه تنبيه ظاهر على تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله تعالى عنه الدار الآخرة التي لا تكليف فيها وقد مدح الله تعالى أقواما بقوله واذا مروا باللغو مروا كراما واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا وقوله تعالى (الا سلاما) استثناء منقطع أي ولكن يسمعون قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة أو سلاما من الله أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض ويجوز أن يراد باللغو مطلق الكلام قال في القاموس لغا لغوا تكلم فيكون الاستثناء متصلا أي لا يسمعون فيها كلاما الا كلاما يدل على السلامة أو سلاما من الله أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض ثالثها قوله تعالى (ولهم رزقهم فيها) أي على ما يتمنونه ويشتهونه على وجه لا بد من اتيانه ولا كلفة عليهم فيه ولا منة عليهم به (بكرة وعشيا) أي على قدرهما في الدنيا وليس في الجنة نهار ولا ليل بل ضوء ونور ابدا وقيل انهم يعرفون النهار برفع الحجب والليل بارخائها (فان قيل) المقصود من هذه الآيات وصف الجنة بأحوال مستعظمة ووصول الرزق اليهم بكرة وعشيا ليس من الامور المستعظمة (أجيب) بوجهين الاول قال الحسن أراد الله تعالى أن يرغب كل قوم بما أحبوه في الدنيا فلذلك ذكر أساور الذهب والفضة ولبس الحرير التي كانت عادة العجم والارائك التي هي الحجال المضروبة على الاسرة وكانت عادة أشراف اليمن ولا شئ كان أحب الى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك الثاني أن المراد دوام الرزق تقول أنا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشيا تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين وقيل المراد رفاهية العيش وسعة الرزق أي لهم رزقهم

متى شاؤا * ولما بينت بهذه الاوصاف دار الباطل أشار الى علو رتبتها وما هو سببها بقوله تعالى (تلك الجنة) باداة البعد لعلو قدرها وعظم أمرها (التى نورث من عبادنا) أى نعطى عطاء الارث الذى لا كدّ فيه ولا استرجاع وتبقى له الجنة كما يبقى للوارث مال الموروث وقيل تنقل تلك المنازل ممن لو أطاع لكانت له الى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل النقل ارثا قاله الحسن (من كان تقيا) أى المتقين عن عباده (فان قيل) الفاسق المرتكب للكبائر لم يوصف بذلك الوصف فلا يدخلها (أجيب) بأن الآية تدل على أن الجنة يدخلها المتقى وليس فيها دلالة على أن غير المتقى لا يدخلها وأيضا صاحب الكبيرة متق عن الكفر ومن صدق عليه انه متق عن الكفر فقد صدق عليه أنه متق واذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه أنه متق وجب أن يدخل الجنة فدلالة الآية على أن صاحب الكبيرة يدخلها أولى من أن تدل على أنه لا يدخلها * واختلف فى سبب نزول قول جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم (وما نتنزل الا بأمر ربك) فقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت الآية وقال مجاهد أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال لعلى أبطأت قال قد فعلت قال ولم لا أفعل وأنتم لا تتسوكون ولا تقصون أظفاركم ولا تنقون براجمكم وقال وما نتنزل الا بأمر ربك فنزلت وقال قتادة والكلبى احتبس جبريل عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح وسبب سؤالهم عن ذلك ما روى ان قريشا بعثت خمسة رهط الى يهود المدينة يسألونهم عن صفة النبى صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه فى كتابهم وسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه وقالت اليهود نجده فى كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن ثلاث فلم يعرف فسلوه عنهن فان أخبركم عن خصلتين فاتبعوه فسألوه عن قصة أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فلم يدر كيف يجيب فوعدهم أن يجيبهم غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحى عنه أربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما فشق ذلك عليه مشقة عظيمة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبى صلى الله عليه وسلم أبطأت حتى ساءظنى واشتقت اليك قال انى اليك أشوق ولكنى عبد مأمور اذا بعثت نزلت واذا حبست احتبست فنزلت هذه الآية وأنزل قوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله وسورة الضحى (فان قيل) قوله تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا كلام الله وقوله وما نتنزل الا بأمر ربك كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل (أجيب) بأنه اذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح كقوله تعالى اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وهذا كلام الله تعالى ثم عطف عليه قوله وان الله ربى وربكم فاعبدوه * ثم علل جبريل قوله ذلك بقوله (له ما بين أيدينا) أى امامنا من أمور الآخرة (وما خلفنا) أى من أمور الدنيا (وما بين ذلك) أى ما يكون من هذا الوقت الى قيام الساعة أى له علم ذلك جميعه وقيل ما بين ذلك ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة وقيل ما بين أيدينا ما بقى من الدنيا وما خلفنا ما مضى منها وما بين ذلك مدة حياتنا وقيل ما بين أيدينا بعد أن نموت

وماخلفناقبل أن نخلق ومابين ذلك مدة الحياة وقيل مابين أيدينا الارض اذا أردنا النزول اليها وماخلفنا السماء ومانزل منها ومابين ذلك الهواء يريد ان ذلك كله لله فلا نقدر على شئ الا بأمره (وما كان ربك) المحسن اليك (نسيا) بمعنى ناسيا أى تاركا لك بتأخير الوحى عنك لقوله تعالى ماودعك ربك وماقلى أى وما كان امتناع النزول الالامتناع الامر به وما كان ذلك عن ترك الله تعالى لك وتوديعه اياك ثم استدل على ذلك بقوله (رب السموات والارض ومابينهما) فلا يجوز عليه النسيان اذلابد أن يمسكهما حالا بعد حال والابطل الامر فيهما وفيمن يتصرف والآية دالة على ان الله تعالى رب لكل شئ حصل بينهما ففعل العبد مخلوق له تعالى لان فعل العبد حاصل بين السماء والارض * (تنبيه) * يجوز فى رب أن يكون بدلا من ربك وأن يكون خبر مبتدا مضمر أى هو رب وقوله تعالى (فاعبده واصطبر لعبادته) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم مرتب على ماتقدم أى لما عرفت أن ربك لا ينساك فاعبده بالمراقبة الدائمة على ما ينبغى من مثلك واصطبر عليها ولا تتشوش بابطاء الوحى وهزء الكفار بك (فان قيل) لم لم يقل واصطبر على عبادته لانها صلته فكان حقه تعديه بعلى (أجيب) بأنه ضمن معنى الثبات لان العبادة ذات تكاليف قل من يثبت لها فكأنه قيل اثبت لها مصطبرا كقولك للمحارب اصبر لقرنك ثم علل ذلك بقوله (هل تعلم له سميا) قال ابن عباس هل تعلم له مثلا أى نظيرا فيما يقتضى العبادة والذى يقتضيها كونه منعما بأصول النعم وفروعها وهى خلق الاجسام والحياة والعقل وغيرها فانه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه وتعالى واذا كان قد أنعم عليك بغاية الانعام وجب أن تعظمه بغاية التعظيم وهى العبادة وقال الكلبى هل تعلم أحدا تسمى الله غيره فانهم وان كانوا يطلقون لفظ الاله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله تعالى على شئ * ولما أمر تعالى بالعبادة والمصابرة عليها فكأن سائلا سأل وقال هذه العبادة لامنفعة فيها فى الدنيا وأما فى الآخرة فقد أنكرها بعضهم فلابد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر أن الاشتغال بالعبادة يفيد فلهذا حكى الله سبحانه وتعالى قول منكرى الحشر فقال تعالى (ويقول الانسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا) قال الكلبى نزلت فى أبى بن خلف حين أخذ عظاما بالية ففتها بيديه ويقول زعم لكم محمد أنا نبعث بعد مانموت وقيل نزلت فى أبى جهل وقيل المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ثم ان الله تعالى أقام الدليل على صحة البعث بقوله (أولا يذكر الانسان) أى المجترئ بهذا الانكار على ربه (أنا خلقناه من قبل) أى من قبل جدله (ولم يك شيأ) أصلا وأنا بمقتضى ذلك قادرون على اعادته فلا ينكر ذلك قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على ايراد حجة فى البعث على هذا الاختصار ماقدروا عليه اذ لاشك أن الاعادة ثانيا أهون من الايجاد أولا ونظيره قوله تعالى قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وقوله تعالى وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بسكون الذال وضم الكاف مخففة والباقون بفتح الذال مشددة وكذا الكاف (فان قيل) كيف أمر الله الانسان بالتذكر مع أن التذكر هو العلم بما علمه من قبل ثم تخللهما سهو (أجيب) بأن المراد أولا يتفكر فيعلم خصوصا

اذا قرئ أولا يذكر مشددا أما اذا قرئ مخففا فالمراد أولا يعلم ذلك من حال نفسه لان كل أحد يعلم أنه لم يكن حيا فى الدنيا * ثم صار حيا ثم انه تعالى لما قرر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه أولها قوله تعالى (فوربك) أى المحسن اليك بالانتقام منهم (لنحشرنهم) بعد البعث (والشياطين) الذين يضلونهم بأن نحشر كل كافر مع شيطان فى سلسلة وفائدة القسم أمران أحدهما ان العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين والثانى فى اقسام الله باسمه مضافا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تفخيم لشأنه ورفع منه كما رفع من شأن السماء والارض فى قوله تعالى فورب السماء والارض انه لحق والواو فى والشياطين يجوز أن تكون للعطف وبمعنى مع وهو أولى ثانيها قوله تعالى (ثم لنحضرنهم) بعد طول الوقوف (حول جهنم) من خارجها ليشاهد السعداء الاحوال التى نجاهم الله تعالى منها وخلصهم فيزدادوا لذلك غبطة الى غبطتهم وسرورا الى سرورهم ويشمتوا بأعداء الله وأعدائهم فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم وقوله تعالى (جثيا) حال مقدرة من مفعول لنحضرنهم وهو جمع جاث جمع على فعول نحو قاعد وقعود وجالس وجلوس وأصله جثوو بواوين أو جثوى من جثا يجثو ويجثى لغتان (فان قيل) هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى وترى كل أمة جاثية ولان العادة جارية بأن الناس فى مواقف مطالبات الملوك يتجاثون على ركبهم لما فى ذلك من القلق أو لما يدهمهم من شدة الامر التى لا يطيقون معها القيام على أرجلهم واذا كان هذا حاصلا للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار (أجيب) بأنهم يكونون من وقت الحشر الى وقت الحضور على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد ذلهم وقرأ حفص وحمزة والكسائى جثيا وعتيا وصليا بكسر أولها والباقون بضمه ثالثها قوله تعالى (ثم لننزعن) أى لنأخذن أخذا بشدة وعنف (من كل شيعة) أى فرقة مرتبطة بمذهب واحد (أيهم أشد على الرحمن) الذى غمرهم بالاحسان (عتيا) أى تكبرا مجاوزا للحد والمعنى ان الله تعالى يحضرهم أولا حول جهنم ثم يميز البعض من البعض فمن كان أشدهم تمردا فى كفره خص بعذاب عظيم لان عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعا لغيره وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب ولذلك قال تعالى فى جميعهم (ثم لنحن أعلم) من كل عالم (بالذين هم) بظواهرهم وبواطنهم (أولى بها) أى بجهنم (صليا) أى دخولا واحتراقا فنبدأ بهم ولا يقال أولى الا مع اشتراكهم وأصله صلوى من صلى بكسر اللام وفتحها * (تنبيه) فى اعراب أيهم أشد أقوال كثيرة أظهرها عند جمهور المعربين وهو مذهب سيبويه ان أيهم موصولة بمعنى الذى وان حركتها حركة بناء بنيت عند سيبويه لخروجها عن النظائر وأشد خبر مبتدأ مضمر والجملة صلة لأيهم وأيهم وصلتها فى محل نصب مفعول بها ولأى أحوال أربعة ذكرتها فى شرح القطر * ولما كانوا بهذا الاعلام المؤكد بالاقسام من ذى الجلال والاكرام جديرين باصغاء الافهام الى ما توجه اليها من الكلام التفت الى مقام الخطاب افهاما للعموم فقال تعالى (وان) أى وما (منكم) أيها الناس أحد (الا واردها)

كان) ذلك الورود (على ربك) الموجد لك المحسن اليك (حتما مقضيا) أى حتمه وقضى به لا يتركه والورود موافاة المكان فاختلفوا فى معنى الورود هنا فقال ابن عباس والاكثرون الورود ههنا هو الدخول والكناية راجعة الى النار وقالوا يدخلها البر والفاجر ثم ينجى الله المتقين فيخرجهم منها ويدل على أن الورود هو الدخول قوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار ان نافع بن الازرق مارى ابن عباس فى الورود فقال ابن عباس هو الدخول وقال نافع ليس الورود الدخول فتلا ابن عباس انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع أما والله أنا وأنت سنردها وأنا أرجو أن يخرجنى الله منها وما أرى الله يخرجك منها بتكذيبك ويدل عليه أيضا قوله تعالى (ثم ننجى الذين اتقوا) أى الكفر منها ولا يجوز أن يقول ثم ننجى الذين اتقوا (ونذر الظالمين) بالكفر (فيها جثيا) على الركب الا والكل واردون والاخبار المروية دالة على هذا القول روى أن عبد الله بن رواحة قال أخبر الله تعالى عن الورود ولم يخبر بالصدر فقال صلى الله عليه وسلم يا ابن رواحة اقرأ ما بعدها ثم ننجى الذين اتقوا فدل على ان ابن رواحة فهم من الورود الدخول ولم ينكر عليه النبى صلى الله عليه وسلم ذلك وعن جابر أنه سأل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الورود الدخول ولا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما حتى ان للنار ضجيجا من بردها ولان حرارة النار ليست بطبعها فالاجزاء الملاصقة لابدان الكفار يجعلها الله تعالى محرقة مؤذية والاجزاء الملاصقة لاجزاء المؤمنين يجعلها بردا وسلاما كما فى حق ابراهيم عليه السلام وكما ان الملائكة الموكلين بها لا يجدون ألمها وكما فى الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطى فيكون دما ويشربه الاسرائيلى فيكون ماء عذبا وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال اذا دخل أهل الجنة الجنة وقال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة وخامدة بخاء معجمة أى ساكنة وروى بالجيم أى باردة ولا بد من ذلك فى الملائكة الموكلين بالعذاب حتى يكونوا فى النار مع المعاقبين (فان قيل) فاذا لم يكن على المؤمنين عذاب فى دخولهم فما الفائدة فى ذلك الدخول (أجيب) بوجوه أحدها ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منها ثانيها ان فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها ثالثها أن فيه مزيد غم على أهل النار حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين رابعها انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب صار سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة وقيل المراد بالذين يردونها من تقدم ذكرهم من الكفار فكنى عنهم أولا كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة وعلى هذا القول فلا يدخل النار مؤمن واستدل له بقوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها والمبعد عنها لا يوصف بأنه واردها ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها وبقوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون وروى عن مجاهد من حم من المؤمنين فقد وردها وفى الخبر الحمى كير من جهنم وهى حظ المؤمن

من النار وفى رواية الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء وقوله من فيح جهنم أى وهجها وحرها وقال ابن مسعود وان منكم الا واردها يعنى القيامة والكناية راجعة اليها . قال البغوى والاول أصح وعليه أهل السنة وروى أنه يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير وفى رواية من ايمان وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها وآخر أهل الجنة دخولا الجنة رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله له اذهب فادخل الجنة قال فيأتيها فيخيل اليه أنها ملأى فيرجع فيقول وجدتها ملأى فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فان لك مثل الدنيا وعشر أمثالها فيقول له أتسخر بى وأنت الملك فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة * قوله حتى بدت نواجذه أى أنيابه وأضراسه وقيل هى أعلى الاسنان وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب ناس من أهل التوحيد فى النار حتى يكونوا حمما ثم تدركهم الرحمة قال فيخرجون فيطرحون على باب الجنة قال فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء فى حمالة السيل الحمم الفحم والغثاء كل ما جاء به السيل وقرأ الكسائى ننجى بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم * ولما أقام تعالى الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث قال تعالى عطفا على قوله ويقول الانسان (واذا تتلى عليهم) أى الناس من المؤمنين والكفار من أى تال كان (آياتنا) أى القرآن حال كونها (بينات) أى واضحات وقيل مرتبات الالفاظ ملخصات المعانى وقيل ظاهرات الاعجاز (قال الذين كفروا) بآيات ربهم البينة جهلا منهم ونظرا الى ظاهر الحياة الدنيا الذى هو مبلغهم من العلم (للذين آمنوا) أى لاجلهم أو مواجهة لهم اعراضا عن الاستدلال بالآيات بالاقبال على هذه الشبهة الواهية وهى المفاخرة بالمكاثرة فى الدنيا من قولهم (أى الفريقين) نحن بما لنا من الاتساع أم أنتم بما لكم من خشونة العيش ورثاثة الحال ولو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن من حالنا لان الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين فى الذل وأعداءه المعرضين عن خدمته فى العز والراحة وانما كان الامر بالعكس فان الكفار كانوا فى النعمة والراحة والاستعلاء والمؤمنين كانوا فى ذلك الوقت فى الخوف والقلة هذا حاصل شبهتهم والقائل ذلك هو النضر بن الحرث وذووه من قريش للذين آمنوا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وكان فيهم قشافة وفى عيشهم خشونة وفى ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويلبسون خير ثيابهم فقالوا للمؤمنين أى الفريقين (خير مقاما) أى موضع قيام أو اقامة على قراءة ابن كثير بضم الميم والباقون بفتحها ففى كلتا القراءتين يحتمل أن يكون اسم مصدر أو اسم مكان اما من قام ثلاثيا أو من أقام * (تنبيه) * قالوا زيد خير من عمرو وشر من بكر ولم يقولوا أخير منه ولا أشر منه لان هاتين اللفظتين كثر استعمالهما فحذفت همزتاهما ولم يثبتا الا فى فعل التعجب فقالوا

أخبر بزيد وأشرر بعمرو وما أخبر زيدا وما أشر عمرا والعلة فى اثباتهما فى فعلى التعجب ان استعمال هذين اللفظين اسماً أكثر من استعمالهما فعلا فحذفت الهمزة فى موضع الكثرة وبقيت على أصلها فى موضع القلة (وأحسن نديا) أى مجمعا ومتحدثا والندى المجلس يقال ندى وناد والجمع الاندية ومنه وتأتون فى ناديكم المنكر وقال تعالى فليدع ناديه ويقال ندوت القوم أندوهم اذا جمعتهم فى مجلس ومنه دار الندوة وكانت تجمع القوم فجعلوا ذلك الامتحان بالانعام والاحسان دالا على رضا الرحمن مع التكذيب والكفران وغفلوا عن أن فى ذلك مع التكذيب بالبعث تكذيبا بما يشاهدون منا من القدرة على العقاب باحلال النقم وسلب النعم ولو شئنا الاهلكناهم وسلبنا جميع ما يفتخرون به (وكم أهلكنا قبلهم) ثم بين ابهام كم بقوله (من قرن) شاهدوا ديارهم ورأوا آثارهم (هم) أى أهل تلك القرون (أحسن) من هؤلاء (أثاثا) أى أمتعة (ورئيا) أى ومنظرا فلو دل حصول نعم الدنيا للانسان على كونه حبيب الله لوجب أن لا يصل الى هؤلاء غم فى الدنيا وقرأ قالون وابن ذكوان بابدال الهمزة ياء وادغامها فى الياء وقفا ووصلا واذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء وله فيها الادغام والاظهار *(تنبيه)* كم مفعول أهلكنا مقدم واجب التقديم لان له صدر الكلام لانها اما استفهامية أو خبرية وهى محمولة على الاستفهامية أى كثيرا من القرون أهلكنا ومن قرن تمييز لكم مبين لها وانما سمى أهل كل عصر قرنا لانهم يتقدمون من بعدهم وقول البيضاوى وهم أحسن صفة لكم تبع فيه الزمخشرى وغيره ورد بأن كم الاستفهامية والخبرية لا توصف ولا يوصف بها فهم أحسن فى محل جر صفة لقرن وجمعه نظر اللمعنى لان القرن مشتمل على أفراد كثيرة * ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) لهؤلاء المبعدين ردا عليهم وقطعا لمعاذيرهم وهتكا لشبههم هذا الذى افتخرتم به لا يدل على حسن الحال فى الآخرة بل على عكس ذلك فقد جرت عادته تعالى أنه (من كان فى الضلالة) مثلكم كونا راسخا بسط له فى الدنيا وطيب عيشه فى ظاهر الحال فيها ونعم بأنواع الملاذ وقوله (فليمدد له الرحمن مدا) أمر بمعنى الخبر معناه فندعه فى طغيانه ونمهله فى كفره بالبسط فى الآثار والسعة فى الديار والطول فى الاعمار وانفاقها فيما يستلذبه من الاوزار ولا يزال يمدله استدراجا (حتى اذا رأوا) أى كل من كفر بأعينهم (ما يوعدون) من قبل الله (اما العذاب) فى الدنيا بأيدى المؤمنين وغيرهم او فى البرزخ (واما الساعة) أى القيامة التى هم بها مكذبون وعن الاستعداد لها معرضون ولا شئ يشبه أهوالها وخزيها ونكالها (فسيعلمون) اذا رأوا ذلك (من هو شر مكانا) أى من جهة المكان الذى قوبل به المقام فى قولهم خير مقاما (وأضعف جندا) أى أقل ناصرا أهم أم المؤمنون أى أضعف من جهة الجند أى الذى أشير به الى الندى فى قولهم وأحسن نديا لانهم فى النار والمؤمنون فى الجنة فهذا رد عليهم فى قولهم أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (ويزيد الله الذين اهتدوا) الى الايمان (هدى) بما ينزل عليهم من الآيات عوض ما زوى عنهم من الدنيا اكراما لهم عنده مما بسط للضلال اهوانهم عليه * وأشار الى أن مثل ما خذل أولئك بالنزوال وفق هؤلاء لمحاسن الاعمال باقلال الامر ال

فقال

فقال عزمن قائل (والباقيات الصالحات) أى الطاعات والمعارف التى شرحت لها الصدور وأنارت بها القلوب وأوصلت الى علام الغيوب (خير عند ربك) مما متع به الكفرة والخيرية هنا فى مقابلة قولهم أى الفريقين خير مقاما وقيل الباقيات الصالحات هى الصلوات وقيل التسبيح روى أبو الدرداء قال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وأخذ عودا يابسا وأزال الورق عنه ثم قال ان قول لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن الباقيات الصالحات وهى من كنوز الجنة فكان أبو الدرداء يقول لأعملن ذلك ولأكثرن عمله حتى اذا رآنى الجهال حسبوا أنى مجنون قال الرازى والقول الاول أولى لانه تعالى انما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها فلا تختص ببعض العبادات فهى باسرها باقية صالحة نظرا الى أثرها الذى هو الهداية ثم بين تعالى خيريتها بقوله تعالى (ثوابا) أى من جهة الثواب (وخير مردا) أى من جهة العاقبة يوم الحسرة (فان قيل) لا يجوز أن يقال هذا خير الا والمراد انه خير من غيره والذى عليه الكفار لا خير فيه أصلا (أجيب) بأن المراد خير مما ظنه الكفار بقولهم خير مقاما وأحسن نديا وقيل هو كقولهم الصيف أحر من الشتاء يعنى أنه فى حره أبلغ منه فى برده فالكفرة يردون الى فناء وخسارة والمؤمنون الى ربح وبقاء * ولما ذكر تعالى الدلائل أولا على صحة البعث ثم أورد شبهة المنكرين وأجاب عنها أورد عليهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعنا فى القول بالحشر فقال تعالى (أفرأيت الذى) أى الذى يعرض عن هذا اليوم ويزيد على ذلك بأن (كفر بآياتنا) الدالات على عظمتنا بالدلالات البينات (وقال) جرأة منه وجهلا (لأوتين) أى والله لاوتين فى الساعة على تقدير قيامها (مالا وولدا) أى عظيمين فلم يكفه فى جهله تعجيز القادر حتى ضم اليه اقدار العاجز وقرأ حمزة والكسائى وولدا وكذا ولدا فى جميع ما فى هذه السورة بضم الواو وسكون اللام والباقون بفتح الواو واللام فى الجميع يقال ولد وولد كما يقال عرب وعرب وعدم وعدم أما القراءة بفتحتين فواضحة وهو اسم مفرد قائم مقام الجمع وأما قراءة الضم والاسكان فقيل هى كالتى قبلها فى المعنى وقيل بل هى جمع لولد نحو أسد وأسد وأنشدوا على ذلك

ولقد رأيت معاشرا * قد أثمروا مالا وولدا

وأنشدوا شاهدا على أن الولد والولد مترادفان قول الآخر

فليت فلانا كان فى بطن أمه * وليت فلانا كان ولد حماره

* ولما كان ما ادعاه لا علم به الا بأحد أمرين لا علم له بواحد منهما أنكر قوله ذلك بقوله تعالى (أطلع الغيب) الذى هو غائب عن كل مخلوق فهو فى بعد عن الخلق كالعالى الذى لا يمكن أحدا منهم الاطلاع اليه وتفرد به الواحد القهار (أم اتخذ) أى بغاية جهده (عند الرحمن عهدا) عاهده عليه بأن يؤتيه ما ذكر بطاعة فعلها على وجهها اليقف سبحانه فيه عند قوله وقيل فى العهد كلمة الشهادة وعن قتادة هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول وعن الكلبى هل عهد الله اليه أن يؤتيه ذلك وعن الحسن رحمه الله تعالى نزلت فى الوليد بن المغيرة والمشهور

أنها في العاص بن وائل قال خباب بن الارت كان لي عليه دين فاقتضيته فقال لا والله حتى تكفر بمحمد فقلت لا والله لا أكفر بمحمد حيا ولا ميتا ولا حين تبعث قال فاني اذا مت بعثت قلت نعم قال اذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك وقيل صاغ له خباب حليا فاقتضاه الاجر فقال انكم تزعمون أنكم تبعثون وان في الجنة ذهبا وفضة وحريرا فأنا أقضيك ثم فاني أوتى مالا وولدا فأعطيك حينئذ ثم انه سبحانه وتعالى بين من حاله ضد ما ادعاه فقال تعالى (كلا) وهي كلمة ردع وتنبيه على الخطأ أي هو مخطئ فيما يقول ويتمناه (سنكتب) أي نحفظ عليه (ما يقول) فنجازيه به في الآخرة وقيل نأمر الملائكة حتى يكتبوا عليه ما يقول (ونمد له من العذاب مدا) أي نزيده بذلك عذابا فوق عذاب كفره وقيل نطيل مدة عذابه (ونرثه) بموته (ما يقول) أي ما عنده من المال والولد (ويأتينا) يوم القيامة (فردا) لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلا أن يؤتى ثم زائدا قال تعالى ولقد جئتمونا فرادى وقيل فردا رافضا لهذا القول منفردا عنه * ولما تكلم سبحانه وتعالى في مسئلة الحشر والنشر تكلم الآن في الرد على عباد الاصنام فقال (واتخذوا) أي كفار قريش (من دون الله) أي الاوثان (آلهة) يعبدونها (ليكونوا لهم عزا) أي منفعة بحيث يكونون لهم شفعاء وأنصارا ينقذونهم من الهلاك * ثم أجاب تعالى بقوله تعالى (كلا) ردع وانكار لتعززهم بها (سيكفرون بعبادتهم) أي تستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا كقوله تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وفي آية أخرى ما كانوا ايانا يعبدون وقيل أراد بذلك الملائكة لانهم كانوا يكفرون بعبادتهم ويتبرؤن منهم ويخاصمونهم وهو المراد من قوله تعالى أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وقيل ان الله تعالى يحيي الاصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عبادهم ويتبرؤا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم ويجوز أن يراد الملائكة والاصنام (ويكونون عليهم ضدا) أي أعوانا وأعداء (فان قيل) لم وحده وهو خبر عن جمع (أجيب) بأنه اما مصدر في الاصل والمصادر موحدة مذكرة واما لانه مفرد في معنى الجمع قال الزمخشري والضد العون وحد توحيد قوله عليه الصلاة والسلام وهم يد على من سواهم لاتفاق كلمتهم وأنهم كشئ واحد لفرط تضامهم وتوافقهم انتهى والحديث رواه أبو داود وغيره والشاهد فيه قوله يد حيث لم يقل أيد * ولما ذكر تعالى ما لهؤلاء الكفار مع آلتهم في الآخرة ذكر بعده ما لهم مع الشياطين في الدنيا وأنهم يتولونهم وينقادون اليهم فقال تعالى مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وسلم (ألم تر) أي تنظر (أنا أرسلنا) أي سلطنا (الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) الازوالهز والاستفزاز أخوات ومعناها التهييج وشدة الازعاج أي تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات (فلا تعجل عليهم) أي تطلب عقوبتهم بأن يهلكوا ويبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم (انما نعد لهم عدا) أي ليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم الا أيام محصورة وأنفاس معدودة ونظيره قوله تعالى ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ وعن ابن عباس كان اذا قرأها بكى وقال آخر العدد خروج نفسك آخر العدد دخول قبرك آخر العدد فراق أهلك وعن

ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها فقال اذا كانت الانفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد وقيل نعد أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم على قليلها وكثيرها وقيل نعد الاوقات الى وقت الاجل المعين لكل أحد الذى لا يتطرق اليه الزيادة والنقصان * ثم بين تعالى ما سيظهر فى ذلك اليوم من الفصل بين المتقين والمجرمين فى كيفية الحشر فقال (يوم) أى واذكر يوم (نحشر المتقين) بايمانهم (الى الرحمن) أى الى محل كرامته وقوله تعالى (وفدا) حال أى وافدين عليه كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين لكراماتهم وانعامهم والوفد الجماعة الوافدون يقال وفد يفد وفدا ووفودا ووفادة أى قدم على سبيل التكرمة فهو فى الاصل مصدر ثم أطلق على الاشخاص كالصف وقال أبو البقاء وفد جمع وافد مثل ركب وراكب وصحب وصاحب وهذا الذى قاله ليس بمذهب سيبويه لان فاعلا لا يجمع على فعل عند سيبويه وأجازه الاخفش وجرى عليه الجلال المحلى فقال وفد جمع وافد بمعنى راكب انتهى وقال ابن عباس وفدا ركبانا وقال أبو هريرة على الابل وقال على رضى الله تعالى عنه والله ما يحشرون على أرجلهم ولكن فوق نوق رحالها الذهب ونجائب سروجها يواقيت ان هموا بها سارت وان هموا بها طارت (ونسوق المجرمين) بكفرهم (الى جهنم) وقوله تعالى (وردا) حال أى مشاة باهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق الى الماء وقيل عطاش قد تقطعت أعناقهم من شدة العطش لان من يرد الماء لا يرد الا بعطش وحقيقة الورد المسير الى الماء وقوله تعالى (لا يملكون الشفاعة) الضمير فيه للعباد المدلول عليهم بذكر المتقين والمجرمين وقيل للمتقين وقيل للمجرمين وقوله تعالى (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) استثناء متصل على القولين الاولين منقطع على الثالث والمعنى أن الشافعين لا يشفعون الا لمن اتخذ عند الرحمن عهدا كقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى ويدخل فى ذلك أهل الكبائر من المسلمين اذ كل من اتخذ عند الرحمن عهدا وجب دخوله فيه وصاحب الكبيرة اتخذ عند الرحمن عهدا وهو التوحيد فوجب دخوله تحته ويؤيده ما روى عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم أن يتخذ عند كل صباح ومساء عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انى أعهد اليك بانى أشهد ان لا اله الا أنت وحدك لا شريك لك وان محمدا عبدك ورسولك فلا تكلنى الى نفسى فانك ان تكلنى الى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير وانى لا أثق الا برحمتك فاجعل لى عندك عهدا توفينيه يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة فظهر أن المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه الدلالة على ثبوت الشفاعة لاهل الكبائر * ولما رد سبحانه وتعالى على عبدة الاوثان عاد الى الرد على من أثبت له ولدا بقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) أى قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله (لقد جئتم شيأ ادا) قال ابن عباس أى منكرا وقال قتادة أى عظيما وقال

ابن خالويه الاد والاد العجب وقيل العظيم المنكر والادة الشدة وأدنى الامر وآدنى أثقلنى وعظم علىّ وقرأ (تكاد السموات) نافع والكسائى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وقرأ (يتفطرن منه) أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة بعد الياء بنون ساكنة وكسر الطاء مخففا والباقون بعد الياء بتاء وفتح الطاء مشددة يقال انفطر الشئ وتفطر أى تشقق وقراءة التشديد أبلغ لان التفعل مطاوع فعل والانفعال مطاوع فعل ولان أصل التفعل التكلف (وتنشق الارض) أى تخسف بهم (وتخر الجبال هدا) أى تسقط وتنطبق عليهم (أن) أى من أجل ان (دعوا للرحمن ولدا) قال ابن عباس وكعب فزعت السموات والارض والجبال وجميع الخلائق الا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولدا (فان قيل) كيف يؤثر القول فى انفطار السموات وانشقاق الارض وخرور الجبال (أجيب) بوجوه الاول ان الله تعالى يقول كدت أفعل هذا بالسموات والارض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها لولا حلمى وانى لا أعجل بالعقوبة الثانى أن يكون استعظاما للكلمة وتهويلا وتصويرا لاثرها فى الدين وهدمها القواعده وأركانه الثالث ان السموات والارض والجبال تكاد أن تفعل كذلك لو كانت تعقل هذا القول ثم نفى الله تعالى عن نفسه الولد بقوله تعالى (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) أى ما يليق به اتخاذ الولد لان ذلك محال أما الولادة المعروفة فلا مقالة فى امتناعها وأما التبنى فان الولد لابد وأن يكون شبيها بالوالد ولا شبيه لله تعالى لان اتخاذ الولد انما يكون لاغراض امامن سرور أو استعانة أو ذكر جميل وكل ذلك لا يصح فى حق الله تعالى (ان) أى ما (كل من فى السموات والارض) أى ان كل معبود من الملائكة فى السموات والارض من الناس منهم العزير وعيسى (الا آتى الرحمن) أى ملتجئ الى ربوبيته (عبدا) منقادا مطيعا ذليلا خاضعا كما يفعل العبيد ومن المفسرين كالجلال المحلى من حمله على يوم القيامة خاصة والاول أولى لانه لا تخصيص فى الآية (لقد أحصاهم) أى حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوزه وعلمه وقبضته وقدرته وكلهم تحت تدبيره وقهره (وعدهم عدا) أى عد أشخاصهم وأيامهم وأنفاسهم وأفعالهم فان كل شئ عنده بمقدار لا يخفى عليه شئ من أمورهم (وكلهم آتيه) أى كل واحد منهم يأتيه (يوم القيامة فردا) أى وحيدا ليس معه من الدنيا شئ من مال أو نصير يمنعه * ولما رد سبحانه وتعالى على أصناف الكفرة وبالغ فى شرح أحوالهم فى الدنيا والآخرة ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) أى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لاسبابها من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك روى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا أحب الله عبدا يقول لجبريل أحببت فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء قد أحب الله فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم توضع له المحبة فى الارض واذا أبغض الله العبد قال مالك لا أحسبه الا قال فى البغض مثل ذلك والسين فى سيجعل اما لان السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين

الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك اذا قوى الاسلام والمعنى سيحدث لهم فى القلوب مودة واما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم الله الى خلقه بما يظهر من حسناتهم وروى عن كعب قال مكتوب فى التوراة لا محبة لاحد فى الارض حتى يكون ابتداؤها من السماء من الله عز وجل ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الارض ومصداق ذلك فى القرآن قوله سيجعل لهم الرحمن ودّا وقال أبو مسلم معناه يهب لهم ما يحبون والودّ والمحبة سواء * ولما ذكر سبحانه وتعالى فى هذه السورة التوحيد والنبوّة والحشر والردّ على فرق المبطلين بين تعالى أنه يسر ذلك بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله (فانما يسرناه) أى القرآن (بلسانك) أى العربى أى لولا أنه تعالى نقل قصصهم الى اللغة العربية لما تيسر ذلك لك (لتبشر به المتقين) أى المؤمنين (وتنذر) أى تخوف (به قوما لدا) جمع ألد أى جدل بالباطل وهم كفار مكة ثم انه تعالى ختم السورة بموعظة عظيمة بليغة فقال تعالى (وكم) أى كثيرا (أهلكنا قبلهم من قرن) أى أمة من الامم الماضية بتكذيب الرسل لانهم اذا تأملوا وعلموا أنه لا بدّ من زوال الدنيا وانه لا بدّ فيها من الموت وخافوا سوء العاقبة فى الآخرة كانوا الى الحذر من المعاصى أقرب * ثم أكد ذلك بقوله تعالى (هل تحس) أى ترى وقيل تجد (منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) أى صوتا خفيا لا قال الحسن بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا أثر أى فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء * (تنبيه) * الركز الصوت الخفى دون نطق بحروف ولا فم ومنه ركز الرمح أى غيبه فى الارض وأخفاه ومنه الركاز وهو المال المدفون لخفائه واستتاره والحديث الذى ذكره البيضاوى تبعا للزمخشرى وهو من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الانبياء المذكورين فيها وبعدد من دعا الله فى الدنيا ومن لم يدع الله تعالى حديث موضوع

(سورة طه عليه الصلاة والسلام مكية)

وهى مائة وخمس وثلاثون آية وعدد كلماتها ألف وثلثمائة واحدى وأربعون كلمة وعدد حروفها خمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفا وعن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطيت السورة التى ذكرت فيها البقرة من الذكر الاول وأعطيت طه ويس والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التى ذكرت فيها البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة

(بسم الله) الملك الحق المبين (الرحمن) الذى عم نعمه على خلقه أجمعين (الرحيم) الذى خص بجنته عباده المؤمنين وقرأ (طه) شعبة وحمزة والكسائى بامالة الطاء والهاء ووافقهم ورش وأبو عمرو على امالة الهاء محضة ولم يمل ورش محضة الاهذه الهاء وقد تقدم الكلام فى الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة وفى هذه هنا قولان الصحيح أنها من تلك وقيل انها كلمة مفيدة اما على القول الاوّل فقد تقدم الكلام فيه فى أول سورة البقرة والذى زاده هنا أمور أحدها قال الثعالبى الطاء شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه أقسم بالجنة والنار ثانيها يحكى

عن جعفر الصادق الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم ثالثها قال سعيد بن جبير هذا
افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادى رابعها مطمع الشفاعة للامة وهادى الخلق الى الملة
خامسها الطاء من الطهارة والهاء من الهداية فكأنه قيل ياطاهرا من الذنوب ياهاديا الى
علام الغيوب سادسها الطاء طول القراءة والهاء هيبتهم فى قلوب الكفار قال تعالى
سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب سابعها الطاء بتسعة فى الحساب والهاء بخمسة تكون
أربعة عشر ومعناها ياأيها البدر وأما على القول الثانى فقيل معنى طه يارجل وهو يروى
عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى * ثم قال سعيد بن
جبير بالنبطية وقال قتادة بالسريانية وقال عكرمة بالحبشية وقال الكلبى بلغة عك وهو
بتشديد الكاف ابن عدنان أخو معد وحكى الكلبى انك لو قلت فى عك يارجل لم تجب حتى
تقول طه وقال السدى معناه يافلان وقيل انه صلى الله عليه وسلم كان يقوم فى تهجده على
احدى رجليه فأمر أن يطأ الارض بقدميه معا وقال الكلبى لما نزل على رسول الله صلى الله
عليه وسلم الوحى بمكة اجتهد فى العبادة حتى كان يراوح بين قدميه فى الصلاة لطول قيامه وكان
يصلى الليل كله فأنزل الله عليه هذه الآية وأمره أن يخفف على نفسه فقال تعالى (ما أنزلنا عليك
القرآن لتشقى) أى لتتعب بما فعلت بعد نزوله من طول قيامك بصلاة الليل أى خفف عن نفسك
فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم صلى الليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام ابق
على نفسك فان لها عليك حقا ما أنزلناه لتهلك نفسك بالصلاة وتذيقها المشقة وما بعثت الا
بالحنيفية السمحة وروى أنه كان اذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقيل لما رأى
المشركون اجتهاده فى العبادة قالوا انك لتشقى حيث تركت دين آبائك أى لتتعنى وتتعب وما
أنزل عليك القرآن يامحمد الا لشقائك فنزلت وأصل الشقاء فى اللغة العناء وقيل المعنى انك
لاتلام على كفر قومك كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله تعالى وما أنت عليهم بوكيل أى
انك لاتؤاخذ بذنبهم وقيل ان هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم فى ذلك الوقت مقهورا تحت ذل الاعداء فكأنه تعالى قال لا تظن أنك تبقى أبدا على هذه
الحالة بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فانا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقيا فيما بينهم بل لتصير
معظما مكرما وقرأ حمزة والكسائى بالامالة وأبو عمرو بين بين وورش بين اللفظين والفتح عنده
ضعيف جدا وكذلك جميع رؤس آى هذه السورة من ذوات الياء وقوله تعالى (الا تذكرة)
استثناء منقطع أى لكن أنزلناه تذكرة قال الزمخشرى فان قلت هل يجوز أن يكون تذكرة بدلا
من محل لتشقى قلت لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذى الا فيه بمعنى
لكن (لمن يخشى) أى لمن فى قلبه خشية ورقة يتأثر بالانذار أو لمن علم الله تعالى منه أن يخشى
بالتخويف منه فانه المنتفع به وقوله تعالى (تنزيلا) بدل من اللفظ بفعله الناصب له (ممن خلق
الارض) أى من الله الذى خلق الارض (والسموات العلى) أى العالية الرفيعة التى لا يقدر
على خلقها فى عظمها غير الله تعالى والعلى جمع عليا كقولهم كبرى وكبر وصغرى وصغر وقدم

الارض على السموات لانها أقرب الى الحس وأظهر عنده من السموات ثم أشار الى وجه احداث الكائنات وتدبير أمرها بان قصد العرش وأجرى منه الاحكام والتقادير وأنزل منه الاسباب على ترتيب ومقادير حسبما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال تعالى (الرحمن على العرش) وهو سرير الملك (استوى) أى استواء يليق به فانه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولامكان واذا خلق الله الخلق لايحتاج الى مكان فهو بالصفة التى كان لم يزل عليها وتقدم الكلام على ذلك فى سورة الاعراف مستوفى فراجعه * ثم استدل سبحانه وتعالى على كمال قدرته بقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى) فهو مالك لما فى السموات من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما فى الارض من المعادن والفلوات ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى وهو التراب الندى والمراد الارضون السبع لانها تحته وقال ابن عباس ان الارضين على ظهر النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهى الصخرة التى ذكر الله تعالى فى قصة لقمان فتكن فى صخرة والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى وما تحت الثرى لايعلمه الا الله عز وجل وذلك الثور فاتح فاه فاذا جعل الله تعالى البحار بحرا واحدا سالت فى جوف ذلك الثور فاذا وقعت فى جوفه يبست وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة وورش بين اللفظين وكذا جميع رؤس آى السورة من ذوات الراء * ولما كانت القدرة تابعة للارادة وهى لاتنفك عن العلم عقب ذلك باحاطة علمه تعالى بجليات الامور وخفياتها على حد سواء فقال تعالى (وان تجهر بالقول) أى تعلن بالقول فى ذكر أو دعاء فالله تعالى غنى عن الجهر به (فانه يعلم السر وأخفى) قال الحسن فى السر ما أسر الرجل الى غيره وأخفى من ذلك ما أسر فى نفسه وعن ابن عباس السر ما تسر فى نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله تعالى فى قلبك من بعد ولا تعلم انك ستحدث به نفسك لانك تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسر غدا وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس السر ما أسر ابن آدم فى نفسه وأخفى ما خفى عليه مما هو فاعله قبل أن يعلمه وقال مجاهد السر العمل الذى يسر من الناس وأخفى الوسوسة وقيل السر هو العزيمة وأخفى ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه وقال زيد بن أسلم يعلم أسرار العباد وأخفى سره من عباده فلا يعلمه أحد * ولما ذكر صفاته وحد نفسه فقال تعالى (الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) التسعة والتسعون الوارد بها الحديث والحسنى تأنيث الاحسن وفضل أسماء الله تعالى على سائر الاسماء فى الحسن لدلالتها على معان هى أشرف المعانى وأفضلها روى ان لله تعالى أربعة آلاف اسم ألف لايعلمها الا هو وألف لايعلمها الا الله والملائكة وألف لايعلمها الا الله والملائكة والانبياء وأما الالف الرابعة فالمؤمنون يعلمونها فثلثمائة فى التوراة وثلثمائة فى الانجيل وثلثمائة فى الزبور ومائة فى القرآن تسعة وتسعون منها ظاهرة وواحد مكنون من أحصاها دخل الجنة وذكر فى لا اله الا الله فضائل كثيرة أذكر بعضها واسأل الله تعالى أن يجعلنا ومحبينا من أهلها روى أنه صلى الله عليه وسلم قال أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء أستغفر الله ثم تلا رسول

الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل أن يخلق السموات والارض وهو يقول أشهد أن لا اله الا الله مادا بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها فاذا أتمها أمر اسرافيل بالنفخ في الصور وقامت القيامة تعظيما لله وعن أنس قال صلى الله عليه وسلم مازلت أشفع الى ربي ويشفعني واشفع اليه ويشفعني حتى قلت يارب شفعني فيمن قال لا اله الا الله فقال يامحمد ليست لك ولا لاحد وعزتي وجلالي لا أدع أحدا في النار قال لا اله الا الله وقال سفيان الثوري سألت جعفر بن محمد عن حم عسق فقال الحاء حلمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته يقول الله عز وجل بحلمي وملكي وعظمتي وسنائي وقدرتي لا أعذب بالنار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله وروى عن موسى عليه السلام أنه قال يارب علمني شيأ أذكرك به قال قل لا اله الا الله قال انما أردت شيأ تخصني به قال ياموسى لو أن السموات السبع ومن فوقهن في كفة ولا اله الا الله في كفة لمالت بهن لا اله الا الله وقال بعض المفسرين في قوله تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة انها لا اله الا الله اليه يصعد الكلم الطيب لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله قل انما أعظكم بواحدة لا اله الا الله وقفوهم انهم مسؤلون عن قول لا اله الا الله بل جاء بالحق وصدق المرسلين هو لا اله الا الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة هو لا اله الا الله ويضل الله الظالمين عن قول لا اله الا الله وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال في السوق لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتا في الجنة قال الرازي وفي النكت ينبغي لاهل لا اله الا الله أن يخلصوا في أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا اله الا الله التصديق والتعظيم والجلالة والحرمة فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الجلالة فهو مراء ومن ليس له الحرمة فهو فاجر وكذاب * وحكى أن بشرا الحافي رأى كاغدا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك فرأى في النوم كأنه نودي يابشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك في الدنيا والآخرة * وذكر أن صيادا كان يصيد السمك وكانت ابنته تطرحها في الماء وتقول انما وقعت في الشبكة لغفلتها الهنا تلك الصبية كانت ترحم غفلتها وكانت تلقيها مرة أخرى في البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة الشيطان وأخرجنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منه والقنا في بحار رحمتك مرة أخرى وعن محمد بن كعب القرظي قال قال موسى الهي أي خلقك أكرم عليك قال الذي لا يزال لسانه رطبا من ذكرى قال فأي خلقك أعظم قال الذي يلتمس الى علمه علم غيره قال فأي خلقك أعدل قال الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس قال وأي خلقك اعظم جرما قال الذي يتهمني وهو الذي يسألني ثم لا يرضى بما قسمت له الهنا انا لا نتهمك فانا نعلم ان كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما لا تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أفعالنا وأعمالنا وعن الحسن اذا كان يوم القيامة نادى مناد سيعلم الجمع من

أولى بالكرم أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال أين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم ينادي مناد أين الحامدون الله كثيرا على كل حال ثم يكون الحساب على من بقي الهنا نحن حمدناك وأثنينا عليك بقدر طاقتنا ومنتهى قدرتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين * ولما عظم الله تعالى حال القرآن وحال رسوله صلى الله عليه وسلم بما كلفه أتبع ذلك بما يقوي قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من ذكر أحوال الانبياء تقوية لقلبه في الابلاغ كقوله تعالى وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وبدأ بموسى عليه السلام لان فتنته كانت أعظم الفتن ليتسلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ويصبر على حمل المكاره فقال تعالى (وهل أتاك حديث موسى) وهذا يحتمل لان يكون هذا أول ما أخبره من أمر موسى فقال وهل أتاك أي لم يأتك الى الآن فتنبه له وهذا قول الكلبي ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك في الزمان المتقدم فكأنه قال أليس قد أتاك وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس وهذا وان كان على لفظ الاستفهام الذي لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الخبر في نفسه وهذه الصورة أبلغ في ذلك كقولك لصاحبك هل بلغك عني كذا فيتطلع السامع الى معرفة ما يومئ اليه ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل موسى لا من قبل الله تعالى وقيل ان هل بمعنى قد وجرى على ذلك الجلال المحلي تبعا للبغوي وقوله تعالى (اذ رأى) يجوز أن يكون منصوبا بالحديث وهو الظاهر ويجوز أن ينصب باذكر مقدرا أي واذكر اذ رأى (نارا) وذلك أن موسى عليه السلام استأذن شعيبا عليه السلام في الرجوع من مدين الى مصر لزيارة والدته وأخيه فأذن له فخرج بأهله وماله وكانت أيام شتاء وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشأم وامرأته حامل في شهرها لا تدري ليلا تضع أو نهارا فسار في البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير الى جانب الطور الغربي الايمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد قيل كانت ليلة جمعة وأخذت امرأته في الطلق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وجعل يقدح زنده فلا يوري فأبصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور (فقال لاهله امكثوا) أي أقيموا في مكانكم والخطاب لامرأته وولدها والخادم ويجوز أن يكون للمرأة وحدها اخرج على ظاهر لفظ الاهل فان الاهل يقع على الجمع وأيضا قد يخاطب الواحد بلفظ الجمع تفخيما وقرأ حمزة بضم الهاء في الوصل والباقون بالكسر (اني آنست) أي أبصرت (نارا) والايناس الابصار البين الذي لا شبهة فيه ومنه انسان العين لانه يتبين به الشئ والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل ابصار ما يؤنس به ولما وجد منه الايناس وكان متيقنا حققه لهم بكلمة اني ليوطن أنفسهم * ولما كان الاتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الامر فيهما على الرجاء والطمع فقال (لعلي آتيكم منها بقبس) أي شعلة في رأس فتيلة أو عود أو نحو ذلك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء في اني ولعلي الآتية والباقون بالسكون الا ابن عامر ففتح لعلي مع من ذكروهم على مراتبهم في المد (أو أجد على النار هدى) أي هاديا يدلني على الطريق ومعنى الاستعلاء في على النار أن أهل

النار يستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه فى مررت بزيد انه لصوق بمكان يقرب من زيد أولان المصطلين بها اذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها وقال بعضهم النار أربعة أقسام نار تأكل ولا تشرب وهى نار الدنيا ونار تشرب ولا تأكل وهى التى فى الشجر الاخضر كما قال تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا ونار تأكل وتشرب وهى نار المعدة ونار لا تأكل ولا تشرب وهى نار موسى عليه السلام وقيل أيضا النار أربعة أحدها نار لها نور بلا حرقة وهى نار موسى عليه السلام ثانيها الحارقة بلا نور وهى نار جهنم أعاذنا الله تعالى منها ثالثها الحرقة والنور وهى نار الدنيا رابعها لا حرقة ولا نور وهى نار الاشجار (تنبيه) * ان وصلت هدى بقلما فليس فيها الا التنوين للجميع وان وقف عليها فهم على أصولهم فى الفتح والامالة وبين اللفظين (فلما أتاها) أى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها الى أعلاها أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة يغير ضوء النار قال ابن مسعود كانت الشجرة سمرة خضراء وقال مقاتل وقتادة والكلبى كانت من العوسج وقال وهب كانت من العليق وقيل من العناب قال أكثر المفسرين ان الذى رآه موسى لم يكن نارا بل كان من نور الرب تعالى وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما ذكر بلفظ النار لان موسى عليه السلام حسبه نارا فلما دنا منها سمع تسبيح الملائكة ورأى نورا عظيما قال وهب ظن موسى أنها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب وهو الحشيش اليابس ليقتبس من لهبها فمالت اليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن بأسرع من خمودها كأنها لم تكن ثم رمى موسى ببصره الى فروعها فاذا خضرتها ساطعة فى السماء واذا نور بين السماء والارض له شعاع تكل عنه الابصار فلما رأى موسى عليه السلام ذلك وضع يديه على عينيه وألقيت عليه السكينة (نودى ياموسى انى أنا ربك) قال وهب نودى من الشجرة فقيل ياموسى فأجاب سريعا ولم يدر من دعاه فقال انى أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت فقال أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب اليك منك فعلم أن ذلك لا ينبغى الا لله تعالى فأيقن به وقيل انه سمع بكل أجزائه حتى ان كل جارحة منه كانت أذنا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة من انى على تقدير الباء أى بأنى لان النداء يوصل بها تقول ناديته بكذا وأنشد الفارسى قول الشاعر

ناديت باسم ربيعة بن مكدم * ان المنوه باسمه الموثوق

وجوز ابن عطية أن تكون بمعنى لاجل وليس بظاهر والباقون بالكسر اما على اضمار القول كما هو رأى البصريين أى فقيل واما لان النداء فى معنى القول عند الكوفيين وقوله تعالى أنا يجوز أن يكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر ان ويجوز أن يكون توكيدا للضمير المنصوب ويجوز أن يكون فصلا وروى ابن مسعود مرفوعا فى قوله تعالى (فاخلع نعليك) انهما كانتا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ فأمر بخلعهما صيانة للوادى المقدس وقال عكرمة ومجاهد انما أمر بذلك ليباشر بقدميه تراب الارض المقدسة فيناله بركتها ويدل لذلك انه قال

تعالى

تعالى عقبه (انك بالوادى المقدس) أى المطهر أو المبارك فخلعهما وألقاهما من وراء الوادى
هذا ما قاله أهل التفسير وذكر أهل الاشارة فى ذلك وجوها أحدها أن النعل فى النوم يعبر
بالزوجة وقوله فاخلع نعليك اشارة الى أنه لا يلتفت بخاطره الى الزوجة والولد وأن لا يبقى
مشغول القلب بأمرهما ثانيها المراد بخلع النعلين ترك الالتفات الى الدنيا والآخرة كأنه
أمره أن يصير مستغرق القلب بالكلية فى معرفة الله تعالى فلا يلتفت الى المخلوقات ثالثها ان
الانسان حال الاستدلال على وجود الصانع لا يمكنه أن يتوصل اليه الا بمقدمتين مثل أن يقول
العالم المحسوس محدث وكل ما كان كذلك فله مؤثر ومدبر وصانع فهاتان المقدمتان شبيهتان
بالنعلين لان بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من النظر فى الخلق الى معرفة الخالق
ثم بعد الوصول الى معرفة الخالق وجب أن لا يبقى ملتفتا الى تلك المقدمتين فكأنه قيل لا تكن
مشتغل الخاطر بتلك المقدمتين فانك وصلت الى الوادى المقدس الذى هو بحر معرفة الله تعالى
وقوله تعالى (طوى) بدل أو عطف بيان وقرأه هنا وفى النازعات نافع وابن كثير وأبو عمرو بغير
تنوين فهو ممنوع من الصرف باعتبار البقعة مع العلمية وقيل لانه معدول عن طاو فهو مثل عمر
للعدل عن عامر وقيل انه اسم أعجمى ففيه العلمية والعجمة والباقون بالتنوين فهو مصروف باعتبار
المكان ففيه العلمية فقط وعند هؤلاء ليس بأعجمى وقوله تعالى (وأنا اخترتك) أى اصطفيتك
للرسالة من قومك قرأ حمزة بتشديد النون من أنا وقرأ اخترناك بنون بعدها ألف بلفظ الجمع
والباقون بتاء مضمومة وقوله تعالى (فاستمع لما يوحى) أى اليك منى فيه نهاية الهيبة والجلالة كأنه
تعالى قال لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفا اليه وفى قوله تعالى
وأنا اخترتك نهاية اللطف والرحمة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثانى نهاية الخوف
(تنبيه) يجوز فى لام لما أن تتعلق فاستمع وهو أولى وأن تكون مزيدة فى المفعول على حد
قوله تعالى ردف لكم وجوز الزمخشرى أن يكون ذلك من باب التنازع ونازعه أبو حيان بأنه
لو كان كذلك لاعاد الضمير مع الثانى فكان يقول فاستمع له لما يوحى وأجيب عنه بأن مراده
التعلق المعنوى من حيث الصلاحية وأما تقدير الصناعة فلم يعنه وقوله تعالى (اننى أنا الله
لا اله الا أنا فاعبدنى) بدل مما يوحى دال على أنه مقصور على تقرير التوحيد الذى هو منتهى
العلم والامر بالعبادة التى هى كمال العمل وفى هذه الآية دلالة على ان علم أصول الدين مقدم
على علم الفروع وأيضا فالفاء فى قوله تعالى فاعبدنى تدل على أن عبادته انما لزمت لالهيته
لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وخص الصلاة بالذكر وأفردها فى قوله
تعالى (وأقم الصلاة لذكرى) للعلة التى أناط بها اقامتها وهو تذكر المعبود وشغل القلب
واللسان بذكره وقيل لذكرى لانى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها وقيل لاوقات ذكرى وهى
مواقيت الصلاة أولذكر صلاتى لما روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال من نام عن صلاة
أو نسيها فليقضها اذا ذكرها ان الله يقول وأقم الصلاة لذكرى وقيل لان أذكرك بالثناء والمدح
واجعل لك لسان صدق عليا وقيل لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى * ولما خاطب

تعالى موسى عليه السلام بقوله تعالى فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى أتبعه بقوله تعالى (انّ الساعة آتية) أى كائنة (أكاد أخفيها) قال أكثر المفسرين معناه أكاد أخفيها من نفسى فكيف يعلمها غيرى من الخلق وكيف أظهرها لكم ذكر تعالى على عادة العرب اذا بالغوا فى كتمان الشئ يقول الرجل كتمت سرى من نفسى أى أخفيته غاية الاخفاء والله تعالى لا يخفى عليه شئ والمعنى فى اخفائها التهويل والتخويف لانهم اذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى فى اخفاء وقت الموت لان الله تعالى وعد قبول التوبة فاذا عرف وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصى الى أن يقرب ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصى بتعريف وقت موته فتعريف وقت الموت كالاغراء بفعل المعصية فاذا لم يعلم وقت موته لا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصى أو يتوب منها فى كل وقت خوف معاجلة الاجل وقال أبو مسلم أكاد بمعنى أريد وهو كقوله تعالى كذلك كدنا ليوسف ومن أمثالهم المتداولة لا أفعل ذلك ولا أكاد اى لا أريد ان أفعله وقال الحسن ان أكاد من الله واجب فمعنى قوله تعالى أكاد أخفيها أى أنا أخفيها عن الخلق كقوله تعالى عسى أن يكون قريبا أى هو قريب وقيل أكاد صلة فى الكلام والمعنى أنّ الساعة آتية أخفيها قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه * فما ان يكاد قرنه يتنفس

أى فما ان يتنفس قرنه وقوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) أى تعمل من خير أو شر متعلق بآتية واختلف فى المخاطب بقوله تعالى (فلا يصدنك) أى يصرفنك (عنها من لا يؤمن بها) فقيل وهو الاقرب كما قاله الرازى انه موسى عليه السلام لان الكلام أجمع خطاب له وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم واختلف أيضا فى عود هذين الضميرين على وجهين أحدهما قال أبو مسلم لا يصدنك عنها أى عن الصلاة التى أمرتك بها من لا يؤمن بها أى بالساعة فالضمير الاول عائد الى الصلاة والثانى الى الساعة ومثل هذا جائز فى اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمى بجوابهما جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه ثانيهما قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أى عن الايمان بها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان الى يوم القيامة وهذا أولى لان الضمير يعود الى أقرب المذكورات وههنا الاقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم انما يصار اليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا *(تنبيه)* المقصود من ذلك نهى موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضى نهى من لم يؤمن عن صد موسى وفيه وجهان أحدهما أنّ صدّ الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على حمله على المسبب الثانى أنّ صدّ الكافر مسبب عن رخاوة الرجل فى الدين فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم لا أرينك ههنا المراد نهى المخاطب عن حضوره له لا أن يراه هو فالرؤية مسببة عن الحضور كما أنّ صدّ الكافر مسبب عن الرخاوة والضعف فى الدين فقيل لا تكن رخوا بل كن شديدا صلبا حتى لا يلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع فى صدك عما أنت عليه (واتبع هواه) أى ميل نفسه الى اللذات المحبوبة المخدجة اقتصر نظره عن غيرها وخالف أمر الله (فتردى) أى فتهلك ان انصددت عنها وما فى قوله

تعالى (وماتلك بيمينك) مبتدأ استفهامية وتلك خبره و بيمينك حال من معنى الاشارة وقوله تعالى (ياموسى) تكرير لانه ذكره قبل في قوله تعالى نودي ياموسى وبعد في مواضع كالقها ياموسى لزيادة الاستئناس والتنبيه (فان قيل) السؤال انما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة في ذلك (أجيب) بأن في ذلك فوائد الاولى توقيفه على انها عصا حتى اذا قلبها حية علم انها معجزة عظيمة وهذا على عادة العرب يقول الرجل لغيره هل تعرف هذا وهو لايشك أنه يعرفه ويريد أن يضم اقراره بلسانه الى معرفته بقلبه الثانية ان يقرر عنده انها خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لايخافها الثالثة انه تعالى لما أراه تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السماء وأسمعه كلام نفسه ثم أورد عليه التكليف الشاق وذكر له المعاد وختم ذلك بالتهديد العظيم فتحير موسى عليه السلام ودهش فقيل له وما تلك بيمينك ياموسى وتكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة (فان قيل) هذا خطاب من الله تعالى لموسى بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم (أجيب) بالمنع فقد خاطبه في قوله تعالى فأوحى الى عبده ما أوحى الا أن الذى ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الى الخلق والذى ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سرا لم يؤهل له أحد من الخلق وأيضا ان كان موسى تكلم معه فأمة محمد يخاطبون الله تعالى في كل يوم مرارا على ما قاله صلى الله عليه وسلم المصلي يناجي ربه والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد يوم القيامة بالتسليم والتكريم لقوله تعالى سلام قولا من رب رحيم *(تنبيه)* قوله تعالى وما تلك اشارة الى العصا وقوله تعالى بيمينك اشارة الى اليد وفي هذا نكت ذكرها الرازي رحمه الله تعالى الاولى أنه تعالى لما أشار اليهما جعل كل واحدة منهما معجزة قاهرة وبرهانا ساطعا ونقلها من حد الجمادية الى مقام الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين مرة الى قلب العبد فأي عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى السعادة بالطاعة ونور المعرفة ثانيها ان بالنظر الاول الواحد صار الجماد ثعبانا فبلع سحر السحرة فأي عجب لو صار القلب ثعبانا فبلع سحر النفس الامارة بالسوء ثالثها ان العصا كانت في يمين موسى عليه السلام فبسبب بركته انقلبت ثعبانا وبرهانا وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن فاذا حصلت ليد موسى عليه السلام هذه المنزلة فأي عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب اصبعي الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية * ولما سأل تعالى موسى عليه السلام عن ذلك أجاب بأربعة أشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الاجمال أولها (قال هي عصاي) وقد تم الجواب بذلك الا أنه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر لانه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض ثانيها قوله (أتوكأ) أي أعتمد (عليها) اذا مشيت واذا عييت واذا وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة ثالثها قوله (وأهش) أي أخبط ورق الشجر (بها) ليسقط (على غنمي) لتأكله فبدأ عليه السلام أولا بمصالح نفسه في قوله أتوكأ عليها ثم بمصالح رعيته في قوله أهش بها على غنمي وكذلك في القيامة يقول نفسي نفسي ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل في

الدنيا الا باصلاح أمر الامة وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون فلا
جرم يوم القيامة يبدأ أيضا بأمته فيقول أمتى أمتى رابعها قوله (ولى فيها مآرب) جمع مأربة
بتثلث الراء حوائج ومنافع (أخرى) كحمل الزاد والسقى وطرد الهوام وانما أجمل فى المآرب
رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله تعالى مرة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب
ذلك وقيل انقطع لسانه بالهيبة فاجمل وقيل اسم العصا نبعة وقيل فى المآرب كانت ذات شعبتين
ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا طلب كسره لواه بالشعبتين واذا سار ألقاها على عاتقه
فعلق بها أداوته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها واذا كان فى البرية ركزها وعرض
الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل والزندين بفتح الزاى تثنية زند وزندة والزند
العود الاعلى الذى تقدح به النار والزندة السفلى فيها ثقب فاذا اجتمعا قيل زندان ولم تقل
زندتان واذا قصر رشاؤه وصله بها وكان يقاتل بها السباع عن غنمه وقيل كان فيها من المعجزات
أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا ويكونان شمعتين بالليل واذا ظهر عدو
حاربت عنه واذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه
ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام وروى عن ابن عباس أنها كانت
تماشيه وتحدثه ولما ذكر موسى هذه الجوابات لربه (قال) له (ألقها) أى انبذها (ياموسى فألقاها
فاذا هى حية) أى ثعبان عظيم (تسعى) أى تمشى على بطنها سريعا وههنا نكت خفية احداها
أنه عليه السلام لما قال ولى فيها مآرب أخرى أراد الله تعالى أن يعرفه ان فيها مآرب لا يفطن
لها ولا يعرفها وانها أعظم من سائرها وأربى ثانيها كان فى رجله شئ وهو النعل وفى يده شئ
وهو العصا فالرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب فقال أولا فاخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب
ثم قال ألقها وهو اشارة الى ترك الطلب كأنه تعالى قال انك مادمت فى مقام الهرب والطلب
كنت مشتغلا بنفسك طالبا لحظك فلا تكن خالصا لمعرفتى فكن تاركا للهرب والطلب تكن
خالصا لى ثالثها أن موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال صفته لما وصل الى الحضرة ولم
يكن معه الا النعلان والعصا أمره بالقائها حتى أمكنه الوصول الى الحضرة فأنت فى ألف وقر من
المعاصى فكيف يمكنك الوصول الى جنابه (فان قيل) كيف قال ههنا حية وفى موضع آخر جان
وهى الحية الخفيفة الصغيرة وقال فى موضع آخر ثعبان وهو أكبر ما يكون من الحيات
(أجيب) بأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان
فبينهما تناف لان الثعبان العظيم من الحيات كما مر والجان الدقيق وفى ذلك وجهان أحدهما
أنها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جلدها حتى صارت ثعبانا فأريد
بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها الثانى أنها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة الجان
لقوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان قال وهب لما ألقى العصا على وجه الارض نظر اليها فاذا هى
حية تسعى صفراء من أعظم ما يكون من الحيات تمشى بسرعة لها عرف كعرف الفرس وكان
بين لحييها أربعون ذراعا صارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقا وعرفا يهتز وعيناها تتقدان

كالنار تغر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من الابل فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها ويسمع لانيابها صريف فاعظيما فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب ثم نودي ياموسى ارجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف (قال) تعالى له (خذها) أى بيمينك (ولا تخف) وكان على موسى مدرعة من صوف قد خلها بعيدان فلما قال تعالى له خذها الف طرف المدرعة على يده فأمره الله أن يكشف يده وذكر بعضهم أنه لما الف كم المدرعة على يده قال له الملك أرأيت ان أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغنى عنك شيأ قال لا ولكنى ضعيف ومن ضعف خلقت وكشف عن يده ثم وضعها فى فم الحية فاذا هى عصا كما كانت ويده فى شعبتها فى الموضع الذى كان يضعها اذا توكأ عليها كما قال تعالى (سنعيدها سيرتها الاولى) وقد أظهر الله تعالى فى هذه العصا معجزات لموسى عليه السلام منها انقلاب العصا حية ومنها وضع يده فى فمها من غير ضرر ومنها انقلابها خشبة مع الامارات التى تقدمت * (تنبيه) * فى نصب سيرتها أوجه أحدها أن تكون منصوبة على الظرف أى فى سيرتها أى طريقتها ثانيها على البدل من هاء سنعيدها بدل اشتمال لان السيرة الصفة أى سنعيدها صفتها وشكلها ثالثها على اسقاط الخافض أى الى سيرتها وقيل غير ذلك (فان قيل) لما نودى ياموسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم أنه مبعوث من عند الله تعالى الى الخلق فلماذا خاف (أجيب) عن ذلك بأوجه أحدها أن ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه السلام ماشاهد مثل ذلك قط وهذا معلوم بدلائل العقول ثانيها انما خافها لانه عليه السلام عرف مالقى آدم عليه السلام منها ثالثها أن مجرد قوله ولا تخف لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا يدل عليه ولكن ذلك الخوف انما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فانه ما أظهر الرغبة فى الجنة ولا النفرة عن النار وقوله تعالى (واضمم يدك) أى اليمنى (الى جناحك) أى جنبك الايسر تحت العضد فى الابط (تخرج بيضاء) أى نيرة مشرقة تضىء كشعاع الشمس تعشى البصر لابد فيه من حذف والتقدير واضمم يدك تنضم وأخرجها تخرج فحذف من الاول والثانى وأبقى مقابليهما ليدلا على ذلك ايجازا واختصارا وانما احتيج الى هذا لانه لا يترتب على مجرد الضم الخروج وبيضاء حال من فاعل تخرج وقوله تعالى (من غير سوء) متعلق بتخرج وروى عن ابن عباس الى جناحك الى صدرك والاول أولى كما قال الرازى لانه يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر لطرفيه وجناحا الانسان جانباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر سميا بذلك لانه يجنحهما أى يميلهما عند الطيران وجناحا الانسان عضداه فعضداه يشبهان جناحى الطير ولانه قال تخرج بيضاء ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى والسوء الرداءة والقبح فى كل شئ فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شئ الى العرب ولهم عنه نفرة عظيمة واسماعهم لاسمه مجاجة فكان جديرا بأن يكنى عنه ولا ترى أحسن ولا أظرف ولا أخف للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه يروى أن موسى عليه السلام كان شديد الادمة فكان اذا أدخل يده اليمنى

فى جيبه فأدخلها فى ابطه الايسر وأخرجها فكانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير مرض ثم اذا ردها عادت الى لونها الاول من غير نور وقوله تعالى (آية أخرى) أى معجزة ثانية حال من ضمير تخرج كبيضاء وقوله تعالى (لنريك) متعلق بما دل عليه آية أى دللنا بها لنريك وقوله تعالى (من آياتنا الكبرى) أى العظمى على رسالتك متعلق بمحذوف على أنه حال من الكبرى والكبرى مفعول ثان لنريك والتقدير لنريك الكبرى حال كونها من آياتنا اى بعض آياتنا واختلف أى الآيتين أعظم فى الاعجاز فقال الحسن اليد لانه تعالى قال لنريك من آياتنا الكبرى والذى عليه الاكثر أن العصا أعظم اذليس فى اليد الا تغير اللون وأما العصا ففيها تغير اللون وخلق الزيادة فى الجسم وخلق الحياة والقدرة والاعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم اعادتها عصا بعد ذلك فقد وقع التغير فى كل هذه الامور فكانت العصا أعظم وأما قوله تعالى لنريك من آياتنا الكبرى فقد ثبت انه عائد الى الكلام وانه غير مختص باليد (فان قيل) لم لم يقل تعالى من آياتنا الكبر (أجيب) بأن ذلك ذكر لرؤس الآى وقيل فيه اضمار معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى وهذا التقدير يقوى قول القائل بأن اليد أعظم آية * ولما أظهر سبحانه وتعالى لموسى هذه الآيات عقبها بأمره بالذهاب الى فرعون بقوله تعالى (اذهب) أى رسولا (الى فرعون) وبين تعالى العلة فى ذلك بقوله تعالى (انه طغى) أى جاوز الحد فى كفره الى أن ادعى الالهية ولهذا خصه الله تعالى بالذكر مع أنه عليه السلام مبعوث الى الكل قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى فانك بعينى وسمعى وان معك يدى ونصرى وانى ألبسك جبة من سلطانى تستكمل بها القوة فى أمرك أبعثك الى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وأمن مكرى وغرته الدنيا حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى أقسم بعزتى لولا الحجة التى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ولكن هان على وسقط من عينى فبلغه رسالتى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا فان ناصيته بيدى لا يطرف ولا يتنفس الا بعلمى فى كلام طويل قال فسكت موسى عليه السلام سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك فعند ذلك (قال رب اشرح لى صدرى) أى وسعه لتحمل الرسالة قال ابن عباس يريد حتى لا أخاف غيرك والسبب فى هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه فى موضع آخر بقوله قال رب انى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى وذلك أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون اللعين خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده وكان يضيق صدرا بما كلف من مقاومة فرعون وحده فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه حتى يعلم أن أحدا لا يقدر على مضرته الا باذن الله تعالى واذا علم ذلك لم يخف فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده وقيل اشرح لى صدرى بالفهم عنك ما أنزلت على من الوحى (ويسر) أى سهل (لى أمرى) أى ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة الى فرعون وذلك لان كل ما يصدر من العبد من الافعال والاقوال والحركات والسكنات فالله تعالى هو الميسر له (فان قيل) قوله لى فى اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ما جدواه والامر مستتب بدونه (أجيب) بأنه

قد أبهم الكلام أولا فقال اشرح لي ويسر لي فعلم ان ثم مشروحا وميسرا ثم بين ورفع الابهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح لصدره والتيسير لامره من أن يقول اشرح صدري ويسر امري على الايضاح الساذج لانه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الاجمال والتفصيل (واحلل عقدة من لساني) قال ابن عباس كان في لسانه عليه السلام رتة وذلك أن موسى عليه السلام كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لآسية امرأته ان هذا عدوي وأراد أن يقتله فقالت له آسية انه صبي لا يعقل ولا يميز وفي رواية ان أم موسى لما فطمته ردته الى فرعون فنشأ موسى في حجر فرعون وامرأته يربيانه واتخذاه ولدا فبينما هو ذات يوم يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب يلعب به اذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير بضربه وهم بقتله فقالت آسية أيها الملك انه صغير لا يعقل جربه ان شئت فجاءت بطشتين في أحدهما جمر وفي الآخر جوهر فاراد أن يأخذ الجوهر فأخذ جبريل يد موسى عليه السلام فوضعها على النار فأخذ جمرة فوضعها في فيه فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة وقيل قربا اليه تمرة وجمرة فأخذ الجمرة فجعلها في فيه فاحترق لسانه وروى أن يده احترقت وان فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال الى أي رب تدعوني قال الى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها وعن بعضهم انها لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة وقيل كان ذلك التعقد خلقة فسأل الله تعالى ازالته واختلفوا في أنه لم طلب حل تلك العقدة فقيل لئلا يقع خلل في أداء الوحي وقيل لئلا يستخف بكلامه فينفروا عنه ولا يلتفتوا اليه وقيل لاظهار المعجزة كما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا في حقه فكذا اطلاق لسان موسى معجز في حقه واختلفوا في زوال العقدة بكمالها فقيل بقي بعضها لقوله وأخي هرون هو أفصح مني لسانا وقول فرعون ولا يكاد يبين وكان في لسان الحسين ابن علي رضي الله تعالى عنهما رتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثها من عمه موسى وقال الحسن زالت بالكلية لقوله تعالى قد أوتيت سؤلك يا موسى وضعف هذا الرازي بأنه عليه السلام لم يقل واحلل العقد من لساني بل قال واحلل عقدة من لساني فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله قال والحق أنه انحل أكثر العقد وبقي منها شئ وقال الزمخشري وفي تنكير العقدة ولم يقل واحلل عقدة لساني انه طلب حل بعضها ارادة أن يفهم عنه فهما جيدا أي ولذا قال (يفقهوا) أي يفهموا (قولي) عند تبليغ الرسالة ولم يطلب الفصاحة الكاملة ومن لساني صفة للعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لساني *(تنبيه)* استدل على أن في النطق فضيلة عظيمة بوجوه أولها قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان فماهية الانسان هي الحيوان الناطق ثانيها اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان قال زهير

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقالوا ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مرسلة أي لو ذهب النطق اللساني لم يبق من الانسان الا القدر الحاصل في البهائم وقالوا المرء بأصغريه قلبه ولسانه وقالوا المرء مخبوء تحت لسانه

ثالثها ان فى مناظرة آدم عليه السلام مع الملائكة ماظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض * ولما رأى موسى عليه السلام أن التعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة قربة عظيمة فى الدعاء الى الله تعالى طلب المعاونة على ذلك بقوله (واجعل لى وزيرا) أى معينا على الرسالة ولذلك قال عيسى بن مريم عليه السلام من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وقال محمد صلى الله عليه وسلم ان لى فى السماء وزيرين وفى الارض وزيرين فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل واللذان فى الارض أبو بكر وعمر وقال صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله تعالى بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسى ذكره وان نوى خيرا أعانه وان أراد شرا كفه وقال أنوشروان لا يستغنى أجود السيوف عن الصقل ولا أكرم الدواب عن السوط ولا أعلم الملوك عن الوزير * ولما كان التعاون على الدين منقبة عظيمة أراد أن لا تحصل هذه الدرجة الا لاهله فقال (من أهلى) أى أقاربى وقوله (هرون) قال الجلال المحلى مفعول ثان وقوله (أخى) عطف بيان وذكر غيره أعاريب غير ذلك لا حاجة لنا بذكرها * (تنبيه) * الوزير مشتق من الوزر لانه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أو من الوزر لان الملك يعتصم برأيه ويلجئ اليه أموره أو من الموازرة وهى المعاونة قال الرازى وكان هرون مخصوصا بأمور منها الفصاحة لقول موسى هو أفصح منى لسانا ومنها الرفق لقول هرون يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ومنها أنه كان أكبر سنا منه وقال ابن عادل كان أكبر سنا من موسى بأربع سنين وكان أفصح لسانا منه وأجل وأوسم أبيض اللون وكان موسى آدم اللون أقنى جعدا * ولما طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يجعل هرون وزيرا له طلب منه أن يشد أزره بقوله (اشدد به أزرى) أى أقوى به ظهرى (وأشركه فى أمرى) أى فى النبوة والرسالة وقرأ ابن عامر بسكون الياء من أخى وهمزة مفتوحة من أشدد وهو على مرتبته فى المد وهمزة مضمومة من أشركه وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من أخى وهمزة وصل من اشدد وأشركه بهمزة مفتوحة والباقون بسكون الياء من أخى وهمزة وصل من اشدد وفتح الهمزة من أشركه ثم انه تعالى حكى عنه ما لاجله دعا بهذا الدعاء فقال (كى نسبحك) تسبيحا (كثيرا) قال الكلبى نصلى لك كثيرا نحمدك ونثنى عليك والتسبيح تنزيه الله تعالى فى ذاته وصفاته عما لا يليق به (ونذكرك) ذكرا (كثيرا) أى نصفك بصفات الكمال والجلال والكبرياء وجوز أبو البقاء أن يكون كثيرا نعتا لزمان محذوف أى زمانا كثيرا (انك كنت بنا بصيرا) أى عالما بأنا لا نريد بهذه الطاعات الا وجهك ورضاك أو بصيرا بأن الاستعانة بهذه الاشياء لاجل حاجتى فى النبوة اليها أو بصيرا بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو الاصلح لنا * ولما سأل موسى عليه السلام ربه تلك الامور المتقدمة وكان من المعلوم أن قيامه بما كلف به لا يتم الا باجابته اليها لا جرم (قال) الله تعالى (قد أوتيت سؤلك يا موسى) أى أعطيت جميع ما سألته منا عليك لما فيه من وجوه المصالح (ولقد مننا عليك مرة أخرى) أى أنعمنا عليك فى وقت آخر وفى ذلك تنبيه على أمور أحدها كأنه تعالى قال انى

راعيت

واعدت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال ثانيها انى كنت ربيتك فلو منعتك الآن كان ذلك ردّا بعد القبول واساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمى ثالثها انا أعطيناك فى الازمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك الدرجة العالية وهى منصب النبوة فكيف يليق بمثل هذه التربية المنع عن المطلوب (فان قيل) لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع أن هذه اللفظة مؤذية والمقام مقام تلطف (أجيب) بأنه انما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التى وصل اليها ما كان مستحقا الشئ منها بل انما خصه الله تعالى بها لمحض فضله واحسانه (فان قيل) لم قال مرّة أخرى مع أنه تعالى ذكر مننا كثيرة (أجيب) بأنه لم يعن بمرّة أخرى واحدة من المنن لان ذلك قد يقال فى القليل والكثير ثم بين تلك المنة وهى ثمانية أولها قوله تعالى (اذ أوحينا الى أمّك) وحيا لا على وجه النبوة اذ المرأة لا تصلح للقضاء ولا للامامة ولا تلى عند اكثر العلماء تزويج نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل على ذلك قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا يوحى اليهم والوحى جاء لا بمعنى النبوة فى القرآن كثيرا قال تعالى وأوحى ربك الى النحل واذ أوحيت الى الحواريين ثم اختلفوا فى المراد بهذا الوحى على وجوه أحدها أنه رؤيا رأتها أم موسى وكان تأويلها وضع موسى فى التابوت وقذفه فى البحر وأن الله تعالى يرده عليها ثانيها انه عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة واحدة ثالثها المراد خطوره بالبال وغلبته على القلب (فان قيل) هذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بأن الالقاء فى البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على أحدهما لاجل الصيانة عن الثانى (أجيب) بأنها لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان الالقاء فى البحر الى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد فى يد فرعون رابعها لعله أوحى الى بعض الانبياء فى ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم ان ذلك النبى عرفها اما مشافهة أو مراسلة واعترض على هذا بأن الامر لو كان كذلك لما لحقها الخوف (وأجيب) بأن ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما ان موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع أن الله تعالى كان أمره بالذهاب اليه مرارا خامسها لعل بعض الانبياء المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام أخبروا بذلك الخبر وانتهى ذلك الخبر الى امه سادسها لعل الله تعالى بعث اليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث الى مريم فى قوله فتمثل لها بشرا سويا وأما قوله تعالى (ما يوحى) فمعناه ما لا يعلم الا بالوحى أو ما ينبغى أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام ويبدل منه (ان اقذفيه) أى ألقيه (فى التابوت) أى ألهمناها أن اجعليه فى التابوت (فاقذفيه) أى موسى بالتابوت (فى اليم) أى نهر النيل (فليلقه اليم بالساحل) أى شاطئه والامر بمعنى الخبر والضمائر كلها لموسى فالمقذوف فى البحر والملقى الى الساحل هو موسى فى جوف التابوت حتى لا تتفرق الضمائر فيتنافر النظم الذى هو أم اعجاز القرآن والقانون الذى وقع عليه التحدى ومراعاته أهم ما يجب على المفسر * (تنبيه) * اليم البحر والمراد به هنا نيل مصر فى قول الجميع واليم اسم يقع على النهر والبحر العظيم قال الكسائى والساحل فاعل بمعنى مفعول سمى بذلك

لانّ الماء يسحله أي يحسره اذا علاه وقوله تعالى (يأخذه عدوّلى وعدوّله) أى فرعون جواب فليلقه وتكرير عدوّ للمبالغة أو لانّ الاول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع أى سيصير عدوّاله بعد ذلك فانه لم يكن فى ذلك الوقت بحيث يعادى روى أنها اتخذت تابوتا قال مقاتل انّ الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون وجعلت فى التابوت قطنا محلوجا فوضعته فيه وجصصته وقيرته ثم ألقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر كبير فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية بنت مزاحم اذا بتابوت يجرى به الماء فأمر فرعون الغلمان والجوارى باخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبى أصبح الناس وجها فأحبه عدوّ الله حبا شديدا لا يتمالك أن يصبر عنه كما قال تعالى (وألقيت عليك محبة منى) وهذه هى المنة الثانية قال الزمخشرى منى لا يخلو اما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على أنى أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب واما أن يتعلق بمحذوف وهو صفة لمحبة أى محبة خالصة أو واقعة منى قد ركزتها أنا فى القلوب وزرعتها فيها فلذلك أحبك فرعون وآسية حتى قالت قرّة عين لى ولك لا تقتلوه روى أنه كان على وجهه مسحة جمال وفى عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من يراه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودّا المنة الثالثة قوله تعالى (ولتصنع على عينى) أى تربى على رعايتى وحفظى لك فأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشئ بعينه اذا اعتنى به ويقول للصانع اصنع هذا على عينى أنظر اليك لئلا تخالف به عن مرادى وبغيتى *(تنبيه)* ولتصنع معطوف على علة مضمرة مثل ليتلطف بك ولتصنع أو على الجملة السابقة باضمار فعل معلل مثل فعلت ذلك وقرأ بفتح الباء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون المنة الرابعة قوله تعالى (اذ تمشى أختك) والعامل فى اذ ألقيت أو تصنع ويجوز أن يكون بدلا من اذ أوحينا واستشكل بأنّ الوقتين مختلفان متباعدان (وأجيب) بأنه يصح مع اتساع الوقت كما يصح أن يقول لك الرجل لقيت فلانا سنة كذا فتقول وأنا لقيته اذ ذاك وربما لقيه هو فى أوّلها وأنت فى آخرها (فتقول هل أدلكم على من يكفله) يروى أنّ أخته واسمها مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وذلك أنه كان لا يقبل ثدى امرأة فقالت لهم ذلك فقالوا نعم فجاءت بالام فقبل ثديها فذلك قوله تعالى (فرجعناك الى أمك كى تقرّ عينها) بلقائك ورؤيتك (ولا تحزن) أى هى بفراقك أو أنت بفراقها وفقد اشفاقها ويروى أنّ آسية استوهبته من فرعون وتبنته وهى التى أشفقت عليه وطلبت له المراضع المنة الخامسة قوله تعالى (وقتلت نفسا) قال ابن عباس هو الرجل القبطى الذى قتله خطأ بأن وكزه حين استغاثه الاسرائيلى اليه قال الكسائى كان عمره اذ ذاك اثنتى عشرة سنة (فنجيناك من الغم) أى من غم قتله خوفا من اقتصاص فرعون كما قال تعالى فى آية فأصبح فى المدينة خائفا يترقب بالمهاجرة الى مدين المنة السادسة قوله تعالى (وفتناك فتونا) قال ابن عباس اختبرناك اختبارا وقيل ابتليناك ابتلاء قال ابن عباس الفتون وقوعه فى محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى منها أوّلها انّ أمه حملته فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الاطفال ثم القاؤه فى البحر فى التابوت ثم منعه الرضاع

الامن ثدى أمه ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطى وخروجه الى مدين خائفا (فان قيل) انه تعالى عدد أنواع منته على موسى فى هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع وفتناك فتونا (أجيب) بجوابين الاول فتناك أى خلصناك تخليصا من قولهم فتنت الذهب اذا أردت تخليصه من الفضة أونحوها الثانى ان الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * ولما كان التشديد فى المحنة يوجب كثرة الثواب عده الله تعالى من جملة النعم وتقدم تفسير ابن عباس وهو قريب من ذلك (فان قيل) هل يصح اطلاق الفتان على الله تعالى اشتقاقا من قوله تعالى وفتناك فتونا (أجيب) بأنه لا يصح لانه صفة ذم فى العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لاسيما فيما يوهم مالا ينبغى المنة السابعة قوله تعالى (فلبثت سنين فى أهل مدين) والتقدير وفتناك فخرجت خائفا الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم عند شعيب عليه السلام وتزوجت بابنته وهى اما عشر أو ثمان لقوله على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وقال وهب لبث موسى عند شعيب عليه السلام ثمانا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته فانه قضى أوفى الاجلين والآية دالة على انه لبث عشر سنين وليس فيهما ماينفى الزيادة على العشر كما قاله الرازى وان قال ابن عادل يرده قوله تعالى فلما قضى موسى الاجل أى الاجل المشروط عليه فى تزويجه وسار بأهله ومدين بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر (ثم جئت على قدر) أى على القدر الذى قدرت أنك تجىء فيه لان أكلمك وأستنبئك غير مستقدم وقته المعين ولا مستأخر وقال عبد الرحمن بن كيسان على رأس أربعين سنة وهو القدر الذى يوحى فيه للانبياء وهذا قول أكثر المفسرين أى على الموعد الذى وعد الله وقدر أنه يوحى اليه بالرسالة وهو أربعون سنة وكرر تعالى قوله (ياموسى) عقب ماهو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك المنة الثامنة قوله تعالى (واصطنعتك) أى اخترتك (لنفسى) لاصرفك فى أوامرى لئلا تشتغل الا بما أمرتك به وهو اقامة حجتى وتبليغ رسالتى وأن تكون فى حركاتك وسكناتك لى لا لنفسك ولا لغيرك ثم بين تعالى ماله اصطنعه وهو الابلاغ والاداء بقوله تعالى (اذهب أنت وأخوك بآياتى) أى بمعجزاتى وقال ابن عباس الآيات التسع التى بعث بها موسى وقيل انها العصا واليد لانهما اللذان جرى ذكرهما فى هذا الموضع ولم يذكر انه عليه السلام أوتى قبل مجيئه الى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقى فرعون فالتمس منه آية غيرهاتين الآيتين قال تعالى حكاية عن فرعون ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وقال تعالى فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه (فان قيل) كيف أطلق لفظ الجمع على الاثنين (أجيب) بأن العصا كانت آيات انقلابها حيوانا ثم انها فى أول الامر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كأنها جان ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ثم

كانت تصير ثعبانا وهذه آية أخرى ثم انه عليه السلام كان يدخل يده في فمها فما كانت تضره فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالها بعد ذلك آية أخرى فدل ذلك على انها كانت آيات كثيرة وقيل الآيات العصا واليد وحل عقدة لسانه وقيل معناه أمدكما بآياتي وأظهر على أيديكما من الآيات ما تنزاح به العلل من فرعون وقومه (ولا تنيا) أى لا تفترا ولا تقصرا (في ذكري) أى بتسبيح وغيره فان من ذكر جلال الله استخف غيره فلا يخاف أحدا وتقوى روحه بذلك الذكر فلا تضعف في مقصوده ومن ذكر الله لا بدّ وأن يكون ذاكرا احسانه وذاكر احسانه لا يفتر في أداء أوامره وقيل لا تنيا في ذكري عند فرعون بأن تذكرا لفرعون وقومه أنّ الله لا يرضى منهم الكفر وتذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب وقيل المراد بالذكر تبليغ الرسالة (اذهبا الى فرعون انه طغى) أى بادعاء الربوبية *(تنبيه)* ذكر الله تعالى المذهوب اليه هنا وهو فرعون وحذفه في قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي اختصارا في الكلام وقال القفال فيه وجهان أحدهما أنّ قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرّة أخرى اذهبا ليعرفا أنّ المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعا لا أن ينفرد به أحدهما دون الآخر والثاني أنّ قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي أمر بالذهاب الى كل الناس من بني اسرائيل وقوم فرعون ثم ان قوله تعالى اذهبا الى فرعون أمر بالذهاب الى فرعون وحده واستبعد هذا بل الذهابان متوجهان لشئ واحد وقد حذف من كل من الذهابين ما أثبته في الآخر وقيل انه حذف المذهوب اليه من الاوّل وأثبته في الثاني وحذف المذهوب به وهو بآياتي من الثاني وأثبته في الاول (فقولا له قولا لينا) أى مثل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى فانه دعوة في صورة عرض ومشورة (فان قيل) لم أمر الله تعالى باللين مع الكافر الجاحد (أجيب) بأنّ عادة الجبار اذا أغلظ عليه في الوعظ يزداد عتوّا وتكبرا فأمر باللين حذرا من أن تحمله الحاقة على أن يسطو عليهما واحتراما لما له من حق التربية وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرّة وقيل عداه شبابا لا هرم بعده وملكا لا يزول الا بالموت وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته واذا مات دخل الجنة فأعجبه ذلك وكان لا يقطع أمرا دون هامان وكان غائبا فلما قدم أخبره بالذي دعاه اليه موسى وقال أردت أن أقبل منه فقال له هامان كنت أرى ان لك عقلا ورأيا أنت رب تريد أن تكون مربوبا وأنت تعبد تريد أن تعبد فغلبه على رأيه وقوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) متعلق باذهبا أو قولا أى باشرا الامر على رجائكما وطمعكما مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجتهد بطوقه ويسعى بأقصى وسعه قال الزمخشري ولا يستقيم أن يراد ذلك في حق الله تعالى اذ هو عالم بعواقب الامور وعن سيبويه كل ما ورد في القرآن من لعل وعسى فهو من الله واجب بمعنى انه يستحيل بقاء معناه في حق الله تعالى وقال الفرّاء ان لعل بمعنى كي فتفيد العلية كما تقول اعمل لعلك تأخذ أجرتك *(فائدة)* قرأ رجل عند يحيى بن معاذ فقولا له قولا

لينا

لينا فبكى يحيى وقال الهى هذا برك بمن يقول أنا الاله فكيف برك بمن يقول أنت الاله (فان قيل) ما الفائدة فى ارسالهما والمبالغة عليهما فى الاجتهاد مع علمه تعالى بأنه لا يؤمن (أجيب) بأن ذلك لالزام الحجة وقطع المعذرة واظهار ما حدث فى تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم ولذلك قدم الاول أى ان لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقل من أن يتوهمه فيخشى ويروى عن كعب انه قال والذى يحلف به كعب انه لمكتوب فى التوراة فقولا له قولا لينا وسأقسى قلبه فلا يؤمن ولقد تذكر فرعون وخشى حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين ألجمه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ثم ان موسى وهرون (قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط) أى يعجل (علينا) بالعقوبة (أو أن يطغى) أى يتجاوز الحد فى الاساءة علينا (فان قيل) لما تكرر الامر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على معصية (أجيب) بأن الامر ليس على الفور فسقط السؤال وهذا من أقوى الدلائل على أن الامر لا يقتضى الفور (فان قيل) قوله تعالى قالا ربنا يدل على أن المتكلم موسى وهرون ولم يكن هرون هناك حاضرا (أجيب) بأن الكلام كان مع موسى الا أنه كان متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير فى تلك الحالة وان كان موسى وحده الا أنه تعالى أضافه اليهما كما فى قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل روى أن القائل عبد الله بن أبى وحده (فان قيل) ان موسى عليه السلام قال رب اشرح لى صدرى فأجابه الله تعالى بقوله قد أوتيت سؤلك ياموسى وهذا يدل على أنه تعالى قد شرح صدره ويسر له ذلك الامر فكيف قال بعده اننا نخاف فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر (أجيب) بأن شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر والنواهى وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق اليها السهو والتحريف وذلك شئ آخر غير الخوف (قال) الله تعالى لهما (لا تخافا اننى معكما) حافظكما وناصركما (أسمع وأرى) أى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل فأفعل ما يوجبه حفظى ونصرى وقال ابن عباس اسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنع فلست بغافل عنكما فلا تهتما وقال القفال قوله تعالى أسمع وأرى يحتمل أن يكون مقابلا لقوله تعالى يفرط علينا أو أن يطغى يفرط علينا بأن لا يسمع منا أو أن يطغى بأن يقتلنا قال تعالى اننى معكما أسمع كلامكما فأسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه ثم انه سبحانه وتعالى أعاد ذلك التكليف فقال (فأتياه) لانه سبحانه وتعالى قال فى المرة الاولى اذهبا الى فرعون وفى الثانية قال اذهب أنت وأخوك وفى الثالثة قال اذهب الى فرعون وفى الرابعة قال ههنا فأتياه (فان قيل) انه تعالى أمرهما فى الثانية بأن يقولا له قولا لينا وههنا أمرهما بقوله تعالى (فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل) أى الى الشأم (ولا تعذبهم) أى خل عنهم من استعمالك اياهم فى اشغالك الشاقة كالحفر والبناء وحمل الثقيل وقطع الصخور وكان فرعون يستعملهم فى ذلك مع قتل الاولاد وفى هذا التغليظ من وجوه

الاول قوله انا رسولا ربك وهذا يقتضى انقياده لهما والتزامه لطاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع الثانى قولهما فأرسل معنا بنى اسرائيل فيه ادخال النقص على ملكه لانه كان محتاجا اليهم فيما يريده من الاعمال أيضا الثالث قولهما ولا تعذبهم الرابع قولهما (قد جئناك بآية من ربك) فما الفائدة فى التليين أولا والتغليظ ثانيا (أجيب) بأن الانسان اذا ظهر لحاجه فلا بد له من التغليظ حيث لم ينفع التليين (فان قيل) أليس الاولى أن يقول انا رسولا ربك قد جئناك بآية فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم لان ذكر المعجزة مقرونا بالدعاء للرسالة أولى من تأخيره عنه (أجيب) بأن هذا أولى لانهما ذكرا مجموع الدعاوى ثم استدلا على ذلك المجموع بالمعجز وقولهما قد جئناك بآية من ربك قال الزمخشرى هذه الجملة جارية من الجملة الاولى وهى انا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير لان دعوى الرسالة لا تثبت الا ببينتها التى هى مجىء الآية (فان قيل) ان الله تعالى قد أعطاهما آيتين هما العصا واليد ثم قال تعالى اذهب أنت وأخوك بآياتى وذلك يدل على ثلاث آيات وقالا هنا قد جئناك بآية من ربك وذلك يدل على أنها كانت واحدة فكيف الجمع (أجاب) القفال بأن معنى الآية الاشارة الى جنس الآيات كأنهما قالا قد جئناك ببينات من عند الله ثم يجوز أن يكون ذلك حجة واحدة أو حججا كثيرة وتقدم الجواب عن التثنية والجمع وأن فى العصا واليد آيات وقوله تعالى (والسلام على من اتبع الهدى) يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى كأنه تعالى قال فقولا انا رسولا ربك وقولا له والسلام على من اتبع الهدى ويحتمل أن يكون كلام الله قد تم عند قوله قد جئناك بآية من ربك وقوله تعالى بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى وعد من قبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الله فى الدنيا والآخرة أو أن سلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين وقال بعضهم ان على بمعنى اللام أى والسلام لمن اتبع الهدى كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وقال تعالى فى موضع آخر ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها (انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب) ما جئنا به (وتولى) أعرض عنه قال البيضاوى ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لان التهديد فى أول الامر أهم وأنجع وبالواقع أليق * ولما أتياه وقالا انا رسولا ربك وبلغاه ما أمرا به (قال) لهما (فمن ربكما يا موسى) انما نادى موسى وحده بعد مخاطبته لهما معا اما لان موسى هو الاصل فى الرسالة وهرون تبع ورده ووزير واما لان فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التى كانت فى لسان موسى عليه الصلاة والسلام ويعلم فصاحة أخيه بدليل قوله هو أفصح منى لسانا فأراد أن يفحمه ويدل عليه قول فرعون ولا يكاد يبين واما لانه حذف المعطوف للعلم به أى يا موسى وهرون قاله أبو البقاء ثم ان فرعون لم يشتغل مع موسى بالبطش والايذاء لما دعاه الى الله تعالى مع أنه كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر بل خرج معه فى المناظرة لانه لو آذاه لنسب الى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع فى المناظرة وذلك يدل على ان السفاهة من غير حجة لم يرضه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعى الاسلام والعلم * (تنبيه) * قال ههنا فمن ربكما يا موسى وقال فى سورة الشعراء

ومارب العالمين وهو سؤال عن الماهية فهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة قال ابن عادل والاقرب أن يقال سؤال من كان مقدما على سؤال مالانه كان يقول انى أنا الله والرب فقال فمن ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه فى هذا المقام لظهوره وجلائه عدل الى طلب الماهية لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر (فان قيل) لم قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما (أجيب) بأنه أثبت نفسه ربا فى قوله ألم نربك فينا وليدا فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال أنا ربك فلم تدع ربا آخر وهذا يشبه كلام نمروذ حين قال له ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال له نمروذ أنا أحيى وأميت فلم تمكن الامانة التى ذكرها ابراهيم هى الامانة مع الاحياء التى عارضه نمروذ بها الا فى اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام أى أنا الرب الذى ربيتك ومعلوم ان الربوبية التى ادعاها موسى عليه السلام غير الربوبية فى المعنى وأنه لا مشاركة بينهما * ثم كأنه قيل فما أجاب به موسى فقيل (قال) مستدلا على اثبات الصانع بأحوال المخلوقات (ربنا الذى أعطى كل شئ) أى من الانواع (خلقه) أى صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الابصار والاذن الشكل الذى يوافق الاسماع وكذلك الانف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناء عنه أو أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحجرة زوجين والبعير والناقة كذلك والرجل والمرأة كذلك فلم يزاوج منها شيأ غير جنسه وما هو على خلاف خلقه (ثم هدى) أى ثم عرّف الله تعالى الحيوان الكائن من المخلوق كيف يرتفق بما أعطى وكيف يتوصل اليه قال الزمخشرى ولله در هذا الجواب ما أحضره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظره بعين الانصاف وكان طالبا للحق * ولما خاف فرعون أن يزيده موسى فى اظهار تلك الحجة فيظهر للناس صدقه (قال) لموسى (فما بال) أى حال (القرون) أى الامم (الاولى) كقوم نوح وهود ولوط وصالح فى عبادتهم الاوثان فانها كانت تعبد الاوثان وتنكر البعث فمن شقى منهم ومن سعد أراد أن يصرفه عن ذلك الكلام ويشغله بهذه الحكايات فلم يلتفت اليه فلذلك (قال علمها عند ربى) استأثر به لا يعلمه الا هو وما أنا الا عبد مثلكم لا أعلم منه الا ما أخبرنى به علام الغيوب وعلم أحوال هذه القرون مثبت عند ربى (فى كتاب) هو اللوح المحفوظ ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه فى علمه تعالى بما استحفظه العالم وقيده بالكتابة ويؤيده قوله (لا يضل ربى ولا ينسى) والضلال أن يخطئ الشئ فى مكانه فلم يهتد اليه والنسيان أن يذهب عنه بحيث لا يخطر بباله وهما محالان على علام الغيوب بخلاف العبد الذليل والبشر الضئيل أى لا يضل تعالى ولا ينسى كما تضل أنت وتنسى يا مدعى الربوبية بالجهل والوقاحة ثم عاد الى تتميم كلامه الاول وابراز الدلائل الظاهرة على الوحدانية فقال (الذى جعل لكم) فى جملة الخلق (الارض مهادا) أى فراشا *(تنبيه)* هذا الموصول فى محل رفع صفة لربى وخبره محذوف تقديره هو أو منصوب على المدح وقرأ عاصم وحمزة هنا وفى سورة الزخرف مهدا بفتح الميم وسكون الهاء أى

مهدها مهدا أو تمهدونها فهي لهم كالمهاد وهو ما يمهد للصبي وقرأ الباقون بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعدها وهو اسم ما يمهد كالفراش أو جمع مهد (وسلك) أي سهل (لكم فيها سبلا) أي طرقا بين الجبال والاودية والبراري تسلكونها من أرض الى أرض لتبلغوا منافعها (وأنزل من السماء ماء) أي مطرا وعدل بقوله (فأخرجنا به) عن لفظ الغيبة الى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى تنبيها على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال قدرته والحكمة وايذانا بأنه مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لمشيئته وعلى هذا نظائره كقوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها أم من خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق (أزواجا) أي أصنافا سميت بذلك لانها مزدوجة مقترنة بعضها مع بعض وقوله تعالى (من نبات) بيان وصفة لازواجا وكذلك (شتى) وهو جمع شتيت من شت الامر تفرق نحو مرضى جمع مريض وجرحى جمع جريح فألفه للتأنيث أي أزواجا متفرقة ويجوز أن يكون صفة للنبات فانه من حيث انه مصدر في الاصل يستوي فيه الواحد والجمع أي انها مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم فلذلك قال تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم) والانعام جمع نعم وهي الابل والبقر والغنم يقال رعت الانعام ورعيتها والامر للاباحة وتذكير النعمة والجملة حال من ضمير أخرجنا أي مبيحين لكم الاكل ورعي الانعام أي وبقية الحيوانات (ان في ذلك) أي فيما ذكرت من هذه النعم (لآيات) أي لعبرا (لأولي النهى) أي أصحاب العقول جمع نهية كغرفة وغرف سمي به العقل لانه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح ولما ذكر سبحانه وتعالى منافع الارض والسماء بين أنها غير مطلوبة لذاتها بل هي مطلوبة لكونها وسائل الى منافع الآخرة فقال (منها) أي الارض (خلقناكم) * فان قيل انما خلقنا من النطفة على ما بين في سائر الآيات (أجيب) بأوجه أحدها انه لما خلق أصلنا آدم عليه السلام من تراب كما قال تعالى كمثل آدم خلقه من تراب حسن اطلاق ذلك علينا ثانيها أن تولد الانسان انما هو من النطفة ودم الطمث وهما متولدان من الاغذية والغذاء اما حيواني أو نباتي والحيواني ينتهي الى النباتي والنبات انما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح انه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافي كوننا مخلوقين من النطفة ثالثها روى ابن مسعود ان ملك الارحام يأتي الى الرحم حين يكتب أجل المولود ورزقه والارض التي يدفن فيها فانه يأخذ من تراب تلك البقعة وينثره على النطفة ثم يدخلها في الرحم وأخرج ابن المنذر عن عطاء الخراساني قال ان الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة (وفيها نعيدكم) أي مقبورين بعد الموت (ومنها نخرجكم) أي عند البعث (تارة) أي مرة (أخرى) أي بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب ونردهم كما كانوا أحياء ونخرجهم الى المحشر يوم يخرجون من الاجداث سراعا * ولما كان المقام لتعظيم القدرة عطف عليه قوله تعالى (ولقد أريناه) أي أبصرناه (آياتنا كلها) أي التسع المختصة بموسى عليه السلام وهي العصا واليد وفلق البحر والحجر

والجراد

والجراد والقمل والضفادع والدم وتق الجبل (فكذب) بها وزعم أنها سحر (وأبى) أن يسلم (فان قيل) قوله تعالى كلها يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات فان من جملة الآيات ما أظهرها على أيدي الانبياء قبل موسى عليه السلام وبعده (أجيب) بأن لفظ الكل وان كان للعموم قد يستعمل في الخصوص مع القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شئ أو يقال ان موسى عليه السلام أراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الانبياء فكذب فرعون بالكل أو يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضي تكذيب الكل فحكى سبحانه وتعالى ذلك على الوجه الذي يلزم ثم كأنه قيل كيف صنع في تكذيبه وابائه فقيل (قال) حين علم حقيقة ما جاء به موسى وظهوره وخاف أن يتبعه الناس ويتركوه ووهن في نفسه وهنا عظيما (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) أي الارض التي نحن مالكوها ويكون لك الملك فيها فصارت فرائصه ترعد خوفا مما جاء به موسى لعلمه وايقانه أنه على الحق وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت له وان مثله لا يخذل ولا يذل ناصره وأنه غالبه على ملكه لا محالة ثم خيل لاتباعه أن ذلك سحر بقوله (بسحرك ياموسى) فكان ذلك مع ما ألفوه من عادتهم في الضلال صارفا لهم عن اتباع ما رأوه من البيان ثم أظهر لهم أنه يعارضه بمثل ما أتى به بقوله (فلنأتينك بسحر مثله) أي مثل سحرك يعارضه (فاجعل بيننا وبينك موعدا) أي من الزمان والمكان (لا نخلفه) أي لا نجعله خلفنا (نحن ولا أنت) أي لا نجاوزه ولما كان كل من الزمان والمكان لا ينفك عن الآخر قال (مكانا) وآثر ذلك المكان لاجل وصفه بقوله (سوى) أي عدلا وقال ابن عباس نصفا تستوي مسافة الفريقين اليه فانظر الى هذا الكلام الذي زوقه ونمقه وصنعه بما وقف به قومه عن السعادة واستمر يقودهم بعناده حتى أوردهم البحر فأغرقهم ثم في غمرات النار أحرقهم وقيل معنى سوى أي سوى هذا المكان وقرأ شعبة وابن عامر وحمزة والكسائي بضم السين والباقون بكسرها وأمال شعبة وحمزة والكسائي في الوقف محضة والباقون بالفتح وقيل المراد بالموعد الوعد لان الاخلاف لا يلائم الزمان والمكان أي بل الوعد هو الذي يصح وصفه بالخلف وعدمه والى هذا نحا جماعة مختارين له ورد عليهم بقوله (قال موعدكم يوم الزينة) فانه لا يطابقه *(تنبيه)* يحتمل ان قوله قال موعدكم يوم الزينة أن يكون من قول فرعون فبين الوقت وأن يكون من قول موسى عليه السلام وهذا أظهر كما قال الرازي لوجوه الاول أنه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا الثاني وهو ان تعيين يوم الزينة يقتضي اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه انما يليق بالمحق الذي يعرف ان اليد له لا المبطل الذي يعرف انه ليس معه الا التلبيس ثالثها ان قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون لموسى وهرون لزم اما أن نحمله على التعظيم أو ان أقل الجمع اثنان فالاول لا يليق بحال فرعون معهما والثاني غير جائز فاذا جعلناه من موسى عليه السلام استقام الكلام واختلف في يوم الزينة فقال مجاهد وقتادة النيروز وقال ابن عباس وسعيد بن جبير هو يوم عاشوراء وقيل كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة وقيل يوم كانوا يتخذون فيه سوقا ويتزينون

ذلك اليوم وبنى قوله (وأن يحشر) للمفعول لان القصد الجمع لا كونه من معين (الناس) أى يجتمعوا (ضحى) أى وقت الضحوة فيكون أظهر لما يعمل وأجلى فلا يأتى الليل الا وقد قضى الامر وعرف المحق من المبطل ويكثر التحديث بذلك فى كل بدو وحضر ويشيع فى جميع أهل الوبر والمدر (فتولى) أى أعرض (فرعون) عن موسى الى تهيئة ما يريد من الكيد بعد توليه عن الانقياد لامر الله تعالى (فجمع كيده) أى مكره وحيلته وخداعه الذى دبره على موسى عليه السلام بجمع من يحصل بهم الكيد وهم السحرة حشرهم من كل فج وكان أهل مصر أسحر أهل الارض وأكثرهم ساحرا وكانوا فى ذلك الزمان أشد اعتناء بالسحر وأمهر ما كانوا وأكثر (ثم أتى) للميعاد الذى وقع القرار عليه بمن حشره من السحرة والجنود ومن تبعهم من الناس مع توفر الدواعى على الاتيان للعيد والنظر الى تلك المغالبة التى لم يكن مثلها * ولما تشوق السامع الى ما كان من موسى عليه السلام عند ذلك استأنف تعالى الخبر عنه بقوله تعالى (قال لهم) أى لاهل الكيد والعناد وهم السحرة وغيرهم (موسى) حين رأى اجتماعهم ناصحا لهم (ويلكم) يا أيها الناس الذين خلقكم الله تعالى لعبادته (لا تفتروا) أى لا تتعمدوا (على الله كذبا) باشراك أحد معه (فيسحتكم) قال مقاتل يهلككم وقال قتادة يستأصلكم (بعذاب) من عنده وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم الياء وكسر الحاء من الاسحات وهو لغة نجد وتميم والباقون بفتحهما والسحت لغة الحجاز (وقد خاب من افترى) كما خاب فرعون فانه افترى واحتال ليبقى الملك له فلم ينفعه (فتنازعوا) أى تجاذب السحرة (أمرهم بينهم) لما سمعوا هذا الكلام علما منهم أنه لا يقدر أن يواجه فرعون بمثل فى جمع جنوده واتباعه ثم يسلم منه الا من الله تعالى معه (وأسروا النجوى) قال الكلبى قالوا سرا ان غلبنا موسى اتبعناه وقال محمد بن اسحق لما قال لهم موسى لا تفتروا على الله كذبا قال بعضهم لبعض ما هذا بقول ساحر وبالغوا فى اخفاء ذلك فان النجوى الإسرار لئلا يظهر فرعون وأتباعه على ذلك فكأنه قيل ما قالوا حين انتهى تنازعهم فقيل (قالوا) أى السحرة (ان هذان لساحران) أى موسى وهرون وقرأ ابن كثير وحفص بسكون النون من ان وشددها الباقون وقرأ أبو عمرو بالياء بعد الذال والباقون بالالف على لغة من يجعل ألف المثنى لازما فى كل حال قال أبو حيان وهى لغة لطوائف من العرب بنى الحرث بن كعب وبعض كنانة وخثعم وزبيد وبنى النضر وبنى الجهيم ومرادوعذرة وقال شاعرهم * تزود منى بين أذناه ضربة * بريد أذنيه وقال آخر

ان أباها وأبا أباها * قد بلغا فى المجد غايتاها

وقيل تقدير الآية انه هذان فحذف الهاء وذهب جماعة الى أن حرف ان ههنا بمعنى نعم أى نعم هذان روى أن أعرابيا سأل ابن الزبير شيأ فحرمه فقال لعن الله ناقة حملتنى اليك فقال ابن الزبير ان وصاحبها أى نعم وشدد ابن كثير النون فكانت نجواهم فى تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفا من غلبتهما وتثبيطا للناس عن اتباع موسى وهرون (يريدان) أى بما يقولان من دعوى الرسالة وغيرها (أن يخرجاكم) أيها الناس (من أرضكم) هذه التى ألفتموها وهى وطنكم خلفا

عن سلف (بسحرهما) الذى أظهراه لكم وغيره * ولما كان كل حزب بما لديهم فرحين قالوا (ويذهبا بطريقتكم المثلى) مؤنث الامثل وهو الافضل أى بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب باظهار مذهبه واعلاء دينه لقوله تعالى انى أخاف أن يبدل دينكم وقيل أراد أهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل فانهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى أرسل معنا بنى اسرائيل وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم من حيث انهم قدوة لغيرهم (فأجمعوا كيدكم) أى من السحر وغيره فلا تدعوا منه شيأ الا جئتم به وقرأ أبو عمرو بهمزة الوصل بين الفاء والجيم وفتح الميم والباقون بهمزة مقطوعة وكسر الميم (ثم ائتوا) أى للقاء موسى وهرون (صفا) أى مصطفين لانه أهيب فى صدور الرائين * (تنبيه) * اختلفوا فى عدد السحرة فقال الكلبى كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط وسبعون من بنى اسرائيل وقال عكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقال وهب خمسة عشرة ألفا وقال السدى بضعة وثلاثون ألفا وقال القاسم بن سلام كانوا سبعين ألفا وقيل اثنى عشر ألفا مع كل منهم على كل قول حبل وعصا وأقبلوا عليه اقبالة واحدة وظاهر القرآن لا يدل على شئ من هذه الاقوال * ولما كان التقدير فمن أتى كذلك فقد استعلى عطف عليه قوله (وقد أفلح اليوم) فى هذا الجمع الذى ما اجتمع مثله قط (من استعلى) أى فاز بالمطلوب من غلب فلما أتى السحرة موسى (قالوا) له متأدبين لان لين القول مع الخصم ان لم ينفع لم يضر بل نفعهم قال بعضهم ولذلك رزقهم الله تعالى الايمان ببركته (ياموسى اما أن تلقى) أى ما معك مما تناظرنا به أولا (واما أن نكون) نحن (أول من ألقى) ما معه (قال) لهم موسى عليه السلام مقابلا لأدبهم بأحسن منه ولانه فهم أن مرادهم الابتداء وليكون هو الآخر فتكون له العاقبة بتسليط معجزته على سحرهم فلا يكون بعدها شك لا ألقى أنا أولا (بل ألقوا) أنتم أولا فانتهزوا الفرصة لان ذلك كان مرادهم بما أفهموه من تغيير السياق والتصريح بالاول فألقوا ما معهم من الحبال والعصى (فاذا حبالهم وعصيهم) أى التى ألقوها قد فاجأت أنه (يخيل اليه) تخييلا مبتدأ (من سحرهم) أى الذى قد فاقوا به أهل الارض (أنها) لشدة اضطرابها (تسعى) (فان قيل) كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام بل ألقوا فيأمرهم بما هو سحر (أجيب) بأن ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما فى قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله أى ان كنتم صادقين وفى القصة انهم لما ألقوا الحبال والعصى أخذوا أعين الناس فرأى موسى والقوم كأن الارض امتلأت حيات وكانت قد أخذت ميلا من كل جانب ورأوا أنها تسعى وقيل لطخوها بالزئبق فلما وقعت عليها الشمس اضطربت فخيل اليهم انها تتحرك وقرأ ابن ذكوان تخيل بالتاء الفوقية على التأنيث والباقون بالياء على اسناده الى ضمير الحبال (فأوجس) أى أحس (فى نفسه خيفة موسى) عليه الصلاة والسلام (فان قيل) كيف استشعر الخوف وقد عرض عليه المعجزات الباهرات كالعصا واليد ثم ان الله تعالى قال له بعد ذلك انى معكما أسمع وأرى

فكيف وقع الخوف فى قلبه (أجيب) بأوجه أحدها أنه خاف من جهة ان سحرهم من جنس معجزته أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا به الثانى أنه خوف طبع البشرية مثل ماخاف من عصاه أول مارآها كذلك الثالث لعله كان مامورا أن لا يفعل شيأ الا بالوحى فلما تأخر نزول الوحى عليه فى ذلك الوقت خاف أن لا ينزل عليه الوحى فى ذلك الجمع فيبقى الخجل ثم انه أزال ذلك الخوف بقوله تعالى (قلنا لا تخف) من شئ من أمرهم ولا غيره ثم علل ذلك بقوله تعالى وأكده أنواعا من التأكيد لاقتضاء الحال انكار أن يغلب أحد ما أظهروا من سحرهم لعظمه (انك أنت) خاصة (الاعلى) أى الغالب غلبة ظاهرة لا شبهة فيها (وألق مافى يمينك) أبهمه ولم يقل عصاك تحقيرا لها أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذى فى يدك أو تعظيما لها أى لا تحتفل بكثرة هذه الاجرام وعظمها فان فى يمينك ماهو أعظم منها أى العصا وهى التى قلنا لك أول ماشرفناك بالمناجاة وما تلك بيمينك ياموسى ثم أريناك منها ما أريناك (تلقف) أى تبتلع بقوة واجتهاد مع سرعة لا تكاد تدرك (ماصنعوا) أى فعلوه بعد تدرب كثير وممارسة طويلة فلما ألقاها صارت أعظم حية من حياتهم ثم أخذت تزداد عظما حتى ملأت الوادى ثم صعدت حتى علقت ذنبها بطرف الثنية ثم هبطت وأكلت كل ماعملوه فى الميلين والناس ينظرون اليها لا يحسبون الا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها نحو ثمانين ذراعا فصاح بموسى فأخذها فاذا هى عصا كما كانت ونظرت السحرة فاذا هى لم تدع من حبالهم وعصيهم شيأ الا أكلته وعرفوا أنه ليس بسحر وأصل تلقف تتلقف حذفت احدى التاءين وتاء المضارعة تحتمل التأنيث على اسناد الفعل الى العصا والخطاب على اسناد الفعل الى السبب وقرأ ابن ذكوان برفع الفاء على الحال أو الاستئناف والباقون بسكونها وحفص بسكون اللام وتخفيف القاف على أنه من لقفته بمعنى تلقفته (انما) أى الذى (صنعوا) أى زوروا وافتعلوا وهالك أمره (كيد ساحر) أى كيد سحرى لا حقيقة له ولا ثبات وقرأ حمزة والكسائى بكسر السين وسكون الحاء بمعنى ذى سحر أو بتسمية الساحر سحرا على المبالغة أو باضافة الكيد الى السحر للبيان كقولهم علم فقه والباقون بفتح السين وكسر الحاء وألف بينهما (فان قيل) لم وحد الساحر ولم يجمع (أجيب) بأن القصد من هذا الكلام معنى الجنسية لا معنى العدد فلو جمع خيل ان المقصود هو العدد ألا ترى الى قوله تعالى (ولا يفلح الساحر) أى هذا الجنس (حيث أتى) أى كيفما سار وقال ابن عباس لا يسعد حيث كان وقيل معناه حيث احتال فانه انما يفعل مالا حقيقة له (فان قيل) لم نكر أولا ثم عرف ثانيا (أجيب) بأنه قال هذا الذى أتوا به قسم واحد من أقسام السحر لا فائدة فيه ولا شك ان الكلام على هذا الوجه أبلغ ثم انه امتثل ما أمره به ربه من القاء العصا فكان ماوعده به سبحانه من تلقفها ماصنعوا من غير أن يظهر عليها زيادة فى ثخن ولا فى غيره مع أن حبالهم وعصيهم كانت شيأ كثيرا فعلم كل من رأى ذلك حقيته وبطلان مافعل السحرة فبادر السحرة منهم الى الخضوع لامر الله تعالى ساجدين مبادرة من كأنه ألقاه ملق على وجهه ولذلك قال تعالى بعد ان ذكر مكرهم واجتهادهم فى معارضة موسى عليه السلام وحذف ذكر الالقاء وماسببه من التلقف

لانّ مقصود السورة القدرة على تليين القلوب القاسية (فألقي السحرة) أي فألقاهم ما رأوا من أمر الله تعالى بغاية السرعة وبأيسر أمر (سجدا) على وجوههم لله تعالى توبة مما صنعوا واغاظة لفرعون بسجودهم وتعظيما لما رأوا وذلك لانهم كانوا في الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا فعل موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا انه ليس من السحر البتة ويقال قال رئيسهم كنا نغلب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فأين الذي ألقيناه فاستدلوا بتغير أحوال الاجسام على الصانع القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله لاجرم تابوا وآمنوا وأتوا بما هو النهاية في الخضوع وهو السجود قال الاصبهاني سبحان الله ما أعظم شأنهم ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين فكان قائلا قال هذا فعلهم فماذا قالوا فقيل (قالوا آمنا برب هرون وموسى) ولم يقولوا آمنا برب العالمين لانّ فرعون ادّعى الربوبية في قوله انا ربكم الاعلى والالهية في قوله ما علمت لكم من اله غيري فلو أنهم قالوا ذلك لكان فرعون يقول انهم آمنوا بي لا بغيري فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة والدليل على ذلك أنهم لم يقتصروا على موسى بل قدموا هرون لانّ فرعون ربي موسى في صغره فلو اقتصروا على موسى أو قدموا ذكره فربما توهم ان المراد فرعون وذكر هرون على الاستتباع وقيل قدموه لكبر سنه أو لروى الآية فسبحان الله ما أعظم أمرهم كانوا أول النهار سحرة يقرون لفرعون بالربوبية وآخره شهداء بررة روى أنهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها وعن عكرمة لما خرّوا سجدا أراهم الله تعالى في سجودهم منازلهم التي يصيرون اليها في الجنة فكأنه قيل ما قال لهم فرعون حينئذ فقيل (قال) لهم (آمنتم) أي بالله (له) أي مصدقين أو متبعين لموسى (قبل أن آذن لكم) في ذلك قال ذلك ايهاما بأنه سيأذن فيه ليقف الناس عن المبادرة الى الاتباع بين خوف العقوبة ورجاء الاذن ثم استأنف قوله معللا مخيلا لاتباعه صدا لهم عن الاقتداء بالسحرة (انه) أي موسى (لكبيركم) أي معلمكم (الذي علمكم السحر) أي فلم تتبعوه لظهور الحق بل لارادتكم شيأ من المكر واتفقتم عليه قبل حضوركم في هذا الموطن وهذا على عادته في تخييل أتباعه بما يوقفهم عن اتباع الحق * ولما خيلهم شرع يزيدهم حيرة بتهديد السحرة فقال مقسما (فلاقطعن) أي بسبب ما فعلتم (أيديكم) على سبيل التوزيع (وأرجلكم) أي من كل رجل يدا ورجلا وقوله (من خلاف) حال يعني مختلفة أي الايدي اليمنى والارجل اليسرى (ولاصلبنكم) وعبر عن الاستعلاء بالظرف اشارة الى تمكينهم في المصلوب عليه تمكين المظروف في ظرفه فقال (في جذوع النخل) تشنيعا لقتلكم وردعا لامثالكم (ولتعلمن أينا) يريد نفسه لعنه الله وموسى عليه السلام بدليل قوله آمنتم له واللام مع الايمان في كتاب الله لغير الله كقوله يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين وفيه تبجح باقتداره وقهره وما ألفه وضرى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب وتوضيع لموسى عليه السلام واستضعاف له مع الهزء به لانّ موسى لم يكن قط من التعذيب في شئ وقيل يريد رب

موسى الذى امنوا به (أشد عذابا وأبقى) أى أدوم على مخالفته (فان قيل) ان فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية وقصدها له وآل الامر أن استغاث بموسى من شرها وعجزه عن دفعها كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ فى وعيدهم الى هذا الحد ويستهزئ بموسى فى قوله أينا أشد عذابا وأبقى (أجيب) بأنه كان فى أشد الخوف فى قلبه الا أنه يظهر الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجا لامره قال الرازى ومن استقرى أحوال العالم علم ان الفاجر قد يفعل أمثال هذه الاشياء ومما يدل على معاندته قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر لانه كان يعلم ان موسى ما خالطهم البتة وما لقيهم وكان يعلم من سحرته استاذ كل واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ثم انه كان يقول مع ذلك هذه الاشياء ثم كانه قيل فما قالوا له فقيل (قالوا) له (لن نؤثرك) أى نختارك (على ما جاءنا) على لسان موسى (من البينات) التى عايناها وعلمنا أنه لا يقدر أحد على مضادتها * ولما بدؤا بما يدل على الخالق من الفعل ترقوا الى ذكره بعد معرفته بفعله اشارة الى علو قدره فقالوا (والذى) أى ولا نؤثرك بالاتباع على الذى (فطرنا) أى ابتدأ خلقنا اشارة الى شمول ربوبية الله تعالى لهم وله ولجميع الناس وتنبيها على عجز فرعون عند من استخفه وفى جميع أقوالهم هذه من تعظيم الله تعالى عبارة واشارة وتحقير فرعون أمر عظيم * (تنبيه) * قد علم مما تقرر ان والذى معطوف على ما وانما أخر واذكر البارى تعالى لانه من باب الترقى من الادنى الى الاعلى وقيل الواو قسم والموصول مقسم به وجواب القسم محذوف أى وحق الذى فطرنا لا نؤثرك على الحق * ولما تسبب عن ذلك انهم لا يبالون به وعلموا أن ما يفعله بهم هو باذن الله تعالى قالوا له (فاقض) أى فاصنع فى حكمك الذى تمضيه (ما أنت قاض) أى فاقض الذى أنت قاضيه ثم عللوا ذلك بقولهم (انما تقضى) أى تصنع بنا ما تريد ان قدرك الله عليه (هذه الحيوة الدنيا) النصب على الاتساع أى انما حكمك فيها على الجسد خاصة فهى ساعة تعقبها راحة ونحن لا نخاف الا من يحكم على الروح وان فنى الجسد فذلك هو العذاب الشديد الدائم ثم عللوا تعظيم الله تعالى واستهانتهم بفرعون بقولهم (انا آمنا بربنا) أى المحسن الينا طول أعمارنا مع اساءتنا بالكفر وغيره (ليغفر لنا) من غير نفع يلحقه بالفعل أو ضرر يدركه بالترك (خطايانا) التى قابلنا بها احسانه ثم خصوا بعد العموم فقالوا (وما أكرهتنا عليه) وبينوا ذلك بقولهم (من السحر) لنعارض المعجزة فانه كان الاكمل لنا عصيانك فيه لان الله تعالى أحق بأن يتقى (فان قيل) كيف قالوا ذلك وقد جاؤا مختارين يحلفون بعزة فرعون ان لهم الغلبة (أجيب) بأنه قد روى ان رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقون من بنى اسرائيل أكرههم فرعون على تعلم السحر وروى أنهم رأوا موسى عليه السلام نائما وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون ان الساحر اذا نام بطل سحره فهذا لا نقدر على معارضته فأبى عليهم وأكرههم على المعارضة وقيل ان الملوك فى ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونه تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه احداثا ليعلمهم ليكون فى كل وقت من يحسنه * ولما كان التقدير فربنا أهل التقوى وأهل المغفرة عطفوا عليه مستحضرين لكماله (والله) أى الجامع لصفات الكمال (خير) جزاء منك فيما وعدتنا

به (وأبقى) ثواباً وعقاباً قال أبو حيان والظاهر ان الله تعالى سلمهم من فرعون ويؤيده قوله تعالى ومن اتبعكما الغالبون وقال الرازي ليس في القرآن ان فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم ولم يثبت في الاخبار وقال البقاعي سيأتي في آخر الحديد ماهو صريح في نجاتهم ثم عللوا هذا الحكم بقولهم (انه) أي الامر والشأن (من يأت ربه) أي الذي رباه وأحسن اليه بأن أوجده وجعل له جميع مايصلحه (مجرماً) بأن يموت على كفره (فان له جهنم) دار الاهانة (لايموت فيها) فيستريح من عذابها بخلاف عذاب الدنيا فان آخره الموت وان طال (ولا يحيى) فيها حياة مهنأة وبهاندفع ماقيل ان الجسم الحي لابد أن يبقى اما حياً أوميتاً فخلوه عن الوصفين محال وقال بعضهم ان لنا حالة ثالثة وهي كحالة المذبوح قبل أن يهدأ فلا هو حي لانه قد ذبح ذبحاً لاتبقى الحياة معه ولاهو ميت لان الروح لم تفارقه بعد فهي حالة ثالثة (ومن يأته) أي ربه الذي قد أوجده ورباه (مؤمناً) أي مصدقاً به (قد) ضم الى تصديق الايمان أنه (عمل) أي في الدنيا (الصالحات) أي التي أمر بها فكان صادق الايمان مستلزماً الصالح الاعمال (فأولئك) أي العالو الرتبة (لهم الدرجات العلى) جمع علياء مؤنث أعلى التي لانسبة لدرجاتك التي أوعدتناها اليها ثم بينوها بقولهم (جنات عدن) أي أعدت للاقامة وهيئت فيها أسبابها (تجري من تحتها الانهار) أي من تحت غرفها وأسرتها وأرضها فلا يراد موضع منها الا ان يجري فيه نهر الاجري وقولهم (خالدين فيها) حال والعامل فيها معنى الاشارة أو الاستقرار (وذلك جزاء) كل (من تزكى) أي تطهر من أدناس الكفر * (تنبيه) * هذه الآيات الثلاث وهي من قوله انه من يأت ربه مجرماً الى هنا يحتمل أن تكون من كلام السحرة كما تقرر وأن تكون ابتداء كلام من الله تعالى وقوله تعالى (ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي) عطف على قوله ولقد أريناه آياتنا وفيه دليل على أن موسى عليه السلام كثر مستجيبوه فأراد الله تعالى تمييزهم من طبقة فرعون وخلاصهم فأوحى اليه أن يسري بهم ليلاً والسرى اسم لسير الليل والاسراء مثله والحكمة في السرى بهم لئلا يشاهدهم العدو فيمنعهم عن مرادهم أو ليكون ذلك عائقاً لفرعون عن طلبه وتتبعه أو ليكون اذا تقارب العسكران لايرى عسكر موسى عليه الصلاة والسلام عسكر فرعون لعنه الله فلا يهابونهم وقرأ نافع وابن كثير بكسر النون وهمزة وصل بعدها من سرى والباقون بسكون النون وهمزة قطع بعدها من أسرى لغتان أي أسر بني اسرائيل من أرض مصر التي لبثت قلب فرعون لهم حتى أذن لهم في مسيرهم بعد ان كان قد أبي أن يطلقهم او يكف عنهم العذاب فاقصد بهم ناحية بحر القلزم (فاضرب) أي اجعل (لهم) بالضرب بعصاك (طريقاً في البحر) والمراد بالطريق الجنس فانه كان لكل سبط طريق وقوله (يبساً) صفة لطريقاً وصف به لمايؤول اليه لانه لم يكن يبساً الا بعد ان مرت عليه الصبا فجففته كما روي وقيل في الاصل مصدر وصف به مبالغة وقيل جمع يابس كخادم وخدم وصف به الواحد مبالغة فلما امتثل ما أمر به وأيبس الله تعالى له الارض وأراد المرور بها قال الله تعالى له (لاتخاف دركاً) أي ان يدركك فرعون (ولاتخشى) غرقاً وقرأ حمزة بجزم الفاء ولا ألف بينها وبين

الخاء على أن يكون نهيا مستأنفا والباقون برفع الفاء وألف بينها وبين الخاء على أنه مستأنف فلا محل له من الاعراب أو أنه فى محل نصب على الحال من فاعل اضرب أى اضرب غير خائف (فأتبعهم فرعون بجنوده) أى وهو معهم على كثرتهم وعلوهم وقوتهم وعزتهم فكانوا كالتابع الذى لامعنى له بدون متبوعه والمتبوع بنو اسرائيل وذلك ان موسى خرج بهم أول الليل فأخبر فرعون بذلك فقص أثرهم والمعنى فأتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده فحذف المفعول الثانى وقيل ان الباء زائدة (فغشيهم) أى فرعون وقومه (من اليم) أى البحر (ماغشيهم) أى أمر لا تحتمل العقول وصفه فأهلكهم وقطع دابرهم ولم يبق منهم أحدا وماشاك أحدا من عبادنا المستضعفين شوكة (وأضل فرعون قومه) أى بدعائهم الى عبادته (وماهدى) أى ما أرشدهم وهذا تكذيب لفرعون وتهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد * (تنبيه) * لابأس بذكر شئ من هذه القصة فنقول * قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر وكان بنو اسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلى والدواب لعيد يخرجون اليه فخرج بهم ليلا وكان يوسف عليه الصلاة والسلام عهد اليهم عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يعرفوا مكانها حتى دلتهم عجوز على موضع العظم فأخذوه وقال موسى عليه السلام للعجوز احتكمى أى اتطرى لك شيأ اطلبه فقالت أكون معك فى الجنة فلما خرجوا تبعهم فرعون وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب فلما انتهى موسى الى البحر قال هنا أمرت فأوحى الله تعالى اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى ادخلوا فيه فقالوا كيف وهى رطبة فدعا ربه فهبت عليها الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق فى بعضنا فجعل بينهم كوى يرى بعضهم بعضا ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر وأقبل فرعون الى تلك الطرق فقال له قومه ان موسى قد سحر البحر كما ترى وكان على فرس حصان فأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى فى ثلاثة وثلاثين من الملائكة فسار جبريل بين يدى فرعون فأبصر الحصان الفرس فاقتحم بفرعون على اثرها فصاحت الملائكة فى الناس الحقوا حتى اذا لحق آخرهم وكاد أولهم أن يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فرجع بنو اسرائيل حتى ينظروا اليهم وقالوا ياموسى ادع الله يخرجهم لنا حتى ننظر اليهم فلفظهم البحر الى الساحل وأصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس أن جبريل قال يامحمد لو رأيتنى وانا أدس فى فى فرعون الماء والطين مخافة أن يتوب فهذا معنى قوله تعالى فغشيهم من اليم ماغشيهم * ولما أنعم الله تعالى على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم ذكر أولادهم تلك النعم فناداهم بقوله تعالى (يابنى اسرائيل) والمنادى من وجد من اليهود فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وخوطبوا بما أنعم به على أجدادهم زمن موسى عليه السلام ولاشك أن ازالة الضرر يجب تقديمها على ايصال المنفعة وايصال المنفعة الدينية أعظم من ايصال المنفعة الدنيوية فلهذا بدأ تعالى بازالة الضرر بقوله (قد أنجيناكم من عدوكم) فان فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيرا من القتل والاذلال والخراج والاعمال الشاقة ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية بقوله تعالى (وواعدناكم جانب الطور الايمن) أى الذى على أيمانكم فى

توجهكم هذا الذى وجوهكم فيه الى بيت أبيكم ابراهيم عليه السلام وهو جانبه الذى يلى البحر وناحية مكة واليمن ووجه المنفعة فيه أنه أنزل فى ذلك القرب عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية بقوله (وأنزلنا عليكم) بعد انزال هذا الكتاب فى هذه المواعدة لانعاش أرواحكم (المن) أى الترنجبين (والسلوى) أى الطير السمانى بتخفيف الميم والقصر وقوله تعالى (كلوا من طيبات مارزقناكم) أمر اباحة ان فسر الطيب باللذيذ لان المن والسلوى من لذائذ الاطعمة وان فسر بالحلال لان الله تعالى أنزله اليهم ولم تمسه يد الآدميين فهو أمر ايجاب وقرأ حمزة والكسائى قد أنجيتكم وواعدتكم مارزقتكم بتاء مضمومة بعد التحتية من أنجينا وبعد الدال من وعدنا وبعد القاف من رزقنا ولا ألف فى الثلاثة والباقون بالنون وألف بعدها فى الثلاثة وأسقط أبو عمرو الالف قبل العين من وعدنا وأثبتها الباقون * ثم زجرهم عن العصيان بقوله تعالى (ولا تطغوا فيه) أى فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدى بما حده الله لكم فيه من السرف والبطر والمنع عن المستحقين وقرأ الكسائى (فيحل) بضم الحاء أى ينزل والباقون بكسرها أى يجب (عليكم غضبى) أى عقوبتى (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى هلك وقيل شقى وقيل وقع فى الهاوية وقرأ الكسائى بضم اللام الاولى وكسرها الباقون * ولما كان الانسان محل الزلل وان اجتهد رجاه واستعطفه بقوله سبحانه (وانى لغفار) أى ستار باسبال ذيل العفو (لمن تاب) أى رجع عن ذنوبه من الشرك ومايقاربه (وآمن) بكل مايجب الايمان به (وعمل صالحا) تصديقا لايمانه (ثم اهتدى) باستمراره على ذلك الى موته * (فائدة) * اعلم أنه تعالى وصف نفسه بكونه غافرا وغفورا وغفارا وبأن له غفرانا ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضى والمستقبل والامر أما وصف كونه غافرا فقوله تعالى غافر الذنب وأما كونه غفورا فقوله تعالى وربك الغفور وأما كونه غفارا فقوله تعالى وانى لغفار لمن تاب وآمن وأما الغفران فقوله تعالى غفرانك ربنا وأما المغفرة فقوله تعالى وان ربك لذو مغفرة للناس وأما صيغة الماضى فقوله تعالى فى حق داود عليه السلام فغفرنا له وأما صيغة المستقبل فقوله تعالى ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وقوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعا وقوله تعالى فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر وأما لفظ الاستغفار فقوله تعالى استغفروا ربكم ويستغفرون لمن فى الارض ويستغفرون للذين آمنوا (وههنا نكتة لطيفة) وهى ان العبد له أسماء ثلاثة الظالم والظلوم والظلام اذا كثر منه الظلم ولله تعالى فى مقابلة كل واحد من هذه الاسماء اسم فكأنه تعالى قال ان كنت ظالما فأنا غافر وان كنت ظلوما فأنا غفور وان كنت ظلاما فأنا غفار فيجب على كل من ارتكب معصية كبيرة أو صغيرة أن يتوب منها لهذه الآية ودلت على أن العمل الصالح غير داخل فى الايمان لانه تعالى عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف يغاير المعطوف عليه * ولما أمر تعالى موسى عليه السلام بحضور الميقات مع قوم مخصوصين قال المفسرون هم السبعون الذين اختارهم الله تعالى من جملة بنى اسرائيل ليذهبوا معه الى الطور ليأخذوا التوراة فسار بهم موسى ثم عجل موسى عليه السلام من بينهم شوقا الى ربه

وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه الى الجبل فقال تعالى له (وما أعجلك عن قومك) أي لمجيء ميعاد أخذ التوراة (ياموسى قال) مجيبا لربه تعالى (هم أولاء) أي بالقرب مني يأتون (على أثري) أي ماشين على آثار مشيي قبل أن ينطمس وما تقدمتهم الا بخطا يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بيني وبينهم الا مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم على بعض (وعجلت اليك رب لترضى) أي لتزداد عني رضا فان المسارعة الى امتثال أمرك والوفاء بعهدك توجب مرضاتك * (تنبيه) * في الآية سؤالات الاول قوله تعالى وما أعجلك استفهام وهو على الله تعالى محال وأجيب عنه بأنه كان في صورة الاستفهام ولا مانع منه الثاني أن موسى عليه السلام لا يخلو اما أن يكون ممنوعا من ذلك التقدم أو لم يكن فان كان الاول كان التقدم معصية وان لم يكن فلا انكار وأجيب عنه بأنه عليه السلام لعله ما وجد نصا في ذلك فاجتهد فأخطأ في اجتهاده فاستوجب العتاب الثالث قوله وعجلت والعجلة مذمومة أجيب عنه بأنها ممدوحة في الدين قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم الرابع قوله لترضى يدل على أنه انما فعل ذلك ليحصل الرضا واذا لم يكن راضيا عنه وجب أن يكون ساخطا عليه وذلك لا يليق بحال الانبياء عليهم السلام أجيب عنه بأن المراد تحصيل دوام الرضا أو زيادته كما مر الخامس قوله اليك يقتضي كون الله تعالى في جهة لان الى لانتهاء الغاية وأجيب عنه بأنا اتفقنا على أن الله تعالى لم يكن في الجبل فالمراد مكان وعدك السادس قوله تعالى ما أعجلك عن قومك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول طلب زيادة رضاك أو التشوق الى كلامك وأما قوله هم أولاء على أثري فغير منطبق عليه كما ترى أجيب عنه بأن سؤال الله تعالى يتضمن شيئين أحدهما انكار نفس العجلة والثاني السؤال عن سبب التقدم فأجاب عن السؤال عن العجلة لانها أهم فقال وعجلت اليك رب لترضى (قال) تعالى (فانا) أي تسبب عن عجلتك عنهم أنا (قد فتنا) أي ابتلينا (قومك من بعدك) أي بعد فراقك لهم بعبادة العجل وهم الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف وما نجا من عبادة العجل منهم الا اثنا عشر ألفا (وأضلهم السامري) باتخاذ العجل والدعاء الى عبادته فأطاعه بعضهم وامتنع بعضهم والسامري منسوب الى قبيلة من بني اسرائيل يقال لهم السامرة وقيل كان علجا من أهل كرمان وقع الى مصر وقيل كان من قوم يعبدون البقر جيران لبني اسرائيل ولم يكن منهم واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا (فرجع موسى) لما أخبره ربه بذلك (الى قومه) بعد ما استوفى الاربعين ذا القعدة وعشر ليال من ذي الحجة وأخذ التوراة (غضبان) عليهم (أسفا) أي حزينا بما فعلوا (قال) أي لقومه لما رجع اليهم مستعطفا لهم (يا قوم) وأنكر عليهم بقوله (ألم يعدكم ربكم) أي الذي أحسن اليكم (وعدا حسنا) أي بأنه ينزل عليكم كتابا حافظا ويكفر عنكم خطاياكم وينصركم على أعدائكم الى غير ذلك من اكرامه * ولما جرت العادة بأن طول الزمان ناقض للعزائم مغير للعهود كما قال أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري

لأنسينك ان طال الزمان بنا * وكم حبيب تمادى عهده فنسي

قال لهم (أفطال عليكم العهد) أي زمن لطف الله تعالى بكم فتغيرتم عما فارقتكم عليه كما تغير أهل

الرذائل والانحلال فى العزائم لضعف العقول وقلة التدبر (أم أردتم) أى بالنقض مع قرب العهد وذكر الميثاق (أن يحل) أى يجب (عليكم) بسبب عبادة العجل (غضب من ربكم) المحسن اليكم أى وكلا الامرين لم يكن أما الاول فواضح وأما الثانى فلا يظن بأحد ارادته والحاصل انه يقول فعلتم مالا يفعله عاقل (فأخلفتم) أى فتسبب عن فعلكم ذلك ان أخلفتم (موعدى) أى وعدكم اياى بالثبات على الايمان بالله والقيام على ما أمركم به ولما تشوف السامع الى جوابهم استأنف ذكره فقال (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) أى بأن ملكنا أمرنا اذ لو خلينا وأمرنا ولم يسول لنا السامرى لما أخلفناه واختلف فى هذا المجيب على وجهين الاول هم الذين لم يعبدوا العجل فكانهم قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا أى بأمر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قرينه الى نفسه كقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر واذ قتلتم نفسا وان كان الفاعل لذلك آباءهم لاهم فكانهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر أيضا على مفارقتهم لانا خفنا أن يصير ذلك سببا لوقوع النفرة وزيادة الفتنة الثانى ان هذا قول عبدة العجل والمراد أن غيرنا أوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب فخلف الوعد هو الذى أوقع الشبهة فانه كان كالمالك لنا (فان قيل) كيف كان رجوع قريب من ستمائة ألف انسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة عجل يعرف فسادها بالضرورة (أجيب) بأن هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس وقرأ عاصم ونافع بفتح الميم وحمزة والكسائى بضمها والباقون بكسرها وثلاثتها فى الاصل لغات فى مصدر ملكت الشئ ثم ان القوم فسروا الضرر الحامل لهم على ذلك الفعل فقالوا (ولكنا حملنا) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بضم الحاء وكسر الميم مشددة وأبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بفتح الحاء والميم مخففة (أوزارا) أى أثقالا (من زينة القوم) أى حلى قوم فرعون استعارها منهم بنو اسرائيل بسبب عرس وقيل استعاروها لعيد كان لهم ثم لم يردوها عند الخروج مخافة أن يعلموا به وقيل هى ما ألقاه البحر على الساحل بعد اغراقهم فاخذوه قال البيضاوى ولعلهم سموها أوزارا لانها آثام فان الغنائم لم تكن تحل بعد ولانهم كانوا مستأمنين وليس للمستأمن أن يأخذ من مال الحربى (فقذفناها) أى فى النار (فكذلك ألقى السامرى) أى ما كان معه اما من المال أو من أثر الرسول روى أن موسى عليه السلام لما وعده ربه أن يكلمه استخلف على قومه أخاه هرون وأجلهم ثلاثين يوما وذهب فصامها ليلها ونهارها ثم كره أن يكلم ربه وريح فمه متغير فمضغ شيأ من نبات الارض فقال له ربه أو ما علمت ان ريح الصائم أطيب من ريح المسك ارجع فصم عشرا وقيل انهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين بأيامها وقالوا قد كملت العدة فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع اليهم ساءهم ذلك وكان هرون قد خطبهم وقال انكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوار فاحفروا حفرة والقوها فيها ثم أوقدوا عليها نارا فلا يكون لنا ولا لهم وكان السامرى قد رأى أثرا فقبض منه قبضة فمر بهرون فقال له يا سامرى ألا تلقى ما فى يدك فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ولا ألقيها على شئ الا أن تدعو الله

اذا ألقيتها أن يكون ما أريد فألقاها ودعا له هرون فقال أريد أن يكون عجلا فاجتمع ما في الحفرة وصار عجلا فهذا معنى قوله تعالى (فأخرج لهم عجلا جسدا) من ذلك الحلي المذاب له جوف ليس فيه روح (له خوار) أي صوت يسمع قال ابن عباس لا والله ما كان له صوت قط وانما كان الريح يدخل في دبره فيخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك وقيل انه صاغه ووضع التراب بعد صوغه في فمه (فقالوا) أي السامري ومن افتتن به أول ما رأوه مشيرين الى العجل (هذا الهكم واله موسى فنسى) أي فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور أو فنسى السامري أي ترك ما كان عليه من الايمان (أفلا يرون) أي قالوا ذلك فتسبب عن قولهم علمهم عن رؤية (أن) أي انه (لا يرجع اليهم قولا) والاله لا يكون ابكم (ولا يملك لهم ضرا) فيخافوه كما كانوا يخافون فرعون فيقولون ذلك خوفا من ضرره (ولا نفعا) فيقولون ذلك رجاء له (ولقد قال لهم هرون من قبل) أي قبل رجوع موسى مستعطفا لهم (ياقوم انما فتنتم) أي وقع اختباركم فاختبرتم في صحة ايمانكم وصدقكم فيه وثباتكم عليه (به) أي بهذا العجل في اخراجه لكم على هذه الهيئة الخارقة للعادة وأكد لاجل انكارهم فقال (وان ربكم) أي الذي أخرجكم من العدم ورباكم بالاحسان (الرحمن) وحده الذي فضله عام ونعمه شاملة فليس على بر ولا فاجر نعمة الا وهي منه تعالى قبل أن يوجد العجل وهو كذلك بعده ومن رحمته قبول التوبة فخافوا نزع نعمه بمعصيته وارجوا اسباغها بطاعته (فاتبعوني) بغاية جهدكم في الرجوع اليه (وأطيعوا أمري) أي في الثبات على الدين (قالوا لن نبرح عليه) أي العجل (عاكفين) أي مقيمين (حتى يرجع الينا موسى) فدافعهم فهموا به وكان معظمهم قد ضل فلم يكن معه من يقوى بهم فخاف أن يجاهد بهم الكفار فلا يفيد ذلك شيأ مع ان موسى لم يأمره بجهاد من ضل وانما قال له واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فرأى من الاصلاح اعتزالهم الى أن يأتي * (تنبيه) * انما قال هرون ذلك شفقة على نفسه وعلى الخلق أما شفقته على نفسه فلأنه كان مأمورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان مأمورا من عند أخيه بقوله اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلو لم يشتغل بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان مخالفا لامر الله تعالى ولامر موسى وذلك لا يجوز أوحى الله تعالى الى يوشع بن نون اني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم ومائتي ألف من شرارهم فقال يارب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار قال انهم لم يغضبوا لغضبي وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح وهمه غير الله فليس من الله في شئ ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم وعن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد وعن عبد الله بن أبي أوفى قال خرجت أريد النبي صلى الله عليه وسلم فاذا أبو بكر وعمر عنده فجاء صغير يبكي فقال لعمر ضم الصبي اليك فانه ضال فأخذه عمر واذا أم الصبي تولول كاشفة عن رأسها جزعا على ابنها فقال النبي صلى الله عليه وسلم أدرك المرأة فناداها فجاءت واخذت ولدها وجعلت تبكي والصبي في حجرها فالتفتت فرأت النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال

النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك أترون هذه رحيمة بولدها قالوا يا رسول الله كفى بهذه رحمة فقال والذى نفسى بيده ان الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها ولقد سلك هرون فى موعظته أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله ثانيا بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم ثالثا الى النبوة بقوله فاتبعونى ثم دعاهم رابعا بقوله وأطيعوا أمرى وهذا هو الترتيب الجيد لانه لابد قبل كل شئ من اماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى فانها هى الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فثبت أن هذا الترتيب أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا * ولما ذكر تعالى ما قال هرون تشوفت النفس الى علم ما قال موسى فقيل (قال ياهرون) أنت نبى الله وأخى ووزيرى وخليفتى فأنت أولى الناس بأن ألومه وأحقهم بأن أعاتبه (ما منعك اذ) أى حين (رأيتهم ضلوا) عن طريق الهدى واتبعوا سبيل الردى (أن لا تتبعن) فى سيرتى من الاخذ على يد الظالم طوعا أو كرها * (تنبيه) * لا مزيدة للتأكيد لان النافى اذا زيد فى كلام كان نافيا لضد مضمونه فيفيد اثباتا للمضمون ونفيا لضده فيكون ذلك فى غاية التأكيد وأثبت الياء بعد النون ابن كثير وقفا ووصلا وأثبتها نافع وأبو عمرو وصلا لا وقفا وحذفها الباقون وصلا ووقفا (أفعصيت) أى فتكبرت عن اتباعى فتسبب عن ذلك أنك عصيت (أمرى) وأخذ بلحيته وبرأسه يجره اليه غضبا لله تعالى فكأنه قيل ما قال له فقيل (قال) مجيبا له مستعطفا بذكر أول وطن ضمهما بعد نفخ الروح مع ماله من الرقة والشفقة (يا ابن أم) فذكرها خاصة وان كان شقيقه لانها يسوءها ما يسوءه وهى أرق من الاب وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح الميم وكسرها ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائى (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) أى بشعرهما * ثم علل ذلك بقوله (انى خشيت أن تقول) اذا شددت عليهم حتى يصل الامر الى القتال (فرقت بين بنى اسرائيل) بفعلك هذا الذى لم يجد شيئا لقلة من كان معك وضعفك عن ردهم (ولم ترقب قولى) اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ولم تقل واردد هم ولو أدى الامر الى السيف * ولما فرغ من نصيحة أقرب الناس اليه وأحقهم بنصيحته وحفظه على الهدى اذ كان رأس الهداة تشوف السامع الى ما كان من غيره فاستأنف تعالى ذكره بقوله (قال) أى موسى عليه السلام لرأس أهل الضلال معرضا عن أخيه بعد قبول عذره باعلام ما نسب اليه سببا للسؤاله عن الحامل له عليه (فما خطبك) أى أمرك هذا العجب العظيم الذى حملك على ما صنعت وأخبرنى بى أنك أضللتهم به (ياسامرى قال) السامرى مجيبا له (بصرت) من البصر والبصيرة (بما لم يبصروا به) أى رأيت ما لم يره بنو اسرائيل وعرفت ما لم يعرفوا وقال ابن عباس علمت ما لم يعلموا ومنه قولهم رجل بصير أى عالم قاله أبو عبيدة وأراد أنه رأى جبريل عليه السلام فأخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب كما قال (فقبضت) أى فكان ذلك سببا لان قبضت (قبضة) أى مرة من القبض أطلقها على المقبوض تشبيها للمفعول بالمصدر (من أثر) فرس ذلك (الرسول) أى المعهود (فنبذتها) أى فى الحلى الملقى فى النار أو فى العجل (وكذلك) أى وكما سولت لى نفسى أخذ أثره (سولت) أى حسنت وزينت (لى نفسى) نبذها فى

الحلى فنبذتهم او كان منها ما كان ولم يدعنى الى ذلك داع ولا حملنى عليه حامل غير التسويل
*(تنبيه) كون المراد بالرسول جبريل عليه السلام هو ما عليه عامة المفسرين وأراد بأثره
التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته لما رآه يوم فلق البحر وعن على رضى الله تعالى عنه
ان جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى الى الطور أبصره السامرى من بين الناس
واختلفوا فى أنه كيف اختص السامرى برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين
الناس فقال ابن عباس فى رواية الكلبى انما عرفه لانه رباه فى صغره وحفظه من القتل حين أمر
فرعون بذبح أولاد بنى اسرائيل فكانت المرأة اذا ولدت طرحت ولدها حيث لا يشعر به آل
فرعون فتأخذ الملائكة الولدان ويربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامرى
ممن أخذه جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه فى فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل
يختلف اليه حتى عرفه فلما رآه عرفه قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بما لم يبصروا به يعنى
رأيت ما لم يروه ومن فسر الابصار بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت أن تراب فرس جبريل
عليه السلام له خاصية الاحياء قال أبو مسلم ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون
فههنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذى أمر
به فقد يقول الرجل ان فلانا يقفو أثر فلان ويقتص أثره اذا كان يمتثل رسمه والتقدير أن موسى
عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والمسئلة عن الامر الذى دعاه الى اضلال القوم فى
العجل قال بصرت بما لم يبصروا به أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة
من أثرك أيها الرسول أى شيأ من دينك فقذفته أى طرحته فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام
بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة وانما أورد لفظ الاخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه
وهو مواجه له ما يقول الامير فى كذا أو بماذا يأمر الامير وأما ادعاؤه ان موسى رسول
مع جحده وكفره فعلى مذهب من حكى الله فيه قوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وان
لم يؤمنوا بالانزال قال الرازى وهذا القول الذى ذكره أبو مسلم ليس فيه الا أنه مخالف للمفسرين
ولكنه أقرب الى التحقيق لوجوه أحدها أن جبريل عليه السلام ليس معهودا باسم الرسول
ولم يجرله فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف اشارة اليه فاطلاق لفظ الرسول لارادة جبريل
كأنه تكليف بعلم الغيب وثانيها أنه لا بد فيه من الاضمار وهو قبضة من أثر حافر دابة
الرسول والاضمار خلاف الاصل وثالثها أنه لا بد من التعسف فى بيان أن السامرى كيف
اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته وكيف عرف أن تراب حافر فرسه له هذا
الاثر والذى ذكروه من ان جبريل هو الذى رباه فبعيد لان السامرى ان عرف أنه جبريل حال
كمال عقله عرف قطعا ان موسى نبى صادق فكيف يحاول الاضلال وان كان ما عرفه حال
البلوغ فانى ينفعه كون جبريل مربيا له حال الطفولية فى حصول تلك المعرفة * ثم ان موسى
عليه السلام لما سمع من السامرى ما ذكر (قال) له (فاذهب) أى فتسبب عن فعلك ان أقول
لك اذهب من بيننا وحيث ذهبت (فان لك فى الحياة) أى مادمت حيا (أن تقول) لكل من

رأيته (لامساس) أي لاتمسني ولا أمسك فلا تقدر أن تنفك عن ذلك فكان يهيم في البرية مع الوحوش والسباع واذا مس أحدا أومسه أحد حما جميعا عاقبه الله تعالى بذلك وكان اذا لقي أحدا يقول لامساس أي لاتقربني ولاتمسني وقال ابن عباس لامساس لك ولولدك حتى ان بقاياهم اليوم يقولون ذلك واذا مس أحد من غيرهم أحدا منهم حما جميعا في ذلك الوقت (وان لك) بعد الممات (موعدا) للثواب ان تبت والعقاب ان أبيت (لن تخلفه) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر اللام أي لن تغيب عنه والباقون بفتحها أي بل نبعث اليه فلا انفكاك لك عنه كما أنك في الحياة لاتقدر أن تنفك عن النفرة من الناس فاختر لنفسك ما يحلو * ولما ذكر ما لالاله الحق من القدرة التامة في الدارين أتبعه عجز العجل فقال (وانظر الى الهك) أي بزعمك (الذي ظلت) أي دمت في مدة يسيرة جدا ايماء أشار اليه تخفيف التضعيف فان أصله ظللت بلامين أولاهما مكسورة حذفت تخفيفا (عليه عاكفا) أي مقيما تعبده (لنحرقنه) أي بالنار وبالمبرد قال البقاعي كما سلف عن نص التوراة وكان معنى ذلك أنه أحماه حتى لان فهان على المبارد انتهى (ثم لننسفنه) أي لنذرينه اذا صار سحالة (في اليم) أي في البحر الذي أغرق الله تعالى فيه آل فرعون ثم يجمع الله تعالى سحالته التي هي من حليهم فيحميها في نار جهنم ويكويهم بها أو يجعلها من أشد العذاب عليهم وأكد الفعل اظهارا لعظمة الله تعالى الذي أمره بذلك وتحقيقا للصدق في الوعد فقال (نسفا) قال الجلال المحلي وفعل موسى عليه السلام بعد ذبحه ما ذكره انتهى وعلى هذا لا يصح أن يبرد بالمبرد قال الرازي ويمكن أن يقال صار لحما ودما وذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها * ولما أراهم بطلان ما هم عليه بالعيان أخبرهم بالحق على وجه الحصر فقال (انما الهكم الله) أي الجامع لصفات الكمال ثم كشف المراد من ذلك وحققه بقوله (الذي لا اله الا هو) أي لا يصلح لهذا المنصب أحد غيره لانه (وسع كل شئ) وقوله (علما) تمييز محول عن الفاعل أي أحاط علمه بكل شئ فكل شئ اليه مفتقر وهو غني عن كل شئ وأما العجل الذي عبدوه فلا يصلح للالهية بوجه ولا في عبادته شئ من حق * ولما شرح الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامري ثانيا على هذا الاسلوب الاعظم والسبيل الاقوم كان كأنه قيل هل يعاد شئ من القصص على هذا الاسلوب البديع والمثال الرفيع فقيل نعم (كذلك) أي مثل هذا القص العالي في هذا النظم العزيز الغالي كقصة موسى ومن ذكر معه (نقص عليك من أنباء) أي أخبار (ما قد سبق) من الامم زيادة في علمك واجلالا لمقدارك وتسلية لقلبك واذهابا لحزنك بما اتفق للرسل من قبلك وتكثير البيناتك وزيادة في معجزاتك وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة وتتأكد الحجة على من عاند وكابر (وقد آتيناك) أي أعطيناك تشريفا لك وتعظيما لقدرك (من لدنا) أي من عندنا (ذكرا) أي كتابا هو القرآن وفي تسمية القرآن بالذكر وجوه أحدها أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم ودنياهم وثانيها أنه يذكر فيه أنواع آلاء الله ونعمائه وفيه التذكير والموعظة وثالثها فيه الذكر والشرف لك ولقومك كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك وسمى الله تعالى كل كتاب

أنزله ذكرا فقال فاسئلوا أهل الذكر والتنكير فيه للتعظيم فانه مشتمل على أسرار كتب الله تعالى المنزلة (من أعرض عنه) فلم يؤمن به (فانه يحمل يوم القيامة وزرا) أى حملا ثقيلا من الاثم (خالدين فيه) أى فى عذاب الوزر (وساء) أى وبئس (لهم) أى ذلك الحمل (يوم القيامة) وقوله (حملا) تمييز مفسر للضمير فى ساء والمخصوص بالذم محذوف تقديره وزرهم واللام للبيان ومن أقبل عليه كان مذكرا له بكل ما يريد من العلوم النافعة و يبدل من يوم القيامة (يوم ينفخ فى الصور) أى القرن النفخة الثانية وقرأ أبو عمرو بنونين الاولى مفتوحة وضم الفاء على اسناد الفعل الى الآمر به تعظيما له أو الى النافخ والباقون بياء مضمومة وفتح الفاء (ونحشر المجرمين) أى الكافرين (يومئذ زرقا) أى عيونهم مع سواد وجوههم لان زرقة العيون أبغض شئ من ألوان العيون الى العرب لان الروم أعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك قالوا فى صفة العدو أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين وقيل المراد العمى لان حدقة من يذهب نور بصره تزرق وقيل عطاشا حال كونهم (يتخافتون) أى يخفضون أصواتهم (بينهم) لما يملأ صدورهم من الرعب والهول والخفت خفض الصوت واخفاؤه (ان) أى يقول بعضهم لبعض ما (لبثتم) أى مكثتم (الا عشرا) أى من الليالى بأيامها فى الدنيا وقيل فى القبور وقيل بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة قالوا ذلك اما استقصارا لمدة الراحة فى جنب ما بدا لهم من المخاوف لان أيام السرور قصار واما لانها ذهبت عنهم وانقضت والذاهب وان طالت مدته قصيرة بالانتهاء ومنه توقيع عبد الله ابن المعتز أطال الله تعالى بقاءك كفى بالانتهاء قصرا واما لاستطالتهم الآخرة فانه يستقصر اليها عمر الدنيا ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس الى لبثهم فى الآخرة كما قال تعالى كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسئل العادين واما غلطا ودهشة قال الله تعالى (نحن أعلم) أى من كل أحد (بما يقولون) فى ذلك اليوم أى ليس كما قالوا (اذ يقول أمثلهم) أى أعدلهم (طريقة) أى رأيا أو عملا فى الدنيا فيما يحسبون (ان) أى ما (لبثتم الا يوما) أى مبدأ الآحاد لا مبدأ العقود كما قال تعالى فى آية أخرى يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون فلا يزالون فى افك وصرف عن الحق فى الدارين لان الانسان يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه * ولما وصف سبحانه وتعالى أمر يوم القيامة حكى سؤال من لا يؤمن بالحشر فقال تعالى (ويسئلونك) يا أشرف الخلق (عن الجبال) كيف تكون يوم القيامة قال الضحاك نزلت فى مشركى مكة قالوا يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء ولما كان مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر فلا جرم أمره الله تعالى بالجواب مقرونا بحرف التعقيب بقوله (فقل) لهم (ينسفها ربى نسفا) لان تأخير البيان فى مثل هذه المسئلة الاصولية غير جائز وأما المسائل الفروعية فجائز فلذلك ذكر هنالك فى نحو قوله تعالى يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو وقوله تعالى ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير بغير حرف التعقيب والنسف التذرية وقيل القلع الذى يقلعها من أصلها و يجعلها هباء منثورا قال الخليل ينسفها يذهبها و يطيرها وفى ضمير (فيذرها) قولان

احدهما

أحدهما انه ضمير الارض أضمرت للدلالة عليها كقوله تعالى ما ترك على ظهرها من دابة والثانى ضمير الجبال وذلك على حذف مضاف أى فيذرمراكزها ومقارها ويذر يجوز أن يكون بمعنى يخليها فيكون (قاعا) حالا وأن يكون بمعنى يترك التصييرية فيتعدى لاثنين فقاعا ثانيهما والقاع هو المكان المستوى وقيل الارض التى لابناء فيها ولانبات وفى قوله تعالى (صفصفا) قولان أحدهما الارض الملساء والثانى المستوية والقاع والصفصف قريبان من الترادف وجمع القاع أقوع وأقواع وقيعان (لاترى فيها) أى الارض أومواضع الجبال (عوجا) أى انخفاضا (ولاأمتا) أى ارتفاعا بوجه من الوجوه وعبر هنا فى العوج بالكسر وهو للمعانى ولم يعبر بالفتح الذى توصف به الاعيان فان الارض أو مواضع الجبال أعيان لامعان نفيا للاعوجاج على أبلغ وجه بمعنى انك لوجمعت أهل الخبرة بتسوية الارض لاتفقوا على الحكم باستوائها ثم لوجمعت أهل الهندسة فحكموا بمقاييسهم العلمية فيها لحكموا بمثل ذلك (يومئذ) أى يوم اذ نسفت الجبال (يتبعون) أى الناس بعد القيام من القبور بغاية جهدهم (الداعى) أى الى المحشر وهو اسرافيل يضع الصور على فيه ويقف على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا الى عرض الرحمن (لاعوج له) أى الداعى فى شئ من قصدهم اليه لانه ليس فى الارض ما يحوجهم الى التعويج ولايمنع الصوت من النفوذ على السواء وقيل لاعوج لدعائه وهو من المقلوب أى لاعوج لهم عن دعاء الداعى لا يزيغون عنه يمينا ولاشمالا ولايقدرون عليه بل يتبعونه سراعا (وخشعت الاصوات) أى سكنت وذلت وتطامنت لخشوع أهلها (للرحمن) الذى عمت نعمه فيرجى كرمه وتخشى نقمه (فلا) أى فتسبب عن خشوعها أنك لا (تسمع الاهمسا) أخفى ما يكون من الاصوات وقيل أخفى شئ من أصوات الاقدام فى نقلها الى المحشر كصوت أخفاف الابل فى مشيها (يومئذ) أى اذ كان ما تقدم (لاتنفع الشفاعة) أحدا (الامن أذن له الرحمن) أن يشفع له (ورضى له قولا) ولو الايمان المجرد قال ابن عباس يعنى قال لا اله الا الله فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن * ولما نفى أن تنفع شفاعة بغير اذنه علل ذلك كما سلف فى آية الكرسى بقوله (يعلم ما بين أيديهم) أى الخلائق من أمور الآخرة (وما خلفهم) من أمور الدنيا وقيل ما بين أيديهم ما قدموا وما خلفهم ما خلفوا من الاعمال (ولايحيطون به علما) أى لا يحيط علمهم بمعلوماته وقيل الضمير الى ما أى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يعلمونه وقيل راجع الى الله تعالى أى ولا يحيطون بالله علما * ولما ذكر خشوع الاصوات أتبعه خضوع ذويها فقال (وعنت الوجوه) أى ذلت وخضعت فى ذلك اليوم ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وخص الوجوه بالذكر مع أن المراد الاشخاص لشرف الوجوه ولانها أول ما يظهر فيها الذل (للحى) الذى هو مطلع على الدقائق والجلائل (القيوم) الذى لا يغفل عن التدبير ومجازاة كل نفس بما كسبت روى ابن أسامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اطلبوا اسم الله الاعظم فى هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه قال الرازى فوجدنا المشترك فى السور الثلاث الله لا اله الا هو الحى القيوم (وقد خاب) أى خسر خسارة

ظاهرة (من حمل ظلما) قال ابن عباس خسر من أشرك بالله والظلم الشرك * ولما شرح الله تعالى أحوال القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال (ومن يعمل من الصالحات) أى التى أمره الله تعالى بها بحسب طاقته لانه لن يقدر الله أحد حق قدره ولن يشاد الدين أحد الا غلبه (وهو مؤمن) ليكون بناؤها على الاساس كما فى قوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات (فلا يخاف ظلما) أى بزيادة فى سيآته (ولا هضما) أى بنقص من حسناته قاله ابن عباس وقيل لا يؤاخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل حسنة عملها وعبر تعالى بالفاء اشارة الى قبول الاعمال وجعلها سببا لذلك الحال وأما غير المؤمن فلو عمل أمثال الجبال لم يكن لها وزن وقوله تعالى (وكذلك) معطوف على قوله تعالى وكذلك نقص أى ومثل انزال ما ذكر (أنزلناه) أى القرآن (قرآنا) جامعا لجميع المعانى المقصودة ثم وصفه تعالى بأمرين أحدهما قوله تعالى (عربيا) أى بلسان العرب ليفهموه ويقفوا على اعجازه وحسن نظمه وخروجه عن كلام البشر الثانى قوله تعالى (وصرفنا فيه من الوعيد) أى كررناه وفصلناه ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعد بهما يتعلق بتكريره وتصريفه يقتضى بيان الاحكام فلذلك قال تعالى (لعلهم يتقون) أى يجتنبون الشرك والمحارم وترك الواجبات فتصير التقوى لهم ملكة (أو يحدث لهم ذكرا) أى عظة واعتبارا حين يسمعونها فيثبطهم عنها ولهذه النكتة أسند التقوى اليهم والاحداث الى القرآن (فتعالى الله) فى ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامه كلامهم كما لا يماثل ذاته وصفاته ذاتهم وصفاتهم (الملك) الذى لا يعجزه شئ فلا ملك فى الحقيقة غيره (الحق) أى الثابت الملك فلا زوال لكونه ملكا فى زمن ما ولعظمة ملكه وحقية ذاته وصفاته صرف خلقه على ماهم عليه من الامور المتباينة * ولما شرح الله تعالى كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين أنه سبحانه وتعالى متعال عن كل ما لا ينبغى موصوف بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك صان رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى فلذلك قال تعالى (ولا تعجل بالقرآن) أى بقراءته (من قبل أن يقضى اليك وحيه) من الملك النازل به اليك من حضرتنا كما لم نعجل بانزاله عليك جملة بل رتلناه لك ترتيلا ونزلناه اليك تنزيلا مفصلا تفصيلا وموصلا توصيلا فاستمع له ملقيا جميع تأملك اليه ولا تساوقه بالقراءة فاذا فرغ فاقرأه فانا نجمعه فى قلبك ولا نكلفك المساوقة بتلاوته (وقل رب) أيها المحسن الى بافاضة العلوم على (زدنى علما) أى سل الله زيادة العلم بدل الاستعجال فان ما أوحى اليك تناله لا محالة روى الترمذى عن أبى هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علما والحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية قال اللهم زدنى علما ويقينا * ولما قال تعالى كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ذكر هذه القصة انجازا للوعد فقال تعالى (ولقد عهدنا) بما لنا من العظمة (الى آدم) أبى البشر أى وصيناه أن لا يأكل من الشجرة وانما عطفها على قوله تعالى وصرفنا فيه من الوعيد للدلالة على أن أساس بنى آدم على العصيان وعرقهم راسخ بالنسيان (من قبل) أى فى

زمن

زمن من الأزمان الماضية قبل هؤلاء الذين تقدم في هذه السورة ذكر نسيانهم وإعراضهم (فنسي) عهدنا وأكل منها (ولم نجد له عزما) أي تصميم رأي وثبات على الأمر إذ لو كان ذا عزيمة وتصلب لم يزله الشيطان ولم يستطع تغريره قال البيضاوي ولعل ذلك كان في بدء أمره قبل أن يجرب الأمور ويذوق أريها وشريها انتهى والأري العسل والشري الحنظل قال البغوي قال أبو أمامة الباهلي لو وزن حلم آدم بحلم ولده لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما وقال البيضاوي وعن النبي صلى الله عليه وسلم لو وزنت أحلام بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال تعالى ولم نجد له عزما قال ابن الأثير والحلم بالكسرة الأناة والتثبت في الأمور (فإن قيل) ما المراد بالنسيان (أجيب) بأنه يجوز أن يراد بالنسيان الذي هو نقيض الذكر وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعا عن الإنسان بل كان يؤاخذ به وإنما رفع عنا وكان الحسن يقول ما عصى أحد قط إلا بنسيان وأن يراد الترك وأنه ترك ما أوصي به من الاحتراز عن الشجرة وأكل ثمرتها وقيل نسي عقوبة الله تعالى وظن أنه نهي تنزيه * (تنبيه) * هذا هو المرة الخامسة من قصة آدم في القرآن أولها في البقرة ثم في الأعراف ثم في الحجر ثم في الكهف ثم ههنا وقوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) تقدم الكلام على ذلك مفصلا في سورة البقرة وقوله تعالى (أبى) جملة مستأنفة لأنها جواب سؤال مقدر أي ما منعه من السجود فأجيب بأنه أبى ومفعول الإباء يجوز أن يكون مرادا وقد صرح به في الآية الأخرى في قوله تعالى أبى أن يكون من الساجدين وحسن حذفه هنا كون العامل رأس فاصلة ويجوز أن لا يراد أصلا وأن المعنى أنه من أهل الإباء والعصيان من غير نظر إلى متعلق الإباء ما هو (فقلنا) بسبب امتناعه بعد أن حلمنا عليه ولم نعاجله بالعقوبة (يا آدم إن هذا) الشيطان الذي تكبر عليك (عدو لك ولزوجك) حواء بالمد لأنها منك وسبب تلك العداوة من وجوه الأول أن إبليس كان حسودا فلما رأى آثار نعم الله في حق آدم حسده فصار عدوا له الثاني أن آدم عليه السلام كان شابا عالما لقوله تعالى وعلم آدم الأسماء كلها وإبليس كان شيخا جاهلا لأنه أثبت فضيلته بفضيلة أصله وذلك جهل والشيخ الجاهل أبدا يكون عدوا للشاب العالم الثالث أن إبليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة (فإن قيل) لم قال تعالى (فلا يخرجنكما من الجنة) مع أن المخرج لهما منها هو الله تعالى (أجيب) بأنه لما كان هو الذي فعل بوسوسته ما ترتب عليه الخروج صح ذلك (فإن قيل) لم قال تعالى (فتشقى) أي فتتعب وتنصب في الدنيا ولم يقل فتشقيا (أجيب) بوجهين أحدهما أن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما أن في ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على كونه رأس فاصلة وعن سفيان بن عيينة قال لم يقل فتشقيا لأنها إذا دخلت معه فوقع المعنى عليهما جميعا وعلى أولادهما جميعا كقوله تعالى يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ويا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم فدخلوا في المعنى معه وإنما كلم النبي وحده الثاني أريد

بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لان الرجل هو الساعى على زوجته روى أنه اهبط الى آدم ثور احمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه ويحتاج بعد الحرث الى الحصد والطحن والخبز وغير ذلك مما يحتاج اليه وعن الحسن قال عنى به شقاء الدنيا فلا تلقى ابن آدم الا شقيا ناصبا أى ولو أراد شقاوة الآخرة ما دخل الجنة بعد ذلك * ولما كان الشبع والرى والكسوة والكن هى الامور التى يدور عليها كفاف الناس ذكر تعالى حصول هذه الاشياء فى الجنة من غير حاجة الى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفى لاضدادها بقوله تعالى (ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ) أى تعطش (فيها ولا تضحى) أى لا يحصل لك حر شمس الضحى لانتفاء الشمس فى الجنة بل أهلها فى ظل ممدود وهذه الاشياء كأنها تفسير للشقاء المذكور فى قوله تعالى فتشقى (فوسوس) أى فتعقب تحذيرنا هذا من غير بعد فى زمان أن وسوس (اليه الشيطان) المحترق المطرود وهو ابليس اى أنهى اليه الوسوسة وأما وسوس له فمعناه لاجله فلذلك عدى تارة باللام فى قوله تعالى فوسوس لهما وتارة بالى ثم بين تعالى تلك الوسوسة ماهى بقوله تعالى (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى على الشجرة التى ان أكلت منها بقيت مخلدا (وملك لا يبلى) أى لا يبيد ولا يفنى قال الرازى واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله تعالى فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ورغبه ابليس أيضا فى دوام الراحة بقوله تعالى هل أدلك على شجرة الخلد وفى انتظام المعيشة بقوله وملك لا يبلى فكان الشئ الذى رغب الله تعالى فيه آدم هو الذى رغبه ابليس فيه الا أن الله تعالى وقف ذلك الامر على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها ثم ان آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله مولاه وناصره ومربيه وعلمه بأن ابليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بعداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه الناصر له والمربى ومن تأمل هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه لا دافع لقضاء الله ولا مانع له منه وان الدليل وان كان فى غاية الظهور ونهاية القوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا قضى الله ذلك وقدره انتهى ويدل على ذلك ماثبت فى الحديث الصحيح روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك فى جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك الى الارض فقال آدم أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الالواح فيها بيان كل شئ وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن يخلقنى قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومنى على ان عملت عملا كتب الله على ان أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى وروى مسلم عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الله مقادير الخلائق قبل أن

بخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء وقال كل شئ بقدر حتى العجز والكيس ثم كان ابليس قال لآدم بلسان الحال أو المقال مشيرا الى الشجرة التى نهى عنها ما بينك وبين الملك الدائم الا أن تأكل منها (فأكلا) أى فتسبب عن قوله وتعقب ان أكل (منها) هو وزوجته متبعين لقوله ناسيين ما عهد اليهما لامر قدره الله فى الازل (فبدت لهما سوآتهما) قال ابن عباس عريا من النور الذى كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما وانما جمع سوآتهما كما قال صغت قلوبكما أى فظهر لكل منهما قبله وقبل الآخر ودبره وسمى كل منهما سوأة لان انكشافه يسوء صاحبه (وطفقا يخصفان) أى أخذا يلزقان (عليهما من ورق الجنة) ليستترا به قال ابن عادل وهو ورق التين (وعصى آدم) بالاكل من الشجرة وان كان انما فعل المنهى نسيانا لان عظم مقامه وعلو رتبته يقتضيان له مزيد الاعتناء ودوام المراقبة (ربه) المحسن اليه عالما بما له أحد من بنيه من تصويره له بيده واسجاد ملائكته له ومعاداة من عاداه (فغوى) أى فعل ما لم يكن له فعله وقيل أخطأ طريق الحق وقيل حيث طلب الخلد بأكل ما نهى عنه فخاب ولم ينل مراده وصار من العز الى الذل ومن الراحة الى التعب قال ابن قتيبة يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص لانه انما يقال عاص لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه فيقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاوده ويعتاده *(تنبيه)* تمسك بعضهم بقوله تعالى وعصى آدم ربه فغوى فى صدور الكبيرة عنه من وجهين الاول أن العاصى اسم للذم فلا ينطلق الا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدا فيها ولا معنى لصاحب الكبيرة الا من فعل فعلا يعاقب عليه الثانى أن الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغى ضد الرشاد ومثل هذا لا يتناول الا الفاسق المنهمك فى فسقه وأجيب بأن المعصية مخالفة الامر والامر قد يكون بالواجب وقد يكون بالمندوب فانك تقول أمرته فعصانى وأمرته بشرب الدواء فعصانى واذا كان كذلك لم يمتنع اطلاق اسم العصيان على آدم بكونه للمندوب وان كان وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز وأجاب أبو مسلم الاصبهانى بأنه عصى فى مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذا القول فى غوى قال الرازى والاولى عندى فى هذا الباب أن يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد تقدم شرح ذلك فى البقرة وقيل بل أكل من الشجرة متأولا وهو لا يعلم أن الشجرة التى نهى الله عنها شجرة مخصوصة لا على الجنس ولهذا قيل انما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة فهو كما قيل حسنات الابرار سيآت المقربين أى يرونها بالاضافة الى علو أحوالهم كالسيآت (ثم اجتباه ربه) أى اختاره واصطفاه (فتاب عليه) أى قبل توبته وأعاد عليه بالعفو والمغفرة (وهدى) أى هداه لرشده حتى رجع الى الندم والاستغفار * ولما كانت دار الملوك لا تحتمل مثل ذلك وان كان قد هيأه بالاجتباء لها قال على طريق الاستئناف (قال) الرب سبحانه وتعالى الذى انتهكت حرمة داره (اهبطا) أى آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما (منها) أى الجنة (جميعا) وقيل الخطاب لآدم ومعه ذريته ولابليس فقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) يكون على التفسير الاول بعض الذرية لبعض عدو

من ظلم بعضهم لبعض وعلى الثانى آدم وذريته وابليس وذريته وقوله تعالى (فاما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما المزيدة (يأتينكم منى هدى) أى كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) الذى أسعفته به من أوامر الكتاب والرسول (فلا يضل) أى بعد ذلك عن طريق السداد فى الدنيا (ولا يشقى) فى الآخرة قال ابن عباس من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله تعالى من الضلالة ووقاه الله تعالى يوم القيامة سوء الحساب وذلك ان الله تعالى يقول فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ولما وعد تعالى من اتبع الهدى اتبعه بوعيد من أعرض فقال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى) أى عن القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه (فان له معيشة ضنكا) والضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر فكانه قال له معيشة ذات ضنك واختلف فى ذلك فقال أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى وابن مسعود المراد بالمعيشة الضنك عذاب القبر وروى أبو هريرة أن عذاب القبر للكافر قال قال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ليسلط عليه فى قبره تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسعة وتسعون حية لكل حية تسعة رؤس يخدشونه ويلسعونه وينفخون فى جسمه الى يوم يبعثون وقال الحسن وقتادة والكلبى هو الضيق فى الآخرة فى جهنم فان طعامهم الضريع والزقوم وشرابهم الحميم والغسلين فلا يموتون فيها ولا يحيون وقال ابن عباس المعيشة الضنك هى أن يضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدى لشئ منها وعن عطاء المعيشة الضنك هى معيشة الكافر لانه غير موقن بالثواب والعقاب وروى عن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر فى الشدة وان لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله وذلك ان مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله تعالى وعلى قسمته فهو ينفق ما رزقه الله تعالى بسماح وسهولة فيعيش عيشا رافعا كما قال تعالى فلنحيينه حياة طيبة والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذى لا يزال يطمح به الى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذى يقبض يده عن الانفاق فعيشه ضنك وحاله مظلمة قال صلى الله عليه وسلم لو كان لابن آدم واد من ذهب لابتغى اليه ثانيا ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب متفق عليه قال بعض الصوفية لا يعرض أحد عن ذكر ربه الا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه وقال تعالى استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الآية وقال تعالى وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا * ثم ذكر حال المعرض فى الآخرة بقوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال ابن عباس اذا خرج من القبر خرج بصيرا فاذا سيق الى المحشر عمى ولعله جمع بذلك بين هذا وبين قوله تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا وقال عكرمة عمى عليه كل شئ الا جهنم وفى لفظ قال لا يبصر الا النار وعن مجاهد المراد بالعمى عدم الحجة ويؤيد الاول قوله تعالى (قال رب لم حشرتنى أعمى) فى هذا اليوم (وقد كنت بصيرا) أى فى الدنيا أو فى أول هذا اليوم فكانه قيل بم أجيب فقيل (قال) له ربه (كذلك) أى مثل ذلك فعلت ثم فسره فقال (أتتك آياتنا) واضحة نيرة (فنسيتها) فعميت

عنها وتركتها غير منظور اليها (وكذلك) أى ومثل تركك اياها (اليوم تنسى) أى تترك فى العمى والعذاب (وكذلك) أى ومثل هذا الجزاء الشديد (نجزى من أسرف) فى متابعة هواه فتكبر عن متابعة أوامرنا (ولم يؤمن) بل كذب (بآيات ربه) وخالفها (ولعذاب الآخرة أشد) مما نعذبهم به فى الدنيا والقبر لعظمه (وأبقى) فانه غير منقطع * ولما بين الله تعالى أن من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة اتبعه بما يعتبر به المكلف من الافعال الواقعة فى الدنيا من كذب الرسل فقال (أفلم يهد) أى يبين بيانا يقود الى المقصود (لهم) أى هؤلاء الذين أرسلت اليهم أعظم رسلى وفاعل يهد مضمون قوله (كم أهلكنا) وقال أبو البقاء الفاعل مادل عليه أهلكنا أى اهلاكنا والجملة مفسرة له وقال الزمخشرى فاعل لم يهد الجملة بعده يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه ونظيره قوله تعالى وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين أى تركنا عليه هذا الكلام ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول انتهى وكم خبرية مفعول أهلكنا (قبلهم من القرون) أى بتكذيبهم لرسلنا حال كونهم (يمشون) أى هؤلاء العرب من أهل مكة وغيرهم (فى مساكنهم) أى فى سفرهم الى الشأم ويشاهدون آثار هلاكهم (ان فى ذلك) أى الاهلاك العظيم الشأن المتوالى فى كل أمة (لآيات) عظيمات بينات (لاولى النهى) أى لذوى العقول الناهية عن التغافل والتعامى * ولما هددهم باهلاك الماضين ذكر سبب التأخير عنهم بقوله تعالى (ولولا كلمة) أى عظيمة قاضية نافذة (سبقت) أى فى أزل الآزال (من ربك) الذى عودك بالاحسان بتأخير العذاب عنهم الى الآخرة فانه يعامل بالحلم والاناة (لكان) أى العذاب (لزاما) أى لازما أعظم لزوم لهم فى الدنيا مثل مانزل بعاد وثمود ولكن نمدلهم لنرد من شئنا منهم ونخرج من أصلاب بعضهم من يؤمن وانما فعلنا ذلك اكراما لك ورحمة لامتك فيكثر اتباعك فيعملوا الخيرات فيكون ذلك زيادة فى شرفك والى ذلك الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا وفى رفع قوله تعالى (وأجل مسمى) وجهان أظهرهما عطفه على كلمة أى ولولا أجل مسمى لكان العذاب لازما لهم وهذا ماصدر به البيضاوى والثانى أنه معطوف على الضمير المستتر فى كان وقام الفصل بخبرها مقام التأكيد واقتصر الجلال المحلى على هذا وجوزه الزمخشرى والبيضاوى وفى هذا الاجل المسمى قولان أحدهما ولولا أجل مسمى فى الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر والثانى ولولا أجل مسمى فى الآخرة لذلك العذاب وهذا كما قال الرازى أقرب قال أهل السنة له تعالى بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذلو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة اماقديمة فيلزم قدم الفعل واما حادثة فيلزم افتقارها الى علة أخرى ويلزم التسلسل ثم انه تعالى لما أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه لايهلك أحدا قبل استيفاء أجله أمره بالصبر فقال (فاصبر على مايقولون) لك من الاستهزاء وغيره وهذا كان فى أول الامر ثم نسخ بآية القتال (وسبح) أى صل وقوله تعالى (بحمد ربك) حال أى وأنت حامد لربك على انه وفقك لذلك وأعانك عليه (قبل طلوع الشمس) صلاة الصبح (وقبل

غروبها) صلاة العصر (ومن آناء الليل) أى ساعاته (فسبح) أى صل المغرب والعشاء وقوله تعالى (وأطراف النهار) معطوف على محل من آناء المنصوب أى صل الظهر لان وقتها يدخل بزوال الشمس فهو طرف النصف الاول وطرف النصف الثانى قال ابن عباس دخلت الصلوات الخمس فى ذلك وقيل المراد الصلوات الخمس والنوافل لان الزمان اما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان فى هاتين العبارتين وأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما فبقى قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار للنوافل وقال أبو مسلم لا يبعد حمل التسبيح على التنزيه والاجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى فى هذه الاوقات (فان قيل) النهار له طرفان فكيف قال وأطراف النهار ولم يقل طرفى النهار (أجيب) بوجهين أظهرهما انه انما جمع لانه يلزم فى كل نهار ويعود والثانى ان أقل الجمع اثنان وقرأ قوله تعالى (لعلك ترضى) أبو بكر والكسائى بضم التاء أى ترضى بما تنال من الثواب كقوله تعالى وكان عند ربه مرضيا وقرأ الباقون بفتحها أى ترضى بما تنال من الشفاعة قال تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا والمعنى على القراءتين لا يختلف لان الله تعالى اذا أرضاه فقد رضيه واذا رضيه فقد أرضاه * ولما كانت النفس ميالة الى الدنيا مرهونة بالحاضر من فانى العطايا وكان تخليها عن ذلك هو الموصل الى حريتها المؤذن بعلو همتها قال تعالى مؤكدا ابدا نا بصعوبة ذلك (ولا تمدن) مؤكداً له بالنون الثقيلة (عينيك) أى لا تطول نظرهما بعد النظرة الاولى المعفو عنها (الى ما متعنا به) فى هذه الحياة الفانية (أزواجا) أى أصنافا (منهم) أى الكفرة استحسانا له وتمنيا أن يكون لك مثله والامتاع الالذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الاصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح وقوله تعالى (زهرة الحياة الدنيا) أى زينتها وبهجتها منصوب بمحذوف دل عليه متعنا أو به على تضمنه معنى أعطينا فأزواجا مفعول أول وزهرة هو الثانى وذكر ابن عادل غير هذين الوجهين سبعة أوجه لا حاجة لنا بذكرها ثم علل تعالى تمتعهم بقوله تعالى (لنفتنهم فيه) أى لنفعل بهم فعل المختبر فيكون سبب عذابهم فى الدنيا بالعيش الضنك لما مضى وفى الآخرة بالعذاب الاليم فصورته تغر من لم يتأمل معناه حق التأمل فما أنت فيه خير مما هم فيه (ورزق ربك) فى الجنة (خير) مما أوتوه فى الدنيا (وأبقى) أى أدوم أو ما رزقته من نعمة الاسلام والنبوة أو لان أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال خير وأبقى قال الزمخشرى لان الله تعالى لا ينسب الى نفسه الا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث والحرام لا يسمى رزقا انتهى وهذا جار على مذهبه المخالف لاهل السنة من أن الحرام لا يسمى رزقا وقال أبو مسلم الذى نهى عنه بقوله ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أى لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا وقال أبو رافع نزلت هذه الآية فى ضيق نزل بالنبى صلى الله عليه وسلم فبعثنى الى يهودى يبيع أو يستلف الى مدة فقال والله لا أفعل الا برهن فأخبرته بقوله فقال صلى الله عليه وسلم انى لامين فى السماء وانى لامين فى الارض احمل اليه درعى الحديد

فنزل

فنزل قوله ولا تمدن عينيك وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى اموالكم
ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وقال أبو الدرداء الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له
ولها يجمع من لا عقل له وعن الحسن لولا حمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى ابن مريم عليه
السلام لا تتخذوا الدنيا دارا فتتخذكم لها عبيدا * ولما أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه
وسلم بتزكية النفس أمره بأن يأمر أهله بالصلاة بقوله عزوجل (وأمر أهلك بالصلاة) أى أمر
أهل بيتك والتابعين لك من أمتك بالصلاة كما كان أبوك اسمعيل عليه السلام يدعوهم الى كل
خير اذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا
يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا الفت أرباب الثروة وكان صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية
يذهب الى فاطمة وعلى رضى الله عنهما كل صباح ويقول الصلاة (واصطبر) أى داوم (عليها
لا نسألك) أى نكلفك (رزقا) لنفسك ولا لغيرك (نحن نرزقك) وغيرك كما قال تعالى وما خلقت
الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق
ذو القوة المتين ففرغ بالك لامور الآخرة وفى معناه قول الناس من كان فى عمل الله كان الله
فى عمله وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية
وعن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى ما عند السلطان قرأ ولا تمدن عينيك الآية ثم ينادى الصلاة
الصلاة رحمكم الله وعن بكر بن عبد الله المزنى كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا
فصلوا بهذا أمر الله رسوله ثم يتلو هذه الآية (والعاقبة) أى الجميلة المحمودة (للتقوى)
أى لاهل التقوى قال ابن عباس الذين صدقوك واتبعوك واتقونى ويؤيده قوله تعالى
فى موضع آخر والعاقبة للمتقين ولا معونة على الرزق وغيره بشئ يوازى الصلاة فقد كان صلى
الله عليه وسلم اذا حزبه أمر أى بالباء الموحدة أى اذا أحزنه فزع الى الصلاة قال ثابت وكان
الانبياء عليهم الصلاة والسلام اذا نزل بهم أمر فزعوا الى الصلاة وعن أبى هريرة رضى الله عنه
قال قال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى تفرغ لعبادتى املأ صدرك غنى وأسد فقرك وان لم
تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن
تشعبت به هموم أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديتها هلك وعن زيد بن ثابت قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه
ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن كانت الآخرة همه جمع الله له أمره وجعل غناه فى قلبه
وأتته الدنيا وهى راغمة * ثم انه تعالى بعد هذه الوصية حكى عنهم شبها بقوله تعالى (وقالوا
لولا يأتينا بآية من ربه) فكأنه من لوازم قوله تعالى فاصبر على ما يقولون وهو قولهم لولا أى
هلا يأتينا بآية وقال فى موضع آخر لو ما تأتينا بآية كما أرسل الاولون * ثم أجاب الله تعالى عن
رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله (أولم تأتهم بينة) أى بيان (ما فى الصحف الاولى) من التوراة
والانجيل وسائر الكتب السماوية المشتمل عليه القرآن من أنباء الامم الماضية واهلاكهم

بتكذيب الرسل فما يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بالفوقية على التأنيث والباقون بالتحتية على التذكير (ولو أنا أهلكناهم) معاملة لهم في عصيانهم (بعذاب من قبله) أي هذا القرآن المذكور في الآية الماضية وما قاربها وفي قوله تعالى ولا تعجل بالقرآن وفي مبنى السورة في ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى أو من قبل محمد صلى الله عليه وسلم (لقالوا) أي يوم القيامة (ربنا) يا من هو متصف بالاحسان الينا (لولا) أي هلا ولم لا (أرسلت الينا رسولا) يأمرنا بطاعتك (فنتبع) أي فيتسبب عنه أن نتبع (آياتك) التي تجيئنا بها (من قبل أن نذل) بالعذاب هذا الذل (ونخزى) بالمعاصي التي عملناها على جهل فلاجل ذلك أرسلناك اليهم وأقمنا بك الحجة عليهم * ولما علم بهذا أن ايمانهم كالممتنع وجدالهم لا ينقطع بل ان جاءهم الهدى طعنوا فيه وان عذبوا قبله تظلموا كان كأنه قيل فما الذي أفعل معهم فقيل (قل) لهم (كل) أي كل مني ومنكم (متربص) أي منتظر ما يؤول اليه أمري وأمركم (فتربصوا) فأنتم كالبهائم ليس لكم تأمل (فستعلمون) أي عما قريب بوعد لا خلف فيه وهو يوم القيامة (من أصحاب الصراط) أي الطريق (السوي) أي المستقيم (ومن اهتدى) أي من الضلال فحصل على جميع ما ينفعه واجتنب جميع ما يضره أنحن أم أنتم قال ابن عادل عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا طوبى لامة ينزل عليها هذا وطوبى لالسن تتكلم بهذا وطوبى لاجواف تحمل هذا وعن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يقرأ أهل الجنة من القرآن الا يس وطه انتهى ولم يذكر لذلك سندا وأما ما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ طه أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار فحديث موضوع

(سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام مكية)

قال الرازي باجماع وهي مائة واحدى أو ثنتا عشرة آية وألف ومائة وستون كلمة وأربعة آلاف وثمان وتسعون حرفا

(بسم الله) الحكم العدل الذي تمت قدرته وعم أمره (الرحمن) الذي ساوى بين خلقه في رحمة ايجاده (الرحيم) الذي نجى من شاء من عباده في معاده قال أبو جعفر بن الزبير في برهانه لما تقدم قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى قوله فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى قال تعالى (اقترب) أي قرب (للناس حسابهم) أي في يوم القيامة أي فلا تمدن عينيك الى ذلك فاني جعلته فتنة وأشار بصيغة الافتعال الى مزيد القرب لانه لا أمة بعد هذه ينتظر أمرها وأخر الفاعل تهويلا لتذهب النفس في تعيينه كل مذهب (فان قيل) كيف وصف ذلك اليوم بالاقتراب وقد عدت دون هذا القول أكثر من تسعمائة عام (أجيب) بأنه مقترب عند الله والدليل عليه قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ولان كل آت وان طالت أوقات استقباله وترقبه قريب وانما البعيد هو الذي وجد وانقرض

قال الشاعر

فلازال ماتهواه أقرب من غد * ولازال ماتخشاه أبعد من أمس

ولان مابقي من الدنيا أقصر واقل مماسلف منها بدليل انبعاث خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه الموعود ببعثه في آخر الزمان وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار باصبعيه وقال صلى الله عليه وسلم ختمت النبوة بي كل ذلك لاجل ان الباقي من مدة التكاليف أقل من الماضي وعن ابن عباس ان المراد بالناس المشركون وهو من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو مايتلوه من صفات المشركين وهو قوله تعالى (وهم) أي والحال أنهم (في غفلة) أي عن الحساب (معرضون) عن التأهب لهذا اليوم لايتفكرون في عاقبتهم ولايتفطنون لما يرجع اليه خاتمة أمرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لابد من جزاء المحسن والمسيء وأيضا ان هذه الآية نزلت في كفار مكة ولما أخبر تعالى عن غفلتهم واعراضهم دل على ذلك بقوله (ما يأتيهم) وأغرق في النفي بقوله (من ذكر) أي وحي ينبههم عن سنة الغفلة والجهالة وقوله تعالى (من ربهم) صفة ذكر أوصلة ليأتيهم (محدث) انزاله أي مايحدث الله تعالى من تنزيل شيء من القرآن يذكرهم ويعظهم به وبهذا سقط احتجاج المعتزلة بأن القرآن حادث لهذه الآية وقيل معناه ان الله تعالى يحدث الامر بعد الامر فينزل الآية بعد الآية والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الاحكام وغيرها من الامور والوقائع وقيل الذكر المحدث ماقاله النبي صلى الله عليه وسلم وبينه من السنن والمواعظ سوى مافي القرآن وأضافه اليه لان الله تعالى قال وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى (الا استمعوه) أي قصدوا سماعه وهو أجد الجد وأحق الحق (وهم) أي والحال انهم (يلعبون) أي يفعلون فعل اللاعبين بالاستهزاء والسخرية لتناهي غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر في الامور والتفكر في العواقب (لاهية) أي غافلة معرضة (قلوبهم) عن ذكر الله *(تنبيه)* قوله تعالى وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان مترادفتان أو متداخلتان * ولما ذكر تعالى مايظهرونه في حالة الاستماع من اللهو واللعب ذكر مايخفونه بقوله تعالى عطفا على استمعوه (وأسروا) أي الناس المحدث عنهم (النجوى) أي بالغوا في اسرار كلامهم وقوله تعالى (الذين ظلموا) بدل من واو وأسروا للايماء بأنهم ظالمون فيما أسروا به أو مبتدأ والجملة المتقدمة خبره والمعنى وهؤلاء أسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بأنه ظلم وقيل جاء على لغة من قال أكلوني البراغيث وقيل منصوب المحل على الذم ثم بين تعالى ماتناجوا به بقوله تعالى (هل) أي فقالوا في تناجيهم هذا متعجبين من ادعائه النبوة مع مماثلته لهم في البشرية هل (هذا) الذي اتاكم بهذا الذكر (الابشر مثلكم) أي في خلقه واخلاقه من الاكل والشرب والحياة والممات فكيف يختص عنكم بالرسالة ماهذا الذي جاءكم به مما لاتقدرون على مثله الاسحر لاحقيقة له فحينئذ تسبب عن هذا الانكار قولهم (أفتأتون السحر وأنتم) أي والحال انكم (تبصرون) بأعينكم انه بشر مثلكم فبكتهم استدلوا بكونه بشرا على كذبه في ادعاء النبوة والرسالة

لاعتقادهم ان الرسول لا يكون الا ملكا واستلزموا منه ان ما جاءبه من الخوارق كالقرآن سحر فانكروا حضوره (فان قيل) لم أسروا هذا الحديث وبالغوا فى اخفائه (أجيب) بأن ذلك كان يشبه التشاور فيما بينهم والتحاور فى طلب الطريق الى هدم أمره وعادة المتشاورين فى خطب أن لا يشركوا أعداءهم فى مشورتهم ويجتهدوا فى طى سرهم عنهم ما أمكن واستطيع ومنه قول الناس استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان قال البقاعى فيالله العجب من قوم رأوا ما أعجزهم لم يجوزوا أن يكون ذلك عن الرحمن الداعى الى الفوز بالجنان وجزموا أنه من الشيطان الداعى الى الهوان باصطلاء النيران والعجب أيضا أنهم أنكروا الاختصاص بالرسالة مع مشاهدتهم بما يخص الله تعالى به بعض الناس عن بعض من الذكاء والفطنة وحسن الخلائق والاخلاق والقوة والصحة وطول العمر وسعة الرزق ونحو ذلك انتهى ولا عجب فانها عقول أضلها باريها ثم كانه قيل فماذا يقال لهؤلاء فقال (قل) لهم (ربى) المحسن الىّ (يعلم القول) سواء كان سرا أم جهرا كائنا (فى السماء والارض) على حد سواء لانه لا مسافة بينه وبين شئ من ذلك (وهو السميع العليم) فلا يخفى عليه ما يسرون ولا ما يضمرون (فان قيل) هلا قيل يعلم السر لقوله تعالى وأسروا النجوى (أجيب) بأن القول عام يشمل السر والجهر فكان فى العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد فى بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول يعلم السر كما أن قوله يعلم السر آكد من أن يقول يعلم سرهم (فان قيل) لم ترك هذا الآكد فى سورة الفرقان فى قوله تعالى قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض ولم يقل يعلم القول كما هنا (أجيب) بأنه ليس بواجب أن يأتى بالآكد فى كل موضع ولكن يجىء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى كما يجىء بالحسن فى موضع وبالاحسن فى غيره ليفتن الكلام افتنانا ويجمع الغاية وما دونها على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى فكأنه أراد أن يقول ان ربى يعلم ما أسروه فوضع القول موضع ذلك للمبالغة وثم قصد وصف ذاته بأنه أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض فهو كقوله تعالى علام الغيوب عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة وقرأ حفص وحمزة والكسائى قال بصيغة الماضى بالاخبار عن الرسول والباقون قل بصيغة الامر * ثم انه تعالى بين أن المشركين اقتسموا القول فى النبى صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله بقوله تعالى (بل قالوا) أى قال بعضهم هذا الذى قال لكم (أضغاث أحلام) أى اخلاط أحلام رآها فى النوم وقال بعضهم (بل افتراه) أى اختلقه من عند نفسه ونسبه الى الله تعالى وقال بعضهم (بل هو) أى النبى صلى الله عليه وسلم (شاعر) فما جاءكم به شعر والشاعر يخيل ما لا حقيقة له لغيره أو أنهم كلهم أضربوا عن قولهم هو سحر الى أنه تخاليط أحلام ثم الى أنه كلام مفترى من عنده ثم الى أنه قول شاعر وهكذا المبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد قال الزمخشرى ويجوز أن يكون تنزيلا من الله تعالى لاقوالهم فى درج الفساد وأن قولهم الثانى أفسد من الاول والثالث أفسد من الثانى وكذا الرابع أفسد من الثالث * ثم انهم لما قدحوا فى أعظم المعجزات طلبوا آية غيره فقالوا (فليأتنا) دليلا على

رسالته (بآية كما) أي مثل ما (أرسل الأولون) بالآيات كتسبيح الجبال وتسخير الريح وتفجير الماء وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وصحة التشبيه من حيث أن الارسال يتضمن الاتيان بالآية قال الله تعالى مجيبا لهم (ما آمنت قبلهم) أي قبل مشركي مكة (من قرية) أي من أهل قرية أتتهم الآيات (أهلكناها) باقتراح الآيات لما جاءتهم (أفهم يؤمنون) أي لو جئتهم بها وهم أعتى منهم وفيه دليل على أن عدم الاتيان بالمقترح للابقاء عليهم اذ لو أتى به لم يؤمنوا واستوجبوا عذاب الاستئصال كمن قبلهم * ولما بين تعالى بطلان ما قدحوا به في رسوله صلى الله عليه وسلم بكونه بشرا قال تعالى عاطفا على آمنت مجيبا عن قولهم هل هذا الا بشر مثلكم (وما أرسلنا قبلك) أي في جميع الزمان الذي تقدم زمانك في جميع طوائف البشر (الا رجالا) أي لم نرسل الملائكة الى الأولين انما أرسلنا رجالا (نوحي اليهم) مثلك ثم انه تعالى أمر المشركين أن يسألوا أهل الكتاب بقوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر) وانما أحالهم على هؤلاء لانهم كانوا لا ينكرون أن الرسل كانوا بشرا وان أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بالذكر القرآن أي فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها وكذا يفعل حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها * ثم نبه تعالى على انهم غير محتاجين فيه الى السؤال بما قد كان بلغهم على الاجمال من أحوال موسى وعيسى وابراهيم واسمعيل وغيرهم عليهم السلام بقوله تعالى معبرا بأداة الشك محركا لهم على المعالي (ان كنتم) أي بجبلاتكم (لا تعلمون) أي لا أهلية لكم في اقتناص علم بل كنتم أهل تقليد محض وتبع صرف * ولما بين تعالى أنه صلى الله عليه وسلم على سنة من مضى من الرسل في كونه رجلا بين أنه على سنتهم في جميع الاوصاف التي حكم بها على البشر في العيش والموت فنبه على الأول بقوله تعالى (وما جعلناهم) أي الذين اخترنا بعثتهم الى الناس ليأمروهم بأوامرنا (جسدا) أي ذوي جسد ولحم ودم متصفين بأنهم (لا يأكلون الطعام) بل جعلناهم أجسادا يأكلون ويشربون وليس ذلك بمانع من ارسالهم * (فائدة) * قال ابن فارس في المجمل وفي كتاب الخليل ان الجسد لا يقال لغير الانسان وتوحيد الجسد لارادة الجنس كأنه قيل ذوي ضرب من الاجساد وعلى حذف المضاف أي ذوي جسد كما مر أو تأويل الضمير لكل واحد وهو جسم ذو لون قال البيضاوي ولذلك أي ولكون الجسد جسما ذا اللون لا يطلق على الماء والهواء وهو في الماء مبني على أنه لا لون له وانما يتلون بلون ظرفه أو مقابله لانه جسم شفاف لكن قال الامام الرازي بل له لون ويرى ومع ذلك لا يحجب عن رؤية ما وراءه * ثم نبه على الثاني بقوله تعالى (وما كانوا خالدين) أي بأجسادهم بل ماتوا كما مات الناس قبلهم وبعدهم وانما امتازوا عن الناس بما يأتيهم عن الله تعالى ورسولكم صلى الله عليه وسلم ليس بخالد فتربصوا كما أشار اليه ختم طه فانه متربص بكم وأنتم عاصون الملك الذي اقترب حسابه لخلقه وهو مطيع له (ثم صدقناهم الوعد) أي الذي وعدناهم باهلاكهم وهذا مثل قوله تعالى واختار موسى قومه في حذف الجار والاصل

فى الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال وصدقنى سن بكره والاصل فى هذا المثل ان أعرابيا عرض بعيرا للبيع فقال له المشترى ماسنه قال بكر فاتفق أنه ند فقال صاحبه هدع هدع وهذه اللفظة مما يسكن به صغار الابل لا الـبكار فقال المشترى صدقنى سن بكره وأعرض فصاره مثلا *(تنبيه)* أشار تعالى باداة التراخى الى أنهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم ثم أحل بهم سطوته وأراهم عظمته (فأنجيناهم) أى الرسل (ومن نشاء) وهم المؤمنون أو من فى ابقائه حكمة كمن سيؤمن هو أو واحد من ذريته ولذلك حميت به العرب من عذاب الاستئصال (وأهلكنا المسرفين) أى المشركين لان المشرك مسرف على نفسه (لقد أنزلنا اليكم) يامعشر قريش (كتابا) أى القرآن (فيه ذكركم) أى شرفكم ووصيتكم كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك أو فيه مكارم الاخلاق التى كنتم تطلبون بها الثناء وحسن الذكر كحسن الجوار والوفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الامانة والسخاء وما أشبه ذلك وقيل فيه ذكر ما تحتاجون اليه من أمر دينكم أو لانه نزل بلغتكم وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد (أفلا تعقلون) فتؤمنوا به وفى ذلك حث على التدبر لان الخوف من لوازم العقل (وكم قصمنا) أى أهلكنا (من قرية) أى أهلها بغضب شديد لان القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذى يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم وقوله تعالى (كانت ظالمة) أى كافرة صفة لاهلها وصفت بها لما أقيمت مقامها ثم بين الغنى عنها بقوله تعالى (وأنشأنا بعدها) أى بعد اهلاك أهلها (قوما آخرين) مكانهم * ثم بين حالها عند احلال البأس بها بقوله تعالى (فلما أحسوا) أى أدرك أهلها بحواسهم (بأسنا) أى عذابنا (اذاهم منها) أى القرية (يركضون) هاربين منها مسرعين راكضين دوابهم لما أدركتهم مقدمة العذاب والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه اركض برجلك أو مشبهين بهم من فرط اسراعهم بعد تجبرهم على الرسل وقولهم لهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فناداهم لسان الحال تقريعا وتشنيعا لحالهم (لاتركضوا) أو المقال والقائل ملك أو من ثم من المؤمنين (وارجعوا) الى قريتكم (الى ما أترفتم) أى تمتعتم (فيه) من التنعم والتلذذ والاتراف ابطار النعمة والترفه * ولما كان أعظم ما يؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكن قال (ومساكنكم) أى التى كنتم تفتخرون بها على الضعفاء بما أوسعتم من فنائها وعليتم من بنائها وحسنتم من مشاهدها (لعلكم تسئلون) وفى هذا تهكم بهم وتوبيخ أى ارجعوا الى نعمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما يجرى عليكم وينزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم فى مجالسكم وترتبوا فى مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم فيقولوا لكم بم تأمرون وماذا ترسمون أو شيأ من دنياكم على العادة أو تسئلون فى الايمان كما كنتم تسئلون فتأبوا عنادكم من الانفة والحمية والعظمة أو فى المهمات كما تكون الرؤساء فى مقاعدهم العلية ومراتبهم السنية فيجيبون سائلهم بما شاؤا * ولما كان كأنه قيل بم أجابوا هذا القائل قيل (قالوا) حين لا نفع لقولهم عند نزول البأس

(ياويلنا) اشارة الى أنه حل بهم لانه ينادى ياالقريب ترفقا به كما يقول الشخص لمن يضربه ياسيدى كأنه يستغيث به ليكف عنه وذلك غباوة منهم وعمى عن الذى أحله بهم لانهم كالبهائم لا ينظرون الا السبب الاقرب ثم علاوا احلوله بهم تأكيدا الترفقهم بقولهم (انا كنا) جبلة وطبعا (ظالمين) حيث كذبنا الرسل وعصينا أمر ربنا فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف لفوات محله وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه القرية حضور بفتح الحاء و بالضاد المعجمة وهى وسحول قريتان من اليمن تنسب اليهما الثياب وفى الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثوبين سحوليين وروى حضور بين بعث الله لهم نبيا فقتلوه فسلط الله تعالى عليهم بختنصر كما سلطه الله على أهل بيت المقدس فاستأصلهم وروى انه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يالثارات الانبياء وهى بفتح اللام وبمثلثة وهمزة ساكنة أى يالأهل ثاراتهم أى الطالبة بدمهم فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فندموا وقالوا ذلك (فما) أى فتسبب عن احلالنا بهم ذلك البأس أنه ما (زالت تلك) الدعوى البعيدة عن الخير والسلامة وهى قولهم ياويلنا (دعواهم) يرددونها والدعوى لهم غيرها لان الويل ملازم لهم غير منفك عنهم وترفقهم له غير نافعهم (حتى جعلناهم حصيدا) كالزرع المحصود بالمناجل بأن قتلوا بالسيف * (تنبيه) * حصيد على وزن فعيل بمعنى مفعول ولذلك لم يجمع لانه يستوى فيه الجمع وغيره (خامدين) أى ميتين كخمود النار اذا طفئت وصارت رمادا (فان قيل) كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل (أجيب) بان حكم الاثنين الاخيرين حكم الواحد لان معنى قولك جعلته حلوا حامضا جعلته جامعا للطعمين وكذلك معنى ذلك جعلناهم جامعين لمماثلة الحصد والخمود أو خامدين صفة لحصيدا أو حال من ضميره ثم نبههم سبحانه وتعالى على النظر فى خلق السموات والارض وما بينهما ليعتبروا فقال تعالى (وما خلقنا السماء) على علوها واحكامها (والارض) على عظمها واتساعها (وما بينهما) مما دبرناه لتمام المنافع من أصناف البدائع وغرائب الصنائع (لاعبين) أى عابثين كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب وانما خلقناها مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار وتذكيرا لذوى الاعتبار وتسبيبا لما ينتظم به أمر العباد فى المعاش والمعاد * ولما نفى عنه اللعب أتبعه دليله فقال عز وجل (لو أردنا) أى بما لنا من العظمة (أن نتخذ لهوا) أى ما يتلهى به ويلعب وقيل هو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى (لاتخذناه من لدنا) أى من عندنا مما يليق أن ينسب لحضرتنا من الحور العين والملائكة بما لنا تمام القدرة وكمال العظمة (ان كنا فاعلين) ذلك لكنا لم نفعله لانه لا يليق بجنابنا فلم نرده وقوله تعالى (بل نقذف) أى نرمى (بالحق) أى الايمان (على الباطل) أى الكفر اضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته عن اللعب بل شأننا أن نرمى بالحق الذى من جملة الجد على الباطل الذى من عداد اللهو (فيدمغه) أى يذهبه واستعار لدحض الباطل بالحق القذف والدمغ تصويرا لابطاله به واهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة ووجه استعارة القذف والدمغ لما ذكر أن أصل استعمالهما فى

الاجسام ثم استعير القذف لدحض الباطل بالحق والدمغ لاذهاب الباطل فالمستعار منه حسى
والمستعار له عقلى (فاذا هو) فى الحال (زاهق) أى ذاهب والزهوق ذهاب الروح وذكره
لترشيح المجاز من اطلاق القذف على دحض الباطل ثم عطف على ما أفادته اذا قوله تعالى
(ولكم) أى واذا لكم أيها المبطلون (الويل) أى العذاب الشديد (مما تصفون) الله تعالى به مما
تهوى أنفسكم كالزوجة والولد * (تنبيه) * ما اما مصدرية أو موصولة أو موصوفة * ولما حكى
الله تعالى كلام الطاعنين فى النبوات وأجاب عنها بأن أغراضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم
الانقياد بين بقوله تعالى (وله من فى السموات) أى الاجرام العالية وهى ما تحت العرش وجمع
السماء هنا لاقتضاء تفخيم الملك ذلك ولما كانت عقولهم لا تدرك تعدد الارض وحدها فقال
(والارض) أى له ذلك خلقا وملكا أنه منزه عن طاعتهم لانه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات
وعبر بمن تغليبا للعقلاء وقوله تعالى (ومن عنده) أى وهم الملائكة باجماع الامة ولان الله تعالى
وصفهم بأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر مبتدأ خبره (لا يستكبرون
عن عبادته) بنوع كبر طلبا ولا ايجادا وخصهم بالذكر لكرامتهم عليه تنزيلا لهم منزلة المقربين
عند الملك * (تنبيه) * هذه العندية للشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة فكأنه تعالى قال
الملائكة مع كمال شرفهم وعلو مراتبهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن عبادته فكيف يليق
بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته (و) مع ذلك أيضا (لا يستحسرون) أى لا يعيون وانما جىء
بالاستحسار الذى هو أبلغ من الحسور تنبيها على أن عبادتهم من ثقلها ودوامها حقيقة بأن
يستحسر منها ولا يستحسرون ولا يطلبون أن ينقطعوا عنها فانتج ذلك قوله تعالى (يسبحون) أى
ينزهون المستحق للتنزيه بأنواع التنزيه من الاقوال والافعال (الليل والنهار) أى جميع آنائهما
دائما (لا يفترون) أى عن ذلك وقتا من الاوقات فهو منهم كالنفس منا لا يشغلنا عنه شاغل * ولما
كانوا عند هذا البيان جديرين بأن يبادروا الى التوحيد فلم يفعلوا كانوا حقيقين بعد الاعراض
عنهم بالتوبيخ والتهكم والتعنيف فقال تعالى (أم اتخذوا) أى بل اتخذوا فأم بمعنى بل للانتقال
والهمزة لانكار اتخاذهم (آلهة من الارض) ومعنى نسبتها الى الارض الايذان بأنها
الاصنام التى تعبد فى الارض لان الآلهة على ضربين أرضية وسماوية ومن ذلك حديث
الامة التى قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أين ربك فأشارت الى السماء فقال انها مؤمنة
لانه فهم منها أن مرادها نفى الآلهة الارضية التى هى الاصنام لا اثبات أن السماء مكان الله
تعالى ويجوز أن يراد آلهة من جنس الارض لانها اما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من
بعض جواهر الارض (هم ينشرون) أى يحيون الموتى لا يقدرون على ذلك وهم وان لم يصرحوا
بذلك لزم من ادعائهم لها آلهة أنهم يقدرون على ذلك فان من لوازمها الاقتدار على جميع
الممكنات فالمراد به تجهيلهم والتهكم بهم وللمبالغة فى ذلك زيد الضمير الموهم لاختصاص
الانشار بهم ثم انه سبحانه وتعالى أقام البرهان القطعى على نفى اله غيره ببرهان التمانع وهو أشد
برهان لاهل الكلام فقال (لو كان فيهما) أى السموات والارض أى فى تدبيرهما (آلهة الا الله)

أي غير الله تعالى (لفسدتا) أي لخرجتا عن نظامهما المشاهد لوجود التمانع بينهم على وفق العادة عند تعدد الحاكم وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الاشدق كان والله أعز علي من دم ناظري ولكن لا يجتمع فحلان في شول وهذا ظاهر وأما طريقة التمانع فقال المتكلمون القول بوجود الهين مفض الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلا بد أن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ولو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر أراد تسكينه فاما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك وبالعكس أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وذلك أيضا محال لان الذي وقع مراده يكون قادرا والذي لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الاله محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات واذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع ما في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات دليل على أن وحدانية الله تعالى والدلائل السمعية على الوحدانية كثيرة في القرآن * ولما أفاد هذا الدليل أنه لا يجوز أن يكون المدبر للسموات والارض الا واحدا وأن ذلك الواحد لا يكون الا الله تعالى قال (فسبحان الله) أي فتسبب عن ذلك تنزه المتصف بصفات الكمال (رب) أي خالق (العرش) أي الكرسي المحيط بجميع الاجسام الذي هو محل التدابير ومنشأ التقادير (عما يصفون) أي الكفار الله به من الشريك له وغيره ثم بين تعالى ذلك بقوله عز وجل (لا يسئل) أي من سائل ما (عما يفعل) لعظمته وقوة سلطانه واذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيبا واجلالا مع جواز الخطا والزلل وأنواع الفساد عليهم كان ملك الملوك ورب الارباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسئل عن أفعاله مع ما علم واستقر في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعي الحكمة ولا يجوز عليه تعالى الخطأ (وهم يسألون) لانهم مملوكون مستعبدون خطاؤن فما أخلقهم بأن يقال لهم لم فعلتم في كل شيء فعلوه ولما قام الدليل ووضح السبيل واضمحل كل قال وقيل وانمحقت الاباطيل كرر تعالى (أم اتخذوا من دونه آلهة) كرره استفظاعا لشأنهم واستعظاما لكفرهم واظهارا لجهلهم * ولما كان جوابهم اتخذنا ولا نرجع أمر الله تعالى نبيه بجوابهم فقال (قل هاتوا برهانكم) على ما ادعيتموه من عقل أو نقل كما أتيت أنا ببرهان النقل المؤيد بالعقل * ولما كان تعالى لا يؤاخذ بمخالفة العقل ما لم ينضم اليه دليل النقل اتبعه قوله مشيرا الى ما بعث الله تعالى به الرسل من الكتب (هذا ذكر) أي موعظة وشرف (من معي) ممن آمن بي وهو القرآن الذي عجزتم عن معارضته (وذكر) أي وهذا ذكر (من قبلي) من الامم الماضية وهو التوراة والانجيل وغيرهما من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها الا الامر بالتوحيد والنهي عن الاشراك * ولما كانوا لا يجدون شبهة لهم فضلا عن حجة ذمهم الله تعالى على جهلهم بمواضع الحق

فقال تعالى (بل أكثرهم) أى هؤلاء المدعون (لا يعلمون الحق) فلا يميزون بينه وبين الباطل بل أكثرهم جهلة والجهل أصل الشر والفساد (فهم) أى فتسبب عن جهلهم ما افتتحنا به السورة من أنهم (معرضون) عن التوحيد واتباع الرسل * ولما كان الارسال بالفعل غير مستغرق للزمان المتقدم كما أن الرسالة لا يقوم بها كل واحد فكذلك الارسال لا يصلح له كل زمن أثبت الجار فى قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك) وأعرق فى النفى فقال (من رسول) فى شيع الاولين (الا يوحى اليه) من عندنا (أنه لا اله الا أنا فاعبدون) وهذا مقرر لما سبقه من آى التوحيد وقال تعالى الا أنا ولم يقل نحن لئلا يجعلوا ذلك وسيلة الى ما ادعوه من تعدد الآلهة ولذلك قال فاعبدون بالافراد وقرأ حفص وحمزة والكسائى بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء * ولما بين سبحانه وتعالى بالدلائل الباهرة كونه منزها عن الشريك والضد والند أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد بقوله (وقالوا اتخذ) أى تكلف كما يتكلف من لا يكون له ولد (الرحمن) أى الذى كل موجود من فيض نعمه (ولدا) نزل فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله وقيل نزل ذلك فى اليهود حيث قالوا انه تعالى صاهر الجن فكانت منهم الملائكة كما حكى الله تعالى عنهم قولهم وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ثم انه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى (سبحانه) أى تنزه عن أن يكون له ولد فان ذلك يقتضى المجانسة بينه وبين الولد ولا تصح مجانسة النعمة للمنعم الحقيقى (بل) أى الذين جعلوهم له ولدا وهم الملائكة (عباد) من عباده أنعم عليهم بالايجاد كما أنعم على غيرهم لا أولاد فان العبودية تنافى الولدية (مكرمون) بالعصمة من الزلل ولذلك فسر الاكرام بقوله تعالى (لا يسبقونه) أى لا يسبقون اذنه (بالقول) أى لا يقولون شيأ حتى يقوله كما هو شأن العبيد المؤدبين (وهم بأمره) اذا أمرهم (يعملون) لا بغيره لانهم فى غاية المراقبة له تعالى فجمعوا فى الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية الطاعة ثم علل اخباره بذلك بعلمه بما هذا المخبر به مندرج فيه بقوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى ما عملوا وما هم عاملون لا تخفى عليه تعالى خافية مما قدموا وأخروا ثم صرح تعالى بلازم الجملة الاولى فقال (ولا يشفعون) أى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة (الا لمن ارتضى) فلا تطمعوا فى شفاعتهم لكم بغير رضاه تعالى قال ابن عباس والضحاك الا لمن ارتضى أى لمن قال لا اله الا الله فسقط بذلك قول المعتزلة ان الشفاعة فى الآخرة لا تكون لاهل الكبائر ثم صرح بلازم الجملة الثانية فقال (وهم من خشيته) أى لا من غيرها (مشفقون) أى خائفون وأصل الخشية خوف مع تعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق خوف مع اعتناء فان عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر وان عدى بعلى فبالعكس * ولما نفى تعالى الشريك مطلقا ثم مقيدا بالولدية أتبعه التهديد على ادعائه بتعذيب المتبوع الموجب لتعذيب التابع بقوله تعالى (ومن يقل منهم) أى من الخلائق حتى العباد المكرمين الذين وصف كرامتهم وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليهم (انى اله من دونه) أى الله أى غيره والذى قال ذلك كما قال الجلال المحلى هو ابليس دعا الى عبادة نفسه وأمر بطاعتها (فذلك) أى اللعين

الذى لا يصلح للتقريب أصلا (نجزيه جهنم) لظلمه (كذلك) أى مثل هذا الجزاء الفظيع جدا (نجزى الظالمين) أى المشركين ثم انه سبحانه وتعالى شرع الآن فى الدلائل الدالة على وجود الصانع فذكر منها ستة أنواع النوع الاول قوله تعالى (أولم ير) أى يعلم (الذين كفروا) علما هو كالمشاهدة (أن السموات والارض كانتا) ولم يقل كن لان المراد جماعة السموات وجماعة الارض (رتقا) قال ابن عباس والضحاك كانتا شيأ واحدا ملتزقتين زبدة واحدة (ففتقناهما) أى فصلنا بينهما بالهواء والرتق فى اللغة السد والفتق الشق قال كعب خلق الله السموات والارض بعضها على بعض ثم خلق ريحا توسطتهما ففتحهما بها وقال مجاهد والسدى كانت السموات رتقا طبقة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت رتقا طبقة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال عكرمة وعطية كانت السموات رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات سماء الدنيا وجمعها باعتبار الآفاق أو السموات بأسرها على أن لها مدخلا فى الامطار وانما قال تعالى رتقا على التوحيد وهو نعت للسموات والارض لانه مصدر والكفرة وان لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم بالنظر أو باستفسار من العلماء أو مطالعة الكتب وقرأ ابن كثير ألم بغير واو بين الهمزة ولم والباقون بالواو بين الهمزة واللام النوع الثانى من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا) أى خلقنا بما اقتضته عظمتنا (من الماء) الماء هو الدافق وغيره (كل شئ حى) مجازا فى النبات وحقيقة فى الحيوان (فان قيل) قد خلق الله تعالى بعض ما هو حى من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة (أجيب) بأن هذا خرج مخرج الاغلب والاكثر أى ان أكثر ما خلق الله خلق من الماء وبقاؤه بالماء وقيل المراد بالماء ما نزل من السماء أو نبع من الارض (أفلا يؤمنون) مع ظهور هذه الآيات الواضحات بتوحيدى النوع الثالث من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا فى الارض رواسى) أى جبالا ثوابت كراهة (أن تميد) أى تتحرك (بهم) قيل ان الارض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة فى الماء فأرساها الله وأثبتها بالجبال النوع الرابع من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا فيها) أى فى الرواسى (فجاجا) أى مسالك واسعة سهلة ثم أبدل منها (سبلا) أى مذللة للسلوك ولولا ذلك لتعسر أو تعذر الوصول الى بعض البلاد (لعلهم يهتدون) الى منافعهم من ديارهم وغيرها والى ما فيها من دلائل الوحدانية النوع الخامس من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا السماء) وأفردها مع ارادة الجنس لان أكثر الناس لا يشاهدون منها الا السماء الدنيا ولان الحفظ للشئ الواحد أتقن (سقفا) أى للارض كالسقف للبيت (محفوظا) أى عن السقوط بالقدرة وعن الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بالمشيئة وعن الشياطين بالشهب (وهم) أى أكثر الناس (عن آياتها) أى من الكواكب الكبار والصغار والرياح والامطار وغير ذلك من الدلائل التى تفوت الانحصار الدالة على قدرتنا على كل ما نريد من البعث وغيره وعلى عظمتنا بالتفرد بالالهية وغير ذلك من أوصاف الكمال من الجلال والجمال (معرضون) لا يتفكرون فيما فيها من السير والتدبير وغير ذلك فيعلمون أن خالقها

لاشريك له النوع السادس من الدلائل قوله تعالى (وهو) أى لاغيره (الذى خلق الليل والنهار) ثم أتبعهما أعظم آيتهما بقوله تعالى (والشمس) التى هى أعظم آية النهار (والقمر) الذى هو أعظم آية الليل (كل) أى من الشمس والقمر وتابعه وهو النجوم (فى فلك) أى مستدير كالطاحونة فى السماء (يسبحون) أى يسيرون بسرعة كالسابح فى الماء وللتشبيه به أتى بضمير جمع من يعقل والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا أى كل واحد منهم أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصارا ولان الغرض الدلالة على الجنس * ونزل لما قال الكفار ان محمدا سيموت (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) أى البقاء فى الدنيا (أفان) أى أيتمنون موتك فان (مت فهم الخالدون) فيها لا والله ليسوا بخالدين فالجملة الاخيرة هى محل الاستفهام الانكارى وفى معنى ذلك قول فروة بن مسيك الصحابى

وقل للشامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى بكسر الميم والباقون بضمها ثم بين تعالى أن أحدا لا يبقى فى هذه الدنيا بقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) أى ذائقة مرارة الموت أى مرارة مفارقة روحها جسدها فلا يفرح أحد ولا يحزن لموت أحد بل يشتغل بما يهمه واليه الاشارة بقوله (ونبلوكم) أى نعاملكم معاملة المبتلى المختبر ليظهر فى عالم الشهادة الشاكر والصابر والمؤمن والكافر كما هو عندنا فى عالم الغيب بأن نخالطكم (بالشر) وهو المضار الدنيوية من الفقر والالم وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين (والخير) وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكن من المرادات وقوله تعالى (فتنة) مفعول له أى لننظر أتصبرون وتشكرون أم لا كما يفتن الذهب اذا أريد تصفيته بالنار عما يخالطه من الغش فبين تعالى أن العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكى يشكر على المنح ويصبر على المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم (والينا) بعد الموت لا الى غيرنا (ترجعون) فنجازيكم بما فعلتم ثم عطف تعالى على قوله وأسروا النجوى قوله تعالى (واذا رآك) أى وأنت أشرف الخلق (الذين كفروا ان) أى ما (يتخذونك) أى حال الرؤية (الا هزوا) أى مهزوا به يقولون انكارا واستصغارا (أهذا الذى يذكر آلهتكم) أى بسوء والذكر يكون بالخير والشر فاذا دلت القرينة على أحدهما أطلق عليه وذكر العدو لا يكون الا بسوء (وهم) أى والحال أنهم (بذكر الرحمن) أى اذا ذكر لهم الرحمن (هم كافرون) وذلك أنهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن الا مسيلمة وهم الثانية للتأكيد * ونزل فى استعجالهم العذاب (خلق الانسان من عجل) كأنه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته والعرب تقول للذى يكثر منه الشئ خلقت منه كقولك خلق زيد من الكرم فجعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع هو منه مبالغة فى لزومه له ولذلك قيل انه على القلب أى خلق العجل من الانسان ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجال الوعد وقال سعيد بن جبير والسدى لما دخل الروح فى رأس آدم وعينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح الى رجليه عجلا الى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الانسان

من عجل والمراد بالانسان آدم وأورث أولاده العجلة وقال قوم معناه خلق الانسان يعنى آدم عليه السلام من تعجيل فى خلق الله تعالى اياه لان خلقه كان بعد خلق كل شئ فى آخر النهار يوم الجمعة فأسرع فى خلقه قبل مغيب الشمس قال مجاهد فلما أحيا الروح رأسه قال يارب استعجل بخلقى قبل غروب الشمس وقيل بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خلق سائر الآدميين من النطفة ثم العلقة ثم المضغة وغيرها وقال قوم من عجل أى من طين قال الشاعر

والنبع فى الصخرة الصماء منبته * والنخل ينبت بين الماء والعجل

ثم قال تعالى مهددا للمكذبين (سأريكم آياتى) أى مواعيدى بالعذاب (فلا تستعجلون) أى تطلبون أن أوجد العجلة بالعذاب أو غيره فانى منزه عن العجلة التى هى من جملة نقائصكم لانها ارادة الشئ قبل أوانه (فان قيل) لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله خلق الانسان من عجل وقوله تعالى وكان الانسان عجولا أليس هذا من تكليف مالايطاق (أجيب) بأن هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها لانه أعطاه القدرة التى يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة وقد أراهم بعض آياته وهو القتل يبدر (ويقولون) فى استهزائهم (متى هذا الوعد) أى باتيان الآيات من الساعة ومقدماتها وغيرها (ان كنتم) فيما توعدون به (صادقين) أى عريقين فى هذا الوصف يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء ثم بين تعالى أنهم يقولون ذلك لجهلهم بقوله تعالى (لو يعلم الذين كفروا) وذكر المفعول به بقوله تعالى (حين) أى وقت (لا يكفون) أى لا يدفعون (عن وجوههم) التى هى أشرف أعضائهم (النار) استسلاما وعجزا (ولا عن ظهورهم) التى هى أشد أجسامهم السياط (ولا هم ينصرون) أى لا يمنعون من العذاب فى القيامة وجواب لو محذوف والمعنى لو علموا لما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا العذاب ولا قالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (بل تأتيهم) أى القيامة (بغتة) أى فجأة (فتبهتهم) أى تحيرهم يقال فلان مبهوت أى متحير (فلا يستطيعون ردها) أى لا يطلبون طوع ذلك لهم فى ذلك الوقت ليأسهم منه (ولا هم ينظرون) أى يمهلون لتوبة أو معذرة ولما كان التقدير حاق بهم هذا باستهزائهم بك أتبعه مايدل على أن الرسل فى ذلك شرع واحد تسلية له صلى الله عليه وسلم فقال عاطفا على واذا رآك (ولقد استهزئ برسل من قبلك) أى كثير فلك بهم أسوة وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة فى الوصل بكسر الدال والباقون بالضم واذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء ساكنة (فحاق) أى نزل (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) وهو العذاب فكذا يحيق بمن استهزأ بك ولما أعلم الله تعالى أن الكفار فى الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم بسائر ما وصفهم به أتبعه بأنهم فى الدنيا أيضا لولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا فى السلامة فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل) يا أشرف المرسلين للمستهزئين (من يكلؤكم) أى يحفظكم (بالليل والنهار من الرحمن) أى من عذابه ان نزل بكم أى لا أحد يفعل ذلك (بل هم عن ذكر ربهم) أى القرآن (معرضون) لا يتفكرون فيه ولا يخطرونه ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه (أم) فيها معنى الهمزة للانكار

أى أ(لهم آلهة) موصوفة بأنها (تمنعهم) مما يسوءهم (من دوننا) ليس لهم ذلك ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال تعالى (لا يستطيعون) أى الآلهة (نصر أنفسهم) فكيف ينصرون عابديهم (ولاهم) أى الكفار (منا) أى من عذابنا (يصحبون) أى يجارون يقال صحبك الله أى حفظك وأجارك (بل متعنا هؤلاء) أى الكفار على حقارتهم (وآباءهم) من قبلهم بالنعم استدراجا (حتى طال عليهم العمر) أى امتدت بهم أيام الدنيا بالروح والطمأنينة فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنتهم واستمتاعهم فاغتروا بذلك وذلك طمع فارغ وأمل كاذب وغلظ ورش اللام بخلاف عنه (أفلا يرون) أى يعلمون علما هو فى وضوحه مثل الرؤية بالبصر (أنا نأتى الارض) أى أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها) بتسليط المسلمين عليها واظهارهم على أهلها بقتل بعض ورد بعض عن دينه الى الاسلام فهم فى نقص وأولياؤنا فى زيادة (أفهم الغالبون) أى مع مشاهدتهم لذلك أم أولياؤنا * ولما كرر سبحانه وتعالى فى القرآن الادلة وبالغ فى التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله تعالى (قل) يا أشرف الخلق لهؤلاء المشركين (انما أنذركم) أى أخوفكم (بالوحى) أى بالقرآن الذى هو كلام ربكم فلا تظنوا انه من قبل نفسى (ولا يسمع الصم الدعاء) أى ممن يدعوهم (اذا ما ينذرون) أى يخوفون فهم لترك العمل بما سمعوه كالصم (فان قيل) الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قيل اذا ما ينذرون (أجيب) بأنه وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم اسماعهم اذا أنذروا أى هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة وعلى التصام عن آيات الانذار وقرأ ابن عامر ولا تسمع بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم ونصب ميم الصم على الخطاب النبوى والباقون بالياء التحتية وفتح الميم ورفع ميم الصم وفى الدعاء واذا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والياء والباقون بتحقيق الهمزتين وهذا فى حال الوصل فان وقف على الهمزة الاولى فالجميع يبتدؤن الثانية بالتحقيق ويقف حمزة وهشام بابدال الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر (ولئن مستهم) أى أصابتهم (نفحة) أى دفعة خفيفة وفى ذلك مبالغات ذكر المس وما فى النفحة من معنى القلة فان أصل النفح هبوب رائحة الشئ والتاء الدالة على المرة (من عذاب ربك) المحسن اليك بنصرك عليهم من الذى ينذرون به (ليقولن) وقد أذهلهم أمرها (ياويلنا) الذى لا نرى بحضرتنا الآن غيره (انا كنا ظالمين) دعوا على أنفسهم بالويل بعدما أقروا بالظلم ثم ذكر تعالى بعض ما يفعل فى حساب الساعة من العدل فقال عاطفا على قوله تعالى بل تأتيهم بغتة (ونضع الموازين القسط) أى ذوات العدل (ليوم القيامة) أى فيه وانما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم ويجوز أن يرجع الى الموزونات وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الاعمال بالعدل والصحيح الذى عليه أئمة السلف ان الله تعالى يضع ميزانا حقيقة توزن به أعمال العباد وعن الحسن هو الميزان له كفتان ولسان ويروى ان داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب فغشى عليه

ثم أفاق فقال الهى من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات قال ياداود انى إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة (فان قيل) كيف توزن الاعمال مع أنها أعراض (أجيب) بأن فيه طريقين أحدهما أن توزن صحائف الاعمال فتوضع صحائف الحسنات فى كفة وصحائف السيآت فى كفة والثانى أن توضع فى كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفى كفة السيآت جواهر سود مظلمة (فان قيل) هذه الآية يناقضها قوله تعالى فى الكفار فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (أجيب) بان المراد منه انا لا نكرمهم ولا نعظمهم (فلا تظلم نفس شيأ) أى من نقص حسنة أو زيادة سيئة (وان كان) أى العمل (مثقال) أى وزن (حبة من خردل) أو أصغر منه وانما مثل به لانه غاية عندنا فى القلة وقرأ نافع برفع اللام على أن كان تامة والباقون بالنصب وكذا فى لقمان (أتينا بها) أى بوزنها ولما كان حساب الخلائق كلهم فى كل ما صدر منهم أمرا باهر العقل حقره عند عظمته فقال (وكفى بنا) أى بما لنا من العظمة (حاسبين) أى محصين فى كل شئ فلا يكون فى الحساب أحد مثلنا ففيه توعد من جهة أن معناه أن لا يروج عليه شئ من خداع ولا يقبل غلطا ولا يضل ولا ينسى الى غير ذلك من كل ما يلزم منه نوع لبس وشوب منقص ووعد من جهة أنه مطلع على حسن قصد وان دق وخفى * ولما تكلم سبحانه وتعالى فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع فى قصص الانبياء عليهم السلام تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما ناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض وذكرها عشرا * القصة الاولى قصة موسى عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد آتينا موسى وهرون) أى أخاه الذى سأل ربه أن يشد أزره به (الفرقان) أى التوراة الفارقة بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام (وضياء) بها لا ظلام معه أى ليستضاء بها فى ظلمات الحيرة والجهل وقرأ قنبل بعد الضاد بهمزة مفتوحة ممدودة والباقون بياء بعدها ألف (وذكرا) أى عظة (للمتقين) أو ذكر ما يحتاجون اليه من الشرائع وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر ويراد بالضياء على هذين التوراة ثم بين المتقين بوصفهم بقوله تعالى (الذين يخشون) أى يخافون خوفا عظيما (ربهم) أى المحسن اليهم بعد الايجاد بالتربية وأنواع الاحسان (بالغيب) عن الناس أى فى الخلاء عنهم أو بالغيب قبل أن يكشف لهم الحجاب فى الجنة (وهم من الساعة) التى توضع فيها الموازين وقد أعرض عنها الجاهلون مع كونها أعظم حامل على كل خير ومباعد عن كل ضير (مشفقون) أى خائفون لانهم لقيامها متحققون ولنصب الموازين فيها عالمون * ولما ذكر تعالى فرقان موسى عليه السلام وكان العرب يشاهدون تمسك اليهود به حثهم على كتابهم الذى هو أشرف منه بقوله تعالى (وهذا) أى القرآن وأشار اليه بأداة القرب ايماء الى سهولة تناوله عليهم (ذكر) أى موعظة (مبارك) أى كثير خيره (أنزلناه) على أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أفأنتم له منكرون) أى جاحدون استفهام توبيخ * القصة الثانية قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد آتينا) بما لنا من العظمة (ابراهيم رشده) أى صلاحه وهداه (من قبل) أى من قبل موسى وهرون ومحمد صلى الله وسلم عليهم وقيل

من قبل استنبائه أو بلوغه حيث قال اني وجهت وجهي (وكنابه) ظاهرا وباطنا (عالمين) بأنه أهل لما آتيناه لانه جبلة خير جامع لمحاسن الاوصاف ومكارم الاخلاق والخصال يدوم على الرشد ويترقى فيه الى أعلى درجاته لما طبعناه عليه وفي ذلك اشارة الى أنه فعله تعالى باختيار وحكمة وانه عالم بالجزئيات وتعليق (اذ قال) أي ابراهيم (لابيه وقومه) بعالمين اشارة الى أن قوله لما كان باذن منا ورضا لنا نصرناه وهو وحده على قومه كلهم ولو لم يكن برضينا لمنعناه منه بنصر قومه عليه وتمكين النار منه ثم ذكر مقول القول في قوله منكرا عليهم محقرا الاصنامهم (ما هذه التماثيل) أي الصور التي صنعتموها مماثلين بها ما فيه روح الله جاعلين لها مالا يكون الا لمن لا مثل له وهي الاصنام (التي أنتم لها) أي لاجلها وحدها مع كثرة ما يشابهها وما هو أفضل منها (عاكفون) أي مقيمون على عبادتها (فان قيل) هلا قال عليها عاكفون كقوله تعالى يعكفون على أصنام لهم (أجيب) بأن اللام للاختصاص لا للتعدية ولو قصد التعدية لعداه بصلته التي هي على ثم انه تعالى ذكر جوابهم له بما لزم الاستفهام عن السؤال بأنهم (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فاقتدينا بهم لا حجة لنا غير ذلك فانظر ما اقبح التقليد وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حتى استدرجهم الى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم وهم معتقدون أنهم على شئ وجادون في نصرة مذهبهم ويجادلون أهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد مسبة أن عبدة الاصنام منهم والتقليد ان جاز فانما يجوز لمن علم في الجملة أنه على حق ولذا (قال) ابراهيم عليه السلام (لقد كنتم) وأكده بقوله (أنتم) لاجل صحة العطف لان الضمير المرفوع المتصل حكمه حكم جزء الفعل والعطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع ونحوه اسكن أنت وزوجك الجنة (وآباؤكم) أي من قبلكم (في ضلال مبين) فبين ان المقلدين والمقلدين جميعا منخرطون في سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة لاستناد الفريقين الى غير دليل بل الى هوى متبع وشيطان مطاع لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلالا بقوا متعجبين من تضليله اياهم فلذا (قالوا) ظنا منهم أنه لم يقل لهم ذلك على ظاهره (أجئتنا) في هذا الكلام (بالحق) الذي يطابقه الواقع (أم أنت من اللاعبين) أي تقوله على وجه المزاح والملاعبة لا على وجه الجد (قال) عليه السلام بانيا على ما تقديره ليس كلامي لعبا بل هو جد وهذه التماثيل لست أربابا (بل ربكم) أي الذي يستحق منكم اختصاصه بالعبادة (رب السموات والارض) أي مدبرهن القائم بمصالحهن (الذي فطرهن) أي خلقهن على غير مثال سبق وأنتم وتماثيلكم بما فيهما من مصنوعاته أنتم تشهدون بذلك اذا رجعتم الى عقولكم مجردة عن الهوى وقيل الضمير في فطرهن للتماثيل قال الزمخشري وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم (وأنا على ذلكم) أي الامر المبين من انه ربكم وحده فلا تجوز عبادة غيره (من الشاهدين) أي الذين يقدرون على اقامة الدليل على ما يشهدون به لم يشهدوا الا على ما هو عندهم مثل الشمس لا كما فعلتم أنتم حين اضطركم السؤال الى الضلال * ولما أقام البرهان على اثبات الاله الحق أتبعه البرهان على ابطال الباطل بقوله (وتالله) وهو قسم والاصل في القسم

الباء

الباء الموحدة والواو بدل منها والتاء بدل من الواو وفيها مع كونها بدلا زيادة على التأكيد التعجب (لأكيدن أصنامكم) اى لاجتهدن فى كسرها والتأكيد ومافى التاء من التعجب من تسهيل الكيد على يده وتأتيه لان ذلك كان امرا مقنوطا منه لصعوبته وتعذره ولعمرى ان مثله صعب متعذر فى كل زمان خصوصا فى زمن نمرود مع عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه ولكن * اذا الله سنى عقد شئ تيسرا * ولما كان عزمه على ايقاع الكيد فى جميع الزمان الذى يقع فيه توليهم فى اى جزء تيسر له منه اسقط الجار فقال (بعد أن تولوا مدبرين) اى بعد أن تدبروا منطلقين الى عيدكم قال مجاهد وقتادة انما قال ابراهيم هذا سرا من قومه ولم يسمع ذلك الا رجل واحد فأفشاه عليه وقال انا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وقال السدى كان لهم فى كل سنة مجمع عيد فكانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو ابراهيم له يا ابراهيم لو خرجت معنا الى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم ابراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال انى سقيم أشتكى برجلى فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه ثم رجع ابراهيم الى بيت الآلهة وهى فى بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم الى جنبه أصغر منه والاصنام بعضها الى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه الى باب البهو واذاهم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا اذا رجعنا وقد بركت الاصنام الآلهة عليه أكلنا منه فلما نظر ابراهيم اليهم والى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء ألا تأكلون فلما لم يجيبوه قال لهم مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين وجعل يكسرهن بفأس فى يده حتى لم يبق الا الصنم الاكبر علق الفأس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله عز وجل (فجعلهم جذاذا) أى فتاتا وقرأ الكسائى بكسر الجيم والباقون بضمها (الا كبيرا لهم) فانه لم يكسره ووضع الفأس فى عنقه وقيل ربطه بيده وكانت اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد ورصاص وخشب وحجر وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر فى عينيه ياقوتتان تتقدان (لعلهم) أى هؤلاء الضلال (اليه) أى ابراهيم (يرجعون) عند الزامه بالسؤال فتقوم عليهم الحجة فلما عادوا الى أصنامهم فوجدوها على تلك الحال (قالوا من فعل هذا) الفعل الفاحش (بآلهتنا انه لمن الظالمين) حيث وضع الاهانة فى غير موضعها فان الآلهة حقها الاكرام لا الاهانة والانتقام (قالوا) أى الذين سمعوا قول ابراهيم وتالله لأكيدن أصنامكم (سمعنا فتى) أى شابا من الشباب (يذكرهم) أى يعيبهم ويسبهم (يقال له ابراهيم) أى هو الذى نظن أنه صنع هذا فلما بلغ ذلك نمرود الجبار وأشراف قومه (قالوا فأتوا به) الى بيت الاصنام (على أعين الناس) أى جهرة والناس ينظرون اليه نظر الاخفاء معه حتى كأنه ماش على أبصارهم متمكن منها تمكن الراكب على المركوب (لعلهم يشهدون) عليه بأنه الذى فعل بالآلهة هذا الفعل كرهوا أن يأخذوه بغير بينة وقيل معناه لعلهم يحضرون عذابه وما يصنع به فلما أتوا به (قالوا) منكرين

عليه (أأنت فعلت هذا) الفعل الفاحش (يا آلهتنا يا ابراهيم) *(تنبيه)* هنا همزتان مفتوحتان من كلمة فالقراء الجميع على تحقيق الاولى وأما الثانية فيسهلها نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه وأدخل بينهما الفا قالون وأبو عمرو والباقون بتحقيقها وعدم الادخال بينهما ثم (قال) ابراهيم متهكما بهم وملزما بالحجة (بل فعله كبيرهم) غيرة أن يعبد معه من هو دونه وتقييده بقوله (هذا) اشارة الى الذى تركه من غير كسر * ولما أخبرهم ولم يكن احد رآه حتى يشهد على فعله وكانوا قد احالوهم بعبادتهم ووضع الطعام لهم محل من يعقل تسبب عنه أمرهم بسؤالهم فقال (فاسئلوهم) أى عن الفاعل ليخبروكم به وقوله (ان كانوا ينطقون) أى على زعمكم انهم آلهة يضرون وينفعون فيه تقديم جواب الشرط أى فان قدروا على النطق أمكنت عنهم القدرة والافلا فأراهم عجزهم عن النطق وفى ضمنه أنا فعلت ذلك روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات ثنتين منهن فى ذات الله قوله انى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هذه أختى وقال فى حديث الشفاعة ويذكر كذباته أى انه لم يتكلم بكلمات صورتها صورة الكذب وان كان حقا فى الباطن الا هذه الكلمات وقيل فى قوله انى سقيم أى سأسقم وقيل سقيم القلب أى مغتم بضلالتكم وقوله لسارة هذه أختى أى فى الدين وقوله بل فعله كبيرهم هذا روى عن الكسائى أنه كان يقف عند قوله بل فعله ويقول معناه بل فعله من فعله وقوله كبيرهم هذا مبتدأ وخبر قال البغوى وهذه التأويلات لنفى الكذب والاولى هو الاول للحديث فيه ويجوز أن يكون الله تعالى قد أذن له فى ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما أذن ليوسف عليه السلام حتى نادى مناديه فقال أيتها العير انكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا وقال الرازى الحديث محمول على المعاريض فان فيها مندوحة عن الكذب أى تسمية المعاريض كذبا لما اشبهت صورتها صورته وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين وترك الهمزة وكذا يفعل حمزة فى الوقف والباقون بسكون السين وبعدها همزة مفتوحة وقيل الوقف على بل فعله ثم يبتدئ بقوله كبيرهم هذا * ولما اضطرهم الدليل أن يحققوا أنهم على محض الباطل (فرجعوا الى أنفسهم) بالتفكر (فقالوا) أى بعضهم لبعض (انكم أنتم الظالمون) لكونكم وضعتم العبادة فى غير موضعها لا ابراهيم فانه أصاب باهانتها (ثم نكسوا على رؤسهم) أى انقلبوا غير مستحيين مما يلزمهم من الاقرار بالسفه الى المجادلة له بعد ما استقاموا بالمراجعة من قولهم نكس المريض اذا عاد الى حاله الاول شبه عودهم الى الباطل بصورة جعل أسفل الشئ مستعليا على اعلاه ثم انهم قالوا فى مجادلتهم عن شركائهم والله (لقد علمت) يا ابراهيم (ما هؤلاء) لا صحيحهم ولا جريحهم (ينطقون) أى فكيف تأمرنا بسؤالهم * ولما تسبب عن قولهم هذا اقرارهم بأنهم لا فائدة فيهم اتجه لابراهيم عليه السلام الحجة عليهم (قال) منكرا عليهم موبخا لهم (أفتعبدون من دون الله) أى بدله (ما لا ينفعكم شيأ) من رزق وغيره لترجوه (ولا يضركم) شيأ اذا لم تعبدوه لتخافوه (أف) أى تبا وقبحا (لكم ولما تعبدون من دون الله)

أى غيره وقرأ نافع وحفص بتنوين الفاء مكسورة وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين * ولما تسبب عن فعلهم هذا وضوح انه لا يقر به عاقل أنكر عليهم ووبخهم بقوله (أفلا تعقلون) قبح صنيعكم وأنتم شيوخ قد مرّت بكم الدهور وحنكتكم التجارب * ولما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل (قالوا) عادلين الى العناد واستعمال القوة الحسية (حرقوه) بالنار لتكونوا قد فعلتم فيه فعلا أعظم مما فعل بآلهتكم (وانصروا آلهتكم) التى جعلها جذاذا (ان كنتم فاعلين) نصرتها قال ابن عمر ان الذى قال هذا رجل من الاكراد قيل اسمه هيزون فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقيل قاله نمروذ بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام وروى ان نمروذ وقومه حين هموا باحراقه حبسوه فى بيت ثم بنوا عليه بيتا كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له أصلاب الحطب من اصناف الخشب مدة شهر حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عوفيت لاجمعنّ حطبا لابراهيم وكانت المرأة تغزل وتشترى بغزلها الحطب احتسابا فى دينها وكان الرجل يوصى بشراء الحطب والقائه فيه فلما جمعوا ما أرادوا وأشعلوا فى كل ناحية من الحطب نارا فاشتعلت النار واشتدت حتى كان الطير يمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها وأوقدوا عليه سبعة أيام فلما أرادوا أن يلقوا ابراهيم لم يعلموا كيف يلقوه فجاءهم ابليس عليه اللعنة فعلمهم عمل المنجنيق فعملوا ثم عمدوا الى ابراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه فى المنجنيق مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق الا الثقلين صيحة واحدة ربنا خليلك يلقى فى النار وليس فى أرضك من يعبدك غيره فأذن لنا فى نصرته فقال عز وجل انه خليلى وليس لى خليل غيره وأنا الهه ليس له اله غيرى فان استغاث بأحد منكم أودعاه فلينصره فقد أذنت له فى ذلك وان لم يدع أحدا غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بينى وبينه فلما أرادوا القاءه فى النار أتاه خازن المياه فقال ان أردت أخمدت النار وأتاه خازن الرياح فقال ان شئت طيرت النار فى الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لا حاجة لى اليكم حسبى الله ونعم الوكيل وروى عن كعب الاحبار ان ابراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه فى النار لا اله الا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به فى المنجنيق الى النار فاستقبله جبريل فقال يا ابراهيم ألك حاجة قال أما اليك فلا فقال جبريل فاسأل ربك فقال ابراهيم عليه السلام حسبى من سؤالى علمه بحالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وقالها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم قال كعب الاحبار جعل كل شئ يطفئ النار عنه الا الوزغ فانه كان ينفخ فى النار وعن أم شريك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الاوزاغ وقال كان ينفخ على ابراهيم * ولما أراد الله تعالى الذى له القوة جميعا سلامته منها قال تعالى (قلنا يا نار كونى) بارادتنا التى لا يتخلف عنها مراد (بردا) قال ابن عباس لو لم يقل (وسلاما) لمات ابراهيم من بردها وفى الآثار انه لم يبق يومئذ نار فى الارض

الا طفئت فلم ينتفع فى ذلك اليوم بنار فى العالم ولو لم يقل تعالى (على ابراهيم) لبقيت ذات برد أبدا والمعنى كونى ذات برد وسلام على ابراهيم فبولغ فى ذلك حتى كان ذاتها برد وسلام والمراد ابردى فيسلم منك ابراهيم أوابردى بردا غيرضار قال السدى فأخذت الملائكة بضبعى ابراهيم فأقعدوه على الارض فاذا بعين ماء عذب وورد أحمر ونرجس قال كعب ما أحرقت النار من ابراهيم الاوثاقه قالوا وكان ابراهيم فى ذلك الموضع سبعة أيام قال المنهال بن عمرو قال ابراهيم ما كنت أياما قط أنعم منى فى الايام التى كنت فى النار وقال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل فى صورة ابراهيم فقعد فيها الى جنب ابراهيم يؤنسه قال وبعث الله تعالى جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه وقال جبريل يا ابراهيم ان ربك يقول أما علمت أن النار لا تضر أحبابى ثم نظر نمروذ وأشرف على النار من صرح له فرآه جالسا فى روضة والملك قاعد الى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه يا ابراهيم بالهك الذى بلغت قدرته ان حال بينك وبين ما أرى هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال هل تخشى ان قمت فيها أن تضرك قال لا قال قم فاخرج منها فقام ابراهيم يمشى فيها حتى خرج منها فلما خرج اليه قال له من الرجل الذى رأيته معك فى مثل صورتك قاعدا الى جنبك قال ذاك ملك الظل أرسله الى ربى ليؤنسنى فيها فقال نمروذ انى مقرب الى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت الا عبادته وتوحيده انى ذابح له أربعة آلاف بقرة قال اذا لا يقبل الله منك ما كنت على دينك حتى تفارقه الى دينى فقال لا أستطيع ترك ملكى ولكن أذبحها له فذبحها له نمروذ ثم كف عن ابراهيم ومنعه الله تعالى منه وكان ابراهيم اذ ذاك ابن ست عشرة سنة واختاروا المعاقبة بالنار لانها أهول ما يعاقب به وافظعه ولذلك جاء فى الحديث لا يعذب بالنار الا خالقها وقيل ان الله تعالى نزع عنها طبعها الذى طبعها عليه من الحر والاحراق وابقاها على الاضاءة والاشراق والاشتعال كما كانت والله على كل شئ قدير فدفع عن ابراهيم حرها كما يدفع ذلك عن خزنة جهنم (وأرادوا به كيدا) أى مكرا فى اضراره بالنار وبعد خروجه منها (فجعلناهم) أى بما لنا من الجلال (الاخسرين) أى أخسر من كل خاسر عاد سعيهم برهانا قاطعا على انهم على الباطل وابراهيم على الحق وموجبا لزيادة درجته واستحقاقهم أشد العذاب وقد أرسل الله تعالى على نمروذ وعلى قومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت فى دماغه بعوضة فأهلكته * (فائدة) * وقع مثل هذه القصة لبعض اتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أبو مسلم الخولانى طلبه الاسود العنسى لما ادعى النبوة فقال له اشهد أنى رسول الله قال ما أسمع قال اتشهد أن محمدا رسول الله قال نعم فأمر بنار فألقى فيها ثم وجده قائما يصلى فيها وقد صارت عليه بردا وسلاما وقدم المدينة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم فأجلسه عمر بينه وبين أبى بكر رضى الله عنهم وقال عمر الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بابراهيم خليل الله (ونجيناه ولوطا) من نمروذ وقومه من أرض العراق (الى الارض التى باركنا فيها للعالمين) وهى الشام بارك

الله

الله فيها بالخصب وكثرة الاشجار والثمار والانهار ومنها بعث أكثر الانبياء قال أبي بن كعب بارك الله فيها وسماها مباركة لان مامن ماء عذب الا وينبع أصله من تحت الصخرة التي بيت المقدس أي يهبط من السماء الى الصخرة ثم يتفرق في الارض قاله أبو العالية وعن قتادة ان عمر رضي الله تعالى عنه قال لكعب الاحبار ألا تتحول الى المدينة فيها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره فقال كعب اني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين ان الشأم كنز الله في أرضه وبها كنزه من عباده وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس الى مهاجر ابراهيم قال محمد بن اسحق استجاب لابراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عز وجل به من جعل النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمروذ وملئهم وآمن به لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارح وهاران هو أخو ابراهيم وكان لهما أخ ثالث يقال له ناحور بن تارح وآمنت به أيضا سارة وهي بنت عمه وهي سارة بنت هاران الاكبر عم ابراهيم فخرج من كوثى وهي بضم الكاف ومثلثة قال ابن الاثير هي كوثى العراق وهي سرة السواد وبها ولد ابراهيم الخليل عليه السلام وخرج مهاجرا الى ربه ومعه لوط وسارة كما قال تعالى فآمن له لوط وقال اني مهاجر الى ربي فخرج يلتمس الفرار بدينه والامان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر ثم خرج من مصر الى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين وهي برية الشأم ونزل لوط بالمؤتفكة وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله تعالى نبيا الى أهلها وما قرب منها فذلك قوله تعالى ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين أي كما أنجيناك أنت يا أشرف الخلق ويا أفضل أولاده وصديقك أبا بكر رضي الله تعالى عنه الى طيبة التي شرفناها بك وبثثنا من أنوارها في أرجاء الارض وأقطارها مالم نبث مثله قط وباركنا فيها للعالمين بالخلفاء الراشدين وغيرهم من العلماء والصالحين الذين انبثت خيراتهم العملية والعلمية والمالية في جميع الاقطار * ولما ولد لابراهيم عليه السلام في حال شيخوخته وعجز امرأته مع كونها عقيما وكان ذلك دالا على الاقتدار على البعث الذي السياق كله له قال تعالى (ووهبنا له) دالا على ذلك بنون العظمة (اسحق) أي من شبه العدم وترك شرح حاله لتقدمه أي فكان ذلك دليلا على اقتدارنا على ما نريد لاسيما من اعادة الخلق في يوم الحساب ثم انه قد يظن أنه لتولده بين شيخ فان وعجوز عقيم كان على حالة من الضعف لا يولد لمثله معها نفى ذلك بقوله تعالى (ويعقوب نافلة) اى ولد الاسحق زيادة على ما دعا به ابراهيم عليهما السلام ثم نمى سبحانه وتعالى أولاد يعقوب وهو اسرائيل وذرياتهم الى أن ساموا النجوم عدة وباروا الجبال شدة (وكلا) من هؤلاء الاربعة وهم ابراهيم ولوط واسحق ويعقوب وعظم رتبتهم بقوله تعالى (جعلنا صالحين) أي مهيئين لطاعتهم لله تعالى لكل ما يرونه أو يرادون له أو يراد منهم * ثم لما ذكر انه تعالى أعطاهم رتبة الصلاح في أنفسهم ذكر انه تعالى أعطاهم رتبة الاصلاح لغيرهم فقال تعالى معظما لامامتهم (وجعلناهم أئمة) أي اعلاما ومقاصد يقتدى بهم في الدين لما آتيناهم من العلم والنبوة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل

الهمزة الثانية المكسورة بين الهمزة والياء ويجوز ابدالها عندهم ياء خالصة ولا يدخلون بينهما شيأ وقرأ هشام بتحقيق الهمزتين وادخال ألف بينهما بخلاف عنه في الادخال وعدمه والباقون بتحقيق الهمزتين من غير ادخال بلا خلاف (يهدون) أي يدعون الناس من وفقناه للهداية (بأمرنا) أي باذننا (وأوحينا اليهم) أيضا (فعل) أي أن يفعلوا (الخيرات) ليحثوهم عليها فيتم كمالهم بانضمام العلم الى العمل قال البقاعي ولعله تعالى عبر بالفعل دلالة على انهم امتثلوا كل ما يوحى اليهم وقال الزمخشري أصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات وكذلك اقام الصلاة وايتاء الزكاة انتهى وقوله تعالى (واقام الصلاة وايتاء الزكاة) من عطف الخاص على العام تعظيما لشأنهما لان الصلاة تقرب العبد الى الحق تعالى والزكاة احسان الى الخلق قال الزجاج الاضافة في الصلاة عوض عن تاء التأنيث يعني فيكون من الغالب لا من القليل (وكانوا لنا) دائما جبلة وطبيعة (عابدين) أي موحدين مخلصين في العبادة ولذلك قدم الصلة * القصة الثالثة قصة لوط عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولوطا) أي وآتينا لوطا أو واذكر لوطا ثم استأنف قوله تعالى (آتيناه حكما) أي نبوة وعملا محكما بالعلم وقيل فصلا بين الخصوم (وعلما) مزينا بالعمل مما ينبغي علمه للانبياء (ونجيناه من القرية) أي قرية سدوم (التي كانت) قبل انجائنا له منها (تعمل) أي أهلها الاعمال (الخبائث) من اللواط والرمي بالبندق واللعب بالطيور والمضارط في أنديتهم وغير ذلك وانما وصف القرية بصفة أهلها وأسندها اليها على حذف المضاف واقامته مقامه ويدل عليه (انهم كانوا) أي بما جبلوا عليه (قوم سوء) أي ذوي قدرة على الشر بانهماكهم في الاعمال السيئة (فاسقين) أي خارجين من كل خير (وأدخلناه) دونهم (في رحمتنا) أي في الاحوال السنية والاقوال العلية والافعال الزكية التي هي سبب للرحمة العظمى ومسببة عنها ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه من الصالحين) أي الذين سبقت لهم منا الحسنى أي لما جبلناه عليه من الخير * القصة الرابعة قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ونوحا) أي واذكر نوحا (اذ) أي حين (نادى) أي دعا الله تعالى على قومه بالهلاك بقوله رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ونحوه من الدعاء (من قبل) أي من قبل لوط ومن تقدمه (فاستجبنا) أي أردنا الاجابة وأوجدناها بعظمتنا (له) في ذلك النداء ثم تسبب عن ذلك قوله تعالى (فنجيناه وأهله) أي الذين دام ثباتهم على الايمان وهم من كان معه في السفينة (من الكرب العظيم) أي من أذى قومه ومن الغرق والكرب الغم الشديد قاله السدي وقال أبو حيان الكرب أقصى الغم والاخذ بالنفس وهو هنا الغرق عبر عنه بأول أحوال مأخذ الغريق (ونصرناه) أي منعناه (من القوم) أي المتصفين بالقوة (الذين كذبوا بآياتنا) من أن يصلوا اليه بسوء وقيل من بمعنى على (انهم كانوا قوم سوء) أي لا عمل لهم الا ما يسوء (فأغرقناهم أجمعين) لاجتماع الامرين تكذيب الحق والانهماك في الشر لم يجتمعا في قوم الا وأهلكهم الله تعالى * القصة الخامسة قصة داود وسليمان عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (وداود وسليمان) ابنه أي اذكرهما واذكر

شأنهما

شأنهما (اذ) أى حين (يحكمان فى الحرث) الذى أنبت الزرع وهو من اطلاق اسم السبب على المسبب كالسماء على المطر والنبت قال ابن عباس وأكثر المفسرين كان ذلك كرما قد تدلت عناقيده وقال قتادة كان زرعا قال ابن الخازن وهو أشبه للعرف (اذ نفشت) أى انتشرت ليلا بغير راع (فيه غنم القوم) فرعته قال قتادة النفش فى الليل والعمل فى النهار (وكنا لحكمهم) أى الحكمين والمتحاكمين اليهما (شاهدين) أى كان ذلك بعلمنا ومرأى منا لا يخفى علينا علمه وقال الفراء جمع الاثنين فقال لحكمهم ويريد داود وسليمان لان الاثنين جمع وهو مثل قوله تعالى فان كان له اخوة فلأمه السدس وهو يريد أخوين قال ابن عباس وقتادة وذلك ان رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع ان هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت فى حرثى فأفسدته فلم تبق منه شيأ فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فقال كيف قضى بينكما فأخبراه فقال سليمان وهو ابن احدى عشرة سنة لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا وروى أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف تقضى ويروى انه قال بحق النبوة والابوة الا ما أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين قال ادفع الغنم الى صاحب الحرث فينتفع بدرها ونسلها وصوفها ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فاذا صار الحرث كهيئته دفع الى أهله وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود القضاء ما قضيت كما قال تعالى (ففهمناها) أى الحكومة (سليمان) أى علمناه القضية وألهمناها له

(تنبيه) يجوز أن تكون حكومتهما بوحى الا ان حكومة داود نسخت بحكومة سليمان ويجوز أن تكون باجتهاد الا ان اجتهاد سليمان أشبه بالصواب (فان قيل) ما وجه كل واحدة من الحكومتين (أجيب) بأن وجه حكومة داود ان الضرر وقع بالغنم فسلمت بجنايتها الى المجنى عليه كما قال أبو حنيفة فى العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه وعند الشافعى يبيعه فى ذلك أو يفديه ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان فى الحرث ووجه حكومة سليمان انه جعل الانتفاع بالغنم بازاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث حتى يزول الضرر والنقصان مثاله ما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا وأبق من يده انه يضمن بالقيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فاذا ظهر ترادا (فان قيل) لو وقعت هذه الواقعة فى شريعتنا ما حكمها (أجيب) بأن أبا حنيفة وأصحابه لا يرون فيها ضمانا بالليل أو بالنهار الا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار أى هدر رواه الشيخان وغيرهما والشافعى وأصحابه يوجبون الضمان بالليل اذ المعتاد ضبط الدواب ليلا ولذلك قضى النبى صلى الله عليه وسلم لما دخلت ناقة البراء حائطا وأفسدته فقال على أهل الاموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل ولما كان ذلك ربما أوهم شيأ فى أمر داود نفاه بقوله تعالى (وكلا) أى منهما (آتينا حكما) أى نبوة وعلما

مؤسساعلى حكمة العلم (وعلما) مؤيدابصالح العمل وعن الحسن لولاهذه الآية لرأيت القضاة قدهلكوا ولكنه تعالى أثنى على سليمان عليه السلام لصوابه وعلى داود باجتهاده انتهى وهذا على الرأى الثانى وعليه أكثر المفسرين وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران واذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر وهل كل مجتهد مصيب أو المصيب واحد لابعينه رأيان أظهرهما الثانى وان كان مخالفا لمفهوم الآية اذلو كان كل مجتهد مصيبا لم يكن للتقسيم فى الحديث معنى وقوله صلى الله عليه وسلم واذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر لم يردبه انه يؤجر على الخطابل يؤجر على اجتهاده فى طلب الحق لان اجتهاده عبادة والاثم فى الخطاعنه موضوع *(فائدة)* من أحكام داود وسليمان عليهما السلام ماروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن احداهما فقالت لصاحبتها انما ذهب بابنك وقالت الاخرى انماذهب بابنك فتحا كما الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان فأخبرتاه فقال ائتونى بالسكين أشقه بينكما فقالت الصغرى لاتفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى أخرجاه فى الصحيحين ثم انه تعالى ذكر لداود وسليمان بعض معجزات فمن بعض معجزات الاول ماذكره بقوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال) مع صلابتها وعظمها (يسبحن) معه أى يقدسن الله تعالى ولو شئنا لجعلنا الحرث والغنم تكلمه بصواب الحكم وقال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر وقوله تعالى (والطير) عطف على الجبال أو مفعول معه وقال وهب كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذا الطير وقال قتادة يسبحن أى يصلين معه اذا صلى وقيل كان داود اذا فتر يسمعه الله تعالى تسبيح الجبال والطير لينشط فى التسبيح ويشتاق اليه وقيل يسبحن بلسان الحال وقيل يسبح من رآها تسير معه بتسيير الله تعالى فلما جبلت على التسبيح وصفت به (وكنا فاعلين) أى من شأننا الفعل لامثال هذه الافاعيل ولكل شئ نريده فلاتستكثروا علينا أمرا وان كان عندكم عجبا وقد اتفق نحو هذا الغير واحد من هذه الامة كان مطرف ابن عبد الله بن الشخير اذا دخل بيته سبحت معه آنيته وأما النبى صلى الله عليه وسلم فكان الطعام يسبح بحضرته والحصى وغيره (وعلمناه صنعة لبوس) أى صنعة الدروع التى تلبس فى الحرب قال قتادة أول من صنع هذه الدروع وسردها واتخذها حلقا داود وكانت من قبل صفائح وقد ألان الله تعالى لداود الحديد فكان يعمل منه بغير نار كأنه طين قال البغوى وهو أى اللبوس فى اللغة اسم لكل ما يلبس ويستعمل فى الاسلحة كلها وهو بمعنى الملبوس كالحلوب والركوب وقوله تعالى (لكم) متعلق بعلم أو صفة للبوس وقوله تعالى (لتحصنكم من بأسكم) بدل منه بدل اشتمال باعادة الجار ومرجع الضمير يختلف باختلاف القراآت فقرأ شعبة بالنون فالضمير لله تعالى وقرأ ابن عامر وحفص بالتاء على التأنيث فالضمير للصنعة أو للبوس على تاويل الدرع وقرأ الباقون بالياء التحتية فالضمير لداود أو اللبوس وقوله تعالى (فهل أنتم شاكرون) أى لنا على ذلك أمر أخرجه فى صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع ومن بعض معجزات

الثاني ماذكره بقوله (ولسليمان) أي وسخرنا لسليمان (الريح) قال البغوي وهو هواء يتحرك وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه ويظهر للحس بحركته والريح تذكر وتؤنث (عاصفة) أي شديدة الهبوب (فان قيل) قد قال تعالى في موضع آخر تجري بأمره رخاء والرخاء اللين (أجيب) بأنها كانت تحت أمره ان أراد أن تشتد اشتدت وان أراد أن تلين لانت وقيل كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم فاذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وقوله تعالى (تجري بأمره) أي بمشيئته حال ثانية أو بدل من الاول أو حال من ضميرها (الى الارض التي باركنا فيها) أي الشأم وذلك أنها كانت تجري بسليمان وأصحابه الى حيث شاء سليمان ثم يعود الى منزله بالشأم قال وهب بن منبه كان سليمان عليه السلام اذا خرج الى مجلسه عكفت عليه الطير وقام اليه الجن والانس حتى يجلس على سريره وكان امرأ غزاء قلما يقعد عن الغزو ولا يسمع في ناحية من الارض بملك الا أتاه حتى يذله فكان اذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فاذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى اذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهرا في روحته وشهرا في غدوته الى حيث أراد وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء بالمزرعة فما تحركها ولا تثير ترابا ولا تؤذي طائرا وقال مقاتل نسجت الشياطين لسليمان بساطا فرسخا في فرسخ ذهبا في ابريسم وكان يوضع له منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة تقعد الانبياء عليهم السلام على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح الى الرواح ومن الرواح الى الغروب وقال سعيد بن جبير كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي تجلس الانس مما يليه ثم تليهم الجن ثم تظلهم الطير ثم تحملهم الريح وقال الحسن لما شغلت الخيل نبي الله سليمان حتى فاتته صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل فأبدله الله مكانها خيرا منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف يشاء فكان يغدو من ايلياء فيقيل باصطخر ثم يروح منها فيكون رواحها ببابل وقال ابن زيد كان له مركب من خشب وكان فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت تركب معه فيه الجن والانس تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك الركن فاذا ارتفعت أتت الريح الرخاء فسارت به وبهم يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر ولا يدري القوم الا وقد أظلهم معه الجيوش (وكنا) أي أزلا وأبدا باحاطة العظمة (بكل شئ) أي من هذا وغيره من أمره وغيره (عالمين) ومن علمنا ان ذلك لا يزيدهم الا تواضعا وكما سخرنا الريح له سخرناها للنبي صلى الله عليه وسلم ايام الاحزاب قال حذيفة رضي الله عنه حتى كانت تقذفهم بالحجارة ما تجاوز عسكرهم فهزمهم الله تعالى بها وردوا بغيظهم لم ينالوا خيرا وأعطى صلى الله عليه وسلم أعم مما أعطى جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فقد أعطى صلى الله عليه وسلم التصرف في العالم العلوي الذي جعل الله تعالى منه الفيض على العالم السفلي بالاحتراق لطباقه

بالاسراء تارة وبامساك المطر لما دعا بسبع كسبع يوسف عليه السلام وبارساله أخرى كما فى أحاديث كثيرة وأتى مع ذلك بمفاتيح خزائن الارض كلها فردها صلى الله عليه وسلم (ومن) أى وسخرنا لسليمان من (الشياطين) الذين هم أكثر شئ تمردا وعتوا (من يغوصون له) أى يدخلون فى البحر فيخرجون منه الجواهر وغيرها من المنافع وذلك بأن أكثفنا أجسامهم مع لطافتها لتقبل الغوص فى الماء معجزة فى معجزة وقد خنق نبينا صلى الله عليه وسلم العفريت الذى جاء بشهاب من نار وأسر جماعة من أصحابه رضى الله تعالى عنهم عفاريت أتوا الى تمر الصدقة وأمكنهم الله تعالى منهم (ويعملون عملا دون ذلك) أى سوى الغوص كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة كقوله تعالى يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل الآية (وكنا لهم حافظين) أى حتى لا يخرجوا عن أمره وقال الزجاج معناه حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان من عادة الشياطين اذا عملوا عملا بالنهار وفرغوا منه قبل الليل أفسدوه وخربوه وفى القصة ان سليمان كان اذا بعث شيطانا مع انسان ليعمل له عملا قال له اذا فرغ من عمله قبل الليل فاشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل ويخربه * القصة السادسة قصة أيوب عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وأيوب) أى واذكر أيوب ويبدل منه (اذ نادى ربه) قال وهب بن منبه كان أيوب عليه السلام رجلا من الروم وهو أيوب بن أموص بن رزاح بن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم وكانت أمه من ولد لوط بن هاران وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا وكانت له الثنية من أرض البلقاء من أعمال حوران من أرض الشأم كلها سهلها وجبلها وكان له فيها من أصناف المال كله من الابل والبقر والغنم والخيل والحمير مالا يكون لرجل أفضل منه فى العدة والكثرة وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وعبد وولد ومال ويحمل آلة كل فدان أتان لكل أتان من الولد اثنان أو ثلاث أو أربع أو خمس وفوق ذلك وكان الله تعالى قد أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان برا تقيا رحيما بالمساكين يطعمهم ويكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرا لانعم الله مؤديا لحق الله تعالى قد امتنع من عدو الله ابليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه رجل من اليمن يقال له اليفن ورجلان من بلده يقال لاحدهما بلدد والآخر صابر وكانوا كهولا وكان ابليس لا يحجب عن شئ من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام فحجب من أربع فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن السموات كلها الا من استرق السمع فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب عليه السلام وذلك حين ذكره الله تعالى وأثنى عليه فأدركه البغى والحسد فصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان يقفه فقال الهى نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج من طاعتك قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله ابليس حتى وقع على الارض ثم جمع عفاريت

الجن ومردة الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فاني قد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة ما اذا شئت تحولت اعصارا من نار واحرقت كل شئ آتي عليه قال له ابليس فأت الابل ورعاتها فأتى الابل وقد وضعت رؤسها ورعت في مراعيها فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار لا يدنو منها أحد الا احترق فأحرق الابل ورعاتها حتى أتى على آخرها ثم جاء عدو الله ابليس في صورة قبيحة على قعود الى أيوب فوجده قائما يصلي فقال يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت ابلك فأحرقتها ومن فيها غيري فقال أيوب الحمد لله الذي أعطانيها وهو أخذها وانها مال الله أعارنيها وهو أولى بها اذا شاء تركها واذا شاء نزعها وقديما كنت وطنت نفسي ومالي على الفناء قال ابليس فان الله ربك أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها منهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيأ وما كان أيوب الا في غرور ومنهم من يقول لو كان اله أيوب يقدر على أن يصنع شيأ لمنع وليه ومنهم من يقول بل هو الذي فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه فقال أيوب الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني عريانا خرجت من بطن أمي وعريانا أعود في التراب وعريانا أحشر الى الله عز وجل ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعطاك الله وتجزع حين قبض الله عاريته الله أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله تعالى فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الارواح وصرت شهيدا ولكنه علم منك شرا فأخرجك فرجع ابليس الى أصحابه خاسئا ذليلا فقال لهم ماذا عندكم من القوة فاني لم أكلم قلبه قال عفريت عندي من القوة ما اذا شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح الا خرجت روحه قال ابليس فأت الغنم ورعاتها فانطلق حتى توسطها ثم صاح صيحة فتجثمت أمواتا من عند آخرها وماتت رعاتها ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة الى أيوب وهو يصلي فقال له مثل القول الاول فرد عليه أيوب مثل الرد الاول ثم رجع ابليس الى أصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فاني لم أكلم قلب أيوب فقال عفريت عندي من القوة ما اذا شئت تحولت ريحا عاصفا تنسف كل شئ نأتي عليه قال فأت الفدادين والحرث فانطلق حين شرع الفدادون في الحرث والزرع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنسفت كل شئ من ذلك حتى كأنه لم يكن ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمان الحرث الى أيوب وهو قائم يصلي فقال له مثل قوله الاول فرد عليه أيوب مثل رده الاول وجعل ابليس يهلك أموال الله مالا مالا حتى مر على آخره كلما انتهى اليه هلاك مال من أمواله حمد الله تعالى وأحسن الثناء عليه ورضي عنه بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى لم يبق له مال فلما رأى ابليس انه قد أفنى ماله ولم ينجح منه بشئ صعد سريعا حتى وقف في الموقف الذي يقف فيه وقال الهي ان أيوب يرى انك ما متعته بولده فأنت تعطيه المال فهل أنت مسلطي على ولده فانها المصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض عدو الله ابليس حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزله بهم حتى تداعى من قواعده وجعل جدره يضرب بعضها بعضا ويرميهم بالخشب والحجارة حتى مثل بهم كل مثلة

ورفع القصر فقلبه فصار وامنكبين وانطلق الى أيوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه ودماغه فأخبره وقال لورأيت بنيك كيف عذبوا وقلبوا فكانوا منكبين على رؤسهم تسيل دماؤهم ولورأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت امعاؤهم لقطع قلبك فلم يزل يقول هذا أونحوه حتى رق قلب أيوب وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال ليت أمى لم تلدنى فاغتنم ابليس ذلك فصعد سريعا بالذى كان من جزع أيوب مسرورا به ثم لم يلبث أيوب ان فاء وأبصر واستغفر فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته الى الله عزوجل وهو أعلم فوقف ابليس خاسئا ذليلا وقال الهى انما هوّن على أيوب المال والولد انه يرى انك ما متعته بنفسه فانك تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على جسده فقال الله عزوجل انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله وكان الله عزوجل أعلم به لم يسلطه عليه الا رحمة لايوب ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعالمين فى كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به فى الصبر ورجاء الثواب فانقض عدو الله سريعا فوجد أيوب فى مصلاه ساجدا فعجل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها سائر جسده فخرج من قرنه الى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم ووقعت فيه حكة فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحكها حتى بقل لحمه وتقطع وتغير وأنتن وأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته وهى رحمة بنت افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام فكانت تختلف اليه بما يصلحه وتلزمه ولما رأى الثلاثة من أصحابه وهم اليفن وبلدد وصابر ما ابتلاه الله تعالى به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه فلما طال به البلاء انطلقوا اليه فبكتوه ولاموه وقالوا له تب الى الله تعالى من الذنب الذى عوقبت عليه قال وحضره معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم انكم تكلمتم أيها الكهول وانتم أحق بالكلام منى لاسنانكم ولكنكم تركتم من القول أحسن من الذى قلتم ومن الرأى أصوب من الذى رأيتم ومن الامر أجمل من الذى أتيتم وقد كان لايوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذى وصفتم فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم ألم تعلموا انه أيوب نبى الله وخيرته وصفوته من أهل الارض الى يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على انه قد سخط شيأ من أمره منذ ما آتاه الله ما آتاه الى يومكم هذا ولا انه نزع شيأ منه من الكرامة التى أكرمه بها ولا ان أيوب قال على الله غير الحق فى طول ما صحبتموه الى يومكم هذا فان كان البلاء هو الذى ازرى به عندكم ووضعه فى انفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلى المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لاولئك على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة الا انه أخ آخيتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند

البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكي معه ويستغفر له ويحزن لحزنه ويدله على أرشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول فقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا ان لله عبادا أسكتتهم خشيته من غير عي ولا بكم وانهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الالباء العالمون بالله ولكنهم اذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم اعظاما لله واجلالا له فاذا استفاقوا من ذلك استبقوا الى الله بالاعمال الزاكية يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين وانهم لابرار برآء ومع المقصرين المفرطين وانهم لاكياس أقوياء فقال أيوب ان الله سبحانه وتعالى يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير فمتى نبتت في القلب يظهرها الله تعالى على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة واذا جعل الله العبد حكيما في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون عليه من الله تعالى نور الكرامة ثم أعرض عنهم أيوب عليه السلام يعني الثلاثة وقال أتيتموني غضابا رهبتم قبل أن تسترهبوا وبكيتم قبل أن تضربوا فكيف بي لو قلت تصدقوا على بأموالكم لعل الله أن يخلصني أو قربوا قربانا لعل الله أن يتقبله ويرضى عني وانكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم انكم عوفيتم باحسانكم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا قد سترها الله تعالى بالعافية التي ألبسكم وقد كنتم فيما خلا توقرونني وأنا مسموع كلامي معروف حقي منتصف من خصمي فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام وأنتم كنتم أشد علي من مصيبتي ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستعينا به متضرعا اليه فقال يارب لاي شئ خلقتني ليتني اذ كرهتني لم تخلقني ياليتني عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي فالموت كان أجمل بي ألم أكن للغريب دارا وللمسلمين قرارا ولليتيم وليا وللارملة قيما الهي أنا عبد ذليل ان أحسنت فالمن لك وان أسأت فبيدك عقوبتي جعلتني للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وقد وقع بي بلاء لو سلطته على جبل ضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي فان قضاءك هو الذي أذلني وان سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب ثم نودي يا أيوب ان الله تعالى يقول ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريبا قم فادل بعذرك وتكلم بحجتك وخاصم عن نفسك واشدد أزرك وقم مقام جبار يخاصم جبارا ان استطعت فانه لا ينبغي أن يخاصمني الا جبار مثلي لقد منتك نفسك يا أيوب أمرا ما يبلغ مثله قوتك أين أنت مني يوم خلقت الارض فوضعتها على أساسها هل كنت معي تمد بأطرافها هل أنت علمت بأي مقدار قدرتها أم على أي شئ وضعت أكنافها أبطاعتك حمل الماء الارض أم بحكمتك كانت

الارض للماء غطاء أين كنت منى يوم رفعت السماء سقفا فى الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها هل تبلغ من حكمتك أن تجرى نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها أين أنت منى يوم انبعت الانهار وسكرت البحار أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم قدرتك فتحت الارحام حتى بلغت مدتها أين أنت منى يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال هل تدرى على أى شئ أرسيتها أم بأى مثقال وزنتها أم هل لك من ذراع تطيق حملها أم هل تدرى أين الماء الذى أنزلت من السماء أم هل تدرى من أى شئ أنشئ السحاب أم هل تدرى أين خزانة الثلج أم أين جبال البرد أم اين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل وأين خزانة الريح وبأى لغة تتكلم الاشجار من جعل العقول فى أجواف الرجال ومن شق الاسماع والابصار ومن دانت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم الارزاق بحكمته فى كلام كثير يدل على كمال قدرته ذكرها لايوب فقال أيوب عليه الصلاة والسلام كل شانى وكل لسانى وكل عقلى ورأيى وضعفت قوتى عن هذا الامر الذى تعرض لى يا الهى قد علمت ان كل الذى ذكرت صنع يدك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لوشئت عملت لا يعجزعنك شئ ولا تخفى عليك خافية أذلنى البلاء يا الهى فتكلمت فكان البلاء هو الذى أنطقنى فليت الارض انشقت بى فذهبت فيها ولم أتكلم بشئ يسخط ربى وليتنى مت بغمى فى أشد بلائى قبل ذلك انما تكلمت حين تكلمت لتعذرنى وسكت حين سكت لترحمنى كلمة زلت منى فلم أعد قد وضعت يدى على فى وعضضت على لسانى وألصقت بالتراب خدى أعوذ بك اليوم منك واستجير بك من جهد البلاء فأجرنى واستغيث بك من عقابك فأغثنى وأستعين بك على أمرى فأعنى وأتوكل عليك فاكفنى واعتصم بك فاعصمنى واستغفرك فاغفرلى فلن أعود لشئ تكرهه منى قال الله تعالى يا أيوب نفذ فيك علمى وسبقت رحمتى غضبى فقد غفرت لك فقال أيوب (انى) قد (مسنى الضر) بتسليطك الشيطان على فى بدنى وأهلى ومالى وقد طمع الآن فى دينى وذلك انه زين لامرأة أيوب ان تأمره أن يذبح لصنم فانه يبرأ ثم يتوب ففطن لذلك وحلف ليضربنها ان برأ مائة جلدة وقال وهب لبث أيوب فى البلاء ثلاث سنين وروى عن أنس يرفعه أن أيوب لبث ببلائه ثمان عشرة سنة وقال كعب سبع سنين وقال الحسن مكث أيوب مطروحا على كناسة لبنى اسرائيل سبع سنين وشهرا يختلفون فى الدواء ولا يقرب به أحد غير امرأته رحمة صبرت معه تحمد الله معه اذا حمد وأيوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى والصبر على بلائه فلما غلب أيوب ابليس ولم يستطع منه شيأ اعترض امرأته فى هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء وكمال فقال لها انت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى قالت نعم قال هل تعرفينى قالت لا فقال لها انا اله الارض وأنا الذى صنعت بصاحبك لانه أطاع اله السماء وتركنى فاغضبنى ولو سجد لى سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان من مال وولد وأراها اياهم ببطن الوادى الذى لقيها فيه قال وهب وقد سمعت أنه انما قال لها لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم عليه لعوفى مما به من البلاء وفى بعض الكتب أن ابليس قال لها اسجدى لى سجدة حتى أرد عليك المال

والاولاد

والاولاد وأعافى زوجك فرجعت الى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراها قال لقد أتاك عدوّ الله ليفتنك عن دينك ثم أقسم ان الله عافاه ليضربنها مائة جلدة وعند ذلك قال مسنى الضر من طمع ابليس فى سجود حرمتى ودعائه اياها واياى الى الكفر (وأنت) أى والحال أنت (أرحم الراحمين) فافعل بى ما يفعل الرحمن بالمضرور وهذا تعريض بسؤال الرحمة حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح فكان ذلك ألطف فى السؤال فهو أجدر بالنوال ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت يا أمير المؤمنين مشت جرذان بيتى على العصا فقال لها ألطفت فى السؤال لا جرم لاردنها تثب وثب الفهود وملأ بيتها حبا ثم ان الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها وأراد أن يبر يمين أيوب فأمره أن يأخذ ضغثا يشتمل على مائة عود صغار فيضربها به ضربة واحدة كما قال تعالى فى آية أخرى وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وروى أن ابليس اتخذ تابوتا وجعل فيه أدوية وجلس على طريق امرأة أيوب يداوى الناس فمرت به امرأة أيوب فقالت ان لى مريضا أفتداويه قال نعم ولا أريد شيأ الا أن يقول اذا شفيته أنت شفيتنى فذكرت ذلك لايوب فقال هو ابليس قد خدعك وحلف ان شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة وقال وهب وغيره كانت امرأة أيوب تعمل للناس وتجيئه بقوته فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلا يستعملها أحد فالتمست له يوما من الايام ما تطعمه فما وجدت شيأ فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته فحينئذ قال مسنى الضر وقال قوم انما قال ذلك حين قصد الدود الى قلبه ولسانه فخشى أن يمتنع عن الذكر والفكر وقال حبيب بن أبى ثابت لم يدع الله تعالى بالكشف حتى ظهرت له ثلاثة أشياء أحدها قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره فجاآ اليه ولم يبق الا عيناه ورأيا أمرا عظيما فقالا لو كان عند الله لك منزلة ما أصابك هذا والثانى ان امرأته طلبت طعاما فلم تجد ما تطعمه فباعت ذوائبها وحملت اليه طعاما والثالث قول ابليس انى أداويه على أن يقول أنت شفيتنى وقيل ان ابليس وسوس اليه ان امرأته زنت فقطعت ذوائبها فحينئذ عيل صبره وحلف ليضربنها مائة جلدة وقيل معناه مسنى الضر من شماتة الاعداء وقيل قال ذلك حين وقعت دودة من فخذه فردها الى موضعها وقال كلى جعلنى الله تعالى طعامك فعضته عضة زاد ألمها على جميع ما قاسى من عض الديدان (فان قيل) ان الله تعالى سماه صابرا وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله انى مسنى الضر ومسنى الشيطان بنصب (أجيب) بأن هذا ليس بشكاية انما هو دعاء بدليل قوله تعالى (فاستجبنا له) والجزع انما هو الشكوى الى الخلق وأما الشكوى الى الله تعالى فلا يكون جزعا ولا ترك صبر كما قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقال سفيان بن عيينة من أظهر الشكوى الى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعا كما روى أن جبريل عليه السلام دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال كيف تجدك قال أجدنى مغموما أجدنى مكروبا وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها حين قالت وارأساه بل أنا وارأساه وروى ان امرأة أيوب قالت له يوما لو دعوت

الله فقال لها كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحى من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى ثم تسبب عن الاجابة قوله تعالى (فكشفنا) أى بما لنا من العظمة (ما به من ضر) بأن أمرناه أن يركض برجله فنبع له عين من ماء كما قال تعالى اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فركض برجله فانفجرت له عين ماء فدخل فيها فاغتسل فأذهب الله تعالى كل ما كان به من البلاء بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يضرب برجله الارض مرة أخرى ففعل فنبع عين ماء بارد فأمره فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح ما يكون من الرجال وأجلهم فأقبلت امرأته تلتمسه فى مضجعه فلم تجده فقامت كالوالهة ثم جاءت اليه وهى لا تعرفه فقالت يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذى كان ههنا قال نعم ومالى لا أعرفه فتبسم وقال أنا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته قال ابن عباس فوالذى نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى ردّ لهما كل ما كان لهما كما قال تعالى (وآتيناه أهله) أى أولاده الذكور والاناث بأن أحيوا له وكل من الصنفين ثلاث أو سبع (ومثلهم معهم) أى من زوجته رحمة وزيد فى شبابها هذا ما دل عليه أكثر المفسرين وقيل آتاه الله تعالى المثل من نسل ماله وولده الذى ردّه اليه أى فولد له من ولده نوافل وقال وهب كان له سبع بنات وثلاثة بنين وروى الضحاك عن ابن عباس ردّ الى امرأته شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا وقال قوم آتى الله تعالى أيوب فى الدنيا مثل أهله الذين هلكوا فأما الذين هلكوا فانهم لم يردوا عليه فى الدنيا وقال عكرمة قيل لايوب ان أهلك لك فى الآخرة وان شئت عجلناهم لك فى الدنيا وان شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا فقال يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا فعلى هذا يكون معنى الآية وآتيناه أهله فى الآخرة ومثلهم معهم فى الدنيا وروى عن أنس يرفعه كان لايوب أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فأفرغت احداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الاخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض وروى ان الله تعالى بعث اليه ملكا فقال ان ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج الى أندرك فخرج اليه فأرسل عليه جرادا من ذهب قيل انه لما اغتسل وخرج الدود منه جعل الله تعالى له أجنحة فطارت فجعلها الله تعالى جرادا من ذهب وأمطرت عليه فطارت واحدة فاتبعها وردها الى أندره فقال له الملك اما يكفيك ما فى أندرك فقال هذا بركة من بركات ربى ولا أشبع من بركته وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما أيوب يغتسل عريانا خرّ عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال بلى يا رب ولكن لا غنى لى عن بركتك وقوله تعالى (رحمة) مفعول له أى نعمة عظيمة وفخمها بقوله تعالى (من عندنا) بحيث لا يشك من ينظر ذلك انا ما فعلناه الا رحمة منا له وان غيرنا لا يقدر على ذلك (وذكرى) أى عظة عظيمة (للعابدين) أى كلهم ليتأسوا به فيصبروا اذا ابتلوا ولا يظنوا أن ذلك انما نزل بهم لهوانهم ويشكروا وينيبوا كما أناب وقيل لرحمتنا العابدين فانا نذكرهم بالاحسان ولا ننساهم * القصة السابعة قصة اسمعيل وادريس وذى الكفل المذكورة فى قوله تعالى (واسمعيل) أى واذكر اسمعيل بن

ابراهيم

ابراهيم عليهما السلام الذى سخرناله من الماء بواسطة الروح الامين ماعاش به صغيرا بعد ما كان هالكا لامحالة ثم جعلناه طعام طعم وشفاء سقم دائما وصناه وهو كبير من الذبح حين رأى أبوه في المنام أنه يذبحه ورؤيا الانبياء وحى وفديناه بذبح عظيم (و) اذكر (ادريس) أى ابن شيث ابن آدم عليهم السلام الذى أحييناه بعد موته ورفعناه مكانا عليا وهو أول نبى بعث من بنى آدم عليه السلام وتقدمت قصته فى سورة مريم (و) اذكر (ذا الكفل) سمى بذلك قال عطاء لان نبيا من أنبياء بنى اسرائيل أوحى الله تعالى اليه انى أريد أن أقبض روحك فاعرض ملكك على بنى اسرائيل فمن تكفل لك أن يصلى بالليل لا يفتر ويصوم بالنهار لا يفطر ويقضى بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك اليه ففعل ذلك فقام شاب فقال انا أتكفل لك بهذا فتكفل ووفى به فشكر الله له ونبأه فسمى ذا الكفل وقال مجاهد لما كبر اليسع قال لو أنى استخلفت رجلا من الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل قال فجمع الناس فقال من يقبل منى ثلاثا أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب فقام رجل فقال أنا فاستخلفه فأتاه ابليس فى صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام بالليل والنهار الا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا فقال شيخ كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال ان بينى وبين قومى خصومة وانهم ظلمونى وفعلوا ما فعلوا وجعل يطول حتى ذهبت القائلة فقال اذا رحت فأتنى فانى آخذ حقك فانطلق وراح فكان فى مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلم يجده فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينظره فلم يره فلما رجع الى القائلة وأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من أنت فقال الشيخ المظلوم ففتح له وقال ألم أقل لك اذا قعدت فأتنى فقال انهم أخبث قوم اذا عرفوا انك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك واذا قمت جحدونى قال فانطلق فاذا جلست فأتنى وفاتته القائلة فلما جلس جعل ينظر فلا يراه وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض اهله لا تدعوا هذا الرجل يقرب من هذا الباب حتى أنام فانه قد شق على النعاس فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل فلما اعياه نظر فرأى كوة فى البيت فتسور منها فاذا هو فى البيت يدق عليه الباب من داخل فاستيقظ فقال يا فلان ألم آمرك قال أما من قبلى فلم تؤت فانظر من أين أتيت فقام الى الباب فاذا هو مغلق كما أغلقه واذا بالرجل معه فى البيت فقال أتنام والخصوم ببابك فقال أعدو الله قال نعم أعييتنى ففعلت ماترى لاغضبك فعصمك الله تعالى فسمى ذا الكفل لانه تكفل بأمر فوفى به وقيل ان ابليس جاءه وقال ان لى غريما يماطلنى فأحب أن تقوم معى وتستوفى حقى منه فانطلق معه حتى اذا كان فى السوق خلاه وذهب وروى أنه اعتذر اليه وقال صاحبى هرب وقيل ان ذا الكفل رجل كفل أن يصلى كل ليلة مائة ركعة الى أن يقبضه الله تعالى فوفى به واختلفوا فى أنه هل كان نبيا فقال الحسن كان نبيا وعن ابن عباس أنه الياس وقيل هو زكريا وقيل هو يوشع بن نون وقال أبو موسى لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا ولما قرن الله تعالى بين هؤلاء الثلاثة استأنف مدحهم بقوله تعالى (كل) أى كل واحد منهم (من الصابرين) على ما ابتليناه به فآتيناهم ثواب الصابرين (وأدخلناهم فى رحمتنا) أى فعلنا بهم

من الاحسان ما يفعله الراحم بمن يرحمه على وجه عمهم من جميع جهاتهم فكان ظرفا لهم ثم علل ذلك بقوله تعالى (انهم من الصالحين) أى لكل ما يرضاه تعالى منهم يعنى أنهم جبلوا جبلة خير فعملوا على مقتضى ذلك فكانوا من الكاملين فى الصلاح وهم الانبياء لان صلاحهم معصوم عن كدر الفساد * القصة الثامنة قصة يونس عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (وذا النون) أى واذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى ويبدل منه (اذ ذهب مغاضبا) واختلفوا فى معنى ذلك فقال الضحاك مغاضبا لقومه وهو رواية العوفى وغيره عن ابن عباس قال كان قوم يونس يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف فأوحى الله تعالى الى شعيب النبى عليه السلام أن سر الى حزقيل الملك وقل له يوجه نبيا قويا الى هؤلاء فانى ألقى فى قلوبهم الرعب حتى يرسلوا معه بنى اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة أنبياء فقال يونس فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس هل أمرك الله باخراجى قال لا قال فهل سمانى لك قال لا قال فههنا أنبياء غيرى أقوياء فألحوا عليه فخرج من بينهم مغاضبا للنبى والملك ولقومه فأتى بحر الروم فركبه وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة ذهب عن قومه مغاضبا لربه اذ كشف عن قومه العذاب بعد ما وعدهم به وكره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذى رفع به العذاب عنهم وكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وان يسمى كذابا لا كراهية الحكم لله تعالى وفى بعض الاخبار انه كان من عادة قومه أن يقتلوا من جرب عليه الكذب فخشى أن يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد فغضب والمغاضبة ههنا من المفاعلة التى تكون من واحد كالمسافرة والمعاقبة فمعنى قوله مغاضبا أى غضبانا وقال الحسن انما غاضب ربه من أجل انه أمره بالمسير الى قوم لينذرهم باسه ويدعوهم اليه فسأل ربه أن ينظره ليتأهب فقيل له ان الامر أسرع من ذلك حتى سأله أن ينظره الى أن يأخذ نعلا يلبسها فلم ينظره وكان فى خلقه ضيق فذهب مغاضبا . وعن ابن عباس قال أتى جبريل يونس فقال انطلق الى أهل نينوى فأنذرهم قال التمس دابة قال الامر أعجل من ذلك فغضب فانطلق الى السفينة وقال وهب ان يونس كان عبدا صالحا وكان فى خلقه ضيق فلما حمل عليه أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها بين يديه وخرج هاربا فلذلك أخرجه الله تعالى من أولى العزم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل وقال ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم (فظن أن لن نقدر عليه) أى لن نقضى عليه بالعقوبة قاله مجاهد وقتادة والضحاك وقال عطاء وكثير من العلماء معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس من قوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر وعن ابن عباس أنه دخل على معاوية فقال لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصا الا بك قال وما هى يا معاوية فقرأ هذه الآية فقال أو يظن نبى الله أن لن يقدر عليه قال هذا من القدر الذى معناه الضيق لا من القدرة وقال ابن زيد هو استفهام معناه أفظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه (فنادى) اى فاقتضت

حكمتنا ان عاتبناه حتى يستسلم فألقى نفسه فى البحر فالتقمه الحوت فمكث فيه أربعين من بين يوم وليلة وقال عطاء سبعة أيام وقيل ان الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة وقيل بلغ به تخوم الارض السابعة ومنعناه أن يكون له طعاما فنادى (فى الظلمات) ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وقيل فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات وقوله يخرجهم من النور الى الظلمات وقيل ابتلع حوته حوت أكبر منه فجعل فى ظلمتى بطن الحوتين وظلمة البحر (أن لا اله الا أنت) ولما نزهه عن الشريك عمم فقال تعالى (سبحانك) أى تنزهت عن كل نقص فلا يقدر على الانجاء مما أنا فيه الا أنت ثم أفصح بطلب الخلاص بقوله ناسبا الى نفسه من النقص ما نزه الله عن مثله (انى كنت من الظالمين) أى فى خروجى من بين قومى قبل الاذن فاعف عنى كما هى سيرة القادرين روى عن أبى هريرة مرفوعا أوحى الله تعالى الى الحوت ان خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فأخذه ثم هوى به الى مسكنه فى البحر فلما انتهى به الى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ما هذا فأوحى الله تعالى اليه ان هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح هو فى بطن الحوت فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة وفى رواية صوتا معروفا من مكان مجهول فقال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد اليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا فيه عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال تعالى فنبذناه بالعراء وهو سقيم فذلك قوله تعالى (فاستجبنا له) أى أجبناه (ونجيناه من الغم) أى من تلك الظلمات بتلك الكلمات (وكذلك) أى وكما نجيناه (ننجى المؤمنين) من كربهم اذا استغاثوا بنا داعين قال الرازى فى اللوامع وشرط كل من يلتجئ الى الله أن يبدأ بالتوحيد ثم بعده بالتسبيح والثناء ثم بالاعتراف والاستغفار والاعتذار وهذا شرط كل داع اه وعن النبى صلى الله عليه وسلم ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه والله الا اقراره على نفسه بالظلم وقرأ ابن عامر وأبو بكر بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم على أن أصله ننجى فحذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية فى تظاهرون وهى وان كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة الذى لمعنى وقيل هو ماض مجهول أسند الى ضمير المصدر وهو النجاء وقرأ الباقون بنونين الثانية مخفاة عند الجيم * (تنبيه) * اختلفوا فى متى كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس كانت بعد أن أخرجه الله تعالى من بطن الحوت بدليل قوله تعالى فى سورة والصافات فنبذناه بالعراء ثم ذكر بعده وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وقال آخرون انها كانت من قبل بدليل قوله تعالى وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون * القصة التاسعة قصة زكريا عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (وزكريا) أى واذكر زكريا ويبدل منه (اذ نادى ربه) نداء الحبيب القريب فقال (رب) باسقاط أداة البعد (لا تذرنى فردا) أى وحيدا من غير

ولداً كريث ما آتيتني من الحكمة (وأنت) أي والحال أنك (خير الوارثين) أي الباقي بعد فناء خلقك وكثيراً ما تفنح ارث بعض عبيدك عبيداً آخرين فأنت الحقيق بأن تفعل في ارثي من العلم والحكمة ما أحببته فهب لي ولداً تمن علي به (فاستجبنا له) بعظمتنا وان كان في حد من السن لا يولد لاحد به معه وزوجه في حال من العقم لا يرجى معه حبلها فكيف وقد جاوزت سن اليأس ولذلك عبر بما يدل على العظمة فقال تعالى (ووهبنا له يحيى) ولداً وارثاً نبياً حكيماً عظيماً (وأصلحنا له) خاصة من بين أهل ذلك الزمان (زوجه) أي جعلناها صالحة لكل خير خالصة له فأصلحناها للولادة بعد عقمها وأصلحناها لزكريا بعد ان كانت سريعة الغضب سيئة الخلق فأصلحناها له ورزقناها حسن الخلق (انهم) أي الانبياء الذين سماهم في هذه السورة وقيل زكريا وزوجه ويحيى (كانوا) أي جبلة وطبعاً (يسارعون في الخيرات) أي الطاعات يبالغون في الاسراع بها مبالغة من يسابق آخر ودل على عظيم أفعالهم بقوله تعالى (ويدعوننا) مستحضرين لجلالنا وعظمتنا وكمالنا (رغبا) أي طمعاً في رحمتنا (ورهبا) أي خوفاً من عذابنا (وكانوا) أي جبلة وطبعاً (لنا) خاصة (خاشعين) أي خائفين خوفاً عظيماً يحملهم على الخضوع والانكسار قال مجاهد الخشوع هو الخوف اللازم للقلب وقيل متواضعين وسئل الاعمش عن هذه الآية فقال أما اني سألت ابراهيم فقال ألا تدري قلت أفدني قال بينه وبين الله اذا أرخى ستره عليه وأغلق بابه فلير الله منه خيراً لعلك ترى أنه يأكل خشناً ويلبس خشناً ويطأطئ رأسه * القصة العاشرة قصة مريم وابنها عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (والتي) أي واذكر مريم التي (أحصنت فرجها) أي حفظته من الحلال والحرام حفظاً يحق له أن يذكر ويتحدث به كما قال تعالى حكاية عنها ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً لان ذلك غاية في العفة والصيانة والتخلي عن الملاذ الى الانقطاع الى الله تعالى بالعبادة مع ما جمعت مع ذلك من الامانة والاجتهاد في متانة الديانة والصحيح أنها ليست بنبية (فنفخنا فيها من روحنا) أي أمرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها فأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها وأضاف الروح اليه تعالى تشريفاً لعيسى عليه السلام كبيت الله وناقة الله * ثم بين تعالى ما خص مريم وعيسى من الآيات فقال تعالى (وجعلناها وابنها) أي قصتهما أو حالهما ولذلك وحد قوله (آية للعالمين) من الجن والانس والملائكة وان من تأمل حالهما تحقق كمال قدرة الله تعالى (فان قيل) هلا قال تعالى آيتين كما قال تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين (أجيب) بما تقدم وبأن الآية كانت فيهما واحدة وهي أنها أتت به من غير فحل وههنا آخر القصص * ولما دل ما مضى من قصص هؤلاء الانبياء عليهم السلام أنهم كلهم متفقون على التوحيد الذي هو أصل الدين قال تعالى (ان هذه) أي ملة الاسلام (أمتكم) أي دينكم أيها المخاطبون أي يجب أن تكونوا عليها حال كونها (أمة) قال البغوي وأصل الامة الجماعة التي هي على مقصد واحد اهـ فجعل الشريعة أمة لاجتماع أهلها على مقصد واحد اهـ ثم أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله تعالى (واحدة) فأبطل ما سوى الاسلام من الاديان (وأنا ربكم) أي المحسن اليكم لا غيري في كل زمان فاني

لا أتغير على طول الدهر ولا يشغلني شأن عن شأن (فاعبدون) دون غيري فانه لا كفء لي * ثم ان بعضهم خالف الامر بالاجتماع كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وتقطعوا) أي بعض المخاطبين (أمرهم بينهم) أي تفرقوا أمر دينهم متخالفين فيه وهم طوائف اليهود والنصارى قال الكلبي فرقوا دينهم بينهم يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض * (تنبيه) * الاصل وتقطعتم الا أن الكلام صرف الى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه الى آخرين ويقبح عليهم فعلهم عندهم ويقول لهم ألا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا كما يتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه بينهم فيصير لهذا نصيب ولذا نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى ثم توعدهم بقوله تعالى (كل) أي من هذه الفرق وان بالغ في التمرد (الينا) يوم القيامة (راجعون) فنحكم بينهم فيتسبب عن ذلك أنا نجازيهم اقامة للعدل فنعطي كلا من المحق التابع لاصفيائنا والمبطل المائل الى الشياطين أعدائنا ما يستحقه وذلك هو معنى قوله تعالى فارقا بين المحسن والمسيء تحقيقا للعدل وتشويقا الى الفضل (فمن يعمل) أي منهم الآن (من الصالحات وهو) أي والحال أنه (مؤمن) أي يأتي بعمله على الاساس الصحيح (فلا كفران) أي لا جحود (لسعيه) بل يشكر ويثاب عليه * (تنبيه) * قوله تعالى فلا كفران نفي الجنس ليكون أبلغ من أن يقول فلا نكفر سعيه (وانا له) أي لسعيه (كاتبون) أي مثبتون في صحيفة عمله وما أثبتناه فهو غير ضائع فلا يفقد منه شيأ قل أو جل ومن المعلوم أن قسيمه وهو من يعمل من السيآت وهو كافر فلا نقيم له وزنا ومن يعمل منها وهو مؤمن فهو تحت مشيئتنا قال البقاعي ولعله حذف هذين القسمين ترغيبا في الايمان * ولما كان هذا غير صريح في أن هذا الرجوع بعد الموت بينه بقوله تعالى (وحرام) أي ممنوع (على قرية) أي أهلها (أهلكناها) أي بالموت (أنهم لا يرجعون) أي الينا بأن يذهبوا تحت التراب باطلا من غير احساس بل الينا بموتهم رجعون فحبسناهم في البرزخ منعمين أو معذبين نعيما أو عذابا دون النعيم والعذاب الاكبر * (تنبيه) * ما قدرناه في الآية هو ما جرى عليه البقاعي والذي قدره الزمخشري أن معنى أهلكناها عزمنا على اهلاكها أو قدرنا اهلاكها ومعنى الرجوع الرجوع من الكفر الى الاسلام والانابة فتكون لا مزيدة والذي قدره الجلال المحلي أن لا زائدة أي يمتنع رجوعهم الى الدنيا فيكون الاهلاك بالموت وهذا قريب مما قاله ابن عباس فانه قال وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك فجعل لا زائدة قال البغوي وقال آخرون الحرام بمعنى الواجب فعلى هذا يكون لا ثابتا ومعناه واجب على أهل قرية أهلكناهم أي حكمنا بهلاكهم أن لا تتقبل أعمالهم لانهم لا يرجعون أي لا يتوبون والدليل على هذا المعنى انه تعالى قال في الآية التي قبلها ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه أي يتقبل عمله ثم ذكر هذه الآية عقبه وبين ان الكافر لا يتقبل عمله انتهى والذي قدره البيضاوي قريب مما قدره الزمخشري وكل هذه التقادير صحيحة لكن الاول أظهر وقرأ شعبة وحمزة والكسائي بكسر الحاء وسكون الراء والباقون بفتح الحاء والراء وألف بعد الراء

قال البغوي وهما لغتان مثل حل وحلال وقوله تعالى (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج) متعلق كما قال الزمخشري بحرام وحتى غاية له لان امتناع رجوعهم لايزول حتى تقوم القيامة وهي حتى التي يحكى بعدها الكلام أي فهي الابتدائية لا الجارة ولا العاطفة والمحكى هو الجملة الشرطية وقرأ ابن عامر بتشديد التاء بعد الفاء والباقون بالتخفيف ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان اسم لقبيلتين من جنس الانس ويقدر قبله مضاف أي سدهما وذلك قرب الساعة يقال الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج وقرأهما عاصم بهمزة ساكنة والباقون بالالف * ثم عبر عن كثرتهم التي لايعلمها الا هو سبحانه وتعالى بقوله تعالى (وهم) أي والحال أنهم (من كل حدب) أي نشز عال من الارض (ينسلون) أي يسرعون من النسلان وهو تقارب الخطا مع السرعة كمشي الذئب وفي العبارة ايماء الى أن الارض كرة وقيل الضمير راجع الى الناس المسوقين الى المحشر روى عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال صلى الله عليه وسلم ما تذاكرون قلنا نتذاكر الساعة قال انها لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدخان والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم (واقترب الوعد الحق) أي يوم القيامة قال حذيفة لو أن رجلا اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة (فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) قال الكلبي شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم * (تنبيه) * فاذا هي اذا للمفاجأة وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله تعالى اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل اذا هي شاخصة أو فهي شاخصة كان سديدا قال سيبويه والضمير للقصة يعني فاذا القصة شاخصة يعني القصة أن أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك وقال الزمخشري هي ضمير مبهم توضحه الابصار وتفسره كما فسر الذين ظلموا وأسروا النجوى وقولهم (ياويلنا) أي هلاكنا متعلق بمحذوف تقديره يقولون ياويلنا ويقولون في موضع الحال من الذين كفروا ويا للتنبيه (قد كنا) أي في الدنيا (في غفلة من هذا) أي اليوم حيث كذبنا وقلنا انه غير كائن ثم أضربوا عن الغفلة فقالوا (بل كنا ظالمين) أنفسنا بعدم اعتقاده ووضعين الشئ في غير موضعه حيث أعرضنا عن تأمل دلائله والنظر في مخايله وكذبنا الرسل وعبدنا الاوثان وقوله تعالى (انكم) خطاب لاهل مكة وأكده لانكارهم مضمون الخبر (وما تعبدون من دون الله) أي غيره من الاوثان (حصب جهنم) أي وقودها وهو ما يرمى به اليها وتهيج به من حصبه يحصبه اذا رماه بالحصب والحصب في لغة أهل اليمن الحطب وقال عكرمة هو الحطب بالحبشية قال الضحاك يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصب وقوله تعالى (أنتم لها واردون) أي داخلون استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للاختصاص والدلالة على أن ورودهم لاجلها (لو كان هؤلاء) أي الاوثان

(آلهة)

(آلهة) أى كما زعمتم (ما وردوها) أى ما دخل الاوثان وعابدوها النار وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء خالصة فى الوصل بعد تحقيق الاولى والباقون بتحقيقهما (وكل) أى من العابدين والمعبودين (فيها) أى فى جهنم (خالدون) لا انفكاك لهم عنها بل يحمى بكل منهم فيها على الآخر (فان قيل) لم قرنوا بآلهتهم (أجيب) بأنهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر الى وجه العدو باب من العذاب لانهم قدروا أنهم يستشفعون بهم فى الآخرة وينتفعون بشفاعتهم فاذا صادفوا الامر على عكس ما قدروا لم يكن شئ أبغض اليهم منهم (فان قيل) اذا عنيت بما تعبدون الاوثان فما معنى قوله تعالى (لهم فيها زفير) أى تنفس عظيم على غاية من الشدة والمد تكاد تخرج معه النفس (أجيب) بأنهم اذا كانوا هم وأوثانهم فى قرن واحد جاز أن يقال لهم زفير وان لم يكن الزافرون الا هم دون الاوثان للتغليب ولعدم الالباس (وهم فيها لا يسمعون) شيأ لشدة غليانها وقال ابن مسعود فى هذه الآية اذا بقى فى النار من يخلد فيها جعلوا فى توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت فى توابيت أخرى عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيأ ولا يرى أحد منهم ان أحدا يعذب فى النار غيره وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليهم انكم وما تعبدون من دون الله الآية فأقبل عبد الله بن الزبعرى السلمى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك قال نعم قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة فقال صلى الله عليه وسلم بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك فأنزل الله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) أى الحكم بالموعدة البالغة فى الحسن فى الازل ومنهم من ذكروا أضل بأحد منهم الكفار فاطردوه أم لا (أولئك) أى العالو الرتبة (عنها) أى جهنم (مبعدون) برحمة الله تعالى لانهم أحسنوا فى العبادة واتقوا وهل جزاء الاحسان الا الاحسان وفى رواية عن ابن عباس ان ابن الزبعرى لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم ذلك سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ونزل فى عيسى والملائكة ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية وقد أسلم ابن الزبعرى بعد ذلك رضى الله تعالى عنه ومدح النبى صلى الله عليه وسلم وادعى جماعة أن المراد من الآية الاصنام لان الله تعالى قال وما تعبدون من دون الله ولو أراد الملائكة والناس لقال ومن تعبدون وروى ان عليا رضى الله تعالى عنه قرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه وهو يقول (لا يسمعون حسيسها) أى حركتها البالغة وصوتها الشديد فكيف

بعادونه لان الحس مطلق الصوت أو الصوت الخفى كما قاله البغوى فاذا زادت حروفه زاد معناه فذكر ذلك بدلا من مبعدون أو حال من ضميره للمبالغة فى ابعادهم عنها (وهم) أى الذين سبقت لهم منا الحسنى (فى ما اشتهت أنفسهم) فى الجنة كما قال تعالى وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين والشهوة طلب النفس اللذة (خالدون) أى دائما أبدا فى غاية النعم وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به * (فائدة) * فى هنا مقطوعة من ما ولما كان معنى ذلك أن سرورهم ليس له زوال أكده بقوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الاكبر) قال الحسن هو حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن عباس هو النفخة الاخيرة لقوله تعالى ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض وقال ابن جريج هو حين يذبح الموت وينادى يا أهل النار خلود بلا موت وقال سعيد بن جبير هو أن تنطبق جهنم وذلك بعد أن يخرج الله تعالى منها من يريد أن يخرجه (وتتلقاهم) أى تستقبلهم (الملائكة) قال البغوى على أبواب الجنة يهنؤنهم وقال الجلال المحلى عند خروجهم من القبور ولا مانع أنها تستقبلهم فى الحالين ويقولون لهم (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) أى هذا وقت ثوابكم الذى وعدكم ربكم به فى الدنيا فابشروا فيه بجميع ما يسركم * ولما كانت هذه الافعال على غاية من الاهوال تتشوف بها النفس الى معرفة اليوم الذى تكون فيه قال تعالى (يوم) أى تكون هذه الاشياء يوم (نطوى السماء) طيا فتكون كأنها لم تكن ثم صور طيها بما يعرفونه فقال مشبها للمصدر الذى دل عليه الفعل (كطى السجل) واختلف فى السجل فقال بعضهم هو الكاتب الذى له العلو والقدرة على مكتوبه (للكتاب) أى القرطاس الذى يكتبه ويرسله الى أحد وقال السدى هو ملك يكتب أعمال العباد وقيل كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم والكتاب على هذه الاقوال اسم للصحيفة المكتوب فيها وقال ابن عباس ومجاهد والاكثرون السجل الصحيفة والمعنى كطى الصحيفة على مكتوبها والطى هو الدرج وهو ضد النشر وانما وقع هذا الاختلاف لان السجل يطلق على الكتاب وعلى الكاتب قاله فى القاموس وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم الكاف والتاء على الجمع والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وبين الكاف والتاء ألف على الافراد فقراءة الافراد لمقابلة لفظ السماء والجمع للدلالة على أن المراد الجنس بجميع السموات تطوى روى عن ابن عباس أنه قال يطوى الله تعالى السموات السبع بما فيها من الخليقة والارضين السبع بما فيها من الخليقة يطوى ذلك كله بيمينه أى بقدرته حتى يكون ذلك بمنزلة خردلة وروى عن ابن عباس أنه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم محشورون الى الله حفاة عراة غرلا أى غير مختونين (كما بدأنا أول خلق نعيده) أى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم عراة غرلا غير مختونين نعيدهم يوم القيامة نظيره قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة (وعدا) وأكد ذلك بقوله تعالى (علينا) وزاده بقوله تعالى (انا كنا) أى أزلا وأبدا على حالة لا تحول (فاعلين) أى شأننا أن نفعل ما نريد لا كلفة علينا فى شئ من ذلك ثم انه تعالى حقق ذلك بقوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) قال سعيد بن جبير ومجاهد الزبور جميع

كتب الله تعالى المنزلة والذكر أم الكتاب الذى عنده ومعناه من بعد ما كتب ذكره فى اللوح المحفوظ وقال ابن عباس والضحاك الزبور والتوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة وقال الشعبى الزبور كتاب داود والذكر التوراة وقيل الزبور كتاب داود عليه السلام والذكر القرآن وبعد بمعنى قبل كقوله تعالى وكان وراءهم ملك أى أمامهم وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها أى قبله وقرأ حمزة بضم الزاى والباقون بفتحها (أن الارض) أى أرض الجنة (يرثها عبادى) وحقق ذلك ما أفادته اضافتهم اليه بقوله تعالى (الصالحون) أى المتحققون بأخلاق أهل الذكر المقبلون على ربهم الموحدون له المشفقون من الساعة الراهبون من سطوته الراغبون فى رحمته الخاشعون له فهذا عام فى كل صالح وقال مجاهد يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم دليله قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقال ابن عباس أراد ان أراضى الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى باظهار الدين واعزاز المسلمين وقيل أراد بالارض الارض المقدسة وقيل أراد جنس الارض الشامل لبقاع أرض الدنيا كلها ولأرض المحشر والجنة وغير ذلك مما يعلمه الله تعالى وجرى على هذا البقاعى فى تفسيره وقرأ حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها (ان فى هذا) أى القرآن كما قاله البغوى (لبلاغا) أى وصولا الى البغية فان من اتبع القرآن وعمل به وصل الى ما يرجوه من الثواب وقيل بلاغا أى كفاية يقال فى هذا الشئ بلاغ وبلغة أى كفاية والقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر وقال الرازى هذا اشارة الى المذكور فى هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة (لقوم عابدين) أى عاملين به وقال ابن عباس عالمين قال الرازى والاولى أنهم الجامعون بين أمرين لان العلم كالشجرة والعمل كالثمر والشجر بدون الثمر غير مفيد والثمر بدون الشجر غير كائن وقال كعب الاحبار هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان * ولما كان هذا مشيرا الى ارشادهم فكان التقدير فما أرسلناك الا لاسعادهم عطف عليه قوله تعالى (وما أرسلناك) أى على حالة من الاحوال (الا) على حال كونك (رحمة للعالمين) كلهم أهل السموات وأهل الارض من الجن والانس وغيرهم طائعهم بالثواب وعاصيهم بتأخير العقاب الذى كانت تستأصل الامم به فنحن نمهلهم ونترفق بهم لاظهار شرفك واعلاء لقدرك ثم نرد كثيرا منهم الى دينك ونجعلهم من أكابر أنصارك وأعاظم أعوانك بعد طول ارتكابهم الضلال وارتباكهم فى اشراك المحال . ومن أعظم ما يظهر فيه هذا الشرف فى عموم الرحمة وقت الشفاعة العظمى يوم يجمع الله تعالى الاولين والآخرين وتقوم الملائكة صفوفا والثقلان وسطهم ويموج بعضهم فى بعض من شدة ما هم فيه يطلبون من يشفع لهم فيقصدون أكابر الانبياء نبيا نبيا عليهم الصلاة والسلام فيحيل بعضهم على بعض وكل منهم يقول لست لها حتى يأتوه صلى الله عليه وسلم فيقول أنا لها ويقوم معه لواء الحمد فيشفعه الله تعالى وهو المقام المحمود الذى يغبطه به الاولون والآخرون فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق أجمعين * ولما أورد تعالى على الكفار الحجج فى أن لا اله سواه وبين أنه أرسل

رسوله رحمة للعالمين أتبع ذلك بأمره صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد) أى مايوحى الى فى أمر الاله الا وحدانيته وما الهكم الا اله واحد لم يوح الى فيما تدعون من الشركة غير ذلك فالاول من قصر الصفة على الموصوف والثانى من قصر الموصوف على الصفة والمخاطب به مامن يعتقد الشركة فهو قصر قلب وقال الزمخشرى انما القصر الحكم على شئ أو القصر الشئ على حكم كقولك انما زيد قائم وانما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية لان انما يوحى الى مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وانما الهكم اله واحد بمنزلة انما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على ان الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله تعالى بالوحدانية انتهى * ولما كان الوحى الوارد على هذه السنن موجبا أن يخلصوا التوحيد لله تعالى قال صلى الله عليه وسلم (فهل أنتم مسلمون) أى منقادون لما يوحى الى من وحدانية الاله والاستفهام بمعنى الامر أى أسلموا (فان تولوا) أى لم يقبلوا مادعوتهم اليه (فقل) أى لهم (آذنتكم) أى أعلمتكم بالحرب كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة فنبذ اليهم العهد وأشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعا بذلك وقوله (على سواء) حال من الفاعل والمفعول أى مستوين فى الاعلام به لم أطوه عن أحد منكم ولا أستبد به دونكم لتتأهبوا (وان) أى وما (أدرى أقريب) جدا بحيث يكون قربه على ما يتعارفونه (أم بعيد ماتوعدون) من غلب المسلمين عليكم أو عذاب الله أو القيامة المشتملة عليه وان ذلك كائن لا محالة ولابد أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار وان كنت لا أدرى متى يكون ذلك لان الله تعالى لم يعلمنى علمه ولم يطلعنى عليه وانما يعلمه الله تعالى (انه) تعالى (يعلم الجهر من القول) أى مما يجهرون به من العظائم وغير ذلك ونبه تعالى على ذلك فان من أحوال الجهر أن ترتفع الاصوات جدا بحيث تختلط ولا يميز بينها ولا يعرف كثير من حاضريها ماقاله أكثر القائلين فأعلم سبحانه وتعالى أنه لا يشغله صوت عن آخر ولا يفوته شئ من ذلك ولو كثر (ويعلم ماتكتمون) مما تضمرونه فى صدوركم من الاحقاد للمسلمين ونظير ذلك قوله تعالى فى أول السورة قل ربى يعلم القول فى السماء والارض ومن لازم ذلك المجازاة عليه بما يحق لكم من تعجيل وتأجيل فستعلمون كيف تخيب ظنونكم ويتحقق ما أقول فتنطقون حينئذ بأنى صادق ولست بساحر ولا شاعر ولا كاهن فهو من أبلغ التهديد فانه لا أبلغ من التهديد بالعلم * ولما كان الامهال قد يكون نعمة وقد يكون نقمة قال (وان) أى وما (أدرى) أن يكون تأخير عذابكم نعمة لكم كما تظنون أم لا (لعله) أى تأخير العذاب (فتنة) أى اختبار (لكم) ليظهر مايعلمه منكم من السر لغيره لان حالكم حال من يتوقع منه ذلك (ومتاع) لكم تتمتعون به (الى حين) أى بلوغ مدة آجالكم التى ضربها لكم فى الازل ثم يأخذكم بغتة وأنتم لا تشعرون * ولما كان لله أن يفعل مايشاء من عدل وفضل وكان من العدل جواز تعذيب الله تعالى الطائع وتنعيم المؤمن العاصى وكان صلى الله عليه وسلم قد بلغ الغاية فى البيان لهم وهم قد بلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه أمر الله تعالى أن يفوض الامر اليه تسلية له بقوله تعالى (قل رب) أيها المحسن الى (احكم) أى أنجز الحكم بينى وبين قومى (بالحق)

أى بالامر الذى يحق لكل منا من نصر وخذلان وقرأ حفص بفتح القاف وألف بعدها وفتح اللام بصيغة الماضى على حكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم والباقون بضم القاف وسكون اللام بصيغة الامر (فان قيل) كيف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احكم بالحق والله تعالى لايحكم الا بالحق (أجيب) بأن الحق ههنا بمعنى العذاب فكأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر نظيره قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وقال أهل المعانى معناه رب احكم بحكمك الحق فحذف الحكم وأقيم الحق مقامه والله تعالى يحكم بالحق طلب أم لم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب فى حكمه الحق (وربنا) أى المحسن الينا أجمعين (الرحمن) أى العام الرحمة لنا ولكم بادرا رها علينا ولولا عموم رحمته لاهلكنا أجمعين وان كنا نحن أطعناه لانا لانقدره حق قدره ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة (المستعان) اى المطلوب منه العون (على ماتصفون) من كذبكم على الله تعالى فى قولكم اتخذ الله ولدا وعلى فى قولكم ساحر وعلى القرآن فى قولكم شعر قال الرازى روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك فى حروبه ولم يذكر له سندا وأما مارواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ اقترب حاسبه الله حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن فحديث موضوع والله تعالى أعلم بالصواب

(سورة الحج مكية)

الا ومن الناس من يعبد الله على حرف الآيتين والا هذان خصمان الست آيات فمدنيات وهى ثمان وقيل خمس أوست أوسبع وسبعون آية

(بسم الله) أى الذى اقتضت عظمته خضوع كل شئ (الرحمن) الذى عم برحمته كل موجود (الرحيم) الذى خص بفضله من شاء من عباده * ولما ختمت السورة التى قبل هذه بالترهيب من الفزع الاكبر وطى السماء واتيان مايوعدون وكان أعظم ذلك يوم الدين افتتحت هذه السورة بالامر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم بقوله تعالى (يا أيها الناس) أى الذين تقدم أول تلك أنه اقترب لهم حسابهم ان أريد ان ذلك عام والا فهم وغيرهم (اتقوا) أى احذروا عقاب (ربكم) أى المحسن اليكم بأنواع الاحسان بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية الطاعات * ولما أمرهم بالتقوى علل ذلك مرهبا لهم بقوله تعالى (ان زلزلة الساعة) أى حركتها الشديدة للاشياء على الاسناد المجازى فتكون الزلزلة مصدرا مضافا الى فاعله ويصح أن يكون الى المفعول فيه على طريق الاتساع فى الظرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها واختلف فى وقتها فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبى عند طلوع الشمس من مغربها الذى هو أقرب للساعة (شئ عظيم) أى أمر كبير وخطر جليل وحادث هائل لاتحتمل العقول وصفه وهذا للزلزلة نفسها فكيف بجميع مايحدث فى ذلك اليوم الذى لابد لكم من الحشر فيه

الى الله تعالى ليجازيكم على ما كان منكم لا ينسى منه نقير ولا قطمير (يوم ترونها) أى الزلزلة أو الساعة أو كل مرضعة أضمرها قبل الذكر تهويلا للامر وترويعا للنفس (تذهل) بسبب ذلك (كل مرضعة) أى بالفعل أى تنسى وتغفل حائرة مدهوشة والعامل فى يوم تذهل (فان قيل) لم قال تعالى مرضعة ولم يقل مرضع (أجيب) بأن المرضعة هى التى فى حال الارضاع ملقمة ثديها للطفل والمرضع التى شأنها أن ترضع وان لم تباشر الارضاع فى حال وضعها فقال مرضعة ليدل على أن ذلك الهول اذا فوجئت به هذه وقد ألقمت ثديها تنزعه من فيه لما يلحقها من الدهشة (عما أرضعت) عن ارضاعها أو عن الذى أرضعته وهو الطفل فما اما مصدرية أو موصولة (وتضع كل ذات حمل حملها) أى تسقطه قبل التمام رعبا وفزعا * (تنبيه) * هذا ظاهر على القول الثانى وهو قول علقمة والشعبى على أن ذلك يكون عند طلوع الشمس من مغربها وأما على القول الاول وهو قول الحسن على أن ذلك يوم القيامة كيف يكون ذلك فقيل هو تصوير لهولها قاله البيضاوى وقال البقاعى فى المرضعة هى من ماتت مع ابنها رضيعا وفى ذات الحمل من ماتت حاملا فان كل أحد يقوم على ما مات عليه وهذا أولى فانى فى حال كتابتى فى هذا المحل حضر عندى سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى نفعنا الله تعالى ببركته فذكرت له هذين القولين فانشرح صدره لترجيح هذا الثانى وذلك يوم تاسوعاء من شهر الله المحرم سنة ست وخمسين وتسعمائة وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل ما فى بطنها بغير تمام ويؤيد أن هذه الزلزلة تكون بعد البعث ما روى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك زاد فى رواية والخير فى يديك فينادى بصوت ان الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا الى النار قال يارب وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحوامل حملها ويشيب الوليد وساق بقية الآية وهو (وترى الناس سكارى) أى لما هم فيه من الدهشة والحيرة ثم بين الله تعالى أن ذلك ليس بسكر حقيقة بقوله تعالى (وما هم بسكارى) أى من الشراب ولما نفى أن يكونوا سكارى من الشراب أثبت ما أوجب لهم تلك الحالة بقوله (ولكن عذاب الله) ذى العزة والجبروت (شديد) فهو الذى أوجب أن يظن بهم السكر لان هوله أذهب عقولهم وطير تمييزهم تم الحديث عند آخر الآية فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم زاد فى رواية قالوا يا رسول الله أينا ذلك الواحد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى الثور الابيض أو كالشعرة البيضاء فى الثور الاسود وفى رواية كالرقمة فى ذراع الحمار وانى أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا وفى رواية انى لارجو أن تكونوا ثلثى أهل الجنة روى عمران بن حصين رضى الله عنه أن هاتين الآيتين نزلتا فى غزوة بنى المصطلق ليلا فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطى حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فلم نر أكثر باكيا من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا

السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرا وكانوا مابين حزين وباك ومفكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث بعث النار وذلك نحو حديث أبى سعيد وزاد فيه ثم قال يدخل من أمتى سبعون ألفا الجنة بغير حساب قال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا وقرأ حمزة والكسائى بفتح السين وسكون الكاف فيهما والباقون بضم السين وفتح الكاف وبعد الكاف ألف وأمال الالف بعد الراء أبو عمرو وحمزة والكسائى محضة وورش بين بين والباقون بالفتح * ونزل فى النضر بن الحرث وكان كثير الجدل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الاولين وكان ينكر البعث واحياء من صار ترابا (ومن الناس) أى المذبذبين (من) لا يسعى فى اعلاء نفسه وتهذيبها فيكذب فيوبق بسوء عمله لانه (يجادل فى الله) أى فى قدرته على ذلك اليوم وفى غير ذلك بعد أن جاءه العلم بها اجتراء على سلطانه العظيم (بغير علم) بل بالباطل الذى هو جهل صرف فيترك اتباع الهداة (ويتبع) بغاية جهده فى جداله (كل شيطان) محترق بالسوء مبعد باللعن (مريد) أى متجرد للفساد ولا شغل له غيره قال البيضاوى وأصله العرى أى عن الساتر (كتب) أى قدر وقضى على سبيل الحتم الذى لا بد منه تعبيرا باللازم عن الملزوم (عليه) أى على ذلك الشيطان (أنه) أى الشأن (من تولاه) أى فعل معه فعل الولى مع وليه باتباعه والاقبال على مايزينه (فانه يضله) بما يبغض اليه من الطاعات فيخطئ سبيل الخير (ويهديه) أى بما يزين له من الشهوات الحاملة على الزلات (الى عذاب السعير) أى النار * ثم ألزم الحجة منكرى البعث بقوله تعالى (يا أيها الناس) أى كافة ويجوز أن يراد به المنكر فقط (ان كنتم فى ريب) أى شك وتهمة وحاجة الى البيان (من البعث) وهو قيام الاجسام بأرواحها كما كانت قبل مماتها فتفكروا فى خلقتكم الاولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانيا ثم انه سبحانه وتعالى ذكر مراتب الخلقة الاولى أمورا سبعة المرتبة الاولى قوله تعالى (فانا خلقناكم) بقدرتنا التى لا يتعاظمها شئ (من تراب) لم يسبق له اتصاف بالحياة وفى الخلق من تراب وجهان أحدهما أنا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه الصلاة والسلام من تراب كما قال تعالى كمثل آدم خلقه من تراب الثانى من الاغذية والاغذية اما حيوانية واما نباتية وغذاء الحيوان ينتهى الى النبات قطعا للتسلسل والنبات انما يتولد من الارض والماء فصح قوله تعالى انا خلقناكم من تراب المرتبة الثانية قوله تعالى (ثم من نطفة) وحالها أبعد شئ عن حال التراب فانها بيضاء سائلة لزجة صافية كما قال تعالى من ماء دافق وأصلها الماء القليل قاله البغوى وأصل النطف الصب قاله البيضاوى المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم من علقة) أى قطعة دم حمراء جامدة ليس فيها أهلية للسيلان ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة المرتبة الرابعة قوله تعالى (ثم من مضغة) أى قطعة لحم صغيرة وهى فى الاصل قدر ما يمضغ (مخلقة) أى مسوّاة لانقص فيها ولا عيب يقال خلق السواك والعود سوّاه وملسه من قولهم صخرة خلقاء اذا كانت ملساء (وغير مخلقة) أى وغير مسوّاة فكان الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها

ماهو كامل الخلقة وأملس من العيوب ومنها ماهو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم هذا قول قتادة والضحاك وقال مجاهد المخلقة الولد الذى يخرج حيا وغير المخلقة السقط وقال قوم المخلقة المصورة وغير المخلقة غير المصورة وهو الذى يبقى لحما من غير تخطيط وتشكيل واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله بن مسعود موقوفا عليه قال ان النطفة اذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه وقال أى رب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة قذفها فى الرحم دما ولم تكن نسمة وان قال مخلقة قال الملك أى رب ذكر أم أنثى وشقى أم سعيد ما الاجل ما العمل ما الرزق بأى أرض تموت فيقال له اذهب الى أم الكتاب فانك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها فى أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتى على آخر صفتها والذى أخرجاه فى الصحيحين عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فو الذى لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها فكأنه تعالى يقول انما نقلناكم من حال الى حال ومن خلقة الى خلقة (لنبين لكم) بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وان من قدر على خلق البشر من التراب والماء أولا ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين التراب والماء وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما قدر على اعادة ما أبدأه بل هو أدخل فى القدرة من تلك وأهون فى القياس وورود الفعل غير معدى الى المبين اعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يحيط به الوصف ولا يكتنهه الذكر (ونقر فى الارحام) أى من ذلك الذى خلقناه (ما نشاء) اتمامه (الى أجل مسمى) هو وقت الوضع وأدناه بعد ستة أشهر وأقصاه آخر أربع سنين بحسب قوة الارحام وضعفها وقوة المخلقات وضعفها وكثرة تغذيه من الدماء وقلته الى غير ذلك من أحوال وشؤن لا يعلمها الا بارئها جلت قدرته وتعالت عظمته وما لم نشأ اقراره مجته الارحام وأسقطته دون التمام أو تحرقه فيضمحل المرتبة الخامسة قوله تعالى (ثم نخرجكم طفلا) وهو معطوف على نبين ومعناه خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين أحدهما أن نبين قدرتنا والثانى أن نقر فى الارحام من نقر حتى تولدوا فى حال الطفولية من صغر الجثة وضعف البدن والسمع والبصر وجميع الحواس لئلا تهلكوا أمهاتكم بكبر أجرامكم وعظم أجسامكم المرتبة السادسة قوله تعالى (ثم) أى نمد أجلكم (لتبلغوا) بهذا الانتقال فى أسنان الاجسام من الرضاع الى المراهقة الى البلوغ الى الكهولة (أشدكم) أى الكمال والقوة وهو ما بين الثلاثين الى الاربعين جمع شدة كالانعم جمع نعمة كأنه شدة فى الامور المرتبة السابعة قوله تعالى (ومنكم من يتوفى) أى عند بلوغ الاشد أو قبله (ومنكم من يرد) بالشيخوخة وبناه للمجهول اشارة الى سهولته عليه لاستبعاده لولا تكرار المشاهدة عند الناظر لتلك القوة والنشاط

وحسن التواصل بين أعضائه والارتباط (الى أرذل) أى أخس (العمر) وهو سن الهرم فينقص جميع قواه (لكيلا يعلم من بعد علم) كان أوتيه (شيأ) أى ليعود كهيئته الاولى فى أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ماعلمه وينكر من عرفه حتى يسأل عنه من ساعته يقول لك من هذا فتقول فلان فمايلبث لحظة الاسألك عنه (فان قيل) هذه الحالة لاتحصل للمؤمنين لقوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (أجيب) بأن معنى قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين هو دلالة على الذم فالمراد به مايجرى مجرى العقوبة ولذلك قال تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكن قال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر الى هذه الحالة وقد علم بعود الانسان فى ذهاب العلم وصغر الجسم الى نحو ما كان عليه فى ابتداء الخلق قطعا أن الذى أعاده الى ذلك قادر على اعادته بعد الممات * ولما تم هذا الدليل على الساعة بحكم المقدمات وأصح النتائج وكان أول الايجاد فيه غير مشاهد ذكر الله تعالى دليلا آخر على البعث مشاهدا بقوله (وترى الارض هامدة) أى يابسة ساكنة سكون الميت (فاذا أنزلنا) أى بمالنا من القدرة (عليها الماء اهتزت) أى تحركت وتأهلت لاخراج النبات (وربت) أى ارتفعت وذلك أول مايظهر منها للعين وزادت ونمت بما يخرج منها من النبات الناشئ عن التراب والماء وقوله تعالى (وأنبتت) مجاز لان الله تعالى هو المنبت وأضيف الى الارض توسعا أى أنبتت بتقديرنا لأنها المنبتة (من كل زوج) أى صنف (بهيج) أى حسن نضير من أشتات النبات فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ومقاديرها قال الجلال المحلى من زائدة ولم أر من ذكر ذلك من المفسرين *(تنبيه)* فى الآية اشارة الى أن النبات كما يتوجه من نقص الى كمال فكذلك الانسان المؤمن يترقى من نقص الى كمال ففى المعاد يصل الى كماله الذى أعدله من البقاء والغنى والعلم والصفاء والخلود فى دار السلام مبرأ عن عوارض هذا العالم * ولما قرر سبحانه هذين الدليلين رتب عليهما ماهو المطلوب والنتيجة وذكر أمورا خمسة أحدها قوله تعالى (ذلك) أى المذكور من بدء الخلق الى آخر احياء الارض (بأن) أى بسبب أن تعلموا أن (الله) أى الجامع لأوصاف الكمال (هو) أى وحده (الحق) أى الثابت الدائم وماسواه فان ثانيها قوله تعالى (وأنه يحيى الموتى) أى قادر على ذلك والالما أحيا النطفة والارض الميتة ثالثها قوله تعالى (وأنه على كل شئ) من الخلق وغيره (قدير) انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون رابعها قوله تعالى (وأن الساعة) التى تقدم ذكرها وتقدم التحذير منها وهى حشر الخلائق كلهم (آتية لاريب) أى لاشك (فيها) أى بوجه من الوجوه مما دل عليها الاسبيل الى انكاره بقول من لامرد لقوله وهو حكيم لايخلف ميعاده ولايسوغ بوجه أن يترك عباده بغير حساب خامسها قوله تعالى (وأن الله يبعث) بالاحياء (من فى القبور) بمقتضى وعده الذى لايقبل الخلف وقد وعد الساعة والبعث فلابد أن يفى بما وعد * ونزل فى أبى جهل بن هشام كما قاله ابن عباس (ومن الناس من يجادل) أى بغاية

جهده (فى الله) أى فى قدرته وما يجمعه هذا الاسم الشريف من صفاته بعد هذا البيان الذى لا مثل له ولا خفاء فيه (بغير علم) أتاه عن الله تعالى على لسان أحد من أصفيائه أعم من أن يكون كتابا أو غيره (ولا هدى) أرشده اليه أعم من كونه بضرورة أو استدلال (ولا كتاب منير) له نور منه صح لديه انه من الله تعالى ومن المعلوم أنه بانتفاء هذه الثلاثة لا يكون جداله الا باطلا وقيل قوله تعالى ومن الناس كرر كما كررت سائر الاقاصيص وقيل الاول فى المقلدين وهذا فى المقلدين وقوله تعالى (ثانى عطفه) حال أى لاوى عنقه تكبرا عن الايمان كما قال تعالى واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا والعطف فى الاصل الجانب عن يمين أو شمال وقوله تعالى (ليضل عن سبيل الله) علة للجدال وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بضمها (فان قيل) على قراءة الضم ما كان غرضه فى جداله الضلال لغيره عن سبيل الله فكيف علل به وما كان على قراءة الفتح مهتديا حتى اذا جادل خرج بالجدال عن الهدى الى الضلال (أجيب) عن الاول بأن جداله لما أدى الى الضلال جعل كأنه غرضه وعن الثانى بأن الهدى لما كان معرضا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال الباطل جعل كالخارج من الهدى الى الضلال * ولما ذكر فعله وغرته ذكر ما أعدله عليه فى الدنيا بقوله تعالى (له فى الدنيا خزى) أى اهانة وذل وان طال زمن استدراجه بتنعيمه حق على الله أن لا يرفع شيأ من الدنيا الا وضعه وما أعدله عليه فى الآخرة بقوله تعالى (ونذيقه يوم القيامة) الذى يجمع فيه الخلائق بالاحياء بعد الموت (عذاب الحريق) أى الاحراق بالنار وعن الحسن قال بلغنى أن أحدهم يحرق فى اليوم سبعين ألف مرة و يقال له حقيقة أو مجازا (ذلك) أى العذاب العظيم (بما قدمت يداك) اى بعملك ولكن جرت عادة العرب أن تضيف الاعمال الى اليد لانها آلة أكثر العمل واضافة ما يؤدى اليهما أنكى (وأن) أى وبسبب ان (الله ليس بظلام) أى بذى ظلم ما (للعبيد) وانما هو مجازاة لهم على أعمالهم أو ان المبالغة لكثرة العبيد * ونزل فى قوم من الاعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم اذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهرا او ولدت امرأته غلاما وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت به خيرا واطمأن به وان كان الامر بخلافه قال ما أصبت الا شرا فينقلب عن دينه (ومن الناس من يعبد الله) أى يعمل على سبيل الاستمرار والتجدد بما أمر الله به من طاعته (على حرف) فهو متزلزل كمنزلة من يكون على حرف شفير أو جبل أو غيره لا استقرار له وكالذى على طرف من العسكر فان رأى غنيمة استمر وان توهم خوفا طار وفر وذلك معنى قوله تعالى (فان أصابه خير) أى من الدنيا (اطمأن به) أى بسببه وثبت على ما هو عليه (وان أصابته فتنة) أى محنة وسقم فى نفسه وماله (انقلب على وجهه) أى رجع الى الكفر وعن أبى سعيد الخدرى أن رجلا من اليهود أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالاسلام فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أقلنى فقال ان الاسلام لا يقال فنزلت * ولما كان انقلابه هذا مفسدة لدنياه ولآخرته قال تعالى (خسر الدنيا) بفوات ما أمله منها ويكون ذلك سبب التقتير عليه قال تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا

من فوقهم ومن تحت أرجلهم وروى ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه (والآخرة) بالكفر ثم عظم مصيبته بقوله تعالى (ذلك) أى الامر العظيم (هو) أى لاغيره (الخسران المبين) أى البين اذ لا خسران مثله ثم بين هذا الخسران الذى ردّه الى ما كان فيه قبل الايمان الحرفى بقوله تعالى (يدعو) أى يعبد حقيقة أو مجازا (من دون الله) أى غيره من الصنم (مالا يضرّه) ان لم يعبده (ومالا ينفعه) ان عبده (ذلك) أى الدعاء (هو الضلال البعيد) عن الحق والرشاد استعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد فى التيه ضالا فطالت وبعدت مسافة ضلاله * ولما كان الاحسان جالبا للانسان لان القلوب جبلت على حب من أحسن اليها بين ان ما قيل فى جلب النفع انما هو على سبيل الفرض فقال تعالى (يدعو لمن) أى من (ضرّه) بكونه معبودا لانه يوجب القتل والخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (أقرب من نفعه) الذى يتوقع منه بعبادته وهو الشفاعة والتوسل بها الى الله تعالى * (تنبيه) * علم مما تقرّر أن اللام فى لمن مزيدة كما قال الجلال المحلى (فان قيل) الضرر والنفع منفيان عن الاصنام مثبتان لها فى الآيتين وهذا متناقض (أجيب) بان المعنى اذا حصل ذهب هذا الوهم وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جمادا لا يملك ضرّا ولا نفعا وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه ينتفع به حين يستشفع به ثم يوم القيامة يقوم هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالاصنام ودخوله النار بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التى ادّعاها لها وقيل الآية الاولى فى الاصنام والثانية فى الرؤساء وهم الذين كانوا يفزعون اليهم بدليل قوله تعالى (لبئس المولى) أى الناصر هو (ولبئس العشير) أى الصاحب هو قال الرازى وهذا الوصف بالرؤساء أليق لان ذلك لا يكاد يستعمل فى الاوثان فبين تعالى أنهم يعدلون عن عبادة الله الى عبادة الاصنام والى طاعة الرؤساء * ولما بين سبحانه وتعالى حال الكفار عقبه بحال المؤمنين بقوله تعالى (ان الله) أى الجامع لجميع صفات الكمال المنزه عن جميع شوائب النقص (يدخل الذين آمنوا) بالله ورسله (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم فى الايمان (جنات تجرى من تحتها) أى فى أى مكان من أرضها (الانهار) * ولما بين سبحانه وتعالى حال الفريقين قال تعالى (ان الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يفعل ما يريد) من اكرام من يطيعه واهانة من يعصيه لا دافع له ولا مانع وقوله تعالى (من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة) فيه اختصار والمعنى ان الله ناصر رسوله فى الدنيا والآخرة فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه فالضمير راجع الى النبى صلى الله عليه وسلم (فان قيل) لم يجر له ذكر فى هذه الآية (أجيب) بأن فيها ما يدل عليه وهو ذكر الايمان فى قوله تعالى ان الله يدخل الذين آمنوا والايمان لا يتم الا بالله ورسوله وقيل الضمير راجع الى من فى أول الآية لانه المذكور ومن حق الكناية أن ترجع الى المذكور اذا أمكن ذلك وعلى هذا المراد بالنصر الرزق قال أبو عبيدة وقف علينا سائل من بنى بكر فقال من ينصرنى نصره الله أى من يعطى أعطاه الله فكأنه قال من كان يظن أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة (فليمدد بسبب) أى

بحبل (الى السماء) أى سقف بيته يشدّ بينه وبين عنقه (ثم ليقطع) أى ليختنق به بأن يقطع نفسه من الارض كما فى الصحاح وقيل فليمدد حبلا الى سماء الدنيا ثم ليصعد عليه فيجتهد فى دفع نصر النبى صلى الله عليه وسلم على الاول أو يحصل رزقه على الثانى وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام والباقون بسكونها (فلينظر) ببصره وبصيرته (هل يذهبن) وان اجتهد (كيده) فى عدم نصرة النبى صلى الله عليه وسلم أو فى تحصيل رزقه (ما يغيظ) من ذلك والمعنى فليختنق غيظا فلا بدّ من نصرته صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته أو ان ذلك لا يغلب القسمة فان الارزاق بيد الله لا تنال الا بمشيئة الله سبحانه وتعالى وهذا كما يقال لمن أدبر عنه أمر فجزع اضرب برأسك الجدار ان لم ترض هذا مت غيظا ونحو ذلك والحاصل انه ان لم يصبر طوعا صبر كرها واختلف فى سبب نزول هذه الآية على القول الاول فذكروا فيها وجوها أحدها كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم على الكفار يستبطؤن ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت ثانيها قال مقاتل نزلت فى نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف أن الله لا ينصر محمدا فينقطع الذى بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا ثالثها ان حساده وأعداءه كثيرة وكانوا يتوقعون أن لا ينصره وأن لا يعينه على أعدائه فتى شاهدوا أن الله نصره غاظهم ذلك (وكذلك) أى ومثل ما أنزلنا هذه الآيات لبيان حكمها واظهار أسرارها (أنزلناه) أى القرآن الباقى وقوله تعالى (آيات بينات) أى معجزا نظمها كما كان معجزا حكمها حال وقوله تعالى (وأن الله) أى الموصوف بالاكرام كما هو موصوف بالانتقام (يهدى) أى بآياته (من يريد) أى هدايته أى يثبته على الهدى معطوف على محل أنزلناه * ولما قال تعالى وأن الله يهدى من يريد أتبعه ببيان من يهديه ومن لا يهديه وبدأ بالقسم الاول بقوله (ان الذين آمنوا) بالله ورسوله وعبر بالفعل ليشمل الاقرار باللسان الذى هو أدنى وجوه الايمان ثم شرع فى القسم الثانى بقوله تعالى (والذين هادوا) أى انتحلوا دين اليهودية (والصابئين) وهم فرقة من النصارى سميت بذلك قيل لنسبتها الى صابئ عم نوح عليه السلام وقيل لخروجهم عن دين الى دين آخر واطلاق الصابئة على هذا هو المشهور وتارة يوافقونهم فى أصول دينهم فتحل مناكحتهم وتارة يخالفونهم فلا تحل مناكحتهم وتطلق أيضا على قوم أقدم من النصارى يعبدون الكواكب السبعة ويضيفون الآثار اليها وينفون الصانع المختار فهؤلاء لا تحل مناكحتهم وقد أفتى الاصطخرى والمحاملى بقتلهم لما استفتى القاهر الفقهاء فيهم فبذلوا له أموالا كثيرة فتركهم والبلاء قديم وقرأ نافع بالياء التحتية بعد الباء والباقون بهمزة مكسورة بعد الباء الموحدة (والنصارى) أى الذين انتحلوا دين النصرانية (والمجوس) قال قتادة هم عبدة الشمس والقمر والنيران قال (والذين اشركوا) هم عبدة الاوثان قال مقاتل الاديان كلها ستة واحد للرحمن وهو الاسلام وخمسة للشيطان وقيل خمسة أربعة للشيطان وواحد للرحمن بجعل الصابئين مع النصارى لانهم فرع منهم كما مرّ على المشهور وقد تقدم الكلام على هذه الآية فى سورة البقرة (ان الله) الذى هو أحكم الحاكمين (يفصل بينهم يوم القيامة) بادخال المؤمنين الجنة وغيرهم النار وأدخلت ان

على كل واحد من جزأى الجملة لزيادة التأكيد ونحوه قول جرير

ان الخليفة ان الله سربله * سربال ملك به ترجى الخواتيم

ثم علل ذلك بقوله تعالى (ان الله) أى الجامع لجميع صفات الكمال (على كل شئ) من الاشياء كلها (شهيد) أى عالم به علم مشاهدة (ألم تر) أى تعلم (أن الله يسجد له) أى يخضع منقادا لامره سبحانه مسخرا لما يريد منه تسخير من هو فى غاية الاجتهاد فى العبادة والاخلاص فيها (من فى السموات ومن فى الارض) ان خصصت بذلك العاقل أفهم خضوع غيره من باب أولى وان ادخلت غير العاقل فبالتغليب ثم أتبعه بأشرف ماذكر مما لا يعقل لان كلا منها عبد من دون الله أو عبد شئ منه فقال تعالى (والشمس والقمر والنجوم) من الاجرام العلوية فعبد الشمس حمير والقمر كنانة والدبران تميم والشعرى لخم والثريا طئ وعطارد أسد قاله أبو حيان روى عن عمرو بن دينار قال سمعت رجلا يطوف بالبيت ويبكى فاذا هو طاوس فقال أعجبت من بكائى قلت نعم قال ورب الكعبة ان هذا القمر ليبكى من خشية الله ولا ذنب له * ثم أتبع ذلك أعلى الذوات السفلية فقال (والجبال) أى التى قد نحتت منها الاصنام (والشجر) أى التى عبد بعضها (والدواب) أى التى عبد منها البقر كل هذه الاشياء تنقاد لامر الله ولا تأبى عن تدبيره (وكثير من الناس) وهم المؤمنون بزيادة الخضوع سجد سجودا هو منه عبادة مشروعة تحق له الثواب (وكثير) أى من الناس (حق عليه العذاب) وهم الكافرون لانهم أبوا السجود المتوقف على الايمان (ومن يهن الله) أى يشقه (فماله من مكرم) أى مسعد لانه لا قدرة لغيره أصلا (ان الله) أى الملك الاعظم (يفعل ما يشاء) من الاكرام والاهانة لا مانع له من ذلك نقل عن على رضى الله تعالى عنه أنه قيل له ان رجلا يتكلم فى المشيئة فقال له على يا عبد الله خلقك الله لما يشاء أو لما شئت قال بل لما يشاء قال فيمرضك اذا شاء أو اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيشفيك اذا شاء أو اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء قال بل حيث يشاء قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذى فيه عيناك بالسيف * ولما بين تعالى أن الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكر كيفية اختصامهم بقوله تعالى (هذان خصمان) أى المؤمنون خصم والكفار الخمسة خصم وهو يطلق على الواحد والجماعة وقرأ ابن كثير بتشديد النون والباقون بالتخفيف (اختصموا) أى أوقعوا الخصومة بغاية الجهد (فى ربهم) أى دينه وروى عن قيس بن عباد قال سمعت أبا ذر يقسم قسما ان هذه الآية هذان خصمان اختصموا فى ربهم نزلت فى الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة أخرجاه فى الصحيحين وعن ابن عباس قال لما بارز على وحمزة وعبيدة عتبة وشيبة والوليد قالوا لهم تكلموا نعرفكم قال أنا على وهذا حمزة وهذا عبيدة فقالوا أكفاء كرام فقال على أدعوكم الى الله والى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال عتبة هلم للمبارزة فبارز على شيبة فلم يلبث أن قتله وبارز حمزة عتبة فقتله وبارز عبيدة الوليد فصعق عليه فأتى على فقتله فنزلت وعن قتادة نزلت الآية فى المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب

نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم قال المسلمون كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء فنحن أولى بالله منكم وعن ابن عباس أنها نزلت كذلك لكن قال أهل الكتاب نحن أولى بالله وأقدم بين يديكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن أحق بالله منكم آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وانكم تعرفون نبينا وكتابنا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فهذه خصومتهم في ربهم وقيل المؤمنون والكافرون من أي ملة كانوا فالمؤمنون خصم والكفار خصم وقيل الخصمان الجنة والنار لما روى عن أبي هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فالى لايدخلني الا ضعفاء الناس وسقطهم فقال الله عز وجل للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار انما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها وعن عكرمة فقالت النار خلقني الله لعقوبته وقالت الجنة خلقني الله لرحمته وهذا القول بعيد عن السياق لان الله تعالى ذكر جزاء الخصمين بقوله تعالى (فالذين كفروا) وهو الفصل بينهم المعنى بقوله تعالى ان الله يفصل بينهم يوم القيامة (قطعت) أي قدرت (لهم) على تقادير جثثهم (ثياب من نار) أي نيران تحيط بهم احاطة الثياب سابغة عليهم كما كانوا يسبلون الثياب في الدنيا تفاخرا وتكبرا وعن ابراهيم التيمي أنه قال سبحان من قطع من النار ثيابا وعن سعيد بن جبير قال قطعت من نحاس وليس من الآنية شيء اذا حمي أشد حرارة منه وقال في قوله (يصب) أي اذا دخلوها (من فوق رؤسهم الحميم) قال ابن النحاس يذاب على رؤسهم ولكن المشهور أنه الماء الحار وعن ابن عباس لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها والجملة حال من الضمير في لهم أو خبر ثان وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وقرأ حمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم هذا في الوصل فان وقف على رؤسهم فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم وحمزة على أصله في الوقف على رؤسهم بتسهيل الهمزة (يصهر) أي يذاب (به) من شدة حرارته (ما في بطونهم) من شحم وغيره (والجلود) فيكون أثره في الباطن والظاهر سواء وقال ابن عباس يسقون ماء اذا دخل بطونهم أذابها والجلود مع البطون (ولهم مقامع) جمع مقمعة بكسر ثم فتح وهو عمود حديد وقيل سوط يضرب به الوجه والرأس ليرد المضروب عن مراده ردا عنيفا ثم نفى المجاز بقوله تعالى (من حديد) أي يقمعون بها روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن مقمعا من حديد وضع في الارض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الارض ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان (كلما أرادوا أن يخرجوا منها) أي من تلك الثياب أو من النار (من غم) أي كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفسهم (أعيدوا فيها) أي ردوا اليها بالمقامع وعن الحسن أنهم يضربون بلهب النار فترفعهم حتى اذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا وعن الفضيل بن عياض قال والله ماطمعوا في الخروج لان الارجل مقيدة والايدي

موثقة ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها وعن الحسن قال كان عمر يقول أكثروا ذكر النار فان حرها شديد وقعرها بعيد وان مقامعها من حديد (و) قيل لهم (ذوقوا عذاب الحريق) أى البالغ نهاية الاحراق * ولما ذكر تعالى ما لأحد الخصمين وهم الكافرون أتبعه ما للآخر وهم المؤمنون وغير الاسلوب فيه حيث لم يقل والذين آمنوا عطفا على الذين كفروا وأسند الادخال فيه الى الله تعالى وأكده بان احمادا لحال المؤمنين وتعظيما لشأنهم فقال (ان الله) أى الذى له الامر كله (يدخل الذين آمنوا) بالله ورسله (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم فى الايمان (جنات تجرى) أى دائما (من تحتها الانهار) أى المياه الواسعة أينما أردت من أرضها جرى لك نهر فى مقابلة ما يجرى من فوق رؤس أهل النار عن معاوية عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الانهار بعد أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح (يحلون فيها) من حليت المرأة اذا لبست الحلى فى مقابلة ما ازال من بواطن الكفرة وظواهرهم وقوله تعالى (من أساور) صفة مفعول محذوف أى حليا من أساور ومن زائدة أو تبعضية وأساور جمع أسورة وهى جمع سوار * ولما كان المقصود الحث على التقوى المعلية الى الانعام بالفضل شوق اليه بأعلى ما يعرف من الحلية فقال (من ذهب) وقوله تعالى (ولؤلؤ) معطوف على أساور لا على ذهب لانه لم يعهد السوار منه الا أن يراد المرصعة وعن أبى موسى الاشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الارداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن وعن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عليهم التيجان أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وقرأ نافع وعاصم بنصب الهمزة الثانية مع التنوين عطفا على محل أساور أو اضمار الناصب مثل ويؤتون والباقون بالخفض مع التنوين وابدل الهمزة الاولى الساكنة حرف مد السوسى وأبو بكر هذا حالة الوصل وأما الوقف فحمزة يبدل الاولى واوا وكذا الثانية تبدل واوا وله أيضا فيها الروم وقوله تعالى (ولباسهم فيها حرير) وهو الابريسم المحرم لبسه على الرجال المكلفين فى الدنيا فى مقابلة ثياب الكفار كما كان لباس الكفار فى الدنيا حريرا ولباس المؤمنين دون ذلك وقد ورد فى الصحيحين عن عبد الله ابن الزبير عن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا تلبسوا الحرير فان من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة قال ابن كثير قال عبد الله بن الزبير ومن لم يلبس الحرير فى الآخرة لم يدخل الجنة قال الله تعالى ولباسهم فيها حرير انتهى وفى الصحيحين أيضا عن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال انما يلبس هذه من لا خلاق له فى الآخرة قال البقاعى فيوشك المتشبه بالكفار فى لباسهم أن يلحقه الله بهم فلا يموت مسلما اه والاولى أن يحمل ذلك على أنه لا يلبسه مع السابقين فان من مات على الاسلام لا بد من دخوله الجنة أو على من استحله من الرجال المكلفين (وهدوا) أى فى الدنيا (الى الطيب من القول) قال ابن عباس

هو شهادة أن لا اله الا الله وقيل هو لا اله الا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله وقال السدى هو القرآن وقال عطاء هو قول أهل الجنة الحمد لله الذى صدقنا وعده (وهدوا الى صراط الحميد) أى طريق الله المحمود ودينه فكان فعلهم حسنا كما كان قولهم حسنا فدخلوا الجنة التى هى أشرف دار عند خير جار وحلوا فيها أشرف الحلى كما تحلوا فى الدنيا بأشرف الطرائق عكس الكفار فانهم آثروا الفانى لحضوره وأعرضوا عن الباقى مع شرفه لغيابه فدخلوا نارا كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ثم ذكر تعالى بعد ما فصل بين الفريقين حرمة البيت وعظم جرم من صد عنه فقال تعالى (ان الذين كفروا) أى أوقعوا هذا الفعل الخبيث وصح عطف (ويصدون) وان كان مضارعا على الماضى لان المضارع قد لا يلاحظ منه زمان معين من حال أو استقبال بل يكون المقصود منه الدلالة على مجرد الاستمرار كما يقال فلان يحسن الى الفقراء لا يراد حال ولا استقبال وانما يراد استمرار وجود الاحسان منه فالصدود منهم مستمر دائم للناس (عن سبيل الله) أى عن طاعته باقتسامهم طرق مكة يقول بعضهم لمن يريد به خرج فينا ساحر وآخر يقول شاعر وآخر يقول كاهن فلا تسمعوا منه فانه يريد أن يردكم عن دينكم حتى قال من أسلم لم يزالوا بى حتى جعلت فى أذنى الكرسف مخافة أن أسمع شيأ من كلامهم وكانوا يؤذون من أسلم الى غير ذلك من أعمالهم (و) يصدون عن (المسجد الحرام) أن تقام شعائره من الطواف بالبيت والصلاة والحج والاعتمار ممن هو أهل ذلك من أوليائنا ثم وصفه بما يبين شديد ظلمهم فى الصد عنه بقوله تعالى (الذى جعلناه) بما لنا من العظمة (للناس) أى كلهم ثم بين جعله لهم بقوله تعالى (سواء العاكف) أى المقيم (فيه والباد) أى الطارئ من البادية وهو الجائى اليه من غربة وقال بعضهم يدخل فى العاكف الغريب اذا جاء للتعبد وان لم يكن من أهله قال الزمخشرى وقد استشهد به أصحاب أبى حنيفة قائلين ان المراد بالمسجد الحرام مكة على امتناع جواز بيع دور مكة واجارتها انتهى وأيضا هو مذهب ابن عمر وعمر ابن عبد العزيز واسحق الحنظلى المعروف بابن راهويه قال البيضاوى وهو مع ضعفه معارض بقوله تعالى الذين أخرجوا من ديارهم الآية وشرى عمر دار السجن فيها من غير نكير انتهى ووجه الرازى الضعف بقوله لان العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام أو فى الاكثر فلا يلزم ما ذكر ويحتمل أن يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن فى كل وقت من الاوقات من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات انتهى واستدل أيضا للجواز بقوله صلى الله عليه وسلم لما قال له أسامة بن زيد يا رسول الله أتنزل غدا بدارك بمكة فقال وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور وكان عقيل ورث أبا طالب دون على وجعفر لانهما كانا مسلمين ولا يورث الا ما كان الميت مالكا له قال الرويانى ويكره بيعها واجارتها للخروج من الخلاف ونازعه النووى فى مجموعه وقال انه خلاف الاولى لانه لم يرد فيه نهى مقصود والاول كما قال الزركشى هو المنصوص بل اعترض على النووى فانه صرح بكراهة بيع المصحف والشطرنج ولم يرد فى ذلك نهى مقصود * (تنبيه) * محل الخلاف بين العلماء

في بيع نفس الارض أما البناء فهو مملوك يجوز بيعه بلا خلاف أى اذا لم يكن من أجزاء أرضها قيل ان اسحق الحنظلي ناظر الشافعي رضى الله تعالى عنه بمكة في بيع دور مكة فاستدل الشافعي بعامر. واستدل هو على المنع بقوله حدثني بعض التابعين بأنها الاتباع فقال له الشافعي لو قام غيرك مقامك لأمرت بفرك أذنيه أقول لك قال الله ورسوله تقول حدثني بعض التابعين وقال الرازى فقال اسحق فلما علمت أن الحجة لزمتني تركت قولي وقرأ حفص سواء بالنصب على أنه ثاني مفعولي جعلناه أى جعلناه مستويا العاكف فيه والباد والباقون بالرفع على ان الجملة مفعول ثان لجعلناه ويكون للناس حالا من الهاء ويصح أن يكون حالا من المستكن في للناس بجعله مفعولا ثانيا لجعلنا وقرأ ورش وأبو عمرو البادى باثبات الياء بعد الدال وصلا لا وقفا وأثبتها ابن كثير وقفا ووصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا (ومن يرد فيه) أى المسجد الحرام (بالحاد بظلم) أى بميل الى الظلم والالحاد العدول عن القصد وأصله الحاد الحافر وقيل الالحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله وقيل هو كل شئ منهى عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم وقيل هو دخول الحرم بغير احرام أو ارتكاب شئ من محظورات الاحرام من قتل صيد أو قطع شجر وقال ابن عباس هو أن تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم فيه من لا يظلمك وقال مجاهد هو تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقال سعيد بن جبير احتكار الطعام بمكة بدليل ما روى يعلى بن أمية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان احتكار الطعام في الحرم الحاد وعن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله بلى والله وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فاذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل فقيل له فقال كنا نحدث أن من الالحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله * (تنبيه) * قوله بالحاد بظلم حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما (نذقه من عذاب أليم) أى مؤلم أى بعضه وخبر ان محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم فكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك فينبغي لمن كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده * ولما ذكر تعالى الفريقين وجزاء كل وختمه بذكر البيت أتبعه التذكير به فقال تعالى (واذ) أى واذكر اذ (بوّأنا لابراهيم مكان البيت) أى جعلنا له مكان البيت مبوّأ أى مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة فان البيت رفع الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله ابراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج كشفت ما حوله فبناه على اسه القديم وقيل بعث الله تعالى له سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا ابراهيم ابن على دورى فبنى عليه وعن عطاء بن أبي رباح قال لما أهبط الله آدم عليه السلام كان رجلاه في الارض ورأسه في السماء يسمع تسبيح أهل السماء ودعاءهم وأنس اليهم فهابت الملائكة منه حتى شكت الى الله تعالى في دعائها وقيل في صلاتها فأخفضه الله تعالى الى الارض فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش وقيل أول من بنى البيت ابراهيم لما روى وورد

في الصحيحين عن أبي ذر قال قلت يارسول الله أي مسجد وضع أولا قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال بيت المقدس قلت كم بينهما قال أربعون سنة ثم فسر التبوئة بقوله تعالى (أن لا تشرك بي شيأ) فاشد أباس العبادة ورأسها وعطف على النهي قوله تعالى (وطهر بيتي) أي عن كل ما لا يليق به من الاوثان والاقذار وطواف عريان به كما كانت العرب تفعل (للطائفين) أي الذين يطوفون بالبيت (فان قيل) كيف يكون النهي عن الشرك والامر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة (أجيب) بأن التبوئة لما كانت مقصودة من أجل العبادة فكأنه قيل تعبدنا ابراهيم قلنا له لا تشرك بي شيأ وطهر بيتي للطائفين وقال ابن عباس للطائفين بالبيت من غير أهله (والقائمين) أي المقيمين (والركع السجود) أي المصلين من الكل وقال غيره القائمين هم المصلون لان المصلي لابد أن يكون في صلاته جامعا بين القيام والركوع والسجود قال البيضاوي ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت (وأذن في الناس) أي أعلمهم وناد فيهم (بالحج) وهو قصد البيت على سبيل التكرار للعبادة المخصوصة بالمشاعر المنصوصة وفي المأمور بذلك قولان أحدهما وعليه أكثر المفسرين أنه ابراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ من بناء البيت قال الله تعالى له أذن في الناس بالحج قال يارب وما يبلغ صوتي قال عليك الاذان وعلي البلاغ فصعد ابراهيم الصفا وفي رواية أخرى أبا قبيس وفي أخرى على المقام قال ابراهيم كيف أقول قال جبريل قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى وفي رواية أخرى صعد على الصفا فقال يا أيها الناس ان الله كتب عليكم حج هذا البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والارض فما بقي شيء سمع صوته الا أقبل يلبي يقول لبيك اللهم لبيك وفي رواية أخرى ان الله يدعوكم الى حج بيته الحرام ليثيبكم به الجنة ويجيركم من النار فاجابه يومئذ من كان في اصلاب الرجال وأرحام النساء وكل من وصل اليه صوته من حجر أو شجر أو آنية أو تراب قال مجاهد فما حج انسان ولا يحج أحد حتى تقوم الساعة الا وقد أسمعه ذلك النداء فمن أجاب مرة حج مرة ومن أجاب مرتين أو أكثر فيحج مرتين أو أكثر بذلك المقدار وفي رواية فنادى على جبل أبي قبيس يا أيها الناس ان ربكم بنى بيتا وأوجب الحج عليكم اليه فأجيبوا ربكم والتفت بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا فأجابه كل من كتب له أن يحج من أصلاب الرجال وأرحام الامهات لبيك اللهم لبيك وعن ابن عباس قال لما أمر الله ابراهيم بالاذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى القول الثاني ان المأمور بذلك هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختاره أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بأن ما جاء في القرآن وأمكن حمله على أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو أولى لان قوله تعالى واذ بوأنا تقديره واذكر يا محمد اذ بوأنا فهو في حكم المذكور فاذا قال تعالى وأذن فاليه يرجع الخطاب أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع روى عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا وجواب الامر (يأتوك) أي يأتوا بيتك الذي بنيته لذلك مجيبين لصوتك بأذنيا سامعين طائعين مخبتين خاشعين من أقطار الارض كما

يجيبون صوت الداعي من قبلنا اذا دعاهم بعد الموت بمثل ذلك (رجالا) أي مشاة على أرجلهم جمع راجل كقائم وقيام (و) ركبانا (على كل ضامر) أي بعير مهزول وهو يطلق على الذكر والانثى *(تنبيه)* على كل ضامر حال معطوف على حال كأنه قال رجالا وركبانا وقوله تعالى (يأتين) صفة لكل ضامر لانه في معنى الجمع (من كل فج) أي طريق واسع بين جبلين (عميق) أي بعيد روى سعيد بن جبير باسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشي سبعمائة من حسنات الحرم قيل يا رسول الله وما حسنات الحرم قال كل حسنة بمائة ألف حسنة وفي هذا دلالة على أن المشي أفضل من الركوب وفي ذلك خلاف بين الائمة محله كتب الفقه * ولما كان الانسان ميالا الى الفوائد متشوفا الى جميل العوائد علل الاتيان بما يرغبه سبحانه في فضله مما يقصده من امر المعاش بقوله تعالى (ليشهدوا) أي ليحضروا حضورا تاما (منافع لهم) واختلف في تلك المنافع فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهي أن يتجروا في أيام الحج وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو كما قال الرازي أولى فيأتون لتلك المنافع ينتقلون من مشعر من مشاعر الحج الى مشعر ومن مشهد الى مشهد مجموعين بالدعوة خاشعين بالهيبة خائفين من السطوة راجين للمغفرة ثم يتفرقون الى منازلهم ومواطنهم ويتوجهون الى مساكنهم كالسائرين الى مواقف الحشر يوم البعث والنشر المتفرقين الى داري النعيم والجحيم فيا أيها المصدقون بأن خليلنا ابراهيم عليه السلام نادى بالحج فأجابه بقدرتنا كرامة له من أراد الله تعالى حجه على بعد أقطارهم وتنائي ديارهم ممن كان موجودا في ذلك الزمان وممن كان في ظهور الآباء والامهات الاقربين والابعدين صدقوا ان الداعي من قبلنا بالنفخ في الصور يجيبه كل من كان على ظهرها ممن حفظنا له جسده أو سلطنا عليه الارض فمزقناه حتى صار ترابا وما بين ذلك لان الكل علينا يسير قال الزمخشري وعن أبي حنيفة رحمه الله انه كان يفاضل بين العبادات كلها قبل أن يحج فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص * ولما كانت المنافع لا تطيب ولا تثمر الا بالتقوى وكان الحامل على التقوى ذكر الله تعالى قال تعالى (ويذكروا اسم الله) أي الجامع لجميع الكمالات بالتكبير وغيره عند الذبح وغيره وقيل كنى بالذكر عن الذبح لان ذبح المسلمين لا ينفك عنه تنبيها على ان المقصود مما يتقرب به الى الله تعالى أن يذكر اسمه * واختلف في الايام المعلومات في قوله تعالى (في أيام معلومات) فالذي عليه أكثر المفسرين وهو اختيار الشافعي وأبي حنيفة أنه عشر ذي الحجة واحتجوا بأنها معلومة عند الناس بحرصهم على علمها من أجل أن وقت الحج في آخرها ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة والمشعر الحرام ولتلك الذبائح وقت منها وهو يوم النحر وعن ابن عباس أنها أيام التشريق وقيل يوم عرفة الى آخر أيام التشريق وقيل يوم النحر الى آخر أيام التشريق واستدل لهذا بقوله تعالى (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) وهي الابل والبقر والغنم من الهدايا والضحايا أي يذكروا اسم الله تعالى عند نحرها ونحر الضحايا والهدايا يكون في هذه الايام وتقدم الكلام على الايام المعدودات في سورة البقرة عند قوله تعالى واذكروا الله

فى أيام معدودات وقوله تعالى (فكلوا منها) أى من لحومها أمر اباحة وذلك أن الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هدايا هم شيأ فأمر الله تعالى بمخالفتهم واتفق العلماء على أن الهدى اذا كان تطوعا يجوز للمهدى أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روى عن جابر بن عبد الله فى قصة حجة الوداع فأتى على ببدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين بدنة ونحر على ما غبر أى ما بقى وأشركه فى بدنه ثم أمر من كل بدنة ببضعة أى بقطعة فجعلت فى قدر فطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها أخرجه مسلم واختلفوا فى الهدى الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بافساد الحج وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدى أن يأكل شيأ منه قال الشافعى رضى الله عنه لا يأكل منه شيأ وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر رضى الله عنهما لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال أحمد واسحق وقال مالك يأكل من هدى التمتع ومن كل هدى وجب عليه الا من فدية الاذى وجزاء الصيد والنذر وعن أصحاب أبى حنيفة أنه يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما وقوله تعالى (وأطعموا البائس) أى الذى أصابه بؤس أى شدة (الفقير) أى المحتاج أمر ايجاب وقد قيل به فى الاول (ثم ليقضوا تفثهم) أى يزيلوا أوساخهم وشعثهم كقص الشارب والاظفار ونتف الابط والاستحداد عند الاحلال (وليوفوا نذورهم) من الهدايا والضحايا (وليطوفوا) طواف الافاضة الذى به تمام التحلل (بالبيت العتيق) أى القديم لانه أول بيت وضع للناس وقال ابن عباس سمى عتيقا لان الله تعالى أعتقه من تسلط الجبابرة فكم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله تعالى منه (فان قيل) قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع (أجيب) بأنه ما قصد التسلط على البيت وانما تحصن به ابن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه ولما قصد التسلط عليه ابرهة فعل به ما فعل وقيل لان الله تعالى أعتقه من الغرق فانه رفع فى أيام الطوفان وقال مجاهد لانه لم يملك قط وقيل بيت كريم أى العتيق بمعنى الكريم من قولهم عتاق الخيل والطير والطواف ينقسم الى ثلاثة هذا ويدخل وقته بعد الوقوف وهذا لا يجبر تركه بدم لانه ركن الثانى طواف الوداع ووقته عند ارادة السفر من مكة وهو واجب يجبر تركه بدم الثالث طواف القدوم وهو مستحب للحاج والحلال اذا قدم مكة روت عائشة رضى الله تعالى عنها ان أول شئ بدأ به حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم أنه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حج أبو بكر وعمر مثله وقرأ ابن ذكوان وليوفوا وليطوفوا بكسر اللام فيهما والباقون باسكانها وفتح أبو بكر الواو من وليوفوا وشدد الفاء وقوله تعالى (ذلك) خبر مبتدا مقدر أى الامر أو الشأن ذلك المذكور كما يقدم الكاتب جملة من كتابه فى بعض المعانى ثم اذا أراد الخوض فى معنى آخر قال هذا فقد كان كذا (ومن يعظم) أى بغاية جهده (حرمات الله) ذى الجلال والاكرام كلها وهى ما لا يحل انتهاكه من مناسك الحج وغيرها وقيل الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها اقامتها واتمامها وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم حتى يحل (فهو) أى

التعظيم الحامل له على امتثال الامر فيها على وجهه واجتناب المنهى عنه كالذبح بذكر اسم غير الله والطواف عريانا (خير) كائن (له عند ربه) أى الذى أسدى اليه كل ماهو فيه من النعم فى الآخرة ومن انتهكها فهو شر عليه عند ربه ثم انه تعالى بين أحكام الحج بقوله تعالى (وأحلت لكم الانعام) أى أكلها بعد الذبح وهى الابل والبقر والغنم (الا مايتلى) أى على سبيل التحذير مستمرا (عليكم) تحريمه فى قوله تعالى حرمت عليكم الميتة الآية فالاستثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا والتحريم لماعرض من الموت ونحوه فحافظوا على حدوده واياكم ان تحرموا مما أحل شيأ كتحريم عبدة الاوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك وأن تحلوا مما حرم الله شيأ كاحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك * ولما نهم من ذلك حل السوائب ومامعها وتحريم المذبوح للانصاب وكان سبب ذلك كله الاوثان تسبب عنه قوله تعالى (فاجتنبوا) أى بغاية الجهد اقتداء بأبيكم ابراهيم عليه السلام الذى تقدم الايصاء له بمثل ذلك عند جعل البيت له مباءة (الرجس) أى القذر الذى من حقه ان يجتنب من غير أمر ثم بينه وميزه بقوله تعالى (من الاوثان) أى الذى هو الاوثان كما تجتنب الانجاس فهو بيان للرجس وتمييز له كقولك عندى عشرون من الدراهم وسمى الاوثان رجسا وكذا الخمر والميسر والازلام على طريق التشبيه يعنى أنكم كما تنفرون بطباعكم من الرجس وتجتنبونه فعليكم ان تنفروا عن هذه الاشياء مثل تلك النفرة ونبه على هذا المعنى بقوله تعالى رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه جعل العلة فى اجتنابه أنه رجس والرجس مجتنب وقوله تعالى (واجتنبوا قول الزور) تعميم بعد تخصيص فان عبادة الاوثان رأس الزور لان المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة كأنه قال فاجتنبوا عبادة الاوثان التى هى رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لاتقربوا منه شيأ لتماديه فى القبح والسماجة وماظنك بشئ من قبيله عبادة الاوثان والزور من الزور والازورار وهو الانحراف كما ان الافك من أفكه اذا صرفه فان الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل قول الزور قولهم هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم وقيل هو قول المشركين فى تلبيتهم لبيك لاشريك لك الاشريك هو لك تملكه وماملك وقيل هو شهادة الزور لما روى أبو داود والترمذى أنه صلى الله عليه وسلم صلى الصبح فلما سلم قام قائما مستقبل الناس بوجهه الكريم وقال عدلت شهادة الزور الاشراك بالله قالها ثلاثا وتلا هذه الآية وقوله تعالى (حنفاء لله) أى مسلمين عادلين عن كل دين سوى دينه (غير مشركين به) تأكيد لما قبله وهما حالان من الواو (ومن يشرك) أى يوقع شيأ من الشرك (بالله) الذى له العظمة كلها بشئ من الاشياء فى وقت من الاوقات (فكأنما خر) أى سقط (من السماء) لعلو ما كان فيه من أوج التوحيد وسفول ما انحط اليه من حضيض الاشراك (فتخطفه الطير) أى تأخذه بسرعة وهو نازل فى الهواء قبل أن يصل الى الارض (أو تهوى به الريح) أى حيث لم يجد فى الهواء مايهلكه (فى مكان) من الارض (سحيق) بعيد فهو لايرجى خلاصه * (تنبيه) * قال الزمخشرى يجوز فى هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق فان كان تشبيها مركبا فكأنه قال من

أشرك بالله تعالى فقد أهلك نفسه هلاكا ليس بعده هلاك بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا فى حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح البعيدة وان كان مفرقا فقد شبه الايمان فى علوه بالسماء والذى ترك الايمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والاهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة اهـ قوله يطوح به الباء مزيدة للتأكيد قال الجوهرى طوحه أى توهه وذهب به ههنا وههنا وقرأ نافع بفتح الخاء وتشديد الطاء والباقون باسكان الخاء وتخفيف الطاء ثم عظم ما تقدم من التوحيد وما هو مسبب عنه بالاشارة بأداة البعد فقال تعالى (ذلك) أى الامر العظيم الكبير فمن راعاه فاز ومن حاد عنه خاب ثم عطف عليه ما هو أعم من هذا القدر فقال تعالى (ومن يعظم شعائر الله) جمع شعيرة وهى البدن التى تهدى للحرم لانها من معالم الحج بأن يختار عظام الاجرام حسانا سمانا غالية الاثمان ويترك المكاس فى شرائها فقد كانوا يغالون فى ثلاث ويكرهون المكاس فيهن الهدى والاضحية والرقبة وروى ابن عمر عن أبيه رضى الله عنهما أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لابى جهل فى أنفه برة من ذهب وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطى فيتصدق بلحومها وجلالها ويعتقد أن طاعة الله فى التقرب بها واهدائها الى بيته المعظم أمر عظيم لابد أن يقام به ويسارع فيه (فانها) أى تعظيمها ناشئ (من تقوى القلوب) فمن للابتداء فان جعلت تبعيضية فلابد من حذف تقديره فان تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى الا بتقديرها لانه لابد من راجع من الجزاء الى من ليرتبط به وانما ذكرت القلوب لانها مراكز التقوى التى اذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها فى سائر الاعضاء وسميت تلك البدن شعائر لاشعارها بما يعرف به أنها هدى كطعن حديدة بسنامها قال البقاعى ولعله مأخوذ من الشعر لانها اذا جرحت قطع شئ من شعرها أو أزيل عن محل الجرح فيكون من الازالة (لكم فيها) أى البدن (منافع) كركوبها والحمل عليها بما لا يضرها وعن ابراهيم من احتاج الى ظهرها ركب ومن احتاج الى لبنها شرب وقال أصحاب الرأى لا يركبها الا اذا اضطر اليها (الى أجل مسمى) وهو وقت نحرها (ثم محلها) أى مكان حل نحرها (الى البيت العتيق) أى عنده والمراد الحرم جميعه وقيل المراد بالشعائر المناسك ومشاهد الحج وبالمنافع الاجر والثواب فى قضاء المناسك الى انقضاء آجالها وبمحلها محل الناس من احرامهم الى البيت يطوفون به طواف الزيارة (ولكل أمة) أى جماعة مؤمنة سلفت قبلكم (جعلنا منسكا) أى متعبدا وقربانا يتقربون به الى الله تعالى وقرأ حمزة والكسائى منسكا هنا وفى آخر السورة بكسر السين فى الموضعين فيكون بمعنى الموضع والباقون بفتحها مصدر بمعنى النسك (ليذكروا اسم الله) أى الملك الاعلى وحده على ذبائحهم وقرابينهم لانه الرازق لهم وحده فيقولون عند النحر الله

أكبر لا اله الا الله والله أكبر اللهم منك واليك ثم علل الذكر بالنعمة تنبيها على التفكر فيها فقال تعالى (على مارزقهم من بهيمة الانعام) فوجب شكره لذلك عليهم وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون من الانعام (فالهكم) أى الذى شرع هذه المناسك كلها (اله واحد) وان اختلفت فروع شرائعه ونسخ بعضها بعضا واذا كان واحدا وجب اختصاصه بالعبادة فلذا قال تعالى (فله) وحده (أسلموا) أى انقادوا بجميع ظواهركم وبواطنكم فى كل ما أمر به أونهى عنه (وبشر المخبتين) أى المطيعين المتواضعين من الخبت وهو المطمئن من الارض وقيل هم الذين لايظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا * ثم بين علاماتهم بقوله تعالى (الذين اذا ذكر الله) أى الذى له الجلال والجمال (وجلت) أى خافت خوفا مزعجا (قلوبهم) فيظهر عليها الخشوع والتواضع لله تعالى (والصابرين) الذين صار الصبر عادتهم (على ما أصابهم) من الكلف والمصائب ولما كان ذلك قد يشغل عن الصلاة قال تعالى (والمقيمى الصلاة) فى أوقاتها والمحافظة عليها وان حصل لهم من المشاق بأفعال الحج وغيره ماعسى أن يحصل ولذلك عبر بالوصف دون الفعل اشارة الى أنه لا يقيمها على الوجه المشروع مع تلك المشاق والشواغل الا راسخ فى حبها فهم لما تمكن حبها فى قلوبهم والخوف من الغفلة عنها كأنهم دائما فى صلاة (ومما رزقناهم ينفقون) فى وجوه الخير من الهدايا التى يغالون فى أثمانها وغير ذلك احسانا الى خلق الله تعالى * ولما قدم تعالى الحث على التقرب بالانعام كلها وكانت الابل أعظمها خلقا وأجلها فى أنفسهم أمر اخصها بالذكر فقال تعالى (والبدن) أى الابل المعروفة جمع بدنة كخشب وخشبة وانتصابه بفعل يفسره (جعلناها لكم من شعائر الله) أى من اعلام دينه التى شرعها الله تعالى وقيل لانها تشعر وهى أن تطعن بحديدة فى سنامها ليعلم بذلك أنها هدى (لكم فيها خير) أى نفع فى الدنيا وثواب فى العقبى كما قال ابن عباس دنيا وأخرى وروى الترمذى وحسنه عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ماعمل ابن آدم يوم النحر عملا أحب الى الله من هراقة الدم وانه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها وان الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع الى الارض فطيبوا بها نفسا وروى الدارقطنى فى السنن عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنفقت الورق فى شئ أفضل من نحيرة فى يوم عيد وعن بعض السلف أنه لم يملك الا تسعة دنانير فاشترى بها بدنة فقيل له فى ذلك فقال سمعت ربى يقول لكم فيها خير (فاذكروا اسم الله عليها) أى على ذبحها بالتكبير حال كونها (صواف) أى قائمة على ثلاث معقولة اليد اليسرى لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث (فاذا وجبت جنوبها) أى سقطت سقوطا بردت به بزوال أرواحها فلا حركة لها أصلا من وجب الحائط وجبة سقط ووجبت الشمس وجبة غربت قال ابن كثير وقد جاء فى حديث مرفوع ولا تعجلوا النفوس أن تزهق وقوله تعالى (فكلوا منها) أى اذا كانت تطوعا أمر اباحة دفعا لما قد يظن أنه يحرم الاكل منها للامر بتقريبها لله تعالى (واطعموا القانع) أى المتعرض للسؤال بخشوع وانكسار (والمعتر) أى السائل وقيل بالعكس وهو قول الشافعى رحمه الله تعالى

قال فى كتاب اختلاف الحديث القانع هو السائل والمعتر هو الزائر وقيل القانع هو الجالس فى بيته المتعفف الذى يقنع بما يعطى ولا يسأل ولا يتعرض والمعتر المتعرض وقيل القانع هو المسكين والمعتر الذى ليس بمسكين ولا تكون له ذبيحة فيجىء الى القوم فيتعرض لهم لاجل لحمهم (كذلك) أى مثل هذا التسخير العظيم الذى وصفناه من نحرها قياما (سخرناها) بعظمتنا التى لولاها ما كان ذلك (لكم) وذللناها ليلا ونهارا مع عظمها وقوتها تأخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها ولو شئنا لجعلناها وحشية لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحش التى هى أصغر منها جرما وأقل قوة (لعلكم تشكرون) انعامنا عليكم لتعرفوا أن ما ذللها لكم الا الله تعالى فيكون حالكم حال من يرجو شكره فتوقعوا الشكر بأن لا تحرموا منها الا ما حرم عليكم ولا تحلوا منها الا ما أحل وتهدوا منها ما حث على اهدائه وتتصرفوا بحسب ما أمركم * ولما حث تعالى على التقرب بها مذكورا اسمه عليها قال تعالى (لن ينال الله) الذى له صفات الكمال (لحومها) المأكولة (ولا دماؤها) المهراقة أى لا يرفعان اليه (ولكن يناله التقوى منكم) أى يرفع اليه منكم العمل الصالح الخالص له مع الايمان كما قال تعالى والعمل الصالح يرفعه أى يقبله وقيل كان أهل الجاهلية اذا نحروا البدن نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت * ثم كرر سبحانه وتعالى التنبيه على عظيم تسخيرها منبها على ما أوجب عليهم به بقوله تعالى (كذلك) أى التسخير العظيم (سخرها لكم) بعظمته وغناه عنكم (لتكبروا الله على ما هداكم) أى أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه كأن تقولوا الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعدى تعديته * ثم وعد من امتثل الامر بقوله تعالى (وبشر المحسنين) أى المخلصين فيما يفعلونه ويذرونه كما قال تعالى من قبل وبشر المخبتين والمحسن هو الذى يفعل الحسن من الاعمال ويتمسك به فيصير محبتا الى نفسه بتوفير الثواب عليه وقال ابن عباس الموحدين وقوله تعالى (ان الله) أى الذى لا كفء له (يدفع عن الذين آمنوا) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الدال وفتح الفاء والباقون بضم الياء وفتح الدال وبعدها ألف وكسر الفاء أى يبالغ فى الدفع مبالغة من يغالب فيه ولم يذكر الله تعالى ما يدفعه عنهم حتى يكون أعظم وأفخم وأعم وان كان فى الحقيقة أنه يدفع بأس المشركين فلذلك قال تعالى بعده (ان الله) أى الذى له صفات الكمال (لا يحب) أى لا يكرم كما يفعل المحب (كل خوان) فى أمانته (كفور) لنعمته وهم المشركون قال ابن عباس خانوا الله فجعلوا معه شريكا وكفروا نعمه فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذه صفته وقال مقاتل يدفع عن الذين آمنوا بمكة حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم فى قتلهم سرا فنهاهم عن ذلك ثم أذن الله تعالى لهم فى قتالهم بقوله تعالى (أذن للذين يقاتلون) أى المشركين والمأذون لهم فيه وهو فى القتال محذوف لدلالة يقاتلون عليه (بأنهم) أى بسبب أنهم (ظلموا) فكانوا يأتونه صلى الله عليه وسلم بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم اصبروا فانى لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت وهى أول

آية نزلت فى القتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية وقيل نزلت فى قوم بأعيانهم مهاجرين من مكة الى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فأذن الله لهم فى قتال الكفار الذين منعوهم من الهجرة بأنهم ظلموا واعتدوا عليهم بالايذاء وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم بضم الهمزة والباقون بفتحها * ولما كان التقدير فان الله أراد اظهار دينه بهم عطف عليه قوله تعالى (وان الله) أى الذى هو الملك الاعلى (على نصرهم لقدير) وفى ذلك وعد من الله بنصر المؤمنين ثم وصفهم بقوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم) الى الشعب والحبشة والمدينة (بغير حق) أوجب ذلك ما أخرجوا (الا أن يقولوا) أى بقولهم (ربنا الله) وهذا القول حق والاخراج به اخراج بغير حق ونظيره ذلك قوله تعالى هل تنقمون منا الا ان آمنا بالله *(تنبيه)* الذين أخرجوا المجرور نعت للذين يقاتلون أو بدل منه أو منصوب على المدح أو مرفوع خبر مبتدا محذوف (ولولا دفع الله) أى المحيط بكل شئ علما (الناس بعضهم ببعض) أى بتسليط المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمانهم وعلى متعبداتهم كما قال تعالى (لهدمت) أى خربت (صوامع) وهى معابد صغار للرهبان مرتفعة (وبيع) كنائس للنصارى (وصلوات) أى كنائس لليهود وسميت بها لانها يصلى فيها وقيل هى كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلوتا (ومساجد) للمسلمين (يذكر فيها) أى هذه المواضع المذكورة (اسم الله) العلى العظيم (كثيرا) وتنقطع العبادات بخرابها وقيل الضمير يرجع للمساجد فقط تشريفا لها بأن ذكر الله يحصل فيها كثيرا (فان قيل) لم قدم الصوامع والبيع فى الذكر على المساجد (أجيب) بأنها أقدم فى الوجود وقيل أخرها فى الذكر كما فى قوله تعالى ومنهم سابق بالخيرات ولان الذكر آخر العمل فلما كان نبينا صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمتنا خير الامم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم نحن الآخرون والسابقون وقيل أخرها لتكون بعيدة عن الهدم قريبة من الذكر وقرأ نافع دفاع بكسر الدال وفتح الفاء وألف بعدها والباقون بفتح الدال وسكون الفاء وقرأ نافع وابن كثير لهدمت بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وأظهر التاء عند الصاد نافع وابن كثير وعاصم وأدغمها الباقون (ولينصرن الله) أى الملك الاعظم (من ينصره) أى ينصر دينه وأولياءه كائنا من كان منهم أو من غيرهم وقد أنجز الله تعالى وعده بأن سلط المهاجرين والانصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم (ان الله) أى الذى لا كفء له (لقوى) أى على ما يريد (عزيز) أى منيع فى سلطانه وقدرته وقوله تعالى (الذين ان مكناهم) أى بما لنا من القدرة (فى الارض) باعلائهم على ضدهم (أقاموا الصلاة) أى التى هى عماد الدين الدالة على المراقبة والاعراض عن تحصيل الفانى (وآتوا الزكاة) أى المؤذنة بالزهد فى الحاصل منه المؤذن بعمل النفس للرحيل (وأمروا بالمعروف) أى الذى أمر الله تعالى ورسوله به (ونهوا عن المنكر) أى الذى نهى الله ورسوله عنه وصف للذين هاجروا وهو اخبار من الله تعالى بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين والانصار رضى الله تعالى عنهم وعن عثمان رضى الله تعالى عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد ان الله تعالى أثنى

عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا * (تنبيه) * في ذلك دليل على صحة خلافة الائمة الاربعة الخلفاء الراشدين اذلم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين واذا ثبت ذلك وجب أن يكونوا على الحق ولا يجوز حمل الآية على أمير المؤمنين على وحده لان الآية دالة على الجمع وعن الحسن هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذين منصوب بدل من قوله تعالى من ينصره (ولله) أى الملك الاعلى (عاقبة الامور) أى آخر أمور الخلق ومصيرها اليه في الآخرة فلا يكون لاحد فيها أمر حتى انه لا ينطق أحد الا باذن منه * ولما بين سبحانه وتعالى فيما تقدم اخراج الكفار للمؤمنين من ديارهم بغير حق وأذن في مقاتلتهم وضمن لرسوله صلى الله عليه وسلم النصرة وبين ان لله عاقبة الامور أردفه بما يجرى مجرى التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في الصبر على ماهم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم) أى قبل قومك (قوم نوح) وتأنيث قوم باعتبار المعنى وتحقير المكذبين في قدرته وان كانوا من أشد الناس (وعاد) أى ذووا الابدان الشداد قوم هود (وثمود) أولو الابنية الطوال في السهول والجبال قوم صالح (وقوم ابراهيم) المتجبرون المتكبرون (وقوم لوط) الانجاس بما لم يسبقهم اليه أحد من الناس (وأصحاب مدين) أرباب الاموال المجموعة من خزائن الضلال فأنت يا أشرف الخلق لست بأوحدى في التكذيب فان هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومك * ولما كان موسى عليه السلام قد أتى من الآيات المرئية ثم المسموعة بما لم يأت بمثله أحد ممن تقدمه فكان تكذيبه في غاية البعد غير سبحانه وتعالى الاسلوب تنبيها على ذلك وعلى ان الذين أطبقوا على تكذيبه القبط وأما قومه فما كذبه منهم الا أناس يسير فقال تعالى (وكذب موسى) وفي ذلك أيضا تعظيم للتأسية وتفخيم للتسلية (فأمليت للكافرين) أى أمهلتهم بتأخير العقاب عنهم الى الوقت الذى ضربته لهم وعبر عن طول الاملاء بأداة التراخي لزيادة التأسية فقال تعالى (ثم أخذتهم) أخذ عزيز مقتدر * ثم نبه سبحانه وتعالى بالاستفهام في قوله تعالى (فكيف كان نكير) أى انكارى لافعالهم على أنه كان في أخذهم عبر وعجائب وأهوال وغرائب حيث أبدلهم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكا وبالعمارة خرابا والاستفهام للتقرير أى هو واقع موقعه فليحذر هؤلاء الذين أتيتهم بأعظم ما أتى به رسول قومه مثل ذلك فان لم يؤمنوا بك فعلت بهم كما فعلت بهؤلاء وان كانوا أمكن الناس فلا يحزنك أمرهم * (تنبيه) * أثبت ورش الياء بعد الراء من نكير في الوصل وحذفها الباقون وقفا ووصلا (وكأين) أى وكم (من قرية) وقيل معنى كأين رب وقوله تعالى (أهلكتها) قرأه أبو عمرو بعد الكاف بتاء فوقية مضمومة والباقون بعد الكاف بنون وبعدها ألف والمراد أهلها بدليل قوله تعالى (وهى) أى والحال أنها (ظالمة) أى أهلها بكفرهم ويحتمل أن يكون المراد اهلاك نفس القرية فيدخل تحت هلاكها هلاك من فيها لان العذاب النازل اذا بلغ أن يهلك القرية فتصير منهدمة حصل هلاك من فيها وان كان الاول أقرب (فهى) أى فتسبب عن اهلاكها أنها (خاوية) أى منهدمة ساقطة أى جدرانها (على عروشها) أى سقوفها اذ كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة

أو كرم فهو عرش والخاوي الساقط من خوى النجم اذا سقط أو الخالي من خوى المنزل اذا خلا
من أهله وخوى بطن الحامل * (تنبيه) * قوله على عروشها لا يخلو من أن يتعلق بخاوية فيكون
المعنى انها ساقطة على عروشها أي سقوفها أي تقصفت الاخشاب أولا من كثرة الامطار وغير
ذلك من الاشرار فسقطت ثم سقط عليها الجدران فسقطت فوق السقوف أو خالية مع بقاء
عروشها وسلامتها واما أن يكون خبرا بعد خبر كأنه قيل هي خاوية وهي على عروشها أي
قائمة مظلة على عروشها على معنى أن السقوف سقطت الى الارض فصارت في قرار الحيطان
مائلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة وقوله فهي خاوية جملة معطوفة على أهلكتها
لا على وهي ظالمة فانها حال كما قدرته والاهلاك ليس حال خرابها فلا محل لها ان نصبت كأين
بمقدر يفسره أهلكتها الا انها معطوفة على جملة أهلكتها كما مر وهي مفسرة لا محل لها وان
رفعت كاين بالابتداء فمحلها رفع خبرا ثانيا لكاين والخبر الاول أهلكتها (و) كم من (بئر معطلة)
أي متروكة بموت أهلها (وقصر مشيد) أي رفيع خال بموت أهله * (تنبيه) * علم مما قدرته ان
بئر معطوف على قرية وهو يقوي على ان عروشها بمعنى مع أوجه وروي ان هذه بئر نزل عليها
صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب وهي
بحضرموت وانما سميت بذلك لان صالحا حين حضرها مات وثم بلدة عند البئر اسمها حاضوراء
بناها قوم صالح وأمروا عليهم جهلس بن جلاس وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما
فأرسل الله تعالى اليهم حنظلة بن صفوان عليه السلام نبيا فقتلوه فأهلكهم الله تعالى وعطل
بئرهم وخرب قصورهم وقوله تعالى (أفلم يسيروا) أي كفار مكة (في الارض) يحتمل انهم
لم يسافروا فحثوا على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله تعالى بكفرهم ويشاهدوا آثارهم
فيعتبروا وان يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا
(فتكون) أي فتتسبب عن سيرهم أن تكون (لهم قلوب) واعية (يعقلون بها) ما رأوه بأبصارهم
مما نزل بالمكذبين قبلهم (أو) أي أو يكون لهم ان كانوا عمي الابصار كما دل عليه جعل هذا
قسيما (آذان يسمعون بها) أخبارهم بالاهلاك وخراب الديار فيعتبروا (فانها) أي القصة
(لا تعمى الابصار) ويجوز أن يكون الضمير مبهما يفسره الابصار وفي تعمى راجع اليه
والمعنى ان أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى فيها وانما العمى لقلوبهم كما قال تعالى (ولكن تعمى
القلوب التي في الصدور) ولا يعتد بعمى الابصار فانه ليس بعمى بالاضافة الى عمى القلوب
(فان قيل) فأي فائدة في ذكر الصدور (أجيب) بان الذي قد تعورف واعتقد أن العمى
على الحقيقة للبصر وهو ان تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة
وتمثيل فلما أريد اثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن
الابصار احتاج هذا التصوير الى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر ان مكان العمى هو
القلوب لا الابصار كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك فقولك الذي بين
فكيك تقرير لما ادعيته للسانه وتثبيت لان محل المضاء هو لا غيره وكأنك قلت ما نفيت المضاء عن

السيف وأثبته للسائل فلته ولاسهوا منى ولكن تعمدت به اياه بعينه تعمدا قيل لما نزل قوله تعالى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا فى الدنيا أعمى أفأكون فى الآخرة أعمى فنزلت (ويستعجلونك بالعذاب) الذى توعدتهم به تكذيبا واستهزاء (و) الحال انه (لن يخلف الله) أى الذى لا كفء له (وعده) لامتناع الخلف فيه وفى خبره سبحانه وتعالى فيصيبهم ما وعدهم به ولو من بعد حين لكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة وقد أنجزه يوم بدر (وان يوما عند ربك) أى المحسن اليك بتأخير العذاب عنهم اكراما لك من أيام الآخرة بالعذاب (كألف سنة مما تعدون) فى الدنيا وطول أيامه حقيقة أو من حيث ان أيام الشدائد مستطالة وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (وكأين من قرية أمليت لها) أى أمهلتها كما أمهلتكم (وهى ظالمة) كظلمكم بالاستعجال وغيره (ثم أخذتها) أى بالعذاب والمراد أهلها (والى المصير) أى المرجع فينقطع كل حكم دون حكمى ففيه وعيد وتهديد (فان قيل) لم قال فكأين من قرية أهلكتها بالفاء وقال هنا بالواو (أجيب) بأن الاولى وقعت بدلا عن قوله تعالى فكيف كان نكير وأما هذه فحكمها حكم ما تقدم من الجملتين المعطوفتين بالواو أعنى قوله تعالى ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون * ولما كان الاستعجال لا يطلب من الرسول وانما يطلب من المرسل أمره الله تعالى بأن يديم لهم التخويف والانذار بقوله تعالى (قل) أى لهم ولا يصدنك عن دعائهم ما أخبرناك به من عملهم (يا أيها الناس) أى جميعا من قومك وغيرهم (انما أنا لكم نذير مبين) أى بين الانذار والاقتصار على الانذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين لان صدر الكلام وسياقه للمشركين وانما ذكر المؤمنين وثوابهم بقوله (فالذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (وعملوا) أى تصديقا لدعواهم تلك (الصالحات لهم مغفرة) أى لما فرط منهم (ورزق) أى فى الدنيا بالغنائم وغيرها وفى الآخرة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (كريم) أى لا خسة فيه ولا دناءة بانقطاع ولا غيره زيادة فى غيظهم * ولما كان فى سياق الانذار قال معبرا بالماضى زيادة فى التخويف (والذين سعوا) أى أوقعوا السعى ولو مرة واحدة (فى آياتنا) أى القرآن بابطالها (معجزين) من اتبع النبى صلى الله عليه وسلم أى ينسبونهم الى العجز ويثبطونهم عن الايمان أو مقدرين عجزنا عنهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الجيم بعد العين على انها حال مقدرة والباقون بألف بعد العين وتخفيف الجيم أى مسابقين مشاقين للساعين فيها بالتثبيط (أولئك) البعداء البغضاء (أصحاب الجحيم) أى النار استحقاقا بما سعوا فيسكنهم فيها ليعلموا انهم هم العاجزون * ولما لاح من ذلك ان الشيطان ألقى شبها يفاخرون فيها بجدالهم فى دين الله الذى أمر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باظهاره وتقريره واشهاره عطف عليه تسلية له صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وما أرسلنا) أى بعظمتنا (من قبلك) ثم أكد الاستغراق بقوله تعالى (من رسول) وهو نبى أمر بالتبليغ (ولا نبى) وهو من لم يؤمر بالتبليغ وهذا هو المشهور فمعنى أرسلنا أوحينا فالنبى أعم من الرسول ويدل عليه ما رواه الامام أحمد من أنه صلى الله عليه وسلم

سئل عن الانبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا قيل فكم الرسل فقال ثلثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا وقيل كما هو ظاهر الآية الرسول من جمع الى المعجزة كتابا منزلا عليه والنبي غير الرسول من لا كتاب له وقيل يمكن حمل الآية عليه أيضا والرسول من يأتيه الكتاب والنبي يقال له ولمن يوحي اليه في المنام (الا اذا تمنى) أي تلا على الناس ما أمره الله تعالى به أو حدثهم به واشتهى في نفسه أن يقبلوه حرصا منه على ايمانهم شفقة عليهم (ألقى الشيطان) من الشبه والتخيلات (في أمنيته) أي فيما تلاه أو حدث به واشتهى أن يقبل مايلقيه منه أولياؤه فيجادلون به أهل الطاعة ليضلوهم وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا كما يفعل هؤلاء فيما يفترقون به في وجه الشريعة أصولا وفروعا من قولهم في القرآن شعر وسحر وكهانة وقولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وقولهم ان ما قتله الله تعالى بالموت حتف أنفه أولى بالاكل مما ذبح وقولهم نحن أهل الله وسكان حرمه ولا نخرج من الحرم فنقف في الحج بالمشعر الحرام وتقف الناس بعرفة ونحن نطوف في ثيابنا وكذا من ولدناه وأما غيرنا فلا يطوف الا عاريا ذكرا كان أو أنثى الا أن يعطيه أحدنا ما يلبسه ونحو ذلك مما يريدون أن يطفؤا به نور الله تعالى وكذا تأويلات الباطنية والاتحادية وانظارهم الى الحدود فيما يضل الله تعالى بها من يشاء ثم يمحوها عن أراد من عباده وما أراد من أمره (فينسخ) أي فيتسبب عن القائه أنه ينسخ (الله) أي المحيط بكل شيء علما وقدرة (ما يلقي الشيطان) نبيطله بايضاح أمره (ثم يحكم الله آياته) أي ثم يجعلها جلية فيما يدنسها وأدل دليل على ان هذا هو المراد من الافتتاح بالمتأخرة في الآيات الختام بقوله عطفا على ما تقديره فالله على ما يشاء قدير (والله عليم) باحوال خلقه (حكيم) فيما يفعله بهم وقيل انه صلى الله عليه وسلم حدثته نفسه بزوال المسكنة فنزلت وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم لما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على ايمانهم فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن يأتيه من الله تعالى شيء لم ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة والنجم اذا هوى فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا الى أن قال تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ففرح به المشركون ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءة السورة كلها وسجد في آخرها وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبو أحيحة سعيد بن العاص فانهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها على جبهتهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقالوا قد عرفنا أن الله تعالى يحيي ويميت ويرزق ولكن هذه آلهتنا تشفع لنا عنده فاذا

جعل لهم محمد انصيبا فنحن معه فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فقال يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس مالم آتك به عن الله عزوجل فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله تعالى خوفا شديدا فأنزل الله تعالى هذه الآية تعزية له وكان به رحيما وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود قريش وقيل قد أسلمت أهل مكة فرجع أكثرهم الى عشائرهم وقالوا هم أحب الينا حتى اذا دنوا من مكة بلغهم أن الذى كانوا يتحدثون به من اسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل أحد منهم الا بجوار مستخفيا فلما نزلت هذه الآية قالت قريش ندم محمد على ماذكر من منزلة آلهتنا عند الله تعالى فغير ذلك قال الرازى هذه رواية عامة المفسرين الظاهرية أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا على البطلان بالقرآن والسنة والمعقول أما القرآن فبوجوه أحدها قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ثانيها قوله تعالى قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا ما يوحى الى ثالثها قوله تعالى وما ينطق عن الهوى وأما السنة فمنها ماروى عن محمد بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال هذا من وضع الزنادقة وصنف فيه كتابا وقال البيهقى هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل فقد روى البخارى فى صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وسجد فيها وسجد المسلمون والكفار والانس والجن وليس فيه حديث الغرانيق وأما المعقول فمن وجوه . أحدها أن من جوز على النبى صلى الله عليه وسلم تعظيم الاوثان فقد كفر لان من المعلوم بالضرورة ان النبى كان معظم سعيه فى نفى الاوثان ثانيها قوله تعالى فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته وازالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول صلى الله عليه وسلم أقوى من نسخ هذه الآيات التى تبقى الشبهة معها فاذا أراد الله تعالى احكام الآيات لئلا يلتبس ماليس بقرآن قرآنا فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى ثالثها وهو أقوى الوجوه لو جوزنا ذلك ارتفع الايقان عن شرعه ولجوزنا فى كل واحد من الاحكام والشرائع أن يكون كذلك فيبطل قوله تعالى بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فانه لافرق فى العقل بين النقصان من الوحى وبين الزيادة فيه وزاد الرازى أدلة أخرى على ذلك ثم قال وقد عرفنا أن هذه القصة موضوعة أكثر ما فى الباب ان جمعا من المفسرين ذكروها وخبر الواحد لايعارض الدلائل العقلية والنقلية المتواترة انتهى وهذا هو الذى يطمئن اليه القلب وان أطنب ابن حجر العسقلانى فى صحتها ثم قال وحينئذ فيتعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق الخ انتهى وعلى القول بها قد سلك العلماء فى ذلك مسالك أحسنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرتل القرآن فارتصده الشيطان فى سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكيا نغمته بحيث سمعه من دنا اليه فظنها من قوله وأشاعها وقال البيضاوى بعد أن ذكر بعض هذه القصة وهو مردود عند المحققين وان صح فابتلاء يتميز به الثابت على الايمان عن المتزلزل فيه انتهى قال ابن الاثير والغرانيق هنا الاصنام وهى فى الاصل للذكور من طير الماء واحدها غرنوق وغرنيق سمى به

لبياضه

لبياضه قال وكانوا يزعمون أن الاصنام تقربهم من الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التى تعلو الى السماء وترتفع وقيل تمنى أى قرأ كقول حسان فى حق عثمان بن عفان

تمنى كتاب الله أول ليلة * تمنى داود الزبور على رسل

أى على تأن وتمهل * ولما ذكر سبحانه وتعالى ما حكم به من تمكين الشيطان من هذا الالقاء ذكر العلة فى ذلك بقوله تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان) أى فى المتلو أو المحدث به من تلك الشبهة فى قلوب أوليائه على التفسير الاول وعلى الثانى وغيره يؤول بما يناسبه (فتنة) أى اختبارا وامتحانا (للذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق (والقاسية) أى الجافية (قلوبهم) عن قول الحق وهم المشركون (وان الظالمين) أى الواضعين لاقوالهم وأفعالهم فى غير مواضعها كفعل من هو فى الظلام (لفى شقاق) أى خلاف لكونهم فى شق غير شق حزب الله بمعاجزتهم فى الآيات بتلك الشبهة التى تلقوها من الشيطان وجادلوا بها أولياء الرحمن (بعيد) عن الصواب لتصغى اليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون وعلى ثبوت ذكر القصة وجرى عليه الجلال المحلى قال انهم فى خلاف طويل مع النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حيث جرى على لسانه ذكر آلهتهم بما يرضيهم ثم أبطل ذلك (وليعلم الذين أوتوا العلم) باتقان حججه واحكام براهينه وضعف شبه المعاجزين (أنه) أى الشئ الذى تلوته أو تحدثت به (الحق) أى الثابت الذى لايمكن زواله (من ربك) أى المحسن اليك بتعليمك اياه (فيؤمنوا به) لما ظهر لهم من صحته بما ظهر من ضعف تلك الشبهة (فتخبت) أى تطمئن وتخضع (له قلوبهم) وتسكن به نفوسهم (وان الله) بجلاله وعظمته (لهادى الذين آمنوا) فى جميع ما يلقيه أولياء الشيطان (الى صراط مستقيم) أى قويم وهو الاسلام يصلون به الى معرفة بطلانه حتى لاتلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة فيوصلهم ذلك الى سعادة الدارين (ولا يزال الذين كفروا) أى وجد منهم الكفر وطبعوا عليه (فى مرية) أى شك (منه) قال ابن جريج أى من القرآن وقيل مما ألقى الشيطان على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنها وقيل من الدين وهو الصراط المستقيم (حتى تأتيهم الساعة) أى القيامة وقيل أشراطها. وقيل الموت (بغتة) أى فجأة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) قال عكرمة والضحاك لا ليل بعده وهو يوم القيامة والاكثرون على أنه يوم بدر وسمى عقيما لانه لم يكن فى ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم التى لاتأتى بخير وقيل لانه لامثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة فيه ويقوى التفسير الاول قوله تعالى (الملك يومئذ) أى يوم القيامة (لله) أى المحيط بجميع صفات الكمال وحده * ولما كان كأنه قيل ما معنى اختصاصه به وكل الايام له قيل (يحكم بينهم) أى المؤمنين والكافرين بالامر الفصل الذى لاحكم فيه ظاهرا ولا باطنا لغيره كما ترونه الآن بل يمشى فيه الامر على أتم شئ من العدل (فالذين آمنوا وعملوا) أى وصدقوا دعواهم الايمان بأن عملوا (الصالحات) وهى ما أمرهم الله به (فى جنات النعيم) فضلا منه ورحمة لهم بما رحمهم الله تعالى من توفيقهم للاعمال الصالحات (والذين كفروا) أى ستروا ما أعطيناهم من المعرفة بالادلة على وحدانيتنا (وكذبوا

بآياتنا) أي ساعين بما أعطيناهم من الفهم في تعجيزها بالمجادلة بما يوحى اليهم أولياؤهم من الشياطين من الشبه (فأولئك) أي البعداء عن أسباب الكرم (لهم عذاب مهين) أي شديد بسبب ما سعوا في اهانة آياتنا مريدين اعزازاً نفسهم بغالبيتنا والتكبر عن آياتنا (فان قيل) لم أدخل الفاء في خبر الثاني دون الاول (أجيب) بأن في ذلك تنبيهاً على أن اثابة المؤمنين بالجنان تفضل من الله تعالى وان عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم ولذلك قال لهم عذاب ولم يقل هم في عذاب * ولما كان المؤمنون في حصر مع الكفار رغبهم الله في الهجرة بقوله تعالى (والذين هاجروا في سبيل الله) أي فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب مرضاته من مكة الى المدينة (ثم قتلوا) في الجهاد بعد الهجرة وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف وألحق به مطلق الموت فضلا منه بقوله تعالى (أو ماتوا) اى من غير قتل (ليرزقنهم الله) أي الجامع لصفات الكمال (رزقاً حسناً) هو رزق الجنة من حين تفارق أرواحهم أشباحهم لانهم أحياء عند ربهم (وان الله) أي الملك الاعلى القادر على الاحياء كما قدر على الاماتة (لهو خير الرازقين) فانه يرزق بغير حساب يرزق الخلق عامة البار منهم والفاجر (فان قيل) الرازق في الحقيقة هو الله تعالى لا رازق للخلق غيره فكيف قال لهو خير الرازقين (أجيب) بأن غير الله يسمى رازقاً على المجاز كقولهم رزق السلطان الجيش أي أعطاهم أرزاقهم وان كان الرازق في الحقيقة هو الله تعالى * ولما كان الرزق لا يتم الا بحسن الدار وكان ذلك من أفضل الرزق قال تعالى دالاً على ختام التي قبل (ليدخلنهم مدخلاً يرضونه) هو الجنة يكرمون فيه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا ينالهم فيها مكروه وقيل هو خيمة في الجنة من درة بيضاء لها سبعون ألف مصراع وقرأ نافع بفتح الميم أي دخولاً أو مكان دخول والباقون بالضم أي ادخالاً أو مكان ادخال (وان الله) أي الذي عمت رحمته وتمت عظمته (لعليم) أي بمقاصدهم وما عملوا مما يرضيه وغيره (حليم) عما قصروا فيه من طاعته وما فرطوا في جنبه تعالى فلا يعاجل أحداً بالعقوبة روى أن طوائف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين (ذلك) أي الامر المقرر من صفات الله تعالى الذي قصصناه عليك (ومن عاقب) أي جازى من المؤمنين (بمثل ما عوقب به) ظلماً من المشركين أي قاتلهم كما قاتلوه في الشهر الحرام (ثم بغي عليه) أي ظلم باخراجه من منزله قال مقاتل نزلت في قوم من المشركين أتوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من محرم فقال بعضهم لبعض ان أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون وكرهوا قتالهم وسألوهم أن يكفوا عن القتال لاجل الشهر الحرام فأبى المشركون فقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون لهم فنصرهم الله تعالى عليهم فذلك قوله تعالى (لينصرنه الله) أي الذي لا كفء له (ان الله) أي الذي أحاط بكل شئ قدرة وعلماً (لعفو) عن المؤمنين (غفور) لهم (فان قيل) لم سمي ابتداء فعلهم عقوبة مع أن العقاب من العقب وهو منتف في الابتداء

(أجيب) بأنه أطلق عليه ذلك للتعلق الذي بينه وبين الثاني كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها يخادعون الله وهو خادعهم وكما في قوله كما تدين تدان (فإن قيل) كيف طابق ذكر العفو الغفور في هذا الموضع مع أن ذلك الفعل جائز للمؤمنين لأنهم مظلومون (أجيب) بأن المنتصر لما اتبع هواه في الانتقام وأعرض عما ندب الله تعالى له بقوله تعالى ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور وبقوله تعالى فمن عفا وأصلح فأجره على الله وبقوله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى فكان في إعراضه عما ندب إليه نوع إساءة أدب فكأنه تعالى قال عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها فإني أنا الذي أذنت له فيها وفي ذكر العفو تنبيه على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده (ذلك) أي النصر (بأن الله) أي المتصف بجميع صفات الكمال (يولج) أي يدخل لأجل مصالح العباد المسيء والمحسن (الليل في النهار) فيمحو ظلامه بضيائه ولو شاء الله تعالى مؤاخذة الناس لجعله سرمدا فتعطلت مصالح النهار (ويولج النهار في الليل) فيمسخ ضياءه بظلامه ولولا ذلك لتعطلت مصالح الليل أو بأن يدخل كلا منهما في الآخر فيزيد به وذلك من أثر قدرته التي بها النصر (وأن الله) بجلاله وعظمته (سميع) لكل ما يقال (بصير) لكل ما يفعل دائم الاتصاف بذلك فهو غير محتاج إلى سكون الليل ليسمع ولا لضياء النهار ليبصر لأنه سبحانه وتعالى منزه عن الأغراض * ولما وصف تعالى نفسه بما ليس لغيره علله بقوله تعالى (ذلك) أي الاتصاف بتمام القدرة وشمول العلم (بأن الله) أي القادر على كل ما أراد (هو) وحده (الحق) أي الثابت الواجب الوجود (وأن ما يدعون) أي يعبد المشركون (من دونه) وهو الأصنام (هو الباطل) الزائل وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة بالتاء على الخطاب للمشركين والباقون بالياء على الغيبة وأن هذه مقطوعة من ما في الرسم (وأن الله) لكونه هو الحق الذي لا كفء له (هو) وحده (العلي) أي العالي على كل شيء بقدرته (الكبير) وكل ما سواه سافل حقير تحت قهره وأمره * ثم إنه سبحانه وتعالى استدل على كمال قدرته بأمور ستة الأول قوله تعالى (ألم تر) أي أيها المخاطب (أن الله) أي المحيط قدرة وعلما (أنزل من السماء ماء) أي مطرا بأن يرسل رياحا فتثير سحابا فيمطر على الأرض الماء (فتصبح الأرض) أي بعد أن كانت مسودة يابسة ميتة جامدة (مخضرة) حية يانعة مهتزة نامية بما فيه رزق العباد وعمارة البلاد (فإن قيل) لم قال تعالى فتصبح ولم يقل فأصبحت أجيب بأن ذلك لنكتة وهي إفادة بقاء المطر زمانا بعد زمان كما تقول أنعم علي فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت شاكرا له لم يقع ذلك الموقع (فإن قيل) لم رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام (أجيب) بأنه لو نصب لأعطى عكس ما هو الغرض لأن معناه إثبات الإخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الإخضرار ووجه ذلك بأن النصب بتقدير أن وهو علم للاستقبال فيجعل الفعل مترقبا والرفع جزم بإثباته مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر فإن نصبته فأنت ناف لشكره شاك في تفريطه فيه وإن رفعته فأنت مثبت لشكره وهذا وأمثاله مما يجب أن يتنبه له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله (إن الله) أي الذي له تمام النعم وكمال العلم (لطيف) بعباده في

اخراج النبات بالماء (خبير) أي بمصالح الخلق ومنافعهم فانه مطلع على السرائر وان دقت فلا يستبعد عليه احياء من أراد بعد موته وقال ابن عباس لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط الامر الثاني قوله تعالى (له ما في السموات) أي التي أنزل منها الماء (وما في الارض) أي التي استقر فيها ملكا وخلقا (وان الله) أي الذي له الاحاطة التامة (لهو) أي وحده (الغني) في ذاته عن كل شئ (الحميد) أي المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله الامر الثالث قوله تعالى (ألم تر) أي أيها المخاطب (أن الله) ذا الجلال والاكرام (سخر لكم) فضلا منه (ما في الارض) كله من مسالكها وفجاجها وما فيها من حيوان وجماد وزرع وثمار فلولا تسخيره تعالى الابل والبقر مع قوتهما حتى ذللهما للضعيف من الناس لما انتفع بهما أحد منهم الامر الرابع قوله تعالى (والفلك) أي وسخر لكم الفلك أي السفن ثم بين تسخيرها بقوله (تجري في البحر) العجاج المتلاطم بالامواج بريح طيبة للركوب والحمل (بأمره) أي باذنه الامر الخامس قوله تعالى (ويمسك السماء) أي كراهة (أن تقع على الارض) التي تحتها مع علوها وعظمها وكونها بغير عمد تقلها (الا باذنه) أي بمشيئته فيقع ذلك يوم القيامة حين يريد طي هذا العالم وايجاد عالم البقاء (ان الله) أي الذي له الخلق والامر (بالناس) أي على ظلمهم (لرؤف) أي بما يحفظ من سرائرهم (رحيم) أي حيث هيأ لهم أسباب الاستدلال وفتح لهم أبواب المنافع ودفع عنهم أبواب المضار (وهو) أي وحده (الذي أحياكم) أي عن الجمادية بعد أن أوجدكم من العدم (ثم يميتكم) أي عند انقضاء آجالكم ليكون الموت واعظا لاولي البصائر منكم (ثم يحييكم) أي يوم البعث للثواب والعقاب واظهار العدل في الجزاء (ان الانسان) أي المشرك (لكفور) أي لبليغ الكفر حيث لم يشكر على هذه النعم المحيطة به فيوحد الله تعالى وقال ابن عباس هو الاسود بن عبد الاسد وأبو جهل والعاص بن وائل وأبي بن خلف قال الرازي والاولى تعميمه في كل المنكرين (لكل أمة) أي في كل زمان (جعلنا منسكا) قال ابن عباس شريعة يتعبدون بها (هم ناسكوه) أي عاملون بها وروى عنه أنه قال عيدا وقال مجاهد وقتادة موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة وقرأ حمزة والكسائي منسكا بكسر السين والباقون بفتحها (فلا ينازعنك في الامر) أي أمر الذبائح نزلت في بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ما لكم تأكلون مما تقتلون ولا تأكلون مما قتله الله تعالى يعنون الميتة وقال الزجاج هو نهي له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم كما تقول لا يضاربنك فلان أي فلا تضاربه وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون الا بين اثنين معناه لا تنازعهم أنت (وادع) أي أوقع الدعوة لجميع الخلق (الى ربك) المحسن اليك اى الى دينه * ثم علل ذلك بقوله (انك) مؤكدا له بحسب ما عندهم من الانكار (لعلى هدى) أي دين واضح (مستقيم) هو دين الاسلام (وان جادلوك) أي في أمر الدين بعد ان ظهر الحق ولزمت الحجة (فقل الله) أي الملك المحيط بالعز والعلم (أعلم بما تعملون) من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليه وهذا وعيد فيه رفق وكان ذلك قبل الامر بالقتال * ولما أمر الله تعالى بالاعراض عنهم وكان

ذلك

ذلك شديدا على النفس لتشوقها الى النصرة رجاه فى ذلك بقوله تعالى مستأنفا تحذيرا لهم (الله) أى الذى لا كفء له (يحكم بينكم) أى بينك مع اتباعك وبينهم (يوم القيامة) الذى هو يوم التغابن (فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين ومن نصر ذلك اليوم لم يبال بما حل به فهو كقوله وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون قال البغوى والاختلاف ذهاب كل واحد من الخصمين الى خلاف ماذهب اليه الآخر (ألم تعلم أن الله) بجلال عزه وعظيم سلطانه (يعلم مافى السماء والارض) فلا يخفى عليه شئ (ان ذلك) أى ماذكر (فى كتاب) كتب فيه كل شئ حكم بوقوعه قبل وقوعه وكتب جزاؤه وهو اللوح المحفوظ (ان ذلك) أى علم ماذكر (على الله) وحده (يسير) أى سهل لان علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على السواء (ويعبدون) أى المشركون على سبيل التجدد والاستمرار (من دون الله) أى من أدنى رتبة من رتبه الذى قامت جميع الدلائل على احتوائه على جميع صفات الكمال وتنزيهه عن شوائب النقص (مالم ينزل به سلطانا) أى حجة واحدة من الحجج وهو الاصنام (وماليس لهم به علم) حصل لهم من ضرورة العقل واستدلاله بالحجة (وماللظالمين) أى الذين وضعوا التعبد فى غير موضعه لارتكابهم لهذا الامر العظيم الخطر وأكد النفى واستغرق المنفى باثبات الجار فقال تعالى (من نصير) أى ينصرهم من الله لا مما أشركوه به ولا من غيره فيدفع عنهم عذابه أو يقرر مذهبهم (واذا تتلى) أى على سبيل التجدد والمبالغة من أى تال كان (عليهم آياتنا) أى من القرآن حال كونها (بينات) لاخفاء فيها عند من له بصيرة فى شئ مما دعت اليه من الاصول والفروع (تعرف فى وجوه الذين كفروا) أى تلبسوا بالكفر (المنكر) أى الانكار الذى هو منكر فى نفسه فيظهر أثره فى وجوههم من الكراهة والعبوس لما حصل لهم من الغيظ * ثم بين مالاح فى وجوههم بقوله تعالى (يكادون يسطون) أى يوقعون السطوة بالبطش والعنف (بالذين يتلون عليهم آياتنا) أى الدالة على أسمائنا الحسنى وصفاتنا العليا القاضية بوحدانيتنا مع كونها بينات فى غاية الوضوح فى أنها كلامنا لما فيها من الحكم والبلاغة التى عجزوا عنها ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقابلهم بالوعيد بقوله تعالى (قل أفأنبئكم) أى أفأخبركم خبرا عظيما (بشر من ذلكم) بأكره اليكم من القرآن المتلو عليكم وقوله تعالى (النار) كأنه جواب سائل قال ماهو فقيل النار أى هو النار ويجوز أن تكون مبتدأ خبره (وعدها الله الذين كفروا) جزاء لهم فبئس الموعد هى (وبئس المصير) أى النار ولما بين تعالى أنه لا حجة لعابد غيره اتبعه بأن الحجة قائمة على أن ذلك الغير فى غاية الحقارة فقال تعالى مناديا أهل العقل منبها تنبيها عاما (يا أيها الناس ضرب مثل) حاصله أن من عبدتموه من الاصنام أحقر منكم (فاستمعوا) أى انصتوا (له) وتدبروه ثم فسره بقوله تعالى (ان الذين تدعون) أى تعبدون وتدعونهم فى حوائجكم وتجعلونهم آلهة (من دون الله) أى الملك الاعلى من هذه الاصنام التى أنتم بها مغترون (لن يخلقوا ذبابا) أى لا قدرة لهم على ذلك فى زمن من الازمان على حال من الاحوال مع صغره فكيف بما هو أكبر منه (ولو اجتمعوا) أى الذين زعمتموهم شركاء (له) أى الخلق فهم

فى هذا أمثال الكم * (تنبيه) * محل ولو اجتمعوا له النصب على الحال كأنه قال تعالى يستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزل الله تعالى فى تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خدعهم بخداعه حيث وصفوا بالالهية التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها والاحاطة بالمعلومات عن آخرها صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله وأصغره وأحقره ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم ان هذا الخلق الاقل الاذل لو اختطف منهم شيأ فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا كما قال تعالى (وان يسلبهم الذباب) أى الذى تقدم أنهم لا قدرة لهم على خلقه وهو غاية فى الحقارة (شيأ) أى من الاشياء جل أو قل (لا يستنقذوه منه) لعجزهم فكيف يجعلونهم شركاء الله هذا أمر مستغرب عبر عنه بضرب مثل * (تنبيه) * الذباب مفرد وجمعه القليل أذبة والكثير ذبان مثل غراب وأغربة وغربان وعن ابن عباس أنهم كانوا يطلون الاصنام بالزعفران ورؤسها بالعسل ويغلقون عليها الابواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله وعن ابن زيد كانوا يحلون الاصنام باليواقيت واللآلى وأنواع الجواهر ويطيبونها بألوان الطيب فربما يسقط شئ منها فيأخذه طائر أو ذباب فلا تقدر الآلهة على استرداده منه (ضعف الطالب) قال الضحاك هو العابد (والمطلوب) المعبود وقال ابن عباس الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب الذى على الصنم والمطلوب هو الصنم وقيل على العكس الطالب الصنم والمطلوب الذباب أى لو طلب الصنم أن يخلق الذباب لعجز عنه * ولما أنتج هذا جهلهم بالله عز وجل عبر عنه بقوله تعالى (ما قدروا الله) أى الذى له الكمال كله (حق قدره) أى ما عظموه حق تعظيمه وما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه (ان الله) أى الجامع لصفات الكمال (لقوى) على خلق الممكنات بأسرها (عزيز) أى لا يغلبه شئ وآلهتهم التى يعبدونها عاجزة عن أقلها مقهورة من أذلها قال الكلبى فى هذه الآية وفى نظيرها فى سورة الانعام انها نزلت فى جماعة من اليهود مالك بن الصيف وكعب بن الاشرف وكعب بن أسد وغيرهم حيث قالوا ان الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والارض وأجناس خلقها استلقى واستراح ووضع احدى رجليه على الاخرى فنزلت هذه الآية تكذيبا لهم ونزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب قال الرازى واعلم ان منشأ هذه الشبهة هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما يقوله المشبهة وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف ما يقوله الكرامية وتنزيه أفعاله عن مشابهة سائر الافعال أعنى عن الغرض والدواعى واستحقاق المدح والذم خلاف ما يقوله المعتزلة قال أبو القاسم الانصارى رحمه الله تعالى فهو سبحانه وتعالى خبير النعت عزيز الوصف فالاوهام لا تصوره والافكار لا تقدره والعقول لا تمثله والازمنة لا تدركه والجهات لا تحويه ولا تحده صمدى الذات سرمدى الصفات * ولما ذكر سبحانه وتعالى ما يتعلق بالالهيات ذكر ما يتعلق بالنبوات بقوله تعالى (الله) أى الملك الاعلى (يصطفى) أى يختار ويختص

(من)

(من الملائكة رسلا) كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل عليهم الصلاة والسلام (ومن الناس) كابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم نزلت حين قالت المشركون أأنزل عليه الذكر من بيننا فاخبر تعالى ان الاختيار اليه يختار من يشاء من خلقه (ان الله) أى الذى له الجلال والجمال (سميع) لمقالتهم (بصير) بمن يتخذه رسولا (يعلم ما بين أيديهم) أى الرسل (وما خلفهم) أى علمه محيط بما هم مطلعون عليه وبما غاب عنهم فلا يعلمون شيأ الا باذنه (والى الله) أى وحده تعالى (ترجع) بغاية السهولة (الامور) يوم يتجلى لفصل القضاء فيكون أمره ظاهرا لاخفاء فيه ولا يصدر شئ من الاشياء الا على وجه العدل الظاهر لكل احد ولا يكون لاحد التفات الى غيره وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم ولما أثبت سبحانه وتعالى أن الملك والامر له وحده خاطب المقبلين على دينه وهم الخلص من الناس بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى تلبسوا بالايمان (اركعوا) تصديقا لايمانكم (واسجدوا) أى صلوا الصلاة التى شرعتها لكم فانها رأس العبادة ليكون دليلا على صدقكم فى الاقرار بالايمان * (تنبيه) * انما خص هذين الركنين فى التعبير عن الصلاة لانهما لمخالفتهما الهيآت المعتادة هما الدالان على الخضوع فحسن التعبير بهما وذكر عن ابن عباس ان الناس كانوا فى أول الاسلام يركعون ولا يسجدون وقيل كان الناس أول ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود حتى نزلت هذه الآية ولما خص أفضل العبادة عمم بقوله تعالى (واعبدوا) أى بأنواع العبادة (ربكم) أى المحسن اليكم بكل نعمة دينية ودنيوية * ولما ذكر عموم العبادة اتبعها ما قد يكون أعم منها مما صورته صورتها أو قد يكون بلا نية فقال (وافعلوا الخير) أى كله من القرب كصلة الارحام وعيادة المريض ونحو ذلك من معالى الاخلاق بنية وبغير نية حتى يكون لكم ذلك عادة فيخف عليكم عمله لله تعالى قال أبو حيان بدأ تعالى بخاص وهو الصلاة ثم بعام وهو واعبدوا ربكم ثم بأعم وهو وافعلوا الخير (لعلكم تفلحون) أى افعلوا هذا كله وأنتم راجون الفلاح وهو الفوز بالبقاء فى الجنة طامعون فيه غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم وقال الامام أبو القاسم الانصارى لعل كلمة ترج تشعر بان الانسان قلما يخلو فى أداء فريضة من تقصير وليس هو على يقين من أن الذى أتى به مقبول عند الله والعواقب مستورة وكل ميسر لما خلق له * (تنبيه) * اختلف فى سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية فذهب قوم الى أنه يسجد عندها وهو قول عمر وعلى وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وبه قال ابن المبارك والشافعى وأحمد واسحق لظاهر ما فيها من الامر بالسجود وقول البيضاوى ولقوله صلى الله عليه وسلم فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأهما حديث ضعيف رواه الترمذى وضعفه وذهب قوم الى أنه لا يسجد وهو قول سفيان الثورى وقول أبى حنيفة وأصحابه لانهم يقولون قرن السجود بالركوع فى ذلك فدل ذلك على انها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة * ولما كان الجهاد أساس العبادة وهو مع كونه حقيقة فى جهاد الكفار صالح لان يعم كل أمر بمعروف ونهى عن منكر بالمال والنفس بالقول والفعل بالسيف وغيره وكل جهاد

فى تهذيب النفس واخلاص العمل ختم به فقال تعالى (وجاهدوا فى الله) أى لله ومن أجله أعداء دينه الظاهرة كاهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس وقول البيضاوى وعنه عليه الصلاة والسلام انه رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر حديث رواه البيهقى وضعف اسناده وقال غيره لا أصل له قيل أراد بالاصغر جهاد الكفار وبالاكبر جهاد النفس (حق جهاده) أى باستفراغ الطاقة فى كل ما أمر به من جهاد العدو والنفس على الوجه الذى أمر به من الحج والغزو وغيرهما (فان قيل) ماوجه هذه الاضافة وكان القياس حق الجهاد فى الله أو حق جهادكم فى الله كما قال تعالى وجاهدوا فى الله (أجيب) بأن الاضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لاجله صحت اضافته اليه وعن مجاهد عن الكلبى ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم * ولما أمر الله تعالى بهذه الاوامر أتبعها ببعض ما يجب به شكره وهو كالتعليل لما قبله فقال تعالى (هو اجتباكم) أى اختاركم لدينه ولنصرته وبجعل الرسالة فيكم والرسول منكم وجعله أشرف الرسل ودينه أشرف الاديان وكتابه أعظم الكتب وبجعلكم لكونكم أتباعه خير الامم (وما جعل عليكم فى الدين) أى الذى اختاره لكم (من حرج) أى من ضيق وشدة وهو أن المؤمن لا يبتلى بشئ من الذنوب الا جعل الله تعالى له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بأنواع الكفارات من الامراض والمصائب وغير ذلك فليس فى دين الاسلام ما لا يجد العبد سبيلا الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب لمن وفقه الله تعالى وسهله عند الضرورات كالقصر والتيمم وأكل الميتة والفطر للمريض والمسافر وغير ذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم رواه البخارى وعن ابن عباس أنه قال الحرج ما كان على بنى اسرائيل من الآصار التى كانت عليهم وضعها الله تعالى عن هذه الامة وقوله تعالى (ملة أبيكم) نصب بنزع الخافض وهو الكاف أو على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف أى وسع دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الاغراء أى اتبعوا ملة أبيكم أو على الاختصاص أى أعنى بالدين ملة أبيكم كقولك الحمد لله الحميد وقوله تعالى (ابراهيم) عطف بيان (فان قيل) لم كان ابراهيم أبا للامة كلها (أجيب) بأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أبا الامة لان أمة الرسول فى حكم أولاده واختلف فى عود ضمير (هو) على قولين أحدهما أنه يعود على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وان لكل نبى دعوة مستجابة ودعوة ابراهيم عليه السلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله تعالى له فجعلها محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته والثانى أنه يعود على الله تعالى فى قوله تعالى هو اجتباكم وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال ان الله تعالى (سماكم المسلمين من قبل) أى فى كل الكتب المنزلة التى نزلت قبل انزال هذا القرآن (وفى هذا) أى وسماكم فى هذا القرآن الذى أنزل عليكم من بعد انزال تلك الكتب وهذا القول كما قال الرازى أقرب لانه تعالى قال (ليكون الرسول شهيدا عليكم) أى يوم القيامة أنه بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) أى ان رسلهم

بلغتهم

بلغتهم فبين أنه تعالى سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق الا بالله تعالى وانما كانوا شهداء على الناس لسائر الانبياء لانهم لم يفرقوا بين أحد منهم وعلموا ان أخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم فلذلك صحت شهادتهم وقبلها الحكم العدل وعن كعب أعطيت هذا الامة ثلاثا لم يعطهن الا الانبياء جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم في الدين من حرج وقال تعالى ادعوني استجب لكم وعن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال لم يذكر الله بالايمان والاسلام غير هذه الامة ذكرها بهما وكررهما جميعا ولم يسمع بأمة ذكرت بالاسلام والايمان غيرها وعن مكحول ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تسمى الله عز وجل باسمين سمى بهما أمتي هو السلام وسمى أمتي المسلمين وهو المؤمن وسمى أمتي المؤمنين * (تنبيه) * في الآية دليل على أن شهادة غير المسلم ليست مقبولة * ولما ندبهم تعالى ليكونوا خير الامم تسبب عن ذلك قوله تعالى (فأقيموا الصلاة) التي هي أركان قلوبكم وصلة ما بينكم وبين ربكم أي داوموا عليها (وآتوا الزكاة) التي هي طهرة أبدانكم وصلة بينكم وبين اخوانكم (واعتصموا بالله) أي المحيط بجميع صفات الكمال في جميع ما أمركم به من المناسك التي تقدمت وغيرها ثم علل تعالى أهليته بقوله تعالى (هو) أي وحده (مولاكم) أي المتولي لجميع أموركم فهو ينصركم على كل من يعاديكم بحيث أن تتمكنوا من اظهار هذا الدين من مناسك الحج وغيرها * ثم علل الامر بالاعتصام وتوحده بالولاية بقوله تعالى (فنعم المولى) أي هو (ونعم النصير) أي الناصر لكم لانه تعالى اذا تولى أحدا كفاه كل ما أهمه واذا نصر أحدا أعلاه عن كل من خاصمه ولا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته الحديث انه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت وهذا نتيجة التقوى وما قبله من أفعال الطاعة دليلها فقد انطبق آخر السورة على أولها ورد مقطعها على مطلعها وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحج أعطي من الاجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي حديث موضوع

(سورة المؤمنين مكية)

وهي مائة وثمان أو تسع عشرة آية وألف وثمانمائة وأربعون كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة حرف

(بسم الله) الذي له الامر كله (الرحمن) الذي عم انعامه (الرحيم) الذي خص من أراد بالايمان عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل فأنزل عليه يوما فمكث ساعة حتى سري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم أرضنا وارض عنا ثم قال لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشرة آيات قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة وقيل الفلاح البقاء والنجاة روى هذا الحديث الترمذي وغيره وأنكره النسائي

وغيره * (تنبيه) * قال الزمخشري قد نقيضة لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك ان المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه (فان قيل) ما المؤمن (أجيب) بأنه في اللغة هو المصدق وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين أحدهما أن كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فهو مؤمن والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها الا البر التقي دون الفاسق * ثم انه تعالى حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعا لصفات سبعة الصفة الاولى كونهم مؤمنين الصفة الثانية المذكورة في قوله تعالى (الذين هم) أي بضمائرهم وظواهرهم (في صلاتهم خاشعون) قال ابن عباس مخبتون أذلاء وقيل خائفون وقيل متواضعون وعن قتادة الخشوع الزام موضع السجود روى الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي رافعا بصره الى السماء فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره الى نحو مسجده أي موضع سجوده وكان الرجل اذا قام الى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره الى شيء أو يحدث بشيء من شأن الدنيا وقيل هو جمع الهمة لها والاعراض عما سواها ومن الخشوع أن يستعمل الادب فيتوقى كف الثوب والعبث بجسده وثيابه والتشبيك والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والاختصار وتقليب الحصى روى الترمذي لكن بسند ضعيف أنه صلى الله عليه وسلم أبصر رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه ونظر الحسن الى رجل يعبث بالحصى وهو يقول اللهم زوجني الحور العين فقال بئس الخاطب أنت تخطب وأنت تعبث وعنه أنه قال كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي الى العقوبة أسرع وعن معاذ ابن جبل من عرف من على يمينه وشماله وهو في الصلاة فلا صلاة له وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال انما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها وقال صلى الله عليه وسلم كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب وقال من لم تنهه الصلاة عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا فينبغي للشخص أن يحتاط في صلاته ليوقعها على التمام فان بعض العلماء اختار عدم الامامة فقيل له في ذلك فقال أخاف ان تركت الفاتحة أن يعاتبني الشافعي وان قرأتها أن يعاتبني أبو حنيفة فاخترت عدم الامامة طلبا للخلاص من هذا الخلاف (فان قيل) لم أضيفت الصلاة اليهم (أجيب) بأن الصلاة وصلة بين الله وبين عباده والمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدته وذخيرته فهي صلاته وأما الله تعالى فهو غني متعال عن الحاجة اليها والانتفاع بها الصفة الثالثة المذكورة في قوله تعالى (والذين هم) أي بضمائرهم التي تتبعها ظواهرهم (عن اللغو) قال ابن عباس عن الشرك (معرضون) أي تاركون وقال الحسن عن المعاصي وقال الزجاج هو كل باطل ولهو وما لا يحمد من القول والفعل وقيل هو كل ما لا يعني الشخص من قول أو فعل وهو ما يستحق أن يسقط ويلغى فمدحهم الله تعالى بأنهم معرضون عن هذا اللغو والاعراض عنه هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما أي اذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه الصفة الرابعة المذكورة في قوله تعالى

(والذين

(والذين هم للزكاة فاعلون) أى مؤدون * (تنبيه) * الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين هو القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب الى المستحق والمعنى فعل المزكى الذى هو التزكية وهو المراد هنا لانه مامن مصدر الا و يعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل تقول للضارب فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل التزكية و يجوز أن يراد بالزكاة العين و يقدر مضاف محذوف وهو الاداء وقيل الزكاة هنا هى العمل الصالح لان هذه السورة مكية وانما فرضت الزكاة بالمدينة سنة اثنتين من الهجرة قال البقاعى والظاهر أن التى فرضت بالمدينة هى ذات النصب وان أصل الزكاة كان واجبا بمكة كما قال تعالى فى سورة الانعام وآتوا حقه يوم حصاده انتهى الصفة الخامسة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم لفروجهم) فى الجماع ومقدماته (حافظون) أى دائما لا يتبعونها شهواتها والفرج اسم لسوأة الرجل والمرأة وحفظه التعفف عن الحرام ثم استثنى من ذلك قوله تعالى (الا على أزواجهم) اللاتى استحقوا أبضاعهن بعقد النكاح ولعل والذكر عبر بعلى ونظيره كان زياد على البصرة أى واليا عليها ومنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشا وقيل على بمعنى من وجرى على ذلك البغوى (أوما ملكت ايمانهم) رقابه من الاماء (فان قيل) هلا قال تعالى أو من ملكت (أجيب) بأنه انما عبر بما لقرب الاماء مما لا يعقل لنقصهن عن الحرائر الناقصات عن الذكور ولانه اجتمع فيها وصفان أحدهما الانوثة وهى مظنة نقصان العقل والاخرى كونها بحيث تباع وتشترى كسائر السلع قال البغوى والآية فى الرجال خاصة لان المرأة لا يجوز لها أن تستمتع بفرج مملوكها (فانهم غير ملومين) على ذلك اذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الاتيان فى غير المأتى وفى حال الحيض أو النفاس أو نحو ذلك كوطء الامة قبل الاستبراء فانه حرام ومن فعله فانه ملوم (فمن ابتغى) أى طلب متعديا (وراء ذلك) العظيم المنفعة الذى وقع استثناؤه بزنا أو لواط أو استمناء بيد أو بهيمة أو غيرها (فأولئك) المبعدون من الفلاح (هم العادون) أى المبالغون فى تعدى الحدود عن سعيد بن جبير قال عذب الله تعالى أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم أى فى أيديهم وقيل يحشرون وأيديهم حبالى الصفة السادسة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم لاماناتهم) أى فى الفروج وغيرها سواء كانت بينهم وبين الله كالصلاة والصيام أو بينهم وبين الخلق كالودائع والبضائع أو فى المعانى الباطنة كالاخلاص والصدق (وعهدهم راعون) أى حافظون بالقيام والرعاية والاصلاح والعهد ما عقده الشخص على نفسه فيما يقربه الى ربه و يقع أيضا على ما أمر الله تعالى به كقوله تعالى الذين قالوا ان الله عهد الينا * (تنبيه) * سمى الشئ المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها وقال تعالى وتخونوا اماناتكم وانما تؤدى العيون لا المعانى ويخان المؤتمن عليه لا الامانة فى نفسها وقرأ ابن كثير لامانتهم بغير ألف بين النون والتاء على الافراد لامن الالباس أو لانها فى الاصل مصدر والباقون بالالف على الجمع الصفة السابعة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم على صلواتهم) التى وصفوا بالخشوع فيها (يحافظون) أى يواظبون

عليها ولا يتركون شيأمن مفروضاتها ولا مسنوناتها يجتهدون فى كمالاتها جهدهم ويؤدونها فى أوقاتها (فان قيل) كيف كرر الصلاة أولا وآخرا (أجيب) بأنهما ذكران مختلفان فليس بمكرر وصفوا أولا بالخشوع فى صلاتهم وآخرا بالمحافظة عليها وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدوها فى أوقاتها ويقيموا أركانها ويوطنوا أنفسهم بالاهتمام بها وبما ينبغى أن تتم به اوصافها وأيضا فقد وحدت أولا ليفاد الخشوع فى جنس الصلاة أى صلاة كانت وجمعت آخرا على غير قراءة حمزة والكسائى فانّ غيرهما قرأ بالجمع وأمّاهما فقرآ بالافراد لتفاد المحافظة على أعدادها وهى الصلوات الخمس والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة وصلاة الجنازة والعيدين والكسوفين والاستسقاء والوتر والضحى وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل * ولماذكر تعالى مجموع هذه الصفات العظيمة فخم جزاءهم فقال تعالى (أولئك) أى البالغون من الاحسان أعلى مكان (هم الوارثون) أى المستحقون لهذا الوصف فيرثون منازل أهل الجنة فى الجنة روى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنكم من أحد الا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فان مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله وقال مجاهد الكل واحد منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فأما المؤمن فيبنى منزله الذى له فى الجنة ويهدم منزله الذى له فى النار وأمّا الكافر فيهدم منزله الذى فى الجنة ويبنى منزله الذى له فى النار وقال بعض المفسرين معنى الوراثة هو أن يؤل أمرهم الى الجنة وينالوها كما يؤل أمر الميراث الى الوارث (الذين يرثون الفردوس) وهو أعلى الجنة عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض والفردوس أعلاها درجة منها تفجر أنهار الجنة الاربعة ومن فوقها يكون عرش الرحمن فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس اللهم بجاه محمد صلى الله عليه وسلم أن تجعلنا ووالدينا وأحبابنا من أهله (هم فيها خالدون) أى لا يخرجون منها ولا يموتون وأنث الفردوس بقوله تعالى فيها على تأنيث الجنة وهو البستان الواسع الجامع لاصناف الثمر روى أنّ الله تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الاذفر وفى رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان وروى أنّ الله تعالى خلق ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس الفردوس بيده ثم قال وعزتى لا يدخلها مدمن خمر ولا ديوث والمراد أنّ الله تعالى لم يكل ذلك الى غيره من ملك من الملائكة والجنة مخلوقة الآن قال تعالى أعدّت للمتقين * ولما أمر سبحانه وتعالى بالعبادات فى هذه الآيات والاشتغال بعبادة الله لا يصح الا بعد معرفة الله تعالى عقبها بذكر مايدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا الاول الاستدلال بتقلب الانسان فى أدوار الخلقة وأدوار الفطرة وهى تسع مراتب الاولى قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان) أى آدم (من سلالة) هى من سللت الشئ من الشئ أى استخرجته منه وهو خلاصته وقال ابن عباس السلالة صفوة الماء وقوله تعالى (من طين) متعلق بسلالة وقيل المراد

بالانسان

بالانسان هذا النوع والسلالة قال مجاهد من بنى آدم وقال عكرمة هو الماء يسيل من الظهر والعرب تسمى النطفة سلالة والولد سليلا وسلالة لانهما مسلولان منه المرتبة الثانية قوله تعالى (ثم جعلناه) أى نسله بحذف المضاف (نطفة) أى منيا من الصلب والترائب بأن خلقناه منها (فى قرار مكين) أى مستقر حصين هو الرحم * (تنبيه) * مكين فى الاصل صفة للمستقر فى الرحم وصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم) أى بعد تراخ فى الزمان وعلو فى المرتبة والعظمة (خلقنا) أى بما لنا من العظمة (النطفة) اى البيضاء جدا (علقة) حمراء دما غليظا شديد الحمرة جامدا غليظا المرتبة الرابعة قوله تعالى (فخلقنا) أى بما لنا من القوة والقدرة العظيمة (العلقة مضغة) أى قطعة لحم قدر ما يمضغ لاشكل فيها ولا تخطيط المرتبة الخامسة قوله تعالى (فخلقنا المضغة) أى بتقليبها بما شئنا لها من الحرارة والامور اللطيفة الغامضة (عظاما) من رأس ورجلين وما بينهما المرتبة السادسة قوله تعالى (فكسونا) بما لنا من قوة الاختراع تلك (العظام لحما) بما ولدنا منها ترجيعا لحالها قبل كونها عظاما فسترنا تلك العظام وقويناها وشددناها بالروابط والاعصاب وقرأ ابن عامر وأبو بكر عظاما والعظام بفتح العين واسكان الظاء من غير ألف على التوحيد اكتفاء باسم الجنس عن الجمع والباقون بكسر العين وفتح الظاء وألف بعدها على الجمع قال الجلال المحلى وخلقنا فى المواضع الثلاثة بمعنى صيرنا المرتبة السابعة قوله تعالى (ثم أنشأناه) أى هذا المحدث عنه بعظمتنا (خلقا آخر) أى خلقا مباينا للخلق الاول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وكان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا وكان أكمه وأودع ظاهره وباطنه بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطره وغرائب حكمه لا تدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح وثم لما بين الخلقين من التفاوت قال الزمخشرى وقد احتج به أبو حنيفة رحمه الله فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده فقال يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لانه خلق آخر سوى البيضة اهـ ولما كان هذا التفصيل لتطوير الانسان سببا لتعظيم الخالق قال تعالى (فتبارك الله) أى تنزه عن كل شائبة نقص وحاز جميع صفات الكمال وأشار الى جمال الانسان بقوله تعالى (أحسن الخالقين) أى المقدرين ومميز أحسن محذوف أى خلقا روى عن عمر رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ قوله خلقا آخر قال فتبارك الله أحسن الخالقين وروى أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنطق بذلك قبل املائه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هكذا انزلت فقال عبد الله ان كان محمد نبيا يوحى اليه فانا نبى يوحى الى فلحق بمكة كافرا ثم أسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا أنزلت يا عمر وكان عمر يقول وافقنى ربى فى أربع الصلاة خلف المقام وضرب الحجاب على النسوة وقولى لهن أو ليبدلنه الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن الآية والرابع قلت فتبارك الله أحسن الخالقين فقال هكذا نزل

قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب السعادة لعمرو والشقاوة لعبد الله بن سعد بن أبي سرح فانه قيل انه مات كافرا قال الله تعالى يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا المرتبة الثامنة قوله تعالى (ثم انكم بعد ذلك) أي الامر العظيم من الوصف بالحياة والمد في العمر في آجال متفاوتة ما بين طفل ورضيع ومحتلم شديد وشاب نشيط وكهل عظيم وشيخ هرم الى ما بين ذلك من شؤن لا يحيط بها الا اللطيف الخبير (لميتون) أي لصائرون الى الموت لا محالة ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت وهو ميت دون اسم الفاعل وهو مائت فانه للحدوث لا للثبوت المرتبة التاسعة قوله تعالى (ثم انكم يوم القيامة) أي الذي تجمع فيه جميع الخلائق (تبعثون) للحساب والجزاء * النوع الثاني من الدلائل الاستدلال بخلق السموات وهو قوله تعالى (ولقد خلقنا فوقكم) في جميع جهة الفوق في ارتفاع لا تدركونه حق الادراك (سبع طرائق) أي سموات جمع طريقة لانها طرق الملائكة ومتعلقاتهم وقيل الافلاك لانها طرائق الكواكب فيها مسيرها وقيل لانها طارق بعضها فوق بعض كطارقة النعل وكل شئ فوقه مثله فهو طريقة (وما كنا) أي بما لنا من العظمة (عن الخلق) أي الذي خلقناه تحتها (غافلين) أي ان تسقط عليهم فتهلكهم بل نمسكها كآية ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ولا مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلاف وتدبير أمرها حتى تبلغ منتهى أمرها وما قدر لها من الكمال حسب ما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة * النوع الثالث من الدلائل الاستدلال بنزول الامطار وكيفية تأثيرها في النبات وهو قوله تعالى (وأنزلنا من السماء) أي من جرمها وهو ظاهر اللفظ وعليه أكثر المفسرين أو من السحاب وسماه سماء لعلوه (ماء بقدر) أي بقدر ما يكفيهم لمعاشهم في الزرع والغرس والشرب وأنواع المنفعة ويسلمون معه من المضرة اذ لو كان فوق ذلك لاغرقت البحار الاقطار ولو كان دون ذلك لادى الى جفاف النبات والاشجار (فاسكناه) أي فجعلناه ثابتا مستقرا (في الارض) كقوله تعالى فسلكه ينابيع في الارض وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا العراق والنيل نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل فاستودعها الجبال وأجراها في الارض وجعل فيها منافع للناس من أصناف معايشهم فاذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله تعالى جبريل فرفع من الارض القرآن والعلم كله والحجر الاسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء وذلك قوله تعالى (وانا على ذهاب به لقادرون) قدرة هي في نهاية العظمة فانا كما قدرنا على ايجاده واختراعه نقدر على رفعه وازالته وزواله فاذا رفعت هذه الاشياء كلها من الارض فقد أهلها خير الدين والدنيا قال البغوي وروى هذا الحديث الامام الحسن بن سفيان عن عثمان ابن سعد عن سابق الاسكندري عن سلمة بن علي عن مقاتل بن حبان * (تنبيه) * في تنكير ذهاب ايماء الى تكثير طرقه وفيه ايذان باقتدار المذهب وأنه لا يتعايا عليه شئ اذا أراده وهو أبلغ

فى الايعاد من قوله تعالى قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين فعلى العباد أن يستعظموا النعمة فى الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ويخافوا انفادها اذا لم تشكر ثم انه تعالى سبحانه لما نبه على عظم نعمته بخلق الماء ذكر بعده هذه النعمة الحاصلة من الماء بقوله تعالى (فأنشأنا) أى فأخرجنا وأحيينا (لكم) خاصة لالنا (به) أى بذلك الماء الذى جعلنا منه كل شئ حى (جنات) أى بساتين (من نخيل وأعناب) صرح بهذين الصنفين لشرفهما ولانهما أكثر ما عند العرب من الثمار وسمى الاول باسم شجرته لكثرة ما فيها من المنافع المقصودة بخلاف الثانى فانه المقصود من شجرته وأشار الى غيرهما بقوله تعالى (لكم) أى خاصة (فيها) أى الجنات (فواكه كثيرة) تتفكهون بها (ومنها) أى ومن الجنات من ثمارها وزروعها (تأكلون) رطبا ويابسا وتمرا وزبيبا وقوله تعالى (وشجرة) عطف على جنات أى وأنشأنا لكم شجرة أى زيتونة (تخرج من طور سيناء) وهو الجبل الذى كلم الله تعالى عليه موسى بن عمران عليه السلام بين مصر وايلة وقيل بفلسطين وفى رواية أخرى طور سينين ولا يخلوا اما أن يضاف فيه الطور الى بقعة اسمها سيناء أو سينين واما أن يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وبعلبك فمن أضاف فمن كسر سين سيناء وهو نافع وابن كثير وأبو عمرو فقد منع الصرف للتعريف والعجمة والتأنيث لانها بقعة وفعلاء لا تكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء ومن قرأ بفتح السين وهم الباقون لم يصرفه لان الالف للتأنيث كصحراء قال مجاهد معناه البركة أى من جبل مبارك وقال قتادة معناه الحسن أى الجبل الحسن وقال الضحاك هو بالقبطية ومعناه الحسن وقال عكرمة بالحبشية وقال مقاتل كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سيناء وسينين بلغة القبط وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (تنبت) بضم التاء الفوقية وكسر الباء الموحدة من الرباعى والباقون بفتح الفوقية وضم الموحدة من الثلاثى فقوله تعالى (بالدهن) تكون الباء على الاول زائدة وعلى الثانى معدية قال المفسرون وانما أضافها الله تعالى الى هذا الجبل لان منه تشعبت فى البلاد وانتشرت ولان معظمها هنالك قال بعض المفسرين وانما عرف الدهن لانه أجل الادهان وأكملها وهو فى الاصل مائع لزج خفيف يتقطع ولا يختلط بالماء الذى هو أصله فيسرج ويدهن به وقوله تعالى (وصبغ للآكلين) عطف على الدهن أى ادام يصبغ اللقمة بغمسها فيه وهو الزيت قيل انها أول شجرة نبتت بعد الطوفان ووصفها الله تعالى بالبركة فى قوله تعالى توقد من شجرة مباركة * النوع الرابع من الدلائل الاستدلال بأحوال الحيوانات وهو قوله تعالى (وان لكم فى الانعام) وهى الابل والبقر والغنم (لعبرة) عظيمة تعتبرون بها وتستدلون بها على البعث وغيره (نسقيكم مما فى بطونها) أى اللبن نجعله لكم ثمرا نافعا للبدن موافقا للشهوة تلتذون به من بين الفرث والدم (ولكم فيها) أى جماعة الانعام وقدم الجار تعظيما لمنافعها حتى كان غيرها عدم (منافع كثيرة) باستسلامها لما يراد منها مما لا يتيسر من أصغر منها وبأولادها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وغير ذلك من آثارها (ومنها تأكلون) أى وكما تنتفعون بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح أيضا بسهولة من غير امتناع ما من شئ من

ذلك ولوشاء لمنعها وسلطها عليكم ولوشاء لجعـل لحها لاينضج أوجعـله قذرا لايؤ كل ولكنه بقدرته وعلمه هيأها للماذ كروذللها (وعليها) أى الانعام الصالحة للحمل وهى الابل والبقر وقيل المراد الابل خاصـة لانها هى المحمول عليها فى العادة وقرنها بالفلك التى هى السفن فى قوله تعالى (وعلى الفلك تحملون) لانها سفائن البر فكما يحمل على الفلك فى البحر فيحمل على هذه فى البر قال ذوالرمة فى المعنى *سفينة بر تحت خدى زمامها* قال الزمخشرى يريد صيدحه أى ناقته لان اسمها كان صيدح قال

رأيت الناس ينتجعون غيثا * فقلت لصيدح انتجعى بلالا

يريد بلال بن أبى بردة الاشعرى والى الكوفة * ولما بين سبحانه وتعالى دلائل التوحيد أردفها بذكر القصص كما هو العادة فى سائر السور مبتدئا بقصة نوح عليه السلام فقال تعالى (ولقد أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (نوحا) وهو الاب الثانى بعد آدم عليهما الصلاة والسلام وكان اسمه يشكر وسمى نوحا لوجوه أحدها الكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك فأهلكهم الله تعالى بالطوفان فندم على ذلك ثانيها المراجعته ربه فى شأن ابنه ثالثها أنه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فعوتب على ذلك (الى قومه) وهم جميع أهل الارض لتواصل ما بينهم لكونهم على لغة واحدة محصورين لا لأنه أرسل الى الخلق كافة لان ذلك من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء (فقال) أى فتسبب عن ذلك ان قال (ياقوم) ترفقا بهم (اعبدوا الله) وحده لانه الهكم وحده لاستحقاقه لجميع خلال الكمال واستأنف على سبيل التعليل قوله (مالكم من اله) أى معبود بحق (غيره) فلا تعبدوا سواه (أفلا تتقون) أى أفلا تخافون عقوبته ان عبدتم غيره وقرأ الكسائى بكسر الراء والهاء والباقون بضمهما (فقال) أى فتسبب عن ذلك ان كذبوه بأن قال (الملأ) أى الاشراف الذى تملأ رؤيتهم الصدور وعظمة (الذين كفروا من قومه) لعوامهم (ماهذا) أى نوح عليه السلام (الابشر مثلكم) أى فلا يعلم مالا تعلمون فانكروا أن يكون بعض البشر نبيا ولم يشكروا أن يكون بعض الطين انسانا وبعض الماء علقة وبعض العلقة مضغة الى آخره فكأنه قيل ما حمله على ذلك فقالوا (يريد أن يتفضل) يتكلف الفضل بادعاء مثل هذا (عليكم) لتكونوا أتباعا له ولا خصوصية له دونكم (ولوشاء الله) أى الملك الاعلى الارسال اليكم وعدم عبادة غيره (لانزل) كذلك (ملائكة) رسلا بابلاغ الوحى الينا قال الزمخشرى وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للالوهية بحجر (ماسمعنا بهذا) أى الذى دعا اليه نوح من التوحيد (فى آبائنا الاولين) أى الامم الماضية (ان) أى ما (هو الا رجل به جنة) أى جنون ولاجله يقول ما يدعيه (فتربصوا به) أى فتسبب عن الحكم بجنونه انا نأمركم بالكف عنه لانه لاحرج على جنونه (حتى) أى الى (حين) لعله يفيق أو يموت فكأنه قيل فما قال فقيل (قال) عندما أيس من فلاحهم (رب انصرنى) أى أعنى عليهم (بما كذبون) أى بسبب تكذيبهم لى فان تكذيب الرسول استخفاف بالمرسل (فأوحينا) أى فتسبب عن دعائه أن أوحينا (اليه أن اصنع الفلك) أى السفينة (بأعيننا) أى انه لا يغيب عنا شئ من أمرك

ولا من أمرهم وأن تعرف قدرتنا على كل شئ فتق بحفظنا ولا تخف شيأ من أمرهم روى أنه لما أوحى اليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر قال الجوهرى جؤجؤ الطائر والسفينة صدرهما والجمع الجآجئ * ولما كان لا يعلم الصنعة قال تعالى (ووحينا) أى وأمرنا وتعليمنا كيف تصنع فان جبريل علمه عمل السفينة ووصف كيفية اتخاذها له وقد تقدم الكلام عليها مستوفى فى سورة هود (فاذا جاء أمرنا) أى بالهلاك عقب ما اغلك منها أو بالركوب (وفار التنور) قال ابن عباس وجه الارض وفى القاموس التنور الكانون يخبز فيه ووجه الارض وعن قتادة أنه أشرف موضع فى الارض أى أعلاه وعن على طلع الفجر وعن الحسن أنه الموضع المنخفض من السفينة الذى يسيل الماء اليه وقيل هو مثل كقولهم حمى الوطيس والاقرب كما قال الرازى وعليه أكثر المفسرين هو التنور المعروف بتنور الخباز فيكون له فيه آية روى أنه قيل لنوح اذا رأيت الماء يفور فى التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم وكان من حجارة فصار الى نوح واختلف فى مكانه فعن الشعبى فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى من الهمزتين المفتوحتين من كلمتين وحقق الاولى وسهل الثانية ورش وقنبل (فاسلك) أى أدخل (فيها) أى السفينة (من كل زوجين) من الحيوان (اثنين) ذكرا وأنثى وقرأ حفص بتنوين اللام من كل أى من كل نوع زوجين فزوجين مفعول واثنين تأكيد والباقون بغير تنوين فاثنين مفعول ومن متعلق باسلك وفى القصة ان الله تعالى حشر لنوح السباع والطير وغيرهما فجعل يضرب بيده فى كل جمع فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الانثى فيحملهما فى السفينة وروى أنه لم يحمل الا ما يلد ويبيض (وأهلك) أى وأهل بيتك من زوجك وأولادك (الا من سبق عليه) لا له (القول منهم) بالهلاك وهو زوجته وولده كنعان بخلاف سام وحام ويافث فحملهم وزوجاتهم الثلاثة وفى سورة هود ومن آمن وما آمن معه الا قليل قيل كانوا ستة رجال ونساءهم وقيل جميع من كان فى السفينة ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء (ولا تخاطبنى) أى بالسؤال فى النجاة (فى الذين ظلموا) أى كفروا ثم علل ذلك بقوله تعالى (انهم مغرقون) أى قد حتم القضاء عليهم لظلمهم بالاشراك والمعاصى ومن هذا شأنه لا يشفع له فانه تعالى بعد ان أملى لهم الدهر المتطاول فلم يزيدوا الا ضلالا ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق الا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ونحن نكرمك عن سؤال لا يقبل ولقد بالغ سبحانه وتعالى حيث اتبع النهى عنه الامر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم بقوله تعالى (فاذا استويت) أى اعتدلت (أنت ومن معك) أى من البشر وغيرهم (على الفلك) ففرغت من امتثال الامر بالحمل (فقل الحمد لله) أى الذى لا كفء له لانه مختص بصفات الحمد (الذى نجانا) بحملنا فيه (من القوم) أى الاعداء الاغبياء (الظالمين) أى الكافرين لقوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين * (تنبيه) * انما قال تعالى قل ولم يقل قولوا لان نوحا عليه السلام كان لهم نبيا واماما

فكان قوله قولا لهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبوة واظهار كبرياء الربوبية وان رتبة تلك المخاطبة لا يترقى اليها الا ملك أو نبي ولما أشار له بهذا القول الى السلامة بالحل أتبعه بالاشارة الى الوعد باسكان الارض بقوله تعالى (وقل رب أنزلني) في الفلك ثم في الارض وفي كل منزل تنزلني به وتورثني اياه (منزلا مباركا) أي يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين وقرأ أبو بكر بفتح الميم وكسر الزاي أي مكان النزول والباقون بضم الميم وفتح الزاي مصدرا واسم مكان ثم ان الله تعالى أمره أن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسئلته وهو قوله تعالى (وأنت خير المنزلين) ماذكر لانك تكفي نزيلك كل ملم وتعطيه كل أمر * ولما كانت هذه القصة من أغرب القصص حث على تدبرها بقوله تعالى (ان في ذلك) أي الامر العظيم من أمر نوح والسفينة واهلاك الكفار (لآيات) أي دلالات على قدرة الله تعالى وصدق الانبياء في ان المؤمنين هم المفلحون وانهم الوارثون للارض بعد الظالمين وان عظمت شوكتهم واشتدت صولتهم (وان كنا) بما لنا من العظمة والوصف الثابت الدال على تمام القدرة (لمبتلين) أي فاعلين فعل الخبير المختبر لعبادنا بارسال الرسل ليظهر في عالم الشهادة الصالح منهم من غيره ثم نبتلي الصالحين منهم بما يزيد حسناتهم وينقص سيا تهم ويعلي درجاتهم ثم نجعل لهم العاقبة كما قال تعالى والعاقبة للمتقين *(تنبيه)* ان هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان واللام هي الفارقة * القصة الثانية قصة هود وقيل صالح عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (ثم أنشأنا) أي أحدثنا وأحيينا (من بعدهم) أي من بعد اهلاكهم (قرنا) أي قوما (آخرين) هم عاد قوم هود وقيل ثمود قوم صالح (فأرسلنا) أي فتعقب انشاءنا لهم وتسبب عنه انا أرسلنا (فيهم رسولا منهم) هو هود وقيل صالح قال البغوي والاول هو الاظهر وهو المروي عن ابن عباس ويشهد له حكاية الله قول هود واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ومجيء قصة هود على اثر قصة نوح في سورة الاعراف وسورة هود والشعراء ثم بين تعالى ما أرسل به بقوله تعالى (أن اعبدوا الله) أي وحدوه لانه لا مكافئ له ثم دل على الاستغراق بقوله تعالى (ما لكم من اله غيره أفلا تتقون) أي هذه الحالة التي أنتم عليها المخافة عقابه فتؤمنون وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم النون في الوصل والباقون بكسرها والقراءة في غيره ذكرت قريبا (وقال الملأ) أي الاشراف التي تملأ رؤيتهم الصدور (من قومه الذين كفروا) أي غطوا ما يعرفون من أدلة التوحيد والانتقام من المشركين (وكذبوا بلقاء الآخرة) أي بالمصير اليها (وأترفناهم) أي والحال انا بما لنا من العظمة نعمناهم (في الحياة الدنيا) بالاموال والاولاد وكثرة السرور يخاطبون أتباعهم (ما هذا) أشاروا اليه تحقيرا له عند المخاطبين (الا بشر مثلكم) في الخلق والحال ثم وصفوه بما يوهم المساواة لهم في كل وصف فقالوا (يأكل مما تأكلون منه) أي من طعام الدنيا (ويشرب مما تشربون) أي من شرابها فكيف يكون رسولا دونكم وقولهم (ولئن) اللام لام قسم أي والله لئن (أطعتم بشرا مثلكم) أي فيما يأمركم به (انكم اذا) أي ان أطعتموه (لخاسرون) أي مغبونون لكونكم فضلتم مثلكم عليكم بما يدعيه ثم بنوا

انكارهم بقولهم (أيعدكم أنكم اذا متم) ففارقت أرواحكم أجسادكم (وكنتم) أى وكانت أجسادكم (ترابا) باستيلاء التراب على مادون عظامكم (وعظاما) مجردة عن اللحوم والاعصاب (أنكم مخرجون) أى من تلك الحالة التى صرتم اليها فراجعون الى ما كنتم عليه من الحياة على ما كان لكم من الاجسام * (تنبيه) * قوله تعالى مخرجون خبر انكم الاولى وانكم الثانية تأكيد لها لما طال الفصل ثم استأنفوا التصريح بما دل عليه الكلام من استبعاد ذلك فقالوا (هيهات هيهات) اسم فعل ماض بمعنى مصدر أى بعد بعد جدا وقال ابن عباس هى كلمة بعد أى بعيد ثم كأنه قيل لاى شئ هذا الاستبعاد فقيل (لما توعدون) من الاخراج من القبور (فان قيل) ما توعدون هو المستبعد ومن حقه أن يرفع بهيهات كما ارتفع به فى قوله * فهيهات هيهات العقيق وأهله * فما هذه اللام (أجيب) بان الزجاج قال فى تفسيره البعد لما توعدون فنزل منزلة المصدر ويصح أن تكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد كما جاءت اللام فى هيت لك لبيان المهيت به أو ان اللام زائدة للبيان * (فائدة) * وقف البزى والكسائى على هيهات الاولى والثانية بالهاء والباقون بالتاء على المرسوم وقولهم (ان هى) ضمير لا يعلم ما يعنى به الا بما يتلوه من بيانه وأصله ان الحياة (الا حياتنا الدنيا) ثم وضع هى موضع الحياة لان الخبر يدل عليها ويبينها ومنه هى النفس تحمل ما حملت والمعنى لا حياة الا هذه الحياة لان ان النافية دخلت على هى التى بمعنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التى نفت ما بعدها نفى الجنس (نموت ونحيى) أى يموت منا من هو موجود وينشأ آخرون بعدهم وقيل يموت قوم ويحيا قوم وقيل تموت الآباء وتحيا الابناء وقيل فى الآية تقديم وتأخير أى نحيا ونموت لانهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت كما قالوا (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت فكأنه قيل فما هذا الكلام الذى يقوله فقيل كذب ثم حصروا أمره فى الكذب فقالوا (ان) أى ما (هو الا رجل افترى) أى تعمد (على الله) أى الملك الاعلى (كذبا) فلا يلتفت اليه (وما نحن له بمؤمنين) أى بمصدقين فيما يخبرنا به من البعث والرسالة فكأنه قيل فما قال فقيل (قال رب) أى أيها المحسن الى بالرسالة وبارسالى اليهم وبغيره من أنواع النعم (انصرنى) أى أوقع لى النصر (بما كذبون) فأجابه ربه بان (قال عما قليل) من الزمان وما زائدة وأكدت القلة بزيادتها (ليصبحن) أى ليصيرن (نادمين) أى على كفرهم وتكذيبهم اذا عاينوا العذاب (فأخذتهم الصيحة) أى صيحة العذاب والهلاك كائنة (بالحق) أى الامر الثابت من العذاب الذى لا يمكن مدافعته لهم ولا لغيرهم غير الله تعالى فماتوا وقيل صيحة جبريل عليه السلام ويكون القوم ثمود على الخلاف السابق (فجعلناهم) بسبب الصيحة (غثاء) أى مطروحين ميتين كما يطرح الغثاء شبهوا فى دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما بلى واسود من الورق والعيدان ومنه قوله فجعله غثاء أحوى أى أسود يابسا * ولما كان هلاكهم على هذا الوجه سببا لهوانهم عبر عنه بقوله تعالى (فبعدا) أى هلاكا وطردا عن الرحمة (للقوم الظالمين) الذين وضعوا قوتهم التى كان يجب عليهم بذلها فى نصر الرسل فى خذلانهم * (تنبيه) * يحتمل هذا الدعاء عليهم والاخبار عنهم ووضع

الظاهر موضع ضميرهم للتعليل وبعدا وسحقا ونفرا وتخويفا ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه نصبت بأفعال لا يستعمل اظهارها * القصة الثالثة المذكورة في قوله تعالى (ثم أنشأنا) أي بعظمتنا التي لا يضرها تقديم ولا تأخير (من بعدهم) أي من بعد من قدمنا ذكره من نوح والقرن الذي بعده (قرونا) أي أقواما (آخرين) فهو سبحانه وتعالى تارة يقص علينا في القرآن مفصلا كما تقدم وتارة يقص مجملا كما هنا وقيل المراد قصة لوط وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام وعن ابن عباس بني اسرائيل ثم انه تعالى أخبر بأنه لم يعجل على أحد منهم قبل الاجل الذي أجل لهم بقوله تعالى (ما تسبق من أمة أجلها) أي الذي قدر لها بأن تموت قبله (وما يستأخرون) عنه * (تنبيه) * ذكر الضمير بعد تأنيثه رعاية للمعنى ومن زائدة (ثم أرسلنا رسلنا تترا) أي متتابعين بين كل اثنين زمان طويل وقرأ أبو عمرو رسلنا بسكون السين والباقون برفعها وقرأ تترا ابن كثير وأبو عمرو في الوصل بتنوين الراء على أنه مصدر بمعنى التواتر وقع حالا والباقون بغير تنوين ولما كان كأنه قيل فكان ماذا قيل (كلما جاء أمة رسولها) أي بما أمرناه من التوحيد (كذبوه) أي كما فعل هؤلاء بك لما أمرتهم بذلك * (تنبيه) * أضاف الرسول مع الارسال الى الرسل ومع المجيء الى المرسل اليهم لان الارسال الذي هو مبدأ الامر منه والمجيء الذي هو منتهاه اليهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والواو والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم في المد (فأتبعنا) القرون بسبب تكذيبهم (بعضهم بعضا) في الاهلاك فلم يبق عند الناس منهم الا أخبارهم كما قال تعالى (وجعلناهم أحاديث) أي أخبارا يسمعونها ويتعجب منها لتكون واعظة للمستبصرين فيعلموا أنه لا يفلح الكافرون ولا يخيب المؤمنون وما أحسن قول القائل

ولا شيء يدوم فكن حديثا * جميل الذكر فالدنيا حديث

والاحاديث تكون جمعا للحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكون جمعا للاحدوثة التي هي مثل الاعجوبة والالعوبة وهي ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا وهو المراد هنا ولما تسبب عن تكذيبهم هلاكهم المقتضي لبعدهم قال تعالى (فبعدا لقوم) أي أقوياء على ما يطلب منهم (لا يؤمنون) أي لا يوجد منهم ايمان وان جرت عليهم الفصول الاربعة لانه لا مزاج لهم معتدل * القصة الرابعة قصة موسى وهرون عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (ثم أرسلنا) أي بما لنا من العظمة (موسى وأخاه هرون بآياتنا) قال ابن عباس الآيات التسع وهي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والبحر والسنين ونقص الثمرات (وسلطان مبين) أي حجة بينة وهي العصا وأفردها بالذكر لانها قد تعلق بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها وكونها حارسا وشمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلوا ورشاء فجعلت كأنها ليست بعضا لما استبدت به من الفضائل فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ويجوز أن يراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية

دلالتها

دلالتها على الصدق وذلك لانها وان شاركت آيات سائر الانبياء فى كونها آيات فقد فارقتها فى قوة دلالتها على قول موسى عليه السلام وان يراد بالسلطان المبين المعجزات وبالآيات الحجج وان يراد بها المعجزات فانها آيات النبوة وحجة بينة على مايدعيه النبى قال الرازى واعلم ان الآية تدل على أن معجزات موسى كانت معجزات هرون أيضا وان النبوة كما كانت مشتركة بينهما فكذلك المعجزات (الى فرعون وملائه) أى وقومه ولكن لما كان الاطراف لايخالفون الاشراف عدهم عدما ومن الواضح ان التقدير أن اعبدوا الله مالكم من اله غيره وأشار بقوله تعالى (فاستكبروا) الى انهم أوجدوا الكبر عن الاتباع فيما دعوهم اليه عقب الابلاغ من غير تأمل ولاتثبت وطلبوا أن لايكونوا تحت أمر من دعاهم وأشار بالكون الى فساد جبلتهم بقوله تعالى (وكانوا قوما) أى أقوياء (عالين) أى متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم ولما تسبب عن استكبارهم وعلوهم انكارهم للاتباع قال تعالى (فقالوا أنؤمن) أى بالله تعالى مصدقين (لبشرين مثلنا) أى فى البشرية والأكل والمشرب وغيرهما مما يعترى البشر كما قال من تقدمهم (وقومهما) أى والحال ان قومهما أى بنى اسرائيل (لنا عابدون) خضوعا وتذللا أى فى غاية الذل والانقياد كالعبيد فنحن أعلى منهما بهذا أو لانه كان يدعى الالهية فادعى للناس العبادة وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة (فكذبوهما) أى فرعون وملاؤه موسى وهرون (فكانوا) أى فرعون وملاؤه بسبب تكذيبهم (من المهلكين) أى بالغرق ببحر القلزم ولم تغن عنهم قوتهم فى أنفسهم ولاقوتهم على خصوص بنى اسرائيل واستعبادهم ولاضر بنى اسرائيل ضعفهم عن دفاعهم ولاذلهم لهم وصغارهم فى أيديهم ولما كان ضلال بنى اسرائيل بعد انقاذهم من عبودية فرعون وقومه أعجب قال تعالى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولقد آتينا) أى بعظمتنا (موسى الكتاب) أى التوراة (لعلهم) أى قوم موسى وهرون عليهما السلام (يهتدون) من الضلالة الى المعارف والاحكام ولايصح عود الضمير الى فرعون وملئه لان التوراة انما أوتيها بنو اسرائيل بعد اغراق فرعون وملئه بدليل قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى * القصة الخامسة قصة عيسى عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وجعلنا) أى بعظمتنا وقدرتنا (ابن مريم) نسبه اليها تحقيقا لكونه لاأب له وكونه بشرا محمولا فى البطن مولودا لايصلح لرتبة الالهية وزاد فى تحقيق ذلك بقوله (وامه) وقال تعالى (آية) ولم يقل آيتين لان الآية فيهما واحدة ولادته من غير فحل ويحتمل ان الآية الاولى حذفت لدلالة الثانية عليها والتقدير وجعلنا ابن مريم آية وامه آية لان الله تعالى جعل مريم آية لانها حملته من غير ذكر وقال الحسن قد تكلمت فى صغرها كما تكلم عيسى وهو قولها هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ولم تلتقم ثديا قط * (تنبيه) * قال بعض المفسرين ولعل فى ذلك اشارة الى انه تكلمت به آية للقدرة على ايجاد الانسان بكل اعتبار من غير ذكر ولاانثى وهو آدم عليه السلام ومن ذكر بلاانثى وهى حواء عليها السلام ومن انثى بلاذكر وهو عيسى عليه السلام ومن الزوجين وهو بقية الناس (وآويناهما) أى

بعظمتنا (الى ربوة) أى مكان عال من الارض *(تنبيه)* قد اختلف فى هذه الربوة فقال عطاء عن ابن عباس هى بيت المقدس وهو قول قتادة وكعب قال كعب هى أقرب الارض الى السماء بثمانية عشر ميلا وقال عبد الله بن سلام هى دمشق وقال أبو هريرة هى الرملة وقال السدى هى أرض فلسطين وقال ابن زيد هى مصر وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء والباقون بضم الراء (ذات قرار) أى منبسطة مستوية واسعة يستقر عليها ساكنوها (ومعين) أى ماء جار ظاهر تراه العيون *(تنبيه)* قد اختلف فى زيادة ميم معين واصالتها فوجه من جعلها مفعولا أنه مدرك بالعين لظهوره من عانه اذا أدركه بعينه نحو ركبه اذا ضربه بركبته ووجه من جعله فعيلا أنه نفاع لظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة قيل سبب الايواء أنها امرت بابنها الى الربوة وبقيت بها اثنتى عشرة سنة ثم رجعت الى أهلها بعد ما مات ملكهم وههنا آخر القصص وقد اختلف فى المخاطب بقوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) على وجوه أحدها أنه محمد صلى الله عليه وسلم وحده على مذهب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة ثانيها أنه عيسى عليه السلام لانه روى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل امه ثالثها أنه كل رسول خوطب بذلك ووصى به لانه تعالى فى الازل متكلم آمر ناه ولا يشترط فى الامر وجود المأمورين بل الخطاب ازلا على تقدير وجود المخاطبين فقول البيضاوى لا على انهم خوطبوا بذلك دفعة لانهم ارسلوا فى أزمنة مختلفة بل على معنى ان كلا منهم خوطب به فى زمانه تبع فيه الكشاف فان المعتزلة أنكروا قدم الكلام فحملوا الآية على خلاف ظاهرها وأنت خبير بأن عدم اشتراط ما ذكر انما هو فى التعلق المعنوى لا التنجيزى الذى الكلام فيه فانه مشروط فيه ذلك وانما خاطب جميع الرسل بذلك ليعتقد السامع ان أمرا خوطب به جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه وهذا كما قال الرازى أقرب لانه روى عن ام عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح من لبن فى شدة الحر عند فطره وهو صائم فرده صلى الله عليه وسلم الرسول اليها وقال من أين لك هذا فقالت من شاة لى ثم رده صلى الله عليه وسلم وقال من أين هذه الشاة فقالت اشتريتها من مالى فأخذه ثم انها جاءته فقالت يا رسول الله لم رددته فقال صلى الله عليه وسلم بذلك أمرت الرسل أن لا تأكل الا طيبا ولا تعمل الا صالحا والمراد بالطيب الحلال وقيل طيبات الرزق الحلال الصافى القوام فالحلال هو الذى لا يعصى الله تعالى فيه والصافى هو الذى لا ينسى الله فيه والقوام هو الذى يمسك النفس ويحفظ العقل وقيل المراد بالطيب المستلذ أى ما تستلذه النفس من المأكل والمشرب والفواكه ويشهد له مجيئه على عقب قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين واعلم أنه سبحانه وتعالى كما قال للمرسلين يا أيها الرسل كلوا من الطيبات قال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ودل سبحانه وتعالى على ان الحلال عون على الطاعة بقوله تعالى (واعملوا صالحا) فرضا ونفلا سرا وجهرا غير خائفين من أحد غير الله تعالى ثم حثهم على دوام المراقبة بقوله تعالى (انى بما) أى بكل شئ (تعملون عليم) أى بالغ العلم فاجازيكم عليه وقرأ (وان هذه) بكسر

الهمزة الكوفيون على الاستئناف والباقون بفتحها على تقدير واعلموا أن هذه أى ملة الاسلام وخفف النون ساكنة ابن عامر وشددها مفتوحة الباقون (أمتكم) أى دينكم أيها المخاطبون أى يجب أن تكونوا عليها حال كونها (أمة واحدة) لا اشتات فيها أصلا فما دامت موحدة فهى مرضية (وأنا ربكم) أى المحسن اليكم بالخلق والرزق وحدى فمن وحدنى نجا ومن أشرك معى غيرى هلك (فاتقون) أى فاحذرون (فتقطعوا) أى الامم وانما أضمرهم لوضوح ارادتهم لان الآية التى قبلها قد صرحت بأن الانبياء ومن نجا منهم أمة واحدة لا خلاف بينهم فعلم قطعا أن الضمير للامم ومن نشأ بعدهم ولذلك كان النظر الى الامر الذى كان واحدا أهم فقدم وقوله (أمرهم) أى دينهم بعد ان كان مجتمعا متصلا (بينهم) وقوله تعالى (زبرا) حال من فاعل تقطعوا أى أحزابا متخالفين فصاروا فرقا كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الاديان المختلفة جمع زبور بمعنى الفرقة وقيل معنى زبرا كتبا أى تمسك كل قوم بكتاب فآمنوا به وكفروا بما سواه من الكتب (كل حزب) أى فرقة من المتحزبين (بما لديهم) أى عندهم من ضلال وهدى وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها (فرحون) أى مسرورون فضلا عن أنهم راضون وقوله تعالى (فذرهم) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى اترك كفار مكة (فى غمرتهم) أى ضلالتهم شبهها بالماء الذى يغمر القامة لانهم مغمورون فيها (حتى حين) أى الى أن يقتلوا أو يموتوا تسلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره ولما كان الموجب لغرورهم ظنهم ان حالهم فى بسط الارزاق من الاموال والاولاد دالة رضا عنهم أنكر ذلك عليهم تنبيها لمن سبقت له السعادة وكتبت له الحسنى وزيادة فقال تعالى (أيحسبون) أى اضعف عقولهم وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (أنما نمدهم) أى نعطيهم ونجعله مددا لهم (به من مال) نيسره لهم (وبنين) نمتعهم بهم ثم أخبر عن أن بقوله تعالى (نسارع) أى نعجل (لهم) أى به (فى الخيرات) لا نفعل ذلك (بل لا يشعرون) أنهم فى غاية البعد عن الخيرات سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وقال تعالى فى موضع آخر فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون وروى عن زيد بن مسرة أنه قال أوحى الله تعالى الى نبى من الانبياء أيفرح عبدى أن أبسط اليه الدنيا وهو أبعد له منى ويحزن أن أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له منى وعن الحسن انه لما أتى عمر رضى الله عنه بسوارى كسرى فأخذهما ووضعهما فى يد سراقة ابن مالك فبلغا منكبيه فقال عمر اللهم انى قد علمت ان نبيك عليه الصلاة والسلام كان يحب أن يصيب مالا لينفقه فى سبيلك فزويت ذلك عنه ثم ان أبا بكر كان يحب ذلك اللهم لا يكون ذلك مكرا منك ثم تلا أيحسبون الآية * ولما ذكر أهل الافتراق ذكر أهل الوفاق ووصفهم بأربع صفات الاولى قوله تعالى (ان الذين هم) أى بيواطنهم (من خشية ربهم) أى الخوف العظيم من المحسن اليهم المنعم عليهم (مشفقون) أى دائمون على الحذر الصفة الثانية قوله تعالى (والذين

هم بآيات ربهم) أى القرآن (يؤمنون) أى يصدقون الصفة الثالثة قوله تعالى (والذين هم بربهم) أى الذى لا محسن اليهم غيره (لا يشركون) أى شيأ من شرك فى وقت من الاوقات كما لم يشركه فى الاحسان اليهم أحد * ولما أثبت لهم الايمان الخالص نفى عنهم العجب بقوله تعالى (والذين يؤتون) أى يعطون (ما آتوا) أى ما اعطوا من الصدقة والاعمال الصالحة وهذه الصفة الرابعة (وقلوبهم وجلة) أى شديدة الخوف أن لا يقبل منهم ولا ينجيهم من عذاب الله ثم علل ذلك بقوله تعالى (أنهم الى ربهم) أى الذى طال احسانه اليهم (راجعون) بالبعث فيجازيهم على النقير والقطمير ويجزيهم بكل قليل وكثير وهو الناقد البصير ولا تنفع هناك الندامة وليس هناك الا الحكم العدل والحكم القاطع من جهة مالك الملك قال الحسن البصرى المؤمن جمع ايمانا وخشية والمنافق جمع اساءة وامنا * ثم أثبت لهم ما أفهم اضداده لاضدادهم بقوله تعالى (أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) أى يبادرون الى الاعمال الصالحة قبل الموت * ولما ذكر تعالى كيفية أعمال المؤمنين المخلصين ذكر أنه تعالى لا يكلف أحدا فوق طاقته بقوله تعالى (ولا نكلف نفسا الا وسعها) أى طاقتها فمن لم يستطع أن يصلى الفرض قائما فليصل قاعدا ومن لم يستطع أن يصلى قاعدا فليصل مضطجعا ومن لم يستطع أن يصوم رمضان فليفطر لان مبنى المخلوق على العجز (ولدينا) أى وعندنا (كتاب ينطق بالحق) بما عملته كل نفس وهو اللوح المحفوظ تسطر فيه الاعمال وقيل كتب الحفظة ونظيره قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقوله تعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فوصفه تعالى الكتاب بأن يصدر عنه البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يعرف بما فيه كما يعرف بنطق الناطق اذا كان محقا (فان قيل) ما فائدة ذلك الكتاب مع ان الله تعالى يعلم ذلك اذ لا تخفى عليه خافية (اجيب) بأن الله تعالى يفعل ما يشاء وقد يكون فى ذلك حكمة لا يطلع عليها الا هو تعالى (وهم) أى الخلق كلهم (لا يظلمون) أى لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد فى سيآتهم * ثم ذكر حال الكفار فقال تعالى (بل قلوبهم) أى الكفرة من الخلق (فى غمرة) أى جهالة قد أغرقتها (من هذا) أى القرآن أو الذى وصف به حال هؤلاء أو من كتاب الحفظة (ولهم أعمال من دون ذلك) المذكور للمؤمنين (هم) أى الكفار (لها) أى لتلك الاعمال الخبيثة (عاملون) أى لا بد أن يعملوها فيعذبون عليها لما سبق لهم من الشقاوة (حتى اذا أخذنا مترفيهم) أى رؤساءهم وأغنياءهم (بالعذاب) قال ابن عباس هو السيف يوم بدر وقيل هو الجوع دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فابتلاهم الله تعالى بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والقذر والاولاد (اذا هم يجأرون) أى يصيحون ويستغيثون ويجزعون وأصل الجأر رفع الصوت بالتضرع قاله البغوى فكأنه قيل فهل يقبل اعتذارهم أو يرحم انكسارهم فقيل لا بل يقال لهم بلسان الحال أو المقال (لا تجأروا اليوم) فان الجأر غير نافع لكم * ثم علل ذلك بقوله تعالى (انكم منا لا تنصرون) أى بوجه من الوجوه ومن عدم نصرنا لم يجد له ناصرا فلا فائدة للجأر الا اظهار الجزع ثم علل عدم

نصره لهم بقوله تعالى (قد كانت آياتى) أى من القرآن (تتلى عليكم) أى من أوليائى وهم الهداة النصحاء (فكنتم) كوناهو كالجبلة (على أعقابكم) عند تلاوتها (تنكصون) أى تعرضون مدبرين عن سماعها والعمل بها والنكوص الرجوع القهقرى (مستكبرين) عن الايمان واختلف فى عود الضمير فى (به) فقال ابن عباس بالبيت الحرام وشهرة استكبارهم وافتخارهم أنهم قوامه أغنت عن سبق ذكره وذلك أنهم يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس فى الخوف وقيل بالقرآن فلم يؤمنوا به وقوله تعالى (سامرا) نصب على الحال أى جماعة يتحدثون بالليل حول البيت وقوله تعالى (تهجرون) قرأه نافع بضم التاء وكسر الجيم من الاهجار وهو الافحاش أى تفحشون وتقولون الخنا ذكر أنهم كانوا يسبون النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والباقون بفتح التاء وضم الجيم أى تعرضون عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الايمان وعن القرآن وترفضونها وتسمون القرآن سحرا وشعرا ثم انه تعالى لما وصف حالهم ردّ عليهم بأن بين أن اقدامهم على هذه الامور لابد أن يكون لاحد أمور أربعة أحدها أن لا يتأملوا فى دليل نبوته وهو المراد من قوله تعالى (أفلم يدبروا القول) أى القرآن الدال على صدق النبى صلى الله عليه وسلم وأصل يدبروا يتدبروا أدغمت التاء فى الدال ثانيها أن يعتقدوا ان ماجاء به الرسول أمر على خلاف العادة وهو المراد من قوله تعالى (أم جاءهم) فى هذا القول (مالم يأت آباءهم الاولين) الذين بعد اسمعيل وقبله ثالثها أن لا يكونوا عالمين بأمانته وحسن حاله قبل ادعائه النبوة وهو المراد من قوله تعالى (أم لم يعرفوا رسولهم) أى الذى أتاهم بهذا القول الذى لا قول مثله وهم يعرفون نسبه وصدقه وأمانته وماجاءهم به من معالى الاخلاق حتى انهم لا يجدون فيه اذا تحققت الحقائق نقيصة يذكرونها ولا وصمة يستحلونها كما دلت عليه الاحاديث الصحاح منها حديث أبى سفيان ابن حرب الذى فى أول البخارى فى سؤال هرقل ملك الروم له عن شأنه صلى الله عليه وسلم وقد اتفقت كلمتهم عليه بتسميته الامين (فهم) أى فتسبب عن جهلهم به أنهم (له) أى نفسه أو القول الذى أتى به (منكرون) فيكونوا ممن جهل الحق لجهل حال الآتى به وفى هذا غاية التوبيخ لهم بجهلهم وبغباوتهم بأنهم يعرفون أنه أصدق الخلق وأعلاهم فى كل معنى جميل ثم كذبوه رابعها أن يعتقدوا فيه الجنون فيقولوا انما حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله تعالى (أم يقولون) أى بعد تدبر ما أتى به وعدم عثورهم فيه على وجه من وجوه الطعن (به) أى رسولهم (جنة) أى جنون فلا يوثق به * ولما كانت هذه الاقسام منفية عنه فانهم أعرف الناس بهذا النبى الكريم وانه أكملهم خلقا وأشرفهم خلقا وأظهرهم شيما وأعظمهم هما وأرجحهم عقلا وأمتنهم رأيا وأرضاهم قولا وأصوبهم فعلا اضرب عنها وقال تعالى (بل) أى لم ينكصوا عند سماع الآيات ويسمروا ويهجروا الاعتقاد شئ مما مضى وانما فعلوا ذلك لان هذا الرسول الكريم (جاءهم بالحق) أى القرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الاسلام وقال الجلال المحلى الاستفهام فيه للتقرير بالحق من صدق النبى ومجئ الرسول للامم

الماضية ومعرفة رسولهم بالصدق والامانة وان لاجنون به وبل للانتقال (وأكثرهم) أي والحال ان أكثرهم (للحق كارهون) متابعة للاهواء الردية والشهوات البهيمية عنادا واعتقد تعالى الحكم بالاكثر لان بعضهم يتركه جهلا وتقليدا وخوفا من أن يقال صبأ وبعضهم يتبعه توفيقا من الله تعالى وتأييدا ثم بين تعالى ان اتباع الهوى يؤدي الى الفساد العظيم بقوله تعالى (ولو اتبع الحق) أي القرآن (أهواءهم) بأن جاء بما يحبونه من الشرك والولد لله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (لفسدت السموات) على علوها واحكامها (والارض) على كثافتها واستطائها (ومن فيهن) على كثرتهم وانتشارهم وقوتهم أي خرجت عن نظامها المشاهد بسبب ادعائهم تعدد الآلهة لوجود التمانع في الشيء عادة عند تعدد الحاكم كما سبق تقريره في قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (بل أتيناهم) بعظمتنا (بذكرهم) أي بالقرآن الذي فيه ذكرهم وشرفهم وقيل بالذكر الذي تمنوه بقولهم لو أن عندنا ذكرا من الاولين (فهم عن ذكرهم) أي الذي هو شرفهم (معرضون) لا يلتفتون اليه ثم بين تعالى ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سببا لنفرتهم بقوله تعالى (أم تسألهم) أي على ما جئتهم به (خرجا) أي أجرا وقرأ حمزة والكسائي بفتح الراء وبعدها ألف والباقون بسكون الراء * ولما كان الانكار بمعناه النفي حسن موقع فاء السببية في قوله تعالى (فخراج ربك) أي رزقه في الدنيا وثوابه في العقبى (خير) لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن عطائهم وقرأ ابن عامر بسكون الراء والباقون بفتحها وألف بعدها قال أبو عمرو بن العلاء الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه قال الزمخشري والوجه ان الخرج أخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكردة أي الرقبة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك يعني أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير وقوله تعالى (وهو خير الرازقين) تقرير لخيرية خراجه * ولما زيف سبحانه وتعالى طريق القوم اتبعه بصحة ما جاء به الرسول عليه السلام بقوله تعالى (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) تشهد عقولهم السليمة على استقامته لا عوج فيه يوجب اتهامهم له كما تشهد له به العقول الصحيحة فمن سلكه أوصله الى الغرض فحاز كل شرف * (تنبيه) * قد ألزمهم الله تعالى الحجة في هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم فان الذي أرسل اليهم رجل معروف أمره وحاله مخبور سره وعلنه خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم وأنه لم يعرض له حتى يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل له سلما الى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ولم يدعهم الى دين الاسلام الذي هو الصراط المستقيم الا مع ابراز المكنون من أدوائهم وهو اخلالهم بالتدبر والتأمل من غير برهان (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة) أي بالبعث والثواب والعقاب (عن الصراط) أي الذي لا صراط غيره لانه لا موصل الى القصد غيره (لناكبون) أي عادلون منحرفون في سائر أحوالهم سائرون على غير منهج أصلا بل خبط عشواء (ولو رحمناهم) أي عاملناهم معاملة المرحوم في ازالة ضرره وهو معنى قوله تعالى (وكشفنا ما بهم من ضر) أي جوع أصابهم بمكة سبع سنين (للجوا)

أى عادوا وعادوا (فى طغيانهم) الذى كانوا عليه قبل هذا (يعمهون) أى يترددون (ولقد أخذناهم بالعذاب) وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسنى يوسف فأصابهم القحط فجاء أبو سفيان الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال قد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فقد أكلوا القرث والعظام والعلهز وشكا اليه الضرع فادع الله تعالى يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فأنزل الله تعالى هذه الآية * (تنبيه) * العلهز وبر يخلط بدماء اللحم فيؤكل فى الجدب والعلهز أيضا القراد الضخم وشكا بعض الاعراب الى النبى صلى الله عليه وسلم السنة فقال

ولا شئ مما يأكل الناس عندنا * سوى الحنظل العامى والعلهز الغسل

وليس لنا الا اليك فرارنا * وأين فرار الناس الا الى الرسل

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم واستسقى لرفع هذه المحن فقال الله تعالى عنهم (فما استكانوا) أى خضعوا اخضوعا هو كالجبلة لهم وأصله طلب السكون (لربهم) أى المحسن اليهم عقب المحنة (وما يتضرعون) أى يجددون الدعاء بالخضوع والذل والخشوع فى كل وقت بحيث يكون لهم عادة بل هم على ما جبلوا عليه من الاستكبار والعتو (حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا) أى صاحب (عذاب شديد) قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وهو قول مجاهد وقيل هو الموت وقيل هو قيام الساعة (اذا هم فيه) أى ذلك الباب مطروحون لا يقدرون منه على نوع خلاص (مبلسون) متحيرون آيسون من كل خير ثم انه سبحانه التفت الى خطابهم وبين عظيم نعمته من وجوه أحدها ما ذكره بقوله تعالى (وهو الذى أنشأ) أى خلق (لكم) يا من يكذب بالآخرة (السمع) بمعنى الاسماع (والابصار) على غير مثال سبق لتحسنوا بها ما نصب من الآيات (والافئدة) أى التى هى مراكز العقول فتتفكروا فى الآيات وتستدلوا بها على الوحدانية فكنتم بها أعلى من بقية الحيوان جمع فؤاد وهو القلب وانما خص هذه الثلاثة بالذكر لانه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها فمن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال عز وجل فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ اذ كانوا يجحدون بآيات الله * ولما صور لهم هذه النعم وهى بحيث لا يشك عاقل فى أنه لو تصور أن يعطى آدمى شيأ منها لم يقدر على مكافئته حسن تبكيتهم فى كفر النعم فقال تعالى (قليلا ما تشكرون) لمن أولاكم هذه النعم التى لا يقدر غيره على شئ منها مع ادعائكم انكم اشكر الناس لمن أسدى اليكم أقل ما يكون من النعم التى يقدر على مثلها كل أحد فكنتم بذلك مثل الحيوانات العجم صما بكما عميا قال أبو مسلم ليس المراد ان لهم شكرا وان قل لكنه كما يقال للكفور الجاحد النعمة ما أقل شكر فلان ثانيها ما ذكره فى قوله تعالى (وهو) أى وحده (الذى ذرأكم) أى خلقكم وبثكم (فى الارض) للتناسل (واليه) وحده (تحشرون) يوم النشور ثالثها ما ذكره بقوله تعالى (وهو) أى وحده (الذى) من شأنه أنه (يحيى

ويميت) فلا مانع له من البعث ولا غيره مما يريده رابعها ماذكره بقوله تعالى (وله اختلاف
الليل والنهار) أى التصرف فيهما بالسواد والبياض والزيادة والنقصان (أفلا تعقلون) أى
بالنظر والتأمل ان الكل منا وان قدرتنا تعم الممكنات كلها وان البعث من جملتها فتعتبرون
* ولما كان معنى الاستفهام الانكارى النفى حسن بعده قوله تعالى (بل قالوا) أى هؤلاء
العرب (مثل ما قال الاولون) من قوم نوح ومن بعدهم فقالوا ذلك تقليدا للاولين ثم حكى الشبهة
عنهم من وجهين أحدهما ماذكره بقوله تعالى (قالوا) أى منكرين للبعث متعجبين من أمره
(أئذا متنا وكنا) أى بالبلا بعد الموت (ترابا وعظاما) نخرة ثم أكدوا الانكار بقولهم
(أئنا لمبعوثون) أى لمحشورون بعد ذلك قالوا ذلك استبعادا ولم يتأملوا انهم قبل ذلك أيضا
كانوا ترابا فخلقوا ثانيهما ماذكره بقوله تعالى انهم قالوا (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) أى البعث
بعد الموت (من قبل) كأنهم قالوا ان هذا الوعد كما وقع منه صلى الله عليه وسلم فقد وقع قديما
من سائر الانبياء ولم يوجد مع طول العهد وظنوا ان الاعادة تكون فى دار الدنيا ثم قالوا (ان)
أى ما (هذا الا اساطير) أى أكاذيب (الاولين) كالاضاحيك والاعاجيب جمع اسطورة
بالضم وقيل جمع أسطار جمع سطر قال رؤبة * انى واسطار سطرن سطرا * وهو ما كتبه الاولون
مما لا حقيقة له * ولما أنكروا البعث هذا الانكار المؤكد ونفوه هذا النفى المحتم أمره الله تعالى
أن يقررهم بثلاثة أشياء هم بها مقرون ولها عارفون يلزمهم من تسليمها الاقرار بالبعث قطعا
أحدها قوله تعالى (قل) أى مجيبا لانكارهم البعث ملزما لهم (لمن الارض) أى على سعتها
وكثرة عجائبها (ومن فيها) على كثرتهم واختلافهم (ان كنتم) أى مما هو كالجبلة لكم (تعلمون)
أى أهلا للعلم وفيه تنبيه على أنهم أنكروا شيأ لا ينكره عاقل * ولما كانوا مقرين بذلك أخبر
تعالى عن جوابهم قبل جوابهم بما يكون من دلائل النبوة واعلام الرسالة بقوله تعالى استئنافا
(سيقولون) أى قطعا ذلك كله (لله) أى المختص بصفات الكمال ثم انه تعالى أمره بقوله (قل)
أى لهم اذا قالوا لك ذلك منكرا عليهم (أفلا تذكرون) أى فى ذلك المركوز فى طباعكم المقطوع
به عندكم ما غفلتم عنه من تمام قدرته وباهر عظمته فتصدقوا ما أخبر به من البعث الذى
هو دون ذلك وتعلموا أنه لا يصلح شئ منها وهو ملكه أن يكون شريكا له تعالى ولا ولدا وتعلموا
ان القادر على الخلق ابتداء قادر على الاحياء بعد الموت وأنه لا يصح فى الحكمة أصلا أن يترك
البعث لان أقلكم لا يرضى بترك حساب عبيده والعدل بينهم وقرأ حفص وحمزة والكسائى
بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء الثانية فى الذال ثانيها قوله تعالى (قل) أى لهم
(من رب) أى خالق ومدبر (السموات السبع) كما تشاهدون من حركاتها وسير أفلاكها
(ورب العرش) أى الكرسى (العظيم) كما قال تعالى وسع كرسيه السموات والارض
(سيقولون لله) أى الذى له كل شئ هو رب ذلك لا جواب لهم غير ذلك ولما تأكد الامر وزاد
الوضوح حسن التهديد على التمادى فقال تعالى (قل) أى منكرا عليهم (أفلا تتقون)
أى تحذرون عبادة غيره ثالثها قوله (قل) أمره الله تعالى بعد ما قررهم بالعالمين العلوى والسفلى

ان

أن يقررهم بما هو أعم وأعظم وهو قوله تعالى (من بيده) أي من تحت قدرته ومشيئته (ملكوت كل شئ) من انس وجن وغيرهما والملكوت الملك البليغ قال ابن الاثير كانت العرب اذا كان السيد فيهم أجار أحدا لا يخفر جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يعاب عليه ولو أجار ما أفاد ولهذا قال تعالى (وهو يجير) أي يمنع ويغيث من شاء فيكون في حرز لا يقدر أحد على الدنو من ساحته (ولا يجار عليه) أي ولا يمكن أحدا أبدا أن يجير جوارا يكون مستعليا عليه بأن يكون على غير مراده بل يأخذ من أراد وان نصره جميع الخلائق ويعلي من أراد وان تحاملت عليه كل المصائب فتبين كالشمس أنه لا شريك يمانعه ولا ولد يضارعه وانه السيد العظيم الذي لا أعظم منه الذي له الخلق والامر ولا معقب لحكمه وماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ثم ألهبهم الى المبادرة الى الاعتراف به وهيجهم بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) أي في عداد من يعلم ولذلك استأنف قوله تعالى (سيقولون لله) أي الذي بيده ذلك خاصا به *(تنبيه)* سيقولون لله الاول لا خلاف فيها وأما الثانية والثالثة فقرأ أبو عمرو سيقولون الله بزيادة همزة الوصل مع التفخيم فيهما ورفع الهاء والباقون بغير همز الوصل مع الترقيق وكسر الهاء والتقدير ذلك كله لله * ولما كان جوابهم بذلك يقتضى انكار توقفهم في الاقرار بالبعث استأنف قوله تعالى (قل) أي لهم منكرا عليهم (فأنى تسحرون) أي فكيف بعد اقراركم بهذا كله تخدعون وتصرفون عن الحق وكيف يخيل لكم أنه باطل * ولما كان الانكار بمعنى النفي حسن قوله تعالى (بل) أي ليس الامر كما يقولون بل (أتيناهم بالحق) أي بالصدق من التوحيد والوعد بالنشور (وانهم لكاذبون) في كل ما ادعوه من الولد والشريك وغيرهما مما بين القرآن فساده ومن أعظم كذبهم قولهم اتخذ الرحمن ولدا قال تعالى ردا عليهم (ما اتخذ الله) أي الذي لا كفء له (من ولد) أي لا من الملائكة ولا من غيرهم لما قام من الادلة على غناه وانه لا يجانس له * ولما كان الولد أخص من مطلق الشريك قال تعالى (وما كان معه) أي بوجه من الوجوه (من اله) يشابهه في الالوهية (اذا) لو كان معه اله آخر (لذهب كل اله بما خلق) بالتصرف فيه وحده ليتميز ماله مما لغيره (فان قيل) اذا لا تدخل الا على كلام هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله تعالى لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل (أجيب) بأن الشرط محذوف تقديره ولو كان معه آلهة وانما حذف لدلالة قوله تعالى وما كان معه من اله عليه وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين (ولعلا بعضهم) أي بعض الآلهة (على بعض) اذا تخالفت أوامرهم فلم يرض أحد منهم أن يضاف ما خلقه الى غيره ولا أن يمضي فيه أمر على غير مراده كما هو مقتضى العادة فلا يكون المغلوب الها لعجزه ولا يكون مجيرا غير مجار عليه بيده وحده ملكوت كل شئ * ولما طابق الدليل الالزامي نفي الشريك نزه نفسه الشريفة بما هو نتيجة ذلك من قوله تعالى (سبحان الله) أي المتصف بجميع صفات الكمال المنزه عن شائبة كل نقص (عما يصفون) من كل ما لا يليق بجنابه المقدس من الانداد والاولاد لما سبق من الدليل على فساده ثم أقام دليلا آخر على كماله بوصفه بقوله تعالى (عالم

الغيب والشهادة) أى ماغاب وماشوهد وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى برفع الميم على أنه خبر مبتدا محذوف تقديره هو والباقون بالخفض على أنه صفة لله ثم رتب على هذا الدليل قوله تعالى (فتعالى) أى تعاظم (عما يشركون) معه من الآلهة ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل رب) أى أيها المحسن الى (اما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة أى ان كان لابد أن (تريني) لان ما والنون للتأكيد (ما يوعدون) من العذاب فى الدنيا والآخرة (رب فلا تجعلنى) باحسانك الى (فى القوم الظالمين) أى قرينا لهم فى العذاب (فان قيل) كيف يجوز أن يجعل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم (أجيب) بأنه يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه واخباتا له واستغفاره صلى الله عليه وسلم اذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة لذلك وما أحسن قول الحسن فى قول أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وليتكم ولست بخيركم كان يعلم انه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه وانما ذكر ربه مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة فى التضرع (وانا) أى بما لنا من العظمة (على أن نريك) أى قبل موتك (ما نعدهم) من العذاب (لقادرون) لكنا نؤخره علما بأن بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون وهو صادق بالقتل يوم بدر أو فتح مكة ثم كأنه قال فماذا أفعل فيما تعلم من أمرهم فقال تعالى (ادفع بالتى هى أحسن) أى من الاقوال والافعال بالصفح والمداراة (السيئة) اذاهم اياك وهذا قبل الامر بالقتال فهى منسوخة وقيل محكمة لان المداراة محثوث عليها مالم تؤد الى نقصان دين أو مروءة (نحن أعلم بما يصفون) فى حقك وحقنا فلو شئنا منعناهم منه أو عاجلناهم بالعذاب وليس أحد بأغير منا فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل * ولما أدب سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يدفع بالتى هى أحسن علمه ما به يقوى على ذلك بقوله تعالى (وقل رب) أى أيها المحسن الى (أعوذ بك) اى التجئ اليك (من همزات الشياطين) أى أن يصلوا الى بوساوسهم وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم الناس على المعاصى بهمز الرائض الدواب على المشى وانما جمع همزات لتنوع الوسواس أو لتعدد المضاف اليه (وأعوذ بك رب) أى أيها المربى لى (أن يحضرون) فى حال من الاحوال خصوصا حال الصلاة وقراءة القرآن وحلول الاجل لانها أحرى الاحوال وهم انما يحضرون بالسوء ولو لم تصل الى وساوسهم فان بعدهم بركة وعن جبير بن مطعم قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة قال عمرو ولا أدرى أى صلاة هى فقال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة أخرجه أبو داود ولان الشعر يخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق والمتكبر ينتفخ ويتعاظم ويجمع نفسه ويحتاج الى أن ينفخ والموتة الجنون والمجنون يصير فى الدنيا كالميتة ثم ان الله تعالى أخبر أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة الى الدنيا

عند معاينة الموت بقوله تعالى (حتى) وهى هنا كما قال الجلال المحلى ابتدائية أو متعلقة
بيصفون أو بكاذبون كما قال الزمخشرى وقدم المفعول ليذهب الوهم فى فاعله كل مذهب فقال
(اذا جاء أحدهم الموت) فكشف له الغطاء وظهر له الحق ولاحت له بوارق العذاب ولم يبق
فى شئ من ذلك ارتياب (قال) متحسرا على ما فرط فيه من الايمان والطاعة مخاطبا لملائكة
العذاب على عادة جهله ووقوفه مع المحسوس من دأب البهائم (رب ارجعون) أى ردونى
الى الدنيا دار العمل ويجوز أن يكون الجمع له تعالى وللملائكة أو للتعظيم على عادة مخاطبات
الاكابر سيما الملوك كقوله * ألا فارحمونى يا اله محمد * وقوله * فان شئت حرمت النساء سواكم * أو
القصد تكرير الفعل للتأكيد لانه فى معنى ارجعنى كما قيل فى قفا واطرقا فانهما بمعنى قف قف
واطرق اطرق * ولما كان فى تلك الحالة مع وصوله الى الغرغرة ليس على القطع من اليأس
قال (لعلى أعمل) أى لان كون على رجاء من أن أعمل (صالحا فيما تركت) أى ضيعت من
الايمان بالله وتوابعه فيدخل فى الاعمال الاعمال البدنية والمالية وعنه صلى الله عليه وسلم
اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك الى الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان بل قدوما
على الله وأما الكافر فيقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت قال قتادة ما تمنى أن يرجع
الى أهله ولا عشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله
فرحم الله امرأ عمل فيما تمناه الكافر اذا رأى العذاب وقال ابن كثير كان العلاء بن زياد
يقول لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت واستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى
* ولما كان القضاء قد قطع بأنه لا يرجع ولو رجع لم يعمل بطاعة الله عز وجل ولو ردوا لعادوا
لما نهوا عنه وانهم لكاذبون قال الله تعالى له ردعا وردا لكلامه (كلا) أى لا يكون شئ من
ذلك وكأنه قيل فما حكم ما قال فقيل (انها كلمة) والمراد بالكلمة فى اللغة الطائفة من الكلام
المنتظم بعضها مع بعض رب ارجعون الى آخره (هو قائلها) وقد عرف منه الخداع والكذب
فهى كما عهد منه لا حقيقة لها فلا يجاب اليها ولا تسمع منه وهو لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها
لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم (ومن ورائهم) أى امامهم والضمير للجماعة (برزخ)
أى حاجز حائل بينهم وبين الرجعة واختلف فى معناه فقال مجاهد حجاب بينهم وبين الرجوع
الى الدنيا وقال قتادة بقية الدنيا وقال الضحاك البرزخ ما بين الموت الى البعث وقيل هو الموت
وقيل هو القبر هم فيه (الى يوم يبعثون) وهو يوم القيامة وفى هذا اقناط كلى من الرجوع الى
الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا وانما الرجوع فيه الى حياة تكون فى الآخرة
(فاذا نفخ فى الصور) أى القرن روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنها النفخة الاولى ونفخ
فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ثم نفخ
فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود أنها
النفخة الثانية قال يؤخذ بيد العبد والامة يوم القيامة فينصب على رؤس الاولين والآخرين
ثم ينادى مناد هذا فلان بن فلان فمن كان له قبله حق فليأت الى حقه فيفرح المرء أن يكون له

حق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فيأخذه منهم ثم قرأ ابن مسعود فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وفى رواية عطاء عن ابن عباس أنها النفخة الثانية فلا أنساب بينهم أى لا يتفاخرون بالانساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون بها فى الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا من أنت ومن أى قبيل أنت ولم يرد أن الانسان ينقطع نسبه (فان قيل) قد قال تعالى هنا ولا يتساءلون وقال تعالى فى موضع آخر وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (أجيب) بأن ابن عباس قال ان للقيامة أحوالا ومواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الامر عن التساؤل فلا يتساءلون وفى موطن يفيقون افاقة فيتساءلون وقيل التساؤل بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار (فمن ثقلت موازينه) أى بالاعمال المقبولة قال البقاعى ولعل الجمع لان لكل عمل ميزانا يعرف أنه لا يصلح له غيره وذلك أدل دليل على القدرة (فأولئك) أى خاصة قال أيضا ولعله جمع للبشارة بكثرة الناجى بعد أن أفرد للدلالة على كثرة الاعمال أو على عموم الوزن لكل فرد (هم المفلحون) أى الفائزون بالنجاة والدرجات العلى (ومن خفت موازينه) لاعراضه عن تلك الاعمال المؤسسة على الايمان (فأولئك) خاصة (الذين خسروا أنفسهم) لاهلاكهم اياها باتباعها شهواتها فى دار الاعمال وشغلها بأهوائها عن مراتب الكمال وقوله تعالى (فى جهنم خالدون) بدل من الصلة أو خبر ثان لاولئك وهى دار لا ينفك أسيرها ولا ينطفى سعيرها ثم استأنف قوله تعالى (تلفح) أى تغشى بشدة حرها وسمومها ووهجها (وجوههم النار) فتحرقها فما ظنك بغيرها واللفح كالنفح الا أنه أشد تأثيرا (وهم فيها كالحون) أى عابسون قد شمرت شفاههم العليا والسفلى عن أسنانهم وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته وقوله تعالى (ألم تكن آياتى) أى من القرآن على اضمار القول أى يقال لهم ألم تكن آياتى (تتلى عليكم) أى تتابع لكم قراءتها فى الدنيا شيأ فشيأ (فكنتم بها تكذبون) ثم استأنف جوابه بقوله تعالى (قالوا ربنا) أى المسبغ علينا نعمه (غلبت علينا شقوتنا) أى ملكتنا بحيث صارت أحوالها مؤدية الى سوء العاقبة (وكنا) أى بما جبلنا عليه (قوما ضالين) فى ذلك عن الحق أقوياء فى موجبات الشقوة فكان سببا للضلال عن طريق السعادة (ربنا) يا من عودنا بالاحسان (أخرجنا منها) أى من النار تفضلا منك على عادة فضلك ورُدّنا الى دار الدنيا لنعمل ما يرضيك (فان عدنا) الى مثل ذلك الضلال (فانا ظالمون) لانفسنا ثم استأنف جوابهم بان (قال) لهم بلسان مالك بعد قدر الدنيا مرتين كما يقال للكلب (اخسؤا) أى انزجروا زجر الكلاب وانطردوا عن مخاطبتى ساكتين سكوت هوان (فيها) أى النار (ولا تكلمون) أصلا فانكم لستم بأهل لمخاطبتى لانكم لن تزالوا متصفين بالظلم فييأس القوم بعد ذلك ولا يتكلموا بكلمة الا الزفير والشهيق والعواء كعواء الكلاب وقال القرطبى اذا قيل لهم ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض فانطبقت عليهم وعن ابن عباس ان لهم ست

دعوات اذا دخلوا النار قالوا ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا فيجابون حق القول منى فينادون ألفا ربنا أمتنا اثنتين فيجابون ذلكم بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم فينادون ألفا يا مالك ليقض علينا ربك فيجابون انكم ماكثون فينادون ألفا ربنا أخرجنا منها فيجابون أولم تكونوا أقسمتم فينادون ألفا أخرجنا نعمل صالحا فيجابون أولم نعمركم فينادون ألفا رب ارجعون فيجابون اخسؤا فيها ولا تكلمون ثم لا يكون لهم الا الزفير والشهيق والعواء ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه كان) أى كونا ثابتا (فريق) أى ناس قد استضعفتموهم (من عبادى) وهم المؤمنون (يقولون) مع الاستمرار (ربنا) أى أيها المحسن الينا بالخلق والرزق (آمنا) أى أوقعنا الايمان بجميع ماجاءتنا به الرسل (فاغفر لنا) أى استر لنا زللنا (وارحمنا) أى افعل بنا فعل الراحم (وأنت خير الراحمين) لانك تخلص برحمتك من كل شقاء وهوان (فاتخذتموهم) أى فتسبب عن ايمانهم ان اتخذتموهم (سخريا) أى تسخرون منهم وتستهزؤن بهم وقرأ نافع وحمزة والكسائى بضم السين والباقون بالكسر وهو مصدر سخر كالسخر الا أن فى ياء النسب زيادة قوة فى الفعل كما قيل الخصوصية فى الخصوص وعن الكسائى والفراء ان المكسور من الهزء والمضموم من السخرة والعبودية أى تسخرونهم وتتعبدونهم قال الزمخشرى والاول مذهب الخليل وسيبويه انتهى وأظهر الذال عند التاء ابن كثير وحفص والباقون بالادغام (حتى أنسوكم ذكرى) أى بأن تذكرونى فتخافونى وأضاف ذلك اليهم لانهم كانوا السبب فيه لفرط اشتغالهم بالاستهزاء بهم (وكنتم منهم تضحكون) استهزاء بهم نزلت فى كفار قريش كانوا يستهزؤن بالفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بلال وعمار وصهيب وخباب * ولما تشوقت النفس بعد العلم بما فعل بأعدائهم الى جزائهم قال الله تعالى (انى جزيتهم اليوم) أى بالنعيم المقيم (بما صبروا) أى على عبادتى ولم يشغلهم عنها تألمهم بأذاكم كما يشغلكم عنها التذاذكم باهانتهم ففازوا دونكم وهو معنى قوله تعالى (انهم هم الفائزون) أى بمطلوبهم الناجون من عذاب النار وقرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها على أنه مفعول ثان لجزيتهم ثم ان الله تعالى (قال) لهم على لسان الملك المأمور بسؤالهم تبكيتا وتوبيخا لانهم كانوا يظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ولا اعادة فلما حصلوا فى النار وأيقنوا أنها دائمة وانهم فيها مخلدون سألهم (كم لبثتم فى الارض) على تلك الحال فى الدنيا التى كنتم تعدونها فوزا (عدد سنين) أنتم فيها ظافرون ولاعدائكم قاهرون وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى قل كم بضم القاف وسكون اللام على الامر للملك أو لبعض رؤساء أهل النار والباقون بفتح القاف واللام وألف بينهما خبرا وتقدم توجيهه وأظهر الثاء المثلثة عند التاء المثناة فوق نافع وابن كثير وعاصم وأدغمها فيها الباقون (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) يشكون فى ذلك (فان قيل) كيف يصح فى جوابهم أن يقولوا ذلك ولا يقع من أهل النار الكذب (أجيب) بأنهم نسوا ذلك لكثرة ما هم فيه من الاهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا (فاسأل العادين) أى الملائكة المحصين أعمال الخلق وأعمارهم قال ابن عباس أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل قالوا ذلك

تصغيرا للبثهم وتحقيرا له بالاضافة الى ماوقعوا فيه من دوام العذاب قال بعضهم
ألا ان أيام الشتاء طويلة * كما أن أيام السرور قصار
وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين وترك الهمز بعدها وكذا يفعل حمزة فى الوقف والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ثم (قال) الله تعالى لهم على لسان الملك (ان) أى ما (لبثتم) أى فى الدنيا (الا قليلا) لان الواحد وان طال مكثه فى الدنيا فانه يكون قليلا فى جنب ما يلبث فى الآخرة (لو أنكم كنتم تعلمون) أى فى عداد من يعلم فى ذلك الوقت لما آثرتم الفانى على الباقى ولا قبلتم على ما ينفعكم ولتركتم أفعالكم التى لا يرضاها عاقل ولكنكم كنتم فى عداد البهائم وقرأ حمزة والكسائى قل أمرا والباقون قال خبرا ولبثتم تقدم مثله وتوجيه قال وقل ثم وبخهم الله تعالى على تغافلهم بقوله تعالى (أفحسبتم انما خلقناكم) على مالنا من العظمة وقوله تعالى (عبثا) حال أى عابثين كقوله لاعبين أو مفعول له أى ما خلقناكم للعبث ولم يدعنا الى خلقكم الا حكمة اقتضت ذلك وهى أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصى (و) حسبتم (أنكم الينا لا ترجعون) فى الآخرة للجزاء وروى البغوى بسنده عن أنس أن رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه فى أذنه أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون حتى ختم السورة فبرئ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال وقرأ حمزة والكسائى بفتح التاء الفوقية وكسر الجيم والباقون بضم الفوقية وفتح الجيم ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه عما يقوله ويصفه به المشركون بقوله تعالى (فتعالى الله) أى الذى له الجلال والجمال علوا كبيرا عن العبث وغيره مما لا يليق به (الملك) أى المحيط بأهل مملكته علما وقدرة وسياسة وحفظا ورعاية (الحق) أى الذى لا يتطرق الباطل اليه فى شئ فى ذاته ولا فى صفاته فلا زوال له ولا لملكه (لا اله الا هو) فلا يوجد له نظير أصلا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله فهو متعال عن سمات النقص والعبث ثم زاد فى التعيين والتأكيد والتفرد بوصفه بصفة لا يدعيها غيره بقوله تعالى (رب العرش) أى السرير المحيط بجميع الكائنات الذى تنزل منه محكمات الاقضية والاحكام ولذا وصفه بالكرم فقال (الكريم) أو لنسبته الى أكرم الاكرمين * ولما بين سبحانه وتعالى أنه الملك الحق لا اله الا هو أتبعه بأن من ادعى الها آخر فقد ادعى باطلا بقوله تعالى (ومن يدع مع الله) أى الملك الذى لا كفء له (الها آخر) يعبده (لا برهان له به) أى بسبب دعائه بذلك اذا اجتهد فى اقامة برهان على ذلك لم يجد ثم ذكر أن من قال ذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله تعالى (فانما حسابه) أى جزاؤه الذى لا يمكن زيادته ولا نقصه (عند ربه) أى الذى رباه ولم يربه أحد سواه الذى هو أعلم بسريرته وعلانيته فلا يخفى عليه شئ من أمره * ولما افتتح السورة بقوله قد أفلح المؤمنون ختمها بقوله (انه لا يفلح الكافرون) أى لا يسعدون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة * ولما شرح الله تعالى أحوال الكفار فى جهلهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بالانقطاع اليه والالتجاء الى غفرانه ورحمته بقوله تعالى (وقل رب) أى أيها المحسن الى (اغفر وارحم) أى أكثر من هذين

الوصفين

الوصفين (وأنت خير الراحمين) فمن رحمته أفلح بما وفقه له من امتثال ما أشرت اليه أول السورة فكان من المؤمنين وكان من الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون فقد انطبق على الاول هذا الآخر بفوز كل مؤمن وخيبة كل كافر فنسأل الله تعالى أن يكون لنا ولوالدينا ولاحبابنا الرحيم راحم وخير غافر انه المتولى للسرائر والمرجو لاصلاح الضمائر وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقربه عينه عند نزول ملك الموت حديث موضوع وقوله أيضا تبعا للزمخشرى روى أن أول سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع آيات من آخرها فقد نجا وأفلح قال شيخ شيخنا ابن حجر حافظ عصره لم أجده

(سورة النور مدنية)

(وهى ثنتان أو أربع وستون آية)

(بسم الله) الذى تمت كلمته فبهرت قدرته (الرحمن) الذى ظهرت الحقائق كلها بشمول رحمته (الرحيم) الذى شرف من اختاره بخدمته قوله تعالى (سورة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه سورة أى عظيمة أو سورة أنزلناها مبتدأ موصوف والخبر محذوف أى فيما أوحينا اليك سورة أنزلناها وقال الاخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وأنزلناها خبره ثم رغب فى امتثال ما فيها مبينا أن تنوينها للتعظيم بقوله تعالى (أنزلناها) أى بما لنا من العظمة وتمام العلم والقدرة (وفرضناها) أى قدرنا ما فيها من الحدود وقيل أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم الى قيام الساعة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الراء لكثرة الفروض والباقون بالتخفيف (وأنزلنا فيها آيات) من الحدود والاحكام والمواعظ والامثال وغيرها (بينات) أى واضحات الدلالة (لعلكم تذكرون) أى تتعظون وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد ثم انه تعالى ذكر فى السورة أحكاما كثيرة * الحكم الاول قوله تعالى (الزانية والزانى) أى غير المحصنين لرجمهما بالسنة وأل فيما ذكر موصولة وهو مبتدأ ولشبهه بالشرط دخلت الفاء فى خبره وهو (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) أى ضربة يقال جلده اذا ضرب جلده ويزاد على ذلك بالسنة تغريب عام والرقيق على النصف مما ذكر ولا رجم عليه لانه لا يتنصف واعلم أن الزنا من الكبائر ويدل عليه أمور أحدها ان الله تعالى قرنه بالشرك وقتل النفس فى قوله تعالى ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ثانيها قوله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا ثالثها ان الله تعالى أوجب المائة فيه بكمالها بخلاف حد القذف وشرب الخمر وشرع فيه الرجم وروى حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يا معشر الناس اتقوا الزنا فان فيه ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة أما اللاتى فى الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما اللاتى فى الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار وعن عبد الله قال قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك

قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت ثم أى قال أن تزنى بحليلة جارك فأنزل الله تعالى تصديقا لذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون والزنا ايلاج حشفة أو قدرها من مقطوعها من الذكر المتصل الاصلى من الآدمى الواضح ولو أشل وغير منتشر وكان ملفوفا فى خرقة بقبل محرم فى نفس الامر لعينه خال عن الشبهة المسقطة للحد مشتهى طبعا بأن كان فرج آدمى حى ولا يشترط ازالة البكارة حتى لو كانت غوراء وأدخل الحشفة فيها ولم يزل بكارتها ترتب عليه حد الزنا بخلاف التحليل لابد فيه من ازالة البكارة لقوله صلى الله عليه وسلم حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك واختلف فى اللواط هل يطلق عليه اسم الزنا أولا فقال بعضهم يطلق عليه لقوله صلى الله عليه وسلم اذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان والذى عليه أكثر أصحابنا أنه غير داخل تحت اسم الزنا لانه لو حلف لا يزنى فلاط لم يحنث والحديث محمول على الاثم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان وللشافعى فى حده قولان أصحهما أن الفاعل ان كان محصنا فانه يرجم والا فيجلد مائة ويغرب عاما وأما المفعول فلا يتصور فيه احصان فيجلد ويغرب والقول الثانى يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنا أم لا لما روى عن ابن عباس انه قال من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به وأما اتيان البهائم فحرام باجماع الائمة واختلف فى عقوبته على أقوال أحدها حد الزنا فيرجم الفاعل المحصن ويجلد غيره ويغرب والثانى أنه يقتل محصنا كان أو غير محصن لما روى عن ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه والثالث وهو الاصح أنه يعزر لان الحد شرع للزجر عما تميل النفس اليه وضعفوا حديث ابن عباس لضعف اسناده وهو وان ثبت فهو معارض بما روى انه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذبح الحيوان الا لمأكله وأما السحاق من النساء واتيان المرأة الميتة والاستمناء باليد فلا يشرع فيه شئ من ذلك الا التعزير والمقيم للحد هو الامام أو نائبه وللسيد ان يقيم الحد على رقيقه ولا تجوز الشفاعة فى اسقاط الحد ولا تركه ولا تخفيفه كما قال تعالى (ولا تأخذكم) أى على أى حال من الاحوال (بهما رأفة) أى رحمة ورقة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة والباقون بسكونها والسوسى على أصله من البدل وقيل معنى الرأفة أن يخففوا الضرب (فى دين الله) أى الذى شرعه لكم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها روى أن عمر رضى الله عنه جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله فقال يابنى ان الله تعالى لم يأمرنا بقتلها وقد ضربت فأوجعت ثم انه سبحانه وتعالى زاد فى الحض على ذلك بقوله تعالى (ان كنتم تؤمنون بالله) أى الذى هو أرحم الراحمين فانه ما شرع ذلك الا رحمة للناس عموما وللزانيين خصوصا فلا تزيدوا فى الحد ولا تنقصوا منه شيأ وفى الحديث يؤتى بوال نقص من الحدود سوطا فيقول رحمة لعبادك فيقال له أنت أرحم منى فيؤمر به الى النار ويؤتى بمن زاد سوطا فيقول لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به الى النار وعن أبى هريرة اقامة حد بأرض خير من مطر

أربعين ليلة ثم اتبع ذلك عبارهبه بقوله تعالى (واليوم الآخر) الذى يحاسب فيه على النقير والقطمير والخفى والجلى (وليشهد) أى وليحضر (عذابهما) أى حدهما اذا أقيم عليهما (طائفة من المؤمنين) والطائفة الفرقة التى يمكن أن تكون حلقة وأقلها ثلاثة أو أربعة وهى صفة غالبة كانها الجماعة الحافة حول الشئ وعن ابن عباس فى تفسيرها أربعة الى أربعين رجلا من المصدقين بالله تعالى وعن الحسن عشرة وعن قتادة ثلاثة فصاعدا وعن عكرمة رجلان فصاعدا وعن مجاهد أقلها رجل فصاعدا وقيل رجلان وفضل قول ابن عباس لان الاربعة هى الجماعة التى يثبت بها الزنا ولا يجب على الامام حضور رجم ولا على الشهود لانه صلى الله عليه وسلم أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما وانما خص المؤمنين بالحضور لان ذلك أفضح والفاسق بين صلحاء قومه أخجل ويشهد له قول ابن عباس الى أربعين رجلا من المصدقين بالله *(تنبيه)* الضرب يكون بسوط لا حديد يجرح ولا خلق لا يؤلم ويفرق بين السياط على أعضائه ولا يجمعها فى موضع واحد واتفقوا على أنه يتقى المهالك كالوجه والبطن والفرج ويضرب على الرأس لقول أبى بكر رضى الله عنه اضرب على الرأس فان الشيطان فيه ولا يشد يده وينزع الثياب التى تمنع ألم الضرب كالفرو ولو فرق سياط الحد تفريقا لا يحصل به التنكيل مثل أن يضرب كل يوم سوطا أو سوطين فان فرق وضرب والالم موجود كفى وان وجب الحد على حامل لا يقام عليها حتى تضع وترضعه حتى ينفطم ويندب أن يحفر للمرأة الى صدرها ان ثبت زناها بالبينة لا باقرارها ولا يندب للرجل مطلقا وان وجب الحد على المريض نظر ان كان يرجى زواله كصداع انتظر أو لا يرجى كالزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط بل بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام جلده وأما فى حال الحر والبرد الشديدين فان كان الحد رجما لم يؤخر لان النفس مستوفاة وان كان جلدا أخر الى اعتدال الهواء ويقبل رجوع الزانى عن اقراره ولو فى أثناء الحد واذا مات فى الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن فى مقابر المسلمين *الحكم الثانى* قوله تعالى (الزانى لا ينكح) أى لا يتزوج (الا زانية أو مشركة) أى المعلوم اتصافه بالزنا مقصور نكاحه على زانية أو مشركة (والزانية لا ينكحها) أى لا يتزوجها (الا زان أو مشرك) أى والمعلوم اتصافها بالزنا مقصور نكاحها على زان أو مشرك اذ الغالب أن المائل الى الزنا لا يرغب فى نكاح الصوالح والمسافحة لا يرغب فيها الصلحاء فان المشاكلة علة الالفة والانضمام والمخالفة سبب النفرة والافتراق وقال بعضهم الجنسية علة الضم والمشاكلة سبب المواصلة والمخالفة توجب المباعدة وتحرم المؤالفة وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وعن على رضى الله تعالى عنه أنه خطب أهل الكوفة بعد ثلاثة أيام من مقدمه عليهم فقال يا أهل الكوفة قد علمنا شراركم من خياركم فقالوا كيف ومالك الا ثلاثة أيام فقال كان معنا شرار وخيار فانضم خيارنا الى خياركم وشرارنا الى شراركم وعن الشعبى انه قال ان لله ملكا موكلا بجمع الاشكال بعضها الى بعض وقال القائل

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى

فان قيل لم قدمت الزانية على الزانى أولا ثم قدم عليها ثانيا (أجيب) بأن تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ماجنيا والمرأة هى المادة التى منها نشأت الجناية لانها لو لم تطمع الرجل ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن فلما كانت أصلا وأولا فى ذلك بدئ بذكرها وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لانه الراغب فيه والخاطب ومنه يبدو الطلب (وحرم ذلك) أى نكاح الزانى والزانية تحريما لامشوبة فيه (على المؤمنين) واختلف العلماء فى معنى الآية وحكمها فقال قوم منهم مجاهد وعطاء وقتادة والزهرى والشعبى ورواية عن ابن عباس قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لامال لهم ولا عشائر وبالمدينة نساء بغايا هن يومئذ أخصب أهل المدينة فرغب ناس من فقراء المسلمين فى نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فنزلت هذه الآية وحرم ذلك على المؤمنين أن يتزوجوا تلك البغايا لانهن كن مشركات وقال عكرمة نزلت فى نساء كن بمكة و بالمدينة لهن رايات يعرفن بها منهن أم مهزول جارية السائب ابن أبى السائب المخزومى وكان الرجل ينكح الزانية فى الجاهلية يتخذها مأكلة فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة فاستأذن رجل منهم النبى صلى الله عليه وسلم فى نكاح أم مهزول فاشترطت أن تنفق عليه فنزلت هذه الآية وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد الغنوى وكان يحمل الاسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة وكانت بمكة بغى يقال لها عناق وكانت صديقة له فى الجاهلية فلما أتى مكة دعته عناق الى نفسها فقال مرثد ان الله حرم الزنا فقالت فانكحنى فقال حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أنكح عناقا فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد على شيأ فنزل الزانى لاينكح الازانية أو مشركة والزانية لاينكحها الازان أو مشرك فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأها على وقال لاتنكحها أخرجه الترمذى والنسائى وأبو داود بألفاظ متقاربة المعنى فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصا فى حق أولئك دون سائر الناس وقال قوم منهم سعيد بن جبير والضحاك ورواية عن ابن عباس المراد من النكاح هو الجماع ومعنى الآية الزانى لايزنى الابزانية أو مشركة والزانية لاتزنى الابزان أو مشرك وقال يزيد بن هرون ان جامعها وهو مستحل فهو مشرك وان جامعها وهو محرم فهو زان وعن عائشة رضى الله عنها ان الرجل اذا زنى بامرأة ليس له أن يتزوجها لهذه الآية واذا باشرها كان زانيا وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية و يقول اذا تزوج الزانى الزانية فهما زانيان أبدا وقال الحسن الزانى المجلود لاينكح الازانية مجلودة والزانية المجلودة لاينكحها الازان مجلود وقال سعيد ابن المسيب وجماعة منهم الشافعى رحمه الله تعالى ان حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراما بهذه الآية فنسخها الله تعالى بقوله تعالى وأنكحوا الايامى منكم وهو جمع أيم وهى من لا زوج لها فدخلت الزانية فى ايامى المسلمين واحتج من جوز نكاح الزانية بماروى عن جابر أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ان امرأتى لاتمنع يد لامس قال طلقها قال فانى

أحبها وهي جميلة قال استمتع بها وفي رواية غيره أمسكها اذا وقد أجازه ابن عباس وشبهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه وعنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ضرب رجلا وامرأة زنيا وحرص أن يجمع بينهما فأبى الغلام * ولما نفر سبحانه وتعالى عن نكاح من اتصف بالزنا من رجل أو امرأة نهى عن الرمي به فقال تعالى (والذين يرمون) أي بالزنا (المحصنات) جمع محصنة وهي هنا المسلمة الحرة المكلفة العفيفة وهذا هو الحكم الثالث والذي يدل على أن المراد الرمي بالزنا أمور أحدها تقدم ذكر الزنا ثانيها أنه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف فدل ذلك على أن المراد بالرمي رميهن بضد ذلك ثالثها انعقاد الاجماع على انه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمي بالزنا رابعها قوله تعالى (ثم لم يأتوا) أي الى الحكام (بأربعة شهداء) أي ذكور ومعلوم ان هذا العدد من الشهود غير شرط الا في الزنا وشرط القاذف الذي يحد بسبب القذف التكليف والاختيار والتزام الاحكام والعلم بالتحريم وعدم اذن المقذوف وأن يكون غير أصل وألفاظ القذف تنقسم الى صريح وكناية وتعريض فمن الصريح قوله لرجل أو امرأة زنيت أو زنيت أو يا زاني أو يا زانية ولو كسر التاء في خطاب الرجل وفتحها في خطاب المرأة أو زنيت في الجبل ومن الكناية زنأت وزنأت في الجبل بالهمز فان نوى بذلك القذف كان قذفا والا فلا ومن التعريض يا ابن الحلال وأما أنا فلست بزان فهذا ليس بقذف وان نواه (فان قيل) اذا كان ذلك القذف يشمل الذكر والانثى فلم كانت الآية الكريمة في الاناث فقط (أجيب) بأن الكلام في حقهن أشنع وتنبيها على عظيم حق أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها وحد القاذف الحر ثمانون كما قال تعالى (فاجلدوهم) أي أيها المؤمنون من الائمة ونوابهم (ثمانين جلدة) لكل واحد منهم لكل محصنة وحد القاذف الرقيق ولو مبعضا أو مكاتبا أربعون جلدة على النصف من الحر لآية النساء فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب فهذه الآية مخصوصة بتلك اذ لا فرق بين الذكر والانثى ولا بين حد الزنا وحد القذف ويدل على ان المراد بالآية الاحرار قوله تعالى (ولا تقبلوا لهم) أي بعد قذفهم (شهادة) أي شهادة كانت (أبدا) للحكم بافترائهم لان العبد لا تقبل شهادته وان لم يقذف * ولما كان التقدير انهم قد افتروا عطف عليه تحذيرا من الاقدام عليه من غير تثبت (وأولئك) أي الذين تقدم ذمهم بالقذف فنزلت رتبتهم جدا (هم الفاسقون) أي المحكوم بفسقهم الثابت لهم هذا الوصف وان كان القاذف منهم محقا في نفس الامر وفي ذلك دليل على أن القذف من الكبائر لان اسم الفسق لا يقع الا على صاحب كبيرة واختلف العلماء في قبول شهادة القاذف بعد التوبة وحكم هذا الاستثناء المذكور في قوله (الا الذين تابوا) أي رجعوا عما وقعوا فيه من القذف وغيره وندموا عليه وعزموا على أن لا يعودوا (من بعد ذلك) أي الامر الذي أوجب ابعادهم فذهب قوم الى ان القاذف ترد شهادته بنفس القذف فاذا تاب وصلح حاله كما قال تعالى (وأصلحوا) أي بعد التوبة بمضي مدة يظن بها حسن الحال وهي سنة يعتبر بها حال التائب بالفصول الاربعة التي تكشف

الطبائع (فان الله) أى الذى له صفات الكمال (غفور) أى ستورلهم ما أقدموا عليه لرجوعهم عنه (رحيم) أى يفعل بهم من الاكرام فعل الراحم بالمرحوم فى قبول الشهادة وقبلت شهادته سواء قبل الحد وبعده وزال عنه اسم الفسق وقالوا هذا الاستثناء يرجع الى رد الشهادة والى الفسق ويروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس وجمع من الصحابة وبه قال مالك والشافعى وذهب قوم الى أن شهادة المحدود فى القذف لاتقبل أبدا وان تاب وقالوا الاستثناء يرجع الى قوله وأولئك هم الفاسقون ويروى ذلك عن النخعى وشريح وبه قال أصحاب الرأى قالوا بنفس القذف لاترد شهادته مالم يحد قال الشافعى هو قبل أن يحد شر منه حين يحد لان الحدود كفارات فكيف يردونها فى أحسن حاليه وذهب الشعبى الى أن حد القذف يسقط بالتوبة (فان قيل) اذا قلتم بالاول فما معنى قوله تعالى أبدا (أجيب) بأن معنى أبدا مادام مصرا على القذف لان أبد كل انسان مدته على مايليق بحاله كما يقال لاتقبل شهادة الكافر أبدا يراد بذلك مادام على كفره فاذا أسلم قبلت شهادته * (تنبيهان) * الاقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين أو أربع كالزنا فيه قولان أصحهما أنه يثبت برجلين بخلاف فعل الزنا لان الفعل يغمض الاطلاع عليه واذا شهد على فعل الزنا يجب أن يذكر الزانى ومن زنى بها لانه قد يراه على جارية لابيه فيظنه زنا يوجب الحد وأن يقول فى شهادته رأيت ذكره يدخل فى فرجها وان لم يقل دخول الميل فى المكحلة لكن قوله ذلك أولى فلو شهدوا مطلقا أنه زنى لم يقبلوا لانهم ربما يرون المفاخذة زنا ويشترط أيضا أن يفسر فى اقراره كالشهود ويصح رجوعه عن الاقرار ولو فى أثناء الحد كما مر ولافرق فى قبول الشهادة بين أن يجىء الشهود متفرقين أو مجتمعين كما قاله الشافعى وقال أبو حنيفة اذا شهدوا متفرقين لايثبت وعليهم حد القذف ولو شهد على الزنا أقل من أربعة أو أربعة وفيهم الزوج لم يثبت الزنا وعليهم الحد لان شهادة الزوج لاتقبل فى حق زوجته قال ابن الرفعة فى الكفاية لامرين أحدهما أن الزنا تعرض لمحل حق الزوج فان الزانى يستمتع بالمنافع المستحقة له فشهادته فى حقها تتضمن اثبات جناية الغير على ماهو مستحق له فلم تسمع كما اذا شهد أنه جنى على عبده والثانى أن من شهد بزنا زوجته فنفس شهادته دال على اظهار العداوة لان زناها يوغر صدره بتلطيخ فراشه وادخال الغير عليه وعلى ولده وهو أبلغ من مؤلم الضرب وفاحش السب ولو قذف رجل وجاء بأربعة فساق شهدوا على المقذوف بالزنا لم يحد والان شرائط الشهادة بالزنا قد وجدت عند القاضى الا أنه لم تقبل شهادتهم لاجل التهمة فكما اعتبرنا التهمة فى نفى الحد عن المشهود عليه فكذلك أوجبنا اعتبارها فى نفى الحد عنهم * ولما كان لفظ المحصنات عاما للزوجات وكان لهن حكم غير ماتقدم وهو الحكم الرابع أفردهن بقوله (والذين يرمون) أى بالزنا (أزواجهم) أى من المؤمنات والكافرات الحرائر والاماء (ولم يكن لهم شهداء) يشهدون على صحة ماقالوه (الا أنفسهم) أى غير أنفسهم وهذا ربما يفهم أنه اذا كان الزوج أحد الاربعة كفى وهذا المفهوم معطل لكونه حكاية حال واقعة لاشهود فيها وقوله تعالى فى الآية قبلها ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فانه يقتضى كون الشهداء غير الرامى بالزنا ولعله استثناه

من الشهداء لان لعانه يكون بلفظ الشهادة ومذهب الشافعي أنه لا يقبل في ذلك كما قدمناه (فشهادة أحدهم) أي فالواجب شهادة أحدهم على من رماها أو فعليهم شهادة أحدهم (أربع شهادات) من خمس في مقابلة أربعة شهداء (بالله) أي مقرونة بهذا الاسم الكريم الاعظم الموجب لاستحضار جميع صفات الجلال والجمال (انه لمن الصادقين) أي فيما قذفها به وقرأ حفص وحمزة والكسائي برفع العين على أنه خبر شهادة والباقون بنصبها على المصدر (والخامسة ان لعنت الله) أي الملك الاعظم (عليه) أي القاذف نفسه (ان كان من الكاذبين) فيما رماها به وقرأ نافع بتخفيف ان ساكنة ورفع لعنة والباقون بتشديد النون منصوبة ونصب لعنة ورسمت لعنة بتاء مجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ووقف الباقون بالتاء واذا وقف الكسائي أمال الهاء هذا لعان الرجل وحكمه سقوط حد القذف عليه وحصول الفرقة بنفسه فرقة فسخ عندنا لقوله صلى الله عليه وسلم المتلاعنان لا يجتمعان أبدا و بتفريق الحاكم فرقة طلاق عند أبي حنيفة ونفي الولد ان تعرض له فيه وثبوت حد الزنا على المرأة بقوله تعالى (ويدرأ) أي يدفع (عنها) أي المقذوفة (العذاب) أي المعهود وهو الحد الذي أوجبه عليها كما تقدم (أن تشهد أربع شهادات) من خمس (بالله) الذي له جميع الاسماء الحسنى والصفات العليا كما تقدم في الزوج (انه لمن الكاذبين) فيما قاله عليها (والخامسة) من الشهادات (ان غضب الله) الذي له الامر كله (عليها ان كان من الصادقين) أي فيما رماها به روى البخاري في تفسيره وغيره عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال له النبي صلى الله عليه وسلم البينة أو حد في ظهرك فقال يا رسول الله اذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول البينة أو حد في ظهرك فقال هلال بن أمية والذي بعثك بالحق اني لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه والذين يرمون أزواجهم حتى بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليهما فجاآ فقام هلال بن أمية فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة أوقفوها وقالوا انها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت وقال النبي صلى الله عليه وسلم أبصروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الاليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن وقد روى البخاري أيضا عن سهل بن سعد أن سبب نزولها قصة مثل هذه لعويمر رضي الله عنه وقد تقدم أنه لا يمتنع أن يكون للآية الواحدة عدة أسباب معا أو متفرقة *(تنبيه)* خصت المرأة بالغضب لانه أبلغ من اللعن الذي هو الطرد لانه قد يكون بسبب غير الغضب وسبب التغليظ عليها الحث على اعترافها بالحق لما يصدق الزوج من القرينة من أنه لا يتجشم فضيحة أهله المستلزم لفضيحته الا وهو صادق ولانها مادة الفساد وخالطة الانساب ويشترط في اللعان أمر القاضي وتلقينه

كما انه فى الجانبين فيقول قل أشهد بالله الخ لان اللعان يمين واليمين لايعتد بها قبل استحلاف القاضى وان غلب فيه معنى الشهادة فهى لاتؤدى عنده الا باذنه وان يتأخر لعانها عن لعانه لان لعانها لاسقاط الحد الذى وجب عليها بلعان الزوج كما علم مما مر ويلاعن أخرس باشارة مفهمة أوكتابة ويكرر كلمة الشهادة أربعا أو يكتبها مرة ويشير اليها أربعا ويصح اللعان بالعجمية وان عرف العربية ويشترط الولاء بين الكلمات الخمس فيؤثر الفصل الطويل ولايشترط الولاء بين لعانى الزوجين ولو أبدل لفظ شهادة بحلف ونحوه أو لفظ غضب بلعن أوعكسه أوذكره قبل تمام الشهادة لم يصح ذلك ويصح أن يتلاعنا قائمين وان يغلظ اللعان بزمان وهو بعد عصر الجمعة فيؤخر اليه ان لم يكن طلب اكيد والا فبعد عصر أى يوم كان وبمكان عند أشرف بلد اللعان فبمكة بين الحجر الاسود والمقام وهو المسمى بالحطيم والمدينة على المنبر وبيت المقدس عند الصخرة وغيرها على منبر الجامع وتلاعن حائض بباب المسجد وذمى فى بيعة للنصارى وكنيسة لليهود وبيت نار لمجوس لانهم يعظمونها لا بيت أصنام وثنى لانه لاحرمة له وقرأ حفص والخامسة الاخيرة بالنصب والباقون بالرفع وقرأ نافع بتخفيف النون ساكنة وكسر الضاد ورفع الهاء من الاسم الجليل والباقون بتشديد النون منصوبة ونصب الضاد وخفض الهاء * ولما حرم سبحانه وتعالى بهذه الجمل الاعراض والانساب فصان بذلك الدين والاموال علم أن التقدير فلولا أنه سبحانه خير الغافرين وخير الراحمين لما فعل بكم ذلك ولافضح المذنبين وأظهر سرائر المستخفين ففسد النظام فعطف على هذا الذى علم تقديره قوله تعالى (ولولا فضل الله) أى بماله من الكرم والاتصاف بصفات الكمال (عليكم ورحمته) أى بكم بالستر فى ذلك (وان الله) أى الذى أحاط بكل شئ قدرة وعلما (تواب) بقبوله التوبة فى ذلك وغير ذلك (حكيم) يحكم الامور فيمنعها من الفساد بما يعلم من عواقب الامور لفضح كل عاص ولم يوجب أربعة شهداء ستر الكم * الحكم الخامس قصة الافك المذكورة فى قوله تعالى (ان الذين جاؤا بالافك) أى أسوأ الكذب سمى افكا لكونه مصروفا عن الحق من قولهم أفك الشئ اذا صرفه عن جهته وذلك أن عائشة رضى الله تعالى عنها وعن أبويها كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف والعفة والكرم فمن رماها بسوء فقد قلب الامر عن أحسن وجوهه الى أقبح افضائه (فان قيل) لم ترك تسميتها (أجيب) بأنه تركه تنزيها لها عن هذا القال وابعادا للصون جانبها العلى عن هذا المراد وقوله تعالى (عصبة) خبر ان أى جماعة أقلهم عشرة وأكثرهم أربعون وكذا العصابة وقوله تعالى (منكم) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعائشة وصفوان ممن يعد عندكم فى عداد المسلمين يريد عبد الله بن أبى وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقوله تعالى (لاتحسبوه شرا لكم) مستأنف أى لاتنشأ عنه فتنة ولايصدقه أحد (بل هو خير لكم) لاكتسابكم به الثواب العظيم لانه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة وظهور كرامتكم على الله تعالى بانزال ثمان عشرة آية فى براءتكم وتعظيم شأنكم وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن

رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له وتبرئة لام المؤمنين رضوان الله تعالى عليها وتطهير لاهل البيت وتهويل لمن تكلم فى ذلك أوسمع به فلم تمجه أذناه وعدة ألطاف للسامعين والتالين الى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وآداب لاتخفى على متأمّلها ولما كان لاشفاء لغيظ الانسان أعظم من انتصار الملك الديان له علل ذلك بقوله تعالى (لكل امرئ منهم) أى الآفكين (ما اكتسب) أى بخوضه فيه (من الاثم) الموجب لشقائه (والذى تولى كبره) أى معظمه (منهم) أى من الخائضين وهو ابن أبىّ فانه بدأ به وأذاعه عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوهو وحسان ومسطح فانهما تابعاه بالتصريح به والذى بمعنى الذين على هذا (له عذاب عظيم) فى الآخرة أوفى الدنيا بأن جلدوا وصار ابن أبىّ مطرودا مشهورا بالنفاق وحسان أعمى أشل اليدين ومسطح مكفوف البصر * (تنبيه) * قصة الافك معروفة فى الصحيح والسنن وغيرهما شهيرة جدا ولكن نذكر منها طرفا تبركا بذكر النبىّ صلى الله عليه وسلم وبذكر السيدة عائشة وأبويها رضى الله تعالى عنهم فنقول عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما أنزل الحجاب فكنت أحمل فى هودج وأنزل فيه فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين فاذن ليلة بالرحيل فقمت حين اذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى فلمست صدرى واذا عقدلى من جزع أظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه قالت وأقبل الرهط الذين يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء اذذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم انما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعدما سار الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولامجيب فيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت انهم سيفقدونى فيرجعون الىّ فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان بن معطل السلمى ثم الذكوانى رضى الله تعالى عنه قدعرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلى فرأى سواد انسان نائم فعرفنى حين رآنى وكان رانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى ووالله ما تكلمنا بكلمة ولاسمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فقمت اليها فركبتها فانطلق يقودبى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول فهلك من هلك وكان الذى تولى كبر الافك منهم عبد الله بن أبىّ ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الافك ولا أشعر بشئ من ذلك وهو يريبنى فى وجعى انى لاأعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى انما يدخل فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذى يريبنى فيه ولا أشعر بالشر حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح

قبل المناصع وكان متبرزنا وكنا لانخرج الا ليلا وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا
وأمرنا أمر العرب الاولى فى البرية وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا فأقبلت أنا وأم
مسطح حين فرغنا من شأننا نمشى فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس
ماقلت أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت ياهنتاه ألم تسمعى ماقال قالت وما قال فأخبرتنى بقول
أهل الافك فازددت مرضا على مرضى فلما رجعت الى بيتى دخل على رسول الله صلى الله عليه
وسلم ثم قال كيف تيكم فقلت له أتأذن لى ان آتى أبوى قالت وأنا اريد ان أستيقن الخبر من قبلهما
قالت فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت أبوى فقلت لامى ياأماه ماذا يتحدث الناس
قالت يابنية هونى عليك فوالله ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر الا أكثرن
عليها قالت فقلت سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت
لايرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن
أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله قالت فأما
أسامة فأشار على النبى صلى الله عليه وسلم بما يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم لهم فى نفسه من الود
فقال أسامة هم أهلك يارسول الله ولانعلم والله الا خيرا وأما على فقال يارسول الله لم يضيق الله
عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة
فقال أى بريرة هل رأيت من شئ يريبك قالت والذى بعثك بالحق ان رأيت عليها أمرا قط أغمصه
أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله قالت فقام
رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبى ابن سلول فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يامعشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى
والله ماعلمت على أهلى الا خيرا وقد ذكروا رجلا ماعلمت عليه الا خيرا ولم يدخل على أهلى الا معى
قالت فقام سعد أخو بنى عبد الاشهل فقال أنا يارسول الله أعذرك فان كان من الاوس ضربت
عنقه وان كان من أخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد
الخزرج قالت وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد كذبت لعمر الله
لاتقتله ولاتقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن تقتله فقام أسيد بن حضير ابن عم سعد
فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين قالت فثار
الحيان الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر
فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت فبكيت يومى ذلك كله
لايرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم قالت وأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل
بنوم ولا يرقأ لى دمع حتى انى لاظن أن البكاء فالق كبدى فبينما أبواى جالسان عندى وأنا أبكى
فاستأذنت على امرأة من الانصار فأذنت لها فجلست تبكى معى قالت فبينما نحن على ذلك اذ
دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندى منذ قيل ماقيل
قبلها وقد لبث شهرا لايوحى اليه فى شأنى بشئ قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين

جلس ثم قال أما بعد يا عائشة انه بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى لا أحس منه بقطرة فقلت لابي أجب رسول الله فيما قال فقال اني والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لامي أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال فقالت أمي والله ما أدري ما أقول لرسول الله فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرا والله لقد علمت ما سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم اني بريئة لا تصدقوني ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم اني منه بريئة لتصدقوني فوالله لا أجد لي ولكم مثلا الا ما قال العبد الصالح أبو يوسف ولم اذكر اسمه حين قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ثم تحولت واضطجعت على فراشي والله يعلم حينئذ أني بريئة والله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحيا يتلى لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى في بأمر ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه عند الوحي من البرحاء حتى انه ليتحدر منه العرق مثل الجمان في اليوم الشاتي من ثقل الذي أنزل عليه فسجي بثوب فوالله ما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت ان نفس أبوي ستخرجان فرقا من أن يأتي الله بتحقيق ما قال الناس فلما سري عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال أبشري يا عائشة قد برأك الله فكنت أشد ما كنت غضبا فقال لي أبواي قومي اليه فقلت والله لا أقوم اليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولا أحمد الا الله الذي أنزل براءتي لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه وأنزل الله تعالى ان الذين جاؤا العشر آيات كلها فقال أبو بكر والله لا أنفق على مسطح بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله ولا يأتل أولوا الفضل منكم الى قوله غفور رحيم فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه بلى والله اني لاحب أن يغفر الله لي فرجع النفقة الى مسطح التي كان ينفقها عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب ما علمت أو رأيت فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت الا خيرا قالت عائشة وهي التي تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع قالت عائشة والله ان الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت كنف أنثى قط قالت ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله تعالى قالت ولما نزل عذري قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن وضرب عبد الله بن أبي ومسطحا وحسان وحمنة الحد قال عروة وكانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول انه الذي قال

فان أبي ووالده وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء

وقال الحافظ ابن عمر بن عبد البر في الاستيعاب وأنكر قوم أن يكون حسان خاض في الافك

بجلد فيه وروى عن عائشة أنها برأته من ذلك انتهى وقال غيره والله لا أظن به ذلك أصلا وان جاءت تسميته في الصحيح فقد يخطئ الثقة لاسباب لا تحصى كما يعرف ذلك من مارس نقل الاخبار وكيف يظن به ذلك ولا شغل له الا مدح النبي صلى الله عليه وسلم والمدافعة عنه والذم لاعدائه وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل معه وهو القائل يمدح عائشة ويكذب من نقل عنه ذلك

حصان رزان ماتزن بريبة * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

حليلة خير الناس دينا ومنصبا * نبي الهدى والمكرمات الفواضل

عقيلة حي من لؤي بن غالب * كرام المساعي مجدها غير زائل

مهذبة قد طيب الله خيمها * وطهرها من كل شين وباطل

وان كان ما بلغت عني قلته * فلا رفعت سوطي الي أناملي

فكيف وودي ما حييت ونصرتي * لآل رسول الله زين المحافل

له رتبة عال على الناس فضلها * تقاصر عنها سورة المتطاول

وفي هذا القدر كفاية لاولي الالباب فان في هذه القصة عبرة لمن اعتبر فان أهل الافك استمروا في هذا أكثر من شهر والله تعالى عالم بما يقولون وان قولهم يكاد يقطع الاكباد في أحب خلقه اليه وهو قادر على تكذيبهم عند أول ما خاضوا فيه ولكنه سبحانه أراد للناس رفع الدرجات ولآخرين الهلكات ولا بأس ببيان غريب هذه الالفاظ التي وقعت في هذه القصة من كلام عائشة وغيرها قولها اذن أي أعلم بالرحيل وقولها فقدت عقدا لي من جزع أظفار وهو نوع من الخرز وهو الجزع اليماني المعروف وقولها لم يهبلن أي لم يكثر لحمهن من السمن فيثقلن وقولها انما يأكلن العلقة من الطعام وهو بضم العين أي البلغة من الطعام وهي قدر ما يمسك الرمق وقولها ليس بها منهم داع ولا مجيب أي ليس بها أحد لا من يدعو ولا من يرد جوابا وقولها فيممت أي قصدت وقولها قد عرس من وراء الجيش فأدلج التعريس نزول المسافر بالليل للراحة والادلاج بالتشديد سير آخر الليل وبالتخفيف سير الليل كله وقولها باسترجاعه هو قول القائل انا لله وانا اليه راجعون وقولها خمرت أي غطيت وجهي بجلبابي أي ازاري وقولها موغرين في نحر الظهيرة الوغر شدة الحر وكذلك نحر الظهيرة أي أولها وقولها والناس يفيضون أي يخوضون ويتحدثون وقولها وهو يريبني يقال رابني الشيء يريبني أي تشككت فيه وقولها ولا أرى من النبي اللطف أي الرفق بها واللطف في الافعال الرفق وفي الاقوال لين الكلام وقولها حين نقهت أي أفقت من المرض والمناصع المواضع الخالية تقضى فيها الحاجة من غائط وبول وأصله المكان الواسع الخالي والمرط كساء من صوف أو خز وقولها فقالت تعس مسطح أي خسر وقولها يا هنتاه أي يا بلهاء كانها نسبتها الى البله وقلة المعرفة وقولها لا يرقأ أي لا ينقطع وقول بريرة ان رأيت بمعنى النفي أي ما رأيت منها أمرا أغمصه عليها بالصاد المهملة أي أعيبه والداجن الشاة التي تألف البيت وتقيم به وقوله صلى الله عليه وسلم من يعذرني أي ان أنا كافئته

على

على سوء صنيعه ان عاتبت أو عاقبت فلا تلوموني على ذلك وقولها ولكن حملته الحمية أي حمله الغضب والانفة والتعصب على الجهل للقرابة وقولها فتثاور الحيان أي ثاروا ونهضوا للقتال والمخاصمة وقولها فلم يزل يخفضهم أي يهون عليهم ويسكت وقوله صلى الله عليه وسلم ان كنت ألممت قيل هو من اللمم وهو صغار الذنوب قيل معناه مقارفة الذنب من غير فعل وقولها قلص دمعي أي انقطع جريانه قوله ما رام أي ما برح من مكانه والبرحاء الشدة والجمانة الدرة وجمعه جمان وقولها فسري عنه أي كشف عنه وقول زينب أحمي سمعي وبصري أي أمنعهما عن أن أخبر بما لم أسمع ولم أبصر وقولها وهي التي كانت تساميني من السمو وهو العلو والغلبة فعصمها الله تعالى أي منعها الله من الوقوع في الشر بالورع وقول الرجل ما كشفت كنف أنثى أي ستر أنثى وقول حسان في عائشة حصان بفتح الحاء امرأة حصان أي متعففة رزان أي ثابتة ما تزن أي ترمي ولا تتهم بريبة أي أمر يريب الناس وتصبح غرثى أي خائفة الموت والغرث الجوع من لحوم الغوافل جمع غافلة والمعنى انها لا تغتاب أحدا ممن هو غافل وقرأ لا تحسبوه وتحسبونه ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها * ولما أخبر سبحانه وتعالى بعقاب أهل الافك وكان في المؤمنين من سمعه وسكت وفيهم من سمعه فتحدث به متعجبا من قائله أو متثبتا في أمره وفيهم من أكذبه اتبعه سبحانه وتعالى بعتابهم في أسلوب خطابهم مثنيا على من كذبه فقال سبحانه وتعالى مستأنفا محرضا (لولا) أي هلا ولم لا (اذ) أي حين (سمعتموه) أيها المدعون للايمان (ظن المؤمنون) أي منكم (والمؤمنات) وكان الاصل ظننتم أي أيها العصبة ولكنه التفت الى الغيبة تنبيها على التوبيخ وصرح بالنساء ونبه على الوصف المقتضي لحسن الظن تخويفا للذي ظن السوء من سوء الخاتمة (بأنفسهم) حقيقة (خيرا) وهم دون من كذب عليها فقطعوا ببراءتها لان الانسان لا يظن في الناس الا ما هو متصف به أو باخوانهم لان المؤمنين كالجسد الواحد وذلك نحو ما روي ان أبا أيوب الانصاري قال لام أيوب ألا ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان كنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوأ قال لا قالت ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير مني وصفوان خير منك (وقالوا هذا افك مبين) أي كذب بين (فان قيل) هلا قيل لولا اذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم ولم عدل عن الخطاب الى الغيبة وعن الضمير الى الظاهر (أجيب) بأن ذلك مبالغة في التوبيخ على طريقة الالتفات وليصرح بلفظ الايمان دالا على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن وفيه تنبيه على أن حق المؤمن اذا سمع قالة في أخيه أن يبني الامر فيها على الظن لا على الشك وأن يقول ملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير هذا افك مبين هكذا اللفظ المصرح ببراءة ساحته لا يقول كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال وهذا من الادب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما يسمعه باخوانه ثم علل سبحانه وتعالى كذب الآفكين أن قال موبخا لمن اختلقه وأذاعه ملقنا لمن يريد الى ظن الخير (لولا) أي هلا ولم لا (جاؤا عليه

بأربعة شهداء) كما تقدم أن القذف لايباح الابها (فاذ) أي حين (لم يأتوا بالشهداء) أى الموصوفين (فأولئك) اى البعداء من الصواب (عند الله هم الكاذبون) قد جعل الله التفصل بين الرمى الصادق والرمى الكاذب بثبوت شهادة الشهود الاربعة وانتفائها والذين رموا عائشة لم تكن لهم بينة على قولهم فقامت عليهم الحجة وكانوا عند الله أى فى حكمه وشريعته كاذبين وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الافك فلم يجدوا فى دفعه وانكاره واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف فى الشرع من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة فى التنكيل به اذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين فكيف بأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حبيبة حبيب رب العالمين * ولما بين الله سبحانه وتعالى الدليل على كذب الخائضين فى هذا الكلام وأنهم استحقوا الملام قال عاطفا على لولا الماضية التى للتحضيض (ولولا) التى هى لامتناع الشئ لوجود غيره (فضل الله) أى المحيط بصفات الكمال (عليكم ورحمته) أى معاملته لكم بمزيد الانعام والاكرام اللازم للرحمة (فى الدنيا) بقبول التوبة والمعاملة بالحلم (والآخرة) بالعفو عمن يريد أن يعفو عنه منكم (لمسكم) أى عاجلكم (فى ما أفضتم) أى أيها العصبة أى خضتم (فيه) من حديث الافك (عذاب عظيم) أى يحتقر معه اللوم والجلد * (فائدة) * فى مقطوعة فى الرسم من ما كما ترى. ثم بين تعالى وقت حلول العذاب وزمان تعجيله بقوله تعالى (اذ) اى مسكم حين (تلقونه) أى تجتهدون فى تلقى أى قبول هذا الكلام الفاحش والقائه (بألسنتكم) أى يرويه بعضكم عن بعض وذلك أن الرجل منهم كان يلقى الرجل فيقول بلغنى كذا وكذا يتلقونه تلقيا يلقيه بعضهم الى بعض وحذفت من الفعل احدى التاءين (وتقولون بأفواهكم) أى كلاما مختصا بالافواه فهو كلام لا حقيقة له فلا يمكن ارتسامه فى القلب بنوع دليل وأكد هذا المعنى بقوله تعالى (ماليس لكم به علم) أى بوجه من الوجوه وتنكيره للتحقير (فان قيل) القول لا يكون الا بالفم فما معنى قوله تعالى بأفواهكم (أجيب) بأن معناه أن الشئ المعلوم يكون علمه فى القلب فيترجم عنه اللسان وهذا الافك ليس الا قولا يجرى على ألسنتكم ويدور فى أفواهكم من غير ترجمة عن علم به فى القلب كقوله تعالى يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم (وتحسبونه) بدليل سكوتكم عن انكاره (هينا) أى لا اثم فيه (وهو) أى والحال أنه (عند الله) أى الذى لا يبلغ أحد مقدار عظمته (عظيم) فى الوزر واستجرار العذاب فهذه ثلاثة آثام مرتبة علق بها مس العذاب العظيم تلقى الافك بألسنتهم والتحدث به من غير تحقق واستصغارهم لذلك وهو عند الله تعالى عظيم (ولولا) أى وهلا ولم لا (اذ) أى حين (سمعتموه قلتم) من غير توقف ولا تلعثم (ما يكون) أى ما ينبغى وما يصح (لنا أن نتكلم بهذا) أى القول المخصوص ويجوز أن تكون الاشارة الى نوعه فان قذف آحاد الناس محرم فكيف بمن اختارها العليم الحكيم لصحبة أكمل الخلق (فان قيل) كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم (أجيب) بأن الظروف تنزل من الشئ منزلة نفسه لوقوعه فيها وأنها لا انفكاك لها عنه فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع فى غيرها (فان قيل) أى فائدة فى تقديم الظرف حتى أوقع فاصلا

(اجيب)

(أجيب) بأن الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يذبوا أول ما سمعوا بالافك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم (فان قيل) ما معنى يكون والكلام بدونه ملتئم لو قيل ما لنا أن نتكلم بهذا (أجيب) بأن معناه ينبغي ويصح أى ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا وما يصح لنا كما تقدم تقريره ونحوه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق وقوله تعالى (سبحانك) تعجب من أن يخطر ذلك بالبال فى حال من الاحوال (فان قيل) ما معنى التعجب فى كلمة التسبيح (أجيب) بأن الاصل فى ذلك أن يسبح الله تعالى عند رؤية التعجب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه وقيل تنزيه فهو منزه عن أن يرضى بظلم هؤلاء القذفة وعن أن لا يعاقبهم وعن أن تكون حرمة نبيه صلى الله عليه وسلم فاجرة قال البيضاوى فان فجورها ينفر عنه ويخل بمقصود الزواج بخلاف كفرها فانه لا ينفر أى ولهذا كانت امرأة نوح ولوط كافرتين وهذا يقتضى حل نكاح الكتابية مع أنها لا تحل له صلى الله عليه وسلم لانه اتكره صحبته ولانه أشرف من أن يضع ماءه فى رحم كافرة بنكاح ولقوله تعالى وأزواجه أمهاتهم ولا يجوز أن تكون الكافرة أم المؤمنين ولخبر سألت ربى أن لا أزوج الا من كانت معى فى الجنة فأعطانى رواه الحاكم وصحح اسناده أما التسرى بالكافرة فلا يحرم لانه صلى الله عليه وسلم تسرى بريحانة وكانت يهودية من بنى قريظة ولا يشكل تعليلهم السابق من أنه أشرف أن يضع ماءه فى رحم كافرة لان القصد بالنكاح اصالة التوالد فاحتيط له وبأنه يلزم منه أن تكون الزوجة المشركة أم المؤمنين بخلاف الملك فيهما (هذا بهتان) أى كذب يبهت من يواجه به ويحيره لشدة ما يفعل فى القوى الباطنة لانه فى غاية الغفلة عنه لكونه أبعد الناس منه ثم هونه بقوله (عظيم) لعظمة المبهوت عليه فان حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها * ولما كان هذا كله وعظا لهم واستصلاحا ترجمه بقوله (يعظكم الله) أى يرقق قلوبكم الذى له الكمال كله فيمهل بحلمه ولا يهمل بحكمته (أن) أى كراهة أن (تعودوا لمثله أبدا) أى ما دمتم أحياء مكلفين ثم عظم هذا الوعظ بقوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) أى متصفين بالايمان راسخين فيه فانكم لا تعودون فان الايمان يمنع عنه وهذا تهييج وتقريع لا أنه يخرج عن الايمان كما تقول المعتزلة (فان قيل) هل يجوز أن يسمى الله واعظا كقوله تعالى يعظكم الله (أجيب) بأنه لا يجوز كما قاله الرازى قال كما لا يجوز أن يسمى الله معلما كقوله تعالى الرحمن علم القرآن لان أسماء الله تعالى توقيفية (ويبين الله) أى بما له من صفات الكمال والاكرام (لكم الآيات) أى الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب كى تتعظوا وتتأدبوا (والله) أى المحيط بجميع الكمال (عليم) أى بما يأمر به وينهى عنه (حكيم) لا يضع شيأ الا فى أحكم مواضعه وان دق عليكم فهم ذلك فلا تتوقفوا فى أمر من أوامره * ولما كان من أعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب بينه بقوله تعالى (ان الذين يحبون) أى يريدون وعبر بالحب اشارة الى أنه لا يرتكب هذا مع شناعته الا محب له ولا يحبه الا بعيد عن الاستقامة (أن تشيع) أى تنتشر بالقول أو الفعل (الفاحشة) الفعلة الكبيرة القبح (فى الذين آمنوا) أى بنسبتها اليهم وهم العصبة وقيل المنافقون (لهم عذاب أليم فى الدنيا)

أى بالحد للقذف (والآخرة) أى بالنار لحق الله تعالى ان لم يتب (والله) أى المستجمع لصفات الجلال والجمال (يعلم) أى له العلم التام فهو يعلم مقادير الاشياء ما ظهر منها وما بطن وما الحكمة فى اظهاره أو ستره أو غير ذلك من جميع الامور (وأنتم لا تعلمون) أى ليس لكم علم من أنفسكم فاعملوا بما علمكم فلا تتجاوزوه ولا تضلوا وقيل معناه يعلم ما فى قلب من يحب أن تشيع الفاحشة فيجازيه عليها وأنتم لا تعلمون ذلك وقيل والله يعلم انتفاء الفاحشة عنهم وأنتم أيها العصبة لا تعلمون وجودها فيهم وقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) أى بكم تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عظم الجريمة ولذا عطف عليه (وأن الله) أى الذى له القدرة التامة فسبقت رحمته غضبه (رؤف رحيم) على حصول فضله ورحمته وجواب لولا محذوف كأنه قال لعذبكم واستأصلكم لكنه رؤف رحيم قال ابن عباس الخطاب لحسان ومسطح وحمنة قال الرازى ويجوز أن يكون الخطاب عاما وقيل الجواب فى قوله تعالى ما زكى منكم من أحد وقرأ رؤف نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بمد الهمزة والباقون بقصرها (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات) أى طرق (الشيطان) بتزيينه أى لا تسلكوا مسالكه فى اشاعة الفاحشة ولا فى غيرها (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه) أى المتبع (يأمر بالفحشاء) أى بالقبائح من الافعال (والمنكر) أى ما أنكره الشرع وهو كل ما يكرهه الله تعالى وقرأ قنبل وابن عامر وحفص والكسائى بضم الطاء والباقون بالسكون (ولولا فضل الله) أى الذى لا اله غيره (عليكم ورحمته) أى بكم بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وتشريع الحدود المكفرة لها (ما زكى) أى ما طهر من ذنبها (منكم من أحد أبدا) آخر الدهر والآية عند بعض المفسرين على العموم قالوا أخبر الله أنه لولا فضل الله ورحمته ما صلح منكم من أحد وقال ابن عباس الخطاب للذين خاضوا فى الافك ومعناه ما طهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذى فعل بالتوبة منه (ولكن الله) أى العليم بأحوال خلقه (يزكى) أى يطهر (من يشاء) من الذنوب بقبول التوبة منها (والله سميع) أى لاقوالهم (عليم) أى بما فى قلوبهم (ولا يأتل) أى يحلف افتعال من الالية وهو القسم (أولو الفضل) أى أصحاب الغنى (منكم والسعة أن) أى أن لا (يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا) عنهم فى ذلك (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) أى على عفوكم وصفحكم واحسانكم الى من أساء اليكم قال المفسرون نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة أبى بكر رضى الله تعالى عنه وكان يتيما فى حجره وكان ينفق عليه فلما فرط منه ما فرط قال لهم أبو بكر قوموا لستم منى ولست منكم وكفى بذلك داعيا فى المنع فان الانسان اذا أحسن الى قريبه وكافأه بالاساءة كان أشد عليه مما اذا صدرت الاساءة من أجنبى قال الشاعر

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة * على المرء من وقع الحسام المهند

فقال له مسطح نشدتك الله والاسلام والقرابة لا تحوجنا الى أحد فما كان لنا أول الامر من

ذنب فقال ألم تشكام فقال قد كان بعض ذلك عجبا من قول حسان فلم يقبل عذره وقال انطلقوا أيها القوم فان الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الارض وناس من الصحابة أقسموا أن لا يتصدقوا على من تكلم بشئ من الافك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أبي بكر وقرأ عليه الآية فلما وصل الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم (والله غفور رحيم) أى مع كمال قدرته فتخلقوا بأخلاقه قال بلى يا رب انى أحب أن تغفر لى فذهب أبو بكر الى بيته وأرسل الى مسطح وأصحابه وقال قبلت ما أنزل الله تعالى على الرأس والعين وانما فعلت بكم ما فعلت اذ سخط الله عليكم أما اذ عفا عنكم فرحبا بكم وجعل له مثلى ما كان له وقال والله لا أنزعها أبدا وذلك من أعظم أنواع المجاهدات ولا شك أن هذا أعظم من مقاتلة الكفار لان هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكفار ومجاهدة النفس أشد من مجاهدة الكفار ولهذا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (ان الذين يرمون المحصنات) أى العفائف (الغافلات) أى عن الفواحش وهن السليمات الصدور النقيات القلوب بأن لا يقع فى قلوبهن فعلها اللاتى ليس فيهن دهاء ولا مكر لانهن لم يجربن الامور ولم يرزن الاحوال فلا يفطن لما تفطن له المجربات العارفات قال فى ذلك القائل متغزلا

ولقد لهوت بطفلة ميالة * بلهاء تطلعنى على أسرارها

وكذلك البله من الرجال فى قوله صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله وقيل البله هم الراضون بنعيم الجنة والفطناء لم يرضوا الا بالنظر الى وجهه الكريم (المؤمنات) بالله ورسوله (لعنوا فى الدنيا والآخرة) أى عذبوا فى الدنيا بالحد وفى الآخرة بالنار (ولهم عذاب عظيم) لعظم ذنوبهم قال مقاتل هذا خاص فى عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق وروى أنه قيل لسعيد بن جبير من قذف مؤمنة يلعنه الله فى الدنيا والآخرة فقال ذلك لعائشة رضى الله تعالى عنها خاصة قال الزمخشرى ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر أن الله عز وجل قد غلظ فى شئ تغليظه فى افك عائشة رضوان الله عليها ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة كل واحد منها كاف فى بابه ولو لم تنزل الا هذه الثلاث آيات لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم كما قال تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) أى من قول وفعل وهو يوم القيامة بما أفكوا وبهتوا فانه تعالى يوفيهم جزاءهم الحق كما قال تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) أى جزاءهم الواجب الذين هم أهله (ويعلمون) عند ذلك (أن الله هو الحق المبين) حيث حقق لهم جزاء الذى كانوا يشكون فيه فأوجز فى ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع فى وعيد المشركين وعبدة الاوثان الا ما هو دونه فى الفظاعة وما ذاك الا لامر عظيم وعن ابن عباس

أنه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسئل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات فقال من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الامن خاض فى أمر عائشة وهذا منه مبالغة وتعظيم لامر الافك ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة برأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد فقال تعالى وشهد شاهد من أهلها الآية وبرأ موسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه وبرأ مريم بانطاق ولدها عليه الصلاة والسلام حين نادى من تحتها انى عبد الله الآية وبرأ عائشة رضى الله تعالى عنها بهذه الآيات العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات فانظر كيف بينها وبين تبرئة أولئك وما ذاك الا لاظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنبيه على انافة محل سيد ولد آدم وخيرة الاولين والآخرين وحجة الله على العالمين ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه وتقدم قدمه واحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الافك وليتأمل كيف غضب الله تعالى له فى حرمته وكيف بالغ فى نفى التهمة عن حجابه وقال قوم ليس لمن قذف عائشة وبقية أزواج النبى صلى الله عليه وسلم توبة لان الله تعالى لم يذكر فى قذفهن توبة وما ذكر من أول السورة فذاك فى قذف غيرهن (فان قيل) ان كانت عائشة هى المرادة فكيف قيل المحصنات (أجيب) بأنها لما كانت أم المؤمنين جمعت ارادة لها ولبناتها من نساء الامة الموصوفات بالاحصان والغفلة والايمان ولذا قيل ان هذا حكم كل قاذف مالم يتب (فان قيل) ما معنى قوله تعالى هو الحق المبين (أجيب) بأن معناه ذو الحق المبين أى العادل الظاهر العدل الذى لا ظلم فى حكمه والمحق الذى لا يوصف بباطل ومن هذه صفته كان له أن يجازى المحسن على احسانه والمسىء على اساءته فحق مثله أن يتقى ويجتنب محارمه وقرأ يشهد حمزة والكسائى بالياء التحتية والباقون بالفوقية ويوم ناصبه الاستقرار الذى تعلق به لهم وقرأ أبو عمرو يوفيهم الله بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم هذا كله فى الوصل وأما الوقف فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم (الخبيثات) أى من النساء والكلمات (للخبيثين) من الناس (والخبيثون) أى من الناس (للخبيثات) أى مما ذكر (والطيبات) أى مما ذكر (للطيبين) أى من الناس (والطيبون) أى منهم (للطيبات) أى مما ذكر فاللائق بالخبيث مثله وبالطيب مثله (أولئك) أى الطيبون والطيبات من النساء ومنهم صفوان وعائشة (مبرؤن مما يقولون) أى الخبيثون والخبيثات من النساء وقيل عائشة وصفوان ذكرهما بلفظ الجمع كقوله تعالى فان كان له اخوة أى اخوان (لهم) أى الطيبين والطيبات من النساء على الاول ولصفوان وعائشة على الثانى (مغفرة) أى عفو عن الذنوب (ورزق كريم) هو الجنة وروى أن عائشة رضى الله تعالى عنها كانت تفتخر بأشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها منها أن جبريل عليه السلام أتى بصورتها فى سرقة من حرير وقال للنبى صلى الله عليه وسلم هذه زوجتك وروى أنه أتى بصورتها فى راحته ومنها أنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها ومنها أنه قبض صلى الله عليه وسلم ورأسه الشريف فى حجرها ومنها أنه دفن فى بيتها ومنها أنه كان ينزل

عليه الوحى وهو معها فى لحاف ومنها أن براءتها نزلت من السماء ومنها أنها ابنة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقه وخلقت طيبة ووعدت بمغفرة ورزق كريم وكان مسروق رحمه الله تعالى اذا روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قال حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء * الحكم السادس ماذكره بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) أى التى تسكنونها فان المؤجر والمعير لا يدخلان الا باذن وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها وفى قوله تعالى (حتى تستأنسوا) وجهان أحدهما أنه من الاستئناس الظاهر الذى هو خلاف الاستيحاش لأن الذى يطرق باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه فاذا أذن له فقد استأنس والمعنى حتى يؤذن لكم كقوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم وهذا من باب الكناية والارداف لأن هذا النوع من الاستئناس يردف الاذن فوضع موضع الاذن والثانى أن يكون من الاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف استفعال من أنس الشئ اذا أبصره ظاهرا مكشوفا والمعنى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم أم لا ومنه قولهم استأنس هل ترى أحدا واستأنست فلم أر أحدا أى تعرفت واستعلمت وقال الخليل بن أحمد الاستئناس الاستبصار من قوله آنست نارا أى أبصرت وقيل هو أن يتكلم بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ويتنحنح يؤذن أهل البيت وعن أبى أيوب الانصارى قال يا رسول الله ما الاستئناس قال أن يتكلم الرجل (وتسلموا على أهلها) كأن يقول الواحد السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فان أذن له دخل والا رجع قال قتادة المرة الاولى للتسميع والثانية ليتهيأ والثالثة ان شاء أذن وان شاء رد وهذا من محاسن الآداب فان أول مرة ربما منعهم بعض الاشتغال من الاذن وفى الثانية ربما كان هناك مانع يقتضى المنع فان لم يجب فى الثالثة يستدل بعدم الاذن على مانع ولهذا كان الاولى فى الاستئذان ثلاثا أن لا تكون متصلة بل يكون بين كل واحدة والاخرى وقت ما ولا بد من اذن صريح اذا كان الداخل أجنبيا أو قريبا غير محرم سواء كان الباب مغلقا أم لا وان كان محرما فان كان ساكنا مع صاحبه فيه لم يلزمه الاستئذان ولكن عليه أن يشعره بدخوله بتنحنح أو شدة وطء أو نحو ذلك ليستتر العريان فان لم يكن ساكنا فان كان الباب مغلقا لم يدخل الا باذن وان كان مفتوحا فوجهان والاوجه الاستئذان وعن أبى موسى الاشعرى أنه أتى باب عمر فقال السلام عليكم أأدخل قالها ثلاثا ثم رجع وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الاستئذان ثلاثا واستأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أألج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة يقال لها روضة قومى الى هذا فعلميه فانه لا يحسن أن يستأذن وقولى له يقول السلام عليكم أأدخل فسمع الرجل فقال أأدخل وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم اذا دخل بيتا غير بيته حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب صاحب البيت مع امرأته فى لحاف واحد فصد الله عز وجل عن ذلك وعلم

ماهو الاحسن الاجمل وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به وباب الاستئذان من ذلك قال الزمخشري بينا أنت في بيتك اذ رعف عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا اسلام ولا جاهلية وهو ممن يسمع ما أنزل الله فيه وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أين الاذن الواعية (ذلكم خير لكم) أي من تحية الجاهلية ومن أن تدخلوا من غير استئذان روى ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم أأستأذن على أمي قال نعم قال انه ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت قال أتحب أن تراها عريانة قال الرجل لا قال فاستأذن وقوله تعالى (لعلكم تذكرون) متعلق بمحذوف أي أنزل عليكم وقيل بين لكم هذا ارادة أن تذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به في باب الاستئذان وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (فان لم تجدوا فيها) أي البيوت (أحدا) يأذن لكم في دخولها (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) أي حتى يأتي من يأذن لكم فان المانع من الدخول فيها ليس الاطلاع على العورات فقط وانما شرع لئلا يوقف على الاحوال التي تطويها الناس في العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ولانه تصرف في ملك غيرك فلا بد أن يكون برضاه والا أشبه الغصب والتغلب (وان قيل لكم ارجعوا) أي بعد الاستئذان (فارجعوا) أي اذا كان في البيت أحد وقال لكم ارجعوا فارجعوا (هو) أي الرجوع (أزكى) أي أطهر وأصلح (لكم) من الوقوف على الابواب منتظرين لان هذا مما يجلب الكراهة ويقدح في قلوب الناس خصوصا اذا كانوا ذوي مروأة مرتاضين للآداب الحسنة واذا نهى عن ذلك لأدائه الى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي اليها من قرع الباب بعنف والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس وعن أبي عبيد رحمه الله تعالى ماقرعت بابا على عالم قط وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون وعن قتادة رحمه الله تعالى اذا لم يؤذن له لا يقعد وراء الباب فان للناس حاجات وان حضر ولم يستأذن وقعد على الباب منتظرا جاز وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يأتي باب الانصاري لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج ولا يستأذن فيخرج الرجل فيقول يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أخبرتني فيقول هكذا أمرنا أن نطلب العلم فاذا وقف فلا ينظر من شق الباب اذا كان الباب مردودا لما روى عن أبي هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اطلع في بيت قوم فقد حل لهم أن يفقؤا عينه وفي رواية للنسائي قال لو أن امرأ اطلع عليك بغير اذن فخذفته ففقأت عينه ما كان عليك جناح ولو عرض أمر في دار من حريق أو هدم أو هجوم سارق أو ظهور منكر يجب انكاره جاز الدخول بغير اذن (والله) أي الذي لا يخفى عليه شيء (بما تعملون) من الدخول باذن وبغير اذن (عليم) فيجازيكم عليه * ولما نزلت آية الاستئذان قالوا يا رسول الله كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام على ظهر الطريق ليس فيها انسان فانزل الله تعالى (ليس عليكم جناح) أي اثم (أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة) أي

بغير استئذان منكم وذلك كبيوت الخانات والربط المسبلة (فيها متاع) أي منفعة (لكم)
والمنفعة فيها بالنزول وأنواع المتاع والاتقاء من الحر والبرد ونحو ذلك وقال ابن زيد هي بيوت
التجار وحوانيتهم التي بالاسواق يدخلها للبيع والشراء وهو المنفعة وقال ابراهيم النخعي ليس
على حوانيت الاسواق اذن وكان ابن سيرين رحمه الله تعالى اذا جاء الى حانوت السوق يقول
السلام عليكم أدخل ثم يلج وقال عطاء هي البيوت الخربة والمتاع هو قضاء الحاجة فيها من البول
والغائط وذلك استثناء من الحكم السابق لشموله البيوت المسكونة وغيرها (والله يعلم
ما تبدون) أي تظهرون (وما تكتمون) أي تخفون في دخول غير بيوتكم من قصد صلاح أو غيره
وفي ذلك وعيد من الله تعالى لمن دخل لفساد أو تطلع على عورات وسيأتي انهم اذا دخلوا
بيوتهم سلموا على أنفسهم والحكم السابع حكم النظر المذكور في قوله تعالى (قل للمؤمنين
يغضوا من أبصارهم) أي عما لا يحل لهم نظره (ويحفظوا فروجهم) أي عما لا يحل لهم فعله
بها *(تنبيه)* من للتبعيض والمراد غض البصر عما لا يحل كما مر والاقتصار به على ما يحل
وجوز الاخفش أن تكون مزيدة وأباه سيبويه (فان قيل) لم دخلت من في غض البصر دون
حفظ الفرج (أجيب) بأن في ذلك دلالة على أن المراد أن أمر النظر أوسع بدليل جواز النظر
للمحارم فيما عدا ما بين السرة والركبة وأما نظر الفروج فالامر فيه ضيق وكفاك فرقا أن أبيح
النظر الا ما استثنى منه وحظر الجماع الا ما استثنى منه ويجوز أن يراد مع حفظها عن الافضاء
الى ما لا يحل حفظها عن الابداء وعن ابن زيد كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا الا
هذا فانه أراد به الاستتار (فان قيل) لم قدم غض البصر على حفظ الفرج (أجيب) بأن البلوى
فيه أشد وروى عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه قال سألت النبي صلى الله عليه
وسلم عن نظر الفجأة فقال اصرف بصرك وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لعلي يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الثانية أخرجه
أبو داود والترمذي وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال لا ينظر الرجل الى عورة الرجل ولا المرأة الى عورة المرأة ولا يفضي الرجل الى الرجل
في ثوب واحد ولا تفضي المرأة الى المرأة في ثوب واحد (ذلك) أي غض البصر وحفظ الفرج
(أزكى) أي خير (لهم) لما فيه من البعد عن الريبة سئل الشيخ الشبلي رحمه الله تعالى عن
قوله تعالى يغضوا من أبصارهم فقال أبصار الرؤس عن المحرمات وأبصار القلوب عن المحرمات
*ثم أخبر سبحانه وتعالى بأنه خبير بأحوالهم وأفعالهم بقوله تعالى (ان الله) أي الملك الذي
لا يخفى عليه شيء (خبير بما يصنعون) بسائر حواسهم وجوارحهم فعليهم اذا عرفوا ذلك
أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن)
عما لا يحل لهن نظره (ويحفظن فروجهن) عما لا يحل لهن فعله بها روى عن أم سلمة رضي
الله تعالى عنها أنها قالت كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة بنت الحرث
اذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال صلى الله عليه وسلم احتجبا

منه فقلت يارسول الله أليس هو أعمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه وقوله تعالى (ولايبدين) أى يظهرن (زينتهن) أى لغير محرم والزينة خفية وظاهرة فالخفية مثل الخلخال والخضاب فى الرجل والسوار فى المعصم والقرط فى الاذن والقلائد فى العنق فلا يجوز للمرأة اظهارها ولا يجوز للاجنبى النظر اليها والمراد من الزينة مواضعها من البدن وذكر الزينة للمبالغة فى الامر بالصون والستر لان هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لايحل النظر اليها (الاماظهر منها) أى من الزينة الظاهرة واختلف أهل العلم فى هذه الزينة التى استثناها الله تعالى فقال سعيد بن جبير وجماعة هى الوجه والكفان وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه هى الثياب وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى الكحل والخاتم والخضاب فى الكف فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للاجنبى النظر اليها ان لم يخف فتنة فى أحد وجهين وعليه الاكثر وانما رخص فى هذا القدر للمرأة أن تبديه من بدنها لانه ليس بعورة فى الصلاة وسائر بدنها عورة فيها ولان سترها فيه حرج فان المرأة لاتجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشى فى الطرقات وخاصة الفقيرات والوجه الثانى يحرم لانه محل الفتنة ورجح حسما للباب (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أى يسترن الرؤس والاعناق والصدور بالمقانع فان جيوبهن كانت واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وماحواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى تغطيها ويجوز أن يراد بالجيوب الصدور وتسمية لها باسم مايليها ويلابسها ومنه قولهم ناصح الجيب بالنون والصاد أى سليم الصدر وقولك ضربت بخمارها على جيبها كقولك ضربت بيدى على الحائط اذا وضعتها عليه قالت عائشة رضى الله تعالى عنها يرحم الله تعالى نساء المهاجرات لما أنزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن بها والمرط كساء من صوف أوخز أوكتان وقيل هو الازار وقيل هو الدرع وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وعاصم بضم الجيم والباقون بكسرها وكرر قوله تعالى (ولايبدين زينتهن) لبيان من يحل له الابداء ومن لايحل له أى الزينة الخفية التى لم يبح لهن كشفها فى الصلاة ولا للاجانب وهى ماعدا الوجه والكفين (الا لبعولتهن) أى فانهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا الى جميع بدنهن حتى الفرج ولو الدبر ولكنه يكره وقال ابن عباس لايضعن الجلباب والخمار الا لازواجهن (أوآبائهن أوآباء بعولتهن أوأبنائهن أوأبناء بعولتهن أواخوانهن أوبنى اخوانهن أوبنى أخواتهن) فيجوز لهؤلاء أن ينظروا الى الزينة الخفية ولا ينظروا الى مابين السرة والركبة وانما سومح فى الزينة الخفية لاولئك المذكورين فى الآية للحاجة المضطرة الى مداخلتهم ومخالطتهم ولقلة الفتنة من جهتهم ولما فى الطباع من النفرة عن مماسة القرائب وتحتاج المرأة الى صحبتهم فى الاسفار للنزول والركوب وغير ذلك (أونسائهن) أى المؤمنات فان الكافرات لايتحرجن عن وصفهن للرجال فلا يجوز للمسلمة أن تتجرد من ثيابها عند النساء الكافرات لانهن أجنبيات عن الدين

فكن كالرجال الاجانب لكن يجوز أن ترى الكافرة منها ما يبدو عند المهنة وقد كتب عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمامات مع المسلمات وقيل النساء كلهن وللعلماء في ذلك خلاف *(تنبيه)* العورة على أربعة أقسام عورة الرجل مع الرجل وعورة المرأة مع المرأة وعورة المرأة مع الرجل وعورة الرجل مع المرأة أما الرجل مع الرجل فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنه ماعدا ما بين السرة والركبة وكذلك المرأة مع المرأة وأما المرأة مع الرجل أو الرجل مع المرأة فلا ينظر أحدهما من الآخر شيأ وقيل يجوز للاجنبي أن ينظر الى وجهها وكفيها اذا أمن الفتنة ولم تكن شهوة وقيل يجوز لها أن تنظر منه ماعدا ما بين السرة والركبة ويجوز لمن أراد أن يخطب حرة أن ينظر وجهها وكفيها وهي تنظر منه اذا أرادت أن تتزوج به ماعدا ما بين السرة والركبة وان أراد أن يتزوج بأمة جاز أن ينظر منها ماعدا ما بين السرة والركبة ويحرم أن ينظر بشهوة ويحرم النظر بشهوة لكل منظور اليه الا لمن أراد أن يتزوج بها او الا حليلته ويباح النظر من الاجنبي لمعاملة وشهادة حتى يجوز النظر الى الفرج للشهادة على الزنا والولادة والى الثدي للشهادة على الرضاع وتعليم ومداواة بقدر الحاجة وكل ما حرم نظره متصلا حرم نظره منفصلا كشعر عانة من رجل أو قلامة ظفر من أجنبية ويحرم اضطجاع رجلين أو امرأتين في ثوب واحد اذا كانا عاريين وان كان كل منهما في جانب من الفراش للخبر المتقدم ويجب التفريق بين ابن عشر سنين واخوته وأخواته في المضجع اذا كانا عاريين وتسن مصافحة الرجلين والمرأتين لخبر مامن مسلمين يلتقيان ويتصافحان الا غفر لهما قبل أن يتفرقا وتكره مصافحة من به عاهة كجذام أو برص والمعانقة والتقبيل في الرأس للنهي عن ذلك الا القادم من سفر أو تباعد عهد ويسن تقبيل الطفل ولو لغير أبويه شفقة ولا بأس بتقبيل وجه الميت الصالح ويسن تقبيل يد الحي لصلاح أو علم أو زهد أو نحو ذلك ويكره لغنى أو وجاهة أو نحو ذلك وقوله تعالى (أو ما ملكت أيمانهن) يعم الاماء والعبيد فيحل نظر العبد العفيف غير المبعض والمشترك والمكاتب الى سيدته العفيفة لما روى ابو داود انه صلى الله عليه وسلم أتى فاطمة رضي الله تعالى عنها بعبد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فلما رآها النبي صلى الله عليه وسلم وما تلقى قال صلى الله عليه وسلم انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك وعن عائشة أنها قالت لعبدها ذكوان انك اذا وضعتني في القبر وخرجت فأنت حر وأما الفاسق والمبعض والمشترك والمكاتب فكالاجنبي بل قيل ان المراد بالآية الاماء وعبد المرأة كالاجنبي وبه قال ابن المسيب آخرا وقال لا تغرنكم آية النور فان المراد بها الاماء (أو التابعين) أي الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم (غير أولى الاربة) أي أصحاب الحاجة الى النساء (من الرجال) أي ليس لهم همة الى ذلك ولا حاجة لهم في النساء لانهم بله لا يعرفون شيأ من أمرهن وقيل هم شيوخ صلحاء اذا كانوا معهن غضوا أبصارهم وقيل هم الممسوخون سواء كان حرا أم لا وهو مذهب الذكر والانثيين أما ذاهب الذكر

فقط أو الاثنين فقط فكالفحل وعن أبي حنيفة لايحل امساك الخصيان واستخدامهم وبيعهم وشراؤهم قال الزمخشري فان قلت روى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم خصى فقبله قلت لا يقبل فيما تعم به البلوى الاحديث مكشوف وان صح فلعله قبله ليعتقه أو لسبب من الاسباب انتهى وعندنا يجوز جميع ذلك اذ لا مانع منه وقيل المراد بأولى الاربة هو المخنث وقرأ ابن عامر وشعبة بنصب الراء على الاستثناء والحال والباقون بكسرها على الوصفية وقوله تعالى (أو الطفل) بمعنى الاطفال وضع الواحد موضع الجمع لانه يفيد الجنس ويبينه مابعده وهو قوله تعالى (الذين لم يظهروا) أى لم يطلعوا (على عورات النساء) للجماع فيجوز لهن أن يبدين لهم ماعدا ما بين السرة والركبة قال امام الحرمين رحمه الله تعالى اذا لم يبلغ الطفل حدا يحكى ما رآه فكالعدم أو بلغه من غير شهوة فكالمحرم أو بشهوة فكالبالغ (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) وذلك ان المرأة كانت تضرب برجلها الارض ليتقعقع خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال وقيل كانت تضرب باحدى رجليها على الاخرى ليعلم أنها ذات خلخالين فنهين عن ذلك لان ذلك يورث ميلا فى الرجال واذا وقع النهى عن اظهار صوت الحلى فمواضع الحلى أبلغ فى النهى وأوامر الله ونواهيه فى كل باب لايكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد ولا يخلو من تقصير يقع منه فلذلك قال تعالى (وتوبوا الى الله) أى الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت (جميعا أيه المؤمنون) أى مما وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن غيره * وشروط التوبة أن يقلع الشخص عن الذنب ويندم على مامضى منه ويعزم على أن لا يعود اليه ويرد الحقوق لاهلها وقرأ ابن عامر فى الوصل أيه المؤمنون بضم الهاء لانها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الالف فلما سقطت الالف لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ماقبلها والباقون بفتحها وأما الوقف فوقف أبو عمرو والكسائى بالالف بعد الهاء ووقف الباقون على الهاء ساكنة (لعلكم تفلحون) أى تنجون من ذلك بقبول التوبة منه وفى الآية تغليب الذكور على الاناث وعن ابن عباس توبوا مما كنتم تفعلونه فى الجاهلية لعلكم تسعدون فى الدنيا والآخرة (فان قيل) على هذا قد صحت التوبة بالاسلام لانه يجب ماقبله فما معنى هذه التوبة (أجيب) بأن بعض العلماء قال ان من أذنب ذنبا ثم تاب منه لزمه كلما ذكره أن يجدد التوبة لانه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه على عدم العود الى أن يلقى الله تعالى والذى عليه الاكثر أنه لا يلزمه تجديدها وعن أبى بردة أنه سمع الاغر يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس توبوا الى ربكم فانى أتوب الى ربى كل يوم مائة مرة وعن ابن عمر قال انا كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس يقول رب اغفر لى وتب على انك أنت التواب الغفور مائة مرة وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يسقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة * ولما نهى عما عسى يفضى الى السفاح المخل بالنسب المقتضى للالفة وحسن التربية ومزيد الشفقة المؤدية

الى

الى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغة فيه عقبه بالحكم الثامن وهو الامر بالنكاح المذكور في قوله تعالى (وأنكحوا الايامى منكم) جمع أيم والايامى واليتامى أصلهما أيايم ويتايم فقلبا والأيم هي من ليس لها زوج بكرا كانت أو ثيبا ومن ليس له امرأة فيشمل ذلك الذكر والانثى قال الشاعر

فان تنكحي انكح وان تتأيمي * وان كنت أفتى منكم أتأيم

أي أقرب الى الشباب منك وأتأيم بالرفع على قلة جواب ان تتأيمي وما بينهما جملة معترضة والمعنى أوافقك في حالتي التزوج والتأيم وان كنت أقرب الى الشباب منك وعنه صلى الله عليه وسلم اللهم انا نعوذ بك من العيمة والغيمة والايمة والقزم والقرم العيمة شهوة اللبن والغيمة العطش والايمة شهوة النكاح مع الخلو من الزوجية والقزم البخل والقرم شهوة اللحم وهذا في الاحرار والحرائر وأما غيرهم فهو قوله تعالى (والصالحين) أي المؤمنين (من عبادكم) وهو من جموع عبد (وامائكم) والخطاب للاولياء والسادة وهذا الامر أمر ندب فيستحب لمن تاقت نفسه للنكاح ووجد أهبته أن يتزوج ومن لم يجد أهبته استحب له أن يكسر شهوته بالصوم لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء أي قاطع لشهوته لان الوجاء بكسر الواو نوع من الخصاء وهو أن ترض عروق الانثيين وتترك الخصيتان كما هما فشبه الصوم في قطعه شهوة النكاح بالوجاء الذي يقطع النسل والباءة بالمد مؤن النكاح وهي المهر وكسوة فصل التمكين ونفقة يومه فان لم تنكسر شهوته بالصوم فلا يكسرها بالكافور ونحوه بل يتزوج ويكره لغير التائق ان فقد الاهبة أو وجدها وكان به علة كهرم فان وجدها ولا علة به وهو غير تائق فالتخلي للعبادة أفضل من النكاح ان كان متعبدا فان لم يتعبد فالنكاح أفضل من تركه لقوله صلى الله عليه وسلم من أحب فطرتي فليستن بسنتي وهي النكاح وعنه صلى الله عليه وسلم من كان له مال يتزوج به فلم يتزوج فليس منا وعنه صلى الله عليه وسلم اذا تزوج أحدكم عج شيطانه يا ويلاه عصم ابن آدم مني ثلثي دينه والاحاديث في ذلك كثيرة وربما كان واجب الترك اذا أدى الى معصية أو مفسدة وعنه صلى الله عليه وسلم اذا أتى على امتي مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزوبة والعزلة والترهب على رؤس الجبال وفي رواية يأتي على الناس زمان لا تنال المعيشة فيه الا بالمعصية فاذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة ويندب النكاح للمرأة التائقة وفي معناها المحتاجة الى النفقة والخائفة من اقتحام الفجرة ويستحب أن تكون المنكوحة بكرا الا لعذر لقوله صلى الله عليه وسلم هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك ولودا لقوله صلى الله عليه وسلم تزوجوا الولود الودود فاني مكاثر بكم الامم يوم القيامة وفي رواية يا عياض لا تتزوج عجوزا ولا عاقرا فاني مكاثر دينه لما روى عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة وقيل المراد بالصالحين الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه وقوله تعالى (ان يكونوا) أي الاحرار (فقراء يغنهم الله) أي بالتزويج (من فضله) رد لما عساه

أن يمنع من النكاح والمعنى لايمنعهن فقر الخاطب والمخطوبة من المناكحة فان فى فضل الله غنية عن المال فانه غاد ورائح أو وعد من الله تعالى بالغنى لقوله صلى الله عليه وسلم اطلبوا الغنى فى هذه الآية لكن ينبغى أن تكون شريطة الله تعالى غير منسية فى هذا الوعد ونظائره وهى مشيئته ولايشاء الحكيم الاما اقتضته الحكمة ونحوه ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب وقد جاءت الشريطة منصوصة فى قوله تعالى وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم ومن لم ينس هذه الشريطة لم ينتصب معترضا بعزب كان غنيا فافقره النكاح وبفاسق تاب واتقى الله وكان له شئ ففنى وأصبح مسكينا وورد التمسوا الرزق بالنكاح وشكى الى النبى صلى الله عليه وسلم رجل الحاجة فقال عليك بالباءة أى النكاح وعن عمر رضى الله عنه عجبت لمن يبتغى الغنى بغير النكاح والله تعالى يقول ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وحكى عنه أنه قال عجبت لمن لم يطلب الغنى بالباءة وقال طلحة بن مطرف تزوجوا فانه أوسع لكم فى رزقكم وأوسع فى أخلاقكم ويزيد الله فى ثروتكم قال الزمخشرى ولقد كان عندنا رجل رازح الحال ثم رأيته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت فسألته فقال كنت فى أول أمرى على ماعلمت وذلك قبل أن أرزق ولدا فلما رزقت بكر ولدى تراخيت عن الفقر فلما ولد لى الثانى ازددت خيرا فلما تتاموا ثلاثة صب الله على الخير صبا فأصبحت الى ماترى انتهى (والله) أى الذى له الملك كله (واسع) أى ذو سعة لخلقه لاتنفد نعمه اذ لاتنتهى قدرته (عليم) بهم يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر * ولما ذكر تعالى تزويج الحرائر والاماء ذكر حال من يعجز عن ذلك بقوله (وليستعفف الذين لايجدون نكاحا) أى وليجهد فى طلب العفة عن الزنا والحرام الذين لايجدون ماينكحون به من مهر ونفقة يوم التمكين وكسوة فصله وقيل لايجدون ماينكحون (حتى يغنيهم الله) أى يوسع عليهم (من فضله) فينكحون * ولما ذكر تعالى نكاح الصالحين من العبيد والاماء حث على كتابتهم بالحكم التاسع وهو الامر بالكتابة المذكور فى قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب) أى يطلبون الكتابة (مما ملكت أيمانكم) أى من العبيد والاماء (فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا) أى أمانة وقدرة على الكسب لاداء مال الكتابة * وسبب نزول هذه الآية ماروى ان غلاما لحويطب بن عبد العزى يقال له الصبيح سأل مولاه أن يكاتبه فأبى فأنزل الله هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين فأداها وقتل يوم حنين فى الحرب وأركانها أربعة رقيق وصيغة وعوض وسيد وشرط فى السيد كونه مختارا أهل تبرع وولاء وكتابة المريض مرض الموت محسوبة من الثلث فان خلف مثلى قيمته صحت الكتابة فى كله أو مثل قيمته صحت فى ثلثيه أولم يخلف غيره صحت فى ثلثه وشرط فى الرقيق اختيار وعدم صبا وجنون وأن لايتعلق به حق آدمى لازم وشرط فى الصيغة لفظ يشعر بالكتابة كأن يقول السيد لمملوكه كاتبتك على ألفين فى شهرين كل شهر ألف فاذا أديتهما فأنت حر فيقول العبد قبلت ذلك فلا يصح عقدها الا مؤجلا منجما بنجمين فأكثر كما جرى عليه الصحابة فمن بعدهم فلا بد من بيان قدر العوض وصفته وعدد النجوم وقسط كل نجم فلا يجوز عند الشافعى

رضي الله تعالى عنه بنجم واحد ولا بحال لان العبد لا يملك شيأ فعقدها بحال يمنع من حصول الغرض لانه لا يقدر على أداء البدل عاجلا وعند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه تجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لان الله تعالى لم يذكر التنجيم وقياسا على سائر العقود وهي سنة لا واجبة وان طلبها الرقيق لئلا يتعطل أثر الملك وتتحكم المماليك على الملاك بطلب رقيق أمين قوي على الكسب وبهما فسر الشافعي الخير في الآية واعتبرت الامانة لئلا يضيع ما يحصله فلا يعتق والطلب والقدرة على الكسب ليوثق بتحصيل النجوم روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ثلاث حق على الله عونهم المكاتب الذي يريد الأداء والناكح يريد العفاف والمجاهد في سبيل الله فان فقدت هذه الشروط أو بعضها فهي مباحة اذ لا يقوى رجاء العتق بها ولا تكره بحال لانها عند فقد ما ذكر قد تفضي الى العتق نعم ان كان الرقيق فاسقا بسرقة أو نحوها وعلم سيده أنه لو كاتبه مع العجز عن الكسب اكتسب بطريق الفسق لم يبعد تحريمها حينئذ لتضمنها التمكين من الفساد وتصح على عوض قليل وكثير ويجب أن يحط عنه قبل عتقه شيأ متمولا من النجوم أو يدفعه اليه من جنسها أو من غيرها كما قال تعالى (وآتوهم) أمر للسادة (من مال الله الذي آتاكم) ما يستعينون به في أداء ما التزموه لكم أيها السادة وفي معنى الايتاء حط شيء متمول مما التزموه بل الحط أولى من الدفع لان القصد بالحط الاعانة على العتق وهي محققة فيه موهومة في الدفع اذ قد يصرف المدفوع في جهة أخرى وكون ذلك في النجم الاخير أولى منه فيما قبله لانه أقرب الى العتق يروى ان عمر رضي الله تعالى عنه كاتب عبداله يكنى أبا أمية وهو أول عبد كوتب في الاسلام فأتاه بأول نجم فدفعه اليه عمر وقال استعن به على كتابتك فقال لو أخرته الى آخر نجم فقال أخاف أن لا أدرك ذلك وكونه ربعا من النجوم أولى فان لم تسمح به نفسه فكونه سبعا أولى روى حط الربع النسائي وغيره وحط السبع مالك عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه وعند أبي حنيفة أمر للمسلمين على جهة الوجوب باعانتهم للمكاتبين واعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال كقوله وفي الرقاب ولما بين تعالى ما يصح من تزويج العبيد والاماء أتبع ذلك بالحكم العاشر وهو الاكراه على الزنا المذكور في قوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم) أي اماءكم (على البغاء) أي الزنا كان لعبد الله بن أبي رأس المنافقين ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤاجرون اماءهم فلما جاء الاسلام قالت مسيكة لمعاذة ان هذا الامر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين فان يك خيرا فقد استكثرنا منه وان يك شرا فقد آن لنا أن ندعه فأنزل الله هذه الآية وروى أنه جاءت احدى الجاريتين يوما ببرد وجاءت الاخرى بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا فقالا والله لا نفعل قد جاء الاسلام وحرم الزنا فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكيا اليه فنزلت ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والامة وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي (ان أردن

تحصنا) أى تعففا عنه وهذه الارادة محل الاكراه فلا مفهوم للشرط لان الاكراه لا يتصور الاعند ارادة التحصن فأما اذا لم ترد المرأة التحصن فانها تبغى الطبع طوعا وكلمة ان وايثارها على اذا ايذان بأن الباغيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن وأن ماوجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر ولان الكلام ورد على سبب وهو الذى ذكر فى سبب نزول الآية فخرج النهى على صورة صفة السبب وان لم تكن شرطا فيه وقال الحسين بن الفضل فى الآية تقديم وتأخير تقديرها وأنكحوا الايامى منكم ان أردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أى تطلبوا من أموال الدنيا بكسبهن وأولادهن (ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور) أى لهن (رحيم) بهن وكان الحسن اذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن أى لا للمكره الا اذا تاب (فان قيل) ان المكرهة غير آثمة فلا حاجة الى المغفرة (أجيب) بأن الزنا لا يباح بالاكراه فهى آثمة لكن لاحد عليها للاكراه * ولما ذكر تعالى فى هذه السورة هذه الاحكام وصف القرآن بصفات ثلاث أحدها قوله تعالى (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات) أى الآيات التى بينت فى هذه السورة وأوضحت فيها الاحكام والحدود وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى بكسر الياء التحتية والباقون بفتحها لانها واضحات تصدقها الكتب المتقدمة والعقول السليمة من بين بمعنى تبين أو لانها بينت الاحكام والحدود ثانيها قوله تعالى (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) أى من جنس أمثالهم أى وقصة عجيبة مثل قصصهم وهى قصة عائشة رضى الله تعالى عنها فانها كقصة يوسف ومريم عليهما السلام ثالثها قوله تعالى (وموعظة للمتقين) أى ما وعظ به فى قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله وقوله تعالى لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون الخ وفى قوله تعالى لولا اذ سمعتموه قلتم الخ وفى قوله تعالى يعظكم الله أن تعودوا الخ وتخصيصها بالمتقين لانهم المنتفعون بها * واختلف فى معنى قوله تعالى (الله نور السموات والارض) فقال ابن عباس الله هادى أهل السموات والارض فهم بنوره الى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلال ينجون وقال الضحاك منور السموات والارض فقال نور السماء بالملائكة ونور الارض بالانبياء وقال مجاهد مدبر الامور فى السموات والارض وقال أبى بن كعب والحسن وأبو العالية مزين السموات والارض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الارض بالانبياء والعلماء والمؤمنين ويقال بالنبات والاشجار وقيل معناه الانوار كلها منه كما يقال فلان رحمة أى منه الرحمة وقد يذكر مثل هذا اللفظ على طريق المدح كما قال القائل

اذا سار عبد الله من مرو ليلة * فقد سار منها نورها وجمالها

وسبب هذا الاختلاف ان النور فى الاصل كيفية تدركها الباصرة أولا وبواسطتها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيران على الاجرام الكثيفة المحاذية لها وهو بهذا المعنى لا يصح اطلاقه على الله تعالى الا على ضرب من التجوز كالامثلة المتقدمة أو على تقدير مضاف كقولك زيد كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى ذو نور السموات

والارض ونور السموات والارض الحق شبه بالنور فى ظهوره وبيانه كقوله تعالى الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور أي من الباطل الى الحق وأضاف النور الى السموات والارض لاحد معنيين اما للدلالة على سعة اشراقه وفشو اضاءته حتى تضيء له السموات والارض واما أن يراد أهل السموات والارض وانهم يستضيئون به واختلف أيضا فى معنى قوله تعالى (مثل نوره) فقال ابن عباس مثل نوره الذى أعطى المؤمن أى مثل نور الله فى قلب المؤمن وهو النور الذى يهتدى به كما قال تعالى فهو على نور من ربه وقال الحسن وزيد بن أسلم أراد بالنور القرآن وقال سعيد بن جبير والضحاك هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل أراد بالنور الطاعة سمى طاعة الله نورا وأضاف هذه الانوار الى نفسه تفضلا أى صفة نوره العجيبة الشأن فى الاضاءة (كمشكاة) أى كصفة مشكاة وهى الكوة فى الجدار غير النافذة (فيها مصباح) أى سراج ضخم ثاقب (المصباح فى زجاجة) أى قنديل من زجاج شامى أزهر وانما ذكر الزجاجة لان النور وضوء النار فيها أبين من كل شيء وضوءه يزيد فى الزجاج * ثم وصف الزجاجة بقوله تعالى (الزجاجة كأنها) أى النور فيها (كوكب درى) أى مضىء شبيهها فى الضوء باحدى الدرارى من الكواكب الخمسة العظام وهى المشاهير المشترى والزهرة والمريخ وزحل وعطارد (فان قيل) لم شبه بالكواكب ولم يشبه بالشمس والقمر (أجيب) بأنهما يلحقهما الخسوف والكسوف والكواكب لا يلحقها ذلك وقرأ أبو عمرو والكسائى بكسر الدال من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام والباقون بضمها منسوب الى الدر أى اللؤلؤ فى صفائه وحسنه وان كان الكوكب أكثر ضوأ من الدر لكن يفضل الكواكب بصفائه كما يفضل الدر سائر الحب وهمزمع المد أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى

والباقون بغير همز وكل من أهل الهمز على مرتبته فى المد (توقد من شجرة مباركة زيتونة) أى ابتداء توقده من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بأن رويت فتيلة المصباح بزيت الشجرة وهى شجرة كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة لان الزيت يسرج به ويدهن به وهو ادام وهو أصفى الادهان وأضوأها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح التاء والواو وبتشديد القاف على وزن تفعل على الماضى أى المصباح وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى بضم التاء الفوقية وتخفيف القاف أى المصباح (لا شرقية ولا غربية) أى ليست بشرقية وحدها لا تصيبها الشمس اذا غربت ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس اذا طلعت بل هى مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الامرين فيكون زيتها أضوأ وهذا كما يقال فلان ليس أسود ولا أبيض أى ليس أسود خالصا ولا أبيض خالصا بل اجتمع فيه كل واحد منهما وهذا الرمان ليس بحلو ولا حامض أى اجتمع فيه الحلاوة والحموضة هذا قول ابن عباس والاكثرين وقال السدى وجماعة معناه أنها ليست فى مقنأة لا تصيبها الشمس ولا فى مضحاة لا يصيبها الظل فهى لا تضرها شمس ولا ظل والمقنأة بقاف فنون فهمزة وهى بفتح النون وضمها المكان الذى لا تطلع عليه الشمس وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى

وفى الحديث لاخير فى شجرة مقناة ولا فى نبات فى مقناة ولاخير فيهما فى مضحى قال ابن حجر العسقلانى لم أجده وقيل معناه انها معتدلة ليست فى شرق يصيبها الحر ولا فى غرب يضرها البرد وقيل معناه هى شامية لان الشأم وسط الارض لاشرقى ولاغربى وقيل ليست هذه الشجرة من أشجار الدنيا لانها لو كانت فى الدنيا لكانت شرقية أوغربية وانما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره (يكاد زيتها) أى من صفائه (يضىء ولولم تمسسه نار) أى يكاد يتلألأ ويضىء بنفسه من غير نار (نور على نور) أى نور المصباح على نور الزجاجة * (تنبيه) * اختلف أهل العلم فى معنى هذا التمثيل فقال بعضهم وقع التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب الاحبار أخبرنى عن قوله تعالى مثل نوره كمشكاة قال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هى شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم وأمره يتبين للناس ولولم يتكلم أنه نبى كما يكاد ذلك الزيت يضىء ولولم تمسسه نار وروى سالم عن عمر فى هذه الآية قال المشكاة جوف النبى صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذى جعله الله تعالى فيه لاشرقية ولاغربية لايهودى ولانصرانى توقد من شجرة مباركة ابراهيم نور على نور نور قلب ابراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليهما وسلم وقال محمد بن كعب القرظى المشكاة ابراهيم والزجاجة اسمعيل عليهما السلام والمصباح محمد صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى مصباحا كما سماه سراجا فقال تعالى وسراجا منيرا توقد من شجرة مباركة وهى ابراهيم عليه السلام سماه مباركا لان أكثر الانبياء من صلبه لاشرقية ولاغربية يعنى ابراهيم لم يكن يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما لان اليهود تصلى قبل المغرب والنصارى قبل المشرق يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن يوحى اليه نور على نور نبى من نسل نبى نور محمد على نور ابراهيم عليهما السلام وقال بعضهم وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن روى أبو العالية عن أبى بن كعب قال هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح ما جعل الله من الايمان والقرآن فى قلبه توقد من شجرة مباركة وهى الاخلاص لله وحده فمثله كمثل شجرة التف بها الشجر فهى خضراء ناعمة لاتصيبها الشمس لااذا طلعت ولااذا غربت فكذلك المؤمن قد احترس من أن يصيبه شئ من الفتن فهو بين أربع خلال ان أعطى شكر وان ابتلى صبر وان حكم عدل وان قال صدق يكاد زيتها يضىء أى يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته اياه نور على نور قال أبى أى فهو يتقلب فى خمسة أنوار قوله نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة قال ابن عباس هذا مثل نور الله وهداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار فاذا مسته النار ازداد ضوأ على ضوء كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور وقال الكلبى قوله تعالى نور على نور يعنى ايمان المؤمن وعمله وقال السدى نور الايمان ونور القرآن وقال الحسن وابن زيد هذا مثل للقرآن فالمصباح هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح يهتدى

بالقرآن

بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يضيء يعني تكاد حجة القرآن تتضح وان لم يقرأ نور على نور يعني القرآن نور من الله لخلقه مع ما قام لهم من الدلائل والاعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نورا على نور (يهدي الله لنوره) قال ابن عباس دين الاسلام وقيل القرآن (من يشاء) فان الاسباب بدون مشيئته لاغية وقيل يوفق الله لاصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والانصاف من نفسه ولم يذهب عن الجادة الموصلة اليه يمينا وشمالا ومن لم يتدبر فهو كالاعمى سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس (ويضرب) أي يبين (الله الامثال للناس) تقريبا للافهام وتسهيلا للادراك (والله بكل شيء عليم) معقولا كان أو محسوسا ظاهرا كان أو خفيا وفيه وعيد لمن تدبرها ولم يكترث بها وقوله تعالى (في بيوت) يتعلق بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل مثل نوره كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت أو بما بعده وهو يسبح أي يسبح رجال في بيوت وفي قوله فيها تكرير لقوله في بيوت كقوله زيد في الدار جالس فيها أو بمحذوف كقوله تعالى في تسع آيات أي سبحوا في بيوت والبيوت هي المساجد قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال المساجد بيوت الله في الارض وهي تضيء لاهل السماء كما تضيء النجوم لاهل الارض وقيل المراد بالبيوت المساجد الثلاثة وقيل المراد أربعة مساجد لم يبنها الا نبي الكعبة بناها ابراهيم واسمعيل عليهما السلام فجعلاها قبلة وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ومسجد المدينة ومسجد قباء بناهما النبي صلى الله عليه وسلم وأتى فيها بجمع الكثرة دون جمع القلة للتعظيم (أذن الله أن ترفع) قال مجاهد تبنى نظيره قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وقال الحسن تعظم أي فلا يذكر فيها الفحش من القول وتطهر من الانجاس والاقذار وقوله تعالى (ويذكر فيها اسمه) عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في أفعاله والمباحثة في أحكامه وقال ابن عباس يتلى فيها كتابه (يسبح) أي يصلي (له فيها بالغدو والآصال) أي بالغداة والعشي قال أهل التفسير أراد به الصلوات المفروضة فالتي تؤدى بالغداة صلاة الفجر والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لان اسم الاصيل يقع على هذا الوقت وقيل أراد به الصبح والعصر قال صلى الله عليه وسلم من صلى البردين دخل الجنة أراد صلاة الصبح وصلاة العصر وقال ابن عباس التسبيح بالغدو صلاة الضحى وروى من مشى الى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجره كأجر الحاج المحرم ومن مشى الى تسبيح الضحى لا ينصبه الا اياه فأجره كأجر المعتمر وصلاة على اثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين وقرأ ابن عامر وشعبة بفتح الباء الموحدة والباقون بكسرها (رجال لا تلهيهم تجارة) أي معاملة رابحة وقيل المراد بالتجارة الشراء لقوله تعالى (ولا بيع عن ذكر الله) اطلاقا لاسم الجنس على النوع كما تقول رزق فلان تجارة صالحة اذا اتجه له بيع صالح أو شراء وعلى الاول ذكر مبالغة للتعظيم والتعميم بعد التخصيص وقيل التجارة لاهل الجلب تقول تجر فلان في كذا أي جلب * (تنبيه) * قوله تعالى رجال فاعل يسبح بكسر الباء وعلى فتحها نائب الفاعل

له ورجال فاعل فعل مقدر جواب سؤال مقدر كأنه قيل من يسبحه وحذف من قوله تعالى (وإقام الصلاة) الهاء تخفيفا أي وإقامة الصلاة وأراد أداءها في وقتها لان من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة وانما ذكر اقام الصلاة مع ان المراد من ذكر الله الصلوات الخمس لانه تعالى أراد باقامة الصلاة حفظ المواقيت روى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فقام الناس وغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد قال ابن عمر فيهم نزلت هذه الآية (وإيتاء الزكاة) قال ابن عباس اذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها أي فيخرجون ما يجب اخراجه من المال للمستحقين وقيل هي الاعمال الصالحة ومع ماهم عليه (يخافون يوما) هو يوم القيامة (تتقلب) أي تضطرب (فيه القلوب) بين النجاة والهلاك (والابصار) بين ناحيتي اليمين والشمال وقيل تتقلب القلوب عما كانت عليه في الدنيا من الشك الى اليقين وتنفتح الابصار من الاغطية وقوله تعالى (ليجزيهم الله) متعلق بيسبح أو بلا تلهيهم أو بيخافون (أحسن ما عملوا) في الطاعات فرضها ونفلها أي ثوابه الموعود لهم من الجنة وأحسن بمعنى حسن (ويزيدهم من فضله) ما لم يستحقوه بأعمالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت وقوله تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب) تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الاحسان وكمال جوده فكأنه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالجد والاجتهاد في الطاعة ومع ذلك يكونون في نهاية الخوف فالله سبحانه وتعالى يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم وقوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب) أي حالهم على ضد ذلك فان أعمالهم التي يحسبونها صالحة نافعة عند الله تعالى يجدونها لاغية مخيبة في العاقبة كسراب وهو ما يرى في الفلاة وقت الضحى الاكبر شبيها بالماء الجاري وهو ليس بماء ولكن الذي ينظر اليه من بعيد يظنه ماء جاريا وقيل هو الشعاع الذي يرى نصف النهار في شدة الحر في البراري الذي يخيل للناظر انه الماء السارب أي الجاري فاذا قرب منه انغش فلم ير شيأ وأما الآل فانما يكون أول النهار كانه ماء بين السماء والارض وقال البغوي والآل ما ارتفع عن الارض وهو شعاع يجري بين السماء والارض بالغدوات شبه بالمرآة ترفع فيها الشخوص يرى فيها الصغير كبيرا والقصير طويلا والرقراق يكون بالعشاء وهو ما ترقرق من السراب أي جاء وذهب وقوله تعالى (بقيعة) جمع قاع وهي أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام قاله في القاموس وقيل القيعة بمعنى القاع وهو الارض المستوية المنبسطة وفيها يكون السراب وقال الفراء جمع قاع كجار وجيرة وقال الفارسي جمعه قيعة وقيعان (يحسبه) أي يظنه (الظمآن) أي العطشان الشديد العطش من ضعف العقل (ماء) فيقصده ولا يزال سائرا (حتى اذا جاءه) أي ما قدر أنه ماء وقيل جاء الى موضع السراب (لم يجده شيأ) مما حسبه ووجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافران كان من أفعال البر فهو لا يستحق عليه ثوابا مع أنه يعتقد ان له ثوابا عليه وان كان من أفعال الاثم فهو يستحق عليه العقاب مع أنه يعتقد ان له ثوابا فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى فاذا وافى عرصة القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه

فيشبه

فيشبه حاله حال الظمآن الذي اشتدت حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب في البر تعلق به قلبه
فاذا جاءه لم يجده شيأ فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه فاذا احتاج الى عمله لم يجده شيأ
ولا ينفعه وقال مجاهد السراب عمل الكافر واتيانه اياه موته ومفارقة الدنيا (فان قيل) قوله
تعالى حتى اذا جاءه يدل على كونه شيأ وقوله تعالى لم يجده شيأ مناقض له (أجيب) بأن معناه لم
يجده شيأ نافعا كما يقال فلان ما عمل شيأ وان كان قد اجتهد أو أنه اذا جاء موضع السراب لم يجد
السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء فاذا قرب منه رق وانتشر وصار
كالهواء (ووجد الله عنده) أي ووجد عقاب الله الذي توعد به الكفار أو وجد زبانية الله
أو وجده محاسبا اياه أو قدم على الله (فوفاه حسابه) أي جزاء عمله قيل نزلت في عتبة بن ربيعة
فانه قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر بالاسلام قال ابن الخازن والاصح
أن الآية عامة في حق جميع الكفار (والله سريع الحساب) لانه تعالى عالم بجميع المعلومات
فلا يشغله محاسبة واحد عن واحد وفي هذا رد على المشبهة قبحهم الله تعالى لانه تعالى لو كان
متكلما بآلة كما يقولون لما صح ذلك وقوله تعالى (أو كظلمات) عطف على كسراب على حذف
مضاف واحد تقديره أو كذي ظلمات ودل على هذا المضاف قوله تعالى اذا أخرج يده لم يكد
يراها فالكناية تعود الى المضاف المحذوف وهو قول أبي علي وقال غيره على حذف مضافين
تقديره أو كأعمال ذي ظلمات فقدر ذي ليصح عود الضمير اليه في قوله تعالى اذا أخرج يده وقدر
أعمال ليصح تشبيه أعمال الكفار بأعمال صاحب الظلمة اذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب
الظلمة وأو للتخيير فان أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب ولكونها خالية عن نور
الحق كالظلمات المتراكمة من لجج البحر والامواج والسحاب أو للتنويع فان أعمالهم ان كانت
حسنة فكالسراب وان كانت قبيحة فكالظلمات أو للتقسيم باعتبار وقتين فانها كالظلمات في
الدنيا وكالسراب في الآخرة وقوله تعالى (في بحر لجي) صفة لظلمات فيتعلق بمحذوف واللجي
منسوب الى اللج وهو معظم البحر وقيل منسوب الى اللجة بالتاء وهي أيضا معظمه فاللجي هو
العميق الكثير الماء وقوله تعالى (يغشاه) أي يغطي هذا البحر ويعلوه (موج) كائن (من فوقه
موج) أي أمواج مترادفة متراكمة (من فوقه) أي الموج الثاني المركوم وقوله تعالى (سحاب)
أي غيم غطى النجوم وحجب أنوارها صفة أخرى لبحر وقوله تعالى (ظلمات) أي من البحر
والموجين والسحاب خبر مبتدا مضمر تقديره هذه ظلمات أو تلك ظلمات ويجوز أن يكون ظلمات
مبتدأ والجملة من قوله تعالى (بعضها فوق بعض) خبره قاله الحوفي (فان قيل) لا مسوغ
للابتداء بهذه النكرة (أجيب) بأنها موصوفة تقديرا أي ظلمات كثيرة متكاثفة وقرأ البزي
سحاب بلا تنوين وجر ظلمات وقنبل ينون سحاب ويجر ظلمات والبزي جعل الموج المتراكم
بمنزلة السحاب وأما قنبل فانه جعل ظلمات بدلا من ظلمات الاولى والباقون بتنوين سحاب
وظلمات بالرفع فيهما (اذا أخرج) أي الكافر في هذا البحر بدلالة المعنى وان لم يجر له ذكر (يده)
وهي أقرب ما يرى اليه في هذه الظلمات (لم يكد) أي الكائن فيه (يراها) أي لم يقرب من

رؤيتها فضلا عن أن يراها كقول ذى الرمة

اذا غير النأى (أى البعد وفى نسخة الهجر) المحبين لم يكد*

رسيس الهوى (أى ثابته بمعنى الهوى الثابت) من حب مية يبرح

أى يزول، المعنى لم يقرب من البراح فضلا عن أن يبرح *(تنبيه)* فى كيفية هذا التشبيه وجوه أحدها قال الحسن ان الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمة ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب كذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل ثانيها قال ابن عباس شبه قلبه وسمعه وبصره بهذه الظلمات الثلاث ثالثها أن الكافر لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ويعتقد أنه يدرى فهذه المراتب الثلاثة شبه تلك الظلمات الثلاث رابعها قلب مظلم فى صدر مظلم فى جسد مظلم خامسها ان هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة اصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى لو ذكر عنده أظهر الدلائل لم يفهمه (ومن لم يجعل الله) أى الملك الاعظم (له نورا فما له من نور) قال ابن عباس من لم يجعل الله له دينا وايمانا فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا هادى له لانه تعالى قادر على ما يريد* ولما وصف تعالى أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد بقوله تعالى (ألم تر) أى تعلم علما يشبه المشاهدة فى اليقين والوثاقة بالوحى والاستدلال (أن الله) أى الحائز لصفات الكمال (يسبح له) أى ينزهه عن كل شائبة نقص (من فى السموات والارض) لان التسبيح لا يرى بالبصر بل يعلم بالقلب وهذا استفهام والمراد به التقرير والبيان وهذا التسبيح اما أن يكون المراد منه دلالته بخلق هذه الاشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الجلال أو يكون المراد منه فى حق البعض الدلالة على التنزيه وفى حق الباقين النطق باللسان قال الرازى والاول أقرب لان القسم الثانى متعذر لان فى الارض من لا يكون مكلفا لا يسبح بهذا المعنى والمكلفون منهم من لا يسبح أيضا بهذا المعنى كالكفار وأما القسم الثالث وهو أن يقال ان من فى السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان وأما الذين فى الارض فنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على لسان الدلالة فهذا يقتضى استعمال اللفظ الواحد فى الحقيقة والمجاز معا وهو غير جائز أى عند أكثر العلماء فلم يبق الا القسم الاول وهو أن هذه الاشياء مشتركة فى أن أجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله تعالى وقدرته والهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تنزيها توسعا (فان قيل) فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فما وجه تخصيصه ههنا بالعقلاء (أجيب) بأن خلقة العقلاء أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه وتعالى لان العجائب والغرائب فى خلقهم أكثر وهى العقل والنطق والفهم* ولما كان أمر الطير دلالته أعجب ولانها قد تكون بين السماء والارض فتكون خارجة عن حكم من فيهما خصها بالذكر من جملة الحيوان بقوله تعالى (والطير صافات) أى باسطات أجنحتها فى جو السماء لا شبهة فى أنه لا يمسكها الا الله تعالى وامساكه لها فى الجو مع أنها أجرام ثقيلة واقداره لها فيه على القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرته تعالى واختلف فى عود الضمائر فى قوله تعالى (كل) أى من المخلوقات (قد علم

صلاته

صلاته وتسبيحه) على قولين أحدهما أنها كلها عائدة على كل أى كل قد علم هو صلاة نفسه وتسبيحها قال ابن عادل وهذا أولى لتوافق الضمائر ثانيهما أن الضمير في علم عائد الى الله تعالى وفي صلاته وتسبيحه عائد على كل ويدل عليه قوله تعالى (والله) أى المحيط علما وقدرة (عليم بما يفعلون) وقيل ان ضرب أجنحة الطير صلاته وتسبيحه وهذا يؤيد أن المراد من التسبيح دلالة هذه الامور على التنزيه لا النطق باللسان روى أن أبا ثابت قال كنت جالسا عند أبي جعفر الباقر فقال لى أتدرى ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها قال لا قال فانهن يقدسن الله ربهن ويسألنه قوت يومهن قال بعض العلماء انا نشاهد من الطيور وسائر الحيوانات أعمالا لطيفة يعجز عنها كثير من العقلاء فاذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه وبيان أنه تعالى ألهمها الاعمال اللطيفة بوجوه أحدها ان الدب يرمى بالحجارة ويأخذ العصا ويرمى الانسان حتى يتوهم أنه مات فيتركه وربما عاد يشمه ويتجسس نفسه ويصعد الشجرة أخف صعود ويهشم الجوز بين كفيه تفريقا بالواحدة وصدمة بالاخرى ثم ينفخ فاه فيذر قشره ويتغذى به ويحكى عن الفأر في سرقته أمور عجيبة ثانيها أمر النحل وما ألهمها من الرياسة والبيوت المسدسة التي لا يتمكن من بنائها أفاضل المهندسين ثالثها انتقال الكركي من طرف من اطراف العالم الى الطرف الآخر طالبا لما يوافقه من الاهوية ويقال من خواص الخيل ان كل واحد يعرف صوت الفرس الذى قاتله وقتاما والتماسيح تفتح أفواهها الطائر يقع عليها يقال لها القطقاط وينظف ما بين أسنانها وعلى رأس ذلك الطائر كالشوكة فاذا هم التمساح بالتقام ذلك الطائر تأذى من تلك الشوكة فيفتح فاه فيخرج ذلك الطائر والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية سعترا جبليا ثم تعود وقد عوفيت من ذلك وحكى عن بعض الثقات المجربين للصيد أنه شاهد الحبارى تقاتل الافعى وتنهزم عنها الى بقلة تتناول منها ثم تعود ولا تزال كذلك وكان ذلك الشخص قاعدا في كن وكانت البقلة قريبة من مسكنه فلما اشتغل الحبارى بالافعى قلع البقلة فعاد الحبارى الى منبتها فلم يجدها فأخذ يدور حول منبتها دورانا متتابعا حتى خر ميتا فعلم الشخص أنه يعالج بأكلها من اللسعة وتلك البقلة هى الجرجير البرى وابن عرس يستظهر في مقاتلة الحية بأكل السذاب فان النكهة السذابية تنفر منها الافعى والكلاب اذا مرضت بطونها أكلت سنبل القمح واذا جرحت داوت الجراحة بالسعتر الجبلى رابعها القنافذ تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل الى جحرها وكان رجل بالقسطنطينية قد أثرى بسبب أنه ينذر بالرياح قبل هبوبها وينفع الناس بانذاره وكان السبب فيه قنفذا في داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به والخطاف صناع في اتخاذ العش من الطين وقطع الخشب فان أعوزه الطين ابتل وتمرغ في التراب ليحمل بجناحيه قدرا من الطين واذا فرخ بالغ في تعهد الفراخ وتأخذ زرقها بمنقارها وترميها من العش والغرانيق تصعد في الجو عند الطيران فان حجب بعضها عن بعض سحاب أو ضباب أحدثت عن أجنحتها حفيفا مسموعا يتبع به بعضها بعضا واذا باتت على جبل فانها تضع رأسها تحت أجنحتها الا القائد فانه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه

واذا سمع جرسا صاح وحال النمل فى الذهاب الى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضا أمر عجيب واذا كشف عن بيوتها الساتر الذى كان يسترها وكان تحته بيض لها فانّ كل نملة تأخذ بيضة فى فمها وتذهب فى أسرع وقت والاستقصاء فى هذا الباب مذكور فى كتاب طبائع الحيوان والمقصود من ذلك أنّ الفضلاء من العقلاء يعجزون عن أمثال تلك الحيل واذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يقال انها تسبح الله تعالى وتثنى عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التى تعرفها الناس ويؤيد هذا قوله تعالى ولكن لا تفقهون تسبيحهم وقوله صلى الله عليه وسلم انّ نوحا عليه السلام أوصى بنيه عند موته بلا اله الا الله فانّ السموات السبع والارضين السبع لو كنّ فى حلقة مبهمة قصمتهنّ وسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شئ وبها يرزق كل شئ وقال الغزالى فى الاحياء روى أنّ رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال تولت عنى الدنيا وقلت ذات يدى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون قال فقلت وما هى يا رسول الله قال قل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله مائة مرّة ما بين طلوع الفجر الى أن تصلى الصبح تأتيك الدنيا راغمة صاغرة ويخلق الله عز وجل من كل كلمة ملكا يسبح الله الى يوم القيامة لك ثوابه * ثم نبه سبحانه وتعالى بقوله (ولله ملك السموات والارض) على أنّ الكل منه لان كل ما سواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجد الا عند الانتهاء الى القديم الواجب الوجود ويدخل فى هذا جميع الاجرام والاعراض وأفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم وفى قوله تعالى (والى الله) أى الذى له الاحاطة بكل شئ (المصير) دليل على المعاد وأنه لا بدّ من مصير الكل اليه بعد الفناء والرؤية فى قوله تعالى (ألم تر) نظرية (أنّ الله) أى ذا الجلال والجمال (يزجى سحابا) أى يسوقه برفق بعد أن أنشأه من العدم تارة من السفل وتارة من العلو ضعيفا رقيقا متفرقا قال أبو حيان وهو اسم جنس واحده سحابة والمعنى يسوق سحابة الى سحابة وهو معنى قوله تعالى (ثم يؤلف بينه) أى بين أجزائه بعد أن كان قطعا فى جهات مختلفة فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة (ثم يجعله ركاما) فى غاية العظمة متراكما بعضه على بعض بعد أن كان فى غاية الرقة (فترى) أى فى تلك الحالة المستمرة (الودق) أى المطر (يخرج من خلاله) أى من فتوقه التى حدثت بالتراكم وارهاص بعضه فى بعض (فان قيل) بين انما تدخل على مثنى فما فوقه فلم دخلت هنا على مفرد (أجيب) بأنّ المراد بالسحاب الجنس فعاد الضمير على حكمه أو على حذف مضاف أى بين أجزائه كما مرّ وبين قطعه فانّ كل قطعة سحابة وقرأ السوسى فترى فى الوصل بالامالة بخلاف عنه والباقون بالفتح وأمّا فى الوقف فأبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بالامالة بين بين والباقون بالفتح (وينزل من السماء) أى من الغمام وكل ما علا فهو سماء (من جبال فيها) أى فى السماء وهى السحاب الذى صار بعد تراكمه كالجبال وقوله تعالى (من برد) بيان للجبال والمفعول محذوف أى ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها من برد بردا فمن الاولى لابتداء الغاية باتفاق والثانية للتبعيض والثالثة للبيان ويجوز أن تكون الثانية لابتداء الغاية أيضا

ومجرورها بدل من الاولى باعادة العامل والتقدير و ينزل من جبال أى من جبال فيها فيهو بدل اشتمال والاخيرة للتبعيض واقع موقع المفعول (فان قيل) ما معنى من جبال فيها من برد (أجيب) بأن فيه معنيين أحدهما أن يخلق الله فى السماء جبال برد كما خلق فى الارض جبال حجر وليس فى العقل قاطع يمنعه الثانى أن يراد الكثرة بذكر الجبال كما يقال فلان يملك جبالا من ذهب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وإخفائها عند الزاى وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى ثم بين تعالى أن ذلك باختياره وارادته بقوله تعالى (فيصيب به) أى بكل من البرد والمطر على وجه النقمة أو الرحمة (من يشاء) أى من الناس وغيرهم (ويصرفه عن من يشاء) صرفه عنه (فائدة) عن مقطوعة من من فى الرسم ثم نبه تعالى على ماهو غاية فى العجب فى ذلك مما فى الماء من النور الذى ربما نزل منه صاعقة فأحرقت ما لا تحرق النار بقوله تعالى (يكاد) أى يقرب (سنا) أى ضوء (برقه) وهو اضطراب النور فى خلاله (يذهب) أى هو ملتبسا (بالابصار) أى الناظرة له أى يخطفها الشدة لمعانه وتلألئه فتكون قوة البرق دليلا على تكاثف السحاب وبشيرا بقوة المطر ونذيرا بنزول الصواعق واعلم أن البرق الذى صفته كذلك لابد وأن يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء والبرد فظهوره يقتضى ظهور الضد من الضد وذلك لا يمكن الا بقدرة قادر حكيم * ثم ذكر تعالى ماهو أدل على الاختيار بقوله تعالى مترجما لما يشمل ما مضى وزيادة (يقلب الله) أى الذى له الامر كله بتحويل الظلام ضياء والضياء ظلاما والنقص تارة والزيادة أخرى مع المطر تارة والصحو أخرى (الليل والنهار) فينشأ عن ذلك التقلب من الحر والبرد والنمو والتنويع واليبس ما يبهر العقول ولهذا قال منبها على النتيجة (ان فى ذلك) الامر العظيم الذى ذكر من جميع ما تقدم (لعبرة) أى دلالة على وجود الصانع القديم وكمال قدرته واحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزيهه عن الحاجة وما يفضى اليها (لاولى الابصار) أى لاصحاب البصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده * ولما استدل تعالى أولا بأحوال السماء والارض وثانيا بالآثار العلوية استدل ثالثا بأحوال الحيوانات بقوله تعالى (والله) أى الذى له العلم الكامل والقدرة الشاملة (خلق كل دابة) أى حيوان (من ماء) وقرأ حمزة والكسائى بألف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وكسر لام كل والباقون بفتح اللام والخاء ولا ألف بينهما ونصب لام كل (فان قيل) كثير من الحيوانات لم يخلق من الماء كالملائكة خلقوا من النور وهم أعظم الحيوانات عددا وكذا الجن وهم مخلوقون من النار وخلق آدم من التراب كما قال تعالى خلقه من تراب وخلق عيسى من الريح كما قال تعالى فنفخنا فيه من روحنا ونرى كثيرا من الحيوانات يتولد لا من نطفة (أجيب) بوجوه أحسنها ما قال القفال ان من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى أن كل دابة متولدة من الماء فهى مخلوقة لله تعالى ثانيها ان أصل جميع المخلوقات من الماء على ما روى ان أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم قسم ذلك الماء فخلق منه النار والهواء والنور والتراب والمقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة فكان أصل الخلقة الماء

فلهذا ذكره الله تعالى ثالثها المراد من الدابة التي تدب على وجه الارض ومسكنها هنالك فتخرج الملائكة والجن رابعها لما كان الغالب من هذه الحيوانات كونها مخلوقة من الماء امّا لانها متولدة من النطفة وامّا لانها لا تعيش الا بالماء أطلق عليها لفظ كل تنزيلا للغالب منزلة الكل (فان قيل) لم نكر الماء فى قوله تعالى من ماء وعرفه فى قوله تعالى من الماء كل شئ حى (أجيب) بأنه جاء ههنا منكرا لان المعنى خلق كل دابة من نوع من الماء مختصا بتلك الدابة وعرفه فى قوله تعالى من الماء كل شئ حى لان المقصود هنالك كونهم مخلوقين من هذا الجنس وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم الى أنواع كثيرة (فمنهم) أى الدواب (من يمشى على بطنه) كالحية والحيتان والديدان واستعير المشى للزحف على البطن كما قالوا فى الامر المستمر قد مشى هذا الامر ويقال فلان ما مشى له أمر أو سمى بذلك للمشاكلة بذكر الزاحف مع الماشى (ومنهم من يمشى على رجلين) أى فقط كالآدمى والطير (ومنهم من يمشى على أربع) أى من الايدى والارجل كالنعم والوحش (فان قيل) لم حصر القسمة فى هذه الثلاثة أنواع من المشى وقد نجد من يمشى على أكثر من أربع كالعناكب والعقارب والحيوان الذى له أربع وأربعون رجلا الذى يسمى دخال الاذن (أجيب) بأن هذا القسم الذى لم يذكر كالنادر فكان ملحقا بالعدم وقال النقاش انه اكتفى بذكر ما يمشى على أربع عن ذكر ما يمشى على أكثر من أربع لان جميع الحيوان انما اعتماده على أربع وهى قوائم مشيه وكثرة الارجل لبعض الحيوان زيادة فى الخلقة لا يحتاج ذلك الحيوان فى مشيه الى جميعها وبأن قوله تعالى (يخلق الله ما يشاء) كالتنبيه على سائر الاقسام (فان قيل) لم جاءت الاجناس الثلاثة على هذا الترتيب (أجيب) بأنه قدم ما هو أعرق فى القدرة وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم ثم الماشى على رجلين ثم الماشى على أربع *(تنبيه)* انما أطلق من على غير العاقل لاختلاطه بالعاقل فى المفصل بمن وهو كل دابة وكان التعبير بمن أولى ليوافق اللفظ * ولما كانت هذه الادلة ناظرة الى البعث أتم نظر وكانوا منكرين له أكد ذلك بقوله تعالى (ان الله) أى الذى له الكمال المطلق (على كل شئ) من ذلك وغيره (قدير) لانه القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات فأى عقل يقف عليها وأى خاطر يصل الى ذرة من أسرارها بل هو الذى يخلق ما يشاء كيف يشاء ولا يمنعه منه مانع * ولما اتضح بهذا ما لله تعالى من صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص وقامت أدلة الوحدانية على ساق واتسقت براهين الالوهية أى اتساق قال تعالى مترجما لتلك الادلة (لقد أنزلنا) أى فى هذه السورة وما تقدمها بما لنا من العظمة (آيات) أى مما لنا من الحكم والاحكام والادلة والامثال (مبينات) للحقائق بأنواع الدلائل التى لا خفاء فيها (والله) أى الملك الاعظم (يهدى من يشاء) من عباده (الى صراط) طريق (مستقيم) هو دين الاسلام الموصل الى دار الحق والفوز بالجنة * ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بألسنتهم ولكنهم لم يفعلوه بقلوبهم فقال تعالى (ويقولون) أى الذين ذمهم الله تعالى (آمنا بالله) أى

الذى أوضح لنا جلاله وعظمته وكماله (وبالرسول) أى الذى علمنا كمال رسالته وعمومها بما قام عليها من الادلة (وأطعنا) أى وأوجدنا الطاعة لله ولرسوله ثم عظم المخالفة بين الفعل والقول بأداة البعد فقال تعالى (ثم يتولى) أى يرتد بانكار القلب ويعرض عن طاعة الله ورسوله ضلالا منهم عن الحق (فريق منهم) أى ناس يقصدون الفرقة من هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (من بعد ذلك) أى القول السديد المؤكد مع الله الذى هو أكبر من كل شئ ومع رسوله الذى هو أشرف الخلائق (وما أولئك) أى البعداء البغضاء الذين صاروا بتوليهم فى محل البعد (بالمؤمنين) أى المعهودين الموافقة قلوبهم ألسنتهم (فان قيل) انه تعالى حكى عن كلهم انهم يقولون آمنا ثم حكى عن فريق منهم التولى فكيف يصح أن يقول فى جميعهم وما أولئك بالمؤمنين مع أن المتولى فريق (أجيب) بأن قوله تعالى وما أولئك بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا الا الى الجملة الاولى ولو رجع الى الجملة الاولى لصح ويكون معنى قوله تعالى ثم يتولى فريق منهم أى يرجع عن هذا الفريق الى الباقى فيظهر بعضهم لبعض الرجوع كما أظهروه بينهم * ولما فضحهم بما أخفوه من توليهم قبح عليهم ما أظهروه فقال تعالى معبرا بأداة التحقيق (واذا دعوا) أى الفريق الذين ادعوا الايمان من أى داع كان (الى الله) أى الى ما نصب الملك الاعظم من أحكامه (ورسوله) وأفرد الضمير فى قوله تعالى (ليحكم) وقد تقدمه اسمان وهما الله ورسوله فهو كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه لان حكم رسوله هو حكمه قال الزمخشرى كقولك أعجبنى زيد وكرمه تريد كرم زيد ومنه قوله

ومنهل من الفلا فى أوسطه * غلسته قبل القطا وفرطه

أى قبل فرط القطا (بينهم) أى بما أراه الله (اذا فريق منهم) أى ناس مجبولون على الاذى (معرضون) أى فاجؤا الاعراض اذا كان الحق عليهم لعلمهم بأنك لا تحكم لهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه (وان يكن لهم) أى على سبيل الفرض (الحق) أى بلا شبهة (يأتوا اليه) أى الرسول (مذعنين) أى منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم لانهم يعلمون أنه دائر مع الحق لهم وعليهم فليس انقيادهم لطاعة الله ورسوله * (تنبيه) * قوله تعالى اليه يجوز تعليقه بيأتوا لان أتى وجاء قد يتعديان بالى ويجوز أن يتعلق بمذعنين لانه بمعنى مسرعين فى الطاعة وصححه الزمخشرى قال لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص ومذعنين حال ثم قسم تعالى الامر فى عدولهم عن حكومته صلى الله عليه وسلم اذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب بقوله تعالى (أفى قلوبهم مرض) أى نوع فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال أو مرتابين فى نبوته بقوله تعالى (أم ارتابوا) أى بأن رأوا منك تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم بك أو خائفين الحيف فى قضائه بقوله تعالى (أم يخافون أن يحيف) أى يجور (الله) أى الغنى عن كل شئ لان له كل شئ (عليهم ورسوله) أى الذى لا ينطق عن الهوى * ثم أضرب عن القسمين الاخيرين لتحقيق القسم الاول بقوله تعالى (بل أولئك) أى البعداء البغضاء (هم الظالمون) أى الكاملون فى الظلم ووجه التقسيم أن امتناعهم اما لخلل فيهم أو فى الحاكم والثانى اما أن يكون محققا

عندهم أو متوقعا وكل منهما باطل لان منصب نبوته وفرط أمانته تمنعه فتعين الاول فظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم الى الحيف وضمير الفصل لنفى ذلك عن غيرهم (فان قيل) اذا خافوا أن يحيف الله عليهم ورسوله فقد ارتابوا فى الدين واذا ارتابوا ففى قلوبهم مرض والكل واحد فأى فائدة فى التعديد (أجيب) بأن قوله تعالى فى قلوبهم مرض أشار به الى النفاق وقوله تعالى أم ارتابوا اشارة الى أنهم بلغوا فى حب الدنيا الى حيث يتركون الدين بسببه (فان قيل) هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف ادخل عليها كلمة أم (أجيب) بأنه تعالى نبههم على كل واحد من هذه الاوصاف فكان فى قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيها شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول وكل واحد من ذلك كفر ونفاق واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل نزلت فى بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديا فى أرض فقال اليهودى نتحاكم الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق نتحاكم الى كعب بن الاشرف فان محمدا يحيف علينا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد مضت قصتها فى سورة النساء وقال الضحاك نزلت فى المغيرة ابن وائل كان بينه وبين على رضى الله تعالى عنه أرض تقاسماها فوقع الى على مالا يصيبه الماء الا بمشقة فقال المغيرة بعنى أرضك فباعه اياها وتقابضا فقيل للمغيرة أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلى اقبض أرضك فانما اشتريتها ان رضيتها ولم أرضها فقال على بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ودعاه الى أن يخاصمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلا نأتيه ولا أحاكم اليه فانه يبغضنى وأنا أخاف أن يحيف على فنزلت الآية وقال الحسن نزلت فى المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر * ولما نفى تعالى عنهم الايمان الكامل بما وصفهم به كان كأنه سئل عن حال المؤمنين فقال تعالى (انما كان) أى دائما (قول المؤمنين) أى العريقين فى ذلك الوصف (اذا دعوا) أى من أى داع كان (الى الله) أى الى ما أنزل الملك الذى لا كفء له من أحكامه (ورسوله) الذى لا ينطق عن الهوى (ليحكم) أى الرسول (بينهم) بما أراه الله تعالى أى حكومة من الحكومات لهم أو عليهم (أن يقولوا سمعنا) أى الدعاء (وأطعنا) أى بالاجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وهذا ليس على طريق الخبر ولكنه تعليم أدب الشرع بمعنى ان المؤمنين ينبغى أن يكونوا هكذا (وأولئك) أى العالو الرتبة (هم المفلحون) الذين وصفهم الله تعالى فى أول المؤمنين وهذا يدل على عادته تعالى فى اتباع ذكر المحق المبطل والتنبيه على ما ينبغى بعد انكاره لما لا ينبغى * ولما رتب تعالى الفلاح على هذا النوع الخاص أتبعه عموم الطاعة بقوله تعالى (ومن يطع الله) أى الذى له الامر كله (ورسوله) أى فيما ساءه وسره (ويخش الله) أى فيما صدر عنه من الذنوب فى الماضى ليحمله ذلك على كل خير (ويتقه) أى الله فيما بقى من عمره بأن يجعل بينه وبين ما يسخطه وقاية من المباحات فيتركها ورعا (فأولئك) أى العالو الرتبة (هم الفائزون) بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم وعن ابن عباس فى تفسير هذه الآية ومن يطع الله فى فرائضه ورسوله فى سننه ويخش الله على ما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل وعن بعض

الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت عليه هذه الآية وقرأ أبو عمرو وشعبة وخلاد ويتقه بسكون الهاء بخلاف عن خلاد وقالون باختلاس كسرة الهاء وحفص بسكون القاف وقصر كسرة الهاء والباقون وخلاد في أحد وجهيه باشباع كسرة الهاء * ولما ذكر تعالى ما رتب على الطاعة الظاهرة التي هي دليل الانقياد الباطن ذكر حال المنافقين بقوله تعالى (وأقسموا بالله) أي الذي له الكمال المطلق وقوله تعالى (جهد أيمانهم) مستعار من جهد نفسه اذا بلغ أقصى وسعها وذلك اذا بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها ووكادتها وعن ابن عباس من قال بالله فقد بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها (لئن أمرتهم) أي أمر من الأمور (ليخرجن) مما هم متلبسون به من خلافه كائنا ما كان وذلك ان المنافقين كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا ولئن أقمت أقمنا وان أمرتنا بالجهاد جاهدنا فقال الله تعالى (قل) أي لهم (لا تقسموا) أي لا تحلفوا فان العلم بما أنتم عليه لا يحتاج الى الاقسام وههنا قد تم الكلام ولو كان قسمهم صادقا لما نهوا عنه لان من حلف على القيام بالبر لا ينهى عنه فثبت أن قسمهم كان لنفاقهم وكان باطنهم يخالف ظاهرهم ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه قبيح قال المتنبي

وفي اليمين على ما أنت واعده * ما دل أنك في الميعاد متهم

وفي رفع قوله تعالى (طاعة معروفة) ثلاثة أوجه أحدها انه خبر مبتدا مضمر تقديره أمرنا طاعة أو المطلوب طاعة ثانيها أنه مبتدأ والخبر محذوف أي أمثل أو أولى أو خير أي طاعة معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم خير من قسمكم الذي لا تصدقون فيه ثالثها طاعة مبتدأ أي هذه الحقيقة ومعروفة هو الخبر أي معروفة منكم ومن غيركم وارادة الحقيقة هو الذي سوغ الابتداء بها مع تنكير لفظها الا ان العموم الذي تصلح له قد تخصص بارادة الحقيقة كما قالوه في أعرف المعارف والمعنى ان الطاعة وان اجتهد العبد في اخفائها لا بد أن تظهر مخايلها على شمائله وكذا المعصية لانه ما أسر عبد سريرة الا ألبسه الله رداءها رواه الطبراني عن عثمان وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال لو أن رجلا دخل بيتا في جوف بيت فأدى هناك عملا أوشك الناس أن يتحدثوا به وما من عامل عمل عملا الا كساه الله رداء عمله ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر وعن سعيد لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا من كان (ان الله) أي الذي له الاحاطة بكل شئ (خبير بما تعملون) أي لا يخفى عليه شئ من سرائركم فانه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم * ولما نبه تعالى على خداعهم وأشار الى عدم الاغترار بايمانهم أمر بترغيبهم وترهيبهم مشيرا الى الاعراض عن عقوبتهم بقوله تعالى (قل) أي لهم (أطيعوا الله) أي الذي له الكمال المطلق (وأطيعوا الرسول) أي الذي له الرسالة المطلقة ظاهرا وباطنا وقوله تعالى (فان تولوا) أي عن طاعته بحذف احدى التاءين خطاب لهم أي فان تتولوا فما ضررتموه وانما ضررتم أنفسكم (فانما عليه) أي محمد صلى الله عليه وسلم (ما حمل) أي ما حمله الله تعالى من أداء الرسالة واذا أدى فقد خرج من عهدة التكليف (وعليكم) أي وأما

أنتم فعليكم (ما حملتم) أى ما كلفتم من التلقى بالقبول والاذعان فان لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه وان أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة الى الهدى فالنفع والضرعائد اليكم (وان تطيعوه) بالاقبال على كل ما يأمركم به (تهتدوا) أى الى كل خير (وما على الرسول) أى من جهة غيره (الا البلاغ) أى وما الرسول الا ناصح وهاد وما عليه الا أن يبلغ ماله نفع فى قبولكم ولا عليه ضرر فى توليكم والبلاغ بمعنى التبليغ كالاداء بمعنى التأدية ومعنى (المبين) كونه مقرونا بالآيات والمعجزات روى أنه صلى الله عليه وسلم قال على المنبر من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب وقال أبو امامة الباهلى عليكم بالسواد الاعظم فقال رجل ما السواد الاعظم فنادى أبو امامة هذه الآية فى سورة النور فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وقوله تعالى (وعد الله) أى الذى له الاحاطة بكل شئ (الذين آمنوا منكم وعملوا) أى تصديقا لايمانهم (الصالحات) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وللامة أوله ولمن معه ومن للبيان ثم أكد غاية التأكيد بلام القسم لما عند أكثر الناس من الريب فى ذلك بقوله تعالى (ليستخلفنهم فى الارض) أى أرض العرب والعجم بأن يمد زمانهم وينفذ أحكامهم فيجعلهم متصرفين فى الارض تصرف الملوك فى ممالكهم (كما استخلف الذين من قبلهم) أى من الامم من بنى اسرائيل وغيرهم من كل من حصلت له مكنة وظفر على الاعداء بعد الضعف الشديد كما كتب فى الزبور ان الارض يرثها عبادى الصالحون وكما قال موسى عليه السلام ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقرأ أبو بكر بضم التاء الفوقية وكسر اللام والباقون بفتح التاء واللام (وليمكنن لهم) أى فى الباطن والظاهر (دينهم الذى ارتضى لهم) وهو دين الاسلام وتمكينه تثبيته وتوكيده واضافه اليهم اشارة الى رسوخ أقدامهم فيه وانه الذى لا ينسخ * ولما بشرهم بالتمكين أشار لهم الى مقداره بقوله تعالى (وليبدلنهم من بعد خوفهم) أى الذى كانوا عليه (أمنا) وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون فى السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال صلى الله عليه وسلم لا تصبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملا العظيم محتبيا ليس فيه حديدة وأنجز الله تعالى وعده وأظفرهم على جزيرة العرب وافتتحوا بعض بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الاكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا واستعبدوا أبناء القياصرة وتمكنوا اشرقا وغربا بامكنة لم تحصل قبلهم لامة من الامم كما قال صلى الله عليه وسلم ان الله زوى لى الارض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها ولما قتلوا عثمان رضى الله عنه وخرجوا على على ثم ابنه الحسن نزع الله ذلك الامر كما أشير اليه بمن وتنكير أمنا وجاء الخوف واستمر يتطاول ويزداد قليلا قليلا الى ان صار فى زماننا هذا الى أمر عظيم وذلك تصديق لقوله عليه أفضل الصلاة والسلام الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكا ثم تصير بزيزى قطع سبيل

وسفك دماء وأخذ أموال بغير حقها والثلاثون خلافة أبي بكر سنتان وخلافة عمر عشرة
وخلافة عثمان اثنا عشر وخلافة علي ستة والبزيزي بكسر الباء وتشديد الزاي الاولى
والقصر السلب والتغلب وقوله قطع سبيل نصب اما عطف بيان لقوله بزيزي أو بدل منه وقرأ
ابن كثير وأبو بكر بسكون الباء الموحدة وتخفيف الدال والباقون بفتح الموحدة وتشديد الدال
ثم اتبع ذلك بنتيجته بقوله تعالى تعليلا للتمكين وما معه (يعبدونني) أي وحدي وقوله تعالى
(لا يشركون بي شيأ) حال من الواو أي يعبدونني غير مشركين (فان قيل) فما محل يعبدونني
(أجيب) بأنه مستأنف لا محل له كأن قائلا قال ما لهم مستخلفين ويؤمنون فقال يعبدونني
ويجوز أن يكون حالا عن وعدهم أي وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم وإخلاصهم فمحله النصب
ولما كان التقدير فمن ثبت على دين الاسلام وانقاد لاحكامه واستقام نال هذه البشرى عطف
عليه قوله تعالى (ومن كفر) أي ارتد وكفر هذه النعمة (بعد ذلك) أي بعد الوعد أو الخلافة
(فأولئك) أي البعداء من الخير (هم الفاسقون) أي الخارجون عن الدين خروجا كاملا
لا يقبل معه معذرة ولا يقال لصاحبه عثرة بل تقام عليهم الاحكام بالقتل وغيره ولا يراعى منهم
ملام ولا تؤخذ بهم رأفة عند انتقام كما تقدم أول السورة فيمن لزمه الجلد وقيل المراد بالكفر
كفران النعمة لا الكفر بالله وقوله تعالى فأولئك هم الفاسقون أي العاصون لله وقوله تعالى
(وأقيموا الصلاة) أي فانها اقوام ما بينكم وبين ربكم معطوف على أطيعوا الله وأطيعوا
الرسول قال الزمخشري وليس يبعد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وان طال
لان حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه (وآتوا الزكاة) فانها انظام ما بينكم وبين
اخوانكم (وأطيعوا الرسول) أي في كل حال يأمركم به وكررت طاعة الرسول تأكيدا لوجوبها
(لعلكم ترحمون) أي لتكونوا على رجاء من الرحمة ممن لا راحم في الحقيقة غيره والفاعل
في قوله تعالى (لا تحسبن) ضمير المخاطب أي لا تحسبن أيها المخاطب (الذين كفروا) أي وان
ازدادت كثرتهم على العد وتجاوزت عظمتهم الحد (معجزين) أي لاهل ودنا وقيل لنا
(في الارض) أي فانهم مأخوذون لا محالة وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء على الغيبة قال النحاس
ما علمت أحدا من أهل العربية بصريا ولا كوفيا الا وهو يلحن قراءة حمزة فنهم من يقول هي لحن
لانه لم يأت الا بمفعول واحد ليحسبن وأجيب عن ذلك من وجهين أحدهما أن المفعول الاول
محذوف تقديره ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الا ان حذف أحد المفعولين ضعيف
عند البصريين ومنه قول عنترة

ولقد نزلت فلا تظني غيره * مني بمنزلة المحب المكرم

أي فلا تظني غيره واقعا والثاني ان المفعولين هما قوله معجزين في الارض قاله الكوفيون وقرأ
الباقون بالتاء على الخطاب وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة وكسرها الباقون وقوله تعالى
(ومأواهم النار) أي مسكنهم معطوف على لا يحسبن الذين كفروا معجزين كأنه قيل الذين
كفروا لا يفوتون أهل ودنا أو لا يفوتوننا ومأواهم النار والمراد بهم المقسمون عليه بالله جهد

أيمانهم * ولما كانت سكنى الشئ لاتكون الابعد المصير اليه قال تعالى (ولبئس المصير) أى المرجع مصيرها فكيف اذا كان على وجه السكنى واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين امنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) الآية فقال ابن عباس وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما من الانصار يقال له مدلج بن عمرو الى عمر رضى الله تعالى عنه وقت الظهيرة ليدعوه فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك فنزلت وقال مقاتل نزلت فى أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت فكرهته فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت واللام فى ليستأذنكم للامر وملك اليمين يشمل العبيد والاماء قال بعض المفسرين هذا الخطاب وان كان ظاهره للرجال فالمراد به الرجال والنساء لان التذكير يغلب على التأنيث قال الرازى والاولى عندى ان الحكم ثابت فى النساء بقياس جلى لان النساء فى باب العورة أشد حالا من الرجال فهو كتحريم الضرب بالقياس على حرمة التأفيف وقال ابن عباس هى فى الرجال والنساء أى البالغين أو من قاربوا البلوغ يستأذنون على كل حال فى الليل والنهار للدخول عليكم كراهة الاطلاع على عوراتكم والتطرق بذلك الى مساءتكم واختلف العلماء فى هذا الامر فقيل للندب وقيل للوجوب واستظهر (والذين) أى وليستأذنكم الذين ظهروا على عورات النساء ولكنهم (لم يبلغوا الحلم) وقيده بقوله تعالى (منكم) ليخرج الكفار والارقاء وعبر عن البلوغ بالاحتلام لانه أقوى دلائله (ثلاث مرات) فى اليوم والليلة وقيل ثلاث استئذانات فى كل مرة فان لم يحصل الاذن رجع المستأذن كما تقدم المرة الاولى من الاوقات الثلاث (من قبل صلاة الفجر) لانه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم (و) المرة الثانية (حين تضعون ثيابكم) أى التى للخروج بين الناس (من الظهيرة) أى شدة الحر وهو انتصاف النهار (و) المرة الثالثة (من بعد صلاة العشاء) لانه وقت الانفصال من ثياب اليقظة والاتصال بثياب النوم وخص هذه الاوقات لانها ساعات الخلوة ووضع الثياب والالتحاف باللحاف وأثبت من فى الموضعين دلالة على قرب الزمن من الوقت المذكور لضبطه وأسقطها فى الاوسط دلالة على استغراقه لانه غير منضبط ثم علل ذلك بقوله تعالى (ثلاث عورات) أى اختلالات فى التستر والتحفظ (لكم) لانها من ساعات وضع الثياب والخلوة قال البيضاوى وأصل العورة الخلل ومنها اعور المكان ورجل أعور اذا بدا فيه خلل انتهى وسميت هذه الاوقات عورات لان الانسان يضع فيها ثيابه فربما تبدو عورته وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى فى الوصل ثلاث بالنصب بتقدير أوقات منصوبا بدل من محل ماقبله قام المضاف اليه مقامه والباقون بالرفع على انها خبر مبتدا مقدر بعده مضاف وقام المضاف اليه مقامه أى هى أوقات ويجوز أن يكون مبتدا وخبره مابعده * ثم بين سبحانه وتعالى حكم ماعدا ذلك بقوله تعالى مستأنفا (ليس عليكم) أى فى ترك الامر (ولا عليهم) أى المماليك والصبيان فى ترك الاستئذان (جناح) أى اثم وأصله الميل فى الدخول عليكم فى جميع الساعات (بعدهن) أى بعد هذه الاوقات الثلاثة اذا

هجموا

فيعموا عليكم ثم علل الاباحة فى غيرها مخرجا الغيرهم بقوله تعالى (طوّافون عليكم) أى لعمل ماتحتاجون فى الخدمة كما أنتم طوّافون عليهم لعمل مايصلحهم ويصلحكم فى الاستخدام (بعضكم) طوّاف (على بعض) لعمل مايعجزعنه الآخر أو يشق عليه فلوعمّ الامر بالاستئذان لادّى الى الحرج (فان قيل) بم رفع بعضكم على بعض (أجيب) بأنه رفع بالابتداء وخبره على بعض أى طوّاف على بعض وحذف لان طوّافون يدل عليه ويجوزأن يرتفع بيطوف مضمرا لتلك الدلالة (كذلك) أى كما بين ماذكر (يبين الله) أى بماله من احاطة العلم والقدرة (لكم) أيتها الامة (الآيات) فى الاحكام وغيرها بعلمه وحكمته (والله) أى الذى له الاحاطة العامة بكل شئ (عليم) بكل شئ (حكيم) فيما يدبره فلا يقدر أحد على نقضه وختم الآية بهذا الوصف يدل على انها محكمة لم تنسخ واختلف فى ذلك فقال الزمخشرى عن ابن عباس انه قال آية لايؤمن بها أكثر الناس آية الاذن وانى لآمر جاريتى أى زوجتى أن تستأذن علىّ وسأله عطاء استأذن على اختى قال نعم وان كانت فى حجرك تمونها وتلا هذه الآية وعنه ثلاث آيات جحدهن الناس الاذن كله وقوله تعالى انّ أكرمكم عندالله أتقاكم فقال الناس أعظمكم بيتا وقوله واذا حضر القسمة وعن ابن مسعود عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وامهاتكم واخواتكم وعن الشعبى ليست منسوخة فقيل له ان الناس لايعملون بها فقال الله المستعان وعن سعيد بن جبير ان الناس يقولون هى منسوخة والله ماهى منسوخة ولكن الناس تهاونوا بها وقال قوم هى منسوخة روى البغوى عن ابن عباس أنه قال لم يكن للقوم ستر ولاحجاب فكان الخدم والولائد يدخلون فربما يرون منهم مالايحبون فأمروا بالاستئذان وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور فاهل الرواية اختلفت عن ابن عباس * ولما بين تعالى حكم الصبيان والارقاء الذين هم أطوع للامر وأقبل لكل خير أتبعه حكم البالغين من الاحرار بقوله تعالى (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) أى اذا بلغ أطفالكم الاحرار بلوغ السن الذى يكون فيه انزال المنى سواء رأى منيا أم لا واختلف فى ذلك السن فقال عامة العلماء خمس عشرة سنة أى قمرية تحديدية لافرق فى ذلك بين الذكر وغيره وقال أبو حنيفة هو ثمانى عشرة سنة فى الغلام وسبع عشرة سنة فى الجارية وعن على رضى الله عنه أنه تعتبر القامة وتقدر بخمسة أشبار وبه أخذ الفرزدق فى قوله

ما زال مذ عقدت يداه ازاره * وسما فأدرك خمسة الاشبار

واعتبر غيره الانبات أى للعانة وعن عثمان رضى الله تعالى عنه أنه سأل عن غلام له فقال هل اخضر ازاره أى نبت شعر عانته فأسند الاخضرار الى الازار على المجاز ولانه مما اشتمل عليه الازار ونبات العانة الخشن عندنا علامة على بلوغ ولد الكافر فقط أما اذا رأى المنى فى وقت امكانه وهو استكمال تسع سنين قمرية فانا نحكم ببلوغه سواء كان ذكرا أم أنثى مسلما أم كافرا وأما الخنثى فلابد أن يمنى من فرجيه أو يحيض بالفرج ويمنى من الذكر (فليستأذنوا) أى على غيرهم فى جميع الاوقات (كما استأذن الذين من قبلهم) أى من الاحرار الكبار الذين

جعلوا قسيما للمماليك فلا يدخل فى ذلك الارقاء فلا يستدل بذلك على أن العبد البالغ يستأذن على سيدته وقيل المراد الذين كانوا مع ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام (كذلك) أى كما بين لكم ماذكر (يبين الله) أى الذى له الاحاطة والقدرة (لكم) أيتها الامة (آياته) أى دلالاته (والله) أى الذى يعلم السر وأخفى (عليم) أى بأحوال خلقه (حكيم) أى فيما دبرلهم قال سعيد بن المسيب يستاذن الرجل على امه فانما أنزلت هذه الآية فى ذلك وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته فقال نعم ان لم تفعل رأيت منها ما تكره وعن أنس قال لما كانت صبيحة يوم احتلمت دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته انى قد احتلمت فقال لاتدخل على النساء فما أتى على يوم كان أشد منه * ولما ذكر تعالى اقبال الشباب فى تعيين حكم الحجاب أتبعه الحكم عند ادبار الشباب فى اتقاء الظاهر من الشباب بقوله تعالى (والقواعد من النساء) أى اللاتى قعدن عن الولد والحيض من الكبر فلا يلدن ولا يحضن واحدتهن قاعد بلا هاء وقيل قعدن عن الازواج وهو معنى قوله (اللاتى لا يرجون نكاحا) أى لا يردن الرجال لكبرهن قال ابن منبه سميت المرأة قاعدا اذا كبرت لانها تكثر القعود وقال ربيعة هن العجز اللواتى اذا رآهن الرجل استقذرهن فأما من كان فيها بقية من جمال وهى محل الشهوة فلا تدخل فى هذه الآية (فليس عليهن جناح) أى حرج فى (أن يضعن ثيابهن) أى الظاهرة فوق الثياب الساترة بحضرة الرجال كالجلباب والرداء والقناع فوق الخمار أما الخمار فلا يجوز وضعه لما فيه من كشف العورة (غير متبرجات بزينة) أى من غير أن يردن بوضع الجلباب والرداء اظهار زينتهن ثم ان الزينة الخفية فى قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو غير قاصدات بالوضع التبرج والتبرج هو أن تظهر المرأة محاسن ما ينبغى لها أن تستره * ولما ذكر الله تعالى الجائز عقبه بالمستحب بعثا منه على اختيار أفضل الاعمال وأحسنها بقوله تعالى (وأن يستعففن) أى فلا يلقين الرداء أو الجلباب (خير لهن) من الالقاء كقوله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى وان تصدقوا لانه أبعد عن التهمة (والله) أى الذى جلت عظمته (سميع) لقولكم (عليم) بما فى قلوبكم واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ليس على الاعمى حرج) أى فى مؤاكلة غيره (ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) كذلك فقال ابن عباس لما أنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمى والعرج وقالوا الطعام أفضل الاموال وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل والاعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والاعرج لا يتمكن من الجلوس ولا يستطيع المزاحمة على الطعام والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفى من الطعام حقه فأنزل الله تعالى هذه الآية وعلى هذا تكون على بمعنى فى أى ليس فى الاعمى أى ليس عليكم فى مؤاكلة الاعمى والاعرج والمريض حرج وقال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما كان العرجان والعميان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الاصحاء لان الناس يستقذرون منهم ويكرهون مؤاكلتهم وعن عكرمة كانت الانصار فى أنفسها قزازة فكانت لا تأكل من هذه البيوت اذا استغنوا وكان

هؤلاء يقولون الاعمى ربما أكل أكثر وربما سبقت يده الى ماسبقت عين آكليه اليه وهو لايشعر والاعرج ربما أخذ في مجلسه مكان اثنين فيضيق على جليسه والمريض لايخلو من رائحة تؤذي أو جرح يبض أو نحو ذلك فنزلت وقال مجاهد نزلت الآية ترخيصا لهؤلاء في الاكل من بيوت من سمى الله في هذه الآية وذلك ان هؤلاء كانوا يدخلون محل الرجل لطلب الطعام فاذا لم يكن عنده مايطعمهم ذهب بهم الى بيت أبيه وبيت امه وبعض من سمى الله تعالى في هذه الآية فكان أهل الزمانة يتحرجون من هذا الطعام ويقولون ذهب بنا الى بيت غيره فنزلت الآية وقال سعيد بن المسيب كان المسلمون اذا غزوا اغلقوا منازلهم ويدفعون اليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لاندخلها وهم غيب فأنزل الله تعالى هذه الآية رخصة لهم وقال الحسن نزلت رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد وقال تم الكلام عند قوله تعالى ولا على المريض حرج وقوله تعالى (ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) كلام مستأنف منقطع عما قبله (فان قيل) أي فائدة في اباحة أكل الانسان طعامه في بيته (أجيب) بأن المراد من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيه بيوت الاولاد لان بيت ولده كبيته قال صلى الله عليه وسلم أنت ومالك لابيك وقال صلى الله عليه وسلم ان أطيب مايأكل المرء من كسبه وان ولده من كسبه وقيل لما نزل قوله تعالى ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل قالوا لايحل لاحد منا أن يأكل عند أحد فأنزل الله تعالى ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أي لاحرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم (أو بيوت آبائكم) أي وان بعدت أنسابهم قال البقاعي ولعله جمع لذلك فانها مرباكم وحرمتها حرمتكم (أو بيوت أمهاتكم) كذلك وقدم الاب لانه أجل وهو حاكم بيته دائما والمال له (أو بيوت اخوانكم) أي من الابوين أو الاب أو الام بالنسب أو الرضاع فانهم من أولى من رضي بذلك بعد الوالدين لانهم منكم وهم أولياء بيوتهم (أو بيوت أخواتكم) فانهن بعدهم من اولى البيت فان كن مزوجات فلا بد من اذن الزوج (أو بيوت أعمامكم) فانهم شقائق آبائكم سواء كانوا أشقاء أولاب أم لام ولو أفرد العم لتوهم انه الشقيق فقط فانه أحق بالاسم (أو بيوت عماتكم) فانهن بعد الاعمام اضعفهن ولانهن ربما كان أولياء بيوتهن الازواج (أو بيوت أخوالكم) لانهم شقائق أمهاتكم (أو بيوت خالاتكم) أخرهن لما ذكر في العمات (أو ماملكتم مفاتحه) قال ابن عباس عني بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر وملك المفاتح كونها في يده وحفظه وقال الضحاك يعني من بيوت عبيدكم ومماليككم لان السيد يملك منزل عبده والمفاتح الخزائن لقوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو ويجوز أن يكون الذي يفتح به وقال عكرمة اذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا بأس أن يطعم الشئ اليسير وقال السدي الرجل يولي طعام غيره ويقوم عليه فلا بأس أن يأكل منه وقيل أو ماملكتم مفاتحه ماخزنتموه عندكم وقال مجاهد وقتادة من بيوت أنفسكم مما ادخرتم وملكتم (أو صديقكم) أي أو بيوت اصدقائكم والصديق هو الذي

صدق فى المودة ويكون واحدا وجمعا وكذا الخليط والقطين والعدو وقال ابن عباس نزلت
فى الحرث بن عمرو خرج غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على أهله
فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل طعامك بغير اذنك فأنزل الله هذه
الآية يحكى عن الحسن أنه دخل داره واذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالا من تحت سريره
فيها الخبيص ولطائف الاطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سرورا
وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين وكان الرجل منهم يدخل
دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ماشاء فاذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها
سرورا بذلك وعن جعفر بن محمد من عظم حرمة الصديق أن جعله الله تعالى فى الانس والثقة
والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والاب والابن والاخ وعن ابن عباس الصديق أكبر
من الوالدين ان الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل قالوا فمالنا من شافعين
ولا صديق حميم والمعنى يجوز الاكل من بيوت من ذكروان لم يحضروا اذا علم رضا صاحب
البيت باذن أو قرينة ظاهرة الحال فان ذلك يقوم مقام الاذن الصريح ولذلك خصص هؤلاء
فانهم يعتادون التبسط بينهم وربما سمج الاستئذان وثقل كمن قدم اليه طعام فاستأذن
صاحبه فى الاكل منه (فان قيل) اذا كان ذلك لابد فيه من العلم بالرضا فحينئذ لافرق بينهم وبين
غيرهم (أجيب) بأن هؤلاء يكفى فيهم أدنى قرينة بل ينبغى أن يشترط فيهم أن لايعلم عدم الرضا
بخلاف غيرهم لابد فيه من صريح الاذن أو قرينة قوية هذا ماظهر لى ولم أر من تعرض
لذلك وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والاكل من طعامه بغير اذنه لهذه
الآية واحتج أبو حنيفة بهذه الآية على أن من سرق من ذى رحم محرم أنه لايقطع لان الله تعالى
أباح لهم الاكل من بيوتهم ودخولها بغير اذنهم (فان قيل) فيلزم أن لايقطع اذا سرق من
مال صديقه (أجيب) بأن من سرق من ماله لايكون صديقا له وقيل ان هذا كان أول الاسلام
ثم نسخ فلادليل له فيه وقرأ بيوتكم وبيوت وبيوتا ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة
والباقون بالكسر وقرأ حمزة والكسائى أمهاتكم فى الوصل بكسر الهمزة والباقون بالضم
وكسر الميم حمزة وفتحها الباقون * ولما ذكر تعالى معدن الاكل ذكر حاله بقوله تعالى (ليس
عليكم جناح) أى اثم (أن تأكلوا جميعا) أى مجتمعين (أو أشتاتا) أى متفرقين واختلف فى سبب
نزول هذه الآية فقال الاكثرون نزلت فى بنى ليث بن عمرو من كنانة وكانوا يتحرجون أن يأكل
الرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره الى الليل فان لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة وقال عطاء
عن ابن عباس كان الغنى يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه الى طعامه
فيقول والله انى لأجنح أى أتحرج أن آكل معك وأنا غنى وأنت فقير فنزلت هذه الآية وقال
عكرمة وأبو صالح نزلت فى قوم من الانصار كانوا لايأكلون اذا نزل بهم ضيف الامع ضيفهم
فرخص لهم فى أن يأكلوا كيف شاؤا مجتمعين أو أشتاتا متفرقين وقال الكلبى كانوا اذا اجتمعوا
ليأكلوا طعاما عزلوا للاعمى طعاما وحده وكذلك الزمن والمريض فبين الله تعالى لهم أن ذلك غير

واجب وقيل تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس فى الاكل وزيادة بعضهم على بعض *(تنبيه)* جميعا حال من فاعل تأكلوا وأشتاتا عطف عليه وهو جمع شت وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت روى أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم انا نأكل ولا نشبع قال فلعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال كلوا جميعا ولا تفرقوا واذكروا اسم الله فان البركة مع الجماعة * ولما بين تعالى مواطن الاكل وكيفيته ذكر الحال التى عليها الداخل الى تلك المواطن أو غيرها بقوله تعالى (فاذا دخلتم) أى بسبب ذلك أو غيره (بيوتا) أى من هذه البيوت (فسلموا على أنفسكم) أى على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة جعل أنفس المؤمنين كالنفس الواحدة كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم وقال ابن عباس اذا لم يكن فى البيت أحد فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وقال قتادة اذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق بالسلام ممن سلمت عليهم واذا دخلت بيتا لا أحد فيه فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين حدثنا أن الملائكة ترد عليه (تحية من عند الله) أى ثابتة بأمره مشروعة من لدنه (مباركة) أى لانه يرجى بها زيادة الخير والثواب (طيبة) أى تطيب بها نفس المستمع والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله ووصفها بالبركة والطيب لانها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله تعالى زيادة الخير وطيب الرزق وعن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وقيل تسع سنين فما قال لى لشئ فعلته لم فعلته ولا قال لى لشئ تركته لم تركته وكنت واقفا على رأسه أصب الماء على يديه فرفع رأسه فقال ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت بلى بأبى أنت وأمى يا رسول الله قال متى لقيت من أمتى أحدا فسلم عليه يطل عمرك واذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الابرار الاوابين *(تنبيه)* تحية منصوب على المصدر من معنى فسلموا فهو من باب قعدت جلوسا فكأنه قال فحيوا تحية وقال القفال وان كان فى البيت أهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وكرر قوله تعالى (كذلك يبين الله) أى الذى أحاط علمه بكل شئ (لكم الآيات) ثالثا لمزيد التأكيد وتفخيم الاحكام المختتمة به وفصل الاولين بما هو المقتضى لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال تعالى (لعلكم تعقلون) أى عن الله أمره ونهيه وأدبه * ولما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل موطن تجب الاقامة فيه ويهجر ما عداه من الاوطان قال تعالى (انما المؤمنون) أى الكاملون فى الايمان (الذين آمنوا بالله) أى الملك الاعلى (ورسوله) أى ظاهرا وباطنا (واذا كانوا معه) أى الرسول صلى الله عليه وسلم (على أمر جامع) أى يجمعهم من حرب حضرت أو صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور فى أمر نزل ووصف الامر بالجمع للمبالغة أو من الاسناد المجازى لانه لما كان سببا فى جمعهم نسب الفعل اليه مجازا (لم يذهبوا) أى يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له لعذر لهم (حتى يستأذنوه) قال الكلبى كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض فى خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون يمينا وشمالا فاذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا

ولم يصلوا وان أبصرهم أحد لبثوا وصلوا اخوفا فنزلت هذه الآية فكان المؤمن بعد نزولها
لايخرج لحاجة حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير اذن
قال مجاهد ان اذن الامام يوم الجمعة أن يشير بيده قال أهل العلم كذلك كل أمر اجتمع عليه
المسلمون مع الامام لايخالفونه ولا يرجعون عنه الا باذن وهذا اذا لم يكن سبب يمنعه من المقام
فان حدث سبب يمنعه عن المقام كأن يكونوا فى المسجد فتحيض منهم امرأة أو يجنب الرجل
أو يعرض له مرض فلا يحتاج الى الاستئذان * ولما كان اعتبار الاذن كالمصدق لصحة كمال
الايمان والمميز للمخلص فيه أعاده مؤكدا على أسلوب أبلغ بقوله تعالى (ان الذين يستأذنونك)
أى تعظيما لك ورعاية للادب (أولئك) أى العالو الرتبة (الذين يؤمنون بالله) أى الذى له الامر
كله (ورسوله) فانه يفيد أن المستأذن مؤمن لامحالة وان الذاهب بغير اذن ليس كذلك * ولما
نص على الاستئذان تسبب عن ذلك اعلامه صلى الله عليه وسلم بما يفعل اذا ذاك بقوله تعالى
(فاذا استأذنوك لبعض شأنهم) وهو ماتشتد الحاجة اليه (فأذن لمن شئت منهم) بالانصراف
أى ان شئت فأذن وان شئت فلا تأذن ففى ذلك تفويض الامر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
واستدل به على أن بعض الاحكام مفوض الى رأيه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب
وذلك أنه استأذن فى غزوة تبوك فى الرجوع الى أهله فأذن له وقال انطلق فوالله ما أنت بمنافق
يريد أن يسمع المنافقون ذلك الكلام فلما سمعوا ذلك قالوا ما بال محمد اذا استأذنه أصحابه أذن
لهم واذا استأذناه أبى فوالله ما نراه يعدل قال ابن عباس ان عمر استأذن النبى صلى الله عليه
وسلم فى العمرة فأذن له ثم قال يا أبا حفص لاتنسنا من صالح دعائك ولما كان فى الاستئذان
ولو لعذر قصور لان فيه تقديما لامر الدنيا على أمر الدين أمره الله تعالى بأن يستغفر لهم
بقوله تعالى (واستغفر لهم الله) أى الذى له الامر كله بعد الاذن ليكون ذلك شاملا لمن صحت
دعواه وغيره ثم علل ذلك ترغيبا فى الاستغفار وتطييبا لقلوب أهل الاوزار بقوله تعالى (ان الله)
أى الذى لايخفى عليه شئ (غفور) أى لفرطات العباد (رحيم) أى بالتستر عليهم ولما أظهرت
هذه السورة بعمومها وهذه الآيات بخصوصها من شرف الرسول ما بهر العقول صرح بتفخيم
شأنه وتعظيم مقامه بقوله تعالى (لاتجعلوا) أى يا أيها الذين آمنوا (دعاء الرسول بينكم كدعاء
بعضكم بعضا) قال سعيد بن جبير وجماعة معناه لاتنادوه باسمه فتقولوا يا محمد ولا بكنيته فتقولوا
يا أبا القاسم بل نادوه وخاطبوه بالتوقير فقولوا يا رسول الله يا نبى الله وعلى هذا يكون المصدر
مضافا للمفعول وقال المبرد والقفال لاتجعلوا دعاءه اياكم كدعاء بعضكم لبعض فتتباطؤن عنه كما
يتباطأ بعضكم عن بعض اذا دعاه لامر بل يجب عليكم المبادرة لامره ويؤيده قوله تعالى فليحذر
الذين يخالفون عن أمره وعلى هذا يكون المصدر مضافا للفاعل وقال ابن عباس احذروا دعاء
الرسول عليكم اذا أسخطتموه فان دعاءه موجب ليس كدعاء غيره وروى عنه أيضا لاترفعوا
أصواتكم فى دعائه وهو المراد من قوله ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله وقول
المبرد كما قال ابن عادل أقرب الى نظم الآية ولما كان بعضهم يظهر الموافقة ويبطن المخالفة

حذر من ذلك بقوله تعالى (قد يعلم الله) أى الذى لا تخفى عليه خافية (الذين يتسللون منكم)
أى ينسلون قليلا قليلا ليجعلوا ذهابهم فى غاية الخفاء ونظير تسلل تدرج وتدخل وقوله تعالى
(لواذا) حال أى ملاوذين واللواذ والملاوذة التستر يقال لاذ فلان بكذا اذا استتر به وقال ابن
عباس أى يلوذ بعضهم ببعض وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام فى المسجد يوم الجمعة
لاسيما فى خطبة النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد
فى استتار وقد للتحقيق وتسبب عن علمه تعالى قوله تعالى (فليحذر) أى يوقع الحذر (الذين
يخالفون عن أمره) أى يعرضون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصرفون عنه بغير اذنه
وقال أبو بكر الرازى الضمير فى أمره لله لانه يليه وقال الجلال المحلى أى الله ورسوله وكل
صحيح فان مخالفة أمر أحدهما مخالفة امر الآخر (أن) أى لئلا (تصيبهم فتنة) قال مجاهد
بلاء فى الدنيا وعن ابن عباس فتنة قتل وعن عطاء زلازل وأهوال وعن جعفر بن محمد يسلط الله
عليهم سلطانا جائرا (أو يصيبهم عذاب أليم) أى وجيع فى الآخرة *(تنبيه)* الآية تدل على
ان الامر للوجوب لان تارك الامور مخالف للامر ومخالف الامر يستحق العذاب ولا معنى
للوجوب الا ذلك ولما أقام تعالى الادلة على أنه نور السموات والارض وختم بالتحذير لكل
مخالف أنتج ذلك أن له كل شئ فقال تعالى (ألا ان لله ما فى السموات والارض) خلقا وملكا
وعبيدا (فان قيل) ما فائدة ذكر عبيدا بعد ملكا (أجيب) عنه انما ذكر لئلا يتوهم أن ما لما
لا يعقل فقط ولما كانت أحوالهم من جملة ما هو له وانها بخلقه قال تعالى (قد يعلم ما أنتم)
أى أيها المكلفون (عليه) أى من الموافقة والمخالفة والاخلاص والنفاق وانما أكد علمه
بقد لتأكيد الوعيد وذلك أن قد اذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما فوافقت ربما فى
خروجها الى معنى التكثير فى نحو قول بعضهم

فان تمس مهجور الفناء فربما * أقام به بعد الوفود وفود

ونحوه قول زهير

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله * ولكنه قد يهلك المال نائله

والمعنى ان جميع ما فى السموات والارض مختص به تعالى فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين
وان كانوا يجتهدون فى سترها عن العيون واخفائها وقوله تعالى (ويوم) أى ويعلم يوم
(يرجعون اليه) فيه التفات عن الخطاب أى متى تكون أو ويوم يرجع المنافقون اليه للجزاء
(فينبئهم) أى فتسبب عن ذلك أنه يخبرهم (بما عملوا) أى من الخير والشر فيجازيهم عليه (والله)
أى الذى لا تخفى عليه خافية (بكل شئ) أى من أعمالهم وغيرها (عليم) عن عائشة رضى الله
تعالى عنها وعن أبويها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنزلوا النساء الغرف ولا
تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور أخرجه أبو عبد الله فى البيع فى صحيحه
وأما قول البيضاوى تبعا للكشاف من قرأ سورة النور أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد
كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى فهو حديث موضوع

(سورة الفرقان مكية)

الا قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله الها آخر الى رحيما فمدني وآيها سبع وسبعون
آية وثمانمائة واثنان وسبعون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانون حرفا

(بسم الله) الذي له الحجة البالغة (الرحمن) الذي عم الخلق بنعمه (الرحيم) الذي وسعت رحمته
كل شئ (تبارك) قال الزجاج تفاعل من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ومنه تبارك الله وفيه
معنيان تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شئ وتعالى عنه في صفاته وأفعاله وعن ابن عباس
كان معناه جاء بكل بركة وخير وقال الضحاك تبارك تعاظم ولا يستعمل الا لله تعالى ولا
يتصرف فيه ثم وصف ذاته الشريفة بما يدل على ذلك بقوله تعالى (الذي نزل الفرقان) أي
القرآن والفرقان مصدر فرق بين الشيئين اذا فصل بينهما وسمي به القرآن لفصله بين الحق
والباطل ولانه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقا مفصولا بين بعضه وبعض في الانزال ألا ترى
قوله تعالى وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث (على عبده) أي محمد صلى الله عليه وسلم
وأضافه الى نفسه اضافة تشريف وفي عود ضمير (ليكون) ثلاثة أوجه أحدها أنه يعود على
الذي نزل أي ليكون الذي نزل الفرقان نذيرا الثاني أنه يعود على الفرقان أي ليكون الفرقان
نذيرا وأضاف الانذار اليه كما أضاف الهداية اليه في قوله تعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي
أقوم قال ابن عادل وهو بعيد لان المنذر والنذير في صفات الفاعل المخوف ووصف القرآن به
مجاز وحمل الكلام على الحقيقة أولى الثالث أنه يعود على عبده أي ليكون عبده محمد صلى الله
عليه وسلم (للعالمين نذيرا) أي وبشيرا وهذا أحسن الوجوه معنى وصناعة لقربه مما يعود عليه
والضمير يعود على أقرب مذكور وللعالمين متعلق بنذيرا وانما قدم لاجل الفواصل ونذيرا بمعنى
منذر أي مخوف ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الانذار كالنكير بمعنى الانكار ومنه قوله تعالى
فكيف كان عذابي ونذر *(تنبيه)* المراد بالعالمين قال البقاعي أي المكلفين كلهم من الجن
والانس والملائكة اه ولكن في ارساله للملائكة خلاف بين العلماء وقد نقل الجلال المحلي
في شرحه على جمع الجوامع الاجماع على أنه لم يرسل اليهم وغيره صرح بأنه أرسل اليهم ومن حفظ
حجة على من لم يحفظ (فان قيل) قوله تعالى تبارك يدل على كثرة الخير والبركة فالمذكور عقبه
لا بد وأن يكون مبينا لكثرة الخير والمنافع والانذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق ذكره بهذا
الموضع (أجيب) بأن الانذار يجري مجرى تأديب الوالد أنه (١) كما كلما كانت المبالغة في تأديب
الولد أكثر كان رجوع الخلق الى الله تعالى أكثر وكانت السعادة الاخروية أتم وأكثر وهذا
كالتنبيه على أنه لا التفات الى المنافع العاجلة لانه تعالى لما وصف نفسه أن يعطي الخيرات
الكثيرة لم يذكر الا منافع الدين ولم يذكر منافع الدنيا البتة وقوله تعالى (الذي له ملك السموات
والارض) اشارة الى احتياج هذه المخلوقات اليه سبحانه وتعالى حال حدوثها وانه تعالى
هو المتصرف فيها كيف يشاء فلا انكار أن يرسل رسولا الى كل من فيها *(تنبيه)* يجوز في

الذى الرفع نعتا للذى الاول أو بيانا أو بدلا أو خبر المبتدا محذوف والنصب على المدح وما
بعده يدل على أنه من تمام الصلة فليس أجنبيا فلا يضر الفصل به بين الموصول الاول والثانى اذا
جعلنا الثانى تابعا له (ولم يتخذ ولدا) أى هو الفرد أبدا ولا يصح أن يكون غيره تعالى معبودا
ووارثا للملك عنه وهذا رد على النصارى (ولم يكن له شريك فى الملك) أى هو المنفرد بالالوهية
واذا عرف العبد ذلك انقطع رجاؤه عن كل من سواه تعالى ولم يشتغل قلبه الا برحمته
واحسانه وفيه رد على الوثنية القائلين بعبادة النجوم والاوثان * ولما نفى تعالى الشريك
فكان قائلا يقول ههنا أقوام يعترفون بنفى الشريك والشركاء والانداد ومع ذلك يقولون
بخلق أفعال أنفسهم فرد الله تعالى عليهم بقوله (وخلق كل شئ) أى من شأنه أن يخلق ومنه
أفعال العباد والخلق هنا بمعنى الاحداث أى احدث كل شئ احداثا مراعى فيه التقدير
والتسوية (فقدره تقديرا) أى هيأه لما يصلح له مثاله أنه خلق الانسان على هذا الشكل
المقدر الذى تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى بابى الدين والدنيا وكذلك كل حيوان
وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة وسمى احداث الله خلقا لانه لا يحدث شيأ لحكمة
الاعلى وجه التقدير من غير تفاوت فاذا قيل خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك أحدث وأوجد
من غير نظر الى وجه الاشتقاق فكأنه قيل وأوجد كل شئ فقدره تقديرا فى ايجاده ولم يوجده
متفاوتا ولو جعل خلق كل شئ على معناه الاصلى من التقدير لصار الكلام وقدر كل شئ فقدره
فلم يصر له كبير فائدة وقيل فجعل له غاية ومنتهى ومعناه فقدره للبقاء الى أمد معلوم واختلف فى
عود الضمير فى قوله تعالى (واتخذوا من دونه) أى الله تعالى أى غيره (آلهة) على ثلاثة
أوجه أحدها أنه يعود على الكفار الذين تضمنهم لفظ العالمين ثانيها أنه يعود على من ادعى
لله شريكا وولدا لدلالة قوله تعالى ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ثالثها انه يعود على
المنذرين لدلالة نذيرا عليهم * ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بصفات الجلال والعزة
والعلو أردفه بتزييف مذهب من يعبد غيره من وجوه منها أنها ليست خالقة للاشياء بقوله تعالى
(لا يخلقون شيأ) والاله يجب أن يكون قادرا على الخلق والايجاد ومنها أنها مخلوقة بقوله تعالى
(وهم يخلقون) والمخلوق محتاج والاله يجب أن يكون غنيا وغلب العقلاء على غيرهم لان
الكفار كانوا يعبدون العقلاء كعزير والمسيح والملائكة وغيرهم كالكواكب والاصنام
التى ينحتونها ويصورونها ومنها أنها لا تملك لانفسها ضرا ولا نفعا بقوله تعالى (ولا يملكون)
أى لا يستطيعون (لانفسهم ضرا) أى دفعه (ولا نفعا) أى جلبه ومن كان كذلك فليس باله ومنها
انها لا تقدر على موت ولا حياة ولا نشور بقوله تعالى (ولا يملكون موتا ولا حياة) أى اماتة
لاحد واحياء لاحد (ولا نشورا) أى بعثا للاموات فيجب أن يكون المعبود قادرا على ايصال
الثواب الى المطيعين والعقاب الى العصاة فمن لا يكون كذلك يجب أن لا يصلح للالهية * (تنبيه) *
احتج أهل السنة بقوله تعالى لا يخلقون شيأ على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى لانه تعالى عاب
هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيأ وذلك يدل على أن من خلق يستحق أن يعبد

ذلو كان العبد خالقالكان معبودا الها* ولما تكلم تعالى أولا على التوحيد وثانيا فى الرد على عبدة غيره تكلم ثالثا فى مسئلة النبوة وحكى شبه الكفار فى انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم *الشبهة الاولى قوله تعالى (وقال الذين كفروا) أى ستروا الوصف الذى حملهم على هذا القول وهو ستر ماظهر لهم ولغيرهم كالشمس والاجتهاد فى اخفائه (ان) أى ما (هذا) أى القرآن (الا افك) أى كذب مصروف عن وجهه (افتراه) اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه) أى القرآن (قوم آخرون) أى من غير قومه وهم اليهود فانهم يلقون اليه أخبار الامم وهو يعبر عنها بعبارته وقيل عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمى وأبو فكيهة الرومى كانوا عكة من أهل الكتاب فزعم المشركون أن محمدا يأخذ منهم فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (فقد جاؤا) أى قائلو هذه المقالة (ظلما) وهو جعل الكلام المعجز افكا مختلقا متلقفا من اليهود وجعلوا العربى يتلقن من العجمى الرومى كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب (وزورا) أى بهتوه بنسبة ماهو برىء منه اليه وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام *(تنبيه)* جاء وأتى يستعملان فى معنى فعل فيعديان تعديته وظلما مفعول به وقيل انه على اسقاط الخافض أى جاؤا بظلم *الشبهة الثانية قوله تعالى (وقالوا أساطير الاولين) أى ماسطره الاولون من أكاذيبهم جمع أسطورة بالضم كأحدوثة أو اسطار (اكتتبها) أى تطلب كتابتها له من ذلك القوم وأخذها والمعنى ان هذا القرآن ليس من الله تعالى انما هو مما سطره الاولون الاول كأحاديث رستم واسفنديار استنسخها محمد من أهل الكتاب (فهى) أى فتسبب عن تكلفه ذلك أنها (تملى عليه) أى تقرأ عليه ليحفظها (بكرة) قبل أن تنتشر الناس (وأصيلا) أى عشيا حين يأوون الى مساكنهم أو دائما ليتكلف حفظها بالانتساخ لانه أمى لا يقدر أن يكرر من الكتاب أو ليكتب وهذا كما ترى لا يقوله من له مسكة فى عقل أو مروأة كيف وهو يدعوهم الى المعارضة ولو بسورة من مثله وفيهم الكتاب والشعراء والبلغاء والخطباء وهم أكثر منه مالا وأعظم أعوانا ولا يقدرون على شئ منه (فان قيل) كيف قيل اكتتبها فهى تملى عليه وانما يقال أمليت عليه فهو يكتبها (أجيب) بوجهين أحدهما أراد اكتتابها وطلبه فهى تملى عليه الثانى انها كتبت له وهو أمى فهى تملى أى تلقى عليه من كتاب ليحفظها لان صورة الالقاء على الحافظ كصورة الالقاء على الكاتب وقرأ فهى قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بكسرها* ثم أمره الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى (قل) أى دالا على بطلان ماقالوه ومهددا لهم (أنزله الذى يعلم السر) أى الغيب (فى السموات والارض) لانه أعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمنه أخبارا عن مغيبات مستقبلة واشياء مكنونة لا يعلمها الا عالم الاسرار فكيف تجعلونه أساطير الاولين مع علمكم أن ماتقولونه باطل وزور وكذلك باطن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما يبهتونه وهو يجازيكم على ماعلم منكم وعلم منه (فان قيل) كيف يطابق هذا قوله تعالى (انه كان) أى أزلا وأبدا (غفورا رحيما) أجيب بأنه لما كان مايقدمه فى معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة

عليه لانه لا يوصف بالرحمة والمغفرة الا القادر على العقوبة أو هو تنبيه على انهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبا ولكن صرف ذلك عنهم لانه غفور رحيم يمهل ولا يعاجل * الشبهة الثالثة قوله تعالى (وقالوا ما لهذا الرسول) أى ما لهذا الذى يزعم الرسالة وفيه استهانة وتهكم وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخرية منهم كأنهم قالوا ما لهذا الزاعم أنه رسول ونحوه قول فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون أى ان أصح انه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا (يأكل الطعام) أى كما نأكله (ويمشى) أى ويتردد (فى الاسواق) لطلب المعاش كما نمشى فلا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة يعنون انه يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الاكل والشرب والتعيش وكذلك كانوا يقولون له لست انت بملك لانك تأكل الطعام والملك لا يأكل ولان الملك لا يتسوق وأنت تتسوق وما قالوه فاسد لان أكله الطعام لكونه آدميا ومشيه فى الاسواق لتواضعه وكان ذلك صفته فى التوراة ولم يكن صخابا فى الاسواق وليس شئ من ذلك ينافى النبوة ولانه لم يدع أنه ملك من الملوك ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا الى اقتراح أن يكون انسانا معه ملك حتى يسانده فى الانذار والتخويف فقالوا (لولا) أى هلا (أنزل اليه ملك) أى يصدقه ويشهد له (فيكون معه نذيرا) أى داعيا ثم نزلوا أيضا الى أنه لم يكن مرفودا بملك فليكن مرفودا بكنز فقالوا (أو يلقى اليه كنز) أى ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج الى المشى فى الاسواق لطلب المعاش ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان فقالوا (أو تكون له جنة) أى بستان (يأكل منها) أى ان لم يلق اليه كنز فلا أقل أن يكون له بستان كالمياسير فيتعيش بريعه وقرأ حمزة والكسائى بالنون أن نأكل نحن منها فيكون له مزية علينا بها والباقون بالياء وقوله تعالى (وقال الظالمون) وضع فيه الظاهر موضع المضمر اذ الاصل وقالوا تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوا (ان) أى ما (تتبعون الا رجلا مسحورا) أى مخدوعا مغلوبا على عقله وقيل مصروفا عن الحق ولما أنهى تعالى ما ذكر من أقوالهم الناشئة عن ضلالهم التفت سبحانه وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم مسليا له بقوله تعالى (انظر) أى يا أفضل الخلق (كيف ضربوا لك الامثال) أى بالمسحور والمحتاج الى ما ينفقه والى ملك يقوم معه بالامر (فضلوا) أى بذلك عن جميع طرق الهدى (فلا يستطيعون) أى فى الحال ولا فى المآل بسبب الضلال (سبيلا) أى سلوك سبيل من السبل الموصلة الى ما يستحق أن يقصد بل هم فى مجاهل موحشة وفيافى مهلكة * ولما أثبت انهم لا علم لهم ولا قدرة ولا يمن ولا بركة أثبت لنفسه سبحانه وتعالى ما يستحق من الكمال الذى يفيض به على من يشاء من عباده ما يشاء بقوله تعالى (تبارك) أى ثبت ثباتا مقترنا باليمن والبركة لا ثبات الا هو (الذى ان شاء) فانه لا مكره له (جعل لك) أى فى الدنيا (خيرا من ذلك) أى من الذى قالوه على طريق التهكم من الكنز والبستان وقوله تعالى (جنات) بدل من خيرا ويجوز أن يكون منصوبا باضمار أعنى ثم وصفها بقوله تعالى (تجرى من تحتها الانهار) أى تكون أرضها عيونا نابعة أى فى أى موضع أريد منه اجراء نهر جرى نهر

لاتزال رياتغنى صاحبها عن كل حاجة ولاتحوجه فى استمرارها الى سقى (ويجعل لك قصورا) أيضا وهى جمع قصر وهو المسكن الرفيع قال المفسرون القصور هى البيوت المشيدة والعرب تسمى كل بيت مشيد قصرا ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنا ومنتزها ويجوز أن تكون القصور مجموعة والجنات مجموعة وقال مجاهد ان شاء جعل جنات فى الآخرة وقصورا فى الدنيا ولم يشأ الله سبحانه وتعالى ما أشار اليه فى هذه الآية الشريفة فى هذه الدنيا الفانية وأخره الى الآخرة الباقية وقد عرض عليه سبحانه وتعالى ماشاء فى ذلك فى الدنيا فأباه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما أو قال ثلاثا أو نحو هذا فاذا جعت تضرعت اليك واذا شبعت حمدتك وشكرتك وعن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوشئت لسارت معى جبال مكة ذهبا جاءنى ملك فقال ان ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك ان شئت نبيا عبدا وان شئت نبيا ملكا فنظرت الى جبريل عليه السلام فأشار الى أن ضع نفسك فقلت نبيا عبدا قالت وكان النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لا يأكل متكئا ويقول آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد وعن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام معه فقال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه فى زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك أن يعطيك مفاتيح كل شئ لم يعطه أحدا قبلك ولا يعطيه أحدا بعدك من غير أن ينقصك مما أدالك شيأ فقال صلى الله عليه وسلم بل يجمعها لى فى الآخرة فنزل تبارك الذى ان شاء الآية وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة برفع اللام من يجعل وفيه وجهان أحدهما أنه مستأنف والثانى أنه معطوف على جواب الشرط لان الشرط اذا وقع ماضيا جاز فى جوابه الجزم والرفع كقوله

وان أتاه خليل يوم مسئلة * يقول لاغائب مالى ولاحرم

والباقون بالجزم ويجوز فى يجعل لك اذا أدغمت أن تكون اللام فى تقدير الجزم والرفع * ثم أضرب سبحانه وتعالى عن كلامهم فى حق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (بل) أى لا يظنوا أنهم كذبوا بما جئت به لانهم لا يعتقدون فيك كذبا بل (كذبوا بالساعة) أى القيامة فقصرت أنظارهم على الحطام الدنيوى وظنوا أن الكرامة انما هى بالمال فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فلا يتكلفون النظر والفكر ولهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل (وأعتدنا) أى والحال انا اعتدنا أى هيأنا بما لنا من العظمة (لمن كذب) من هؤلاء وغيرهم (بالساعة سعيرا) أى نارا شديدة الاتقاد بما أعظموا الحريق فى قلوب من كذبوهم من الانبياء وأتباعهم وعن الحسن أن السعير اسم من أسماء جهنم * (تنبيه) * احتج أهل السنة على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين وعلى أن النار وهى دار العقاب مخلوقة بهذه الآية (اذا رأتهم من مكان بعيد) وهو أقصى ما تمكن رؤيتها منه وقال الكلبى والسدى من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة

روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من كذب على متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا قالوا وهل لها من عينين قال نعم ألم تسمع قوله تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد وقال البيضاوى تبعا للزمخشرى اذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه الصلاة والسلام لاترا أى ناراهما أى لاتتقاربان بحيث تكون احداهما بمرأى من الاخرى على المجاز انتهى وهذا تأويل للمعتزلة بناء منهم على أن الرؤية مشروطة بالحياة بخلاف الاشاعرة فانهم يجوزون رؤيتها حقيقة كتغيظها وزفيرها فى قوله تعالى (سمعوا لها تغيظا) أى غليانا كالغضبان اذا غلى صدره من الغضب (وزفيرا) أى صوتا شديدا اذلا امتناع من أنها تكون رائية مغتاظة زافرة وأشار البيضاوى الى ذلك بعد ماذكر بقوله هذا وان الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر وقال الجلال المحلى وسماع التغيظ رؤيته وعلمه انتهى قال عبد الله بن عمر تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولانبى مرسل الاخر لوجهه وقيل اذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار للانتقام منهم فنسب اليها على حذف مضاف (واذا ألقوا) أى طرحوا طرح اهانة (منها) أى النار (مكانا) ثم وصفه تعالى بقوله تعالى (ضيقا) زيادة فى فظاعتها قال ابن عباس يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح (مقرنين) أى مصفدين زيادة قد قرنت أيديهم الى أعناقهم من الاغلال وقد قيل الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله تعالى الجنة بأن عرضها السموات والارض وجاء فى الاحاديث ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله تعالى على أهل النار أنواع الضيق والارهاق حيث ألقاهم فى مكان ضيق يتراصون فيه تراصا كما مر عن ابن عباس أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح وهو منقول أيضا عن ابن عمر وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم يستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون فى السلاسل قرنت أيديهم الى أعناقهم ويقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة فى أرجلهم * (تنبيه) * مكانا منصوب على الظرف ومنها فى محل نصب على الحال من مكانا لانه فى الاصل صفة له ومقرنين حال من مفعول ألقوا وقرأ ابن كثير ضيقا بسكون الياء والباقون بكسر الياء مشددة (دعوا هنالك) أى فى ذلك المكان البغيض البعيد عن الرفق (ثبورا) قال ابن عباس ويلا وقال الضحاك هلاكا فيقولون واثبوراه هذا حينك وزمانك لانه لامنادم لهم غيره وليس يحضر أحدا منهم سواه قال البغوى وفى الحديث ان أول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول ياثبوراه وهم ينادون ياثبورهم حتى يقفوا على النار فيقال لهم (لاتدعوا اليوم) أى أيها الكفار (ثبورا واحدا) لانكم لاتموتون اذا حلت بكم أسباب العذاب والهلاك (وادعوا ثبورا كثيرا) أى هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة أو ادعوا أدعية كثيرة وقال الكلبى نزل هذا كله فى أبى جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبه * ولما وصف تعالى

العقاب المعدّ للمكذبين بالساعة اتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء البعداء البغضاء (أذلك) أى المذكور من الوعيد وصفة النار (خير أم جنة الخلد) أى الاقامة الدائمة (التى وعد المتقون) أى وعدها الله تعالى لهم فالراجع الى الموصوف وهو هاء وعدها محذوف (فان قيل) كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد وهل يجوز أن يقول القائل السكر أحلى أم الصبر (أجيب) بأنه يحسن فى معرض التقريع كما اذا أعطى السيد عبده مالا فتمرّد وأبى واستكبر فضربه ويقول له هذا خير أم ذلك قال أبو مسلم جنة الخلد هى التى لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور قال تعالى لانريد منكم جزاء ولا شكورا (فان قيل) الجنة اسم لدار الخلد فأى فائدة فى قوله تعالى جنة الخلد (أجيب) بأن الاضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ وهذا من هذا البيان أو للتمييز عن جنات الدنيا ثم حقق تعالى أمرها تأكيدا للبشارة بقوله (كانت لهم جزاء) أى ثوابا على أعمالهم بفضل الله تعالى وكرمه (ومصيرا) أى مرجعا (فان قيل) ان الجنة ستصير للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعد ماصارت كذلك فلم قال تعالى كانت (أجيب) من وجهين الاوّل ان ماوعده الله تعالى فهو فى تحققه كالواقع الثانى انه كان مكتوبا فى اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم (فان قيل) لم جمع تعالى بين الجزاء والمصير (اجيب) بأن ذلك كقوله تعالى نعم الثواب وحسنت مرتفقا فمدح الثواب ومكانه كما قال تعالى بئس الشراب وساءت مرتفقا فذم العقاب ومكانه لانّ النعيم لا يتم للمتنعم الابطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة والاتنغص وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضيقه وظلمته فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء *(تنبيه)* المتقى يشمل من اتقى الكفر وان لم يتق المعاصى وان كان غيره أكمل * ثم ذكر تعالى تنعمهم فيها بعد ان ذكر نعيمهم بقوله تعالى (لهم فيها) أى الجنة (مايشاؤن) من كل ماتشتهيه أنفسهم كما قال تعالى ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم وفيها ماتشتهى الانفس (فان قيل) أهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية لابدّ وأن يريدوها فاذا سألوها ربهم فان أعطاها لهم لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت فى الدرجة وان لم يعطها لهم قدح ذلك فى قوله تعالى لهم فيها مايشاؤن (أجيب) بأن الله تعالى يزيل هذا الخاطر عن قلوب أهل الجنة ويشتغلون بما هم فيه من اللذات عن الالتفات الى حال غيرهم وقوله تعالى (خالدين) منصوب على الحال امّا من فاعل يشاؤن وامّا من فاعل لهم لوقوعه خبرا والعائد على ما محذوف أى لهم فيها الذى يشاؤنه حال كونهم خالدين وقوله تعالى (كان على ربك) أى وعدهم ماذكر (وعدا) يدل على أن الجنة جعلت لهم بحكم الوعد والتفضل لابحكم الاستحقاق وقوله تعالى (مسؤلا) أى مطلوبا واختلف فى السائل فالاكثر على انّ المؤمنين سألوا ربهم فى الدنيا حين قالوا ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك روي أنه صلى الله عليه وسلم قال مامنكم من يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا أعطاه بها احدى ثلاث اما أن يعجل له دعوته واما أن يدخرها له فى الآخرة واما أن يصرف عنه من

السوء مثلها قالوا اذا نكثر قال الله تعالى أكثر وروى أنه يدعى بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه الله تعالى بين يديه فيقول عبدى فيقول نعم يارب فيقول انى أمرتك أن تدعونى ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعونى اما انك لم تدعنى بدعوة الا استجبت لك أليس دعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان أفرج عنك ففرجت عنك فيقول نعم يارب فيقول انى عجلتها لك فى الدنيا ودعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان أفرج عنك فلم تر فرجا قال نعم يارب فيقول انى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا ودعوتنى فى حاجة أقضيها لك فى يوم كذا وكذا فقضيتها فيقول نعم يارب فيقول انى عجلتها لك فى الدنيا ودعوتنى يوم كذا وكذا فى حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها فيقول نعم يارب فيقول انى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن الا بين له اما أن يكون عجل له فى الدنيا واما أن يكون ادخر له فى الآخرة فيقول المؤمن فى هذا المقام ياليته لم يكن عجل له شئ من دعائه وروى لا تعجلوا فى الدعاء فانه لا يهلك مع الدعاء أحد وروى ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة وروى يستجاب لاحدكم مالم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لى وروى لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع باثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل قيل يارسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت فلم يستجب لى فيستحسر أى يمل عند ذلك ويدع الدعاء فليدع الانسان وهو موقن بالاجابة وقال محمد بن كعب القرظى الطلب من الملائكة للمؤمنين سألوا ربهم للمؤمنين بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم وقيل ان المكلفين سألوها بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة فى طاعة الله كان ذلك قائما مقام السؤال قال المتنبى

وفى النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتى كلام عندها وخطاب

*ولما ذكر تعالى حالهم فى نفسهم أتبعه ذكر حالهم مع معبوداتهم من دونه بقوله تعالى (ويوم) أى واذكر لهم يوم (نحشرهم) أى المشركين وقرأ ابن كثير وحفص بالياء والباقون بالنون واختلف فى المراد بقوله تعالى (وما يعبدون من دون الله) أى غيره فقال الاكثرون من الملائكة والجن والمسيح وعزير وغيرهم وقال عكرمة والضحاك والكلبى من الاصنام فقيل لهم كيف يخاطب الله تعالى الجماد بقوله تعالى (فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) أى أوقعتموهم فى الضلال بأمركم اياهم بعبادتكم (أم هم ضلوا السبيل) أى طريق الحق بأنفسهم فأجابوا بوجهين أحدهما انه تعالى يخلق الحياة فيها ويخاطبها ثانيهما أن يكون ذلك بالكلام النفسانى لا بالقول اللسانى بل بلسان الحال كما ذكره بعضهم فى تسبيح الجماد وكلام الايدى والارجل ويجوز أن يكون السؤال عاما لهم جميعا (فان قيل) كيف صح استعمال ما فى العقلاء (أجيب) على الاول بأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبوديهم الا تراك تقول اذا أردت السؤال عن صفة زيد ما زيد تعنى أطويل أم قصير فقيه أم طبيب وقال تعالى والسماء وما بناها ولا أنتم عابدون ما أعبد وأما على القول الثانى فواضح وأما على القول الثالث فغلب غير العاقل

لغلبة عباده أو تحقيرا (فان قيل) مافائدة هذا السؤال مع ان الله تعالى كان عالما في الازل بحال المسؤل عنه (أجيب) بأن هذا سؤال تقريع للمشركين كما قال لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله وقرأ ابن عامر فنقول بالنون والباقون بالياء وقرأ أأنتم نافع وابن كثير بتسهيل الثانية وادخال ألف بينها وبين همزة الاستفهام وورش وابن كثير بتسهيل الثانية ولا ألف بينهما وبين الاولى ولورش وجه آخر وهو ابدال الثانية ألفا وهشام بتسهيل الثانية وتحقيقها مع الادخال والباقون بتحقيقهما وقرأ هؤلاء أم هم نافع وابن كثير وأبو عمرو في الوصل بابدال الهمزة من أم ياء خالصة والباقون بتحقيقها (قالوا سبحانك) أي تنزيها لك عما لا يليق بك أو تعجبا مما قيل لهم لانهم اما ملائكة أو أنبياء معصومون فما أبعدهم عن الضلال الذي هو مختص بابليس وجنوده أو جمادات وهي لا تقدر على شئ أو اشعارا بأنهم الموسومون بتسبيحه وتوحيده فكيف يليق بهم اضلال عبيده (ما كان ينبغي) أي يستقيم (لنا أن نتخذ) أي نتكلف أن نأخذ باختيارنا بغير ارادة منك (من دونك) أي غيرك (من أولياء) للعصمة أو لعدم القدرة فكيف يستقيم لنا أن نأمر بعبادتنا (فان قيل) مافائدة أنتم وهم وهلا قيل أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل (أجيب) بأن السؤال ليس عن الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب وانما هو عن متوليه فلا بد من ذكره وايلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤل عنه *(تنبيه)* من أولياء مفعول أول ومن زائدة لتأكيد النفي وما قبله المفعول الثاني ولما تضمن كلامهم انا لم نضلهم ولم نحملهم على الضلال حسن الاستدراك بقولهم (ولكن متعتهم وآباءهم) وهو أن ذكروا سببه أي أنعمت عليهم وعلى آبائهم من قبلهم بأنواع النعم والصحة وطول العمر في الدنيا فجعلوا ذلك ذريعة الى ضلالهم عكس القضية (حتى نسوا الذكر) أي تركوا الايمان بالقرآن وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه (وكانوا) أي في علمك بما قضيت عليهم في الازل (قوما بورا) أي هلكى وهو مصدر وصف به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع أو جمع بائر كعائذ وعوذ وقوله (فقد كذبوكم) فيه التفات الى العبدة بالاحتجاج والالزام على حذف القول والمعنى فقد كذب المعبودون العابدين (بما) أي بسبب ما (تقولون) أي أيها العابدون من أنهم يستحقون العبادة وأنهم يشفعون لكم وأنهم أضلوكم ولما تسبب عن تخليهم عن عبدتهم أنه لا نفع في أيديهم ولا ضر قال تعالى (فما يستطيعون) أي المعبودون (صرفا) أي لشئ من الاشياء عن أحد من الناس لا أنتم ولا غيركم من عذاب ولا غيره بوجه حيلة ولا شفاعة ولا مغاداة (ولا نصرا) أي منعا لكم من الله تعالى ان أراد بكم سوأ وهذا نحو قوله تعالى لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا وقرأ حفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (ومن يظلم) أي بالشرك (منكم) أي أيها المكلفون (نذقه) أي بما لنا من العظمة (عذابا كبيرا) أي شديدا في الدنيا بالقتل أو الاسر أو ضرب الجزية وفي الآخرة بنار جهنم * روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم مالهذا الرسول الى آخرها أنزل الله تعالى (وما أرسلنا قبلك) أي يا أشرف الخلق أحدا (من

المرسلين

المرسلين الا) وحالهم (انهم ليأكلون الطعام) كما تأكل ويأكل غيرك من الآدميين (ويمشون في الاسواق) كما تفعل فهذه عادة مستمرة من الله تعالى في كل رسله وهم يعلمون ذلك بالسماع من أخبارهم وهذا تأكيد من الله تعالى لانهم لا يكذبونه صلى الله عليه وسلم وقيل معنى الآية وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا قد قيل لهم مثل هذا انهم يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق كما قال تعالى في موضع آخر ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك (وجعلنا) أي بالعطاء والمنع عما للناس من العظمة (بعضكم) أي أيها الناس (لبعض فتنة) أي بلية والمعنى أنه تعالى ابتلى المرسلين بالمرسل اليهم وبمناصبتهم والعداوة لهم وأقاويلهم الخارجة عن حد الانصاف وبجعل الغني فتنة للفقير والصحيح فتنة للمريض والشريف فتنة للوضيع يقول الثاني من كل مالي لا أكون كالاول وقال ابن عباس جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم فتتبعوا الهدى أم لا وقال مقاتل نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاصي بن وائل والنضر بن الحرث وذلك أنهم رأوا اباذر وابن مسعود وعمارا وبلالا وصهيبا وعامر بن فهيرة ومن دونهم قد أسلموا قبلهم فقالوا أنسلم ونكون مثل هؤلاء وقيل جعلناك فتنة لهم لانك لو كنت غنيا صاحب كنوز وجنات لكان ميلهم اليك وطاعتهم لك للدنيا فتكون ممزوجة بالدنيا وانما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوي وقوله تعالى (أتصبرون) أي على ما تسمعون مما ابتليتم به استفهام بمعنى الامر أي اصبروا (وكان ربك) أي المحسن اليك احسانا لم يحسنه الى أحد سواك لاسيما بجعلك نبيا عبدا (بصيرا) أي بكل شئ فهو عالم بالانسان قبل الامتحان لم يفده ذلك علما لم يكن عنده ولكن يعلم ذلك شهادة كما يعلم علم الغيب ولتقوم عليهم بذلك الحجة فلا يضيقن صدرك ولا تستخفنك أقاويلهم فان صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين روى أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا نظر أحدكم من فضل عليه في المال والجسم فلينظر الى من هو دونه في المال والجسم وروى انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم حذر أن تزدروا نعمة الله عليكم * الشبهة الرابعة لمنكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) أي لا يخافون البعث قال الفراء الرجاء بمعنى الخوف لغة تهامة ومنه قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا أي لا تخافون لله عظمة (لولا) أي هلا ولم لا (أنزل) أي على أي وجه كان من أي منزل كان (علينا الملائكة) كما نزلت عليه فيما يزعم وكانوا رسلا الينا أو فتخبرنا بصدقه (أو نرى ربنا) عيانا فيأمرنا باتباعه لما له علينا من الاحسان وعما لنا نحن من العظمة بالقوة بالاموال وغيرها فيأمرنا بما يريد من غير حاجة الى واسطة قال الله ردا عليهم (لقد استكبروا) أي تعظموا (في) شأن (أنفسهم) أي أظهروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه كما قال تعالى ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه (وعتوا) أي تجاوزوا الحد في الظلم (عتوا كبيرا) أي بالغا أقصى مراتبه حيث عاينوا المعجزات الظاهرة فأعرضوا عنها واقترحوا لانفسهم الخبيثة ما سدت دونه مطامع النفوس القدسية واللام جواب قسم محذوف وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ تعجب ألا ترى

أن المعنى ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم * ثم بين تعالى لهم حالهم عند بعض ما طلبوا بقوله تعالى (يوم يرون الملائكة) أي يوم القيامة وقال ابن عباس عند الموت (لا بشرى) أي من البشر أصلا (يومئذ) وقوله تعالى (للمجرمين) أي الكافرين اما ظاهر في موضع ضمير واما لانه عام فقد تناولهم بعمومه بخلاف المؤمنين فلهم البشرى بالجنة * (تنبيه) * في نصب يوم أوجه احدها أنه منصوب باضمار فعل يدل عليه قوله تعالى لا بشرى أي يمنعون البشرى يوم يرون الثاني باذكر فيكون مفعولا به الثالث يعذبون مقدرا ولا يجوز أن يعمل فيه نفس البشرى لوجهين أحدهما أنها مصدر والمصدر لا يعمل فيما قبله والثاني أنها منفية بلا وما بعد لا لا يعمل فيما قبلها وقوله (ويقولون) أي في ذلك الوقت (حجرا محجورا) عطف على المدلول ويقول الكفرة لهم حينئذ هذه الكلمة استعاذة وطلبا من الله تعالى أن يمنع لقاء الملائكة عنهم مع أنهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه وهم اذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لانهم لا يلقونهم الا بما يكرهون وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو والشدة النازلة أو نحو ذلك حجرا محجورا يضعونها موضع الاستعاذة فهم يقولون ذلك اذا عاينوا الملائكة قال سيبويه يقول الرجل للرجل تفعل كذا وكذا فيقول حجرا وهي من حجره اذا منعه لان المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه عنه فلا يلحقه وكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا وقال ابن عباس تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة الا من قال لا اله الا الله وقيل اذا خرج الكفار من قبورهم تقول الملائكة لهم حرام محرم عليكم أن تكون لكم البشرى * ولما كان المريد لابطال شئ لشدة كراهته له لا يقنع في ابطاله بغيره بل يأتيه بنفسه فيبطله عبر تعالى بقوله (وقدمنا) أي وعمدنا بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة في ذلك اليوم الذي يرون فيه الملائكة سواء كان في الدنيا أم في الآخرة (الى ما عملوا من عمل) أي من مكارم الاخلاق من الجود وصلة الرحم واغاثة الملهوف ونحو ذلك (فجعلناه) لكونه لم يؤسس على الايمان وانما هو للهوى والشيطان (هباء) وهو ما يرى في شعاع الشمس الداخل من كوة مما يشبه الغبار (منثورا) أي مفرقا أي مثله في عدم النفع اذ لا ثواب فيه لعدم شرطه ويجازون عليه في الدنيا فتكون النار مستقرهم ومقيلهم ولهذا بين حال اضدادهم وهم المؤمنون بقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ) أي يوم اذ يرون الملائكة (خير مستقرا) من الكفار (وأحسن مقيلا) منهم والمستقر المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحادثون والمقيل المكان الذي يأوون اليه للاسترواح الى أزواجهم والتمتع بمغازلتهن وملامستهن كما ان المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب روى أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار قال ابن مسعود لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وقال ابن عباس في هذه الآية الحساب في ذلك اليوم في أوله وقال يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون قدر ما بين العصر الى غروب الشمس * (تنبيه) * في أفعل ههنا قولان أحدهما أنها على

بابها من التفضيل والمعنى ان المؤمنين خير فى الآخرة مستقرا من مستقر الكفار وأحسن مقيلا من مقيلهم ولو فرض أن يكون لهم ذلك أو على أنهم خير فى الآخرة منهم فى الدنيا والثانى أن يكون لمجرد الوصف من غير مفاضلة ومن ذلك المعنى قوله تعالى ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الارائك متكؤن ذكروا فى تفسير الشغل افتضاض الابكار واغاسمى مكان دعتهم واسترواحهم الحورمقيلا مع أنه لانوم فى الجنة على طريق التشبيه * ثم عطف تعالى على قوله يوم يرون قوله تعالى (ويوم تشقق السماء) أى كل سماء (بالغمام) أى كما تشقق الارض بالنبات فيخرج من خلال شقوقها وهو غيم أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن الا لبنى اسرائيل فى تيههم *(تنبيه)* فى هذه الباء ثلاثة أوجه أحدها انها سببية أى بسبب الغمام يعنى بسبب طلوعه منها ونحوه السماء منفطر به كانه الذى تنشق به السماء الثانى أنها للحال أى ملتبسة بالغمام الثالث أنها بمعنى عن أى عن الغمام كقوله تعالى يوم تشقق الارض عنهم سراعا والباء وعن يتعاقبان تقول رميت عن القوس وبالقوس وقرأ أبو عمرو والكوفيون بتخفيف الشين والباقون بتشديدها ثم أشار تعالى الى جهل من طلب نزول الملائكة دفعة واحدة بقوله تعالى (ونزل الملائكة) أى بالتدريج بأمر حتم لايمكنهم التخلف عنه بأمر من الامور وغيره من الذين طلبوا أن يروهم فى حال واحد (تنزيلا) فى أيديهم صحائف الاعمال قال ابن عباس تتشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى الارض من الجن والانس ثم تتشقق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من أهل سماء الدنيا وأهل الارض جنا وانسا ثم كذلك حتى تتشقق السماء السابعة وأهل كل سماء يدورون على السماء التى قبلها ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش (فان قيل) ثبت أن نسبة الارض الى سماء الدنيا كحلقة فى فلاة فكيف تسع الارض هؤلاء (أجاب) بعض المفسرين بأن الملائكة تكون فى الغمام والغمام يكون مقر الملائكة ويجوز ان الله تعالى يوسع الارض حتى تسع الجميع وقرأ ابن كثير بنونين الاولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الزاى ورفع اللام ونصب الملائكة والباقون بنون واحدة والزاى مشددة ونصب اللام ورفع الملائكة ثم بين تعالى أن ذلك اليوم لايقضى فيه غيره بقوله تعالى (الملك يومئذ) أى اذ تشقق السماء بالغمام ثم وصف الملك بقوله تعالى (الحق) أى الثابت ثباتا لايمكن زواله ثم أخبر عنه بقوله تعالى (للرحمن) أى العام الرحمة فى الدارين ومن عموم رحمته وحقية ملكه أن يسر قلوب أهل وده بتعذيب أهل عداوته الذين عادوهم فيه لتضييعهم الحق باتباع الباطل ولولا اتصافه بالرحمة لم يدخل أحد الجنة (فان قيل) مثل هذا الملك لم يكن قط الا للرحمن فما الفائدة فى قوله تعالى يومئذ (أجيب) بأن فى ذلك اليوم لامالك له سواه لافى الصورة ولافى المعنى فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الايام (وكان) أى ذلك اليوم الذى تظهر فيه الملائكة الذى طلب الكفار رؤيتهم له (يوما على الكافرين عسيرا) أى شديد العسر والاستعار *(تنبيه)* هذا الخطاب يدل على أنه لايكون على المؤمنين عسيرا جاء فى الحديث أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون عليه

أخف من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا وقوله تعالى (ويوم يعض الظالم) أي المشرك لفرط تأسفه لما يرى فيه من الأهوال معمول لمحذوف أو معطوف على يوم تشقق وأل في الظالم تحتمل العهد والجنس لكن قال ابن عباس أراد بالظالم عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر الا صنع طعاما ودعا اليه جيرانه وأشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم ويعجبه حديثه فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما ودعا الناس ودعا النبي صلى الله عليه وسلم فلما قرب الطعام قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا اله الا الله واني رسول الله فقال عقبة أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فأكل صلى الله عليه وسلم من طعامه وكان عقبة صديقا لأبي بن خلف فلما أتى أبي بن خلف قال له يا عقبة صبأت فقال لا والله ما صبأت ولكن دخل على رجل فأبى أن يأكل طعامي الا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم والشهادة ليست في نفسي فقال ما أنا بالذي أرضى منك أبدا الا أن تأتيه وتبصق في وجهه وتطأ قفاه وتلطم وجهه وعينه فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك عقبة فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا ألقاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فقتل عقبة يوم بدر صبرا أمر عليا رضي الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت بن افلح الانصاري وأما أبي بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد طعنه في المبارزة فرجع الى مكة ومات قال الضحاك لما بصق عقبة في وجه النبي صلى الله عليه وسلم عاد بصاقه في وجهه فاحترق خداه فكان أثر ذلك فيه حتى مات وقال الشعبي كان عقبة خليل أمية فأسلم عقبة فقال أمية وجهي من وجهك حرام ان بايعت محمدا فكفر وارتد فأنزل الله تعالى ويوم يعض الظالم أي عقبة (على يديه) قال الضحاك يأكل يديه الى المرفق ثم تنبت ولا يزال هكذا كلما أكلها نبتت وقال المحققون هذه اللفظة للتحسر والغم يقال عض أنامله وعض على يديه وهو لا يشعر حال كونه مع هذا الفعل (يقول) أي يجدد في كل لحظة قوله (ياليتني اتخذت) أي أرغمت نفسي وكلفتها أن آخذ في الدنيا (مع الرسول) أي محمد صلى الله عليه وسلم (سبيلا) أي طريقا الى الهدى * ولما تأسف على مجانبة الرسول ندم على مصادقة غيره بقوله (ياويلتى) أي ياهلاكي الذي ليس لي منادم غيره لانه ليس يحضرني سواه (ليتني لم أتخذ فلانا) أي أبيا (خليلا) أي صديقا أوافقه في أعماله لما علمت من سوء عاقبتها فكنى عن اسمه وان أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم عليه لا محالة فجعله كناية عنه وقرأ أبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وأظهر الذال عند التاء ابن كثير وحفص وأدغمها الباقون ثم استأنف قوله الذي يتوقع كل سامع أن يقوله (لقد) أي والله لقد (أضلني عن الذكر) أي عمى على طريق القرآن الذي لا ذكر في الحقيقة غيره وصرفني عنه والجملة في موضع العلة لما قبلها (بعد اذ جاءني) ولم يكن لي منه مانع يردني عن الايمان به وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال والباقون بالادغام وقوله تعالى (وكان الشيطان) اشارة الى خليله سماه شيطانا لانه أضله كما يضل الشيطان أو الى كل من كان سببا للضلال من عتاة الجن والانس (للانسان خذولا) أي

شديد الخذلان يورده ثم يسلمه الى أكره ما يكون لا ينصره ولو أراد ما استطاع بل هو في شر من ذلك لان عليه اثمه في نفسه ومثل اثم من أضله * (تنبيه) * حكم هذه الآية عام في كل خليلين ومتحابين اجتمعا على معصية الله تعالى قال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك اما أن يحذيك واما ان تبتاع منه واما أن تجد ريحا طيبة ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك واما أن تجد ريحا خبيثة وقال صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وقال صلى الله عليه وسلم لا تصاحب الا مؤمنا ولا يأكل طعامك الا تقي * ولما ذكر تعالى أقوال الكفار ذكر قول رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وقال الرسول يارب) أي أيها المحسن الى بأنواع الاحسان وعبر بأداة البعد هضما لنفسه ومبالغة في التضرع (ان قومي) أي قريشا الذين لهم قوة ومنعة (اتخذوا هذا القرآن) أي المقتضي للاجماع عليه والمبادرة اليه (مهجورا) أي متروكا بعيدا لم يؤمنوا به ولم يقبلوه وأعرضوا عن استماعه * (تنبيه) * أشار بصيغة الافتعال الى أنهم عالجوا أنفسهم في تركه علاجا كثيرا لما يرون من حسن نظمه ويذوقون من لذيذ معانيه ورائق أساليبه ولطيف عجائبه وبديع غرائبه وأكثر المفسرين على أن هذا القول وقع من النبي صلى الله عليه وسلم وقال أبو مسلم بل المراد أنه يقوله في الآخرة كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد الآية والاول أولى لان قوله تعالى (وكذلك) أي كما جعلنا لك عدوا من مشركي قومك (جعلنا لكل نبي) من الانبياء قبلك رفعة لدرجاتهم (عدوا من المجرمين) أي من المشركين تسلية له صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى يقول له فاصبر كما صبروا ولا يكون ذلك الا اذا وقع القول منه (وكفى بربك) أي المحسن اليك (هاديا) أي يهدي بك من قضى بسعادته (ونصيرا) أي ينصرك على من حكم بشقاوته * (تنبيه) * احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه تعالى خالق الخير والشر لان قوله تعالى لكل نبي عدوا يدل على أن تلك العداوة من جعل الله تعالى وتلك العداوة كفر (فان قيل) قوله تعالى يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا كقول نوح عليه السلام رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي الا فرارا فكما أن المقصود من هذا انزال العذاب فكذلك ماهنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله تعالى بالرحمة في قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (أجيب) بأن نوحا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم وأما النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر هذا لم يدع عليهم بل انتظر فلما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا كان ذلك كالامر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فافترقا * الشبهة الخامسة لمنكري النبوة ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وقال الذين كفروا) أي الذين غطوا اعداوة وحسدا ما تشهد عقولهم بصحته من أن القرآن كلام الله تعالى لاعجازه لهم مفرقا فضلا عن كونه مجتمعا (لولا) أي هلا (نزل عليه القرآن) أي أنزل كخبر بمعنى أخبر لئلا يناقض قولهم (جملة) وأكدوا بقولهم (واحدة) أي من أوله الى آخره كما أنزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود لنحقق أنه من عند الله تعالى ويزول عنا ما نتوهمه من أنه الذي يرتبه قليلا قليلا وهذا

الاعتراض فى غاية السقوط لان الاعجاز لايختلف بنزوله جملة أو متفرقا مع أن للتفريق فوائد منها ما أشار اليه بقوله تعالى (كذلك) أى أنزلناه شيأ فشيأ على هذا الوجه العظيم الذى أنكروه (لنثبت) أى نقوى (به فؤادك) أى قلبك نعيه ونحفظه لان المتلقن انما يقوى قلبه على حفظ العلم شيأ فشيأ وجزأ عقب جزء ولو ألقى عليه جملة واحدة لتعيا بحفظه والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال داود وموسى وعيسى عليهم السلام حيث كان أميا لايقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فأنزله الله عليه منجما فى عشرين سنة وقيل فى ثلاث وعشرين سنة وأيضا فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ولان بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك الا فيما أنزل مفرقا (فان قيل) ذا فى كذلك يجب أن يكون اشارة الى شئ تقدمه والذى تقدم هو انزاله جملة فكيف فسر كذلك بأنزلناه مفرقا (أجيب) بأن الاشارة الى الانزال مفرقا الا الى جملة والدليل على فساد هذا الاعتراض أيضا أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه وتحدوا بسورة واحدة من أقصر السور فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا الى المجادلة ثم قالوا هلا نزل جملة واحدة كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته وقوله تعالى (ورتلناه ترتيلا) معطوف على الفعل الذى تعلق به كذلك كأنه قال تعالى كذلك فرقناه ورتلناه ترتيلا ومعنى ترتيله قال ابن عباس بيناه بيانا والترتيل التبيين فى تؤدة وتثبت وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال مجاهد بعضه فى اثر بعض وقال الحسن تفريقا آية بعد آية ووقعة عقب وقعة ويجوز أن يكون المعنى وأمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا أى اقرأه بترتل وتثبت ومنه حديث عائشة رضى الله تعالى عنها فى صفة قراءته لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها وقيل هو أن ننزله مع كونه متفرقا على تمكث وتمهل فى مدة متباعدة وهى عشرون سنة ولم نفرقه فى مدة متقاربة * ولما كان التقدير قد بطل ما أتوا به من هذا الاعتراض عطف عليه (ولا يأتونك) أى يا أشرف الخلق أى المشركون (بمثل) أى باعتراض فى ابطال أمرك يخيلون به لعقول الضعفاء يجتهدون فى تنميقه وتحسينه وتدقيقه حتى يصير عندهم فى غاية الحسن والرشاقة لفظا ومعنى (الا جئناك) فى جوابه (بالحق) أى الذى لامحيد عنه فيزهق ما أتوا به لبطلانه فسمى ما يوردون من الشبه مثلا وسمى ما يدفع به الشبه حقا (وأحسن) أى من مثلهم (تفسيرا) أى بيانا وتفصيلا * ولما كان التفسير هو التكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقى اليك كنز أو تكون لك جنة أو ينزل عليك القرآن جملة واحدة الا أعطيناك نحن من الاحوال ما يحق لك فى حكمتنا ومشيئتنا أن نعطاه وما هو أحسن تكشفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته * ثم بين تعالى حال هؤلاء المعاندين فى الآخرة بقوله تعالى (الذين) أى هم الذين (يحشرون) أى يجمعون قهرا ماشين مقلوبين (على وجوههم)

مسحوبين (الى جهنم) أى كما أنهم لم ينظروا فى الدنيا بعين الانصاف فان الآخرة مرآة الدنيا مهما عمل هنا رآه هناك كما أن الدنيا مزرعة الآخرة مهما عمل فيها جنى ثمره هناك روى البخارى ان رجلا قال يا نبى الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة وروى البيهقى يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على الوجوه وصنف على الاقدام * ولما وصف الله تعالى المتعنتين فى أمر القرآن بهذا الوصف استأنف الاخبار عنهم بقوله تعالى (أولئك) أى البعداء البغضاء (شر) أى شر الخلق (مكانا) هو جهنم (وأضل سبيلا) أى أخطأ طريقا من غيرهم وهو كفرهم * ولما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وذكر ذلك فى معرض التسلية له صلى الله عليه وسلم ذكر قصص جماعة من الانبياء وعرفه تكذيب أممهم زيادة فى تسليته * القصة الاولى قصة موسى عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد آتينا) أى بما لنا من العظمة (موسى الكتاب) أى التوراة (وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا) أى معينا (فان قيل) كونه وزيرا كالمنافى لكونه شريكا له فى النبوة والرسالة (أجيب) بأنه لا منافاة بين النبوة والرسالة والوزارة فقد كان يبعث فى الزمن الواحد أنبياء متعددون ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا * (تنبيه) * هرون بدل أو بيان أو منصوب على القطع ووزيرا مفعول ثان وقيل حال والمفعول الثانى معه ويدل على رسالة هرون عليه السلام قوله تعالى (فقلنا اذهبا الى القوم) أى الذين فيهم قوة وقدرة على ما يعانونه وهم القبط فرعون وقومه (الذين كذبوا بآياتنا) فذهبا اليهم بالرسالة فكذبوهما (فدمرناهم تدميرا) أى أهلكناهم اهلاكا أى فأنت يا محمد لست أول من كذب من الرسل فلك اسوة بمن قبلك (فان قيل) الفاء للتعقيب والاهلاك لم يحصل عقب بعثة موسى وهرون اليهم بل بعده بمدة مديدة (أجيب) بأن فاء التعقيب محمولة هنا على الحكم بإهلاكهم لا على الوقوع أو على أنه على ارادة اختصار القصة فاقتصر على حاشيتيها أى أولها وآخرها لانهما المقصودان من القصة بطولها أعنى الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم * (تنبيه) * قوله تعالى كذبوا بآياتنا ان حملنا تكذيب الآيات على الآيات الالهية فهو ظاهر وان حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ وان كان للماضى فالمراد به المستقبل * القصة الثانية قصة نوح عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وقوم) أى ودمرنا قوم (نوح لما كذبوا الرسل) كأنهم كذبوا نوحا ومن قبله من الرسل صريحا أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع بالقوة لان المعجزات هى البرهان على صدقهم وهى متساوية الاقدام فى كونها خوارق لا يقدر على معارضتها فالتكذيب بشئ منها تكذيب للجميع أو لم يروا بعثة الرسل أصلا كالبراهمة وهم قوم يمنعون بعثة الرسل نسبوا الى رجل يقال له براهام قد مهد لهم ذلك وقرره فى عقولهم ولانهم عللوا تكذيبهم بأنه من البشر فلزمهم تكذيب كل رسول من البشر * ثم بين تعالى تدميرهم بقوله تعالى (أغرقناهم) قال الكلبى أمطرنا عليهم السماء أربعين يوما وأخرج ماء الارض أيضا فى تلك الاربعين فصارت الارض بحرا واحدا (وجعلناهم) أى

قوم نوح فى ذلك (للناس آية) أى لمن بعدهم عبرة ليعتبر كل من سلك طريقهم (وأعتدنا) أى
هيأنا فى الآخرة (للظالمين) أى للكافرين وكان الاصل لهم ولكنه تعالى أظهر تعميما
وتعليقا للحكم بالوصف (عذابا أليما) أى مؤلما سوى ما يحل بهم فى الدنيا * القصة الثالثة قصة
هود عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وعادا) أى ودمرنا عادا قوم هود بالريح * القصة
الرابعة قصة صالح عليه السلام المذكورة فى قوله (وثمودا) أى ودمرنا ثمودا قوم صالح
بالصيحة * القصة الخامسة المذكورة فى قوله تعالى (وأصحاب الرس) اى البئر التى هى غير مطوية
أى مبنية قال ابن جرير والرس فى كلام العرب كل محفور مثل البئر والقبر أى ودمرناهم
بالخسف واختلف فى نبيهم فقيل شعيب وقيل غيره كانوا قعودا حولها فانهارت بهم وبمنازلهم
فهلكوا جميعا وقال الكلبى الرس بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله تعالى وفلج بفتح الفاء
واللام والجيم قرية عظيمة بناحية اليمن من مساكن عاد وبسكون اللام واد قريب من البصرة
وقيل الرس الاخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل أصحاب حنظلة بن
صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهى أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت
تسكن جبلهم الذى يقال له فتخ قيل هو بتاء فوقية نخاء معجمة أو مهملة وبياء تحتية وجيم وهى
تنقض على صبيانهم فتخطفهم ان أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم انهم
قتلوا حنظلة فأهلكوا (وقرونا) أى ودمرنا قرونا (بين ذلك) أى الامر العظيم المذكور وهو
بين كل أمتين من هذه الامم وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب
أعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود ثم قال الله
تعالى (كثيرا) وناهيك بما يقول فيه سبحانه وتعالى انه كثير وأسند البغوى فى تفسير أمة
وسطا فى البقرة عن أبى سعيد الخدرى قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد صلاة
العصر فما ترك شيأ الى يوم القيامة الا ذكره فى مقامه ذلك حتى اذا كانت الشمس على رؤس
النخل وأطراف الحيطان قال انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقى من يومكم هذا الا وان هذه
الامة توفى سبعين أمة هى آخرها وأكرمها على الله عز وجل ثم انه تعالى قال تسلية لنبيه محمد
صلى الله عليه وسلم وتأسية وبيانا لشريعته بالعفو عن أمته (وكلا) أى من هذه الامم
(ضربنا) أى بما لنا من العظمة (له الامثال) حتى وضح له السبيل وقام من غير شبهة الدليل
(وكلا تبرنا تتبيرا) أى أهلكنا اهلاكا وقال الاخفش كسرنا تكسيرا وقال الزجاج كل
شئ كسرته وفتته فقد تبرته (ولقد أتوا) أى هؤلاء المكذبون من قومك (على القرية التى
أمطرت) أى وقع امطارها ممن لا يقدر على الامطار سواه بالحجارة ولذا قال تعالى (مطر السوء)
مصدر ساء وهى قرى قوم لوط قال البغوى كانت خمس قرى فأهلك الله تعالى أربعا منها
لعملهم الفاحشة ونجت منهم واحدة وهى صغر وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث (فان
قيل) لم عبر تعالى بالقرية وهى قرى (أجيب) بأنه تعالى قال ذلك تحقيرا لشأنها فى جنب قدرته
تعالى واهانة لمن يريد عذابه ولانهماكهم على الفاحشة جميعهم حتى كانوا كأنهم شئ واحد

وقوله

وقوله تعالى (أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون) أى لا يخافون (نشورا) أى بعثا بعد الموت لانه استقر فى أنفسهم اعتقادهم التكذيب بالآخرة واستمروا عليه قرنا بعد قرن حتى تمكن منهم ذلك تمكينا لا ينفع معه الاعتبار الا من شاء الله (واذا رأوك) أى مع مايعلمون من صدق حديثك وكرم أفعالك ولو لم تأتهم بمعجزة فكيف وقد أتيتهم بما بهر العقول (ان) أى ما (يتخذونك الا هزوا) أى مهزوا بك وعبر تعالى بالمصدر اشارة الى مبالغتهم فى الاستهزاء مع شدة بعده صلى الله عليه وسلم عن ذلك يقولون (أهذا الذى بعث الله رسولا) أى فى دعواه محتقرين له أن تأتيه الرسالة وقولهم (ان) مخففة من الثقيلة أى انه (كاد ليضلنا) أى يصرفنا (عن آلهتنا) أى عن عبادتها بفرط اجتهاده فى الدعاء الى التوحيد وكثرة مايورد مما سبق الى الذهن انها حجج ومعجزات (لولا أن صبرنا) أى بما لنا من الاجتماع والتعاضد (عليها) أى على التمسك بعبادتها قال الله تعالى (وسوف يعلمون) أى فى حال لا ينفعهم فيه العمل ولا العلم وان طالت مدة الامهال فى التمكين (حين يرون العذاب) عيانا فى الآخرة (من أضل سبيلا) أى أخطأ طريقا أهم أم المؤمنون * ولما كان صلى الله عليه وسلم حريصا على رجوعهم ولزوم ما ينفعهم واجتناب مايضرهم سلاه تعالى بقوله تعالى متعجبا من حالهم (أرأيت) أى أخبرنى (من اتخذ الهه هواه) أى أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا نظر دليلا (فان قيل) لم أخر هواه والاصل قولك اتخذ الهوى الها (أجيب) بأنه ماهو الا تقديم المفعول الثانى على الاول للعناية كما تقول علمت منطلقا زايدا الفضل عنايتك بالمنطلق ولما كان لا يقدر على صرف الهوى الا الله تعالى تسبب عن شدة حرصه على هداهم قوله تعالى (أفأنت تكون عليه وكيلا) أى حافظا تحفظه من اتباع هواه لا قدرة لك على ذلك (أم تحسب أن أكثرهم) أى هؤلاء المدعوين (يسمعون) أى سماع من ينزجر ولو كان غير عاقل كالبهائم (أو يعقلون) أى كالبهائم مايرون وان لم يكن لهم سمع حتى تطمع فى رجوعهم باختيارهم من غير قسر (فان قيل) انه تعالى لما نفى عنهم السمع والعقل فكيف ذمهم على الاعراض عن الدين وكيف بعث اليهم الرسول فان من شرط التكليف العقل (أجيب) بأنه ليس المراد أنهم لا يعقلون شيأ بل المراد أنهم لم ينتفعوا بذلك العقل فهو كقول الرجل لغيره اذا لم يفهم انما أنت أعمى وأصم (فان قيل) لم خص الاكثر بذلك دون الكل (أجيب) بأنه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحق فكابر استكبارا وخوفا على الرياسة ولما كان هذا الاستفهام مفيدا للنفى استأنف ما أفهمه بقوله تعالى (ان) أى ما (هم الا كالانعام) أى فى عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات (بل هم أضل) أى منها (سبيلا) لانها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن اليها ممن يسىء اليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب مايضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذى هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والعذب الروى

* ولما بين تعالى جهل المعرضين عن دلائل التوحيد وبين فساد طريقهم ذكر أنواعا من الدلائل على وجود الصانع أولها الاستدلال بالنظر الى حال الظل مخاطبا رأس المخلصين الناظرين هذا النظر حثا لاهل ودّه على مثل ذلك بقوله تعالى (ألم تر) أى تنظر (الى ربك) أى الى صنعه وقدرته (كيف مدّ الظل) وهو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس بجعله ممدودا لانه ظل لا شمس معه كما قال تعالى فى ظل الجنة وظل ممدود اذ لم يكن معه شمس وان كان بينهما فرق وهو الليل لان ظل الارض الممدود على قريب من نصف وجهها مدة تحجب نور الشمس عما قابل قرصها من الارض حتى امتد بساطه وضرب فسطاطه كما تحجب ظلل ضلالهم أنوار عقولهم وغفلة طباعهم نفوذ اسماعهم (ولو شاء لجعله) أى الظل (ساكنا) أى دائما ثابتا لا يزول ولا تذهبه الشمس لاصقا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجر غير منبسط فلم ينتفع به أحد سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم ذلك سكونا لكنه تعالى لم يشا بل جعله متحركا كما يسوق الشمس له وقال أبو عبيدة الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة والفيء ما نسخ الشمس وهو بعد الزوال سمى فيأ لانه فاء من جانب المشرق الى جانب المغرب (ثم جعلنا الشمس عليه) أى الظل (دليلا) أى ان الناس يستدلون بالشمس وأحوالها فى مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتا فى مكان أوزائلا ومتسعا أو متقلصا فلولم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة والاشياء تعرف باضدادها (ثم قبضناه) أى الظل (الينا) أى الى الجهة التى أردنا لا يقدر أحد غيرنا أن يحوّله الى جهة غيرها والقبض جمع المنبسط من الشئ ومعناه ان الظل يعم جميع الارض قبل طلوع الشمس فاذا طلعت قبض الله الظل (قبضا يسيرا) أى على مهل وفى هذا القبض اليسير شيأ بعد شئ من المنافع ما لا يعد ولا يحصى ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا وقيل المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهى الاجرام التى تلقى الظلال وقوله تعالى يسيرا كقوله تعالى حشر علينا يسير (فان قيل) ثم فى هذين الموضعين كيف موقعها (أجيب) بأن موقعها بيان تفاضل الامور الثلاثة كان الثانى أعظم من الاول والثالث أعظم منهما تشبيها التباعد ما بينهما فى الفضل بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت * ولما تضمنت هذه الآية الليل والنهار وهو النوع الثانى قال تعالى مصرحا بهما (وهو) أى ربك المحسن اليك وحده (الذى جعل) دليلا على الحق واظهارا للنعمة على الخلق (لكم الليل) أى الذى تكامل به مد الظل (لباسا) أى ساترا للاشياء شبه ظلامه باللباس فى ستره (والنوم سباتا) أى راحة للابدان بقطع المشاغل وهو عبارة عن كونه موتا أصغر طاويا لما كان من الاحساس قاطعا لما كان من الشعور والتقلب فيه دلائل لاهل البصائر قال البغوى وغيره وأصل السبت القطع وفى جعله تعالى لذلك من الفوائد الدينية والدنيوية ما لا يعد ولا يحصى وكذا فى قوله تعالى (وجعل) أى وحده (النهار نشورا) أى منشورا فيه لابتغاء الرزق وغيره وفى ذلك اشارة الى أن النوم واليقظة أنموذجان للموت والنشور يحكى

ان

ان لقمان قال لابنه يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر * ثم ذكر النوع الثالث بقوله تعالى (وهو) أي وحده (الذي أرسل الرياح) وقرأه ابن كثير بالافراد لارادة الجنس وقرأه الباقون بالجمع لكونها تارة صبا وتارة دبورا وتارة شمالا وتارة جنوبا وغير ذلك ويسن الدعاء عند هبوب الريح ويكره سبها لخبر الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فاذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها رواه أبو داود وغيره باسناد حسن وقوله تعالى (نشرا) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم النون والشين أي ناشرات للسحاب وقرأه ابن عامر بضم النون وسكون الشين على التخفيف وقرأه عاصم بالباء الموحدة مضمومة وسكون الشين جمع بشور بمعنى مبشر وقرأه حمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر وصف به (بين يدي رحمته) أي قدام المطر * ولما كان الماء مسببا عما تحمله الريح من السحاب أتبعه به بقوله تعالى (وأنزلنا) أي بما لنا من العظمة (من السماء) أي من السحاب أو الجرم المعهود (ماء) ثم أبدل منه بيانا للنعمة به فقال تعالى (طهورا) أي طاهرا في نفسه مطهرا لغيره كما قال تعالى في آية أخرى ليطهركم به فهو اسم لما يتطهر به كالوضوء لما يتوضأ به وكالسحور اسم لما يتسحر به والفطور اسم لما يفطر به قال صلى الله عليه وسلم في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته أراد به المطهر فالماء المطهر لانه يطهر الانسان من الحدث والخبث وذهب بعض الائمة الى أن الطهور هو الطاهر حتى جوز ازالة النجاسة بالمائعات الطاهرة مثل الخل ورد بأنه لو جاز ازالة النجاسة بها لجاز ازالة الحدث بها وذهب بعض منهم الى أن الطهور ما يتكرر به التطهير كالصبور اسم لمن يتكرر منه الصبر والشكور اسم لمن يتكرر منه الشكر حتى جوز الوضوء بالماء الذي يتوضأ به مرة بعد مرة ورد بأن فعولا يأتي اسما للآلة كسحور لما يتسحر به كما مر فيجوز أن يكون طهور كذلك ولو سلم اقتضاؤه التكرر فالمراد جمعا بين الادلة ثبوت ذلك لجنس الماء أو في المحل الذي كان يمر عليه فانه يطهر كل جزء منه فان الصحابة رضي الله عنهم لم يجمعوا الماء في أسفارهم القليلة الماء بل عدلوا عنه الى التيمم (لنحيي به) أي بالماء (بلدة ميتا) أي بالنبات وذكر ميتا باعتبار المكان (ونسقيه) أي بالماء وهو من أسقاه مزيد سقاه وهما لغتان قال ابن القطاع سقيتك شرابا وأسقيتك والله تعالى أسقى عباده وأرضه (مما خلقنا أنعاما) أي ابلا وبقرا وغنما (وأناسي كثيرا) جمع انسان وأصله أناسين فأبدلت النون ياء وأدغمت فيها الياء أو جمع أنسي وقدم تعالى النبات لان به حياة الانعام والانعام على الانسان لان بها كمال حياته (فان قيل) لم خص الانعام من بين ما خلق من الحيوان (أجيب) بأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الانعام ولانها قنية الاناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقي أنعامهم كالانعام بسقيهم (فان قيل) لما نكر الانعام والاناسي ووصفها بالكثرة (أجيب) بأن جل الناس منيخون بالقرب من الاودية والانهار ومنابع الماء فبهم غنية عن سقي السماء وأعقابهم وهم كثير منهم لا يعيشون الا بما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله تعالى لنحيي به بلدة ميتا يريد به بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان

الماء واختلف فى عود الهاء فى قوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم) على ثلاثة أوجه أولها قال الجهور انها ترجع الى المطر أى صرفنا نزول الماء من وابل وطل وغير ذلك مرة ببلد ومرة ببلدة أخرى قال ابن عباس ما عام بأمطر من عام آخر ولكن الله تعالى يصرفه فى الارض وقرأ هذه الآية وهذا كما روى مرفوعا ما من ساعة من ليل أو نهار الا والسماء تمطر فيها فيصرفه الله تعالى حيث يشاء وروى عن ابن مسعود يرفعه قال ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكن الله تعالى قسم هذه الارزاق فجعلها فى السماء الدنيا فى هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم واذا عمل قوم بالمعاصى حول الله ذلك الى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك الى الفيافى والبحار وروى أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره فى كل عام لانه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد ثانيها قال أبو مسلم الضمير راجع الى المطر والسحاب والاظلال وسائر ماذكره الله من الادلة ثالثها صرفنا هذا القول بين الناس فى القرآن وفى سائر الكتب والصحف التى أنزلت على الرسل عليهم الصلاة والسلام وهو ذكر انشاء السحاب وانزال المطر (ليذكروا) أى ليتفكروا ويعلموا كمال القدرة وحق النعمة ويقوموا بشكره *(تنبيه)* أصل يذكروا يتذكروا أدغمت التاء فى الذال وقرأ حمزة والكسائى بسكون الذال ورفع الكاف مخففة والباقون بفتح الذال والكاف مشددتين (فأبى) أى لم يرد (أكثر الناس) أى بعبادتهم (الا كفورا) أى جحودا للنعمة وقلة الاكتراث بها وكفرانهم هو أنهم اذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا وهو بفتح النون وهمزة آخره وقت النجم الفلانى على عادة العرب فى اضافة المطر الى الانواء فيكره أن يقول ذلك لايهامه ان النوء فاعل المطر حقيقة فان اعتقد أنه الفاعل له حقيقة كفر روى زيد بن خالد الجهنى قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية فى اثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة قالوا الله ورسوله اعلم قال قال أصبح من عبادى من هو مؤمن بى وكافر بى فأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب وأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب وأفاد تعليق الحكم بالباء أنه لو قال مطرنا فى نوء كذا لم يكره ونقل الشافعى عن بعض الصحابة أنه كان يقول عند المطر مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها (ولو شئنا لبعثنا) أى بما لنا من العظمة ونفوذ الكلمة (فى كل قرية نذيرا) أى رسولا ينذرهم من البشر أو الملائكة أو غيرهم كما قسمنا المطر عليها وانما قصرنا الامر عليك وعظمناك به وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل (فلا تطع الكافرين) فيما قصدوا من التنفير عن الدعاء به عما يبدونه من المقترحات أو يظهرون لك من المداهنة أو من القلق من صادع الانذار ويخيلون لك انك لو أقللت منه رجوا أن يوافقوك وقابل ذلك بالتشدد والتصبر (وجاهدهم) أى بالدعاء (به) أى القرآن الذى تقدم التحدث عنه فى قوله تعالى ولقد صرفناه أو بترك طاعتهم المدلول عليه بقوله تعالى فلا تطع أو بالسيف والاقرب الاول لان السورة مكية والامر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان (جهادا كبيرا) أى جامعا لكل المجاهدات الظاهرة والباطنة لان فى ذلك اقبال كثير

من الناس اليك واجتماعهم عليك فيقوى أمرك ويعظم خطبك وتضعف شوكتهم وتنكسر سورتهم فان مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الاعداء بالسيف * ثم ذكر النوع الرابع بقوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين) أى الماءين الواسعين الكبيرين بأن خلاهما متجاورين متلاصقين وهو بقدرته تعالى يفصل بينهما ويمنعهما التمازج (هذا عذب) أى حلو سائغ (فرات) أى شديد العذوبة بالغ الغاية فيها حتى يضرب الى الحلاوة لا فرق بين ما كان منه على وجه الارض وما كان فى بطنها (وهذا ملح) أى شديد الملوحة (أجاج) أى مر محرق بملوحته ومرارته لا يصلح لسقى ولا شرب *(تنبيه)* أشار تعالى بأداة القرب فى الموضعين تنبيها على وجود الوصفين مع شدة المقاربة لا يلتبس أحدهما بالآخر حتى انه اذا حفر على شاطئ البحر الملح بالقرب جدا منه خرج الماء عذبا (وجعل) أى الله تعالى (بينهما برزخا) أى حاجزا من قدرته مانعا من اختلاطهما ثم انه تعالى أتم تقرير النعمة فى منعهما من الاختلاط بالكلمة التى جرت عادتهم بقولها عند التعوذ تشبيها لكل منهما بالمتعوذ بقوله تعالى (وحجرا محجورا) فكان كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له ذلك كما قال تعالى لا يبغيان أى لا يبغى أحدهما على صاحبه بالملوحة أو العذوبة فانتفاء البغى كالتعوذ وههنا جعل كل واحد منهما فى صورة الباغى على صاحبه فهو يتعوذ منه وهو من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة (فان قيل) لا وجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى هنا (أجيب) بأن المراد منه الاودية العظام كالنيل وجيحون ومن البحر الاجاج البحار الكبار * ثم ذكر النوع الخامس بقوله تعالى (وهو) أى وحده (الذى خلق من الماء) أى المنى من الرجل والمرأة (بشرا) أى انسانا (فجعله) أى بعد ذلك بالتطوير فى أطوار الخلقة والتدوير فى أدوار التربية (نسبا) أى ذكرا ينسب اليه (وصهرا) أى أنثى يصاهر بها فيقسم هذا الماء بعد التطوير الى ذكر وأنثى كما جعل ذلك الماء قسمين عذبا وملحا ونحو هذا قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وقيل النسب ما لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه فالنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها قال البغوى وقيل وهو الصحيح النسب من القرابة والصهر الخلطة التى تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح وقد ذكر الله تعالى أنه حرم بالنسب سبعا فى قوله تعالى فى النساء حرمت عليكم أمهاتكم (وكان ربك) أى المحسن اليك بارسالك وانزال هذا الذكر اليك (قديرا) حيث خلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطبائع متباعدة وجعله قسمين ذكرا وأنثى وربما يخلق من نطفة واحدة نوعين ذكرا وأنثى فهو يوفق من يشاء فيجعله عذب المذاق سهل الاخلاق ويخذل من يشاء فيجعله مر الاخلاق كثير الشقاق غريقا فى النفاق * ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد عاد الى تهجين سيرتهم فقال تعالى (ويعبدون) أى هؤلاء الكفرة (من دون الله) أى مما يعلمون أنه فى الرتبة دون الله المستجمع لصفات الكمال والعظمة بحيث انه لا ضر ولا نفع الا وهو بيده (ما لا ينفعهم) بوجه من الوجوه ان عبدوه فى ازالة كربة (ولا يضرهم) فى ازالة نعمة من نعم الله تعالى عليهم ان تركوه (وكان الكافر) أى مع علمه بضعفه وعجزه (على ربه) أى المحسن اليه

لاغيره (ظهيرا) أى معينا للشيطان من الانس والجن على أولياء الله تعالى روى أنها نزلت فى أبى
جهل ويجوز أن يراد بالظهير الجماعة كقوله تعالى والملائكة بعد ذلك ظهير كما جاء الصديق
والخليط وعلى هذا يكون المراد بالكافر الجنس فان بعضهم مظاهر لبعض على اطفاء نور دين
الله قال تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى وهذا أولى لان خصوص السبب لا يقدح فى عموم اللفظ
ولانه أوفق لظاهر قوله تعالى ويعبدون من دون الله وقيل معناه وكان الذى يفعل هذا الفعل
وهو عبادة مالا ينفع ولا يضر على ربه هينا مهينا من قولهم ظهرت به اذا خلفته خلف ظهرك
لا تلتفت اليه وهو نحو قوله تعالى أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم
* ولما كان التقدير تسلية له صلى الله عليه وسلم فالزم ما أمرتك به ولا يرد همك بردهم عما هم
فيه فانا ما أرسلناك عليهم وكيلا عطف عليه قوله تعالى (وما أرسلناك) بأشرف الخلق بما لنا
من العظمة (الا مبشرا) بالثواب على الايمان والطاعة (ونذيرا) أى مخوفا بالعقاب على الكفر
والمعصية * ثم كأنه قيل فماذا أقول لهم اذا طعنوا فى الرسالة فقال تعالى (قل) أى لهم يا أكرم
الخلق حقيقة وأعدلهم طريقة محتجا عليهم بازالة ما يكون موضعا للتهمة (ما أسئلكم عليه)
أى على تبليغ ما أرسلت به (من أجر) فتتهمونى أنى أدعوكم لاجله اذ لا غرض لى الا نفعكم ثم أكد
هذا المعنى بقوله تعالى مستثنيا لان الاستثناء معيار العموم (الا من) أى الا أجر من (شاء أن
يتخذ) أى يكلف نفسه ويخالف هواه ويجعل له (الى ربه سبيلا) فانه اذا اهتدى بهداية ربه كان
لى مثل أجره لا نفع لى من جهتكم الا هذا فان سميتم هذا أجرا فهو مطلوبى ولا مرية فى أنه
لا ينقص أحدا شيأ من دنياه فأفاد فائدتين الاولى أنه لا طمع له أصلا فى شئ ينقصهم والثانية
اظهار الشفقة البالغة حيث لم يقصد بنفعتهم الموصلة لهم الى ربهم ثوابا لنفسه وقيل الاستثناء
منقطع أى لكن من يشاء أن يتخذ الى ربه سبيلا فليفعل وجرى على هذا الجلال المحلى وقال
ابن عادل فى الاول نظر لانه لم يسند السؤال المنفى فى الظاهر الى الله تعالى انما أسنده الى
المخاطبين فكيف يصح هذا التقدير انتهى وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة
الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الثانية ولهما أيضا ابدالها ألفا والباقون بتحقيق
الهمزتين * ولما بين تعالى أن الكفار يتظاهرون على ايذائه وأمره أن لا يطلب منهم أجرا
أمره أن يتوكل عليه فى دفع جميع المضار وجلب جميع المنافع بقوله تعالى (وتوكل) أى أظهر
العجز والضعف واستسلم واعتمد فى أمرك كله ولا سيما فى مواجهتهم بالانذار وفى ردهم من عنادهم
(على الحى الذى لا يموت) فلا ضياع لمن توكل عليه فانه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الاحياء
الذين يموتون فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم وعن بعض السلف انه قرأها فقال لا ينبغى
لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق (وسبح) متلبسا (بحمده) أى نزهه عن كل نقص مثبتا له كل كمال
وقيل صل له شكرا على نعمه وقيل قل سبحان الله والحمد لله وحده وعلى هذا اقتصر الجلال
المحلى (وكفى به بذنوب عباده) أى ما ظهر منها وما بطن وكل ما سواه عبيد (خبيرا) أى عالما مطلقا
فلا يخفى عليه خافية شئ منها وان دق فلا عليك ان آمنوا أو كفروا وهذه الكلمة يراد بها المبالغة

يقال كفى بالعلم كالاوكفى بالادب مالا وهو معنى حسبك أى لا تحتاج معه الى غيره لانه تعالى خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وهذا وعيد شديد * ولما أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه وصف تعالى نفسه بأمور منها أنه حى لا يموت ومنها أنه عالم بجميع المعلومات ومنها أنه قادر على كل الممكنات وهو قوله تعالى (الذى خلق السموات والارض) على عظمهما (وما بينهما) من الفضاء والعناصر والعباد وأعمالهم من الذنوب وغيرها ألا يعلم من خلق وقوله تعالى (فى ستة أيام) أى من أيام الدنيا تعجيب للغبى الجاهل وتدريب للفطن العالم فى الحلم والاناة والصبر على عباد الله تعالى فى دعوتهم (فان قيل) الايام عبارة عن حركة الشمس فى السموات فقبل السموات لا أيام فكيف قال تعالى فى ستة أيام (أجيب) بأنه تعالى خلقها فى مدة مقدارها هذه الايام (فان قيل) يلزم على هذا قدم الزمان وهو ممنوع (أجيب) بأن الله تعالى خلق هذه المدة أولا ثم خلق السموات والارض فيها بمقدار ستة أيام فلا يلزم من ذلك قدم الزمان وقيل فى ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم مقداره ألف سنة وهو بعيد لان التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول (فان قيل) لم قدر الخلق والايجاد بهذا المقدار (أجيب) بأنه يجب على المكلف أن يقطع الطمع عن مثل هذا فانه بحر لا ساحل له من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بثمانية والشهور باثنى عشر والسموات بالسبع وعدد الصلوات ومقادير النصب فى الزكوات والحدود والكفارات فالاقرار بأن كل ما قاله الله حق هو الدين والواجب ترك البحث عن هذه الاشياء وقد نص الله تعالى على ذلك فى قوله عز وجل وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ثم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وهذا جواب أيضا عن أنه لم يخلقها فى لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير انما خلقها فى ستة أيام وهو قادر أن يخلقها فى لحظة واحدة تعليما لخلقه الرفق والتثبت وقيل اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيدا للمسلمين وعن مجاهد أول الايام يوم الاحد وآخرها يوم الجمعة * ولما كان تدبير هذا الملك أمرا باهرا أشار اليه بأداة التراخى بقوله تعالى (ثم استوى على العرش) أى شرع فى التدبير لهذا الملك الذى اخترعه وأوجده ولا يجوز أن يفسر بالاستقرار لانه يقتضى التغير الذى هو دليل الحدوث ويقتضى التركيب وكل ذلك على الله محال (فان قيل) يلزم من ذلك أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وقد قال تعالى وكان عرشه على الماء (أجيب) بأن كلمة ثم ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات وهو فى اللغة سرير الملك وفى رفع قوله تعالى (الرحمن) أوجه أحدها أنه خبر الذى خلق أو خبر مبتدا مضمر أى هو الرحمن ولهذا أجاز الزجاج وغيره الوقف على العرش ثم يبتدئ الرحمن أى هو الرحمن الذى لا ينبغى السجود والتعظيم الا له أو يكون بدلا من الضمير فى استوى وعلى هذا اقتصر الجلال المحلى واختلف فى معنى الفاء فى قوله تعالى (فاسئل به) على

قولين أحدهما أنها على بابها وهي متعلقة بالسؤال والمراد بقوله (خبيرا) أي عالما يخبرك بحقيقته هو الله تعالى ويكون من التجريد كقوله رأيت به أسدا والمعنى فاسأل الله الخبير بالاشياء قال الزمخشري أو فاسأل بسؤاله خبيرا كقولك رأيت به أسدا أي برؤيته انتهى قال الكلبي فقوله به يعود الى ماذكر من خلق السموات والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله تعالى لانه لادليل في العقل على كيفية خلق السموات والارض والاستواء على العرش ولا يعلمها أحد الا الله تعالى والثاني أن تكون الباء بمعنى عن اما مطلقا واما مع السؤال خاصة كهذه الآية وكقول علقمة بن عبدة

فان تسألوني بالنساء فانني * خبير بأدواء النساء طبيب

والضمير في به لله وخبيرا من صفات الملك وهو جبريل عليه السلام فعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل وانما قدم لرؤس الآي وحسن النظم وقال ابن جرير الباء في به صلة والمعنى فاسأله خبيرا وخبيرا نصب على الحال وقيل به يجري مجرى القسم كقوله تعالى واتقوا الله الذي تساءلون به وقيل فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى تعرف من ينكره ومن ثم كانوا يقولون ما نعرف الرحمن الا الذي باليمامة يعنون مسيلمة الكذاب وكان يقال له رحمن اليمامة وقيل فاسأل بسبب سؤالك اياه خبيرا عن هذه الامور وكل أمر تريده فيخبرك بحقيقة أمره ابتداء وحالا ومآلا فلا يضيق صدرك بسبب هؤلاء المدعوين فانه ما أرسلك الا وهو عالم بهم فسيعلي كعبك عليهم ويحسن لك العاقبة وقرأ ابن كثير والكسائي بالنقل وكذا يقرأ حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وفتح الهمزة * ولما ذكر تعالى احسانه اليهم وانعامه عليهم ذكر ما أبدوه من كفرهم في موضع شكرهم بقوله (واذا قيل لهم) أي من أي قائل قال لهؤلاء الذين يتقلبون في نعمه (اسجدوا) أي اخضعوا بالصلاة وغيرها (للرحمن) أي الذي لا نعمة لكم الا منه (قالوا وما الرحمن) متجاهلين في معرفته فضلا عن كفر نعمته معبرين بأداة ما لا يعقل وقال ابن عربي انما عبروا بذلك اشارة الى جهلهم بالصفة دون الموصوف ثم عجبوا من أمره بذلك منكرين عليه بقولهم (أنسجد لما تأمرنا) فعبروا عنه بعد التجاهل في أمره والانكار على الداعي اليه أيضا بأداة ما لا يعقل (وزادهم) أي هذا الامر الواضح المقتضي للاقبال والسكون شكر النعمة وطمعا في الزيادة (نفورا) أي عن الايمان والسجود *(تنبيه)* هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة يسن للقارئ والمستمع والسامع أن يسجد عند قراءتها أو سماعها وقرأ واذا قيل لهم هشام والكسائي بالاشمام وضم القاف مع سكون الياء والباقون بكسر القاف وقرأ لما يأمرنا حمزة والكسائي بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية وأبدل ورش والسوسي الهمزة وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصلا * ولما حكى تعالى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود وذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن قال عز من قائل (تبارك) أي ثبت ثباتا لا نظير له (الذي جعل في السماء) التي تقدم أنه اخترعها واختلف في معنى قوله (بروجا) فقال الزجاج ومجاهد وقتادة هي النجوم الكبار سميت بروجا

لظهورها وقال عطية العوفي هي القصور فيها الحرس كما قال تعالى ولو كنتم في بروج مشيدة وقال عطاء عن ابن عباس هي الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت فالحمل والعقرب بيتا المريخ والثور والميزان بيتا الزهرة والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد والسرطان بيت القمر والاسد بيت الشمس والقوس والحوت بيتا المشتري والجدي والدلو بيتا زحل وهذه البروج مقسومة على الطبائع الاربعة فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات فالحمل والاسد والقوس مثلثة نارية والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية (وجعل فيها) أي السماء وقيل البروج (سراجا) أي شمسا وقرأ حمزة والكسائي بضم السين والراء على الجمع للتنبيه على عظمته في ذلك من حيث انه أعظم من ألوف من السرج فهو قائم مقام الوصف كما في الذي بعده كما سيأتي وقيل المراد بالجمع الشمس والكواكب الكبار والباقون بكسر السين وفتح الراء وألف بعدها على التوحيد (وقمرا منيرا) أي مضيأ بالليل * ولما ذكر تعالى هاتين الآيتين ذكر ماهما آيتاه بقوله تعالى (وهو الذي جعل الليل) أي الذي آيته القمر (والنهار) أي الذي آيته الشمس (خلفة) أي ذوي حالة معروفة في الاختلاف فيأتي هذا خلف ذاك بضد ماله من الاوصاف وقال ابن عباس والحسن يعني خلفا وعوضا يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر قال شقيق جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال فاتتني الصلاة الليلة قال أدرك مافاتك من ليلتك في نهارك فان الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفة (لمن أراد أن يذكر) أي يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم أنه لابد له من صانع حكيم واجب الذات رحيم على العباد وقرأ حمزة بسكون الذال وضم الكاف مخففة من ذكر بمعنى تذكر والباقون بفتح الكاف والذال مشددتين (أو أراد شكورا) أي شكر نعمة ربه عليه من الاتيان بكل منهما بعد الآخر لاجتناء ثمراته ولو جعل أحدهما دائما لفاتت مصالح الآخر ولحصلت السآمة والملل منه والتواني في الامور المقدرة بالاوقات وفتر العزم الذي انما يثيره لتدارك دخول وقت آخر وغير ذلك من الامور التي أحكمها العلي الكبير وعن الحسن من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له في الليل مستعتب ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعتب * ولما ذكر الله تعالى عباده الذين خذلهم بتسليط الشيطان عليهم فصاروا حزبا ولم يضفهم الى اسم من أسمائه ابذانا بأنهم لهوانهم عنده أشار الى عباده الذين أخلصهم لنفسه بقوله تعالى (وعباد الرحمن) فأضافهم اليه رفعة لهم وان كان الخلق كلهم عباده وأضافهم الى وصف الرحمة الابلغ الذي أنكره أولئك تبشيرا لهم * ثم وصفهم بضد ما وصف به المتكبرين عن السجود اشارة الى أنهم تخلقوا من هذه الصفة التي أضيفوا اليها بصفات كثيرة الصفة الاولى قوله تعالى (الذين يمشون) وقال تعالى (على الارض) تذكيرا بما يصيرون اليه وحثا على السعي في

معالى الاخلاق (هونا) أى هينين أو مشيا هينا مصدر وصف به مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحبب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هينون والمثل اذا عز أخوك فهن والمعنى اذا عاسر فياسر والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع ووقار لا يضربون لوقارهم بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ولذلك كره بعض العلماء الركوب فى الاسواق لقوله تعالى ويمشون فى الاسواق * (تنبيه) * عباد مرفوع بالابتداء وفى خبره وجهان أحدهما الجملة الاخيرة فى آخر السورة أولئك يجزون وبه بدأ الزمخشرى والذين يمشون وما بعده صفات للمبتدا والثانى أن الخبر الذين يمشون الصفة الثانية (واذا خاطبهم الجاهلون) أى بما يكرهون (قالوا سلاما) أى تسلما منكم لا نجاهلكم ومتاركة لا خير بيننا ولا شر أى فنسلم منكم تسلما فأقيم السلام مقام التسلم وقيل قالوا سدادا من القول أى يسلمون فيه من الاثم والايذاء وليس المراد التحية لان المؤمنين لم يؤمروا بالسلام على المشركين وعن أبى العالية نسختها آية القتال ولا حاجة الى ادعاء النسخ بآية القتال ولا غيرها لان الاغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن فى الادب والمروأة والشريعة أسلم للعرض والورع وأطلق الخطاب اعلاما بأن أكثر خصال الجاهل وهو الذى يخالف العلم والحكمة الجهل وهو السفه وقلة الادب من قوله

الا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

* ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق ذكر ما بينهم وبينه وهى الصفة الثالثة بقوله تعالى (والذين يبيتون) من البيتوتة قال الزجاج كل من أدركه الليل قيل بات وان لم ينم كما يقال بات فلان قلقا والمعنى يبيتون (لربهم) أى المحسن اليهم (سجدا) على وجوههم فى الصلاة وقدمه لانه أنهى الخضوع وأخر عنه قوله تعالى (وقياما) أى على أقدامهم وان كان تطويل القيام أفضل للروى وتخصيص البيتوتة لان العبادة بالليل أشق وأبعد من الرياء قال الزمخشرى والظاهر أنه وصف لهم باحياء الليل أو أكثره وقيل من قرأ شيأ من القرآن فى صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقال ابن عباس من صلى بعد العشاء ركعتين فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى عشاء الآخرة فى جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلى الصبح فى جماعة كان كقيام ليلة * ولما ذكر تعالى تهذيبهم للخلق والخالق وصفهم الله تعالى أنهم مع ذلك خائفون وجلون وهى الصفة الرابعة بقوله تعالى (والذين يقولون ربنا) أى المحسن الينا (اصرف عنا عذاب جهنم) قال ابن عباس يقولون فى سجودهم وقيامهم هذا القول ثم علل سؤالهم بقوله تعالى (ان عذابها كان) أى كونا جبلت عليه (غراما) أى هلاكا وخسرانا ملحا لازما لا ينفك عنه كما قال

ان يعاقب يكن غراما وان يعـ * ـط جزيلا فانه لا يبالى

ومنه الغريم لملازمته والحاحه فهم يبتهلون الى الله تعالى فى صرف العذاب عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقهم على استمرار أحوالهم * ولما ثبت لهم هذا الوصف أنتج قوله تعالى (انها ساءت)

أي تناهت هي في كل ما يحصل منه سوء وهي في معنى بئست في جميع المذام (مستقرا) أي موضع استقرار (ومقاما) أي موضع اقامة * (تنبيه) * ساءت في حكم بئست كما مر ففيها ضمير مبهم يفسره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هي وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها ويجوز أن تكون ساءت بمعنى أحزنت ففيها ضمير اسم ان ومستقرا حال أو تمييز والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين أو مترادفين وأن يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم * ولما ذكر تعالى أفعالهم وأقوالهم اتبع ذلك بذكر انفاقهم وهو الصفة الخامسة بقوله تعالى (والذين اذا أنفقوا) أي للخلق أو الخالق في واجب أو مستحب أو مباح (لم يسرفوا) أي لم يجاوزوا الحد في النفقة بالتبذير فيضيعوا الاموال في غير حقها (ولم يقتروا) أي لم يضيقوا فيضيعوا الحقوق (وكان) أي انفاقهم (بين ذلك) أي الاسراف والاقتار (قواما) أي وسطا * (تنبيه) * اسم كان ضمير يعود على الانفاق المفهوم من قوله تعالى انفقوا وخبرها قواما وبين ذلك معمول له وقيل غير ذلك وذكر المفسرون في الاسراف والتقتير وجوها أحدها قال الرازي وهو الاقوى وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقتير وبمثله أمر صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط اذ يقال ما عال من اقتصد وسأل رجل بعض العلماء ما البناء الذي لا سرف فيه قال ما سترك من الشمس وأكنك من المطر قال فما الطعام الذي لا سرف فيه قال ما سد الجوعة قال فما اللباس الذي لا سرف فيه قال ما ستر عورتك وأدفأك من البرد * ثانيها وهو قول ابن عباس الاسراف النفقة في معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى وقال مجاهد لو أنفق أحد مثل جبل أبي قبيس ذهبا في طاعة الله تعالى لم يكن سرفا ولو أنفق صاعا في معصية الله تعالى كان سرفا وقال الحسن لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عما ينبغي وأنشدوا

ذهاب المال في حمد وخير * ذهاب لا يقال له ذهاب

وسمع رجل رجلا يقول لا خير في الاسراف فقال لا اسراف في الخير وعن عمر بن عبد العزيز انه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه ابنته وأحسن اليه فقال وصلت الرحم وفعلت وصنعت وجاء بكلام كثير حسن فقال ابن لعبد الملك انما هو كلام أعده لهذا المقام فسكت عبد الملك فلما كان بعد أيام دخل عليه والابن حاضر فسأله عن نفقته وأحواله فقال النفقة بين الشيئين فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية فقال لابنه يا بني هذا أيضا مما أعده * وثالثها السرف مجاوزة الحد في التنعم والتوسع في الدنيا وان كان من حلال لانه يؤدي الى الخيلاء وكسر قلوب الفقراء فكانت الصحابة لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويقيهم من الحر والبرد وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كفى سرفا أن لا يشتهي الرجل شيأ الا اشتراه فأكله وقرأ نافع وابن عامر يقتروا بضم التحتية وكسر الفوقية من اقتر وابن كثير وأبو عمرو بفتح التحتية وكسر الفوقية والكوفيون بفتح التحتية وضم الفوقية * ولما

ذكر تعالى ما تحلوا به من أصول الطاعات أتبعه بذكر ما تخلوا عنه من أمهات المعاصي التي هي الفحشاء والمنكر وهو الصفة السادسة بقوله تعالى (والذين لا يدعون) أي رحمة لانفسهم واستعمالا للعدل (مع الله) أي الذي اختص بصفات الكمال (الها آخر) أي دعاء جليا بالعبادة ولا خفيا بالرياء ولما نفى عنهم ما يوجب قتل أنفسهم بخسارتهم اياها أتبعه نفي قتل غيرهم بقوله سبحانه (ولا يقتلون النفس) رحمة للخلق وطاعة للخالق ولما كان من الانفس ما لا حرمة له بين المراد بقوله تعالى (التي حرم الله) أي منع من قتلها (الا بالحق) أي بأن تعمل ما يبيح قتلها ولما ذكر القتل الجلي أتبعه الخفي بتضييع نسب الولد بقوله تعالى (ولا يزنون) أي رحمة للمزني بها ولأقاربها ان تنهتك حرماتهم مع رحمته لنفسه على أن الزنا أيضا جار الى القتل والفتن وفيه التسبب الى ايجاد نفس بالباطل كما أن القتل سبب الى اعدامها بذلك وقد روى في الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم وفي رواية أكبر عند الله قال أن تدعو لله ندا وهو خلقك قال ثم أي قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قال ثم أي قال أن تزاني حليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر الآية (وقد استشكل) تصديق هذه الآية للخبر من حيث ان الذي فيه قتل خاص وزنا خاص والتقييد بكونه أكبر والذي فيها مطلق القتل والزنا من غير تعرض لعظم (وأجيب) بدفع الاشكال بأنها نطقت بتعظيم ذلك من سبعة أوجه الاول الاعتراض بين المبتدا الذي هو وعباد الرحمن وما عطف عليه والخبر الذي هو أولئك يجزون الغرفة على احدى الروايتين بذكر هذه الثلاثة خاصة وذلك دال على مزيد الاهتمام الدال على الاعظام الثاني الاشارة بأداة البعد في قوله تعالى (ومن يفعل ذلك) أي هذا الفعل العظيم القبيح مع قرب المذكورات فدل على أن البعد من رتبتها فهو اشارة الى جميع ما تقدم لانه بمعنى ما ذكر فلذلك وحده وأدغم لام يفعل في الذال أبو الحرث والباقون بالاظهار الثالث التعبير باللقي مع المصدر المزيد الدال على زيادة المعنى في قوله (يلق أثاما) دون يأثم ويلق اثما أي جزاء اثمه الرابع التقييد بالمضاعفة في قوله تعالى مستأنفا (يضاعف) بأسهل أمر (له العذاب) جزاء ما تبع نفسه هواها الخامس التهويل بقوله تعالى (يوم القيامة) الذي هو أهول من غيره بما لا يقاس السادس الاخبار بالخلود الذي أقل درجاته أن يكون مكثا طويلا بقوله تعالى (ويخلد فيه) وقرأ يضاعف ويخلد ابن عامر وشعبة برفع الفاء والدال والباقون بجزمهما وأسقط الالف من يضاعف مع تشديد العين ابن كثير وابن عامر فالجزم على أنهما بدلان من يلق بدل اشتمال والرفع على الاستئناف السابع التصريح بقوله تعالى (مهانا) فلما أعظم الامر من هذه الاوجه علم أن كلا من هذه الذنوب كبير واذا كان الاعم كبيرا كان الاخص المذكور أعظم من مطلق الاعم لانه زاد عليه بما صار به خاصا فثبت بهذا أنها كما روان قتل الولد والزنا بحليلة الجار أكبر ما ذكر فوجد تصديق الآية للخبر وقرأ حفص مع ابن كثير بصلة الهاء بالياء من فيه قبل مهانا (فان قيل) ذكر أن من صفات عباد الرحمن صفات حسنة فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الامور العظيمة مثل الشرك والقتل

والزنا

والزنا فلو كان الترتيب بالعكس كان أولى (أجيب) بأن الموصوف بتلك الصفات السابقة قد يكون متمسكا بالشرك تدينا وبقتل الموؤدة تدينا وبالزنا تدينا فبين تعالى أن المراد لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يجتنب تلك الكبائر وأجاب الحسن بأن المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كأنه قال تعالى وعباد الرحمن الذين لا يدعون مع الله الها آخر وأنتم تدعون ولا يقتلون وأنتم تقتلون الموؤدة ولا يزنون وأنتم تزنون * ولما أتم تعالى تهديد الفجار على هذه الاوزار اتبعه ترغيب الابرار الى العزيز الغفار بقوله تعالى (الا من تاب) أى رجع عن كل شئ كان فيه من هذه النقائص (وآمن) أى أوجد الاساس الذى لا يثبت عمل بدونه وهو الايمان وأكد رجوعه بقوله تعالى (وعمل عملا صالحا) أى مؤسسا على أساس الايمان (فان قيل) العمل الصالح يدخل فيه التوبة والايمان فذكرهما قبل العمل الصالح يستغنى عنه (أجيب) بأنهما أفردا بالذكر لعلو شأنهما * (تنبيه) * اختلف فى هذا الاستثناء على وجهين أحدهما أنه استثناء متصل وهو ما دل عليه كلام الجمهور لانه من الجنس والثانى أنه منقطع ورجحه أبو حيان معللا بأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب فيصير التقدير الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فلا يضاعف له العذاب ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف بخلافه فى المنقطع فان التقدير لكن من تاب الى آخره فلا يلقى عذابا البتة ووجه كلام الجمهور بأن ما ذكر ليس بلازم اذ المقصود الاخبار بان من فعل كذا فانه يحل به ما ذكر الا أن يتوب وأما اصابة أصل العذاب وعدمه فلا تعرض فى الآية له ثم زاد تعالى فى الترغيب بالاتيان بالفاء ربطا للجزاء بالشرط دليلا على أنه سببه فقال تعالى (فأولئك) أى العالو المنزلة (يبدل الله) أى الذى له العظمة والكبرياء (سيآتهم حسنات) قال ابن عباس ومجاهد هذا التبديل فى الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم فى الشرك بمحاسن الاعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا احصانا وعفة فكأنه تعالى يبشرهم بتوفيقهم لهذه الاعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب وقال الزجاج ان السيئة بعينها لا تصير حسنة فالتأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب مع التوبة حسنة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيآت وقال سعيد بن المسيب ومكحول ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية وهذا هو ظاهر الآية ويدل له ما روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لأعلم آخر رجل يخرج من النار رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال له اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فيعرض عليه صغارها فيقال له عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم فلا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له ان لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يارب قد عملت أشياء لا أراها ههنا قال أبو هريرة فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه (وكان الله) أى الذى له الجلال والاكرام على الاطلاق أزلا وأبدا (غفورا) أى ستورا للذنوب لكل من تاب بهذا الشرط (رحيما) به بأن يعامله بالاكرام كما

يعامل المرحوم فيعطيه مكان كل سيئة حسنة روى البخارى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى أهل الشرك ولما نزل صدرها قال أهل مكة قد عدلنا بالله وقتلنا النفس التى حرم الله وأتينا الفواحش فأنزل الله الامن تاب الى رحيما روى البخارى فى التفسير ان ناسا من أهل الشرك كانوا قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ان الذى تقول وتدعو اليه لحسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزلت هذه الآية ونزل قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله (ومن تاب) أى عن ذنوبه غير ما ذكر (وعمل) تصديقا لادعائه التوبة (صالحا) ولو كان كل من نيته وعمله ضعيفا ورغب سبحانه فى ذلك بقوله تعالى معلما أنه يصل الى الله (فانه يتوب) أى يرجع واصلا (الى الله) أى الذى له صفات الكمال فهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت (متابا) أى رجوعا مرضيا عند الله بأن يرغبه تعالى فى الاعمال الصالحة فلا يزال كل يوم فى زيادة بنيته وعمله فيخف عليه ما كان ثقيلا ويتيسر عليه ما كان عسيرا ويسهل عليه ما كان صعبا كما مر فى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ولا يزال كذلك حتى يحبه فيكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها بأن يوفقه للخير فلا يسمع الا ما يرضيه وهكذا * ولما وصف سبحانه وتعالى عباده بأنهم تحلوا بأصول الفضائل وتخلوا عن أمهات الرذائل ورغب فى التوبة لان الانسان لعجزه لا ينفك عن النقص مدحهم بصفة أخرى وهى الصفة المذكورة فى قوله تعالى (والذين لا يشهدون) أى لا يحضرون (الزور) أى القول المنحرف عن الصدق كذبا كان أو مقاربا له فضلا عن أن يتفوهوا به للخير فلا يسمعوا أو يقروا عليه فى مواعظ عيسى بن مريم عليه السلام اياكم ومجالسة الخاطئين ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وعن قتادة مجالس الباطل وعن ابن الحنفية اللهو والغناء وعن مجاهد أعياد المشركين ثم عطف عليه بما هو أعم منه بقوله تعالى (واذا مروا باللغو) أى الذى ينبغى أن يطرح من الكلام القبيح وغيره (مروا كراما) أى آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ان تعلق بهم أمر أو نهى اشارة أو عبارة على حسب ما يرون نافعا فان لم يتعلق بهم ذلك كانوا معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه لقوله تعالى واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به وعن الحسن لم تسفههم المعاصى وقيل اذا سمعوا من الكفار الاذى أعرضوا عنه * ثم ذكر الصفة الثامنة بقوله تعالى (والذين اذا ذكروا) أى ذكرهم غيرهم كائنا من كان لانهم يعرفون الحق بنفسه لا بقائله (بآيات ربهم) أى الذى وفقهم لذكرا حسانه اليهم فى حسن تربيته لهم بالاعتبار بالآيات المرئية والمسموعة (لم يخروا) أى لم يسقطوا (عليها صما) أى غير واعين لها (وعميانا) أى غير متبصرين بما فيها لكن لا يسمع ولا يبصر كابى جهل والاخنس بن شريق بل خروا سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية فالمراد من النفى نفى الحال وهى صما وعميانا دون

الفعل

الفعل وهو الحزور فالمراد نفي القصد دون المقصد كما تقول لا يلقاني زيد مسلما هو نفي للسلام لا للقاء * الصفة التاسعة المذكورة في قوله تعالى (والذين يقولون) أي علما منهم بعد اتصافهم بجميع ما مضى أنهم أهل للامامة (ربنا هب لنا من أزواجنا) اللاتي قرنتهن بنا كما فعلت بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم فدحت أزواجه في كلامك القديم وجعلت مدحهن يتلى على تعاقب الازمان والسنين (وذرياتنا قرة أعين) لنا بأن نراهم مطيعين لك ولا شئ أسر للمؤمن من أن يرى حبيبه يطيع الله تعالى وعن محمد بن كعب ليس شئ أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده يطيعون الله وعن ابن عباس هو الولد اذا رآه يكتب الفقه وخصوا الازواج والذرية بذلك لان الاقربين أولى بالمعروف *(تنبيه)* من في قوله تعالى من أزواجنا يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا وذرياتنا ومعناه ان اجعلهم لهم قرة أعين وهو من قولهم رأيت منك أسدا أي أنت أسد وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة واصلاح وأتوا بجمع القلة في أعين لان المتقين الذين يفعلون الطاعة ويسرون بها قليلون في جنب العاصين وقيل سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذريتهم في الجنة ليتم لهم سرورهم ووحد القرة لانها مصدر وأصلها من البرد لان العرب تتأذى من الحر وتتروح الى البرد وتذكر قرة العين عند السرور وسخنة العين عند الحزن ويقال دمع العين عند السرور بارد وعند الحزن حار وقال الازهري معنى قرة العين أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه عن النظر الى غيره وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بألف بعد الياء على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد (واجعلنا للمتقين اماما) أي أئمة يقتدون بنا في أمر الدين باضافة العلم والتوفيق للعمل فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا أو أرادوا واجعل كل واحد منا أو أرادوا جمع آم كصائم وصيام أو أرادوا اجعلنا اماما واحدا لاتحادنا واتفاق كلمتنا وعن بعضهم في الآية ما يدل على ان الرياسة في الدين يحسن أن تطلب ويرغب فيها وقال الحسن نقتدي بالمتقين ويقتدي المتقون بنا وقيل هذا من المقلوب أي واجعل المتقين لنا اماما واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم وهو قول مجاهد وقيل نزلت هذه الآية في العشرة المبشرين بالجنة * ولما بين تعالى صفات المتقين المخلصين بين بعد ما احسانه اليهم بقوله تعالى (أولئك) أي العالو الرتبة العظيمة العظيمو المنزلة (يجزون) أي فضلا من الله تعالى على ما وفقهم له من هذه الاعمال الزاكية والاحوال الصافية (الغرفة) أي الغرفات وهي العلالي في الجنة فوحدا اقتصارا على الواحد الدال على الجنس والدليل على ذلك قوله تعالى وهم في الغرفات آمنون وقيل هي من أسماء الجنة * ولما كانت القرب في غاية التعب لمنافاتها لشهوات النفس وهواها وطبع البدن رغب فيها بأن جعلها سببا لهذا الجزاء بقوله تعالى (بما صبروا) أي أوقعوا الصبر على أمر ربهم ومرارة غربتهم بين الجاهلين في أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم وغير ذلك من معالي خلالهم * ولما كان المنزل لا يطيب الا بالكرامة والسلامة قال تعالى (ويلقون فيها) أي الغرفة (تحية) أي دعاء

الحياة من بعضهم لبعض ومن الملائكة الذين لا يرد دعاؤهم ولا يمترى فى اخبارهم لانهم عن الله تعالى ينطقون وذلك على وجه الاعظام والاكرام مكان ما أهانهم عباد الشيطان وقيل ملكا وقيل بقاء دائما (وسلاما) أى من الله والملائكة وغيرهم وسلامة من كل آفة مكان ما أصابوهم بالمصائب اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا من أهل رحمتك وارزقنا مما رزقتهم فى دار رضوانك يا أرحم الراحمين وقرأ حمزة والكسائى وشعبة بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف من لقى كما قال تعالى فسوف يلقون غيا والباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف أى يجعلهم الله تعالى لاقين بأيسر أمر كما قال تعالى ولقاهم نضرة وسرورا (خالدين فيها) أى الغرفة لا يموتون ولا يخرجون مكان ما أزعجوهم من ديارهم حتى هاجروا ودل على علو أمرها وعظيم قدرها بابراز مدحها فى مظهر التعجب بقوله تعالى (حسنت) أى ما أحسنها (مستقرا) أى موضع استقرار (ومقاما) أى موضع اقامة وهذا مقابل ساءت ومثله فى الاعراب * ولما شرح سبحانه وتعالى صفات المتقين وأثنى عليهم من أجلها وشرح ثوابهم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) أى لكفار مكة (ما يعبأ) أى ما يصنع (بكم) أيها الكافرون من عبأت الجيش أو لا يعتد بكم (ربى) أى المحسن الى والمكرم برحمانيته المخصص لى بالاحسان برحيميته وانما خص بالاضافة لاعترافه دونهم (لولا دعاؤكم) أى عبادتكم وما متضمنة لمعنى الاستفهام وهى فى محل النصب وهى عبارة عن المصدر كانه قيل وأى عبء يعبأ بكم لولا عبادتكم وطاعتكم اياه كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (فقد كذبتم) بما أخبرتكم به حيث خالفتموه وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وقال قوم ما يعبأ ما يبالى بمغفرتكم ربى لولا دعاؤكم معه آلهة وما يفعل بعذابكم لولا شرككم كما قال تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم لولا دعاؤكم أى نداؤكم فى الشدائد كما قال تعالى فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين وقوله تعالى فاخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ويجوز أن تكون ما نافية وجرى على ذلك الجلال المحلى (فسوف) أى فتسبب عن تكذيبكم أن يجازيكم على ذلك ولكنه مع قدرته واختياره وقوته لا يعاجلكم بل (يكون) جزاء هذا التكذيب عند انقضاء ما ضرب لكم من الآجال (لزاما) أى لازما يحيق بكم لا محالة فاعتدوا وتهيؤا لذلك اليوم فكل آت قريب وكل بعيد عند كم قريب عنده وعن مجاهد هو القتل يوم بدر وانه لوزم بين القتلى لزاما قتل منهم تسعون وأسر منهم سبعون وعن ابن مسعود خمس قد مضين الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن من قرأ سورة الفرقان لقى الله وهو مؤمن بأن الساعة آتية

لا ريب فيها وادخل الجنة بغير حساب

حديث موضوع

والله أعلم

(تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث أوله سورة الشعراء)